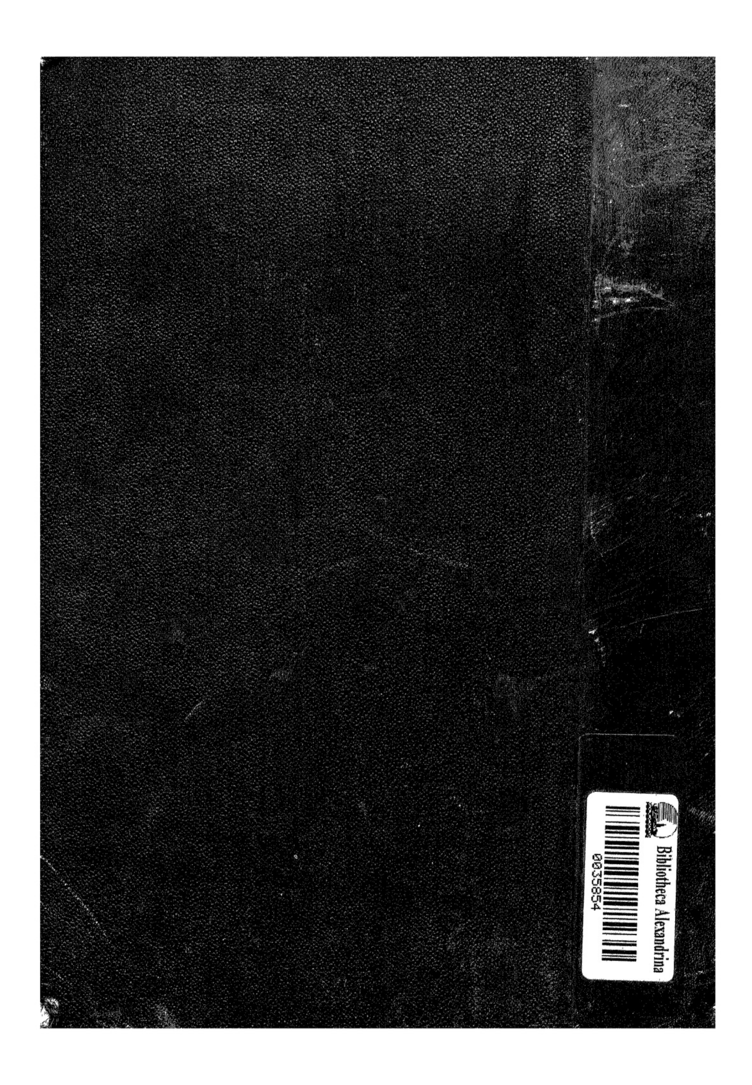
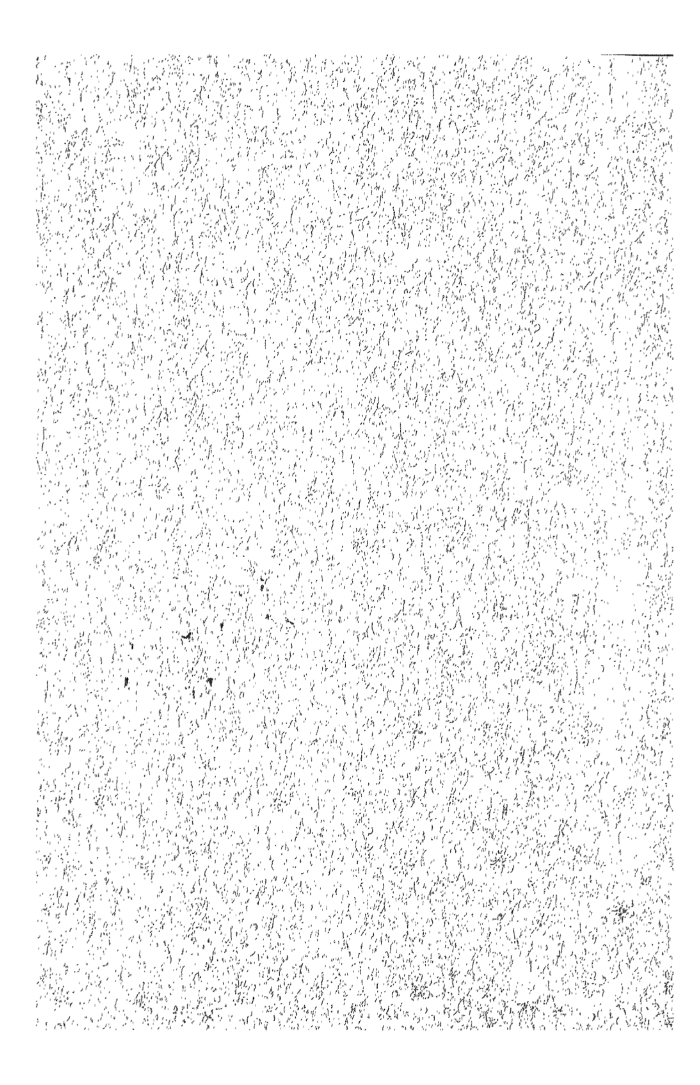
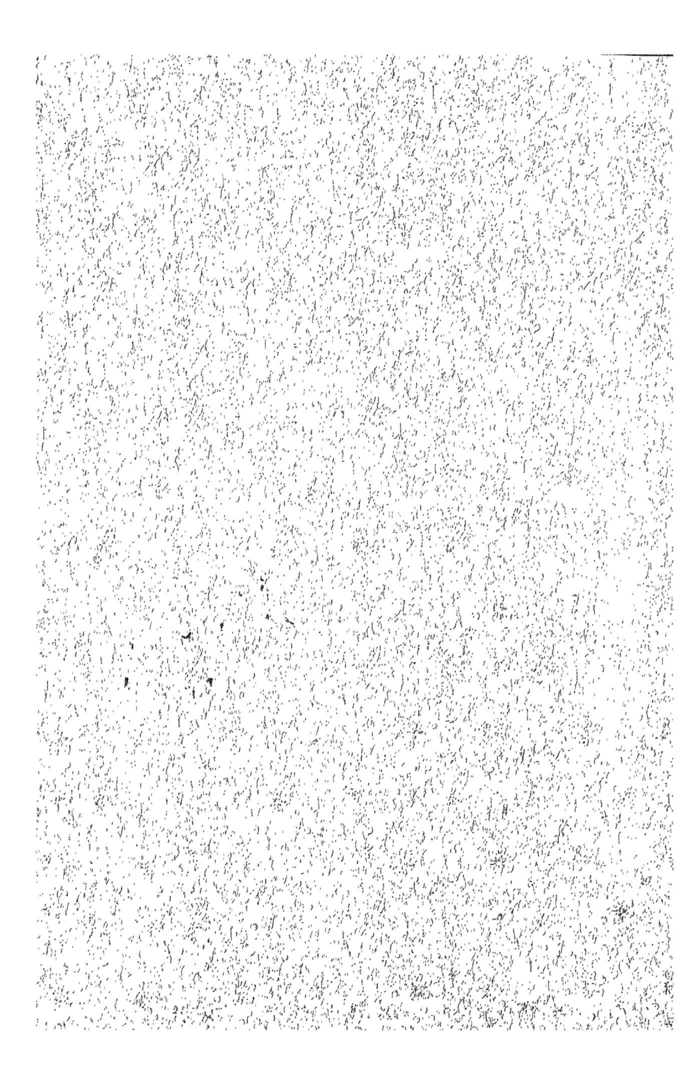

Bibliotheca Alexandrina
0035854





عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الأول

[الطبعة الثالثة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م

فهرس

المجلد الأوّل من عصر المأمون

صفحة

الكتاب الأوّل — عصر بنى أمية

صفحة

الفصل الرابع — ولاية العهد :

الفصل الخامس — الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموى :

الكتاب الثانى — عصر بنى العباس

الفصل الأول — الوجهة السياسية :

الفصل الثانى — العصبية والموالى فى الدولة العباسية :

الفصل الثالث — الدولة العباسية :

صفحة

الفصل الثالث — النزاع بين الامين والمأمون :

الفصل الرابع — الخليفة المأمون :

الفصل الخامس — الوزارة والأعمال الحكومية فى عصر المأمون ، تاريخ الوزارات المأمونية :

صفحة

الفصل الثامن — الحياة العلمية فى عصر المأمون :

الفصل التاسع — الحياة الأدبية فى عصر المأمون :

الفصل العاشر — نماذج لبعض الشخصيات البارزة فى العصر المأمونى :



« إنّي رايتُ أنه لا يكتب إنسان كتابا فى يومه إلّا قال »
« فى غَدِه : لو غُيِّر هــذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان »
« يُسْتحسن ، ولو قُدِّم هـذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان »
« أجْمـل . وهـذا من أعظم العِبَر ، وهو دليـل على اسـتيلاء »
« النقص على جملة البشر » .

العمَاد الاصفهانى

الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا

مـــولاى

لله على نعمةُ التوفيق الى الاتصال بك، والانقطاع لخدمتك، والاستظلال بظلّك، فأنا أحد هؤلاء الكثيرين الذين تعهّدهم فضلُك، وثقّفهم نصحُك، وهذّبهم أدبُك . أولئك الذين أنت لهم أبٌ برٌّ، ومثقِف حكيم، وأستاذ رشيد .

وكنتُ قد أخذتُ نفسى بأن أَقِفَ على خدمتك ما أملك من وقتٍ وجَهْد، ولكن الإنسان طُلَعَةٌ بطَبْعه، فاذا اتصل بك فلا حدّ لرغبته فى البحث، وحرصه على الجدّ، وطُمُوحه الى الكمال . وكذلك أراد اللهُ أن أقتطعَ من هذا الوقت الذى وهبتُه لك خالصًا ما امكنَنِي من وَضْعِ هذا الكتاب .

فهل تأذن لى يا مولاى أن أرفع اليك "عصر المأمون" على أنه أثر يُهْدَى الى مُنْشئه، وحقٌّ يُرَدُّ الى أهله، واعترافٌ بالجميل من رجلٍ مَهْمَا يَفْعلْ ومهما يَقُلْ فلن يوفِّيَكَ بعضَ ما يَدِينُ به ضميرُه لك من حبٍّ وإجلال .

مدّ اللهُ فى حياة مولاى، وجعل مستقبلَها كماضيها حافلًا بالجدّ والتوفيق فى خدمة أمته وعصره ومليكه .

أحمد فريد رفاعي

أوّل يونيه سنة ١٩٢٧

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — الحمد لله، والصلاة والسلام على رسل الله . وبعد فإنّى أتقدم بهذا الأثر الضئيل من "عصر المأمون" الى أمتى، والى الناطقين بالضاد من أبناء لغتى . وآمُلُ بفضل إرشاد العلماء والنقّاد أن يوفّقنى الله الى إكمال النقص، وإصلاح الخطأ، وتلافِى التقصير فى الطّبَعات القادمة . معترفًا، فى صدق وإخلاص، بأن طَبْعتى هذه لا تَعْدو أن تكون "مُحَاولةً" لكتابة التاريخ العربى على النُّظُم العلمية الحديثة . وأنت تعلم أن تاريخنا العربى لا يزال، بلا مبالغة ولا إغراق، تُعْوِزُه شتّى المصادر كما يُعْوِزُه التنظيمُ والترتيب والتحقيق والاستقراء . وإنى أسأله تعالى أن يجعلنى ممّن يُذْعِنُ لكلمة الحق . فيَرْعَى حُرْمتها، ويهتدى بهَدْيها، غيرَ مفتونٍ بمدح المادح، ولا مُبْتئِس بقدح القادح . كما أسأله أن يُرْشِدَنى الى المُضِىّ موفّقًا مسدَّدا فيما أخذتُ به نفسى من البحث عن عصور "معاوية" و"المنصور" و"الرشيد" و"عبد الرحمن الأندلسى" . وآمُلُ بمَعُونته تعالى، وبإرشاد العلماء والأدباء، ومَعُونة المستشرقين والباحثين، وبما يَهَبُ لى الله من صبر وجلد، ومُوَاظبةٍ ومُثَابرة، ومُتَابعةٍ للدرس والاستقراء، وبما أوفَّق اليه من مصادر ونصوص، ومراجعَ ومظانَّ، أن أكون — عند الانتهاء من كتابة ما ارتهنتُ به، لو كان فى العمر بقية — قد وُفِّقتُ الى تنظيم دراسة تلك البحوث تنظيما جزئيا، يتفق ووسائلى ومَقْدورى، ويتمشّى — الى حدّ ما — والطريقة التحليلية الحديثة فى كتابة التاريخ، وأن يكون عملى حين ذاك مما يسمح لى أن أقول، فى ثقة وإيمان، إنى قد قمت

حقا "بمحاولة" ذات أثر نافع تمكن غيرى من اتخاذها أساسا لكتابة تاريخ المدنيات العربية الواسعة المدى ، البليغة الأثر في الثقافات الإنسانية عامة ، كتابةً تاريخية صحيحة .

٢ — وقد وقع "عصر المأمون" في مجلدات ثلاثة ، خصصت أولها بالتاريخ وما الى التاريخ ، وثانيها وثالثها بالأدب وما الى الأدب ، واعتمدت في تلخيصي للشعراء فيهما على أمهات المظان الأدبية لا سيما كتاب الأغانى ، وأعترف — في صدق و إخلاص — أن مهمتى في المجلدين الأخيرين لم تخرج عن مهمة المتخير لما في تلك العصور الزاهية من غُرر ودُرر ، المنقّب عما فيها من طُرَف ومُلَح ، الملخص لحياة أدبائها وشعرائها ، المحتفظ بعبارات المعاصرين وشيوخ المؤلفين عنها . وقسمت المجلد الأول الى كتب ثلاثة . عالجتُ فيها البحثَ عن عصور بنى أمية و بنى العباس والمأمون . وقد توخّيت الإيجاز في فذلكتي التاريخية عن عَصْرَىْ الأمويين والعباسيين لأنهما بمثابة تُكأة وأساس لموضوعنا ، كما لاحظتُ الاستمساكَ بالحَيْدة التامة وعدم التطوح مع أولئك المؤرخين والرُّواة الذين تأثروا بأهوائهم السياسية ومعتقداتهم المذهبية والذين نكبتْ بهم عن مَحَجّة الصواب مغالاتُهم في الانتصار لفكرتهم الحزبيّة . وقسمتُ المجلدين الثانى والثالث الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة ، نشرت فيها ما وسّعه المقامُ من المنثور والمنظوم والنصوص الطويلة والمقالات المستفيضة . وعُنيت عنايةً خاصة الى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص على أنهما نموذجان لتمثيل عصرهما . واتخذتُ من عبدالحميد الكاتب وعمر بن أبى ربيعة نموذجا أمويّا ، ومن أبى الربيع محمد بن اللّيث و بشّار بن بُرد مثالا عباسيّا ، ومن عمرو ابن مَسْعَدة وأبى نُوَاس نموذجا لتصوير الحياة الكتّابية والشعرية في عصر الأمين والمأمون ، الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام ، فجاء المجلدان الثانى والثالث بذلك مكملين للمجلد الأول .

وأعتقد اعتقادًا راسخا أنه لن يعترض عليّ معترض لعنايتى بالعصر العباسى من وجهتيه التاريخية والأدبية ، فلم يَعْدُ "عصر المأمون" عن كونه شطرا يُحْفَلُ به من العصر العباسى ، كما أعتقد أنه مما لا مندوحة لنا عنه لتفهم العصر العباسى أن نصوّر لك العصر الذى قبله

بما يسعه المقام . وهذا ما عالجناه لك فى كتابنا بصورةٍ متواضعةٍ نأمل أن تكون فيها الغُنية والكفاية لما نروم تصويره .

ولقد عدلت عما كنتُ ذهبتُ اليه من بيان المصادر والمراجع فى نهاية كل صفحة، رغبة فى ألّا أشغَلَ نظر القارئ بما لا يُجْدى عليه، وحرصا على توحيد مجهوده فى استيعاب الموضوع وتفهُّم شتّى مَنَاحيه ، مُلْحِقًا فى الوقت نفسه نهايةَ المجلد الثالث بيانَ مصادر الكتاب لمن أراد توسّعا فتُراجع ثَمَّةَ .

٣ — وأحمد الله أن أبرز كتابى هذا فى عصر النهضة الاستقلالية المصرية التى ازدانت برعاية مولانا المليك "فـؤاد الأوّل" حفظه الله . كما ازدانت بناصعة خدم أقطابنا وزعمائنا ، ذوى الصُّحُف البَيْضاء، والآثار الخالدات الباقيات، وعلى رأسهم أصحاب الدولة الأجلّاء، فقيدُنا المرحوم المبرور "سعد زغلول باشا" والقُطْبان الخطيران "عدلى يكن باشا" و"عبد الخالق ثروت باشا". فهؤلاء الثلاثة، قد وهب الله لهم أَصَالةَ الرأى، ونَبَالةَ القَصْد، وثروةَ الذهن، وغِنَى العقل، وحباهم سدادا فى سياسة، وتواضعا مع رِيَاسة، وحكمةً فى كياسة، ونبوغًا مع ثَقَافة، وحزمًا فى حَصَافة . وأمتعهم بثُقُوب النظر، ورَجَاحة الفكر، وأفاض على أشخاصهم لِينًا ودَمَاثة، وسماحة ووَدَاعة، حتى أجمع القومُ على حبهم إجماعَهم على الاعتراف بوافر فضلهم، والإشادة بعَطِر ذكرهم، وتسابقوا الى الاستفادة من سديد مواقفهم، وحكيم صنعهم، ونَزِيه أعمالهم، استفادتَهم من أَفَاوِيق عِرْفانهم، وفَيْض بيانهم، ومُقْنِع برهانهم . وهؤلاء الثلاثة قد نجحوا فى تكوين الأمة من الوجهة السياسية، نجاحَهم فى تكوينها من الوجهة القومية . فاللهمّ رحمةً واسعة لزعيمنا الراحل الكريم، وعوِّضْنا اللهمّ من خسارتنا الفادحة فى فقده، أحوَج ما كنّا الى عظيم جُهُوده، وهَب اللهم حياة طويلة لقُطْبَيْنا مَحَطِّ الآمال ومَعْقِد الرجاء .

وأحمده تعالى على أن دخلت البلاد عهدًا جديدًا من حياتها العلمية، بزَعَامة وزير معارفنا الهمام، مُرْهَف العَزَمات، مسدّد الوَثَبات، صاحب المعالى "على الشمسى باشا" ومدير

جامعتنا المصرية العالم الجليل الأستاذ "أحمد لطفى السيد بك" وغيرهما من رجالات العلم والأدب فى هـذا الجيل .

٤ — وإنى أنتهز هذه الفرصة لأشيد بما للرحوم الأستاذ محمد الخضرى بك من فضل عظيم ، ومعترفا بمـا لصديقى الدكتور طه حسين الأستاذ بالجامعة المصرية من مَعُونة قيّمة فى غير موضع من الكتاب ، كما أنتهزها لأشكر لسادتى العلمـاء والأدباء ، ورجال الصحافة والمجلات حسنَ استقبالهم لكتابى . كما أحمـد لحضرات النقّاد الأجلاء جميلَ تشـجيعهم وحكيمَ أخذهم الأمور بهَوَادة ورِفْق . معترفًا بصادق رغبتهم فى الأخذ بناصر العلم والعلماء قادرا أعظم قَـدر روحهم العالية فيما دبّجوه فأجادوه ، وكتبوه فارتفعوا بعـلم النقد عندنا عمـا وُصِم به أخيرا من التَّطَاحُن والرِّمَاء ، والجِلَاد والشَّحناء ، والعمل على الهـدم لا على البناء ، كما أشكر لسادتى الأستاذين الجليلين محمد عبد الوهاب النجار وعبد الخالق عمر والكاتبين الأديبين محمد الهيهاوى ومحمـد صادق عنـبر ، حُسْن صنيعهم فى تهذيب "عصر المأمون" معترفا بعظيم جهد ثانيهما اللغوى أحسن الله جزاءهم .

وإنى أخص بالشكر رجال دار الكتب المصرية وعلى رأسهم حضرات الأساتذة محمد أسعد برادة بك مدير الدار ذى الخلق الوديع والهمة الشّمّاء . وأحمد زكى العدوى افندى رئيس القسم الأدبى بالدار وصاحب الهوامش الحسان . وعبد الرحيم محمود افنـدى ومحمد عبد الجواد الأصمعى افنـدى المصححين به وصاحبى الأثر الطيب الجليل . ورجال هذا القسم كافة فلهم الفضل الكثير ، بهمة رئيسهم الفاضل ، فى ضبط الكتاب وتصحيح مسودّاته . كما أشكر حضرة الفاضل محمد نديم افندى ملاحظ الطباعة بالدار المشهور بالدقة والإتقان . ويلوح لى أن الله تعالى أحسن جزاء المأمون على حَدَبِه وكبير عنايته بدُورِ الحكمة (دور الكتب) العديدة فى عصره ، بأن وفّق دار الحكمة فى مصر ، فى هذا العصر ، الى رعاية عصره ، بهمة وإخلاص ، وتدقيق وتحقيق ١١

أحمد فريد رفاعى

٢٥ سبتمبر سنة ١٩٢٧

الكتاب الأول

عصر بنى أمية

الفصل الأول

تحول المدنية الاسلامية

توطئة — نظام الحكم على عهد الصحابة — حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية اليها .

(ا) توطئة :

حمل الفتحُ الإسلامىّ الذى فتحه الخلفاء الراشدون فى سبيل الدعوة الدينيّة من العناصر المادّية والاجتماعية والسياسية ما كانت له نتائجُه وآثارُه ؛ فبعد أن كانت الأموالُ فى أيام النبىّ صلى الله عليه وسلم نحو أربعين ألفا بين إبلٍ وخيلٍ ، وبعد أن كان عمرُ بنُ الخطاب دَهِشًا مُرتابًا حينما أبلغه أبو هريرةَ عند قدومه من البَحْرين أنه أتَى بخمسمائةِ ألفِ درهم فاستكثرها عمرُ وقال : أتدرى ماتقول ؟ قال : نعم، مائةُ ألفٍ خمسَ مراتٍ . فصَعِد عمرُ المنبرَ وقال : «أيها الناسُ، قد جاءنا مالٌ كثيرٌ، فإن شئتُم كِلْنَا لكم كيلا، وإن شئتم عَدَدْنا لكم عدّا» — بعد أن كان دَهِشًا من هذه الثروةِ أصبحنا نرى، بعد عهده بقليل، جسامةَ الهباتِ مما لا تُعدّ هذه الأموالُ فى جانبه شيئا مذكورا .

ونحن لا نَعْرِض الآن للقول فيما وصَلَتْ اليه الثروةُ الإسلاميّةُ فى أيام المأمون، ولا نَعرض لفنون المدنيّات العديدة التى سادتْ فى عهده، لأننا رَسَمنا لأنفسنا خُطَّةَ مَنْ لا يريد

استباقَ الحوادث وآثارَها ، ولا التاريخَ ونتائجَه . و إنا نجتزئُ الآن بكلامنا عن عصرٍ قريبٍ من عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم ، القريبِ العهدِ بتأثر الأذهان بالمُثُل العُليا : من أبى بكر الذى مات ولم يجدوا عنده من مال الدولة إلا دينارا واحدا سقط من غِرارة ، والذى أوصى حينما دنا أجلُه بأن تُبَاع أرضٌ كانت له ويُدْفَع ثمنُها بدلا مما أخذه من مال المسلمين ، ومن عمرَ بنِ الخطاب الذى حرّمَ على المسلمين اقتناءَ الضِّياع والزراعة ، لأن أرزاقَهم وأرزاقَ عيالهم وما يملكون من عبيد وموالٍ ، كلّ ذلك يدفعهُ لهم من بيت المـال ، فما بهم الى اقتناء المـال من حاجةٍ ، وليس للمـال فى نفوسهم من إغراءٍ ولا الى ضمائرهم من إفسادٍ .

هذه حالُ المسلمين الماديةُ والمعنويةُ فى عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم وصاحبَيْه ، نظِّر بينها وبين ماجدَّ بعد ذلك من كثرةٍ فى المال وإسرافٍ فى التَّرف مما كان له أعمقُ الأثرِ فى تغيرّ أحوال المسلمين الاجتماعيّة والمعيشيّة والخُلُقية . يحدّثنا ابنُ خلدون عن عامل أُموىّ ، ليس بملكٍ ولا خليفةٍ ، يحدِّثنا عن خالدِ القَسْرىّ أميرِ العراق فى أيام هشامٍ فيقول : إنّ غلّته بلغَتْ ثلاثةَ عشر ألف ألفِ درهم . ويثبت لنا ابنُ الأثير دليلا ليس بأقلّ مما ذهب اليه ابن خلدون قيمةً وخطرًا ، إذ يقول ما نصه : « إن طارقا خليفةَ خالد على الكوفة لمـا ختَنَ ولَدَه أهدَى اليه خالدٌ ألفَ وصيفٍ ووصيفةٍ سوى الأموال والثياب » . وذكر اليعقوبىّ : أن خالدا فرّق أموالا عظاما مبلَغُها ستة وثلاثون ألف ألف درهم .

أجْل ! لقـد تحوّلت الاعتباراتُ الاجتماعيةُ وِفَاقا للتغيرات المـادّية ، فبعد أيام الورع وغلبةِ سلطان الدين والعدل فى أعطيات المسلمين ، بعد أيام عمر وصحابة عمرَ التى نعلم الشيء الكثير من وجهة نظر مُحَمّد الدّين الاسلامىّ فيها الى المـال — وهو عُنصرٌ حيوىّ شـديدُ الأثر فى تحوّل النُّظُم المعيشيّة والاجتماعية والسياسية أيضا — والى ضَرر اختزانه ، فقد قال قائلٌ لعمرَ بن الخطاب : « ياأميرَ المؤمنين ، لو تركت فى بيوت الأموال شيئا يكون عُدّةً لحادثٍ اذا حَدَث » ! فزجره عمرُ وقال له : « تلك كلمةٌ ألقاها الشيطانُ على فيكَ وقانى اللهُ شرَّها ! وهى فتنةٌ لمن بعدى . إنّى لا أُعدُّ للحادث الذى يحدُثُ سوَى طاعةِ الله ورسـوله ، وهى

عُدّتُنا التى بلَغنا بها ما بَلَغنا» — بعد هذه النظَراتِ التقشّفية البريئة، نظراتِ الورع والزهد، سَرْعَانَ ما حملت الفتوحُ معها ومع تلك الثروات الطائلة التى أتت بها ما غيّر عناصرَ عِدّةً، فاختُزِنَ المالُ، وكانت الفتنةُ كما تنبأَتْ نظراتُ عمرَ الصائبةُ الى المال واختزانه، وذهبتْ فى آثارها الى ما هو أعمقُ وأخطرُ، ذهبت الى الكِيَانِ الخلقىّ للعرب، فبدّلَتْ من سيرة قَادَتِهم وسيرة شَعْبِهم : كانت سيرةُ قادتهم عدلًا وإنصافا، وسيرةُ شعبهم أنفةً وانتصافا، فتبدّل الحالُ غير الحال، حتى أُتيحَ لمصعَب بن الزبير مثلا، وهو من بيت يُنَاوِئ بنى أمية وينافسُهم فى الملكَ، أن يَبْذُلَ ألف ألف درهم فى زواجه من سُكَينةَ بنت الحسين، ومثلَها فى زواج عائشةَ بنتِ طلحةَ، فى حين كان جندُ المسلمين يتضوّرونَ مسغَبةً وجوعا. حتى كتب عبدُ الله ابن مُصْعبٍ الى عبد الله بنِ الزبير لمناسبة ما يعانيه الجندُ وتَرَفِ شقيقه زعيم الجند :

بَلّغ أميرَ المؤمنين رسالةً * من ناصحٍ لك لا يريدُ خِداعا

بُضْعُ الفتاة بألف ألفٍ كاملٍ * وتبيتُ ساداتُ الجنودِ جِياعا

لو لأبى حفصٍ أقول مقالتى (١) * وأبث ما سأبثُّكم لارتاعا

صدق الشاعرُ فى قوله، إنّ تلك الحالَ ليرتاع منها عمرُ حقًّا، وليَفْرَقُ من ذكرها أبو بكر، ويلتاعُ من سماعها علىّ . ولكن الحال تغيّرتْ الى مدًى بعيدٍ، حتى أصبح المالُ غَرَضا تشرئبُّ لحيازته الأعناقُ، وتنزع نحوَ تملكه النفوسُ، الى أن رأينا فيما بعدُ أن الحجاجَ بنَ يوسفَ لما حاصر الكعبةَ، وفيها ابنُ الزبير، وتردّد جندُه فى ضربها بالمنجَنيق جاء بكرسىّ وجلس عليه وقال : «يا أهلَ الشأم، قاتلوا على أعطياتِ عبدِ الملك» ؛ ففعلوا .

ذلك هو أثرُ المالِ فى الأخلاق والأحوال والنفوسِ طبقا للتغيرات الاجتماعية .

---

(١) هذه الأبيات من عروض الكامل وتفاعيله :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

مرتين

وفى قوله : "لو لأبى" زحاف يقال له : الخزل، وهو سكون التاء وسقوط الألف من متفاعلن كما هو ظاهر فى "لو لأبى" فيبقى متفعلن وهذا البناء غير مقول فيصرف الى بناء مقول وهو مفتعلن ؛ والخزل فى الكامل قبيح .

ولنحاول فيما سـنعقده من الفصول الآتية تبيـانَ حال الدولة العربيـة أيامَ عثمانَ ، وكيف وصـل الأمرُ الى معاوية ، وكيف خرج الملكُ من بنى أميّـةَ حتى وصـل إلى بنى العباس . ولنحاول بعد هـذه التقدمةِ دراسةَ الحياةِ الأدبيّةِ الى جانب دراستنا السياسيّة الاجتماعية ؛ فإنّ ذلك ينفعنا كثيرا فيما نرومه من التكلّم ببسـطةٍ فى القول وتصويرٍ صحيح لعصر المأمون الذهبىّ ولا سيما الحياة الأدبية والعلمية فيـه ، ملاحظينَ فى ذلك كلّهِ جانب القصـدِ والإيجازِ ، مارّين سِراعا على جُلّ الحوادث الكبار فى ذاتها ، والتى لا تَعنينا كثيرا فى موضوعنا ، مثلَ عصر معاوية ، ممـا نرجو أن نُوفّقَ فى المستقبل القريب فنكتبَ عنـه وعما فيه من أسرارٍ وثَوْراتٍ .

(ب) نظام الحكم فى عهد الصحابة :

الناس من حيث مُيولهم ومعتقداتهم ، دينيةً كانت أو سياسـيةً ، لا يكادون يَعْـدُون طبقةً من ثلاثٍ : محافظين ، ومُعتدلين ، ومُتطرّفين . ولسـنا آخذينَ بسبيلٍ من التوضيح لأحكامِ هـذه الجماعاتِ أو الأحزابِ فى حياة عثمانَ ، ولا نَظَرِ كل فئةٍ منهم الى سـياسة حكومته ، وإنما يكفينا أن نقولَ : إنّ هذه الفئاتِ التى تكوّن دائما قوةَ الرأى العامّ الذى كان له فى حكومات الصحابة صوتٌ يُؤْبَهُ له وإرادةٌ تُحترَم ، مع مراعاة طبيعة النفسـيّة العربية البدوية الشديدة الإباء والأنفة — هذه الفئاتُ لم يكن شبابُها ولا كهولُها ، زُهّادُها ولا النفعيّونَ فيها ، براضينَ عن حكومة عثمانَ .

كان نظامُ الحكم فى عهد الصحابة من حيثُ توزيعُ السّلطاتِ نظاما تُيُوقْراطيا — اذا صحّ لنا هذا التعبيرُ ، وهو صحيحٌ لا محالة — ذلك لأنهم بإيمانهم وتقواهم وكامل إسلامهم ، جعلوا اللهَ تعالى مصـدرَ السلطاتِ الدينيـة والدنيوية ، فكلّ شيءٍ لله : المـالُ مال الله ، والجندُ جندُ الله . ومن هذه الناحيةِ توافرتِ الشُّورَى وتوافرتِ الكرامةُ الدينيةُ . وربمـا كان المحافظون من رجال الدينِ يتبرمون من هذه الناحية أيضا بمنهج حكومةِ عثمانَ ، التى لا نشك أن حزبَها أيام عثمان لم يكن بذى خَطرٍ ، اللهم فى ماضيه من حيثُ الزعامة والسيادة

وما إلى ذلك فى العصر الجاهلىّ . ولكنه فاز أخيرا، ولَعِبَت الجماعةُ العثمانيةُ ومنهم الأُمَوِيُّونَ دَورَهُمُ المعروفَ ذا الأثر الكبير فى العقلية العربية والمدنية الإسلامية .

(ج) حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية إليها :

وبعد، فماذا نَقَمَ الشبابُ والشيوخُ من حكومةِ عثمانَ ؟

أما نحن فلا يُطلَبُ منا أن نُبْدِى رأينا فى عثمانَ ، فهو صحابىّ جليل، وله أثره الخالدُ فى جمع القرآن وغير القرآن، وله دينُه السَّمْحُ الذى لا تشوبه شائبةٌ . وما كان الدينُ لِيُحَتِّم على الناس جميعا أن يكونَ نظرُهم الى الحياة الدنيا نظرَ التقشُّف والزهد . ولا يُطلَبُ منا أن نُثْبِتَ ضَعفَ الحكومة العثمانية، وإنما يُطلَبُ منّا أن نسرُدَ الحوادثَ بإيجازٍ، ولنا فى تسلسل هذه الحوادثِ ودراستها وتقييدِ آثارها ما قد يسمحُ لنا بالتعرُّض له حين معالجتنا الكلامَ عن عصرنا فيما بعدُ .

نعودُ فنتساءلُ : ماذا نَقَمَ الشبابُ والشيوخ من حكومة عثمانَ ؟

يقول اليعقوبىّ : « إن عثمان آثرَ القرباء، وحَمى الحمى، وبنى الدارَ، واتخذ الضِّياعَ والأموالَ بمال الله والمسلمين، ونَفَى أبا ذرّ صاحبَ رسول الله وعبدَ الرحمن بن حنبل، وآوى الحكَم بن أبى العاص وعبدَ الله بن سعد بن أبى سرح طَرِيدَىْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وأهدَر دَمَ الهُرمُزان ولم يَقتُلْ عُبَيد الله بنَ عمرَ به، وولى الوليدَ بنَ عُقبةَ الكوفةَ، فأحدث فى الصلاة ما أحدثَ ولم يمنعه ذلكَ من إعاذته إياه » .

ويذكر اليعقوبىّ فى مكان آخر ما كان من إغضاب عثمانَ لعائشةَ أمّ المؤمنين، ومكانةُ عائشة مكانتُها، وأنه نقص ما كان يعطيها عمرُ بنُ الخطاب، وأنها تربّصتْ بعثمانَ حتى رأته يخطبُ الناس فدلَّتْ قميصَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ونادَتْ : «يا معشرَ المسلمين، هذا جلبابُ رسولِ الله لم يَبْلَ وقد أبلى عثمانُ سنّته» . وليس أدلّ على شدّة حفيظتها عليه من امتناعها أن تقومَ بالصلح بينه وبين الخارجينَ عليه حين اشتدّ عليه الأمرُ وصار اليها

مروانُ فقال لها : يا أمّ المؤمنين ، لو قُمْتِ فأصلحتِ بين هذا الرجلِ وبين الناسِ! قالت: قد فرغْتُ من جِهازى وأنا أريد الحج؛ قال : فيدفعُ اليك بكلّ درهم أنفقته درهمين؛ قالت: «لعلك تَرى أنى فى شك من صاحبك! أمَا والله لوددْتُ أنه مُقطّعٌ فى غِرَارةٍ من غرائرى، وأنى أُطيق حمله فأطرحُه فى البحر» .

قلنا : إن نظام الحكم فى عهد الصحابة من حيثُ توزيع السُّلطاتِ كان نظاما تُيوقراطيا فى إرجاعه كلَّ شيءٍ الى الله تعالى، وأن المـالَ مالُ الله، والجندَ جندُ الله، وأن الحكم لله لا للنـاس، . ويقول لنا التاريخ : إنه كان بين عثمان وخازن بيت المـال فى عهده مُشَادَّةٌ ومنافرةٌ، وأن جُلَّ النُّقَّادِ اتخذوا من هذه المشادَّة مَطعنًا فى سياسته المـالية، وثُلْمَةً يتهجَّمُونَ منها عليه . وكانت هذه المشادَّةُ بينه وبين خازن بيت المـال فى أمر عطائه، حتى قال له عثمان : « إنمـا أنت خازنٌ لنا إذا أعطيناك فخذ، واذا سكَتْنا عنك فاسكُتْ » . فقال : « كَذَبْتَ والله! ما أنا لك بخازنٍ ولا لأهل بيتك إنمـا أنا خازنُ المسلمين» . وجاء بالمفتاح يومَ الجمعة وعثمانُ يخطب فقال : « أيها الناس، زعم عثمانُ أنى خازنٌ له ولأهل بيته، وإنما كنتُ خازنا للمسلمين، وهذه مفاتيحُ بيت مالكم» ورمى بهـا . فأخذها عثمانُ ودفعها الى زيد بن ثابت .

وليس من شكٌّ فى أن شبابَ العرب عامةً وقريش خاصّةً لهم آمالُهم ولهم مطامعهُم وهم فى مُقتبَل عمرهم حين يكون الطموحُ الى اعتلاء المراتب الرفيعة مُصطَدِمًا بالوازع الدينىّ ، وأنهم تألموا أن ينال عبـدُ الله بنُ خالد بن أسيد خمسين ألف درهم، ومروانُ بن الحكم خمسةَ عشرألفا مع أن عثمان اسـتردّها منهما لمـا عُوتب ونُوقش ، وتألّموا أن يذهب آل عثمان بمناصبِ الدولة وهم يرون فى أنفسهم من الكفايات والمواهب، ومن الحسب والنسب ما لا يقلّ عما لهؤلاء .

***

وما لنا نذهب بعيدا فى الاستدلال على نظريتنا هذه والنفسُ الإنسانيةُ هى هى الطُّمُوحُ الى زينة العاجلة وزُخرفها . وقد جاء فى الأغانى فى معرِض كلامه عن أبى قَطِيفة الشاعر :

"أن ابن الزبير مضى الى صفيّة بنت أبي عبيد زوجة عبد الله بن عمر، فذكر لها أنّ خروجه كان غضبا لله تعالى ورسوله عليه السلام والمهاجرين والأنصار من أثرة معاوية وآبنه وأهله بالفيء وسألها مسألتـه أن يُبايعَه . فلمـا قدّمت لزوجها عَشاءه ذكرتْ له أمرَ آبنِ الزبير واجتهـادَه وأثنَتْ عليـه وقالت : ما يدعو إلّا الى طاعة الله جلّ وعزّ، وأكثرت القولَ فى ذلك؛ فقال لهـا : أما رأيتِ بَغَلَاتِ معاوية اللواتى كان يحجّ عليهنّ الشُّهْبَ ! فإنّ ابن الزبير ما يريد غيرهنّ" .

هذا رأى كبير من رجال العصر فى خروج ابن الزبير يكشف لك ما كان يخالج نفوسَ الشباب من طُمُوحٍ الى السلطان ولذّاته . مع أنّ ابنَ الزبير كان خارجا على أهل بيت يرى جُلُّ الناس فى ذلك العصر أنهم اغتصبوا الملكَ من أهله اغتصابا . ويظهر أنّ معاوية نفسَه كان قد اقتنع بأنه لم يكن على الحق حتى كاد يتجنّبُ مناجزةَ علىّ الحربَ والعداءَ حين ذكّره علىّ بكلام للرسول صلى الله عليه وسلم، لولا مقالَةٌ ولده له : «كلا! ولكنك رأيتَ سيوفَ بنى هاشم حِدادا تحملها شدادٌ»، فثارت ثائرتُه وقال : «ويلك! ومثلى يُعيَّرُ لِجُبْن! هلم إلىّ الرمحَ!» وأخذ الرمح وحمل على أصحاب علىّ .

فمعقولٌ أن يغضبَ هؤلاء الشبابُ وأمثالُهم من حكومة عثمانَ وهم يرون الغنائمَ والثروات تكتسِحُ بلادَهم ، وللمـال حكمُهُ وسلطانهُ . ومعقول أيضا أن يغضبَ منها أمثالُ عمرو بن العاص الذى قال له عثمان، يوم ندبه لِيُعْذِرَه عند الناس فمـا كان منه إلا أن أضرمَ جَذْوة الحقد عليه : «ياَبْنَ النابغة، والله ما زدتَ أن حرّضتَ الناس علىّ...ياَبْنَ النابغة، قمل دِرعُكَ مذ عزلْتُك عن مصرَ» .

هذا من ناحية النفعيينَ وفيهم المتطرّفون . وهناك المعتدلون، وهؤلاء قد نأوا بجانبهم عن الفتنـة واعتزلوا الناسَ من شرّها وآثارها، وهم لهـا كارهون ومنها ناقمون . وهنـاك المحافظون الأتقياءُ حقا أمثـالُ أبى ذرّ و رافع بن خَديج وغيرهما من صحـابة الرسول الذين نعلم من تقواهم و زهداهم ومن حبّهم للآخرة و إعلاء كلمة الدين الشيءَ الكثيرَ، والذين

يقول فيهم الجـاحظ في رسالته عن بنى أميـة[(١)] : « إنهم كانوا على التوحيـد الصحيح والإخلاص المحض» . ولنوضح قليلا هذا النوع من المتقشفين حقا والمخلصين فى عقيدتهم الدينية صدقا ، ولنضرب مثلا بأبى ذرّ الغفارىّ ولننظر ما يحكيه لنا ابنُ الأثير فى هذا السبيل ، فهو معتـدل مُسْتَقْر للحقيقة أكثرَ من سواه . يقول ابنُ الأثير : إن أبا ذر كان يذهب الى أنّ المسـلم لا ينبغى له أن يكونَ فى ملكه أكثرُ من قوت يومه وليلتـه أو شىء ينفعه فى سبيل الله أو يعدّهُ لكريم ، وكان يأخذ بظاهر القرآن : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذابٍ أَلِيمٍ﴾ فكان يقوم بالشأم ويقول : "يا معشر الأغنيـاء ، واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاوٍ من نار تُكوَى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم" فما زال حتى وَلِـعَ الفقراءُ بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء ، وشكا الأغنياءُ ما يَلقَوْنه منهـم ؛ فأرسل معاويةُ اليه بألف دينـارٍ فى جُنح الليل فأنفقها ، فلمـا صلّى معاويةُ الصبحَ دعا رسولَه الذى أرسله اليـه ، فقال : اذهب الى أبى ذرّ فقل له : أنقذْ جسدى من عذاب معاوية فإنه أرسلَنى الى غيرِكَ وإنى أخطأتُ بك ؛ ففعل ذلك . فقال أبو ذرّ : يا بُنىّ ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرِكَ دينارٌ ولكن أخِّرْنا ثلاثةَ أيام حتى نجمعَها . فلمـا رأى معاويةُ أنّ فعلَه يُصَدِّقُ قولَه كتبَ الى عثمانَ : إن أبا ذرّ قد ضيَّقَ علىّ ، وقد كان كذا وكذا : للذى يقوله الفقراء . فكتب اليه عثمان : "إن الفتنة قد أخرجت خَطْمَها[(٢)] وعينيها ولم يبق إلا أن تَثِبَ ، فلا تنكأ القَرْحَ وجَهِّزْ أبا ذرّ الىّ وٱبعَثْ معه دليلا وكَفْكِفِ الناسَ ونفسَك ما ٱستطعتَ" . وبعث اليه معاويةُ بأبى ذرّ ، فلما قَدِم المدينةَ ورأى المجالسَ فى أصل جبل سَلْع قال : بَشِّرْ أهلَ المدينة بغارةٍ شـعواءَ وحربٍ مِذكارٍ . ودخل على عثمانَ ؛ فقال له : ما لأهل الشأم يشكون ذَرَبَ[(٣)] لسانك ؛ فأخبره ؛ فقال : يا أبا ذرّ ، علىّ أن أقضىَ ما علىّ وأن أدعو الرعيَّـةَ إلى الاجتهاد

---

(١) راجع رسالة الجاحظ فى بنى أمية فى باب المنثور من ملحق الكتاب الثالث فى المجلد الثانى .

(٢) الخطم : الأنف . (٣) ذرب اللسان : حدّته .

والاقتصاد، وما عليّ أن أجبرهم على الزهد؛ ثم انتهت المحاجّة الى أن خرج أبو ذرّ من المدينة ونزل الرّبذة [١] .

فهذا النوعُ من التقشّف المتبرّم بحكومة عثمان، وذلك النوعُ من الشباب الطامح بعينيه الى ما أصاب سواه منها، وتلك الجماعةُ المعتزلةُ التاركة الحبلَ على الغارب — كلّ هذه العواملِ تجعلنا نقنع بنجاح الفتنة ضدّ حكومة عثمان وانتهائها بتلك المأساة المروعة التى كان فيها ما كان مما يحكيه لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : من قتل عثمان رضى الله عنه، وما انتُهك منه، ومن خبطهم إياه بالسلاح، وبَعْج بطنه بالحراب، وفَرْى أوداجه بالمشاقص [٢]، وشَدخ هامته بالعَمَد، مع ضرب نسائه بحضرته وإقحام الرجال على حرمته، مع اتقاء نائلةَ بنتِ الفَرافِصة [٣] عنه بيدها حتى أطَنّوا [٤] أصبعين من أصابعها .

كانت تلك المأساة المروعة التى تُفتّتُ القلوبَ الجلامدَ، وتتفجّر لها العيونُ الجوامدُ؛ فلنقف عند ذكراها وَالِهين آسفين .

---

(١) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق وبها قبر أبى ذر الغفارى .

(٢) المشاقص : جمع مشقص وهو نصل عريض وقيل سهم . (٣) الفرفصة بفتح الفاء لا غير . وليس فى العرب ما يسمى بالفرافصة بالألف واللام غيره كما أن أبا على القالى ذكر أن كل ما فى العرب فرافصة بضم الفاء إلا فرافصة هذا أبا نائلة امرأة عثمان رضى الله عنه . (٤) أطنوا : قطعوا .

الفصل الثانى

الجهـاد بين الخـــلافة والملك

توطئة — كلمتنا عن على رضى الله عنه — تحوّل الرأى العام — معاوية — سياسة معاوية — مميزات معاوية — معاوية والسياسة الميكافلية .

(ا) توطئـــــة :

نحن الآن مُقبلون على فترة جهادٍ عنيف بين الخـلافة والملك ، فترة لا يصح أن نعتبرَ الجهادَ فيهـا جهادا بين علىّ ومعاوية ، أو بين علىّ وغير معاوية من مُنافســيه فى الخلافة أو من الخارجين عليه ، وإنمـا يخلُق بنا أن نعتبرها بمثابة جهاد عنيف بين وِجْهات النظر العربيّــة فى الحياة ؛ فإن موتَ عثمانــ رضى الله عنــه لم يُمت الفتنةَ بل أذكاها وزادها ضِرَاما واشتعالا .

وإنه لمن الميسور للناقد أن يلتمسَ العـلةَ فى أن الأحزاب العربيةَ حين ذاكَ لم تُجْمِـع على سيدنا علىّ ؛ ذلك بأن الجماعة الراغبة فى الوظائف والأموال لم تجد فيه طَلِبتَها وسُؤْلَها ، ولم تَعثرُ فيه على أُنْشودتها ورَجُلِها ، بل على النقيض قد لقيت منه حاكما صُلْبًا لا تلينُ قناتُه ، سار فيهم سَــيرةَ الحق لا تأخذه فى الله لومةُ لائم ، وكانت حركاتُه وسكناتُه رضى الله عنــه جميعها لله وفى الله لا يَغمِط بهـا حقَّ أحد ، وكان لا يأخذ ولا يعطى إلا بالحق والعدل ، حتى إن أخاه عَقيلًا ، وهو ابنُ أبيــه وأمه ، طلب من بيت المـال شيئا لم يكن له بحقّ ؛ فمنعه رضى الله عنه وقال : يا أخى ، ليس لك فى هذا المـال غيرُ ما أعطيتُك ، ولكن آصبر حتى يجىء مالى واعطيك منه ما تريد فلم يُرْضِ عقيلًا هـذا الجواب وفارقه وقصد معاويةَ بالشأم . وكان لا يعطى ولديه الحسنَ والحسينَ أكثرَ من حقهما . فآنظر الى رجل حمله ورَعُه على هذا الصنيع بولديه وبأخيه من أبويه ! فلما سار فيهم هذه السّيرةَ ثَقُلَ على بعض الناس فعلُه وكرهوا مكانَه .

هـذه خُطَّةُ هؤلاء معه . أما خُطَّةُ الشيوخ فمنهم مَنْ آثر العُزلةَ وترك حبلَ الأمة على غاربها ، لتطاحنُ أحزابُها بين طُلَّاب الخلافة ، ومنهم الخوارج الذين غضبوا على علىّ كما غضبوا على معـاوية ، وندَبوا من بينهم عبـدَ الرحمن بن مُلْجِم ليقتلَ عليا ، والبركَ بنَ عامر ليُخَلِّصَهُم من معاويةَ ، وعبدَ الله بن مالك الصيداوى ليُريحَهُم من حليف معاويةَ عمرو بن العاص . هؤلاء الخوارجُ كانت كلمتهم : « الحكم لله لا للناس » فنقموا من علىّ خضوعَه للتحكيم ، وما خضع إلا مُكرها مُعنَّتًا .

(ب) كلمتنا عن علىّ رضى الله عنه :

كان علىّ إماما دينيا ، كان مَوئِلا للشريعة ومثالا للورع والاستمساك بأحكام الكتاب ، كان مَصـدرًا خَصيبا من مصادر الفقه والتشريع ، وكان فى حكومته وحروبه على السواء مُؤْثِرًا رضا الله ومُغْضِبًا شهوات النـاس وقادتَها أطماعَها ، وكان عنوانا كاملا لأسمى صفات الخُلُق الإسلامىّ من حيثُ النجدة والشجاعة لا الحذق والسياسة ، كان مُصْلِحًا دينيا على أتمّ ما يكون عليـه مصلح دينىّ ، يتفانى فى هذا الإصـلاح ويؤثر الآخرة على الأولى فيعمل لإرضاء الله لا إرضاء النـاس ، وكان كما وصـفه عَدِىُّ بنُ حاتم لمعاويةَ : « يقول عدلا ويحكم فصـلا ، تتفجّر الحكمةُ من جوانبه والعلم من نواحيـه ، يستوحش من الدنيا وزَهرتها ، ويأنس بالليـل ووحشته ، وكان والله غزيرَ الدمعـة ، طويلَ الفكرة ، يحاسب نفسـه اذا خلا ، ويُقلِّبُ كفيه على ما مضى ، يُعجبه من اللباس القصـيرُ ، ومن المعاش الخشن ، وكان فينا كأحدنا ... ... كان يعظم أهل الدين ويتحبّبُ الى المساكين ، لا يخاف القَوِىُّ ظلمَه ولا ييأس الضعيفُ مِنْ عدله ، فأُقسِمُ لقد رأيتُه ليلةً وقد مَثَلَ فى محرابه وأرخى الليلُ سرباله وغارت نجومُه ، ودموعُه تتحادَرُ على لحيته وهو يتململُ تململَ السليم ويبكى بكاءَ الحزين ، فكأنى الان أسمعُـه وهو يقول : يا دنيا أَإلىّ تعرّضتِ أم إلىّ أقبلت ! غُرِّى غيرى لا حانَ حينُك ، قد طلقتُك ثلاثا لا رجعةَ فيها » .

هذا هو علىّ حقا ، علىّ الذى بالغ فى التدقيق فى محاسبة عُمَّاله حتى أغضبَ أكثرَهم وحتى خسر نصرتَهم ، وفى جملتهم مَصقلةُ بن هبيرة الشيبانىّ وابن عمه عبـد الله بن عباس

بعـد أن كان أكبرَ نصير له ، والذى أغضبَ الزبير وطلحةَ وكان فى مقدوره أن يضمَّهما اليه ، والذى لم يكتسب الى جانبه عمرَو بن العاص ، ولم يقبل نصيحةَ ابن العباس ولا المغيرة ابن شعبة فى إقرار معاوية وابن عامر وعُمّال عثمان على أعمالهم حتى تأتيــه بيعتُهم ويسكن الناس ثم يعزل منهم من يشاء ، وقال «لا أُداهن فى دينى ولا أُعطى الدنيَّةَ فى أمرى» ؛ فقيل له : انزع مَنْ شئت واترك معاويةَ ، فإنّ فى معاوية جُرْأةً وهو فى أهل الشأم يُسْتَمَعُ منــه وله حجــةٌ فى إثباته بمــا كان من عمرَ بن الخطاب إذ قد ولاه الشأمَ ؛ فأبى وقال : لا والله لا أستعمل معاويةَ يومين . فلم تكن الحِيَلُ والخدَعُ من مذهبه ، ولم يكن عنده غيرُ مُرّ الحقّ ؛ والذى يقول لأصحابه بعد أن أثخنوا فى أعدائه : «لا تتبعوا مُوَلِّيًا ، ولا تُجهِزُوا على جريح ، ولا تَنهبُوا مالا» فجعلوا يمرُّون بالذهب والفضة فى مُعَسْكَرِهم فلا يَعرِض له أحد ، إلا ما كان من السلاح الذى قاتلوا به والدوابِّ التى حاربوا عليها . فقال بعضُ أصحابه : يا أميرَ المؤمنين ، كيف حلّ لنا قتالُهم ولم يحلّ لنا سبيُهم وأموالُهم ! فقال علىّ رضى الله عنه : «ليس على الموحدين سبىٌ ولا يُغنَمُ من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه ، فدَعُوا ما لا تعرفُون والزمُوا ما تُؤمَرُونَ» .

أجل ! هــذا هو علىّ حقا ، الذى أبتْ رأفتُه وأبى دينُه أن يمنعَ أهل الشأم من المــاء كما منعوه أثناء مُنازَلتِهم حتى كاد يهلكُ جنــدُه عطشا ، والذى منع شيعتَه وأنصارَه من شتم معاوية ، ضاربًا صفحًا عن آثار استغلال ذلك فى الدعوة السياسية لتأييد خلافته والحطّ من ملك مُنافِســه ؛ فإنه لمــا بلغــه أن حُجْرَ بن عدى وعمرَو بن الحَمِق يُظْهِرَانِ شتمَ معاويةَ ولعنَ أهل الشأم أرسل اليهما : أنْ كُفَّا عما بلغنى عنكما ، فأتياه فقالا : «يا أمير المؤمنين ، ألسنا على الحقّ وهم على البــاطل ! قال : كرهتُ لكم أن تكونوا شتّامينَ لعّانينَ ، ولكن قولوا : اللهم احقِنْ دماءنا ودماءهم ، وأَصْلِحْ ذاتَ بيننا وبينهم ، واهدهم من ضــلالتهم حتى يعرفَ الحقَّ مَنْ جهله ويرعَوِى عن الغىِّ مَنْ لَهِجَ به» .

هذا هو علىّ حقا ، الشديد فى محاسبة نفسه وعمّاله . أما محاسبة نفسه فظاهرةٌ خُلقيّةٌ واضحةُ الوضوح كلّه . وأما محاسبته عُمّــالَه فإن تاريخَه مُفعَمٌ بمئات الأدلة والشواهد ممــا

أفاد منه مُعاويةُ أيّما فائدة . وكان من آثار هذه المحاسبة هرب مَصقلَةَ بن هبيرةَ الشيبانىّ من علىّ وانضمامه الى معاوية ، وكذلك يزيد بن حجبة التيمى الذى كان قد آستعمله علىّ على الرىّ فكسر من خراجها ثلاثين ألفا، فكتب اليه علىّ يستدعيه فحضر، فسأله عن المال قال : أينَ ما غللتَه من المال؟ قال : ما أخذتُ شيئا ؛ فخفقه بالدِّرَّة خَفَقات وحبسه . ووكل به سعدًا مولاه، فهربَ منه يزيدُ الى الشأم، فسوّغه معاويةُ المالَ، فكان ينال من علىّ ؛ وبقى بالشأم الى أن اجتمع الأمر لمعاوية، فسار معه الى العراق فولّاه العراقَ .

فهذه الشواهدُ وأمثالُها فيها أقطعُ الدلالات على شدّة محاسبته لعماله وإغضابه آلَ بيته تدينا وورعا، وعملا للآخرة، لا لبناء ملك فى الدار الأولى .

فَلنَحفَظْ هذه الصورة جيّدا، ولنذكر أنها لم يُتَح لها الفوزُ والنجاحُ فى ذلك الجهادِ السياسىّ، وأن الكِفَّةَ الراجحةَ فى سياستنا الدنيوية كانتْ لمنازله الذى يجدُر بنا أن نَدرُسَه بايجازٍ وآقتضابٍ .

(ج) تحوّل الرأى العام :

صوّر الشاعرُ العبقرىّ "شكسبير" فى روايته "يوليوس قيصر" تأثُّرَ الرأى العام ببلاغة زعمائه التى يستغلّون بها سذاجةَ موقفه، ويتملكون بها عقولَ قومهم التى بها يفكرون، ويسحرون بها عيونَهم التى بها يُبصرون، فلا يَصدُرون إلا عن إرادتهم، ولا يُفكّرون إلا بعقولهم . وقد أبدع أيّما إبداع فى موقفى "بروتس" قاتل قيصر ومنقذ الرومان، و"أنطونيوس" مؤبّنه ورآثيه ، وأظهر الى أىّ مدًى آفتتَن بهما الجمهورُ، والى أىّ مدًى تناقض فى حبّه وبغضه وإكباره وتألّبه .

شكر الرومان "بروتس" قاتل قيصر لأجل الرومان وفى سبيل الرومان، فأسلس له قيادهم وطلبوا منه أن يتبوأَ العرش مكانَه، وحُملَ على الأعناق بعد أن تبوأ منهم حبّات القلوب؛ ثم استمعوا الى " أنطونيوس " يرثى قيصرَ، وما استمعوا له لأن "بروتس" طلب منهم أن

ينصتوا لأن قيصرا الطاغية غيرُ قيصرِ الراحل ؛ فأنصتُوا وتكلم «أنطونيوس» فحرك من شؤونهم وأنساهم أنفسهم ، واستغلَّ فى موقفه ما بثياب قيصر من دماء وثقوب ، وما بجسمه من طعنات وجروح ، حتى اضطرمت الفتنةُ ، وكان نصيبُ «بروتس» ما تعلم بعد حمله على الأعناق !

هكذا فعل معاويةُ فى جهاده وجلاده عليًّا ؛ فقد صدع بما أشار به عليه عَمْرو ابن العاص إذ طلب اليه إظهارَ قميص الدم الذى قُتِلَ فيه عثمانُ وأصابع زوجته وأن يُعلِّق ذلك على المنبر ثم يجمعَ الناسَ ويبكى عليه عازيا قتلَ عثمان الى علىّ مطالبا بدمه مستميلا بذلك أهل الشأم وغيرهم من عامة المسلمين . أخرج معاويةُ القميصَ والأصابع وعلَّقه على المنبر وبكى واستبكى الناسَ وذكَّرهم بمُصَاب عثمانَ ، فانتدبَ أهلُ الشأم من كل جانب وأيدهم الأشرافُ وذوو النفوذ كشُرَحْبِيلَ بن السِّمط وسواه ، وبذلوا له الطلبَ بدم عثمان والقتال معه على كل من آوى قَتَلَتَه . ثم خَلَق لعلىّ مُعْضِلةً سياسة لا يهون على السياسىّ حلُّها ؛ ذلك بأن بعثَ برسالة الى جماعة علىّ ، وهذه الرسالة تحتوى على أُسُس المبادئ العثمانية وتقول : « أما بعد ، فإنكم دعوتم الى الطاعة والجماعة ؛ أما الجماعة التى دعوتم اليها فمعنا ؛ وأما الطاعة لصاحبكم فلا نراها ؛ إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرّق جماعتنا وآوى ثأرنا (١) وقتلتنا ؛ وصاحبُكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نردّ ذلك عليه ؛ أرأيتم قَتَلَةَ صاحبنا ؛ ألستم تعلمون أنهم أصحابُ صاحبكم ؛ فليَدْفَعهم الينا فلنقتلْهم به ، ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة » . وكيف يستطيع علىّ أن يدفعَ الى معاوية قتلةَ عثمان ! وماذا يكون موقفُه أمامَ ذلك الحزب القوىّ الناقم على الخليفة المقتول ! فلذلك كان من المعقول أن يقف ردّه أمامَ هذه المشكلة السياسية عند قوله : « أما ما سألتَ من دفعى اليك قَتَلَتَه فإنى لا أرى ذلك ، لعلمى بأنك إنما تطلب ذلك ذريعة الى ما تأمُله ومرقاةً الى ما ترجوه ، وما الطلب بدمه تريد» .

(١) ثأره : قاتل حميمه .

(د) معـاوية :

لسنا نتعـرض للحكم على دين معاوية ومبلغ تمشيه فى تصرفاته السياسـية وإقامته لحدود الله مع أحكام الشرع ؛ فقد تكلم فى ذلك فيه الشافعى والحسن البصرى ، وإنمـا نريد أن نُمَثِّل معـاوية مؤسِّس الملكية فى الإسـلام ، وواضـعَ أُسُسِ السياسة الدنيوية ، والذى قال فيـه عمرُ بن الخطاب لجلسائه : "تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعنـدكم معاويةُ !" .

(هـ) سياسة معاوية :

كان معاويةُ ذا مواهبَ سياسيةٍ كبيرةٍ ، وكان داهيةً ، ذهنا ، بعيدَ مدَى العقل ، مالكا قِيادَ أهوائه ، كان "ذا مكر وذا رأى وحزم فى أمر دنياه ، اذا رأى الفُرصَةَ لم يُبْقِ ولم يتوقَّفْ ، واذا خاف الأمرَ توارى عنه ، واذا خُوصِمَ فى مقال ناضل عنه وقطعَ الكلامَ على مُناظَره" . كان يعمل جُهدَه ليشترى ضمائرَ القبائل العربيـة ، وكان كثيرَ البذل فى العطاء . وقد ذكر الطبرىّ حادثة نستطيع أن نستنبطَ منها نظرَ معاويةَ الى المـال والى مبلغ اسـتعماله إياه ليملك به ضمائرَ أهل المكانة والنفوذ من مُعاصِريه : ذكر أن أبا مُنَازِل قال له حينما أعطاه معاوية سبعين ألفا بينما أعطَى جماعةً من الزعماء ممن فى مرتبته مائةَ ألفٍ : فضحتنى فى بنى تميم ، أمَا حَسَبى فصحيح ! أوَ لَسْتُ ذا سِنّ ! أولستُ مطاعا فى عشيرتى ! فقال معاوية : بلى ، قال : فما بالك خَسَسْتَ بى دونَ القوم ! فقال : إنى اشتريتُ من القوم دينَهم ووَكَلتُك الى دينك ورأيك فى عثمانَ بن عفان — وكان عثمانيا — فقال : وأنا فاشترِ منّى دينى ؛ فأمر له بتمام جائزة القوم .

كان سـياسيا بطبيعته ، مِعْطَاءً وَهُوبًا بسجيته ؛ وقد صـدق فى صفته أبو الجهْم الشاعرُ إذ قال :

نميل على جوانبـه كأنا * نميلُ ولا نمين على أبينا
نُقَلِّبُـه لنخبُرَ حالتَيـه * فنخبُر منهما كرمًا ولينَا

وإنا نستطيع أن نفهم فهما صحيحا : أكانت ثورةُ معاويةَ لقتل عثمانَ ثورةً مصدَرُها إخلاصُهُ العميقُ فى العثمانية، وأنه كان يريد بها أن يُجْرِىَ حكْمَ الشَّرع فى قَتَلة عثمان، أم ثورةً مصدَرُها طُمُوحُه الى الملك ليغتصبَه لنفسه ؟ — نستطيع أن نفهم ذلك من حديث جرى بينه وبين عائشة بنت عثمان ، فانّ التاريخَ يحـدّثنا أن معاويةَ لما قدِم المدينـة دخل دار عثمان ، فقالت عائشة بنت عثمان : وا أبتاه ! وبكَتْ ، فقال معاويةُ : « يابنة أخى ، إن الناس أعطَوْنا وأعطيناهُم أمانا ، وأظهرنا لهم حِلما تحته غَضَبٌ ، وأظهروا لنا طاعةً تحتها حِقْدٌ ، ومع كلّ إنسانٍ سيفُه وهو يرى مكانَ أنصاره ، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ، ولأن تكونى بنتَ عمّ أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكونى امرأةً من عُرْض المسلمين » .

وقد لا نجد تصويرا أدقَّ لسياسة معاويةَ وطريقة حكمه من قوله : "لا أضع سيفى حيث يكفينى سَوطى ، ولا أضعُ سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أنّ بينى وبين الناس شعرةً ما انقطعتْ ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : كنت اذا مدّوها خلّيتها واذا خلّوها مددتها" .

فهذا القول يُبيّن حلمَه وطولَ باعِه فى السياسة ، وهدوءَ أعصابه اذا جابهتْه المشكلاتُ ، أو نزلَتْ بساحته الكوارثُ والمعضلاتُ ، ويُظْهِرُ سعةَ عطنه وحزمه . ولقد قال له يزيد يوم بويع له على عهده فجعل الناسُ يمدحونه ويقرّظونه : « يا أميرَ المؤمنين ، والله ما ندرى أنخدعُ الناس أم يخدعوننا ! » فقال معاويةُ : « كلّ مَنْ أردتَ خديعتَه فتخادعَ لك حتى تبلغَ منه حاجتَكَ فقد خدعته » .

ثم انظر الى مختَلِف تصرّفات معاويةَ فى حياته السياسية وغيرها ، فإنك لَتقتنعُ بصدق حكم الشعبىّ الذى قال فيـه : « كان معاوية كالجمل الطبّ اذا سُكِت عنه تقـدَّم ، واذا رُدَّ تأخّر» .

(و) ممـــيزات معاوية :

ولقد امتاز معاويةُ الى جانب إلمـامه التامّ بميول كلّ من له به علاقةٌ من الناس ، وصادِقِ تقديره مع ثقوب بصيرته بما فيهم من نواحٍ للضعف يستطيع التسرّبَ اليهم منها —

امتاز الى جانب هذا كلّه بصفات ثلاث لها مكانتها السامية فى تكوين الدُّهاة من ساسة الوقت الحاضر، تلك الصفات الثلاثُ هى : أوّلا إيقاعُ أعدائه فى مشكلات لا تقوم لهم من بعدها قائمةٌ، بأفانين طريقة طالما عَمَدَ اليها الكثيرُ من ساسة اليوم، مثال ذلك طريقته فى إيقاع بطارقة الروم الذين يكيدون للإسلام، وذلك بهاداتهم ومكاتبتهم بطريقة مكشوفة، لإغراء الملك بهم .

الصفة الثانية من مميزات معاوية الخلقيّة هى حلمُه، وهناك مئاتُ الأمثـال أُترِعَتْ بها كتبُنا الأدبيةُ والتاريخيةُ، مُشيدةً بحلمه مُطنبةً فى فضائل سَعَة صدره . على أنّا نجتزئ هنا بمثل عادىّ، ذلك أنه لمـا ألحق زيادا بأبيه دخل عليه بنو أمية وفيهم عبدُ الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم الأُموى، فقال له : يامعاوية لو لم تجد إلا الزنجَ لاَستكثرتَ بهم علينا قِلّةً وذلّةً، فأقبل على أخيه مروان وقال : أخرج عنا هذا الخليعَ، فقال مروان : والله إنه لخليعٌ ما يطاق، فقال معاوية : والله لولا حلمى وتجاوزى لعلمتَ أنه يطاقُ ! ألم يبلغنى شعره فىّ وفى زيادٍ ! ثم قال لمروان : أَسْمِعنيهِ، فقال :

ألا أَبلِــغْ معاويةَ بنَ صخر * لقد ضاقَتْ بمـا تأتى اليدانِ
أتغضَبُ أن يقالَ أبوك عَفٌّ * وترضى أن يقالَ أبوكَ زانِى

الصفة الثـالثة هى نعومته السياسية، وهى غير الحلم، وقد تُعتَـبرُ الى حدٍّ ما من نوع المغالطات السياسية، مثال ذلك ما كان بينه وبينَ الحسن بن علىّ فى شأن نزوله عن الخلافة له، إذ كتب اليه معاويةُ كتابا قيما جاء فيــه : «أما بعد، فأنت أولى بهــذا الأمر وأحقّ به لقرابتك، ولو علمتُ أنكَ أضبطُ له وأحوطُ على حريم هذه الأمة وأكيدُ لبايعتُكَ، فسل ما شئتَ» . وبعث اليه بصحيفة بيضاء مختومة فى أسفلها : أن آكتب فيها ما شئتَ . فكتب الحسنُ أموالا وضياعًا وأمانًا لشيعة علىّ .

أضف الى هــذه الصفات ما كُتِبَ لمعاوية مِن توفيقٍ وسَـدَادٍ فى اختيار أكبرِ دُهاة الولاة كعمرو بن العاص وزيادِ بن أبيه والمغيرةِ بن شعبة : ممن عملوا معه على توطيد

الملك له ، والذين ارتسموا ، الى حدّ غير قليل ، خطوات زعيمهم السياسى فى شراء الضمائر وسَعَة العَطَن ورُجوح حَصَاة العقل . وهـذا زياد المعروف بشـدة الوطأة بلغه عن رجل يُكنَى أبا الخير من أهل البأس والنَّجدة أنه يرى رأىَ الخوارج ، فدعاه فولّاه جُنْـدَيْسابور[1] وما يليها ورزقه أربعـة آلاف درهم كلّ شهر ، وجعل عِمَـالته فى كلّ سـنة مائة ألف . فكان أبو الخير يقول : «ما رأيت شيئا خيرا من لزوم الطاعة ، والتقلّب بين أظهرِ الجماعة» . كذلك فعل المغـيرةُ بن شعبة حين حَصَبه حُجْرُ بنُ عِدىّ وهو على المنبر فى خطبة الجمعـة ، فإنه نزل مُسرعًا ودخل قصرَ الإمارة وبعث الى حجـرٍ بخمسة آلاف درهم ترضّاه بها . فقيل للمغيره : لم فعلتَ هذا وفيه عليكَ وَهْنٌ وغَضَاضةٌ ؟ فقال : «قد قتلتُه بها» ! !

الى جانب هـذه العناصر المكوّنة لتلك الشخصيّة البارزة التى اعتمدَتْ فى تأسيس ملكها على ما اعتمدت عليه مِنْ ترضّى الأحزاب بالمـال وعامّة الناس بالطعام ، واستغلال العصبيات العربية ، والتساهل فى إقامة الحدود الدينية اذا دعت الى ذلك طبيعةُ الأحوال السياسية ، فإنّ معاويةَ يصف بنفسه سببَ نجاحه على علىّ بقـوله : «أُعِنْتُ على علىّ بن أبى طالب بأربع خصال : كان رجلا ظُهَرَةً عُلَنَـةً لا يكتم سرًّا ، وكنتُ كَتُومًا لسرِّى ، وكان لا يسعى حتى يُفاجِئَه الأمرُ مفاجأةً ، وكنتُ أُبادرُ الى ذلك ، وكان فى أخبثِ جنـدٍ وأشدّهم خلافا ، وكنتُ أحبَّ الى قريش منه ، فنِلتُ ما شئتُ ، فلّله مِن جامعٍ الحقّ ومُفرّق عنـه !» .

(ز) معـاوية والسياسة المكيافلية :

وبعد ، فإن السياسة الحديثة قد أباحت لرجالاتها فى سبيل تحقيق غاياتهم أن ينتهجوا من الوسائل ما يكفُلُ لهم نُجْحَهُم السياسىّ . ويجب علينا أن نُثبت أن جُلَّهم ، ولو أنهم يتظاهرون بنفورهم من مدرسة «ما كيافلى» التى تُضَحّى بكل شىء تسويغا للوصول الى الغاية السياسية ، يأخذون فى الواقع بتعاليمها ويعملون على بَرْنَامَجِهَا . هذه السياسة الإيجابية فى نجاحها العملىّ ، السلبية فى إرضائهـا المناحى الخلقيّة ، هى التى أخرجَتْ لنـا

(١) مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت اليه ، وأسكنها سبى الروم وطائفة من جنده . أنظر معجم ياقوت .

«ماترنيخ» و «كافور» و «دزرائلي» و «بسمرك» و «بت» ، وهي التي كان من أبطالها « جلادستون » ذو المواقف الغريبة في الإقناع واكتساب ثقة الجمهور ولو تحلل من الشواهد واختلق من السابقات ما ليس له من وجود !

كذلك كان معاوية ، في جُلِّ تصرفاته ، يحفل كثيرا بتحقيق غاياته في تشييد الملك ، فهو يُدبِّر أمورَ الناس لهذه الوجهة ، وهو ينتهج من الوسائل السياسية ما يكفُلُ نجاحَه في هذه الوجهة . وإنه لخليق بنا وبسوانا ألّا نعدوَ بعيدا عن هذه الوجهة حين نَظَرنا الى معاويةَ في كتابه الى مروان بن الحكم بشأن حدّه شاعرَه الكبير ابن سيحان ، وحين حكم لابن الزبير بثمن داره المحترقة ، وحين أرضى عَقيلًا ، واحتملَ من الأحنف بن قيس ما احتملَ ، وحين تخلّص من الاشتر النخعيّ ومن عبد الرحمن بن خالد ، وحين فصل في منازعة عمرو ابن عثمان بن عفان وأسامة بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حكاية الأرض التي قيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطعها أحدَهما ، وحين كان يبذُل المالَ طبقا لمناهجه السياسية . وإنا نُبيح لأنفسنا حين ننظر الى قول زين العابدين : « إن عليا كان يقاتله معاويةُ بذهبه » أن نقول : « إن معاويةَ كان يقاتل عليا بذهبه وذهنه » .

وإنا لنظنّ أنا قد صوّرنا معاويةَ بما هو أهلُه ، وأوضحنا ما كانت عليه تلك الشخصيّةُ الفذّة في مسايرة الناس واحتمال الأذى منهم ، والتي يقول صاحبُها : "ما من شيء عندي ألذّ من غيظٍ أتجرّعه" ، «وإني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين مُلكنا» .

والآن نستطيع ، بعد أن كشفنا القناع عن أخلاق معاوية ومميزاته ، أن نفهم قيمةَ قول عليّ رضي الله عنه في كتابه الى زياد بن أبيه حينما كان من ولاته يحذره من معاوية وهو ما نختتم به كلمتنا فيه : "إني ولّيتُك ما ولّيتك وأنا أراك له أهلا . وقد كانت من أبي سفيان فلتةٌ من أماني الباطل وكذبِ النفس ، لا تُوجبُ لك ميراثا ولا تَحِلّ له نسبا . وإن معاويةَ يأتي الإنسانَ من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذَر ثم احذَرْ . والسلام" .

———

الفصل الثالث

سياســـــة معــاوية وخلفــائه

توطئة — اصطناع الأحزاب بالمــال — العمال — الوجهة الدينية — التعسف المذهبي .

(أ) توطئـــــــة :

إنّ معاويةَ الذى مَرَنَ على الســياسة بنشأته وحَذَقَها بسجيّته وأتقنها لمختلِف أدوارها التى تقلّب فيها ، فطُبِــعَ عليها وطُبِعَتْ عليه ، وأصبح منها وأصبحت منه ، لم يكن فى مقدوره إلا أن يكون سياسيا فذًّا موفّقا ، بل مصدر سياسات عبقرية طالمـا نَشَدها عصرُه وزمانُه حتى بُعِثَ بهـا وبُعِثَتْ له ، وخُلِقَ منها وخُلِقَتْ منه ؛ وكانت فى نفسها وجوهرها خليقةً للإجلال والإكبار ، كما كان صاحبُها قمينًا بالنجاح جديرا بالتوفيق ؛ لأنه لم يكن فى وسعه ، بطبيعته واســتعداده ومواهبه واستئثاره لأداة الحكم والسلطان ، إلا أن يُوفّقَ مظفَّرًا فى مختلف خُطَطِه التى ارتسمها سديدةً ناجحةً ، لأنها قطعةٌ من نفسه ؛ وكلُّ ما كان من نفس معاوية فهو بمثـابة أصول السياســة فى تشييد الملك بمنجاةٍ من الأعاصــير التى تقتلع كلّ مُلْكٍ قائم على غير طبيعة السنن الملكية الضرورية لها ولضمان حياتها ودوام قوّة بيوتاتها .

إنّ معاويةَ ومن ضُربَ على قالَبه وغِراره علموا الخفيّاتِ من أهواء النفوس ، فتم لهم تملّكُها وقيادتُهـا ، وانتهجوا بها من المســالك ما أشــبع نَهْمَتَهم ونهمتها ، وحقّق بُغيتَهــم وبغيتَها ، ووحّدوا بين تيار مصلحتهم السياسية ومُختلِف رغباتهـا ومُصطَدم مَنازِعها ، وفَطِنُوا بثقوب بصائرهم الى استخدام كلّ ما فيه القوّةُ والحياةُ لمُلكِهم من شتّى العناصر : فى أنفسهم وولاتهم وسائر شَعْبِهِمْ .

أما فى نفوسهم فبأخذها ، مكرهةً أو طائعةً ، بالتزام ما فيــه النُّجحُ والتوفيقُ مع قصدٍ واعتدال ، فتختار من الولاة والزعمــاء والقوّاد والبطانة مَنْ فيهــم الغُنيةُ والكفايةُ وحسنُ

البَلاء ، يبحث عنهم أنّى وُجِدُوا ، مهما كانت عصبياتُهم وخفـةُ ظِلّهم أو كثافةُ نفوسهم ، ويُجعَـلون فى مراكزهم بمعـزلٍ عن التغيـير والتبـديل ما داموا من أوتاد الدولة وأركان الملكِ .

وأما فى ولاتهم فببعدهم عن جور الرعية وإنصافهم الناسَ جميعا ، فلا يصيبهم من وراء لونهم السياسىّ أو مذهبهم الدينىّ عَسفٌ ولا ظلمٌ .

ولقـد سأل الوليد عاملَه الحجاجَ المعروفَ بعَسـفه وجَبروته أن يكتب اليه بسـيرته ، فكتب ما نثبته هنا ، وكنا نودّ أن يكون نبراسًا حقًا للحجاج وغير الحجاج ، قال :

” إنى أيقظت رأيى وأنمت هواى ، فأدنيتُ السيدَ المطاع فى قومه ، ووليّتُ الحربَ الحازمَ فى أمره ، وقلدتُ الخراجَ الموفِّرَ لأمانته ، وقسَمت لكل خصم من نفسى قَسما يعطيه حظا من نظرى ولطيف عنايتى ، وصرفتُ السيفَ الى النَّطِف المسىء ، والثوابَ الى المحسن البرىء ، فخاف المريبُ صولةَ العقاب ، وتمسَّكَ المحسنُ بحظه من الثواب “ .

وأما فى سائر شَعْبهم فبأن يستمتعوا بكل ما يُرضى العدلَ والحقَّ مع طُمَأنينتهم على مالهم وأنفسهم ، وأن تكون أبوابُ الولاة لشَكَاتهم مفتوحةً ، وآذانُهم لمطالبهم مُصْغية ، وعيونُهم لخيرهم ناظرةً . وكم تُفيد تلك الصفاتُ مع حزم فى الولاة !

وهذا زياد بن أبيه كان مع شدّته لا يحتجب عن طالب حاجةٍ وإن أتاه طارقًا بليل . وهو الذى كانت عقوبته القتلَ للمدلج ، وأخذ المقبل بالمدبر والمقيم بالظاعن . وقد وُفِّقَ زيادٌ الى آستتباب الأمن فى ربوعه حتى قال المـدائنىّ : « قَدِمَ قادم على معاويةَ بنْ أبى سفيان فقال له معاوية : هل من مُغَرِّبَةِ خَبَرٍ ؟ قال : نعم ، نزلت بماء من مياه الأعراب فبينا أنا عليه أورد أعرابىّ إبلَه ، فلمـا شربَتْ ضرب على جُنوبهـا وقال : عليك زيادًا ، فقلتُ له : ما أردتَ بهـذا ؟ قال : هى سُدّى ما قام لى فيها راع منذ ولى زياد . فسرّ ذلك معاويةَ وكتب به الى زياد » .

قلنا : إن معاوية ومن ضُرِبَ على قالبه وغِراره فَطِنُوا بثقوب بصائرهم الى اسـتعمال كلّ ما فيه القوّة والحياة لملكهم من شتّى العناصر فى أنفسهم وولاتهم وسائر شَعْبهم ، والآن نريد أن تَدرُس بإيجاز الأُسُسَ التى باتباعها تمّ النجاحُ فى تشييد البيت الأُمَوِىّ ، والتى باضطرابها والتنكّب عن سنتها وطبيعتها كان ضَيَاعُه وفناؤه .

(ب) اصطناع الأحزاب بالمـال :

قال ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء : «إن أحمدَ بن يوسفَ الكاتبَ قال لأبى يعقوب الخُرَيمى : مَدَائحُكَ لمحمد بن منصور بن زياد — يعنى كاتب البرامكة — أشعرُ من مراثيك فيـه وأجودُ؛ فقال : كنّا يومئذ نعمـل على الرجاء، ونحن اليوم نعمـل على الوفاء وبينهما بونٌ بعيدٌ » .

واستطرد ٱبن قتيبــة فقال : « وهذه عندى قصــةُ الكُمَيْت فى مدحه بنى أميــة وآل أبى طالب فإنه كان يتشيّع وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعرُه فى بنى أمية أجودُ منه فى الطالبيين ؛ ولا أرَى عِلّةَ ذلك إلا قوّةَ أسباب الطمع وإيثارَ النفس لعاجل الدنيـا على آجل الآخرة » .

صدقَ ٱبنُ قتيبة فيما ذهب اليه ؛ فإن أثر المـال فى النفس الإنسانية غيرُ قليلٍ ، وإن أثره فى اصطناع الأحزاب السياسية لما لا يحتاج الى تدليل ؛ وقد جُبِلَت النفوسُ على حُبِّ مَنْ أحسنَ اليها وبغض مَنْ أساء اليها .

ولقد كان معاوية كيّسًا فذًّا فى استعمال المـال واكتساب رضا الجمهور ، وكذلك كان كل من ٱئتم بهديه وسـنته ، فى البذل والعطاء ، وفى التوسـعة على من آزرهم ، وعَمِلَ على نصرتهم ، ومدّ ظلهم وتثبيت عرشهم ؛ فقد زاد معاوية فى العطاء لمن شهد مواقعَه ، كما فرضَ الأعطيةَ للشعراء ، غاضًّا طرفَه عما فى ذلك من إغضاب المحافظين من رجال الدّين ، إذ كان همه أن يتملك الأبواق المدّاحة ويسـترضيَها بهباته ونواله ، لتَنشُرَ فى الآفاق ذكرَه وترفع الى السماكين فضلَه ، حتى قصدَه الشعراءُ وانتجعوه ، وناصروه وظاهـروه ، وحتى علم الخاصّ

والعامّ أنه إن مدحه أثراه، وإن استرفده أغناه، وإن ناصره راشَه وأعلى مكانَه، فأضحى نُجعةَ الروّادِ ومَقْصِدَهم، وموئلَ القُصّاد ومَنْهَلَهم. وكانت الزوجة تستحث عَزَمَات زوجها أن يهرَعَ اليه لِيُصيبَ من نوافله، وليعُودَ اليها بنوائله، كما كانت تُرَغِّبُ بعلَها أن يبيعَ إبلَه وأن يفترضَ فى العطاء بشعره.

وقد حكى لنا أبو الفرج الأصفهانىّ شيئا من ذلك فى أخبار جبيهاء[1] الأشجعىّ فى خبر طويل انتهى بأن قال جبيهاء الأشجعىّ قصيدته التى فيها:

قالت أنيسَةُ دَعْ بلادَكَ وَالْتَمِسْ * دارا بِطَيْبَةَ رَبَّةِ الآطامِ
تُكْتَبُ عِيالُكَ فى العطاء وتُفْتَرَضْ * وكذاك يفعلُ حازمُ الأقوامِ

وهنالك مسألة مهمة من سياستهم فى اصطناع الأحزاب، وإلجام الأفواه بالمال، وفرض العطاء للشعراء الذى ظل معمولا به إلا فى أيام عمر بن عبد العزيز، ذلك أنهم كانوا يتملكون رقابَ المسلمين بإقراض من شاءوا من مال الصدقة ويكتبون صَكًّا عليهم. ونحن نعلم أن الدَّينَ همٌّ بالليل ومذلّةٌ بالنهار.

ويذكر لنا الأغانى فى باب أخبار جعفر بن الزبير ما فرضه له سليمان بن عبد الملك إذ أمر له بألف دينار فى دينه، وألف دينار معونةً على عياله، وبرقيق من البيض والسودان، وبكثيرٍ من طعام الجارى، وأن يُدانَ من الصدقة بألفى دينار.

على أنه قد يُعتَرَضُ علينا بأن الحادثة التى قدّمناها حادثةٌ فرديةٌ لا يصح أن تُتخذَ قاعدةً عامة أو أن يُستنبطَ منها وقوعُ مَثيلاتها وذيوع نظيراتها.

بيدَ أن الأغانى يُجْهِزُ على هذا الاعتراض، إذ يُثْبِتُ ما نصه: «كان السلطان بالمدينة اذا جاء مال الصدقة أدان من أراد من قريش منه، وكتب صَكًّا عليه يستعبدهم به ويختلفون اليه ويدارونه، فاذا غَضِب على أحد منهم استخرج ذلك منه، حتى كان هارونُ الرشيدُ،

(١) قال شارح القاموس فى مادة «جبه»: جبيهاء الأشجعىّ كحميراء: شاعر معروف كما فى الصحاح. وقال ابن دريد: هو جبهاء الأشجعى بالتكبير.

فكلمه عبدُ الله بن مُصْعَب فى صكوك بقيت من ذلك على غير واحد من قريش فأمر بهـا فأحرقت » .

فمثلُ هذا التصرّف فى آسترضاء الناس واسـتعبادهم وفى إقراضهم المـالَ ليكونوا أولياء وتعجيزهم وإرهاقِهم ان جنحوا لمناوأة ولاة الأمور أو منافستهم، له آثارُه من خيرٍ وشرٍّ فى المصلحة الحزبية لبيت بنى أمية، طبقا لمـا يبديه الزعماء من حُنْكَةٍ وحزمٍ، وإصابةٍ لمواقع الصـــواب .

وبعد، فإنّ هذا السلاحَ المـاضىَ فى يد الأقوياء لهو أشدّ مَضَاءً فى القضاء على الضعفاء اذا أساءوا اسـتعماله، لأنه قد يُبْذَل لشراء مثل «الذّلفاء» وغيرها من القيان، ولأنه قد يبذله الشبابُ من الخلفاء فى ضروب الخلاعة والاستهتار، فيكون معولَ هَدْم ودمارٍ، كما حصل لمحمد الأمين وأمثال محمد الأمين ممـا سنورده عليك .

وإنا لنرى فى أخريات هذا البيت ذى الأثرِ الكبيرِ فى تحوّل المدنية العربية أن بعض الخلفاء نقصَ الناسَ العطاءَ فعانوا ضيقا بعد سَعةٍ، وشظفًا بعـد رفاهيةٍ . وشرّ السياسات أن تُصيبَ صاحبَ عيش رغيدٍ بإضاقةٍ وحرمانٍ، وأن تُنزلَ به غَضاضةَ التقتير والعسر .

ولننظر ما يقوله اليعقوبىّ عن خليفة من هذا الطراز : طراز الإضاقة فى أرزاق الناس وعنوانِ اضمحلال الدولة اذا آذن نجمُها بالأفول، وآل أمرُها الى الإفلاس .

يقول اليعقوبىّ عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك : إنه سُمّى يزيدَ الناقصَ لأنه نقصَ الناسَ من أعطياتهم واضطربَتْ عليه البُلدانُ، وكان ممن خرج عليه العباسُ بن الوليد بحِمْص وشايعه أهلُ حمص، وبشرُ بن الوليد بقِنّسْرينَ، وعمرُ بن الوليد بالأُردنّ، ويزيدُ بن سليمان بفلسطين، وساعد العباس أبو محمد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية وسليمان بن هشام .

يريد اليعقوبىّ أن يقول من غيرشك : إن هؤلاء الأمراء انتهزوا غضب الجند لنقصان الأعطية فثاروا .

ليس هـذا فحسب ، بل إنّ سـياسة بعض الخلفاء دفعتهم الى حرمان مُدُنٍ بحذافيرها من عطائها ، كما حصل لأهل مكة والمدينة إذ حُرِمُوا سنةً كاملة ، فى حين نرى معاوية قد زاد عطاء أهل البيت مثل الحسن والحسين وعبد الله بن عباس الى ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم فى السنة فضاعفها مائتى مرة عن حساب ديوان عمر بن الخطاب .

أفلا يجدُر بنا بعد ما أسلفناه أن نقتنعَ بأن المـال كان سببا قويا لبنـاء بيت معاوية ، وأن المـال نفسَه كان ، الى حدّ غيرِ قليل ، سببا له خطرُه وقيمته فى انهيار هذا البناء ! .

(ج) العـــمال :

قال زياد : ما غلبنى أميرُ المؤمنين معاويةُ قط إلا فى أمر واحد : طلبتُ اليه رجلا من عمّالى كسر علىّ الخراجَ فلجأ اليه ، فكتبت اليه : "إن هذا فسادُ عملى وعملك" . فكتب إلىّ : "إنه لا ينبغى أن نسوسَ الناسَ سياسةً واحدة : لا نَلين جميعا فيمرح الناسُ فى المعصية ، ولا نشتدّ فنحمِل الناسَ على المهالك ، ولكن تكون أنتَ للشدّة والفَظَاظة والغِلظَة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة" .

وكتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج حين استأذنه فى أخذ تلك الصُّبَابةِ من المـال التى تُتركُ لأصحاب الأراضى يتعلّلون بها ولتكونَ لهم ردءا وظهيرًا اذا نزلت بساحتهم النوائبُ والجوائحُ ، قال : "لا تَكُنْ على درهمك المأخوذِ أحرصَ منك على درهمك المتروك ، وأبقِ لهم لُحومًا يعقدون بها شحومًا" .

بمثل هـذه السياسة بين العمال والخلفاء ، وبمثل اختيار معاوية وغير معاوية ، كهشام وعبد الملك ، لعمال ذوى كفايةٍ ودهاء ، وحذق وحسن بلاء ، كزياد ومن على شاكلته ، أُتيحَ لمعاويةَ وخلفاء معـاوية تَبوّؤ عرش المملكة العربيـة قوىّ الأركان لا تهتصره العواصفُ والأعاصيرُ ، ثابتا لا تُزعزِعه ثَوْرَاتُ الخوارج ولا حروبُ المنافسين .

كانت الدولةُ أيامَ معاوية ، أيام بنائها وتشـييدها ، أيام تلك المصاعب الكأداء التى اعتورت سبيلَهم ، وتلك الشدائد التى تُشيبُ وتُفزع ، وتقضُّ المضاجعَ ، وتجتثُّ من النفوسِ

آمالها، ومن العزمات مَضَاءها: ومن القلوب بأسَها — كانت الدولة يومئذ غنيةً بالكفايات، خِصْبَةً بمَهَرةِ العمّال وحذّاق الوُلاة. ولعلها سنة طبعية أن يكون دَور بناء العروش والممالك خِصبًا برجاله الكفاة، كما يكون دور انحلالها قاحلا عقيما فى كل شىء؛ وإن كانت الأمم، وهى تنقطع أنفاسُها، قد لا تخلو ممن لا يألو جهدا فى سبيل إقالتهــا من عثرتها، وإنهاضها من سَقْطتها.

ألم يكن الى جانب معاوية فى عصر البناء أصحابُ الكفايات النادرةِ من العمال والولاة أمثال عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شـعبة الذين يقول فيهم بعضُ النقّاد: «ما رأيت أثقلَ حِلما ولا أطول أناة من معاوية، ولا رأيتُ أغلبَ للرجال ولا أبذَّ لهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص، ولا أشبهَ سرًّا بعلانيةٍ من زياد، ولو كان المغيرة فى مدينة لهــا ثمانيةُ أبواب لا يُخْرَجُ من باب منها إلا بالمكر لخرج من أبوابها كلِّها».

على أنه يجدُرُ بنا أن نصوّر حالةَ الولاة الكُفاة أيامَ القوة، وما آل اليه أمرُهم بعد ذلك حتى أضحَوْا يتقرّبون الى الخلفاء بالهدايا والألطاف والرُّشا مع عَسْف الرعية والكيد لها. ولْنترك لليعقوبىّ التكلّمَ عن الحالة الأولى، ولابن الأثير بيانَ الثانية، ثم نُرْدِفُ ذلك ببعض الحقائق التاريخية لكى يُتَاحَ لنا بعدئذ أن نطمئنَّ الى تقدير هـذا العنصر — عنصر العمال — وأنه لا يقلّ عن المال قوّة وأثرا، سواء أكان ذلك فى البناء أم فى الهدم، أما البناء فبحسن اختيار العمال وكفاياتهم، وأما الهدم فبعسف الولاة ونُخْرِقِهم، وسوء اختيارهم وقلة بضاعتهم فى تدبير الممــالك وسياسة الناس.

قال اليعقوبىّ فى معرض كلامه عن زياد بن أبيه بعد أن وصف ما له من دهاء وحيلة وصولة: «كان زياد يقول: مِلَاكُ السلطان أربعُ خلال: العفافُ عن المــال، والقُرب من المحسن، والشدّةُ على المسيء، وصدقُ اللسان. وكان زياد أوّلَ من بسط الأرزاقَ على عمّــاله ألفَ درهم ألفَ درهم ولنفسه خمســة وعشرين ألف درهم. وكانــ يقول: ينبغى للوالى أن يكون أعلم بأهل عمله منهم بأنفسهم». وبعد أن ضرب اليعقوبىّ الأمثالَ

على معــرفة زياد بدخائل رعيته قال مصوراً رأى زياد فيما يتطلّبه بعض الشؤون العامة من الصفات فيمن يتولّاه : كان زياد يقول : «أربعةُ أعمال لا يليها إلا المسنّ الذى قد عضّ على ناجذه : الثغرُ، والصائفــة، والشُّرَط، والقضاء . وينبغى أن يكون صاحبُ الشُّرَط شديدَ الصولة قليلَ الغفلة، وينبغى أن يكون صاحبُ الحرس مُسنًّا عفيفا مأمونا لا يُطْعَنُ عليه . وينبغى أن يكون فى الكاتب خمسُ خلال : بُعدُ غورٍ، وحسنُ مداراة، وإحكامٌ للعمل، وألّا يؤخرَ عملَ اليوم لغدٍ، والنصيحةُ لصاحبه . وينبغى للحاجب أن يكون عاقلا فَطِنا قد خدم الملوكَ قبل أن يتولى حجابتَهم» .

ثم آنظر ما آل اليه الأمرُ أيام الوليد بن يزيد الذى رغب فى اكتساب قلوب الناس بعد نفورها، وإرضائها بعد تبرّمها، وإيناسها بعد وحشتها، بأن يزيد فى أعطياتهم ويضاعفَ أرزاقَهم . بيــد أن مَعِينَ المــال قد نضَبَ أوكاد، والخزانةَ قد استنزفتها الملاذُّ وحروبُ الخوارج وإخماد الفتن، فعمد الى بيــع الولايات . وإن آبنَ الأثير ليخبرنا، فى حوادث سنة خمس وعشرين ومائة، أن الوليد قد ولّى نصرَ بنَ سَيَّارٍ خُراسانَ كلَّها وأفرده بهــا، ثم وفَدَ يوسفُ بنُ عمرَ على الوليد فاشترى منه نصرا وعُمَّالَه، فردّ اليــه الوليدُ ولايةَ خراسان، وكتب يوسفُ الى نصرٍ يأمره بالقدوم ويحملُ معه ما قدر عليه من الهدايا والأموال وأن يُقدم معه عمّاله أجمعين . ثم قال : وكتب الوليد الى نصر يأمره أن يتّخذَ له برابطَ وطنابيرَ وأباريقَ ذهبٍ وفضةٍ، وأن يجمع له كلّ صُنَّاجَةٍ بخُراسانَ، وكلَّ بازٍ وبِرذَونٍ فارهٍ، ثم يسير بكل ذلك بنفسه فى وجوه أهل خراسان .

ثم انظر ما يقوله الأغانى من عاملٍ لعبد الملك بن مروان على خراسان، وهو أمية ابن عبــد الملك الذى كتب اليه يقول : «إنّ خَرَاجَ خراسان لا يفى بمطبخى»، وما أثبته القاضى آبن خلِّكَان فى تاريخه عن أبى خالد يزيد بن أبى المثنى عمرَ بن هبيرة والى مروان ابن محمد على العراق : من أن رِزقَه كان ستَّمائة ألف درهم .

هذا الى ما نزل بأهل الذمة وغيرهم من العَسْف وزيادةِ الضرائب، وما كان من تَخْلية أصحاب الأراضى لهــا بغير حرث ولا زرع، وما كان من مبالغة العمال فى إهــداء الخلفاء،

ونزوعهم الى جمع الثروة واختزان المـال؛ فإنك بعد كلّ هذا تطمئنُّ معى الى الاقتناع بأن العمال الكفاةَ مصدرُ قوّة فى بناء الممالك وعُنصُرٌ يُحفَل به فى مادّة حياتها، وأنهم عنوان مهابتها وصولتهـا، وأن الولاةَ الظلمةَ الضعافَ مصـدرُ ويلٍ وثبـورٍ، وأداة هـدمٍ وتخريبٍ وانتثارٍ وفناءٍ .

وإنا نسوق هنا كلمةً لبعض بنى أميـة حين سُئل عن سبب زوال ملكهم لا تخلو من عظة واعتبار، قال : « ... قِلّةُ التيقظ، وشُغلنا بلذاتنا عن التفرّغ لمهمّاتنا، ووثِقنا بكُفَاتنا فآثروا مرافِقَهم علينا، وظَلَم عُمّالُنا رعيّتنا ففسدتْ نيّاتُهم لنا، وحُمِلَ على أهل خراجنا فقلّ دَخْلُنا، وبطلَ عطاءُ جندنا فزالت طاعتُهم لنا، واستدعاهم أعداؤنا فأعانوهم علينا، وقَصَدَنا بُغَاتُنَا فعجزنا عن دفعهم لقـلة أنصارنا، وكان أوّلُ زوال ملكنا اسـتتارَ الأخبار عنا، فزال ملكنا عنا بنا» .

(د) الوجهـــة الدينيـــة :

إنّ سُنةَ معاوية فى بناء دولته لم تكن، مع ما نعلمه من ترخصه فى إقامة الحـدود فى بعض الأحوال لضرورات سياسية، سنّةَ استهانةٍ بالدين ولا إمعانٍ فى ازدرائه أو الخروج عن جُلِّ مظاهر الاحتشام الدينىّ، الخليقةِ بمن يسوس أمورَ الدين والدنيا، هذه سُنةُ معاوية وطريقتُــه فى سياسة الملك . أما خلفاؤه فقد تنكَّبَ جُلُّهم سـنّته الحكيمةِ، وأطلقوا لشهواتهــم العِنانَ فيما ينبغى أن يكون خلفاءُ المسلمين وأئمتُهم بنجوةٍ منه . وقد كان لذلك آثاره فى الدولة من حيثُ تأثر أخلاقها القوميـــة، وما أصابهـا من انحلالٍ وضعفٍ، ومن تفكّكٍ وفتور . وسنعالج تصويرَ هذه العواملِ بأيجازٍ واقتضابٍ فى كلمتنا هذه، فلا نُفردُ لكل منها بابا، وإن كنا نعلم أنه يترتب على توضيحنا لهذه الأصول فائدةٌ جُلّى، بيد أن اتساع نواحى الموضـوع وتشعُّبَ فروعه ومختلِفَ أبوابه — كلّ ذلك يُلزمنا إلزاما اتباعَ ما رسمناه لأنفسنا من القصد والاعتدال .

لسنا بحاجة، على ما نظنّ، الى تصوير أخلاق من فيهم الكفايةُ من خلفاء معاوية من ناحيـة الدين والخُلُقِ العام، لأن فيما عالجناه من تحليل أخلاق معاوية الغُنية والكفايةُ .

ونريد الآن أن ندرُس تلكَ الناحيــةَ العكسيةَ ، ناحيةَ أولئك الخلفاء الذين لم يبالوا التقاليد الدينية فازدروا طقوسها، مع ما كان فيهم من ضعف وما بهم من خُرْقٍ .

إنّ أمامنا يزيدَ بنَ معاوية، ويزيدَ بنَ عبد الملك، والوليد بنَ يزيد . أما ٱبنُ معاوية فقد أصاب اليعقوبيّ سِدْرة الصواب حين وصفه بأنه حِلْفُ نسوةٍ وصاحبُ مَلَاهٍ . ويكفى أن نَدرُسَ حياتَه — مع أن الدولةَ كانت فى إبَّانِ قُوّتها ومَيعة شَبابها — لِنقتَنِــعَ بأنها كانت بمثابة مَعَاوِلِ هدمٍ وتخريبٍ، وإن فى إلمــامنا بما كان من مسلم بن عقبة الذى انتهكَ المدينة لمقنَعًا بمــا نقول . لقد كان جندُ يزيد بعــد واقعة الحرّة وغيرها يطلبون الى الرجل القرشىّ أن يبايع ليزيدَ، لا من ناحيةِ ٱقتناعه الدينىّ طبعا، ولا بدافع الترغيب والمــال، ولا بسياسة الرقة واللطف التى قــد يُنَالُ بها أكثر ممــا يُنَالُ بالشدّةِ والعنفِ، بل من ناحية السيفِ والإرهاب، يجب أن يبايعَ وأنفُه راغمٌ، ويجب أن يبايع مع ما يرى من انتهاكهم المدينة . كانت جنــدُ يزيد تقول للقرشىّ : بايع على أنك عبــدٌ قِنّ ليزيدَ؛ فإن أبى ضُرِبَ عنقُه، فكانت مقتلةٌ ذريعةٌ . ثم انظر ما كان من حصارهم مكةَ التى إذا قال قائلُها: «يا أهل الشأم، هذا حرمُ الله الذى كان مأمنًا فى الجاهلية يأمن فيه الطيرُ والصيدُ فاتقوا الله يا أهلَ الشأم»، صاح الشاميّون «الطاعةَ الطاعةَ» .

لنترك يزيدَ جانبا، محيلين القارئَ الى ما فى الأغانى وغيره من كتب الأدب والتاريخ ولنردّد الطرْفَ فى حياة يزيد بن عبد الملك، فنجد أبا الفرج الأصفهانىّ يذكر لنا، فى غير موضع من حياة سَلَّامَةِ القَسِّ، وحَبَابة وغيرهما، شيئا لا يُستهان به عن إسرافه فى تهتكه، فينقل لنا عن المدائنىّ قوله : قَدِمَ يزيدُ بن عبدالملك المدينةَ فى خلافة سليمانَ، فتزوّج سُعدةَ بنتَ عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار، ورُبيحةَ بنتَ محمد بن على بن عبيد الله ابن جعفر على مثــل ذلك، واشترى الغاليــةَ بألف دينار . وفى رواية محمد بن ســلّام أنه اشتراها بأربعة آلاف دينار . ويقول فى موضع آخر : إن رُسُلَ يزيدَ بنِ عبد الملك قدِمَتِ المدينةَ فاشتروا سَلّامةَ المغنّيةَ من آل رُمّانة بعشرين ألف دينار .

ولعلك تميل الى مقابلة هذه الروايات مع تعـدّد رواتهـا بتحفظ المؤرخ العلمىّ الذى لا يُقنعُه إلا الوسائلُ التحليليةُ المؤيّدةُ لصدقِ الرواية . على أنك تستطيع ذلك باطلاعك على ما يقوله اليعقوبىّ مثلا عن طريقة جباية المـال ، وعلى ما كتبه يزيدُ بن عبد الملك الى عمر ابن هبيرة ، وهو عامله على العراق ، يأمره : أن يمسح السواد فمسحه سنة ١٠٥ ولم يُمسَح السوادُ منذ مسحهُ عثمانُ بن حنيف فى زمن عمرَ بن الخطاب حتى مسحه عمرُ بن هبيرة فوضَع على النخل والشجر وأضرّ بأهل الخراج ووضع على التانئة (١) وأعاد السُّخَرَ والهدايا وما كان يؤخذ فى النيروزِ والمِهْرجانِ . ليس هذا فحسبُ بل أنظر الى تعلله فى فرض الغرامات المـالية على كبار رجال الدولة لا لجُـرْم إلا أن نفوسهم حدّثتهـم أن يتزوّجوا بعض آل البيت ؛ فإن عبد الله بن الضحاك بن قيس الفِهرى عاملَه على المدينة كان قد خطب لنفسه فاطمةَ بنتَ الحسين بطريقة جافة ، فعزله يزيد عن المدينة وولاها عبد الواحد بن عبـدَ الله النصرى ، وكتب اليه أن يأخذه بأربعينَ ألف دينار ويعذّبَه ، ففعل ذلك . ويقول المؤرّخ الذى نقلنا عنه : إن عبدَ الله بنَ الضحاك قد رئى وفى عنقه خِرقةُ صوفٍ يسأل الناسَ .

ولم يكتفِ يزيدُ بن عبـد الملك بهذا ، بل عزلَ عمّالَ عمرَ بن عبـد العزيز جميعا . ونحن نعلم مَنْ هو عمر وما عدلُه وما رقابته عمّالَه . ويكفينا أن نذكر ما كان منه مع يزيد ابن المهلب عامله على خراسانَ ، فقد قال له عمر : «إنى وجدت لك كتابا الى سليمان تذكر فيه أنه اجتمع قِبلَك ألفُ ألفٍ ، فأين هى ؟ فأنكرها ثم قال : دعنى أجمعها ؛ قال : أين؟ قال : أسعى الى الناس ؛ قال : تأخذها منهم مرّةً أخرى ! » . ثم ولّى خُراسانَ الجرّاحَ بنَ الحكمىّ . وإنه لمن المتِيع حقا تلكَ المناقشَةُ الورِعةُ الهـادئةُ التى دارت بين عمرَ ويزيدَ ، وبين عمر ومَخلد بن يزيد ، وتلك الصرامةُ التى لا تَعرِفُ فى سبيل المحـافظة على مال المسلمين لِينًا ولا هَوَادةً ، وقد أثبتها ابنُ الأثير فى كامله ولا حاجة بنا هنا الى الاستطراد بذكرها .

(١) التانئة : الجماعة المقيمون فى البلاد الذين لا يغزون مع الغزاة . أنظر اللسان مادة «تنأ» .

* * *

فمن أمثال ما قدّمناه نستطيعُ أن نقتنعَ بأن روايات صاحب الأغانى عن إسرافه قريبةٌ من الواقع ، إن لم تكن صحيحةً لا مبالغةَ فيها ولا غبارَ عليها . ثم لِنَنظُر الآنَ الى أىّ مدًى كان هـذا الصنفُ من الخلفاء تحت تأثير عشيقاتهم من القِيَانِ والمغنيّـات ، وما كان لهنّ من سلطانٍ فى أمور الدولة وتوليـةِ العمال وعزلهم ؛ فإن ذلك يفيدنا فى تفهّمنا دَوْرَ الانتقال الذى نحن فيه تفهُّمًا هو فى نظرنا أشـدُّ اعتبارا من الاعتماد على رأى المؤرّخين وسَرْدِهم للحوادث بغير عنايةٍ ولا استقراء للنفسية العربيـة وخاصة فى أبهاء الخليفة . وحبذا العناية بها، سواء أكانت فى بيت الخليفة أم فى بيت العامل أم عند الرعية ، فإن لدراستها ومراقبة تحوّلها نفعا وكبيرَ جَدْوَى .

ينقل لنا أبو الفرج الأصفهانىّ عن المدائنىّ أن حَبَابَةَ ، وهى عاليةُ القَيْنةُ ، «غلبت على يزيد وتبنّى بها عمرُ بن هبيرة ، فعلت منزلتُـه حتى كان يدخل على يزيد فى أىّ وقت شاء . وحسدَ ناسٌ من بنى أمية مسلمةَ بن عبد الملك على ولايته وقدحوا فيه عندَ يزيد، وقالوا : إن مسلمةَ إن اقتطعَ الخراجَ لم يحسن يا أميرَ المؤمنين أن يعيشه ، وأن يستكشف عن شىء لسِنّه وخِفّته ، وقد علمتَ أن أميرَ المؤمنين لم يُدْخِلْ أحدا من أهل بيته فى الخراج ، فوقَرَ ذلك فى قلب يزيد وعزم على عزله . وعمـل ابن هبيرة فى ولاية العراق من قبـل حَبَابَةَ فعملت له فى ذلك . وكان بين ابن هبـيرة والقعقاع بن خالد عداوةٌ ، وكانا يتنازعان ويتحاسدان ، فقيـل للقعقاع : لقد نزل ابنُ هبيره من أمير المؤمنين منزلةً ، إنه لصاحب العراق غدا ؛ فقال : ومن يُطِيقُ ٱبنَ هبيرة؟ حَبَابةُ بالليل وهداياه بالنهار! مع إنه وإن كان بلغ فانه رجل من بنى سكينٍ . فلم تزل حبابة تعمل له فى العراق حتى وليها » .

مثل هذا الخبر له قيمته التاريخية فى تعرّف حالِ الدولة العربية فى ذلك الحين . ولو جاز لنـا أن نحلّلَ لنظرنا طويلا فى قول القعقاع بن خالد : «ومن يُطيق ٱبنَ هبيرة، حبابةُ بالليل وهداياه بالنهار مع أنه وإن كان بلغ فانه رجل من بنى سُكين» فانه لا يفيـدنا

فى تفهم وقوع الخليفة تحت ســلطان عشيقته ، ولا فى قبوله للرشا فحسب بل يفيدنا فهم تحوّل العصبيات العربية الأخيرة ومبلغ نظر العربىّ الى سواه .

أما استخفاف الوليد بن يزيد بالدين، وخمرياته التى فاقت خمريات يزيد بن معاوية، والتى نرى أن لها أثرا كبيرا فى أبى نوّاس وحسين بن الضحاك ، وبركة الخمر التى احتواها قصره، فان أمهات كتب الأدب العربىّ ومظانّ التاريخ مُفعَمَةٌ من ذلك بما لا نتعرض له فى هذه العُجَالة بأكثرَ من إحالة القارئ على ما قاله الوليد فى القرآن، وما أحصاه بعضُهم له من عدد الأقداح التى شربها فى ليلةٍ من ليـالى شرابه، إذ أثبت صاحبُ الأغانى أنها سبعون قدحا وان كنا نفترض فى مثل هذه الأحوال جنوح الرواة الى المبالغة والإغراق . ثم لتنظر معنا فيما يقوله ابن الأثير عنه حين ولّاه هشام الحج، فانه يخبرنا : أنه لمـا أراد هشام أن يقطَع عنه ندماءه ولّاه الحَج سنة ستّ عشرة ومائة ، فحمل معه كلابا فى صناديقَ وعمل قبّــةً على قدر الكعبة ليضعَها على الكعبة ، وحمل معه الخمرَ وأراد أن تُنصبَ القُبّــةُ على الكعبة وتشربَ فيها الخمرُ . وقد أيد المؤرّخون هذه الحادثةَ . ويقول اليعقوبىّ : إن الوليد بعث مهندسا ليقوم بذلك .

ثم أنظر الى بيعــه خالدا القَسْرِىَّ الى يوسف بن عمرَ بخمســين ألف ألف، وما رواه المؤرّخون من إرساله الى خالد قائلا له : «انّ يوسفَ يشــتريك بخمسين ألف ألف، فان كنت تضمنها وإلا دفعتك اليــه» فأجابه خالد بأحسن جواب إذ قال له : ما عهــدت العــربَ تُباعُ، والله لو سألتَنى أن أضمن عودا ما ضمنته» ومع ذلك فقد دفعه الى يوسف فعذبه وقتله !

ثم لننظر الى نظر الرأى العام اليه والى تصرّفاته . وأمامنا من ذلك شعرُ حمزة بن بيض فيه إذ يقول :

يا وليدَ الخنا تركتَ الطريقا * واضحا وارتكبتَ فجًّا عميقا

وتمـاديتَ واعتديتَ وأسرفـ * ـتَ وأغويتَ وانبعثت فسوقا
أبدا هاتِ ثم هاتِ وهاتِ * ثم هاتِ حتى تخـرَّ صَعِيقا
أنت سكرانُ ما تُفِيقُ فمـا تر * تُقُ فتقا وقد فتقتَ فُتُـوقا

وإنا نثبت هنا أيضا ما دار بين الوليد بن يزيد حين حوصر فى قصره ويزيد بن عنبسة السكسكى، فقد قال له الوليد : «يا أخا السكاسك، ألم أزد فى أعطياتكم ! ألم أرفع المؤنَ عنكم ! ألم أعط فقراءكم ! ألم أخدم زمناكم !» قال : «إنا ما ننقم عليك فى أنفسنا، وإنما ننقم عليك فى انتهاك ما حرّم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله !» .

ولتنظر معى أيضا الى عبد الملك بن مروان، وهو من الخلفاء الثلاثة المعدودين أقطاباً لهـذه الدولة، والى ما كان من جبروته وضعف الوازع الدينىّ عنده، حتى استباح لنفسه أن يقول وهو على المنبر : «مَنْ قال لى بعد مَقَامِى هذا اتَّقِ الله ضربتُ عنقَه» .

وبعد، فإنه ليخيَّلُ الينا أن فيما قدّمناه بعضَ المقنع، بما كان من استهانة الخلفاء بالدين ومن إمعانهم فى التهتك والخروج عليه . ونريد الآن أن ندرُسَ تأثرَ الخُلُقِ العربىّ بمـا كان للخلفاء مِن تنكُّبٍ عن سَنَنِ الدين وإمعانٍ فى التهتك والاستهتار . والناسُ على دين ملوكهم، والملوكُ على سنة رعيتهم؛ أوكما يقول عبد الملك بن مروان : «تطلبون منا أن نسيرَ فيكم بسيرَة الشيخين أبى بكر وعمر ولا تسيرون أنتم بسيرة النـاس أيامَ أبى بكر وعمر !» . على أنا نُرغِمُ أنفسنا إرغاما على أن نكتفىَ فى هذا الفصل، الذى كادت تتشعَّبُ علينا فروعُه ونواحيه، وكدنا نَضِلُّ فى مهامِهِه وبواديه، بمَثَلين قد لا يخلوان من النفع . وعُمْدَتُنا فى ذلك الأغانى، وعيونُ الأخبار لابن قتيبةَ، وإن كان المثل الأخير هو الى الأدب والعظة، أقرب منه الى التاريخ والتحليل العلمىّ . بيد أنا آثرنا إيرادَه لأنه حسنٌ فى نفسه، ومصيبٌ مَحَجَّةَ الصواب فى جملتـه .

يقول أبو الفرج : إنه لمـّا قدم عثمانُ بن حيَّان المرّى والى يزيد بن عبـد الملك المدينـة قال له قوم من وجوه الناس : إنك وَلِيتَ على كثرةٍ من الفساد، فإن كنت تريد

أن تُصلِحُ فطهِّرها من الغناء والزنا الخ . ونفهم من جملة الرواية أنه لم يفز فى مهمّته بطائل ولم يُوفّق الى ما كان يرجوه للناس من صلاح وتقويم .

أما ما يرويه لنا آبنُ قتيبة فى عيون أخباره فها هو ذا بنصه وعبارته، وهو ختام هـذا الفصل بعد أن كدنا نطيل .

قال : «سَمَرَ المنصور ذات ليـلة فذكر خلفاء بنى أمية وسِيَرَهم، وأنهـم لم يزالوا على استقامةٍ حتى أفضى أمرُهم الى أبنائهم المترفين، فكانت همَمُهم من عِظَم شأن الملك وجلالة قدره قصـدَ الشهوات وإيثارَ اللذات والدخولَ فى معاصى الله ومَساخطه، جهلا منهم باستدراج الله وأمنا لمكره، فسلبهم الله العزَّ ونقلَ عنهم النعمةَ . فقال له صالح بن علىّ : يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن مروان لمـا دخل أرضَ النوبة هاربا فيمن معه سأل ملكُ النُّوبة عنهم فأُخْبِرَ، فركب الى عبـد الله فكلمه بكلام عجيب فى هـذا النحو لا أحفظه، وأزعجـه عن بلده؛ فإن رأى أميرَ المؤمنين أن يدعوَ به من الحبس بحضرتنا فى هذه الليـلة ويسألَه عن ذلك ! فأمر المنصور بإحضاره، وسأله عن القصة؛ فقال : يا أمير المؤمنين، قدمت أرضَ النوبة بأثاثٍ سَلِمَ لى فافترشتُ بهـا وأقمتُ ثلاثا، فأتانى ملكُ النوبة، وقد خبر أمرَنا، فدخل علىّ رجل أقنى طُوالٌ حَسَن الوجه، فقعد على الأرض ولم يقرب الثيابَ، فقلتُ له : ما يمنعك أن تقعدَ على ثيابنا؟ قال : لأنى مَلِكٌ، وحقٌّ على كلّ ملكٍ أن يتواضعَ لعظمة الله إذ رفعه ! ثم قال لى : لِمَ تشربون الخمر وهى محرَّمةٌ عليكم ؟ قلتُ : اجترأ على ذلك عبيدُنا وأتبـاعُنا لأن الملك زال عنّا؛ قال : فلم تطؤون الزروع بدوابكم والفسادُ محرّمٌ عليكم فى كتابكم ؟ قلتُ : يفـعل ذلك عبيدُنا وأتباعنا بجهلهم؛ قال : فلم تلبسون الديباجَ والحـريرَ، وتستعملون الذهبَ والفضةَ وذلك محرّم عليكم ؟ قلت : ذهبَ الملك منّا وقلّ أنصارُنا، فانتصرنَا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا، فلبسوا ذلك على الكُرْه منّا؛ قال : فأطرقَ مليًّا وجعل يُقلّبُ يديه وينكتُ فى الأرض ويقول : عبيدُنا وأتباعنا! دخلوا فى ديننا! وزال الملك عنـا ! يردّده مرارا؛ ثم قال : ليس ذلك كما ذكرتَ، بل أنتم قوم استحللتم ما حرّم الله

عليكم وركبتم ما عنه نهاكم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العزَّ وألبسكم الذلَّ بذنوبكم، ولله فيكم نقمةٌ لم تبلغ غايتها، وأخاف أن يحلَّ بكم العـذابُ وأنتم ببلدى فيصيبنى معكم وإنما الضيافة ثلاثة أيام، فتزوّدوا ما احتجتم اليه وارتحلوا عن بلدى، ففعلت ذلك» .

(هـ) التعسّف المذهبيّ :

نريد أن ننظر الآن نظرةً عَجْلَى فى أمر التعسّف المذهبيّ . ونحن نعلم ما أصاب جماعة علىّ أيامَ معاوية وهو هو فى حكمه وحلمه ومرونته، نعلم ما أصاب حُجْرَ بنَ عدىّ الكندىّ وجماعتَه، كما نعـلم ما أصابها أيامَ يزيد من قتل هانئ بن عُروة ومسلم بن عَقيل والحسين ابن على وزيد بن على الذى صُلِبَ على شاطئ الفـرات وذُرِّى رَمَادُه فى المـاء . ولننظر نظرة خاصة الى حياة بُسْر بن أبى أرطاةَ وقتلِه الأطفالَ والرجالَ والنساءَ، ولنترك معاوية هنا يصوّر لنا مبلغَ تأثر نفوس بنى هاشم من خُطَّة التعسّف المذهبىّ هـذه؛ فإن أبا الفرج الأصفهانىّ يقول فى كتابه : لمـا كانت الجماعة واستقر الأمر لمعاوية، دخل عليه عُبيدُ الله ابنُ العباس وعنده بُسْرُ بن أبى أرطاةَ، فقال له عُبيد الله : أأنت قاتلُ الصبيين أيها الشيخُ ؟ قال بُسرٌ : نعم أنا قاتلهما، فقال عبيـد الله : أما والله لوددْتُ أن الأرض كانت أنبتتنى عندك ! فقال بسر : فقد أنبتتك الآن عندى، فقال عبيد الله : ألا سيف؟ فقال له بسرٌ : هاك سيفى؛ فلما أهوى عبيد الله الى السيف ليتناولَه أخذه معاويةُ ثم قال لبسر «أخزاك الله شيخا ! قد كبِرتَ وذهب عقلُكَ ! وذلك رجل من بنى هاشم قد وترْتَه وقتلتَ ابنيه، تدفع اليه سيفك ! إنك لغافلٌ عن قلوب بنى هاشم ! ولو تمكّنَ منه لبدأَ بى قبلكَ» . قال عُبيدُ الله : «أجَلْ ! وكنتُ أُثَنّى به» .

ثم انظر كيف انتقم من بسر رجلٌ من اليمن اتصـل به حتى وثقَ به، ثم احتال لقتل ابنيه فخرج بهما الى وادى أوطاس (١) فقتلهما وهرب .

(١) أوطاس : واد فى ديار هوازن فيه كانت واقعة حنين ويومئذ قال النبى صلى الله عليه وسلم : «حمى الوطيس» وهو أوّل من قال ذلك . انظر معجم ياقوت فى أوطاس .

على أنه يجدر بنا أن نصوّرَ الى أيّ مدًى بلغت نتائجُ خطط الأُمَويين السياسية ، من حيث بَثِّهم البغضاءَ فى النفوس لعليّ وشيعته ، وصرف الناس عن ذكرهم ، وما كان من لعنهم على المنابر من تأثير خليقٍ بعنايتنا . ومراجعنا فى هـذه الناحية عدّةُ مصادرَ ، بيد أنّا نجتزئ اجتزاء ، ونُحيل القارئَ الى ما رواه آبن عائشة عن شعور رجل من الشأم نحوَ حفيد عليّ وقد نقل ذلك المبرّدُ فى الكامل .

ولننظر كذلك الى مدى الأحزاب الدينية وأضدادها التى كانت نتيجةً لازمةً لآثار التعسف المذهبيّ والتحزّب الدينيّ ، وقد ذكر البيرونى فى «الآثار الباقية» طرفا من ذلك . ونجتزئ هنا بشيء مما جاء فى «المواهب الفتحية» لأستاذنا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله .

قال : ما أحسنَ قولَ أبى الحسين الجزار خصوصا فى بيتيه الثالث والخامس :

ويعود عاشوراء يذكرنى * رزء الحسين فليت لم يعُـد
أم ليت عينا فيه قد كُحِلَتْ * بإثمِدٍ لم تَخْلُ من رمدِ
ويدا به لشماتة خُضِبَتْ * مقطوعة من زندها بيدى
يوم سبيلى حين أذكره * ألا يدورَ الصبرُ فى خَلَدى
أمّا وقد قُتِـلَ الحسينُ به * فأبو الحسين أحقّ بالكمد

ولبعض الهاشميين معتذرا من الكحل يوم عاشوراء :

لم أكتحل فى صباح يومٍ * أُهريقَ فيه دمُ الحسينِ
إلا لحـزنى وذاك أنى * سوّدتُ حتى بياضَ عينى

الى غير ذلك مما أثبته المؤلف لعمارة اليمنى والإمام ابن الجوزيّ مما لا سبيل الى الاستطراد فيه ههنا .

ولننظر الى حادثة رواها المسعوديّ فى «مروج الذهب» قال : «لما طاب عبدُ الله ابن عليّ مروانَ ونزل بالشأم ، وجه الى أبى العباس أشياخا من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة ، فحلفوا لأبى العباس السفاح ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً ولا أهلَ بيت يرثونه غيرَ بنى أمية حتى وليتم الخلافةَ ! فقال فى ذلك إبراهيم بن المهاجر :

أيها الناسُ اسمعوا اخبرْكُمُ * عجبا زاد على كلّ العجَب
عجبا من عبد شمس إنهم * فتحوا للناس أبوابَ الكذب
ورثوا أحمدَ فيما زعموا * دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه * يُحرِزُ الميراثَ إلا مَنْ قَرُب

ولنُلِمَّ الآن إلمامةً تجْلى بما كان للتعسّف المذهبيّ من الأثر فى نفوس الخوارج، مُحيلين الى الكامل للمبرّد مَن أراد توسعا وتبصّرا، ونكتفى هنا بنقل مَثَلٍ من الطبرىّ يُظهِرُ لنا مقدارَ استماتتهم فى سبيل نُصْرةِ مذهبهم مَهما نالهم من تقتيلٍ . وأمامنا حوادث سنة خمسين التى يقول فيها الطبرىّ : إن عُبيدَ الله بن زياد اشتدّ فيها على الخوارج فقتل منهم صبرًا جماعةً كثيرة وفى الحرب جماعةً أخرى . ويقول عنهم فى موضع آخر : خرج مرداسٌ أبو بلال، وهو من بنى ربيعة بن حنظلة، فى أربعين رجلا الى الأهواز فبعث اليهم ابنُ زياد جيشا عليهم ابنُ حصن التميمىّ فقتلوا فى أصحابه وهزموه، فقال رجل من بنى تيم الله بن ثعلبة :

أألفا مؤمن منكم زعمتم * ويقتلهم بآسَكَ(١) أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم * ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا
هى الفئة القليلة قد علمتم * على الفئة الكثيرة يُنْصَرونا

(١) آسك : بلد من نواحى الأهواز قرب أرّجان بين أرّجان ورامهرمز، بينها وبين أرّجان يومان وهى بلدة ذات نخيل ومياه . أنظر ياقوت فى آسك وكامل المبرد (ص ٥٨٧ طبعة أوربا) .

الفصل الرّابع
ولايـــة العهـــــــد

نظام ولاية العهد وابن خلدون — خطر نظام ولاية العهد الثنائى وأثر البطانات — نظام ولاية العهد وعلاقته بالعصبية العربية .

(أ) نظام ولاية العهد وابن خلدون :

قال ابن خلدون فى مقدّمته : "إن معاوية عَهد الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر الى ســواهم . فلو قد عَهِدَ الى غيره اختلفوا عليه" ثم زاد هذا توضيحا فى مكان آخر من مقدّمته فقال : "إن الذى دعا معاوية لإيثار ابنـه يزيدَ بالعهد دون سواه، إنما هو مراعاةُ المصلحةِ فى اجتماع الناس واتفاقِ أهوائهم، باتفاقِ أهل الحلّ والعقد عليه حينئذ من بنى أمية، اذ بنو أمية يومئذ لا يرضَونَ سواهم، وهم عصابةُ قريش وأهلُ الملة أجمع وأهلُ الغلب منهم ، فآثره بذلك دونَ غيره ممن يُظَنُّ أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل الى المفضول، حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء" .

لسنا هنـا فى موقف الراغب فى تحليـل أقوال مؤرّخنا الكبير، وهـل أصاب محجَّةَ الصواب فى تعليله ما دفع معاوية الى عَقد البيعة ليزيدَ ، ولكنّا صدَّرنا هـذا الباب بكلمة ابن خلدون لنصوّر سرّ قبول العرب، لأوّل عهدهم، نظام ولاية العهد عامة والوِراثىّ خاصة. وما قبولهم إياه إلا لأن شوكةَ يزيدَ يومئذ مستمدّة من عصابة بنى أميةَ كلها، وجمهور أهل الحلّ والعقد من قريش، وبذلك تستتبع عصبيةَ مضرَ أجمع، وعصبيتهم أعظم من كلّ شوكة إذ لا تطاق مقاومتُهم، ومن هنا أقصى العرب عن يزيدَ وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه . ولعل هـذا يكشف عن سـبب فشل الحسين بن على وابن الزبير فى مطالبتهما بالخلافة ، كما بين ذلك ابنُ خلدون ممـا لا حاجة بنا للتعرّض له الآن .

على أن التاريخ يقنعنا أن نظام ولاية العهـد لم تقبله العقلية العربية بسهولة مع اعتقادنا صحة ما ذهب اليه ابن خلدون من سـبب انتصرت به فكرة ولاية العهد وهو اعتمادها على العصبية ، وربما جاز لنا أن نعزوَ سقوطَها من بعض النواحى الى هذه العصبية أيضا مما لا نَعرِض له هنا الآن .

أجل ، يخبرنا التاريخ بتلك الأدوار العِدّة ، التى مرّت بهـا مسألةُ البيعة ليزيدَ ، وأن السياسة نهضت بنصيبٍ غيرِ قليل فى سـبيل تذليلِ الصعوبات التى قامت باديءَ ذى بدء دون أن تَجْعَلَ البيعةَ ليزيدَ سهلةً ميسورةً ، تُؤْتى ثمرَها بغير عناء كبير .

يخبرنا التاريخُ بما فعله المغيرةُ بن شعبة وغيرُ المغيرة بن شعبة ، و إيفادِهم الوفودَ الى معاوية . ويخبرنا بمبلغ ما أنفق معاويةُ من المـال وما أبداه من احتيالٍ وحزم ، وما بذله ابنه يزيد من شدّة وعَسْفٍ ؛ وكل هذه العوامل تستدعى دراسةً دقيقة لا نَعرِضُ لها لأنها لا تَعْنينا فى هذه المقدّمة كثيرا .

نريد أن نقول شيئًا واحدًا ميسورًا فهمُه ؛ ذلك أن نظام ولاية العهد — الذى ربمـا كان ضروريا لا مندوحةَ عنه فى أوّل عهد الدولة ، لمـا بيّنه لنا ابن خلدون — كان فى نفسه سببا يُعتَدُّ به من أسباب سقوط الدولة الأُمَوية ، أو على أقلّ تقدير كان لنظام ولاية العهد أخيرًا أثرُه الكبير فى ضعف سلطان بنى أمية وذَهابِ رِيحهم .

(ب) خطر نظام ولاية العهد وأثر البطانات :

لِنَنظُرْ نظرةً عَجْلَى فى تاريخ هذا النظامِ لنقنعَ بما وصلتْ اليه بُحُوثُنا ، فنرى مثلا أن مروانَ بن الحكم جعل ولايةَ العهد من بعده لابنه عبد الملك بن مروان ثم من بعده لابنه عبد العزيز بن مروان ومهما يكن الباعثُ لمروان على أن يجعلَ ولايةَ العـهد لولدين من أولاده ، فإن جُلَّ خلفاء بنى أمية من بعده اتخذوا صنيعَه سُنّةً متبعةً . سنرى فى كلامنا عن العصر العباسىّ الى أىّ مدًى كان خطرُ هذا النظامِ على حياة الدولة ، أو على الأقل ؛ مبلغ ما فيه من ضعفٍ لها ، و إيذانٍ باضمحلالها ، واضطراب لحبلها .

لم يكن هذا النظام شرًّا مستطيرا وعاملا كبيرا من عوامل الضعف ؛ إلا لمـا يستلزمه من نَكْثِ العهد، ثم من انشقاق البيتِ المالكِ على نفسه، وتركِ المجال واسعا لِوشايات تسعى بها بِطانات السوء ممّن نرجو أن نصوّر مَثَلَهم ومَثَلَ صنيعهم السيء ومَثَلَ خطرهم على الدولة حين نَعرِضُ للكلام عن عصر المأمون وما شجر بين الأخوين من خلاف أو ماأذكته البطانةُ بينهما من خلافٍ — هـذه البطانة ترقُب دائمـا انشقاق البيت المـالك أو ما هو مركّبٌ فى الطبيعـة البشرية وولاة العهد من ترقّبٍ لتسلّم مقاليـد الأمور وتعجّلٍ للذّة الحكم والسلطان — فتستغله لتقضى مآربها وتستمتع بأطماعها . وسَرْعَانَ ماتجد الفرصةَ سانحةً لها ومواتيـةً لأطماعها، اذا صار الأمرُ الى ولىّ العهد الأوّل الذى حاول ماهو طبعىّ مِنْ خَلْعِ من أُشرِكَ معه فى ولاية العهد، إما كراهيةً له ؛ أو إيثارًا لغيره عليه، ممن هم أمسُّ منه رَحما وأقربُ مودّةً .

نعم قد يجد ولى العهد كثيرين من الناصحين الذين يستنكرون الخلع ؛ بَيْدَ أنه لا يعدَمُ أيضا كثيرين ممن هواهم مع غيرهذا الذى يراد خلعُه يُزَيّنون له مايحاول، حتى اذا صار الأمرُ الى من أريدخَلعُه كافأ كلا من الفريقين بما يستحق . وكانا أحيانا يُفتَكُ بكثيرمن ذوى البلاء الحسَن فى تشييد الملك . وهـذا الفتك على مافيه من خسارة قومٍ من ذوى الرأى والتجارب، قد كان يَبذُرُ فى قلوب أنصارهم وعشائرهم بذورَ الحقد وحبّ الانتقام . وبذلك صار بنو أمية يفقِدُون العشائرعشيرة بعد عشيرة، وأخذ ظلُّ سـلطانهم على النفوس يخسرشيئا فشيئا ، حتى اذا قام لهم مُنافسٌ عظيمٌ لم يجدوا لديهم من القوّة والكفايات والأنصار ما يستطيعون به التغلُّبَ عليه .

قد تطلبُ الىّ توضيحَ ما قدمتُه لك من المقدّمات من حوادث التاريخ ؛ لأنك تعتبر الوشائجَ والصّلات التى بين مانحن بصدده وبين عصرنا المأمونىّ قويةً من حيث ماوقع فيه الرشـيد وغيره من خطأ فى نظام ولاية العهد . وقد تطلب منى أن أمرّ مسرعا بجسام الحوادث التى لها آثارها ونتائجها، وأن أكون مجملا لا مفَّصلا ومُوجزًا لا مُسهِبا .

على أنني سأترك الأدلة التي أفعم به الطـبري وابن الأثير كلَّ سنة من سنيهما تُحَدِّث وحدها بصدق ما ذهبتُ اليه . وأسمح لنفسي بأن أتساءل ملياً : ماذا فعل عبد الملك لما وصل الحُكْم الى يده؟ لقـد حاول ما هو طبعيّ من عزل أخيه عبد العزيز وتحويل عهده الى الوليـد . ولولا وفاةُ عبد العزيز لوقعت الأزمةُ وشجرَ الخلافُ وعمَد كلّ الى سـلاحه وحزبه .

ثم ماذا فعل عبد الملك؟ لقد ولى الوليد وسليمان . فحاول الوليد ما هو طبعيّ من عزل سليمان وتولية ابنه لولا أن عاجله القضاء .

ثم ما ذا فعل سليمانُ ؟ لقد ولّى عهدَه عمرَ بن عبد العزيز ثم يزيدَ بن عبد الملك .

ثم ماذا فعل عمرُ بن عبـد العزيز ، وماذا فعـل يزيدُ ، وماذا فعل هشام؟ إن التاريخ وختامَ عهد كل ليؤيدان ، بقوّة ووضوح ، ليس بعدهما من مزيد ، صحةَ ما ذهبنا اليه مما يُبيح لنا أن نختصرَ الحوادث والأدلة اختصارا .

على أنه قد يُطلَبُ منا إثباتُ تلك الحال المؤلمة التي تَنتجُ عن المبايعة لاثنين بولاية العهد ، ومبلغ خسارة الدولة من رجالها المعدودين وأقطابها النادرين في هـذا السبيل ، سبيل اصطدام صاحبيّ ولاية العهد . وسَنُجْمِلُ ذلك إجمالا يستدعيه مقامُنا .

إنه من الميسور أن يقرأ القارئ أن ولاية العهد كُتبَتْ لهشام ثم للوليد من بعده مثلا . وربما فاته أن لكلٍّ حزبًا يناصره ، وبطانةً تنشُر دعـوتَه . وربما تطرّفت في منهجها السياسيّ ، تطرّفا يؤكد العداوةَ في القلوب ، ويستثير السخائمَ في النفوس . ولماذا نذهب بعيدا وأمامنا ما وقع بين هشـام والوليد ، فإنّ هشاما مات قبل أن يُكَلَّل بالنجاح مَسعَاه ، فَسَرْعَانَ ما نَمَّتْ أقوالُ الوليد عن شديد مَقتِه لهشام ، فقال مثلا :

هلك الأحوَلُ المشـو * م وقـد أُرسِـلَ المطرْ
ومَلَكنا من بعد ذا * ك فقد أورَقَ الشجَرْ
فاشكر الله إنـه * زائد كلَّ مَنْ شَكر

ولم يكتف الوليد بالقول دون الفعل، بل آندفع فيما يخبرنا المؤرخون مع تيار بطانتــه ومُشايعيه، وشمّر عن ساعد الانتقام، ممن ناصر عمّه هشاما مثل محمد وابراهيم ابنى هشام بن اسماعيل حيث عذبهما يوسف بن محمد الثقفى والى المدينة ويوسف بن عمر حاكم العراق حتى ماتا . ولم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل قبض على سليمان بن هشام فضربه مائة سوط ومَثّل به اذ حلق رأسه ولحيته، كما حبس يزيدَ بنَ هشام والكثيرين من البيت المــالك . لم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل أحرجَ خالدا القسريَّ، وهو من زعماء اليمن ورؤسائها، بأن يبايع لأبنه الحكم وعثمانَ بولاية العهد من بعده، فلما أبى عليه ذلك بعث به الى والى العراق يوسفَ بن عمر الثقفى فنزع ثيــابه وعذّبه عذابا مبرّحا، وهو يحتمل ذلك كلَّه بصمت وإباء، ثم حمله الى الكوفة الى من أنزلوا به كلَّ لون من ألوان العذاب حتى مات . وما مات إلا بثمن باهظ دفعــه الوليد . ذلك أنه كتب على نفســه عداوةَ قضاعةَ واليمن، وجلّ جند الشام من قضاعة واليمن، وهم هم الذين مثّلوا دَورَهم الخطيرَ أخيرا مع الوليد، إذ بايعوا يزيدَ وثاروا معه، فكانت خاتمةُ الوليد ما قد علمناه من احتمائه بقصره وتقحّمهم عليه دارَه، وفعلهم به ما أصاب عثمانَ من مأساة اذ حزّوا رأسه وهو يتلو القرآن ثم نصبوه على رمح وطيفَ به فى دمشقَ .

على أنّا نفترض المبــالغة فيما ينسبه الرواة الى هــذا الخليفة المغلوب على أمره، ولكنّا نؤمن مع ذلك إيمانًا صادقًا بالنتائج السيئة لنظام ولاية العهد الثنائى أو الثلاثى .

وإنا نظنّ أنّ فيما قدّمناه لك غنيةً وكفايةً . وإن أردت منــا مزيدا فانظر ما نال به سليمانُ قادةَ الدولة أمثال محمد بن القاسم بن محمد الثقفىّ وقتيبة بن مسلم الباهلىّ وموسى بن نصير، وما كان يعدّ للحجاج وغيره : ممن قلّ أن يجتمع أمثالهم فى عصر واحد . وإنا نحيل القارئَ الى آبن الأثير ليقدر معنا الأُسُسَ التى بنينا عليها رأينا فيهم، وليقفَ بنفسه على كُبْرَيَات فتوحهــم وجسام أعمالهم التى كانت غُرّةَ فى جبين عصرهم، بل فى جبين تاريخ الدولة الأَمَوية .

وبعد، أفليس من العدل أن يستنبط القارئُ معنا ما يصيبُ الدولةَ من المنازعات والشقاق، ومن الضعف والإفلاس السياسيّ، من جرَّاءِ ذلك النظامِ الممقوت، نظامِ ولاية العهد على هذا النحو فى غير قانون ولا سنة، وأن يَعُدَّه معنا سببا لا يستهان به، من أسباب سقوط البيت الأمويّ !

(ج) العصبية العربية :

الذى يهمّنا الآن هو أن نوجّه النظرَ الى تأثير نظام ولاية العهد فى صورته التى صوّرناها لك من حيث مسّاسه بالعصبية العربية التى كانت، كما تعلم، عنيفةً محتدمةً بين المضرية واليمنية . وأنتَ تعلم أن الخلفاء من بنى أمية كانوا يُصهرون الى قبائل مضر كما كانوا يصهرون الى قبائل اليمن، فكانت هـذه القبائل تجد فى تأييد الأمير الذى يتصل بها نسبُه . وهـذه الفكرة نفسُها تُعيننا على أن نفهمَ، بنـوعٍ خاص، موقف العرب أيام يزيد بن معاوية، كما أنها تُعيننا على أن نفهمَ ما ثار حول هشام والوليـد بن يزيد من الخصومات التى قدّمنا لك طرفا منها. ولم يكد ينتهى الأمر الى مروان بن محمد حتى كانت الخصومة بين المضرية واليمنية قـد انتهت الى أقصاها بحيث عجز هـذان الفريقان من العرب عن أن يكونا وحدةً قويةً تثبتُ للطوارئ، فلم يظهر أمر الموالى حتى كان العرب مُفترقين متخاذلين، لا يستطيعون عن أنفسهم دفاعا . وسـنتكلم على العصبية وآثارها ببَسْطةٍ فى القول أكثر ممـا تكلمنا هنا فى موضعها الطبيعىّ من الكتاب الثانى .

ولمـا كانت الدولةُ العباسيةُ قد قامت بالموالى وبأسنّتهم، ومحاولاتهم الانتقامَ لأنفسهم وكرامتهم من بنى أمية الذين ساموهم سوء العذاب وساسوهم شرَّ سياسةٍ فإنا نُرجئ كلامَنا عن هذا العنصر القوىّ من أسباب اعتلاء الدولة الأموية سلطانَ الحكم وأسبابِ سقوطها الى موضـعه الطبيعىّ من تنظيم كتابنـا ، وحين ذاك ، يَحِقّ لنـا أن نبين تحـوّلَ العصبية العربية الى تلك النواحى الشائكة الوعرة التى قضت على الدولة الأموية وأقامت دولةَ بنى العباس والتى أدالت منها هى أيضا . وحين ذاك أيضا يحق لنـا أن ندرُسَ نظرَ

العربيّ الى غير العربى فى العصر الأُمَوىّ وفى غير العصر الأموىّ مما كانت له نتائجه الخطيرة فى حياة العرب وفى تحوّل مدنيات العرب .

فَلْنتريّثْ اذًا ، وخير لنا وللتاريخ أن يكون موضعُ هـذا الباب فى كلامنا على الدولة العباسية . وخير لنا أيضا أن ننتقلَ الآن الى تصوير الحياة الأدبية : من نثرٍ وشعرٍ وخَطَابَة ، والى تصـوير الحياة العلميـة بضروبها لذلك العصر الأموىّ ، الذى كان بحقٍ نواةً طيبـةً للعصر العباسىّ ، مُتَوخِّينَ فى ذلك الإيجازَ والإجمالَ . ولعلنا نُوَفَّقُ الى حسن الإصابة فيما نريد .

الفصل الخامس

الحيـاة العلمية والأدبية للعصر الأموى

توطئة — آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية فى العصر الأموى — حركة النقل — الخطابة ومميزاتها — الكتابة — حالة الشعر فى العصر الأموى وتحوله — الغزل — الشعر السياسى .

(١) توطئـــــة :

لسنا نريد أن نُسهِبَ فى بيان الحياة العلمية والأدبيـة فى العصر الأُمَوىّ ، لأن ذلك يكاد يخرج بنا عن مقصدنا الأساسىّ ، من اقتصار مقدّمتنا هذه على توضيح موجز، من غير إسرافٍ ولا تطويلٍ ، للعصر السابق لعصرنا المأمونىّ الذى كان نتيجةً لازمةً لمـا تقـدّمه واكتنفه من عوامل متعدّدة ، توضيحا معتدلا يجعلنا نطمئنّ ، بعد تفهمنا للآداب العباسية ، الى تبيّن الفروق والمميزات والآثار التى خلفها لتاريخ المدنية الإسلامية ، بل لتاريخ المدنيـة الإنسانية ذلك العصر الذهبىّ وهو عصرُنا المأمونىّ الخالد .

لقد تغيرتْ حالةُ اللغة وآدابها فى العصر الأموى عما كانت عليه فى الدور الجاهلىّ تغيرًا عظيمًا ؛ إذ رقَّت الأساليب وقلّ الحُوشِىُّ والمتنافِرُ ، واتسعت الأغراضُ وكثرت باتساع مطالب الحياة الجديدة ووَفْرتها . وهـذا يتمشى بوجه عام مع تغيير حياةِ العرب الاجتماعية والدينية والسياسـية ، وبعبارة أخرى : تغيرت حياةُ الآداب والعلوم فى ذلك العصر طبقا لمـا أفادته العربُ فى فتوحهم ومغازيهم فى غنـائمَ وأموالٍ ، ووقوفهم على آثار المدنيـات لأمم ذات حظ من العلم غيرِ قليلٍ . ولقد كان لكتاب الله ، المعجز بآياته وسحر بلاغته ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أثره فى فَتْقِ أذهانهم وصَقْلِ عباراتهـم وتوحيد لهَجَاتهم ، بل كان الكنز الذى يلجئون الى مافيه من أدب جم وعظةٍ بالغةٍ وأساليبَ رائعة ، ويستمدّون منه ما ينفعهم فى معاشهم وحياتهم الدنيا والآخرة .

وإنه ليجدُر بنــا أن نتساءل عن مَدى ما أصاب الآدابَ العربيــة من تغيير فى العصر الأموى، وهو تغير خطير يستدعى درسُه عنايةً ودقيقَ ملاحظةٍ، وتعرّفًا غيرَ قليل لمَــا كانت عليه الآدابُ فى العصر الجاهلىّ .

*

إنّ تحوّل الآداب العربية فى ذلك العصر أصاب التراثَ الجاهلىّ القديم، من لغةٍ وخَطابة وشعر وأمثال، وما كان للقوم من علم بشؤون الحياة والوجود، كما أنه أحدث علوما وآدابا اقتضاها الإسلام . وقد كان لكتاب الله وسنة رسوله، وما للأئمة من تأويل فى فهمهما، كان لذلك كله أثره فى خَلْقِ علوم شرعية لم يكن للعرب منها حظٌّ من قبلُ، فنشأ فى هــذا العصر علم التفسير وروايةُ الحديث وعلوم اللغة كالنحو وما الى النحو . على أن هذه العلومَ الإسلاميةَ المحدثةَ، التى كانت وليــدةَ العصر الأموى خاصة وعصر صدر الإســلام عامة، لم تكن مولودَ هــذا العصر الوحيد الذى أصبحت فيه البصرةُ دارًا للعــلم والعرفان والمدنية ومسرحا للهو والافتتان، والشأم مقرّ الملك والســلطان؛ بل كان الى جانبها مولود آخر كان من شأنه وضع التاريخ والجغرافيا وغيرهما، واتخاذ ديوان الخاتم، ونقل الدواوين من لغة الى اخرى . وقد كان هذا المولودُ الآخر نتيجةَ الفتوح الإسلامية وخاصة تلك الأقطار التى كانت متأثرة بآداب الفرس والرومان واليونان، وبعبارة أدقّ : تلك العلوم التى أفادتها العرب أو الدولة الإسلامية من أعتاق الفرس وأهل الشأم ومصر وغيرهم من أسرى الروم للإسلام . وقد تستدعى هذه النقطة توضيحا، ونظن أنا اذا ما فسرناها بعضَ التفسير نتعجل بموضوعنا الذى سَنُقْبِلُ عليه أخيرا، وخاصة اذا علمنا أنّ عصرَ المأمون وما فيه من فلسفة وعلم ومن أدب وفنٍّ كان متأثرا بحركة النقل والترجمة، وأن تأثره هــذا كان الى مدًى كبيرٍ يطبعه بطابع المدنية اليونانية والفارسية؛ ولكن هذا لا يمنعنا أن نُلِمَّ به إلمــاما .

(ب) آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية فى العصر الأموى

كانت آدابُ الفرس قبيلَ الاســلام آدابا يونانيــة فى جملتها لأن التاريخ يُحدِّثنا أن آدابَهم الفنيةَ القديمةَ التى كانت مجموعةً طيبةً لنتاج العقل الفارسىّ والهندىّ والأشورىّ —

هـذه الآداب قد نقلها الاسكندرُ الأكبر الى بلاده، ثم تقلبت حياةُ الفرس بين ضعف وقوّة وجهـل وعلم ، الى أن تسـلّم كسرى صوبلجانَ ملكه ولَعِبَ دورَه العظيمَ فى تاريخ بلاده . ولعـلّ الأحوال العالمية عهـدئذ ساعدته على مهمته فى النهوض بالعقلية الفارسية وفى تجديد بعثها . ويقول لنا «جبون» : إنّ «يوستنيان» قيصر الروم حين آضطهد الفلسفة الأفلاطونيـة الجـديدة أو الوثنيـة ، أقفل الهياكل والمدارس وطارد العلماء المفكرين ، فآضطر جماعة من هؤلاء الفلاسفة، الى الرحيل الى بلاد الفرس حيث وجدوا من كسرى أنوشروان من قدرهم قدرهم . ويقول لنا الأستاذ «برون» فى كتابه القيم عن تاريخ أدب الفرس حين تعرّض لرأى المستشرق (نولدكه Noldcké) فى هـذا الصدد : «إن شغف كسرى بالبحوث الدينيـة والمناظرات الفلسفية وما كان يجـد فى ذلك من لذاذة وإمتاع ليعيد الينا ذكرى المأمون والأمبراطور الأكبر مما نمسك عنه الآن » .

على أنا مع إمساكنا عن التبسط فى القول لا يسعنا إلا أن نذكر فى هذا المقام أن أنوشروان كان قد أسّس مدرسـةً للطب والفلسفة فى جُنْدَيْسَابُور كانت لها شهرة مدرسة الإسكندرية . وإنه ليجدر بنا هنا أن ننظر هل استفاد العرب حقا من علوم الفرس عند ظهور الإسلام ؟ وهل استفادوا من غزوهم مصرَ وفيهـا مدرسةُ الإسكندرية ؟ ومن إخضاعهم الشأم المتأثرة بآثار العقلية الرومانية؟ وهل وجدت حركة نقل فى العصر الأمَوىّ؟ لأن فى توضيحنا ذلك بعضَ النفع لنـا فى دراسة التحوّل العلمىّ والأدبىّ فى تاريخ التمدين الإسلامى الذى وصل الى درجة خليقةٍ بالإجلال والإكبار فى عصر المأمون، العصر الذى نضج فيـه مختلف الفنون والآداب . فَلْنُحَاوِلْ توضيحَ شىء من ذلك مُتَوَخِّينَ حدَّ القصد والإيجـاز .

(ج) حركة النقل فى العصر الأموى :

يخبرنا آبنُ أبى أصيبعة فى البـاب الذى أفرده لأطباء العرب فى إبّان الإسـلام : أن «الحارثَ بن كَلَدَة» تعلم الطبّ بناحية فارس وتمرّن هناك وعرف الداء والدواء . ويخبرنا

أيضا أن عبد الملك بن أبجر الكنانيّ ، الذى أسلم على يد عمرَ بن عبد العزيز حينما كان اميرا على مصر، كان طبيبا عالمـا ماهرا ، وأنه كان فى أوّل أمره فى الاسكندرية لأنه كانـ المتولى التدريس بهـا من بعـد العلماء الاسكندريين؛ وزاد بأن عمر بن عبد العزيز، لمـا أفضت الخلافة إليه ، نقل التدريس الى أنطاكيةَ وحرّانَ وتفرّق فى البلاد . ثم ذكر ابن أثال طبيب معاوية، وتكلم عن علمه بالأدوية المفردة والمركبة؛ وذكر أبا الحكم « وتمـاذوق » طبيب الحجاج . وحسبُنا هذا دلالة على ما أفاد العربُ أو ما يمكن أن يُفيدوا من علم الطبّ .

فلننتقل من هذا الى التكلم عن حركة النقل والترجمة . ويكفينا الآن أن ننظر فيما رواه صاحب الفهرست عن ذلك إذ يقول :

« كان خالدُ بن يزيدَ بن معاوية يسمّى حكيمَ آل مروان ، وكان فاضـلا فى نفسه ، وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة ، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصّح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانيّ والقبطيّ الى العربيّ ؛ وهـذا أوّل نقل كان فى الإسلام من لغة الى لغة ، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية الى العربية فى أيام الحجاج والذى نقله صالح بن عبـد الرحمن مولى بنى تميم ، وكان أبو صالح من سَبْيِ سِجِسْتَانَ ، وكان يكتب لزاد إنفروخ بن بيرى كاتب الحجاج يخط بين يديه بالفارسية والعربية فخف على قلب الحجاج ؛ فقال صالح لزاد إنفروخ : إنك أنت سببى الى الأمير، وأراه قد استخفنى ولا آمن أن يُقَدِّمَنى عليك وأن تسقطَ منزلتُك ؛ فقال : لا تظنّ ذلك هو الىّ أحوج منى اليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابَه غيرى ؛ فقال : والله لو شئتُ أن أحولّ الحساب الى العربية لحولته ؛ قال : فحَوّلْ منه أسطرا حتى أرى ، ففعل ؛ فقال له : تمـارَضْ ، فتمارض ؛ فبعث الحجاج اليه تيادروس طبيبـه فلم ير به علة ؛ وبلغ زادانفرّوخ ذلك فأمره أن يظهرَ . واتفق أن قُتِلَ زادانفرّوخ فى فتنة ابن الأشعث وهو خارج من موضع كان فيه الى منزله ، فاستكتب الحجاج صالحا مكانه ، فأعلمه الذى كان جرى بينه وبين صاحبه فى نقل الديوان ، فعزم الحجاجُ على ذلك وقلّده صالحا ، فقال له مردانشاه

ابن زادانفروخ : كيف تصنع بدهويه وششويه ؟ قال : أكتب عشرا ونصف عشر ؛ قال : فكيف تصنع بويد؟ قال : أكتب وأيضا قال : والويد : النيف والزيادة تزاد ؛ فقال له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعتَ أصل الفارسية . وبذلت له الفرس مائةَ ألف درهم على أن يُظْهِرَ العجز عن نقل الديوان، فأبى إلّا نقلَه فنقله . فكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله درُّ صالح ! ما أعظم منّتَه على الكتّاب . وكان الحجاج أجّله أجلا فى نقل الديوان » .

فأما الديوان بالشأم فكان بالرومية، والذى كان يكتب عليه سرجون بن منصور لمعاوية ابن أبى سفيان، ثم منصور بن سرجون . ونقل الديوان فى زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان بن سعد مولى حسين وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك . وقد قيل : إن الديوان نُقلَ فى أيام عبد الملك، فإنه أمر سرجون ببعض الأمر فتراخى فيه فأحفظَ ذلك عبدَ الملك فاستشارَ سليمانَ؛ فقال له : أنقل الديون وأرتجل منه .

ثم نجده يتكلم فى مكان آخر عن أصطفن القديم وأنه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتبَ الصنعةِ وغيرها . فنحن نجد من هذا وغيرِه أن اللغةَ العربية أخذت تجرى أشواطا فى حلبة العلوم فى هذا العصر .

***

ونريد أن نشرحَ شرحا بسيطا حال الخَطَابة والكتابة فى العصر الأموى مُتوخِّينَ الاختصار على قدر الطاقة فنقول :

(د) الخَطَابةُ ومميزاتها :

لم تزدهر الخَطَابَةُ فى عصر من عصور الآداب العربية، كما ازدهرَتْ فى هذا العصر، لاعتماد الناس عليها فى السياسة والدين . وقد جعلها الدينُ الاسلامىّ فرضًا من الفروض فى الدعوة اليه، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،وقد كانت الوسيلة فى قمع الفتن وردّ البدع ، وكانت لسانَ القائد فى جنده يستنهض بها عزماتهم، والوالى فى رعيته يستفزّ بها

حميّتهم، والزعيم فى شَعْبه يجمع بها شتاتهم، اذ لم يكن غيرُها من وسائل التبليغ ميسورا، لذيوع الأمية وفقْدان وسائل النشر .

وقد وَجدَتْ بعد مقتل عثمان رضى الله عنه، بسبب اختلاف المسلمين، وتعدّدِ الفِرَق واختلاف الأحزاب، مجالاً واسعا للرقىّ والسبق ، لاعتماد كل حزب عليها فى نشر نحلته، وتأييد دعوته .

يميز الخَطَابَة فى هذا العصر ما يميز الآدابَ عامة فيه : من فخامة الألفاظ ومتانة التركيب، والتباعد عن حُوشىّ الكلام . ويميزها أيضا أنها اقتبسَتْ من القرآن كثيرا، ونهجت نهجه فى الارشاد والاقناع ، وأنها تُبدَأُ بحمد الله والصلاة على رسوله ، حتى قيل لخطبةِ زيادٍ المشهورة التى خطبها فى العراق : "الخطبة البتراء" إذ لم يحمد الله ولم يصل على نبيه فيها . وقد كان هذا العصرُ أحفلَ العصور بالخطباء، فقد كان جلُّ الخلفاء والقوّاد وولاةِ الأمصار وزعماءِ الأحزاب المختلفةِ خطباءَ مَصاقِعَ . وفيما يحفظه تاريخ الآداب من آثار الخلفاء، ولاسيما الإمام علىّ، ومن خطب الحجاج بن يوسف، وزياد بن أبيه، وطارق ابن زياد، مصداقُ ما نقول .

ولننقلْ هنا خطبة الحجاج فى أهل العراق بعد دير الجماجم فهى خيرُ مثالٍ لنضج الخطابة فى العصر الأموىّ . قال :

« يأهلَ العراق، إنّ الشيطانَ قد استبطنكم فخالط اللحمَ والدمَ، والعصبَ والمسامعَ والأطرافَ والشغافَ، ثم مضى الى الأمخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشَّشَ، ثم باش وفرّخ، فحشاكم نِفَاقا وشقاقا، وقد اتخذتموه دليلا تتبعونه، وقائدا تطيعونه ، ومؤمّرا تستشيرونه ؛ فكيف تنفعكم تجربةٌ أو تعظكم وقعةٌ أو يحجزكم إسلامٌ أو يردّكم إيمانٌ ! ألستم أصحابى بالأهواز حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، وظننتم أن الله يخذلُ دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفى وأنتم تتسللون لِواذا وتنهزمون سراعا . ويومُ الزاوية وما يومُ الزاوية ! بها كان فشلُكم وتنازعُكم، وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم، إذ ولّيتم كالإبل الشوارد الى أوطانها،

النوازع الى أعطانها ، لا يسأل المرءُ منكم عن أخيه ولا يَلْوِى الشيخُ على بنيه ، حتى عَضَّكم السلاحُ وقصَّمَتكم الرماحُ . يومُ دير الجماجم ، وما دير الجماجم ! بها كانت المعاركُ والملاحمُ بضربٍ يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله (١) .

«يأهل العراق أهلَ الكفرات والغدرات ، والثورة بعد الثورات ، إن أبعثكم الى ثغوركم غللتم وخنتم ، وإن أمِنتم أرجفتم ، وإن خفتم نافقتم لا تذكرون خشيةً ولا تشكرون نعمةً ، هل استخفكم ناكثٌ ، واستغواكم غاوٍ ، واستنصركم ظالم ، واستعضدكم خالع ، إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه ورضيتموه ! . هل شغَبَ شاغبٌ أو نعب ناعبٌ أو نعق ناعقٌ أو زفر زافر إلا كنتم أشياعَه وأنصارَه ! ألم تنهكم المواعظُ ! ألم تزجُركم الوقائعُ ! » .

ثم نظر إلى أهل الشأم فقال :

«يأهل الشأم إنما أنا لكم كالظليم الذابّ عن فراخه ، ينفى عنها المدرَ ويُبعِدُ عنها الحجرَ ، ويُكِنُّها من المطر . يأهل الشأم أنتم الجُنَّةُ والرداء ، وأنتم العُدَّةُ والغِطَاء » .

وقد يكون من المفيد حقًّا أن ترجع الى "صبح الأعشى" وغيره من المظان الأدبيـــة ، لتقف بنفســك على خطب القوم الممتعة أسـلوباً ، الفخمة لفظًا ، الغنية معنى ، فى ذلك العصر الزاهر .

(هـ) الكتابة :

الكتابة — سواء أكانت فى تدوين العلوم والفنون وضبط الشؤون العامة أم فى إنشاء الرسائل ومعالجة الكلام المنثور — لاترقى بل لا تكون إلا فى الأمم التى أخذت بقسط من التحضر ، فكانت لها حكومةٌ منظَّمَةٌ ، ودواوين معدّدةٌ ، وصناعة منوّعةٌ ، وزراعةٌ ناميةٌ ، وتجارة رائجة ، لذلك لم يكن لأحد من الشعوب العربيـة فى الجاهلية حظ من الكتابة إلا بمقدار ماله من حظ من الحضارة .

(١) هاتان الفقرتان مقتبستان من قصيدة لسيدنا عبد الله بن رواحة التى أنشدها بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم عند دخوله مكة فى عمرة القضاء ، وأصل البيت :

ضربا يزيل الهام عن مقيـله * ويذهل الخليـل عن خليله

اهـ من سيرة ابن هشام .

وقد كانت الكتابة معروفةً عند التبابعة جنوبا ، والمناذرة والغساسنة فى الشمال ، حين كان لأولئك وهؤلاء من الحضارة نصيبٌ . أما البدو من سكان أواسط الجزيرة فلم يعرفوا الكتابة إلا حين عرفوا الخطَّ فى أواخر العصر الجاهلىّ . وقد كان حظُّ الكتابة فيهم حظَّها فى أمة بادية قليلة الشؤون ، لذلك لم ينلها فى الرقىّ ما نال أخويها الشعر والخَطَابة . فلما جاء الإسلامُ وصار للعرب حكومةٌ مُنظَّمَةٌ وفتح الله عليهم أقطارَ الأرض ، اشتدت حاجتهم الى الكتابة ، فأخذت سبيلَها الى الرقىّ والكمال ، حين صارت حاجةً من حاجات الدولة .

بَيْدَ أن الكتابةَ لم تبلغ كمالَها الممكنَ ، فى التنسيقِ وإبلاغ الحاجةِ ، وفى اتساع ما تناولته من شؤون الدولة والناس ، إلا بعـد أن نُقِلَت الدواوينُ التى كانت بالفارسية فى فارس ، والرومية فى الشأم ، والقبطية فى مصر ، الى العربية فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، وإلا بعـد أن ظهر فى العربية كتّابٌ صَقَلَهم الاطلاعُ على آداب الفرس وغير الفرس من الأمم التى كانت لها قدمٌ راسخةٌ فى الحضارة : كابن المقفع وعبد الحميد الكاتب .

على أنا لسنا نرمى بذلك الى أن لا بلاغةَ فى ذلك العَصر بغـير اطلاع على بلاغة الأمم الأخرى ، لأن فى بلاغة القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب الخلفاء وتراث الجاهلية ، الكنزَ الذى لا ينضُبُ ، والمَعِينَ الذى ينهَلُ من أفاويقه كُتّابُ العصر غيرَ مُنازَع ولا مُدافَع . وإنا لنعثُرُ فى مظانّ الأدب العـربىّ على أمثلة ناضجة لمـا نقول . فهذا كلام أمّ الخير والزرقاء وعكرشة بنت الأطرش[(١)]، فإنه لمـا يُتخذ خيرَ مثال للنثر فى العصر الأموىّ .

وسنُثبت لك فى باب المنثور من الكتّاب الأوّل فى المجلد الثـانى رسالتين ممتعتين نعتبرهما بحق من خير المنثور العربىّ ، إحداهمـا تلك الرسالة المنسوبة لأبى بكر الصـديق والتى قيل إنه كتبها لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فهى تمثل عصرها بلاغة وفخـامة . والثانية رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب قيل إنه كتبها عن مروان بن محمد لعبد الله ابن مروان حينما أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى ، فهى فريدة فى نوعها رشاقة أسلوب وسموّ معنًى .

(١) أنظر باب المنثور من ملحق الكتّاب الأوّل فى المجلد الثـانى .

(و) حالة الشعر فى العصر الأموى وتحوّله :

لكى نَلْمَسَ بأيدينا صحةَ قول أولئك الذين يذهبون الى أن العصر الأموىّ، كان عصرَ تجديد فى الآداب العربيـة، وأنه كان عصرَ تجـديد قوى ظاهر فى اللفظ والمعنى، يلزمنا أن نفهمَ فهما أوليا سذاجةَ الشعر الجاهلىّ وصادقَ تعبيره عن الحياة الجاهلية .

نعلم أن العصر الجاهلىّ للعرب كان فى مجموعه، ككل العصور الأوّلية للعقل البشرىّ، ساذَجًا فِطْريا فى علومه ونُظُمه وعاداته ولكنه لم يكن كذلك فى آدابه، فإنّ عرب الجاهلية بدءوا فى شعرهم وآدابهـم، فى ذلك الطور الأوّل، بمـا كان عليـه غيرهم من الأمم السامية وكثير من الأمم الأخرى فى أطوارها الأولى وعصورها الجـاهلية، مع ملازمتهـم للفطرة، ونفورهم من التكلف، وبعدهم عن الصنعة الكلامية .

إن العربَ فى جاهليتهم نظموا الشعر فى كل حاجاتهـم وأبدعوا فيـه بسليقتهم . ومع أنهم كانوا فى دَوْرِ فوضاهم فقد نضجت لهم أفانينُ كانت آيةً فى بلاغة اللسان العربىّ . وكان الأدب الجاهلى فِطْريا مُمَثِّلًا خُلُقَ العصر مبينًا استقلالَ الفكرة البـدوية؛ وكان فى ضروبه كافّةً من وصف ومدح ورثاء وهجاء ناطقًا بما يجيش فى نفس قائله حقا، كما كان فى بلاغة تركيبه وبعده عن الأوضاع المدرسية من تكلف للبيان والبديع آيةً فى بلاغة الفطرة وشاهدا فى مجموعه على مبلغ أثر بلاغة الفطرة المرسَلة عن شعور صاحبها فى النفوس والأفهام .

على أنه يجدر بنا أن نقول : إنّ المعلقات وغيرَها من آثار العقل العربىّ الجاهلىّ، قد لا تتأثر بها نفوسُ العصر الحاضر، لتغير اللغات والأفكار والمعتقدات، ولتشعّب المدنيات والأدبيات، ولأن آذاننا وأذواقنا قد تحكم بنبوّ ألفاظها وخشونتها، فكما أن الأدب الانكليزىّ قد لا يستعمل اليوم ألفاظا كان يستعملها شيوخُ العقل الانكليزى « كبا كون» و «شكسبير» و «ملتون» من خيرةِ نتاج عصر اليزابث الذهبىّ وقبلهما «شوسر» وشعراء المغانى، ويعتبرها البعض نابيةً جافيةً، وأنها بمثابة ألفاظ مدرسية تاريخية، كما هى الحال فى نظر أدب العصر

الانكليزى أو الفرنسى أو الألمـانى فى تراجمهم عن الكتاب المقدّس ، والى شعرائهم وأدبائهم المتقدّمين ، كذلك هو الحال فى أحكامنا عن نتاج العصر العربىّ الجاهلىّ .

* * *

إنّ المدنيّة ما ونَتْ ساعة ولا يوما ، ولكن عاطفة الانسان تكادُ تكون هى بنفسها فى كل العصور : يحرّك لواعجَه الجمالُ ، ويَفطِر قلبَه رَيبُ الزمان ، و يُبثّ شكاتَه الى أترابه و إخوانه ، و يحاول أن يتبوّأ حبّاتِ الأفئدة بسحر بيانه ، فهو يفخَر و ينشــدو ، وهو يمدح و يهجو ، وهو يخطُب و ينظم و يضرِبُ الأمثــالَ . وهو صادق فى ترجمة مشاعره ، وتبيان مقاصده ما كان فى دَوْرِ سذاجته بعيــدا عن ضروب المدنيات التى كثيرا ما تُلازِمُها تقاليد خاصــة وتصحبها آدابٌ تُعورِفَ عليهــا تُقلّل صراحته وتَفُلُّ من حدّة شَبَاته ، وتجعــل له سلطانا على ميوله وأهوائه . واللسان عُلَنَــةٌ مصفاحٌ إن تركت له عِنانه ، كُتَمَةٌ مُضَلِّلٌ إن جعلت العقلَ والتقليدَ ميزانه .

مِنْ هنا نستطيع أن نُفَسِّر سذاجةَ العربىّ الجاهلىّ وجنوحَه الى صوت الطبيعة ، على العكس من حال زميله الاســلامىّ الذى قد صقلته بلاغةُ القرآن وتعاليمُه ، وشَذَّبته ســنةُ الرسول وصحابته ، وأفسح المجالَ لخياله ما وقف عليــه أثناء الفتوح العربيــة مــن تراث المدنيات الفارسية فى العراق وفارس ، والرومانيــة فى الشأم ومصر ، وناهيك بآثار الفرس والرومان الى ما خَلَّفَ له آباؤه العربُ من حكمةٍ و بيانٍ .

* * *

كانــ شــعراءُ الجاهليــةِ يُسَدِّدون قولَهم نحو كبدِ الحقيقة فلا يُخطِئونها ، و يقولون الشعرَ عن شعورٍ حىّ ، ولا يتخطَّوْن الى ما وراء مَشهودهم ومعقولهم ، فجــاء شعرُهم مثالا صادقا لبداوتهم وحضارتهم ، حتى لو اندثَرَتْ جميعُ أخبارهم وآثارهم ولم يبق إلا شىء من شــعرهم لتَيَسَّرَ للباحث أن يستخرج منه وصفًا كاملًا لجميع أحوالهم ، كما استخرجَ الباحثون كثيرًا من غوامض جاهلية اليونان من شعر «هوميرس» .

واليك مثالا قول المهلهل بعد وقعة السُّلَّانِ اذ حضرها مع أخيه كليب وفرّ آبن عنق الحية من وجههما :

لوكان ناهٍ لآبن حيَّـةَ زاجرًا * لنهاه ذا عن وقعة السُّلَّانِ
يومٌ لنا كانت رياسةُ أهله * دون القبائل من بنى عدنان
غضِبَتْ مَعَدٌّ غثُّها وسَمِينُها * فيه ممالأةً على غسَّان
فأزالهم عنَّا كُلَيبُ بطعنةٍ * فى عُمْرِ بابلَ من بنى قحطان
ولقد مضى عنها آبنُ حيَّةَ مدبرًا * تحت العَجَاجة والحتوفُ دوانى
لما رآنا بالكلاب كأننا * أُسْدٌ مَلَاوِثَةٌ على خَفَّان
ركـ التى سحبتْ عليه ذيولَها * تحت العجاج بذلّةٍ وهوان
ونجا بمهجته وأسلم قومَه * متسربلين رواعفَ المرّان
يمشون فى حَلَقِ الحديد كأنهم * جُربُ الجمال طُلِينَ بالقَطِران
نعم الفوارسُ لا فوارسُ مَذْحِج * يوم الهياج ولا بنو هَمْدان
هزموا العُداةَ بكل أسمرَ مارنٍ * ومهنَّدٍ مثل الغدير يمانى

وبعد، فإنا بعد ما قدّمنا من موجز كلامنا عن تصوير حالة الشعر فى الجاهلية توطئة لبحثنا عن حالته فى العصر الأُموىّ، لا نرى مندوحةً من الإشارة هنا الى أنا سنعنى عناية، خاصة، بفرعَيِ الغَزَل والشعر السياسىّ، لأنهما بحالتيهما الأُموية يكادان يكونان وليدَيِ العصر ونِتَاجَه .

وليس معنى ذلك أنا ننكر تلك المعانىَ الجديدةَ التى دخلت على الوصف والمدح والرثاء والهجاء، ولكنّا نلاحظ أنّ الفرق لا يعدو ملتزماتِ المدنية، مع رقة اكتسبتها العصورُ الاسلامية، القريبةُ العهد من نزول القرآن واشتغالِ الناس بتلاوته وإقبالهم على دراسته، حتى انطبعوا على بلاغته وبيانه .

على أنه من المفيد أن نُشيرَ الى شيءٍ جديدٍ أصاب فنّ المديح فى العصر الأُموىّ، لأنه خاص بهذا العصر دون سواه .

قال ابنُ قتيبةَ فى كتابه القيم «الشعر والشعراء» : أتى بعض الرُّجّازِ نصرَ بن سيار والى خراسانَ لبنى أمية، فمدحه بقصيدة تشبيبُها مائةُ بيتٍ ومديحُها عشرةُ أبيات، فقال نصرٌ : « والله ما بقيت كلمــةٌ عذبةٌ ولا معنى لطيفٌ إلا شغَلْتَه عن مديحى بتشبيبك، فان أردت مديحى فاقتصد فى النسيب، فأتاه فأنشد :

هل تعرف الدارَ لأم الغمـــر * دع ذا وحبِّرْ مِـــدحةً فى نصر

فقال نصر : لا ذاك ولا هذا، ولكن بين الأمرين .

(ز) الغـــــزل :

كان غَزَلُ الجاهلية من عفو الخاطر وفيض البديهةِ، ناطقًا بصفاء قريحتهم، وكامل حريتهم، وتوقّدِ أذهانهم وتأثر طباعهم، وكان بريئا من الصنعة والكُلْفة .

ومع أنى ممن يذهبون الى أنّ الشاعر الجاهـلىّ، كان يعالج الفنون الشــعريةَ كافّة غير مقصور على النسيب بالذات، بيـد أنى ممن يقول إن المعانىَ الغزليةَ وألفاظَها تكاد تكون مُعَادةً فيما بعد العصر الجاهلىّ، بتوسع تقتضيه المدنيّةُ، وطَلَاوةٍ اكتسبتها الألفاظُ من بلاغة القرآن، وعذوبةٍ أنتجتْها ثروةُ الأذهان من أفاويق العرفان .

ولقد صدق زهيرٌ إذ يقول :

ما أرانا نقــول إلا مُعَارًا * أو مُعادا من لفظنا مكرورا

أجل، لقد كان الغَزَلُ الأموىّ غنيا بما هو أكثر من ذكر الأطلال والديار، إذ أنّا نجد فيه لواعجَ الحبّ ولفحاته، وشكايات الصبّ وأناته، وزفرات العاشق وعبراته .

ألسنا نلمسُ التوجعَ والأسى فى قول آبن الدمينة الخثعمىّ :

ألا ياصبا نجدٍ متى هِجتِ من نجدِ * لقد زادنى مَسرَاك وجدًا على وجدِ

وفى قول الصمَّة بن عبد الله بن طفيل :

حَنَنْتَ الى رَيًّا ونفسُك باعدَتْ * مَزَارَك مِن رَيًّا وشَعْبَاكُما معَا

نريد أن ندرُس حالة الغزل فى العصر الأموىّ الذى هو عصر الترف والغنى والثروة، عصرُ القصور والملاذ، عصرُ الاندماج فى غير العرب وآتخاذ السرارى والسبايا، تخادمات ووصيفات وزوجات.

لقد كثر الترفُ كثرةً حمل معها الاندفاع مع الغزلِ وما يجرّه الغزل، وخلق أنواعا صريحةً من المناحى الشعرية فى الحب والتشبيب بالنساء، رغبةً فى الحب من حيث هو، وفى التشبيب من حيث هو: بمعنى أنا كنا فى العصر الجاهلىّ قلّما نجد شاعرا وقَف حياته الشعريةَ على معالجة فنّ الغزل فحسبُ، لا يتكلف غيرَه ولا يُعنَى بسواه، فإذ بنا فى العصر الأموىّ نجد من الشعراء من يتخذ من الغزل صناعة وفنّا.

وظاهرة أخرى نلاحظها فى الغزل الأموىّ تظهر بجَلاء مقدار اختلافه عما كان عليه فى العصر الجاهلىّ، تلك أنواعه المتباينةُ التى يصح لنا أن نقسّمَها الى أربعة أبواب: غزل إباحىّ، ويصح لنا أن نتخذَ من عمر بن أبى ربيعة زعيما لهذا النوع الذى يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معانىَ العبث بها والاستمتاع باللذة المادّية مما ينفرُ منه الأدب الجاهلىّ ومما حَظَره عليه الكثيرون من خلفاء الإسلام وأئمته.

ولقد صدق آبنُ جريج إذ يقول: "ما دخل على العواتق فى خدورهنّ شىء أضرّ عليهنّ من شعر آبن أبى ربيعة". ونحيل القارئ الى حديث الزبير بن بكار عن عمّه مُصْعَب فى صفة هذا الشاعر الكبير، على أن كتاب الأغانى وغيرَه من أمهات كتب الأدب العربىّ مُترَعةٌ بشعره وتشبيبه مما لا يدع مجالا للشك فى أنه كان تبّعَ نساء وجلْس غانياتٍ، وصّافا لأحاديثهنّ، واقفا على دخائلهنّ، مطلعا على هوى نفوسهنّ. ولا حاجة بنا الى التطويل هنا فيما هو مشهور مُتعارَف، خصوصا أنك ستجد طرفا من شعره، فى باب المنظوم من الكتاب الأوّل فى المجلد الثانى، فراجعه ثمة.

على أنه مع ذلك يذوب رِقّةً وحنانا فى بعض مُقَطّعاته، ولا سيما مع الثريا بنت علىّ، فإنه يلوح لنا أنه لم يفتَحْ قَلبَه لأحد سواها.

كتب ابن أبى ربيعة الى الثريا وهى باليمن يقول :

كتبتُ إليك من بلدى * كتاب مُوَلَّه كَمِدِ

ولقد كانت مكةُ والمدينة مَسْرحًا لهذا النوع فى العصر الأموىّ . وسبب ذلك ميسور فهمه ، معقول تعليله ،ذلك أن الخلفاء تعمّد جلّهم الإغداقَ على أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار بالأموال والهدايا فوقَ ما ورّثهم آباؤهم ، ليحولوا بينهم و بين ما يطمحُ اليه أمثالَهم من منافسة فى الملك ، أو مشاكسةٍ للسلطان ، وليشغلوهم عن أمور الدولة بإرخاء العِنانِ لهم فى لذاتهم ومناعمهم .

وهناك الغزل العُذْرىُّ البرىء ، غَزَلَ الحب الصادق ، والعواطف المتأججة ، والنفس المتألمة المعناة ، تلك النفسُ التى تجـد لذَّتها فى الكَلَف بمن تحبّ والتعلّق به والشعورِ بالسعادة فى الغِناء بحبه ، حبًّا يملك عليه لبّه و يعذّب رُوحَه ويفنى جسمه كغزل جميل . وليس أدلُّ على صدق حبه مما أثبته صاحب الأغانى فى الجزء السابع ، اذ حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحاجّه فى ذلك أجمل مُحَاجّة ، فكان من جميلٍ ما كان مما نجـده مفصلا فى موضـــعه[1] .

وغزل صناعىّ بين هذا وذاك ، همه الإجادة فى الشعر من حيث هو شعر، لا فى الحبّ من حيث هو حب ، ولنا فى كُثيرعزةَ زعيم لهذا النوع الثالث[2] .

وغزل قَصَصِىّ ، خلقه الرواة لأنهم رأوا ميـلَ الناس الى الغزل والى حيـاة القصف وما يتبع حيـاةَ القصف ، فنظموا قصائدَ نحلوها لشعراء لانستطيع أن نحتملَ تَبعـةَ القول بوجودهم فى الحياة أو القول بأنهـم أشخاص خياليُّون خلقهم الرواةُ أو زادوا من عندهم مقطعات نسبوها لهم وأضافوها الى شعرهم . وزعيما هذا النوع . قيس[3] بن الملوّح وليلاه ، وقيس بن ذَرِيح ولُبناه[4] .

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) أنظر باب المنظوم من ملحق الكتاب الأول فى المجلد الثانى .

(ح) الشـــعر السياسيّ .

بدايةُ عصر بنى أميــة معركةٌ سياسيّةٌ ، لَعِبَ فيهـا معاوية وأنصاره دورا مُمتعًا طريفا فى سبيل آستلاب الخلافة من علىّ ، وتأسيس ملك بنى أميــة ، على قواعدَ وسننٍ تخالف قليلا أو كثيرا ما كانت عليه الحالُ فى عصر الخلفاء الراشدين .

* * *

الإنسانُ فى سبيل تحقيق أطماعه السياسية ، هو بعينه فى عصر معاويةَ ، وفى عصر يوليوس قيصر ، وفى عصر بونابرت ، وفريدريك الأكبر أول عاهل لألمـانيا ، هو بعينــه إنسانُ اليوم ، هو بعينه كرئيس الولايات المتحدة وغيرها ، يستعمل المـالُ فى شراء الضمير الإنسانىّ ، ويعمل جهـدَه على إذاعة دعوته ، وتبيان فضائله ، وتصويب خُطّته ، بآتخاذ الحملات الصَّحَفية والخَطَابية وغيرها من وسائل الدعوة التى وصلت اليها المدنيّةُ الحديثةُ ، والتى كانت فى عصر معاوية وخلفاء معــاوية وفى عصر المأمون وخلفاء المأمون ، تَستخدِمُ ألسنةَ الشعراء ، وهى أسرع انتشارًا ، وأعمق أثرًا ، وأكثر روايةً ، وأطول عمرا ، مما يكتب اليوم ، فلا يَروِيه من الناس إلا قليلٌ .

إنك لتعــلم ما لآستخدام الشعر من أثر فى كثير من الحركات السياسية ، وآستحثاث العزمات وإنهاض الهممَ فى الانقلابات الاجتماعية ، وما «للمرسلييز» من أثر فى نفوس الجند الفرنســيين ، اذا حَمِى وطيس الحرب واشــتدّ أوَارُها . وأنت جِدُّ عالِمٍ بمـا كان لقصائد « اللورد بيرن » ، الواحدة تِلْوَ الأخرى ، فى سبيل استقلال اليونان الحديثــة ، وفى سبيل اجتذاب عطف أوروبا وساستها وجماهيرها وملوكها ونوابها وصحفها ، ليأخذوا بناصر أمةٍ مَهيضةٍ غُلِبَتْ على أمرها .

أنت جِدُّ عالم بأن قصائد « بيرن » هذه فَعَلَتْ فى المعركة السياسية ما لم تفعله جيوشُ مصرَ وأساطيلُها وذخيرة الترك وآنتصارها ، فكان الحكم «لبيرن» وكان الانتصارُ لشعره .

***

كذلك كان الحالُ فى عصر بنى أميــة ، وكذلك كان أثر الشعر إن لم يكن أبلغَ وأوسعَ نطاقًا . ألم يُوعِزْ معاويةُ ، فى رواية يزيد ٱبنـه ، الى مِسْكين الدارمىّ أن يقولَ أبيـاتا فى معنى المبايعة ليزيدَ و يُنشدَها إياه فى مجلسه وهو حافل بالوجوه والأشراف ! .

وتقول رواية الأغانى : إن معاويةَ لمـا أراد البيعـة ليزيد ، تهيّب ذلك وخاف ألا يمالئه عليـه الناسُ لحسن التقيّة فيهـم وكثرةِ من يُرشَّحُ للخلافة ، و بلغه فى ذلك ذَرْوُ[1] كلام ، كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبـد الله بن عامر ، فأمر يزيد مسكينا ، وكان يؤثره و يصله و يقوم بحاجاته عند أبيه ، أن يقولَ أبيـاتا و ينشدَها معاويةَ فى مجلسه اذا كان حافلا وحضره وجوهُ بنى أميـة ؛ فلما اتفق ذلك دخل مسكين اليـه وهو جالس وٱبنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حواليه وأشرافُ الناس فى مجلسه ، فمثَلَ بين يديه وأنشأ يقـــول :

إن أُدْعَ مسكينا فإنى ٱبنُ معشرٍ * من الناس أحمِى عنهمُ وأذودُ
اليـك أميرَ المؤمنين رحلتُهـا * تثير القطا ليلا وهن هجودُ
وهاجرة ظلّت كأن ظبـاءها * اذا ما ٱتقتهـا بالقـرون سجود
ألا ليتَ شعرى مايقول ٱبنُ عامرٍ * ومروانُ أم ماذا يقول سعيدُ
بنى خلفـاء الله مهـلا فإنمـا * يُبوِّئها الرحمنُ حيث يريد
اذا المنبرُ الغـربىّ خلاه ربه * فإنّ أمير المؤمنـين يزيدُ
على الطائر الميمون والجَدُّ صاعدٌ * لكل أناس طائرٌ وجـــدودُ
فلا زلتَ أعلى الناس كعبا ولا تزل * وفـودٌ تُساميهـا اليك وفُـودُ
ولا زال بيتُ الملك فوقك عاليا * تُشَـيَّدُ أطنـابٌ له وعُمُـودُ
قُدورُ ٱبنِ حرب كالجوابى وتحتها * أثاف كأمثـال الرئال رُكودُ

(١) ذرو كلام : طرف منه .

فقال له معاوية: «ننظر فيما قلتَ يامسكينُ ونستخير الله» . قال: ولم يتكلم أحد من بنى أمية فى ذلك إلا بالإقرار والموافقة، وذلك الذى أراده يزيد، ليعلم ماعندهم، ثم وصله يزيدُ ووصله معاوية فأجزلا صلته اﻫ .

وأظنك لا تطلب منا حين مطالعتك لهذه القصيدة تحليلها لإقامة الدليل على صدق ما ذهبنا اليه، فيما أسلفناه لك من القول بأن شعرَ العصرَ الأموىّ عربىّ جاهلىّ فى منحاه وأسلوبه، وأنه يتميز بروح جديدة، ويختلف بأغراض ومقاصدَ تكاد تكون جديدةً بالنسبة للعصر الجاهلىّ . وذلك لوضوح التحليل وخوف الإطالة فيما لا يعنينا كثيرا .

على أنه لِزامٌ فى عنقنا أن نصورَ، الى مدًى أوسعَ، استخدامَ الشعر الأموىّ فى الأغراض السياسية، لأن لهذا النوع الطريف نتائجَه وآثارَه فى هذا العصر والعصور التى تلته، ولأن لهذه الميزة ميزةِ اصطباغ الشعر بالغرض السياسىّ واندفاع صاحبه فى سبيل نُصرةِ دعوته مُعبّدا ما قد يعتور طريقَه من صِعابٍ، مُذللا ما يعترضه من عِقابٍ، منتهكا حرمةَ التقاليد والأشخاص، بل خارجا الى حيز لا يرضى عنه فقهاء الدين كثيرا، وربما لا يرضى عنه الشرعُ حقا، نزعم أن لهذه الميزة آثارَها ونتائجَها . ولسنا بسبيل تفصيل ذلك الآن، ولكنا بموقف المقيّد للحوادث فحسبُ، المثبت لمبدأ وقوعها، ولها مع الزمن وتكرر وقوعها ونشاط مَيدانها ما سيتاحُ لنا تفصيلُه فيما بعد، من اتساع نطاق السياسة الشعرية خاصةً، ودولة الأدب عامة، وتهديدها حرمة العادة والخلق والدين .

* * *

مَثَلٌ آخر ذكره صاحب كتاب الأخبار الطوال وهو بمثابة معركةٍ مذهبيةٍ سياسيةٍ بين نصير معاوية ونصير علىّ، بين كعب بن جُعَيل والنجاشىّ . وهاك قصيدة كل منهما، قال كعبُ بن جُعيل :

أرى الشأم تكره مُلك العرا * ق وأهلُ العراق لهم كارهونا
وكلّ لصاحبه مُبغِضٌ * يرى كلّ ما كان من ذاك دِينا

وقالــوا عــلىّ إمامٌ لنـا * فقلنا رضينا ابنَ هنــد رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لنـا * فقلنـا لهم لا نرى أن ندينـا
وكلّ يُسَــرُّ بمـا عنده * يرى غثَّ ما فى يديه سَمينـا
وما فى عــلىّ بمستعتَب * مقال ســوى ضمّـه المحدثينـا
وليس براضٍ ولا ساخــطٍ * ولا فى النهـاة ولا الآمرينـا
ولا هو ســاءَ ولا هو سَــرّْ * ولا بدّ من بعــد ذا أن يكونا

فلما قرأه علىّ رضى الله عنه قال للنجاشىّ أجب، فقال :

دعنّ مُعَـاوِىَ ما لن يكونا * فقــد حقّق الله ما تحــذرونا
أتاكم عــلىّ بأهــل العـرا * ق وأهلِ الحجـاز فما تصنعونا
يرون الطّعَـانَ خِلاَل العَجَا * ج وضربَ القوانِسِ(١) فى النَّقْع دِينا
هم هزموا الجمع جمــعَ الزبير * وطلحــة والمعشرَ الناكثيناَ
فان يكره القوم مُلكَ العــراق * فقــدْماً رضينـا الذى تكرهونَا
فقولوا لكعبٍ أخى وائلٍ * ومن جعلَ الغثَّ يومنا سمينَـا
جعلـــتم عليًّا وأشــياعه * نظيرَ ابن هنــدٍ ألا تستحُونَا

* * *

وهاك مثلا آخرذكره صاحب الأغانى فى ترجمة النعمان بن بشيرقال : تشبب عبد الرحمن ابن حسان برملة بنت معاوية فقال :

رَمْلُ هَــل تذكرين يومَ غزال * إذ قطعنـا مســيرَنا بالتمـــنّى
إذ تقــولين عمرَكَ اللهَ هل شى * ء وإن جلَّ سوف يُسليكَ عنّى
أم هل اطمعت يا ابنَ حسان فى ذا * ك كما قــد أراك أطمعتَ منّى

قال : فبلغ ذلك يزيدَ بن معاوية فغضب، ودخل على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين، ألا ترى الى هذا العلج من أهل يثرب يتهكم بأعراضنا ويُشبّب بنسائنا ! فقال : ومن هو؟

(١) القوانس : جمع قونس وهو أعلى الرأس، وأعلى بيضة الحديد أو مقدمها .

قال : عبد الرحمن بن حسان فأنشده ما قال؛ فقال، يايزيد ليست العقوبةُ من أحد أقبحَ منها بذوى المقدرة، ولكن امهل حتى يقدمَ وفدُ الأنصار ثم ذكّرنى به؛ فلما قدموا ذكّره به؛فلما دخلوا قال: ياعبد الرحمن،ألم يبلغنى أنك تُشَبِّبُ برملةَ بنت أمير المؤمنين! قال: بلى ولو علمتُ أن أحدا أشرفُ بشعرِى منها لذكرته؛ قال: أين أنتَ عن أختها هندٍ! . قال: وإن لها لأختا يقال لها هند؟ قال : نعم! وإنما أراد معاويةَ أن يشببَ بهما جميعا فيكذب نفسه؛ فلم يرض ذلك يزيد بن معاوية وما كان منه معه، فأرسل الى كعب بن جُعَيل فقال له : اُهجُ الأنصارَ؛ فقال: أفرَقُ من أمير المؤمنين، ولكن أدلك على الشاعر الكافر الماهر الأخطل؛ قال فدعاه فقال له؛ اُهج الأنصارَ؛ فقال: أفرَقُ من أمير المؤمنين؛ قال: لاتخف شيئا أنا لك بذلك؛ فهجاهم فقال :

وإذا نسبتَ ٱبنَ القُريعَةِ خِلتَه * كالجحش بين حمارةٍ وحمارِ

لعنَ الالهُ من اليهود عصابةً * بالجِزْع بين صُلَيصِلٍ وصُدَارِ

قوم اذا هدر العصيرُ رأيتَهم * حمرا عيونهمو من المصطار

خلو المكارمَ لستمو من أهلها * وخذوا مساحيكم بنى النجار

إن الفوارس يعرفون ظهورَكم * أولاد كلّ مقبّح أكّارِ

ذهبت قريشٌ بالمكارم كلها * واللؤمُ تحتَ عمائم الأنصار

فبلغ ذلك النعمانَ بنَ بشير، فدخل على معاوية فحسرَ عمامتَه عن رأسه وقال: ياأمير المؤمنين، أترى لؤما؟ قال : لا بل أرى كرما وخيرا، فماذا؟ قال: زعم الأخطلُ أن اللؤمَ تحتَ عمائم الأنصار ! قال : أو فعل ذلك؟ قال : نعم، قال: لكَ لسانُه، وكتب فيه أن يؤتى به، فلما أُتىَ به سأل الرسولَ أن يُدخِلَه الى يزيدَ أوّلا، فأدخله عليه، فقال : هذا الذى كنتُ أخاف؛ قال : لا تخف شيئا، ودخل على معاوية فقال : علامَ أرسل الى هذا الذى يمدحنا ويرمى من وراء حجرتنا؟ قال : هجا الأنصار؛ قال : ومن زعم ذلك؟ قال : النعمانُ بنُ بشير؛ قال : لا تقبل قوله وهو المدّعى لنفسه، ولكن تدعوه بالبينة وإن أثبتَ شيئا أخذت له؛ فدعاه بالبينة فلم يأت بها فخلّاه؛ فقال الأخطلُ :

وإنى وإن آستعبرت أمُّ مالك * لراضٍ من السلطان أن يتهدّدا
ولولا يزيدُ آبن الملوك وسعيُه * تحللتُ جِرباذًا من الشر أنكدا

أما ردّ النعمان على الأخطل فهاكه كما نقله أبو الفرج الأصبهانى عن خالد بن كلثوم :

مُعَاوِىَ إلّا تعطنا الحقَّ تعترف * لِحَى الأزد مشدودا عليها العمائمُ

حتى قوله :

اليهم يصير الأمر بعـد شتاته * فمن لك بالأمر الذى هو لازم
بهم شرع الله الهدى فاهتدى بهم * ومنهـــم له هادٍ إمامٌ وخاتَمُ

وإنَّا نُحيل القارئ الى الكتاب الأوّل من المجلد الثـانى ليقف على قصيدة النعمان هـذه، وليقف كذلك على قصـيدته الرائيـة الأخرى التى أنشـدها معاوية لمـا ضَربَ مروانُ بن الحكم، عبـدَ الرحمن بنَ حسان الحـدَّ ولم يضرب أخاه حين تهاجيا وتقاذفا . وتحرير الخبر فيها : أنه لمـا كثر الهجاء بين عبد الرحمن بن حسان وعبـد الرحمن بن الحكم ابن أبى العاصى وتفاحشا، كتبَ معاويةُ الى سعيد بن العاصى، وهو عاملُه على المدينـة، أن يجلّد كلَّ واحد منهـما مائةَ سوط . وكان ابنُ حسان صـديقًا لسعيد وما مدح أحدًا غيرَه قط، فكره أن يضرب أو يضرب ابن عمه فأمسك عنهما، ثم وَلِى مروانُ، فلما قَدِم أخذ ابنَ حسان فضربه مائةَ سوط ولم يضرب أخاه، فكتبَ ابنُ حسان الى النعمان ابن بشير وهو بالشأم، وكان كبيراً أثيراً مكيناً عند معاوية، قال :

ليتَ شعرى أغائب أنت بالشـ * ـام خليـلى أم راقدٌ نعمانُ
أيّة ما يكن فقـــد يرجع الغـ * ـائب يوما ويوقَظ الوســـنانُ
إن عمرا وعامرا أبوينـا * وحراماً قِـدْما على العهد كانوا
أفهُمْ ما نعوك أم قـــلة الكتـ * ـاب أم أنت عاتبٌ غضـبانُ
أم جفاء أم أعوزتك القراطيـ * ـس أم آمْرِى به عليك هوانُ
يوم أنبئْتَ أن ساقَ رُضَّتْ * وأتتكم بذلك الركبانُ

ثم قالوا إن آبن عمّك فى بلـ ـوى أمورٍ أتى بها الحدثانُ
فنسيتَ الأرحام والودّ والصحـ ـبة فيما أتت به الأزمانُ
إنما الرمح فاعلمنّ قناةٌ أو كبعض العيدان لولا السِّنانُ

وهى قصيدة طويلة . فدخل النعمان بن بشير على معاوية فقال : ياأمير المؤمنين، إنك أمرت سعيدا بأن يضربَ ابنَ حسان وابنَ الحكم مائةَ سوط فلم يفعل، ثم وَلَّيتَ مروانَ فضربَ ابنَ حسانٍ ولم يضرب أخاه ! قال : فتريد ماذا ؟ قال : أريد أن تكتبَ اليه بمثل ما كتبتَ الى سعيد، فكتب اليه معاويةُ يعزمُ عليه أن يضربَ أخاه مائةً، فضربه خمسين وبعث الى آبن حَسَّان بحُلّة وسأله أن يعفوَ عن خمسين، ففعل وقال لأهل المدينة : إنما ضربنى حدَّ الحرّ وضربه حدَّ العبد خمسين، فشاعت الكلمةُ حتى بلغت ابنَ الحكم، فجاء الى أخيه فأخبره وقال : «لا حاجةَ لى فيما عفا عنه ابنُ حسَّان»، فبعث اليه مروان : «لا حاجة لنا فيما تركت، فهلم فاقتصّ من صاحبك» . فحضر فضربه مروانُ خمسين أخرى اهـ .

* * *

ويجدر بنا الآن، بعد أن أوضحنا ميزةَ استعمال الشعر فى الأغراض السياسية فى الدولة الأموية، أن نسمح لأنفسنا بتقييد ملاحظة قد لا تخلو من نفع فيما سنعالجه، وهى أن تلك الأغراض السياسية سمحت للشعراء بما لم تسمح به لسواهم من إعفائهم من إقامة الحدود . وقد سبق لنا أن أشرنا الى كتاب معاويةَ الى مروانَ بن الحكم فى صدد حدّه للشاعر المناصر لسياسة بنى أمية وهو عبد الرحمن بن أرطاة المعروف بأبى سيحان وكان حَدَّه لِشُربِهِ الخمرَ . وآبنُ سيحانَ هذا هو الذى قال فى صفته أبو الفرج الأصفهانى : «كان عبدُالرحمن شاعراً مُقِلًّا إسلاميا، ليس من الفحول المشهورين، ولكنه كان يقول فى الشراب والغَزَل ومدح أحلافه من بنى أمية، وهو أحد المعاقرين للشراب والمحدودين فيه، وكان مع بنى أمية كواحد منهم، إلا أن آختصاصه بآل أبى سفيان وآل عثمان خاصة كان أكثرَ، وخُصُوصَه بالوليد ابن عثمان ومؤانسته إياه أزيدُ من خصوصه بسائرهم، لأنهما كانا يتناوبان على الشراب» .

ونريد الآن أن نفسرَ هذه الحادثة تفسيرا معتدلا لنخرج منها بمـا عساه يمدّنا وينفعنا فيما سَنُقْدِمُ عليه من مناقشة العصور التى تلت هذا العصر، تلك العصور التى تغذّت، من غير شــك، بأفاويق العصر الأموى الذى تقـدّمها، فنبتت فيهـا بذوره حتى كادت تنمو فى حديقته الأُنُف الحُسّانة دوحاتٌ خطرة على الاعتبارات الخُلقية التى توُوضعَ عليها .

وإنّك اذا رجعت الى كتّاب معاوية، ورجعت الى كتاب الأغانى نفسه، ومولفه أُمَوى كما تعلم، وجدته قد أقام الحجة فى غير موضع على أن هذا الشاعر عاقر الخمر . وهاك ما يؤيد ذلك ويعززه :

قال : «كان الوليد بن عثمان، ذا غَلّةٍ فى الحجاز، يخرج اليها فى زمان الثمر بنفر من قومه، يجنون له ويعاونونه، فكان اذا حضر خروجهم دفع اليهــم نفقاتٍ لأهليهــم الى رجعتهم؛ فخرج بهم مرةً كما كان يخرج وفيهم ابنُ سيحانَ، فأتى ابنَ سيحانَ كتابٌ من أهله يسألونه القدومَ لحاجةٍ لا بدّ منها، فاستأذنه فأذن له، فقال له ابنُ سيحان : زوّدونى من شرابكم هذا، فزوّدوه إداوة ملأها له من شرابهم، فكان يشربها فى طريقه حتى قدم على أهله، فألقاها فى جانب بيته فارغة، فمكث زمانا لا يذكرها حتى كنسوا البيت فرآها ملقاةً فى الكُناسة فقال :

لا تَبْـعَدنْــ إداوةً مطروحةً * كانت حديثًا للشراب العاتِقِ
إن تُصبحِى لا شىء فيكِ فربما * أُتْرِعْتِ من كأس تَلَذُّ لذائقِ
بأبى الوليــدَ وأمّ نفسى كلّمـا * بدت النجوم وذرّ قرنُ الشارقِ
كم عنــده من نائلٍ وسمـاحةٍ * وشمـائلٍ ميمونةٍ وخلائقِ
وكرامةٍ للمعتفيــن اذا اعتفَوْا * فى ماله حقّا وقولٍ صـادقِ
أثوى فأكرمَ فى الثواء وقُضِّيَتْ * حاجاتُنا من عند أرْوعَ باسِقِ
لمـا أتيناه أتينـا ماجـد الـ * ـأخلاق سبّاقًا لِقَرْمٍ سابقِ
قال الوليدُ يدى لكم رهن بمـا * حاولتمو من صامتٍ أو ناطقِ
فإلى الوليــد اليــوم حَنَّتْ ناقتى * تهـوى بمغبرّ المتون سَمـالقِ
حنّت الى برق فقلت لهـا قرى * بعضَ الحنين فإنّ شجوك شائقِ

فهذا اعتراف صريح بمعاقرته للخمر . ثم لِنُثْبِتْ هنا قصيدتَه التى مدح بها معاويةَ :

إنى آمرؤ أُنمَى الى أفضل الورى * عديدًا اذا ارفضَّتْ عصا المتخلِّف
الى نضد من عبد شمس كأنهم * هضاب أَجًا أركانُها لم تُقَصَّف
ميامين يرضون الكفاية إن كفوا * ويكفون ما وُلُّوا بغير تكلّف
غَطَارفةٌ ساسوا البلادَ فأحسنوا * سياستَها حتى أقرّتْ لمردِف
فمن يك منهم موسرا يُغْشَ فضله * ومن يك منهمْ معسرا يتعفّف
وإن تبسط النعمى لهم بسطوا بها * أكفًّا سباطا نفعها غيرُ مُقرِف
وإن تَزْوَ عنهم لا يضجُّوا وتُلْفِهم * قليلى التشكى عندها والتكلّف
اذا انصرفوا للحق يوما تصرّفوا * اذا الجاهل الحيرانُ لم يتصرّف
سَمَوْا فعَلَوْا فوق البرية كلّها * ببنيان عالٍ من مُنِيف ومُشْرِف

وكان من حظها أن كتب معاوية أن يعطى أربعمائةِ شاة وثلاثينَ لقحةً ، ممـا يوطن السيالة غير ما أعطاه سواه .

ومهما يكن الواقعُ الذى حدا آبن الحكم الى حَدّه فإنّ السياسةَ الحزبيـةَ ومدائحَ آبن سيحانَ فى معاوية ، واستعمال الأخير الشعراء فى مناصرة بيته — كلّ ذلك دفع بمعاوية الى كتابة ما كتب لآبن الحكم أوّلا ، ثم للوليد بن عتبة ثانية ، حتى اضطره لرفده بخمسمائة دينار ممـا وصفه صاحب الأغانى ؛ فكانت الغلبة للشعر لا للشرع ، وللغاية السياسية لا الدينية ، فلنقيد هذه الملاحظة فقط ، بلا توسّع ولا إسهاب .

* * *

وبعـد ، فلنلخص ما تقدّم عن شـعراء السياسة ، وهم العنصر الهامّ الذى لعب دورًا بارزا فى الأدب العربىّ فى العصر الأموىّ ، والذى كان له أثره ونتائجه فى العصر العباسىّ ، فى كلمة ختاميـة فى هذا الموضوع نبين فيها جماعة الشعراء السياسيين وألوانهم السياسية .

كان جلُّ شعراء هذا الدور أمويين ؛ فانا نجد الى جانب شعراء الدور الأول من أنصار بنى أمية شعراء آخرين أخذوا بناصرهم ودافعوا عن كِيانهم مثل أبى العباس الأعمى هجاء ابن الزبير، وأبى قطيفة طريد ابن الزبير، وأبى صخر الهذلى المتعصّب لآل مروان وهجاء ابن الزبير، وعدىّ بن الرقاع، والوليد بن أمية بن عائذ الهذلى، وجبيهاء الأشجعى والحكم بن عبدل الأسدى، والسلولى، وموسى شهوات، وغيرهم .

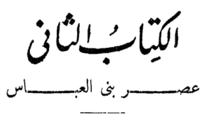
والشعراء العلويون، وفى طليعتهم النعمان بن بشير الأنصارىّ، والكُمَيت بن يزيد، وأيمن ابن خريم . على أن الأخيرين اضطرا الى امتداح بنى أمية ومسايرتهم؛ فانا نجد الكميت قد مدح هشاما، كما نجد أيمن مدح عبد الملك . ثم نجد شعراء دون ذلك مثل أنصار آل المهلّب ابن أبى صُفْرة كزياد الأعجم وثابت قُطْنة وحمزة بن بيض وكعب الأشقرى وغيرهم . وأخيرا نجد حزب آل الزبير ومن شعرائه عبد الله بن الزبير الأسدىّ .

وصفوة القول أن المعركة السياسية بين بنى أمية ومنافسيهم فى الملك أو الجاه وما يتبعهما : من إغداق الأموال والعطايا على أنصار كل فريق، جعلت هوى الشعراء مع من أحسن اليهم، واللُّهَا تَفتحُ اللَّها .

***

من كل هذا يتبين ما اتسع أمام الآداب العربية من مَيدانٍ فسيح فى ضروب شتى من ألوان الحياة لم تكن تعرفها من قبل .

وقد آن لنا أن ننتقل الى الكتاب الثانى من موضوعنا، ونرجو أن نُوفَّق الى إيضاح ما أوجزناه، وبسط ما أجملناه، مبتهلين الى الله ألا نضلَّ فى شُعَبه ومهامهه، ومُبهمه ومفاوزه، بمنه وكرمه .



الكتاب الثانى

عصـــــــر بنى العبـــــــاس

الفصل الأول

الوجهـــــة السياســـــية

توطئـــــة — دور الانتقـــال — الشـــيعة العلوية .

(ا) توطئـــــة :

رأينا كيف كانت الحياةُ السياسيةُ والعلميةُ والأدبيةُ فى العصر الأُموىّ، وكيف ظهرَتْ مواطنُ الضعفِ وعوامل الانحطاطِ، وكيف وقع بنو أمية بين الساخِطين من العرب والثائرين من الموالى، وكيف انحرفَ خلفاءَ معاويةَ عن خُطته السياسيةِ، وكيف عُرِفَ فريقٌ منهم بالدين وشُغِلَ آخرون بالعبَثِ والمُجُونِ . ونريد الآن أن نُلمّ إلمامةً قصـيرةً بدَوْر الانتقال الى العصر العباسىّ، قبل التكلم عن العصر نفسه، لنرى كيف كان اتجاهُ الأفكارِ فى ذلك الحينِ .

(ب) دور الانتقـــال :

إن الذى ينظر فى كتب التاريخ الإسلامىّ عامةً، ثم يراجع ما كتبه المستشرقون خاصةً عن الدولة الفارسـيةِ فى دور انحطاطها وضَياع اسـتقلالها وفناء أهلها فى الإسـلام ، مع رسوخهم فى المدنية وسبقهم الى العلوم الاجتماعية وسياسة الشعوب ، ليَذكُرُ حياةَ اليونان وعلماء اليونان ، حين دالت دولتهم وخضعوا للرومان وهم دونهم فى العلوم والفنون ،

ولسنا هنا بصدد الإفاضة فى بيان المناحى التى تغلب فيها الموالى على العرب فإن لذلك مكانه الطبعى فى هذا الكتاب . وقصارانا الآن أن نحيل القارئ الى الجزء الأول من كتاب الأستاذ «ادوارد برون» الذى وضعه عن التاريخ الأدبى للفرس ، وهو من مجلدات «مكتبة تاريخ الآداب» فإن فيه الكفاية لمن يريد تفصيل .

أذعن الموالى صاغرين لغلبة العرب عامة والأمويين خاصة ، وذاقوا ماذاقوا من الذلة والمسكنة ، وعانوا ماعانوا من ضروب الهوان ، فكان من المعقول أن يترقبوا الفرص لينقضوا على سادتهم العرب ، وأن ينتظروا أول بارقة تلوح فى أفق السياسة ليناصروا الناقمين على المملكة الأموية : فقد كانت دولة بنى أمية مكروهة عندالناس ، ملعونة مذمومة ثقيلة الوطأة ، مستهترة بالمعاصى والقبائح ، فكان الناس من أهل الأمصار ينتظرون زوال هذه الدولة صباح مساء .

***

أضف الى ماتقدم أن الشيعة كانت ، الى جانب قوة الحجة فى أنها أحق بالخلافة ، إذ كان أنصارها يدعون الى بيعة صهر النبى أو أبناء بنت النبى ، تضم الى رجالاتها شخصيات بارزة فى الدين والكفاية والصلاح ، فكان خيار الناس يطيعونها تدينا ، وكان غيرهم يطيعها رغبة أو رهبة . وكان العلويون لايفترون عن بث دعاتهم فى العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد النائيـة عن مركز الخلافة التى انفصمت عروتها وكان من انحلالها ما وصفناه . وكان الفرس يستخدمون زملاءهم المنتشرين فى البقاع العربية فى الدعوة الى مبايعة خصوم الأمويين ومناصرتهم ، رغبة فى التخلص من ظلم بنى أمية وعسفهم ، وطمعا فى أن يكون لهم من تبدل الحال حظ من العزة والسلطان .

ولنذكر مع هـذا ثورة الممالك الإسلامية عامة على الأمويين ، تلك الثورة الحادثة المخيفة ، التى كان من آثارها أن قتـل بعض ولاتهم فى الأمصار وأن خرج فريق على الخليفـة . ولنذكر كذلك انشقاق البيت الأموى نفسـه وتصدع أركانه ، فإن لذلك أثره الفعال فى ثل عرش الأمويين . وقد كانت بداية ذلك الانشقاق ، خروج يزيد بن الوليد على

عمــه الوليد بن يزيد وتشهيرَه إياه أسوأ تشهيرٍ ووصمَه بأقبح الوصمات ، حتى تمثَّـلَ بعضُ بني أمية بقول الشاعر :

إنى أعيــذكمو بالله من فتنٍ * مثـل الجبال تَسَامَى ثم تنـدفع
إنّ البرية قـد ملّت سياستَكم * فآستمسكوا بعمود الدين وآرتدعوا
لا تُلْحِمُنّ ذئابَ الناس أنفسكم * إن الذئاب إذا ما أُلحمت رُتُعُ
لا تبقُرُنّ بأيديكم بطـونكمو * فثمّ لا حسرةٌ تُغْنى ولا جـــزع

ولمـا تمّ ليزيدَ الأمرُ خرج عليه مروانُ بن محمد ، وكان أميرَ الجزيرة وأرمينية ، ومعه جيشٌ جرّارٌ يأتمر بأمره ، ومعـــه الغمرُ بن يزيدَ للطالبة بدم أخيــه ، فغُلِبَ يزيدُ على أمره وانبسطت فى البيت المـالك يدُ الفُرقة والانشقاق .

(ج) الشـــيعة العـــــلوية :

لم تصــل الخلافةُ الى معاويةَ إلا بدَهائه وسَـعةِ حيلته وبُعْـد نظره وحُسنِ تصريفه للأمور ، وإلا فقد كان هناك حزب قوىُّ الشكيمة عزيزُ المكانة ، يرى علىَّ بنَ أبى طالب أحقَّ بالخـلافة : ولولا دَهاءُ معـاويةَ ما نزل الحسنُ بن على ولا أخلى لخصمه الميـدانَ فى سـنة ٤١ هجرية ، وقد كان من نتيجة ذلك أن سَخِطَتِ الأحزابُ العلويةُ من تصرّفه ، فجمعوا الجموعَ وجنَّدُوا الجنـودَ ، وثاروا على أمير الكوفة الأُموىّ وهو زيادُ بن أبيــه — وكان يدَ معاويةَ التى بهـا يصول — ولكنّ زيادا يعرف كيف تُخمَدُ الفتنةُ ، وتُطْفَأ الثورةُ ، فبادر الى استئصال الداء ، وقتَــلَ منهم خلقا كثيرا ، أشهرُهم حُجْرُ بن عدىّ وأصحـابُ حجرِ ابن عدىّ . بَيْدَ أنّ إراقةَ الدماء تَهيجُ الحمـاسةَ وتؤجج نارَ العـداوة والبغضاء فى قلوب المغلوبين ، وكذلك ظلت الفتنة تُنْذِر بالشرّ المستطير .

رأى الدعاةُ العلويون أنه لا قِبَـلَ لهم بمعاويةَ ولا برجاله ، فتربصوا بهم ريبَ المنونِ وعللوا النفسَ بتقلّبات الحوادث وعَنَتِ الأيام ، راجين أن تعود الخلافة الى بيت النبىّ ص

ولكن شدَّ ما فزعوا يوم أخذ معاويةُ البيعةَ لابنه يزيد المعروف بالميل الى اللهو والقصْف والتلهّى بالصيد عن شؤون المسلمين . وفيه يقول عبد الله بن همّام السلولىّ :

حُشِّينا الغيظَ حتى لو شربنا * دماءَ بنى أميـــة ما رَوينـا

لقـد ضاعت رعيتُكم وأنتم * تَصيدونــ الأرانبَ غافلينا

وإنا لنعلم أنه لمـا مات معاوية سنة ٦٠ ه . وتولى بعده ابنه يزيد ، أبى الحسينُ أن يبايعَ له بالخلافة ، بل رأى أكثرُ أهل التقى فى مبايعـة يزيد خَرْقًا لحرمة الدين . ثم قُتِـل الحسينُ فى كَربلاءَ سنة ٦١ ه . فألّفتِ الشيعة «حزب التوابين» بعد وفاة يزيدَ وبيعة مروان ابن الحكم سنة ٦٤ ه ، وأخرجوا والى الكوفةِ الأُموىَّ عبيدَ الله بن زياد ، وولّوا عليهم رجلا منهم . ثم تألف حزبُ « شُرط الله » بزعامة المختـار بن أبى عبيد الله الثقفىّ . وانقسمت الشيعةُ العلويةُ الى فِرَقٍ عِدّةٍ ، أهمها الفرقةُ الإماميّةُ ، وهى التى ترى أن أحقَّ الناس بالخلافة هم ولد علىّ من فاطمةَ بنت النبىّ ، والأئمة فى نظرهم آثنا عشر إماما ، وهم : علىٌّ ، والحسنُ ، والحسينُ ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلىّ الرضا ، ومحمد التقى ، وعلىّ التقى ، وحسن العسـكرى ، ومحمد المهـدى . ومنها الفرقة الكيسانيةُ ، وهى التى تقول بتحوّل الخلافة بعـد الحسن والحسين الى أخيهما محمد بنْ الحنفية . ومنها الفرقة الزيدية نسـبة الى زيد بن على بن الحسين . والفرقة الاسماعيلية نسبة الى إسماعيل ابن جعفر الصادق . وفرق أخرى أصغر من تلك شأنًا وأقل أثرًا .

*
* *

على أنه كان يوجد بجانب أولئـك الولاةِ المخلصين لبنى أميّـة والمسرفين فى مطـاردة الحزب العلوىّ ، فريقٌ آخر ، على رأسه خالد القسرىُّ ، يعمل لمناصرة العلويين سرًّا لا علانيةً ، كما يعمل ، فى العادة ، فريقٌ من موظفى الحكومة لحزب الأقلية المضطهَد طمعًا فى المناصب ، أو نصرًا لعقيدة سياسية ، أو إيثارا للعدل والإنصاف .

على أن الدعوةَ العلويةَ كانت فاترةً ضعيفةً ، اذا قُورنت بالدعوة العباسيةِ التى سنتكلم عليها فى الكلمة الآتية . ولعـلّ من أكبر أسـبابِ ضعف[1] الدعوة العـلويةِ مبايعةَ زعمـاءِ العباسيين محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ، فقد بايعه أبو العباس السفاح كما بايعه أبو جعفر المنصورِ وغيرُهما من أئمة الحزب العباسىّ .

وكذلك سارت الدعوةُ لآل محمـد شوطا بعيـدا ، وظاهرتْها شخصياتٌ بارزةٌ ، قويةُ الشوكة ، وفيرةُ المـال والجاه : أمثال أبى سلمة الخلال الفارسىّ المعروف .

وسـترى كيف تحوّلت الدعوةُ العلوية الى وجهـة أخرى ، وكيف استُغلّتْ لمصلحة العباسيين .

---

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فيما ذهبنا اليه ويرى : « أن العلويين كانوا يتهافتون على الخروج على الخلفاء فكثر القتل فيهم فقتلوا بخلاف أولاد على بن عبد الله ، فقد كثروا ولم يتناول القتل منهم أحدا الى ذلك العهد ، عهد القيام بالدعوة» .

الفصل الثانى

العصبية والموالى فى الدولة العباسية

توطئـــة — العصبية — الموالى .

(١) توطئـــة :

لقد مرّت بك إشارةٌ بسيطةٌ حين تكلمنا عن العصر الأُموىّ الى حَنَق الموالى الذين نالهم فى ذلك العصر من الاحتقار والزراية حظٌّ غيرُ قليل ، وبينا لك أنّ هـذه الناحيةَ من المعاملة ، التى لا تنطبق على المذهب الحديث « حرية . إخاء . مساواة » كانت عاملا قويا من عوامل الضّعف والانحطاط فى دولتهـم ، ووعدناك أن ندرُس حالَ العصبيةِ والموالى فى هذا الفصلِ من الكتاب ، تمشّياً مع النظام الذى وضعناه له .

والآن نَعرِض عليك حالَ الشـعوب التى كانت خاضعةً لسلطان بنى أمية حتى نُتبينَ أحوالها النفسية والأهواء التى كانت غالبةً عليها . فإنه لا يكفى فى انتقال الملكِ من شخصٍ الى شخصٍ أو من بيت الى بيت بثُّ الدعوة وتنظيمُها وحزمُ القائمين بها و إخلاصُ المشيرين وكفاية القواد ، بل لابد مع هـذه الأمور أن تصادفَ الدعوةُ الجديدةُ نفوسًا مستعدّةً لها ، راغبةً فيها ، عاملةً على إنمائها ، لكى تُزهِرَ وتُؤتِىَ ثمـارَها .

والحق أن الدعوةَ العباسية قامت فى وقت كانت قد توزّعتْ فيه الحواضرَ الإسلامية أهواءٌ مختلفةٌ ، وتقسّمَتِ القبائلَ العربيةَ عواملُ العصبية ، وأخذتِ الشعوبُ المغلوبةُ على أمرها والتى أصبحت خاضعةً للنفوذ العربىّ ، تَستفيقُ من الدهشة التى استولَت عليها من الفورة العربية التى أخضعتها لسلطان العرب المسلمين .

أما الحواضرُ الإسلاميةُ فكان قد غاب على كل حاضرةٍ هَوَى أُسرةٍ أو شخصٍ معين ، ولم تكن لِتخضَعَ للسلطان العربىّ الأُمَوىّ لولا القوةُ القاهرةُ ، ولهذا لم يكد يضطربُ أمرُ

بنى أمية فى الأطراف، ويظهرُ الخارجون من الدعاة على ولاتهم، حتى أخذت هذه الحواضرُ تنسَلُّ عن طاعة بنى أمية واحدةً بعد أخرى . وتستطيع أن تلتمسَ هذه الظاهرةَ بيّنَـةً واضحـةً من تقاعد الولايات عن نُصْرة آخر خلفاء بنى أمية عنـدما حَزبه الأمرُ وتعقّبه مُطـاردوه .

(ب) العصـــبية :

العصبية هى مُناصرةُ من يَمُتُّ اليك بصلةٍ من صِلاتِ الحياة : كأن تجمعكما رحِمٌ قريبةٌ أو بعيدةٌ، أو عقيدةٌ دينيةٌ، أو هوًى سياسيٌّ . فيظهر أنها من طبيعة الوجود، اذ لاتختص بها قبيلةٌ دون قبيلةٍ، ولا أمةٌ دون أمةٍ، ولا جنسٌ دون جنسٍ ، ولا عصرٌ دون عصرٍ . وكما توجد فى الأمم البادية، كذلك توجد فى الأمم الحاضرة . وما الدعواتُ القوميةُ والنعراتُ الجنسية إلا نوعٌ من العصبية بمعنًى أوسعَ .

والعصبيةُ العربيةُ، التى نحن بسبيل القول فيها، والتى كانت من الأسباب التى اضمحلّ بها سلطان بنى أمية، قديمةٌ فى القبائل العربية : كانت فى الجاهلية قبلَ الإسلام، وكانت تضيقُ وتتسعُ بحسب الظروف والمناسبات، فبينما نراها بين العدنانية والقحطانية، وهو أوسعُ معانيها من الوجهة التاريخية العربية، نراها بين ربيعةَ ومضرَ وهى قبائلُ عدنانيـةٌ، ونراها بين بنى أمية وبنى هاشم، وقد يكون هـذا من أضيق ميادينها . وكانت هـذه العصبياتُ تشتدّ حينا وتفتُرُ آخر .

فلما جاء الإسلامُ ودخل الناسُ فيه أفواجا وتمّ له السلطانُ فى جزيرة العرب، ألّف بين القبائل وأزال ما فى صدورهم من أحقادٍ، وذلك ما يشير اليه قولُ الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . ألّف الإسـلامُ بين قلوب العرب، وأزال كلَّ أثرٍ للعصبية القديمة فى نفوسهم، ولكنه استبدلهـا بعصبيةٍ واسـعةٍ شاملةٍ هى عصبيةُ الإسلام، وجعلَ المؤمنينَ جميعا إخوةً .

و بقى أمرُ العرب كذلك الى عهد الخلفاء الراشدين، وذلك راجع لا محالة الى عواملَ شديدةِ الأثرِ فى نفوسهم، كهيمَنَةِ الروحِ الدينيةِ عليهم، وكانشغالهم بالفتح وما استتبع الفتحَ من غنائم، وكحزم الخلفاءِ وحكمتهم وشدّة الوُلاة وقسوتهم .

فلما كان العصرُ الأُمَوىّ واستقرّ الناسُ فى الحواضر الإسلاميــة وشُغلُوا بعضَ الشيء عن الفتوح، راجعتهم الشنشنةُ القــديمةُ، فأخذ بعضُهم يفتخر على بعض بمــا كان لآبائهم من مجــدٍ فى الجاهلية و بلاءٍ فى الإســلام، وما لقبائلهم من قوةٍ وأيد . وقد أدرك بعضُ شعرائهم النتائجَ السيئةَ لذلك ، فقال الحارث بن عبــد الله بن الحشرج بن المغيرة بن الورد الجعـــدىّ :

أبيتُ أرعى النجومَ مرتفقًا * اذا استقلّتْ تجــرى أوائلُها
مرــ فتنةٍ أصبحت مجللةً * قد عمّ أهــلَ الصلاةِ شاملُها
من بخراسانَ والعــراق ومن * بالشأم كل شجــاه شاغلُهــا
فالناس منها فى لون مظلمــةٍ * دهمــاء ملتجّـــة غيــاطلُها
يُمسِى السفيهُ الذى يعنفها بالـ * ـجهل ســواء فيهــا وعاقلُها
والنــاس فى كربةٍ يكاد لهــا * تنبـــذُ أولادَها حواملُهــا
يغدون منهــا فى كل مبهمةٍ * عميــاء تمنى لهـــم غوائلُها
لا ينظر الناسُ فى عواقبهــا * إلا التى لا يبيرــ قائلُهــا
كرغوة البكر أو كصيحة حبـ * ـلى طرقَتْ حولَهــا قوابلُها
فجــاء فينــا أزرى بوجهته * فيهــا خطوبٌ حمرٌ زلازلُهــا

ولقــد زاد فى إذكاء العصبية بين القبائل العربيــة حُمْقُ بعضِ الولاة، وعدمُ أخذهم الأمور التى تقع بين أيديهم بالحزمِ والحكمةِ ، وأيضا استهانةُ بعضِ الخلفاءِ الأمويين ببعض الأمورِ وغرورُهم بمــا لهم من سلطان، فكانوا لا يبالون شعورَ الناسِ فى تعيين الولاةِ عليهم، مما كان له أبعد أثر فى صرف النفوس عنهم واستجابتها لكل داعٍ الى الخروج عليهم ، وحسبك

أن ترى هشامَ بن عبد الملك، مع حزمه وبُعْدِ نظره، يُعيّن نصرَ بن سيّار واليًا على خراسان، وهو يعلم أن عصبيّته بها ضعيفةٌ، فإنه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد بن عبد الله القسرى، كان مستشاره يُسَمّى له أشخاصًا بما لهم من محامدَ ومذامَّ، فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال: إن اغتفرتَ له واحدةً فإنه عفيفٌ مجرّبٌ عاقلٌ، قال هشام: وما هى؟ فقال المشير: عشيرته بها ضعيفة، فقال هشامٌ: «أَوَ تريدُ عشيرةً أقوى منّى! أنا عشيرته!» .

على أن كلمةَ هشام قد تُخَفِّف من آثارها السيئةِ متانةُ حكومته، ونفاذُ صولتــه، وقوّةُ شوكته، ولكنّ الخلفاءَ جميعا ليسوا كهشام حزمًا واقتدارًا، وليست أيامُهم كأيام هشام نجحا وانتصارا .

ومهما يكن من شىء فإنّ تولية نصر بن سيار على خراسان، كانت فى الواقع شؤمًا على بنى أميــة .

وقد بلغت العصبيةُ بين مُضَرَ واليمن فى خراسان طورًا عنيفًا، جعـل التزاوجَ بين الفريقين موضعَ اضطهادٍ وسُخريةٍ وازدراء .

ولقد قالت أُم كثير الضبيةُ لما هـدم اليمنيون دُورَ المضرية أثناء الحروب التى كانت بين نصر والكرمانىّ بسبب العصبية :

لا بارك اللهُ فى أنثى وعذّبها * تزوجت مُضَــريًا آخرَ الدهرِ
أبلغ رجالَ تمـيم قولَ مُوجعــةٍ * أحللتموهـا بدار الذلّ والفقــرِ
إن أنتمُ لم تكرّوا بعـد جولتكم * حتى تُعيدوا رجالَ الأزدِ والظهرِ
إنى استحيتُ لكم من بذل طاعتكم * هــذا المزونى يَجْبيكم على قهرِ

وقال شاعر آخر :

ألا يا نصرُ قـد بَرِح الخفـاءُ * وقــد طال التمنّى والرجاءُ
وأصبحت المزونُ بأرض مَرْوٍ * تُقَضّى فى الحكومة ما تشاءُ
يجــوز قضاؤها فى كلّ حُـكم * على مُضَرٍ وإن جار القضاءُ

وحِمْـيَرُ فى مجالسها قعـــودٌ * تَرَقْـرَقُ فى رقابهـــم الدماءُ
فإن مُضَرٌ بذا رضِيَتْ وذلَّتْ * فطـال لهـا المذلَّةُ والشقاءُ
وإن هى أعتبَتْ فيهـا وإلا * فحَـلَّ على عساكرها العفاءُ

ولقد استغلّ الدعاةُ العباسيون العصبيةَ ، التى فتّتْ فى عضدِ الأمويين ومزّقتهم أشتاتا وطرائقَ قِددًا ، خيرَ استغلال ، وهو ما كان له أبلغُ أثرٍ فى القضاء على سلطان بنى أميـة . ذلك أن نصر بن سيار ، وهو عامل خراسانَ ، قد تحامل على اليمن وربيـعة وقدّم المضريةَ فوثب به جديعُ بن علىّ الكرمانى الأزدى ، وكان رئيسَ الأزد يومئـذ ورجُلَهم ، وقال له : ندعُكَ وفعلكَ ومالت معه اليمـانيةُ وربيعةُ فأخذه نصرٌ وحبسه ، فأتت اليمنُ وربيعةُ حتى أخرجوه من مَجـرى كنيفٍ ! ثم اجتمعوا . ورامَ نصرٌ أن يخـدعَه فيصـير اليـه ، فلم يفعل . وكان فى نصر بعضُ الخُـرْقِ . فلمـا علمَ جديعٌ أن اليمنَ وربيعـةَ قد اجتمع رأيُهما معه على نصر وثبَ فحاربه ، وكان له العـلوُّ على نصر ، فقـال أبو مسلم الى الكرمانىّ فقـال : ادعُ الى آل محمد ، وجعل يمُـايل أصحابَه ويدعوهم الى ذلك ، حتى أظهروا دعوةَ بنى هاشم بخراسانَ .

هـذا ما كان من أمر العصبية بين العـرب واسـتغلالهـا فى إظهار الدعوة لبنى العبـاس .

على أنه يجدُر بك ، ألّا يعزُبَ عن ذهنك ، أن العصبيةَ وإن كانت قد خدَمتِ العباسيينَ أجلَّ الخـدم فكانت مِعْولَ هَدْمٍ وعاملَ فنـاء فى صَرحِ الأموية ، كان ضِرامُها وأجيجُها وحروبُها وفِتنُها لم تُخمَدْ سراعا ، ولم ترجع أمورُ العباد الى نِصَابها من الموادعةِ وحسنِ المصانعة بتيسير حال ، بل أخذت دَورَها المحتومَ ، وكانت حَسَكًا وقتادا ، الفَينةَ بعد الفَينةِ ، فى بعض الولايات والأمصار ، لبنى العباس أنفسهم ، كما ستقف عليـه فيما سنسردُه عليك ، من خلاصةِ أخبارهم ، ومجملِ تاريخهم .

(ج) المـــوالى :

لما أفضت الخلافةُ الى الأمويين، كان عددُ الموالى آخذًا فى الازدياد، بسبب ماجلبته الفتوحُ الإسـلاميةُ من الأسرى، وماكان يُهديه الولاة الى الخلفاء من الرقيق، فإن الولاةَ كثيرًا ما كانوا يبعثون الى الخليفـة بمئاتٍ أو ألوفٍ من الرقيق الأبيض أو الأسودِ هـديةً أو بدلًا من الخراج أو نحوه .

ومن كان يَحُرّ من هؤلاء بعتق أو مكاتبةٍ أوتدبيرٍ يصير مولًى، و ينسبُ الى أسرة مُعتقه أو قبيلته، مع ملاحظة عدمِ أهليته للبناء على قرشيةٍ أو عربيةٍ .

كَثُرَ عدَدُ الموالى جدّا ، فانصرف فريقٌ منهم الى الصناعة، وآخرُ الى الزراعة أو غيرها من شؤون الحياة، وانصرف فريقٌ آخر الى العلوم والفنون والآداب، فكان منهم جِلَّةُ الفقهاء ورواةُ الحديث، كما كان منهم الشعراءُ والكُتَّاب والمغنّون، وتولت طائفةٌ منهم المناصبَ السامية فى الدولة كالقضاء والحجابة وما الى ذلك .

على أنه مع ماكان لكثيرٍ من الموالى من قَدَمٍ راسخةٍ، ومنزلةٍ رفيعةٍ، فى العلم والأدب والفنون، كان العرب ينظرون اليهم دائما نظرةَ احتقارٍ وازدراءٍ .

وكان هذا الاحتقارُ والازدراءُ يظهرُ فى معاملة العرب للموالى وأحاديثهم عنهم . ولما كان الموالى أهلَ علمٍ وأدبٍ، و ينتمى كثيرٌ منهم الى دُوَلٍ كان لها من السلطان ومظاهرِ الحضارة حظٌّ عظيمٌ، بل كان للفرس وجلّ الموالى منهم سيادةٌ ظاهرةٌ على العرب قبل الإسلام — لما كان كلّ هذا عَظُمَ على الموالى أن يحتملوا كلّ هذا الضيم من العرب فاندفعوا يذودون عن شرفهم وكرامتهم . ومن هنا نشأت الشُّعُوبيةُ . والشُّعُوبيةُ مذهبُ من يرى تفضيلَ العجم على العرب أو التسويةَ بين الفريقين . ثم أخذ الشعراء وغير الشعراء من الفريقين يتبارَوْن فى إكبار كلّ لفريقه والحطّ من الفريق الآخر .

وكان نصيبُ الموالى فى حالة تمدّحهم بقومهـم من الخلفاء الأمويين مَدْعاةً الى زيادة مَقتهم لهم وزيادةِ السخيمة فى قلوبهم عليهم . وإنا نُثبتُ لك هنا مثلا استشهد به الأستاذ

«برون» فى كتابه عن أدب الفرس نقلا عن الأغانى قال : «إن إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبـد الملك فى خلافته، وهو بالرُّصَافة جالسٌ على بركةٍ له فى قصره، فاستنشده وهو يرى أنه يُنْشِدُ مديحا له؛ فأنشدة قصيدته التى يفتخر فيها بالعجم :

يا ربعَ رامـةَ بالعلياءِ من ريم * هـل ترجعَنّ اذا حييتُ تسليمى
ما بال حىّ غدت بُزْلُ المطىّ بهم * تَخْـدِى لغربتهـم سـيرا بتقحيم
كأننى يوم ساروا شاربٌ سَلَبتْ * فؤادَه قهوةٌ من خمـر دَارُوم

حتى انتهى الى قوله :

إنّى وجدِّكَ ما عُودِى بذى خَوَرٍ * عند الحِفَاظِ ولا حوضى بمهدوم
أصـلى كريمٌ ومجدى لا يقاسُ به * ولى لسانٌ كحـدّ السيف مسموم
أحمى به مجدَ أقوام ذوى حسب * من كل قَرْمٍ بتـاج الملك معموم
جَحَاجِحٍ سادة بُلْـجٍ مَرَازِبة * جُرْد عِتَـاق مسـاميح مطاعـيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا * والهُرمُزان لفخرٍ أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا * وهم أذلّوا ملوكَ الترك والروم
يَمشون فى حَلَقِ المـاذى سابغـة * مشىَ الضراغمة الأسـد اللهاميم
هناك إن تسألى تُنْبَىْ بأن لنا * جرثومةً قهـرَتْ عِزَّ الجـراثيم

قال : فغضب هشام وقال له : يا عاضّ بَظْرِ أمه، أعلىّ تفخر، وإياى تنشد قصيدةً تمدح بها نفسَكَ وأعلاج قومك! غُطُّوهُ فى المـاء، فغَطُّوهُ فى البركة، حتى كادت نفسُه تخرجُ، ثم أمر بإخراجه وهو بشرّ، ونفاه من وقته، فَأُخْرِجَ من الرُّصَافة منفيًّا الى الحجاز. قال : وكان مبتلًى بالعصبية للعجم والفخر بهم، فكان لا يزال محرومًا مطرودًا .

ولما كان شأنُ الخلفاء الأمويين شأنَ سائر العرب فى التعصب على الموالى حتى كانوا يستعملونهم فى الحروب مشاةً ولا يُعطونهم شيئا من الغنائم والفىء، نفرت نفوسُهم منهـم

وأصبح سلطانُهم بغيضًا اليهم، وصاروا عونًا لكل من خلع الطاعةَ ، أو طلب الخلافةَ من العلويين أو الخوارج .

ولقد كان العباسيون يُدرِكونَ هذا الشعورَ فى الموالى، فاستغلُّوه خيرَ استغلالٍ، إذ اتخذوا جِلَّة المبشرين بدعوتهم منهم ، واعتمدوا كلَّ الاعتماد عليهم . ورأى الموالى فى الدعوة الجديدة شفاءً لما فى صدورهم من حِقْدٍ على بنى أمية خاصةً وعلى العرب عامةً ، فأخلصوا للدعوة الجديدةِ، وبذلوا فى تحقيقها كلَّ ما يملكون من نفوسٍ وأموالٍ .

على أن لهذا الموضوع نواحىَ متشعبةً، يحول دون التحدّث فيها ما رسمناه لأنفسنا من التزام القصد والإيجاز .

———

الفصل الثالث

الدعـــوة العباســـية

توطئـــة — تأليف الجماعات السرية — الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراسانى .

(ا) توطئـــة :

كانت الدعوةُ العلويةُ تسير جنبا الى جنبٍ مع الدعوة العباسية ، فقـد كان الفريقان مُضطَهَدَينِ مغلوبين على أمرهما ، وكان من المعقول والطبيعىّ أن ظلم بنى أمية لهؤلاء وهؤلاء يجمعُ ما تفرّق من أهوائهم ويفُلّ حِدّةَ ما بينهـم من عوامل التنافس والخلاف . وقد كان بنو هاشم أعداء للأُمَويين قبـل الإسلام بسبب التزاحم على السيادة فى قريش . ولشدّ ما كان طلبُ السـيادةِ والزعامةِ مَدْعاةً الى العداوة والشحناءِ وسـببًا الى التناحر والتقاتلِ بين بنى الإنسان !

جدّ العباسيون فى دعوتهم السياسـية وهم فى الحُمَيمَةِ من أعمال البلقاء بالشأم ، وزادوا حَمِيّةً وحماسةً بتنزل أبى هاشم بن محمد بن الحنفية العلوىّ زعيمِ الحزب الكيسانى لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس حين دسّ اليه سليمان بن عبد الملك مَنْ سَمّه ، إذ رأى فيـه من المهابة والوقارِ ما يؤهّله للخـلافة ويقرّبه من قلوب الجماهيرِ . وقد كان فى تنزل أبى هاشم هذا لصاحب الدعوةِ العباسيةِ توحيدٌ لحزبينِ قويينِ : هما الحزب العباسىّ[1] والشّيعةُ الكيسانيةُ . وهذا التوحيد أو التقريبُ بين الحزبين كانت ثمرتُه لحزب العباسيين .

(ب) تأليف الجماعات السرية :

عمـل العباسيون فى تأليف الجماعات السرّية للدعوة ، واختاروا من الدعاة اثنى عشر نقيبا وهم : سليمان بن كثير الخزاعى ، ومالك بن الهيثم ، وطلحة بن زريق ، وعمرو بن أعين ،

(١) هذا رأينا ويرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : «أنه لم يكن لبنى العباس حزب قبل أبى هاشم» .

وعيسى بن أعين، وقحطبــة بن شبيب الطــائى ، ولاهز بن قريظ التميمى ، وموسى بن كعب ، والقاسم بن مجاشع ، وأبو داود خالد بن ابراهيم الشيبانى ، وأبو على الهروىّ شــبل ابن طهمان الحنفىّ ، وعمران بن اسماعيل المعيطى .

واختار محمــد بن على سبعين رجلا يأتمرون بأمر هؤلاء الدعاةِ . وكــتب اليهم كتابا يُوصيهم فيه بمــا يرجو أن يُوفّقوا الى العــمل به وهم يوجّهون الدعوةَ ويحــاورون الأحـــزابَ .

وهــذا الكتاب يدل على ما كان عليه هــذا الزعيمُ العباسى من علمٍ بأحــوال النــاس فى عصره ، وبَصرٍ بأخلاق الشــعوب التى كانت خاضــعةً للسلطانــ الاسلامىّ ، وبمــا كانت تجيش به النفوسُ فى كل صُقْع وحاضرة . وبمثل هذا الزعيم الداهيةِ ومن اجتباهم للدعوة العباسية ، قد كُتِبَ الفوزُ لهــذه الدعوةِ آخرَ الأمر . وممــا قاله هــذا الزعيمُ فى كتابه :

« أما الكوفةُ وسوادُها فشيعة علىّ وولده . وأما البصرةُ وسوادها فعثمانيــةٌ تدينُ بالكفّ تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبدَ الله القاتلَ . وأما الجزيرةُ فحروريةٌ مارقةٌ وأعرابٌ كأعلاجٍ ومسلمون فى أخلاق النصارى . وأما أهلُ الشأم فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعةَ بنى مروان ، وعداوةً راسخــةً وجهلا متراكما . وأما مكةُ والمدينةُ فقــد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسانَ ، فإن هناك العددَ الكثيرَ والجَلَدَ الظاهرَ ، وهناك صدورٌ سليمةٌ ، وقلوبٌ فارغةٌ لم تتقسمها الأهواءُ ولم يتوزّعها الدَّغَلُ ، وهم جندٌ لهم أبدانٌ وأجسام ومناكب وكواهل وهاماتٌ ولِحًى وشواربُ ، وأصوات هائلة ، ولغاتٌ فخمةٌ تخرج من أجواف منكرة ... وبعد ، فإنى أتفاءل الى المشرق ، والى مطلع سراج الدنيــا ومصباح الخـــلق » .

*
* *

(ج) الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراسانى :

كان الدعاةُ العباسـيون يتنقلون فى مختلف الأمصار ، وكانوا فى ظاهر الأمرِ طلّابَ رزقٍ يزاولون التجارةَ ، وكانوا فى الواقع رجالَ سياسةٍ ودهاءٍ يبثون الدعوةَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ، ويدعون الناس الى مُناصرتهم بشتَّى الأساليب .

وظلوا كذلك الى أن تُوفّى محمد بن علىّ ، وعهد بالأمر من بعده الى ابنه ابراهيم الإمام . فكاتب هذا مشايخَ خُراسانَ ودهاقينَها ، وبعث اليهـم الدعاة ، وأرسل أبا مسلم الخراسانَ لبثّ الدعوةِ هناك ، فكانَ يدعو الى آل محمد ، يريد أهلَ البيت ، من غير أن يُعيِّنَ العباسيين ولا العَلَويينَ .

وقد كان أبو مسلم من أبطال الحرب والسياسة ، شديدَ الإخلاص للعباسيين ، مُسرِفًا فى خدمتهم ، كثيرَ الدهاء ، واسعَ الحيلة ، خبيرا بمـا يقتضى عملُه من الحزم والقسوةِ ، فلا تعرِفُ الرحمةُ قلبَه ، ولا يتناول الأمورَ إلا بالحزم والبأس الشديد .

ونستطيع أن نتبينَ مَرْمى السياسة العباسـية من الكتاب الذى بعث به إبراهيم الإمام الى أبى مسلم الخراسانىّ ، فيما يرى أن يعمله لتأييد الدولة الجديدةِ . قال : « إنك رجل منا أهـل بيت ، احفظ وصيتى : انظر هذا الحى فى اليمن فالزمهم وآسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يُتم هذا الأمرَ إلا بهـم . وآتّهِمْ ربيعةَ فى أمرهم . وأما مضرُ فإنهم العـدوّ القريبُ الدارِ . وآقتل من شككتَ فيــه . وإن استطعت ألا تدعَ بخراسانَ من يتكلم بالعربيــة فافعل . وأيمـا غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فآقتله » .

وقد حرص أبو مسلم على تنفيذ هــذه الوصية ، فكان يُسرِعُ الى قتل كل من يتهمه ، ويقضى على كلّ مـن يرتاب فى أمره ، حتى بلغت ضحايا هذه الخُطّةِ فيما يقول المؤرّخون العربُ ، ستمائة ألف نفس قُتِلَتْ صبرا .

ومهما افترضت المبالغة والغلوّ فى إيرادهم هذا العدد، فإن الواقع أن أبا مسلم قد أسرف أيّمـا إسرافٍ فى القتل وسفك الدماء تنفيذًا لوصية الإمام .

حلّ أبو مسلم خراسانَ سنة ١٢٨ هـ فساسها بحزمه ودهائه وقوته، وأقام بقرية من قُرى مرو يقال لها "سفيذنج"، وقد كَثُرَ أنصارُه وٱنثالَ الناسُ عليه من كل صَوْبٍ، فأعلن فيهم لبسَ السواد واتخذه شعارا للعباسيين ، ثم غيَّر شكلَ صلاة العيدين بأن بدأ بها قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة، وكانت بنو أمية تبدأ بالإقامة كصلاة يوم الجمعة، وأمر بأن يُكبَّر ستّ تكبيرات تِباعا، وكاتب نصرَ بن سيار الوالى الأموى . ولمـا ضاقت " سفيذنج " عليه ولم تتسع لأنصاره، رحل الى الماخوان(١)، وكانت عدّةُ رجاله، فيما يقول المؤرّخون، سبعة آلاف رجل . ثم ٱحتال فى التفرقة بين نصر ورجاله ، حتى أخذ بناءُ خصمه ينهارُ، ويتخلى عنـه أنصارُه واحدا بعد واحد . وفى هـذا يقول نصر شعرا بعث به الى مروان الحمـار الخليفة الأمـــوىّ :

أرَى بينَ الرمادِ وميضَ نارٍ * ويوشِـكُ أن يكون لها ضِرَامُ
فإنْ لم تُطْفِها عقلاءُ قـوم * يكون وَقُودَهـا جُثَثٌ وهَامُ
فإن النار بالعُودَيْنِ تُذْكَى * وإنّ الحـربَ أوّلُهـا كلامُ
فقلت من التعجب ليت شعرى * أأيقـاظٌ أُميَّـــةُ أم نِيَـامُ

فلما ورد هـذا الشعرُ على مروانَ لم يُجِبْ عليه بمـا يجب أن يُجيبَ به الملكُ الحازمُ الحريصُ على ملكه المبقِى على عرشـه : من مبـادرته بإرسال الكتائب والجيوش لكبح الثائرين على الملك أو إعداده المعدّات لإرسالهـا، وإنما كتب الى نصر كتابا يمثّلُ الضعفَ والاستسلامَ ، ويُنبئُ بجنوحه الى سياسـة القول والكلام ، فى موضع يتطلب تقـلد الرمح والحسام، يقول فيه :

---

(١) المـاخوان بضم الخاء المعجمة وآخره نون : قرية كبيرة ذات منارة وجامع من قرى مرو ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة الى الصحراء .

« إن الحاضرَ يرى ما لا يرى الغائبُ ، فاحسِمْ أنت هذا الداءَ الذى قد ظهر عندك »
فقال نصر لأصحابه : « أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصرَ عنده » .

* * *

يجب ألّا يفوتنا أن نُشيرَ هنا الى ناحيةٍ مهمّةٍ فى خُلُق أبى مسلم تُمَثِّلُ ما يجب على القوّاد من الحزم والكتمان ، فقد جاء فى « كتاب المحاسن والمساوى » للبيهقى ما نصه : « قيل لأبى مسلم صاحب الدولة : بأىّ شىء أدركتَ هذا الأمرَ ؟ فقال : آرتديتُ بالكتمان ، وأْتزرت بالحزم ، وحالفتُ الصبرَ ، وساعدتِ المقادير ، فأدركتُ ظنّى وحزتُ حدّ بُغْيتى . وأنشد :

أدركتُ بالحزم والكتمان ما عجزَتْ * عنه ملوكُ بنى مروان إذ حَشَدُوا
ما زلتُ أَسْعَى عليهم فى ديارهمُ * والقومُ فى غفلةٍ بالشأم قد رَقَدُوا
حتى ضربتهمو بالسيف فانتبهوا * من نومة لم ينمها قبلهم أحدُ
ومَنْ رعى غنما فى أرض مَسْبَعةٍ * ونام عنها تولّى رَعْيَها الأسدُ» اه

على أن مروان استيقظ أخيرًا من غفوته ، وانتبه من غفلته ، وأمر بأخذ إبراهيم بن محمد . فلما قُبِضَ عليه فى الحميمة بالبلقاء أوصى بالأمر الى أخيه أبى العباس ، وأمر أهله وأنصارَه بالمسير الى الكوفة ، وحَضَّهم على السمع والطاعة لأبى العباس .

وقد حُبِسَ إبراهيم فى سجن «حرّان» مع جماعة من خصوم مروان من بنى أمية ، وظلّ فى سجنه حتى مات . وقد اختلف المؤرّخون فى كيفية موته ، فمنهم من قال : إنه سُقِىَ سُمًّا ، ومنهم من قال : هُدِمَ عليه بيتٌ فمات .

على أن المؤرّخين وإن اختلفت أقوالُهم فى كيفية موته قد أجمعوا على أنه قد مات غيلةً وانتقامًا . وقد رثاه بعضُ الشعراء فقال :

قد كنتُ أحسَبُنِى جَلْدًا فضعضعنى * قبرٌ بحرّانَ فيه عِصمةُ الدينِ
فيه الإمام وخير الناس كلهم * بين الصفائح والأحجار والطين

فيـــه الإمامُ الذى عمّتْ مصيبتُه * وعيّلتْ كلَّ ذى مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمةً * لكن عفا الله عمن قال آمين

ثم انتقلَ الأنصارُ الى الكوفة، وقد ساعدهم أبوسلمةَ الخلّالُ المعروف "بوزير آل محمد"، ولكنه عدل عنهم أخيرا . وقيـل : إنه كاتب ثلاثةً من أعيان بنى علىّ : يَعرِضُ الخلافةَ على أحدهم وهم : جعفر الصادق بن محمد الباقر، وعبدالله المحض بن حسن، وعمر الأشرف ابن زين العابدين ، وكانت خاتمةُ حياته القتلَ .

ونريد بعد الذى قدّمناه أن نُلِم بحياة الخلفاء العباسيين الذين سبقوا المأمونَ، لنرى كيفَ كانت الحياةُ السياســيةُ فى عهدهم الذى كان بلا شـك نواةً صالحةً لعصر المأمون . وإنا لنرجو، اذا وُفّقنا الى بيان المناحى التى امتاز بهـا هؤلاء ، أن ينكشف الغطاءُ عن حقيقـة أمرهم ومكانتهم التاريخيـة ، كما نرجو أن نظفَر من وراء تفهم أقدارهم وحقيقة عصورهم بتفهم الأصول التى كوّنتِ العصرَ الذى من أجله وُضِعَ هذا الكتابُ .

الفصل الرابع

أبو العبـاس السـفاح

كان أبو العباس السفاح أوّل من تولى الخلافةَ العباسيةَ ونقل الملكَ من بنى أميةَ الى بنى العباس . وقد أجمع المؤرّخون على أنه كان وافرَ الكرم ، ظاهرَ المروءة ، جليلَ الوقار ، كثيرَ الحياء ، حسنَ الأخلاق ، وَصُولًا لذوى الأرحام .

وكان الى جانب هذه الأخلاق السمحةِ الرضيةِ ، يجمع قلباً ذكيا وأنفاً حميا ، فى تعقب الأمويين وتبـديدِ شملهم ، فى كل بقعةٍ يخشى أن تُسمَعَ لهم فيها كلمةٌ ، أو يطاعَ لهم رأىٌ ، أو يؤثَرَ عنهم صنيعٌ . وكانت هذه الدولةُ الناشئةُ تحتاج الى مثل هـذه القسوة من مثـل أبى العباس السفاح .

ويجب أن نذكر ، دائما فى مثل هـذه الظروف ، أنّ جلَّ الملوكِ الذين بُعثوا لإنشاء دولٍ جديدة ، وممالك جديدة ، وأُسرات ملكيةٍ جديدةٍ ، مثل أبى العباس السفاح وغيره ، هم مُكْرَهُون لا محـالة على استعمال القسوة وأخذ الأمور بالحزم والشـدةِ ، دون إغفالهم الموادعة والملاينة فيما لا يهدّد عروش ملكهم وصروح سلطانهم .

قالوا : إنه كان فى بعض أيامه جالسا فى مجلس الخلافة وعنـده سـليمانُ بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه وتبسط معه حتى دخل عليه سَديفٌ الشاعر وأنشده :

لا يغرّنْك ما ترى من رجال * إنّ تحت الضـلوع داءً دويّا
فضع السيفَ وٱرفع السوطَ حتى * لاترَى فوق ظهـرها أُمَوِيّا

فقال له سليمانُ : قتلتنى ياشيخُ ! ودخل السفاحُ وأُخِذَ سليمانُ فقُتل .

وهذا الذى صنعه السفاح أصبح سنّةً عباسيةً فى تأييد الملك . وكان قليلٌ من الإغراء كافياً فى محق من تقع عليــه العينُ من خصوم الخلافةِ ، فقد دخل شبل بن عبد الله مولى

بنى هاشم على عبد الله بن علىّ، وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلا على الطعام، فأقبـل عليه فقال :

أصبح الملكُ ثابتَ الآساس * بالبهاليـلِ من بنى العبـاس
طلبـوا وترَ هاشم فشـفَوْها * بعد ميلٍ من الزمان ويأس
لا تُقيلنّ عبـدَ شمس عِثارًا * واقطعَنْ كلّ رقلة وغراس
خوفُهم أظهرَ التودّدَ منهـم * وبهـم منكمُ كحـزّ المواسى
ولقـد ساءنى وساء قبيـلى * قربُهم من نمـارقٍ وكراسى
أنزلـوها بحيثُ أنزلهـا الله * بدار الهوانـ والإتعـاس
واذكروا مصرعَ الحسين وزيد * وقتيـلًا بجـانب المهـراس
والقتيـلَ الذى بحرّانَ أمسى * رهنَ رمسٍ فى غُربةٍ وتناسى

فأمر بهم عبد الله فضُربوا بالعُمُد حتى قُتلوا، وبسط النطوعَ عليهم، فأكل الطعامَ عليها وهو يسمع أنينَ بعضهم حتى ماتوا جميعا .

ولم تقف هذه الوحشيّةُ عند حدّ التنكيل بالأحياء، بل تعدّتهم الى الأموات، فقد ذُكرَ أن عبـد الله بن على أمر بنبش قبور بنى أميـة بدمشق، فنُبِش قبرُ معاويةَ بن أبى سفيان فوُجِدَتْ فيه عظام كأنها الرمادُ . ونُبِش قبرُ عبد الملك بن مروان فوُجِدَتْ فيه جمجمته . وكان لا يوجد فى القبر إلا العضوُ بعـد العضوِ، غير هشام بن عبد الملك فقد وُجِدَ صحيحًا لم يَبْلَ منه إلا أرنبةُ أنفه، فضربه بالسياط وصلبه وأحرقه وذرّاه فى الريح . ثم تعقّب أولادَ الخلفاء من بنى أميـة فلم يُفلِتْ منهم إلا من كان فى المهد صبيا . وأدرك بعضَ الهـاربين الى الأندلس فقتلهم بنهر أبى فُطْرُسَ [1]، وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان، والغمر

(١) نهر أبى فُطْرُس بضم الفاء وسكون الطاء وضم الراء وسين مهملة : موضع قرب الرملة من أرض فلسطين به كانت وقعة عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس مع بنى أمية فقتلهم فى سنة ١٣٢ هـ .

ابن يزيد بن عبد الملك ، وعبد الواحد بن سليمان ، وسعيد بن عبد الملك ؛ واستصفى بعد ذلك ما كانوا يملكون من نَشَبٍ ومال ؛ فلما فرغ منهم تغنّى بهذه الأبيات :

بنى أميــة قــد أفنيت جمعكمو * فكيف لى منكمو بالأول المــاضى
يُطَيّبُ النفسَ أن النــار تجمعكم * عُوِّضتُمو من لظاها شرَّ مُعْتاضِ
مُنِيتمو — لا أقال الله عثرتكم — * بليث غاب الى الأعداء نّهاض
إن كان غيظى لفوت منكمو فلقد . * مُنِيتُ منكم بمـا ربى به راضى

قلنا : إن السفاح كان الى جانب هذه القسْوة برّا بذوى رحمه ، وَصُولًا لهم . ولنذكر مثالا لذلك : تصرّفه مع آل الحسن بن علىّ الذين بايع بعضُ العباسيين رجلًا منهم هو محمد ابن عبد الله كما بينا من قبل ؛ فقد روى عبد العزيز بن عبد الله البصرى عن عثمان بن سعيد ابن سعد المدنىّ : أنه لمــا وَلِىَ الخلافة أبو العباس السفاح قدم عليه بنو الحسن بن على بن أبى طالب فأعطاهم الأموالَ وقطع لهم القطائعَ ، ثم قال لعبد الله بن الحسن : احتكم علىّ ؛ قال : «يا أميرَ المؤمنين بألف ألف درهم ، فإنى لم أرها قطّ» ، فاستقرضها أبو العباس من ابن مُقْرِن الصــيرفىّ وأمر له بها . قال عبــد العزيز : لم يكن يومئذ بيتُ مال . ثم إن أبا العباس أُتِىَ بجوهر مروان فجعل يقلّبه وعبد الله بن الحسن عنده فبكى عبــد الله ؛ فقال له : ما يُبكيك يا أبا محمد؟ قال : هــذا عند بنات مروان وما رأت بنات عمك مثله قط ! قال : فحباه به ، ثم أمر ابن مقرن الصيرفىّ أن يصل اليه ويبتاعَه منه فاشــتراه منه بثمانين ألف دينار .

على أن هذا الرفقَ واللينَ ، وهــذه السياسة والحكمة ، لم تُنْسِ أبا العباس الســفاحَ ما يجب عليــه من مراقبة الطالبيين ، والتسمّع لمــا قد يَجيشُ فى خواطرهم ، من الخروج عليه أو الكيد له ؛ فإن صلةَ الرحم من مثل السفاح لا تكون ظاهرةً خُلقيةً بقــدر ما تكون حيلةً سياســيةً ؛ وكذلك رأيناه يقول لبعض ثقــاته وقد خرج من عنده بنو الحسن : «قُمْ بإنزالهم ولا تألُ فى إلطافهم ، وأظهر الميلَ اليهم والتحاملَ علينا وعلى ناحيتنا ، وأنهــم

أحقّ بالأمر منـا كلما خلوت بهم، وأَحْصِ لى ما يقولون وما يكون منهـم فى مسـيرهم ومَقْدَمِهم » .

ومما ذكرناه يرى القارئ معنا أن السفاحَ قد جمع حقًّا بين القسوة واللين، وأنه لم يكن فى عُنْفه بأخطرَ منه فى رقّتـه، وإنمـا كان يلين ليستلّ سخيمةً مدفونةً أو ليسـتدرجَ بعض الحاقدين؛ ويقسو ليرى أعداءَه أن لا أمل لهم فى الكيد لذلك السيف المسلول .

ومهما يكن من شىء، فإن خلافة أبى العبـاس كانت أقصرَ من أن تسـمحَ لخصاله وأخلاقه بالظهور والتأثير القوىّ فى سياسة الدولة وسيرة خلفائها .

ولو عُمِّر السفاح لكان من الممكن أن يرسم لخلفائه خُطَّةً تُجنّبهم بعضَ ما تورّطوا فيـه من الاضطراب .

الفصل الخامس

أبو جعفر المنصور

كان المنصور ملكاً، سديدَ الرأى، مُحْكم التدبير، وكان قوىَّ العزيمة، جرىءَ القلب، يمضى الى غايته مُضىَّ السهم الى الرميَّة لا يثنيه عنها شىءٌ . سياسىٌّ حاذق لا يقبل أن تتدخّل فى سياسته عاطفةٌ ولا خُلُقٌ ولا اعتبار آخر إلا فوزه السياسىّ ليس غير . وهو الى ذلك داهية، وربما اضطره الدهاء الى شىء إن لم يكن الإثم الخلقىّ فهو يشبهه فى كثير من الأحيان .

وهو من هذه الناحية أحدُ أولئك الساسة الذين عرَّفهم التاريخُ من حين الى حين بالإقدام فى غير تردّدٍ ولا لينٍ ولا تهيّبٍ للوسائل ، والذين مثَّلهم «مكيافلى» أحسنَ تمثيلٍ .

فقد ذكر ابن الأثير أنه أحضر مرةً ابن أخيه عيسى بن موسى وأمره بالمسير الى المدينة لقتال محمد بن عبد الله ؛ فقال : شاوِرْ عمومتَك يا أمير المؤمنين ؛ قال المنصور : فأين قول ابن هرمة :

نزور آمرأً لا يمخض القوم سِرَّه * ولا ينتجى الأدنين فيما يحاولُ
اذا ما أتى شيئًا مضى كالذى أتى * وإن قال إنى فاعلٌ فهو فاعلُ

ثم قال : امض أيها الرجل ! فوالله ما يراد غيرى وغيرك، وما هو إلا أن تشخَص أنت أو أشخص أنا ؛ فسار وسيّر معه الجنود . وقال المنصور لما سار عيسى : « لا أبالى أيهما قتل صاحبه ! » .

وكان الى جانب ذلك ، كما قال الجاحظ ، : مُقدَّمًا فى علم الكلام ومُكْثِرًا من كتاب الآثار ، ولكلامه كتاب يدور فى أيدى العارفين والورّاقين معروف عندهم .

وفى وصف المنصور يقول يزيد بن هبيرة : «ما رأيت رجلا قط فى حربٍ ولا سمعت به فى سِلْمٍ أمكَرَ ولا أبدعَ ولا أشدَّ تيقُّظا من المنصور، لقد حصرنى فى مدينتى تسعةَ أشهر ومعى فُرسانُ العرب، فجهدنا كُلَّ الجَهْدِ أن ننال من عسكره شيئا نكسِرُه به فما تهيأ ؛ ولقد حصرنى وما فى رأسى بيضاء، فخرجت اليه وما فى رأسى سوداء» .

وكان المنصور يعطى فى موضع العطاءِ ويمنع فى موضع المنع، ولكن المنعَ كان أغلبَ عليه، حتى ضرب المثل بشحه وسمى « أبا الدوانيق » ، لشدّته فى محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق .

وقد يكون من المستطرف أن نذكر شيئا مما رواه الطبرى فى تمثيل هذه الناحية من أخلاق المنصور، فقد جاء فيه : أن واضحا مولاه قال : «إنى لواقف يوما على رأس أبى جعفر إذ دخل المهدىّ وعليه قباء أسودُ جديد، فسلم وجلس، ثم قام منصرفا وأتبعه أبو جعفر بصرَه، لحبه له وإعجابه به، فلما توسّط الرواقَ عثَر بسيفه فتخرّق سوادُه، فقام ومضى لوجهه غيرَ مُكترِثٍ لذلك ولا حافلٍ به ، فقــال أبو جعفر : ردّوا أبا عبــد الله فرددناه ؛ فقــال : يا أبا عبد الله، أستقلالا للمواهب ! أم بطرا بالنعمة ! أم قلة علم بالمصيبة ! كأنك جاهل بمــا لك وما عليك ! » .

فانظر اليه كيف لام ابنه وولىَّ عهده، وقد كان عنده أثيرا، ولامه بمحضرٍ من حاشيته فى شىء ليس ذا بال عند أوساط الناس فضلا عن الخلفاء ! .

ومهما يُعْتــذرُ للمنصور بحرصــه على الاقتصاد فى أموال دولة ناشــئة ، وأخذ ولىّ العهد بتجنب الإسراف والإهمال، فقد نرى أن هــذه الحادثةَ وأمثالَها ممــا سنرويه لك ، تُظهِرُ ناحيةً صغيرةً من نفسية المنصور، فقد كانت أمامه جلائلُ الأعمال فى الدولة يستطيع أن يُظهِرَ فيها ميلَه الى الحرص والاقتصاد، دون أن يُسِفَّ الى هذه الصغائر .

* * *

على أننا لا نستطيع أن نمتنع عن ذكر معاوية مؤسس الدولة الأموية والمقارنة بينــه وبين المنصور مؤسس الدولة العباسية حقا من هذه الناحية؛ فقد كان معاويةُ، كما رأيت،

أكرمَ الناس، وأشدَّهم تسخيرا للأموال العامةِ والخاصةِ ، فى الأغراض السياسيةِ . وكان المنصورُ أشحَّ الناس بالأموال العامةِ والخاصةِ ، يُؤْثِر التضحيةَ بالدماءِ والكفايات فى سبيل أغراضه السياسيةِ على التضحية بالأموال .

ولعلّ من الإنصاف أن نلاحظَ الفرقَ بين العصرين، وبين الدعائم التى اعتمد عليها الرجلان فى إقامة ملكهما . فقد كان معاويةُ فى بيئةٍ عربيةٍ، لم تخلُص بعدُ من البداوة ولا من سماحة الدينِ ، فكان الحلمُ والكرمُ أليقَ به وأنفعَ ، بينما كان المنصور فى بيئةٍ من الفرس والموالى، تأثُّرها بالحضارة شديدٌ، وحظها من الدين قليلٌ .

ولو بسط معاويةُ سلطانه بالسيف لفشل ؛ ولكننا نرى أن لو بسط المنصورُ سلطانه بالمال فى شيءٍ من الحزم لوُفّق ولحقن الدماءَ ولرسم لخلفائه خُطّةً أقربَ الى اللين والعافية من هذه الخُطةِ العنيفةِ التى ستراها فى سيرة أكثرهم .

وحدّث الوضينُ بن عطاء قال : «استزارنى أبو جعفر، وكانت بينى وبينه خَلَالةٌ قبل الخلافة ، فصرت الى مدينة السلام ، فخلونا يوما فقال لى : يا أبا عبد الله ، ما مالُك؟ فقلت : الخيرُ الذى يعرفه أميرُ المؤمنين ؛ قال : وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم لهنّ ؛ فقال لى : أربع فى بيتك؟ قلت : نعم . قال : فوالله لردّد ذلك علىّ حتى ظننت أنه سيموّلنى . قال : ثم رفع رأسه الىّ فقال : أنت أيسرُ العرب، أربعُ مغازلَ يدرن فى بيتك! »

على أن شحّ المنصور لم يكن يخلو أحيانا من بعض الظرفِ والفكاهةِ ؛ فقد ذكر إبراهيم ابن عبد الرحمن أن أبا جعفر كان نازلا على رجل يقال له أزهرُ السمّانُ قبل خلافته ، فلما ولى الخلافةَ زاره الرجل وطلب صلته ، فوصله ثم عاوده فوصله ، وجاءه فى الثالثة فقال له المنصور : يا أزهرُ ما جاء بك ؟ قال : دعاء سمعته منك أحببتُ أن آخذه عنك ؛ قال : لا تردّه فإنه غير مستجاب ، لأنى قد دعوتُ الله أن يُريحنى من خِلْقَتِكَ فلم يفعل ! وصرفه ولم يعطه شيئا .

وربما كان من العدل التاريخيّ أن نحتاط أمامَ هـذه الرواياتِ الكثيرةِ التى أسرف المؤرّخون فى روايتها إثباتًا لبخل المنصور وشحّه ؛ فقد يكون مصدرُها ما ألِفُوه من إسراف الخلفاء ، ولعل المنصور لم يبلغ أكثرَ من أنه كان شديدَ الميل الى الحرص والتدبير ، والنُّفرةِ من الملحفين ، وأخذَ أهل بيته بذلك كله .

ولم يفت المنصورَ أن يعلّل ذلك البخلَ ، فقد جاء فى عيون الأخبار أنه قال فى مجلسه لقوّاده : « صدق الأعرابيُّ حيث يقول : أَجِعْ كلبكَ يَتبعْكَ » فقام أبو العباس الطوسيّ وقال : « يا أمير المؤمنين ، أخشى أن يلوّحَ له غيرُكَ برغيف فيتبعَه ويدَعكَ ! » . وقد كان أبرويزُ أحكمَ من المنصور ، إذ قال لابنه شيرويه وهو فى حبسه « لا تُوسِّعَنَّ على جندك فيستغنوا عنك ولا تُضَيِّقَنَّ عليهم فيضجُّوا منك ، أَعطِهم عطاءً قصدا ، وآمنعهم منعًا جميلا ، ووسِّعْ عليهم فى الرجاء ، ولا تُسْرِفْ عليهم فى العطاء » .

* * *

وليس أدلُّ على الشخصية السياسية لهـذا الخليفةِ من سيرته مع ثلاثة ، هم فى حقيقة الأمر أكبرُ زعماء الدولة فى عصره . فهذه السيرة تُبين لك ، فى وضوحٍ وجَلاءٍ ، ما قدّمناه من أن المنصورَ كان «مكيافلى» السياسة ، لا يُحجِمُ عن الغـدر وقطعِ الرحِمِ وكفرِ النعمةِ ، إذا رأى منفعتَه فى ذلك .

وهؤلاء الزعماء هم أوّلا : أبو مسلم الذى أخلص فى نُصْرة المنصور والسَّهرِ على ملكه ، فلم يَألُ جهدًا فى تعقّب الخارجين على الملك ، لا يَفرقُ فى ذلك بين أشياع المنصور وأهله من بنى العباس ، ولا خصومِه الذين يكيدون له فى السرّ أو فى العلانية ، فقتل الشيبانيَّ والكرمانيَّ وأبا سلمة الخلّال ، وحارب عمّ المنصور عبدَ الله بن على واستولى على ما فى عسكره من الغنائم والأسلحة . وثانيا : عمه عبدالله بن عليّ ، وهو الذى فعل ما فعل فى نُصرة الدعوة العباسية وتقتيلِ خصومها من بنى أمية ، فضـلا عن حروبه الموفّقة فى صَـدِّ جيوش مروان ؛ ومع ذلك فقد سلّط عليه المنصورُ أبا مسلم فحاربه وقهره ، ولما لم يَصِلْ الى قتله ، كلّف ابنَ عمه عيسى

ابن موسى والى الكوفة أن يقتله ، فلمّا لم يقتله تولّى المنصورُ قتلَه بنفسه ، ليأمنَ ما قد يُحدِثه من الثورة والاضطراب . وثالثا : ابن عمه وولىّ عهده عيسى بن موسى ، وقد رأيتَ كيف أشخصه المنصورُ لقتال محمد بن عبد الله مُلِحًّا فى ذلك ، حتى إذا أُشْخِصَ قال المنصور : «لا أبالى أيهما قتلَ صاحبَه !» ثم ما زال المنصورُ يكيدُ لهذا الأمير حتى خلعه من ولاية العهد ، وبايع مكانَه لابنه المهدى ، ثم مضى فى الكيد له . وقد يكون من المفيد أن ننقُلَ ما جاء فى المستطرَف عن خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد بمعرفة المنصور ، وما قاله ابن الأثير عن قتل عمه عبد الله بن على ، فإن فيما قالاه تصويرًا دقيقًا لسياسة المنصور ، وتمثيلًا لحرصه على الملك الذى كان لا يبالى فى سبيل توطيده أن ينكُثَ بما عقدَ من عهد ، أو ينقضَ ما أبرمَ من ميثاق .

جاء فى المستطرف : أن عيسَى بنَ موسى لما غدَر به المنصورُ ونقلَ ولايةَ العهد منه الى المهدىّ ابنه أنشد :

أينسَى بنو العباس ذبِّىَ عنهمو * بسيفى ونارُ الحرب زاد سعيرُها
فتحتُ لهم شرقَ البلاد وغربَها * فذلّ مُعاديها وعَزّ نصيرُها
أُقَطِّع أرحاما علىَّ عزيزةً * وأُبدى مكيداتٍ لها وأُثيرُها
فلما وضعتُ الأمر فى مستقرِّه * ولاحتْ له شمسٌ تلألأ نورُها
دُفعتُ عن الأمر الذى أستحقه * وأوسق أوساقا من الغدر عيرُها

وجاء فى ابن الأثير : أن المنصور أحضر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسَه وسلّم اليه عمّه عبدَ الله بن على وأمره بقتله وقال له : إن الخلافةَ صائرةٌ اليك بعد المهدىّ فاضرب عنقَه ، وإياك أن تَضْعُفَ فتنقضَ علىّ أمرى الذى دبّرتُه . ثم مضى الى مكة وكتب الى عيسى من الطريق يستعلم منه عما فعل فى الأمر الذى أمره ، فكتب عيسى : «قد أنفذتُ ما أمرتَ به» ، فلم يشك فى أنه قتله . وكان عيسى حين أخذ عبد الله من عند المنصور دعا كاتبه يونسَ بن فروة وأخبره الخبر ، فقال : أراد أن يقتله ثم يقتلك ، لأنه أمر بقتله

سرًّا ثم يدّعيه عليك علانيةً ، فلا تقتلْه ولا تدفعْه اليه سرًّا أبدا واكتم أمره ، ففعل ذلك عيسى . فلما قدم المنصور وضعَ على أعمامه مَنْ يحرّكهم على الشفاعة فى أخيهم عبد الله ففعلوا وشفعوا ، فشفَّعهم ، وقال لعيسى : إنى كنتُ دفعتُ اليك عمّى وعمّك ليكونا فى منزلك وقد كلّمنى عمومتُك فيه ، وقد صفحتُ عنه فأتنا به ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرْنى بقتله فقتلتُه ؛ قال : ما أمرتُك ؛ قال : بل أمرْتَنى ؛ قال : ما أمرتُك إلا بحبسه وقد كذبتَ . ثم قال المنصور لعمومته : إنّ هذا قد أقرّ بقتل أخيكم ؛ قالوا : فادفعه إلينا نَقِيدُه به ؛ فسلّمه اليهم وخرجوا به الى الرحبة واجتمع الناسُ وشُهِرَ الأمرُ وقام أحدُهم ليقتلَه ، فقال عيسى : أفاعلٌ أنت؟ قال : إى والله ! قال : رُدّونى الى أمير المؤمنين ، فردّوه اليه ؛ فقال له : إنما أردتَ بقتله أن تقتلَنى ، هذا عمّك حىّ سوىّ ؛ قال ؛ آئتنا به فأتاه به ؛ قال : يدخلُ حتى أرَى رأيى ، ثم انصرفوا فأمر بجُعِلَ فى بيتٍ أساسه ملحٌ ، وأُجرِىَ الماءُ فى أساسه فسقط عليه فماتَ » .

وهذه الرواية يؤيدُها أكثر المؤرّخين من العرب . وقد فعل أبو مسلم مع سليمان بن كثير ، وكان من أركان هذه الدولة ، ما يُضيفُ حَلقةً ، الى سلسلة الاضطهادات التى ارتكبَتْ تأييدا لهذا الملك ، فقد أحضره اليه وقال له : أتحفظُ قولَ الإمام لى : « مَن اتهمتَه فاقتله ؟ » قال : نعم ؛ قال : فانى قد اتهمتك ؛ فخاف سليمان وقال : أُناشدُكَ الله ! قال : لا تُناشِدْنى فأنت منطوٍ على غشّ الإمام ، وأمر بضرب عنقه .

وقد سَئم الناسُ هذه الحالةَ ، وثارَ بعضُ أمراء بنى العباس أنفسهم احتجاجًا على ما أُريق من الدماء ، فقد جاء فى الأغانى فى أخبار عبد الله بن عمر العقيلى الشاعر المخضرم : أن محمد ابن عبد الله لما سمع للعقيلى قصيدته التى مطلعها :

تقول أمامةُ لما رأت * نُشُوزى عن المضجَعِ الأنفسِ

والتى ختامها :

فما أنسَ لا أنسَ قتْلاهمُ * ولا عاش بعدهمُ من نَسِى

بكى واستعبر، فقال له عمّه الحسن بن الحسن بن على : أتبكى على بنى أمية، وأنت تريد ببنى العباس ماتريد ! فقال : « والله ياعم لقد كنا نقمْنا على بنى أمية ما نقمْنا، فما بنو العباس إلا أقلّ خوفا لله منهم ، وإنّ الحجة على بنى العباس لأوجبُ منها عليهم ، ولقد كانت للقوم أخلاقٌ ومكارمُ ليست لأبى جعفر » . وذكر الأصفهانىّ أيضا : أن محمدا وآله وهبوا للشاعر مالا لمِدْحته تلك . وهكذا تغيّرت نفوسُ آل البيت من إسراف العباسيين فى الفتك والقتل . (١)

* * *

وماذا كان حظُّ أبى مسلم وكيف كان جزاؤه على ذلك الإخلاص الدموىّ ؟

كان جزاؤه أن قُتِلَ بيد الخليفة نفسه عملا بسنته المعروفة : « أقتل من آتهمته » ، مع أنه كان لا يقطع أمرا دونه .

وقد ذكر الجاحظُ : أنّ المنصورَ لما همّ بقتل أبى مسلم ، سقط بين الاستبداد برأيه والمشاورة فيه ، فأرِقَ فى ذلك ليلته ، فلما أصبح ، دعا باسحاق بن مسلم العقيلىّ ، فقال له : حدّثنى حديثَ الملك الذى أخبرتنى عنه بحرّان ؛ قال : أخبرنى أبى عن الحصين بن المنذر : أن ملكا من ملوك فارس ، يقالُ له سابورُ الأكبر ، كان له وزير ناصح ، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك ، وشابَ ذلك بفَهم فى الدّين ، فوجّهه سابورُ داعيةً الى خراسانَ ، وكانوا قوماً عجماً يُعظّمون الدينَ جهالةً بالدين ، ويُخلّونَ بالدين استكانة لقوة الدنيا وذُلّا لجبابرتها ، فجمعهم على دعوة من الهوى يكيد به مطالبَ الدنيا ، واعتزّ بقتل ملوكهم لهم وتخوّلهم إياهم ؛ وكان يقال لكلّ ضعيف صَوْلةٌ ، ولكل ذليل دولةٌ . فلما تلاحمتْ أعضاءُ الأمور التى لقح ، استحالت حرباً عَوَاناً ، شالت أسافلُها بأعاليها ، فانتقل العزّ الى أرذلهم ، والنباهةُ الى أخملهم ، فَأُشْرِبوا له حبّا مع خفض من الدنيا افتتح بدعوة من الدين ، فلما استوسقتْ له البلادُ ، بلغ سابورَ أمرُهم وما أحال عليه من طاعتهم ، ولم يأمن زوالَ القلوب وغَدرات الوزراء ، فآحتال فى قطع رجائه عن قلوبهم ، وكان يقال :

وما قُطعَ الرجاء بمثل يأس * تُبادهه القلوبُ على اغترار

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فى هذا الرأى بقوله : (أحسب أن تغير آل البيت على بنى العباس إنما كان سببه أنهم نفسوا عليهم ما أتيح لهم من ملك مع اعتقادهم أنهم أحق بذلك منهم) .

فصمّم على قتله عند وروده عليه برؤساء أهل خراسان وفُرسانهم، فقتله فبغتهم بحدث فلم يرعهم إلا ورأسُه بين أيديهم، فوقف بهم بين الغربة، ونأي الرجعة، وتخطّف الأعداء، وتفرّق الجماعة، واليأس من صاحبهم، فرأوا أن يستتمّوا الدعوةَ بطاعةِ سابور، ويتعوّضوه من الفُرقة، فأذعنوا له بالملك والطاعة، وتبادروه بمواضع النصيحة، فملكهم حتى مات حَتْفَ أنفه . فأطرق المنصورُ مليّاً ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذى الحلم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العصا * وما عُلِّمَ الإنسان إلا ليعلما

وأمر إسحاق بالخروج، ودعا بأبى مسلم فلما نظر اليه داخلا قال :

قد اكتنفتْك خلّاتٌ ثلاث * جلبن عليك محذورَ الحِمام

خلافك وامتناؤك ترّميني * وقودك للجماهير العظام

ثم وثب اليه ووثب معه بعضُ حشمه بالسيوف، فلما رآهم وثب فبدره المنصور فضربَه ضربة طوّحه منها، ثم قال :

إشرب بكأس كنت تَسقى بها * أمرّ فى الحلق من العلقم

زعمتَ أن الدينَ لا يُقتضَى * كذبت فآستوفِ أبا مُجْرِمِ

ثم أمر فحزّ رأسه وبعث به الى أهل خراسان وهم ببابه، فجالوا حوله ساعة ثم ردّهم عن شَغَبهم انقطاعُهم عن بلادهم وإحاطةُ الأعداء بهم، فذلّوا وسلّموا له . فكان إسحاق اذا رأى المنصور قال :

وما ضربوا لكَ الأمثالَ إلا * لتحذُوَ إن حَذوتَ على مِثالِ

وكان المنصور اذا رآه قال :

وخلّفها سابورُ للناس يُقْتَدَى * بأمثالها فى المعضلات العظائم

وما أجملَ تلك الجملةَ التى قالها محمد بن عبد الله العلوى حين أمّنه المنصور على نفسه فقد قال : أىّ أمان تعطينى : أمان آبن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله، أم أمان أبى مسلم !

ولقد تنفّس المنصورُ حين قتَلَ أبا مسلم، حتى قال له بعضُ أقربائه ساعةَ قتلِه : عُدَّ هذا اليومَ أوّلَ يوم من خلافتك !

***

على أنه من الحق أن نقرّر أنّ عدوانَ المنصور و إسرافَه فى التنكيل بخصومه له قيمتُه فى الدلالة على عِرفانه بحق الملك وحِرصه على نجاة الدولة من أخطار البغى، والخروج على النظام، ففى سبيل هذه الغاية أسرفَ فى سفك الدماء وتقطيع الأرحام وقتلِ أمثال بنى الحسن والحسين، والديباج الأصفر، والنفس الزكية، وقتل عمه وقائده، وترك خِزانةَ رءوس فيما ترك ميراثا لابنه المهدى .

ولقد كان مع هذه القسوة ثاقبَ الرأى محكَم التدبير، وهو الذى يقول لابنه المهدىّ : «يا أبا عبـد الله، ليس العاقلُ الذى يحتالُ للأمر الذى وقع فيه حتى يخرجَ منه، ولكنه الذى يحتالُ للأمر الذى غَشِيه حتى لا يقعَ فيه» .

وقد ذكر المؤرّخون أنه كان اذا جنى على أحد جنايةً أو أخذ من أحد مالا جعله فى بيت المـال مفردا وكتب عليه اسمَ صاحبه، فلما أدركته الوفاةُ قال لابنه المهدىّ : «يابنىّ إنى قد أفردت كلّ شيء أخذتُه من النـاس على وجه الجناية والمصادرة، وكتبت عليـه أسماء أصحابه، فاذا وَلِيتَ أنت فَأَعِده على أربابه، ليَدْعوَ لك الناسُ و يحبوكَ» . وفى عهد المنصور أُنشِئَتْ "بغدادُ" موئل العلم ودار السلام .

الفصل السادس

المهـــدىّ

عيناى واحدةٌ تُرَى مَسرورةً * بأميرها جَذْلَى وأخرى تَذْرِفُ
تبكى وتضحك تارة و يسوءها * ما أنكرت و يسرُّها ما تعرِفُ
فيسوءها موتُ الخليفة مُحرِمًا * و يسرّها أن قام هذا يخلُفُ
ما إن رأيتُ كما رأيتُ ولا أرى * شــعرا أُسَرّحه وآخر أنتِفُ
هذا حباه الله فضلَ خلافةٍ * ولذاك جناتُ النعيم تُزخرَفُ

بهذه الأبيات الرقيقة كان أبو دُلَامة أوّل من تقدّم بتعزية المهدىّ بوفاة والده المنصور وتهنئته بارتقاء عرش الخلافة سنة ثمــان وخمسين ومائة للهجرة .

وقد كان المهدىّ ، فيما أجمع عليه الرواةُ، شَهمًا فَطِنًا كريمــا، شديدَ البأس فى تعقّب الملحدين والزنادقة، لا تأخذُه فى إهلاكهم لومةُ لائم .

وكان كثيرا ما يجلس لردّ المظالم . وقد عُرِفَ عنــه أنه كان إذا جلس للظالم قال : «أدخلوا علىّ القضاةَ، فلو لم يكن ردّى للظالم إلا للحيــاء منهــم لكفى» . وروى الطبرىّ فى حوادث ســنة تسع وستين ومائة أنّ مِسْوَرَ بن مُساور قال : «ظلمنى وكيل للمهدىّ وغصَبنى ضيعةً لى، فأتيتُ سلّاما صاحبَ المظالم فتظلمت منه، وأعطيته رُقعةً مكتوبةً فأوصل الرقعــةَ الى المهدىّ وعنده عمُّه العباس بن محمد وابنُ عُلاثةَ وعافيــةُ القاضى، قال فقال لى المهدى : أُدنُهْ فدنوتُ؛ فقال : ما تقول ؟ قلتُ : ظلمتنِى؛ قال : فترضى بأحد هذين؟ قلتُ : نعم؛ قال : فادنُ منّى؛ فدنوتُ منه، حتى التزقتُ بالفراش؛ قال : تكلّم؛ قلت : أصلح الله القاضى، إنه ظلمنى فى ضيعتى هذا؛ فقال القاضى : ماتقول يا أمير المؤمنين؟ قال : ضيعتى وفى يدى؛ قال : قلتُ أصلح الله القاضى، ســله صارت الضيعةُ اليه قبــل

الخلافة أو بعدها؟ قال : فسأله ما تقول يا أميرَ المؤمنين؟ قال : صارت إلىّ بعد الخلافة؛ قال : فأَطلِقْها له؛ قال : قد فعلتُ؛ فقال العباس بن محمد : والله يا أمير المؤمنين لَهَــذا المجلسُ أحبُّ إلىّ من عشرين ألفَ ألف درهم !

***

أما كرمه فسجية قديمة فيه، وبسببه نال عتبَ المنصور غير مرّة . وقد ذكر الطبرىّ أن المؤمل بن أميل قال : قَدِمت على المهدىّ بالرّى وهو ولىّ عهد، فأمر لى بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحتُه بها، فكتب بذلك صاحبُ البريد الى المنصور، وهو بمدينة السلام، يخبره أن المهدىّ أمر لشاعر بعشرين ألف درهم؛ فكتب اليه المنصور يَعْــذُلُه ويقول له : إنمــا كان ينبغى لك أن تُعطى الشاعرَ بعد أن يُقيمَ ببابكَ سنةً أربعةَ آلاف درهم . قال المؤمل : فكتب الى كاتب المهدىّ أن يوجّه اليه الشاعرَ، فطُلِبَ فلم يُقْدَرْ عليــه ، فكتب اليه : إنه قد توجّه الى مدينة السلام، فوجّه المنصور قائدا من قوّاده، فأجلسه على جسر النهروان، وأمره أن يتصفحَ الناس رجلا رجلا ممن يمرّ به حتى يظفرَ بالمؤمّل ، فلما رآه قال له : من أنت ؟ قال : أنا المؤمل بن أميل من زوّار الأمير المهدىّ؛ قال : إياك طلبت؛ قال المؤمل : فكاد قلبى ينصــدع خوفا من أبى جعفر، فقبضَ علىّ ثم أتى بى بابَ المقصورة وأسلمنى الى الربيع، فدخل اليه الربيعُ فقال : هذا الشاعرُ قد ظَفِرنا به؛ فقال : أدخلوه علىّ؛ فَأُدْخِلْتُ عليــه، فسلمتُ فردّ علىّ الســلام، فقلت : ليس هاهنــا إلا خيرٌ؛ قال : أنت المؤمل بن أميل ؟ فقلت : نعم، أصلح الله أمير المؤمنين؛ قال : هيه ! أتيت غلاما غرًّا فخدعتَه، فقلتُ : نعم، أصلح الله أمير المؤمنين، أتيتُ غلاما كريما فخدعتُه فانخدع، قال : فكأنّ ذلك أعجبه فقال : أنشدنى ما قلتَ فيه، فأنشدتُه :

هو المهــدىّ إلا أنّ فيــه * مَشَابِهَ صورةِ القمرِ المنــيرِ
تشــابَه ذا وذا فهما اذا ما * أنارا مشكلان على البصير
فهذا فى الظلام سراجُ ليلٍ * وهذا فى النهار سراج نورِ

ولكنْ فضّـلَ الرحمن هذا * على ذا بالمنـابرِ والسريرِ
وبالملكِ العـزيز فذا أميرٌ * وما ذا بالأميرِ ولا الوزيرِ
ونقص الشهرِ يُخمد ذا وهذا * منيرٌ عنـد نقصان الشهورِ
فيابنَ خليفةِ الله المصـفّى * به تعـلو مُفَاخرةُ الفخورِ
لئن فتّ الملوكَ وقد توافَوْا * إليك من السهولة والوُعورِ
لقد سبق الملوكَ أبوكَ حتى * بَقُوا من بين كابٍ أو حسيرِ
وجئتَ وراءه تجرى حثيثا * ومابك حين تجرى من فُتورِ
فقال الناسُ ما هـذان إلا * بمنزلة الخليق من الجـديرِ
لئن سبق الكبيرُ فأهلُ سبقٍ * له فضلُ الكبيرِ على الصغيرِ
وإن بلغ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ * لقد خُلِقَ الصغيرُ من الكبيرِ

فقال : والله لقد أحسنتَ ! ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم! ثم قال لى : أين المـال ؟ قلتُ : ها هو ذا؛ قال : ياربيعُ انزل معه فأعطه أربعة آلاف درهم، وخذ الباقى؛ قال : فخرج الربيع فحط ثِقْلى ووزن لى أربعـة آلاف درهم وأخذ الباقى . فلمـا صارت الخلافةُ الى المهدىّ ولّى ابنَ ثوبان المظالم، فكان يجلس للناس بالرصافة . فاذا ملأ كساءه رقاعا رفعها الى المهدىّ ، فرفعت اليـه يوما رقعة أذكره قصتى، فلمـا دخل بها ابن ثوبان جعل المهدىّ ينظر فى الرقاع، حتى اذانظر فى رقعتى ضَحِكَ؛ فقال له ابنُ ثوبان: أصلح اللهُ الأميرَ ! ما رأيتكَ ضحكتَ من شىء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة! قال : هذه رقعة أعرف سببها، ردّوا اليه العشرين ألف درهم، فُردّتْ إلىّ وانصرفت .

ولنترك هذه السماحةَ فى إجازة الشعراء لنرى كيف كانت أريحية المهدىّ فى الإحسان الى الجماهير، فقد ذكر الطبرىّ فى حوادث سنة ستين ومائة أن المهدى قسم فى تلك السنة مالا عظيما فى أهل مكة وفى أهل المدينة كذلك، وأنه نظر فيما قسم فى تلك السفرة، فوجد ثلاثين ألف ألف درهم حملت معه، ووصلت من مصر ثلثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائتا ألف دينار، فقسّم ذلك كله، وفرّق من الثياب مائةَ ألف ثوب وخمسينَ ألف ثوب .

* * *

وكان المهدىّ الى جانب جوده وسخائه حييًّا خجولا وبرًّا رحيما . دخل عليه رجل فقال : «يا أمير المؤمنين ، إنّ المنصورَ شتمنى وقذف أمّى ، فإما أمرتنى أن أُحلّه ، وإما عوّضتنى وآستغفرتُ الله له ؛ قال المهدىّ : ولم شتمك؟ قال : شتمتُ عدوّه بحضرته فغضب ؛ قال : ومَنْ عدوُّه الذى غضب لشتمه ؟ قال : ابراهيمُ بن عبد الله بن حسن ؛ قال : إن ابراهيم أمسُّ به رَحِماً ، وأوجبُ عليه حقًّا ، فإن كان شتمك كما زعمتَ فعن رَحِمه ذبَّ ، وعن عِرْضه دفَعَ ، وما أساء مَن انتصر لابن عمه ؛ قال : إنه كان عدوّا له ؛ قال فلم ينتصرْ للعداوة وإنما انتصَرَ للرحم ؛ فأسكتَ الرجلَ ؛ فلما ذهب ليوَلّى قال : لعلك أردتَ أمرا فلم تجد له ذريعةً عندك أبلغَ من هذه الدعوى ! قال : نعم ؛ قال : فتبسم المهدىّ وأمر له بخمسة آلاف درهم» .

ولْننظُر الى مايرويه الربيعُ عنه ، قال : رأيتُ المهدىّ يصلّى فى بَهْوٍ له فى ليلة مُقمرة فما أدرى أهو أحسنُ أم البهوُ أم القمرُ أم ثيابه ! قال : فقرأ هذه الآية : ﴿فهل عَسَيتُمْ إنْ تولَّيتُمْ أن تُفسدُوا فى الأرض وتُقطِّعُوا أرحَامَكم﴾ قال : فأتم صلاتَه والتفت الىّ فقال : يا ربيعُ ! قلتُ : لبيك يا أميرَ المؤمنين ؛ قال : علىّ بموسى ؛ وقام الى صلاته قال : فقلت من موسى؟ أابنُه موسى أم موسى بن جعفر وكان محبوسا عندى ، قال : فجعلت أفكّر قال فقلت : ما هو إلا موسى بن جعفر . قال : فأحضرته ، قال : فقطع المهدىّ صلاتَه وقال : ياموسى ، إنى قرأت هذه الآية : ﴿فهل عَسَيْتُمْ إن تولَّيتُمْ أن تُفسدُوا فى الأرض وتُقطّعُوا أرحَامَكم﴾ فخفتُ أن أكون قطعتُ رحمَكَ ، فوثّقْ لى أنكَ لا تخرجُ علىّ ؛ قال : فقال نعم ؛ فوثّق له وخلّاه» .

ومثل هذا ماحدّث به على بن صالح قال : غضب المهدىّ على بعض القوّاد ، وكان عتب عليه غيرَ مرّة فقال له : الى متى تُذنبُ الىّ وأعفو ! قال : الى أبدٍ نُسيءُ ويُبقيكَ اللهُ فتعفو عنّا ؛ فكررها عليه مرات ، فآستحى منه ورضى عنه .

ثم لننتقلْ الى حوادث سنة ثمان وخمسين ومائة فنرى النوفلىَّ يحدّثنا عن البيعة للمهدىّ وما كان من أمر الربيع فيها فيقول : إن الربيعَ تناول يدَ الحسن بنِ زيد فقال : قم يا أبا محمد فبايِـع ، فقام معه الحسنُ فانتهى به الربيعُ الى موسى فأجلسَه بين يديه ، فتناول الحسنُ يدَ موسى ثم التفت الى الناس فقال : يا أيها النـاس ، إن أمير المؤمنين المنصورَ كان ضربنى واستصفى مالى ، فكلمه المهدىّ فرضِىَ عنّى وكلّمه فى ردّ مالى علىّ فأبى ذلك ، فأخلفه المهدىّ من ماله وأضعفَه مكانَ كلّ عِلْقٍ عِلْقينِ ، فمن أولى بأن يبايعَ لأمير المؤمنين بصــدرٍ منشرحٍ ونفسٍ طيبةٍ وقلبٍ ناصحٍ منى ، ثم بايع موسى للمهدى ثم مسح على يده .

*
* *

وبعد ، فالمهدىّ من الخلفاء العباسيين فى الذؤابة . وقد صدق الأستاذ «ميور» اذ يقول : إن المهدىّ كان فى إدارته لشؤون رعيته كمن يعمَلُ بوجهٍ عامٍ على رفاهيةِ الأمةِ وإسعادِها ، وكان مُعيناً ومعجّلاً للعصر الذهبىّ الذى تلا أيامَه . وما أخذ عليه من بعض الهَنَاتِ لا يمنع المؤرّخ المنصفَ أن يرى فى عصره ترفيهًا للناس ، مما كانوا يعانون من الشدّة أيامَ المنصور .

كان المهدىّ مُوَفَّقًا فى ٱختيار وزرائه ، وإن كانت السِّعايةُ أحلَّتْ ببعضهم العــذابَ وســوءَ المصير ، وكان دقيقا فى نظره للأمور . وقــد بدأ خلافتَه بإطلاق مَنْ كان فى سجن المنصور ، إلا من كان قِبَلَه تِبَاعةٌ من دم أو قتل ومن كان معروفا أنه يسعى فى الأرض بالفساد أو كان لأحد قِبَلَه مَظْلِمةٌ ، وإنمـا أطلق من كان جُرمُهم سياسيًّا .

وكان محبا للأدب ، مشجّعا على التأليف فيه ، جادّا فى طلب الزنادقة والبحث عنهــم فى الآفاق ، محبا للغزواتِ والفتوح . وقد قيل : إنه كان لا يشربُ النبيذَ وإن كان سُمّارُه يشربونه فى مجالسه ، وكان محبا للسماع ، ويخبرنا الطبرىّ فى حوادث سنة تسع وستين ومائة ، أن المهدىّ مات مسموما وقد لَبِسَتْ عليه قيانُه المُسُوحَ ، فقال أبو العتاهية فى ذلك :

رُحْنَ فى الوَشْى وأصبحـ * ـنَ عليهنّ المســوحُ
كلّ نطّاح مـن الدهـ * ـر له يومٌ نَطُــوحُ

لَسْتَ بالبـاقى ولو عُمِّـ * ـرتَ ما عُمِّـرَ نـوحُ
فعلى نفسـك نُحْ إن * كنتَ لا بدَّ تنُـوحُ

* * *

والظاهرُ ممـا قدّمناه أن المهدىّ كان يخالف أباه المنصورَ مخالفةً شـديدةً من بعض النواحى، ويلائمه مُلاءمةً ما من نواحٍ أُخَر : كان كريما مُهينًا للمـال، بينما كان أبوه بخيلًا شحيحا، ولكنه وَرِثَ عن أبيه بعضَ القسوةِ والميلِ الى سفك الدماء (١) .

ولم تكن السياسـة لتُعينه على ذلك، فقد ثبَّتَ له المنصور أركانَ الملك فالتمس الدماءَ فى تتبع الزنادقة والفتكِ بهـم، وأسرف فى ذلك، حتى قتلَ بعضَ الأبرياء فى قسوة تُمثّلها قصته مع ابن وزيره أبى عبيد الله .

وفى المهدىّ ناحيةٌ جديدة فى خلفاء العباسيين، هى الميـلُ الى الاعتدال السـياسىّ فى معاملة الطالبيين، فقد كان على شىء من الرفقِ بهم والعطفِ عليهم، لا يمنعه من اتقائهم والإشـفاق منهم .

وهذه السياسة الرقيقةُ الحازمةُ تذكّرنا بعضَ التذكير بما سيكونُ من سياسة المأمون .

ومن أظهرِ خصـالِ المهـدىّ الشخصيّة غيرتُه على النسـاء . تلك التى أغرته ببشارٍ فضربه حتى مات، متعللا بزندقتـه، وإن كانت العلة الحقيقية هى استهتار بشارٍ بالغزل (٢) . وقد أورث المهدى غيرّته هذه ابنَه الهادى كما سترَى .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فى هذا الرأى بقوله : «قسوة المهدى فى سفك الدماء، لم تكن عامة وإنما كان ذلك فى الزنادقة خاصة» .

(٢) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : «أن قتل بشار لم يكن سببه الغيرة على النساء وإنمـا كان بتدبير يعقوب بن داود الوزير ودسيسته . وبشار هو الذى يقول :

بنى أمية هبوا طال نومـكم * إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا * خليفة الله بين الناى والعود

وكانت حيلة يعقوب بن داود على الخليفة أن أخبره بأن بشارا وقع فى الخليفة وهجاه . فاستنشده المهدى هجاءه فامتنع فعزم عليه فأنشده :

خليـفة يزنى بعماته * يضرب بالدف وبالصولجان
أبدلنا الله وغـيره * ودس موسى فى حر الخيزران

الفصل السابع

الهـادى

قال محمد بن على بن طَبَاطَبَا فى كتاب «الآداب السلطانية» : كان الهادى مُتيقِّظًا غيورا كريمـا شديدَ البطش جرىءَ القلب، مجتمعَ الحسّ ذا إقدام وعَزْمٍ وحزم .

ونحن نخشى أن يكون فى هـذا الثناء إسرافٌ كثير، فلم يطل عهد الهـادى بالخلافة يمكنَ الحكم له أو عليه، وإنمـا مرّ بها مرورَ الطيف .

ومع ذلك فقد أكثر المؤرّخون من التحدّث عنه بالخير. وليس يستوقفُنا من سيرته كلّها إلا ثلاثةُ أمور :

الأوّل ما ذكره عنـه عبد الله بن عبد الملك قال : كنتُ أتولّى الشُّرطةَ للمهدىّ وكان المهدىّ يبعث الى ندماء الهـادى ومُغَنّيه، ويأمرنى بضربهم ، وكان الهادى يسألنى الرفقَ بهم والترفيهَ لهم ، ولا ألتفتُ الى ذلك، وأمضى لِمَـا أمرنى به المهدىّ . قال : فلما وَلى الهـادى الخلافةَ أيقنتُ بالتلف ، فبعثَ إلىّ يوما، فدخلتُ عليـه متكفّنًا متحنّطًا، واذا هو على كرسىّ، والسيفُ والنِّطعُ بين يديه ، فسـلّمتُ ؛ فقال : لا سـلّم اللهُ على الآخر! تذكُرُ يومَ بعثتُ اليـك فى أمر الحرّانىّ وما أمرَ أميرُ المؤمنين به من ضربه وحبسـه فلم تُجبنى؟ وفى فلان وفلان، وجعل يُعدّد ندماءه، فلم تَلتفتْ الى قولى ولا أمْرى؟ قلت : نعم يا أميرَ المؤمنين، أفتأذنُ لى فى استيفاء الحجة؟ قال : نعم؛ قلت : ناشدتُك بالله يا أميرَ المؤمنين، أيسرّك أنك ولّيتنى ما ولّانى أبوك ، فأمرتنى بأمرٍ فبعث إلىّ بعضُ بنيكَ بأمرٍ يخالف به أمركَ، فاتبعتُ أمرَه وعصيتُ أمرك؟ قال : لا؛ قلت : فكذلك أنا لك وكذا كنتُ لأبيك؛ فاستدنانى فقبّلتُ يديه، فأمر بخِلَعٍ فصُبَّتْ علىّ، وقال : قد ولّيتُك ما كنتَ تتولاه فامضِ راشدًا، فخرجت من عنده فصرت الى منزلى ، مفكرا فى أمرى وأمره ، وقلت : حَدَثٌ يشرب، والقومُ الذين عصيتُه فى أمرهم ندماؤه ووزراؤه وكتّابه، فكأنى بهـم حين يغلبُ

عليهم الشرابُ قد أزالوا رأيه فيّ وحملوه من أمرى على ما كنت أكره وأتخوّف . قال : فإنى لجالس وبين يدىّ بُنَيّـةٌ لى، فى وقتى ذلك ، وكانون بين يدىّ، ورقاقٌ أشطره بكامخ وأسخّنه وأضعُه للصبية، وإذا ضجةٌ عظيمةٌ، حتى توهّمتُ أن الدنيا قد اقتلعت وتزلزلت ، بوقع الحوافر وكثرة الضّوضاء، فقلت : هاه ! كان والله ما ظننتُ ووافانى من أمره ما تخوّفتُ، فاذا البابُ قد فُتِح، واذا الخدمُ قد دخلوا، واذا أمير المؤمنين الهادى على حمارٍ فى وسطهم، فلمـا رأيته، وثبتُ عن مجلسى مُبادرًا، فقبّلتُ يدَه ورجلَه وحافرَ حمـاره ؛ فقال لى : ياعبدَ الله، إنى فكرتُ فى أمرك، فقلتُ يسبق الى قلبك أنى اذا شربتُ وحولى أعداؤك، أزالوا ما حَسُنَ من رأيى فيك، فأقلقك وأوحشك، فصرت الى منزلك لأونّسكَ وأُعلِمَكَ أن السخيمةَ قد زالتْ عن قلبى لك، فهاتِ فأطعمنى ممـا كنت تأكل فأفعلُ فيه ما كنتَ تفعلُ، لتعلم أنى قد تحرّمتُ بطعامك، وأَنِسْتُ بمنزلكَ، فيزولَ خوفُك ووحشتُك ؛ فأدنيتُ اليه ذلك الرقاقَ والسُّكُرُّجةَ التى فيها الكامَخُ فأكلَ منهـا، ثم قال : هاتوا الزّلّةَ التى أزللتها لعبـد الله من مجلسى فأدخلت إلىّ أربعمائة بغلة موقَّرة دراهم، وقال : هـذه زلّتك فاستعنْ بها على أمرك، واحفظ لى هذه البغال عندك، لعلى أحتاج اليها يوما لبعض أسفارى ؛ ثم قال : أظلك اللهُ بخير، وانصرف راجعا . ونحن وإن كنا نفترض فى هذه الرواية وأمثالها المبالغة نرى أنها تدلّ فى جملتها على بصرٍ بالسياسة، وفطنةٍ فى العلم بالناس، والانتفاع بكفاياتهم .

الأمر الثانى وقوفُه موقفَ حزم نعتقد أنه أنقذ القصر العباسى، من شرّ عظيم، أفسد على ملوك الفرس قصورَهم، كما أفسد على العباسيين أنفسهم أمورَ الخلافة بعد عصر المأمون، ذلك هو تدخُّلُ النساء فى أمور الدولة .

فقد ذكر الطبرىّ أن الخيزُرَانَ والدةَ الهـادى، كانت فى أوّل خلافته، تَفْتَاتُ عليه فى أموره، وتسلُكُ به مسلَكَ أبيه من قبله، فى الاستبداد بالأمرِ والنهى، فأرسل اليها : ألا تخرجى من خَفَـر الكفايةِ الى بَذاذةِ التبـذّل، فإنه ليس من قَدرِ النسـاء الاعتراضُ فى أمر الملك، وعليك بصلاتِك وتسبيحك وتبتّلكِ، ولك بعد هذا طاعةُ مثلك فيما يجب لك .

قال : وكانت الخيزرانُ فى خلافة موسى كثيرا ما تكلّمه فى الحاجات، فكان يجيبها الى كلّ ما تسأله، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته، وانثال الناسُ عليها وطمعوا فيها، فكانت المواكبُ تغدو الى بابها ؛ قال : فكلّمته يوما فى أمر لم يجد الى إجابتها اليه سبيلا فاعتلّ بعلةٍ ؛ فقالت : لابدّ من إجابتى ؛ قال : لا أفعل ؛ قالت : فإنى قد تضمنتُ هذه الحاجةَ لعبد الله بن مالك ؛ قال : فغضب موسى وقال : ويلٌ على ٱبنِ الفاعلة ! قد علمتُ أنه صاحبُها، والله لا قضيتُها له ! قالت : إذًا والله لا أسألك حاجةً أبدا ؛ قال : إذًا والله لا أُبالى، وحَمِى وغَضِبَ ؛ فقامت مُغْضَبَةً ؛ فقال : مكانَكِ تستوعى كلامى، والله وإلا فأنا نَفِيٌّ من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئن بلغنى أنه وَقَفَ ببابِكِ أحدٌ من قوّادى أو أحد من خاصتى أو خدمى لأضربنّ عنقَه ولأقبضنّ ماله، فمن شاء فليلزم ذلك ! ما هذه المواكبُ التى تغدو وتروحُ الى بابك فى كل يوم ! أما لكِ مغزلٌ يَشْغَلُكِ، أومُصْحَفٌ يُذَكّرِكِ، أو بيتٌ يصونُكِ ! إياكِ ثم إياكِ ما فتحتِ بابك لِمِلىّ أو لذمىّ ! فانصرفت ما تعقِلُ ما تطأ، فلم تنطق عنده بحُلوةٍ ولا مُرّةٍ بعدها .

ولم يكتف الهادى بكلامه معها، بل جمع قوّادَه يوما وقال لهم : أيُّما خيرٌ أنا أم أنتم ؟ قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأيّما خير أمّى أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أمك يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأيكم يحبّ أن يتحدّث الرجالُ بخبر أمه فيقولوا فعلتْ أمُّ فلان وصنعتْ أمُّ فلان وقالتْ أمُّ فلان ؟ قالوا : ما أحدٌ منا يحبّ ذلك ؛ قال : فما بالُ الرجالِ يأتون أُمّى فيتحدّثون بحديثها ! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها ٱلبتة ، فشقَّ ذلك عليها ، فاعتزَلَتْه وحلَفتْ لا تكلِّمه ، فما دخلت عليه حتى حضرتْه الوفاةُ . وقد قالوا : إن الهادى حاول سَمّها فلم يُفْلِح . على أن الخيزرانَ أفلحت فى القضاء عليه حين مرض ، فقد ذكروا أنها دسّت اليه من جواريها مَنْ قتلته بالجلوس على وجهه .

لننتقل الآن الى الأمر الثالث وهو محاولته الغدر بأخيه الرشيد .

ولننظر في حوادث سنة سبعين ومائة، لنرى كيف أخلص آل برمك للرشيد، فقد همّ الهادى بتحويل الخلافة عنه لابنه جعفر، ولكنّ يحيى بن خالد ثبت في المحافظة على ولاية هارون، محتملا في ذلك كلّ مكروه. وكان لبطانة الهادى أثر سيىء في تشجيعه على خلع الرشيد ومبايعة جعفر؛ وكان فيمن بايعه يزيدُ بن مَزيد وعبد الله بن مالك وعلى بن عيسى، ومن أشبههم، من أصحاب الأغراض.

ولم تزد الحوادثُ يحيى بن خالد إلا حرصًا على حقّ الرشيد، فصار يعلّله ويُسَرّى عنه، واولاه لخلع الرشيد نفسَه، بعد أن تنقّصوه في مجلس الجماعة، وقالوا لا نرضى به، وصَعُب أمرُهم حتى ظهر، وأمر الهادى ألّا يُسارَ قدّامَ الرشيد بحربة، فاجتنبه الناسُ.

أما الأخبارُ عن كرمه فكثيرة. فمن ذلك ما رواه الطبرىّ في حوادث سنة سبعين ومائة أنه أمر ذاتَ ليلة بثلاثين ألف دينار لعيسى بن دأبٍ أحدِ جُلّاسه وكان — كما وصَفَهُ الطبرىُّ — لذيذَ الفُكاهة، طيّبَ المسامَرة، كثيرَ النادرة. ويقول علىّ بن صالح: إنه كان يوما على رأس الهادى وهو غلامٌ، وقد كان جَفَا المظالمَ عامّةً ثلاثة أيام، فدخل عليه الحرّانى فقال له: يا أمير المؤمنين إنّ العامةَ لا تنقاد على ما أنتَ عليه، لم تنظر في المظالم منذ ثلاثة أيام؛ فالتفت الىّ وقال: ياعلىّ ائذن للناس علىّ بالجَفَلى لا بالنَّقَرى، فخرجتُ من عنده أطيرُ على وجهى، ثم وقفتُ فلم أدرِ ما قال لى، فقلت: أراجعُ أميرَ المؤمنين فيقول: أتحجبنى ولا تعلم كلامى! ثم أدركنى ذِهنى، فبعثتُ الى أعرابىّ كان قد وفد، وسألته عن الجَفَلى والنَّقَرى فقال: الجَفَلى جفالةٌ، والنقَرى ينقر خواصهم؛ فأمرتُ بالستور فرُفِعَتْ، وبالأبواب ففُتِحَتْ، فدخل الناسُ على بَكرةِ أبيهم، فلم يزل ينظرُ في المظالم الى الليل؛ فلما تَقَوَّضَ المجلسُ مَثَلْتُ بين يديه، فقال: كأنك تريد أن تذكرَ شيئًا يا علىّ؛ قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين، كلّمتنى بكلام لم أسمعْه قبل يومى هذا، وخفتُ مراجعتَكَ فتقول أتحجُبنى وأنت لم تعلم كلامى! فبعثتُ الى أعرابىّ كان عندنا ففسّر لى الكلام، فكافئه عنّى يا أمير المؤمنين؛ قال: نعم، مائة ألف درهم تُحمل اليه. قال: فقلتُ يا أمير المؤمنين،

إنه أعرابى جِلْفٌ وفى عشرة آلاف درهم ما أغناه وكفاه ! فقال : ويلك يا على أَجُودُ وتَبخَلُ !

* * *

وكان الهادى شديدَ الغيرة ، ظاهرَ الشهامة . وهاك حديثاً لا يخلو من الأدب والفُكاهة ، حدّثَ به السِّندىُّ بن شَاهك قال : كنت مع موسى بجُرجانَ ، فأتاه نعىُ المهدى والخلافة ، فركبَ البريدَ الى بغدادَ ومعه سعيدُ بن سَلم ووجّهنى الى خُراسانَ ، فحدّثنى سعيدُ بن سَلْم قال : سرنا بين أبيات جُرجانَ و بساتينها قال فسمع صوتاً من بعض تلك البساتينِ من رجل يتغنّى ، فقال لصاحب شُرْطته : علىّ بالرجل الساعةَ ، قال : فقلتُ يا أمير المؤمنين ما أشبهَ قِصَّةَ هذا الخائن، بقصّةِ سليمان بن عبد الملك ! قال : وكيف ؟ قال : قلت له : كان سليمانُ بن عبد الملك فى مُتَنَزَّهٍ له ومعه حرمُه ، فسمع من بستان آخر صوتَ رجلٍ يتغنّى ، فدعا صاحبَ شُرْطَتِه فقال : علىّ بصاحب الصوت فأُتِىَ به ، فلما مَثَلَ بين يديه قال له : ما حملك على الغناء وأنتَ الى جنبى ومعى حَرَمى ؛ أما علمتَ أن الرِّمَاكَ(١) اذا سَمِعَتْ صوتَ الفحلِ حَنَّت اليه ! ياغلام جُبَّهُ ! فجُبَّ الرجلُ ؛ فلما كان فى العام المقبل ، رجع سليمانُ الى ذلك المتنزه فجلس مجلسه الذى جلس فيه ، فذكر الرجلَ وما صنعَ به ، فقال لصاحب شُرْطَتِه : علىّ بالرجل الذى كنا جَبَبْناه ، فأحضَره ؛ فلما مَثَلَ بين يديه قال له : إما بعتَ فوفيناكَ ، وإما وهبتَ فكافأناك ؛ قال : فوالله ما دعاه بالخلافة ولكنه قال له : يا سليمان ! اللهَ اللهَ ! إنك قطعتَ نسلى فذهبتَ بماء وجهى ، وحَرمتَنى لَذَّتِى ، ثم تقول : إما وهبتَ فكافأناك وإما بعتَ فوفّيناك ! لا والله ! حتى أَقِفَ بين يدى الله ! قال : فقال موسى : يا غلام رُدّ صاحبَ الشُّرَطةِ فردّه ، فقال : لا تعْرِضْ للرجل .

* * *

وأما حبّه للنّجدة فيحدّثنا به عمرُ بنُ شبّةَ ، إذ ذكر أن علىّ بن الحسين بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب ، وكان يلقَّبُ بالجزرى ، تزوّج رُقَيّةَ بنتَ عمرو العثمانية ، وكانت تحت

---

(١) الرماك : جمع رمكة بفتحتين وهى الأنثى من البراذين .

المهدى؛ فبلغ ذلك موسى الهادى فى أوّل خلافته، فأرسل اليه فجهله وقال : أعياكَ النساءُ إلا امرأة أمير المؤمنين ! فقال : ما حرّم اللهُ على خلقه إلا نساءَ جدّى صلى الله عليه وسلم، فأما غيرهُنّ فلا ولا كرامةَ؛ فشجه بمِخْصَرةٍ كانت فى يده وأمر بضربه خمسمائةِ سوط فضُرِبَ، وأرادَه أن يُطَلّقها فلم يَفْعَلْ، فحُمِلَ من بين يديه فى نِطْع فَأُلْقِىَ ناحيـةً، وكان فى يده خاتم سرى، فرآه بعضُ الخدم وقد غُشِىَ عليه من الضرب، فأهوى الى الخاتم فقَبضَ على يد الخادم فدقّها، فصاح وأتى موسى فأراه يدَه؛ فاستشاط وقال : يفعل هـذا بخادمى مع استخفافه بأبى وقولِه لى! وبعثَ اليه : ما حملك على ما فعلتَ؟ قال : قل له وسَله ومُره أن يضع يده على رأسك وليصدُقك؛ ففعل ذلك موسى فَصَدَقَه الخادم؛ فقال : أحسن والله! أنا أشهد أنه ابنُ عمى لو لم يفعل لانتفيتَ منه وأمر بإطلاقه .

*
* *

وقد كان الهادى مثلَ أبيه مُحِبًّا للآداب مُشَجِّعًا للشعراء، وكان على سنته فى بغض الزنادقة ومَقتهم، مُوَفّقًا فى اختيار الوزراء، مُصَابًا كأبيه ببطانة سوء، همُّها الوقيعةُ والوشايةُ وإغراءُ الخليفة والبيتِ المـالك باجتراح المآثم واقتراف المظالم .

قال الطبرى : إن عبـد الله بن محمد المنقرى حَدَّثَ عن أبيه قال : دخل عيسى بن دأب على موسى بن عيسى عند منصَرَفه من فخّ[(١)]، فوجده خائفا يلتمس عذرا مِن قَتْل مَنقَتَل فقال له : أصلح الله الأمير، أُنشِدُك شعرا كتب به يزيدُ بن معاوية الى أهل المدينة يعتذر فيـه مِن قتل الحسين بن على رضى الله عنه؟ قال : أنشدنى، فأنشده :

يا أيها الراكب الغادى لِطيتِهِ * على عُذَافِـرةٍ[(٢)] فى سيرها قحَـمُ

---

(١) فخ بفتح أوّله وتشديد ثانيه : وادى الزاهر، ويوم فخ كان أبو عبد الله الحسين بن على بن الحسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنـه خرج يدعو الى نفسه فى ذى القعدة سنة ١٦٩ هـ وبايعه جماعة من العلويين بالخلافة فى المدينة وخرج الى مكة فلما كان بفخ لقيته جيوش بنى العباس وعليهم العباس بن محمد بن عبد الله بن عباس وغيره فالتقوا يوم التروية سنة ١٦٩ هـ فقتلوا جماعة من عسكره وأهل بيته، ولم تكن مصيبة بعد كربلاء أشدّ وأفجع من فخ وفيه دفن عبد الله بن عمر ونفر من الصحابة الكرام ا هـ ملخصا من ياقوت مادة « فخ » .

(٢) العذافرة : الناقة الشديدة الأمينة الوثيقة الظهيرة، أنظر لسان العرب مادة « عذفر » .

أبلغ قريشا على شَحْط المزار بها * بيني وبين حسين الله والرحِمُ
وموقف بفناء البيت أنشده * عهـدَ الاله وما تُرعَى له الذمَمُ
عنفتُمُ قومكم فخرا بأمكم * أمّ حَصَانٌ لعمرى برّة كرَمُ
هى التى لا يُدانى فضلَها أحدٌ * بنت النبىّ وخير الناس قد علمُوا
وفضلُها لكم فضـلٌ وغيركمُ * من قومكم لهمُ من فضلها قِسَمُ
إنى لأعلم أو ظنا كعالمه * والظنّ يَصْدُق أحيانا فينتظِمُ
أن سوف يتركُكم ماتطلبون بها * قتلى تهاداكم العِقْبانُ والرخَمُ
ياقومنالاتشبوا الحرب اذ خمَدَتْ * ومَسّكوا بحبال السِّلم واعتصِمُوا
لاتركبوا البغىَ إن البغى مَصرَعةٌ * وإن شاربَ كأس البغى يَتّخِمُ
قدجربَ الحربَ من قدكان قبلكمُ * من القرون وقد بادت بها الأممُ
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخا * فربَّ ذى بذخ زلّت به القدمُ

قال : فسُرّى عن موسى بن عيسى بعْضُ ما كان فيه .

وإذا لم يكن بدّ من اختصار حياة الهادى فى كلمة جامعة فلنقل : إنه وَرِثَ عن أبيه المهدى كرَمه وغَيرته وحبَّه للأدب ، ووَرِثَ عن جدّه المنصور حزمَه وشيئا من مَيله الى الغدر .

الفصل الثامن

هارون الرشـــيد

يا خَيْزُرَانُ هَنَاكِ ثم هَنَاكِ * أمسَى يَسُوسُ العالَمِينَ ابناكِ

بهذا يُعلِنُ مروانُ بن أبى حفصةَ الشاعر النابهُ تبوّأ الرشيد عرشَ الخلافة ، بعد أخيه الهادى ، بعهدٍ من أبيه سنة سبعين ومائة هجرية . وبهذا يهنئ الشاعرُ الخيزرانَ بتوَقّلِ الرشيد لعرش كانت الخيزرانُ معذبةً مُعنّاةً بمن كان يعتليه قبل الرشيد . وقد يكون من المستصوَبِ أن نتركَ ليوسفَ بن القاسم بن صبيح كاتب الرشيد ، يُعلنُ الينا ما أعْلَنَهُ بنفسه الى العالم العربى ، من خبر اعتلاء الرشيد للخلافة ؛ فإنه ، بأسلوبه الرشيقِ وبلاغته السّهلَةِ ومكانته من الرشيد ، أحقُّ بذلك وأجدرُ ، ولا سيما وقد طُيّرتْ قطعتُه للخافقين ، مُنبئَةً بموت خليفةٍ وتتويج خليفةٍ .

قال يوسف بن القاسم بعد حمد الله عز وجل والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم : «إن الله بمنّه ولطفه ، منّ عليكم معاشرَ أهل بيت نبيه ، بيتِ الخلافة ومعدنِ الرسالة ، وآتاكم أهل الطاعةِ ، من أنصار الدولة وأعوان الدعوة ، من نعمه التى لا تُحصى بالعدد ، ولا تنقضى مدى الأبد ، وأياديه التامة إذ جمع أُلفتَكم ، وأعلى أمرَكم ، وشدّ عَضُدَكم ، وأوهنَ عَدُوّكم ، وأظهرَ كلمةَ الحقّ ، وكنتم أولى بها وأهلَها ، فأعزّكم اللهُ وكان الله قوياً عزيزاً ؛ فكنتم أنصارَ دينِ الله المرتضى ، والذّابين بسيفه المنتضى ، عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم . وبكم استنقذهم من أيدى الظّلَمة أئمةِ الجور ، والناقضين عهدَ اللهِ ، والسافكينَ الدمَ الحرامَ ، والآكلين الفيءَ ، والمستأثرين به . فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النعمة ، واحذروا أن تُغيّروا فيغيّرَ بكم . وإن الله جل وعز استأثر بخليفته موسى الهادى الإمام فقبضه اليه ، وولى بعده رشيدًا مرضيًّا أميرَ المؤمنين بكم رؤوفا رحيما ، من محسنكم قبولا ،

وعلى مسيئكم بالعفو عَطُوفاً . وهو — أمتعه الله بالنعمة ، وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة ، وتولّاه بما تولى به أولياءَه وأهل طاعته — يَعِدكم من نفسه ، الرأفة بكم والرحمة لكم ، وقَسْمَ أعطياتكم فيكم ، عند استحقاقكم ، ويبذل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء مما فى بيوت الأموال ، ما ينوبُ عن رزق كذا وكذا شهرا غير مُقَاصٍّ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم ، وحاملًا باقى ذلك للدفع عن حريمكم ، وما لعلّه أن يحدُث فى النواحى والأقطار من العصاة المارقين الى بيوت الأموال ، حتى تعودَ الأموالُ الى جمامها وكثرتها والحال التى كانت عليها . فاحمَدوا الله وجدّدوا شكرا يوجب لكم المزيدَ من إحسانه اليكم بما جدّد لكم من رأى أمير المؤمنين وتفضّلَ به عليكم أيده الله بطاعته ، وارغبُوا الى الله له فى البقاء ، ولكم به فى إدامة النعماء ، لعلكم تُرحَمُون : وأعطوا صفقة إيمانكم وقوموا الى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم وعلى أيديكم ، وتولاكم ولاية عباده الصالحين» .

* * *

بهذا الكتاب القيّم البليغ ، أشعرَ العالمَ العربىّ بابتداء خلافة هارونَ الذى نستطيع بحقٍ أن نقولَ إنه أضخمُ الخلفاء المسلمين اسمًا ، وأبعدُهم صوتاً ، وأشدُّهم فى الخيال تأثيرا ، فأنتَ لا تستطيع أن تسمع اسم هارون الرشيد ، حتى يُحْدِثَ فى نفسك صورا خياليةً ، مختلفةَ النوع ، ولكنها متفقةٌ فى القوّة ، فهو يُنْشِئُ فى نفسك حيناً صورة الخليفةِ المترَف ، المسرفِ فى الترف ، الذى بلغ منه ما لم يبلغه أحدٌ قبله ولا بعده . وينشىء فى نفسك حيناً آخر صورةَ الخليفةِ القوىّ ، الذى أذلّ أعداءَ الإسلام وبسطَ سلطانَ الخلافة على أطراف الأرض ، وأخذ ملوكَ الروم بدفع الجزية . وينشىء فيها مرّةً أخرى صورةَ الخليفةِ الحذِر ، الذى بث الجواسيس ، ليعرِفَ من أمر الناس ما ظهرَ وما خفى ، ثم لم يكتف بذلك بل استحال هو جاسوسا ، يطوفُ فى الأسواق ، ويُوغِلُ فى البيوت ، ويَغشى المجالسَ والأنديةَ ، حتى ألمّ بكل شيء ، وأحاط بكل خفيّة ، ثم بطش بأعدائه والمؤتمرين به بطشًا لم يستطع التاريخ أن ينساه . ثم يُنْشِئُ فى نفسك صورةَ الخليفة العالم الأديب ، الفقيه بألوان

العـلم والدين والأدب ، المشـجّع للفقهاءِ والعلماءِ والشـعراءِ والكُتّاب تشجيعاً أصبح فيه مثلًا لمن جاء بعده من الخلفاء والملوك فى الشرق والغرب . ويُنْشِئُ فى نفسك أيضا صورةَ الخليفة الورِع الزاهد، المتهالك نُسُكًا وطاعةً وتبتّلًا لله، كما ينشىء فيها صورةَ الخليفة الذى لا يكاد يخلو الى نفســه ويَسْدِلَ الســتارَ بينه وبين رعيته حتى يأخذَ مع المجّان فى مجونهم، فيُخَيَّـلُ اليك أنه لا يدَعُ من سُبُل اللذة سبيلا إلا سلكها وجَنى ثمـارها ، فمن غِناءٍ، الى شَرابٍ، الى عَبَثٍ، الى استمتاعٍ بالنساء، من حرائرَ وإماءٍ؛ وهو بعد هذا كله سياسىٌّ، ماهرٌ، بعيدُ النظر فى تصريفه الأمورَ، فيه حزمُ المنصور وعُنفُه وميلُه الى الغَدر والأَثرة ، وكلّ ما يُشخِّصُ سياسـةَ « مكيافلى » ، وفيه حلمُ معاوية ودهاؤُه اللينِ المرِنُ ، وسخاؤه بالمـال واصطناعَه الناسَ .

ومن غريب الأمر أن كلَّ هذه الصور المتناقضة التى تتباين أشدَّ التباين، قد اجتمعت حقا فى شخص هـذا الخليفةِ، لا كما يصـوّرها المؤرّخون والرواةُ والقُصّاصُ وأصحـابُ الأساطير، بل اجتمعت اجتماعا يختلف قوة وضعفا باختلاف الظروف والمؤثرات الكثيرةِ التى كوّنت مزاجَه وشخصيّتَه، وقِصَرَه، وبيئته السياسية العامة؛ فليس الرشيد فى حقيقـةِ الأمر ، شخصًا كغيره من الأشخاص يمثّل نفسَـه وما وَرِث عن أُسرته ، ولكنّه مرآةٌ اجتمعت أمامها صورٌ مختلفةٌ من الناس والكفايات والظروف فانعكست فيها هـذه الصــور .

فالرشيدُ يمثل كلَّ هؤلاء الناس، وكلَّ هذه الأشياء، وكلَّ هـذه الظروف التى شهدتها بغدادُ قرب آخر القرن الثانى للهجرة . ومن هنا كان من العســير جدا أن نستخلِصَ منـه صورةً تاريخيةً صادقةً، بريئةً من الغلوّ والإسراف .

فأمّا المؤرّخون من العرب فقد تأثروا حين كتبوا عن الخلفاء وخاصة أصحاب الشخصيات البارزة منهم بكلّ ما عرَفْتَ أنهـم تأثروا به، من الإغْرَاقِ والمبالغـةِ والغلوّ فى المدح مُخلِصين فى أكثر الأحيان .

وأما المؤرّخون من الفِرنْج فلم يسلم أشـدُّهم احتياطا من التأثر بهذه الطائفةِ الضخمةِ من الأساطير التى بثها فى نفوس الجماعات كتابُ "ألف ليلة وليلة" منذ زمنٍ طويلٍ .

وقـد ظهر هـذا التأثر مَظهرَينِ مُختلفينِ ، مظهرَ المدح والإسراف فيه عنـد قومٍ ، ومظهرَ الذم والإغراق فيه عنـد قوم آخرين . وأولئـك وهؤلاء مخدوعون عن أنفسهم واحتياطهم ، بكل هذه المبالغات التى أحاطت بإحسان الرشيد وإساءته .

ونحن مجتهدون — لا فى أن نعطيكَ هـذه الصورةَ الصادقةَ من الرشـيد التى لا يزال التاريخُ محتاجا اليها ، فليس ذلك غرضَنا فى هذا البحث ، وليس فى هذا الكتاب مُتَّسعٌ له ، بل فى أن نُعطيَك صورةً صادقةً من فهـم المؤرّخين من العرب والفِرنْجَةِ لعصر الرشـيد ، غير مُهمِلين مع ذلك أن نُسَجِّلَ آراءً لنا هنا وهناكَ حين نشعُر بالحاجة الى ذلك ، لتوضيح مذهبنا فى فهم عصر المأمون الذى نضعُ فيه هذا الكتابَ .

* * *

يجمع المؤرّخون العربَ على ورع الرشيد وفضله وأدبه ، وبسطةِ يده بالخير والعطاء ، وانطوائه على الجود والسخاء ، فقد ذكروا : أنه كان يصـلى فى كل يوم مائةَ ركعة الى أن فارق الدنيا إلا أن تَعرِضَ له عِلّةٌ ، وكان يتصدّق من صلب ماله فى كل يوم بألف درهم بعد زكاته . وكان اذا حجّ حجّ معه مائةٌ من الفقهاء وأبنائهـم ، واذا لم يحجّ أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغـة والكسوة الباهرة . وكان يقتفى آثار المنصور ويطلبُ العمل بها إلا فى بذلِ المـال ، فانه لم يُرَ خليفةٌ قبله كان أعطى منه للـال ثم المأمون من بعده . وكان لا يَضيعُ عنده إحسانُ محسنٍ ولا يؤخر ذلك فى أوّل ما يجب ثوابه . وكان يُحبُّ الشعراءَ والشعرَ ، ويميلُ الى أهل الأدب والفقه ، ويكره المِراءَ فى الدين ويقول هو شىء لا نتيجة له وبالحرَى ألا يكون فيـه ثواب . وكان يحبّ المديحَ ولا سيما من شاعرٍ فصيح ، ويشتريه بالثمن الغالى .

ولقد كانت دولَةُ الرشيد — كما يقول الفخرى — : دولةٌ من أحسن الدول وأكثَرِها وقارًا ورونقًا وخيرًا وأوسعها رقعة مملكة ، جبى الرشيد معظمَ الدنيا . ولم يجتمع على باب

خليفةٍ من العلماء والشعراء والفقهاء والقرّاء والقضاة والكتّاب والندماء والمغنين من آجتمعوا على باب الرشـــيد، وكان يَصِلُ كلَّ واحد منهم أجزلَ صلة ، ويرفَعُـه أعلى درجةٍ . وكان فاضلا شاعرا راويةً للأخبـار والآثار والأشعار، صحيحَ الذوق والتمييز، مَهيباً عند الخاصة والعـامّة .

* * *

ولقد حاول الهادى أن يُرغِمَ الرشـيدَ على خَلْع نفســه من الخلافة بعده ، وأن يكتُبَ بولاية العهد لابنه جعفر، وقد تمّ له شيء من ذلك . وإنا لنجدُ فى حوادث سنة سبعين ومائة هجرية الشيءَ الكثير من إخلاص آل برمك للرشـيد لا سيما شدّة محافظة يحيى البرمكيّ على حقوق الرشيد فى ولاية العهد ، فعُذِّبَ وحُبِسَ وأُوذِىَ فى هذا السبيل إيذاءً شديدا .

ولقد أظهر الرشيدُ، وهو ولىّ عهد، من الجُرأة ومتانة الأخلاقِ والصراحة، ما هو حقيق بالإعجـاب . ولسنا نرى مندوحة من ذكر الرواية التى ذكرها محمد بن عمـر الرومىّ ، فهى تُعطينا صورةً دقيقةً لمـا نحن بسبيله، فقد حَدَّثَ عن أبيه قال : جلس موسى الهادى بعد ما ملك فى أول خلافته جلوسا خاصا، ودعا إبراهيمَ بن جعفر بن أبى جعفر وإبراهيمَ بن سلم ابن قتيبة والحرّانى فجلسوا عن يساره، ومعهم خادمٌ له أسودُ يقال له أسلَمُ ويُكْنَى أبا سليمانَ، وكان يَثِقُ به ويُقَدِّمه، فبينا هو كذلك، إذ دخل صالح صاحبُ المصلّى فقال : هارونُ بن المهدى؛ فقال : آئذن له ، فدخل فسلّم عليه وقبل يديه وجلس عن يمينه بعيدًا من ناحية؛ فأطرق موسى ينظر اليــه وأدمنَ ذلك ثم التفت اليه فقـال : يا هارون كأنى بك تحـدّث نفسَك بتمام الرؤيا، وتؤمل ما أنت منه بعيد ، ودون ذلك خرطُ القَتـادِ ، تؤمل الخلافةَ ! قال : فبرك هارون على ركبتيه وقال : يا موسى إنك إن تجبرتَ وُضِعْتَ ، وإن تواضعت رُفِعْتَ، وإن ظَلَمتَ خُتِلْتَ، وإنى لأرجو أن يُفضِىَ الأمرُ الىّ ، فأُنصِفُ مَنْ ظلمتَ ، وأصِلُ مَن قطعتَ، وأصير أولادَك أعلى من أولادى ، وأزوّجهم بناتى ، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدىّ . قال : فقال له موسى : ذلك الظن بك يا أبا جعفر! أُدنُ منى ، فدنا

منه فقبّل يديه ثم ذهب يعود الى مجلسه ؛ فقال له : لا والشيخ الجليل، والملك النبيل ، أعنى أباك المنصور، لا جلستَ إلّا معى ! وأجلسه فى صدر المجلس معه . ثم قال : ياحرّانىّ احمل الى أخى ألف ألف دينار، وإذا افتتح الخراجُ فاحمل اليه النصفَ منه وآعرِضْ عليه ما فى الخزائن من مالنا ، وما أخذ من أهل بيت اللعنة ، فيأخذ جميعَ ما أراد؛ قال : ففعل ذلك . ولما قام قال لصالح : أدنِ دابّته الى البساط .

قال عمرو الرومى : وكان هارون يأنس بى فقمت اليه فقلت : ياسيدى ما الرؤيا التى قال لك أمير المؤمنين؟ قال : قال المهدى : أُريتُ فى منامى كأنى دَفَعْتُ الى موسى قضيباً والى هارون قضيبا ، فأورَقَ من قضيب موسى أعلاه قليلًا ، فأما هارون فأورَقَ قضيبُه من أوّله الى آخره ، فدعا المهدىّ الحكمَ بن موسى الضمرى ، وكان يُكْنَى أبا سفيانَ ، فقال له : عبِّر هذه الرؤيا ؛ فقال : يملكان جميعا ، فأما موسى فتَقِلُّ أيامَه ، وأما هارون فيبلغ مَدَى ما عاش خليفةً وتكونُ أيامُه أحسنَ أيامٍ ، ودهرُه أحسنَ دهرٍ . قال ولم يلبَثْ إلا أياما يسيرَةً ثم اعتلَّ موسى ، ومات وكانت عِلّتُه ثلاثةَ أيام .

قال عمرو الرومىّ : أفضت الخلافةُ الى هارون فزوّج حَمْدُونةَ من جعفر بن موسى ، وفاطمةَ من إسماعيل بن موسى ، ووفّى بكل ما قال ، وكان دهرُه أحسنَ الدهور .

***

ولقد كان الرشيدُ مشغوفا بالفنون والعلوم ، وكان قصرُه الزاهى الزاهر مركزا لمختلف الثّقافَات . وأما وَلَعُه بالشعر وضروبِ الآداب وإجازتُه الشعراءَ بسخاء فالحديثُ فى ذلك طويل المناحى .

وكان الرشيد ، مع استمتاعه بمرافِهِ الحياة ومناعمها : تزوّج ستَّ زوجات وتسرى عشرين أمة ذكر أسماءهن الطبرىّ وأسماء أولاده منهنّ ، وكان ، مع تبرّج المدنية فى أيامه ، ومع إحيائه أنديةَ اللغة والآداب والمنادمة ، ورِعًا متأثرا بالمواعظ والزهديّات . وسنذكر لك طرفا من مواقفه الدالّة على خشيته لله ، وأدبه ، وورعه ، وتواضعه .

أما خشيته لله وأدبه ، فقد ذكر بعضهم أنه كان من صحابة الرشيد بالرّقّة بعد أن شخص من بغداد ، فخرج معه يوما الى الصيد ، فعرض له رجلٌ من النُّسّاك فقال : يا هارون اتق الله ، فقال لإبراهيم بن عثمان بن نهيك : خذ هذا الرجلَ اليك حتى أنصرف ، فلما رجع دعا بغدائه ، ثم أمر أن يُطعَمَ الرجلُ من خاصّ طعامه ، فلما أكل وشرب دعا به فقال : يا هذا أنصفني فى المخاطبة والمساءلة قال : ذاك أقل مما يجب لك ، قال : فأخبرني أنا شرٌّ وأخبث أم فرعون؟ قال : بل فرعون ، قال : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ وقال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ . قال : صدقتَ ، فأخبرني : فمن خير : أنت أم موسى بن عمران؟ قال : موسى كليمُ الله وصفيّه اصطفاه لنفسه وأئمنه على وحيه وكلّمه من بين خلقه ، قال : صدقتَ ، أفما تعلم أنه لما بعثه وأخاه الى فرعون قال لهما : ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ . — ذكر المفسرون أنه أمرهما أن يكنّياه — هذا وهو فى عتوّه وجبروته ، على ماقد علمتَ ، وأنتَ جئتَني ، وأنا بهذه الحالة التى تعلم أُؤدّى أكثر فرائض الله علىّ ، ولا أعبُدُ أحدا سواه ، أقف عند أكبر حدوده وأمره ونهيه ، فوعظتَني بأغلظ الألفاظ وأشنعها ، وأخشن الكلام وأفظعه ، فلا بأدب الله تأدّبتَ ، ولا بأخلاق الصالحين أخذتَ ، فما كان يؤمنك ، أن أسطو بك ، فاذا أنتَ قد عرضت نفسك لما كنتَ عنه غنياً ، قال الزاهد : أخطأتُ يا أمير المؤمنين وأنا أستغفرك ، قال : قد غفر لك الله ، وأمر له بعشرين ألف درهم ، فأبى أن يأخذها وقال : لاحاجة لى فى المال ، أنا رجل سائح ، فقال هَرثمةُ وخزره : تردّ على أمير المؤمنين يا جاهلُ صِلتَه ! فقال الرشيد : أمسكْ عنه ، ثم قال له : لم نُعطِكَ هذا المالَ لحاجتك اليه ، ولكن من عادتنا أنه لا يخاطبُ الخليفةَ أحدٌ ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصَلَه ومنَحه ، فاقبل من صِلتنا ماشئتَ وضَعْها حيثُ أحببتَ ، فأخذ من المال ألفَيْ درهم وفرّقها على الحُجّاب ومَنْ حضر الباب .

وأما ورعه فقد ذُكر ، أن أبا مريم المدنىّ كان مع الرشيد وكان مِضْحاكًا له محْدَاثًا فكها ، فكان الرشيد لايصبر عنه ولا يَمَلّ محادثته ، وكان ممن قد جمع الى ذلك المعرفة

بأخبار أهل الحجاز، وألقاب الأشراف ومكايد المجّان، فبلغ من خاصته بالرشيد أن بوّأه منزلًا في قصره، وخلطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلمانه، فجاء ذاتَ ليلة وهو نائم وقد طلع الفجرُ وقام الرشيدُ الى الصلاة فألفاه نائما، فكشف اللحافَ عن ظهره ثم قال له: كيف أصبحتَ؟ قال: يا هذا ما أصبحتُ بعدُ، اذهَبْ الى عملك، قال: ويلك! قم الى الصلاة، قال: هذا وقتُ صلاة أبي الجـارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي، فمضى وتركه نائمـا وتأهّبَ الرشـيد للصلاة، فجاء غلامُه فقال: أميرُ المؤمنين قد قام الى الصلاة، فقام فألقى عليه ثيابَه ومضى نحوه، فاذا الرشيدُ يقرأ في صلاة الصبح، فانتهى اليه وهو يقرأ: ﴿ومَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقال ابن أبي مريم: لا أدري والله! فما تمالكَ الرشيدُ أن ضحكَ في صلاته، ثم التفتَ اليه وهو كالمُغْضَب فقال: يابن أبي مريم في الصلاة أيضا! قال: يا هذا وما صنعتُ! قال: قطعتَ عليّ صلاتي، قال: والله ما فعلتُ، إنما سمعتُ منك كلاما غمني حين قلتَ: ﴿ومَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقلتُ: لا أدري والله، فعاد فضحك وقال: إياكَ والقرآنَ والدينَ ولك ما شئتَ بعدهما.

وأما تواضعُه فنترك الكلمةَ فيه لأبي معاويةَ الضرير، وهو من علماء دولته، فإنه يقول: أكلتُ مع الرشيد يومًا، فصبَّ على يديّ المـاء رجلٌ فقال: يا أبا معاوية أتدري مَنْ صَبَّ المـاء على يديك؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: أنا، فقلتُ: يا أمير المؤمنين أنتَ تفعل هذا إجلالًا للعلم، قال: نعم. فتصوّر الى أي حدٍّ بلغَ صنيعه!.

*
* *

نترك جانبا الآن التكلّمَ عن البرامكة ونكبةَ البرامكة الى فصلٍ مستقلٍّ. وربما كان من المصلحة الفنّية للكتاب أن يُفردَ لكل بحث من بحوثه بابٌ خاصّ، نستوعبُ فيـه ما يجدُر بنا استيعابُه من تلك النواحي الهامّة الشديدة الصلة بموضوعنا.

والآن نرى في عنقنا أن نتحدّثَ اليك في أمور أربعة قد تفيدك في عهد الرشيد عامة وربما أفادت في تفهم عصر المأمون خاصة وهي: (١) حقيقة السياسة الداخلية في عصر الرشيد؛ (٢) السياسة الخارجية؛ (٣) التكلم عن بيعة الرشيد للأمين والمأمون والقاسم؛

(٤) التكلم عن الدولة البرمكية والنكبة البرمكية . وسنتوخى الإيجازَ المقنعَ من غير إخلال بما لا يليق بنا الإخلالُ به ، ولا سيما باب بيعات الرشيد ، فإنا لا نرى مندوحةً من إثبات نصوصها لما لها من الخطر من حيث إنها أثر تاريخيّ خليقٌ بالدراسة والبحث .

١ — الســـياسة الداخليـــــة

أنتَ جِدُّ عالِمٍ بما كان من تطلّع الطالبيين للخلافة . وقد مرّ بك القولُ فى تحفّزاتهم وخروجهم وحروبهم للخليفة العباسى ، الجالس على العرش ، كلّما واتتهم الفُرَص وأمكنتهم الأحـــوال .

وأنتَ جِدُّ عالِم أن الخلفاء ما كانوا يركنونَ الى جانبهم نِفَاسًا وتباغضًا ، واصطدامًا للصلحة الخاصة وتعارُضًا . بَيْدَ أن الرشيد وهو الرءوم بسجيته ، المجبولُ على الخير بنزعته ، رأى فى أوّل عهده ، أن يَحدِبَ عليهم ويَستَلَّ سخيمةَ العداوةِ من قلوبهم ، فرفع الحجر عمن كان منهم ببغداد ، وسيّرهم الى المدينة ، ما عدا العباس بن الحسن بن عبد الله ، وكان أبوه مع ذلك فيمن أُشْخِصَ الى المدينة .

لم يُشَجع الطالبيونَ الرشيدَ على الاستمرار على خُطَّته تلك ، بل كان من بعضهم ما دفعه الى تغيير خُطّته السديدة ، إذ خرج عليه يحيى بن عبد الله أحد الناجين من وقعة « فخ » التى كانت فى أيام الهادى ، ونزح الى بلاد الديلم ، حيث قويت شوكتُه واشتدّ ساعدُه ، وهرعَ اليه الناس من الأمصار والكُوَرِ ، فاغتمّ الرشيدُ لذلك أيّما اغتمامٍ وتركَ ، فيما يقول الرواةُ ، شربَ النبيذ ، ثم نَدبَ الى قتاله الفضلَ بن يحيى بن خالد فى خمسين ألفا ، ومعه من القوّاد صناديدُهم ومن الجند شجعانُهم ، فسار سَمْتَ يحيى ، فكاتبه ورفق به واستماله وبسط أمله ، وكاتب صاحبَ الديلم وجعل له ألفَ ألفِ درهم على أن يُسَهِّلَ له خروجَ يحيى وحُمِلَتْ اليه ، فأجاب يحيى الى الصلح والخروج ، على أن يكتبَ له الرشيدُ أمانًا بخطه ، فبادر الفضـلُ برفع ذلك الى الرشيد ، فأثلج فؤادَه وعَظُمَ موقعه لديه ، وكتب أمانًا ليحيى بن عبد الله وأشهدَ عليه القضاةَ والفقهاءَ وجِلّةَ بنى هاشم ومشايخهم ، منهم عبد الصمد بن علىّ والعباس بن محمد ومحمد بن

ابراهيم ومن أشبههم ، ووجّهَ به مع جوائزَ وكراماتٍ وهدايا ، فوجه الفضلُ بذلك اليه فقدِم يحيى بن عبد الله عليه .

وفى رواية أخرى أن يحيى بن عبد الله لما رأى الرشـيدَ قد كتب الى صاحب الديلم يطلبه منه ويتهدّده ، وأنه قد اشتد فى مطاردته ، واقتفاء أثره ، طلبَ الأمان من الفضل ، فأمّنه وحمله الى الرشيد .

ويحدّثنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى حوادث سنة ست وسبعين ومائة : أنه لما ورد الفضلُ بن يحيى البرمكى بيحيى بن عبد الله العلوى بغدادَ ، لقيه الرشيد بكل ما أحبّ ، وأمر له بمالٍ كثيرٍ ، وأجرى عليه أرزاقًا سنيةً ، وأنزله منزلًا سريًّا بعد أن أقام فى منزل يحيى بن خالد أياما ، وكان يتولّى أمرَه بنفسه ولا يكِلُ ذلك الى غيره ، وأمر الناسَ بإتيانه بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه ، وبلغ الرشيدُ الغايةَ فى إكرام الفضلِ ، وفى ذلك يقول مروانُ ابن أبى حفصة :

ظَفِرْتَ فلا شَلَّتْ يدٌ برمكيةٌ * رَتَقْتَ بها الفتقَ الذى بين هاشِم
على حينِ أعيا الراتقينَ التئامُه * فكفّوا وقالوا ليس بالمتـلائِم
فأصبحتَ قد فازَتْ يداكَ بخُطّةٍ * من المجد باقٍ ذكرُها فى المواسِم
وما زال قِدْحُ الملكِ يخرُجُ فائزا * لكم كلّما ضُمَّتْ قِداحُ المُساهِم

ونوجه النظرَ هنا الى ظاهرة فى شعر مروان وأبى ثمامة الخطيب الذى أنشدَ فى هـذا المعنى أبياتا له يُستَدلُّ منها على اغتباط الشاعر ، وجمهرة الناس طبعاً ، بالوفاق بين العلويين والعباسيين والإشادة بذلك ، مفخرةً للعاملين على رَتقِ الفتق والتئام الصَّـدع . ولكن واأسفاه ! فإن للوجهة النفعية خطرَها بين الملوك و بين السّعاة بالنميمة ، ولها أثرها السيء فى إلصاق تُهَمٍ بالأبرياء ، ولها مَغَبّتُها الضارة فى بذر بذور الكراهيـة والبغضاء ، بين الملوك والزعمـاء .

وقد بينا لك أن الأمان الذى كتبه الرشـيد ليحيى بن عبد الله قد أشهد عليه الفقهاءَ والقضاةَ وزعماءَ الشّعب . وقد يكون من المفيد فى تصوير ناحية من نواحى العصر أن نذكر

لك هنا نصيب هـذا الأمان وحظه من بعض الفقهاء ، فى الفُتيا بنقضـه وآخرين بالوفاء له . ولندع لأبى خطاب أحد المعاصرين الكلمةَ قال : إن جعفرَ بن خالد حدّثه ليلةً وهو فى سَمَره قال : دعا الرشيدُ اليومَ يحيى بن عبد الله بن حسن ، وقد حضره أبو البَخْتَرِىّ القاضى ، ومحمـد بن الحسن الفقيـه صاحب أبى يوسف ، وأحضر الأمان الذى كان أعطاه يحيى ، فقال لمحمد بن الحسن : ما تقول فى هـذا الأمانِ أصحيح هو ؟ قال : هو صحيح ؛ فحاجّه فى ذلك الرشـيدُ ؛ فقال له محمـدُ بن الحسن : ما تصنع بالأمان لو كان محاربا ثم ولى كان آمنـا ! فاحتملها الرشـيدُ على محمد بن الحسن ؛ ثم سأل أبا البخترىّ أن ينظرَ فى الأمان ؛ فقال أبو البخترىّ : هذا الأمان مُنتقَضٌ من وجه كذا وكذا ! فقال الرشـيدُ : أنتَ قاضى القضاةِ وأنتَ أعلمُ بذلك ! ومزّقَ الأمانَ وتفل فيه أبو البخترىّ ! !

ولك أن تُعَلِّق ما شئت على تصرُّف أبى البَخترِىّ ، الفقيه الدينىّ ، الذى أصبح بفتياه تلك قاضىَ القضاة ، ولك أن تستنبطَ ما أحببت فى موقفه ومرونته حين مزّقَ الأمانَ ، ولم تزد قيمته فى نظره على "قصاصات الورق" حتى تفل فيه . ولك أن تقول ما أردتَ فى موقف زميله محمـد بن الحسن الفقيه صاحب أبى يوسف وعدم ترخصـه أو جموده . أمّا نحن فإنّا لا نعدُو خُطّتنَا التى رسمناها لأنفسنا ، فى مثل هذه المواقف ، من التزام الحيدةِ التـامة وعدم الزج بأنفسنا فى المزالق الخطرة ، والاكتفاء من ناحيتنا بتقييد الحوادث لا أكثر ولا أقل .

ولقد سعى بالنميمة بين الرشيد ويحيى بن عبد الله السُعاةُ ، وكلّما رق الرشيدُ له أثاروا فى نفسه السخيمةَ عليه ، فقد ذكروا أن يحيى بن عبد الله قال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إن لنا قرابةً ورحمًا ولسنا بتُرك ولا دَيْلَم ، يا أمير المؤمنين ، إنا وأنتم أهلُ بيتٍ واحدٍ ، فأذكرك الله قرابتَنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عَلَامَ تحبِسُنى وتُعذّبنى ! قال : فَرَقَّ له هارون ، ولكنّ الزبيرىّ — وكان حاكما للمدينة أيامَ الرشيد ، وهو يعد من الأحزاب المعادية للعلويين واشتهر بشدّة البغض لهم ، وكان حاضرا مجلسَهما — أقبل على الرشيد فقال : «يا أمير المؤمنين لا يغرّك كلام هذا ، فإنه شاقٌ عاصٍ ، وإنما هذا منه مكر وخُبثٌ ، إنّ هذا أفسدَ علينا مدينتَنا ، وأظهر

فيها العصيانَ ؛ قال : فأقبل يحيى عليه ، فوالله ما استأذن أميرَ المؤمنين فى الكلام حتى قال : أفسد عليكم مدينتكم ! ومن أنتم عافاكم الله ! قال الزبيرىّ : هذا كلامه قدّامك ، فكيف إذا غاب عنك ! يقول : ومن أنتم استخفافا بنا ؛ قال : فأقبل عليه يحيى فقال : نعم ومن أنتم عافاكم الله ! المدينةُ كانت مُهَاجَر عبد الله بن الزبير أم مُهَاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ومن أنت حتى تقول : أفسد علينا مدينتنا ! وإنما بآبائى وآباء هـذا هاجر أبوك الى المدينة . ثم قال : «يا أمير المؤمنين إنما الناس نحن وأنتم ، فان خرجنا عليكم قلنا : أكلتم وأجعتمونا ولبستم وأعريتمونا وركبتم وأرجلتمونا ، فوجدنا بذلك مقالًا فيكم ، ووجدتم بخروجنا عليكم مقالًا فينا ، فتكافأ فيه القولُ ، ويعودُ أمير المؤمنين على أهله بالفضل ، يا أمير المؤمنين فَلِمَ يجترئُ هذا وضُرَباؤه على أهل بيتك يسعى بهم عندك ! إنه والله ما يسعى بنا اليك نصيحةً منه لك ، وإنما يأتينا فيسعى بك عندنا عن غير نصيحةٍ منه لنا ، إنما يريد أن يباعد بيننا ، ويَشتفيَ من بعضٍ ببعضٍ ، والله يا أمير المؤمنين لقد جاء الىّ هـذا حين قُتِلَ أخى محمدُ بن عبد الله فقال : لعن اللهُ قاتلَه ! وأنشدَنى فيه مرثيةً قالها نحوا من عشرين بيتا ، وقال : إن تحركتَ فى هـذا الأمر فأنا أول مَنْ يبايعك ، وما يمنعكَ أن تلحَقَ بالبصرة فأيدينا مع يدكَ ! فتغـيَّر وجهُ الزبيرىّ وآسودّ ؛ فأقبـل عليه هارون فقـال : « أى شيء يقول هذا؟ » قال : كاذب يا أمير المؤمنين ما كان مما قال حرف ! قال : فأقبل الرشيدُ على يحيى بن عبـد الله وقال : تَروِى القصيدةَ التى رثاه بها؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين أصلحك الله ! وأنشدها إياه ؛ فقال الزبيرىّ : والله يا أمير المؤمنين الذى لا إله إلا هو — حتى أتى على آخر اليمين الغَمُوس — ما كان ممـا قال شيء ، ولقد يقول علىّ ما لم أقل . قال : فأقبل الرشيدُ على يحيى بن عبد الله فقال : قد حلف فهل من بينةٍ سمعوا هذه المرثيةَ منه؟ قال ، لا يا أمير المؤمنين ، ولكن أستحلفه بمـا أريد ؛ قال فاستحلفه ؛ قال : فأقبل على الزبيرىّ فقال : قل أنا برئٌ من حول الله وقوّته موكل الى حولى وقوّتى إن كنتُ قلتُه ؛ فقال الزبيرىّ : يا أمير المؤمنين أىّ شيء هذا من الحلف ! أحلف له بالله الذى لا اله إلا هو ويستحلفنى

بشئ لا أدرى ما هو ! قال يحيى بن عبد الله : يا أمير المؤمنين إنـ كان صادقًا فما عليه أن يحلف بما أستحلفه به ! فقال له هارون : إحلف له ويلك ! قال : فقال : أنا برىء من حول الله وقوّته موكل الى حولى وقوّتى . ويقول الطـبرى : إنه اضطربَ منها وأرْعدَ ، فقـال : ياأمير المؤمنين ما أدرى أىّ شىء هـذه اليمين التى يستحلفنى بهـا وقد حلفتُ له بالله العظيم أعظم الأشياء . قال : فقال هارون له : لتحلفنّ له أو لأصدقنّ عليك ولأعاقبنك ! فقال : أنا برىء من حول الله وقوّته موكل الى حولى وقوّتى إن كنتُ قلتُه ، قال : فخرج من عند هارون فضربه الله بالفالج فمات من ساعته .

وقد روى المؤرّخونـ العرب فى صـدد موت ذلك الزبيرىّ روايات لا نرى بأسا بإيرادها ، فقد ذكر الفخرى أنه ما انقضى النهـار حتى مات ، فحملوه الى القبر وحطّوه فيه وأرادوا أن يطمّوا القبر بالتراب فكانوا كلما جعلوا الترابَ فيـه ذهب الترابُ ولا يَنْطَمُّ القبرُ فعلموا أنها آية سماويةٌ ، فسقّفوا القـبرَ وراحوا . والى ذلك أشار أبو فراس بن حمـدان فى ميميته اذ يقول :

ياجاهـدًا فى مَسَاويهـم يُكَتِّمُها * غدرُ الرشـيدِ بيحيى كيف ينكتِمُ
ذاق الزبيرىُّ غِبَّ الحِنْثِ وانكشفتْ * عَنِ ٱبنِ فاطمةَ الأقـوالُ والتُّهَـمُ

قالوا : ومع ظهور مثل هذه الآية العظيمة قُتِل يحيى فى الحبس شرَّ قتلةٍ . على أن هنالك رأيا آخرَ فى موت يحيى بن عبد الله ، وهو أن الموكّل به فى الحبس منعه الأكلَ فمات .

ولننظُرْ ما يرويه لنا مُعَاصِرٌ وهو عباس بن الحسن عما كانْ من الرشيد بعد ما أصاب الزبيرىّ ممـا أجمع رواةُ العرب على إصابته به إثر كَذِبه فى قَسَمِه ، فقـد قال : دخلنا على الرشيـد ، فلما نظر إلينا قال يا عباس بن الحسن أما علمت بالخبر ؟ فقال أبى : بلى يا أمير المؤمنين ، فالحمدلله الذى صَرَعه بلسانه ، ووقاكَ اللهُ ياأمير المؤمنين قطعَ أرحامك ، فقال الرشيد : الرجل والله سليم على ما يحبّ ، ورفع الستر فدخل يحيى وأنا والله أتبين الارتياعَ فى الشيخ ، فلمـا نظر اليه الرشيد صاح به : ياأبا محمد ، أما علمتَ أن الله قد قتل عدوّك الجبار ! قال : الحمد لله

الذى أبان لأمير المؤمنين كذب عدوّه علىّ ، وأعفاه من قطع رحمه ، والله يا أمير المؤمنين لو كان هذا الأمر مما أطلبُه وأَصْلُحُ له وأُريده — فكيف ولستُ بطالبٍ له ولا مريده — ولم يكن الظفرُ به إلا بالاستعانة به ، ثم لم يبق فى الدنيا غيرى وغيرُك وغيرُه ، ما تقويت به عليك أبدا ، وهذا والله من إحدى آفاتك — وأشار الى الفضل بن الربيع — والله لو وهبتَ له عشرة آلاف درهم ثم طمع معى فى زيادة ثمرة لباعكَ بها ؛ فقال : أما العباسىّ فلا تَقُل له إلا خيرا وأمر له فى هذا اليوم بمائة ألف دينار ، وكان حبسه بعضَ يوم . قال أبو يونس : كان هارون حبسه ثلاثَ حبسات مع هذه الـ[illegible]ـسة وأوصل اليه أربعمائة ألف دينار .

*
*

وبعد ، فقد عُنِينا بإثبات الروايات فيما كان من سيرة هـذا الخليفة العباسىّ مع عَلَوىّ من رجَالات عصره لنتبيّن نفسيَّةَ المعاصرين والولاة ، وما انطوتْ عليه صدورُهم من حبّ لآل علىّ وتوقير لأشخاصهم ، ونعتهم بالكرامات والمعجزات . واذا اعتبرت أن هذا كله قد حصل فى عهد خليفةٍ عظيم بسخائه وفواضله ، محبوبٍ لمآثره ونوافله ، قوىٍّ فى مملكته ، كثير الأنصار فى شيعته ، أيقنتَ أن للحزب العلوىّ أنصارًا يعتَـدُّ بهم ، ومكانةً فى النفوس يُحْفَلُ بها . وهذا معقول جدّا ، وإنك لتستسيغه من نفسك وفهمك اذا ذكرتَ أن أنصار هذه الدولة هم من الفرس . وأنت تعلم ما كان بين الفرس والعرب عامة وبين الموالى وبنى أمية خاصة من عداء وشِجارٍ ، ومقت وكراهيةٍ ، وأنت تعلم أن الدعوةَ فى بداية أمرها كانت للعلويين دون غيرهم ، وأن القائمين بها كانوا من الفرس ، فمن المعقول أن تُشرَبَ قلوبُهم حُبَّ هذه الدعوةِ وأفرادِ هذه الدعوة ، والتغنّى بمذهب هذه الدعوة ، منذ الساعة الأولى ، ولا يزيد مرورُ الزمان كلّ دعوةٍ أو مذهبٍ حزبىٍّ إلا قوةً وانتشارًا وكثرةَ أنصارٍ ورسوخَ عقيدةٍ . فلنلاحظ ذلك جيدا ، فإنه قد يفيدنا فى تعليل بعض أفعال البرامكة .

ولنرجع الى التحدّث معك باختصارٍ عن بقية الحوادث الداخلية فى عصر الرشيد ، ولْنقَسّم القول الى ناحيتين : أولاهما ثورات ناتجة عن العصبية ، وثانيتهما فتوقٌ وثوراتٌ فى شتّى ولاياته .

أما الحوادث العصبية بين النزارية واليمنية وغيرهما ، فإن ٱبنَ جرير الطبريّ يحدّثنا أن قد وقع هياج في الشأم سنة ست وسبعين ومائة بين النزارية واليمنية ، ورأسُ النزارية يومئذ أبُو الهيذام ، فولى الرشـيدُ موسَى بن يحيى بن خالد ، وضم اليـه القوّادَ والأجنادَ ومشايخَ الكتّاب ، فذهب اليهم وأصلح بينهم حتى سكنتِ الفتنة .

وأما الثوراتُ الأُخَر فإنا نجد في أخبار سـنة ثمان وسبعين ومائة ، وسنة ثمانين ومائة ، وسنة سبع وثمـانين ومائة ، ما يدلّ على حصول فِتَنٍ وحروب من جَرَّاء العصبية أيضا .

ولقد حصلَتْ حروبٌ في خُراسانَ والطالقانِ وحُورانَ والجزيرة واليمن ومصر وأرمينية وحمص لرافع بن ليث ، وكان النصرُ في أكثرها حليفَ جيوش الرشيد وولاته .

على أن جُلَّ هذه الثورات ناجمٌ في الواقع عن ٱتساع رقعة المملكة ، وسُرعة تبديل الولاة ، وسـوء تصرّف بعض هؤلاء الولاة ، ولا سيما في جباية الأموال ، ومحاولة إرضاء الخليفـة من جهة ، ومطامعهم الخاصة من جهة أخرى .

وإنا لنجتزئ بما قدّمناه لك عن السياسة الداخلية أيام الرشيد ونتقدّم الآن الى الكلام عن السياسة الخارجية .

٢ السياسة الخارجية :

أما ملخصُ السياسة الخارجية أيام الرشيد فيمكن تقسيمُه الى نقطتين : الأولى علاقته بالروم ، والثانية علاقته بالأندلس .

فأما علاقته بالروم فقد أشارت دائرةُ المعارف الإسلامية ، في مبحثها عن الرشيد ، الى أن حروبا بلغت نهاية الشدّة قد وقعت بين الرشـيد والبزنطيين . وقالت : إنّ ولاة الرشيد عملوا منذ بداية عهده على تقوية الحصون التي على الحدود ، وأنهم كانوا يقومون بغزوات في البقاع المعادية من غير أن يربحوا غنائم مستديمة ، وأن الرشيد غزاهم بنفسه سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ — ٧٩٨م) ، بيد أنه عجّل بعودته ، ثم شبتْ حربٌ في السنة التالية كالعادة ، وإذ كانت الأمبراطورة إيرين كانت تعانى متاعبَ داخلية فقد عجلت بالصلح على أن تدفع الجزية .

على أن هذا الصلح لم يدم إلا ريثما تبوأ الأمبراطور نيقفور أريكته سنة ١٨٦ ﻫ (٨٠٢م) فقد بعث الى الخليفة بكتاب مُهين طلب فيه أن يُعيدَ اليه الجزيةَ التى أُدِّيتْ من قبل ، فلم يَحْفِل الخليفةُ بشروط الصلح فعادت الحروبُ .

وفى سـنة ١٩٠ ﻫ (٨٠٦ م) اسـتولى هارون على "هِرَقْلَة" واضـطر الأمبراطور الى أن يدفعَ جزيةً جديدةً ، عن نفسه وعن أسرته ، فوق الجـزية العامة . وفى السنة التـالية هزمَ البزنطيون يزيدَ بن مقلد ، وكانت أغلاطُ هرثمةَ معهم مماثلةً لأغلاط « ابن مقلد » .

ويقول بعض المؤرخين الغربيين : إن هارون كان على علاقة حسنة بشَرْلمـان ، وقد ذكر أن كليهما كان يبعث سفيرا عند الآخر . على أنه لم يرد ذكر لذلك فى المراجع العربية ، وإنه لَيُشَكُّ كثيرا فى صحة هذه الرواية . وأما علاقته بالأُمَويينَ فى الأندلس ، فلم يكن مرجوّا أن تكون علاقة صفاء ومودّة ، فقد كان العباسيون يعدّونهم خارجين على سلطانهم ، ولا يَرَوْن فى دولتهم نظيرا يستحق أن يعيش وإياهم فى سلام وهدوء .

وقد ظهرت أيام الرشـيد دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى ، وذلك أن إدريس بن عبد الله كان ممن هرب من وقعة « فخّ » وهو أخو يحيى بن عبد الله ، فسار الى مصر وشخص منها الى بلاد المغرب الأقصى ، حيث التفّ حوله برابرةُ أورُبّةَ ، فأنشأ هنالك أوّلَ خلافةٍ للعلويين وهى دولة الأدارسة .

وظهرت كذلك أيام الرشـيد دولةُ الأغالبة فى إفريقية ، فإنه ولّاها إبراهيمَ بنَ الأغلب التميمىّ ، ليجعـل من مملكته حاجزا منيعا بين الخلافةِ العباسيةِ والأدارسـةِ الذين بالمغرب الأقصى ، وكذلك بينه وبين الأندلسيين ، وكانت توليته سنة أربع وثمانين ومائة ، فعظُمَ أمرُه ، وصار كملك مستقلّ ، إلا أنه كان يخطب للرشيد .

٣ ــ التحكم عن البيعـــة

والآن نتحدث اليك عن أكبر أغلاط الرشيد، وأبعدها أثرا فى حياته وفى الدولة العباسية، بل فى حياة المسلمين السياسية بوجه عام، وهى بيعته بولاية العهد الثلاثية لأبنائه الأمين والمأمون والقاسم .

وقد قدمنا لك فى الكتاب الأول رأينا فى هذا النوع من احتياط الخلفاء لأنفسهم ولأبنائهم ، وما كان له من الأثر السيئ فى حياة القصور خاصةً وفى السياسة عامةً ، ولا سيما البيعة بولاية العهد لأكثرَ من واحدٍ ، فقد كان ذلك ينشئُ بطانات مختلفة ، ويُكَوِّنُ أحزابًا لا تلتف حول مبدإٍ أو فكرةٍ وإنما تلتف حولَ الأشخاص والمنافع التى تُنْتَظَرُ منهم .

وهذه البطاناتُ والأحزاب ، تتنافس فى القصر ، فتُفْسِدُ على الخليفة والأمراء حياتَهم الخاصَّة ، وتَقْطَعُ ما بينهم من صِلَات كان يجب أن تُرْعَى حرمتُها . كما أنها تتنافس خارج القصر ، فتُفْسِدُ على الدولة سياستَها العامّة فتصرِفُها عن مرافقها الداخلية ، كما تَصرِفُها عن الاحتياط لحماية الثغور والاحتفاظ بمهابتها الخارجية .

ومع أن هذا النوع من البيعة بولاية العهد الثنائية أو الثلاثية سُنَّةٌ أُمويّةٌ ، آتت ثمرها الخبيث ، وجرّتْ على الأمويين أنواعَ الوبال فمزّقتهم وأضاعَتْ ملكهم ، كما قدّمنا ، وكان المعقول أن يستفيد العباسيون من هذا الدّرس ، ويُعرضوا عن سُنَّةٍ منكَرةٍ فى نفسها ، وقد سَنَّها أعداؤهم السياسيون ـــ مع هذا كله تورّط الرشيدُ فيما تورّط فيه عبدُ الملك ، وخلفاء عبد الملك ، وتعرَّضتِ الدولةُ العباسيةُ لِمَا تعرّضت له الدولةُ الاموية ، بل كان خطرُ هذه السُّنَّةِ على العرب أيام بنى العباس أشدَّ منه أيامَ بنى أمية . ذلك أن سقوطَ الدولة الأموية قد نقلَ السلطانَ من أُسْرةٍ الى أُسْرَةٍ واحتُفِظَ به لقريش . فأما أثر هذه السنة أيام بنى العباس فهو نقلُ الســلطان الفعلىّ من العرب الى الفرس ثم الى التُّرك ، وجعــلُ الخلافة نوعا من العبث والسخرية فى أيدى المتغلبين من القوّاد والخدم والرقيق .

ومهما نلتمس الأسباب لتورّط الرشيد فى هذه السُّنة التى كان يجب أن يتجنبها فلن نستطيعَ أن نُهمِلَ سببين أساسيين : أحدهما تأثر القصر العباسىّ بسننَ الملك الفارسىّ القديم وسياسته . والآخر تأثر الخلفاء بما كان للنساء، حرائرهن وإمائهن، من سلطان ونفوذ. فلولا هذان السببان لما تورّط الرشيدُ فى هذه السنَّة التى تورّط فيها أبوه المهدىّ، وذاق هو غيرَ قليلٍ من ثمرها .

ستقول : ولكن الرشيد احتاط، فأخذ على أبنائه العهودَ والمواثيقَ أن يفى بعضُهم لبعض، ويبَرّ بعضُهم ببعضٍ . ولكن ما قيمةُ هذا الاحتياط أمام سَطوة الملك وسلطانه، ومطامع الإنسان التى لا حدّ لها؟ وما قيمةُ هذه العهودِ والمواثيق وقد أثبت التاريخُ فى جلّ مراحله أنها لا تُعتبر عهودا ومواثيقَ إلا عند الضعفاء من الأمم والأفراد، أما الأقوياء وذوى السلطان والبطش فهى عندهم ليست بعهودٍ ولا مواثيق، إنما هى «قُصَاصَاتُ وَرَقٍ» لا أكثر ولا أقلّ ؛ وقد يُفْتِى بأنها « قصاصات ورق » أولئك الذين وكّدوها وشهدوا على صحتها، وتضامنوا فى البرّ بها والوفاء لأصحابها !

وقد كان الخلفاء قبل الرشيد يحتاطون لكل بيعة فيها أخذٌ للعهود والمواثيق . ومع ذلك لم ينفع هذا الاحتياطُ أيامَ بنى أمية ولا أيامَ بنى العباس .

وإليك الآن أحاديثَ المؤرّخين من العرب وغير العرب فى هذا الموضوع :

لما لاحظ الفضلُ بن يحيى سنة خمس وسبعين ومائة أنّ جماعةً من بنى العباس قد مدّوا أعناقَهم الى الخلافة بعد الرشيد لأنه لم يكن له ولىُّ عهد، أجمعَ على البيعة لمحمد، ولما صار الفضل بن يحيى الى خراسان فرّق فى أهلها أموالا وأعطى الجندَ أعطيات متتابعات، ثم أظهر البيعةَ لمحمد بن الرشيد، فبايع الناسُ له وسماه الأمينَ . وفى ذلك يقول النمرىّ :

أمسى بمروٍ على التوفيق قد صَفَقَتْ * على يد الفضل أيدى العُجْم والعَرب
ببيعةٍ لولىّ العهد أحكَمَها * بالنصح منه وبالإشفاق والحَدَب
قد وَكّد الفضلُ عَقْدًا لا انتقاضَ له * لمصطفًى من بنى العباس مُنتخَبِ

ولمـا تناهى الخبر الى الرشيد بذلك وبايع له أهلُ المشرق بايع، وكتب الى الآفاق فبُويع له فى جميع الأمصار . فقال أبانُ اللاحقىّ فى ذلك :

عَزَمْتَ أميرَ المؤمنين على الرشد * برأى هـدًى فالحمد لله ذى الحمد

ويقول لنا اليعقوبىّ فى هـذا الصدد : إن هارون بايع لابنـه محمد بالعهد من بعـده سنة ١٧٥ هـ ومحمد آبن خمس سنين، وأعطى الناس على ذلك عطايا جَمَّةً، وأخرج محمد الى القوّاد، فوقف على وسادة فحمدَ الله وصلّى على نبيـه، وقام عبدُ الصمد بن على، فقال : أيها الناسُ لا يغرنكم صِـغَرُ السنّ، فإنها الشجرةُ المباركة أصلُهـا ثابت وفرعُها فى السماء . وجعل الرجل من بنى هاشم يقول فى ذلك حتى انقضى المجلس، ونُثِرَتْ عليهم الدراهمُ والدنانيرُ وفأرُ المسك وبيضُ العنبر .

ويقول لنا الطبرىّ فى حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة : أن فيها كان انصرافُ الرشيد من مكة، ومسيرهُ الى الرَّقَّة، وبيعته بها لآبنه عبد الله المأمون بعد أبنه محمد الأمين، وأخذ البيعةَ له على الجند بذلك بالرقة، وضمّه إياه الى جعفر بن يحيى وأنه قد بويع له بمدينة السلام حين قدمها، وولاه أبوه خراسانَ وما يتصـل بها الى همـذان، وسماه المأمونَ . وقد قال فى ذلك سَلْمُ بنُ عمرو الخاسرُ :

بايع هارونُ إمامُ الهـدى * لِذِى الحجا والخُلُق الفاضل
المخلف المتلف أمـوالَه * والضامن الأثقال للحـامل
والعـالِم الناقد فى عِلمـه * والحاكم الفاضـل والعادل
والراتق الفاتق حِلفَ الهدى * والقـائل الصادق والفاعل
لخير عباس اذا حصّـلوا * والمُفضِل المجدى على العائل
أبرّهم بـرّا وأولاهـم * بالعُرف عند الحَدث النازل
لمشـبِه المنصور فى مُلكه * اذا تدجّتْ ظلمةُ الباطـل
فتم بالمأمون نورُ الهـدى * وانكشف الجهلُ عن الجاهل

وفى سنة تسع وثمانين ومائة بايع الرشيد لابنه القاسم بعد المأمون ، وجعل أمر القاسم فى خلعه و إقراره الى عبد الله إن أفضت الخلافةُ اليه .

وأراد الرشيدُ أن يُوثِّقَ الأمر بين بنيه فى ولاية العهد، حتى يَسُدَّ دونهم بابَ الفتنة ، فرأى أن خير وسيلة لذلك هى ما يحدّثنا عنها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى حوادث سنة ست وثمانين ومائة إذ يقول : حج هارون ومحمـد وعبد الله معه وقوّاده ووزراؤه وقضاتُه فى سنة ١٨٦هـ ، وخلف بالرّقة إبراهيمَ بن عثمان بن نهيك العكى على الحرم والخزائن والأموال والعسكر ، وأشخص القاسمَ ابنه الى مَنْبِج ، فأنزله إياها بمن ضَمَّ اليه من القوّاد والجند ، فلما قضى مناسكه ، كتب لعبد الله المأمون ابنـه كتابين جهدَ الفقهاءُ والقضاةُ آراءهم فيهما : أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بمـا فيه من تسليم ما وَلِىَ عبـدُ الله من الأعمال وصيرَ اليه من الضِّياع والغلّات والجواهر والأموال . والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم ، وجعل الكتابين فى البيت الحرام ، و بعد أخذه البيعةَ على محمد وإشهاده عليه بها اللهَ وملائكته ومن كان فى الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقوّاده و وزرائه وكتّابه وغيرهم ، وكانت الشهادةُ بالبيعة والكتاب فى البيت الحرام ، وتقـدّم الى الحجبة فى حفظهما ومنع مَنْ أراد إخراجَهما والذهابَ بهما ؛ فذكر عبد الله بن محمد ومحمـد بن يزيد التميمىّ وإبراهيم الحجبىّ : أن الرشيد حضر وأحضر وجوهَ بنى هاشم والقـوّاد والفقهاء وأُدْخِلُوا البيتَ الحرامَ وأمَر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد وأشهدَ عليهـما جماعةَ مَنْ حَضَر ، ثم رأى أن يُعلَّقَ الكتابُ فى الكعبة . فلما رُفع ليُعلَّقَ وَقع فقيل : إن هذا الأمر سريعٌ انتقاضُه قليل تمامه . وقد أثبتنا الكتابين، لعظيم خطرهما التاريخىّ ، فى باب المنثور فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

و بعـد ، فإن لعصر الرشيد مكانتَه وقدْره ، فقد ازدهرت فيه الحضارةُ الإسلاميةُ أيما آزدهار ، وظهرت فيه آثارُ تحوّل المدنية فى العصور التى سبقته ، كما أثّر هو فى العصور التى تلته . ولقد صدق صاحب «النجوم الزاهرة» فيما رواه عن أبى على صالح بن محمد الحافظ ،

قال : «اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره : وزراؤه البرامكةُ، وقاضيه أبو يوسفَ، وشاعرُه مروانُ بن أبى حفصة، ونديمُه العباسُ بن محمـد عم أبيه، وحاجبُه الفضلُ بن الرَّبيع أنبهُ الناس وأعظمُهم، ومُغَنّيه إبراهيم الموصلىّ، وزوجتُه زبيدةُ بنتُ عمّه جعفر»

وإنا لنختم مبحثنا فى حياة الرشيد وعصره، بكلمة تبين وجهةَ نظر مؤرّخ كبير المكانة فى الشرقيات وهو الأستاذ «ميور»، ونتقدّم بملاحظة واحدة وهى شدّته على هارونَ الرشيد. وقد يكون الذى دفعه الى ذلك تأثُّره بمرجعه العظيم الذى وضعه الأستاذ «ويل». وقد اعترف «ميور» نفسُه بأنّ «ويل» كان بالغًا فى قسوته على هارون مبلغا عظيما على نقيض ما عُهد فيه من الحَيدة والهدوء فى أحكامه، فقد اعتبره من الظلم فى الذِّروة، ولم يكن الرشيد من الرداءة بمبلغ من سبقه ومن أتى بعده. ويظهر أن الفاجعةَ البرمكيةَ هى التى أعطته هذه الأسبقيةَ التى لا يُغَبَطُ عليها فى حكاية الشرق وتاريخه.

وسنرى مع محاولة الأستاذ «ميور» الردَّ على الأستاذ «ويل» فى حاشية كتابه، أن كتابته عن الرشيد، مع حظها العظيم من المتانة والإنصاف، لا تزال عليها غِلالةٌ من صرامة «ويل» وقواذع نقده.

نترجم لك رأى «ميور»، لأنه يكاد يكونُ صورةً صحيحة للرأى العلمىّ الأخير فى الرشيد، فهو لا يعدو الرأىَ الذى أبداه الأستاذ ك. ف. «زتوستين» فى العدد الثانى والعشرين من دائرة المعارف الإسلامية. ونحن جدُّ عالمينَ بخطر المراجع العديدة التى استند عليها «زتوستين» فى رأيه فى الرشيد. فلننقل لك الآن كلمـة «ميور» فهى مثلُ الأخرى إن لم تكن أوسعَ وأبلغَ.

قال الأستاذ «ميور» فى كتابه عن الخلافة : "إن مكانةَ هارون الرشيد وآبنه المأمون فى التاريخ لهى أسمى مكانةٍ بلغها الخلفاء العباسيون، وإن هارون لَقمينٌ بأن يكون فى الذِّروة مع الخِيرةِ من أفاضل ملوك أُسرة بنى أمية، لولا شائبةُ القساوة المنطوية على الختل التى وصَمَتْ سيرته جمعاء.

لقد كان الرشـيدُ فى قصوره محوطًا بضروب الرفاهيـةِ والرَّغد، وكانَ مَلكًا فى مكارمه وجُوده، ومع ذلك قد ترك فى أقبـائه خزائنَ عامرةً بلغت تسعمائة مليون ، جُمعت بوسائل العَسف وعدم التدقيق . واذا استثنينا ما ذكرناه فإن إدارته كانت عادلةً موفَّقةً .

ولما كان الرشيد قد اعتاد منذ مَيْعَةِ شبابه الحياةَ الحربيَّـةَ فإنه كثيرًا ما شاطر جندَه مَيدان القتال . وقد كان من جَرَّاء انتصاراته العديدة ، لا سيما على اليونان (الروم) ، أن طُبِعَ عصرُه بطابعَ المجدِ والصِّيتِ .

ولم يُظْهِرْ خليفةٌ، من قبل أو بعد، ما أظهره الرشيد من الهمة والنشاط فى مختلف حركاته، سواء أ كانت فى سبيل الحج أم الإدارة أم الحرب .

على أن أصـل شهرةِ هذا الخليفةِ ، ومصدرَ صيته ، راجعٌ الى أن حكمَه عجَّلَ بدخول عصر الآداب ، فقد كان قصرُه المثابةَ التى يُهْرَع اليها الحكماءُ والعلماءُ من أنحاء العالم، وكانت سُوقُ البلاغةِ والشعر والتاريخ والفقهِ والطب والموسيقى والفنون نافقةً، إذ يقابلها الخليفةُ مقابلةَ من فى سجيته النبلُ والكرم ، كل ذلك مما آتى أُكُلَه وثمرَه الناضجَ فى العصور الآتيـة .

لقد كان الرشيد يُجيز العلماءَ فى كل فنٍّ جائزاتٍ ملكيةً نبيلةً ، على أن الشعراء كانوا موضعَ كرمه الخاص . وهاك مثلًا ما أجاز به مروانَ بن أبى حفصة حين مدحه بمدحته فيه، فرفده الرشـيدُ بكيس فيه خمسة آلاف دينار وكساه خلعتَـه تشريفًا له ، وأمر له بعشرة من رقيق الروم، وحمله على برْذَونٍ من خاصّ مراكبه . اهـ

٤ — الدولة البرمكية والنكبة البرمكية

صدق الفخرى إذ يقول : إنّ دولةَ البرامكة كانت غُرَّةً فى جبهةِ الدهر ، وتاجًا على مَفْرِق العصر، ضُرِبَتْ بمكارمها الأمثالُ، وشُدَّتْ اليها الرحالُ، ونيطَتْ بها الآمالُ، وبذلَتْ

لها الدنيـا أفلاذَ أكبادها، ومنحتْها أوفرَ إسعادها، فكان يحيي وبنـوه كالنجوم زاهرةً، والبحور زاخرةً، والسيول دافعةً، والغيوث ماطرةً؛ أسواقُ الاداب عندهم نافقةً، ومراتبُ ذوى الحرمات عنـدهم عاليةً، والدنيا فى أيامهم عامرةً، وأُبَّهةُ المملكة ظاهرة، وهم ملجأُ اللَّهيف ومعتصَمُ الطريد، ولهم يقول أبو نواس :

سلامٌ على الدنيا اذا ما فقدتُمُ * بنى برمكٍ من رائحين وغاد

ويؤخذ من المباحث التاريخيــة الحديثة للمستشرقين : أن البرامكةَ هم أسرةٌ فارسـيّةٌ أنجبت أوّلَ الوزراء الفرس للخلافة . وليست لفظةُ برمك باسم لشخص، وإنمـا تدل على رتبة وراثيّةٍ خاصة برئيس الكهّان بمعبد «نوبهار» ببلخ . وكانت البرامكةُ تملك الأراضيَ التابعة للمعبد، ويبلغ طولها ثمانيةَ فراسخ وعرضها أربعةً، فكانت مساحتُها أربعينَ وسبعمائة ميل مربع . ولم تزل هذه الممتلكاتُ أو بعضها فى حَوْزة البرامكة فى الأيام التالية . ويقول ياقوت : إنّ قرية « روان » — الكبيرة الغنيــة — وهى شرق بلخ كانت فى حَوْزَةِ يحيى ابن خالد .

ومعنى الاسم بالسنسكريتية : الدير الجـديد . وكان هذا الدير عبارة عن دير بوذىّ . وقد وُصِفَ كذلك بوساطة حاج صينيّ اسمه «هوان شانج» فى القرن السابع للمسيح فى كتاب اسمه «ذكريات على البقاع الشرقية» وقد ترجمه الى الفرنسية « سنت جوليان » . على أن هذا المعبد كان معروفا لبعض الجغرافيين من العرب أمثال ابن الفقيه (أنظر طبعة جوج ص ٣٢٢) إذ قرّر أن النوبهار كانتْ مخصصةً لعبادة الأوثان لا النـار . وإذا تركنا جانبًا بعض المبالغات فى وصف ابن الفقيه، فإنا نجد وصفَه مطابقًا للبوذية .

فلنلاحظ هـذه العبادةَ لأقطابٍ من زعمـاء الفرس لعبوا دورا هاما فى التـاريخ العباسىّ . ولنلاحظها جيدا، فربما أفادتنا فى إماطة اللّثام قليلا عن عبادات لفئات عديدة اعتُبِرتْ زنادقةً أو مانيةً أو ملحدين . ومهما كانت هذه الفئاتُ موضعَ اضطهادٍ من خلفاء العصر، فإنه من المبالغـة الكتابية التى لا تُرضِى العلمَ ولا التاريخَ فى شىء، ألا يُحفل بها

أو لا يشار اليها إشارةً طفيفةً، اذا لم يكن لدينا من المواد ما يسمح لنا بأن نُفْرِدَ لدراستها باباً، كما حفل بها الخلفاء فأفردوا لها إدارةً أسموا رئيسها «صاحب الزنادقة» .

ولعل أوّل ذكرٍ لبرمكيٍّ حفل به التاريخُ واعتبره مؤسّسا لتلك الأسرة البرمكية التي نبغت في تلك الأيام الزاهية الزاهرة والتي امتدت الى أن انقضت في أيام الرشيد، ونُظِرَ اليه باعتباره جدّ البرامكة، هو خالد بن برمك الذى استوزره السفاح بعد أبي سلمة الخلال وأبي الجهم . كان خالد بن برمك من رجالات الدولة العباسية، فاضلاً جليلا كريما حازما يقظاً، استوزره السفاحُ وخفّ على قلبه، وكان يسمى وزيراً . وقيل : إن كل من استُوزِرَ بعد أبي سلمة كان يَتَجَنَّبُ أن يسمى وزيرا، تطيّراً ممـا جرى على أبي سلمة، ولقول من قال :

إنّ الوزيرَ وزيرَ آل محمـدٍ * أودى فمن يَشناكَ كان وزيرا

قالوا : فكان خالد بن برمك يعمل عملَ الوزراء ولا يسمى وزيرا . كان خالدٌ عظيمَ المنزلة عند الخلفاء . قيل : إن السفاح قال له يوما : ياخالد مارضيتَ حتى استخدمتَني؛ ففزع خالد وقال : كيف ياأمير المؤمنين وأنا عبدُك وخادمُك ! فضحك وقال : إن رَيْطةَ ابنتي، تنام مع ابنتك في مكانٍ واحدٍ، فأقوم بالليـل فأجدهما قد سرحَ الغطاءُ عنهما، فأردّه عليهما؛ فقبّل خالد يده وقال : مولًى يكتسب الأجرَ في عبده وأمَته .

وكثر الوافدون على باب خالد بن برمك، ومدحه الشعراء، وانتجعه النـاسُ . وكان الوافدون يسمون سُؤالًا، فقال خالد : إني أستقبح هذا الاسمَ لمثل هؤلاء وفيهم الأشرافُ والأكابرُ، فسماهم الزوّارَ، وكان خالد أوّلَ من سماهم بذلك؛ فقـال له بعضُهم : والله ما ندرى أيّ أياديك عندنا أجلّ، أصلتنا أم تسميتنا ! .

ولقد مدحه بشارُ بن بُرد فقال فيه :

لَعَمْرِى لقد أجدَى علىّ ابنُ برمكٍ * وما كل من كان الغنى عنده يُجدِى

حلبتُ بشـعرى راحتيـه فدرّتا * سَمَـاحًا كما درّ السحابُ مع الرعد

اذا جئتَـه للحمد أشرقَ وجهُه * اليـك وأعطاك الكرامةَ بالحمـد

لهُ نِعَمٌ فى القوم لا يستثيبها * جزاءً وكيلَ التاجرِ المُدّ بالمدِّ
مُفيدٌ ومتلافٌ سبيل تراثه * اذا ما غدا أو راح كالجَزْرِ والمدّ
أخالدُ إنّ الحمدَ يبقى لأهله * جمالا ولا تبقى الكنوزُ على الكدّ
فأطعِم وكلْ من عارة مستردّةٍ * ولا تُبقها إنّ العوارىَ للردّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه فى كل وفادةٍ خمسةَ آلاف درهم ، وأمر خالد أن يُكتَبَ هذان البيتان ، الأخيران ، فى صدر مجلسه الذى كان يجلس فيه . وقال ٱبنُه يحيى : آخرما أوصانى به أبى العملُ بهذين البيتين .

ولقد أشرنا فى كلمتنا عن الهادى الى مبلغ إخلاص يحيى بن خالد البرمكى للرشيد فى أيام الهادى حينما شرع فى خلع هارونَ من ولاية العهد ، و إن الأخبار التى رواها الطبرىّ فى سنة سبعين ومائة ناطقةٌ بولاءِ يحيى وصدقِ إخلاصه .

ويجدُر بنا هنا أن نقتطفَ موقفينِ كمثلٍ لمواقف يحيى مع الهادى ذَوْدًا عن الرشيد وحقوقِ الرشيد ، فإنهما يعطياننا صورةً من إخلاص آل برمك للرشيد ومبلغ ما رُوِّعَ به يحيى فى سبيل الرشيد .

ذكر أبو حفص الكرمانىّ أن محمد بن يحيى البرمكى حدّثه قال : بعث الهادى الى يحيى ليلا فأيس من نفسه وودّع أهله وتحنّط وجدّد ثيابه ولم يشك فى أنه يقتله ؛ فلما أُدْخِلَ عليه قال : يا يحيى مالى ولك ! قال : أنا عبدك يا أمير المؤمنين ، فما يكون من العبد الى مولاه إلا طاعتُه ! قال : فَلِمَ تدخل بينى و بين أخى تفسده علىّ ؟ قال : يا أمير المؤمنين من أنا حتى أدخلَ بينكما ! إنما صيرنى المهدى معه ، وأمرنى بالقيام بأمره ، فقمت بما أمرنى به ، ثم أمرتَنى بذلك فانتهيتُ الى أمرك ؛ قال : فما الذى صنع هارون ؟ قال : ما صنع شيئا ولا ذلك فيه ولا عنده ؛ قال : فسكن غضبُه . وقد كان هارونُ طاب نفسًا بالخلع فقال له يحيى : لا تفعل ؛ فقال : أليس يُترَكُ لى الهنىءُ والمرىءُ فهما يسعاننى وأعيش مع ٱبنة عمى ،

وكان هارون يجدُ بأم جعفر وجدًا شديدًا، فقال له يحيى : وأين هذا من الخلافة! ولعلك ألّا يُترَكَ هذا فى يدك حتى يخرجَ أجمع؛ ومنعه من الإجابة .

وذكر الكرمانىّ أيضا عن خزيمة بن عبد الله قال : أمر الهادى بحبس يحيى بن خالد، على ما أراده عليه من خلع الرشيد، فرفع اليه يحيى رقعة : إن عندى نصيحةً؛ فدعا به؛ فقال : يا أمير المؤمنين أَخْلِنى فأخلاه؛ فقال : يا أمير المؤمنين أرأيتَ إن كان الأمرُ — أسألُ اللهَ ألّا تَبْلُغَهُ وأن يقدّمنا قبله — أتظن أن الناس يُسلّمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحُلُمَ، و يرضَوْن به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ! قال : والله ما أظن ذلك؛ قال : يا أمير المؤمنين أفتأمن أن يسموَ اليها أهلُكَ وجِلّتُهم مثـل فلان وفلان و يطمع فيها غيرُهم فتخرج من ولد أبيك ! فقال له : نبّهتنى يا يحيى . قال وكان يقول : ما كلمتُ أحدًا من الخلفاء كان أعقلَ من موسى . قال وقال له : لو أنّ هـذا الأمر لم يُعقَدْ لأخيـك أما كان ينبغى أن تعقدَه له ! فكيف بأن تحلّ عَقْدَه وقد عقده المهدىّ له ! ولكن أرى أن تُقِرَّ هـذا الأمرَ يا أمير المؤمنين على حاله، فاذا بلغ جعـفر وبلغ اللهُ به أتيتَه بالرشـيد فخلع نفسَه وكان أوّلَ من يُبايعـه و يعطيه صفقةَ يده؛ فقال : فقبل الهادى قولَه ورأيه، وأمر بإطلاقه .

ولمـا ولى الرشيد الخلافةَ قلد يحيى بن خالد الوزارةَ، وقال له : قد قلدتك أمرَ الرعية وأخرجتُه من عنقى اليك، فاحكم فى ذلك بمـا ترى من الصواب، واستعمِلْ مَنْ رأيتَ، واعزِل مَن رأيتَ، وأمضِ الأمور على ما ترى . ودفع اليـه خاتَمـه . ففى ذلك يقول ابراهيمُ الموصلىّ :

ألم تر أن الشمسَ كانت سقيمةً * فلمـا وَلِى هارونُ أشرق نورُهـا

بيمن أمين الله هارونَ ذى النـدى * فهارونُ واليها ويحيى وزيرُها

وليس فى مقدورنا أن نصوّر شخصيةَ يحيى بن خالد بن برمك بأحسنَ مِنْ إثباتنـا رأيَه فى الأخلاقيات، فقد قيل له : أىّ الأشياء أقلّ؟ قال : قناعةُ ذى الهمة البعيدة بالعيش الدون، وصـديقٌ كثيرُ الآفات قليلُ الإمتاع، وسـكونُ النفس الى المدح . وقيـل له :

ما الكرم؟ فقال : مَلِكٌ فى زىّ مسكين . وقيل له : ما الجود ؟ فقال : عفوٌ بعد قدرةٍ . وقال مرّة : اذا فتحتَ بينكَ وبين أحد بابا من المعـروف فاحذَرْ أن تُغلقَه ولو بالكلمة الجميلة . وقال : «أحسنُ جملة الولاة إصابةُ السياسة، ورأسُ إصابة السياسة العملُ بطاعة الله، وفتحُ بابين للرعيـة، أحدهما رأفةٌ ورحمـة وبذل وتحنّن، والآخر غلظةٌ ومباعدةٌ وإمساك ومنع» .

ويروى لنا "ياقوت الرومى" فى "معجمه" عنه : أنه لما كان الفضل بن يحيى واليًا على خراسانَ، كتب صاحبُ البريد الى الرشيد كتابا يذكر فيه : أن الفضل تشاغلَ بالصيد واللذات عن النظر فى أمور الرعية؛ فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب واكتب الى الفضل كتابا يردعه عن مثـل هذا؛ فمدّ يحيى يده الى دواة الرشيد وكتب الى ابنه على ظهر الكتاب الذى ورد من صاحب البريد :

"حفظك اللهُ يابنىّ وأمتعَ بك . قد انتهى الى أمير المؤمنين ما أنتَ عليه من التشاغل بالصيد ومداومةِ اللذات، عن النظر فى أمور الرعيةِ ما أنكره، فعاوِدْ ما هو أزينُ بك، فإنه من عاد الى ما يَزِينُه لم يعرِفْه أهلُ زمانه إلا به والسلام" وكتب تحته هذه الأبيات :

إنصَبْ نهارا فى طِلاب العلا * واصبِر على فقـد لقاء الحبيب
حتى اذا الليـلُ بدا مُقْبِـلًا * وغاب فيه عنك وجهُ الرقيب
فبادِرِ الليـلَ بما تشتهِى * فإنما الليـلُ نهارُ الأريب
كم من فتًى تحسبه ناسكًا * يستقبل الليـلَ بأمرٍ عجيب
ألقى عليـه الليـلُ أستارَه * فباتَ فى لهوٍ وعيشٍ خصيب
ولذةُ الأحمـق مكشوفـةٌ * يسـعى بها كلّ عدوّ مريب

هذا هو يحيى الذى يقول عنه المأمون : «لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحدٌ فى البلاغة والكفايةِ والجودِ والشجاعةِ» . وهـذا هو يحيى الذى كان يُجرى على سفيان الثورىّ رضى

الله عنه ألف درهم فى كل شهر ، فكان اذا صلّى سفيان يقول فى سجوده : « اللهُ إن يحيى كفانى أمرَ دنياى فاكفه أمرَ آخرته » .

هذا ، واذا علمت أن أمّ الفضل بن يحيى ، وهى زينب بنت منير ، كانت ظئرًا للرشيد فأرضعته بلبان الفضل وأرضعت الخيزُرانُ ، والدة الرشيد ، الفضل بلبان الرشيد ، استطعتَ أن تقدُر الى أىّ مدًى كانت علاقة الرشيد بآل برمك ، وهو لم يَدرجْ فى مهده ، ولم يفرق بين أمسه ويومه .

ونجد فى أخبار سنة ست وسبعين ومائة أن الرشيد ولّى الفضلَ بن يحيى كُوَرَ الجبال وطبرستان ودُنْبَاوَنْد وقومس وأرمينية وأذربيجان ، وندبه لحرب يحيى بن عبد الله الطالبىّ حين خروجه بالديلم ، فوُفِّق الفضلُ لأخذ أمانٍ له من الرشيد وأصلح أيّما إصلاحٍ ونجح النجاحَ كلّه فى غزواته وحروبه ، حتى قال فيه أبو ثمامة الخطيب :

للفضل يومُ الطَّالَقَانِ وقبلَه * يومٌ أناخ بهِ على خاقانِ
ما مثلُ يومَيْهِ اللذينِ توالَيا * فى غَزْوَتين توالتا يومانِ
سدَّ الثغورَ وردَّ ألفةَ هاشمٍ * بعد الشَّتاتِ فَشَعبُها مُتَدانِ
عصَمتْ حكومتُه جماعةَ هاشم * من أن يُجَرَّد بينها سيفانِ
تلك الحكومةُ لا التى عن لَبْسها * عَظُمَ النبا وتفرّقَ الحكمانِ

فأعطاه الفضلُ مائة ألف درهم وخلَع عليه .

ونجد فى أخبار السنةِ نفسِها أن الفتنة هاجت بالشأم بسبب العصبية التى بين النزارية واليمانية ، فولى الرشيدُ موسى بنَ يحيى بن خالد الشأمَ ، فهرع اليها موسى وأقام بها ، حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنةُ واستقام أمْرُها ، فمدحه الشعراءُ . ومن قول بعضهم فيه :

قد هاجت الشأمُ هَيْجا * يُشيبُ رأسَ وَليدِه
فَصُبَّ موسى عليها * بخيله وجنودِه
فدانتِ الشأمُ لمّا * أتى نسيجُ وَحيدِه

هـو الجـــوادُ الذى بَـذَّ كلّ جُودٍ بجـوده
أعداه جـــودُ أبيــه * يحيى وجـودُ جُـدوده
فجـادَ موسَى بن يحيى * بطـارفٍ وتليـــدِه
ونال موسى ذُرَى المجـ * ـدِ وهو حشـوُ مُهودِه
خصصتُــهُ بمـــديحى * منثـورِه وقصـــيدِه
من البرامكِ عُودٌ * له فأكرم بعُـوده
حَوَوْا على الشـعر طُرًّا * خفيفــه ومَـــديده

وقد مدحه بمثل ذلك اسحاقُ بن حسان الخريمىّ .

ويقول الطبرىّ فى أخبار سنة ثمان وسبعين ومائة : إن الرشيد فوّض أمورَه كلها الى يحيى ابن خالد بن برمك ، وقد ذكر فيها شخوصَ الفضل بن يحيى الى خراسانَ واليًا عليها ، فأحسن السيرةَ بهـا ، وبنى بها المساجدَ والرباطاتِ ، وغزا ماوراء النهر ، فخرج اليه خاراخره ملك أشروسنة ، وكان ممتنعًا . وقد مدحه مروانُ بن أبى حفصة وغيره بقصائدَ عدةٍ ، وقد ذكر محمد ابن العباس أنه سمع مروان يقول : إنه أصاب فى قَدْمَتِه تلك على الفضل سبعمائةِ ألف درهم .

وقد مدحه سَلْم الخاسرُ فقال :

وكيف نخاف من بؤسٍ بدار * تكنفها البرامكةُ البحورُ
وقوم منهم الفضل بن يحيى * نفيرٌ ما يوازنـــه نفـــيرُ
له يومان يومُ ندًى وبأسٍ * كأنّ الدهرَ بينهما أسيرُ
اذا ما البرمكى غدا ابنَ عشر * فهمّتُــه وزيرٌ أو أمـــيرُ

ولننظر الى مكانةِ الفضل وآل برمك من الرشيد ؛ فإن أبا جعفر محمد بن جرير الطبرى يحدّثنا أنه لمـا قدم الفضل بن يحيى من خراسانَ خرج الرشيدُ الى بستان أبى جعفر يستقبله ،

وتلقّاه بنو هاشم والناسُ من القوّاد والكتّاب والأشراف، فجعل يصل الرجل بألف الألف وخمسمائة الألف . ومدحه مروانُ بن أبي حفصة فقال :

حَمِدنا الذى أدّى ٱبنَ يحيى فأصبحتْ * بمقْدَمِهِ تجرى لنا الطّيرُ أسْعُدَا
وما هَجَعتْ حتى رأتْهُ عُيونُنا * وما زلنَ ، حتى آبَ ، بالدّمعِ حُشَّدا
نفى عن خُراسانَ العدُوّ كما نفى * ضُحَى الصبحِ جِلْبابَ الدجى فتعرّدا
لقد راعَ من أمسى بمَرْوَ مسيرُهُ * إلينا وقالوا شَعْبُنا قد تبدَّدا
على حين ألْقَى قُفْلَ كلّ ظلامةٍ * وأطلق بالعفو الأسيرَ المقيَّدا
وأفشَى بلا منٍّ مع العدل فيهم * أيادىَ عُرْفٍ باقياتٍ وعُوّدا
فأذهبَ رَوْعاتِ المخاوفِ عنهمُ * وأصْدَرَ باغى الأمنِ فيهمْ وأوردَا
وأجْدَى على الأيتام فيهم بعُرْفِهِ * فكان من الآباء أحْنَى وأعْوَدَا
اذا الناسُ راموا غايةَ الفضل فى النّدَى * وفى البأسِ ألْفَوْهَا من النَّجْمِ أبعَدَا
سَما صاعِدًا بالفضل يحيىٰ وخالدٌ * إلى كلّ أمرٍ كان أسْنَى وأمْجَدَا
يَلِينُ لِمَن أعطى الخليفةَ طاعةً * ويُسقِى دَمَ العاصى الحُسامَ المهنّدا
وَشَدَّ القُوَى من بَيْعةِ المصطفى الذى * على فضله عَهْدَ الخليفةِ قلّدا
سَمِىِّ النّبىّ الفاتح الخاتم الذى * به اللهُ أعطى كلَّ خَيْرٍ وسدَّدا
أبَحْتَ جبالَ الكابُلِيِّ ولم تَدَعْ * بهنّ لنيران الضّلالة مُوقَدا
فأطْلَعْتَها خَيْلا وطئنَ جموعَهُ * قتيلًا ومأسورًا وفَلًّا مُشَرّدا
وعادَت على ابنِ البَرْمِ نُعماك بعدما * تَحَوَّبَ مخذولًا يرى الموتَ مُفْرَدا

وفى أخبار سنة ثمانين ومائة، هاجت العصبيةُ بالشأم، وتفاقمَ أمرها، واغتم الرشيد بذلك ، فعقد لجعفر بن يحيى على الشأم ، وقال له : إما أن تخرج أنتَ أو أخرج أنا ؛ فقال له جعفر : بل أقيكَ بنفسى . وشخصَ اليهم جعفر فى جِلّة القوّادِ والكُراع والسلاح،

فأصلح بينهم، وقتل زواقيلهم والمتلصّصة منهم، فعادوا الى الأمن والطمأنينة، وأطفأ تلك الثائرة. وقد مدحه منصور النمرى بقصيدة مطلعها :

لقد أوقدَتْ بالشام نيرانُ فتنةٍ * فهذا أوانُ الشام تُخمَدُ نارُها
اذا جاش موجُ البحر من آل برمكٍ * عليها خبَتْ شُهبانُها وشرارُها

ولما عاد جعفر موفّقا من سفرته هذه، وقد استخلف على الشأم مكانه عيسى بن العكى، دخل على الرشيد فزاده إكراما وإجلالا .

وانا لننقل لك هنا ما قاله جعفر للرشيد، حين مَثَلَ بين يديه، لأنه يُعتبر أثرا قيماً من ناحية تحليل نفسيّة الطرفين، ولرَوْعته وبلاغته فى أدب العصر، ولأنه فى الوقت نفسه بمثابة نصّ تاريخىّ للعصر الذى ندرُسه .

قال الطبرى : لما دخل جعفر على الرشيد قَبَّلَ يديه ورجليه، ثم مَثَلَ بين يديه فقال : الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى آنس وحشتى، وأجاب دعوتى، ورحم تضرّعى، وأنسأَ فى أجلى حتى أرانى وجهَ سيدى، وأكرمنى بقربه، وامتنَّ علىّ بتقبيل يده، وردّنى الى خدمته، فوالله إن كنتُ لأذكر غيبتى عنه ومخرجى، والمقاديرَ التى أزعجتنى، فأعلم أنها كانت بمعاصٍ لحقتنى، وخطايا أحاطت بى، ولو طال مُقامى عنك يا أمير المؤمنين، جعلنى الله فداءك، لخفتُ أن يذهب عقلى، إشفاقاً على قربك، وأسفًا على فراقك، وأن يُعجّلَ بى عن إذنك الاشتياقُ الى رؤيتك . والحمد لله الذى عصمنى فى حال الغيبة، وأمتعنى بالعافية، وعرّفنى الإجابةَ، ومسّكنى بالطاعة، وحال بينى وبين استعمال المعصية، فلم أشخَصْ إلا عن رأيك، ولم أقدُم إلا عن إذنك وأمرك، ولم يخترمنى أجلٌ دونك، والله يا أمير المؤمنين، فلا أعظمَ من اليمين بالله، لقد عاينتُ فلو تُعرَضُ لى الدنيا كلّها، لاخترت عليها قربَكَ ولَمَا رأيتها عوضًا من المُقام معك . ثم قال له بعقب هذا الكلام فى هذا المقام : إن الله يا أمير المؤمنين لم يزل يُبليك فى خلافتك، بقدر ما يعلم من نيّتك، ويُريكَ فى رعيتك، غايةَ

(١) الزواقيل : هم اللصوص، كما فى القاموس وشرحه فى مادة «زقل» .

أمنيتك، فيصلح لك جماعتهم، ويجمع ألفتهم، ويلمّ شعثهم، حفظًا لك فيهم، ورحمةً لهم، وإنما هذا للتمسك بطاعتك، والاعتصام بحبل مرضاتك . والله المحمودُ على ذلك، وهو مستحقّه . وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهلَ كور الشأم وهم منقادون لأمرك، نادمون على ما فرّط من معصيتهم لك، متمسّكون بحبلك، نازلون على حكمك، طالبون لعفوك، واثقون بحلمك، مؤمّلون فضلَك، آمنون بادرَتك، حالُهم فى ائتلافهم كحالهم كانتْ فى اختلافهم، وحالهم فى أُلفتهم كحالهم كانت فى امتناعهم . وعفوُ أمير المؤمنين عنهم، وتغمّده لهم سابقٌ لمعذرتهم، وصلةُ أمير المؤمنين لهم وعطفُه عليهم متقدّمٌ عنده لمسألتهم. وأيم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخصت عنهم، وقد أخمد اللهُ شرارَهم وأطفأ نارَهم ونفى مُرّاقهم وأصلح دهماءهم وأولانى الجميلَ فيهم ورزقنى الانتصارَ منهم، فما ذلك كلّه إلا ببركتك ويمنك وَريحك، ودوام دولتك السعيدةِ الميمونةِ الدائمة، وتخوّفهم منك ورجائهم لك . والله يا أمير المؤمنين ما تقدّمتُ اليهم إلا بوصيتك، وما عاملتُهم إلا بأمرك، ولا سرتُ فيهم إلا على حدّ ما مثّلته لى ورسمته، ووقفتنى عليه . ووالله ما انقادوا إلا لدعوتك وتوحُّد الله بالصنع لك، وتخوّفهم من سطوتك. وما كان الذى كان منّى، وإن كنتُ قد بذلتُ جهدى وبلغتُ مجهودى، قاضيًا ببعض حقك علىّ، بل ما ازدادت نعمتُك علىّ عظمًا إلا ازددتُ عن شكرك عجزًا وضعفًا . وما خلق الله أحدًا من رعيتك، أبعدَ من أن يُطمِعَ نفْسَه فى قضاء حقك منّى، وما ذلك إلا أن أكون باذلًا مُهجتى فى طاعتك، وكلّ ما يقرّب الى موافقتك، ولكنى أعرف من أياديك عندى ما لا أعرف مثلها عند غيرى، فكيف بشكرى وقد أصبحتُ واحدَ أهل دهرى فيما صنعته فىّ وبى! أم كيف بشكرى وإنما أقوى على شكرك بإكرامك إياى ! وكيف بشكرى ولو جعل الله شكرى فى إحصاء ما أوليتنى لم يأت على ذلك عدّى ! وكيف بشكرى وأنت كهفى دونَ كل كهفٍ لى : أوكيف بشكرى وأنت لا ترضى لى ما أرضاه لى ! وكيف بشكرى وأنت تجدّد من نعمتك عندى ما يستغرقُ كل ما سلف عندك لى ! أم كيف بشكرى وأنت تُنسينى ما تقدم من إحسانك بما تُجدِّدُه لى !

أم كيف بشكرى وأنت تُقدّمنى بطَولك على جميع أكفائى ! أم كيف بشكرى وأنت وليّ ! أم كيف بشكرى وأنت المكرم لى ! وأنا أسأل الله، الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاقٍ له، إذ كان الشكر مُقَصِّرًا عن تأدية بعضه، بل دون شقص من عُشر عشيره، أن يتولى مكافأتك عنى، بما هو أوسع له وأقدر عليه، وأن يقضى عنّى حَقك وجليلَ منتك، فإن ذلك بيده وهو القادر عليه" .

وفى أخبار سنة ثمانين ومائة نفسها ولّى الرشيدُ جعفرَ بن يحيى الحَرَس . وهكذا تجـد فى أخبار كلّ ســنة نبأً عن آل برمكٍ، وتمداحًا لآل برمك وأثرًا جليلاً فى خدمة الدولة من آل برمك، ومكانةً سامية تبوّأها آلُ برمك من الرشيد .

وإنا لا نرى ندحة من إيراد واقعــة حال رواها الفخرى بين جعفر بن يحيى البرمكى وعبد الملك بن صالح الذى سعى به كاتبه قمامةُ وابنُــه عبد الرحمن عند الرشيد بتهمةِ طلبــه الخلافةَ لنفسه، حتى حبسه الرشيد عند الفضل بن الربيع، وهو منافسٌ لآل برمك، وكثيرًا ما ســعى الساعون بين صالح والرشــيد . فاذا ما تعرّض البرمكيون بالخــير لرجل من كبار رجالات الدولة، المتهمين بالتطلّع الى الخلافة، واذا ما نجح البرمكيون فى إيصال الخير لهم، وفى إرضاء قلب الرشيد عليهم، كان فى ذلك أصدقُ دليلٍ على مكانتهم الرفيعة من الرشيد، فما بالك اذا ما وصلوا الى أن يبنى أحد أولاد صالح على إحدى بنات الرشيد، واذا ما اقتطعوا له الولاياتِ ورفَدوه بأجزل الأموال ! .

على أنا نترك الكلمة لابن طَبَاطَبَا ليقصّ عليك ما يرويه فيما نحن فى صدده — قيل : إن جعفر بن يحيى البرمكى جلس يوما للشرب، وأحبّ الخــلوةَ، فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم، وجلس معهــم وقد هُيّئ المجلسُ ولبسوا الثيابَ المصبّغة، وكانوا اذا جلسوا فى مجلس الشراب واللهو، لبسوا الثيابَ الحمـرَ والصفرَ والخضرَ . ثم إن جعفر بن يحيى تقــدّم الى الحاجب ألّا يأذنَ لأحدٍ من خلق الله تعــالى سوى رجلٍ من الندماء كان قد تأخر عنهــم اسمه عبد الملك بن صالح، ثم جلسوا يشربون، ودارت الكاساتُ، وخفقَتِ العيــدان،

وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبدُ الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس، وكان شديدَ الوقارِ والدينِ والحِشْمةِ، وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمَه ويشربَ معه، وبذل له على ذلك أموالًا جليلةً فلم يفعل، فاتفق أن عبــد الملك بن صالح حضر الى باب جعفر بن يحيى ليخاطبــه فى حوائجَ له، فظن الحاجبُ أنه هو عبــد الملك بن صالح الذى تقــدّم جعفر بن يحيى بالإذن له وألا يدخل غيره، فأذن الحاجبُ له، فدخل عبــد الملك ابن صالح العباسىّ على جعفر بن يحيى؛ فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء، وفطن أن القضيةَ قد اشتبهت على الحاجب، بطريق آشتباهِ الاسم، وَفَطَنَ عبــدُ الملك بن صالح أيضا للقصــة وظهر له الخجلُ فى وجه جعفر بن يحيى، فانبسط عبد الملك وقال : لا بأس عليكم، أحضروا لنا من هذه الثياب المصبّغة شيئا، فأُحْضِر له قميصٌ مصبوغٌ، فلبسه وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه، وقال : اسقونا من شرابكم، فسقَوْه رطلا وقال آرفقوا بنــا فليس لنا عادةٌ بهــذا، ثم باسطهم ومازحهم، وما زال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال انقباضُه وحياؤه، ففرح جعفر بذلك فرحًا شديدًا وقال له : ما حاجتك ؟ قال : جئتُ، أصلحك اللهُ، فى ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفةَ فيها : أُولاها أن علىّ دينا مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه، وثانيتها أريد ولايةً لابنى يشْرُف بها قدرُه، وثالثتها أريد أن تزوج ولدى بابنة الخليفة فإنها بنت عمه وهو كفءٌ لها؛ فقال له جعفر بن يحيى : قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث . أما المــال ففى هــذه الساعة يُحمل الى منزلك، وأما الولايةُ فقد ولّيتُ آبنكَ مصرَ، وأما الزواج فقد زوّجته فلانةَ ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا، فآنصرِفْ فى أمان الله . فراح عبدُ الملك الى منزله فرأى المــالَ قد سبقه . ولمــا كان من الغد، حضر جعفر عند الرشيد وعرّفه ما جرى وأنه قد ولّاه مصر، وزوّجه ابنته؛ فعجب الرشيد من ذلك، وأمضى العقــدَ والولايةَ، فمــا خرج جعفر من دار الرشيد حتى كُتِبَ له التقليدُ بمصر، وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد .

أرأيت كيف لم ينقض الرشيد ماأبرمه جعفر فى مسئلة خطيرة الخطر كله، لأنها تتعلق بكرامة الرشيد، وأسرة الرشيد، وشؤون الرشيد الخاصة ! !

أليس فى ذلك ما يقطع برفيع مكانة القوم وكبير قدرهم وسامى منزلتهم ، عنـد الرشيد وفى الدولة التى هم مفزع رجالاتها وموئل زعمائها ؟ .

وأرجو ألا يفوتك فى المثل المتقدم، ما جاء فيه خاصا بالملابس فإنه قد يعطيك فكرة ما عن تخصص بعضها للسهرات والردهات والمنادمات ممـا لا يختلف عن نظام اليوم من « ردنجوت » و « سموكنج » و « فراك » الى غير ذلك مما يدل على مبلغ الثروة واستفحال أمر المدنية، عند القوم فى تلك الأيام الخاليات، فتأمل ... !

* * *

ربما تطلب الىّ مثالا على جودهم وتعلق الناس بهم، فأبلغك، أرشدك الله ، أن كتبَ الأدب مُترَعةٌ بالمئات من ذلك، بلا مبالغة ولا غلو ولا تهويل ولا إغراق .

وسنترك الكلمة فى هذا الباب لمعاصرين : أحدهما إسحاق الموصلىّ ، والآخر الاتليدىّ فيما يرويه من حديث جرى بين المأمون والمنـذر بن المغيرة . وإنا نكتفى بإيراد هذين المثلين للإفصاح عن جود البرامكة وبيان ما جُبِلَتْ عليه نفوسُهم من المروءة وبُعْد الهمة وحبّ الخير .

أما مسألة إسحاق الموصلىّ فتفصيلُ الخبر فيها أن الفضـل بن الربيع دعا أحمد بن يحيى المكىّ وعَلُّويَهْ ومخارقا للاجتماع عنده، وذلك أيام المأمون بعد رجوعه ورضاه عنه، إلا أن حالة الفضل كانت ناقصةً متضعضعةً، فلما اجتمعوا عنده كتب الى اسحاق الموصلىّ يسأله أن يصيرَ اليه ، ويُعلِمَهُ الحالَ فى اجتماعهم عنده، فكتب اسحاق اليهم بحضوره ولكن جاءهم متأخرا، وكان عَلُّويَهْ يغنى فأخطأ، فقال له اسحاق : أخطأتَ، فغضب عَلُّويَهْ وعاتبه بكلام طويل، ومنـه قوله له : إنه من صنيعة البرامكة، فقال اسحاق : أما البرامكة وملازمتى لهم فأشهرُ من أن أجحدَه، وإنى لحقيقٌ فيـه بالمعذرة ، وأحْرى أن أشكرهم على صنيعهم وبأن أذيعه وأنشرَه، وذلك والله أقلّ ما يستحقونه منّى . ثم أقبل على الفضل، وقد غاظه مدحه لهم، فقال : أتسمع منى شيئا أخبرك به مما فعلوه، وليس هو بكبير فى صنائعهم عندى ولا عند

أبى قبلى ؟ فان وجدتَ لى عذرا وإلا فَلُمْ . كنت فى ابتداء أمرى نازلا مع أبى فى داره ، فكان لا يزال يجرى بين غلمـانى وغلمانه وجوارىّ وجواريه الخصومة ، كما يجرى بين هذه الطبقات ، فيشكونهم اليه ، فأتبين الضجرَ والتنكر فى وجهه ، فاستأجرتُ دارا بقربه ، وانتقلتُ اليها أنا وغلمانى وجوارىّ ، وكانت دارًا واسعةً ، فلم أرض ما معى من الآلة لها ، ولا لمن يدخل الىّ من إخوانى أن يروا مثلَه عندى ، ففكرتُ فى ذلك وكيف أصنع ، وزاد فكرى حتى خطر بقلبى قبحُ الأحدُوثة من نزول مثلى فى دار بأجرة ، وإنى لا آمن فى وقت أن يستأذنَ علىّ ، وعندى مَنْ أحتَشِمُه ولا يعلم حالى ، فيقال صاحب دارك ؛ أو يوجّه فى وقت فيطلب أجرة الدار وعندى من أحتشمه ، فضاق بذلك صدرى ضيقا شديدا ، حتى جاوز الحدّ ، فأمرتُ غلامى بأن يُسْرِجَ لى حمارا كان عندى لأَمضىَ الى الصحراء ، أتفرّجُ فيها مما دخل على قلبى ، فأسرجَه وركبتُ برداء ونعل ، فأفضى بى المسيرُ ، وأنا مفكر لا أميّز الطريق التى أسلك فيها ، حتى هجم بى على باب يحيى بن خالد ، فتواثبَ غلمانُه إلىّ وقالوا : أين هذا الطريقُ ؟ فقلت : الى الوزير ، فدخلوا فاستأذنوا لى ، وخرج الحاجب فأمرنى بالدخول ، وبقيتُ خَجِلًا قد وقعتُ فى أمرين فاضحين : إن دخلتُ اليه برداء ونعلٍ وأعلمتُه أنى قصدته فى تلك الحال كان سُوءَ أدب ، وإن قلت له كنت مجتازا ، ولم أقصدك ، فجعلتُك طريقا ، كان قبيحا ، ثم عزمت فدخلت ، فلمـا رآنى تبسم وقال : ما هذا الزىّ يا أبا محمد ؟ احتبسنا لك بالبر والقصد والتفقد ثم علمنا أنك جعلتنا طريقا ، فقلت : لا والله ياسـيدى ، ولكنى أَصْدُقُك ؛ قال : هات ، فأخبرته القصةَ من أولها الى آخرها ؛ فقال : هذا حقٌّ مُستوٍ أفهذا شغَل قلبكَ ؟ قلتُ : إى والله ؛ وزاد فقال : «لا تَشْغَلْ قلبك بهذا ، يا غلام ردّوا حماره ، وهاتوا له خِلعةً» ، فجاءونى بخلعة تامة من ثيابه فلبستها ، ودعا بالطعام فأكلتُ ، ووضع النبيذَ فشربت وشرب فغنيتُه ، ودعا فى وسط ذلك بدواة ورقعة وكتب أربعَ رقاع ظننتُ بعضَها توقيعا لى بجائزة ، فاذا هو قد دعا بعض وكلائه فدفع اليه الرقاعَ وساره بشىء فزاد طمعى فى الجائزة ، ومضى الرجل وجلسنا نشرب ، وأنا أنتظر شيئا فلا أراه الى العتمة ثم اتكأ يحيى

فنام، فقمت وأنا منكسرٌ خائب، فخرجتُ وقُدِّم لى حمارى، فلما تجاوزتُ الدارَ قال لى غلامى: الى أين تمضى؟ فقلت: الى البيت، قال: قـد والله بيعتْ دارُك وأُشهِدَ على صاحبها وآبتيع الدربُ كله وَوُزِنَ ثمنُه، والمشترى جالسٌ على بابك ينتظرك ليعرّفك، وأظنه اشترى ذلك للسلطان، لأنى رأيتُ الامر فى استعجاله واستحثاثه أمرًا سلطانيًّا؛ فوقعتُ من ذلك فيما لم يكن فى حسابى، وجئت وأنا لا أدرى ما أعمل، فلما نزلت على باب دارى اذا أنا بالوكيل الذى سارّه يحيى قد قام الىّ، فقـال لى: ادخل أيَّدَكَ الله دارَك حتى أدخلَ الى مخاطبتـك فى أمر أحتاج اليك فيـه، فطابت نفسى بذلك، ودخلتُ ودخل الىّ فأقرأنى توقيع يحيى: يُطلَقُ لأبى محمد إسحاق بمائة ألف درهم يُبتاعُ له بها دارُه وجميعُ ما يجاوِرُها ويلاصقها، والتوقيعُ الثانى الى ابنـه الفضل: قد أمرتُ لأبى محمد إسحاق بمـائة ألف درهم يُبتاعُ له بها دارُه، فأَطلِقْ اليـه مثلَها ليُنفقَها على إصـلاح الدار كما يريد وبنائها على ما يشتهى. والتوقيع الثـالث إلى جعفر: قد أمرت لأبى محمد إسحاق بمـائة ألف درهم يبتاع له بها منزلٌ يسكنه، وأمر له أخوك بدفع مائة ألف درهم ينفقها على بنائها ومرمّتها على ما يريد، فاطلق له أنت مائة ألف درهم يَبْتَاعُ بهـا فرشا لمنزله. والتوقيـع الرابع الى محمد: قد أمرت لأبى محمد إسحاق أنا وأخواك بثلثمائة ألف درهم لمنزل يبتاعه ونفقةٍ ينفقها عليه وفرش يبتذله، فمُرْ له أنت بمائة ألف يصرفها فى سائر نفقته. وقال الوكيل: قد حملتُ المـال واشتريتُ كلَّ شىء جاورك بسـبعين ألف درهم، وهـذه كتب الابتياعات باسمى والإقرار لك، وهذا المـال بورك لك فيـه فاقبضه؛ فقبضته وأصبحتُ أحسنَ حالا من أبى فى منزلى وفرشى وآلتى، ولا والله ماهذا بأكبر شىء فعلوه لى، أفألام على شكر هؤلاء! فبكى الفضلُ بن الربيع وكلُّ من حضره، وقالوا: لا والله لا تُلامُ على شكر هؤلاء!

أرأيتَ الى أىّ مدًى بلغتْ مكانةُ البرامكة من رجالات العصر وأدبائه، حتى تملّكوا من القلوب أعنّتها، ومن النفوس أزمّتها، وكيف استحوذوا على السُّـوَيداء والمهج، ولِمَ لهجتِ الألسنةُ بتمداحهم والإشادة بذكرهم!.

أما حديث المأمون والمغيرة بن المنذر الذى رواه لنا الاتليدى فهاكه بحذافيره : قال خادم المأمون : طلبنى أمير المؤمنين ليلةً وقد مضى من الليل ثلثه، فقال لى : خذ معك فلانا وفلانا، سماهما لى : وأحدهما على بن محمد والآخر دينار الخادم، واْذهبْ مسرعا لما أقول لك، فإنه بلغنى أن شيخا يحضُرُ ليلا الى آثار دور البرامكة ويُنشِدُ شعرا ويذكرهم ذكرًا كثيرًا ويندُبهم ويبكى عليهم ثم ينصرف، فامض أنت وعلىّ ودينار، حتى تَرِدُوا تلك الخرابات، فاستتروا خلف بعض الجُدر، فاذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتا، فأتونى به ؛ قال : فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات، فاذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساطٌ وكرسى حديد، واذا شيخ قد أتى وله جمالٌ وعليه مهابةٌ ولطفٌ ، فجلس على الكرسىّ وجعل يبكى وينتحب ويقول هذه الأبيات .

ولما رأيتُ السيفَ جدّل جعفرا * ونادى منادٍ للخليفة فى يحيى

بكيتُ على الدنيا وزاد تأسُّفى * عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها . فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له : أجِبْ أميرَ المؤمنين، ففزع فزعًا شديدًا وقال : دعونى حتى أُوصِى بوصيةٍ ، فإنى لا أُوقِنُ بعدها بحياة ، ثم تقدّم الى بعض الدكاكين، واستفتح وأخذ ورقةً وكتب فيها وصيّةً وسلمها الى غلامه . ثم سرنا، فلما مَثَلَ بين يدى أمير المؤمنين قال : من أنت ؟ وبما استوجبَتْ منك البرامكةُ ما تفعله فى خرائب دُورِهم؟ قال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أيادىَ خَضِرةً عندى، أفتأذن لى أن أُحدِّثَكَ بحالى معهم؟ قال : قل؛ فقال : يا أمير المؤمنين، أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عنى نعمتى، كما تزول عن الرجال، فلما ركبنى الدينُ واحتجت الى بيع ما على رأسى ورءوس أهلى، وبيتى الذى ولدت فيه، أشاروا علىّ بالخروج الى البرامكة، فخرجتُ من دمشق ومعى ثلاثون رجلا ونيِّفٌ من أهلى وولدى، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب، حتى دخلنا بغدادَ ونزلنا فى بعض المساجد، فدعوتُ ببعض ثياب كنت أعددتها لأستترَ بها، فلبستها وخرجت ، وتركتهم جياعًا لا شىء عندهم، ودخلت شوارع

بغداد سائلا عن البرامكة، فاذا أنا بمسجد مزخرف، وفى جانبه شيخٌ بأحسنِ زىٍّ وزينةٍ، وعلى الباب خادمان، وفى الجامع جماعةٌ جلوسٌ، فطمعت فى القوم، ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم، وأنا أقدّم رجْلًا وأؤخر أخرى والعرق يَسيلُ منّى لأنها لم تكن صناعتى، واذا الخادم قد أقبل ودعا القومَ فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد فدخلت معهم، واذا يحيى جالس على دكة له وسط بستانٍ، فسلمنا وهو يعدّنا مائة وواحدا وبين يديه عشرةٌ من ولده، واذا بمائة واثنى عشر خادما قد أقبلوا ومع كل خادم صينيةٌ من فضة على كل صينية ألف دينار، فوضعوا بين يدى كلِ رجلٍ صينيتَه، فرأيتُ القاضىَ والمشايخَ يضعون الدنانيرَ فى أكمامهم، ويجعلون الصوانىَ تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدى لا أَجْسُرُ على أخذ الصينية، فغمزنى الخادمُ بخسرت وأخذتها، وجعلت الذهبَ فى كمى والصينيةَ فى يدى، وقمتُ وجعلت أتلفّت ورائى مخافة أن أُمنَعَ من الذهاب، فوصلت وأنا كذلك الى صحن الدار ويحيى يلاحظنى، فقال للخادم: ائتنى بهذا الرجل: فأتاه بى فقال: مالى أراكَ تتلفّتُ يمينا وشمالا؟ فقصصتُ عليه قصتى، فقال للخادم: ائتنى بولدى موسى، فأتاه به، فقال: يا بنىّ هذا رجل غريب، فخذه اليك، واحفظه بنفسك ونعمتك، فقبض موسى ولده على يدى، وأدخلنى الى دار من دوره، فأكرمنى غايةَ الإكرام، وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذّ عيشٍ وأتم سرورٍ، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له: الوزير أمرنى بالعطف على هذا الفتى، وقد علمتَ اشتغالى فى بيت أمير المؤمنين، فاقبِضْه اليك وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمنى غايةَ الإكرام، ثم لما كان من الغد تسلّمنى أخوه أحمد، ثم لم أزل فى أيدى القوم يتبادلوننى مدّة عشرة أيام، لا أعرف خبرَ عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء! ، فلما كان اليومُ الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعةٌ من الخدم فقالوا: قم فاخرج الى عيالك بسلام، فقلت: واويلاه! سُلبت الدنانيرُ والصينيةُ وأخرُجُ على هذه الحالة! إنا لله وانا اليه راجعون! فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادمُ السترَ الأخيرَ قال لى: مهما كان لك من الحوائج فارفعها الىّ، فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به، فلما رُفع السترُ

الأخيرُ، رأيتُ حجـرةً كالشمس حسنًا ونورًا ، واستقبلنى منها رائحةُ الندّ والعود ونفحاتُ المسك ، واذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديبـاج ، وحمل الىّ مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، ومنشور بضيعتين وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاثَ عشرةَ سنةً لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غـريب، فلمـا جاءتهم البليةُ ، ونزل بهم يا أمير المؤمنين من الرشـيد ما نزل، أجحفنى عمرُو بنُ مسعدة، وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفى دخلُهما به ، فلمـا تحامل علىّ الدهرُ كنتُ فى آخر الليـل أقصدُ خراباتِ دورهم ، فأندُبُهم وأذكر حسنَ صنيعهم الىّ وأبكى على إحسانهم، فقال المأمون : علىّ بعمرو بن مسعدةَ! فلما أُتِىَ به قال له : تعرف هذا الرجل؟ قال : يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة، قال : كم ألزمتَـه فى ضيعته؟ قال : كذا وكذا ، فقال له : رُدّ اليـه كلَّ ما أخذت منه فى مدته وأفرِغْهُما له ، ليكونا له ولعقبه من بعـده ، قال : فعلا نحيب الرجل، فلمـا رأى المأمون كثرةَ بكائه ، قال له : يا هـذا قد أحسنا اليك فما يبكيك؟ قال : يا أمير المؤمنين وهذا أيضا مـن صنيع البرامكة ! لو لم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصـلَ خبرنى الى أمير المؤمنين ففعل بى ما فعـل ، من أين كنتُ أصـل الى أمير المؤمنين ! قال ابراهيم ابن ميمون : فرأيت المأمون وقد دمعَتْ عيناه وظهر عليـه حزنه، وقال : «لعمرى هـذا من صنائع البرامكة فعليهم فأبك، وإياهم فاشكر، ولهم فَاوفِ، ولإحسانهم فاذكر» .

مما يدل على تقدير المأمون للبرامكة ما رواه القاضى يحى بن أكثم قال : سمعت المأمون يقول : لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحدٌ فى الكفاية والبـلاغة والجودِ والشجاعة، قال القاضى: فقلتُ يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم، ففيمن الشجاعة؟ فقال : فى موسى بن يحيى، وقد رأيت أن أوليه ثغر السند .

***

مكانةٌ عاليــة بلا ريب مكانةُ آل برمك، وسلطانٌ لا حدّ له سلطانُهم، وغنى فاحش قبل الاسلام، وصولة ونفوذُ قولٍ فى دولة الرشيد، فما الذى يا ترى غيَّرَ قلبَ الرشيد عليهم حتى نكبهم ؟

لنذكر ما يقوله المعاصرون ونُعقِّبْ عليه بكلمة هادئةٍ حكيمة لابن خلدون .

أما بَختيشُوع الطبيب المأمونى، فانه يقول نقلا عن أبيه جبريل : إنه لقاعد فى مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم، ردّ عليه ردًّا ضعيفًا، فعلم يحيى أن أمرهم قد تَغَيَّر . قال : ثم أقبل علىّ الرشيدُ فقال : ياجبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحدٌ بلا إذنك! فقلت : لا ولا يَطْمَعُ فى ذلك؛ قال : فما بالنا يُدخَلُ علينا بلا إذن! فقام يحيى فقال : يا أمير المؤمنين قدّمنى الله قبلك، والله ما ابتدأتُ ذلك الساعةَ، وما هو إلا شىءٌ كان خصنى به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى، حتى إن كنت لأدخل وهو فى فراشه مجرّدًا حينا وحينا فى بعض إزاره، وما علمتُ أن أمير المؤمنين كره ما كان يحبّ، وإذ قد علمت فانى أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثــة إن أمرنى سيدى بذلك؛ قال : فاستحيا الرشــيدُ، وكان من أرقّ الخلفاء وجهًا، وعيناه فى الأرض مايرفع اليه طرفَه، ثم قال : ما أردت ماتكره ولكن الناس يقولون؛ قال جبريل : فظننت أنه لم يسنح له جوابٌ يرتضيه، فأجاب بهذا القول، ثم أمسك عنه وخرج يحيى .

أما أحمــدُ بن يوسفَ كاتبُ عصرنا المأمونىّ النابهُ، فانه يحدّثنا عن ثمامة بن أشرس بحديث سننقله لك . وقبل إيراد هــذا الحديث نودّ أن نُذَكّرك بأن محمدَ بنَ الليث الذى سيرد فيه هو محمد بن الليث الذى اختاره المهدىّ كاتبا للسرّ فى مجلس مشاورته لتدبير رأى فى حرب خُراسانَ، وأمره بحفظ مراجعة أعضاء المجالس وإثباتِ مقالتهم فى كتاب .

وربما كان من المفيد أن نزيدَ القارئَ بمحمد بن الليث معرفةً ، لا لأنه من رجالات عصرنا ومن ذوى الأثر الادبىّ القيّم فيه ، ولا لأنه صاحبُ تلك الرسالةِ الشائقةِ التى بُعثَ بها من الرشيد الى ملك الروم التى أثبتناها فى المجلد الثانى من هـذا الكتاب (١) ، بل لانا نرى فى توضيح قدره توضيحًا لقدر البرامكة ، ولأنك حينما ترى الرشيدَ يقبض على محمد بن الليث بسبب البرامكة وكرامتهم ومنزلتهم من نفسه ، لنصحه له بأن يضع حدًّا لاستفحال شأن البرامكة ، وللرجل قدرُه ومنزلتُه ، تستطيعُ أن نتصوّرَ تصوّرًا صميما مكانةَ البرامكة من الرشـيد ومن الدولة ومن العصر الذى هم فيـه ، ولأنك حينما تعلم أن الرشـيدَ أطلق محمد بن الليث من حبسه واعتذر له قبيلَ نكبة البرامكة تستطيع أن تعلم اذًا مقدارَ التحوّل الذى نال نفسيّة الرشيد .

سنرى فى مشاورة المهدىّ التى ذكرها ابن عبد ربه فى العقد (٢) والتى أثبتناها لك فى المجلد الثانى أن محمدَ بنَ الليث يتكلّم فى المجلس — وكان الرشـيدُ بلا شك ولى العهد — كلاما يُرضِى الرشيد . اذًا فمحمد بن الليث كان الى جانب وظيفته كاموس لمجلس المشاورة ، صاحب رأىٍ فى مجلس الاستشارة نفسه يُعتدُّ به . فهو ذو شخصيةٍ عظيمة من ذوى شخصيات الدولة الذين لكلامهم خطرُه ولقولهم أثرُه .

قال : أوّل ما أنكر يحيى بن خالد من أمره أن محمـد بن الليث رفع رسالةً الى الرشيد يعظه فيها ، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يُغنِى عنك من الله شيئا ، وقد جعلتَه فيما بينك وبين الله ، فكيف أنتَ اذا وقفتَ بين يديه ، فسألك عما عملتَ فى عباده وبلاده ، فقلت : يارب إنى استكفيتُ يحيى أمورَ عبادك ، أتُراك تحتج بحجة يرضَى بها ! مع كلام فيه توبيخٌ وتقريعٌ ". فدعا الرشيدُ يحيى ، وقد تقدّم اليه خبرُ الرسالة ، فقال : تعرِفُ محمدَ بن الليث ؟ قال : نعم ؛ قال فأىّ الرجال هو ؟ قال : متهم على الإسلام ، — لاحظ كيف يتّهمون فى الدّين — فأمر به الرشيد فوضع فى المطبَق دهرا . فلما تنكر الرشـيدُ للبرامكة ، ذكره فأمر بإخراجه

(١) و (٢) أنظر باب المنثور فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

فأُحْضِرَ، فقال له بعد مخاطبة طويلة : يا محمد، أتحبّني؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ؛ قال : تقول هــذا ! ! قال : نعم وضعتَ فى رجلى الأكبالَ وحُلْتَ بينى وبين العيــال، بلا ذنب أتيتُ ولا حَدَثٍ أحدثت، ســوى قول حاسد يكيد للإســلام وأهله، ويحبُّ الإلحــادَ وأهلَه، فكيف أُحبّكَ ! ! قال : صدقتَ، وأمر باطلاقه ؛ ثم قال : يامحمد أتحبنى؟ قال : لا والله يا أمــير المؤمنين ولـكن قد ذهب ما فى قلبى ؛ فأمر أن يُعطَى مائة ألف درهم فأُحْضِرتْ ؛ فقال : يامحمد أتحبنى؟ قال : أما الآن فنعم ! قد أنعمتَ علىّ وأحسنتَ إلىّ ؛ قال : إنتقمَ الله ممن ظلمك وأخذ لك بحقك ممن بعثنى عليــك ؛ قال ثمامةُ : فقال النــاسُ فى البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أوّلَ ما ظهر من تغير حالهم .

فمــاذا حدث بعد ذلك ؟

حدث — كما يخبرنا أحدُ المعاصرين، وهو محمد بن الفضل بن سفيان مولى سليمان بن أبى جعفر — أن يحيى بن خالد دخل دارَ الرشيد فى الآونة التى نحن فى صددها، فقام الغلمانُ اليه احترامًا وإجلالًا، فلما كان من الرشيد إلا أن قال لمسرور الخادم : مُرِ الغلمانَ ألّا يقوموا ليحيى اذا دخل الدارَ ! قال : فدخل فلم يقم له أحد فأرْبَدَّ لونُه ؛ قال : وكان الغلمانُ والحجّابُ بعــدُ اذا رأوه أعرضوا عنه ؛ قال : فكان ربما استسقى الشَّربةَ من المــاء أو غيره فلا يسقونه ؛ وبالحَرَى إن سَقَوْه أن يكون ذلك بعد أن يدعوَ بها مرارا .

ولننظر فى سبب آخر يرويه لنا أحدُ المطلعين على أخبار ذلك العصر، وهو أبو محمــد اليزيدىّ، قال : من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبدالله بن حسن فلا تُصدّقه ؛ وذلك أن الرشيدَ دفع يحيى الى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلةً من الليالى، فسأله عن شىء من أمره فأجابه، الى أن قال : اتق الله فى أمرى ولا تتعرض أن يكون خصمُك غدًا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فوالله ما أحدثتُ حدثًا، ولا آويتُ محدثا ؛ فرقّ عليه وقال له : اذهب حيث شئتَ من بلاد الله ؛ قال : وكيف أذهبُ ولا آمن أن أُوخَذَ بعد قليل فأُرَدَّ اليك أو الى غيرك ! فوجّه معه من أدّاه الى مأمنه . وبلغ الخبرُ الفضلَ بن الربيع من عين

كانت له عليه من خاص خدمه، فبَلَا الأمرَ فوجده حقا وانكشف عنده، فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبأ بخبره، وقال : وما أنت وهذا! لا أُمَّ لك ! فلعل ذلك عن أمرى ! فانكسر الفضلُ وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه، الى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال، قال : بحياتى؟ فأحجم جعفر، وكان من أدقّ الخلق ذهنًا وأصحّهم فكرا، فهجس فى نفسه أنه قد علم بشىء من أمره، فقال : لا وحياتك ياسيدى، ولكن أطلقته وعلمتُ أنه لا حياة به ولا مكروه عنده، قال : نِعْمَ ما فعلتَ، ما عَدَوْتَ ما كان فى نفسى، فلما خرج أتبعه بصره، حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال : قتلنى اللهُ بسيف الهدى على عَمَلِ الضلالة إن لم أقتلك ! فكان من أمره ما كان .

سبب رابع رواه أحمد بن زهير، ونذكره لك هنا على علاته، استكمالا للموضوع من كل نواحيه . يقول الطبرى : إنه يظن أن المصدرَ للرواية هو زاهر بن حرب، قال : « إن سببَ هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيدَ كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدى ، وكان يحضرهما اذا جلس للشرب ، وذلك بعد أن أعلم جعفرا قلّةَ صبره عنه وعنها، وقال لجعفر تزوّجها ليحلّ لك النظرُ اليها اذا أحضرتُها مجلسى، وتقدّم اليه ألا يمسّها ولا يكون منه شىء مما يكون للرجل الى زوجته ، فزوّجها منه على ذلك ، فكان يُحضرهُما مجلسه اذا جلس للشرب ، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما ، فيَثْمَلان من الشراب، وهما شابان فيقوم اليها جعفر فيجامعها، فحملتْ منه وولدت غلاما، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك، فوجهتْ بالمولود مع حواضنَ له من مماليكها الى مكةَ، فلم يزل الأمر مستورا عن هارون ، حتى وقع بين عبّاسة وبعض جواريها شرّ ، فأنهتْ أمرَها وأمرَ الصبىّ الى الرشيد وأخبرته بمكانه ومع من هو من جواريها وما معه من الحلى الذى كانت زينته به أمه، فلما حجّ هارونُ هذه الحجةَ — سنة سبع وثمانين ومائة — أرسل الى الموضع الذى كانت الجاريةُ أخبرته أن الصبىّ به، مَنْ يأتيه بالصبىّ، وبمن معه من حواضنه، فلما أُحْضِرُوا

سأل اللواتى معهنّ الصبىَّ ، فأخبرنه بمثل القصة التى أخبرته بها الرافعةُ على عبّاسةَ ، فأراد ، فيما زعم ، قتلَ الصبىّ ثم تحوب عن ذلك ، وكان جعفر يتخذ للرشيد طعاما كلما حج بعُسفان فيقْـرِيه اذا انصرف شاخصا من مكة الى العراق ، فلمـا كان فى هذا العام اتخـذ الطعامَ جعفرٌ كما كان يتخـذه هنالك ، ثم استزاره فاعتلّ عليـه الرشيدُ ولم يحضُرْ طعامَه ؛ ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزلَه من الأنبار ، فكان من أمره وأمر أبيه ما كان » .

أمّا نحن فلا نريد القطعَ بأنّ نكبة البرامكة كانت أثرًا لسببٍ بعينه من هـذه الأسباب ، وربمـا كانت نتيجةً لطائفةٍ من الأسبابِ مجتمعةٍ ، منها ما نعرفه ، ومنها ما لم نعرفه بعـد ، ونحب ألّا يفوتنا هنا أن نفترضَ فرضًا نعـترف بأنه فرضٌ لا أكثر ولا أقل ، ونعترف بأنّه فى حاجةٍ الى التحقيق العلمىّ ، ولكنَّا نعترف أيضـا أنَّ عرضه على علاته لا يخلو من النفع ، وهو أنَّ البرامكة كانوا فيما يظهر متأثرين بالناحية السياسية لمذهب المعـتزلة (١) ، وهى الاعتدال بين أهواءِ الأحزابِ السياسية المتطرفةِ وتلطيفُ الخصومةِ بين جناحى الحزب الهاشمىّ فلم يرضَ الرشيدُ عن هذا النحو من السياسة ، ومالأه على ذلك النفعيون من أنصار الجناح العباسىّ . وسنرى بعـد قليلٍ أن المأمون كان يرى رأى البرامكة ، فى هـذا النحو من السياسة المعتدِلة ، الموفِّقة بين وجهات النظر المختلفة .

* * *

أما كيفيـة القبض على البرامكة ، واحتياطُ الرشيد وحذره قبـل قتلهم ، ومصادرته لأموالهم ، وما قالته الشـعراء فى رثائهم ، فحديثٌ طويل يتطلّبُ رسالةً خاصة ، وفقنا الله لدراسـة موضوع البرامكة ونكبتهم وأثرهم فى الدولة العباسية فى موضوعنا (عصر الرشـيد) فى القريب العاجل إن شاء الله .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبـد الوهاب النجار فى هـذا بقوله : " ليس الاعتزال مذهبا سـياسيا ولم ترج سوق الاعتزال فى زمن الرشيد ولم يكن شيئا يعتدّ به على عهده " .

على أننـا نرى من المستصوب قبل أن نتم هـذه الفذلكة الموجزة أن نختمها بكلمة لابن خلدون ، لا تخلو من تحايـلٍ صحيح ، ومذهب فى الموازنة رجيح ، وباب فى التاريخ جميل المنهج ، معقول التعليل .

قال ابن خلدون : إنما نَكَبَ البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموالَ الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المـال فلا يصل اليه ، فغلبوه على أمره وشَرِكُوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرّف فى أمور ملكه ، فعظمت آثارُهم وبَعُد صِيتُهم وعَمّروا مراتبَ الدولة وخُطَطَها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عمن سواهم : من وزارةٍ وكتابةٍ وقيـادةٍ وحجابة وسيفٍ وقلم . يقال : إنه كان بدار الرشـيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيفٍ وصاحب قلم ، زاحموا فيها أهلَ الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح ، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولىّ عهد وخليفة ، حتى شبّ فى حِجْره ، ودرَج من عُشّه ، وغلبه على أمره ، وكان يدعوه ياأبت ، فتوجه الإيثارُ من السلطان اليهم ، وعظمت الدالّةُ منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوهُ ، وخضعت لهم الرقابُ ، وقُصِرَتْ عليهم الآمالُ ، وتخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتُحَفُ الأمراء ، وتسرّبت الى خزائنهم ، فى سبيل التزلف والاستمالة أموالُ الجبـاية ، وأفاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوّقوهم المننَ ، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدِمَ ، وفكوا العانىَ ، ومُدِحُوا بما لم يُمدح به خليفتُهم ، وأَسْنَوْا لعُفَاتِهم الجوائزَ والصِّلات ، واستولوا على القرى والضِّياع من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك ، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصّة ، وأغصّوا أهلَ الولاية ، فكُشِفت لهم وجوهُ المنافسة والحسد ، ودَبّت الى مهادهم الوثيرة من الدولة عقارب السّعاية ، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهـم ، لم تَعطِفْهم ، لمـا وقر فى نفوسهم من الحسد ، عواطفُ الرَّحِم ، ولا وَزَعتهم أواصرُ القرابة ، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة وكامن الحقود التى بعثتها منهم صغائر الدالة ، وانتهى بهـم الإصرارُ على شأنهم الى كبائر المخالفة .

الحياة العلميـة فى العصر العباسىّ

توطئـة — حركة النقـل — العلوم القرآنيـة واللغـوية والفقهيـة .

(ا) توطئـة :

هـذه فذلكة مجملة بمثابة توطئة لما سنعرض له بما يقتضيه المقام من شرح وإيضاح في العصر المأمونى . فهمتّنا الآن أن نلمّ ببيان العناصر المهمة فى الحياة العلمية العباسـية .

نعلم من تاريخ اليونان القديم أن أثر اليونان فى الثقافة الانسانية عظيمٌ عميقٌ ، لأنه الى جانب إمداد العالم بمنتجات فلاسفتهم وعلمائهم وكتابهم ومفكريهم قد أمدّوه أيضا بالنُّخَب والمُلَح مما وقف عليه اليونان من زُبدة علوم الأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . فاذا ما قلنا : إن العرب وقفوا على الفلسفة اليونانية ، ومُنتجات العقول اليونانية ، فكأننا نقول ضمنا إنهم وقفوا على آثار العقليات الإنسانية العامة ، وآثار الثقافة القديمة والحضارات السالفة .

ونعلم أن الدولة العباسية كانت فارسيةً الى حدّ مّا ، أو على الأقل كانت مُتسمةً بالطابع الفارسىّ متأثرةً به . ونعلم من تاريخ سقوط الدولة الرومانية للأستاذ «جبون» أن «جستنيان» اضطهد مدارس أثينا ، لأنه كان خصمًا للفلسفة الوثنية ، وكانت الفلسفة الأفلاطونية حين ذاك قد آتت ثمرتها ونضجت ، ثم هرع أصحابها الى الفرس ، واتصل بأنوشروان سبعةٌ من علماء اليونان فأكرم وفادتهم ، وأفسح لهم مجال التأليف والنقل فيما هم أهله وأصحاب القِدْح المعلّى فيه . ويقول ابن النديم فى الفهرست : إن الفرس نقلت فى القديم شيئًا من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية ، فنقل ذلك الى اللسان العربىّ عبد الله بن المقفّع . فمن المعقول اذًا أن يكون

العربُ حين اتصلت ثقافتُهم بالثقافة الفارسية وتأثروا بها، تأثروا فى الوقت نفسه بالثقافة اليونانية أيضا . ولم تكن الثقافة الفارسية مما يُستهان بأمره أو يُغْمَطُ قَدرُه، لأنك اذا استقصيتَ تاريخ ملوكهم الكبار، مثل سابور بن أردشير، تجد أنه فى خلال عهده بعث الى بلاد اليونان، وجلب كتبَ الفلسفة ، وأمر بنقلها الى الفارسية ، واختزنها فى مدينته وأخذ الناس فى نسخها وتدارسها وهكذا . فالثقافة العربيةُ أفادت أيّما إفادة من منتجات الفرس وآثارهم وتراجمهم .

(ب) حركة النقـــل :

لنتدرّج الآن الى شيء من التوضيح، فننقل لك ما يقوله ابنُ صاعد الأندلسىّ فى هذا الباب ، لأنه مختصَرٌ عما تعرض له أمثال الأساتذة « نلّينو » و « ابن أبى أصيبعة » «والقفطى» «وابن النديم» وغيرهم ممن سيكونون عدّتنا وموئلنا حين نعرض لهذه البحوث فى العصر المأمونىّ .

يقول ابن صاعد : « إن أوّل علم ٱعتُنِى به من علوم الفلسفة علمُ المنطق والنجوم . فأما المنطق فأوّل من اشتهر به فى هذه الدولة عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسىّ، فإنه ترجم كتبَ أرسطاطاليس المنطقية الثلاثة التى فى صورة المنطق، وهى كتاب «قاطاغورياس» وكتاب «بارى أرمنياس» وكتاب «أنولوطيقا» وذكر أنه لم يترجم منه الى وقته إلا الكتاب الأول ، وترجم ذلك المدخل الى كتاب المنطق المعروف « بايساغوجى » « لفرفوريوس الصورى » ، وعبّرَ عما ترجم من ذلك عبارةً سهلةً قريبةَ المأخذ ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندى المعروف بكليلةَ ودِمنةَ ، وهو أوّل مَنْ ترجمَ من اللغة الفارسية الىَ اللغة العربية......

وأما علم النجوم فأوّل من عُنِىَ به فى هذه الدولة محمدُ بن ابراهيم الفزارى؛ وذلك أن الحسين بن حميد المعروف بابن الآدمىّ ذكر فى تاريخه الكبير المعروف بنظام العقد : «أنه قدم على الخليفة المنصور سنة ست وخمسين ومائة رجل من الهند عالم بالحساب المعروف

بالسند هندى فى حركات النجوم مع تعاديل معلومة على كُردجات محسوبة لنصف نصف درجة مع ضروب من أعمال الفلك ومع كسوفين ومطالع البروج وغير ذلك، فى كتاب يحتوى على اثنى عشر بابا، وذكر أنه اختصره من كردجاتٍ منسوبةٍ الى ملك من ملوك الهند يسمى فبغر، وكانت محسوبةً لدقيقة؛ فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب الى اللغة العربية، وأن يؤلف منــه كتابٌ تتخذه العرب أصلًا فى حركات الكواكب؛ فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزارى، وعمل منه كتابا يسميه المنجمون "بالسند هند الكبير" وتفسيرُ السند هند باللغة الهندية : الدهر الداهر . »

وقد يكون من المستصوب أن نفهم حقيقةً وجهة نظر العرب حين ذاك الى علم الفلك؛ فهــم كاليونانيين فى زمن "بطليموس" كان غرضُهم فى الهيئة تبينَ الحركات السماوية مع كل اختلافاتهـا المرئية، بأشكال هندسـية، تمكنهم من حساب أوضاع الكواكب لأىّ وقت فُرِض، فإن كانت تلك الأشكالُ تصلُحُ لحسابِ الظواهر رضُوا بها وما اهتموا بالبحث فى حقيقة حركات الأجرام السماوية، وذلك لظنهم أن البحثَ عن حقيقة الحركات وعللها يكون على المشتغلين بالحكمة والطبيعة والحكمة الالهية .

ونحن نجد، بقطع النظر عن أحكام النجوم التى صارت غير مقبولة فى أيامنا، أن الهيئة عند العرب كما يقول الأستاذ «نلينو»، قد اشتملت على علم الهيئة الكروىّ والعملىّ، وقسم صغيرٍ من النظرىّ يخصّ الكسوفاتِ واستتارات الكواكب السيارة، مع علم التاريخ الرياضىّ وعلم أطوال البلدان وعروضها على طريقة كتاب الجغرافية لبطليموس، فقد خرج من علم الهيئة عنــد العرب علم الميكانيكا الفلكية وعلم طبيعة الأجرام السماوية وأكثر علم الهيئة النظرى، إذ إنه يبحث عن حقيقة حركات الكواكب .

فلا مِرْيةَ اذًا فى أن العرب، الى جانب وقوفهم على الفلسفة الفارسية والحكمة اليونانية، قد وقفوا أيضا على آخر الاراء العلمية الخاصة بعلم الفلك فى ذلك الحين، وأنهم وقفوا على آراء بطليموس فيما وقفوا عليه من الآراء . وبطليموس — كما قال البتانى — قــد تقصى

علم الفلك من وجوهه ، ودلّ على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسى والعددى الذى لا تُدفَعُ صحتُه ولا يُشَكُّ فى حقيقته ، فأمر بالمحنة والاعتبار بعده ، وذكر أنه قد يجوز أن يُستدرَكَ عليه فى أرصاده على طول الزمان ، كما استدرك هو على أبرخس وغيره من نظرائه ، لجلالة الصناعة ، ولأنها سماويةٌ جسيمةٌ لا تُدرَكُ إلا بالتقريب .

ولا يفوتنا أن نشير هنا الى ترجمة كتاب زيج بطليموس المقول بأن أيوب وسمعان فسراه لمحمد بن خالد البرمكى . ونرجو حين تعرّضنا لهذه الموضوعات فى العصر المأمونى أن نُلم بها إلماما أدق وأوسع .

على أنه يجدر بنا فى هـذه الفذلكة أن نشير الى الكتب البهلوية الثلاثة التى استطاع الأستاذ « نللينو » أن يكتشف أثر نقلها فيما قبـل انتهاء القرن الثانى للهجرة . فواحد منها فى علم الهيئة الحقيقى وهو زيج الشاه أو زيج الشهريار ، والآخران فى صناعة أحكام النجوم وهما المبزيذج فى المواليد المنسوب الى بُزُرْجَمِهْر ، وكتاب صور الوجوه لتنكلوس ؛ وكذلك يجدر بنا أن نشير الى أن كتاب المجسطى نقل فى أيام الرشيد .

وإنا نلخص لك هنا ما لاحظه المرحوم جورجى بك زيدان فى أمر النقـل من أن العرب ، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان ، لم يتعرّضوا لشىء من كتبهم التاريخية أو الأدبيـة أو الشعر ، مع أنهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود ، فقد نقلوا جمـلةً صالحة من تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم وترجموا الشاهنامة ، ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودوتس ولا جُغرافية استرابون ولا إلياذة هوميروس ولا أوديسّته . وسبب ذلك أن أكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتُهم فى الفلسفة والطبّ والنجوم والمنطق (١) .

(١) ويرى أستاذنا الشيخ عبدالوهاب النجار : «أنه يمكن ارجاع ذلك الى سبب يراه أهم . وهو أن الراحلين من اليونان أيام الاضطهاد الى حران لم يكونوا أدباء ولا مؤرخين وإنما كانوا فلاسفة وأطباء . فأسسوا فى تلك البـلاد مدرستهم وأخذ أهل البلاد عنهم ما يعرفون . فالأدب والتاريخ والجغرافيا لم يهاجرن الى البلاد التى أخذ عنها العرب وإنما هاجر الطب والفلسفة والهندسة والرياضة» .

ولا يُستخَفّ بما اقتضاه ذلك النقل، عن أشهر أمم الأرض فى ذلك العصر، من التأثير فى الآداب الاجتماعية والآراء العامة ولا سيما ما نقل عن الفارسية، لأن معظمه فى الأدب والتاريخ؛ فدخل الآدابَ العربيـةَ كثيرٌ من آداب الفرس الساسانيـة وأفكارهم، اقتبسها العربُ من الكتب التى نُقِلَتْ عنهم، ولم يبق منهـا إلا ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنـة، ونُتَفٌ متفرقةٌ فى بعض الكتب . وقد درس فى هذا الموضوع المُتَشَرِّقُ «اينوا سترانشتيف» الروسى ووضع فيه كتابا طبع فى بطرسبرج سنة ١٩٠٩ م .

على أنا نلاحظ أن تأثير هذا النقل عن الفرس لا يزال قائما الى الآن فى بعض الكتب العربية التى وُضِعَت فى عصور قريبـة من عصر المأمون . نذكر منها، على طريق التمثيل، كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة، و« التاج » المنسوب للجاحظ . فعلى هذه المنقولات وأمثالها بنى المسلمون ما ألّفوه فى هذه العلوم أثناء تمدينهم غير ما اختبروه وأضافوا اليها من عند أنفسهم .

وإن المطلع على ما جاء بالفهرست لابن النديم خاصا بتلك المنقولات يعلم، مع شديد الأسف، أن جلّها قد ضاع؛ على أنه كان للقليل الباقى منها أثرُه الفعّال فى نهضة أوروبا. وأهم ما بقى من ذلك التراثِ القيّم هو كتابُ المجَسْطِى لبطليموس، ترجمه الحجاج بن يوسف وكتاب السياسة فى تدبير الرياسة، ترجمه يوحنا بن البطريق، وبعض آثار لقسطا بن لوقا البعلبكى وغيرها .

(خ) العلوم القرآنية واللغوية والفقهية :

كان المؤرّخون القدماء يقولون فى العلوم القرآنية إنه قد تفرّع عن القرآن نحو ثلثمائة علم . ونحن نحيلك على أمثال "مفتاح السعادة" لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده المطبوع بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد، ومقدّمة ابن خلدون و" مفاتيح العلوم" وغيرها . وأما النحاة وطبقاتهم واللغـة وما دخلها من الألفاظ المستحدثة فى العصر العباسى، فأمامك أمثال "شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل" لشهاب الدين

الخفاجى "ودرّة الغوّاص" للحريرى، وكتاب "المعرب من الكلام الأعجمىّ" لأبى منصور الجواليق المتوفى فى منتصف القرن السادس وطبع فى ليبسك سنة ١٨٩٧ م وكتاب «طبقات النجاة» المعروف "بنزهة الألباء فى طبقات الأدباء" لأبى البركات عبد الرحمن ابن محمد الأنبارى، وغيرها مما لا يقع تحت حصر .

وحسبنا أن نقول لك : إنه لم يكن فى الجاهلية ولا فى صدر الإسلام ذلك التراث العظيم من الألفاظ الطبية وأسماء الأدوية والجراحة وأسماء الأمراض والاصطلاحات الفلسفية وغير ذلك مما وُضع فى العصر العباسىّ خاصة أمثال قولهم صيدلية ، وتشريح ، ونبض، وهضم، ومبرّدات، وقابض، ومسهل، وتشنّج، وذات الرئة، وبنج، والهيولى، والقاموس ، والقانون ، الى مئات الألفاظ من أمثال ذلك النوع الذى تجده فى مظانه ، ولا نرى حاجة بنا الى الاستطراد فيه .

ويجدُر بنا هنا أن نشيرَ الى أثر من أجلّ الآثار الاقتصادية للدولة الإسلامية فى بداية العصر العباسىّ . ويمكن النظر اليه كما ينظر الاسكتلنديون الى كتاب "جون سنكلر" عن تاريخهم الاقتصادى . وهذا الأثر القيم الخالد الذى نظّم جبايةّ الدولة أجملَ تنظيم وأدقه ، هو كتاب الخراج للفقيه الأكبر أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارىّ صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان .

الفصل العاشر

الحالة الأدبية فى صدر عصر بنى العباس

توطئة — الخطابة والخطباء — الكتابة — مجالس الخلفاء والمناظرة — الشعر .

(أ) توطئـــــة :

أسلفنا لك القولَ فى الحالة الأدبية فى عصر بنى أمية التى كانت فى الواقع، الى جانب ما بيناه لك من اختلافها عن العصر الجاهلىّ، قريبةً فى جملتها من غضاضة البدوِ وخشونة المدر، فلم تتسع لها الاغراضُ ولم تتفـرج لها الجوانبُ إلا بقـدر ما تنطبق عليـه جزيرةُ العرب وباديةُ الشام من الأفكار والأخيـلة، وما تُوحى به غياضُ دمشقَ ونَبراتُ معبـدٍ، من صفاء الفكرِ ووضوحه، وجلاءِ المعنى واقترابِه، لا يبالى القومُ الإمعانَ فى الآراء البعيدة والأفكار الدقيقة، وإنمـا كان همُّهم، كما يقولُ الرواة : أن تُجوِّدَ ألفاظُهم، وتجلّ تراكيبهُم. وفى الحقيقة أنهم قد اقتعدوا فى ذلك من البلاغة ذِرْوَتَها، وبلغوا من الجزالة غايتها، فكان الرجل منهم يضع لسانه حيث أراد ومتى شاء . وحسبك أن تنظر الى ما جاء به زيادُ وعبد الملك والحجاج، وما أرسله جرير والأخطل والفرزدق، لتعرفَ أين كان القومُ من البلاغة، وكيف تملكوا أَعِنّتَها فى أيديهم . فلمـا جاءت دولةُ العباسيين وقامتْ أركانُها على سواعدِ العجم ، ودَلَفَ اليهـا السُّرْيانُ واليهودُ والفرس، وضمّتهـم الدولةُ الى أحضانها، وأفرجت لهم بين ذراعيها، وأنزلتهم فى كثير من أمور الدولة وشؤونها، وأجرت عليهم من الأرزاق والخيرات، وتقدّموا لها بتراث آبائهم وعُصَارة قرائح علمائهم، وحوّلوا ميراثهم الى ميراثها، أفادتْ لُغَةُ العرب، وآمتزجت المدنيةُ الساميّةُ بالآرية، وآتسعت دائرة المعارف، وتشعّبت أغراضُ اللغة، وثمّر كلُّ ذى فضلٍ فى تدوين العلوم وآستنباط أحكامها ووضع الفنون واصطلاحاتها وترتيب الدواوين ومراسيمها، وترجموا كتب الحكمة والمنطق، وازدهرت الآدابُ ازدهارَ

الفَتَاء والقوة، فانتظمت رخاءَ الدنيا وسعادةَ الإنسان ، وآزينت بالحجج الحكمية والبراهين العقلية . وتولّى كِبْرَ ذلك بشارٌ وابنُ المقفع وأبو نواس وأضرابهم، وأدخلوا اليها الجديدَ عن طريق المجاز والقياس والاشتقاق، ولم يتحرجوا من استعمال الألفاظ الأعجمية فى أسماء الألوان والانية والفرش، وتأنّقوا فى صوغ العبارات وإحكامها، حتى مال بعضُهم الى السجع والازدواج . ومن أمثلة ذلك ما كتبه أبو شراعة الى سعيد بن مسلم إذ يقول : "أستنسئُ اللهَ أجلكَ، وأستعيذُه من الآفات لك ، وأستعينُه على شكر ما وهب من النعمة فيك إنه لذلك ولىّ ، وبه ملىّ . أتانى غلامُك المليحُ قدّه ، السعيد بملكك جدُّه، بكتابٍ قرأته ، غيرَ مستكرَه اللفظ ولا مُزْوَرٍّ عن القصد، ينطق بحكمتك ويُبينُ عن فضلك" .

وجملة القول أن اللغة قد تجدّد إهابُها، وانفرجت شِعَابُها ، ونوّعت أساليبُها ، بما دخل عليها من نعيم الدولة وترَف الحضارة، وما احتوته من العلوم والفنون، حتى كانت سيدةَ لغات العالَم جميعا .

(ب) الخطابة والخطباء :

كانت الداعيةُ الى الخطابة فى العصر العباسىّ قويّةً متوافرةً بليغةً . كانت قويّةً لأن طبيعةَ الانقلابات السياسية الخطيرة، والدعوات المذهبية الحادّة، والثورات الاجتماعية العنيفة، من شأنها خَلقُ مجالاتِ التكلم وتقوية الملكات الخطابية وتنميتها وزيادة ثروتها والعمل على صقلها وبلاغتها . وكانت متوافرة لتعدّد موضوعاتها وتشعّب مناحيها ولانكباب الدُّعاة والنفعيين عليها لانتهاز أمثال تلك المواقف . وكانت بليغةً لقرب العصر العباسىّ من عصر البلاغة الإسلامية الأُمَوية من ناحية الحرارة والتشيّع الى بنى العباس، وقوّة الحاجّة فى إنكار ما انتهكه الأمَويون من حُرُمات الدين، ولتعدّد أسباب التفاضل بين آل العباس والعلويين .

وإن نظرةً تحليليةً الى خطبة المنصور التى خطبها حينما أخذ عبدَ الله بن الحسن وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته، تُعزز قولنا وتؤيد حكمَنا . قال : « يأهلَ خُراسانَ

أنتم شيعتُنا وأنصارُنا وأهلُ دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خيرٌ منا ، وإن اهــلَ بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم ، والله الذى لا إله إلا هو ، والخلافةَ فلم نَعْرِض لهم فيهــا بقليلٍ ولا بكثيرٍ ، فقام فيهــا علىّ بن أبى طالب فتلطّخ وحكم عليــه الحكمان ، فافترقت عنــه الأمةُ ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليــه شيعتُه وأنصارُه وأصحــابُه و بطانتُه وثقاتُه فقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن على فوالله ما كان فيها برجل ! قد عُرِضَتْ عليــه الأموالُ فقبلها فدسّ اليه معــاويةُ : إنى أجعلك ولىَّ عهــدى من بعدى ، فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه ، فأقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسينُ بن على فخدعه أهلُ العراق وأهلُ الكوفة أهلَ الشقاق والنفاق والإغراق فى الفتن أهلُ هذه المدرة السوداء — وأشار الى الكوفة — فوالله ما هى بحربٍ فأحاربها ولا سِلْمٍ فأسالمها ، فرق اللهُ بينى و بينها ، فخذلوه وأسلموه ، حتى قُتِلَ . ثم قام من بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة وغرّوه فلما أخرجوه ، وأظهروه أسلموه ، وكان قد أتى محمدَ بن على فناشده فى الخروج وسأله ألا يقبــل أقاويلَ أهلِ الكوفة وقال له : إنا نجد فى بعض علمنا أن بعضَ أهل بيتنا يُصْلَبُ بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلكَ المصلوبَ ، وناشده عمّى داود بن على وحذّره غدرَ أهل الكوفة ، فلم يقبل وتم على خروجه فقُتِــلَ وصُلِبَ بالكُناسة (١) . ثم وثب علينــا بنو أميــة فأماتوا شرفنا وأذلوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا ترةٌ يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم ، فنفونا من البلاد فصرنا مرّةً بالطائف ومرّةً بالشأم ومرة بالشّراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا ، فأحيا شرفنا وعزّنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهلَ الباطل وأظهر حقنا وأصار الينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقرّ الحق مقرّه وأظهر مناره وأعزّ أنصاره وقطع دابرَ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فلما استقرّت الأمورَ فينا على قرارها

(١) الكُناسة بالضم : محلة بالكوفة .

من فضل الله فيها وحكمه العادل لنـا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لمـا فضّلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم .

جهـلًا علىّ وجُبنًا عن عدوّهمُ * لبئست الخلّتان الجهلُ والجبنُ

فإنى والله يأهل خراسان ما أتيتُ من هـذا الأمر ما أتيتُ بجهالةٍ . بلغنى عنهم بعض السقم والتعرّم، وقد دسست لهم رجالا فقلت : قم يافلان، قم يافلان فخذ معك من المـال كذا، وحذوتُ لهم مثالا يعملون عليـه، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينـة فدسّوا اليهـم تلكَ الأموالَ، فوالله ما بقى منهم شيخٌ ولا شابٌّ ولا صغيرٌ ولا كبيرٌ إلا بايعهم بيعـة استحللتُ بها دماءَهم وأموالهم وحلّتْ لى عند ذلك بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علىّ فلا يرون أنى أتيتُ ذلك على غير يقين . ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ .

ولقـد يُلاحظ على الخطابة العباسية اتسامُها بطابع النعرة الدينيـة لمباهاتهم بصلتهم من النبىّ، كما يلاحظ عليها اللغةُ « الأتوقراطيةُ » التى لا تختلف فى شىء عن لغة باباوات رُومةَ فى العصور الوسطى ولغـة الملوك الذين يدينون بنظرية « حقوق الملك المقدّسة » وأنهم ورثة الله فى أرضه وممثلوه بين خلقه ... .

خطبة للمنصور الخليفة العبـاسىّ

خطب فى مكة فقـال :

أيها الناس، إنما أنا سطانُ الله فى أرضه أَسُوسُكم بتوفيقهِ وتسديدهِ وتأييدهِ، وحارسُه على ماله أعملُ فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه، فقد جعلنى الله عليـه قُفْلا إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم، وإن شاء أن يُقفلنى عليها أقفلنى ؛ فارغبوا الى الله وسلوه فى هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم من فضله ما أعلمكم به فى كتابه إذ يقول : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عليكم نِعمَتِي ورَضِيتُ لكمُ الإسلاَمَ دِينًا ﴾ أن يوفقنى للرشاد والصـواب، وأن يُلهمَنى الرأفةَ بكم والإحسانَ اليكم . أقول قولى هـذا وأستغفر الله لى ولكم »

خطبة للخليفة المهدى

الحمد لله الذى ارتضى الحمدَ لنفسه ، ورضِىَ به من خلقه ، أحمَدُه على آلائه وأُمجّدُه لبلائه ، وأستعينه وأُومن به وأتوكل عليه توكلَ راضٍ بقضائه وصابرٍ لبلائه . أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله فإنّ الاقتصارَ عليها سلامةٌ ، والترك لها ندامة . وأحثكم على إجلال عظمته وتوقير كبريائه وقدرته ، والانتهاء الى ما يقرّب من رحمته ، وينجى من سخطه ، ويُنال به ما لديه من كريم الثواب ، وجزيل المآب . فاجتنبوا ما خوّفكم الله من شديد العقاب وأليم العذاب ووعيدِ الحساب ، يوم تُوقفونَ بين يدى الجبار ، وتُعرَضُونَ فيه على النار . يوم لا تَكلَّمُ نفسٌ إلا بإذنه ، فمنهم شقىّ وسعيد . يومَ يفرّ المرء من أخيه وأمّه وبنيه لكل آمرئ يومئذ شأن يغنيه . يوم لا تجزى نفسٌ عن نفس شيئا ولا يُقبلُ منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعةٌ ولا هم ينصرون . يوم لايجزى والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جاز عن والده شيئا ، إن وعدَ الله حقّ فلا تغرّنكم الحياةُ الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغَرور . فإن الدنيا دارُ غُرور وبلاءٍ وشرورٍ وآضمحلالٍ وزوالٍ وتقلبٍ وآنتقالٍ . قد أفنتْ من كان قبلكم وهى عائدةٌ عليكم وعلى مَنْ بعدكم . من ركن اليها صَرَعته ، ومن وثق بها خانته ، ومن أمّلها كَذَبته ، ومن رجاها خذلته . عِزُّها ذُلّ ، وغناها فقرٌ . والسعيدُ مَنْ تركها والشقىّ مَنْ آثرها . والمغبونُ فيها من باع حظّه من دار آخرته بها . فالله الله عبادَ الله ! والتوبةُ مقبولةٌ والرحمةُ مبسوطةٌ : وبادروا بالأعمال الزكية فى هذه الأيام الخالية قبل أن يؤخذَ بالكَظَم وتَندَموا فلا تَنالون الندمَ يومَ حسرةٍ وتأسّفٍ ، وكآبةٍ وتلهّفٍ . يومٌ ليس كالأيام وموقف ضنك المقام .

خطبة لهارون الرشيد

الحمد لله الذى نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصرُه على أعدائه ونؤمن به حقًّا ونتوكل عليه مُفوّضينَ اليه . أُوصيكم عبادَ الله بتقوى الله ، فان فى التقوى تكفيرَ السيئاتِ وتضعيفَ الحسناتِ ، وفوزًا بالجنة ونجاةً من النار ، وأُحذّركم يومًا تشخص فيه

الأبصار وتُبلَى فيــه الأسرار . يوم البعث ويوم التغابُن ويوم التــلاقى ويوم التنادى . يوم لا يُستعتب من سيئة ولا يُزداد فى حسنة . يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنــة الأعين وما تخفى الصدور ... فاتقوا يوما ترجعون فيه الي الله ثم تُوفّى كُلُّ نفس ما كسبت . حَصِّنوا إيمــانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة . وإياكم والأمانى فقــد غرّتْ وأردتْ وأوبقتْ كثيرا حتى أكذبتهم مناياهم ، فتناوشوا التوبةَ من مكان بعيد وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون . فرغّبَ ربكم عن الأمثال والوعد وقدَّم اليكم الوعيد . وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالى جيلا فجيلا ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبّة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم لاتدفعون عنهم ولاتحولون دونهم ، فزالتْ عنهم الدنيا وانقطعتْ بهم الأسبابُ ، فأسلمتهم الى أعمالهم عند الموقف والحساب ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

وإن نظرةً تَجْلَى الى النُّخَب الصغيرة التى اخترناها لك عن المنصور والمهدى والرشــيد تعطيك فكرةً صحيحةً بأنا لم نَعْدُ لُبَابَ الصواب فيماذهبنا اليه من "أتوقراطيتها" و "بابويتها" فى طبيعة منحاها ، وطلاوتها وبلاغتها فى مبناها .

* * *

على أن الخطابة العباسية لم تستمر على القوّة التى كانت عليها فى صدر تلك الدولة حينما استقرّت ورسخت ، اذ فترتْ عنــد ذلك الدواعى وهــدأت الدوافع ، وأخذتْ حالتُهــا فى الاضمحلال لاشتداد اختلاط العرب بالأعجام ولأن الشخصيّاتِ البارزةَ فى الدولة كانت فى الغالب من الفرس وغيرهم من الموالى الذين لم تتجرد ألسنتهم بالخطابة لمــا يصيبها أحيانا من لكنة العىّ وحَصَر العجمة وإن سمتْ معلوماتُهم وارتقت فى البلاغة أساليبُهم .

وربما كان من المعقول أن نقول : إن الخطابةَ فى العصر العباسىّ كانت بوجه عام أقلّ منها فى العصر الأموىّ مــن ناحية البلاغة والأسلوب ، مع وجود بعض خطباء مَصَاقع

لا يقلّون عن إخوانهم الأمويين بلاغة واقتدارا، بيد انها كانت متعدّدة الأبواب، لتشعب ما بيناه لك من الوجوه والمناحى ..

(ج) الكتابة :

جرت الكتابة فى العهد الأول من عصر العباسيين على ما كانت عليه عند بنى أميـة : من جُوْدة اللفظ، ومتانة الأسلوب، وجلاء المعنى، ووضوح القصد وبساطته، فلم يكن القومُ ليُعنُوا فى التصوّر والتفكير، أو ينظروا الى السماء فيستوحُوها، أو الى الطبيعـة فيستنطِقُوها، أو يَستَشِفُّوا ماوراء العالَم، فإن الأفكار كانت لا تزال سهلةً يرمون فيها عن حاضر البديهة وعفوِ الخاطرِ، فلم يشاركوا الحكماءَ فى تفكيرهم، ولا المناطقـةَ فى حججهم، اذا استثنينا نفرا قليلا أمثال ابن المقفع، وإنما كانوا يدورون حول ما ترك آباؤهم من بيتٍ بديعٍ، أومثل سائرٍ، أوحكمةٍ رائعةٍ، أو فكرةٍ سامية، أومعنى يصل الى القلب بلا استئذان، وأوغَلُوا فى ذلك حتى صاروا فصحاءَ الناس وأمراءَ البيان . فكان الأديبُ منهم يُرسل الرسالة أمام مَقْصَدِه فتعمل فى النفوس ما لا تعمله الأسنةُ والرماحُ . وناهيكَ بما كانت تفعله تلك الرسائل فى نفوس القوم ! .

فلما حَفَلَتْ بغدادُ، وأقبلت الدنيا واتسع السلطانُ وامتدّت أطرافُه، وضمّت الدولة الى أحضانها أبنـاءَ الفرس والسُّريانِ، وكانوا يحملون تُراثَ آبائهم وطُرَفَ علمائهم، وأوسع الخلائفُ رحابَهم لكل ذى فضل من رجال الدولة، وعرفوا للعلم مَقَامَه فرفعوه، وللأدب صولته فأكرموه، وقرّبوا العلماءَ والأدباءَ، وعقدوا مجالسَ للمناظرة والمنادمة — كما سنبين لك — وأكبَّ الناسُ على العلم والتأليف والترجمة، وتكشّفَ كل ذلك عن علوم وفنون لا عهـد للعربية بها، فنقلوا اليها الطبَّ والسياسةَ والحكمةَ والفلكَ والمنطقَ والتنجيمَ، وألف المسلمون فى الفقه والنحو والحديث والتفسير — كان لكلّ ذلك أثره فى أخيلة الكُتّاب وأسَـلاتِ الأقلام وَوَحْيِ القرائح، فتعدّدت الأغراضُ، وتنوعت الأساليبُ، ومال الكُتّابُ الى السهولة فى العبارة، والتأنق فى اللفظ، والجودةِ فى الرصف، وأطالوا فى المقدّمات، ونوّعوا البدء

والختامَ والألقابَ والدعاء، ومالوا الى الغلو والمبالغة؛ وهاك مثلاً ما كتب ابنُ سيابة الى يحيى بن خالد من رسالة يقول فيها : «للأَصْيَد الجواد، الوارى الزناد، الماجد الأجداد، الوزير الفاضل، الأشمّ البازل، اللباب الحُلاحِل، من المستكين المستجير، البائس الضرير، فإنى أحمدُ اللهَ ذا العزة القدير، اليك والى الصغير والكبير، بالرحمة العامة، والبركة التامة. أما بعد، فاغنم وآسلم وآعلم، إن كنت تعلم، أن من يَرحَم يُرحَم، ومن يَحرِم يُحرم، ومن يُحسِن يغنَم، ومن يَصنع المعروفَ لا يعدَم، قد سبق الى تغضّبُك علىّ، واطّراحُك لى، وغفلتُك عنّى بما لا أقوم له ولا أقعد، ولا أنتبه ولا أرقد، فلستُ بحىّ صحيح، ولا بميت مُستريح، فررتُ بعد الله منك اليكَ، وتحمّلتُ بك عليك ...» .

أما الإطنابُ فى الكتابة فكان صفةً غالبةً فى كل ما شمل بيعة، أو عهدًا، أو احتجاجًا أو انتصارا، أو تقريرا لمذهب أو استهواء، أو دفعا لشبهة أو طلبا لنعمة، أو ما يقوم نضالا أو ما يدعو نزالا . وستجد طرفا من رسائل القوم فى ذلك العصر الزاهى الزاهر فى باب المنثور بالكتاب الثانى من المجلد الثـانى .

وقد بالغوا فى تمداح ممدوحهم وذم مذمومهم . وحسبك من ذلك أن ترى ما دار بين المنصور العباسىّ والنفس الزكية؛ فقد جاء مما كتبه الأوّلُ قولُه : «أما بعد، فقد أتانى كتابك و بلغنى كلامك، فاذا جُلّ فخرك بالنساء لتُضلّ به الجُفَـاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساءَ كالعمومة، ولا الآباءَ كالعَصَبة والأولياء، وقد جعـل العمَّ أبا وبدأ به على الوالد الأدنى، فقـال جل ثناؤه عن نبيه عليـه السـلام : ﴿ واتّبَعْتُ ملّةَ آبائى إبراهيمَ وإسحـاقَ ويعقوبَ ﴾ . ولقـد علمتَ أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليـه وسلم وعمومته أربعـةٌ، فأجابه اثنان أحدهما أبى، وكفرَ به اثنـان أحدهما أبوك . فأما ما ذكرتَ من النساء وقراباتهن فلو أُعطِينَ على قرب الأنساب وحقّ الأحساب لكان الخيرُ كلُّه لآمنةَ بنت وهب، ولكن اللهَ يختار لدينه من يشاء من خلقه ...» .

غير أن ذلك لم يكن ليمنع أن الميلَ الى الإيجـاز له فى نفوس القوم مَقَامُه، وفى قلوب البلغاء عِزُّه وسلطانُه، لا سيما ما كان من قبيل التوقيع من أمير أو وزير أو ذى جاه وسلطان، فقد رُفِـعَ الى المنصور شَكَاةٌ من أهل الكوفة لأعوجاج فى عاملهم، فوقّع عليها «كيفما تكونوا يُوَلَّ عليكم». وكتب جعفر الى عامل شكِيَ له منه: «قد كثر شاكُوك وقلّ شاكروك، فإمّا ٱعتدلتَ وإمّا ٱعتزلت».

وقد أجمع الرواة أنّ الحال قد بقيت على ذلك من المتانة وحسنِ الإشارة ولطف المدخل وفراهة المعنى وحسن الابتداع، حتى خلف من بعـدهم خلفٌ ضعفت فيهم ملكةُ اللغة وأعوزهم البيانُ، فمالوا الى الألفاظ وصناعتها، والأسجاع (وَزَخْرَفَتِها)، وبقيت الكتابةُ تتقلب فى أكفهم وتدور حول نفسها حتى مال رأسُها مع رأس العباسيين فى القرن السابع الهجرى.

(د) مجـالس الخلفـاء والمناظرة:

للخلفاء العباسيين بحكم طبيعة دعوتهم السياسية واستفحال أمر المدنية فى أيامهم مجالسُ حافلةٌ بالأدباء والشعراء والمغنين والمنادمين قد أُتْرِعتْ بذكرها كتبُ الآداب واسـتوعبَ الشيءَ الكثيرَ منها أبو الفرج الأصفهانىّ فى أغانيه.

وكانوا يُجِلُّونَ العلماءَ، كما بينا لك فى موقف الرشيد مع أبى معاوية الضرير، ويعتنون بالشعر واللغة، ويَحرِصُون على تعليم أولادهم بوساطة نُخبة من رجالات عصرهم؛ فالمنصور ضمّ الشَرقىّ بن القطامى الى ابنه المهدى وأوصاه أن يعلّمه أخبارَ العرب ومكارمَ الأخلاق وقراءةَ الأشعار. والرشيدُ عَهِدَ بتعليم ابنه الأمينِ الى الأحمر النحوىّ ثم الكسائىّ، وعَهِد بتأديب المأمون الى اليزيدى وسيبويه وغيرهما. وللرشيد وصيّةٌ يقال إنه أوصى بها الأحمرَ حينما عهِدَ اليه بتأديب الأمين، ونحن نثبتها هنا لتقف منها على نوع التربيـة التى كان يتطلبها خلفاءُ ذلك العصر لأبنائهم، ولأنها تدل فى الوقت نفسه على مبلغ التحوّل الذى وصلت اليه المدنيةُ العربيةُ فى العصر العباسىّ وكيف استفادت من نُظُم اليونان والفرس وغيرهم ممن وقف العـربُ على آرائهم ومؤلفاتهم.

· أما الوصية فهى : « يا أحمرُ، إن أميرَ المؤمنين قد دفع إليك مهجةَ نفسه وثمرةَ قلبه، فصيَّر يدكَ عليه مبسوطةً، وطاعته لكَ واجبةً، فكن له بحيثُ وضعك أميرُ المؤمنين . أقرِئهُ القرآنَ وعرِّفه الأخبارَ، وروِّه الأشعارَ، وعلِّمه السّننَ، وبصِّره بمواقع الكلام وبَدئه، وامنعْه من الضحك إلا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه، ورَفع مجالس القوّاد اذا حضروا مجلسَه . ولا تمرّن بك ساعةٌ إلا وأنت مغتنم فائدةً تفيده إياها من غير أن تحزُنه فتُميتَ ذهنَه، ولا تُمعِنْ فى مسامحته فيستَحلِى الفراغَ ويألفَه. وقوِّمه ما استطعتَ بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليكَ بالشدّة والغلْظَة » .

* * *

وكانوا يعنون بالمسائل اللغوية واللفظية عناية عظيمة كما كانوا يعنون أيّما عناية بحفظ الأشعارِ وروايتها، ويعتبرون عدمَ حفظها مصيبةً وكارثةً؛ فقد رَوَى الهيثم بن عدىّ عن ابن عياش قال: لما مات جعفرُ المنصور بن الأكبر مشى المنصورُ فى جنازته من المدينة الى مقابرِ قريش ومشى الناسُ أجمعون معه حتى دفنه ثم انصرف الى قصره، ثم أقبل على الربيع فقال : يا ربيعُ انظر مَن فى أهلى يُنشدنى :

* أَمِنَ المنون ورَيبِها تتوجَّعُ *

حتى أتسلَّى بها عن مصيبتى؛ قال الربيعُ : فخرجتُ الى بنى هاشم وهم بأجمعهم حضور، فسألتهم عنها فلم يكن فيهم أحد يحفظها، فرجعت فأخبرته فقال : والله لمصيبتى بأهل بيتى ألّا يكونَ فيهم أحدٌ يحفظ هذا لقلة رغبتهم فى الأدب، أعظمُ وأشدُّ علىّ من مصيبتى بابنى . ثم قال : أُنظر هل فى القوّاد والعوامّ من الجند من يعرفها، فإنى أُحبّ أن أسمَعها من إنسانٍ يُنشِدُها؛ فخرجتُ فاعترضتُ الناسَ فلم أجد أحدا يُنشِدُها إلا شيخا كبيرا مؤدّبا قد انصرف من موضع تأديبه، فسألته هل تحفظ شيئا من الشعر؟ فقال : نعم شعرُ أبى ذؤيب فقلت : أنشِدْنى ، فابتدأ هذه القصيدةَ العينيةَ ، فقلت له : أنت بغيتى، ثم أوصلته الى المنصور فاستنشده إياها، ثم أجازه بمائة درهم .

*
* *

أما التحوّل العظيم الذى حصل فى أبهاء "صالونات" الخلفاء الخاصة بالمنادمة، فالحديثُ عنه يطول . وحسبُكَ فى ذلك ما يدلى به إسحاق بن إبراهيم أحد المعاصرين العباسيين، فإنه يحدّثك بما ينقعُ الغُلّةَ إذ قد سُئل عن أحوال الأُمَويين فى الشراب واللهو فتكلم بإيجاز عن حالتهم؛ وسُئِل عن العباسيين فوصفَ وأجادَ وصوّرَ وأفاد قال :

« أما مُعاويةُ ومَرْوَانُ وعبدُ الملك والوليدُ وسليمانُ وهشامٌ ومروانُ بن محمد فكان بينهم وبين الندماء ستار، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للمُغْنى والتذّه حتى ينقلِبَ ويمشى ويحـرك كتفيْه ويرقُصُ ويتجرّد حيث لا يراه إلا خواصّ جواريه، إلّا أنّه كان اذا ارتفع من خلف الستار صوتٌ أو نعيرُ طَرَبٍ أو رقصٌ أو حركةٌ بزفيرٍ تُجاوِزُ المقدارَ قال صاحب الستار : حَسْبُكِ ياجاريةُ كُفّى ! انتهى ! أَقْصِرى ! يوهم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الجوارى . فأما الباقون من خلفاء بنى أمية، فلم يكونوا يتحاشَـوْن أن يرقصوا ويتجرّدوا ويحضُروا عُراة بحضرة الخلعاء والمغنّين، ومع ذلك لم يكن أحد منهم فى مثل حال يزيد بن عبـد الملك والوليد بن يزيد فى المجونِ والرفثِ بحضرة الندماء والتجرّد ما يباليان ما صنعا .

قلت : فعمر بن عبد العزيز؟ قال : ما طنّ فى سمعه حرف غناءٍ منذ أفضتِ الخلافة اليه الى أنْ فارق الدنيا، فأما قبلها، وهو أمير المدينة، فكان يسمع الغناء ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل . وكان ربما صفق بيديه، وربما تمرّغ على فراشه وضرب برجليه وطرِب، فأما أن يخرج عن مقدار السرور الى السخف فلا .

قلت : فخلفاؤنا (خلفاء بنى العباس) .

قال : كان أبو العباس فى أوّل أيامه يظهر للندماء ثم احتجب عنهم بعـد سنةٍ، أشار بذلك عليه أسـيد بن عبد الله الخزاعى . وكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستار :

« أحسنت والله ! أعِدْ هــذا الصوتَ » فيُعاد له مرارًا ، فيقول فى كلها : « أحسنتَ » . وكانت فيــه فضيلةٌ لا تجدها فى أحدٍ ، كان لا يحضُره نديمٌ ولا مُغنٍّ ولا مُلْهٍ فينصرف إلّا بصِلَةٍ أو كُسْوَةٍ قَلَّتْ أو كَثُرَتْ ، وكان لا يُؤَخِّرُ إحسانَ مُحسنٍ لغدٍ ، ويقول : « العجب ممن يُفْرِحُ إنسانا فيتعجَّلُ السرورَ ويجعل ثواب من سَرَّه تسويفا وعِدَةً » فكان فى كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله لا ينصرف أحدٌ ممن حضره إلّا مسرورا ، ولم يكن هذا العربىّ ولا عجمىّ قبله . غير أنه يُحكى عن بَهْرَامَ جُور ما يُقارب هذا .

”فأما أبو جعفر المنصور فلم يكن يظهر لنديم قطُّ ، ولا رآه أحد يشرب غيرَ المـاء . وكان بينــه وبين الستار عشرون ذراعا ، وبين الستار والندماء مثلها . فاذا غنّاه المُغَنِّى فأطربه حَرَّكتِ الستار بعضُ الجوارى ، فاطَّلَع اليــه الخادمُ صاحبُ الستار فيقول : قل له « أحسنتَ بارك الله فيك » وربما أراد أن يُصَفِّقَ بيديه فيقوم عن مجلسه ويدخل بعض حُجَر نسائه فيكون ذاك هناك . وكان لا يُثيب أحدًا من ندمائه وغيرهم درهما فيكون له رَسْمًا فى ديوان . ولم يُقْطِعْ أحدًا ممن كان يضاف الى مُلهِيَةٍ أو ضَحِكٍ أو هزْلٍ مَوضعَ قدمٍ من الأرض ، وكان يحفظ كلَّ ما أعطى واحدا منهم عَشْرَ سنين ويحسبه ويذكره له .

”وكان المهدىُّ فى أوّل أمره يحتجب عن الندماء متشبِّها بالمنصور نحوًا من ســنة ثم ظهر لهم ، فأشار عليه أبو عَوْنٍ بأن يحتجبَ عنهم فقال : « إليك عنِّى يا جاهل ! إنما اللذّةُ فى مشاهدة السرور وفى الدنُوِّ ممن سرّنى ، فأما من وراء وراء فما خيرُها ولذّتُها ! ولو لم يكن فى الظهور للندماء والإخوانِ إلا أنى أُعطيهم من السرور بمشاهدتى مثلَ الذى يُعطونى من فوائدهم لجعلتُ لهم فى ذلك حظا مُوَفَّرًا » . وكان كثيرَ العطايا يواترها ، قلَّ مَنْ حضره إلا أغناه ، وكان لَيِّنَ العريكة ، سَهْلَ الشريعة ، لذيذَ المنادمة ، قصيرَ المناوءة ، لا يَمَلُّ نديما ولا يتركه إلا عن ضرورة ، قطيع الخنا ، صبورا على الجلوس ، ضاحك السِّن قليل الأذى والبَذاء .

« وكان الهادى شَكِس الأخلاق، صَعْبَ المرام، قليــلَ الإغضاء، سَيِّء الظنّ ، قلّ مَن توقّاه وعرف أخلاقه إلا أغناه، وما كان شىءٌ أبغض اليــه من ابتدائه بسؤال، وكان يأمر للغنى بالمــال الخطير الجزيل فيقول : « لا يُعطينى بعدها شيئا » فيعطيه بعد أيام مثلَ تلك العطيّة .

«ويقال : إنه قال يوما وعنده ابن جامع وابراهيم الموصلىّ ومُعاذ بن الطبيب — وكان أوّل يومٍ دخل عليه مُعاذ وكان حاذقا بالأغانى عارفا بها — : مَن أطربنى اليومَ منكم فله حُكْمُه فغناه ابن جامع غِناء لم يحرّكه . وكان ابراهيمُ قد فهم غرضَه فغناه :

سُلَيمَى أجمعَتْ بينَا * فَأَيْنَ تقولُهـا أَيْنَـا

فطرِب حتّى قام عن مجلسه ورفع صوته وقال : « أعِدْ بالله وبحياتى ! » فأعاد فقال : «أنت صاحبى فاحتَكِمْ» . فقال إبراهيمُ : يا أمير المؤمنين، حائطُ عبد الملك بن مروان وعينُه الخرّارةُ بالمدينة ؛ قال : فدارت عيناه فى رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان . ثم قال : «يا ابن اللخناء ! أردت أن تَسْمَعَ العامةُ أنك أطربتَنى ، وأنى حكّمتُكَ فأقطعتُك ، أما والله لولا بادرةَ جهلك التى غلبتْ علىٰ صحيح عقلكَ وفكركَ ، لضربتُ الذى فيه عيناكَ ! » ثم سكت هُنَيهةً . قال إبراهيم : فرأيتُ مَلَكَ الموت قائما بينى و بينه ينتظر أمره . ثم دعا إبراهيم الحرّانى ، فقال : «خُذ بيد هذا الجاهلِ فأدخِلْه بيتَ المــال فليأخُذْ منه ما شاء ! » . فأخذ الحرّانىُّ بيدى حتى دخل بى بيتَ المــال ، فقال كم تأخذ؟ فقلت مائةَ بدرةٍ ، فقال : دعنى أؤامره ؛ قلت : فآخذُ تسعين ؛ قال : حتى أؤامرَه ؛ قلت : فثمانين ؛ قال : لا ؛ فأبى إلا أن يؤامره ، فعرفتُ غرضَه ، فقلت له : آخذ سبعين لى ولك ثلاثون ؛ قال : شأنَكَ ؛ قال : فانصرفتُ بسبعين ألفا وانصرف مَلَكُ الموت عن الدار .

قال : وكان الرشيدُ فى أخلاق أبى جعفر المنصور يمثلها كلّها إلا فى العطايا والصِّلات والخلَع . فانه كان يقفُو فعــلَ أبى العباس والمهدىّ ، ومَنْ خبَّرك أنه رآه قط وهو يشرب

إلا الماء فكذّبه، وكان لا يحضر شربه إلا خاصّ جواريه ، وربما طرِب للغناء فتحرّك حركةً بين الحركتين فى القلّة والكثرة .

«وهو من بين خلفاء بنى العباس من جعل للمغنين مراتب وطبقات، على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنو شروان، فكان إبراهيم الموصلى، وإسماعيل أبو القاسم بن جامع، وزلزل منصور الضارب فى الطبقة الأولى ، وكان زلزل يضرب ويغنّى هذان عليه . والطبقة الثانية سُليْم بن سلاّم "أبو عبيد الله الكوفى"، وعمرو الغزال ومن أشبههما . والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والصنج والطنابير . وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتُهم . وكان اذا وَصَل واحدا من الطبقة الأولى بالمال الكثير الخطير جعل لصاحبيه اللّذين معه فى الطبقة نصيبا منه ، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضا نصيبا . واذا وُصل أحد من الطبقتين الأخريين بصلة لم يقبل واحدٌ من الطبقة العليا منه درهما ، ولا يجترئ أن يَعرِض ذلك عليه .

« قال : فسأل الرشيدُ يوما برصوما الزامر، فقال له : يا إسحاق ! ما تقول فى ابن جامع ؟ فحرك رأسه وقال : خمرُ قُطْرَبُّلَ(١) يعقل الرّجْل ويذهب العقْل . قال : فما تقول فى إبراهيم الموصلى؟ قال : بستانٌ فيه خوخ وكُمّثرى وتُفّاح وشَوْكٌ وخَرنوبٌ . قال : فما تقول فى سُلَيم بن سلاّم ؟ فقال : ما أحسَن خضابه . قال : فما تقول فى عمرو الغزّال ؟ قال : ما أحسنَ بنَانَه . قال : وكان منصور زلزل من أحسن وأحذق من برأ الله بالجَسّ . فكان اذا جَسّ العودَ فلو سمعه الأحنفُ ومن تحالم فى دهره كلّه لم يملكْ أن يطرَبَ .

« قال ابراهيم : فغنيتُ يوما على ضربه، فخطّأنى، فقلتُ لصاحب السّتار : هو والله أخطأ . قال: فرفَعَ الستار ثم قال : يقول لك أمير المؤمنين أنت والله أخطأتَ ! فحمِى زَلزَلٌ وقال : يا ابراهيم تُخطئنى ! . فوالله ما فتح أحد من المغنين فاه بغير لفظ إلا عرفتُ غرضَه .

(١) قطربل بالضم ثم السكون ثم فتح الراء وباء موحدة مشددة مضمومة ولام : اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب اليها الخمر وما زالت متنزها للبطالين وحانة للخمارين وقد أكثر الشعراء من ذكرها . أنظر ياقوت فى قطربل .

فكيف أُخَطِّأُ وهـذه حالى! فأدّاها صاحبُ الستار . فقال الرشيد : قل له صدقتَ، أنت كما وصفتَ نفسَك وكذب ابراهيمُ وأخطأ. قال ابراهيم : فغمّنى ذلك، فقلت لصاحب الستار : أبلغ أمير المؤمنين سيدى ومولاى، أنّ بفارس رجلا يقال له سُنَيْدٌ، لم يخلق الله أضربَ منه بعود ولا أحسنَ مَجَسّا، وإن بعث اليه أميرُ المؤمنين فحمله عرف فضلَه وتغنّيتُ على ضربه؛ فإن زَلْزَلا(١) يكايدنى مكايدةَ القُصّاص والقرّادين . قال : فوجه الرشيد الى الفارسىّ فحُمِلَ على البريد فأقلق ذلك زَلْزَلًا وغمّه . فلما قدم الفارسىّ، أحضرنا وأخذنا مجالسنا وجاءوا بالعيدان قد سُوِّيَتْ ، وكذلك كان يفعل فى مجلس الخلافة ليس يُدْفَعُ الى أحد عودُه فيحتاجُ الى أن يحرّكه لأنها قد سُوِّيَتْ وعُلِّقَتْ مَثالثُها مشاكِلَةً للزِّيرَةِ على الدقّة والغلظ . قال : فلما وُضِعَ عودُ الفارسىّ فى يديه، نظر اليه منصور زلزل، فأسفر وجهُه وأشرق لونُه، فضرب وتغنّى عليه ابراهيم . ثم قال صاحبُ الستار لزلزل : يا منصور اضرِبْ ! قال : فلما جسّ العودَ ما تمالك الفارسىّ أن وثب من مجلسه بغير إذنٍ حتّى قبل رأسَ زَلْزَلٍ وأطرافَه، وقال : مثلُكَ، جُعلتُ فداك! لا يُمتَهَنُ ويُستعمَلُ، مثلك يُعْبَدُ . فعجب الرشيد من قوله وعرف فضيلة زلزل على الفارسىّ . فأمر له بصلة وردّه الى بلده .

«وكان منصور زلزل من أسخى الناس وأكرمهم، نزل بين ظَهْرَانَىْ قومٍ وقد كان يحِلّ لهم أخذ الزكاة فما مات حتى وجبت عليهم الزكاة .

« وكان اسحاق بَرْصُومَا ، فى الطبقة الثانيـة . قال : فطرب الرشيد يوما لِزَمْره ، فقال له صاحب الستار : يا إسحاق ازْمُرْ على غناء ابن جامع . قال : لا أفعـلُ . قال : يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل! قال : إن كنت أزْمُرُ على الطبقة العليا رُفعتُ اليها ، فأما أن أكون فى الطبقة الثانيـة وأزْمُرَ على الأولى فلا أفعـلُ ! فقال الرشيدُ لصاحب الستار : ارفعه الى الطبقة الأولى ، فاذا قمتُ فادفع البِساطَ الذى فى مجلسهم اليه . فرُفِعَ اسحاقُ الى الطبقة العاليـة وأخذ البساطَ وكان يساوى ألفَىْ دينار . فلما حمله الى منزله استبشرتْ به أُمُّه وأخواته وكانت أمه نَبَطِيّةً لكّاء فخرج برصوما عن منزله لبعض حاجاته،

(١) كذا ضبطه صاحب القاموس « كفدفد » وضبطه ابن خلكان « كهدهد » .

وجاء نساء جيرانه يُهنِّئْنَ أمه بما خُصَّ به دون أصحابه ويدعون لها ، فأخذت سكينا وجعلت تَقْطَعُ لكل من دخل عليها قطعةً من البساط حتى أتت على أكثره . فجاء برصوما فاذا البساطُ قد تُقُسِّمَ بالسكاكين . فقال : ويلكِ ما صنعتِ . قالتْ : لم أدرِ، ظننتُ أنه كذا يقسم . فحُدِّث الرشيد بذلك فضحك ووهبَ له آخرَ .

«وزعم سعيد بن وهب أن ابراهيم الموصليّ غنّى أمير المؤمنين هارون صوتا فكاد يطير طربا فاستعاد عامّةَ ليله ، وقال : ما رأيتُ صوتا يجمع السخاءَ والطربَ وجودةَ الصنعةِ والخفةَ غيرَ هذا الصوتِ ، فأقبل ابراهيم فقال : يا أمير المؤمنين ، لو وَهَبَ لك إنسانٌ مائه ألف درهم أو لو وجدتَ مائة ألف درهم مطروحة ، كنتَ أسَرَّ بها أو بهذا الصوت؟ قال : والله لأنا أسرّ بهذا الصوت منى بألف ألف وألف ألف . قال : فلو فقدتَ من بيت مالك مائة ألف كان أشدّ عليك أو لو فقدتَ هذا الصوت وفاتك هذا السرورُ؟ قال : بل ألف ألف وألف ألف أهون عليّ . قال : فلم لا تَهَب مائة ألف أو مائتى ألف لمن أتاك بشىء فقد ألفى ألف أهون عليك منه! فأمر له بمائتى ألف درهم .

***

امتاز العصرُ العباسيّ بتقدّم مجالس المناظرة ورَونقها وتنظيمها وقيدِ المناقشاتِ فيها . وقد يكون من المفيد إعطاؤك صورةً صحيحةً للمناظرة وعِظَمِها ، واهتمامهم بترويق عبارتها ، وطلاوةِ أساليبها ، وبلاغة تراكيبها ، وملاحظة قوّة الحجة فيها ، بأن ننقل اليك مشاورةَ المهدى لأهل بيته . وهى إن صحت تعتبر أثرا أدبيا له قيمتُه وخطرُه ، وأثرا سياسيا لمناقشات القوم السياسية ولتضمنها خُطَطًا ونصائحَ لا يزيد عليها إلا تلك النصائح التى تضمنها كتاب طاهر بن الحسين القائد المأمونى لابنه عبد الله ، وستراه فى موضعه من باب المنثور بالكتاب الثالث فى المجلد الثالث من هذا الكتاب . أما المشاورة فستجدها فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

(هـ) الشـــعر :

لا يُقدّس العرب من علوم الحياة وفنونها شيئا أكثر من تقديسهم الشعرَ الذى استودعوه أفكارهم وأخبارهم، وحفظوا به فخرهم ومناسبهم وساقوا به الجيوشَ والجحافلَ، فدكّتْ عروشًا وأبادت ممالكَ، وضمنوه من أخلاقهم وعاداتهم وشؤون حياتهم ما جعله مكانَ فخرهم ومفزَعَ أمرهم؛ فكنتَ تجد العربىَّ يسمع البيت من الشعر فيترنح ترنح النشوان، ويثور حتى كأنه جبل نار وكثيرًا ما سجدوا أمامه، لمكانه من نفوسهم . وقد روى الأصمعىّ وغيره من ذلك شيئا كثيرا .

وقد بقيت للشعر هذه المكانةُ فى كلّ عصوره العربية، ولم يَنَلْ منه ان دولة العباسيين قامت على سواعد الفرس، وحلُّوا منهـا مكانَ الصدورِ والحكامِ؛ فإن الخلفـاءَ والسادةَ وجمهرةَ الأمراءِ والأدباءِ، كانوا يحملون فوقَ أكتافهـم رءوسًا عربيةً حفظوا فيهـا تُراثَ آبائهم ومفاخرَ أجدادهم، وأقبلوا على الشعر وإنشاده، وكانوا هم أنفسُهم يقرضون الشعرَ . واليك ما جاء فى عيون الأخبار عن المنصور قال : "كان عمرو بن عُبَيد اذا رأى المنصورَ يطوف حول الكعبة فى قرطين يقول : إن يُرد الله بأمة محمد خيرًا يولّ أمرَها هذ الشابَّ من بنى هاشم . وكان له صديقًا . فلما دخل عليه بعد الخلافة وكلمه وأراد الانصراف قال : يا أبا عثمان، سل حاجتك؛ قال : حاجتى ألا تبعث الىّ حتى آتيـك، وألا تعطينى حتى أسألك . ثم نهض فقال المنصور :

* كلهم ماشى رُوَيد * * كلهم خاتلُ صيد *
* غيرَ عمرو بن عُبَيد *

فلمـا مات عمرو رثاه المنصور فقال :

صـلى الاله عليكَ من مُتَوسّد * قبرا مررت به على حرّان
قـبر تضمَّن مؤمنـا متحنّفا * صـدقَ الالهَ ودان بالقـرآن
واذا الرجالُ تنازعوا فى سُـنّة * فصـلَ الحديثَ بحكمةٍ وبيان
فلو أن هذا الدهر أبقى صالحا * أبقى لنـا حيًّا أبا عثمان

* * *

ولقد أحضروا لأبنائهم المؤدبينَ يقفونهم على الشعر وٱستظهاره، وجلسوا للشعراء مجالس أثابوا فيها وأعطَوْا، ووهبوا من المِنَح ماوهبوا . روى الفضل بن الربيع : «أن مروان بن أبى حفصة دخل على المهدىّ بعد وفاة معن بن زائدة الشيبانىّ فى جماعةٍ من الشعراء فيهم سَلْمٌ الخاسر وغيرُه، فأنشد مديحًا فيه؛ فقال له : ومن أنت؟ قال : شاعرُك ياأميرالمؤمنين وعبدُك مروانُ بن أبى حفصة؛ فقال له المهدىّ : ألست القائل :

أقمنا باليمـامة بعـد مَعْنٍ * مُقَـامًا لا نريدُ به زوالا
وقلنا أين نرحلُ بعـد معنٍ * وقد ذهب النوالُ فلا نوالا

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلِم جئت تطلب نوالنا! لاشىء لك عندنا، جُرُّوا برجله فجرّوا برجله حتى أُخرِجَ . فلمـا كان من العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء فمثل بين يديه وأنشد :

طرقَتْـك زائرةٌ فحىِّ خيالَهـا * بيضاءُ تخلط بالجمال دلالَهـا
قادَتْ فؤادَك فاستقادَ ومثلُها * قادَ القلوبَ الى الصِّبا فأمالَهـا

قال : فأنصت له الناسُ حتى بلغ قولَه :

هل تطمِسُون من السماء نجومَها * بأكفكم أو تستُرون هلالَهـا
أو تجحدون مَقالةً عن ربكم * جبريلُ بلَّغها النبىَّ فقـالَهـا
شهِدَتْ من الأنفال آخرُ آيةٍ * بتُراثِهـم فأردتمو إبطالَهـا

قال : فرأيت المهدىّ قد زحف من صدر مُصَلَّاه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع؛ ثم قال : كم هى ؟ قال : مائة بيت؛ فأمر له بمائة ألف درهم .

هذه القصة وأمثالُها وقعتْ لكثير من الأمراء والوزراءِ الذين عرفوا للشعر منزلته، فاستعانوا به على أغراضهم السياسية، كما كان الأُمَوِيُّون يستعينون به فيها . وحسبُكَ أن نقول لك : إنهـم اسـتعملوه فى المفاخرة وفى إثارة العصبية واسـتحقاق الخـلافة ، وفى الهجاء

والتحريض ؛ فقد دخل سديفٌ على عبد الله بن على العباسىّ وعنده جماعةٌ من بنى اميـة فأنشده قولَه :

لا يَغُرَّنْكَ ما ترى من أُنَاسٍ * إن تحتَ الضـلوع داءً دَوِيًّا
فَضَعِ السيفَ وارفعِ السوطَ حتى * لا ترى فوق ظـهرها أُمَوِيًّا

فأمر عبدُ الله فذهبت أرواحهم هباء .

وكثيرا ما كانوا يستشفعون بالشعر والشعراء ويحتالون به على قضاء حاجاتهم، ويُقدّمونه أمامَهم لمخاطبة الملوك والأمراء عند الغضب؛ فقد رووا أن الرشيدَ عند رجوعه من حرب الروم أتاه كتاب، وهو فى الطريق، من ملك الروم "نِقْفُور" يفيد نقضَ الصلح الذى عقد معه، فهاب القومُ إخبارَ الرشـيد وامتنعوا عن مكاشـفته، وقدّموا لمكالمته من الشـعراء الحجاجَ بن يوسف التيمى واسماعيلَ بن القاسم أبا العتاهيـة وغيرهما ، فأنشـده الحجاجُ بن يوسف :

نقض الذى أعطيتَـه نقفورُ * وعليـه دائرةُ البـوار تدورُ
أبْشر أميرَ المؤمنين فإنه * غُـنْمٌ أتاك به الاله كبيرُ
فلقد تباشرت الرعيّـةُ ان أتى * بالنقض عنه وافدٌ وبشـير
ورَجتْ يمينك أن تُعجّل غزوةً * تشفى النفوسَ مكانُها مذكورُ
أعطاك جِزْيتَـه وطأطأ خدّه * حذر الصوارم والردَى محذورُ
فأجرتَه من وقعها وكأنها * بأكفنا شُعَلُ الضرام تطيرُ
وصَرَفْتَ بالطول العساكرَ قافلا * عنـه وجارك آمنٌ مَسـرورُ
نقفور إنك حين تغدرُ أن نأى * عنـك الإمام لجاهـلٌ مغرورُ
أظننتَ حين غدرتَ أنك مُفْلَتٌ * هَبِلَتك أمّكَ ما ظننتَ غُرورُ
ألقاك حَيْنُكَ فى زواخر بحره * فطمَتْ عليك من الإمام بحورُ
إن الإمامَ على اقتسارك قادرٌ * قرُبت ديارُك أم نأت بك دورُ

ليس الإمامُ وإن غفلنا غافلا * عمـا يسوسُ بحزمـه ويُديرُ
ملك تجـرّد للجهـاد بنفسـه * فعـدوّه أبدا به مقهـورُ
يامن يريد رضا الاله بسـعيه * واللهُ لا يخفى عليـه ضمـيرُ
لا نصحَ ينفع من يَغُشّ إمامَه * والنصحُ من نصحائه مشكورُ
نُصحُ الإمامِ على الأنام فريضةٌ * ولأهلهـا كفارةٌ وطهـورُ

فكرّ الرشيد راجعا فى أشد محنة وأغلظِ كلفة حتى أناخ بفنائه، فلم يبرح حتى رضى وبلغ ما اراد . فقال أبو العتاهية :

ألا نادَتْ هِرَقْلةُ بالخـراب * من الملكِ الموفَّقِ بالصـواب
غدا هارونُ يُرْعِدُ بالمنـايا * ويُبرِقُ بالمذكّرة القضاب
ورايات يحـل النصر فيهـا * تمرّ كأنهـا قِطعُ السـحابِ
أمـيرَ المؤمنين ظفِرتَ فاسـلم * وأبشـر بالغنيمة والإياب

* * *

وكان الشعراءُ يلعبون دورًا هامًا فى الحياة الحزبية . وحسبك أن تعلم أن للخلفاء شعراء اختصوا بهم كأبى دلامة، وحمّاد عجرد، وبشار بن بُرْد، ومروان بن أبى حفصة، وسَلْم الخاسر، وأبى نُواس، ومنصور النمرىّ، وغيرهم. وللبرامكة شعراء أمثال أبَان بن عبد الحميد، وآبن مناذر والرقاشىّ وغيرهم، ولسائر الأمراء شـعراء . وهناك شعراء لم يكتسبوا بالشعر كصالح بن عبد القدّوس، وشعراء للشيعة كالسيد الحميرى وسليمان قتـة ودِعبِل، وشعراء لم يتحضروا كربيعـة الرّقى وكلثوم بن عمرو العتابىّ وغيرهم . وإنّا نحيلك هنا الى ما أثبتناه لك من منظوم العصر العباسىّ، فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

وجِمَاعُ المقالِ أن الشعرَ العباسىّ قد تضمّن فنونا عديدة، ولكنه لا يحتج به فى اللغـة كالأموىّ مثـلا ، لأن النَّقدَة فى الشعرِ والأدبِ جعلوا حدّهم بشارًا ولم يتعـدّوه بسبب تفشى اللحن وآستفحال آختلاط الأعجام بالعرب .

على أن الشـعراء العباسيين قـد نفننوا فى أنواعه أيّمـا تفنن من قول فى المهاجاة إلى قول فى الأخلاق، الى مُلَح الى تَضَرُّع، الى وصف، الى هَجْوِ الخلفاء برضاهم الى مدحهم . وعلى الجملة فقـد استعملوه فى كل غرض من أغراض الحياة من مُفاخرة وخمريات وزهريات ورثاء، كما أن منهم من ذكر الوقائعَ العربيةَ فى شعره ، فأثرى الشعراءُ وأترفوا . وحسبُكَ أن تعلم أن سَلْمًا الخاسرَ خلّف ثروة مقدارها ٥٠,٠٠٠ دينار، ١,٥٠٠,٠٠٠ درهم غير الضياع . ومثله مروان بن أبى حفصة وغيرهما . وسكن الشعراء الاطام والقصور ، واقتنوا الأُنُف الحَسَّانَةَ من الحدائق وشاهقات الدور ، واستخدموا الجوارىَ والغلمان ، وأمعنوا فى شهواتهم ولذاتهم وتنعّموا بحطام الدنيا ومرافهها، فسَهُلَتْ ألفاظُهم ، ورقّت طباعهم، وقلّ اقتضابُهم ، وحاولوا الخروجَ على الطريقة القديمة، وأرادوا أن يستبدلوا الخمرَ وساقِيَهَا من الدار وبانيها . وتقدّم فى ذلك النواسىّ يحمل علمهم فقال :

صِـفَةُ الطُّلولِ بَلاغةُ القُـدْم * فاجعل صفاتِكَ لابنـةِ الكرمِ

وقد بالغ فى ذلك حتى سجنه الخليفةُ وأخذ عليه ألا يذكرَ الخمرَ فى شعره، فقال :

أَعِرْ شِعْرَكَ الأطلالَ والمنزلَ القفرَا * فقد طالما أزرى به نعتُك الخمـــرا
دعانى الى نعت الطـــلول مُسَلَّط * تضـيقُ ذراعى أن أردّ له أمرَا
فسمعًا أمـــيرَ المؤمنيـــن وطاعةً * وإن كنتَ قد جشَّمتَنِى مركبًا وعْرَا

ونهج كثيرٌ من الشعراء نهجَ أبى نواس ،وركبوا مركبه ، وإن كان للطريقة القديمة محبوها حتى الآن .

*
* *

هذا الترفُ الذى شمِل القومَ، يضاف اليه اختلاطُهم بالأعاجم، وما كان لهم فى ذلك الوقت من حرية فى التصوّر والتفكير، جعلهم يفتحون فى اللغة العربية فتحا جديدا يتناولون فيه أفكار الفرس واليونان، فيُدْخِلونها فى أشعارهم وآثارِهم، وتمتدّ أيديهم الى كثيرٍ من اللفظ الأعجمىّ يصوّرون ما جاد به النعيمُ وما استلزمته الحضارةُ . فيقول أبو نواس فى ذلك :

وذات خــد مُورّدْ * قُوهِيَّــة المتجــرّدْ

تأمّــلُ العين منهــا * محاسنًا ليس تنفَــد

فبعضُها قــد تناهى * وبعضهــا يتــولّد

والحسنُ فى كل عضو * منهــا مُعَــادٌ مُرَدّد

ولم يقفوا عند هذا، بل وصفوا مناظرَ الطبيعة ورغدَ العيش ونعيمَه، وصحبةَ الإخوان وغناءَ القِيانِ، ومصايدَ الوحشِ والطــيرِ، ومجالسَ الأنسِ والسرورِ، وآبتــدعوا كثيراً من المعانى الجديدة، كقول بشار :

يا قَوم أُذْنِى لبعض الحىّ عاشقةٌ * والأذنُ تَعشقُ قبــل العين أحيانا

قالوا بمن لا تَرَى تَهذِى فقلت لهم * الأذنُ كالعين تُوفِى القلبَ ما كانا

وقال أبو تمّــام :

وإذا أراد الله نشرَ فضيــلةٍ * طُوِيَت أتاحَ لهــا لسانَ حَســود

لولا اشــتعالُ النــار فيما جاورتْ * ما كان يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُود

بقيت هنالك أمور جديرة بالاهتمام، كان يصح أن نقفَ عندها قليــلا، فقد بالغوا فى الوصف، وفتحوا باب القصص، وتغزلوا بالغلمان؛ ولكن المقام يضيق عن ذلك .

الكتاب الثالث

عصـــر المـــأمون

الفصل الأول

محمـــد الأمين

توطئـــة — مـــولده — نشـــأته وأخلاقـــه .

(١) توطئـــة :

فى التاريخ الأموىّ مأساةٌ مُرَوِّعةٌ، وهى أن جندَ الوليد بن يزيد بن عبـد الملك قتلوا خليفتهم، وحزوا رأسَه، وذهبوا به الى يزيدَ، فنصبه على رمح وطِيفَ به فى دمشقَ !

كانت تلك المأساةُ المرَوِّعةُ نتيجةَ دعوةٍ سياسيةٍ حادّةٍ، على الخليفة الوليد الذى تُشبِهُ حالتُه السياسيةُ من جلّ وجوهها حالةَ الأمين؛ فقد كان من ضحايا نظام ولاية العهد الثنائى، ذلك بأن والده يزيد بن عبـد الملك أراد أن يجعلَه خليفةً بعـده، فاضطر الى تولية أخيه هشام، ثم ابنـه الصغير الوليدِ بعد هشام . فحاول هشام أن يولّى ابنَه مسلمةَ بدل الوليد، كما حاول يزيدُ من قبل توليةَ ابنه الوليدِ، فلم يُفلِحْ هذا ولا ذاك . وكانت النتيجةُ المعقولةُ لخطتهما السياسية : من محاولة كليهما خلعَ ولىّ العهد والبيعةِ لولده، أن انضم الى كلٍّ بعضُ القوّاد والزعماء والأنصار، تأييـدا له فيما يريد . وكان هؤلاء القوّادُ والزعماء والأنصار يصبحون موضع المقت والاضطهاد من ولىّ العهد المضطهد متى ولِى الخلافة وصار الأمر

إليه . فاذا ما اضْطُهِدَ الخليفةُ نفسُه وحَبِطت خُطَّتُه كان نصيبُ سيرته من الرواة نصيبَ الوليد بن يزيد، وهو نصيب محمد الأمين .

نريد أن نقول، إرضاءً للعلم والتاريخ والمنطق، أن الرواة اذا قالوا مثلا : إن الوليـد كان كافرا أو كان مجموعةَ قبائحَ، أو أنه سلّم يوسف الثقفيّ كلا من محمـد وابراهيم ابنى اسمـاعيل المخزوميّ موثقين فى عباءتين، وأن يوسـف أقامهما للنـاس وجلدهما وعذبهما وأماتهما؛ أو قالوا : إنه حبس يزيد بن هشام، وفرق بين رَوْح بن الوليـد وبين امرأته؛ أو ذكروا أنه عذَّبَ خالد بن عبد الله القَسْرىّ سيدَ اليمن وأنه سلمه للثقفىّ فنزع ثيـابه وعذبه مُرَّ العـذاب حتى أماته؛ أو وصفوا مُنَافِسَـه يزيدَ بالنسـك والورع — فإن من واجب المؤرّخ المنصف، المتحرّى للحقائق التاريخية، والراغب فى النصفة العلمية، والمتمشى فى أناة وترو وحكمة مع الافتراضات التحليلية، والخاضع لأحكام المنطق والحيدة والتعقل، أن ينظر بتحفّظ وتحرز كبير، الى مثـل تلك الروايات التى يوصَفُ بها الخليفةُ المضطَهَدُ والمغلوبُ على أمره، وكل من آنثـلّ عرشه وضاع ملكه، وخُتِمَتْ بالقتـل أو الحرمان حياتُه .

على أنه يجدر بنا أن نتساءل، قبـل أن نقتحم موضوعنا فى هـدوء وسكون : ما هو الروح الذى يغلب على الرواة المعاصرين، والشـعراء المعاصرين، والكتّاب المعـاصرين، والمُحَدِّثِينَ المعاصرين ؟ وما النهج الذى تسلكه الصحافة المعاصرة ؟ أليس هو الى حدّ غيرِ قليلٍ، مُنَاصَرةَ الحزبِ القوىّ أو الزعيمِ القـوىّ مناصرةً حارّةً قوية حادّة، وقد لا تخلو من مبالغةٍ فى تمدّحها بمحاسنه، وإغراقٍ فى زرايتها على خصمه بنقائصه .

فمهمّة المؤرّخ اذًا — حين يَعْرِض لحياة خليفـة مضطهَدٍ انتهت حياته بحزّ رأسـه : مثل حياة الوليـد بن يزيد الأموىّ، ومحمد الأمين العباسىّ، وحين يعرض لتحليل حيـاة خليفـة منتصر : مثل حياة يزيد خصم الوليد فى العصر الأموىّ، وحياة عـبد الله المأمون خصم محمد الأمين فى العصر العباسىّ — ليست ميسورةً معبّدة بل هى جدّ شائكة .

وقد يكون من الحصافة والنَّصَفة العلمية أن نُعرِّض ما يرويه الرواةُ المعاصرون من مَدْحٍ للغالب وانتقاصٍ للمغلوب، على بساط البحث التحليلى . ولسنا نرمى بذلك الى أن تُرفَض مقولاتهم وتُنتقص بلا حقٍ وجاهةُ رواياتهم ، وإنما نوصى بالحيطة والاحتراس لا أكثر ولا أقل .

* * *

(ب) مولـــده :

بعد هذه التوطئة الوجيزة التى لم نَرَ مُنْدُحَةً عن إثباتها فى هذا الموضع، نبدأ كلمتنا عن محمد الأمين ، من الناحية التحليلية لأخلاقه . أما ناحيةُ النزاع الذى شجر بينه وبين أخيه المأمون، فلها موضعُها التاريخىُّ من كتابنا :

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد، ولد سنة سبعين ومائة هجرية، وهى السنة التى آستُخلِفَ فيها والدُه الرشيدُ . وكان مولده بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بستة أشهر . وُولِدَ المأمون فى الليلة التى استُخلِفَ فيها والدُه .

وأم الأمين أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور، فهو هاشمىّ الأب والأم . وقيل إن ذلك لم يتفق لخليفة عباسىّ غيره .

واذ كان أخوالُه هاشميين ولهم فى الدولة نفوذٌ قوىٌّ وكلمةٌ مسموعةٌ، فقد سَعَوْا، فيما يحدّثنا التاريخ ، حين مَدّ جماعةٌ من بنى العباس أعناقَهم الى الخلافة ، الى أن يكون الأمرُ الى آبن أختهم، وقد نجحوا .

سعى خالُ الأمين عيسىٰ بنُ جعفر بن المنصور الى الفضل بن يحيىٰ الذى بعثه الرشيد على رأس جيشٍ الى خراسان، لمحاربة بعضِ الخارجين على الخلافة، وتسكينِ الاضطرابِ فى تلك النواحى، وقد كان التوفيقُ حليفَه فى ذلك الوجه، فقال عيسى للفضل : «أَنشُدُكَ اللّهَ لَمَّا عملتَ فى البيعة لابن أخى، فانه ولدك وخلافتُه لك» ، فوعده الفضلُ أن يفعل .

فلما كان الفضل بخراسان ، يُدل بما واتاه فيها من ظهور على الخارجين ، وهو بعدُ من آل برمك وزراء الرشـيد ، وأصحاب السلطان العظيم في الدولة ، بايع لمحمدٍ الأمين هو ومن معـه من القوّاد والجند ، بعـد أن فرق أموالًا عظيمةً ، وأعطى أعطياتٍ كثيرةً . وتغنّى بذلك شعراء العصر ، أمثال أبان بن عبد الحميد اللاحقى ، والنمرىّ وسَـلْم الخاسر وغيرهم . ولبيان وجهةِ نظرِهم فى البيعة نقتطف لك شيئا ممـا قاله سلم والنمرىّ .

قال سَـــلْمٌ :

قــد وفّقَ اللهُ الخليفةَ إذ بنى * بيتَ الخليفة للهجانِ الأزهرِ

فهو الخليفةُ عن أبيـه وجدّه * شهدا عليـه بمنظرٍ وبمخـبَرِ

قد بايع الثقلان فى مهدِ الهدىٰ * لمحمـد بن زبيدة ٱبنة جعفر

وقال النمرىّ :

أمسَتْ بمروٍ على التوفيق قد صَفَقَتْ * على يد الفضلِ أيدى العُجْمِ والعربِ

ببيعـةٍ لولىّ العهـد أحكمها * بالنصح منه وبالإشـفاقِ والحـدبِ

قد وكّد الفضلُ عقدًا لا ٱنتقاضَ له * لمصـطفًى من بنى العبـاس منتخَبِ

فلمـا تناهى أمر البيعة الى الرشـيد ، ووجد نفسَه أمام «الأمر الواقع» ، إذ قد بايع لمحمد أهلُ المشرق ، بايع له بولاية العهد ، وكتب الى الآفاق فبويع له فى جميع الأمصار .

ومن هـذا تعلم ما يصح أنْ يعتبر سرًّا فى أن الأمين كان ولىّ عهد الرشـيد ، دون أن يكون أكبر ولده سنا .

***

(ج) نشأته وأخلاقه :

تقرأ ما سـطره أمثال ""كارليـل"" عن ""كرومول"" و ""فردريك الأكبر"" وما كتبه "" ترڤليان "" عن "" ماكولى "" و "" بُزْوِل "" عن "" جونسـون "" و "" اللورد مورلى "" عن

"جلادستون"، وغيرهم من الكتاب الذين يعرضون لكتابة تاريخ حياة الملوك أو الساسة أو العبقريين، فتلاحظ، فى جل كتبهم، وفى الدقيق المستوفى منها على الأخصّ، أنهم يحفلون أيّما احتفال، بقيد ملاحظاتهم عن تاريخ بطلهم فى طفولته، وكيف كانت ثقافته فى ميعة شبابه وطراوة إهابه، وما هى الأوابدُ والغرائبُ أيام كان حَدَثاً صغيرا. وقد لاتُدهشُكَ متانة "ماكولى" وقوةُ سبكه وارتفاعُه الى ذروة البلاغة فى أساليبه، ولا يهولُك كثرةُ ما حفظ ووفرة ما اطلع، اذا علمت مثلًا أنه وهو لم يعدُ السادسةَ أو السابعة كانت محفوظاته فى طفولته تبشر بعبقريته فى رجوليته. وكذلك يقال عن "شارلس دكنز" وسيع الاطلاع فى صباه على جلّ ما سُطِّرَ وكُتِبَ، حتى صار فى مقتبل حياته وقد ملك ناصيةَ البلاغة، وتسنّم الذروة فى تعرّف النفسيات وتحليل روح الطبقات كافة: من بائسين مُعْوِزين الى أشراف مترفين. وكذلكَ يقال عن "سپنسر" الفيلسوف العظيم والمربى النابه الذى كان يحفِلُ فى مبدأ نشأته، وهو لم يعدُ العاشرةَ مثلا، بالدويبات وغريب الهوامّ التى كانت على شاطىء النهر، فعكف على دراستها، فتولدت فى نفسه صفات الجلد والأناة والمواظبة، حتى أصبحنا نراه، وهو فى شيخوخته، يخرج للناس المعجزَ المطربَ فى علم النفس، وعلم الحياة، وعلم الأخلاق، وعلم التربية، وهكذا مما لا حدَّ له ولا حصرَ. كذلك يقال عن "جونسون" فى صباه، وكيف كان يغالب المرضَ والمرضُ يُغالبه، وكيف كانت أحاديثُه فى مطامعه، وكيف كان سحرُ بيانه وتدفّقه فى مجالسه، وكيف كان أبيًّا عيوفا، مترفعا أنوفا، فرفض فى شمم وإباء حذاءً جديدا اشتراه له من لاحظ تخرّق حذائه وقصر يده عن جديد... الى آخر ما يقيده كتّاب العصر عن نشأة أبطالهم، مما نمسك القلم عن الاسترسال فى إثبات شبيهه ومثيله، مما يفيد فى تعرّف أحوالهم، ويساعد على تفهُّم حقيقة أمورهم. لأن القارئ اذا زامل الزعيمَ فى طفولته وصباه، ووقف على عبثه وجدّه، وجلده أو تبرمه، وتعلمه أو تعزّمه، ونشاطه أو خموله، ورزانته أو تبذّله، ووقف كذلك

على نقائصه وفضائله ، وهو حَدَثٌ بعد ، يستطيع أن يفهَـمَ فهما صحيحا ، حكمة تصرفاته في مقتبل حياته ، كما يفهم الصديقُ صديقَه والخدنُ خدنَه .

ولنتساءل الآن . هل تجلّى لنا التاريخ شيئا قيّما عن نشأة الأمين وطفولته ؟

أظن أنني لا أعدو الحقّ كثيرا اذا قلت لا ؛ إذ قلّما يعرض المؤرخون القـدماءُ لشيء من طفولة العظماء ورجال التاريخ .

على أنّا قد وقفنا من طفولة الأمين على شـذرات ليست بذات غناء كبير ، نثبتها لك وندرسها معك ، فربمـا ساعدتنا بعض المساعدة على تفهم حداثة الأمين ، وآستخلاص بعض الحقائق عنه .

يحدّثنا البيهقيّ في «المحاسن والمساوى» بمـا سنلخصه لك خاصا بنشأة الأمين التعلّمية ، لتقف على البيئة التي كان فيهـا الأمينُ ، ولأن روايتــه ، خصوصا ما جاء عن حُلم زبيدة وفزعها منه ، ممـا رواه المسعوديّ في "مروجه" أيضا ، قـد تجعلنا نعلل بحقٍّ أثر الوسط والوراثة في خَلْق ما كان بالأمين من آستعداد لحب الأستخارة ، مما كانت له نتائجهُ السيئةُ ، ولأنه يفهمنا بوجه عام لِمَ كان الأمين فصيحا ، أديبا ، بليغا ، ولِمَ كان عابثا مستهترا ، ولِمَ كان وادعا متهيبا من الدماء ؛ ولأنه يفسر نشأته في ترف الخلافة ونعيمها ، ومَرح الحداثة ونهزها ، والآستمتاع بمـال زبيدة والإدلال بهاشميتها !

* * *

أنتَ جِدُّ عَالِمٍ أن الرشـيد جعل الأمينَ في حِجر الفضل بن يحيى ، والمأمونَ في حِجْرِ جعفر بن يحيى . وأنت جدّ عالم أن الفضل بن يحيى قال لهشيم بن بشر الواسطي : «ليكن أكثرُ ما تأخذ به وليّ العهد الأمين تعظيمَ الدماء ، فإني أُحبّ أن يُشْرِبَ اللهُ قلبَه الهيبةَ لها ، والعفافَ عن سـفكها» . وأنت جدّ عالم بوصـية الرشـيد للأحمر النحويّ بأخذ الأمين بالشدّة ، إن لم تنفع الملاينة في تقويمه . وقد آن لنا أن نترك للأحمر فرصةَ التكلم ، فيرويَ لك ما كان من أمره مع تلميذه الأمين .

يقول الأحمر : «كنت كثيرا ما أشدّد على الأمين فى التأديب، وأمنعه الساعات التى يتفرّغ فيها للهو واللعب، فشكا ذلك الى خالصة — ولعلها كانت كبيرة وصيفات أو أمينات القصر الزبيدىّ — فأتتنى برسالةٍ من أمّ جعفر تعزم علىّ بالكف عنه، وأن أجعلَ له وقتا أُجِمُّه فيه لتوديع بدنه؛ فقلت : الأمير قد عَظُمَ قدرُه وبَعُدَ صوتُه، وموقعُه من أمير المؤمنين ومكانه من ولاية العهد، لا يحتملان التقصير، ولا يقبل منه الخطلُ، ولا يرضى منه بالزلل فى المنطق، والجهل بالشرائع، والعمى عن الأمور التى فيها قِوام السلطان وإحكامُ السياسة؛ قالت : صدقتَ، غير أنها والدةٌ لا تملك نفسها ولا تقدر على كفِّ إشفاقها، ومع حذَرِها أمرٌ إن شئت حدّثتُكَ به؛ فقلتُ : وما ذاك؟ قالت : حدّثتنى السيدةُ أنها رأت فى الليلة التى حملَتْ فيها به كأن ثلاثَ نسوةٍ دخلنَ عليها، فقعدتْ منهن ثنتان، واحدةٌ عن يمينها، وواحدةٌ عن يسارها، فأمرَّتْ إحدى الثلاث يدَها على بطنها، ثم قالت : مَلِكٌ رِبَحْلٌ، عظيم البذل، ثقيل الحمل، سريع الأمر! وقالت الثانية : ملك قصير العمر، سليم الصدر، منهتك الستر! وقالت الثالثة : ملك قَصاف، عظيمُ الإتلاف، يسير الخلاف، قليلُ الإنصاف! فانتبهتُ وأنا فزعةٌ فلم أُحِسَّ لهنّ أثرا، حتى كانت الليلة التى وضعته فيها، أتيننى فى الخَلْق الذى رأيتهنّ فيه، فقعَدْنَ عند رأسه، وأطّلعنَ جميعًا فى وجهه، ثم قالت واحدة منهنّ : شجرةٌ نضرة، وريحانةٌ جنية، وروضةٌ زاهرة، وعينٌ غدقة، قليلٌ لبثُها، عَجِلٌ ذهابُها! وقالت الثانية : سفيهٌ غارم، طالبٌ للغارم، جسورٌ على المخاصم! وقالت الثالثة : احفروا قبره، وشقوا لحده، وقرّبوا أكفانه، وأعدّوا جهازَه، فإن موته خير له من حياته! قالت : فبقيتُ متحيرةً، وبعثتُ الى المنجمين والمعبرين ومن يزجر الطيرَ فكل يبشرنى بطول عمره، ويعدنى بقاءَه وسعادته، وقلبى يأبى إلا الحذرَ عليه، والتهمةَ لما رأيتُ فى منامى. وبكتْ خالصةُ وقالت : يا أحمرُ وهل يدفعُ الإشفاقُ والحذرُ والاحتراقُ واقعَ القدرِ، أو يقدر أحدٌ على أن يدفعَ عن أحبائه الأجلَ! . قلتُ : صَدَقْتِ، إن القضاء لا يدفعه شيء» .

ويحدثنا التاريخ أن الرشيدَ اتخذ فيمن اتخذ لتربية الأمين وتعليمه ، قطربًا النحويَّ . وكان حمادُ عجرد يتعشق الأمين، ويطمع أن يتخذه الرشيد عليه مؤدبا . فلم يتهيأ له ذلك لتهتكه وقبيح ذكره فى النـاس ؛ وقد كان رام ذلك فلم يُجَبْ اليه . فلمـا سمع أن قطربا قد استوى أمره وأجيب الى ذلك لستره وعفافه ، أخذ حمـادًا المقيمُ المقعدُ ، حسدا على ما ناله قطرب من ذلك وبلغه من المنزلة الرفيعة والدرجة السنية ، فأخذ رقعـةً وكتب فيها أبياتًا ، ودفعها الى بعض الخـدم ، الذين يقومون على رأس الرشـيد ، وجعل له على ذلك جُعْلًا ، وسأله أن يُودِع الرقعـةَ دواةَ أمير المؤمنين ، ففعل . فـا كان بأسرعَ من أن دعا الرشيدُ بالدواة ، فاذا فيها رقعةٌ فيها هذه الأبيات :

قل للإمام جزاك الله مغفـرةً * لا يُجْمَع الدهرَ بين السَّـخْلِ والذيبِ
السَّخْل غِرٌّ وهَـــمُّ الذيبِ غفلتُـــه * والذيبُ يعـلم ما بالسَّخْلِ من طيبِ

فلمـا قرأ الرشيدُ الرقعـةَ قال : أنظروا ألا يكون هذا المعلم لوطيا ! أنْفوه من الدار ؛ فأخرجوه عن تأديب الأمين . قيل : ثم جعل الرشيد على الأمين حراسًا ، واتخذ عليه حمادا وكان عليه رقباء سبعين أو ثمـانين !

ربما كان من الحق أن نقول : إن هـذه النشأة كانت لها آثارها السيئة ، خصوصا أنا نلاحظ ، أنّ الأمين تنقصه الدُّرْبةُ السياسية . وأنت تعلم أنّ الدربة السياسية هى ناحية يُؤْبَهُ لها كثيرا ، فى تمية روح الحكم ، وتقوية المواهب الإدارية ، وتنظيم ملكات السلطان فى ولىّ العهـد ، خصوصا ذلك العصر الذى لم تكن فيـه وسائل الثقافة الملكية متوافرة توافرها اليوم : من سياحةٍ لولىّ العهدِ الى الممـالك المتمدينةِ ، ووقوفٍ على مبلغ الحضارة العالمية ، كما هى حال ولىّ عهـد انجلترا ونظرائه مثلا ؛ مع أن الحاجة الى الثقافة السياسيةِ فى ذلك العصر كانت أشدَّ منهـا اليوم ، لأن الملكَ حين ذاك كان صاحبَ سلطانٍ فعـلى مطلقٍ ، غيرَ مقيد بقانونٍ أو دستورٍ إلا ما يرجع الى دينه وورعه .

نريد أن نقول إنه اذا كان نَدْبُ الهادى للرشيد، حين ولاه قيادة الجند لحرب الروم، قد أوجد الرشيد فى مركز القيادةِ العامةِ، وفيها من الشيوخ المحنكين والقادة المدرّبين والزعماء المنظمين، مجموعةٌ صالحة للثقافة السياسية، وفرص تسنح، فى الفينة بعد الفينة، للرانة السياسية ولتخريج خليفةٍ مُدَرّبٍ فى فنون الملك، واذا كان المأمون قد نُدبَ للحكم فى خراسان وغير خراسان، حتى نكّبت به ظروف الأحوال عن مفاسد مال الخلافة ونعمة ابن زبيدة ودلال الهاشميين — نريد أن نقول إنه اذا كان ذلك كذلك، وكانت هذه هى نتائجُ الدُرْبةِ السياسيةِ، فمن الميسور أن نفهم مغبّة افتقادها، كما أنه من الميسور أن نستنبطَ أن عنصرًا هاما من عناصر تكوين رجالِ السياسةِ والحكم كان ينقص الأمين الذى لم تستطع غاشيته من الخدم وبطانته من الموالى وأخواله من الهاشميين وأساتيذه من المربين، أن يحولوا بينه وبين ما تشتهيه نفسه وتهوى طفولته.

وهل تظن أنهم يستطيعون أن يكرهوه على أن يأخذ نفسه بحزمٍ فى أموره، وبسدادٍ فى تصرفه، وقمع لميوله، وتقويم لأعوجاجه، وبما يجعله رجلا كاملا! أظن لا، وأظن أنك محقٌّ فى نفيك هذا عمن كان فى ظروفه وبيئته.

على أنه من العدل والحق، أن نقرر أن الأمين لم يكن بليد الذهن أو ثقيل الظل، بل كان نقيض ذلك على حظٍّ من توقّد الذهن وفصاحة اللسان، وخفة الروح والظل. وحسبك أن ترى شيئًا مما كان ينضَحُ به فى مجالس اللهو والمنادمةِ: من سرعة البديهة، وظرافة النكتة، وحلاوة التندر، ورقة الدعابة، وعذوبة الفكاهة، لتؤمن بما نقول.

وكل ما أجمع عليه المؤرّخون الفرنْجَةُ «كميور» وكُتّاب دائرة المعارف الاسلامية، واتفقت عليه كلمة المؤرّخين العرب جميعا، أنه كان مستهترا، مسْرفًا، مع خَوَرٍ خُلُقىٍّ، وعدم تبصرٍ فى العواقب، ولا تروٍّ فى مهمات الأمورِ، مما يرجع فى الواقع الى عدم العناية بثُقافته السياسية، كما أسلفنا.

وإنّا محقون اذا ما قررنا أنّه لو وجدَ الأمينُ يدًا حكيمةً تقسو عليه أحيانًا فتفلّ من شباةِ نفسه العابثةِ المرحةِ ، وتقوّم اعوجاج خلقه الرخو ، وتقوى سجاياه المنحلة ، وتبعث به الى الحروب ، ليصْهرَ بلظىٰ أُوارِهَا ، ويَصقلَ من جلادها وسجالها ، ويفيد نفسه من خبرةِ كُماتها ، ودُربة شيوخها ، وخِدَع مديريها ، وخُطَط مُشيريها ، وتوليه حكم صُقع من الأصقاع ، للرانة فيه على معضلات الحكم ومشكلاته ، والاحتكاك بقادته وقُضاته ، إذًا لكان للمأمون منه خصم لا يستهان به ولا تلين قناته لغامز .

على أنّا وإن قلنا إن الأمينَ كان مستهترا ، لا نستطيع مع ذلك أن نستسيغ الخبرَ الذى رواه الطبرىّ وغيره والذى ضربه الفخرىّ مثلا على إهمال الأمين وغفلته وجهله ، إلا بشيء من التحفظ كثيرٍ . وهاك خلاصة الخبر لكى تقدُر معنا ما لهذه الملاحظة من وجاهةٍ وقيمةٍ :

لما اشتدّ الخلافُ بين الأمين والمأمون، حتى انتهى الى غايته، أرسل الأمين لمحاربة أخيه جيشا ، لم يُر فى بغدادَ قبل ذلك أكثفُ منه ، قِوامُه أربعون ألفا وقيل خمسون ، وزوّده بالسلاح الكثيرِ والأموالِ الوافرةِ ، وعلى رأسه شيخ من شيوخ الدولةِ ، جليلُ القدرِ ، مهيبُ الجانبِ ، هو على بن عيسىٰ بن ماهان . وقد خرج معه الأمينُ الى ظاهر المدينة مشيعًا مودّعًا . وكان فى حكم اليقينِ أن الظفر سيكون حليفَه ، لكثرة عدده ، ووفرة سلاحه وذخيرته . فلما التقى بجيش طاهر بن الحسين قائد المأمون — وعسكره فى حدود أربعة آلاف — ثم كانت الغلبة لطاهر ، وورد الخبرُ بنعيِ على بن عيسىٰ الى الأمينِ وهو يصيد ، قال للذى أخبره بذلك : دعنى فإن كوثرًا قد اصطاد سمكتين وأنا الى الآن ما اصطدتُ شيئًا ! وكان كوثرُ هذا خادمًا من الخصْيانِ ، قيل إن الأمين كان يحبه كثيرا .

نقول — ولعلك توافقنا فيما نذهب اليه — إنّا لا نستطيع أن نقبلَ هذا الخبرَ وأمثالَه ، إلا بشيء من التحفظ كثير . فإن خليفةً يسمع مثل هذا النبأ العظيم ويعلم أن وراءه الفصل فى مصير سلطانه ثم لا يأبه له ، لا يكفى أن يوصفَ بالإهمال والجهل ، بل هو جديرٌ بما فوق ذلك ، بالسفه والبلاهة . والسفيه الأبله أولىٰ بالحجر عليه منه بأن يكون ذا سلطانٍ مطلقٍ فى دولةٍ بعيدة الأطراف والنواحى . ومحالٌ على الرشيدِ الذى عرف بالحزم ، وجَوْدَةِ الحَدْس ، والتأنى فى الأمور ، أن يُسنِدَ هذا السلطانَ العظيمَ من بعده لسفيهٍ أبله .

لهذا نَميلُ الى الافتراض كثيرا ، بل الى الترجيح ، بأن هذا الخبرَ ، والكثيرَ من أمثاله ، ليس إلا أثراً من آثار الدعوة المأمونيــة التى كان لهــا من الأثرِ فى ثلّ عرش الأمين ، وتثبيت سلطان المأمون ، ما لا يقلّ عن أثر عساكر المأمون وحزم قواده وحكمة مشيريه .

ويقول "ميور" : إن أهل بغداد قد ندموا ، وأُسقِطَ فى أَيدى جنودِها ، لفتورهم فى الدفاع عن الأمين وعَدم استبسالهم فى الذود عنه . ويعزو مؤرخُه الأستاذ "ويل" أسباب ندمهم هذا الى سخاء الأمين وإسرافه فيما كان يُغدِقُ عليهم من الأموال والخيرات .

أما أنه كان سخيًّا بل مسرفا فى السخاء فما لا ريب فيه . ومهما افترضَتِ المبالغةُ فيما سنرويه لك نقلا عن المظانّ الأدبية والمصادر التاريخية ، فإن الصورةَ التى ستقع من نفسك ، مهما جعلتها متواضعةً مقتصدةً — وهذا ما نوصيك به دائما — كافيةٌ للاقتناع بأنه كان سخيا ، بل مسرفا فى السخاء .

يقول الأصفهانىّ فى أغانيه : غنّى ابراهيمُ بن المهدىّ ليلةً محمدًا الأمين صوتا فى شعر أبى نواس :

يا كثيرَ النوحِ فى الدِّمَنِ * لا عليها بل على السكنِ
سُنَّةُ العشاقِ واحدةٌ * فإذا أحببتَ فاستكنِ

ظَنَّ بى مَنْ قد كَلِفتُ به * فهـــو يجفونى على الظَّنَنِ
رشأٌ لـــولا ملاحتـــه * خلتِ الدنيا من الفتن

فأمر له بثلاثمائة ألف دينار ، فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، قد أجزتنى الى هـذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم ، فقال الأمين : هل هى إلا خراج بعض الكُوَر ! . هكذا ذكر إسحاق .

أما محمـدُ بن الحارث فقد روى لنا هذه الحكاية عن إبراهيمَ فقال : لما أردتُ الانصرافَ قال : أوقِروا زَورَقَ عمّى دنانيرَ ! فانصرفتُ بمالٍ جزيلٍ .

ثم تعالَ ، أرشدَكَ اللهُ ، لننظرَ معًا فيما يرويه أحدُ المعاصرين ، وهو سعيد بن حميد فإنه يقول :

لما ملك محمد وجّه الى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمّهم اليه ، وأجرى عليهم الأرزاق ، ونافس فى ابتياع فُرْهِ الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخفّ بهم ، وقسّم ما فى بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر ، فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وحُمِل اليه ما كان فى الرقّة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه ، بقصر الخلد والخيزرانية ، وبستانِ موسى ، وقصرِ عبدويه ، وقصرِ المعلى ، ورقة كلواذى ، وباب الأنبار ، وتبارى والهوبة ، وأمر بعمل خمس حرّاقات فى دجلة ، على خلقة الأسد ، والفيل ، والعقاب ، والحية ، والفرس ، وأنفق فى عملها مالًا عظيمًا . فقال أبو نواس يمدحه :

سخَّـــرَ اللهُ للأمين مطايا * لم تُسَخَّرْ لصاحبِ المحراب
فاذا ما ركابه سِرنَ برًا * سار فى الماء راكبًا ليثَ غاب
أسدًا باسطا ذراعيه يهوى * أهرتَ الشِّدقِ كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو * ط ولا غمز رجله فى الركاب
عجبَ الناسُ إذ رأوك على صو * رة ليث تمرّ مرَّ السحاب

سبّحوا إذ رأوك سرت عليه * كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحيـ * ـن تشق العُباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء اذا ما اسـ * ـتعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمير وأبقا * ه وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه * هاشمى موفّق للصواب .

على أنه يصح التساؤل : من أين للخليفة ما يكفيه من الأموال الطائلة ، والثروات الوفيرة لسد مطامعه ولإجابته الى شتّى مناعمه ؟ .

وإنا نظن أنه يكفيك أن تنظر أيضا ، فيما تنظر اليه من مختلف مصادر المال : من خراج ربما كان ظالما ، وجبايا هائلة مروّعة ، وموازين غنيّة ، وضرائب مبالغ فى فرضها ، الى باب الاستصفاء وحده وما ينجم عنه وعن نكبة الوزراء والكبراء . وحبذا لو وُفّق الدراسته بعض الباحثين فى التاريخ الاسلامى فهو هام وهو خطير .

ثم انظر ما ذكره الحسين بن الضحاك ، وهو شاعر الأمين كما تعلم ، قال : ابتنى الأميرُ سفينةً عظيمةً أنفق عليها ثلاثةَ آلاف ألف درهم ، واتخذ أخرى على خِلْقةِ شىء يكون فى البحر يقال له «الدلفين» . فقال فى ذلك أبو نواس :

قد ركب الدلفين بدرُ الدجى * مقتحمًا فى الماء قد لجّجا
فأشرقت دِجلةُ فى حسنه * وأشرق الشُّكانُ واستبهجا
لم تر عينى مثله مركبًا * أحسن إن سار وإن أحنجا
اذا استحثته مجاذيفُه * أعنق فوق الماء أو هملجا
خصّ به اللهُ الأمينَ الذى * أضحى بتاج الملك قد تُوّجا

ثم لتتدبر معى ما يرويه لنا أحد الأمناء بقصر الرشيد ، وهو حسين خادم الرشيد ، فإنه يقول : إن الخلافة لما صارتْ الى محمد هُيِّئَ له منزلٌ من منازله على الشط بفرش أجود ما يكون من فرش الخلافة وأسواه ، فقال : ياسيدى ، لم يكن لأبيك فرش يباهى

به الملوك والوفود الذين يردون عليه أحسنَ من هذا، فأحببتُ أن أفرشَه لك، قال : فأحببتَ أن يُفـرَش لى فى أوّل خلافتى المـردراج ! ! وقال : مزّقوه ! قال : فرأيتُ والله الخدمَ الفرّاشين قد صيروه ممزقا وفرّقوه .

وهناك مئات من الشواهد التى يرويها المعاصرون، أمثال مخارق المغنى ، وأبى عبادة البحترى عن مشيخته، والعباس بن الفضل بن الربيع، وكوثر وغيرهم ، عن سَرَف الأمين وبذخه ولهوه وعبثه، يصح أن ترجع اليها فى مظانها ؛ وكلها تؤيد صدقَ اللباب والجوهر .

فمن ذلك ما يرويه لنا حميد بن سعيد، من أن محمدا الأمين لما ملك، وكاتبه عبد الله المأمون، وأعطاه بيعته، طلب الخصيانَ وآبتاعهم، وغالى بهم، وصيرهم لخلوته، فى ليله ونهاره، وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه، وفرض لهم فرضا، سماهم الجرادية، وفرضًا من الحبشان، سماهم الغرابية، ورفض النساء الحرائر والإماء، حتى رمى بهم، وحتى قال فى ذلك بعضُ شعراء العصر، وقد ذكر أسماء بعضهم وحالَ الأمين معهم :

ألا يا مُزمنَ المثـوى بطوس * غريبًا ما يفادَى بالنفوس
لقـد أبقيتَ للخصيانِ بَعلًا * تحمَّلَ منهمُ شـؤمَ البَسوس
فأما نوفلٌ فالشأن فيـه * وفى بدرٍ فيا لك من جَليس
وما العُصمىُّ بشّارٌ لديه * اذا ذكروا بذى سهمٍ خسيس
وما حَسَنُ الصغيرُ أخس حالًا * لديه عند مخترق الكؤوس
لهم من عُمْرِه شَطرٌ وشَطرٌ * يعاقرُ فيه شربَ الخَنْدَريس
وما للغانيات لديه حظٌّ * سوى التقطيب بالوجه العبوس
اذا كان الرئيسُ كذا سقيماً * فكيف صلاحُنا بعد الرئيس
فلو علمَ المقيمُ بدار طوس * لعَزَّ على المقيم بدار طوس

* * *

وفى الحق أن قصفَ الأمين، وآنهماكه فى لهوه، وغلوه فى عبثه، وآستهتاره فى مرحه، وآشتغالَه بوجه خاص بخدمه، قد جرّ عليه وبالًا كثيرًا، وشرًّا مستطيرًا، ونفّر منه قلوبَ العقلاء من مشايعيه ومناصريه، والأقوياء من مؤيديه وذويه .

من أمثال ذلك ما ذكروه عن العباس بن عبد الله بن جعفر، وهو من رجالات بنى هاشم، جلداً وعقلاً، وصنيعاً، وكان يتخذ الخدمَ، كطبيعة حياة المترفين فى ذلك العصر، قالوا : كان له خادمٌ من آثر خدمه عنده، يقال له منصور، فوجد الخادمُ عليه فهرب الى محمد، وأتاه وهو بقصر أمّ جعفر المعروف بالقرار، فقبله محمد أحسن قبول، وحظى عنده حُظوةً عجيبة . فركب الخادم يوما، فى جماعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السيافة، فمرّ بباب العباس بن عبدالله، يريد بذلك أن يُرى خدمَ العباس هيئته وحاله التى هو عليها، وبلغ ذلك الخبر العباس فخرج اليه، وقامت معركة وكادوا يحرقون دار العباس، وقبض الأمين على العباس، وهمّ أن يقتله، لولا وَسَاطةُ أمّ جعفر من ناحية، وآشتغالُه بخروج الحسين بن علىّ بن ماهان عليه وآنضمامه الى المأمون من ناحية أخرى .

ولموضوع خدم الخليفة وغاشيته، ذوى السلطان، من المقربين والزعماء، والقادة والوزراء، بل الخدم والأمناء، أسوأُ أثرٍ فى تاريخ المدنية الإسلامية .

* * *

وهناك ظاهرة خُلُقيّة فى أخلاق الأمين، وهى حبّه للاستخارة وآحتفالُه بالبحث عن أمرِ طالعه، وركونُه، حتى فى آخر لحظة من حياته وهى لحظة التقرير فى مصيره أيُسَلّم نفسَه الى طاهر أم الى هرثمة، الى منام رآه . وربما كانت هذه الخلة فيه، من أثر البيئة، كما أسلفنا، أو من روح العصر نفسه، وإن كان آبنُ ماهان قائده يحتقرها . وسنرى أن المأمون كان على عكس الأمين لا يحفِلُ فى مهامّ أموره بالاستخارة ووحى الأحلام، بل كان يجعل جلّ اعتماده على مشورة رجالاته وذوى النصيحة من أنصاره .

على أنه ليس معنى ذلك أن الأمين لم يكن يستشير، ولكنه كان فى كل شؤونه يغلبه هواه على وجه الصواب من أمره . وكان لرياء حاشيته وتأثير بطانته فيـه النتيجة السيئة، فكان لا يعمل بمـا يدلى به اليه من نصح . وحسبك دليلا على ظهور هذه الخلة فيه ما رواه عمرو بن حفص مولى محمد، إذ يقول: «دخلت على محمد فى جوف الليل، وكنت من خاصته، أصـل اليه حيث لا يصـل أحدٌ، من مواليه وحشمه، فوجدته والشمع بين يديه، وهو يفكر، فسلمت عليه، فلم يردّ علىّ، فعلمت أنه فى تدبير بعض أموره، فلم أزَلْ واقفا على رأسه، حتى مضى أكثرُ الليل، ثم رفع رأسه الىّ فقال : أحضرنى عبـد الله بن خازم؛ فمضيت الى عبد الله فأحضرته، فلم يزل فى مناظرته، حتى انقضى الليلُ . فسمعت عبد الله وهو يقول : « أنشُدُكَ اللهَ يا أمير المؤمنين ! أن تكون أول الخلفاء نكث عهده، ونقض ميثاقه، وٱستخف بيمينه، وردّ رأى الخليفة قبله . » فقال : « ٱسكت لله أبوك ! فعبدُ الله كان أفضلَ منك رأيا وأكمل نظرا، حيث يقول : لا يجتمع فحلان فى هجمة » . ثم جمع وجوه القوّاد، فكان يعرض عليهم واحدًا واحدًا ما ٱعتزمه فيأبونه، وربمـا ساعده قوم؛ حتى بلغ الى خزيمة بن خازم، فشاوره فى ذلك؛ فقال : « يا أمير المؤمنين لم ينصحك مَنْ كَذَبك، ولم يغشك من صَدَقك، لا تُجَرِّئ القوّاد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك، فإن الغادر مخذول، والناكث مفلول ! » .

ولكن الأمين — كما قلنا — كان هواه يعمّى عليه وجه الصواب من أمره، وكان واقعا تحت سلطان الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان وغيرهما من بطانته، وهم الذين كان رياؤهم سما زعافًا، ونفاقهم وباء فتاكا، ولين كلامهم حسكا وقتادًا، والذين لم يخلصوا لمليكهم أو بلادهم، فيما يدلون به من الآراء، وما يقدّمونه من النصائح، وإنمـا يخلصون لعاجل مصلحتهم، فزينوا له نكثَ العهد، وسهّلوا له أمره، حتى أقدم عليه، وكان ما كان من النزاع على ما سنصفه لك فى بابه .

على أنا لا نعنى بما ذكرناه لك الآن ، أن الأمين كان بليد الذهن ، وإنما نعنى أنه كان ضعيف الإرادة ، عديم الدُّرْبة . ونكرر لك هنا ما أسلفنا قوله لك : من اعتقادنا بتوقد ذهنه ، وفصاحة لسانه ، ونقرر أيضا ، إحقاقًا للحق وإنصافًا للتاريخ ، أنه كان بليغا ، متعهدًا ، الى حدّ غير قليل ، قوّاده بالنصح والرأى ؛ فقد ذكر أحدُ معاصريه ، وهو عمرو ابن سعيد ، أن محمدا الأمين لما جاز باب خراسان ترجّل وأقبل يوصى علىّ بن عيسى بن ماهان : «امنع جندك من العبث بالرعية ، والغارة على أهل القرى ، وقطع الشجر ، وانتهاك النساء ، وولّ الرىَّ يحيى بن على ، وآضمم اليه جندًا كثيفًا ، ومُرْه ليدفع الى جنده أرزاقهم مما يجىء من خراجها . وولّ كلّ كورة ترحل عنها رجلًا من أصحابك . ومن خرج اليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهر إكرامه ، وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أخًا بأخيه ، وضَعْ عن أهل خراسان ربع الخراج ، ولا تؤمن أحدًا رماك بسهم ، أو طعن فى أصحابك برمح» .

ولم تكن هذه الوصيةُ هى الوصيةَ الوحيدةَ للأمين فنقول : فلتةٌ من عابث ؛ فإن هناك ثانيةً وثالثةً وهلمّ جرّا . وها هوذا أحمد بن مزيد أحد قوّاده يخبرنا أنه لما اراد الشخوص فى مهمته ، دخل على محمد الأمين فقال : أوصنى أكرم الله أمير المؤمنين ! ؛ فقال : «أوصيك بخصال عدّة : إياك والبغىَ ، فإنه عقّال النصر ، ولا تُقدّم رِجْلًا إلا باستخارة ، ولا تشهر سيفًا إلا بعد إعذار ، ومهما قدرت عليه باللين ، فلا تتعدّه الى الخرق والشر ، وأحسن صحابة مَنْ معك من الجند ، وطالعنى بأخبارك فى كل يوم ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة عندى ، ولا تستقّها فيما تخاف رجوعه علىّ ...» الى آخر نصيحته .

ومن العدل أن نقرر أيضا أنه كان الى آخر لحظة من حياته محاولًا الانتصارَ ، باذلا مقدورَه فى الحرب ، ولكن عبثه ولهوه كانا يقعدان به .

وكان طيبَ القلب ، يعفو حتى عن الخارجين عليه ، والمسيئين اليه . وإن موقفه مع حسين بن على بن ماهان لمعروف مشهور . وكذلك موقفه مع أسد بن يزيد أحد قادته ، حينما طلب اليه أن يدفع له ولدى عبد الله المأمون ليكونا أسيرين فى يده ، فإن أعطاه المأمون

الطاعةَ فيها، وإلا عمل فيهما بحكمه وأنفذ فيهما امره! فقال له الأمين : «أنت أعرابيّ مجنون، أدعوك الى ولاء أعنة العرب والعجم، وأطعمك خراج كور الجبال الى خراسان، وأرفع منزلتك عن نظرائك، من أبناء القوّاد والملوك، وتدعونى الى قتل ولدىّ، وسفك دماء أهل بيتى! إن هذا لَلخَرقُ والتخليط ! !

هذا الموقف النبيل، دليلٌ على سلامة طَويّته، وطُهْرِ سَجيّته. ولكنّ حظّه الحالك، ونجمه الآفل، ورياء مشـيريه، وضعف إرادته، وخور عزيمته، ولهوه وعبثه، ونصيب المغلوب من الدعوة عليه، والحملة الموجهة اليه، قد ضربت بجرّانها على سيرته، فاذا بها شوهاء مُزْرِية، واذا بها مقبحةٌ منفرة، حتى قيل فيه ما قيل مما يجدر بنا ألا نخلى كتابنا من إثبات بعضـــه :

جاء فى الجزء السادس من كتاب بغداد لأحمد بن أبى طاهر طيفور : «قال المأمون لطاهر بن الحسين : يا أبا الطيب! صف لى أخلاقَ المخلوع؛ قال : كان يا أمير المؤمنين واسعَ الطرب، ضيقَ الأدب، يبيح نفسَه ما تعافُه همُ ذوى الأقدار! قال : فكيف كانت حروبه ؟ قال : كان يجمع الكتائبَ ويفُضها بسوء التدبير، قال : فكيف كنتم له ؟ قال : كنا أُسْــدا تبيت وفى أشداقها أعناقُ الناكثين، وتصبح وفى صدورها قلوب المــارقين؛ قال : أما إنه أوّل من يؤخذ بدمه يوم القيامة ثلاثة، لست أنا ولا أنت رابعهــم ولا خامسهم، وهم القَضْل بن الرَّبيع، وبَكْر بن المُعْتمِر، والسِّنْدىّ بن شَاهَك ! هم والله ثأر أخى وعندهم دمه ...! » .

وقال المسعودى فى التنبيــه والإشراف : «إنــ الأمين كان باسـطًا يدَه بالعطاء، قبيحَ السـيرةِ، ضعيفَ الرأيِ، سـفاكاً للدماءِ، يركبُ هواه، ويُهمِل أمرَه، ويتكل فى جليلات الخطوب على غيره، ويثق بمن لا ينصحه، واستوزر الفضل بن الربيع، الى أن استتر الفضــلُ لمـا تبَيّنَ من اختلال أمر محمد، ووهى أمره، فقام بوزارته من حضر من كتابه كإسماعيل بن صبيح، وغلب عليه عدّة من الأولياء منهم علىّ بن عيسى، والسندىّ

ابن شاهك ، وسليمان بن أبى جعفر المنصور » . وقال غيره : « إنه كان كثير اللهو واللعب ، منقطعًا الى ذلك مشتغلًا به ، عن تدبير مملكته .

ويقول ابنُ الأثير : «لم نجد للأمين شيئا من سيرته ، نستحسنُه فنذكُره» . وهذا حقٌّ فى جملته عن الأمين كمدبِّر مملكةٍ وخليفة ؛ فإن فتًى غِرًّا ، لم يُثَقَّف الثقافة السياسية اللازمة ، ثم يصبح ذا سلطانٍ مُطْلَقٍ ، فى ملكٍ كبيرٍ يشبع ذوى المطامع النهمة ، ثم تحوطه حاشيةٌ من الدهاةِ ، ذوى المطامِع الواسعةِ ، والأغراض الكبيرةِ : كالفضل بن الربيع ، الذى أفسد ما بينه وبين أخيه ، وبكر بن المعتمر الذى زَيَّنَ له خَلْعَه ، ثم هو فوق ذلك ، ينصرف الى حدٍّ كبيرٍ ، عن معالجةِ تدبيرِ الملكِ ، الى اللهو ، والى اللهوِ بكل ألوانه وضروبه ، فقد ذكر الطبرىّ فى حوادث سنة ثلاث وتسعين ومائة عن علىّ بن إسحاق أحد معاصريه : أنه لما أفضت الخلافة الى محمد ، وهدأ الناسُ ببغداد ، أصبح صبيحة السبت ، بعد بيعته بيوم ، فأمر ببناء ميدانٍ حول قصر أبى جعفر فى المدينة للصوالجة واللعب ؛ فقال فى ذلك شاعرٌ من أهل بغداد :

بَنَى أمينُ اللهِ مَيدانا * وصَيَّر الساحةَ بُستانا
وكانت الغزلانُ فيه بَانَاً * يُهدَى اليه فيه غِزلانا

نقول إن مثل هذا الفتى الذى يولى وجهه منذ الساعة الأولى الى مثل هذه الشؤون التى كان يجدر به ومن كان فى مكانه ألا تكون صاحبةَ النصيب الأوّلِ من عنايته واهتمامه ، خليق ألا يجدَ المؤرِّخُ له عملًا صالحًا فى شأنٍ من شؤونِ الدولة ، وقمينٌ ، على ذلك أن يكون موضعَ استغلال كبير للدعوة المأمونية .

وقال غير ابن الأثير : « كان الأمين فصيحًا بليغًا كريمًا » . وكيف لا يكون تلميذُ الأحمرِ والكسائىّ وقطربٍ وحمادٍ وغيرهم من فحول اللغة وجهابذة البيان وأساتذة الأدب من منثور ومنظوم فصيحا بليغا ! .

على أنه من الحق والعدل ، أن نقرر أيضا ، أن هذه الصفاتِ ، تكاد تكون من سجايا كل ناجم من هذه الأسرة الباسقة الفينانة . ومن أجل هذا ، ذهبنا الى ما ذهبنا اليه ، من

أن الأمين لم يكن كما صوّروه لنا من البلَه والسُّخف، ومن الخمول والبلادة . ومحالٌ أن يكون كذلك، وتصرّفاته فى بعض شؤون الدولة على ما وصفنا . ومحالٌ أن يكون بليـدًا بفطرته وٱستعداده، أو جاهلا غبيًّا، لأنه فى الذروة من الهاشمية . وأنت تعلم مقدارَ ٱهتمام الخلفاء العباسيين ، والأمراء الهـاشميين ، بالثقافة الأدبيـة ، كما بينا لك ذلك فى كلمتنا عن الحياة الأدبية والعلمية فى العصر العباسىّ . وإنما ظروفُ حياة الأمين، والبيئةُ التى أحاطت به، وما الى ذلك ممـا فصلناه لك ، جعلت صورةَ الأمين كما أراناها التاريخ ، ثم هى فى الوقت نفسه جنحت به الى الاستهتار والى العبث والمجانة .

وقد يكون أحسنَ ما نختتم به كلمتَنا عن تحليل الأمين وسيرته، وأصـدقَ وصفٍ له، ما ذكره الفضل بن الربيع، وزيره ووزير أبيه من قبله ، والذى سنعرض لشىء من دقيق تصرّفاته، وحكيم تدبيراته، عنـد ما نعرض لتفصـيل النزاع بين الأمين والمأمون، فهـذا الوصف ربمـا كان أقلَّ تحاملا من غيره على الأمين، وربما كان خيرًا من سواه فى تصوير الأمين وتحليل أخلاقه ونفسيته .

ذكر الطبرىّ : «أن أسد بن يزيد بن مزيد حدثه أن الفضل بن الربيع بعثَ اليه بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة الأنبارىّ، قال : فأتيته، فلما دخلتُ عليه، وجدته قاعدًا فى صحن داره، وفى يده رقعةٌ قد قرأها، وٱحمرَّت عيناه، وٱشتدّ غضبُه، وهو يقول : ينام نومَ الظَّرِبَانِ، لا يفكر فى زوالِ نعمةٍ، ولا يتروّى فى إمضاء رأيٍ ولا مكيدةٍ، قد ألهاه كأسُه، وشـغله قدحُه، فهو يجرى فى لهوه، والأيام تسرع فى هلاكه ، قد شمَّرَ عبدُ الله له عن ساقه، وفوّق له أَصْيبَ أسهمِه، يرميه على بعـد الدار بالحتف النافذ والموت القاصد، قد عبّى له المنايا على متون الخيل، وناط له البلاءَ فى أسنة الرماح وشِفَار السيوف ؛ ثم استرجع وتمثل بشعر البَعيث :

وَمَجْـدُولَةٍ جَدْلَ العنانِ خريدَةٍ * لهـا شَعَرٌ جَعْدٌ ووَجْهٌ مُقَسَّمُ
وثغـرٌ نقىٌّ اللونِ عذبٌ مَذَاقُه * تُضِىءُ له الظلماءُ ساعةَ تَبْسِمُ

وثديانِ كالحُقَّيْنِ والبطنُ ضامرٌ * خميصٌ وجُهْـرٌ نارُهُ تتضـرَّمُ
لَهَوْتُ بها ليـلَ التمـامِ ابنَ خالدٍ * علىَّ بمَـرْوِ الرُّوذِ غيظًا تجـرَّمُ
أظـلُّ أناغيها وتحتَ ابنِ خالدٍ * أميـةَ نَهْـدُ المَرْكَلَيْنِ عَثَمْثَمُ
طواها طِرادُ الخيـلِ فى كلِّ غارةٍ * لهـا عارِضٌ فيـه الأسنةُ تُرْزِمُ
يُقـارِعُ أتراكَ ابنِ خاقانَ لَيْـلَهُ * الى أن يُرى الإصـباحُ لا يَتَلعثَمُ
فيُصبِحُ من طُول الطِّرادِ وجسمُهُ * نحيـلٌ وأُضحِى فى النعيم أُصَمِّمُ
فشتَّانَ ما بينى وبينَ ابن خالدٍ * أميَّـةَ فى الرِّزقِ الذى اللهُ قاسِمُ

ثم التفت إلىّ فقال : « يا أبا الحارث، إنا وإياك لنجرى الى غايةٍ، إن قصرنا عنها ذُممنا، وإن اجتهدنا فى بلوغها انقطعنا، وإنما نحن شعب من أصل، إن قوى قوينا، وإن ضعف ضعفْنا، إن هـذا قد ألْقىَ بيـده، إلقاء الأمة الوَكْعاء، يشاور النسـاء ويعتزم على الرؤيا، وقد أمكن بمسامعه ما معه من أهل اللهو والجسارة، فهم يَعِدونَه الظفرَ، ويُمَنُّونه عُقَب الأيام، والهلاكُ أسرع اليـه من السـيل الى قِيعَان الرمل. وقد خشيت والله أن نهلك بهلاكه ونعطَب بعطبه ! » .

الفصل الثانى

المــأمون

توطئـــة — مـــولده — نشـــأته وأخلاقه .

(أ) توطئـــة :

لننتقل الآن الى حداثة المأمون ، ولنتبع فى دراستنا له نفس الطريقـة التى ترسّمناها حين دراستنا لحداثة الأمين ، فنتكلم عن مولده ، كما نتكلم عن نشأته وأخلاقه ، محاولين أن نجمع شتات المعلومات التاريخيـة فى هذا الصـدد ، وأن ننظر فيهـا نظرة تفهمٍ واستيعاب وإمعانٍ ومقارنةٍ وموازنةٍ بمـا يقتضيه المقام من إجمالٍ وإيجاز .

(ب) مولـــده :

ولد عبد الله المأمون ، لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، سنة سبعين ومائة هجرية ، وهى التى استخلف فيها الرشيدُ ، فلما بُشِّرَ بمولده سرّ به سرورًا عظيماً ، وسماه المأمون تيمّنًا بذلك . وأمه أم ولد باذغشية تسمى «مَرَاجِل» ويقال : إنها تمتُّ الى أسرةٍ عريقةٍ فى المجد من الأسر الفارسية .

نشأ المأمون فى حجرِ الخلافةِ وتهيأ له من وسائل التربيةِ والتثقيف ما لم يتهيأ إلا لأخيه الأمين . وكانت ظاهرةً عليه مخايلُ النجابةِ والذكاءِ وبعدِ الهمة والتعـالى بنفسه عن سفسافِ الأمورِ .

ومع كبر سنّ المأمون ، وظهورِ هـذه الخلال فيه ، وثقةِ الرشيدِ به ، ومحبته له لم يُتَحْ له ما أُتيحَ للأمين ، من البيعة بولاية العهد ، إذ كان لأم الأمين من المكانةِ لدى الرشيد ، وهى زوجه ، ما لم يكن لأم المأمون . وقد سبق أن بينا لك ، فى كلامنا على الأمين ، ما قام به أخوالُه من المسمى الموفَّقِ ، فى أن يكون أمرُ الدولة من بعد الرشيد ، لابن أختهم ،

وما قام به الفضل بن يحيى فى خراسان : من البيعة للأمين بولاية العهد، حتى أصبح الرشيدُ أمامَ الأمر الواقع، فأعلن بولاية العهد للأمين راضياً أو مُكْرَهاً .

(ج) نشأته وأخلاقه :

وكّل الرشيدُ بكفالة المأمون، والنظر فى شؤونه، ومراقب أحواله، جعفرَ بن يحيى وزيره، كما جعل الأمينَ، فى كفالة الفضل أخى جعفر . ونحن نحس، عند ذكر كفالة الفضل للأمين، إحساسًا قد لا يعدو الواقعَ كثيرا، أن بين هذه الكفالة، وبين إعلان الفضل، بولاية العهد للأمين فى خراسان، صلةً .

فلما نما المأمونُ وترعرع، أخذ المؤرخون يذكرون لنا من مظاهر نجابته وحزمه، وتقديره لنفسه وللناس، ومعرفته بمن كانت أهواؤهم معه أو عليه، ووقوفه على ما يجرى حوله من شؤون وأحوال، مما سنقصّه عليك، ما ينبئ بما سيكون لهذا الغلام من شأن عظيم .

ولعل أظهرَ ما يدل على نجابة المأمون فى صباه ما يقصّه علينا التاريخُ عن أبى محمد اليزيدى مؤدّبه الذى يقول : « كنت اؤدّب المأمونَ، وهو فى كفالة سعيد الجوهريّ، فجئت دارَ الخلافة، وسعيدٌ قادمُ اليها، فوجهتُ الى المأمون بعضَ خدمه يعلمه بمكانى، فأبطأ علىّ، ثم وجهتُ آخَرَ فأبطأ، فقلت لسعيد : إن هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة وتأخر؛ فقال : أجل ! ومع هذا فانه اذا فارقك تعرّم(١) على خدمه، ولقوا منه أذًى شديدًا، فقومه بالأدب . فلما خرج تناولته ببعض التأديب؛ فانه ليدلُكُ عينيه من البكاء، إذ قيل : جعفر بن يحيى الوزير قد أقبل؛ فأخذ منديلًا فمسح عينيه وجمع ثيابه، وقام الى فراشه فقعد عليه متربعًا، ثم قال : ليدْخلْ . فقمت عن المجلس، وخفْتُ أن يشكونى اليه، فألقى منه ما أكره. قال : فأقبل عليه بوجهه وحدّثه حتى أضحكه، وضحك اليه . فلما هَمّ بالحركة، دعا المأمونُ بدابة جعفر ودعا غلمانَه فسَعَوْا بين يديه، ثم سأل عنى فجئت؛ فقال : خُذْ علىّ بقية حزبى ! فقلت : أيها الأمير، أطال الله بقاءك ! لقد خِفْتُ أن تشكونى الى جعفر

(١) أصابهم بشراسة وأذى .

ابن يحيى، ولو فعلت لَتنكَّر لى، فقال: تُرَانى يا أبا محمد كنت أطلع الرشيد على هذه ! فكيف بجعفر بن يحيى حتى أطلعه على أننى أحتاج الى أدب ! خذ فى أمرك، عافاك الله ! فقد خطر ببالك ما لا تَراه أبدا، ولو عدتَ الى تأديبى مائة مرة !

وكذلك مما يدل على ذكاء المأمون، وثقوب بصيرته، وأصالته وحصافته، منذ نعومة أظفاره، ومَيْعَةِ صباه، ما يحكى من أن أم جعفر عاتبت الرشيد، فى تقريظه للمأمون، دون الأمين ولدها ؛ فدعا خادماً وقال له : وَجِّهْ الى الأمين والمأمون خادماً، يقول لكل واحد منهما على الخلوة : ما تفعل اذا أفضت الخلافةُ اليك ؟ فأما الأمين فقال للخادم : أُقطِعُكَ وأُعطِيكَ، وأما المأمون فانه قام الى الخادم بدواة كانت بين يديه وقال : أتسألنى عما أفعلُ بك يوم يموت أمير المؤمنين وخليفةُ رب العالمين ! إنى لأرجو أن نكون جميعا فداءً له ! فقال الرشيدُ لأم جعفر : كيف تَرَيْنَ؟ فسكتت عن الجواب .

وأعدلُ الشواهدِ على تقدير هذا الغلامِ لنفسه، كأميرٍ وآبنِ خليفة ، وشعوره بما له من منزلة اجتماعيةٍ خاصةٍ ، وبما ينبغى أن يكون له ، فى نفوس الناس من إجلالٍ واحترامٍ ، وما يجب لمثله ، فى آدابِ التحيةِ وحسنِ الخطابِ، ما جَبَهَ به الحسنَ اللؤلؤى، وهو الذى اتخذه الرشيد مؤدّبا للمأمون ، بعد أبى محمدٍ اليزيدى ، حين كان يطارحُهُ شيئاً من الفقه، وأخذت المأمونَ سِنَةٌ من النوم، فقال له اللؤلؤى: نمتَ أيها الأمير؟ فقال المأمون: سوقىّ ورب الكعبة خذوا بيده! فجاء الغلمان فأقاموه . فلما بلغ الرشيد ماصنع قال متمثلا :

وهل يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلا وشيجُهُ * وتُغـرَسُ إلا فى منابتها النخلُ

ويحدّثنا التاريخ أيضا عن المأمون صبيا ، أن الرقاشىّ هجاه حين مدح الأمين بقوله :

لم تـلده أمـةٌ تعـ * ـرف فى السوق التجارا

لا ولا حـدّ ولا خا * ن ولا فى الخزى جارا

يعرّض بالمأمون، لأن الرشيد كان قد حدّه فى جاريةٍ أو فى خمرٍ .

ومهما يكن من شىء، فى صبا المأمون، فقد كانت ظاهرةً فيه، مخايل النجابةِ والذكاءِ والحزمِ، وحسن التدبيرِ وجَوْدةِ الحَدْسِ، والطموح الى الكمال .

وقد يجد الذين يذهبون ، الى أن فى تلقيح الأجناس تحسينًا للنوع ، حجةً ظاهرةً فى المأمون لمذهبهم ، إذ لا تعوزهم الوسيلةُ فى أن يرجعوا نجابته الى أنه من أمٍّ فارسيةٍ وأب عربىّ ، أو بعبارة أخرى : الى أنه قد جمع بين الدم الارىّ والدم السامىّ (١) .

هذه المخايلُ حببته الى الرشيد ، وجعلته يقدره قدْرَه ، فجعله ولىَّ عهدِ الخلافة بعد أخيه الأمين ، وجمعت حولَه طائفةً من ذوى الهمم الشماء الذين توسموا فيه محققا لأطماعهم الواسعة .

ومن أظهر هؤلاء الذين التفوا حوله ، لتحقيق مطامعهم ، الفضلُ بن سهل الذى اتخذ يحيى بن خالد البرمكى وسيلةً الى الرشيد ، فى أن يكون فى خدمة المأمون . وحسبك أن تعلم من أمر الفضل هذا ، أنه القائل حين سئل عن السعادة : إنها أمر جائز وكلمة نافذة ! . وأنه الذى قال له مؤدّب المأمون يومًا فى أيام الرشيد : إن المأمون لجميلُ الرأى فيك ، وإنى لا أستبعد أن يحصل لك من جهته ، ألف ألف درهم ؛ فاغتاظ من ذلك وقال له : ألك علىّ حقدٌ ! ألى اليك إساءةٌ ! فقال المؤدّب : لا والله ماقلت هذا إلا محبةً لك ! فقال : أتقول لى : إنك تحصل منه ألف ألف درهم ! والله ما صحبته لأكتسب مالا قلّ أو جلّ ، ولكن صحبته يمضىَ حكمُ خاتَمى هذا فى الشرق والغرب ! قال : فوالله ما طالت المدّة حتى بلغ ما أمل .

حسبك أن نذكر لك هذا ، من أمر الفضل بن سهل ، لتعلم ما لهذا الرجل من همةٍ وثّابةٍ ، وعزيمةٍ مرهفةٍ مَضّاءة ، ومطالع واسعة . وحسبك أن نذكر لك ما وصفه به أحد معاصريه وهو إبراهيم بن العباس لتقدر الرجل وتقدر كفايته . قال :

يمضى الأمور على بديهته * وتريه فكرتُه عواقبَها
فيظل يُصْدِرُها ويوردُها * فيعمُّ حاضرَها وغائبَها

(١) كتب أستاذنا الشيخ عبدالوهاب النجار عن هذا ما نصه : « كذلك كان الرشيد ، كان يجمع بين الدم الآرى والدم السامى . فهل التحسين يجمع فى الطبقة الأولى فقط و يفسد فى الثانية ؟ ومع هذا فان جوزتاف لو بون يخالف هذا الرأى على اطلاقه و يقول : إن أمة كل أفرادها مولدون لاتّساس و يعلل ذلك بتضارب السجايا والخصال والعقائد التى يرثها من أبويه واضطرابها فى نفسه » .

واذا ألمَّتْ صـعبةٌ عَظُمَتْ * فيهـا الرَّزيَّة كان صاحبَهـا
المستقلُّ بهـا وقـد رَسَبَتْ * ولَوَتْ عـلى الأيام جانبهـا
وَعَدَلْتَهَـا بالحق فاعتـدلتْ * وَوَسِـعْتَ راغبَهـا وراهبَها
واذا الحُرُوبُ بَدَتْ بَعَثْتَ لها * رأيًا تفُـلّ به كتائبَهـا
رأيًا اذا نَبَتِ السيوفُ مضى * عزمٌ بها فَشَـفَى مضاربَهـا
واذا الخطوبُ تأثّلتْ وَرَسَتْ * هـدّت فواضـله نوائبَهـا
واذا جَرَتْ بضـميره يَدُهُ * أَبْدَتْ به الدنيـا مناقبَهـا

يقول الفخرى : قالوا لمـا رأى رأى الفضل بن سهل نجـابة المأمون فى صباه ، ونظر فى طالعه ، وكان خبيرا بعـلم النجوم ، فدلته النجوم على أنه سيصير خليفة ، لزم ناحيتـه وخدمه ودبَّر أمورَه ، حتى أفضت الخلافةُ اليه فاستوزره .

وسواء أكان مرجع اتصاله بالمأمون ، الى خبرته بالنجوم ، أم الى جَوْدَةِ حَدْسه ، فقد اتصـل بالمأمون وهو صبىّ ، وكان الحاملُ له على أن يكون فى خدمته تحقيقَ آمال كبار ، رأى بكياسته وحذقه فى نجابة المأمون خيرَ كفيل بتحقيقها .

ولقد كان اسـتعداد المأمون الفطرى منذ نشأته أن يكون رجلَ جماعة ، وقائدَ أمة ، إذ قد حَبَته الطبيعةُ فيما حبته من شتى المواهب موهبة الخطابةِ والتبريزِ فيها . فقـد أخبرنا محمـد بن العباس اليزيدى قال : حدّثنى عمى عبد الله وأخى أحمد قالا : لمـا بلغ المأمونُ وصار فى حدّ الرجال ، أمرنا الرشـيدُ أن نعمل له خطبةً يقوم بهـا يومَ الجمعة ، فعملنا له خطبتَه المشهورةَ ، وكان جهيرَ الصوت ، حسنَ اللهجة ، فلمـا خطب بها رَقّتْ له قلوبُ النـاس ، وأبكى مَن سمعه ، فقال أبو محمد اليزيدى يمدح المأمون :

لِتَهْنِ أمـيرَ المؤمنينَ كرامةٌ * عَلَيْـهِ بهـا شُـكْرُ الإلهِ وُجُوبُ
بأنَّ وَلِىَّ العهــدِ مأمونَ هاشمٍ * بَدَا فَضْـلُه إذ قام وهوَ خطيبُ
ولمَّـا رماهُ الناسُ من كل جانبٍ * بأبصـارِهِم والعُودُ منـه صَليبُ

رَمَاهُمْ بِقَوْلٍ انصتُوا عَجَبًا له * وفى دُونه للسّامعينَ عجيبُ
ولمّا وَعَتْ آذانُهُم ما أتى بِهِ * أنابَتْ ورقّت عِندَ ذاك قُلُوب
فأبكى عيونَ الناسِ ابلغُ واعِظ * أغَرُّ بِطَاحِىٌّ النِّجارِ نَجيبُ
مَهيبٌ عليه للوقارِ سكينةٌ * جرىءُ جَنَانٍ لا أكعُّ هَيُوب
ولا واجِبٌ فوق المنابر قلبُه * اذا ما اعترى قلبَ النَّخيبِ وَجِيبُ
اذا ماعلا المأمونُ أعوادَ مِنْبَرٍ * فليسَ له فى العالَمِين ضَريبُ
تصدّع عنه الناسُ وهو حديثُهم * تحدّثَ عنهُ نازِحٌ وقريبُ
شبيهُ أميرِ المؤمنينَ حَزَامَةً * اذا وَرَدَتْ يومًا عليه خُطُوبُ
اذا طاب أصلٌ فى عروق مِشَاجِهِ * فأغصَانُهُ مِنْ طيبهِ ستطيبُ
فقل لأميرِ المؤمنينَ الذى به * يُقَدِّمُ عبدُ اللهِ فهو أديبُ
كأن لم تَغِب عن بلدةٍ كان واليا * عليها و لا التدبيرُ منك يغيبُ
تَتَبَّعَ ما يُرضِيكَ فى كل أمرِهِ * فسيرتُهُ شخصٌ اليك حبيبُ
وَرِثْتُم بنى العباس إرثَ محمدٍ * فليس لحىٍّ فى التُّراثِ نصيبُ

فلما وصلت هذه الأبيات الى الرشيد أمر لأبى محمد بخمسين ألف درهم ، ولابنه محمد ابن أبى محمد بمثلها .

*
* *

« وبعد » فليس مِنْ شكٍّ فى نجابةِ المأمونِ وتبريزه . ولعل هذه النجابة الخارقة ، كانت من الأسباب التى حملت الرشيدَ ، على أن يستوثق له الأمرَ فى ولاية العهد من أخيه ، ولأخيه منه ، بجمعهما فى بيت الله الحرام ، حين حج عام ست وثمانين ومائة ، ومعه كبارُ رجال الدولة ، وجلّ الظاهرين من الأسرة المالكة ، واستكتب كليهما عهدًا بما له وعليه قِبَلَ الآخر ، وأشهد عليهما جماعةً من ذوى المكانةِ والنفوذ ، ثم عَلَّقَ العهدين فى الكعبة ، ليكونا فى مكان الاحترام الدينىّ . وقد أثبتنا لك العهدين فى باب المنثور من الكتاب الثالث فى مجلدنا الثالث .

نقول : لعل هذه النجابة الخارقة كانت من الأسباب التى حملت الرشيدَ على أن يفعل ما فعل، من استيثاقِ الأمرِ بين الأخوين، خوفًا على المأمون ومنه. ولسنا ننكر أن من جملة تلك الأسباب ما يصح افتراضُه : من أنّ الرشـيدَ كان يُقَدّر قوة حِزبَى المأمون والأمين، وبعبارةٍ أخرى، حِزبَى الفرسِ والعربِ، أو العلويةِ والهاشميةِ، أو الشيعيةِ والسنيةِ .

ونحن لا نستطيع أن نرجع مظاهرَ العطف المختلفة، وفى مناسباتٍ كثيرةٍ من الرشـيد على المأمون، الى الأبوّة وحدها ؛ فان للرشيد أولادًا غير المأمون، وغير الأمين، لم ينالوا شيئا من هذه الحظوة العظيمة لديه . لذلك نرى ــ وقد ترى معنا رأينا ــ أن هذه الحُظْوَة، التى ينالها المأمون من الرشيد، فى مناسباتٍ كثيرةٍ، دون إخوته، ترجع الى ما امتاز به المأمونُ، من نجابةٍ خارقةٍ، وميلٍ الى جِدّ الأمور، وترفُّع عن سفسافها، وسموٍّ عن دناياها، واضطلاعٍ بمـا يكلف القيام به من أعباء ومهامّ .

ولعل أظهر مظاهرِ العطف من الرشيد على المأمون، ما فعله الرشيد حين وافته منيته "بطوس"، من وصيته بجميع ما كان معه، من جندٍ وسلاحٍ ومالٍ للمأمون، دون أن يكون لخليفته من بعده، ليشدّ بذلك من أزر المأمون، ويقوّى من جانبه . وأنت جدُّ عالم بمـا قدّمناه لك من الكلام فى العصر الأموىّ، عن أثر المال فتقدّر معنا ما كان يرومه الرشيد؛ ولستَ فى حاجةٍ لأن أقول لك، إن أثر المـال وسلطانه فى نفوذ الكلمة، وقوة الشوكة، دونه كل أثر وكل سلطان !

ولعلنا لا نعــدو الواقعَ كثيرا، حين نذهب الى القول بأنَّ الرشـيدَ كان يحذر الخلافَ بين الأخوين، ويخاف كلَيهما على الآخر : يخاف الأمينَ على المأمون، لأن الأمين سيُصبِح الخليفةَ الذى بيده قوّة الدولة من جندٍ ومال، وتصحبه مزاياها من عظم الهيبةِ ونفوذِ الكلمةِ، وسيكون مطمحَ آمال الآملين وموضعَ رجاء الراجين .

ومن شأن كل هذا أن يجعل الناس جميعا، أو الأكثرية الساحقة منهم يلتفّون حوله، رغبةً أو رهبةً . وجدير بمن كان هذا شأنه أن يُخْشَى ويُتَّقَى .

ويخاف المأمونَ على الأمين؛ لأن ما امتاز به المأمونُ، من نجابة خارقةٍ، وجدٍّ وحنكةٍ، وعرفانٍ بشؤونِ الحياةِ واضطلاع، واعتدادٍ بنفسه، يجعل منه خطراً شديداً على الأمين جديرا بأن يخشى ويتقى أيضا . ويظهر أنَّ كل هذا وقَر فى نفس الرشيد الذى كان معروفاً بالحزم وجَوْدَةِ الحَدْس ، وقوةِ البصر بالعواقب، فأراد أن يتقيه، ورأى أن خيرَوسيلة لاتقائه، أن يستكتبهما العهدين، كما قدّمنا، فيقطع بذلك أسبابَ الخلاف بين الأخوين، ويحول دون دسّ الدسّاسين ، وسعاية الساعين، ويفهم أنصار الفريقين ما للبيعة بين الأميرين من حرمة وتوقير .

غير أن تصرّفات الأيام ، وآثار البطانة ، ونتائج السعاية ، ومَغَبّات الرياء والنفاق، كانت فوق ما كان يقدّر الرشيدُ، فوقع الخلاف بين الأخوين أعنفَ ما يكون . ولم يكن ما اتخذه الرشيد من وقايةٍ وحيطةٍ ليصدّ تيارَه الجارفَ .

وكان المأمون الشاب حسن التوفيق فى اختيارِ حاشيته ومشيريه ، فجمع حوله طائفةً من ذوى الدهاء والحنكة، وهؤلاء وإن كانوا من ذوى المطامع والأغراض، قد أخلصوا له النصح، وثقّفوه التثقيف الذى يكفل له النجاحَ، فان تحقيقَ أطماعهم الواسعة، موقوفٌ على نجاحه . فإخلاصُهم له إخلاصٌ فى الواقع لأنفسهم أيضا . ولما كانت أمّ المأمون فارسية فربما جاز لنا أن نقول : لعل لكونها فارسية أثرا فى أن يخلص له هؤلاء المشيرون إذ كانوا كلهم من الفرس واذ كانت له بهم هذه القرابة .

وهذا يفسر لنا عاطفةً من عواطف المأمون، وهى ميلُه الى خراسان، وتعصّبه بعضَ التعصب للخراسانيين، إذ يحدّثنا التاريخ أن رجلا من الشام اعترض طريقه مرارا وقال : « يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشأم كما نظرت لعجم خراسان ؛ فقال له : أكثرت عليّ والله ما أنزلت قيسا عن ظهور خيولها إلّا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهمٌ واحد ، يعنى فتنة ابن العامرىّ ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قُضَاعةُ فساداتها تنتظر السفيانىّ حتى تكون من أشياعه ، وأما ربيعةُ فساخطةٌ على ربها

مذ بعث اللهُ نبيه من مضر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريا[(١)] . اعرف ! فعل الله بك ! »

وإنه ليجوز لنا أن نرجع هذا الميلَ، لا الى ما ذكره المأمون وحده، بل الى التربية وأثر البيئة الفارسية فى نفسه ، والى مقابلة حسن الصنيع بمثله ؛ فأم المأمون فارسية ، والذين كفلوه وقاموا بتثقيفه فارسيّون ، والذين أحاطوا به ونصروه فارسيّون . ومن هنا نستطيع أن نفهمَ الرأىَ الذى يقول به بعض المؤرخين الفرنجة : إن انتصارَ المأمون على الأمين كان أيضا انتصارًا للفرس على العرب ، كما كان انتصارًا للفرس على العرب انتصارُ العباسيين على الأمويين . ومن هنا نستطيع أن نعلل أيضا ، ما ذهب اليه ، بعض الباحثين ، من أن المأمون كان شيعيًّا وهو عباسىّ ، لأن البيئة الفارسية التى نشأ فيها كانت إلى حد غير قليل مهدَ التشيع للعلويين ، فيجوز أن تكون قد صبغت المأمون بشئ من ألوانها ، وقد كان لذلك آثاره ، لا فى السياسة ونظام الملك فحسب ، بل فى الآراء والمذاهب مما سنذكره حين نعرض للكلام على الخليفة المأمون .

ولعلنا نكون بما قدّمناه لك عن نشأة المأمون وصباه ، قد رسمنا لك صورةً واضحةً لهذا الأمير الذى سيكافح كفاحا شديدًا فى سبيل الملك ، والذى كان له أكبر أثر فى الحضارة الإسلاميـــة .

أما شتّى مواهب المأمون وآراؤه ، وما اشتهر به من الحلم والعفو والكرم والبصر بالسياسة ، وجَوْدة الحدس ، وكفاية البطانة ، وشغفه بالعلم والأدب والجدال ، وما كان لهذا الشغف من ثورة علمية وفكرية وكلامية فى عصره ، فسنرجىء الكلامَ فيها الى موضعها من كتابنا ، وهو الكلام على الخليفة المأمون ، بعد أن استقرّ له الأمر فى بغداد ، وحين نضجت فيه هذه الخلال وآتت كل ما لها من ثمرات .

(١) فى ابن الأثير (سائسا) وهو غلط ، والصحيح ما أثبتناه عن أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار . والشراة هم الخوارج .

الفصل الثالث

النزاع بين الأمين والمأمون

توطئة — بيعة الأمين وخلافته — مبدأ النزاع وكيف تحوّل — الوفود السياسية — نفور الرأى العام واستمرار الوفود السياسية — اعلان الحرب — انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء — عود على بدء: مجهودات الأمين فى سبيل الفوز — الثورة وخطباؤها — قتل الأمين .

(أ) توطئة :

عرفت مما ذكرناه لك فى مجمل كلامنا عن الرشيد والأمين ، أن الرشيد أعلن ولاية العهد للأمين فى سنة ١٧٥ هجرية ، وسنّ الأمين فيما قيل وقتئذ خمس سنين ، ثم أشرك معه المأمون فى ولاية العهد سنة ١٨٣ هجرية ، ثم استوثق لكليهما من أخيه سنة ١٨٦ هجرية وهو عام حج الرشيد : بأن استكتب كلا منهما عهدًا بما عليه وله قِبَل الآخر ، وعلّق العهدين بالكعبة كما قدّمنا .

ويؤخذ من نصوص العهدين ، وما تبودل بعد ذلك من الرسائل بين الأمين والمأمون ، مما سنورد لك بعضه لما تضمنته من «الدبلوماطيقية العباسية» : وهى لينٌ فى حزم ، وتيئيس فى تأميلٍ طويل الأجل ، — ويؤخذ منها أن خراسان ونواحيها الى الريّ كانت تحت إمرة المأمون ، يتصرّف فى جميع شؤونها ، من سياسيةٍ وحربيةٍ واقتصادية وقضائيةٍ تصرّفًا تامًا ، لا تربطه بحاضرة الخلافة إلا رابطة الدعاء للخليفة . وقد صارت اليه إمرة هذه النواحى فى عهد الرشيد ، وهى من الأمور التى أخذ الأمين بالوفاء بها ، فيما أخذ به من عهودٍ ومواثيق .

وكان الرشيد قد أشرك فى سنة ١٨٨ هجرية ولده القاسم مع أخويه فى ولاية العهد ، وجعل من نصيبه العمل على الشام وقِنَّسرينَ والعواصِم والثغور .

وكانت الأمور جارية مجراها الطبيعى آخر أيام الرشيد، ثم شطرًا كبيرًا من السنة الأولى من خلافة الأمين، إلا ما كان من أشياء، طوى عليها المأمون كَشحًا، دُربةً منه وسياسةً، وحصافة وكياسة، وتريثًا وتعقلًا، وحزامةً وتمهلا .

ولم تنقض السـنة الأولى من خلافة الأمين حتى كانت الدسائسُ قد فعلت فعلَهـا، وحتى كانت المنافسةُ العنيفةُ بين البطانتين قد بلغت غايتها، وأخذ كلٌّ من الأخوين يحذر أخاه ويتقيه، وآمتلأت الصـدور حفائظَ وإحَنًا، ولم يبق إلا أن تُلمَس فتنفجر .

وسنفصل لك كل ذلك تفصيلا .

***

(ب) بيعة الأمين وخلافتـه :

لمـا خرج رافع بن الليث بن نصر بن سيار بخراسان (١)، وكَثُفَ أنصارُه، وقويت شوكتُه، وعظم خطرُه، رأى الرشـيدُ أن يخرج اليه بنفسه لمحاربتـه وتسكين حَبْل الأمن الذى اضطرب فى تلك النواحى . فأصابه من مشاقّ السفر، وتغيّر الطقس، وشدّة التفكير، ما أعلّ صحتـه . وبدا له من ظروف الأحوال ما حمله على تجديد البيعة للأمون، الذى كان بمرو، وأوصى بأن يصير ما معه، من قوادٍ وجندٍ وسلاحٍ ومالٍ الى جانبه، وأخذ المواثيقَ على من معه بأن يُوفُوا بهذه الوصية .

ثم أخذت تشتدّ به العلة، حتى وافته منيته بطوس سنة ١٩٣ هجرية . وبويع للأمين بالخلافة، فى عسكر الرشيد، ووصله نعيُ الرشـيد فى بغداد يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة، خلت من جمادى الآخرة، وقيل ليلة النصف من هذا الشهر، فكتم الخبرَ بقية يومه وليلته، ثم أظهره يوم الجمعة .

(١) هو حفيد نصر بن سيار آخر وال لبنى أمية بخراسان اذ دالت بعد ذلك دولتهم . وسبب خروج رافع هذا أنه طمع فى زواج امرأة يحيي بن الأشعث بن يحيي الطائى لشرفها ومالها وكانت مغاضبة لزوجها، فحملها على أن تعلن الكفر لتطلق ثم تزوّج منها . فبلغ أمره الرشـيد الذى كلف عامله أن يفرّق بينهما وأن يعاقب رافعا ويجلده الحد ويقيده ويطوف به فى مدينـة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون عظة لغيره . فدرأ عنه العامل الحـد وطاف به ثم سجنه فهرب من الحبس فطارده عمال الرشيد . وما زال أمره يشتدّ حتى اضطر الرشيد الى الذهاب اليه بنفسه .

ويحدثنا التاريخ أن الأمينَ لمّا بلغه اشتداد المرض على الرشيد، وتوقع وفاته، بعث بكر بن المعتمر رسولا الى مقر الخليفة، ليوافيه بالأخبار كلَّ يوم . وكتب معه كتبًا، وجعلها فى قوائم صناديقَ منقورةٍ، ألبسها جلد البقر، ليخفى أمرَها، وكلّفه ألا يُظهرَ أحدًا على شيء من أمره، وما توجه فيه ولو قُتِلَ ، حتى اذا نفذ أمرُ الله فى الرشيد، دفع الى كل من له كتابٌ كتابَه . فلما وصل رسولُ الأمينِ، راب الرشيدَ قدومُه، فسأله عما جاء به؛ فلما لم يجد فى جوابه ما يُزيلُ ريبَه، أمر بتفتيشه وحبسه . ولعلك تصيب لباب الصواب، أو لا تعدوه كثيرا، اذا افترضت أن هذا الريبَ الذى خامره من رسول الأمين، كان من العوامل التى حملته على تجديد البيعة للمأمون، وأن يوصى له بما معه من جندٍ وسلاحٍ ومالٍ .

لبث رسولُ الأمين فى الحبس أشهرًا ، إذ تاريخ الكتب التى يحملها الى من أرسلت اليهم شوّال سنة ١٩٢ هـ . ووفاةُ الرشيد كانت فى جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ . ثم بدا للرشيد أن يحمل بكرًا على الإقرار، فكلّف الفضلَ بن الربيع ذلك، وأن يهدده بالموت اذا لم يقرّ . وقد حالت وفاةُ الرشيد فى ذلك اليومِ، دون تمام هذا الإقرار . ثم لما وثق الرسولُ من وفاة الرشيد دفع الى كل كتابه .

وقد أثبتنا لك من هذه الكتب كتابه الى أخيه المأمون وكتابه الى أخيه صالح فى موضعهما من المجلد الثالث من هذا الكتاب، لما لهما من خطرٍ فى موضوع النزاع، فانهما يدلان على أن الأمين لم يكن لينكث ما عقد من عهودٍ ومواثيقَ ، وإنما بطانة السوء هى التى زينت له أن يفعل ما فعل؛ فراجعهما ثمة . وتأمل طويلا فيما لبطانات السوء من وخيم العواقب بين الأشقاء ، والزعماء ، والأمراء ، وما تجرّه على البلاد من انتثار العقد وتشتيت الشمل ، وتشعّث الألفة، وفرقة الجماعة، وسريان الفتن وذيوع الفوضى ، وانتشار الاضطرابات ، واندلاع نيران الثورات ، ومن ترجيح كفة الأشرار على الأبرار ، الى غيرذلك من شتى النتائج السيئة، والعواقب المهلكة، التى سنحدثك عنها، وستراها واضحة جلية فى كلمتنا الآتية .

*
* *

(ج) مبدأ النزاع، وكيف تقلب، ونتيجته :

قد تطلب الىّ ، وفقك الله، أن تقف على ما كان لتلك الكتب، من أثر فى نفوس من أُرسلَتْ اليهم ، و إنى شافٍ غُلتك، مجيبك الى سُؤْلك ، محيلك الى الطبرى فى هــذا الصدد إذ يقول :

"لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد بطوس، من القوّاد والجند وأولاد هارون، تشاوروا فى اللحاق بمحمــد، فقال الفضــل بن الربيع : لا أدع مُلكاً حاضرا لآخر لا يُدْرى ما يكون من أمره، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك ، محبــة منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد، وتركوا العهودَ التى كانت أُخذَتْ عليهم للأمون " .

أما المأمون – بعــد أن انتهى اليه بمرو خبرُ نكث القوم للعهود التى أُخذَتْ عليهم ، وفرارِهم الى بغدادَ بما كان الرشيد أوصى بأن يكون له ، من جنــدٍ ومالٍ وسلاحٍ — فقد اجتمعت كلمة الرواة على حسن تيقظه وسرعة مبادرته لشتى أموره، وأنه شدّ لها حيازيمَه، وحسر لها عن ساقه . ويحدّثنا التاريخ أنه قد جمع من معه من قوّاد أبيه، وأخبرهم الخبر وشاورهم فى الأمر، فأشاروا عليــه أن يلحق القومَ فى ألفى فارس ، ويحولَ بينهــم وبين ما أرادوا .

ولكن المأمون عمل بمشورة الفضل بن سهل ، الذى كان يثق به وبكفايته ، ويؤمن بكياسته وحسن سياسته ، ويقتنع بثقوب بصره وصدق نظره ، فقد قال له الفضل : إن فعلت ما أشاروا به عليــك جعلتَ هؤلاء هديةً الى محمد ، ولكن الرأى أن تكتب اليهــم كتابا، وتوجه اليهم فتذكرهم البيعة، وتسألهم الوفاء ، وتحذرهم الحنث وما يلزمهم فى ذلك فى الدنيا والدين، وإن كتابك ورسلك تقوم مقامك، فتستبرئ ما عند القوم . وتوجه سهل ابن صاعد — وكان على قهرمته — فانه يأملك، ويرجو أن ينال أمله ، فلن يألوكَ نصحا ، وتوجه معه نوفلا الخادم مولى موسى أمير المؤمنين ، وكان عاقلًا . فلم ير المأمون، وهو

الحاذق الفطن، ندحة دون صدوره عن رأى ابن سهل، فكتب كتاباً ووجه من أشار بهما الفضل الى القوم فلحقاهم بنيسابور؛ فقال الفضل بن الربيع لما وصله كتاب المأمون معتذرا متعللا : " إنما أنا واحد منهم " ! وقد نال بعضهم من المأمون وأغلظ لرسوليه؛ ثم رجع الرسولان بالخبر .

وكان ممكنًا ، بعد أن طوى المأمونُ كشحًا على ما وقع من القوم من نكثٍ للعهود واغتصابٍ لما أوصى به الرشيد له : من جندٍ ومالٍ وسلاحٍ، وبعد أن أخذ يُهْدِى الى أخيه خيرَ ما وصلت اليه يمناه من تحف خراسان ونفائسها ، أن تسير الأمورُ فى مجراها الطبيعىّ، وأن يستقرّ الأمرُ بين الأخوين على ما أراد الرشيد، لولا أن بطانة الأمين أَوْغَرَتْ صدرَه على أخيه ، ولولا أن بطانة المأمون حفزته الى مقابلة العدوان بمثله ، وأفعمت قلبه ثقة بالغلبة والظفر وإيمانا بالفوز والنجح .

وإن كلمة الفضل بن الربيع "لا أدع ملكا حاضرا لآخر لايُدرى ما يكون من أمره !" فيها الغنيةُ والكفايةُ فى تفهيمنا الأساسَ الذى بُنِيَتْ عليه تصرّفاتُه بين الأخوين، فهو ينظر لمصلحة من بيده الملك اليوم ، لا يحفِلُ ببيعةٍ ولا عهدٍ ، ولا يكترث لوحدة قومية ولا يحفِل بإحلال الوفاق بين العباد، ولا يعمل على مصافاةٍ ولا ودادة، وإنما همه المُلكُ الحاضر، والإمعانُ فى إرضاء المُلكِ الحاضر .

كذلك كانت حال الفضل بن سهل فى موقفه مع عبد الله المأمون ! ومهما كانت صورةُ المأمونِ التى صوّرها لنا التاريخ بأنه المغلوب على أمره ، فى النزاع الذى نشب بين الأخوين، وأن الأمين هو الناكث الغادر . ومهما كانت القلوبُ الإنسانية تحنو على المظلوم وتعطف على المغلوب — مهما كان كل ذلك ، مما يجعلنا نستسيغ تصرّفات الفضل ابن سهل مع المأمون ، بل مما يدفعنا الى الافتتان بها وعزو الحصافة ، والأصالة ، والكياسة ، الى صاحبها ، وأن ليس هناك من هو أنهدُ منه فى مثل مواقفه ولا أجزى ، ولا أحكم من تدبيراته ولا أوفى، ولا أرهف غرارًا من عزماته ولا أمضى، ولا أقدر منه

فى خُطَطِه ولا أغنىٰ ، بَيْدَ أنا مع ذلك ، اذا جرّدنا النفس الانسانيةَ من بعض صفاتهـا ، ونظرنا "ببرود" — على حدّ التعبيـرِ الانجليزى" — وبحَيدَةٍ ونصفَةٍ منه وله ، فانا نقرر ، من غير أن نعدوَ الحقَّ والواقعَ ، أن الفضل بن سهل لعب مع المأمون ، ذلك الدورَ الخطيرَ ذاته الذى لعبه الفضل بن الربيع مع الأمين ، وأن كلًّا قد توكأ على أميره لغايته ، واستغلّه فى سبيل نُجْح سياسته ، ودفع به الى حيث يريد ! .

أنظر اليه ، وقد عادت وفود المأمون من مقابلة الفضل بن الربيع ومن لحق به من جند وسلاح ، تره يصارح المأمونَ عنهم بقوله : أعداء قد استرحت منهم ، ولكن افهم عنى ما أقول لك : إن هذه الدولةَ لم تكن قط أعزَّ منها أيامَ أبى جعفر ، فخرج عليه "المقنع" وهو يدّعى الربوبيةَ ، وقال بعضهم : طالب بدم أبى مسلم ، فتضعضعَ المعسكر ، بخروجه بخراسانَ ، فكفى الله المؤنةَ ؛ ثم خرج بعده يوسفُ البرم ، وهو عند بعض المسلمين كافر ، فكفى الله المؤنةَ ، ثم خرج أستاذ سيس ، يدعو الى الكفر ، فسار المهدىُّ من الرىّ الى نيسابورَ فكفى الله المؤنة . ولكن ما أصنع أكبر عليك ، أخبرنى كيف رأيت الناس حين ورد عليهم خبر رافع ؟ قال المأمون : "رأيتهم اضطربوا اضطرابا شديدا" فقال له الفضل : وكيف وأنت نازل فى أخوالك وبيعتُك فى أعناقهم ، كيف يكون اضطرابُ أهـل بغداد ؟ اصـبر وأنا أضمن الخلافةَ ! قال المأمون : " قد فعلت وجعلت الأمر اليك فقم به " .

على أنه اذا صدق الرواةُ فيما يروُونه لنا : من أن الفضل بن سهل قال للمأمون فى حديثه معه : " لأصدقنك أن عبدالله بن مالك ، ويحيى بن معاذ ، ومن سمينا من أمراء الرؤساء ، إن قاموا لك بالأمر كان أنفـعَ منى لك ، برياستهم المشهورة ، ولما عندهم من القوّة على الحـرب ، فمن قام بالأمر كنتُ خادمًا له ، حتى تصير الىّ محبتك ، وترى رأيك فىّ " . وصدقوا فى أن الفضل بن سهل لقى هؤلاء الزعماء فى منازلهم ، وذكر لهم البيعةَ التى فى أعناقهم ، وما يجب عليهم من الوفاء ، وأن الخيبة كانت نصيبَ دعوته لهم وتذكيره إياهم ، وأنها مع ذلك لم تصدِفْه عن قصده الذى نهدَ اليه ، ولم تحُلْ بينه وبين مضيِّه قُدُمًا فى سبيل غايته ، التى

تأدى لها بأداته ، وتذرع لها بذرائعه ، وأخذ لها عُدّته ، وأرهف لها عزمته . وأنه قال للمأمون : ""لقد قرأتَ القرآن ، وسمعتَ الأحاديث ، وتفقهتَ فى الدين ، فالرأى أن تبعث الى من بالحضرة من الفقهاء ، فتدعوهم الى الحق والعمل به ، وإحياء السنة ، ونقعد على اللبود ، وترد المظالم"" . وصدقوا حقًّا فى أن المأمون والفضل فعلا ذلك ، وأنهما بعثا الى الفقهاء ، وأكرما القوّاد والملوكَ وأبناء الملوك . وصدقوا فى أن الفضل كان يقول للتميمى : ""نُقيمُك مَقامَ موسى بن كعب ، وللربعىّ مقام أبى داود خالد بن إبراهيم ، ولليمانىّ مقام قحطبة ومالك ابن الهيثم . وصدقوا فى أنهما كانا يدعوان كلّ قبيلة ، الى نقباء ورؤساء الدولة ، كاستمالتهم الرؤوسَ . وصدقوا فى أن المأمون والفضل قد حطا عن خراسان ربعَ الخراج حتى حسن موقع ذلك من الخراسانيين وسُرّوا به وقالوا : «ابن أختنا وابن عم نبينا صلى الله عليه وسلم» وصدقوا فى أن المأمون تواترت كتبه الى أخيه محمد الأمين ، بالتعظيم والهدايا اليه من طرف خراسان ، من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح ، حتى أوائل سنة أربع وتسعين ومائة التى عزل فيها الأمينُ أخاه القاسمَ عما كان أبوه ولاه من عمل قِنَّسْرِينَ والشأم والعواصم والثغور ، وولى مكانه خزيمةَ بن خازم ، والتى أمر فيها بالدعاء لابنه موسى على المنابر بالإمرة ، وحتى مكر كل واحد منهما بصاحبه وظهر بينهما الفساد — اذا صدق الرواة فى كل ذلك ، فانا نرى من النصَفَة العلمية والتاريخية ، أن نقررَ حينئذ أن الفضل بن سهل كان دَهِيًّا حقا ، وممعنا فى الديبلوماتيقية ، وكان موقفه لا يقل عن موقف «وارن هاستنج» و «كليف» فى الهند ، وغيرهما من جهابذة السياسة ، وأقطاب الدهاء . وربما كانت مكانته أسمى منهما وأرفعَ وأخلق بمقارنتها بمن يشار اليه بالبنان من ساسة هذا الزمان !

ولننظر معًا ، وهبنا الله وإيّاك الجلد والأناة ، ووفقنا الى ما نرومه من تمحيص وتحقيق ، وتفهم وتدقيق ، فى حوادث سنة أربع وتسعين ومائة لنكون مُلمّين بتحوّل النزاع الذى شجر بين الأخوين ، ولنؤمن الإيمانَ كله أن البطانة قد لعبت دورا شنيعا ، فى إشعال جَذْوة الحقد والسخيمة بينهما ، وعملت على إضرام أُوَارها ، وسعتْ جُهدَها فى توسيع مسافة

الخلف بين الأخوين حتى كان ما كان، نجد أن الفضل بن الربيع، فيما يرويه لنا المؤرّخون، سعى بعـد مَقْدَمه العراقَ على محمد، منصرفا عن طُوس، وناكثًا للعهود التى كان الرشـيد أخذها عليـه لآبنه عبد الله، وعلم أن الخلافة إن أفضت الى المأمون يومًا وهو حىّ لم يُبْقِ عليه، وكان يترقب فى ظفره به عَطَبَه — سعى جُهدَه فى إغراء محمد به، وأعمل قريحته فى حثه على خلعه، وزَيَّنَ له، بمـا فى مقدوره، أن يصرفَ ولاية العهد من بعده الى آبنه موسى. ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه، بل كان عزمُه، فيما ذكر الرواة عنه، الوفاءَ لأخويه عبدِ الله والقاسمِ بمـا كان أخذ عليـه لهما والدُه من العهود والشروط. فلم يزل به الفضـل ابن الربيع يُصغِّر فى عينيه شأنَ المأمون، ويُزيِّن له خلعَه، حتى قال له: "ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك، فان البيعة لك كانت متقدّمة قبلهما، وإنما أدخلا فيها بعدك، واحدا بعد واحد!". قال ذلك آبن الربيع، وضم الى رأيه معه على بن عيسى ابن ماهان والسندى وغيرهما ممن بحضرته.

ومن المعقول أن تفترض أن الفضل مضى فى الإيقاع على هـذه النغمة، ثَنْيًا بعد ثنى ومرة إثر أخرى، وقدح فى ذلك قريحته، وآستخدم شتى وسائل أمثاله ونظرائه، حتى أزال محمدا عن رأيه. وقد ذكر المؤرّخون: أن أوّل ما بدأ به محمد عن رأى الفضل بن الربيع فيما دَبَّر من ذلك، أن كتب الى جميع العمال فى الأمصار كلها، بالدعاء لآبنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمـأمون والقاسم بن الرشيد.

والآن، بعد أن وقفتَ على تصرّف محمد وجماعة محمد مع المأمون وجمـاعة المأمون، لك أن تستنبط ما يفعله الفريقُ الآخر، إجابةً على تصرّف الفريق الأول. ولك أن تنتظر من المأمون أن يدبر أمره تدبيرَ من يرى أن أخاه يدبر عليه خلعه. ولك أن تنتظرَ مثلَ ذلك من جماعة المأمون وأنصاره.

وهكذا تنبئنا حوادثُ السنةِ نفسها، إذ ينبئنا الطبرىّ أن فيها قطع المأمون البريد عن محمد، وفيها أسقط آسمه من الطرز، وفيهـا لحق رافع بن الليث بالمأمون، وهو من سلالة

نصر بن سيار ، لما آنتهى اليه من الخبر عن المأمون ، وحسن سيرته فى أهل عمله ، وإحسانه اليهم ، فيما يرويه المؤرخون ، أو سعى المأمونُ ورجالاتُ المأمون ، كهرثمة وطاهر ، فى إصلاح ما بينه وبين المأمون ، وطلبِ الأمان له ليكون عُدّةً وظهيرا للحزب المأمونى ، كما نستسيغه نحن ونستخلصه ؛ وفيها ولّى المأمون هرثمةَ رياسةَ الحرس ، ولهرثمة مكانتُه وشهرتُه ، وله سيرتُه ونجدتُه ، ولرافع بيتُه وأنصارُه ، وكتائبُه وفرسانه ، كما أن لطاهر ابن الحسين حزمه وشجاعته وفروسته ومرانه ، ولآبن سهل بلا ريب حِذقُه فى تصرّفاته التى بمثلها تُردّ الأهواء الشاردةُ ، وتُستصرَف الأبصارُ الطامحة . وعلى رأسهم ، أو الى جانبهم إن شئت المأمون ، وقد تسربل بالثوب الذى نُصِحَ اليه بلبسه ، فأضحى محمودَ الشيم مرضىَّ الخلال ، وهو باستعداده ونزعته ذلك الرجل السياسىّ ، المعتدل المزاج ، الهادئ الأعصاب ، السديد التصرّف ، السمح الأخلاق ، اللين العريكة ، الكريم المهزة ، مع أناةٍ وجلدٍ وعزم وحزم ، ونفاذ ومضاء .

ومن المعقول أيضا أن ينكر الأمينُ ذلك من ناحيته أيضا . والمعقول أن يبدأ بالتدبير على المأمون ليصدقَ عنه قلوبَ رجاله ، وأن تتسلسل الحلقات ، وتستطرد الإجراءات ، المحتومة الوقوع ، فى مثل هذه الحالات ! .

وربما كنا على حق ، اذا قلنا : إن النزاع أضحى بين الفضلين آبن سهل وآبن الربيع . وآنقلب عنيفا أعظم العنف فقد كان بين كفايتين لا يعرفان الونيةَ والتضجيع[1] ، ولهما من الحصافة وثقوب البصيرة ، ومن سَعَة الحيلة وقَدْح الخَتْل ، ومن وَفرة الحُنكة وغَناء الاختبار ، ومن مَضاء العزيمة وثروة الذهن . لهما من ذلك كله ، وما الى ذلك من شتى الصفات السياسية ، ما لا قِبَلَ لأحدهما به من صاحبه ، فلكل من صاحبه بَوَاءٌ ونديد ، ومُنازل عَنيدٌ ، وكَمِىٌّ صِنديدٌ !

أنظر الى الأمين ، قد كتب الى العباس بن عبد الله بن مالك ، وهو عامل المأمون على الرى ، وأمره بأن يبعث اليه بغرائب غروس الرىّ ؛ فبعث اليه المسكين بما أمره ، بغيرَ

(١) التضجيع : التقصير .

عالم أن للمأمون ورجاله عيونا وأرصادا، ولهم، قبل ذلك، يَقَظَتهم التى لا تنى ولا تغفُل.
فماذا كان من المأمون ؟

بلغ المأمون ما كان من عامله الساذَج المسكين، فعزله، ووجه مكانه الحسن بن علىّ المأمونىّ، وأردفه بالرُّسْتُمِىّ، على البريد. وهكذا حاولت الديبلوماتيقية "الربيعية" أن تصرف قلبَ عاملٍ كبيرٍ عن أمر المأمون، والقضية المأمونية، نكاية بالديبلوماتيقية "السهلية" التى اكتسبت رافعًا وضمت الى حزبها بيتَ ابن سيار. وناهيك ببيت ابن سيار!

ولنتطرّق الآن الى التكلم عن الحرب الكلامية التى نشبت بين الأخوين، والتى كانت، بلا ريب، مقدّمة لوقوع الحرب العامة. وبعبارة أدق لنتكلم عن الوفود السياسية محاولين، على قدر استطاعتنا، واستنادا الى ما بين أيدينا من مصادر ووثائق، وصف الكفايات السياسية فى ذلك العصر الغنىّ حقا برجالاته ودهاته.

***

(د) الوفـــود السـيـاسـيـة :

لنتساءل أوّلًا ماذا حدث فى السنة التى نحن فى صددها وهى سنة أربع وتسعين ومائة، فانها مليئة، والحق يقال، بمنتجات هاتين العقليتين، العاتيتين حقًّا، الجبارتين بلا مبالغةٍ ولا إغراقٍ، ونعنى بهما عقليتى الفضل بن الربيع، والفضل بن سهل.

حدث أن وجّه الأمينُ وفدًا سياسيًّا الى المأمون، قِوَامُه العباسُ بنُ موسى، وصالح صاحب المصلى، ومحمد بن عيسى بن نهيك، وطلبوا اليه تقديم موسىٰ بن الأمين الذى سماه "الناطق بالحق" على نفسه. وقد يكون من الطريف الممتع حقا، أن نوضّح ما كان من أمر هذا الوفد، وهل وُفِّقَ الحزبُ المأمونى فيما حاول من الأخذ بقلوب رجاله، أو بعضهم على الأقل، فان فى توضيحنا لذلك ما يمدّنا بصورةٍ لا بأس فى جملتها، من صور الديبلوماتيقية فى ذلك العصر، وإن فى تفهمنا هذه الصورة ووقوفنا عليها، نفعًا عظيمًا يعيننا، بلا ريب، على تفهم العصر وروح سياسته.

يحدّثنا التاريخ أنّ العباس بن موسى أحد رجال الوفد الأمينى قال للأمون : "وماعليك أيها الأمير من ذلك — أى من تقديم موسى عليه — فهذا جدّى عيسى بن موسى قد خلع ، فما ضرّه ذلك ! " ويحدّثنا أيضا بأن الفضل بن سهل كان موجودًا ، كما هو المنتظر ، فى ذلك المؤتمر السياسى ، وأنه لما سمع كلمة العباس هذه صاح به : "أسكت فجدّك كان فى أيديهم أسيرًا وهذا بين أخواله وشيعته ! " .

أنعرفُ ما ذا كانَ من أمرِ الوفدِ ؟ .

إنه قد آنصرف ، ولكن لا الى الأمين ، بل الى منازلَ خصصها لهم المأمونُ ، حيث أفرد لكل واحدٍ من أعضاء الوفدِ منزلًا ، وأكرمهم مثل ذلك النوع من الإكرام السياسىّ الذى تتلقى به الحكومات الحاضرة الوفود السياسية . فتأمل ! .

ثم لننظر معًا — معتصمين بالأناةِ والصبرِ قليلا — فى تصرّف الفريقِ الآخر فى السنة عينها ، فنرى أن الوفدَ قد عاد الى الأمينِ ، وأخبره بامتناع المأمونِ ؛ فألحّ عليه الفضل بن الربيع وعلىّ بن ماهان ، فى البيعة لأبنه موسى " الناطق بالحق " وخلع المأمون ، فأجاب الأمين الى ذلك ، وأحضر ابنه علىّ بن موسى الذى ولّاه العراقَ ، وتسارع بعضُ ولاة الأمين فى آنتهاز الفرصة ، للتقرب منه والتحبب اليه ، بالمبادرة بأخذ البيعة له قِبَلهم . وقد كان أوّل من فعل ذلك بشر بن السعيد الأزدىّ ، وصاحب مكة وصاحب المدينة .

لم يكتف الفضل بهذا ، ولا بالكثير من أمثاله ، مما ينتظر من مثله فى مثل تلك الظروف ، من نهيه عن ذكر عبد الله المأمون والقاسم بن الرشيد ، وحظر الدعاء لهما على شىء من المنابر ، بل دس من ذكر المأمونَ بسوء ، وحطّ من قدره ، ولصَقَ به أقبحَ النقائص والمثالب ، ووصمه بأشنع الوصمات والمعايب .

ولم يكتف الفضل بهذا ، بل وجه الى مكةَ كتابًا مع محمد بن عبد الله ، أحد سدنةِ البيت الحرام ، فأتاه بالكتابين اللذين كان الرشيد كتبهما لعبد الله المأمون على محمد الأمين ،

وكان حظّهما من الأمين ، لما صارا اليه ، حظّ غيرهما من العهود فى ذلك العصر ، "والمعاهدات" و " قصاصات الورق " فى عصرنا الحاضر فمزّقهما وأبطلهما ، وأجاز سارقهما !

ثم تعــال معى لننظر معا ، نظرةَ إنعامٍ وتروٍ ، فى مشاورة المأمون لشيعته ، حينما حز به الأمر ، وضاق به السبيلُ ، فهى ، لَعمرُك ، آية فى الحكمة والمهارةِ السياسية .

يقول الطبرىّ : "كان محمد ، فيما ذكر ، كتب الى المأمون ، قبل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه ، يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها ، وأن يوجه العمال اليها من قِبل محمد ، وأن يحتمل توجيه رجل من قِبَــله ، يوليه البريد عليه ليكتب اليه بخبره . فلما ورد الى المأمون الكتّابُ بذلك ، كبُر ذلك عليه وآشتدّ ، فبعث الى الفضــل بن سهل والى أخيه الحسن ، فشاورهما فى ذلك ؛ فقال الفضلُ : " الأمر خطير ، ولك من شيعتك وأهل بيتك بطانة ولهم تأنيسٌ بالمشاورة ، وفى قطع الأمل دونهم وحشةٌ وظهورُ قلةِ ثقةٍ ، فرأى الأمير فى ذلك" ، وقال الحسن : كان يقال "شاور فى طلب الرأى من تثق بنصيحته ، وتألّف العدوّ فيما لا آكتتام له بمشاورته" . فأحضر المأمون الخاصة من الرؤساء والأعلام ، وقرأ عليهم الكتّابَ ؛ فقالوا جميعا له : "أيها الأمير! تشاور فى مخطر ، فاجعل لبديهتنا حظًّا من الروية" ، فقال المأمون : ذلك هو الحزم ؛ وأجّلهمْ ثلاثا . فلما آجتمعوا بعد ذلك قال أحدهم : " أيها الأمير قد حملت على كرهين ، ولست أرى خطأ مدافعة بمكروه أولها مخافة مكروه آخرهما " . وقال آخر : "كان يقال ، أيها الأمير أسعدك الله ، اذا كان الأمر مخطرًا فإعطاؤك من نازعك طرفا من بغيته أمثلُ من أن تصيرّ بالمنع الى مكاشفته" . وقال آخر : " إنه كان يقال : اذا كان علم الأمور مُغَيبًا عنك ، فخذ ما أمكنك ، من هدية يومك فانك لا تأمن أن يكون فسادُ يومك راجعًا بفساد غدك" . وقال آخر ؛ "لئن خفتَ للبذل عاقبةً ، إن أشدّ منها لمــا يبعث ألا تأمن الفرقةَ" . وقال آخر : "لا أرى مفارقة منزلة سلامة ، فلعلّى أعطى معها العافيةَ" . فقال الحسن : فقد وجب حقكم باجتهادكم ، وإن كنت من الرأى على مخالفتكم . قال المأمون : فناظرهم ؛ قال : لذلك ما كان الآجتماعُ . وأقبــل الحسن

عليهم فقال : هل تعلمون أن محمدا تجاوز الى طلب شيء ليس له بحق؟ قالوا : نعم، ويحتمل ذلك لما نخاف من ضرر منعه . قال : تثقون بكفه بعد إعطائه إياها فلا يتجاوز الطلب الى غيرها؟ قالوا : لا، ولعل سلامة تقع من دون ما نخاف ونتوقع . قال : فان تجاوز بعدها بالمسألة أفما ترونه قد توهن بما بذل منها فى نفسه ؟ قالوا : ندفع ما يعرض له فى عاقبته بمدافعة ما تجزون فى عاجله . قال : فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء قبلنا، قالوا : آستصلح عاقبة أمرك باحتمال ما عرض من كره يومك، ولا تلتمس هدنة يومك بإخطار أدخلته على نفسك فى غدك . قال المأمون للفضل : ما تقول فيما آختلفوا فيه ؟ قال : "أيها الأمير! أسعدك الله : هل يؤمن محمدٌ أن يكون طالبك بفضل قوّتك، ليستظهرَ بها عليك غدا على مخالفتك! وهل يصير الحازمُ الى فضلة من عاجل الدعة ، بخطر يتعرّض له فى عاقبته ! بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صلاحَ عواقب أمورهم" . فقال المأمون : "بل بايثار العاجلة صار من صار الى فساد العاقبة، فى أمر دنيا وآخرة" . قال القوم : قد قلنا بمبلغ الرأى ، والله يؤيد الأمير بالتوفيق . فقال : اكتب يا فضل اليه فكتب" .

ويستطرد الطبرىّ بعد ذلك فى القول بأن المأمون أملى على الفضل هذا الكتاب ليبعثَ به الى أخيه وهو: "قد بلغنى كتابُ أمير المؤمنين، يسأل التجافى عن مواضع سماها، مما أثبته الرشيد فى العقد ، وجعل أمره الىّ ، وما أمر رآه أميرالمؤمنين أحد يجاوز أكثره، غيرأن الذى جعل الى الطرف الذى أنا به لاظنينٌ فى النظر لعامته، ولا جاهلٌ بما أسند الىّ من أمره ، ولو لم يكن ذلك مثبتا بالعهود والمواثيق المأخوذة، ثم كنت على الحال التى أنا عليها : من إشراف عدوّ مخوف الشوكة، وعامةٍ لا تُتالف عن هضمها، وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال، وطرف من الإفضال، لكان فى نظر أميرالمؤمنين لعامته، وما يجب من لمّ أطرافه ، ما يوجب عليه أن يقسم له كثيرا من عنايته ، وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله ، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق، ووكدته مأخوذة العهد. وإنى لأعلم أن أمير المؤمنين

لو علم من الحال ما علمتُ لم يطلع ما كتب بمسألتـه إلىّ . ثم أنا على ثقةٍ من القبـول بعد البيان إن شاء الله » .

ألا يجدر بنا — وقد آطلعنا على تلك المشاورة السياسية، التى يجوز لك أن تقول عنها، بالنسبة لوقتها وجيلها، وموضوعات وقتها وجيلها، إنها لا تقلّ فى دقتها، وحذقهـا، وقوّة مناحيها، عما يجرى حول المـائدة الخضراء، بين ساسة اليوم — أن نقول : إن المأمون قد حُصِّنَ بساسة عُتاة ومشيرين دهاة ! .

ثم آنظر الى مبالغة المأمون فى حذره، أو مبالغة حزبه فى الحَيطَة والحذر، فقد أثبت المؤرّخون أنهم قد وجهوا حُرّاسًا من قِبَلهم على الحدود، حتى لا يتركوا للأمين أو لرجاله فرصة الآتصال برعية المأمون . وبالغوا أيما مبالغة فى تدبيرهم، حتى جاء، كما يقول الرواة، « تدبيرًا مؤيدًا، وعقـدًا مستحصدًا متأكدًا، فضمنوا بذلك ألا تحمل رعيتهم على منوال خلافٍ أو مفارقةٍ » .

وهنا لا نرى مندوحةً، من إثبات ذلك المجهود العظيم، الذى بذله الفضلُ بن الربيع أو الأمين، كيفما شئت التعبير، فى استمالة القلوب النافرة من الجماعة المأمونية ؛ فقد كان، والحق يقال : طلقَ اليدين، ندىَّ الكفين، كثيرةً جدواه، وافرةً حُذْياه، عظيمةً عطاياه، ولم يألُ جهدا فى إرسال دعاته وأنصاره، لبثّ الدعوة الأمينية فى العـامة وإظهارهم على رجحانها وحقها وعدلها، وإظهار الحجة المفارقة، والدعاء لأهل القوة الى المخالفة . وكان هؤلاء الدعاةُ يبذُلون المـال، ويضمنون للأنصار معظم الولايات والقطائع . وصـفوةُ القول أن تصرُّف الأمين وجماعته، من هذه الناحية، كان قريبَ الشبه بتصرّف المأمون وجماعتـه .

ولكن هؤلاء الدعاة وجدوا جميع ذلك ممنوعا محسوماً، حتى صاروا الى باب المأمون .

وهنا يجب أن نقول : إن الحرب الكلامية قد بدأت تَشْتَدُّ بين الأخوين، والحرب الكلامية، أيدك الله، هى مَيْزة هامة من ميزات العصر العباسىّ . وقد صدق « كشاجم » فى قوله مشيرا الى عداوة أصحاب الأقلام فى تلك الدولة ومهادنة أصحاب السيوف :

هنيئا لأصحاب السيوف بَطَالةٌ * تقضّى بها أوقاتهم فى التنعم
فكم فيهمُ من وادع العيش لم يهج * لحربٍ ولم ينهد لقرن مصمم
يروح ويغدو عاقدًا فى نجاده * حُساما سليم الحد لم يتثلم
ولكن ذوو الأقلام فى كل ساعة * سيوفهمُ ليست تجفّ من الدم

وإن المطلع على تاريخ العصر، المستقصىَ لدقائقه وجلائله ، الواقفَ على أسراره وخفياته وآدابه ومشاوراته، ليوافق أولئك الذين يذهبون فى القول بأن قِوامَ السياسة فى هذه الدولة كان على التحيل والمخادعة، أكثرَ مما كان على القوة والشدة .

لننتقل الآن الى ذكر الكتاب الذى بعث به الأمينُ الى أخيه، مع رسله الذين بعثهم للدعوة ، وإثارة رجالات المأمون ، قبل كل آعتبار، فها كه : « أما بعد، فإن أمير المؤمنين الرشيد، وإن كان أفردَك بالطرف، وضم ما ضَمَّ اليك من كور الجبل، تأييدًا لأمرك، وتحصيننا لطرفك، فان ذلك لا يوجب لك فضلةَ المال عن كفايتك، وقد كان هذا الطرف وخراجه ، كافيًا لحدثه ثم يتجاوز بعد الكفاية الى ما يفضل من ردّه . وقد ضمَّ لك الى الطرف كورًا من أمهات كور الأموال، لا حاجة لك فيها، فالحقُّ فيها أن تكون مردودةً فى أهلها ومواضع حقها. فكتبت اليك أسألك ردّ تلك الكور، الى ما كانت عليه من حالها، لتكون فضولُ ردّها مصروفةً الى مواضعها؛ وأن تأذن لقائم بالخبر، يكون بحضرتك يؤدّى الينا علم ما نعنى به، من خبر طرفك ؛ فكتبت تلط دون ذلك، بما إن تم أمرك عليه، صيّرَنا الحقُّ الى مطالبتك، فانثن عن همك أنثن عن مطالبتك، إن شاء الله .»

وَرَدَ الكتابُ على المأمون، وقرأه المأمون وجماعته، فَسُرْعَانَ ما ردّ المأمون وحزبه عليه بهذا الكتاب : «أما بعد، فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين، ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه، ولم يسأل ما لا يوجبه حق فيلزمنى الحجة بترك إجابته ؛ وإنما يتجاوز المناظران منزلةَ النصفةِ ما ضاقت النصفةُ عن أهلها، فمتى تجاوزها متجاوز، وهى موجودة الوسع، لم يكن تجاوزُها إلا عن نقصها، وآحتمال ما فى تركها ؛ فلا تبعثنى يابن أبى على مخالفتك ،

وأنا مُذْعِن بطاعتك ، ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ما تحبّ من صلتك ، وآرض بما حكم به الحقُّ فى أمرك ، أكن بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى و بينك . والسلام " .

ثم انظر الى نعومة المأمون السياسية — وثق أنها ستروقك كثيرا ، وأنك ستشهد بعلو كعب صاحبها فى الفنون السياسية — فان التاريخ يحدّثنا أنه أحضر رسلَ أخيه ، وقال لهم : «إن أمير المؤمنين ، كتبت اليه ، فى أمر كتب الىّ جوابه ، فأبلغوه الكتّاب ، وأعلموه أنى لا أزال على طاعته ، حتى يضطرّنى بترك الحق الواجب الى مخالفته» . فأراد أعضاء الوفد الأمينى أن يذهبوا فى أفانين القول ، وأرادوا المحاجّةَ والمدافعةَ ، وأرادوا المفاوضةَ والمناقشةَ ، ولكنّ المأمون ، السياسىّ المتيقظَ جبارَ العقل ، قطع عليهم سبيل القول وسبيل التفكير اذ جابههم بقوله : « قِفُوا أنفسَكم حيث وقفنا بالقول بكم ! وأحسنوا تأديةَ ما سمعتم ، فقد أبلغتمونا من كتابنا ما لا عسى أن تقولوه لنا » .

انصرف أعضاء الوفد ، ولم يستطيعوا أن يثبتوا لأنفسهم حجةً قِبَلَ المأمون ، ولم يُوَفَّقُوا الى حمل خبر يؤدّونه الى صاحبهم ، ورأوا من المأمون وجماعة المأمون ، كما يقول الطبرىّ ، « جدًّا غير مشوب بهزلٍ ، فى منع مالهم من حقهم الواقع بزعمهم» .

وصل الخبر الى الأمين فأرغى وأزبد . واستمرت الحربُ الكلاميةُ على حِدّتها بين الأخوين ، بشأن المال الذى تركه الرشيدُ ، وبشأن غير المال ، مما يصح الاطلاعُ عليه ، وعلى ما رواه سهل بن هارون وأضرابه وصفًا لذلك فى مظانّه .

على أنه يجدرُ بنا هنا أن نشير الى ما كان من نصيحة قدّمها للأمين ، أحدُ رجالات عصره ، المشهود لهم بالحزم ونضوج الرأى ، وهو يحيى بن سليم ، حينما عزم على خلع أخيه ، لعلاقتها بما نحن فى سبيل القول فيه من ناحيةٍ ، ولأنها تساعدنا فوق ذلك على تفهم "الدبلوماتيقية العباسية" فى ذلك العصر من ناحيةٍ أخرى ، وأخيرا لأنها تبين لنا فرق ما بين الأمين والمأمون فى تقدير المشورة والأخذ بالنصيحة .

قال يحيى بن سليم للأمين حين مشاورته له فى خلع المأمون : «يا أمير المؤمنين، كيف بذلك لك ! مع ما قد وكد الرشيد من بيعته ، وتوثق بها من عهده ، والأخذ للأيمان والشرائط فى الكتاب الذى كتبه » فقال له محمد : « إنّ رأى الرشيد كان فلتة، شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره، وآستماله بُرقاه وعُقَده، فغرس لنا غرسا مكروها، لا ينفعنا ما نحن فيه معه إلا بقطعه، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتثاثه والراحة منه» ؛ فقال : «أما اذا كان رأى أمير المؤمنين خلعه ، فلا تجاهره مجاهرة، فيستنكرها الناس، ويستشنعها العامة، ولكن تستدعى الجند بعد الجند، والقائد بعد القائد، وتؤنسه بالألطاف والهدايا، وتفرّق فى ثقاته ومن معه، وترغّبهم بالأموال، وتستميلهم بالأطماع ، فاذا وهنتْ قوّتُه وآستفرغت رجاله، أمرتَه بالقدوم عليك؛ فان قدم صار الى الذى تريد منه ، وإن أبى كنت قد تناولته، وقد كَلَّ حدُّه، وهيض جناحُه، وضعف ركنه، وآنقطع عزّه» . فقال محمد: «ما أقطع أمرا كصريمة! أنت مهذار خطيب، ولست بذى رأىٍ، فزل عن هذا الرأى الى الشيخ الموفق والوزير الناصح، قم فالحق بمدادك وأقلامك ! »

ونرى من المستصوب ، بعد هذا الآستطراد، أن نشير هنا الى ما رواه الطبرىّ من أن الفضل بن سهل، كان قد دسّ قوما آختارهم ممن يثق بهم من القوّاد والوجوه ببغداد، ليكاتبوه بأخبار الأمين وجماعته ، يوما فيوما . وكان التجسس لذلك العهد فنا منظما متقدّما ؛ فكان للأمين ، وهو ولىّ عهد ، على والده الرشيد عيون، وكان لأخيه حين ذاك عيون ، وكان للخليفة على ولاته وعماله وأولاده عيون، ولولاته وعماله عليه عيون ، وكان للوزراء والكبراء والزعماء وغيرهم مثل ذلك من العيون والأرصاد بعضهم على بعض ، وكانت روح العصر تساعد على ذيوع الجاسوسية وآستفحال أمرها . فمن المعقول اذا شاور الأمين أو الفضل بن الربيع أحدا ، وقال بما فيه مصلحة القضية المأمونية، أن يصل خبر ذلك من فوره الى المأمون ، فيقف بذلك المأمون وجماعته ،

على جليـةِ الخبر وحقيقـة الحال عند خصومهم السـياسيين . ونكاد نرجح من ناحيتنا أن لتقدم فنّ الجاسوسية عند المأمون أثره العظيم فى غلبته وظهوره على أخيه .

ولنتقل الآن الى أخبار سنة خمس وتسعين ومائة ، ولننظر فى حوادثها الجسام نظرة عَجْلى فيما يهمّنا مما نحن فى صدده من بحوثنا هذه ، فنجد أن الخصومة السياسية بين الأخوين حملت الأمين على أن يأمر بإسقاط ما كان ضُرب لأخيه عبد الله المأمون من الدنانير والدراهم بخراسان فى السنة التى قبلها ؛ وذلك لأن المأمون كان أمر ألا يُثْبت فيها آسم محمد . وقال بعض المؤرّخين : إن تلك الدنانير والدراهم كانت لا تجوز فى بعض الأحايين وكانت تدعى بالرباعية .

وقد سبق لنا القول إن الأمين أمر بالآمتناع عن الدعاء لأخويه : المأمون والقاسم ، وإنه أمر بالدعاء لنفسه ولطفله الصغير من بعده ، وإنه صَدَر فى ذلك كله عن رأى الفَضْل ابن الرّبيـع وجماعة الفضل بن الربيع ، ممـا كان من نتائجه نشوب الحرب الكلامية بين الأخوين ، وإنذارها بوقوع شرٍّ مستطيرٍ بين الأميرين .

* * *

(هـ) نفور الرأى العام وآستمرار الوفود السياسية :

ونريد الآن أن نَقِفَكَ على مبلغ نفور الرأى العام من فعل الأمين وجماعته ، ممـا رواه لنا المؤرّخون ، وسنلخصه لك كطريقتنا ، التى أخذنا بها أنفسنا ، والتى لم نَحِدْ عنها ، إلا اذا دعت الضرورة والمصلحة الى تصوير امر هامّ يحتـاج الى الشرح والإيضاح . ونعتمد فى تلخيصنا هذا على مصادر عدّة ، منها الطبرىّ وآبن الأثير واليعقوبىّ وغيرهم من الفرنجة الذين كتبوا فى التاريخ الاسلامىّ فى العصر الذى نحن بسبيل القول فيه .

روى المؤرّخون أنـ محمدا الأمين عقد فى السـنة التى نسرد عليـك مجمل أخبارها لعلىّ بن عيسى بن ما هان على كُوَر الجبل كلها : نَهَاوَنْد ، وهَمَذَان ، وقُم ، وأَصْفَهان ، حربها وخراجها ، وضمّ اليه جماعة مـن القوّاد وأمر له ، فيما ذكر بمـائتى ألف دينار ، ولولده

بخمسين ألف دينار، وأعطى الجند مالا عظيما، وأمر له بألفى سيف من السيوف المحلاة وستة آلاف ثوب للخِلَع . وقيل : إن محمدا الأمين أحضر بعد ذلك رجال بيته ومُشيريه، وتكلم فيهم بما كان بين الأخوين، وكان من المنتظر، لو أن للأمين ظَهِيراً من الرأى العام، أن يجد من يمتدح فعلته، أو يخطب فى نشر الدعوة له وبيان أنه على حق فيما يريد أن يفعل، ولكنا نجد أنه انتهى الى آخر كلامه فلم يتكلم بعده إلا ثلاثة من جماعته الظاهرين، ممن عرفنا مصالحهم فى الزُّلْفَى اليه والتقرب منه، وهم سَعيد بن الفَضْل الخَطِيب، ومحمد بن عيسى ابن نهيك، والفضل بن الربيع .

على أنا يجب أن نقول : إن الفضل بن الربيع كان ماكرا أعظم ماكر، ولكن مكره كان مفضوحا فى هذا الموقف؛ فقد قال فى مَعْرِض كلامه : « إن الأمير موسى ابن أمير المؤمنين قد أمر لكم يا معاشر أهل خُرَاسان من صُلْب ماله بثلاثة آلاف درهم تقسم بينكم ! » .

نقول : إن مكره كان مفضوحا، لأنا نعلم أن موسى كان طفلا غِرًّا، لا يفهم هذه الأمور ولا يعقلها، ولكن الفضل أراد أن يُقِرَّ عينَ الأمين، ولا يمكن أن يكون جادّا فى رغبته فى إثارة الخراسانيين بهذه الطريقة المكشوفة، ولكنها البطانة، يأبى عليها رياؤها ونفاقها وتزلفها إلا أن تصوّر لولىّ نعمتها أمير المؤمنين أنه الحكمة والعدل، وأنه النباغة والعبقرية، وأن سلالته قد جمع أحداثُها مَرَانةَ الشيوخ وكفايتهم، وأصالة المجرّبين ودرايتهم، وذكاء النوابغ ومواهبهم . وهكذا تستمر البطانة على نغمتها هذه، لاصفة بمن عداه وعدا حَامَّتِه وخاصَّته، ما شاء هوى الخليفة، حتى يقع فى رُوعِه أن حاشيته لا تنطق إلا حقا ولا تقول إلا صدقا ! .

ولنتساءل الآن : ماذا كان من المأمون إزاء تصرّفات أخيه ؟ .

إنه لم يتهاون ألبتة فى أموره : صغيرها وكبيرها، وكان يقابل كل تصرّف من أخيه بمثيله ونظيره، مع وضع كل شىء موضعه، واستقصاء المصلحة والصواب فى تصرّفه .

وقد تراسل الأخوان بعد ذلك بكتب عدّة . وإنا نثبت هنا نص كتاب المأمون ردّا على كتاب بعث به اليه الأمين مع وفد سياسيّ فى شأن البيْعة لابنه موسى، قال : «أما بعدُ فقد انتهى إلىّ كتاب أمير المؤمنين منكرا لإبائى منزلة تهضّمنى بها وأرادنى على خلاف ما يعلم من الحق فيها . ولعمرى ان أورد أمير المؤمنين موارد النصفة ، فلم يطالب إلا بها ولم يوجب نكرة تركها ، لانبسطتْ بالحجة مطالعُ مقالته ، ولكنتُ محجوجًا بمفارقة ما يوجب من طاعته . فأمّا وأنا مُذْعِنٌ بها ، وهو على ترك أعمالها ، فأولى به أن يدير الحقّ فى أمره ، ثم يأخذ به ويعطى من نفسه ، فان صرتُ الى الحق فرغت عن قلبه ، وإن أبيْتُ الحق قام بمعذرته . وأما ما وعَد من برّ طاعته وأوعد من الوطأة بمخالفته ، فهل أحدٌ فارق الحق فى فعله ، فأبقى للتبيّن موضع ثقة بقوله ! والسلام» .

ولقد كان من تصرفات المأمون إزاء تصرفات أخيه وحاشيته ، أن كتب الى علىّ بن عيسى ، قائد الجيوش الأمينية ، لما بلغه ما عزم عليه :

"أما بعدُ ، فإنك فى ظل دعوة لم تزل أنت وسَلَفُك بمكان ذبٍّ عن حَريمها ، وعلى العناية لحفظها ، ورعاية لحقّها ، توجبون ذلك لأئمّتكم ، وتعتصمون بحبل جماعتكم ، وتعطون بالطاعة من أنفسكم ، وتكونون يدًا على أهل مخالفتكم ، وحِزْبا وإخوانا لأهل موافقتكم ، تؤثرونهم على الآباء والأبناء ، وتتصرّفون فيما تصرّفوا فيه من منزلة شديدة ورخاء ، لا ترون شيئا أبلغ فى صلاحكم من الأمرِ الجامع لأُلْفتكم ، ولا أَجْرى لبَوارِكم مما دعا بشَتات كلمتكم ؛ ترون من رغب عن ذلك جائرًا عن القصد ، ومن أمّه على منهاج الحق . ثم كنتم على منهاج الحق ، ثم كنتم على أولئك سيوفًا من سيوف نقم الله . فكم من أولئك قد صاروا وديعةَ مَسْبعةٍ وجَزَرًا جامدة ، قد سَفَت الرياحُ فى وجهه ، وتداعت السباعُ الى مَصْرَعه ، غير ممهّد ولا موسّد ، قد صار الى أمة ... وغير عاجل حظّه . ممن كانت الأئمة تنزلكم لذلك بحيث أنزلتم أنفسكم من الثقة بكم فى أمورها ، والتقدمة فى آثارها . وأنت مستشعَرٌ دون كثيرٍ من ثقاتها وخاصّتها ، حتى بلغ الله بك فى نفسك

أن كنت قريعَ أهلِ دعوتك، والعالمَ القائم بمعظم أمرِ أمّتك، إن قلتَ ادنُوا دَنَوْا ، وإن أشرتَ أقبِلُوا أقبَلوا ، وإن أمسكتَ وقفوا وقرّوا ، وئاماً لك وآستنصاحا ، وتزداد نعمةً مع الزيادةِ فى نفسك ، ويزدادون نعمةً مع الزيادة لك بطاعتك ، حتى حلاتَ المحلّ الذى قرُبتَ به من يومك ، وآنقرض فيما دونه أكثرُ مدّتك ، لا يُنتظر بعدها إلا ما يكون ختامَ عملك : من خيرٍ فيرضَى به ما تقدّم من صالح فِعْلِك ، أو خلافٍ فيضلّ له متقدّمُ سعيك. وقد ترى يا أبا يحيى حالًا عليها جلوتَ أهـل نعمتك ، والولاةَ القائمة بحق إمامتـك ، من طعنٍ فى عُقْـدة كنتَ القائم بشدّها ، وبعهودٍ توليتَ معاقد أخذها ، يُبْدأ فيها بالأخصّين ، حتى أفضى الأمر الى العامة من المسلمين ، بالأيمـان المُحَرّجة والمواثيقِ المؤكّدة ، وما طلع ممـا يدعو الى نشر كلمةٍ ، وتفريقِ أمةٍ ، وشتّ جماعةٍ ، وتَتعرّض به لتبديلِ نعمةٍ ، وزوالِ ما وطّأت الأسـلافُ من الأئمة . ومتى زالت نعمةٌ من ولاة أمركم ، وصل زوالهـا اليكم فى خواصّ أنفسكم ؛ وان يغير الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم . وليس الساعى فى نشرها بساعٍ فيها على نفسـه ، دون السعى على حَمَلَتها القائمين بحرمتها ، قـد عرضوهم أن يكونوا جَزَرًا لأعدائهم ، وطُعْمة قومٍ ، تتظفر مخالبُهم فى دمائهم . ومكانُك المكان الذى إن قلت رُجع الى قولك ، وإن أشرتَ لم تتّهـم فى نصيحتك . ولك مع إيثار الحق الحظوةُ عنـد أهل الحق ، ولا سـواء من حَظِى بعاجلٍ مع فراق الحق فأوبق نفسَه فى عاقبته ، ومن أعان الحق فأدرك به صلاحَ العاقبة مع وُفورِ الحظّ فى عاجلته . وليس لك ما تُستدعَى ، ولا عليه ما تُسْتعطَفُ ، ولكنه حقٌّ من حقّ أحسابك يجب ثوابُه على ربك ثم على من قمت بالحق فيه من أهل إمامتك . فإن أعجزك قولٌ أو فعل ، فصِرْ الى الدار التى تأمن فيها على نفسك ، وتحكم فيها برأيك ، وتجاوز الى من يحسن تقبُّلا لصالح فعلك ، ويكون مرجعك الى عقدك وأموالك ، ولك بذلك الله . وكفى بالله وكيلا . وإن تعذر ذلك بقية على نفسك فإمساكا بيـدك وقولا بحق ، ما لم تخَفْ وقوعه بكرهك ، فلعـل مقتديًا بك ، ومغتبطا بنهيـك . ثم أعلِمنى رأيك ، أعرفه إن شاء الله » .

على أن ما يرمى اليه الرّواة من تحقير شأن الأمين، لا يَحُول بينك و بين تبيّن حقيقة الأمين ورجاله ، لأنك ستلاحظ بلا ريب ، فى ثنايا سطورهم ، وفَلَتات الحوادث التى يروونها لك، ما قد يُتيح لك أن تؤمن أن عند الأمين بعض رجالاتٍ أفذاذٍ ، فان الطبرىّ يحدّثنا فى حوادث سنة خمس وتسعين ومائة : أن ابن الربيع أشار على الأمين، بأن يكتب لأخيه كتابًا، تستطيب به نفسُه ، وتسكن وحشتُه، فان ذلك أبلغ فى التدبير، وأحسن فى القَالة ، من مكاثرة بالجنود، ومعاجلته بالكيد ، و إنه لذلك أحضر له إسماعيل بن صُبَيْح ، للكتابة الى عبد الله، قال : "يا أمير المؤمنين، إن مسألتك الصفحَ عما فى يديه، توليدٌ للظنّ، وتقويةٌ للتُّهمة، ومَدْعاة للحذر، ولكن اكتبْ اليه فأعلمْه حاجتَك اليه ، وما تحبّ من قربه والاستعانة برأيه ، وسَلْه القدومَ اليك فإن ذلك أبلغ وأَحْرى أن يبلغ فيما يوجب طاعتَه و إجابته» (1) .

فقال الفضل : القول ما قال يا أمير المؤمنين .

قال : فليكتب بما رأى . قال : فكتب اليه : « من عند الأمين محمد أمير المؤمنين، الى عبد الله بن هارونَ أمير المؤمنين .

أما بعدُ، فإن أمير المؤمنين، رأى فى أمرك والموضع الذى أنت فيه من ثَغْرك ، وما يؤمل فى قربك من المعاونة والمُكَانفة على ما حمّله الله وقلّده من أمور عباده و بلاده، وفكّر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية، وأمر به من إفرادك على ما يصير اليك منها ، فرجا أمير المؤمنين ألا يدخل عليه وَكَفٌ فى دينه ولا نكثٌ فى يمينه ، إذا كان إشخاصه إياك فيما يعود على المسلمون نفعه، ويصل الى عامتهم صلاحُه وفضله .

(1) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «أن هذه المكيدة التى دبرها الفضل بن الربيع جاءت مفضوحة مهتوكة الأستار . وكان أجدر بكياسته أن يرسل ذلك الخطاب أول الأمر بعد أن يرد على المأمون ما أوصى به الرشيد من مال وكراع وسلاح — فأما بعد نكث الجنود والوزير والأمراء . و بعد طلب الكور . و بعد طلب تقديم القاسم على المأمون و بعد تلك الوفود السياسية وتمزيق العهود التى كانت فى نظرهم مقدسة ومؤكدة بأخذها وتعليقها فى جوف الكعبة ، فإن الأمر أتى بعد أوانه ولا ينتظر منه سوى الخيبة والفشل» .

وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسدُّ للثغور، وأصلحُ للجنود، وآكدُ للفَيْء، وأَردُّ على العامة، من مُقَامك ببلاد خُرَاسان منقطعًا عن أهـل بيتك، متغيبا عن أمير المؤمنين، وما يحبّ الاستمتاعَ به من رأيك وتدبيرك. وقد رأى أميرُ المؤمنـين أن يولّي موسى آبن أمير المؤمنـين، فيما يقلّده من خلافته، ما يحدث اليه من أمرك ونهيك، فاقدَمْ على أميرِ المؤمنين على بركة الله وعَوْنه، بأبسط أملٍ، وأَفْسـح رجاءٍ، وأَحْمدِ عاقبـةٍ، وأَنْفذِ بصيرةٍ، فإنك أولى من استعان به أميرُ المؤمنين على أموره، واحتمل عنه النَّصَب فيما فيه صلاح أهل بيته وذمته. والسلام".

ولننظر الى ما يرويه لنا آبنُ جَرِيرٍ الطبرىّ عن أعضاء هذا الوفد، فإنه يقول:

لمـا وصـلوا الى عبد الله أذِن لهم، فدفعوا اليه كتاب محمد، وما كان بعث به معهم، من الأموال والأَلْطافِ، ثم تكلم العبـاس بن موسى بن عيسى فحمد الله وأثنى عليـه، ثم قال: أيها الأمير! إن أخاك قد تحمّل من الخلافة ثِقْلا عظيما، ومن النظر فى أمور النـاس عبئا جليلا، وقد صدقت نيتُـه فى الخير فأعوزه الوزراءُ والأعوان والكُفَاة على العـدل، وقليلٌ ما يأنس بأهل بيته؛ وأنت أخوه وشقيقه، وقد فَزِع اليـك فى أموره، وأمّلك للمؤازرة والمُكانفة، ولسـنا نستبطئك فى بِرّه اتهامًا لنصرك له، ولا نَحُضّـك على طاعته تخوّفا لخلافك عليه، وفى قدومك عليه أنسٌ عظيم وصلاح لدولته وسلطانه، فأجبْ أيها الأمير دعوةَ أخيك، وآثِرْ طاعته، وأعِنْه على ما استعانك عليـه فى أمره، فإن فى ذلك قضاءَ الحق، وصلةَ الرحم، وصلاحَ الدولة، وعزّ الخلافة. عزم الله للأمير على الرُّشْـد فى أموره، وجعل له الخيرة والصّلاحَ فى عواقب رأيه.

وتكلم عيسى بن جعفـر بن أبى جعفر فقـال: إن الإكثارَ على الأمير، اللهَ! الله! فى القول خُرْق، والاقتصارَ فى تعريفـه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصيرٌ، وقد غاب الأمير، أكرمه الله، عن أمير المؤمنين، ولم يستَغْنِ عن قرْبه من شهـد غيره من أهـل بيتـه، ولا يجد عنـده غنًى، ولا يجد منـه خلفا ولا عوضا. والأمير أولى مَنْ برّ أخاه

وأطاع إمامَه، فليعمل الأميرُ فيما كتب به اليه أمير المؤمنين بمـا هو أرضى وأقرب، من موافقة أمير المؤمنين ومحبته، فإن القدوم عليه فضـلٌ وحظ عظيم، والإبطاءَ عنه وَكَفٌ في الدين، وضرر ومكروه على المسلمين.

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك فقال: أيها الأمير إنّا لا نزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليـه من المعرفة بحق أمير المؤمنين، ولا نُشْحَذُ نيتك بالأساطير والخُطَب فيما يلزمك من النظر والعنـاية بأمور المسلمين. وقد أعوز أميرَ المؤمنين الكُفَاةُ والنصحاء بحضرته، وتناولك فزعًا اليك في المعونة والتَّقْوية له على أمره. فان تُجبْ أميرَ المؤمنين فيما دعاك اليه فنعمة عظيمةٌ يتَـلافى بهـا رعيتَك وأهلَ بيتك، وإن تقعد يُغْنِ الله أميرَ المؤمنين عنك، ولن يضعَه ذلك ممـا هو عليه من البرِّ بك، والاعتمادِ على طاعتك ونصيحتك.

وتكلم صالح صاحب المُصَلَّى، فقال: أيها الأمير، إن الخلافة ثقيلةٌ، والأعوانَ قليل، ومن يَكِيد هذه الدولةَ وينطوى على غشها والمعاندةِ لأوليائها مِنْ أهـل الخلاف والمعصيةِ كثيرٌ. وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقُه، وصلاح الأمور وفسادها راجعٌ عليك وعليـه، إذ أنت وليّ عهده والمشارِكُ في سلطانه وولايته، وقد تناولك أميرُ المؤمنين بكتابه، ووثق بمعاونتك على ما استعانك عليه من أموره؛ وفي إجابتك إياه الى القدوم عليه صلاحٌ عظيم في الخلافة، وأنسٌ وسكونٌ لأهل الملةِ والذمةِ، وفّق الله الأمير في أموره، وقضى له بالذى هو أحب اليه وأنفع له.

ثم انظر، رعاك الله، الى مبلغ دهاء الفَضْل، ودقّةِ سياسته، ومُحْكَم أمره، وما يرويه بنفسه عن صَنِيعه مع أحد أعضاء الوفد، في إحدى الدَّفَعات التى أُرْسل فيها الى المأمون، لأنا نلاحظ وفود الأمين قد أُرْسلت الى أخيـه المأمون أكثرَ من مرّة — قال: «أعجبني ما رأيتُ من ذكاء العباس بن موسى، فخلوت به فقلت: يذهب عليـك بعقلك وسنِّك، أن تأخذ بحظّك من الإمام! — أى المأمون، اذ سُمِّي بذلك بسـبب خَلْع الأمين له — فقال له العباس: قد سمّيتُموه بالإمام! فأجابه الفضل: «قد يكون إمامُ المسجد والقبيلة!

فان وفيتم لم يضركم، وإن غدرتم فهو ذاك» . ثم وصل الى أن قال للعباس : «لك عندى ولايةُ الموسم، ولا ولايةَ أشرفُ منها، ولك من مواضع الأعمال بمصر ما شئتَ ...» .

وصل الفضلُ الى ذلك القوي وما برح به حتى أخذ عليه البيعةَ للمأمون بالخلافة . وتحوّل الأمرُ الى أن أصبح للحزب المأمونى من العباس العينُ التى تبلّغهم الأخبارَ، والمتفانى فى المأمونية يمدّهم بالأفكار ويشير عليهم بالآراء، وحتى أضحى منه الشخصُ الذى يقول لعلى بن يحيي السَّرَخْسِيّ : إن ذا الرياستين أكبر مما وصفتَ، وإنه قد صالح المأمونَ الامامَ، وإنه لذلك يمسح يدَه على رأس على بن يحيي لتناوله البركةُ والخير . فتأملْ ! .

وإنه جميلٌ حقا أن نرى المأمون يتريّث فى أمره تريُّث العاقل الحكيم، لما جاءه الوفد الأمينيّ، ويتصرّف تصرّفَ الكيِّس الحاذق، إذ قال لهم، فيما أثبت الرواة، بعد أن حاجُّوه وناقشوه فى أمر الأمين : قد عرّفتمونى من حقّ أمير المؤمنين، أكرمه الله، مالا أُنكره، ودعوتُمونى من الموالاة والمَعُونة الى ما أُوثره ولا أدفعه، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدم، وعلى المسارعةِ الى ما سَرّه ووافقه حريصٌ، وفى الرويّةِ تبيانُ الرأي، وفى إعمال الرأيِ نصح الاعتزام . والأمر الذى دعانى اليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أتأخر عنه تثبُّطا ومدافعة، ولا أتقدّم عليه اعتسافًا وعَجَلة، وأنا فى ثغر من ثغور المسلمين كَلِبٍ عدوّه شديدٍ شوكتُه، وان أهملتُ أمرَه لم آمَنْ دخولَ الضرر والمكروه على الجنود والرعية، وان أقمت عليه لم آمنْ فوتَ ما أُحبّ من معونةِ أميرِ المؤمنين ومؤازرته وإيثارِ طاعته . فانصرفوا حتى أنظر فى أمرى ونصحِ الرأى فيما أَعْتزم عليه من مَسِيرى ان شاء الله . ثم أمر بإنزالهم وإكرامهم والإحسان اليهم .

تريُّث المأمون مع الوفد تريثُ العاقل الحكيم، وإن كان فى الواقع قد هاله الأمر وخَشِى سوءَ مَغَبّته . ويذكر لنا أحدُ المعاصرين، وهو سُفْيانُ بن محمد، أن المأمون لما قرأ الكتّابَ سُقِطَ فى يده، وتَعَاظَمه ما ورد عليه منه، ولم يَدرِ ما يردّ عليه، فدعا الفضلَ بن سهل فأقرأه الكتّابَ، وقال : ماعندك فى هذا الأمر؟ قال : أرى أن تُمسك بموضعك، ولا

تجعل علينا سَبِيلا وأنت تجد من ذلك بُدًّا . قال : وكيف يمكننى التمسّك بموضعى ومخالفةُ محمد وعظَمُ القواد والجنود معه ، وأكثرُ الأموالِ والخزائنِ قد صارت اليه ، مع ما قد فرّق فى أهل بغداد من صِلاته وفوائده ، وانما الناس مائلون مع الدراهم منقادون لها ، لا ينظرون اذا وجدوها حفظَ بَيْعـة ولا يرغبون فى وفاء عهد ولا أمانة ! . فقال له الفضل : اذا وقعت التهمةُ حقَّ الاحتراس ، وأنا لِغَـدْرِ محمدٍ متخوف ، ومن شَرَهِهِ الى ما فى يديك مُشْفِق ، ولَأَن تكون فى جُنْدك وعِزِّك مقيمًا بين ظَهْرانى أهلِ ولايتـك أَحْرى ، فان دَهَمك منـه أمرٌ جرّدتَ له وناجزتَه وكايدتَه ، فإمّا أعطاك الله الظفرَ عليـه بوفائك ونيتـك ، أو كانت الأخرى فمتْ محافظًا مكرما ، غيرَ مُلْقٍ بيـديك ولا ممكنٍ عدوّك من الاحتكام فى نفسـك ودمك . قال : إن هذا الأمر لو كان أتانى ، وأنا فى قوّةٍ من أمرى وصلاحٍ من الأمور ، كان خَطْبه يسـيرا والاحتيالُ فى دفعه ممكنًا ، ولكنه أتانى بعد إفساد خُرَاسان ، واضطراب عامرِها وغامرِها ، ومفارقة جيغويه الطاعة ، والتواء خَاقَان صاحبِ التُّبت ، وتهيؤ ملك « كابُل » للغارة على ما يليـه من بلاد خراسان ، وامتناع ملك أترابنده بالضَّريبـة التى كان يؤدّيها ، وما لى بواحدة من هذه الأمور يدٌ . وأنا أعلم أن محمدا لم يطلب قُدُومى إلا لشرٍّ يريده ، وما أَرَى إلا تخلية ما أنا فيـه واللّحاقَ بخاقانَ ملك الترك والاستجارة به وببلاده ، فبالحَرَى أن آمنَ على نفسى وأمتنعَ ممن أراد قهرى والغـدرَ بى . فقال له الفضـل : أيها الأمير ، إن عاقبة الغدرِ شديدةٌ ، وتبعة الظلمِ والبغى غيرُ مأمونٍ شرُّها ، ورُبَّ مستذَلٍّ قد عاد عزيزًا ، ومقهورٍ قد عاد قاهرًا مستطيلا ، وليس النصرُ بالقلة والكثرة ، وحرج الموت أسلم من حرج الذلِّ والضيم ، وما أرى أن تفارق ما أنت فيه ، وتصيرَ الى طاعةِ محمدٍ ، متجرّدا من قوادك وجنـدك كالرأس المختزَل عن بدنه ، يجرى عليـك حكمه ، فتدخل فى جملة أهل مملكته ، من غير أن تُبْلِى عذرا فى جهادٍ ولا قتـالٍ ، ولكن اكتبْ الى جيغويه وخاقان ، فولّهما بلادَهما ، وعِدْهما التقوية لهما فى محاربة الملوك ، وابعث الى ملك كابل بعضَ هدايا خراسان وطُرفَها وسَلْه الموادعةَ تجدْه على ذلك حريصا ، وسلِّم لملك اترابنده ضريبتَه فى هذه السنة ، وصيِّرها صلةً منك وصلتَه بها ، ثم اجمعْ اليك أطرافك ، واضمُمْ اليك مَنْ شَذَّ من جندك ، ثم

اضرب الخيلَ بالخيل والرجالَ بالرجالِ ، فان ظفرت ، وإلا كنت على ما تريد من اللَّحاق بخاقان قادرا . فعرف عبد الله صدقَ ما قال ، فقال : اعملْ فى هذا الأمر وغيره من أمورى بما ترى ! فتدبَّرْ، وفقك الله ، هذا التفكيرَ الدقيق ، وهذه السياسة المحكمة الأطراف من كليهما .

ثم انظر الى تصرّف المأمونِ الحكيم ، بعد ما قدّمناه لك ، فانه أَنْفذ الكتب الى رجاله وأنصاره ، وعمل على لَمِّ شَعَثِه ورَأْبِ صَدْعه ، واستقدم طاهرَ بن الحسين ، عاملَه على الرَّىّ ، ليعهد اليه فى قيادة جنده ، ثم مكث يدبّر الرأى فيما يجيب به أخاه ، واستقر رأيُه على مناجزة أخيه ومنازلته ، بعد أن أعلمه ابنُ سهل أن النصر له وأن النجوم تنبئ بذلك . وانظر ما يرويه لنا المؤرّخون من أنه كتب الى الأمين : « أما بعد ، فقد وصل الىّ كتاب أمير المؤمنين ، وإنما أنا عامل من عماله وعونٌ من أعوانه ، أمرنى الرشيد ، صلوات الله عليه ، بلزوم هذا الثَّغْر ، ومكايدةِ من كايد أهلَه من عدوّ أمير المؤمنين . ولعمرى إن مُقَامى به أردُّ على أمير المؤمنين ، وأعظم غَنَاء عن المسلمين من الشخوص الى أمير المؤمنين ، وإن كنت مغتبطًا بقربه ، مسرورا بمشاهدة نعمة الله عنده . فان رأى أن يُقِرَّنى على عملى ويُعْفِينى من الشخوص اليه فعل ان شاء الله والسلام » . ثم دعا العباسَ بن موسى ، وعيسى بن جعفر ، ومحمدا ، وصالحا ، فدفع اليهم الكتاب ، وأحسن اليهم فى جوائزهم ، وحمل الى محمد ما تهيأ له من أَلْطاف خراسان ، وسألهم أن يحسنوا أمرَه عنده وأن يقوموا بعذره لديه .

*
* *

(و) إعلان الحـــرب :

ولننتقل الآن الى الكلام عن الحرب العملية التى تلتْ هذه الحرب الكلامية ، كما هو المنتظر : إن التاريخ يحدّثنا أن الأمين ورجالَ الأمين ، بدءوا فى تعبية الجنود ، كما بدأ المأمون ورجال المأمون فى حشد الكتائب . وإنا لنرتاب كثيرا ، فى صحة ما ذكره الرواة : من أن طاهر بن الحسين القائدَ العام للجيوش المأمونية كان فى جيش عدّته ثمانمائة وثلاثة آلاف ،

بينما كان علىّ بن عيسى بن مَاهَان القائد العام للجيوش الأمينيـة فى زُهَاءِ أربعين ألفا ! ونرجّح كثيرا أن الرواة قد نقصوا عددَ الجنود المأمونية، ليُظْهروا للناس مبلغَ كفاية طاهرٍ، وأنه استطاع بجندٍ قليـلٍ عددُهم أن يُنَـازل جيوشا جرّارة ويغلبها على أمرها ، لأنهـم كثيرا ما يجنحون الى الإغراق والمبالغة فى مثل هـذه المواقف: من مظاهرتهم للأقوياء، وانتقاصهم للضعفاء كما أسلفنا .

نشك فى صحة ذلك كثيرا . ونشك كذلك فيما يروونه : من أن الجيوش المأمونية قد عثَرتْ فى عسكر ابن ماهان على سبعمائة كيس ، فى كل كيس ألف درهم، وأنها عثرت كذلك على صناديقَ عدّة فيها خمر سَوَادىّ وقَنَانِىّ عِدّة !

قد يكون أمر الأموال صحيحا ، ولكنا نميل الى الافتراض بأن أمر الصناديق العدّة ، إن لم يكن مكذوبا فى جملته ، بقصد الزّرَاية بالجماعة الأمينية، فهو مُغَالًى فيه كثيرا .

ويذهب ابن الأثير فى بيـان غرور على بن عيسى بن ماهان الى أنه ، لما قرُب من الرىّ ، ظنّ أن طاهر بن الحسين قائد القوات المأمونيـة لا يَثْبُت له ، وإن عليـا قال : « ما طاهرٌ إلا شَوْكة من أغصانى وشرارةٌ من نارى ، وما مثـل طاهر يؤمَّر على جيش، وما بينه وبين الأمين إلا أن تقع عينُه على سَوَادكم، فان السِّخَال لا تَقْوَى على نِطَاح الكِبَاش، والثعالبَ لا تَقْوَى على لقاء الأُسْد ، وأن علىّ بن عيسى بن ماهان قال لابنه ، لما أشار عليه بأن يبعث طَلَائع ويرتاد موضعًا لعسكره : ليس طاهر يُسْتعدّ له بالمَكايد والتحفّظ ، إن حال طاهرٍ يؤدّى الى أمرين : إما أن يتحصّن بالرىّ، فيَثِبَ به أهلُها، ويكْفُونا مؤونتَه، أو يخلّيها ويُدْبر! . فقال له ابنه : إن الشرارةَ ربما صارت ضِرَاما ! » فأجابه : «إن طاهرًا ليس قِرْنًا فى هذا الموضع ، وإنما تحترس الرجالُ من أَقْرانها ! » .

ونحن نقول : إن من الجائز أن يكون شيء من هـذا قد وقع . ومن الجائز أن يكون بعلىّ بن ماهان زَهْو وغرور، وقصرُ نظرٍ وسوء تدبيرٍ . وقد يكون ذلك حين المقارنة والموازنة

(١) أى إلا أن يؤخذ أسيرا عند الأمين .

أقلّ شأنا من مُنَازِله وخصمِهِ طاهر بن الحسين . ولكنا مع ذلك نُحِسّ إحساسًا لا يعدو الواقع كثيرا أن هــذا الحديث المَعْزُوّ اليه من قبيل الروايات المَنْحُولَة ، والقِصَص المخترعة ، التى كثيرا ما تُخترع وتُنْحَل فى مثل تلك الظروف .

على أنا مع ذلك نقرّر أن الجيوش المأمونية كانت على أتم تعبية ، وأكملِ كِفَاية ، وأدقّ نظامٍ ، وأحسن حالٍ ، وأن خديعة طاهر وقوّاد طاهر : من حَمْلِ صورة البَيْعة على أسنّة رِمَاحهم تُعيد الى الأذهان ما كان[1] بين جند معاوية وجند علىّ من حمل جند معاوية المصاحف على الرماح .

لننتقل الآن الى مسألة أخرى لها علاقة بعلىّ بن عيسى بن ماهان من ناحيةٍ ، كما أن لها علاقات بما يقع فيه القُصّاص والمؤرّخون والرواة من تناقض من ناحيةٍ أخرى . تلك المسألة هى ما يُعْزى الى زُبَيدة من نصيحتها لابن ماهان باحترام المأمون وإجلاله ، وأنها قالت له : « يا على ! إن أمير المؤمنين و إن كان ولدى ، اليه تناهتْ شفقتى ، وعليه تكامل حذرى ، فإنى على عبــد الله متعطّفة مُشْفِقة ، لمــا يحدثُ عليــه من مكروهٍ وأذًى ، وإنمــا ابنى ملكٌ نافس أخاه فى سلطانه ، وغاره على ما فى يده ، والكريم يأكل لحمــه و يمنعه غيرُه ، فاعرِفْ لعبد الله حقّ والده و إخوته ، ولا تَجْبهه بالكلام ، فانك لستَ نظيرَه ، ولا تقتسرْه اقتسارَ العبيد ، ولا تُرْهِقه بقيدٍ ولا غُلٍّ ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما ، ولا تعنِّف علــيه فى السير ، ولا تُسَاوه فى المَسير ، ولا تركب قبلَه ، ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وان شتمك فاحتملْ منه ، و إن سَفِهَ عليك فلا تُرَادّه » .

---

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فى هذا بقوله : «لم يكن كل الجند المأمونى حاملا صورة البيعة ولا كثير منهم ولكن الأمر فى ذلك أن أحمد بن هشام علق البيعة للمأمون على رمحه وكان على بن عيسى هو الذى أخذها للمأمون على أهل خراسان أيام كان واليا بهــا ليقيم بذلك الحجة على على بن عيسى فدنا منه أحمد بن هشام بعد أن طلب الأمان وأمنه على بن عيسى وقال له أحمد : ألا تتقى الله عز وجل ؟ أليس هذه نسخة البيعة التى أخذتها أنت خاصة اتق الله فقــد بلغت باب قبرك ؟ فلم يأبه له على بن عيسى بل قال : مــن أتانى به فله ألف درهم فشتمه أصحاب أحمد ... الخ من ابن الأثير» .

معقول أن يكون ذلك من زُبَيدة لابن زوجها الرشيد . ولكنّ التاريخ يحدّثنا عن قيد من الفضة قيل إنها أعدّته ليقيَّد به المأمون ، كما يحدّثنا أن المأمون نفسه اعترف بمسألة هذا القيد . بَيْدَ أن نصّ النصيحة ، وما اشتملت عليه من الأوامر ، وما جُبِلَتْ عليه نفسية السيدة زبيدة ، مما يرجح عدم صحة القول بإعدادها قيدَ فضة أو ذهب ، ليقيد به المأمون .

***

(ز) انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء :

وقد كتب الله للجيوش المأمونية الفَلَجَ والنصر على الجيوش الأمينية . ونترك هنا الكلمة لطاهر بن الحسين قائد المأمون ، فانه ينبئ خليفته عن ذلك الانتصار بقوله : «أطال الله بقاءك ، وكَبَتَ أعداءك ، وجعل من يَشْنؤك فِداءك ، كتبتُ اليك ورأس علىّ ابن عيسى بين يدىّ ، وخاتَمُه فى أصبعى ، والحمد لله رب العالمين» .

وذكر بعض أهل خراسان أن المأمون لما أتاه كتابُ طاهر بخبر علىّ بن عيسى بن ماهان ، وما نالته جيوشه من فوزٍ وانتصار ، وما أوقع الله بجُنْد خصمه من فَشَلٍ وانكسار ، قعد للناس ، فكانوا يدخلون عليه فيهنئونه ويدعون له بدوام العز والنصر ، وأن المأمون ، فى ذلك اليوم ، أعلن خلعَ محمد ، كما أعلن خلافته فى جميع كُوَر خراسان وما يليها ، وسُرَّ بذلك أهل خراسان ، وخطبتِ الخطباء ، وأنشدت الشعراء . وفى ذلك يقول الشاعر :

أصبحت الأمّةُ فى غِبْطةٍ * من أمرِ دُنْياها ومن دينها
اذ حفظتْ عهدَ إمامِ الهدى * خيرِ بنى حَواءَ مأمونِها
على شَفًا كانتْ ، فلما وقَتْ * تخلّصتْ من سوءِ تحيينها
قامت بحق الله اذ دُبّرتْ * فى وُلْدِه كُتْبُ دواوينها
ألَا تراها كيفَ بعدَ الرَّدى * وفَّقها اللهُ لتزيينها

وهى أبيات كثيرة .

وذكر عليّ بن صالح الحَرْبيّ أن عليّ بن عيسى لما قُتل، أَرْجَف الناسُ ببغداد إرجافًا شديدا؛ وندم محمد على ما كان من نَكْثه وغَدْره، ومشى القوّاد بعضهم الى بعض، وذلك يوم الخميس للنصف من شوّال سنة ١٩٥، فقالوا: ان عليا قد قتل، ولسنا نشك أن محمدا يحتاج الى الرجال واصطناع أصحاب الصنائع، وإنما يحرّك الرجالَ أنفسُها، ويرفعها بأسُها وإقدامها، فليأمر كل رجل منكم جنـدَه بالشَّغَب وطلبِ الأرزاقِ والجوائزِ، فلعلنا أن نصيبَ منه في هذه الحالةِ ما يصلِحُنا ويصلح جندنا.

خبرني، لَعَمْرُك! أليستْ هذه بوادرَ الفوضى وعلاماتِ الانتقاض! أوليست هـذه هي هي بعينهـا مبادئَ الثـورة وأمارات زوال الملك وسـقوط العـروش، وأفول نجم أصحابها! أجل! إنها لكذلك، وإن في انقسام كلمة الزعماء، وإثارتهم النفوس بالاضطراب والقلاقل، وإضرامهم نيرانَ الفتن، وتحريكهم الجندَ وما الى الجند للشَّغَب والهياج، تقطيعا لأوصال البلاد، ونذيرا بالهدم والفناء.

ولننظر ماذا كان من حماقات رجال الأمين؟

ان التاريخ ليحدّثنا أن رأيهم قـد اجتمع على الشغب والاصطياد في المـاء العكر، وأنهـم أصبحوا فتوافوا الى باب الجسر وكبروا، فطلبوا الأرزاق والجوائز، وبلغ الخـبر عبـد الله بن خازم، فركب اليهم في أصحابه وفي جماعة غيره من قوّاد الأعراب، فترامَوْا بالنشّاب والحجارة واقتتلوا قتالا شديدا، وسمع محمد التكبير والضجيج، فأرسل بعض مواليه أن يأتيه بالخبر، فرجع اليه فأعلمه أن الجند قد اجتمعوا وشَغَبوا لطلب أرزاقهم؛ قال: فهل يطلبون شيئا غير الأرزاق؟ قال لا؛ قال: ما أهون ما طلبوا! ارجع الى عبـد الله ابن خازم فمُـرْه فلينصرف عنهم، ثم أمر لهم بأرزاق أربعة أشهر، ورفع من كان دون الثمانين الى الثمانين، وأمر للقوّاد والخواصّ بالصِّلات والجوائز!

ولنتساءل الآن، إزاء إجابة الأمين لسؤل القادة والجند، ومبادرته الى رَفدهم، وإسراعه بمنحهم الأعطيات والهبات، والجوائز والصلات، أكان في تصرفه حكيما، وفي عمله مسدّدا موفقا؟.

لا نظنّ ذلك . وكان الحزمُ به أولى، ليقْدَع الفتنـة ، وليَضَعَ حدّا صارما لشهوات ذوى الغايات والمتنفعين الذين يكثر وجودهم وتتوافر جماعتهم فى إبّانها وفترَاتها .

*
* *

وقد كان اختيار الأمين لعـلىّ بن عيسى بن ماهان ، خَطَلًا سياسيا؛ لأن سابقـة ابن ماهان فى خراسان أيام الرشيد كانت سابقة سوء، فهو ممقوت أشـدّ المَقْت عنـدهم . ونقرّر بهذه المناسبة ، أنه يخيل الينا، الى حدّ غير قليل ، اختلاق تلك القصة التى تعـزى الى الفضل بن سهل : من أنه كتب الى الدسيس الذى كان ممن يشاورهم الفضل بن الربيع فى أمره : أنه ان أبى جماعة الأمين إلا عزمةً فى الخلاف ، فالطف لأن تجعـل أمرهم لعلى بن عيسى . وقال الطبرىّ : وإنمـا خصّ ذو الرياستين عليًّا بذلك، لسوء أثره فى أهل خراسان، واجتماع رأيهم على كرهه، وأن العـامة قائلة بحربه . فشاور الفضـلُ الدسيس الذى كان مشاوره؛ فقال : على بن عيسى ! وإنه إن فعل فلم يَرْمِهم بمثله فى بعد صومة ، وسخاوة نفسـه ، وكان فى بلاد خراسان فى طول ولايته وكثرة صنائعه، ثم هو شيخ الدعوة وبقية أهل المشايعة . فأجمعوا على توجيهه .

نميل الى القول بأن نسبة اختيار ابن ماهان الى تدبير ابن سهل ، وإسناد كل فضـل اليه، من باب الدعوة لابن سهل . ونحن ممن يقرّ بذكائه وسعة حيلته، كما أسلفنا . ولكنّا نقرّر أيضا أن صلة ابن ماهان بالأمين، وبدولة الأمين، وبابن الربيع، كانت مما يحتّم على الأمين لا محالة تقليدَه أمر جيوشــه وتفضيلَه على غيره من القادة، لا أن دسيسَ جمـاعة المأمون هو الذى أشار بنـدبه واختياره . فلنحترس كثيرا من مبالغـة المؤرّخين والرواة ، ولنجعل من عقولنا ومنطقنا محكًّا وحَكما .

ونَلْفِت النظر هنا الى تناقض وقع فيـه الرواة من الحزب المأمونى، فبينا نراهم يقرّرون أن جيش المأمون عثر على صناديق عدّة من الخمر، فيما غنمه من على بن عيسى بن هامان ، إذ بالدسيس يصفه بقوله : «ليس مثله فى بعد صومة وسخاوة نفسه ! » .

ومهما قيل بأن وصفه كذلك من باب الختل والخديعة ، و بأنه كان فى حقيقة الأمر سِكِّيرًا مُعَرْبِدًا ، فإنا نرى أثر التأليف القصصىّ فى الروايتين ظاهرًا جليًا .

وسبق لنا أن قد فَنّدنا ، حينما كنا بسبيل القول فى الأمين ، ما رواه محمد بن يحيى بن عبد الملك النيسابورى من أن الأمين قال لما نَعَى الناعى اليه قائدَه : « ويلك دعنى فان كوثرا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئا بعد ! » . وترك الناعىَ وخبرَه ، وأقبل على الصيد وكوثره ، فلنضمّ هذه الى تلك .

*
* *

ويجدر بنا الآن أن نطلعك على بعض مقولات الشعراء فى موقف الأخوين ، مع ملاحظة ما لاحظناه من مبالغتهم فى تمداحهم للقوىّ ، وغلوّهم فى زرايتهم على الضعيف .

قال أحد الشعراء البغداديين :

أضاع الخلافة غِش الوزير * وفسق الإمام وجهل المشير
ففضلٌ وزيرٌ وبكرٌ مُشيرٌ * يُريدان ما فيه حتف الأمير
وما ذاك إلا طريقُ غُرورٍ * وشرُّ المسالك طرقُ الغرورِ
لِواطُ ٱلخليفةِ أعجوبةٌ * وأعجبُ منه خَلَاقُ الوزير
فهذا يدوسُ وهذا يداسُ * كذاك لعمرى اختلاف الأمور
فلو يستعينان هذا بذاك * لكانا بِعُرْضةِ أمرٍ ستير
ولكن ذا لجّ فى كوثرٍ * ولم يَشْفِ هذا دِعاسُ الحمير
فشُنِّع فعلاهما منهما * وصارا خِلافًا كبَوْل البعير
وأعجبُ من ذا وذا أننا * نبايع للطفل فينا الصغير
ومن ليس يُحسِن غسل آستِهِ * ولم يخل مَتْنُه من حِجْرِ ظير
وما ذاك إلا بفضلٍ وبكرٍ * يريدان نقضَ الكتاب المنير
وهذان لولا انقلابُ الزمانِ * أفى العيرِ هذانِ أم فى النَّفير

ولكنها فتن كالجبال * ترفّع فيها الوضيع الحقير
فصَبْراً ففى الصبر خيرٌ جميلٌ * وإن كان قد ضاق صبرُ الصَّبور
فيارَبِّ فاقبضْهما عاجلاً * اليك وأوردْ عذابَ السعير
ونَكِّلْ بفضلٍ وأشياعِه * وصَلِّبْهُمُ حول هذى الجسور

***

(ح) عود على بدء ، مجهودات الأمين فى سبيل الفوز :

ولقد سبق أن قلنا لك : إنه مع ما يرمى اليه الرواه من تحقير شأن الأمين ورجالات الأمين ، يمكننا مع ذلك تبيّن حقيقة أمره ، مما يلاحظ فى ثنايا السطور وفلتات الحوادث ، وقلنا : إن تلك الفلتات قد تتيح لنا أن نؤمن بأن عند الأمين بعض رجالاتٍ أفذاذٍ . ونريد الآن أن نثبت لك ذلك . وهذا الطبرى يحدثنا ، فى حوادث سنة ست وتسعين ومائة ، أنه لما قوى طاهر واستعلى أمْرُه ، وهزم من هزم من قواد محمد وجيوشه ، دخل عبدُ الملك بن صالح على محمد — وكان عبد الملك محبوسا فى حبس الرشيد ، فلما تُوُفِّى الرشيد وأفضى الأمرُ الى محمد ، أمر بتخلية سبيله ، وذلك فى ذى القعدة سنة ١٩٣ ، فكان عبد الملك يشكر ذلك لمحمد ، و يوجب به على نفسه طاعته ونصيحته — فقال : " يا أمير المؤمنين ! إنى أرى الناس قد طَمِعوا فيك ، وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلت سماحتك ، فان أتممت على أمرك أفسدتَهم وأبطرتَهم ، و إن كففت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضبتهم ، وليستْ تُملك الجنودُ بالإمساك ولا تبقى بيوت الأموال على الإنفاق والسَّرَف ؛ ومع هذا فان جندك قد رعبتهم الهزائم ، ونهكتهم وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وامتلأت قلوبهم هيبةً لعدوّهم ، ونكولاً عن لقائهم ومناهضتهم ، فإنْ سَيَّرتَهم الى طاهر ، غلب بقليلٍ مَنْ معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيّته ضعفَ نصائحهم ونيّاتهم . وأهل الشأم قومٌ قد ضَرّستهم الحروب ، وأدّبتهم الشدائد ، وجلُّهم منقاد الىّ مسارع الى طاعتى ، فانْ وجهنى أميرُ المؤمنين ، اتخذتُ له منهم جندا ،

نعظم نكايتهم فى عدوه و يؤيد الله بهـم أولياءه وأهـل طاعته . فقال محمد : فإنى مُوَلِّيك أمرَهم ، ومُقوِيك بمـا سألت من مالٍ وعُدّةٍ ، فعجِّل الشخوصَ الى ما هنالك ، فاعملْ عملا يظهر أثره ، وتُحمد بركته ، برأيك ونظرك فيه ، ان شاء الله . فولّاه الشامَ والجزيرةَ واستحثّه بالخروج استحثاثا شديدا ، ووجه معه كَنَفًا من الجند والأبناء .

حاول الأمين بعـد ذلك أن ينتصر على أخيه بكل ما فى مقدوره ، وبعث له الجنـد تِلو الجند . وإنا مع اعترافنا بكفاية قادته ، أمثال عبـد الرحمن بن جبلة الذى ندب أهـل البأس والنجدة والغَنَاء ، نقرر أن طريقة الإرجاف وبثّ الدعاة التى اتبعها القادة المأمونيون كانت خَطِرةً جدّا .

انظر الى من يقول لأهل حِمْص : " يا أهـلَ حِمص ! الهَرَبُ أهون من العَطَب ، والموتُ أهون من الذلّ ! إنكم بَعُدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرةَ بعد القِلة ، والعزةَ بعد الذِّلة ، أَلَا وفى الشرّ وقعتم ، والى حومة الموتِ أُنختم . إن المنايا فى شوارب المسـوَّدة وقَلَانسهم ، النفيرَ النفيرَ ! قبـل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمر الجليـل ، ويفوت المطلَبُ ، ويعسُرَ المذهب ، ويبعـد العمل ، ويقترب الأجل ! " ، وقام رجل من كلب فى غَرز ناقته ثم قال :

شؤبوبُ حربٍ خابَ من يَصلَاها * قـد شَرعت فرسـانُها قَنَـاها

فأوردَ الله لَظَى لَظَـاها * إن غَمرت كَلْبٌ بهـا لحَاهـا

ثم انظر لمن يقول : " يا معشر كلب ! إنها الراية السوداء ، والله ماوَلَّت ولا عَدَلت ، ولا ذَلّ نصيرُها ، ولا ضعف وليها ، وإنكم لتعرفون مواقعَ سيوفِ أهلِ خُراسان فى رقابكم ، وآثار أسِنّتهم فى صُدوركم ، اعتزلوا الشرّ قبل أن يعظُمَ ، وتخطَّوْه قبل أن يضطرم ، شأمَكم ! داركم داركم ! الموتُ الفِلَسْطِينِىّ خيرٌ من العيش الجَزَرِىّ ! أَلَا وإنى راجعٌ فمن أراد الانصرافَ فلينصرف معى ! " ثم سار وسار معه عامة أهل الشأم .

أرأيت الى أىّ مدى كان أثر الدعايةِ المأمونية ؟ .

لقد كان المأمون مُوَفَّقا بلا ريب، وكانت ظروف النصر والاقبال تُوَاتيه من هنا ومن هنالك، وتُظاهره على النجاح من جَرّاء حكمته وكفاية رجالاته، كما كانت تُظاهره من جَرّاء حَمَاقة خصومه وقلّة غَنَائهم .

ثم انظـر ما كان من أمر العصبيّة فى حوادث سنتى خمس وتسعين ومائة وست وتسعين ومائة ، وما كان من اشتطاط جنـد الأمين فى طلب المـال ، وما كان من عدم قـدرته على إجابة طلبات القادة الكُماة ، أمثال أسد بن يزيد، وما كان من تقلُّب الحسين ابن علىّ معه وعليه ، وما كان من لِيَان الأمين معه بعد أن حبسه؛ فان التاريخ يحدّثنا بأن كل ما فعله الأمين معه، هو أن لَامَه على خِلافه ، وقال له : " ألم أُقدّم أباك على الناس! وأُولِّه أعنّة الخيـل ! وأملأْ يده من الأموال ! وأشرِّفْ أقداركم فى أهل خراسان ! وأرفعْ منازلكم على غيركم من القوّاد ! " . فقال له : بلى ! قال : " فما الذى استحققتُ به منك أن تخلع طاعتى وتؤلِّب الناسَ علىّ ، وتندُبَهم الى قتالى؟" قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين، وحسن الظن بصفحه وتفضُّله . قال: "فان أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك، وولّاك الطلب بثأرك ومن قتـل من أهل بيتك ! " ثم دعا له بخلعة فخلعها عليـه ، وحمله على مراكب، وأمره بالمسير الى حُلْوان ، وولّاه ما وراء بابه .

أنظر الى ذلك كله ، فانك تستطيع أن تقتنع معنا، بأن لسوء التـدبر حظا غير قليـل فى خِذلان الأمين وضَيَاع ملكه .

*
*

(ط) مظـاهر الثـورة وخطبـاؤها :

على أن هنـالك ظاهرة فى الجيش الأمينى والأطراف الأمينية ، مثل ظاهرة الثورة الفرنسية من بعض وجوهها، يجدر بنا أن نقيِّـدها لك، ولو «على الهامش» كما يقولون . ذلك أن الزَّوَاقيـل ، واللصوص، والثوّار، لعبوا دورهم الخطـير، كما أن الفوضى ضربتْ

بجرانها على كل البقاع الأمينية ، ولم يكن ثمّة من طاعةٍ ولا نظامٍ، لا فى الجند الأمينى ولا فى قادة الجند الأمينى !

وقد كان هناك خطباء، كما كان فى الثورة الفرنسية . وإن الطبرى ليحدّثنا أن محمد بن أبى خالد قام بباب الشأم، فقال : أيها الناس! والله ما أدرى بأىّ سبب يتأمّر الحسين بن علىّ علينا ! ويتولى هذا الأمر دوننا! ما هو بأكبرنا سنًّا، ولا أكرمنا حسبًا، ولا أعظمنا منزلةً . وإن فينا من لا يرضى بالدنيّة ولا يُقاد بالمخادعة! وإنى أوّلكم نقضا لعهده، وإظهارا للتغيير عليه والانكار لفعله ، فمن كان رأيه رأيى، فليعتزل معى. وقام أسد الحربىّ فقال : يامعشر الحربيّة ! هذا يومٌ له ما بعده ، إنكم قد نمتم وطال نومكم، وتأخّرتم فقدّم عليكم غيرُكم، وقد ذهب أقوامٌ بذكر خَلْع محمد وأَسْره ،فاْذهبوا بذكر فكّه وإطلاقه .

يحدّثنا التاريخ عن ذلك كله ، كما يحدّثنا بأن شيخا كبيرا ، من أهل الكفاية، قد أقبل على فرسٍ، فصاح بالناس : اسكتوا ! فسكتوا ؛ فقال : أيها الناس ! هل تعتدُّون على محمد بقطع منه لأرزاقكم ؟ قالوا : لا ! قال : فهل قصّر بأحدٍ منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علمنا ! قال : فهل عَزَل أحدًا من قُوّادكم ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ! . قال : فما بالكم خذلتموه وأعنتم عدوّه على اضطهاده وأَسْره ! أَمَا والله ما قتل قومٌ خليفتهم قطُّ إلا سلّط الله عليهم السيفَ القاتلَ والحتفَ الجارفَ ! انهضوا الى خليفتكم وادفعوا عنه، وقاتلوا من أراد خَلْعَه والفتكَ به ! — .

أما ما أصاب بغداد من سَلْب ونَهْب، وتحريق وتخريب، وفتنة شعواء، وقتل ودماء، فإنا نترك الكلمة فى ذلك لشعراء العصر، مما أثبتناه لك فى باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث، فلتراجع ثمّة .

(ى) قتل الأمين :

ولقد ضيّق طاهرٌ وهرثمة على الأمين الخناق، وفكّرا فيمن يتسلّم الأمين ليكون له قَصَبُ السَّبْق . وإنه لمن المؤلم حقا أن ترى الأمين وهو يقبل أولاده . ومن المؤلم أن

تسمعه وهو يقول : «وددت أن الله قتل الفريقين جميعا ! . فما منهم إلا عدوٌّ مَنْ معى ومن علىّ ، أما هؤلاء فيريدون مالى ، وأما أولئك فيريدون نفسى ! » وقال :

تفرّقُوا ودعُونى * يا معشرَ الأعوانِ
فكلُّكم ذُو وجوهٍ * كثيرةِ الألوانِ
وما أرى غيرَ إفكٍ * وتُرّهاتِ الأمانى
ولستُ أملك شيئا * فسائلوا خُزّانى
فالويلُ لى ما دَهَانى * من نازلِ البستانِ

وانه لمن المؤلم حقا أن يتفقا على أن يأخذ أحدهما دنه ، والآخر خاتم الخلافة وشاراتها ! ومن المؤلم حقا أن تختم حياته بمأساته المروّعة .

الفصل الرابع

الخليفـــة المـــأمون

توطئة — السياســة الداخلية — ملخص الحالة العامة فى المــدّة الخراسانية — المدّة البغدادية : ثورة نصر ابن شبث ، الزط ، ثورة مصر ، بابك الخرمى ، مــذاهب ونحل ، افتراضات — السياســة الخارجية : غزوة المأمون للروم — كلمة ختامية .

(أ) توطئـــــة :

من تحصيل الحاصل أن نقول ما يقوله الفخرى وغيره : من أن المأمون كان من أفاضل الخلفاء وعلمائهم ، وحُلمائهم وحُكمائهم ، أو أنه كان دَيِّنا ، عارفا بالعلم ، فيــه دهاء وسياسة أو أنه كان فَطِناً ذكيا ، أو أنه كان كاملا عالمــا جوادا ، عظيم العفو ، ميمون النَّقيبة ، حَسَن التدبير ، جليــل الصنائع ، لا تخدَعه الأمانى ، ولا تجوز عليه الخدائع ، علمُه بمــا بعُــد عنه كعلمه بمــا حضر ، أو أنه كان متصفا بالعدل والحلم .

من تحصيل الحاصــل أن نقول ذلك لأنه معلوم متعارفٌ من ناحيــةٍ ، ولأن خطتنا فى كتابتنا ، ومنهجنا فى بحوثنــا ، أن نترك للحوادث الكلمة الفاصلة فى تحليل صفاته ، اتّباعا للطريقة التحليلية التى اتبعناها فيما كتبناه عن سواه .

وقد أسلفنا لك القول فى بيان حياة المأمون قبل الخلافة ، وفصّلنا لك ما كان من أمر النزاع بين الأخوين ، ووصلنا بك الى مأساةِ تلك الحرب الشعواء والفتنةِ العمياء ، ألا وهى قتل محمد الأمين فى ٢٥ محرم ســنة ثمان وتســعين ومائة والآن نتقدّم الى القول بأن المأمون بُويع له بالخــلافة العامة فى ذلك التاريخ ، واستمرّ كذلك الى أن تُوُفِّىَ غازيًا فى ١٩ رجب ســنة ٢١٨ هـ . فتكون خلافته ، قد أنافت على عشرين ســنة . أقام منهــا فى خراسان حتى منتصف صفر سنة ٢٠٤ ، حين انتقل الى بغداد ، مقرّ الخلافة العباسيّة .

فيمكننا اذًا أن نقسم كلامنا عن حكم المأمون الى مدّتين : المدّة الخراسانيّة ، والمدّة البغداديّة . وفى بيان هاتين المدّتين ، بيانٌ للحالة السياسية الداخلية فى عصره ؛ وهو ما سنعالج الكلام فيه الآن :

* * *

(ب) السياسة الداخلية :

١ — ملخص الحالة العامة فى المدّة الخراسانية

اطلعنا فى دور النزاع بين الأخوين على شيءٍ غيرِ قليل من تصرّفات الفضل بن سهل وتدبيراته ، ووقفنا على أثره العظيم فى الدولة ؛ كما اطلعنا على ما كان من نجاح طاهر بن الحسين وهَرْثمة بن أَعْين ، فى حروبهما للجيوش الأمينية .

ونتساءل الآن ، بعد أن تمّ الأمر للمأمون وحزبه ، وخلا الجوّ الى حدّ كبيرٍ للفضل ابن سهل ، أمن المعقول أن تستطيع هذه الشخصية البارزة ، الفارسيّة المَنْبِت والنَّزْعة ، ذات البيتِ الكبيرِ ، والحُماة والأصدقاء ، والعُفاة والأنصار ، أن تحتمل أن يكون الى جانبها شخصيّاتٌ بارزة من العرب كهرثمة بن أعين ، وأبطالٌ من ذوى الفضل العظيم والدور الأوّل فى النجاح كطاهر بن الحسين ؟ .

نحن نعلم ما كان من أبى مسلم الخراسانىّ مع أمثاله من القادّة والكُماة ، كما نعلم ما كان نصيبه من الخليفة المنصور . نعلم ذلك ، كما نعلم الكثير من أمثال ذلك . وإنه ليلوح لنا ، من غير أن نعدو الصواب كثيرا ، أنه فى مقدورنا أن نجيب عن تساؤلنا هذا . إن المعقول ، فى طبيعة هذه الشخصيات الفذة ، فى تلك الأزمان المطلقة الحكم ، أنها تعمل على إزالة كل الشخصيات البارزة من طريقها ، ليكون ذلك لأطماعها ممهّدا ، ولخُطَطها معبّدا .

يلوح لنا أنا لا نعدو الصواب اذا قلنا ذلك . اذ أن هذا هو ما فعله الفضل بن سهل مع الظاهرين وأصحاب الكلمة فى الدولة ؛ فإن التاريخ ينبئنا أنه رأى مستقبله ومستقبل حزبه ، يكون مهدّدا ، اذا بقى طاهر وهرثمة فى العراق ، فاستصدر أمرين

ملكيين : أوّلها بتولية شقيقه الحسن بن سهل جميع ما فتح بجهود طاهر، وقيادته الحكيمة، وإخلاصه للقضية المأمونية . ينبئنا بأنه نَصَّبه على كُوَر الجبال وفارس، وعلى الأهواز والبَصْرة، وعلى الكوفة والحجاز واليمن؛ كما ينبئنا بأنه ولّى طاهرا الموصلَ والجزيرةَ والشأم والمغربَ . ولكى يتمّ الأمر بإبعاده، كتب اليه أن يسلّم الحسن بن سهل جميع ما بيده من الأعمال، وأن يبادر فى الشخوص الى الرقّة لمحاربة نصر بن شَبَث . وثانيهما الى هَرْثمة ابن أعين يكلّفه به أن يشخص الى خراسان .

ولنتساءل الآن : هل كان من المصلحة السياسيّة، هـذه الصدمة العنيفـة لزعيمين قويين، أحسنا البَلَاء فى الدولة، ولها مكانتهما، ولها حزبهما ؟ وهل كان من المصلحة السياسـية إخلاءُ العراق، وهو مصدرُ الشقاق والنفاق والعصيان والعـدوان، من هرثمة وطاهر ؟ وهل كان من المصلحة السياسية، أن يترك المأمون مسألة، كمسألة تعيين الحسن ابن سهل وإقصاء هرثمة وطاهر، تمرّ هكذا، فيستغلّها الدعاة على ملكه من بنى هاشم ممن لم يكن لهم حظّ فى دولته، ومن غير بنى هاشم ممن يودّون زوال الملك الهاشمىّ، فيقول — فيما يقولون عنه — إنه غُلِب على أمره، أو أنّ الفرس ملكوا زِمَامه، أو أنّ الفضـل بن سهل أنزله قصرا فحجبه عن رجالات دولته، وأن السلطان ومقاليد السلطان، قد نُزِعت منـه ؟ .

نعود نتساءل : أكان ذلك كله من مصلحته السياسية ؟ .

لم يكن ذلك من المصلحة السياسية طبعا، لا سيما أنه لم تسكن الفتن والثورات بعدُ فى الأقطار المأمونية . ولكنّا نميل الى اعتقاد أن المأمون كان مرغما على الوقوع فى هذه الغلطة السياسية، وهو ذلك السياسىّ المحنَّك والداهيـة القدير، كما رأيت وكما سترى فى موضعه؛ لأن لظروف الأحوال نصيبَها فى ذلك التصرّف منه ومن غيره ممن يكون فى مكانه؛ ولأنه ربما تحاشى بتصرّفه ذلك خَطَرًا أجسمَ، وأوسع نِطاقا، وأبعدَ مدًى، وهو خطر إغضاب الفضل بن سهل وجماعة الفضل بن سهل .

ومهما يكن من شيء، فان هذه التصرّفات التى كانت من الفضل بن سهل، وإقرارَ المأمون لها، وبقاءَ المأمون، بعد أن تمّ له الأمرُ، فى مَرْو دون بغداد عاصمة الخلافة العباسية، كانت لها نتائجها السيئة فى شيعة المأمون وأنصاره من جهة، وفى أعدائه والراغبين عن سلطانه من جهـة أخرى . ذلك بأن أنصار المأمون وقواده، ونخص بالذكر منهم طاهر ابن الحسين وهرثمة بن أعين، قد كَسَر قلوبهم وفَلّ من عزائمهم، أن يكون جزاؤهم على فوزهم وحسن بلائهم وإخلاصهم، تلك التصرفات السيئة التى كانت نصيبَهم من المأمون ومن حاشية المأمون .

هذا كان أثرها فى شيعته وخاصة أنصاره، وأما غير هؤلاء، فقد جعلت هذه التصرفاتُ ألسنتهم تنطلق باتّهام المأمون بأنه يميل الى الخراسانيين، وأنه أصبح آلةً فى أيديهم يحرّكونه كما يشاءون وقد حدث من جرّاء هذه الإشاعات وفتور همة أنصار المأمون الذين لم يجازوا الجزاء الأوفى، أن اضطربت الأمورُ، وكثُرت الفتنُ، ووَجَد أعداءُ المأمون الفرصةَ سانحةً لتحقيق أطماعهم . ومن تلك الفتن ما يحدّثنا التاريخ عنه : من خروج محمد بن إبراهيم العلوىّ المعروف بابن طباطبا بالكوفة، وقد قام بتـدبير أمره رجلٌ من رجالات هَرْثمة بن أعين وكبار أنصاره، وقد خرج لأنه حبس عنه ما كان يُعْطاه من رزق : هذا الرجل هو أبو السرايا السرىّ بن منصـور، وكان هو الخارج على المأمون فى الواقع لا ابن طباطبا وقـد بلغ من أمره أن ضَرب الدراهم وجَنّد الجنود، حتى اضطُرّ الحسنُ بن سهل أن يسترضى هرثمة، ويَستعينَه، ليكفيَه شرَّ هذا الخارج القوىّ .

ويظهر أنّ موت الزعماء، كان طِلَّسْمًا من الطلاسم، أو سرًّا من الأسرار، أو صـناعةً من الصـناعات الخفيـة فإنا نجد أن محمد بن ابراهيم هـذا، الذى سَمَتْ منزلتُه بين أتباعه، وعظُمت طاعتهُـم له، قد مات، بعـد أن كُتب النصرُ للقائم بتدبير أموره على سليمان بن جعفر وَالِى الكوفة من قِبلَ المأمون، ثم نرى هذا المنتصر يولّى مكانه غلاما أمرد حَدَثًا، هو محمد بن محمد بن زيد العلوىّ .

وتعال معى لننظر فى حوادث سنة تسع وتسعين ومائة ، ففيها ما يكشف القناع عن أمور جسام ، تفيدنا فى تفهُّم الروح الحزبية بين العلويين والعباسيين وتفيدنا أيضا فى إماطة اللثام عن سبب هامٍّ من الأسباب التى يرجع اليها تبرُّم بعض الوُلاة الكُفَاة بدولة الفضل بن سهل وانفراده هو وجماعته بمراتب الدولة ووظائفها .

تعالَ ننظر فى حوادث تلك السنة ، فنجد فيها أن هرثمة جدّ فى طلب أبى السرايا صديقه بالأمس ومُنازله اليوم ، حتى وصل الى قصر ابن هُبَيرة ، فكانت بينهما وَقْعةٌ شديدة ، قُتِل فيها من أصحاب أبى السَّرايا خلقٌ كثير ، أليس فى هذا ما يقنعك بأن إماضةَ رضًا وابتسامةَ تشجيع ، لرجل من رجالات الدولة ، كافيةٌ لأن يَنْهض فيحارب زميله ويقاتل خِدْنه . ثم نجد فى تلك السنة فيها أن محمد بن محمد وثب ، ومعه الحزب الطالبىّ ، على دُور بنى العبّاس ودُور مَوَاليهم وأتباعهم بالكوفة ، فانتهبوها وخرّبوها ، وأخرجوهم من الكوفة ، واستخرجوا الودائع التى كانت لهم عند الناس فأخذوها ، وعملوا فى ذلك عملًا قبيحا . ونجد كذلك فيها أن مسرورًا الكبير الخادمَ الرشيدىّ ، قد حجّ تلك السنة فى مائتى فارس من أصحابه ، وأنه عبّى لحرب من يريد دخول مكة وأخذها من الطالبيين ، وأنه قال لعامل مكة داود بن عيسى : أقِمْ لى شخصَك أو شخص بعض وَلَدك وأنا أكفيكَ قتالَهم ! فقال له داود : لا أستحِلّ القتالَ فى الحَرَم ، والله لئن دخلوا من هذا الفَجّ ، لأخرُجَنّ من الفج الآخر . فقال له مسرور : تُسلِّم ملكَك وسلطانَك الى عدوّك ومن لا تأخذه فيك لومةُ لائم فى دينك ولا حُرَمك ولا مالك ! قال له : أىّ ملك لى ! والله لقد أقمتُ معهم حتى شِخْتُ ، فما وَلَّونى ولاية ، حتى كَبِرتْ سنّى ، وفَنِى عمرى ، فولونى من الحجاز ما فيه القوت ، إنما هذا الملك لك ولأشباهك ! فقاتل إن شئت أو دَعْ !

هذه حالة نفسية لبعض الولاة العرب ، قد يكون من النفع أن تُلاحظ تبرمها وسخطها من سياسة العصر ، أو من الهيمنة الفارسيّة على شتّى أمور الدولة عامة والجنسيات منها خاصة فى ذلك العصر . وربما كانت هذه الحالة النفسية تمثّل لك حالاتٍ كثيرةً من نفسيّات العرب لذلك العهد .

ثم لننظر فى حوادث سـنة مائتين، فنجد أن زيد بن موسى الطالبى المعروف "بزيد النار" كان بالبَصْرة، وإنما سُمّى "زيدَ النار" لكثرة ما حرّقه من دُور العباسيين وأتباعهم فى البصرة. وكان اذا أُتِىَ برجل من المسوّدة العباسيّة، كانت عقوبته عنده أن يُحرق بالنار. ونجد فيها أن ابراهيم بن موسى الطالبى قد خرج باليمن . ونجـد أيضا أن الكعبة وخزائنها وأحجـارها الكريمـة ، لم تسـلَم من أبى السرايا وأتبـاعها العـلويين ، وكم حبس من العباسيين وكم آذى ! حتى نَدَبَ محمدَ بن مَسْـلَمة الكوفى لتولّى عذاب العباسيين، فأشرف فى ذلك ، حتى سُمّيت دارُه "بدار العذاب" . ونجد أيضا أن خارجيّا آخر، وهو حسن ابن حسين ، أراد اقتفاءَ ما رَسَمـه أبو السّرايا ، فذهب الى عَلَوى وداعٍ محبّبٍ معـروفٍ فى مكة والمدينـة ، وهو محمد بن جعفر، ونَصَبه خليفةً اسما ، وجعل السلطانَ بيده فعلا . ونجد فيها قبائح وفضائح لحسن بن حسين هذا، مع زوجةٍ قرشيّةٍ من بنى فِهْر، وزوجُها من بنى مَخْزوم، ولهـا جمالٌ بارعٌ، فاغتصبها من زوجها . ونجد فيها مثل ذلك الصنيع المعيب من علىّ بن محمـد الخليفـةِ المنصوب ، مع ابن القاضى إسحاق بن محمد ، وكان جميلا بارعا فى الجمـال .

نجـد ذلك كله ، ونجـد الكثيرَ من أمثاله ، ممـا أدى الى إثارة الرأى العام فى مكة ، فاحتجوا ، حتى ردَّ الصبىَّ لأبيه مُكرها مرغمـا ! ونجـد فيها أمثلة عدّة لاستلاب أموال النـاس ، كما نجـد فيهـا رجلا عباسـيا موتورا من العلويين ، وهو محمد بن الحكيم ، ممن كان الطالبيّون قد انتهبـوا داره وعذّبوه عذابا شـديدا ، عثَر على محمـد بن جعفر الطالبى الخليفة المنصوب ، وقد طُرِد شرَّ طـردة ، وكان فى مقدوره أن يقتـله فلم يفعل . فلنقيّد هـذه الحادثة ، فانهـا تنفعنا فى تفهُّـم السر الذى كان كثيراً مايحـدو بالمأمون الى احترام العلويين ، وتقـدير مكانتهـم والعمـلِ على إرضائهـم لأن لهم حرمة فى نفوس حزبٍ غير قليلٍ من الشعب . ونجد فى السنة ذاتها أن الحج قد تولّاه أكثر من شخص، لتعدّدِ السلطات . فندب المأمونُ أبا اسحاق بن هارون الرشيد ، ووجّه ابراهيم بن موسى الطالبى ، الذى خرج

باليمن، رجلا من ولد عَقيل بن أبي طالب؛ كما وجه غيره من يمثله ، ممـا يدل على الفرقة والانقسام، وعلى الفوضى والاضطراب . فلنتعرّف ذلك جيدا .

ويجـدر بنا هنا أن نبيّن نتائج الحالة الحزبيـة بين الفريقين ؛ فقـد بَلَغ أبا اسحاق بن الرشيد أن الجماعة الطالبية التي أتت من اليمن للحج ، قد مرت بها قافلةٌ من الحاجّ والتجّار، وفيها كسوة الكعبة وطيبها ، فاستلبتْ أموالَهم وطِيبَهم ، فنَدَبَ لهم محمدَ بنَ عيسى بن يزيد الجلوديَّ الذي أحدق بهـم فأسر أكثرهم ، وهرب من هرب منهم، وأخذ منهم الطيبَ وأموالَ التجّار والحاجّ، فوجه به الى مكة ، ودعا بمن أُسر من أصحاب العَقيـليّ العَلَويّ ، فأَمَر بهم فقنّع كلَّ رجل منهم عشرةَ أسواط ، ثم قال لهم : "اعزُبُوا يا كلابَ النـار ! فوالله ما قتلكم وعر، ولا في أسركم جمال". وخلّى سبيلهم . ولنلاحظ تسميته لهم "بكلاب النـار" !

وإنا نلخص لك الحوادث التي وقعت بعد أن قَمَع هرثمةُ ثورةَ أبي السَّرايا، التي انتهت بقتله عام ٢٠٠هـ، وإخماد فتنته، معتمدين في ذلك على الطبريّ والأستاذ «ميور» خاصة :

لمـا قَمَع هرثمة ثورةَ أبي السرايا ، عاد الى نهروان ، دون أن يعرّج على والى بغداد ، وهناك وافاه أمرُ الخليفـة بتوليه حكم سوريا وبلاد العرب ، وكان قد اعتزم الذهابَ بعد ذلك الى « مرو » مباشرة، ليكشفَ للخليفة عن حقيقةِ الموقف وحَرَجِه، الذي يخفيه عنه وزيره الفضـل ، بسبب بقاء الخليفة في « مرو » وأن الغرب سينتقض عليـه سريعا ، ويخرج من يده اذا هو لم يبادر الى العودة الى بغـداد . فلما أحسّ الفضـلُ عزم هرثمةَ على القدوم فَطِن الى ما يَنْوِيه، فدسّ له عنـد المأمون، حتى أوغَرَ صدرَه عليه، وكادت السنة تنتهي قبـل أن يذهب هرثمة الى «مرو» . فلمـا ذهب خشي أن يكتم الفضـل خبر قدومه عن المأمون، فدقّ الطبولَ عند دخوله المدينة . فلما علم الخليفةُ الموغَرِ الصدرِ بقـدومه أمر باحضاره؛ فلما مَثَل بين يديه بالغ في تقريعـه وتأنيبه على توانيه في تسكين ثورة أبي السرايا ، وفي مخالفة ما أصـدره اليه من أمرِه بالذهاب الى ما ولّاه من أعمـال

وما كاد هـذا القائد يهم بالكلام ويشرح لمولاه الحالة، حتى هجَمَ عليـه الحَرَسُ الذين أسرّ اليهم الفضـلُ أن يُغْلِظوا فى تعـذيبه، فانهالوا عليـه ضرباً ولَكْماً، على وجهـه وجسمه، ثم سحبوه بسرعة الى السـجن حيث مات به بعـد زمن قصـير، متأثرا بجروحه . ولقـد اعتقد عامة الناس أن الذى أماته هو الفضل .

وهكذا انطوت صحيفـةُ هـذا الباسل العظيم الذى ذبّ عن مُلكِ المأمون، وكافَحَ فى توطيد دعائم الدولة، من أفريقية الى خُرَاسان، والذى يرجع اليه الفضلُ الأكبر فى انتصار المأمون على أخيـه المخلوع . ومات هـذا القائد العظيم ضحيّةً للسـعاية ونكران الجميـل، كما مات أمثالُه من قبل من صناديد هـذه الدولة من جرّاء السعاية والمنافسـة، ومن جرّاء أعمال البِطانة ودسائس الحاشية .

والنتساءل ماذا كانت نتيجة قتل هرثمة ؟

يحدّثنا التاريخ أن هرثمة كان محبوبا فى الغرب، وأن موته أحدث فتناً وقلاقل فى بغداد، وثارت الجنودُ فى وجه الحسن بن سهل، إذ عدُّوه آلةً فى يد أخيـه الفضـل الذى كانوا ينعتونه بالمجوسىّ . وبعد قتال دام ثلاثة أيام طردوا الحسن من المدينة، فلجأ الى «المدائن» ثم ارتدّ الى « وَاسِط » . واستمرّت الفِتَنُ والقلاقلُ بعـد ذلك قائمةً ببغداد شهورا عدّة، نشطت فى خلالها عصاباتُ اللصوص وشراذمة الصعاليك، وشمّرتْ عن ساعدها فى أعمال النهب والسلب، حتى طغى سيلُ غاراتهم على تلك المدينـةِ المنكودةِ، التى أصبحت تحت رحمتهـم . ويحدّثنا التاريخ أنهم قد أسرفوا فى ذلك إسرافا عظيما، مما فَزِع له أعيانُ المدينة ووجهاؤها، فأجمعوا أمرهم على صدّ هؤلاء السِّفْلةِ الأشرار ودفع غائلتهم عن المدينة وأهلها . ولما تمّ لهم ما أرادوا، اختاروا من بينهم رجلين من ذوى الفضل والمكانة فيهم، وولّوهما تدبير الحكم، ريثما تستقرّ الحالُ ويعودُ الأمنُ الى نِصَابه . ثم عَرَضوا عرش الخلافة على المنصور بن المهدى والبيعةَ له، فتأبّى عليهم، ولكنه عاد وقبل أن يتولّى الحكم باسم الخليفة المأمون . ولم تُوشِك هذه السنةُ أن تنتهى حتى كان قوّاد الجند فى بغداد قد سئموا القتالَ،

فاتفقوا مع الحسن بن سهل الوالى فعاد الى بغــداد بعد أن أصدر عفوًا عاما ، ووعد بأنه يدفع للجنــد رواتبهــم عن ستة أشهر ، و بأن يدفع كذلك لذوى المعاشات أرزاقهــم حسبما هو مُدرجٌ بقوائمهم .



ولنتساءل الآن ما ذا حدث بعد ذلك ؟ .

حدث أنه ما كاد الأمر ينتهى على هــذه الشروط ، حتى عادت الفتنةُ والاضطراب أشدّ ممــا كانا عليه . ذلك بأن المأمون ، لغرضٍ سياسى ، أو لنزعة شيعية ، أو لتقدير كفاية خاصة ، استدعى واحدًا من سلالة سيدنا علىّ ، وهو «على الرضا» رضى الله عنه ، وهو ثامن أئمة الشيعة أو حزب العلويين ، الى «مرو» ، واختاره وليًّا لعهد الخلافة ، مع أنه يكبره باثنتين وعشرين سنة . ور بما كان المأمون فى رأيه هذا صادرا عن رأى وزيره الفضل الذى زيَّن له أن هذه أنجحُ وسيلةٍ لتسكين ثورة العلويّين فى الغرب . ور بما كانت تنجحُ هذه الوسـيلةُ فى التوفيــق بين البيتين العلوىّ والعباسىّ ، قبل استفحال الخُلْف بينهما . أمّا وقد استطار الشرُّ بينهم ، وقَلَب بعضُهم لبعض ظهرَ المِجَنّ ، ولَبِسوا جِلْدَ النَّمِر ، وتحفَّزوا للقتال ، وتداعَوْا للجِلاد ، فإن أمر الوِفاق بينهم صار حُلما ، وعاد الإقدام عليه سخفا وحماقةً مُهْلِكة ! .

وما ذا ترتّب على إسناد ولاية العهد لفرد من العلويّين ؟ .

إن التــاريخ يحدّثنا أنه ترتّب على إسناد ولاية العهد لعلىّ الرضا أن أمر الخليفةُ وُلاتَه فى جميع أنحاء الدولة بأخذ البيعة لولىّ عهــده . ولكى يجعل المأمون الدولةَ تصطبغ بصبغة العلويين ، خلع الشِّعارَ الأسودَ ، شعارَ العباسيين ، وارتدى الشعارَ الأخضَر ، شعارَ الشِّيعَة ، وأمرَ عُمّالَه بالاقتــداء به . وفى أواخر هذه السنة تَلَقَّى الحسنُ بن سهل من أخيــه الفضل أمرًا بإعلان ذلك وتنفيــذه ، فكان لذلك الأمرِ أسوأُ أثرٍ فى أهل بغــداد ، إذ وقع عليهــم كالصاعقة ، لأن أهلها كانوا يخافون الشيعة و يمقُتونهم ، وكذلك شعَر العباسيون بأن الضربة موجّهةٌ للقضــاء على خلافتهم ، فشَقُّوا عصا الطاعة ، وهمّوا بخلع المأمون واختيار خليفــة

ســواه ، ولم يعارض زعماءُ البيت الملكىّ من العباسيين فى ذلك . فلم تأت آخر جمعة من هــذه السنة حتى دعى لإبراهيم بن المهــدى ّ على المنابر خليفة بدلًا من المأمون ؛ وسرعانَ ما بُويع له بالخلافة . وكان ابراهيم بارعا فى الموسيقى والغنــاء والشعر ، ولكن كانت تنقصه المؤهِّلات التى يســتطيع بها أن يضطلع باعباء الملك التى أُلقيت على عاتقه ، والتى ناء بحملها مدّة سنتين .

ثم ماذا كان بعد ذلك ؟

نَشِب القتالُ بين جنود المأمون وجنود ابراهيم المغتصب للخلافة ، فاضــطر الحسن بن سهل نائب المأمون أن يرتد الى وَاســط مرّة أخرى ، وخُيِّل اليه أنه اذا جارى أهلَ الكوفة فى مُيُولهم الشيعية ، يستطيع أن يضمَّها اليه ، وبدأ ذلك بأن ولّى عليها أحدَ إخوة علىّ الرضا ولم يدر أن التوفيق بين عائلتى علىّ والعباس فى مدينــة كهذه متقلبــة الأهواء ، ضربٌ من المستحيل ، فان أهلَها كانوا على اســتعدادٍ ، فى أوّل أمرهم ، للقاء الحسن كقائدٍ من صميم العلويين ، ولكنهم انتقضوا عليــه باعتباره الوالىَ الفارسىَّ من قبَــل المأمون ؛ وعلى ذلك قامت الثوراتُ فى هذه المدينةِ أيضا كما قامت فى غيرها .

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ .

إن التاريخ يحدّثنا أنه بينما كان الغربُ غارقًا فى لجج هــذه الفوضى ، حدث فى مَرْو تغييرٌ جديد ذو شأن : ذلك أن المأمون قد تنبــه فى آخر الأمر ، لحرج الموقف ، وخطورة الحالة ، ومن الغريب أن أوّل من نبّه الخليفةَ الى هــذا الخطر المُحْــدِق به ، وبعرش آبائه وأجداده ، هو علىّ الرِّضا نفسه ، فتبين المأمون أنّ ولايتــه للعهد كانت شؤما على الدولة ، إذ سارت الأمور فيها من سيىء الى أسوأ ، زُهَاءَ عام منذ توليه .

ويحدّثنا التاريخ أن عليًّا الرضا خلا بالخليفة ، وكاشفه أن الفضل وزيره يُكاتِمُه حقيقةَ الحــال ، ويخفى عنه أمور الدولة ، وأن أهل العراق يقولون عنه (أى الخليفة) : إنه مجنون أو مسحور ، وأن الخلافة توشك أن تُفْلِت من يده بين ابراهيم والعلويين ، وأن الحسين

أخا الفضل يعمل فى القضاء على الغرب ، بينما طاهر ذلك القائد الباسل الذى يستطيع أن يقود سفينة الدولة الى شاطئ النجاة منبوذ فى سوريا .

وقد أيّد هذه الحقائق للمأمون جماعة من قوّاد الدولة وزعمائها، بعد أن أمّنهم المأمون من غضب وزيره، ونصحوا اليــه بأن خير علاج لسـلامة الدولة أن يعجل بالعـودة الى بغداد، وقالوا له : إن هذه كانت نصيحة هَرْثَمَةَ ، التى جاء من أجلها منذُ سنتين ليُسِرَّها اليه لو أنه أمهله واستمع له ! .

فأيقن المأمون أخيرا أن استسلامه للفضــل وانقياده له ، كانا سببا لكل ما حدث من الفتن والثورات ، فأمر بانتقال بيت الخلافة الى بغداد،وما كادوا يَحُلُّون بسَرَخْس وهم فى طريقهــم الى بغداد، حتى وجدوا الفضل قتيلا فى حَمَّامه، وكان الفضــل، قبل ذلك قد اضطهد جمــاعةَ القوّاد والزعماء الذين لشفوا أمره عند الخليفة ، فوعد الخليفةُ بمكافأةٍ لمن يأتيــه بالقتلة ، ولمـا قبض عليهــم دافعوا عن أنفسهم بأنهم إنمـا قتلوه بأمر مولاهم الخليفة، ولكن لم يُغْنهم دفاعُهم شـيئا ، وضُربت أعناقهم، وبعث الخليفة برءوسهم الى الحَسَن بن سَهْل مشفوعةً بكتاب تعزيةٍ منه ، ووعده فيه بأنه سيستوزره خلفًا من أخيه ، وبلغ من عطف الخليفة عليــه ، أو من سياسته وحكيم تدبيره، أن عقد زواجَه من ابنتــه بُورَان، التى كانت اذ ذاك فيما قيل طفلة فى الحول العاشر من عمرها، ولم يدخل بها إلا بعد ثمـان سنين بعد ذلك. وفى الوقت نفسه زوّج إحدَى بناته لعلىّ الرِّضَا الذى كان فى ذلك الوقت قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره، كما زوّج بنتا له أخرى من ابن علىّ الرضا،وكذلك ولّى أحدَ إخوة علىّ الرضا إمرةَ الحج . وبهـذه المصاهرة تمتْ مظاهر حسن العـلاقات وتوثيق العُرَا بينــه وبين الحزب العلوىّ . وكانت هذه المصاهرة فى ذاتها تصرفا سـياسيا آية فى الحكمة والسداد .

لم يمض بعد ذلك غير قليل حتى حدث حادث آخر لم يكن متوقعا : ذلك انه فى أثناء سفر الخليفة الى بغداد نزل بطُوس فى فصل الخريف، وهناك مات على الرضا بغتةً،وقيل : إن

موته كان بسبب إفراطه فى أكلة عنب ، فدفنه المأمون بجوار قبر أبيه الرشـيد ، فاهتزّت الدولة لموته الفجائى الذى جاء عقب مقتل الفضل ، وإنه لمن المعقول فى مثل هذه الأحوال أن تنتشر الاشاعات ، وتكثر الأراجيف فى سبب موته . كما أنه من المعقول أيضا فى مثل هـذه الأحوال أن يصعب الوقوف على الحقيقة لتضارب الإشاعات وتناقض الأراجيف واختلاف وجهات النظر ، وقد قيل فيما قيل : إن المأمون دسّ له السمّ فى العنب ، بَيْدَ أن الرعاية التى أظهرها المأمون لعلىّ الرضا ، خصوصا بعد توثيق عرا العلاقات بعد المصاهرة ، قد تدفع هذه الشبهةَ عن الخليفة .

إنا لا نمنعك من أن تفترض من جهة أخرى : أن الفضل وعليا كانا عقبة كَأْداءَ فى سبيل المأمون ، لا يزيلها من سبيله إلا موتُهما ، ويجوز لك أن تذهب فى التدليل على أن المأمون كان يعدّ عليا عقبة فى سبيل إرضاء أهالى بغداد ، إلى أنه فى الوقت الذى كتب فيه كتاب تعزية الى الحسن بن سهل يَنْعَى فيه موتَ علىّ أرسل كتابا آخر الى أهل بغداد يقول لهم فيه : إن عليا الذى أظهروا سخطهم وتبرّمهم من إسناد ولاية العهد له قد قَضَى ، فلا شىء اذًا يمنعهم الآن من العودة الى طاعته وموالاته .

على أنا لا نجاريك فى هذا الافتراض ، لمـا بيّناه لك من ناحية ، ولأن نفسية المأمون وخلقه ، مما ستقف عليه قريبا ، لمـا يجعل هذا الافتراض واهنا ضعيفا .

أما فيما يختص بكتاب المأمون الى البغداديين بشأن موت علىّ الرضا فنقول لك : إنه وإن لم يُحْدِث أثرَه المطلوب تمـاما فى نفوس البغداديين ، لأنهم اجابوا عنه بكتاب جافٍّ نابٍ ، إلا أنه قد خطا به خُطْوةً مّا فى سبيل استمالة أهـل بغداد ، وفى هذا الوقت أخذ أنصار إبراهيم القلائل يَنْفضّون من حوله ، لضعفه وسوء تدبيره فى إدارة الحكم ، وتخلّى عنه جنودُه ، ولم يتقدّموا لمدافعة جنود المأمون ، وسقطت المدائن التى كان فيها مقرّ خلافتـه ، فى أيدى جنود المأمون ، وساءت أحواله ، واضطرب نظام ملكه فى فصل الشتاء . ولمـا دنا قوّاد المأمون وجنوده للعاصمة لمهاجمتها ، خرج اليهم قوّاد المدينة وزعماؤها ، يُظْهِرون ولاءَهم وطاعتهم للمأمون .

وما كادت تنصف السنة حتى استولى قواد المأمون على المدينة ، وحتى اختفى ابراهيم كما اختفى غيره ، ممن كانوا قد خرجوا على المأمون ، وذلك بعد أن عانت ماعانت من ضروب الفوضى واختلال الأمن وسقم الحال مدة سنتين تقريبا ، وبقى مختفيا فيما يقال ثمانى سنين ثم قُبِض عليه متنكرا فى زىّ امرأة ، ثم عفا عنه المأمون وسنذكر ذلك فى موضعه .

٢ — ملخص الحالة العامة فى المدة البغدادية — دخول المأمون بغداد

فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩ م)

لما خمدت ثورة بغداد ، وفرّ ابراهيم بن المهدى مختفيا ، واستقرّ النظام وعاد أهلوها الى الطاعة والولاء لخليفتهم ، تقدّم اليها المأمون مُتَئِّدا فى سيره ، إذ كان يقف فى أثناء سفره بالمدائن التى يمرّ بها كى يعيد اليها الأمن ويُقِرّ فيها النظام ، فأقام فى جُرْجان شهرا كما أقام فى النَّهْرَوان ثمانية أيام ، فخرج لاستقباله أهل بغداد ، يتقدمهم أهل بيته وقواده ووجوه المدينة احتفاء بقدومه اليهم .

وكان المأمون قد كتب فى أثناء سفره ، الى طاهر وهو فى الرقّة أن يوافيه فى النَّهْروان فوافاه بها ، ثم تقدّم بعد ذلك ودخل بغدادَ فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩م) .

وكان لا يزال الشِّعارُ الأخضر ، شعارُ العلويين الذى اتخذه المأمون وهو فى مَرْو ، شعارَ الدولة ، فما زال به كبارُ قواده وأهل بيته حتى طرحه ، واستبدل به الشعارَ الأسود : شعار العباسيين . ويحدّثنا يحيى بن الحسن : أن المأمون لبس الخُضْرة بعد دخوله بغداد تسعة وعشرين يوما ثم مُزِّقت ، ثم خلع الخِلَع السنيّة على من حضر من القوّاد والأشراف ورجالات الدولة ، وعفا عن الفَضْل بن الرَّبيع وزير الأمين ، الذى كان اختفى بعد مقتله ، ثم ظهر مساعدًا لابراهيمَ بن المهدىّ فى ثورته ، وكذلك عفا عن عيسى وزير ابراهيم ، مع انهما كانا رأسي الفتنِ والقلاقلِ التى أثيرت على حكم المأمون ، فكان موقفُ المأمون معهما غاية فى التسامح والكرم .

ولم يكن قد اســتقر الأمر والنظام فى جميع أنحاء الدولة ، بدخول المأمون بغداد ، فقد كان لا يزال نَصْر بن شَبَث خارجا فى سوريا ، وكانت لا تزال مصر مسرحًا للفتن والقلاقل ، وبَابَكَ الخُرَّمى يعظُم خطرُه فى شمال فارس ، والزُّطُّ لا يزالون يَعيثون فى الأرض فسادًا على الخليـج الفارسىّ . وسنقصّ عليـك فى موضـعه ما وصلت اليه هـذه الثورات وكيف أُخمِـــدت .

ثم ولَّى المأمونُ طاهرًا حاكما على بغداد ، وأقام ابنَه عبدَ الله واليا على الرَّقة خلفا من أبيه . غير أن المأمون لم يلبث أن تنكّر لطاهر وأظهر له الجَفْوة . ثم نرى بعـد قليلٍ أن طاهرا ولِّى حاكما على خُرَاسان .

وقد كنّا نكون فى حيرة من أمر هـذا التنكر الفجائى من الخليفــة على رجله العظيم من غير سببٍ ظاهرٍ ، ثم ينتهى ذلك بأن يكون حاكما على خراسان ، لولا أن آبن طيفور يروِى لنا أســبابَ كل هــذا فى قصةٍ مُمْتِعةٍ ملخصها : أن طاهرا دخل على المأمون ذات يوم فى حاجة ، وكان المأمون فيما قيـل فى مجلس شراب ، فأمر له بِرِطْلين من النبيـذ ثم بكى المأمون وتَغَرْغَرتْ عيناه ، فقال له طاهر : يا أميرالمؤمنيـــن لم تبكى لا أبكى الله عينك ! فوالله لقد دانت لك البلاد ، وأذعن لك العباد ، وصرتَ الى المحبة فى كل أمرك ؛ فقال : أبكى لأمرٍ ذِكْرُه ذلّ ، وستره حزن ، ولن يخلو أحد من شَجَنٍ : فتكلمْ بحاجةٍ إن كانت لك . فمـا زال طاهرٌ بعـد ذلك يتخـذ الوسائل الى معرفة السبب حتى وفِّق بالمـال الى إغراء ساقى المأمون أن يتعرّف كُنْهَ ذلك السببِ . فلمـا تغـدّى المأمون ذاتَ يوم قال لساقيه : يا حسين ، اسقِنى ؛ قال . لا والله لا أسقيك أو تقولَ لم بكيتَ حين دخل عليك طاهر ! قال : يا حسيـــن ، وكيف عُنِيت بهذا حتى سألتنى عنه ؟ قال : لغمِّى بذلك ؛ قال : هو أمرٌ إن خرج من رأســك قتلتُك ، قال : ياسيدى ، ومتى أخرجتُ لك سرّا ! قال : إنى ذكرت محمدا أخى ، وما ناله من الذِّلَّة فخنقتْنى العَبْرة ، فاسترحْتُ الى الإفاضة . ولن يفوت طاهرًا منِّى ما يكره . قال : فأخبر حسينٌ طاهرًا بذلك ؛ فركب طاهر الى أحمد

ابن أبى خالد — وهو وزير المأمون — فقال له : إن الثناء منّى ليس برخيص، وإن المعروف عندى ليس بضائع ، فغيّبنى عن عينه . فقال له : سأفعل فبكّرْ علىّ غدا . قال وركب ابن أبى خالد الى المأمون، فلما دخل عليه قال له : ما نمتُ الليلة ؛ فقال له : ولِمَ ويحك ! قال : لأنك ولّيت غَسَّانَ خراسان، وهو ومن معه أَكَلة رأس(١)، فأخاف أن يخرج عليك خارجةٌ من الترك فيصطلمه ؛ قال : لقد فكرتُ فيما فكرتَ فيه، قال : فمن ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين ؛ قال : ويلك يا أحمد ! أهو والله خالع ! قال : أنا الضامن له ؛ قال له : فأنفذْه ؛ قال : فدعا بطاهر من ساعته .

ويظهر أن المأمون، فيما ذكر الرواة، لم يكن مطمئنا، مع ضمان وزيره لطاهر، الى تعيينه حاكما على خراسان ، فان بعض الرواة يقول : انّ المأمون أسرّ الى خصىّ له أمينٍ بمرافقة طاهر، حتى اذا رأى منه خروجا دسّ له السمّ .

ثم لم يلبث طاهر بعد أن تولّى شؤون خراسان، وأدارها بحزم وسَدَادِ رأى، حتى ظهر منه ما كان يخشاه المأمون، من خروجٍ وعصيانٍ، فقد أسقط اسمَ المأمون من خطبة الجمعة، وذكر دعاء مبهما لنصرة الدين ، فأنفذ عينُ المأمون عاملَ البريد فورا بكتابٍ الى المأمون، يخبره فيه بما وقع من طاهر، ثم نرى المأمون يتوقع مجئ كتاب آخر وينتظره بفارغ الصبر فى اليوم التالى لورود الكتاب الأول ، وقد جاءه هذا الكتاب فعلا ينعَى طاهرا الذى وجد ميتا فى فراشه .

ونحن نرى بعد أن ذكرنا ما ذكرنا أنه لم يبق شىء من الغموض فى هذه الناحية من عصر المأمون، وأن تصرّفات المأمون مع طاهرٍ، ثم خروج طاهر عليه ثم موت طاهر بعد ذلك، كلها حوادث واضحة الأسباب معقولة النتائج . ولا نستطيع أن نماشى الأستاذ « ميور » الذى يرى أن على هذه الحوادثِ جميعِها غِشَاء من الغموض كثيفا .

---

(١) يريد أنهم قليل عددهم يشبعهم رأس واحد .

ثم رأى المأمون بعد موت طاهر أن يولّى مكانه ابنه طلحة، وأن يستبقى ابنَه عبد الله واليا على الجانب الغـربىّ من الخلافة، ليقمع ما فيـه من ثورات، ويسكن ما به من اضطراب . ثم أرسل وزيرَه مع طلحة ليقوّى دعائم سـلطانه فى ولايته، فشخص الوزير الى ما وراء النهر، وقام بحملةٍ موفقـةٍ على بعض العصاة، ثم قفل راجعا الى بغـداد مزوّدا — فيما يقول الرواة — بهديةٍ نفيسةٍ له من طلحة مقدارها ثلاثة آلاف ألف درهم ولكاتبه بأخرى مقدارها خمسمائة ألف درهم .

أما طاهر الذى توفى فى فراشه، وربما كان الذى يعلم سرّ وفاته قبل سواه هو المأمون وبطانته، فقد قدّمنا لك شيئا فى كلمتنا عن النزاع بين الأخوين عن عظيم خطره، وحسن بلائه وخبرته بالحـروب، ولا يقـلّ خطره فى تدبير الحكم وشـؤون السياسـة عن خطره فى الحرب، وكان مع ذلك مشـغوفا بالعـلم والأدب، مشجعا لأربابهما، حاثّا على تعلمهـما . وليس أدلّ على تبريزه فى العـلم والأدب، وخبرته بشؤون السياسـة، وبصره بتصرف الأيام، من عهده الذى كتبه الى ابنه عبد الله . ولسنا نرى ما نقدّم به اليك هذا العهد، خيرا من وصف المأمون له حين بلغه، وتقديره له، واحتفائه به، واستنساخه، ثم ارساله الى عماله فى الولايات . قال ابن طَيْفور : لمـا عهد طاهر بن الحسـين الى عبد الله ابنه هذا العهد، تنازعه الناس، وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره، حتى بلغ المأمون فدعا به، وقرئ عليـه وقال : ما بقّى أبو الطيب شيئا من أمر الدين والدنيا والتـدبير والرأى والسياسةِ وإصـلاحِ الملك والرعية وحفظِ البيعة وطاعةِ الخلفاء وتقويم الخلافة إلا أحكمه وأوصى به وتقدّم فيه، وأمر أن يُكتب بذلك الى جميع العمال فى نواحى الأعمال .

وكانت كتابة هذا العهد من طاهر لابنه عبـد الله حين اختار المأمون عبد الله لولاية مصر ولمحاربة نصر بن شَبَث لمـا رآه فيه من حزم وفطنةٍ وكفايةٍ وحسن بلاء . وكان عهد أبيـه اليه قانونا يطبّقه على نفسـه أحزم تطبيق، وكان لا يُورد شـيئا فى شأن من شؤونه أو يُصْدره إلا على منهجه وفى حدود إرشاداته .

ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التى لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره، وقد أثبتناه فى باب المنثور من الكتاب الثالث فى المجلد الثالث فراجعه .

٣ — ثورة نصر بن شبث

أما نصر بن شَبَث ، الذى وجَّه عبد الله بن طاهر لمحاربته بعد أن وجَّه اليه أبوه، فقد كان ممن خرجوا حين اضطرب نظام الدولة، وكثرت الأراجيف، ونشط أعداء المأمون خاصة والعباسيين عامة لبقاء المأمون فى مرو بعيدا عن عاصمة الملك وحاضرة الخلافة .

وكان من الممكن أن يكون مصير ثورة نصر مصيرَ غيرها من الثورات، التى خَمَدَت بسرعة، لولا أن طاهرا لم يَجِد فى محاربته . وقد ذُكر أنه قال للحسن بن سهل حينما ندبه للخروج الى محاربة نصر بن شبث : حاربتُ خليفة، وسُقْت الخلافة الى خليفة، وأُومر بمثل هذا ! وإنما كان ينبغى أن توجه لهذا قائدا من قوادى ! وذكر بعض المؤرخين أن طاهرا فرّ كالمنهزم أمام نصر بعد معارك حامية بين جنديهما ولكنه حرص بعد ذلك على ما بقى فى يده من البلاد أن يغير نصر عليها .

ويظهر أن ما يقوله بعض المؤرّخين من أن فتور طاهر فى محاربة نصر بن شبث ، يرجع الى الصدمة التى صدمه بها آل سهل : حين حرموه من ثمار فتوحه فى العراق، له حظ كبير من الحق؛ فاننا لا نسيغ عجز طاهر عن مناهدة نصر، واخضاعه، مع ما هو معروف عنه من الدهاء، والبصر بالحرب، وحسن تعبئته للجيوش، ووضع أدقّ الخُطَط لحملاتها، ومع أن وراءه الدولة تُمِدّه بما يحتاج اليه من جند وسلاح ومال .

ومهما يكن من شىء فقد كَثُف أنصار نصر وعظُم خطره ، حتى ذهب اليه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له : قد وَتَرْت بنى العباس وقتلت رجالهم، فلو بايعت لخليفة لكان ذلك أقوى لأمرك ! فقال : من أىّ الناس؟ فقالوا : تبايع لبعض آل علىّ بن أبى طالب ،

فقـال : أُبايع بعض أولاد السّوْداوات فيقول إنه خلقنى ورزقنى ! قالوا : فتبايع لبعض بنى أميـة ؛ قال : أولئك قوم قد أدْبر أمرُهم ، والمُدْبر لا يُقْبِل أبدا ، ولو سـلّم علىّ رجل مدبر لأعدانى إدباره ، وإنمـا هواى فى بنى العباس ، وإنمـا حاربتهم محاماة عن العرب ، لأنهم يقدّمون عليهم العجم . فتأمّل قوله هذا طويلا ، فهو يُميط لنا اللثام عن حقائق يجب أن نقف عليها .

يروى لنـا التاريخ أن عبـد الله بن طاهر ، الذى نَهـد لمحاربة نصر بن شَبَث كتب الى المأمون يعلمه أنه حصرَه ، وضيَّق عليـه ، وقتل رؤساء من معه ، وأنه قد عاذ بالأمان وطلبَـه ، فأمره أن يكتب له كتاب أمان ؛ فكتب اليـه أمانا نسخته : «أما بعد ، فان الإعذار بالحق حجـةُ الله المقرون بهـا النصر ، والاحتجاج بالعدل دعوة الله الموصـول بها العز . ولا يزال المُعْـذِر بالحق ، المحتجّ بالعدل ، فى استفتاح أبواب التأييـد ، واستدعاء أسـباب التمكين ، حتى يفتـح الله وهو خير الفاتحين ، ويمكّن وهو خير الممكّنين . ولستَ تعـدو أن تكون فيما لهجت به ، أحدَ ثلاثة : طالبَ دين ، أو ملتمسَ دنيـا ، أو متهوّرا يطلب الغَلَبة ظلما ، فان كنت للدين تسعى بمـا تصنع فأوضح ذلك لأمير المؤمنين يغتنمْ قبولَه إن كان حقا ، فلعمرى ما همتُه الكبرى ولا غايته القصوى إلا الميل مع الحق حيث مال ، والزوال مع العدل حيث زال . وان كنتَ للدنيا تقصد ، فأعلمْ أمير المؤمنين غايتك فيها ، والأمرَ الذى تستحقها به ، فان استحققتها وأمكنه ذلك فعله بك ؛ فلعمرى ما يستجيز منع خَلْق ما يسـتحقه وإن عظم . وإن كنت متهوّرا فسيكفى الله أميرَ المؤمنين مؤنتك ، ويعجلُ ذلك كما عجل كفايتَه مؤنَ قومٍ سلكوا مثـل طريقك ، كانوا أقوى يدا ، وأكثف جندا ، وأكثر جمعا وعددا ونصرا منك ، فيما أصارهم اليه من مَصَارِع الخاسرين ، وأنزل بهـم من جوائح الظالمين . وأمير المؤمنين يختم كتابَه بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صـلى الله عليه وسلم ، وضمانه لك فى دينه وذمتـه الصفح عن سوالف جرائمك ، ومتقدّمات جرائرك ، وإنزالُك ما تسـتأهل من منازل العـز والرفعة ، إن أنبْتَ وراجعت إن شاء الله ، والسلام» .

وقد ذهب عبد الله بن طاهر الى وجهه فى محاربة نصر، ولبث فى مناهدته، حتى اضطره الى التسليم نحو خمس سنين، وفى أثناء هذه المدة سعى المأمون الى إخماد الثورة من طريق الصلح، فندب جعفر بن محمد العامرىّ، ليؤدّى رسالةً منه الى نصر، يطلب منه فيها ترك الحرب والجُنُوحَ الى السلم .

وقد كاد يتمّ الصلح بين الفريقين، وتُحقن الدماء، ويذهب عن الناس فى تلك النواحى ما أصابهم من فزعٍ وهَلَع، لولا خُنْزُوانةٌ(١) فى رأس نصر قابلتها أخرى، فيما يقول الرواة، فى رأس المأمون، حالتا دون هذه الغاية السامية : ذلك بأن نصرا قبل ما اقترحه المأمون، لكنه شرط ألا يطأ بساطَه . فلما بلغ المأمون هذا الشرط قال : لا أجيبه والله الى هذا أبدا ولو أفضيتُ الى بيع قميصى حتى يطأ بساطى ! ثم كتب اليه المأمون بعد ذلك كتابا هذه نسخته :

أما بعد، فانك يا نصر بن شبث قد عرفتَ الطاعة وعزها وبرد ظلّها وطيبَ مرتعها، وما فى خلافها من الندم والخَسَار. وان طالت مدة الله بك، فإنه إنما يُمْلِى لمن يلتمس مظاهرةَ الحجة عليه، لتقع عِبَرُه بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيت إذكارك وتبصيرك، لِمَا رجوتُ أن يكون لِمَا أكتب به اليك موقعٌ منك، فان الصدق صدق والباطل باطل، وإنما القول بمَخَارجه وبأهله الذين يُعْنَوْن به، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك فى مالك ودينك ونفسك، ولا أحرصُ على استنقاذك والانتياش(٢) لك، مِنْ خطائك منى، فبأى أوّلٍ أو آخرٍ أو سِطَةٍ أو إمْرَةٍ إقدامُك يا نصر على أمير المؤمنين، تأخذ أمواله، وتتولّى دونه ما ولّاه الله، وتريد أن تبيتَ آمنا أو مطمئنا أو وادعا أو ساكنا أو هادئا، فوعالم السرّ والجهر، لئن لم تكن للطاعة مُرَاجعا، وبها خانعا، لتَسْتَوْبِلَنّ وَخَمَ العاقبة، ثم لأبْدَأَنّ بك قبل كلّ عمل، فإن قرون الشيطان اذا لم تقطع،

(١) الخنزوانة : الكبر .
(٢) استنقاذك من الهلكة .

كانت فى الأرض فتنة وفسادا كبيرا، ولأطأنّ بمن معى من أنصار الدولة كواهلَ رِعَاع أصحـابك ، ومن تأشّب(١) اليـك من أدانى البـلدان وأقاصيها ، وطغامها(٢) وأوْباشها ، ومَنْ انضوى الى حَوْزتك من خُرّاب(٣) النـاس، ومَنْ لنظـه بلدهُ ونفتْـه عشيرته لسوء موضعه فيهم، وقد أَعْذر من أَنْذر، والسلام .

ثم أخذ عبـد الله يجِدّ فى محاربته وحصره حتى ضيق عليـه ، واضـطره الى طلب الأمان، وقد احتفى بنصر، وهو ذاهب الى بغـداد خاضعا للخليفة، احتفاء عظيما، بَيْدَ أنّ جماعة ممن كانوا ناقمين على المأمون، لم يَرُقهم أن ينتهى الخلاف بينه و بين تائر قوى ، فأرادوا أن يكدّروا صفاء السرور فدبروا مؤامرة، وهى أن يقطعوا جسر الزوارق ، عند اقتراب نصر بموكبه الحافل، فقبض عليهم؛ ولأمر مّا كان المأمون، على غير عادته، قاسيا فى عقابهم. فقد جاء بزعيمهم ابن عائشة، فيما قال الرواة، وهو من بنى العباس، ووضعه على باب داره، فى أشعة الشمس المحرقة ثلاثة أيام ، ثم أمر بضربه بالسِّياط ثم أمر بضرب عنقه مع كثير ممن كانوا معه .

نقول لأمرٍ مّا كان المأمون قاسيا فى عقابهم، لأن الرجل الذى يصل به عفوه وحلمه الى أن يعفو عن ابراهيم بن المهدى والفضل بن الربيع وغيرهما ، من أصحاب الكبائر وممن كادوا له حقا، وسعوا فى ضَياع ملكه، وٱستلاب عرشـه، لا بد أن يكون الدافع له الى القسوة فى عقاب هؤلاء الأشخاص حاجةٌ فى نفسه عمِّيت علينا . ونحن نعترف بأن المصادر التى بين أيدينا لم تفسر لنا تفسيرا مقنعا ، السرَّ فى هذا الاشْتِطاط وهذه المبالغة فى العقوبة من المأمون الوديع الحليم .

على أن هذه الحادثة تحتاج الى تحقيق دقيق ولم تُتِحْ لنا المصادر الحاضرة القيامَ بتعرّف وجه الحق فيها . ولا يستبعد البتة أن يكون المأمون منها براءً . وليت أعضاء المجمع العلمى العربى وغيرهم من رجال العلم والتاريخ والأدب يعنون بتمحيص مثل هـذه النقط المبهمة فى تاريخ أزهى عصورنا الاسلامية .

(١) أى اختلط بك وانضم اليك . (٢) الطغام : أوغاد الناس . (٣) جمع خارب وهو اللص، وخصه الأصمعى بسارق الابل .

٤ — الـزط

أما الزُّطّ، فهم المعروفون بالنَّورَة[1]، وقد قال ابن خلدون عنهم : إنهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة، وعاثوا فيها، وأفسدوا البلاد .

أما نحن فلا نستطيع من ناحيتنا أن نسلك هؤلاء القوم فى سلك أصحاب الثورات، أو الخارجين على الخليفة، لنِحلةٍ دينية، أو مذهبٍ سياسىّ، وانما هم طائفة من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسى، قد وُجِدوا به حين اضطراب الأمن فى أطراف الدولة، وضعف سلطان الحكومة، وانصراف القائمين بتدبير الشؤون العامة، الى أمر الفتنة القائمة بين الأمين والمأمون، التى انتهزها الزط وأمثال الزط فرصة للسلب والنهب والعَيْث فى الأرض فسادا، فتجمعوا واستولوا على طريق البصرة، فهم بقُرصانِ البحر وقطّاع الطرق أشبه منهم بالثائرين وأصحاب المبادئ ! .

ويظهر أنهم، كما يقول الأستاذ المرحوم محمد الخضرى بك، كانوا اذا أحرجهم الجند، تفرّقوا فى تلك الفَيَافِى، فاننا نرى المأمون يكلّف غير مرة أكثر من قائد أمرَ القضاء عليهم، ثم نراهم لا يزالون يعيثون فى الأرض فسادا، حتى السنة الأولى من عهد المعتصم، الذى كلف أحد قواده : عُجَيفَ بنَ عنْبَسة القضاءَ عليهم، فاهتم عُجيف بحربهم، وضيق عليهم طريق البر والبحر، وحصرهم من كل وجه، ثم حاربهم وأسر منهم نحو خمسمائة رجل، وقتل منهم نحو ثلاثمائة، وقطع رءوس الأسرى وبعث بالرءوس جميعا الى المعتصم، وجدّ فى حربهم حتى اضطرهم الى التسليم، فاذا عِدّتُهم سبعة وعشرون ألف شخص بين رجل وامرأة وصبىّ، وكان من هذا العدد اثنا عشر ألف مقاتل، ثم حملهم فى السفن

---

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : «إن النور قبيلة من القبائل الأسيوية كالقاجار الذين تسميهم الغجر والتاتار أو التتر، وهم يعرفون بالشلخت فى النمسا وألمانيا، وفى بلاد الانكليز اسمهم جبسون، ويسميهم الترك باسم (قبط) وفريق منهم يسمى سنجانه وهم سكان تراقيا، وفى مصر يسمون تارة غجرا وتارة حلبا» .

الى بغداد، فمرّوا على المعتصم بأبواقهم وهيئتهم الحربية، ثم نُقِلوا آخر الامر الى قرية تسمّى عين زربة[1] .

وقد ذكر ابن الاثير فى حوادث سـنة ٢٤١ هـ فى عهـد المتوكل أن الروم أغارت على عين زربة هذه، فأخذت من كان فيها أسيرا من الزط مع نسائهم وذراريهم وذويهم .

٥ — ثورة مصـــر

أما مصر، فقد كانت مسرحا للقلاقل والفتن، وكان رأسُ الفتنة وزعيمها عبيـد الله ابن السَّرِىّ بن الحكم الذى عظم خطره باشتغال عبـد الله بن طاهر بمحاربة نصر بن شبث وإخضاعه، وممـا زاد فى اضطراب النظام فى مصر قدومُ جمـاعةٍ من أَفَّاقِى الأندلس الى الاسـكندرية ، يحدّثنا عنهـم الطبرى بقوله : حدّثنى غير واحدٍ من أهل مصر ان مراكبَ أقبلتْ من بحر الروم، من قِبلَ الأندلس، فيها جماعة كبيرة، أيام شُغل الناس قبلَهم بفتنة الجَرَوِىّ وابن السَّرِىّ، حتى أرْسَوْا مراكبَهم بالاسكندرية، ورئيسهم يومئذ يُدْعى أبا حَفْص، فلم يزالوا بها مقيمين، حتى قدم عبد الله مصر .

ويحـدّثنا عن الفتنة التى كانت بمصر بقوله : قال لى يونس بن عبد الأعلى : قَدِم علينا من قِبَل المشرق فتًى حَدَثٌ — يعنى عبدَ الله بن طاهر — والدنيا عندنا مفتونة، قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالبٌ ، والناس منهم فى بلاء، فأَصْلح الدنيا، وأمَّن البرىء ، وأخاف السقيم، واستوثقتْ له الرعيةُ بالطاعة .

أما ما كان من أمر عبد الله بن طاهر فى مصر، فان التاريخ يحدّثنا أنه لمـا انتهى أمر نصر بن شَبَث، كما قـدّمنا، كتب المأمون الى عبـد الله يأمره بالتوجّه الى مصر لإخمـاد ما فيها من فتنة، فذهب اليها، وجادّ الثائرين القتالَ، حتى اضطرّهم جميعا الى طلب الأمان، فأجابهم اليه .

---

(١) ضـبطها ياقوت بفتح الزاى وسكون الراء وباء موحدة وألف مقصورة وقال إنهـا بلد بالثغر من نواحى المصيصة بناها الرشيد سنة ١٨٠ هـ وندب اليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم وأقطعهم إياها .

وأما الأندلسيون الذين حضرت جماعة كبيرة منهم الى الإسكندرية ، فقد طلبوا الأمان ، على أن يرتحلوا عنها الى بعض أطراف الروم ، فرحّلوا الى جزيرة إقريطش (كريت) فاستوطنوها وأقاموا بها .

وأما ما كان من ابن السرىّ ، فانه طلب الأمانَ الى عبد الله وذلك بعد قتال عنيف ، وانهزامه شرّ هزيمة .

ولما أخمدَتِ الفتنة فى مصر ، وبلغ المأمونَ الخبرُ ، كتب الى عبد الله يهنئه ، وجعل فى أسفل كتابه أبياتا من الشعر ، إن ثبت صدورها من المأمون حقا ، ولم تكن من وضع القصّاص والرواة ، فانها تعتبر آية فى كرم أخلاق المأمون . وقد ذكرناها فى علاقة المأمون مع عمّاله .

وقد كتب اليه أحمدُ بن يوسف وزير المأمون يهنّئه بهذا الفوز كتابا بليغ اللفظ ، رشيق الأسلوب ، هذه نسخته : بلغنى ، أعزّ الله الأمير ، ما فتح الله عليك ، وخروجُ ابنِ السّرىّ اليك . فالحمد لله الناصر لدينه ، المعزّ لدولة خليفته على عباده ، المُذلّ لمن عَنَدَ(١) عنه وعن حقه ، ورَغِب عن طاعته ، ونسأل الله أن يُظاهِر له النِعم ، ويَفتح له بلدانَ الشّرك ، والحمد لله على ما وَلِيَك مذ ظَعَنْتَ لوجهك ، فإنا ومَنْ قبلَنا نتذاكر سيرتَك فى حربك وسِلْمك ، ونُكثِر التعجُّب لما وُفّقتَ له من الشدّة واللّيان فى مواضعهما ، ولا نعلم سائس جُندٍ ورعيّةٍ عَدَل بينهم عَدْلَك ، ولا عفا بعد القُدرة عمن آسَفه(٢) وأضْغنه عفوَك ، ولَقلّما رأينا ابنَ شَرَف لم يُلقِ بيده مُتّكلًا على ما قدّمت له أُبوّتُه ، ومَنْ أُوتى حظًّا وكفايةً وسلطانًا وولايةً ، لم يُخْلِدْ الى ما عفا له حتى يُخِلّ بمُسَاماةِ ما أمامه ، ثم لا نعلم سائسا استحق النُّجْح لحسن السيرة ، وكفِّ مَعَرّة الأتباع استحقاقك ، وما يستجيز أحد ممن قِبَلَنا أن يقدّم عليك أحدًا يَهْوِى عند الحاقّة والنازلة المُعْضِلة ، فَلْيَهْنِكَ مِنّةُ الله ومزيدُه ، ويُسَوِّغْك

(١) عند عن الشىء : مال عنه وعدل .

(٢) آسفه : أغضبه .

اللهُ هذه النعمة التى حواها لك ، بالمحافظة على مابه تَمّتْ لك ، من التمسّك بحبل إمامك ، ومولاك ومولى جميع المسلمين، ومَلّاك وإيّانا العيش ببقائه، وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعنـد من قِبَلَنا مكرّمًا مقـدّما معظّما، وقد زادك الله فى أعين الخاصـة والعامة جلالة وبَجَالة ، فأصبحوا يَرْجُونك لأنفسهم ويُعِدُّونك لأحداثهم ونوائبهم، وأرجو أن يوفقك الله لَمَحَابّه، كما وفق لك صُنْعَه وتوفيقـه ، فقـد أحسنْتَ جِوَار النعمة، فلم تُطْغِـك ولم تَزِدْكَ إلا تذلّلا وتواضعا، فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك، والسلام .

وقد خرج المأمون الى مصر فى ١٦ الحجة سـنة ٢١٦ هجرية ، أثر شخوصه الى دمشق للمرة الثانيـة . وكان خروجه الى مصر ، فيما يقول الرواة ، لإخماد ما قام فيها من فِتَنٍ واضطراباتٍ، وذلك أن أهالى الوجه البحرى خرجوا ومعهم أقباطُ البـلاد على عيسى بن منصور عاملِ مصر، لسوء سِيرته فيهم، ولقُبح صَنيعه معهم .

ويحـدّثنا التاريخ أن عيسى هـذا قد بَذَل ما فى مقـدوره لإخماد الفتنة والقضاء على الثورة، فلم يحالفه الظفَر، وأخرجه الثوار أقبح مُخْرَج من البلاد، فقَدِم القائدُ التركىُّ المعروف بالأفشين وعمِل على قَمْع الفِتنة وإخمـاد الثورة، وقتل مَقْتلةً ذريعةً من الأهلين، فسكنت الفتنةُ الى حين .

ثم عادت الفتنـة ثانيـة واندلع لهيبها، واستدعت خطورتُها قدومَ المأمون الى مصر، فجاء اليها، ونظر فى شَكاةِ الأهلين، وعمِـل على إنصافهم، وسَخِط على عيسى بن منصور، ونَسَب اليه والى سيّىء أعماله كلَّ ما حَدَث فى طول البلاد وعَرْضها من فتن وثورات .

ويظهر أن الثـورة المصرية لم تُخْمَـدْ تمـاما ، وأنها تطلّبت من المأمون ، الى جانب ما أظهره من رغبـةٍ فى إحقاق الحق وإجراء العدل، شيئا من الحزم واستعمال القوة ، فجالدَ الثائرينَ القتالَ ، حتى أذعنوا أخيرا : ويقول المؤرخون : إنه لَبِثَ فى مصر أربعين يوما أو يزيد ، إذ قَدِمها فى الخامس من محرم سنة ٢١٧ هـ وبقى بها الى الثامن عشر من صفر .

ويظهر أنه قضى هذه المدّة، الى جانب اشتغاله بحرب أهلها، بالتنقّل بين العاصمة وبعض الأعمال مثل (سِنْجَار وحُلوان وغيرهما) .

ومن أعمـاله فى مصر تعمير مقياس النيـل، وبعض إصلاحات أخرى بالجزيرة تجاه الفسطاط . وعاد المأمون أخيرا الى دِمشق بعـد أن شهد المصريين وحربهم وعدمَ احتمالهم ظلمَ الحكام والوُلاة .

٦ — بابك الخـرّمى

يخبرنا المؤرّخون أن بابك الخرمىّ، قد ظهر من كورة فى شمال بلاد فارس تُسمى «البذ»، وقد كان خروجه للدعوة الى مذهبه الإباحىّ سنة ٢٠١ هـ، وكان المأمون لا يزال فى «مرو» قبـل أن ينتقل الى عاصمة ملكه بغداد . وقد امتدت فتنة بابك عنيفةً، طِوَالَ عهد المأمون، وصدرًا من عهد المعتصم .

وقال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعانىّ المروزىّ، فى كتاب الانساب[1] "الخرّمىّ هـذه النسبة الى طائفـة من الباطنية، يقال لهم : الخرمدينيـة، قوم يدينون بمـا يريدون ويشتهون ، وإنمـا لقبوا بذلك لاباحتهـم المحرّمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعـل مايتلذذون به، فلمـا شابهوا فى هـذه الاباحة المَزْدَكيّة من المجوس ، الذين خرجوا فى أيام قُبَاذ وأباحوا النسـاء كلهنّ وأباحوا سائر المحـرمات ، الى أن قتلهـم أنو شِروان بن قباذ، قيل لهم بهذه المشابهة خرمدينية كما قيل لمزدكية " .

وقبل أن نخوض فى تفصـيل حوادث هـذا الرجل ، وما بذله المأمون ، ثم المعتصم فى قتاله ، ثم ما كان من مصيره بعد ذلك على يد الأفشين قائد المعتصم التركى سنة ٢٢١ هـ — قبـل كل هـذا ، نحب أن نورد لك ما ذكره ابن النديم فى فهرسـته عن مذهب الخرّمية البابكية وما يتعلق به ، لتكون على بصيرة من مذهب الرجل، وما كان يدعو اليـه من نِحْلة وبِدْعة .

(١) جاء فى القاموس وشرحه : « خرمة » كسكرة قرية بفارس منها بابك الخرّمىّ الطاغية الذى كاد أن يستولى على الممالك زمن المعتصم . ثم قال : وتخرّم الرجل دان بدين الخرّمية أصحاب التناسخ والحلول والاباحة .

قال محمد بن إسحاق : « الخرّمية صنفان : الخرمية الأوّلون ، ويُسمون المُحَمِّرة ، وهم منتشرون بنواحى الجبـال فيما بين أذْرَبيجان وأرمينية ، وبلاد الديلم ، وهَمَـذان ، ودِينَوَر ، وفيما بين أصفهان و بلاد الأهواز . وهؤلاء أهل مجوس فى الأصل ثم حدث مذهبهم . وهم ممن يعرف باللقّطة ، وصاحبهم مزدك القديم ، أمرهم بتناول اللذات ، والانعكاف على بلوغ الشهوات ، والأكل والشرب ، والمواساة والاختلاط ، وترك الاستبداد بعضهم على بعض ، ولهم مشاركةٌ فى الحُرَمِ والأهل لايمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه . ومع هــذه الحال يرون أفعال الخير وترك القتـل و إدخال الآلام على النفوس . ولهم مـذهب فى الضِّـيافات ليس هو لأحدٍ من الأمم : اذا أضافوا الانسان لم يمنعوه من شىء يلتمسه كائنا ما كان . وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذى ظهر فى أيام قباذ بن فيروز وقتله أنُوشِرْوان وقتل أصحابه . وخبره مشهور معروف . وقد استقصى البلخى أخبار الخرّميـة ، ومذاهبهم ، وأفعالهم ، فى شربهم ولذاتهم وعباداتهم ، فى كتاب "عيون المسائل والجوابات" ولا حاجة بنا الى ذكر ما قد سبقنا اليه غيرنا » .

«فأما الخرّمية البابكية ، فان صاحبهم بابك الخُرّمى . وكان يقول لمن اسـتغواه : إنه إله . وأحدث فى مذاهب الخرّميـة القتل والغصب والحروب والمثلة ، ولم يكن الخرّمية يعرفون ذلك .

ثم ذكر صاحب الفهرست بعد ذلك نشأته وما وقع له فى بدء أمره حتى صار إمام هذه النحلة التى تنسب اليه نقلا عن واقد بن عمرو التميمى الذى عمل أخبار بابك ، فقال : وكان أبوه رجلا من أهل المدائن دهّانا ، نزع الى ثغر أذربيجان ، فسكن قرية تدعى «بلال أباد» من رُستاق (ميمند) ، وكان يحمل دهنه فى وعاء على ظهره و يطوف فى قرى الرستاق ، فهوِى امرأة عوراء ، وهى أم بابك ، وكان يفجُر بها برهةً من دهره ، فبينما هى وهو مُنتبذان عن القرية ، متوحّدان فى غَيْضة ، ومعهم شراب يعتكفان عليه ، إذ خرج من القرية نسوة يستقين المـاء من عين فى الغيضة ، فسمعن صوتًا نَبَطيا يُتَرنّم به فقصـدن اليه ، فهجمن عليهما ، فهرب

عبد الله وأخذن بشعر أم بابك، وجئن بها الى القرية وفضحنها فيها . قال واقد : ثم إن ذلك الدهّان رَغِب الى أبيها، فزوّجه منها فأولدها "بابكا" . ثم خرج فى بعض سفَراته الى جبل سيلان واعترضه من استقفاه وجرحه فقتله، فمات بعد مُدَيْدَة .وأقبلت أم بابك تُرضِع للناس بأجرة، الى أن صار لبابك عشر سنين، فيقال: أنها خرجت فى يوم من الأيام تلتمس بابكا، وكان يرعى بقرًا لقوم، فوجدته تحت شجرة قائلًا وهو عُرْيان، وإنها رأت تحت كل شعرة من صدره ورأسه دما؛ فانتبه من نومه، فاستوى قائما وحال مارأت من الدم فلم تجده قالت : فعلمت أنه سيكون لابنى نبأٌ جليل .

«قال واقد : وكان أيضا بابك مع الشبل بن المنقى الأزدى برستاق سراة، يعمل فى سياسة دوابّه، وتعلّم ضرب الطُّنْبور من غلمانه، ثم صار الى تبريز من عمل أذربيجان، فاشتغل مع محمد بن الرواد الأزدى نحو سنتين، ثم رجع الى أمه، وله ثمان عشرة سنة، فأقام عندها . قال واقد بن عمرو : وكان بجبل البذ وما يليه من جباله رجلان من العلوج، متحزمين ولهما جِدّةٌ وثروة، وكان متشاجرين فى التملك على من بجبال البذ من الخرمية ليتوحد أحدهما بالرياسة، يقال لأحدهما « جاويدان بن سهرك »، والآخر غلبت عليه الكنية يعرف « بأبى عمران » وكانت تقوم بينهما الحرب فى الصيف، وتحول بينهما الثلوج فى الشتاء لانسداد العقاب . فإن جاويدان، وهو أستاذ بابك، خرج من مدينته بألف شاة، يريد بها مدينة زنجان من مدائن ثغور قزوين، فدخلها وباع غنمه وانصرف الى جبل البذ، فأدركه الثلج والليل برستاق ميمند، فعاج الى قرية "بلال أباذ"، فسأل جريرها إنزاله، فمضى به، بالاستخفاف منه بجاويدان، فأنزله على أم بابك وما تستبيت من ضَنْك وعُدْم، فقامت الى نار فأججتها، ولم تقدر على غيرها، وقام بابك الى غلمانه ودوابّه يخدمهم وأسقى لهم الماء، وبعث به جاويدان، فابتاع له طعاما وشرابا وعَلَفا واتاه به، وخاطبه وناطقه، فوجده، على رداءة حاله وتعقُّد لسانه بالأعجمية، فهما، ورآه خبيثا شهما، فقال لأمه : أيتها المرأة! أنا رجل من جبل البذ، ولى به حالٌ ويَسار، وأنا محتاج

الى آبنـك هذا، فادفعيه الىّ لأمضى به معى، فأوكّله بضـياعى وأموالى ، وأبعث بأجرته اليك فى كل شهر خمســين درهما ؛ فقالت له : انك لشبيه بالخير، وان آثار السـعة عليك ظاهرة، وقـد سكن قلبى اليك، فأنهضه معـك اذا نهضت . ثم إن أبا عمران نهض من جبـله الى جاويدان لحاربه فهُزم، فقتل جاويدان أبا عمران، ورجع الى جبله و به طعنةٌ أخافتـه ، فأقام فى منزله ثلاثة أيام ثم مات . وكانت امرأة جاويدان تتعشق بابكا، وكان يفجُر بها ، فلما مات جاويدان، قالت له : إنك جَلْدٌ شهم ! وقد مات ! ولم أرفع بذلك صوتى الى أحد من أصحابه ، فتهيأ لغد، فانى جامعتُهم اليك، ومُعلمتهم أن جاويدان قال : انى أريد أن أموت فى هـذه الليـلة ، وإن روحى تخرُج من بدنى وتدخل فى بدن بابك وتشترك مع روحه ، وانه سيبلغ بنفسه وبكم أمرا لم يبلُغْه أحد ولا يبلغه بعده أحد، وانه يملك الأرض، ويقتُل الجبـابرة، ويردّ المزدكية، ويَعزّ به ذليلُكم، ويرتفع به وضـيعكم ؛ فطمع بابك فيما قالت له ، واستبشر به وتهيأ له . فلمـا أصـبحت ، تجمّع اليهـا جيش جاويدان، فقالوا : كيف لم يدعُ بنا ويُوصِ الينا! قالت : ما منعه من ذلك إلا أنكم كنتم متفرقين فى منازلكم من القرى، وأنه إن بعث وجمعكم انتشر خبره، فلم يأمن عليـكم شِرّةَ العرب، فعَهِدَ الىّ بما أنا أؤدّيه اليكم ان قَبِلتموه وعملتم به ؛ فقالوا لها : قولى ما عَهِد اليك، فانه لم تكن منا مخالفة لأمره أيام حياته، وليس منا مخالفةٌ له بعد موته ؛ قالت : قال لى : إنى أموت فى ليلتى هذه ، وان روحى تخرُج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى، وقد رأيت أن أملّكه على أصحابى ، فاذا متُّ فاعلميهم ذلك ، وإنه لا دينَ لمن خالفنى فيه واختار لنفسه خلاف اختيارى ؛ قالوا : قد قَبِلْنَا عهدَه اليك فى هذا الغلام! فدعت ببقرة فأمرت بقتلها وسلخها وبَسْط جلدها ، وصيّرت على الجلد طستًا مملوءًا خمرا وكسّرت فيـه خُبزا، فصـيّرته حوالى الطست، ثم دعت برجل رجل فقالت : طَأ الجلد برجلك، وخذ كسرةً واغمسها فى الخمر وكُلْها، وقل : آمنتُ بك يا رَوحَ بابك كما آمنتُ بروح جاويدان، ثم خذ بيد بابك فكفِّرْ عليها وقبِّلها، ففعلوا ذلك الى وقت ماتهيأ لها فيه طعام، ثم أحضرتهم

الطعام والشراب ، وأقعدته على فراشها وقعدت معه ظاهرةً لهم ، فلما شربوا ثلاثاً ثلاثاً ، أخذتْ طاقةَ ريحان ، فدفعتها الى بابك ، فتناولها من يدها ، وذلك تزويجهم ، فنهضوا وكفّروا لها رضًا بالتزويج ، والمسلمون غريبهم ومواليهم .

* * *

وبعد ، فانا نستطيع أن نقول ، مستندين الى ما ذكره ابن النديم وغيره ، عن نشأة بابك ومذهبه وتعاليمه : إن الباعث الذى دفعه الى الخروج ، غير البواعث التى دفعت نصر ابن شَبَث فى الشأم ، وابراهيم بن المهدى فى بغداد ، ومحمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا فى الكوفة ، وغيرهم : ممن كانوا منقادين بفكرة سياسية أو عامل جنسى ، وانما كان خارجا على النُّظُم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى ذلك العصر ، وكذلك كانت وجهة نظر بغداد فى قتاله ومطاردته .

أجل ! لم تكن الغاية فى نظر بغداد من قتاله ، إخضاعَه لسلطان الخلافة ، حتى اذا أتيح لها إخضاعه رضيت عنه وكفّت القتالَ دونه ، وانما كانت الغاية التى ترمى إليها القضاء على مذهبه وتعاليمه الضارّة بنُظُم الحياة والاجتماع .

وربما جاز لنا أن نقول : إن موقفه من الخلافة الاسلامية فى ذلك العصر أشبه شىء بموقف البلاشفة من الأمم المتحضرة فى عصرنا الحاضر .

وهاك ما فعله الخليفة المأمون مع بابك والبابكيين ، بعد ما عاثوا فى الأرض فسادا وأخافوا السبل وأثاروا الاضطراب : بعث المأمونُ لمحاربتهم ، بعد أن انتقل الى بغداد ، يحيىٰ بن معاذ ، فكانت بينهما وقعة ، لم يُتَح الفوزُ فيها لأحدهما على الآخر . ثم اختار المأمون قائدا آخر هو عيسىٰ بن محمد ، فولّاه أرمينيةَ وأذربيجان ومحاربةَ بابك ، فنُكِب وفُشِل . ثم وجّه اليه صَدَقة بن على المعروف بزريق ، ونَدَب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الاسكافى ، فأسره بابك . ثم بعث اليه محمد بن حُمَيد الطوسى ، فقتله بابك سنة ٢١٤ ﻫ بهشتادسر وفض عسكره ، وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه .

وهكذا كان أمر بابك : كلما وُجّهت اليه حملةٌ هزمها ! لمكانه الحصين ، وقوته الكبيرة ، وشدّة تأثيره فى قلوب أتباعه وأنصاره . وأخيرا انصرف عنه المأمون لانشغاله بمناوأة الروم ، حتى اذا شعر بدنو منيّته كتب فى وصيته الى المعتصم بشأن بابك يقول : «والخرّمية فأغْزِهم ذَا حزامةٍ وصرامة وجَلَدٍ ، وا كْنُفْه بالأموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرجالة ، فان طالت مدّتهم ، فتجرّد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعْمَل فى ذلك مقدّمَ النية فيه ، راجيا ثواب الله عليه » .

وقد عظم خطر بابك ، وكثر الداخلون فى مذهبه ، فى أوّل عهد المعتصم (سنة ٢١٨ ه) . وما زال به المعتصم يجرّد اليه الحملات تلو الحملات ، حتى انتهى أمره فى سنة ٢٢١ ه بأسره وقتله « بسرّمن رأى » ، هو ورهطا من أتباعه ، على يد قائد المعتصم التركىّ العظيم حيدر بن كاوس الأشروسنى المعروف بالأفشين .

* * *

٧ — مذاهب ونحل

ويحسن بنا أن نشير هنا الى أن هذا العصر من العصور الإسلامية ، قد كثر فيه الاختلاط بين أمم الشرق والغرب ، فظهرت فى العالم الاسلامى مقالات دينية وفلسفية كثيرة غريبة ، أشار اليها مؤرّخو الآراء والمذاهب ، تجد طرفا منها فى فهرست ابن النديم ، وطرفا فى كتب « الملل والنحل » ، وطرفا فى كتاب الأستاذ «برون» الذى وضعه عن « تاريخ الفرس الأدبى » ففيه شىء عن المانية(١) وغيرها . وقد وقف أبو العلاء المعرّى عند هذه الآراء والمذاهب فى « رسالة الغفران » وقفة ممتعة .

(١) المانية واتباعها يقال لهم المانوية هى النحلة التى أتى بها مانى من وجود إلهين إله الخير و إله الشر ، وكان وجوده قبل الاسلام بمدّة طويلة ، وقد اعتبر زنديقا وقتل وسلخ وحشى جلده وعلق على أحد أبواب نيسابور و يعرف بباب مانى ، ولكن نحلته لم تكن تعدم أنصارا بعد موته ، فكانت تظهر و يتبعها أناس فى فترات مختلفة :

وكم لظلام الليل عندك من يد * تخبّر أنّ المانوية تكذب
وقاك ردى الأعداء تسرى إليهم * وزارك فيه ذو الدلال المحجب

على أنا لا نحب أن نَعْرض لهذه المقالات بشرح أو تفصيل ، لأنا نُحس إحساسا صادقا ، وربما كنا فيه على حق ، أن الكثير من هذه الآراء والمذاهب لا يزال غامضا ، لقلة النصوص وعدم غَنَاء المصادر وكفايتها . ونظنّ أن الاحتياط فى مثل هذا الموقف أسلم وأبقى . وكل ما نأمله هنا ونرجوه حقا ، أن يتجرّد لمثل هذا البحث الممتع النافع ، بعض الذين يُعْنَون بتاريخ الآراء والمذاهب الفلسفية والدينية فى الاسلام .

*
* *

٨ — افتراضات

أمّا وقد انتهينا من كلمتنا الموجزة عن السياسة الداخلية فى عصر المأمون ، فقد حق علينا أن نتساءل : لماذا مكث المأمون شطرًا طويلا من سنى حكمه فى خراسان دون بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية ؟

أمّا أن نزعم لك أنا سنجيبك إجابة دقيقة مقنعة ، فهذا ما لا نقبله لك ولا لأنفسنا . لأن المصادر التى بين أيدينا لم تكشف لنا القناع عن وجه الصواب فى ذلك .

إذن فسنقدم لك آراءً لنا فى هذا الصدد ، يجدر بنا أن نعتبرها بمثابة افتراضات لا أكثر ولا أقل .

نفترض أن الفضل بن سهل وجماعة الفضل بن سهل ، وحَوْلُهم حولُهم وسلطانُهم سلطانهم ، آثروا بقاء المأمون فى "مرو" عاصمة خراسان حيث تجبى أموال الدولة اليه ، ليكون نصيبُ البقاع الفارسية والشيعة الفارسية من هذه الأموال أوفر .

ونفترض أن المأمون وجماعته كانوا يحسون إحساسا ، ربما كان صادقًا ، أن كبار رجالات الدولة من العرب القاطنين بغداد ، لم يكن هواهم مع دولته الفارسية الطابَع والميول ، وأنهم كانوا لذلك يخشون النزوحَ الى بغداد قبل لَمّ شعثهم وتقوية سلطانهم .

ونفترض أنهم آثروا القرب من الولايات التى تمدّهم بجندها ورجالها ، كما آثروا أن يكونوا فى أوساطهم الفارسية التى من مصلحتها نصرة المأمون وتوطيد دعائم ملكه ، والعمل على خذلان مناوئيه .

هذه افتراضات رأينا أن نقيدها لك لتتأمل فيها . فربما كان بعضها سائغا معقولا ؛ على أن تكون حذِرا كل الحــذر ، فلا تتورّط فى اعتبار كل فرض سائغ معقول ، لازمَ الوقوع فى التاريخ . فكثيرا ما يقع فى التاريخ غير المعقول من الحوادث !

***

(ج) السياســـة الخارجيـــة :

نعتقد أن الوقت لم يأْن بعــدُ ، لدرس السياســة الخارجية فى أيام المأمون وغيره من خلفاء المسلمين ، دراسة علمية محققة . ذلك لأن كل ما نعرف من أمر هذه السياسة إنمـا هو الروايات العربية التى تناقلها المؤرخون ، متأثرين بأشياء كثيرة . فقد كان الكثيرون من هؤلاء الرواة يجهلون لغات الأمم الأجنبية التى كانت العلاقات متصلة بينها وبين المسلمين ، كما كانوا متأثرين بالحرص على رفع شأن الدولة الاسلامية ، والتنويه بمجدها وسلطانها ؛ فاضطرّها هذا كله الى الغلوّ حينا ، والى التقصير حينا آخر .

ولم يظفر البحث بعدُ بنصوص تاريخية واضحة معاصرة ، كتبت فى غير اللغة العربية . ومع أن الباحثين فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الروم) جادّون فى التنقيب على النصوص والآثار التى تجلو تاريخ هــذه الدولة فى القرون الوسطى فهم لم يصلوا بعدُ ، الى شىء ذى غَنَاء فيما يَمَسّ علاقتها بالدول الاسلامية . فأما الأمم الشرقيــة الأُخَر التى كانت على اتصال بالمسلمين ، فلم تترك لنـا شـيئا ؛ أو لم نظفــرْ من آثارها التاريخيــة بشىء ذى قيمة . وإذًا فنحن مضطرون الى أن نعتمد اعتمادا مؤقّتا ، مِلؤه الاحتياط والتحفظ ، على ما كتبه العـــرب .

ونحن نعلم أن السياسة الخارجية فى عصر المأمون كانت تنقسم الى قسمين متمايزين : الأوّل سياسته مع دولٍ إسلامية مستقلة عن الخلافة . والثـانى سياسته مع دولٍ أجنبية غير إسلامية .

وليس هناك شكٌّ فى أن سياسة المأمون، مع الدول الاسلامية المستقلة، كانت واضحةً بيِّنة الأسلوب ؛ فقد اعتقدت الخلافة العباسية دائما أن المسلمين جميعا يجب أن يُذْعِنوا لسلطانها ؛ وإذاً فلم تعترف، فى وقتٍ من الأوقات ، باستقلال الأمويين فى الأندلس، ولا الأدارسة فى المغرب الأقصى، وانما اعتبرتهم بُغاةً، وعجزت مع ذلك عن إخضاعهم لسلطانها ، فعلا أو اسما ، فاضطرت الى أن تتّقيهم من ناحيةٍ، وتؤلّب عليهم من ناحيةٍ أخرى .

على ذلك نستطيع أن نفهم تشجيعها دولة بنى الأغلب فى إفريقية وعطفها عليها ؛ فقد كانت هذه الدولة تستمتع بشىءٍ من الاستقلال غيرِ قليل ، وتظفر بحماية الخلافة، لأنها كانت بمثابة الحرس الأمامىّ الذى يردّ عن الخلافة غاراتِ هؤلاء البُغاة، ويحول بينهم وبين التوسع على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

نستطيع أن نفهم هذا ، وأن نفهم أيضا ما نلمحه لمحا فى القصص من اتصال علاقات ودّية بين بغداد وملوك الفرنج الذين كانوا يناوئون بنى أمية فى الأندلس .

أما القسم الثانى من السّياسة الخارجية ، فينقسم أيضا الى قسمين : أحدهما سياسة الخلافة مع أهل الشرق الذين لم يخضعوا لسلطان المسلمين، كالترك والديلم . وهذه السياسة واضحة أيضا ، على قلة النصوص، فقد كانت سياسة توسع وبسطٍ للسلطان، ولكن فى احتياطٍ وتحفظٍ ومصانعة . وكانت بغداد تعتبر كل هذه الناحية من الشرق منطقة نفوذٍ، تسلك فى استغلالها واتقائها عند الحاجة ، طريقا كلها حكمة وفطنة . فبينا نراها تهاجم فتفتح وتأسر، نراها مرة أخرى موادعة محالِفة مستخدمة . وهى تستفيد فى الحالين . ولكنك تعلم حق العلم ما أنتجته هذه السياسة ، آخر الأمر ، حين ضعف الخلفاء، من تسلط أهل هذه المنطقة على أمور الدولة، وعبثهم بعظمة الخلافة .

والقسم الثانى هو سياسة الخلافة مع قياصرة « قسطنطينية » . وهذا القسم هو الذى نستطيع أن نقول ، فى غير تردّدٍ، انه احتاج حقا الى جهود الخلفاء وكفاياتهم . فقد كانت

العلاقة بين «قسطنطينية» و«دمشق» أيام الأمويين وبينها وبين «بغداد» أيام العباسيين ، شديدة الاضطراب والتعقّد، لاتكاد تستقر على حال ، وانما هى حربٌ حيناً وسلمٌ حينا آخر .

ومهما يكن من شىء، فقد كانت القاعدة الأساسية لهذه السياســة ، أن الحرب هى الحال الطبيعية بين الدولتين ، فأما السلم فحال عارضة ؛ ولذلك كانت تسمى دائمـا هدنةً . وربما كان من المعقول أن نقول : إن أصحاب «قسطنطينية» و « بغداد » كانوا يضطرون اليها اضطرارا .

غزو المأمون للروم

قدّمنا لك فى الكلام عن بابك الخرّمىّ أن المأمون أرسل اليه آخر حملةٍ ، بقيادة محمد ابن حميد الطوسىّ ســنة ٢١٢ ﻫ ، وأن هــذه الحملة باءت بالهزيمة والفشل ، كما باء غيرها ، ممـا سبقها من حملات ، وأن المأمون انصرف عن بابك مؤقتا ، لاشتغاله بغزو الروم الذين يعلل بعضهم سبب تحفّز المأمون الى غزوهم ، بعد أن ظل السلم المسلح بينه وبينهم زهاء ست عشرة سنة ، بما تأكده المأمون من مشايعتهم لبابك وإمدادهم إياه بالمعونة .

ويقول الأســتاذ « ميور » ، فى بيان سبب هذه المهادنة الطويلة بين الخلافة والروم ، وعدم انتهاز المسلمين فرصــة الثورة ، التى نشبت فى بلاد الروم بين « توماس » و«ميخائيل » لغزو آسيا الصغرى : " إنه لا شك أن تريّث العرب عن اقتحام بلاد الروم ، فى ذلك الوقت ، يرجع الى أن بِطْـريق أنطاكية ببـلاد سوريا ، كان قد تُوِّج توماس امبراطورا ، ولو نجح فى تأميره وسلطانه ، لكفى العربَ مؤونةَ القتال ، ولكان توماس هــذا تابعا للخليفة المأمون " .

على أن المأمون قد شخَص ســنة ٢١٥ ﻫ الى بلاد الروم ليغزوها سالكا اليهـا طريق المَوْصِـل ، ثم مَنْبِج ، ثم دابق ، ثم أنطاكية ، ثم المصيصــة ، ومنها خرج الى طَرَسوس ، وهى الثغر الاســلامىّ ، ومن طرسوس دخل بلاد الروم ، فى منتصف جمــادى الأولى (يوليو ســنة ٨٣٠ م) ، ففتح وغنم كثيرا من الحصون ، ثم شخص الى الشأم . وورد عليه

فى دمشق الخبر بأن ملك الروم قتل قوماً من اهل طرسوس والمصيصة، فأعاد الكرة الى بلاد الروم، وكان الظفَر والتوفيق حليفَه فى هذه الكَرّة أيضا .

وفى المدّة التى قضاها المأمون بين مصر ودمشق، بدأت المناوشات بين عمّاله وملك الروم ، ثم اشتدّت حتى آضطُرّ الى أن يشخَص الى بلاد الروم للمرّة الثالثة، وهى المرّة التى تُوُفّى فيها .

وفيما هو سائر إليها ، معتزما تحقيق خطةٍ رسمها لنفسه ، إذ يقول : أُوجّه الى العرب، فآتى بهم من البوادى ، ثم أُنزلهم كل مدينةٍ آفتتحها ، حتى أضرب الى القسطنطينية، إذ جاءه رسول ملك الروم يحمل اليه كتاب مولاه، يطلب فيه الصلح والمهادنة . وهذه نسخته ، فيما يقول الرواة العرب : "أما بعد، فإن اجتماع المختلفين على حظّهما، أولى بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما . ولستَ حَرِيًّا أن تدعَ لِحَظٍّ يصل الى غيرك حظًّا تحوزه الى نفسك ، وفى علمك كاف عن إخبارك . وقد كنتُ كتبتُ اليك، داعيًا الى المسالمة، راغبًا فى فضيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ونكون كلّ واحدٍ لكل واحد وليا وحزبًا، مع اتّصال المَرَافق، والفسْح فى المتاجر، وفكّ المستأسر، وأمن الطرقِ والبَيْضة. فان أبيتَ، فلا أدِبّ لك فى الخَمَر[1]، ولا أزخرف لك فى القول، فإنى لخائضٌ اليك غمارَها، آخذٌ عليك أَسْدادَها ، شانٌّ خيلَها ورجالَها . وان أفعلْ فبعد أن قدّمتُ المعذرةَ، وأقمتُ بينى وبينك عَلَم الحجة . والسلام ".

أما ردّ المأمون عليه فيقول المؤرّخون العرب إنّ نسخته كانت : "أما بعد، فقد بلغنى كتابك فيما سألتَ من الهدنة، ودعوتَ اليه من الموادعة، وخَلَطتَ فيه من اللين والشدّة، مما استعطفتَ به من شرح المتاجر، واتصالِ المرافق، وفكِّ الأسارى، ورفعِ القتل والقتال. فلولا ما رجعتُ اليه من إعمال التؤدة والأخذ بالحظ فى تقليب الفكرة ، وألّا أعتقد

(١) الخمر : (بالتحريك) ما وارى الشخص من شجر وغيره ، يقال : دب له فى الخمر اذا تخفى له ليختله .

الرأىَ فى مستقبلة إلا فى استـصلاح ما أوثر فى مُعْتَقبه ، لجعلتُ جواب كتابك خيلًا تحمل رجالًا من أهل البأس والنجدة والبصيرة، ينازعونكم عن ثُكلكم ، ويتقربون الى الله بدمائكم ، ويستـقلّون فى ذات الله ما نالهم من ألم شَوْكتكم ، ثم أُوصل اليهـم من الأمداد ، وأُبلغ لهم كافيًا من العُدّة والعَتَاد ؛ هم أظمأ الى موارد المنايا منكم الى السلامة من مخوف معرّتهـم عليكم ، موعدُهم إحدى الحُسْنَيَيْن : عاجلُ غَلَبَة ، أو كريم مُنْقلَب . غير أنى رأيت أن أتقدّم اليك بالموعظة التى يُثبت الله بهـا عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانيـة ، والشريعة الحنيفيّة ؛ فان أبيت ، ففـدْية توجب ذِمّة ، وتثبت نَظِرة . وان تركت ذلك ، ففى يقين المعاينـة لنعوتنا ما يغنى عن الإبلاغ فى القول والإغراق فى الصفة ، والسـلام على من اتبع الهدى » .

* * *

(د) كلمة ختامية عن وفاة المأمون ورجالاته ومعاصريه ووصيته :

لقد عاجلتِ المنيةُ المأمون ، دون تحقيق خطتِه ، بموضع يقال له « البـدَندون » بين « لؤلؤة » و « طَرَسُوس » . وكانت وفاته لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨ هـ وسنه ثمان وأربعون سنة وأربعة أشهر .

أما عن كبار رجالات المأمون ووُلاته ، فيقول اليعقوبىّ : وكان الغالب عليه فى خلافته ذو الرياستيـن ثم جماعة : منهم الحسن بن سهل ، وأحمـد بن أبى خالد ، وأحمـد بن يوسف . وكان على شُرْطته العباس بن المسيِّب بن زهير ، ثم عزله وولّى طاهرَ بن الحسين ، ثم عبدَ الله بن طاهر الذى استخلف اسحاق بن ابراهيم ببغداد ، فوجه اسحـاق بأخيه خليفة له على شرطتـه . وكان على حَرَسـه شَبِيب بن حُميد بن قَحْطَبـة ، ثم عزله وولّاه قُومَس ، واستعمل مكانه هَرْثمة بن أَعْين ، ثم عبـد الواحد بن سلامة الطحلاوى ، قرابة هرثمة ، ثم علىّ بن هشام ، ثم قتله وولّى عُجَيف بن عَنْبسة . وكانت حِجَابتُه الى أحمد ابن هشام ، وعلىّ بن صالح صاحب المصلَّى . قال : وخلّف من الولد الذكور ستة عشر

ذكرا ، وهم محمد ، واسماعيل ، وعلىّ ، والحسن ، وابراهيم ، وموسى ، وهارون ، وعيسى ، واحمد ، والعباس ، والفضل ، والحسين ، ويعقوب ، وجعفر ، ومحمد الأكبر ، وهو ابن معللة وتوفى فى حياته ، ومحمد الأصغر ، وعبيد الله ، أمهما أم عيسى بنت موسى الهادىّ .

أما صاحب « نهاية الأرب » ، فقد ذكر فى الجزء العشرين من كتابه : أن حُجّابه هم عبد الحميد بن شَبَث ، ثم محمد وعلى ابنا صالح مولى المنصور ، ثم اسماعيل بن محمد بن صالح . وذكر أن قُضاته هم : محمد بن عمر الواقدىّ ، ثم محمد بن عبد الرحمن المخزومىّ ، ثم بشر ابن الوليد . وكان نقش خاتمه ، فيما ذكره المسعودىّ فى التنبيه والإشراف : « الله معه عبد الله به نؤمن » .

⁂

وقد يكون من المفيد لنا ، من وجهة نظر التاريخ المصرىّ ، أن نقف على ولاة مصر وقضاتها فى عهد المأمون ، وذلك ييسره لنا كتابان مُمْتِعان وافيان فى هذا الموضوع ، وهما كتاب « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى الأتابكى وكتاب « الولاة والقضاة » الذين ولوا أمر مصر وقضاءها للكِنْدىّ . ونحن ذاكرون لك هؤلاء الولاة والقضاة على وجه الاختصار :

أما الولاة فهم : مالك بن دلهم ، وحاتم بن هرثمة ، وجابر بن الأشعث ، وعبّاد بن محمد ، والمطلب بن عبد الله ، والعباس بن موسى ، والسرىّ بن الحكم ، وسليمان بن غالب ، ومحمد ابن السرىّ ، وعبيد الله بن السرىّ ، وعبد الله بن طاهر ، وعيسى بن يزيد ، وعمير بن الوليد ، وعبدويه بن جبلة .

ولقد حدّثنا المؤرّخون فى أيامه عما سمى فى مصر بالبدع المأمونية الأربع : فالبدعة الأولى منها هى لبس الخُضْرة وتقريبُ العلويّة وإبعادُ بنى العباس . والثانية القول بخلق القرآن . والثالثة ما كتبه المأمون الى نائبه ببغداد أن يأخذ الجند بالتكبير اذا صلّوا الجمعة وبعد

الصلوات الخمس . ثم أباح المأمون فى هذه السنة وهى سنة ٢١٥ ﻫ «المُتْعة» فقال الناس: هــذه بدعة رابعــة ، وبعد ولاية ابن جبلة هــذا ، ولايةُ عيسى بن منصور ، ونصر بن عبد الله ، وشهرته كيدر ، والمظفر بن كيدر .

أما قضاة مصر فى عهــده فهم : عبد الرحمن العمرىّ ، وهاشم بن أبى بكر البكرىّ ، وابراهيم بن البكاء ، ولهيعة بن عيسى الحضرمىّ ، والفضــل بن غانم ، وابراهيم بن اسحاق العارىّ ، وعطاف بن غزوان ، وجعله عبد الله بن طاهر على المظالم ، وبعدئذ ولى القضاء من قبله عيسى بن المنكدر ، وأخيرا هارون بن عبد الله .

أمّا معاصروه ، فقد كان يعاصره فى الأندلس الحَكَم بن هشام ، ثالث أمراء بنى أمية ، ثم ابنه عبد الرحمن . وفى عهدهما سمعنا رأى الأندلس ، فى القول بخلق القرآن ، فقد قال أبو خلف المعافِرىّ :

لَا والذى رَفَــع السما * ءَ بلا عمــاد للنظـــرْ
ما قال خلقٌ فى القُرَا * نِ بخلقه الا كَفَر
لكن كلام منزلٌ * من عند خلّاق البشر

وكان يعاصر المأمون فى بلاد المغرب الأقصى : ادريس بن ادريس بن عبدالله ، ثم ابنه محمد بن ادريس . ويعاصره فى إفريقيا من بنى الأغلب : عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب ، ثم ابنه زيادة الله بن ابراهيم ، فاتح صِقِلّية . ويعاصره فى فرنسا « شارلمان » صديق أبيه ثم «لويز الأوّل» الملقب باللين . ويعاصره فى القسطنطينية « ليون الأرمنى » و « ميخائيل » الملقب بالتمتام ، ثم ابنه «توفيل» .

أما صفته فهى ، كما ذكرها صاحب «نهاية الأرب» ، « كان المأمون ربعة ، أبيض ، طويل اللحية ، رقيقها قد وخطه الشيب . وقيل : كان أسمر ، تعلوه صفرة ، أَجْنَى ، أَعْين ، ضيق الجبهة ، بخدّه خال أسود» وكذلك وصفه الطبرىّ وغيره .

ولما حضرته الوفاة أوصى لأخيه المعتصم من بعده . وعلل بعضهم أن الوصية كانت للمعتصم دون ابنه العباس بأن الثانى كان متغيبا عنه ساعة وفاته .

ولقد أثبتنا لك فى باب المنثور من الكتاب الثالث فى مجلدنا الثالث وصيته التى أوصى بها حين مماته ، لقيمتها التاريخية ، ولأنها توضح بعض آرائه ، وتفصح عن السرّ فى بعض تصرّفاته ، فراجعها ثمة .

الفصل الخامس

الوزارة والأعمال الحكومية فى عصر المأمون

تاريخ الوزارات المأمونية

توطئة عن تاريخ الوزارات المأمونية — وزارتا الفضل بن سهل وأخيه الحسن — وزارة أحمد بن أبى خالد — وزارة أحمـد بن يوسف — وزارة يحيى بن أكثم — وزارات أخرى — الجنـد والقوّاد فى عصر المأمون — القضاة وديوان المظالم .

(أ) توطئـــــة :

لســنا نريد أن نتكلم عن تاريخ الوزارة ، ومكانتها فى العصر العباسىّ ، فقــد تعرّض لدرسها كثيرون ، نذكر منهم على سبيل التمثيل الأستاذ «برون» فى كتابه تاريخ الفرس الأدبى ، والمؤرّخ ابن طَبَاطِبَا فى الآداب السلطانية ، وانما قُصَارَى ما نرمى اليه ، كتابة فذلكة موجزة عن حياة البارزين من وزراء المأمون ، حتى تقف بذلك على صورة كاملةٍ قدرَ المستطاع ، عن العصر الذى تصدّرنا للكتابة عنه ، ومكانة رجالاته البارزين فيه ، فنقول :

١ و ٢ — وزارتا الفضل بن سهل وأخيه الحسن

يحدّثنا التاريخ أن أوّل وزراءِ المأمون الفضلُ بن سَهْل ، وهو من رجال جعفر البرمكى ، فلا غرو اذا نزع فى ســياسة الملك منزعَ البرامكة ، ولا غرو اذا ائتمّ بهــم وتلا تِلْوهم فى تدبير أمور الســلطان ، ولا غرو اذا كانت دولة بنى سهل غرّة فى جبين الدهر ، ودرّة على مَفْرِق العصر ، لأنها كانت ، كما يقول الفَخْرى ، مختصرَ الدولة البرمكية .

أما طريقة اتصاله بالمأمون ، فان المظانّ التاريخية والأدبية تحدّثنا أن جعفرا البرمكىّ لمــا عزم على استخدامه للمأمون ، وصفه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد ، فقال له الرشــيد : أوصـلْه الىّ ، فلمــا وصل اليه أدركتْه حيرة فسكت ، فنظر الرشيد الى يحيى نظرَ مُنْكِرٍ

لاختياره ، فقال ابن سهل : يا أمير المؤمنين ، إن من أعدل الشواهد على فَرَاهة المملوك أن يملك قلبَه هيبةُ سيده ، فقال الرشيد : لئن كنت سكتَّ لتصوغ هـذا الكلام ، فلقد أحسنت ، وان كان بديهةً إنه لأحسن وأحسن . ثم لم يسأله بعـد ذلك عن شيء إلّا أجابه بما يصدِّق وصفَ يحيى له .

ويروى لنـا أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ ، وهو كما تعلم ، شيخ من مَشْيَخة الأدب والبيان فى عصرنا المأمونى" ، فى كتابه «الحيوان» : أن جعفرا الضبى" ، وصف الفضل بن سهل بقوله : أيها الأمير ، أسكَتنى عن وصفك تَسَاوِى أفعالك فى السؤدُد ، وحيَّرنى فيهـا كثرةُ عددها ، فليس الى ذكر جميعها سـبيل ، وإن أردتُ وصفَ واحدة ، اعترضتْ أختُها إذ لم تكن الأولى أحقَّ بالذكر ، ولستُ أصفها إلا باظهار العجز عن وصفها .

ويقول آبن طباطبا : إن الفضل كان سخيا كريما ، يجارى البرامكة فى جوده ، شـديد العقوبة ، سهل الانعطاف ، حليما بليغا ، عالمـا بآداب الملوك ، بصـيرا ، جيـد الحَدْس ، محصّلا للأموال ، وكان يقال له الوزير الأمير .

وكان الفضـل بن سهل يتشـيّع كمذهب غالب الفـرس ، وكانت له إصابة حسنة ، بعـلم النجوم كما أسلفنا لك القول فى كلمتنا عن المأمون فى صِـبَاه ، ومما يؤيد ذلك ما رواه أبو الحسـين علىّ بن أحمـد السلامى فى تاريخ ولاة خراسان : أن المأمون لمـا عزم على إرسال طاهر بن الحسين الى محاربة أخيه محمد الأمين ، نظر الفضلُ بن سهل فى مسألته ، فوجد الدليـل فى وسط السماء ، وكان ذا يمينين ، فأخبر المأمون بأن طاهرا يظفَـر بالأمين ويلقَّب بذى اليمينين ، فتعجب المأمون من إصابة الفضل ولقَّب طاهرا بذلك .

وكان الفضـل بن سهل شبيها بأساتذته البرامكة فى رَفْد الشـعراء ، وتشجيع الشعر ، وكان منتجَع القُصّاد منهـم قبل وزارته ، فان كتب الأدب تحدّثنا أن مسـلم بن الوليد ، قال فيه حين ذاك ، وكان من ندمائه وسمّاره :

وقائـلٍ ليستْ له همـةٌ * كلا ولكن ليس لى مالُ
وهمّة المُقْـــترِ أمْنيَّـــةٌ * عَوْنٌ على الدهر وأثقالُ
لا جِدَةٌ يَنْهَض عزمى بها * والنـاس سُؤَّال وبُخّالُ
فاصبر على الدهر الى دولة * يرفع فيهـا حالك الحـالُ

ويقول لنا الفخرى : إن الفضـل لمـا علتْ حالُه وتولّى الوزارة ، قصـده مسلم بن الوليد ، فلما رآه سُرّ به ، وقال له : هذه الدولة التى يرفع فيها حالك الحال ، وأمر له بثلاثين ألف درهم ، وولّاه بريد جُرْجان ، فاستفاد مِنْ ثَمّ مالًا طائلا .

ويحدّثنـا ابن خِلّكان : أن الفضل بن سهل ، قال يوما لثُمَـامةَ بن الأَشْرَس المتكلم المعروف : ما أدرى ما أصنع بطلّاب الحاجات ، فقـد كثُروا علىّ وأضجرونى ! فقال له : زُلْ عن موضـعك ، وعلىّ ألّا يَلْقاكَ أحدٌ منهـم ! فقال : صـدقتَ ! وانتصب لقضاء أشغالهم ، وكان قد مرض بخراسان وأَشْفَى على التّلَف ، فلما أصاب العافية ، جلس للناس فدخلوا عليـه وهنئوه بالسلامة وتصرّفوا فى الكلام ، فلمـا فرغوا من كلامهم أقبـل على الناس وقال : إن فى العِلَل لنعمًا لا ينبغى للعقلاء أن يجهلوها : تمحيص الذنوب ، والتعرّض لثـواب الصـبر ، والإيقاظ من الغفلة ، والإذكار بالنعمة فى حال الصحة ، واسـتدعاء التوبة ، والحضّ على الصدقة .

وقد مدحه جماعة من أعيان الشعراء ، وفيه يقول ابراهيم بن عباس الصّولىّ :

لِلفَضْـل بن سهل يدٌ * تقاصرَ عنها المَثَـــلْ
فبـاطنُهـا للغـــنى * وسَـطْوتُها للأجلْ
وباطنُهـا للنَّـــدَى * وظـاهرُها للقُبَـلْ

ويقول ابن خلكان : إن ابن الرومىّ أخذ من قول الصّولى هـذا مِدحتَـه التى صاغها فى الوزير القاسم بن عُبَيد الله التى فيها :

أصبحتُ بين خَصَاصة وتجمُّل * والحرّ بينهما يموت هزيلا
فامدُدْ الىَّ يدًا تعوّد بطنُها * بذلَ النَّوال وظهرُها التقبيلا

وفيه يقول آخر :

لعَمْرُك ما الأشراف فى كل بلدةٍ * وان عَظُموا للفضلِ إلا صنائعُ
ترى عظماءَ الناس للفضل خُشَّعا * اذا ما بدا والفضلُ للهِ خاشع .
تواضع لما زاده اللهُ رفعةً * وكلُّ جليلٍ عنده متواضعُ

وحكى الجهشيارى : أن الفضل بن سهل أصيب بابن له يقال له العباس فجزع عليه أشد الجزع ، فدخل عليه ابراهيم بن موسى بن جعفر العلوىّ وأنشده :

خيرٌ من العباسِ أجرُك بعدَه * والله خيرٌ منكَ للعبّاسِ

وقال فيه مسلم بن الوليد من قصيدة له :

لو نطق الناسُ أو أنْبَوْا بعلمهمُ * ونبَّأتْ عن معالى دهرِك الكتبُ
لم يبلغوا منكَ أدنى ما يمتّ به * اذا تفاخرتِ الأملاكُ وانتسبُوا

فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة بألف درهم .

وانه ليلوح لنا من قراءتنا الطويلة لكتب الأدب والتاريخ أن جماعة الشعراء الذين كانوا يمتدحون البرامكةَ — وما أكثرهم — هم بأنفسهم الذين امتدحوا آلَ سهل ، واتخذوا منهم برامكة آخرين . كما يلوح لنا أن لمقولاتهم وقصائدهم فى امتداحهم واظهار قوتهم واستفحالِ سلطانهم ، بعض الأثر فى نكبتهم ، لأنه غير معقول ألبتةَ أن يمرّ على المأمون قول مثل قول القائل :

أقمتَ خلافةً وأزلتَ أخرى * جليلٌ ما أقمتَ وما أزلتَا

من غير أن يترك فى نفسه بعض ما كانت تتركه على البرامكة ، أمثال تلك الأقوال فى نفس الرشيد ، ومهما قيل عن حلم المأمون وعفوه واعتدال مزاجه وسعة صدره فان النفس الانسانية هى هى .

وقد مرّ بك فيما أجملنـاه لك من الحوادث التى وقعت فى حكم المأمون، أنه جعـل فى سنة ٢٠١ هـ علىّ بن موسى العلوى ولىّ عهد المسلمين والخليفة من بعـده، وسمّاه الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه أمر جنده بطرح السواد ولبس الخُضرة وبينّا ما كان لذلك من ثورات وفتن لم تهـدأ إلا بعـد أن عاد الى مقرّ ملكه، وأعلم آلَه وأنصارَه بوفاة الرضا، وعاد الى لبس السواد وهو شعار العباسيين .

ونريد الآن أن نشير هنا الى ما كان من الفضل بن سهل فيما نحن فى صـدده ، ونعتمد على ما رواه الطـبرىّ ، قال : إن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمـد العلوىّ أخبر المأمون بمـا فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قُتل أخوه ، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار، وإن أهل بيته والناس قد نَقَمُوا عليه أشياء ، وإنهم يقولون : إنه مسحور مجنون ، وإنهـم لمـا رأوا ذلك بايعوا لعمّه ابراهيم بن المهـدى بالخلافة ، فقال المأمون : انهـم لم يبايعوا له بالخلافة، وانمـا صيّروه أميرا يقوم بأمرهم، على ما أخبر به الفضـل ، فأعلمه أن الفضـل قد كذَبه وغشّـه ، وأن الحرب قائمة بين ابراهيم والحسن ابن سهل، وأن الناس يَنْقِمون عليـك مكانه ومكانَ أخيه، ومكانى ومكانَ بَيْعتك لى من بعدك، فقال : ومن يعلم هذا من أهل عسكرى ؟ فقال له : يحيى بن مُعَاذ، وعبد العزيز ابن عِمْران، وعدّة من وجوه أهل العسكر، فقال له : أدخلْهم علىّ حتى أسائلَهم عما ذكرت ، فأدخلهم عليه، وهم يحيى بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، وموسى، وعلى بن أبى سعيد، وهو ابن أخت الفضـل، وخَلَف المصرىّ، فسألهم عما أخبره، فأبوا أن يخبروه حتى يجعل لهم الأمانَ من الفضـل بن سهل، ألّا يَعْرِض لهم، فضمن ذلك لهم ، وكتب لكل رجل منهم كتابا بخطّه ودفعـه اليهم ، فأخبروه بمـا فيه الناس من الفتن، وبيّنوا ذلك له ، وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقوّاده عليه فى أشياء كثيرة، وبمـا مَوّه عليه الفضلُ، من امر هَرْثَمة، وأن هرثمة انما جاء لينصحه وليبيّن له ما يعمل عليه، وانه ان لم يتدارك أمرَه خرجت الخلافةُ منه ومن أهل بيته، وان الفضـل دسّ الى هرثمة من قتله ، وأنه

أراد نصحه ، وأن طاهر بن الحسين قد أبلى فى طاعته ما أبلى ، وافتتح ما افتتح ، وقاد اليه الخلافة مَزْمومةً حتى اذا وطّأ الأمر أُخرج من ذلك كلّه ، وصيّر فى زاوية من الأرض بالرَّقّة ، قد حُظِرت عليه الأموال حتى ضعُف أمرُه ، فشغَب عليه جندُه ، وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملكَ ولم يُجترأ عليه بمثل ما اجتُرِئَ به على الحسن بن سهل ، وان الدنيا قد تفتّقتْ من أقطارها ، وان طاهر بن الحسين قد تُنوسى فى هذه السنين ، منذ قُتل محمد فى الرقة ، لا يستعان به فى شىء من هذه الحروب ، وقد استعين بمن هو دونه أضعافا ، وسألوا المأمونَ الخروجَ الى بغداد ، فان بنى هاشم والموالى والقوّاد والجند لو رأوا غرّتك سكنوا الى ذلك ، وبخَعوا بالطاعة لك . فلما تحقق ذلك عند المأمون ، أمر بالرحيل الى بغداد . فلما أمر بذلك علم الفضلُ بن سهل ببعض ذلك من أمرهم ، فتعنّتهم حتى ضرب بعضَهم بالسياط وحبس بعضا ونتَف لحَى بعض ، فعاوده علىّ بن موسى فى أمرهم ، وأعلمه ما كان من ضمانه لهم ، فأعلمه أنه يُدَارِى ماهو فيه ، ثم ارتحل من مَرْو ، فلما أتى سَرَخْس ، شدّ قوم على الفضل بن سهل وهو فى الحَمَّام فضربوه بالسيوف حتى مات ، وذلك يوم الجمعة لليلتين خَلَتَا من شعبان سنة ٢٠٢ فأُخذوا ، وكان الذين قتلوا الفضل من حَشَم المأمون ، وهم أربعة نفر : غالبٌ المَسْعُودى الأسود ، وقُسْطَنْطِين الرّومى ، وفَرَجٌ الدَّيْلَمِى ، وموفّق الصِّقلّى ، وقتلوه وله ستون سنة وهرَبوا ، فبعث المأمون فى طلبهم وجعل لمن جاء بهم عشرةَ آلاف دينار ، فجاء بهم العباس بن الهَيْثم بن بُزُرجَمْهر الدِّينورىّ ، فقالوا للمأمون : أنت أمرتَنا بقتله ، فأمر بهم فضُربتْ أعناقهم ، وقد قيل : إن الذين قتلوا الفضل ، لما أُخذوا سألهم المأمون ، فمنهم من قال : إن على بن أبى سعيد بن أخت الفضل دسَّهم ، ومنهم من أنكر ذلك . وأمر بهم فقُتلوا ، ثم بعث الى عبد العزيز بن عمران وعلى وموسى وخَلَف ، فسألهم فأنكروا أن يكونوا علموا بشىء من ذلك ، فلم يقبل ذلك منهم ، وأمر بهم فقُتلوا ، وبعث برءوسهم الى الحسن بن سهل فى واسط ، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل ، وأنه قد صيّره مكانَه . وتزوّج المأمون من ابنته بُوران ، وأظهر الحسن فى حفلة

زواجها من الكرم الخارق ، والجود الحاتمى ، ما دعا المأمون الى أن نسبه فيه الى السَّرَف ، ولقد قَدِمَ على الحسن بن سهل شاعر يلتمس صلته وعارفته ، فاشتغل عنه مُدَيدةً فكتب اليه :

المـال والعقل مما يُستعان به * على المُقام بأبواب السلاطين
وأنت تعلم أنّى منهما عَطِلٌ * اذا تأملتَنى يابن الدَّهاقين
أمَا تدلُّك أثوابى على عَدَمى * والوجهُ أنى رئيسٌ فى المجانين
والله يعلم ما للمُلْكِ من رجل * سواكَ يصلح للدنيـا وللدين

فقيل : إن الحسن أمر له ، بعشرة آلاف درهم ، ووقّع فى رقعته :

أعجلتَنـا فأتاك عاجلُ بِرّنا * قُلًّا ولو أنْظرتَنـا لم يُقْلَلِ
فخذ القليل وكُنْ كأنك لم تَنَلْ * ونكون نحن كأننـا لم نُسْأَلِ

ويظهر لنا ممـا قرأناه عن الحسن بن سهل فى أمالى أبى علىّ القـالى وغيره من مظان الكتب الأدبية ، أن له بصرا بالأدب عظيما ، ومكانة فى الكتابة سامية ، وحظا بأفانين القول ومَناحيه وفيرا .

فقد رُوى عنه أنه كتب الى محمد بن سَمَاعةَ القاضى : « أما بعد ، فانى احتجتُ لبعض أمورى الى رجلٍ جامع لخصال الخـير ، ذى عفةٍ ونَزَاهة طُعْمَةٍ[(١)] ، قد هذّبتْـه الأخلاق ، وأحكمتـه التجارب ، ليس بظَنين فى رأيه ، ولا بمطعونٍ فى حسبه ، إن آؤتمن على الأسرار قام بهـا ، وإن قُلِّد مُهِمّا من الأمور أجزأ فيه ، له سنٌّ مع أدب ولسان ، تُقْعِـده الرزانة ، ويسكِّنه الحلم ، قد فُرّ عن ذكاء وفطنة ، وعضَّ على قارحة من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وترشده السَّكتة ، قـد أبصر خدمةَ الملوك وأحكمها ، وقام فى أمورهم فحُمِد فيها ، له أَنَاة الوزراء ، وصَوْلة الأمراء ، وتواضع العلمـاء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نَصيبَ يومه بحِرْمان غده ، يكاد يسترق قلوبَ الرجال بحلاوة لسانه وحسنِ بيانه ، دلائلُ الفضل عليه

(١) الطعمة بضم الطاء وكسرها : وجه المكسب الطيب أو الخبيث .

لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلعًا بما استُنْهِض ، مستقلًا بما حُمّل ، وقد آثرتُك بطلبه ، وحَبَوْتُك بارتياده ، ثقةً بفضل اختيارك ، ومعرفةً بحسن تأتّيك» .

ويقول ابن طباطبا : إن الحسن بن سهل كان أعظم الناس منزلةً عند المأمون ، وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته ، فكان اذا حضر عنده طاوله فى الحديث ، وكلما أراد الانصراف منعه ، فانقطع زمان الحسن بذلك وثقُلتْ عليه الملازمة ، فصار يتراخى عن الحضور بمجلس المأمون ، ويستخلف أحد كتّابه ، كأحمد بن أبى خالد وأحمد بن يوسف وغيرهما ، ثم عَرَضتْ له سَوْداءُ كان أصلُها جَزعَه على أخيه ، فكانت سببَ انقطاعه فى داره واحتجابه عن الناس ، وقد هجاه حين ذاك بعض الشعراء فقال :

تولّتْ دولةُ الحسن بن سهل * ولم أبْلُل لَهَاتِى من نَدَاها

فلا تجزعْ على ما فات منها * وأبكى الله عينىْ مَنْ بكاها

وقد قرأنا فى كتاب الأغانى ما يستدل منه على أن الحسن بن سهل هو صاحب الوَسَاطة فى العفو عن ابراهيم بن المهدى ، وذلك يختلف مع ما رواه البعض من أن بوران ابنته هى التى طلبت العفو عنه ، وما رواه البعض الآخر من أن طاهر بن الحسين هو صاحب الوساطة . وتفصيل الرواية : أن الحسن بن سهل دخل على المأمون ، وهو يشرب فقال له : بحياتى وبحقّى عليك يا أبا محمد إلّا شربتَ معى قدحًا ، وصبَّ له من نبيذه قدحا ، فأخذه بيده وقال : من تحب أن يغنّيكَ؟ فأومأ الى ابراهيم بن المهدى ، فقال له المأمون : غنّه ياعمّ ، فغناه : * تسمَع لِلحَلْي وَسْواسًا اذا انصرفتْ * يُعرِّض به ، لما كان لَحِقَه من السَّوْداء أو الاختلاط ، فغضبَ المأمون حتى ظنّ ابراهيم أنه سيُوقِع به ، ثم قال له : أبيتَ إلّا كُفرا ، يا أكفَر خلق الله لنِعَمه ، والله ما حقَن دمَك غيرُه ، ولقد أردتُ قتلك ، فقال لى : ان عفوتَ عنه فعلتَ فعلا لم يسبقك اليه أحد ، فعفوتُ والله عنك لقوله ، فحقُّه أن تُعَرِّض به ! ولا تَدَعُ كيدَك ولا دَغَلَك ! أَوَأَنِفْتَ من إيمائه اليك بالغناء ! فوثَب ابراهيمُ قائما وقال : يا أمير المؤمنين ، لم أذهب حيث ظننتَ ولستُ بعائد ، فأعرض عنه .

***

٣ — وزارة أحمـــد بن أبى خالد

يظهـر أن المأمون كان قد صُـدِم صدمةً عنيفة، من وزارة الفضـل بن سهل ومن أخيه، لاستبدادهما بجُلِّ الأمور من دونه، ويظهر أنه فكّر جدّيا فى ألّا يستوزر بعد الفضل أحدا، ويقال : إنه لمـا دعا إليه أحمد بن أبى خالد — وكان أبوه كاتب سرّ ابن عبيد الله، كاتبِ المهـدى ووزيره — قال له : إنى كنت عزمت ألّا أستوزر أحدا ، ثم عرض عليـه الوزارة ، فتنصل أحمد منها ، وقال يا أمير المؤمنين : أعفنى من التسمّى بالوزارة ، وطالِبْنى بالواجب فيها ، واجعلْ بينى وبين العامة منزلة يرجونى لها صـديق ، ويخافنى لها عدوّى، فما بعد الغايات إلا الآفات .

وتدل هـذه المناقشة، وإن كانت قصيرة ، على أن أحمد بن أبى خالد قد وجد العبرة فى تاريخ الفضـل بن سهل، وأمثاله، فرأى أن يكون مقتصدا فى مكانته وسلطانه، وقد اعجب المأمون بكلامه واستوزره .

وسترى فى كلمتنا المجملة التى عقدناها عن تقدير المأمون للشجاعة الأدبيـة، طرَفًا من تصرّفات أحمـد بن أبى خالد، وحسن تخلصه، فى حادثة عمرو بن مَسْعدة ، وكيف كان شجاعا وصادقا ، وكيف كان مخلصا للأمون ، عاملا على إصلاح ما بينه وبين رجالات دولتـــه .

ويقول صاحب الآداب السلطانية والدول الاسلامية : إن المأمون لمـا ولّى طاهرَ ابن الحسين خراسان، استشار فيه أحمد بن أبى خالد، فصوّب أحمد الرأى فى تولية طاهر، فقال المأمون لأحمـد : إنى أخاف أن يغدُر ويخلَع ويفارق الطاعة، فقال أحمد : الدَّرَك فى ذلك علىّ — ويجب أن نشير هنا الى ما جاء بكتاب عيون الأخبار عن دقة المأمون فى مثل هـذا الموقف ، فان المعـلّى بن أيوب أحد المعاصرين يحدّثنـا عن ذلك بقوله : سمعت المأمون يقول : من مدح لنا رجلا، فقد تضمّن عيبَه — فولاه المأمون، فلما كان

بعد مدة ، أنكر عليه المأمون أمورا ، وكتب اليه كتابا يتهدده فيه ، فكتب طاهر جوابا ، أغلظ فيه للمأمون ، ثم قطع اسمه من الخطبة ثلاث جمع ، فبلغ ذلك المأمون ، فقال لأحمد ابن أبى خالد : أنت الذى أشرتَ بتولية طاهر ، وضمنت ما يصدر منه ، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطبة ومفارقة الطاعة ، فوالله لئن لم تتلطف لهذا الأمر وتصلحه كما أفسدته وإلا ضربتُ عنقك ، فقال أحمد : يا أمير المؤمنين ، طِبْ نفسا ، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه . ثم إن أحمد بن أبى خالد أهدى لطاهر هدايا ، فيها كَوَاميخُ مسمومة ، — وكان طاهر يحب الكَامَخ(١) — فأكل منها فمات من ساعته(٢) .

فان صحت هذه الرواية دلت على أن المأمون ورجاله لم يكونوا قد صرفوا أنفسهم يومئذ عن التذرع الى الخلاص من بعض رجال الدولة بالقضاء على حياتهم .

قال الصخرى : إن احمد بن أبى خالد لما تولّى طاهر خراسان ، حسّب هذا الحساب ، فوهب له خادما وناوله سمّا ، وقال له : متى قطع خطبة المأمون فاجعل له هذا السم فى بعض ما يحب من المآكل ، فلما قطع طاهر خطبة المأمون جعل الخادم له السم فى كامَخ ، فأكل منه فمات فى ساعته ، ووصل الخبر على البريد بموته الى المأمون بعد أيام ، فكان ذلك مما عظم به أمر أحمد بن أبى خالد . فتأمل طريقة التخلص من الزعماء فى ذلك الحين ، ولاحِظْ كيف كانت عندهم خاتمة الحياة لمن يتبرمون لهم من كبار القوّاد والوزراء . ولتعلل بعد ذلك لِمَ أقفرت البلاد من قادتها وكُتّابها ، ولِمَ أضْحت الكلمة النافذة فيما بعد للغلمة الأتراك وغيرهم من الغرباء ! .

وكان أحمد بن أبى خالد ، الى جانب كفايته ، وبصره بالأمور مصابا بالشَّرَه . وقد قال أحد المعاصرين — لما ناقب المأمون أحمد بن أبى خالد هذا — : ما أظن أن الله خلق

(١) هو إدام يؤتدم به وقيل هو خبز بخل . معرب كامه بالفارسية وخصه بعضهم بالمخللات التى تستعمل لتشهى الطعام .

(٢) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « يلوح لى أن هذه الحكاية مصنوعة فكيف يجترئ أحمد بن أبى خالد على هذا الأمر وهو يعلم مكانة عبد الله بن طاهر ومكيدته وأنفته وحسن تأتيه للأمور . فهل يأمن أن يعتريه عبد الله بما يوبقه ويعجل هلاكه . وبعد فهذه الرواية تناقض الرواية الأخرى . وهى أن صاحب البريد كتب الى المأمون بما كان من طاهر من ترك الدعاء له وكتب إليه فى اليوم الثانى بموته »

فى الدنيا نفسا أنبـل ولا أكرم من نفس المأمون ، فلما سئل لمـاذا ؟ قال : لأنه عرف نفس الرجل — يعنى أحمد بن أبى خالد — وشَرَهَه فكان اذا وجّهه الى رجل برسالة أو فى حاجة ، قال : ائته بالغَـدَاة واخلَعْ ثيـابَك واطمئنّ عنـده ، فان انصرفتَ وقد قمتُ فاكتبْ الى بجواب ما جئتَ به فى رُقْعة وادفعْها الى فَتْح يوصلها الىّ .

وممـا ينسب اليـه أنه ولّى رجلا كُورةً عظيمة القـدر بخوَان فَالُوذَج أهداه اليـه .

وقيـل : إن جماعة من أهل كورة الأَهْواز شكَوْا عاملا كان عليهم ، فعُزِل وصار الى مدينة السّلام ، فتكلموا فيـه ، فأُنهِى خبرُهم الى المأمون ، فأحضَرهم وخَصْمَهم ، وأمر أحمد بن أبى خالد بالنظر فى أمورهم ، فقال رجل من خصوم العامل : يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداءك ، تقدّمْ الى أحمدَ ألّا يقبلَ من هذا الفاجر هديةً حتى يقطع أمرَنا ، فوالله لئن أكل من طعامه رغيفا ومن فَالُوذَجه جَامًا ، ليُدْحِضَنّ اللهُ حجّتَنا على يديه ، وليُبطِلنّ حقّنا على يديه . فكان من جرّاء ما قاله متكلم الجمـاعة أن المأمون طلب اليهـم أن يحضُروا اليه يوم الأربعاء ، لينظر فى شكايتهم بنفسه ، وكان من جرّاء مثل هذه الشكاوى وما قيل فى ابن أبى خالد من أنه « يقتـل المظلوم ويُعِين الظالم بأكلة » أن أجْرَى المأمون عليـه فى كل يوم ألف درهم لمـائدته ، لئلا يَشْرَهَ الى طعام أحد من بِطَانته أو من طعام الناس .

ومن طريف حوادثه مع المأمون — وهى تؤيد لنا صحة ما يُرْمَى به من هـذه الناحية وتدل على اقتناع المأمون بإصابته بها — ما يرويه لنـا ابن طيفور فى تاريخه ، قال : «حدّثنى بعض أصحابنا قال : قال المأمون يوما لأحمد بن أبى خالد : أُغْدُ علىّ باكرًا لأخذ القصص التى عندك ، فانهـا قد كثرتْ لنقطعَ أمورَ أصحابهـا ، فقد طال انتظارهم إياها . فبكّر ، وقعد له المأمون ، فجعل يَعْرِضها عليـه ويوقّع عليها ، الى أن مرّ بقصـة رجل من اليَزِيديين يقال له فلان اليزيدىّ فصحّف ، وكان جائعا فقال : الثَّرِيدىّ ؛ فضـحك المأمون ، وقال : يا غلام ! ثَرِيدةً ضخمةً لأبى العباس ، فانه أصبح جائعا ! فخجل أحمد ، وقال : ما أنا بجائع يا أمير المؤمنين ، ولكن صاحب هذه القصة أحمق ، وضع نِسْبته ثلاث

نقط ، قال : دَعْ هذا عنك فالجوع أضرّ بك حتى ذكرت الثريد ، فجاءوه بصَحْفة عظيمة ، كثيرة العُرَاق(١) والودك ، فاحتشم أحمد ، فقال المأمون : بحياتى عليك ! لمَّا عَدَلْت نحوَها ، فوضع القصص ومال الى الثريد ، فأكل حتى انتهى والمأمون ينظر اليه ، فلما فرغ دعا بطَسْت فغسل يده ورجع الى القصص ، فمرّتْ به قصة فلان الحِمْصِىّ ، فقال : فلان الخبيصى ! فضحك المأمون ، وقال : يا غلام ! جاماً ضخما فيه خَبِيصٌ(٢) ، فان غَدَاء أبى العباس كان مبتورا ، فخجل أحمد ، وقال : يا أمير المؤمنين ، صاحب هذه القصة أحمق ! فتحَ الميمَ فصارت كأنها سِنَّتان ! قال : دع عنك هذا ، فلولا حمقه وحمق صاحبه لمتّ جوعا ، فجاءوه بجام خبيص ، فخجل ، فقال له المأمون : بحياتى عليك إلّا مِلْت اليها ! فانحرف فانثنى عليه ، وغسل يَدَه ، ثم عاد الى القصص ، فما أسقط حرفا حتى أتى على آخرها .

«وبعد» فانا نستنبط — من هذه الرواية ومما جرى من الحديث بينه وبين المأمون فى شأن أكلة ابن أبى خالد عند دينار بن عبد الله التى كلفت المأمون ألف ألف(٣) — شَرَهَ هذا الوزير الجليل . ويجدر بنا أن نقيد هنا ملاحظة أخرى ، وهى طول احتمالِ المأمون ، وكبير جلده ، وقوّة اصطباره ، على مطالعة شكاوى الجمهور ومظالمهم ، غير مكترثٍ لألم الجوع ولا جانح الى الرغد والراحة ، فى سبيل نظرها وإنصاف أصحابها .

على أن هذه الهَنَة فى هذا الوزير وإن كانت عائبة للرجل ناقصة من كرامته ، فكفايته مقطوع بها . وليس أدلّ على عظيم قدره ، وسموّ مكانته ، من حضور المأمون جنازته ، وصلاته بنفسه عليه ، وقوله عنه ، بعد أن دُلّى فى حُفْرته وترحم عليه ، أنت والله كما قال القائل :

أخو الجِدّ إن جدّ الرجالُ وشمّروا * وذو باطلٍ ان كان فى القوم باطلُ

---

(١) العراق : جمع عرق وهو القطعة من اللحم وهو أحد الجموع النادرة (وقد عدّ هذه الجموع ابن السكيت فى لسان العرب مادّة عرق فراجعها) . والودك : الدسم .

(٢) نوع من الحلوى .

(٣) أنظر هذه الحكاية فى تاريخ بغداد لابن طيفور ص ٢٢٢ — ٢٢٤

***

٤ — وزارة أحمـــد بن يوسف

وقد استوزر المأمون بعد ابن أبى خالد أحمد بن يوسف الكاتب . ولما كنّا سنعقد له بحثا خاصا فى قسم الآداب والعلوم، فستجد ثمّةَ طرفا عن حياته وأثره .

***

٥ — وزارة يحيى بن أكثم التيميّ

استوزر المأمون بعد أحمد يحيى بن أكثم . وهو من أصحاب ثُمَامة بن أشْرس المتكلّم المعروف، ولّاه المأمون وظيفتى الوزارة وقاضى القضاة .

ولم أجد اختلافا قويا، هو اختلاف النقيضين، كاختلاف القدماء فى يحيى بن أكثم . ولما كان له مظهر بارز فى الدولة المأمونية من الوجهة العلميـة والأدبية — لأنه كان، كما يقول أحمد بن حنبل رضى الله عنه، متفننا فيها : فكان اذا نظر الى رجل يحفظ الفقه سأله عن الحديث، واذا رآه يحفظ الحديث سأله فى النحو، واذا رآه يعلم النحو سأله عن الكلام، ليقطعه ويُخْجِله — آثرنا أن نلمّ بحياته وأقوالِ الناس فيه من قادح ومادح، ونبين قدره على وجه الإجمال لا التفصيل . وسنورد كلامنا فيه أيضا فى قسم العلوم والآداب من هذا الكتاب .

***

٦، ٧، ٨ — وزارات أخرى

وقد ذُكر أن المأمون استوزر، بعد من قدّمناه لك، أبا عَبَّاد ثابتَ بن يحيى بن يَسَار، وأبا عبـد الله بن يَزْدَاد، وقد آثمّا فى سيرتيهما بمن سبقهما، كما أنه ذُكر أنه استوزر عمرو بن مَسْـعدة وهو صِنْو أحمـد بن يوسف نباهةً وكفايةً وكتابة . وإنا لا نرى مَدْعاة لاثبات ما هو من لون واحد، ففى ذلك إضاعة للوقت وتكرار للقول .

⁂

(ب) الجند والقوّاد فى عصر المأمون :

لا نريد هنا أن نتكلم عن ديوان الجند وتاريخه ، ولا عن مرتبات الجند وتحولهم ، منذ العهود الأولى ، فان ذلك يطول كثيرا . على أنا نحيلك مع ذلك الى ما جاء بالجزء الأوّل من تاريخ التمدّين الاسلامىّ فى هذا الباب . وقصارى ما نريد قوله الآن أن راتب الجندى الراجل ، وهو مثل « النفر » فى النظام العسكرى الحديث ، هو ٢٤٠ درهما فى السنة ، فضلا عن حصته فى الغنائم عند الغزوات . ويظهر أن حصة الجنود من الغنائم كانت قد حبست عنهم ، حتى ردّها عليهم الأمين سنة ١٩٨ هجرية ، فأصاب الرجل ستة دنانير .

ولما قام النزاع بين الأمين والمأمون جعل المأمون راتب الجندى ثمانين درهما فى الشهر ، على أن هذا الراتب عاد الى ما كان عليه بعد انتهاء الفتنة .

أما القوّاد العظام فى هذا العصر ، فانا نكتفى بما وقفت عليه أثناء النزاع بين الأخوين ، لأن من التكرار فى القول أن نعيد هنا ما قلناه هناك .

⁂

(ج) ديوان القضاء والمظالم والحسبة :

ستقف من بحوثنا التى أفردناها لتحليل أخلاق المأمون على شىء من سلطان القضاة فى ذلك العهد . ونحيلك هنا الى المحاضرة القيمة التى ألقيت فى المجمع العلمىّ بدمشق عن تاريخ القضاء فى الاسلام ، كما نحيلك الى الفصل المُسْهَب الذى أفرده فى هذا الموضوع صاحب التمدين الاسلامىّ .

ويكفينا هنا أن نقول : إن نظام الحكم أو الفصل فى الدعاوى ، فى ذلك العهد ، كان متشعبا بقدر ما كان محكما ، إذ قد كان يوجد الى جانب ديوان القضاء : ديوان المظالم وديوان نظر الحسبة ، وهذه الدواوين كلها كانت تنظر فيما يرفع اليها من دعاوى .

و يطول بنا الحديث، فى هذا المقام لو أردنا استيعاب بيان كل نوع من هذه الدواوين وما يختص بالنظر فيه .

على أنه يجوز لك، أن تفترض الى حدّ ما ، أن ديوان المظالم كان يشبه فى بعض نظامه وسلطته المحاكم العليا كمحاكم الاستئناف والنقض والابرام، كما يشبه الى حدٍّ غير قليلٍ المجالس التأديبية .

وانا نحيلك هنــا الى الفصول الممتعــة التى أفردها أبو الحسن على بن محمــد بن حبيب المــاوردى فى كتابه القيم " الأحكام السلطانيــة " فقــد عالج فيهــا الكلام عن القضــاة وما يختصون به من الدعاوى، وعن ولاة المظالم وما يختصــون به أيضا، وكذلك عن ولاة الحسبة وحدود سلطانهم، وقد نقل عنه صاحب نهاية الأرب فى نهاية الجزء السادس جملة صالحة منه فراجعها .

أما راتب القضاة فنقول : إن راتب القاضى بلغ فى أيام المأمون ٤٠٠٠ درهم فى الشهر، أى حوالى ٢٧٠ دينارا . وهذا الراتب فى ذاته يدل على ما وصلت اليه الثروة فى ذلك العصر، وقد كنا نودّ أن نختص الولاة و راتبهم بكلمة لولا أن المصادر فى ذلك تنقصنا . وفيما بينّاه عن القضــاة مقياسٌ لمن كان فى مكانتهم ولمن كان أرفع منهم أو أقلّ مرتبــة . فعليك أن تفكر وتقارن .

الفصل السادس

خلاصة الحيـاة السياسية والاجتماعيـة

توطئة — نكبة الوزراء — الاستصفاء — ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم — الخراج فى عهد المأمون — الخراج فى عهـد المعتصم — السعايات والجاسوسية — الدعاوة (البروباجنـدا) — صعوبة مهمة المـؤرخ .

(أ) توطئـة :

أما أثر المـال فى النفوس ، وأثر الأحزاب السياسـية ، وكيف تغيرت وجهات النظر فى كثير من الأمور الدينية ، فانك قد وقفت على شيء من ذلك فيما سردناه لك .

على أنا نظن أنه قد آن لنـا أن ندوّن بعض ملاحظاتنا فى هـذا العصر ، وآن لنا أن نتكلم عن نصيب الوزراء والقوّاد والزعماء فى هـذه الدولة ، التى كان للوزراء والقوّاد والزعماء الأثر الكبير فى تدْعيم بنيانها ، وتقوية أركانها ، وتشييد سلطانها .

(ب) نكبة الوزراء :

نريد أن نلاحظ أن حيـاة الوزراء وحياة القوّاد والزعمـاء كانت تنتهى ، فى الغالب ، بنكبتهم فى حياتهم ، أو استصفاء أموالهم .

ومع أنا نحيلك الى بعض المصادر القيمة فى هذا الموضوع ، مثل كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، لأبى الحسن الهلالىّ بن المُحْسن بن ابراهيم الصّـابى الكاتب ، والى ما كتب من الفصول فى غيره ، نريد أن نلاحظ أن جُلّهم قد نكَبه خليفتُه ، مثـل نكبة المنصور لأبى مسـلم ، وعبد الله بن على ، وأبى سَلَمَة الخـلّال ، وأبى الجهـل ، ونكبته لأبى أيوب الموريانى ، ونكبة الربيع بن يونس الذى سمّه الهادى ، ونكبة المهدى ليعقوب ابن داود ، ونكبة الرشيد للبرامكة ، والمأمون لمن رأيت .

نلاحظ ذلك . ونلاحظ أن غدر الخلفاء بوزرائهم فى ذلك العهد قد لاكته الألسنة وتكلمت فيه الشعراء ؛ فقد قال بعضهم حينما قتل المتوكل وزيره محمد بن عبد الملك الزيات :

يكاد القلبُ من جزع يطيرُ * اذا ما قيل قد قُتِل الوزيرُ
أميرَ المؤمنين قتلتَ شخصا * عليه رحَاكمُ كانت تدور
فمهلًا يا بنى العباس مهلا * لقد كُوِيتْ بغدركم الصدورُ

كما نلاحظ أيضا تنصّل شخصيات عظيمة من قبول الوزارة فى ذلك العهد ، لما عهدوه من وَخيم عواقبها ، وسوء مَغَبَّة الاضطلاع بها . فقد ذكر ابن طيفور أن ثُمَامة ابن أَشْرَس المتكلّم المعروف، قال : لما قُتِل الفضلُ بن سهل بعث الىّ المأمون وكنت لا أنصرفُ من عنده إلّا الوَقْعةَ الى منزلى، ثم يأتينى رسوله فى جَوْف الليل فآتيه ، وكان قد أهّلَنِى لمكان الفضل بن سهل من الوزارة، فلما رأيته قد ألحّ علىّ فى ذلك تعاللتُ عليه ؛ فقال لى : إنما أردتك لكذا وكذا؛ فقلت : يا أمير المؤمنين، إنّى لا أقوم بذلك، وأَحرِ بى أن أضنّ بموضعى من أمير المؤمنين وحالى أن تزولَ عنده ، فانى لم أر أحدا تعرّض للخدمة والوزارة، إلا لم يكن لتَسْلَمَ حالُه ولا تدومَ منزلته . ورشّح له أحمدَ بن أبى خالد الأحول . ثم انظر الى اعتلاله عليه مرة أخرى حينما رشّح له يحيى بن أكثم ؛ فانك توقن معنا بنفور رجال الدولة من الوزارة، وهربهم من شَرَكها وسوء عُقباها .

(ج) الاستصفاء :

هم ينفرون من الوزارة ، لأن خاتمة حياتهم كانت التقتيل كما رأيت . وينفرون منها ، لأن مصير أموالهم وأموال ذويهم كان، فى الغالب ، الى الاستصفاء والاغتصاب .

ولقد عمّ الاستصفاء سائرَ رجال الحكومة حتى الرعية ، وأصبحت، بتوالى الأيام ، المصدرَ الأوّل لتحصيل المال .

فالعامل يستصفى مما للرعية ، والوزير يستصفى مما للعمال ، والخليفة يستصفى مما للوزراء ، ومما للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى لقد أنشئوا للاستصفاء ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة ، فكان المال يُتَداول بالاستصفاء كما يتداول بالمتاجرة .

أما أنواع الاستصفاء ومقاديره فى ذلك العصر ، فنترك الكلمة فى هذا للوزير ابن الفرات قريب العهد بالمأمون ، قال : « تأملتُ ما صار الى السلطان من مالى ، فوجدته ۱۰،۰۰۰،۰۰۰ دينار ، وحَسَبتُ ما أخذته من الحسين بن عبدالله الجوهرىّ بن الجَصّاص فكان مثل ذلك ، فكأنه لم يخسر شيئا ، لأنهم كانوا يقبضون بالاستصفاء ويدفعون بالاستصفاء . واذا استصفى أحدهم من مال لم يكن فى وسعه أداؤه كله معجّلا ، أجّلوه بالباقى وساعدوه على تحصيله أو جمعه بردّ جاهه وتغيير زِيّه ، وإنزاله فى دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة ، ليستطيع التدخّل فى جمع الأموال من الناس .

وتعدّدت أسباب الاستصفاء وجهاته ، حتى أصبح كل صاحب مال أو مَنْصب عرضةً له . وهاك بيانا لما قبضه ابنُ الفرات من الاستصفاء ، على أيام الراضى بالله ، ننشرها لك لتكون أُنموذجا لأنواع الاستصفاءات ومقاديرها :

دينار	
٧٣٠٠	من أحمد بن محمد بن ابراهيم البِسْطَامى ، عن النصف مما بقى عليه من استصفائه فى سنة ٣٠٠ هـ .
١١٠٠٠	من على بن الحسين الباذبينىّ الكاتب ، عما تولاه من الموصل .
٣٠٠٠٠	« محمد بن عبد الله الشافعىّ ، عما تصرف فيه لعلىّ بن عيسى .
٨٠٠٠٠	« محمد بن على بن مُقْلة ، عما تصرف فيه .
١٠٠٠٠٠	« محمد بن الحسن المعروف بأبى طاهر .
١٣٠٠٠	« الحسن بن أبى عيسى الناقد ، عما ذكر أنه وديعة لعلىّ بن عيسى .
٤٠٠٠	ومنه أيضا صلحا عن نفسه .
٢٠٠٠٠	من ابراهيم بن أحمد المادرائى .
٢٦٥٣٠٠	

دينار	
٢٦٥٣٠٠	ما قبـــله
٣٦٣٣٠	من عبد الواحد بن عبيد الله بن عيسى، عن بقية استصفاء والده .
١٠٠٠٠	« أحمد بن يحيى بن حانى الكاتب عن مصلحة وجبتْ .
٦٠٠٠	« ابراهيم بن أحمد بن أدريس الجَهْبذ، عن صلحه .
٤٠٠٠	« محمد بن عبد السلام بن سهل ، عما عنده من الوديعة لمحمد بن على وابراهيم بن أحمد المـادرائى .
٤٠٠٠٠	« عبد الوهاب بن أحمد بن ما شاء الله، عن صلحه .
١٠٠٠٠	« محمد بن عبد الله بن الحارث، عن صلحه .
٢٥٠٠٠٠	« محمد بن أحمد بن حَمَّاد، عما تصرف فيه بالموصل وغيرها .
١٥٠٠٠	« ابراهيم بن أحمد المـادرائى، عن الباقى عليه من جملة خمسين ألفًا .
٣٠٠٠	« أبى عمر محمد بن أحمـد الصباح الجرجراى، عن ضمانة البـاقى على أبى العباس أحمد بن محمد بن على المعروف بقرقور .
٧٠٠٠٠٠	« على بن محمد بن الحوارى وقتل .
٧٠٠٠	« هارون بن أحمد الهمذانى .
٢٠٥٠	« عبد الله بن زيد بن ابراهيم .
١٥٠٠٠	« عبد الله بن زيد، صلحا عن نفسه .
٦٠٠٠٠	« على بن مأمون بن عبـد الله الاسكافى كاتب ابن الحوارى وقُتل .
٧٠٠٠٠٠	« يحيى بن عبد الله بن إسحاق، عما تصرّف فيه مع حامد .
١٣٠٠٠٠٠	« حامد بن العباس، وقُتل .
١٥٠٠٠٠	« محمد بن محمد بن حمدون الواسطى .
٣٢١٠٠٠	« أبى الحسن على بن عيسى .
١٠٠٠٠٠	« ابراهيم بن يوحنا جهبذ حامد بن العباس .
١٢٠٠٠٠٠	« أبى محمد الحسن بن أحمد المـادرائى .
٥،٢٩٤،٦٨٠	

دينار	
٥٢٩٤٦٨٠	ما قبله
١٠٠٠٠٠٠	ومنه أيضا .
١٠٠١٠٠٠	من أبي بكر محمد بن علي المادرائي .
١٠٠٠٠	ومنه ايضا .
٧,٣٠٥,٦٨٠	

درهم	
٥٠٠٠٠	من أبي الفضل محمد بن أحمد بن بسطام .
٢٠٠٠٠٠	« علي بن الحسن الباذبيني، صلحا عما تصرّف فيه بالموصل وقتل .
١٠٠٠٠٠	« أبي عمر محمد بن أحمد بن الصباح الجرجراي ، عن ضمان الباقي من استصفاء أبي ياسر إسحاق بن أحمد .
١٠٠٠٠٠	« عبيد الله بن أحمد اليعقوبي .
١٠٠٠٠٠	« الحسن بن ابراهيم الخرائطي، صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس .
١٠٠٠٠٠	« الحسين بن علي بن نصير أخي نصير بن عليّ .
٢٥٠٠	« علي بن محمد بن أحمد بن السّمان، عن ورثة قرقر .
١٠٠٠٠	« أبي بكر أحمد بن القاسم الأزرق الجرجاني، عن ضياع علي بن عيسى .
١٣٠٠٠٠	« الحسين سعد بن القُطْرَبّلي .
١٥٠٠٠٠٠	« محمد بن أحمد .
٣٠٠٠٠٠٠	« أبي الحسن محمد بن أحمد بن بسطام .
٥٠٠٠٠	« أحمد بن محمد بن حامد بن العباس .
١٣٠٠٠٠	« سليمان بن الحسن بن مخلد .

ومن المعقول أن نستنبط من ذلك أن الوزير أو العامل ، لابد أن يَجْنَح الى الرشوة، فيعوّض المال الذى سيستصفّى منه ، والثروة التى ستغتصَب منه . ومن المعقول أيضا أن نعلّل لِمَ تعددت الثورات فى بعض الولايات ، ولِمَ كثرت الشكايات من بعض الولاة فى ذلك العهد . وإنه وإن لم يهتم المؤرخون القدماء بإثبات شِكَايات العامة

وأسباب ثوراتهم، فقـد عثرنا بين السطور على العبارة الآتيـة فى الجزء الثـانى من اليعقوبى، نثبتها لك بنصها : « أخذ الرشـيد العمال والتُّنَّـاء[١] والدَّهاقين[٢] وأصحاب الضِّياع والمبتاعين للغـلَّات والمُتقبِّلين[٣]، وكان عليهم أموال مجتمعة، فولّى مطالبتهم عبد الله بن الهيثم ابن سام، فطالبهم بصنوف من العذاب، وكان ذلك سنة ١٨٤ واعتل الرشيد فى تلك السنة علة شديدة وشفى منها، فدخل اليـه الفضيل، فرأى الناس يعذَّبون فى الخراج، فقال : ارفعوا عنهم، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من عذّب النفس فى الدنيا عذبه الله يوم القيامة" فأمر بأن يرفع عن الناس، فارتفع العذاب من تلك السنة»[٤] .

ويجوز لنا أن نستدل من هذه العبارة ومما ذكره الطبرى وسواه : من تخفيض بعض الخلفـاء لخراج بعض البلدان عقب ثورة من الرعيـة أو زيارة ملكية، على أن العمال كانوا يجنحون الى الشـدّة والعسف وجمع المـال بشتى الوسائل، وكل ذلك من جرّاء النظـام المتبع معهم كما أسـلفنا . فتأمل كيف يكون عسف الولاة للرعيـة بسبب عسف الملوك للولاة والعمال .

يَعْسِفون ويظلمون[٥]، والرعية وحدها هى التى تحتمل وتصبر، بيْـد أن التاريخ يحدثنا دائمـا، فى كافة الدول وكافة الأجيـال، أن نهاية هـذا الاحتمال وذلك الصبر هى يقظة الأمم وانتباهها، ونهضة الشعوب ونضوجها، ورفضها فى إباء وشمم وفى عقيدة وإيمان، وفى شجاعة وحرية، وفى تصميم وقوة إرادة، احتمالَ أمثال هـذه الأدران والمآثم، وتلك الإساءات والمظالم، ممن تسلموا مقاليد الرعية : من الحكام وذوى السلطان .

(١) التناء (وزان سكان) جمع تانئ، والتانئ : الدهقان . أنظر القاموس . (٢) الدهاقين جمع دهقان وهو التاجر أو رئيس الاقليم وهو فارسى معرب . (٣) هم ملتزمو جباية الخراج للولاة . (٤) يرى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار أن عمل الرشيد هـذا لم يكن من قبيل الاستصفاء وإنما هو من قبيل الإعنات فى استيفاء الحقوق . (٥) يلاحظ الأستاذ النجار أيضا أن كل ما ذكر فى هذا الباب لا يتناول زمن المأمون وإنما كان ذلك بعده . والرشيد لم يحفظ عليه إلا استصفاء البرامكة حين نكبهم وأن المأمون رفعت اليه رقعة فيها أن فلانا مات وترك لورثته كذا وكذا وكان المـال يبلغ الملايين من الدراهم فكتب فى الرقعة : هذا قليل لمن تقلب فى دولتنا وطالت خدمته لنا فبارك الله لورثته فيما ترك لهم .

(د) ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم :

نريد أن نقيد ملاحظة أخرى، وهى نتيجة لازمة من نتائج الاستصفاء والاغتصاب. تلك الملاحظة هى استفحال ثروة الخلفاء طبعا، واستفحال ثروة كبار رجالاتهم والمقربين من أفراد البيت الملكىّ من بطانة وحاشية، واستفحال بذخهم، واستفحال أعطياتهم. ونحن وإن كنا لم نجد مصدرا منظما فى هذا الموضوع، وخاصةً فى العصر المأمونى، لقد عثرنا فى كتاب لطائف المعارف للثعالبى، أن «المكتفى» وهو قريب الصلة بعصر المأمون، قد خلف مائة مليون دينار! وهذا تفصيلها :

دينار	
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	من العين والورق والأوانى المعمولة.
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	« الفرش.
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	« الكُراع والسلاح والغلمان.
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	الضياع والعقار والأملاك.
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	الجوهر والطيب وما يجرى معهما.

ومن المعقول أن نتخذ من حالة هذا الخليفة العباسىّ مقياسا لغيره، وإن كنا نعلم أن غيره مثل الرشيد والمأمون كانا أبسط منه سلطانا وأكثر أعوانا، فهما إن لم يكونا أرفع منه شأنا، ليسا بأقل منه بالثروة مكانا!

أما ثروة كبار رجالهم، فإنا نذكر لك هنا على سبيل المثال نصًّا هامًّا، يصح أن نتخذه أساسا لتقدير ثروة أسرة الفضل بن سهل، أو أسرة طاهر بن الحسين، أو غيرهما من أساطين الدولة وأقطاب المملكة. وهو النص الذى رواه سَهْل بن هارون أحد المعاصرين خاصا بثروة البرامكة. وكلامه حجة لا محالة، لأنه إلى جانب كونه من المعاصرين الواقفين على مَا جَرَيَاتِ الأمور وبواطنها فى ذلك العهد، فقد كان يشغل وظيفةَ خازن دار الحكمة فى أيام المأمون. قال: «... وأمر الرشيدُ بضمّ أموالهم، فوجد من العشرين ألف ألف

التى كانت مبلغ جِبَاياتِهِــم ، اثنَىْ عشرَ ألف ألف مكتوبٌ على بدَرها صكوك مختـومة تفسيرها رقمها ، حبوابها ، فما كان منها حِبَاءً على غَريبــة أو اسـتطراف مُلْحة تصـدّق به يحيى ، وأثبت ذلك فى ديوانها ، على تواريخ أيامها ، فكان ديوانَ إنفاق واكتساب فائدة ، وقبض من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وسمائة ألف وسـتة وسبعين ألفا ، الى سائر ضِياعهم وغلاتهم ودُورهم ورِيَاشهم والدقيق والجليل من مواعينهم ، فانه لا يصف أقلّه ، ولا يَعرف أيسره ، إلا مَنْ أَحْصى الأعمال ، وعرف منتهى الآجال » .

ويجـوز لنا كذلك أن نسـتخلص مما صرف على زواج بُورَانَ بالمأمون ، مبلغَ ثروة الحسـن بن سهل . كما يجوز لنا أن نتبين مقـدار ثروة عبـد الله بن طاهر من رواية صاحب النجوم الزاهرة الخاصة بإحدى مواقفه فى الكرم . ومؤداها : أنه افتدى الأَسْرى من الترك بنحو ألفى ألف درهم . ثم انظر ما رواه المسـعودى فى مُرُوجه خاصّا بما فعله ابراهيم بن المهـدى ، فى زيارة للرشيد له ، اذ اصطنع له طَاهِيــه جملةَ أطعمة فخمة ، وكان من جملتها جامُ سمك مقطّع ، فاستصغر الرشيد قِطعَه ، واستفسر منه عن حقيقتها ، فأجابه ابراهيم بن المهدى : يا أمير المؤمنين ، هذه ألسنةُ السمك . وقدّرت نفقة ما فى ذلك الجام بألف درهم !

ثم انظر بَذَخَهم فى لباسهم . وقد سبق لنا أن أشرنا الى ما كانوا يلبسونه فى المنادمة ، من مختلف الثياب وغاليها . ونريد أن نبين هنا ما وقفنا عليه من مخلّفات بعض المعاصرين من الخلفاء والقوّاد ، ليكون مثالا تقريبيا لحالة مَنْ لم يصل الى علمنا خبرُه . فقد ذُكر أن ما خلفه المُكْتفِى من الألبسة هو :

عـــدد	
٤٠٠٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات .
٦٣٠٠٠	« الأثواب الخراسانية المَرْوِيّة .
٨٠٠٠	« الملاءات .

عـــدد	
١٣٠٠٠	العمائم المروية .
١٨٠٠	الحُلَل الموشَّاة اليمـانية وغيرها منسوجة بالذهب .
١٨٠٠٠٠	البطائن التى من كِرْمان فى أنابيب القصب .
١٨٠٠٠	الأبسطة الأرمنية .

وذكروا أن ذا اليمينين توفى وفى خزانته ألف وثلثمائة سراويل دبيقى لم يستعملها . وقيل إنهم وجدوا فى كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سراويل دبيقى .

وقد اطلعنا فى الجـزء العشرين من « كتاب نهـاية الأرب » على أن ملك التُّبَّت قدِم على المأمون، ومعــه صَنَمٌ من ذهب على سرير من ذهب مرصّع بالجوهر، فأسـلم الملك، وأخذ المأمون الصنم وأرسله الى الكعبة . وطالعنا فيــه أيضا أن ملك الهنــد أهدى اليه هدية نفيسة، وكتب اليه معدّدا أموالَه وثروته، مما يدل على بذخ العصر وثروة الملوك فيه .

وقد استفحل أمر البــذخ فى ذلك العصر، حتى أصبحنا نرى أبا العَتَاهِيَة مثلا، وهو المعروف ببخله، يهدى الى الرشيد، فى سبيل طلبه لعُتْبة، ثلاثَ مَرَاوِحَ، وكان العباسيون قد تفنَّنوا فيهـا وفى المَذَابِّ التى اختُرعتْ فى أيامهـم، وكتَب على كل مروحة بيتا، قال فى مجموعها :

ولقـــد تنسَّمْتُ الرياحَ لحاجتى * فاذا لهـا مِنْ راحتيــه شَمِيمُ
أعلقتُ نفسى من رجائك ماله * عَنَقٌ يحثُّ اليــك بى ورَسِيمُ
ولرّبمـا استيأستُ ثم أقول لا * إن الذى ضمِنَ الرِّياح كَرِيمُ

ولعلك اذا تذكرت أمر سُفُن الأمين وبذخَه وإسرافه مضافا اليه ماذكرنا هنا وغيره، تؤمن بما نقول من بذخ العصر واستفحال ثروته . على أنا قد عثرنا على مصدرين، ننشرهما مع الحيطة والحذر، لبيان ثروة العصر . يتضمن الاول بيانَ الجِبَاية فى أيام المأمون، ويتضمن الثـانى حالتها فى أيام أخيه المعتصم . مفترضين فى كلتا الحالتين جوازَ المبالغــة

فى التقدير ، ذلك لأن ديدن المؤرخين القدماء ، أن يجنحوا فى الغالب الى المبالغة والغلو . وإنا مع افتراضنا المبالغة فى التقدير فى المصـدرين، نرى مع ذلك أن أىّ تقـدير متواضع للخراج، فى ذلك العصر ، لابد أن يكون عظيما ودالًّا على الثروة والغنى والبذخ .

(هـ) الخراج فى عهد المأمون :

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخىّ يدل على مقدار الجباية الخراجيـة فى جميع الأقاليم التى كانت تحت حكم الدولة العباسـية ، وهو الثبت الذى نقله العلامة ابن خلدون فى تاريخه ، وقد أحببنا ، لمـا فى ذلك الثبت من الفائدة، أن ننقله عنه . وها هو ذا :

الإقلـيم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض	
	درهـم		
السـواد	٢٧٨٠٠٠٠٠	٢٠٠	حلة نجرانيـة
		٢٤٠	رطلا من طين الختم
كسكر	١١٦٠٠٠٠٠		
كور دجلة	٢٠٨٠٠٠٠٠		
حلوان	٤٨٠٠٠٠٠		
الأهـواز	٢٥٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	رطل سكر
فارس	٢٧٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	قارورة ماء ورد
		٢٠٠٠٠	رطل زيت أسود
كرمان	٤٢٠٠٠٠٠	٥٠٠	ثوب متاع يمـانى
		٢٠٠٠٠	رطل تمـر
مكران	٤٠٠٠٠٠		
السند وما يليه	١١٥٠٠٠٠٠	١٥٠	رطل عود هندى
سجستان	٤٠٠٠٠٠٠	٣٠٠	ثوب معين
		٢٠	رطل من الفانيد

(تابع) الخراج فى عهد المأمون

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجبايه من العروض
	درهم	
خراسان	٢٨٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠ نقرة فضة ٤٠٠٠ برذون ١٠٠٠ رأس رقيق ٢٠٠٠٠ ثوب متاع ٣٠٠٠٠ رطل إهليلج
جرجان	١٢٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠ شقة إبريسم
قومس...	١٥٠٠٠٠٠	١٠٠٠ نقرة فضة
طبرستان والريان ودماوند ...	٦٣٠٠٠٠٠	٦٠٠ قطعة فرش طبرى ٢٠٠ كساء و ٥٠٠ ثوب ٣٠٠ منديل و ٣٠٠ جام
الرى	١٢٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
همدان	١١٣٠٠٠٠٠	١٠٠٠ رطل رب الرمانين ١٢٠٠٠ رطل عسل
ماها البصرة والكوفة...	١٠٧٠٠٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤٠٠٠٠٠٠	
شهرزور	٦٧٠٠٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
أذربيجان	٤٠٠٠٠٠٠	
الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	٣٤٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠ رأس رقيق ١٢٠٠٠ زق عسل ١٠ بزاة ٢٠ كساء

(تابع) الخراج فى عهد المأمون

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض	
	درهم		
		٢٠	قسط محفور
		٥٣٠	رطل رقم
		١٠٠٠٠	رطل من المسايح السمرماهى
أرمينية	١٣٠٠٠٠٠٠		
		١٠٠٠٠	رطل صونج
		٢٠٠	بغل
		٣٠	مهرا
برقة	١٠٠٠٠٠٠		
إفريقية	١٣٠٠٠٠٠٠	١٢٠	بساط
المجموع	٣١٨٦٠٠٠٠	درهم	
	من الدنانير		
قنسرين	٤٠٠٠٠٠	١٠٠٠	حمل زيت
دمشق	٤٢٠٠٠٠		
الأردن...	٩٧٠٠٠		
فلسطين	٣١٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	رطل زيت
مصر	٢٩٢٠٠٠٠		
اليمن	٣٧٠٠٠٠	سوى المتاع (الذى لم يذكر)	
الحجاز	٣٠٠٠٠٠		
	٤٨١٧٠٠٠	دينار وتساوى ٧٢٢٥٥٠٠٠ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهما وهو تقديره فى ذلك العصر	
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢٢٥٥٠٠٠		
يضاف اليه جباية الأقاليم المذكورة أعلاه	٣١٨٦٠٠٠٠		
الجملة	٣٩٠٨٥٥٠٠٠	درهم	

* * *

(و) الخراج فى عهد المعتصم :

أما جبـاية الدولة فى أيام المعتصم فهاك هى نقلا عن قدامة بن جعفر ، كانت جباية السواد معظمها من الحنطة والشعير ، وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصلا باعتبار طساسيج السواد ، أى نواحيه فى الشرق والغرب :

اسم الناحيـة	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
طساسيج السواد فى الجانب الغربى :			
الأنبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠٠
طسوج مسكن	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
« قطربل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
« بادوريا	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
بهر سير	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوثى	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
نهر درقيط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر جوبر	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
باروسما ونهر الملك...	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزوابى الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرنية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠

(تابع) الخراج فى عهد المعتصم

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(تابع) طساسيج السواد فى الجانب الغربى :			
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« الجبة والبداة	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
سورا و برنسيا	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
البرس الأعلى والأسفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فرات بادقلى	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوج السيلحين...	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
روذستان وهرمزجرد...	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تستر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
ايغاريقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كسكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠
طساسيج السواد فى الجانب الشرقى :			
طسوج بزر جسابور	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠
« الراذانين	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠
« نهر بوق	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
كلواذى ونهر بين	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٤٠٠٠٠
روستقباذ	١٠٠٠	١٤٠٠	٢٤٦٠٠٠
سلسل ومهروذ	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠٠٠
جلولا وجللتا	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠

(تابع) الخــراج فى عهــد المعتصم

اسم الناحيــة	مقدار الحنطة بالكرّ	مقدار الشعير بالكرّ	الدرهم
(تابع) طساسيج السواد فى الجانب الشرقىّ :			
الذيبين	١٩٠٠	١٣٠٠	٤٠٠٠٠
الدسكرة	١٨٠٠	١٤٠٠	٦٠٠٠٠
البندنيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥٠٠٠
طسوج براز الروذ...	٣٠٠٠	٥١٠٠	١٢٠٠٠٠
النهروان الأعلى	١٧٠٠	١٨٠٠	٣٥٠٠٠٠
النهروان الأوسط	١٠٠٠	٥٠٠	١٠٠٠٠٠
بدرايا و بكسايا	٤٧٠٠	٥٠٠٠	٣٣٠٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤٠٠٠	٤٣٠٠٠٠
نهر الصـــلة...	١٠٠٠	٣١٢١	٥٩٠٠٠
النهروان الأسفل	١٧٠٠	١٣٠٠	٥٣٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥٦٠٠	١٢٣٩٢١	٨٨٢١٨٠٠

فمجموع جبـاية السواد باعتبار نواحيــه ١١٥٦٠٠ كرّ حنطة و ١٢٣٩٢١ كرّ شعير و ٨٨٢١٨٠٠ درهم . على أن هـذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد أن أورد خراج كل ناحيــة بالتفصيل كما تقــدّم، فقــد قال فى ايراد المجموع « ذلك ارتفاع السواد ســوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧٢٠٠ كرّ ومن الشعير ٩٩٧٢١ كرّا ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم» وقد قال المرحوم جرجى بك زيدان : ولعـلّ سبب هذا الفرق خطأ فى قــراءة بعض الأعداد، على أن الفــرق على كثرته لا يعتــدّ به فيما نحن فيه . بقى علينـا أن نحوّل الحنطة والشعير الى دراهم ، وقد فعل جعفر ذلك فحوّلها باعتبار ثمن الكُرّين المقرونين من الحنطة والشعير ٦٠ دينـارا والدينار على صرف ١٥ درهما بدينـار فبلغ ذلك

١٠٠٣٦١٨٥٠ درهما وقال : إن صدقات البصرة ترتفع فى السنة ٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، فاذا جمعت ذلك كله ، بلغ ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهما على هذه الصورة :

٨٠٩٥٨٠٠	الدراهم المجموعة ورقا
١٠٠٣٦١٨٥٠	قيمة الحنطة والشعير بالدرهم
٦٠٠٠٠٠٠	صدقات البصرة
١١٤٤٥٧٦٥٠	درهما

هــذا هو ارتفاع السواد ، فلنتقــدّم الى إيراد جبايات سائر الأقاليم بالمشرق والمغرب وهى مع السواد :

أقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
الســواد	١١٤٤٥٧٦٥٠	ما قبـــله	٢٤٢٢٥٧٦٥٠
الأهواز	٢٣٠٠٠٠٠٠	الرى ودماوند	٢٠٠٨٠٠٠٠
فارس	٢٤٠٠٠٠٠٠	قزوين و زنجان وأبهر ...	١٨٢٨٠٠٠
كرمان...	٦٠٠٠٠٠٠	قومس	١١٥٠٠٠٠
مكران...	١٠٠٠٠٠٠	جرجان	٤٠٠٠٠٠٠
أصبهان	١٠٥٠٠٠٠٠	طبرستان	٤٢٨٠٧٠٠
سجستان	١٠٠٠٠٠٠	تكريت والطيرهان	٩٠٠٠٠٠
خراسان	٣٧٠٠٠٠٠٠	شهرزور والصامغان... ...	٢٧٥٠٠٠٠
حلوان...	٩٠٠٠٠٠	الموصل وما يليها	٦٣٠٠٠٠٠
ماه الكوفة...	٥٠٠٠٠٠٠	قردى وبذيدى	٣٢٠٠٠٠٠
ماه البصرة...	٤٨٠٠٠٠٠	ديار ربيعــة	٩٦٣٥٠٠٠
همــدان	١٧٠٠٠٠٠	أرزن وميافارقين	٤٢٠٠٠٠٠
ماسبذان	١٢٠٠٠٠٠	طرون	١٠٠٠٠٠
مهرجان قذق	١١٠٠٠٠٠	آمد	٢٠٠٠٠٠٠
الايغارين	٣١٠٠٠٠٠	ديار مضر	٦٠٠٠٠٠٠
قم وقاشان	٣٠٠٠٠٠٠	أعمال طريق الفرات ...	٢٩٠٠٠٠٠
أذربيجان	٤٥٠٠٠٠٠	المجمـــوع	٣١١٥٨١٣٥٠
نقل بعـــده	٢٤٢٢٥٧٦٥٠		

(تابع) ارتفاع السواد وإيراد جبايات سائر الأقاليم

أقاليم المغرب	دنانير	أقاليم المغرب	دنانير
قنسرين والعواصم	٣٦٠٠٠٠	ما قبله ...	٣٥٩٢٠٠٠
جند حمص	٢١٨٠٠٠	الحرمين	١٠٠٠٠٠
« دمشق	١١٠٠٠٠	اليمن	٦٠٠٠٠٠
« الأردن	١٠٩٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠٠٠٠
« فلسطين...	٢٩٥٠٠٠	عمان	٣٠٠٠٠٠
مصر والاسكندرية... ...	٢٥٠٠٠٠٠	المجموع	٥١٠٢٠٠٠
نقل بعده ...	٣٥٩٢٠٠٠		

وإذا ما حولنا هذه الدنانير الى دراهم ، باعتبار الدينار ١٥ درهما فانها تساوى ٧٦٧١٠٠٠٠ درهم وبإضافتها الى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة ، يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨٢٩١٣٥٠ درهما وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة .

***

(ز) السعايات والجاسوسية :

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالقيد ، وهى انتشار السعايات والدسائس فى ذلك العصر انتشارا مروعا . ولعل سبب ذلك جنوح العباسيين الى استعمال الجواسيس والرقباء بكثرة هائلة . فانظر مثلا ما جاء فى الجزء العشرين من كتاب « نهاية الأرب » عن المأمون إذ يقول : إنه كان يحب سماع أخبار الناس حتى جعل برسم الأخبار ببغداد ألف عجوز وسبعمائة عجوز . فتأمل جاسوسية العصر التى لا يبعد البتة أن تكون لها يومئذ إدارات خاصة !

وبعد ، فهما يكن من افتراضك للمبالغة والغلو فيما يرويه لنا صاحب نهاية الأرب ، فان اطلاعك على كتاب ابن طيفور الذى كان معاصرا لكثير من رواته ، والذى كان

قريب العهد بالمأمون وعصره ، يقنعك بكثرة العيون وكثرة الأرصاد ، كثرة قد تَهولك حقا وتدهشك صدقا ! ! .

وقد سبق أن قلنا إن جل الساسة العباسـيين كانوا يوصون بحفظ الأسرار ، ويحبون الرجلَ الكُتَمَة القُفَلة . وكان لحفظ الأسرار عندهم مكانة عظيمة . وانك اذا نظرت الى قول المأمون : « تحتمل الملوك كلَّ شيء إلا ثلاثة : إفشاء السر ، والقدح فى الملك ، والتعرض للحرم » علمت حينئذ مكانة حفظ السر عندهم ، وأنها فى المنزلة الأولى من اعتبارهم ، واستطعت أن تعلل لم كانت خططهم غير واضحة ولا جلية ، وربما كانت مُعَمَّاة مبهمة .

* * *

(ح) الدعاوة "البروپاجندا" :

وهناك مسألة أخرى نحـدّثك بها ، وهى جديرة بالملاحظة قمينـة بالبحث ، تلك هى عنايتهم بأمر الدعاوة وتقويتهم حملاتهم فيما يريدون الدفاع عنه . فقد كان إتقانهم لأمرها وعلمهم بأفانينهـا ووقوفهم على نُظُمها ، بالغا مبلغا عظيما ، إذ كان فى مُكْنتهم وطوع بنانهـم ، أن يصوّروا الحق باطلا والباطل حقا . وإن فيما رواه الطبرىّ وغير الطبرىّ عن سنى حياة المأمون ، واستخدامه للرقاع تعلّق على ظهر من يُقتـل أو يُعاقب من رجالات دولته ، الغنيةَ والكفاية فيما نحن بسبيل القول فيه .

وانّا نسوق اليك مثلين لتأييد ما ذهبنا اليه :

فقد ذكر الطبرى أن المأمون لـما قتل علىَّ بن هشام أمر أن تكتب رقعة وتعلّق على رأسـه ليقرأها الناس ، فكُتب ـ وقد ذكرنا هـذا الكتاب فيما سبق لمناسـبة أخرى ـ : « أما بعـد ، فان أمير المؤمنـين كان دعا علىّ بن هشام فيمن دعا من أهـل خراسان ، أيام المخلوع ، الى معاونته والقيام بحقـه ، وكان فيمن أجاب وأسرع الإجابة ، وعاون فأحسن المعـاونة ، فرَعَى أمير المؤمنين ذلك له ، واصـطنعه ، وهو يظن به تقوى الله

وطاعته، والانتهاء الى أمر أمير المؤمنين فى عمل إن أسند اليه فى حسن السيرة وعفاف الطُّعْمة. وبدأه أمير المؤمنين بالإفضال عليه، فولّاه الأعمال السنية، ووصله بالصلات الجزيلة التى أمر أمير المؤمنين بالنظر فى قدرها، فوجدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم، فمدّ يده الى الخيانة والتضييع لما استرعاه من الأمانة، فباعده عنه وأقصاه، ثم استقال أميرَ المؤمنين عَثْرَتَه، فأقاله إياها، وولاه الجبل وأَذْرَبِيجان وكور أَرْمِينِيّة، ومحاربةَ أعداء الله الخونة، على ألّا يعودَ لما كان منه، فعاود أكثر ما كان بتقديمه الدينار والدرهم على العمل لله ودينه، وأساء السيرة، وعَسَف الرعية، وسفك الدماء المحرّمة، فوجه أمير المؤمنين عُجيف بن عنبسة مباشرا لأمره، وداعيا الى تلافى ما كان منه، فوثب بعجيف يريد قتله، فقوّى الله عجيفا بنيّته الصادقة فى طاعة أمير المؤمنين حتى دفعه عن نفسه. ولو تم ما أراد بعجيف لكان فى ذلك ما لا يُستدرك ولا يُستقال، ولكنّ الله اذا أراد أمرا كان مفعولا. فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله فى علىّ بن هشام، رأى ألّا يؤاخذَ من خلفه بذنبه، فأمر أن يجرى لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ومن كان يجرى عليهم، مثلَ الذى كان جاريا لهم فى حياته. ولولا أن علىّ بن هشام أراد العُظْمَى بعجيف لكان فى عداد من كان فى عسكره ممن خالف وخان، كعيسى بن منصور ونظرائه والسلام».

فأنت ترى من هذا الى أية درجة من العناية والاهتمام وصلت الدعاوة «البروباجنده» المأمونيـــة !

ولا غرو فقد أفادت المأمون أيما إفادة. وقد كان المسلمون، بسبب نشاط العباسيين فى الدعوة لأنفسهم، أطوعَ لهم مما كانوا لبنى أمية، واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أبد الدهر حتى يأتى السيد المسيح. وغُرِسَ فى أذهان الناس، بتوالى الأزمان، أن الخليفة العباسىّ اذا قُتِل اختلّ نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القَطْر وجفّ النبات ! كل ذلك من أثر عناية العباسيين بالدعاوة لأنفسهم، واهتمامهم أيما اهتمام بتبرير تصرّفاتهم وتزكية أعمالهم.

ثم انظر ماذا حصــل لابراهيم بن المهدى ، تر أن الدعوة المأمونيــة أبتْ إلا أن يقعد فى دار المأمون لينظر اليه بنو هاشم والقوّاد والجند ، وصَيَّر الدعاةُ المِقْنَعَة التى كان متنقّبا بها فى عنقه ، والملحفةَ التى كان ملتحفًا بها فى صدره ، ليراه الناس و يعلموا كيف أُخذ .

وانظر أخيرا — رعاك الله و وفقك — الى ما يحدّثنا به أحمــد بن أبى دُوَاد عن كلمة المأمون فى هذا الصدد ، قال : « قال لى المأمون : لا يستطيع الناسُ أن يُنصفوا الملوكَ من وزرائهم ، ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك وحُماتهم وكُفاتهم ، و بين صنائعهم و بطانتهم ، وذلك أنهم يرون ظاهرَ حرمة وخدمةٍ واجتهادٍ ونصيحة ، ويرون إيقاع الملوك بهــم ظاهرا ، حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رغبــةً فى ماله أو رهبــةً فى بعض مالا تجود النفوس به ؛ ولعل الحسد والملالة وشهوة الاستبدال اشتركت فى ذلك . وهناك خيانات فى صلب الملك أو فى بعض الحُرَم ، فلا يستطيع الملك أن يكشف للعــامة موضعَ العورة فى الملك ، ولا أن يحتج لتلك العقوبة بمــا يستحق ذلك الذنب ، ولا يستطيع الملك ترك عقابه ، لمــا فى ذلك من الفساد على علمــه بأن عذره غير مبسوط للعامة ، ولا معروف عند أكثر الخاصة » .

* * *

(ط) صعوبة مهمة المــؤرّخ :

والحق أنها مهمة صعبةٌ أن تستكشف حقيقةَ الظالم من المظلوم ، والغالبَ من المغلوب ، والهادى والضالّ ، فى هذه الدولة التى لعبت فيها الأقلام والألسنة دورا عظيما . ولولا ماجنحنا اليــه من الاطّلاع على شتى المصادر ، وقضينا فى ذلك تمهيــدا طويلا ودرسًا مملًّا متعبا ، فطالعنا أقوال الأحزاب المتضاربة ، ووازنّا بين كلمة هذا ودفاع ذاك ، لمــا كنا بالغين بعض ما بلغناه من إماطة اللثام عن بعض الحقائق التاريخية . وفى هــذا القدر الكفاية عن حياة المأمون الخليفة ، وآن لنا أن نتكلم عن نواحيه الخلقية .

الفصل السابع

شخصية المأمون

توطئة — كرمه وسخاؤه — كيف ملك المأمون قلوب بطانته — قدره لرجال دولته — قدره للشجاعة الأدبية — عدله وانصافه — عفوه — بصره بالأدب — علم المأمون — احترامه للدين — سياسته — مذهبه الديني — كلمة ختامية .

(ا) توطئة :

نريد هنا أن نحلل أخلاق المأمون ، ونريد أن نستقصى كل ما قيل عنه وأن ندرس شتّى نواحيه الخُلُقيّة بما تستحقه من العناية والتعليق والتوضيح . وسنعتمد فيما سنكتبه على الحوادث وما رواه المعاصرون عنه . ونرجو أن نوفق فيما سنعانيه .

(ب) كرمه وسخاؤه :

يقول صاحب النجوم الزاهرة : انه لم يفرّق ملك ولا سلطان فى يوم واحد مثل ما فرّقه المأمون يوم ولّى ولده العباس على الجزيرة ، اذ أمر لكلٍّ من المعتصم والعباس بخمسمائة ألف دينار ، وأمر بمثل ذلك لعبد الله بن طاهر .

وقد يكون من نافلة القول أن نذكر أن المأمون كان من أكثر خلفاء العباسيين جودا وأبسطهم يدا ، وأسخاهم نفسا ، بعد أن نرى كتبَ التاريخ والأدب مفعمةً بما كان له من حوادث غريبة فى السخاء والجود .

والذى يتتبّع ما ذكره المؤرّخون من حوادث جوده وفيض إنعامه ، يرى أن كرم المأمون وسخاءه يرجع الى عناصر مختلفة فى نفسه ، فمنها ما يرجع الى ما فى فطرته من أريحيّة واهتزاز للعروف ، ومنها ما يرجع اليه كسياسىّ يريد أن يَظفَر ويَملك القلوب ، ويُوَطِّد أركان سلطانه بالمال .

ونحن اذا نظرنا الى الدوحة الهاشمية التى تفرع عنها المأمون، وأنه نشأ فى حجر الخلافة فى النعيم والترف، ومن هذا شأنه قلّ حرصه على المال، واذا نظرنا أيضا الى أنه خاض معمعةً سياسيةً وحربيةً كان المال من أفعل آلاتها وأبعدها أثرا — وقد بيّنا لك فى العصر الأموى ما كان للمال من أثر قوى فى إقامة سلطان بنى أمية وتوطيده — لم نرغلوا كبيرا فيما أترعت به كتبُ الأدب والتاريخ من حوادث جود المأمون وكرمه . ولننظر فيما يرويه لنا ابن طيفور فى هذا السبيل، فانه قال : إن المامون لما فتح « حصن قُرّة » وغنم ما فيه اشترى السَّبْىَ بستة وخمسين ألف دينار، ثم خَلَّى سبيلهم وأعطاهم دينارا دينارا .

وهاك مثالًا مما يصح أن يكون من آثار أريحيّة المأمون وإرادته توطيد سلطانه :

يحدّثنا ابن الأثير والطبرى، أن العبسىّ صاحب اسحاق بن ابراهيم قال : كنتُ مع المأمون بدمشق، وكان قد قلّ المال عنده حتى أضاق وشكا ذلك الى أبى اسحاق المعتصم؛ فقال له : يا أمير المؤمنين، كأنك بالمال وقد وافاك بعد جُمْعة، وكان قد حَمَل اليه ثلاثين ألف ألف (١) درهم من خراج مايتولّاه له . قال: فلما ورد عليه ذلك المال، قال المأمون ليحيى بن أَكْثَم : أخرج بنا ننظر الى هذا المال، قال : فخرجا حتى أصحرا ووقفا ينظرانه، وكان قد هُيّئ بأحسن هيئة وحُلّيت أباعرُه وأُلبست الاحلاس الموشّاة والجلال المصبغة وقُلّدت العِهن، وجُعلت البِدَرُ بالحرير الصينى الأحمر والأخضر والأصفر، وأُبديت رءوسُها، قال : فنظر المأمون الى شىء حسن، واستكثر ذلك فعَظُم فى عينه، واستشرفه الناس ينظرون اليه ويعجبون منه، فقال المأمون ليحيى : يا أبا محمد، ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة خائبين الى منازلهم، وننصرف بهذه الأموال وقد ملكناها دونهم، إنّا إذًا للئامٌ! ثم دعا محمد بن يزداد، فقال له : وَقِّع لآل فلان بألف ألف، ولآل فلان بمثلها، ولآل فلان بمثلها، قال: فوالله إن زال كذلك حتى فرّق أربعة وعشرين ألف ألف درهم، ورجلُه فى الركاب، ثم قال : ادفع الباقى الى المعلّى يعطى جندنا . قال العبسى : فجئت

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبدالوهاب النجار : « أحسب أن ألفا زائدة فى عباراتهم المنقولة لأن حساب ذلك يؤول الى مليارين من الدنانير، وغلة بنى العباس فى عشر سنوات لا تفى بذلك، فكيف بمصر وحدها ».

حتى قمتُ نُصْب عينه ، فلم أردّ طرفى عنها لا يلحظنى إلا رآنى بتلك الحال ، فقال يا أبا محمد : وَقِّع لهذا بخمسين ألف درهم من ستة آلاف الألف ؛ قال : فلم يأت علىّ ليلتان حتى أخذت المال » .

ومما يدل على كرم نفس المأمون وحُسْنِ تبسّطه ، ما رواه القاسم بن محمد الطيفورى ، قال : ”شكا اليزيدىّ الى المأمون خَلّة أصابته ودَيْنًا لحقه ؛ فقال : ما عندنا فى هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغتَ به ماتريد ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الأمر قد ضاق علىّ ، وإن غُرَمائى قد أرهقونى ؛ قال : « فرُمْ لنفسك أمرا تنلْ به نفعا ؛ فقال : لك منادمون فيهم مَن إن حركتَه نلتُ منه ما أحبّ ، فأطلِق لى الحيلة فيهم ؛ قال : قل ما بدا لك ؛ قال : فاذا حضروا وحضرت فُـرْ فلانا الخادم أن يُوَصّل اليك رقعتى ، فاذا قرأتَها فأرسل الىّ : «دخولُك فى هذا الوقت متعذر ، ولكن اختر لنفسك من أحببت» . قال : فلما علم أبو محمد بجلوس المأمون واجتماع ندمائه اليه وتيقَّن أنهم قد ثَمِلوا من شربهم ، أتى الباب فدفع الى ذلك الخادم رقعةً قد كتبها ، فأوصلها الى المأمون ، فقرأها فاذا فيها :

يا خيرَ إخوانى وأصحابى * هذا الطُّفَيْلِىّ لدى الباب
خُبِّرَ أن القوم فى لذّة * يَصْبو اليها كلّ أوّاب
فصيّرونى واحدًا منكمُ * أو أخرجوا لى بعضَ أترابى

قال : فقرأها المأمون على من حضره ؛ فقالوا : ما ينبغى أن يدخل هذا الطفيلىّ على مثل هذه الحالة ؛ فأرسل اليه المأمون : « دخولك فى هذا الوقت متعذر ، فاختر لنفسك من أحببت تنادمه » . فقال : ما أرى لنفسى اختيارًا غير عبدالله بن طاهر ؛ فقال له المأمون : قد وقع اختياره عليك فسرْ اليه ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، فأ أكون شريك الطفيلىّ ؛ قال : ما يمكن ردّ أبى محمد عن أمرين ، فان أحببت أن تخرُج وإلا فافتدِ نفسَك . فقال : يا أمير المؤمنين ، له علىّ عشرة آلاف درهم ! قال : لا أحسَبُ ذلك يُقنعه منك ومن مجالستك ؛ قال : فلم يزل يزيده ، عشرة عشرة ، والمأمون يقول له : لا أرضى له بذلك ،

حتى بلغ مائة ألف . قال : فقال له المأمون : فعَجِّلها له ؛ قال : فكتب له بها الى وكيله ، ووجّه معــه رسولًا . فأرسل اليه المأمون : « قَبْضُ هذه فى هذه الحال أصلحُ لك من منادمته على مثل حاله ، وأنفع عاقبة » .

ويتجلّى سخاء المأمون ، مع الوفاء وطيب النفس ، فى موقفه مع غلام سَعِيدٍ الجوهرىّ الذى كان قد لزّ بالمـأمون فى الكُتّاب ؛ فكان اذا احتاج المأمون الى مَحْوِ لَوْحه بادر اليــه فأخذ اللوح من يده فمحاه وغاب على غِلْمــان المأمون ومســحه وجاء به فوضــعه على المنديل فى حجره . فلما سار المأمون الى خراسان وكان من أخيه محمد الأمين ما كان ، خرج اليــه غلام سعيد هــذا فوقف بالباب حتى جاء أبو محمد اليزيدىّ ، فلما رآه عرفه ، فدخل فأخبر المأمون ؛ فقال له مستبشرا بقدومه : لك البشرى ! ثم أذن له فدخل عليه ؛ فضحك اليه حين رآه ، ثم قال : أتذكر وأنت تبادر الى محو لوحى ! قال : نعم يا سيّدى . فوصله بخمسمائة ألف درهم .

وانظر فيما يحدّثنا به الطبرىّ عن محمــد بن أيوب ، قال : إنه كان بالبصرة رجل من بنى تميم وكان شاعرا ظريفا ، خبيثا ماكرا ، وكنت أنا وَالِىَ البصرة آنس به وأستحليه ، فأردت أن أخدعه وأستنزله ، فقلت له : أنت شاعر ، وأنت ظريف ، والمأمون أجود من السحاب الحافل والريح العاصف ، فما يمنعك منه ؟ قال : ما عندى ما يُقلّنى ، قلت : فأنا أعطيك نجيبًا فارها ونفقــةً سابغة وتخرج اليه وقــد امتدحته ، فانك إن حَظيت بلقائه ، صِرْتَ الى أُمْنيتك ؛ قال : والله أيها الأمير ، ما إخالك أبعدتَ ، فأعدّ لى ما ذكرت ؛ قال : فدعوت له بنجيبٍ فاره ، فقلت : شأنَك به فامْتَطِه . قال : هذه إحدى الحُسْنَيَيْن ، فما بال الأخرى ؟ فدعوت له بثلثمائة درهم ، وقلت : هذه نفقتك ، قال : أحسَبك أيها الأمير قصّرتَ فى النفقة ، قلت : لا ، هى كافية إن قصرتَ عن السَّرَف ، قال : ومتى رأيتَ فى أكابر سَعْد سرفا حتى تراه فى أصاغرها ! فأخذ النجيب والنفقة ، ثم عمل أرجوزةً ليست بالطويلة ، فأنشدنيها وحذف منها ذكرى والثناء علىّ ، وكان ماردا ، فقلت له : ما صنعت شيئا ؛ قال :

وكيف؟ قلت : تأتى الخليفة ولاُتثنى على أميرك! قال : أيها الأمير أردتَ أن تخدعنى فوجدتنى خدّاعا ! أما والله ما لكرامتى حملتَنى على نجيبك ولا جُدْتَ لى بمالك الذى ما رامه أحد قط إلا جعل الله خدّه الأسفل ، ولكن لأذْكُرك فى شعرى وأمدحَك عند الخليفة ، افهم هـذا؛ قلت : قد صدقتَ ، فقال : أمّا اذ أبديتَ ما فى ضميرك ، فقد ذكرتك وأثنيت عليك؛ قلتُ : فأنشدنى ماقلتَ ، فأنشدنيه ، فقلت : أحسنتَ ، ثم ودّعنى وخرج ، فأتى الشأم وإذا المأمون «بسَلَغُوس» . قال : فأخبرنى ، قال : «بينا أنا فى غزاة قُرّة ، قد ركبتُ نجيبى ذاك ، ولبست مُقَطَّعاتى وأنا أروم العسكر ، فاذا أنا بكهلٍ على بغـل فاره ، ما يَقرّ قراره ولا تدرك خُطاه ، قال : فتلقّانى مكافحةً ومواجهـة وأنا أردِّد نشيد أرجوزتى ، فقال : سلام عليكم ! بكلام جَهْوَرِىّ ولسانٍ بسيط ؛ فقلت : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ! قال : قِف إن شئتَ ، فوقفت ، فتضوّعتْ منه رائحة العنبر والمسك الأذْفَر ؛ فقال : ما أوّلك؟ قلت : رَجُلٌ من مُضَر؛ قال : ونحن من مضر . ثم قال : ثم ماذا ؟ قلت : رجل من بنى تميم ؛ قال : وما بعـد تميم ؟ قلت : من بنى سَـعْد ؛ قال هيه ! فما أَقْدَمَك هذا البلد ؟ قال : قصدت هـذا الملك الذى ما سمعتُ بمثله أندى رائحةً ، ولا أوسع راحةً ، ولا أطول باعا ، ولا أمدّ يفاعا ؛ قال : فما الذى قصدتَه به؟ قلت : شعر طيِّب يلذّ على الأفواه وتقتفيه الرواة ويحلو فى آذان المستمعين؛ قال : فأنشِدْنيه ، فغضِبتُ وقلت : ياركيك ! أخبرتك أنى قصدت الخليفة بشعر قلته ومديح حبّرته ، تقول أنشدنيه ! قال : فتغافل والله عنها وتطأمَنَ لها وألغى عن جوابها ؛ قال : وما الذى تأمُل منه ؟ قلت : ان كان على ما ذُكر لى عنه ، فألف دينار قال : فأنا أُعطيك ألف دينار إن رأيتُ الشعر جيِّدا والكلامَ عذبا ، وأضع عنك العناء وطولَ الترداد ، ومتى تصل الى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف رامح ونابل ! قلت : فلِى الله عليك أن تفعل؛ قال : نعم ، لك الله علىّ أن أفعل؛ قلتُ : ومعك الساعة مال؟ قال : هذا بغلى ، وهو خير من ألف دينار ، أنزل لك عن ظهره؛ قال : فغضبت أيضا وعارضنى نَزَق سَعْد وخفّة أحلامها ، فقلت : ما يساوى

هـذا البغل هذا النجيب ؛ قال : فدع عنك البغل ، ولك الله علىّ أن أعطيك الساعة ألف دينار ، قال : فأنشدته :

مأمونُ ياذا المِنَنِ الشَّريفَـهْ * وصاحبَ المَرْتَبَـةِ المُنيفَهْ
وقائدَ الكَتيبـةِ الكَثيفَـهْ * هَلْ لك فى أُرْجُوزَةٍ طَريفَهْ
أَظْرَفَ من فقه أبى حَنيفَهْ * لا والذى أنتَ له خَليفَـهْ
ماظُلِمَتْ فى أرضنا ضَعيفَهْ * أَمِـيرنا مُؤْنتـه خفيفَـهْ
وما ٱجتبَى شيئا سِوَى الوَظيفَهْ * فالذئبُ والنعجةُ فى سَـقيفَهْ
* واللصُّ والتاجرُ فى قَطِيفَهْ *

قال : فوالله ما عدا أن أنشدتُه ، فاذا زُهاء عشرة آلاف فارس قد سدّوا الأفق ، يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! قال : فأخذنى أُفْكَلٌ(١) ، ونظر الىّ بتلك الحالة فقال : لابأس عليك أى أخى ؛ قلت : يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداءك ، أتعرف لغات العرب؟ قال إى لَعَمْرُ الله ! قلت : فمن جعل الكاف منه مكان القاف؟ قال : هذه حِمْيَر ؛ قلت : لعنها الله ولعن من استعمل هـذه اللغة بعد اليوم ! فضحك المأمون وعلم ما أردتُ ، وٱلتفتَ الى خادم الى جانبـه فقال : أَعْطِه ما معك ، فأخرج الىّ كيسا فيـه ثلاثة آلاف دينار ، فقال : هاك ، ثم قال : السلام عليك ومضى ، فكان آخر العهد به .

أما عن كرم نفسه فان ابن طيفور يحدّثنا أن مُخارقا قال : كنا عند المأمون أنا والمغنون بدمشق وعَريبُ معنا ، فقال : غَنِّ يامخارق ؛ فقلت : أنا محموم ؛ فقال : ياعريب جُسِّيه ، فرفعت يدها الى عضدى ، فقال لها المأمون : قد اشتهيته ، تحبين أن أزوّجك ؟ قالت : نعم ! فقال مَن تريدين؟ قالت : هذا ، وأَوْمَأَتْ الى محمـد بن حامد ، فقال : اشهدوا أنى قد زوّجتها منه . ثم انظر ما يستطرد به مخارق من أن المعتصم لما وَلِىَ ، كتب الى اسحاق ابن ابراهيم : أن مُرْ محمـد بن حامد أن يُطَلِّق عَرِيبـا ، فأمره فتأبَّى ، فكتب اليه : أن

(١) أفكل : رعدة وقشعريرة .

اضربه، فضربه بالمقارع حتى طلقها . ففى هـذه الرواية ما يساعد على الوصول الى تنظير فى هذه الناحية بين المأمون وأخيه المعتصم .

أما كرم بطانتـه واقتفاؤهم أثره، وترسمهم خطواته ، فانّ الحـديث فى ذلك يطول ، وقصارانا أن نحيل الى ما فعل طلحة بن طاهر وعبد الله بن طاهر وغيرهما، فاطلب ذلك فى مظانّه .

« وبعـد » فانه لمن الجميل الممتع حقا أن يكون الملك كريما بسجيته ، جوّادا بنزعته ، وقد يكون أجمل وأمتع ، وأبلغ وأوقع ، أن يكون من وراء فواضله وإنعاماته تشجيع الكفايات على الظهور ، واستحثاث أصحاب الهمم والعزمات ، والمواهب والعبقريات ، على التبريز والإحسان، والإجادة والإتقان، خدمة لبنى الإنسان، ورفعة للأوطان .

* * *

(ج) كيف تملك المأمون قلوب بطانتـه :

نريد أن نترك الكلمة فى تصوير هذه الناحية، لما يَرويه لنا ولاةُ المأمون أنفسُهم؛ فقد قال رجل من إخوة المأمون للمأمون : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن طاهر يميل الى ولد أبى طالب ، وكذا كان أبوه قبله ، فدفع المأمون ذلك وأنكره؛ ثم عاد بمثل هـذا القول ؛ . فدسّ اليه رجلا ثم قال له : امض فى هيئة القُرّاء والنسّاك الى مصر، فادعُ جماعةً من كبرائها الى القاسم بن ابراهيم بن طباطبا، واذكر مناقبَه وعلمَه وفضائله، ثم صِرْ بعد ذلك الى بعض بطانة عبد الله بن طاهر، ثم ائته فادعُه ورغّبه فى استجابته له ، وابحَثْ عن دفين نيّته بحثًا شافيا، وأتِنى بما تسمع منه . قال: ففعل الرجل ما قال له وأمره به؛ حتى اذا دعا جماعةً من الرؤساء والأعلام ، قعد يومًا بباب عبـد الله بن طاهر، وقد ركب الى عُبيد الله بن السّرىّ بعد صلحه وأمانه ، فلما انصرف قام اليه الرجل فأخرج من كمّه رُقعةً فدفعها اليه ، فأخذها بيـده ، فما هو إلا أن دخل فخرج الحاجبُ اليه، فأدخله عليـه ، وهو قاعد على بساطه ما بينه وبين الأرض غيره، وقد مدّ رجليه وخُفّاه فيهما، فقال له : قد فهمتُ ما فى رُقعتك

من جملة كلامك ، فهاتِ ما عندك ؛ قال : ولى أمانُك وذمةُ الله معك ؟ قال : لك ذلك . قال : فأظهر له ما أراد ودعاه الى القاسم فأخبره بفضائله وعلمه وزهده ؛ فقال له عبدالله : أتُنصفنى ؟ قال نعم ؛ قال : هل يجب شكر الله على العباد ؟ قال نعم ؛ قال : فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان والمنّة والتفضُّل ؟ قال نعم ؛ قال : فتجىء الىّ وأنا فى هذه الحال التى ترى : لى خاتم فى المشرق جائز وفى المغرب كذلك ، وفيما بينهما أمرى مطاع وقولى مقبـول ، ثم ما التفتُّ يمينى ولا شمالى وورائى وقدّامى ، إلا رأيت نعمـةً لرجل أنعمها علىّ ومنّـةً ختم بها رقبتى ويدًا لائحةً بيضاء ابتـدأنى بها تفضُّلًا وكرما ، فتدعونى الى الكفر بهـذه النعمة وهذا الاحسان ! وتقول اغدر بمن كان أوّلًا لهذا وآخرا ! واسعَ فى إزالة خَيْط عُنقه وسَفْك دمه ! تراك لو دعوتنى الى الجنـة عِيانًا من حيث أعلم أكان الله يحبّ أن أغدُر به وأكفُرَ إحسانه ومنتـه ، وأنكث بيعته ! فسكت الرجل ؛ فقـال له عبـد الله : أَمَا إنه قد بلغنى أمرُك ، وتالله ما أخاف عليك إلا نفسَك ، فارحَلْ عن هذا البلد ، فإن السلطان الأعظم إن بلغه أمرك ، وما آمنُ ذلك عليك ، كنتَ الجانىَ على نفسك ونفس غيرك . فلما أيس الرجل مما عنده جاء الى المأمون فأخبره الخبر ؛ فاستبشر وقال : ذلك غَرْس يدى ، وإِلْفُ أدبى ، وتِرْب تلقيحى ، ولم يُظْهِر مِنْ ذلك لأحدٍ شيئا ولا علم به عبـدُ الله إلا بعـد موت المـأمون .

وانظر الى تلك النصيحة التى تقـدّم بها عبدُ الله بن طاهر لمنصـور بن طلحة ، ينهاه عن الكلام فى الإمامة اذ يقول : " إنمـا نبت شعرُنا على رءوسنا ببنى العباس " . ثم انظر الى ما كتبه المأمون الى عبد الله المذكور :

أخى أنت ومولاىَ * ومَنْ أشكر نُعماهُ
فما أحببتَ من أمرٍ * فإنّى الدهرَ أهواه
وما تكرَه من شىءٍ * فانى لستُ أرضاه
لك اللهُ علـى ذاك * لك اللهُ لك اللهُ

وانظر الى ما رواه الطبرى عما قاله عبد الله بن طاهر وهو مُحاصر بمصر عُبَيدَ الله ابن السرى إذ قال :

بَكَرتْ تُسْبِلُ دمعا * أن رأتْ وَشْكَ بَرَاحِى
وتبدَّلتُ صَقِيلًا * يمنيًا بوِشَاحِى
وتمادِيتُ بسيرٍ * لغدوّ ورواح
زعمتْ جهلًا بأنى * تَعِبٌ غيرُ مُراح
أقصِرى عنّى فإنى * سالكٌ قصدَ فلاحى
أنا للمأمون عبدٌ * منه فى ظلّ جَناح
إن يُعافِ الله يومًا * فقريبٌ مُستراحى
أو يكن هُلك فقُولى * بعويلٍ وصِياح
حَلّ فى مصرَ قتيلٌ * ودَعى عنك التّلاحى

ألا يجوز لنا أن نستخلص مما قدّمناه لك أن المأمون كان محبوبا عند بطانته ! ولسنا ننفى بذلك أن الأمين لم يكن محبوباً ، وأن موته آلم أهل بغداد وجندها ، ولا ننكر أن بعضا من جند طاهر بن الحسين انضمّ الى الأمين طمعاً فى ماله وحبا فى سخائه مما بيّناه لك فى موضعه ، ولكنا الآن بموقف الذين يحللون أخلاق المأمون ، وفى عنقنا ألا نترك ناحية من نواحيه من غير أن نَفِيها حقّها من البحث ، ونعطيها نصيبها من الاستقراء .

« وبعد » فانه مما لا مندوحة للمليك عنه أن يكون وادعا محببا الى بطانته وحاشيته ، باحسانه اليهم ، وتعهده إياهم بعطفه ورعايته ، وأن يحدب عليهم ويرعاهم بعناية تشملهم ألطافها وتقلد أعناقهم مننها ، وتكون أشمل للرعية وأرعى للأفراد لحقّهم من شخصه الجليل ، إذ هو ملك للرعية جميعها ، على اختلاف ألوانها وتبايُنِ مراتبها ، وهو عظِيم التَّبِعة أمام الله والتاريخ عمن تملّك عليهم وتولّى أمر دنياهم وآخرتهم .

*
* *

(د) تقـــديره لرجال الدولة :

كان المأمون أكثر توفيقا من أخيه الأمين ، فى كفاية بطانتــه ، وقُدرة قادته ، وحزم مشــيريه ، وبَصَر وُلاته . وكان ، مع ظفره بالناصحين من خاصته ، كثير التأمل لما يجرى فى ملكه من مظاهر الضعف والقوة ، حريصا على تدبر ما يمرّ به من مختلف الشــؤون ، فى تعرّف الشخصيات القوية التى يرجو أن يستند اليها الملك و يتأيد بها النظام .

ولقــد حدّثنا الطبرىّ فى تاريخه عن إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له : يا إسحاق فى قلبى أمرٌ أنا مفكر فيه منذ مدّةٍ طويلة ، وإنما بسطتك فى هذا الوقت لأُفشيَه اليك ؛ فقلت : قل يا سيدى يا أمير المؤمنين ، فانما أنا عبدك وابن عبدك ؛ قال : نظرت الى أخى المأمون وقد اصطنع أربعــة أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يُفْلِح أحدٌ منهم ؛ قلت : ومن الذين اصطنعهم أخوك؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيتَ وسمعتَ ، وعبــدُ الله ابن طاهر ، فهو الرجل الذى لم يُرَمشــلُه ، وأنت ، فأنت والله الذى لا يعتاض السلطانُ منك أبدًا ، وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثلُ محمد! وأنا فاصطنعتُ الأفشين ، فقد رأيتَ الى ما صار أمرُه ، و إشناس ففَشِــل رأيُه ، و إيتاخ فلا شىء ، ووصيفا فلا مُغْنِى فيــه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداك ، أُجيب عن أمان من غضبك؟ قال : قل ؛ قلت : يا أمير المؤمنين ، أعزك الله ، نظر أخوك الى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعُها ، واستعمل أميرُ المؤمنين فروعا لم تُنْجِب ، إذ لا أصول لها . فقال : يا إسحاق ، لمقاســاةُ ما مرّ بى فى طول هذه المدّة أسهلُ علىّ من هذا الجواب .

ولقد كان المأمون ، الى جانب هــذه الخبرة بما يحتاج اليه من صفوة الرجال ، بصيرا بما فى مملكته من ألوان المكر وصنوف الرياء . فقد حدّثنا ابن طيفور عن إبراهيم بن المهدى ، قال : قال المأمون يوما ، وفى مجلســه جماعة ، هاتوا من عسكرنا مَنْ يطلب ما عندنا بالرياء ؛ قال : فقال كل واحد بما عنده : إما أن يقول فى عدوّ بما يقدح فيه ، أو يقول

بما يعلم أنه يسرّ خليفتَه ، فلما قالوا ذلك ، قال : ما أرى عند أحدٍ منكم ما يبلغ إرادتى ، ثم أنشأ يحدّث عن أهل عسكره أهلِ الرياء ، حتى والله لو كان قد أقام فى رَحْلِ كل واحد منهم حولا محرما ما زاد على معرفته . قال : فكان مما حفظت عنه فى تَلْب أصحابه أن قال ، حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس : تسبيح حُميد الطوسىّ ، وصلاة قَحْطبة ، وصيام الوشجانىّ ، ووضوء المِرّيسىّ ، وبناء مالك بن شاهى المساجد ، وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر ، وجمع الحسن بن قريش اليتامى ، وقصص منجا ، وصدقة علىّ بن الجنيد ، وحملان إسحاق بن إبراهيم فى السبيل ، وصلاة أبى رجاء الضحى ، وجمع علىّ بن هشام القصاص ، قال : حتى عددنا جماعة كثيرة ، فقال لى رجل من عظماء العسكر ، حين خرجنا من الدار ، بالله هل رأيتَ أو سمعتَ بملك قطّ أعلمَ برعيته ولا أشدّ تنقيرا من هذا ؟ قلت : اللهم لا ! فحدّث بهذا الحديث رجلا من أصحاب الأخبار والعلم ، فقال : وما نصنع بهذا ، قد شهدتُ رسالته الى إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء ، يخبر بمعايبهم رجلا رجلا ، حتى لهو بها أعلمُ منهم بما فى منازلهم . وإن فى ذيوع هذه الأخبار عن المأمون دليلا على عنايته بنشر دعوة الملك الموطد الذى ييئس المخاتلون من التنكر له والخروج عليه ، فان ظهور الملوك بالنَّفَاذ الى سرائر الرعية ، يزيدهم قوةً الى قوة ، وسلطاناً الى سلطان .

وإنا اذا نظرنا الى من استوزره وأعلى مكانه واستخلصه لنفسه من رجالات دولته وقوّاد ملكه ، لم نتردّد فى الحكم للمأمون ، وأنه كان الموفّق المسدّد فى اختيار أهل الكفايات والنبوغ .

وقد كان ، الى جانب هذا ، يقدُر الكفاية فى خصومه . ونظرةٌ فيما رواه ابن طيفور عن الحسن بن عبد الخالق خاصًّا برأى المأمون فى الفضل بن الربيع ، وهو الذى تعلم مقدار إساءته اليه ، تدلك على هذا ؛ فقد قال المأمون فى معرض الحديث عن الفضل : « كان يدبّر الخطأ فيقع صوابا ، ويبعث بالجيش الضعيف فيقع به النصر ، وأدبّر أنا فيقع بغير ذلك . فلما وقفت على البصيرة من أمرى ، وفكرت فى نفسى ، وعملت بالأحزم

فى ذلك، ملت الى الحزم فوردتُ العراقَ . وإن الفضلَ بن الربيع بقيّة الموالى . فلا تخبره بذلك عنى، فانى أكره أن يبلُغَه عنى ما يسرّه» .

ويؤيد صحة هذه الروايةِ ما ذكره بِشْر السّلمانى من المعاصرين اذ يقول: «سمعت أحمد ابن أبى خالد يقول: كان المأمون اذا أمرَنا بأمر فظهر من أحدنا فيــه تقصيرٌ، يقول: « أترون أنى لا أعرف رجلًا ببابى، لو قلدتُه أمورى كلَّها لقام بها ! » فقال بشر: فقلت لأحمد بن أبى خالد: يا أبا العباس، مَنْ يعنى؟ قال: الفضلَ بن الربيع .

ويظهــر أن خطة المأمون فى تقــدير الكفايات أنَّى وُجدتْ، قد اتّبعها قادةُ المأمون نفســه . فان ابن طيفور يحدّثنا أنه لمــا وُلِّى طاهر بن الحسين على شرطة المأمون سنة أربع ومائتين، وكان عليها من قبلُ العباس بن المسيَّب بن زهير، كتب طاهر الى الفضل ابن الربيع: « إنّ فى رأيك البركةَ، وفى مشورتك الصوابَ، فان رأيتَ أن تختار لى رجلين للجسر! » فكتب اليه ابن الربيع: «قد وجدتهما لك، وهما خيار السِّنْدى بن يحيى وعيّاش ابن القاسم » . فولّاهما طاهر الجسرين .

«وبعد» فانا نظن أن فى هذا القدر الكفاية لاثبات ما كان من تقدير المأمون ورجاله، لأهــل الكفاية والاقتدار، وحرصهم على استــعمال أصحابِ المواهب، والاستعانةِ بهــم وبكفاياتهم، فى خدمة الدولة .

* * *

(هـ) قـــدره للشجاعة الأدبيـــة :

كان المأمون يرضيه أن يكون الرجل نقىّ السريرة، رابطَ الجأش، يُقْــدِم على كلمــة الحــق غيرَ هيّابٍ . وقد حدّثنــا ابن أبى طاهر طيفور عمن روى عنه قال: « حدّثنى أحمــد بن أبى خالد الأحول بخراسان، فيما كان يخــبرنى به عن كرم المأمون وفضــله واحتماله وحسنِ معاشرته، أنه سمع المأمونَ يوما، وعنــده علىّ بن هشــام وأخواه أحمــد والحســين، ذَكَرَ عمرَو بن مسعدة فاستبطأه، وقال: أيحسَبُ عمرو أنى لا أعرف أخبارَه

وما يُجْبَى اليـه وما يعامل به الناس ! بلى والله ! ثم بَعَثه ألّا يسقط علىّ منه شيء! ونهض وانصرفنا فقصـدت عمرا من ساعتي ، فخبّرته بما جرى ، وأُنسيتُ أن أستحلّه من حكايته عنّي . فراح عمرو الى المأمون ، فظن المأمون أنه لم يحضُر إلا لأمرٍ مهمّ ، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة ، فأذن له . فخـبّرني عمرو أنه لما دخل عليـه وضع سـيفه بين يديه ، وقال يا أمير المؤمنين ، أنا عائذ بالله من سخطه ، ثم عائذٌ بك من سخطك يا أمير المؤمنين ، أنا أقلُّ من أن يشكوني أمير المؤمنـين الى أحد أو يُسِرّ علىّ ضِغْنا يبعثـه بعضُ الكلام على إظهاره ما يظهر منه ! فقال لى : وما ذاك؟ فخبّرته بما بلَغَني ولم أسمّ له مُخبِري ، فقال لى : لم يكن الأمر كما بلَغك ، وإنما كانت جملة من تفصيلٍ كنتُ عَلَيّ أن أُخبرك به ، وإنما أخرَجَ مني ما أخرج معنًى تجَارَيْنَاهُ ، وليس لك عندى إلا ما تُحبّ ، فلْيُفرِخ رُوعُك وليَحْسُنْ ظنُّك ، فأعدت الكلام ، فما زال يسكّن مني ويطيّب من نفسي ، حتى تحلّل بعضُ ما كان فى قلبي ، ثم بدأ فضمّني الى نفسه ، وقبّلت يدَه ، فأهوى ليعانقني فشكرته ، وتبيّنت فى وجهه الحياء والخجل مما تأدّى الىّ . قال أحمد : فلما غدوت على المأمون ، قال لى : يا أحمد أَمَا لمجلسي حرمةٌ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، وهل الحُرَم إلا لما فصل عن مجلسك ! قال : ما أراكم تَرْضَوْن بهذه المعاملة فيما بينكم ! قلت : وأيّةُ معاملة يا أمير المؤمنين؟ هذا كلام لا أعرفه ؛ قال : بلى ، أَمَا سمعتَ ما كنا فيه أمس من ذكر عمرو! ذهب بعضُ من حضر من بنى هاشم فخبّره به ، فراح الىّ عمرٌو مُظهرًا منه ما وجب عليه أن يُظهره ، فدفعتُ منه ما أمكن دفعُه ، وجعلت أعتذر اليه منه بعذرٍ قد تبين فىّ الخجل منه ! وكيف يكون اعتذار انسان من كلام قد تكلّم به إلّا كذلك يتبين فى عينيـه وشفتيه ووجهه ، ولقد أعطيتُه ما كان يقنع مني بأقلّ منه ، وما حداني عليـه إلا ما دَخَلني من الخَسَاسـة ، وإنما كان نَطَق به اللسانُ عن غير روية ولا احتمال مكروه به ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنا أخبرتُ عمرا به لا أحدٌ من ولد هاشم ؛ فقال : أنت! قلت أنا ! فقال : ما حمَلك على ما فعلتَ؟ فقلت : الشكرُ لك والنصحُ والمحبة لأن تَتمَّ نعمتُك على أوليائك وخَدَمك ؛ أنا أعلم أن أمير المؤمنين يُحب أن يصلُح له الأعداء

والبعـداء، فكيف الأولياء والأقرباء، ولا سيما مثل عمرو فى دنوه من الخدمة وموقعه من العمــل ومكانه من رأى أمير المؤمنـين ، أطال الله بقاءه! سمعت أمير المؤمنين أنكر منــه شـيئا ، فخبّرته به ليُصلحه ويقوّم من نفســه أَوَدَها لسـيده ومولاه، ويتلافى ما فَرَط منه ولا يُفسده مثله ولا يبطل العناء فيه، وإنمـا كان يكون ما فعلت عيبًا، لو أشعتُ سرًّا فيه قدحٌ فى السلطان، أو نقضُ تدبيرٍ قد استتبّ، فأمّا مثلُ هذا فما حسبته يبلُغ أن يكون ذنبا علىّ، فنظر الىّ مليًّا ثم قال: كيف قلت؟ فأعدتُ عليه، ثم قال : أعِدْ، فأعدت الثالثة ، فقال: أحسنتَ والله يا أحمد! لَمَا خبّرتنى به أحبُّ الىّ من ألف ألف وألف ألف وألف ألف ، وعقد خِنْصَرَه وبِنْصَرَه والوُسطى، ثم قال : أما ألف ألف فلنفيك عنّى سوءَ الظن وأطلق وسْطاه ، وأما ألف ألف فلصدقك إياى عن نفسك، وأطلق البنصر، وأما ألف ألف فلحسن جوابك، وأطلق الخنصر، وأمر لى بمال .

وهذه الشجاعة من أتبـاع المأمون تدلنا على ما كان فيــه من الاستعداد لقـدر كرائم الخـلال . فلو أنه كان معروفا بالاستبداد لمـا أمكن هذه النفوس أن تبلغ ما كانت تطمح اليه من النبل والكرامة . وفى استماعه لاحتجاج جليســه حرصٌ على استبقائه واستكناهِ ما فى نفســه ، فضلا عما يتوقّعه من عواقب هـذا التشجيع المقصود ، من النفاقِ حول شخصــه، وتفانٍ فى الوفاء له ، وإمعانٍ فى خدمته وخدمة بلاده ، خدمةَ الحرّ للحرّ بباعث وجدانىّ، لا خدمة العبد للسيد بعامل الإرهاب والإكراه . ولن تكون الخدمة الخالصة للبلاد بالارهاب والاكراه، ولن تكون خدمة الملوك على وجهها الصحيح بدافع العسف والإعنات، وانمـا يكون ذلك جميعه بحسن الصنيع وجميل الأثر، والإحسان بالقول والفعل، وصفاء النفوس من عوامل البغضاء والغل والعدوان .

ثم انظر فيما يرويه لنا أبو الشباخ، قال : "قال لى المأمون وعنده الزيْدىّ والتّقفىّ مولى الخَيْزُران، واسماعيل بن نَوْبَخْت، وتذاكروا الشعراء، فقالوا : النابغة، وقالوا : الأعشى، وخاضوا فيهم ، فقال : لا أَشْعَرُهم إلا واحدًا كان خليعا : الحسنَ بن هانئ؛ فقالوا :

صدق أميرُ المؤمنين ؛ قال : الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة ؛ فقالوا : فبم قدّمته؟ قال بقوله :

يا شـقيقَ النفس من حَكَمٍ * نِمتَ عن ليـلى ولم أنمِ

ثم لم يسبقه الى هذا البيت أحد :

ثم دبّتْ فى عروقهـمُ * كدبِيب البرءِ فى السَّقَمِ

وفى عبارة «الصـدق على المناظرة أحسنُ من الصـدق على الهيبة» دلالة على رغبتـه فى إحياء الغرائز الأدبيـة التى تُميتها المصانعة، ويَقْبُرها الرياء . ولا يفوتنا أن نشـير الى أن تقـديمه ابن هانئ ، لتجويده فى وصف الراح، له دلالتـه وله مغزاه ؛ فهو يدلّ، الى حد غير قليـل، الى جانب ما علمناه عن المأمون، أصيدَ الهمة، مستحصدَ العزم، على أنه كان فى أوقات أنسـه ومرحه الرجل المرح الطروب، الذى يتذوّق المعانى الفرحة، ومالها من مجاملات وأفانين .

« وبعـد » فإن تربيـة الشعوب على قدر كرامتها الخاصـة ورفعة شأنها بين الأمم ، لتتطلّب تعهـدًا خاصا ممن يتولّى أمرها فى هـذا السبيل ، فيعمل على أن يُحسّ الافـرادُ والحكامُ، ممن هم فى عنقه وتحت هيمنته، مالهم من مكانةٍ ومنزلة، وما لآرائهم وتصرّفاتهم من احترام وقدر ، أخذا لهم بالشجاعة فى المجاهرة بمعتقداتهم ، وتنميةً للروح الذى تفيـده هذه الألفاظ : « حرية . إخاء . مساواة » فى نفوسهم . وإن فى انتهاجهم هذا السبيلَ لأجلّ خدمةٍ لممـالكهم وشعوبهم وعروشهم .

*
* *

(و) عـدله وإنصـافه :

كان المأمون عدلا منصفا الى حدّ بعيد . وقد عَرَف فيه الناس هذه الخَلّة ، فكانوا يطمّعون فى أنصاره والمقرّبين اليه، ويجهرون بالشكوى من كل مَنْ يسوءهم طمعُه أو ينفُذُ اليهم عُدْوانُه .

حدّث بعض المعاصرين قال : « شهدت المأمون وقد ركب بالشّمّاسيّة وخلفَ ظهره أحمد بن هشام ، فصاح به رجلٌ من أهل فارس : اللهَ اللهَ يا أمير المؤمنين ! فان أحمد بن هشام ظلمنى واعتــدى علىّ ! فقال : كن بالباب حتى أرجع ، ثم مضى ؛ فلما جاز الموضع بغُدْوة التفت الى أحمد ؛ فقــال : ما أقبحَ بنا وبك أن نقفك وصاحبَك هذا رءوس هذه الجماعة ، ويقعد فى مجلس خَصْمك ، ويُسْمَع منه كما يُسمع منك ، ثم تكون محقًّا ، ثم تكون مبطلا ، فكيف إن كنتَ فى صفته لك ، فوجِّهْ اليك من يحوّله من بابنا الى رحلك ، وأنْصِفْه من نفسك وأعطه ما أنفق فى طريقه الينا ، ولا تجعل لنــا ذريعةً الى ما تكره من لائمتك ، فوالله لو ظلمتَ العبّاسَ ابنى كنتُ أقلّ نكيرًا عليك من أن تظلم ضـعيفا لا يجدنى فى كل وقت ، ولا تَجْلُوا له وجهى ، وسيما من تجشّم السفر البعيد وكابد حرّ الهواجر وطول المسافة » .

قال المحدّث المعاصر : فوجه اليــه أحمد فجاء به وكتب الى عامله يرد عليه ما أخذ منــه ، ويشتمه ويعنِّفه ، ووصل الرجلَ بأربعة آلاف درهم ، وأمره بالخروج من يومه .

وهناك الكثير من هذا المثل ، كموقفه مع موسى بن الحسن ، وإنصافه بأن أخذ حقه من محمد بن أبى العباس الطُّوسى ، وموقفه مع النصرانى الذى من أهل كَشكَر [1] .

ثم انظر موقفه المشرّف له وللقضاء فى أيامه ؛ فقد قالوا : إن رجلا دخل على المأمون ، وفى يده رقعةٌ فيها مظلمةٌ من أمير المؤمنين ، فقال : أمظلمةٌ منى؟ فقال الرجل : أفأُخاطبُ يا أمير المؤمنين سواك ! قال : وماهى ظلامتك؟ قال : إن سعيدا وكيلك اشترى منى جواهر بثلاثين ألف دينار ؛ قال : فاذا اشترى سعيدٌ منك الجوهر تشكو الظلامة منى ! قال نعم ، اذ كانت الوكالة قد صحّت له منك ! قال : لعل سعيدًا قد اشترى منك الجوهر وحمَلَ اليك المــال أو اشتراه لنفسه ، وعليه فلا يَلْزمنى لك حقّ ولا أعرف لك ظلامة ؛ فقال له (بعد كلام طويل) : إن فى وصيةِ عمر بن الخطاب لقُضاتكم "البيّنةُ على من ادّعى ، واليمينُ على من أنكر" قال المأمون : إنك قد عَدِمتَ البينة ، فما يجبُ لك إلا حَلْفةٌ ، ولئن حلفتُها لأنا

---

(١) أنظر هذه الحكاية فى الجزء السادس من تاريخ بغداد ص ١٠١

صادق اذ كنتُ لا أعرف لك حقًّا يَلْزَمُني ؛ قال : فاذًا أدعوك الى القاضى الذى نصبتَه لرعيتك ؛ قال : نعم ! ياغلام ، علىّ بيحيى بن أكثم ، فاذا هو قد مَثَلَ بين يديه ، فقال له المأمون : اقضِ بيننا ! قال : فى حكم وقضية ! قال نعم ؛ قال : إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء ؛ قال : قد فعلت ؛ قال : فانى أبدأ بالعامة أوّلا ليصلُح المجلسُ للقضاء ، قال : افعلْ ؛ ففتح الباب وقعد فى ناحيةٍ من الباب واذن للعامة ، ثم دُعِى بالرجل المتظلّم ، فقال له يحيى : ما تقول ؟ قال : أقول أن تدعو بخَصْمى أمير المؤمنين المأمون ؛ فنادى المنادى ، فاذا المأمون قد خَرَج ، ومعه غلامٌ يحمل مصلًّى حتى وقف على يحيى وهو جالس ، فقال له : اجلسْ ، فطرح المصلّى ليقعد عليها ؛ فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين ، لا تأخذ على خَصْمك شَرَفَ المجلس ، فطُرِحَ له مصلًّى آخر ، ثم نَظَر فى دعوى الرجل ، وطالبَ المأمونَ باليمين فحلف ، ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه ؛ فقال له المأمون : ما أقامك ؟ فقال : إنى كنت فى حق الله جل وعز حتى أخذته منك ، وليس الآن من حقى أن أتصدّر عليك ، ثم أمر المأمون أن يحضر ما ادّعى الرجل من المال ، فقال له : خذه اليك ، والله ما كنتُ أحلف على فَجْرة ثم أسمح لك فأفسد دينى ودنياى ، والله يعلم ما دفعتُ اليك هذا المال إلا خوفًا من هذه الرعيّة ، لعلها ترى أنى تناولتُك من وجه القدرة ، وإنها لتعلم الآن أنى ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال .

ويحق لنا أن نستنبط من هذا الموقف قيمة القضاء فى تلك الأيام ، واحترام الخلفاء أو من يمت الى الخلفاء لشعائره وأحكامه . ولا نستبعد البتة صحة تلك الرواية ، لأن تصرفات المأمون العباسىّ تجعلنا نقرّها ونؤمن بصدقها من جهة ، ولأنا قرأنا شبيهاتها من جهة أخرى ؛ فقد قيل : إن ابراهيم بن المهدى تنازع وابن بختيشوع الطبيب ، بين يدى أحمد بن أبى دُوَاد فى مجلس الحكم فى عَقَار بناحية السواد ، فأربى عليه ابراهيمُ وأغلظ ، فأحفظ ذلك ابنَ أبى دواد ؛ فقال : يا ابراهيم اذا نازعتَ فى مجلس الحكم بحضرتنا امرأً فلا أعلمنّ أنك رفعتَ عليه صوتا ولا أشرت بيد ، وليكن قصدك أمَمًا وريحُك ساكنة ، وكلامك

معتدلا ، ووَفِّ مجالس الخليفـة حقوقها : من التعظيم والتوقير ، والاستكانة والتوجّه الى الواجب ، فان ذلك أشكلُ بك وأشمل لمذهبك فى محتدك وعظيم خطره ، ولا تعجَلَنّ فربَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثًا ، والله يعصمك من خطل القول والعمل ، وأن يتم نعمته عليـك كما أتمها على أبو يك من قبل إن ربك حكيم عليم ، فقال ابراهيم : أصلحك الله تعالى ، أمرتَ بسَدَاد وحَضَضْت على رشاد ، ولستُ عائدا لمـا يَثْلِم مُروءتى عندك ويُسقطنى من عينيك ويُخرجنى من مقدار الواجب الى الاعتذار ، فهأنذا معتذر اليك من هـذه البادرة اعتذارَ مقرٍّ بذنبـه معترفٍ بجُرْمه ، ولا يزال الغضب يستفزّنى بمواده فيردّنى مثلُك بحلمه وتلك عادة الله عندك وعندنا منك ، وقد جعلتُ حقّى من هذا العَقَار لابن بختيشوع فليت ذلك يكون وافيًا بأَرْش الجناية عليه ، ولم يتلَفْ مالٌ أفاد موعظة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

فترى ممـا قدّمناه لك مبلغ سلطان القضاء وحرمته عند البيت المـالك .

وقد يكون أجمل من هـذا كله — فيما لو صح — ذلك الموقف الروائىّ الذى تقدّمت الى المأمون فيه امرأة تشكو ظلم ابنه العباس فقد شكت اليه بأبيات رقيقة فلم يسَعْه إلا أن يعدّها الإنصافَ بأبيات رقيقة على الوزن والقافية ، وكانت تلك الأبيات فى خفتها وجودة الخاطر بها فى ساعتها بردا وسلاما على قلب تلك المرأة المظلومة .

قال الشَّيْبانى : جلس المأمون يوما للظالم ، فكان آخرُ من تقدّم اليه ، وقد همّ بالقيام ، امرأةٌ عليها هيئة الســفر ، وعليها ثياب رَثّة ، فوقفتْ بين يديه ، فقالت : الســلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فنظر المأمون الى يحيى بن أَكْثم ، فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أَمَةَ الله ، تكلّمى فى حاجتك ، فقالت :

يا خيرَ منتصِفٍ يُهْدَى له الرَّشَـــدُ * ويا إماماً به قـــد أَشْرق البـــلدُ
تشـكو اليك عَميدَ القـــوم أَرْمَلَةٌ * عدا عليهـا فلم يُتْرَكْ لهـا سَـــبَدُ
وابْتَزّ مـــنّى ضِيَاعى بعـد مَنْعَتِها * ظلمـا وفُرّق منّى الأهـــلُ والولَدُ

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه اليها وهو يقول :

فى دونِ ما قلتِ زال الصبرُ والجَلَدُ * عنّى وأُقْرِحَ منّى القلبُ والكبدُ

هـذا أذانُ صلاةِ العصر فانصرفى * وأَحْضِرى الخصمَ فى اليوم الذى أَعِدُ

والمجلسُ السبتُ إن يُقْضَ الجلوسُ لنا * نُنْصِفْكِ منه والا المجلسُ الأحدُ

فلما كان اليومُ الأحدَ جلس، فكان أوّلُ من تقدّم اليه تلك المرأةَ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال : وعليكِ السلام، أين الخصم ؟ فقالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأتْ الى العباس ابنه، فقال لأحمد بن أبى طالب : خُذْ بيده فأجلِسْه معها مجلسَ الخصوم، فجعل كلامُها يَعْلُو كلامَ العباس، فقال لها أحمد ابن أبى طالب : يا أمةَ الله، إنكِ بين يدى أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأميرَ، فاخْفِضى من صوتك، فقال المأمون : دَعْها يا أحمد، فان الحق أنطقها وأخرسه ! ثم قضى لها بردّ ضيعتها اليها، وظلم العباسَ بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها الى العامل ببلدها، أن يوفّر لها ضيعتَها ويحسن معاونتَها وأمر لها بنفقة .

وبعد فان المؤرّخ المنصف، لجدير به أن يقف أمام هذه المُثُل العليا وقفةَ احترام واجلال، وعظةٍ واعتبار، وأن يرغب رغبة صادقة فى إذاعة هذه المُثُل ونَشْرها، والعمل على تداولها وذكرها، لأنها قدوة صالحة لحَمَلة التّيجان، فى إنصاف زميلهم الانسان . وإن قُدْس العدالة لواجبٌ احترامُه، وأحقُّ الناس باحترامه هم الوُلَاة وحَمَلة التيجان، وإن فى شعور الرعية وعامة الناس بأنهم وحُكّامَهم سَوَاسِيَةٌ، لمدعاةً للرضا والاغتباط، والإمعان فى خدمة الأوطان، والذّبّ بأرواحهم وقلوبهم عن الملوك وأصحاب السلطان .

* * *

(ز) عفـــوه :

كان المأمون مَضْرب المثل فى العفو، حتى لقد كان يَخْشى أن لا يُؤْجَر عليه، اذ صار فِطْرةً فيه، وأظرفُ أنواع عفوه تغاضيه عما كان يحدُث فى قصره .

قالت شُكْر مولاةُ أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، سمعت المأمون أمير المؤمنين :
وكانت عنده أم جعفر، فدعا بمَقَارِيضَ (١)، فقال الغلام : قد ذُهِبَ بالمَقَارِيض الى الشَّمَّاسية، ثم
قال ياغلام : بُلَّ لنا الخَيْش (٢) فَوْقُ، فقال الغلام : لا، قال : بَلِّ، فقالت أم جعفر : سبحانَ الله
يا أميرَ المؤمنين ! ، ما هذا ! وأنكرتْ أن يكون سأل عن شيئين فلم يُعْملا، فقال المأمون :
من قدرت على عقوبته، لسوء فعله، وقبيح جُرْمه، فقدرتُك عليه كافيتُك نصراً لك منه،
ولا معنى لعقوبة بعد قدرة، الحلمُ عن الذنب أبلغ من الأخذ به .

وهو هنا يعلّل العفو تعليلا مقبولا جديرا بأن يكون درسا فى الأخلاق .

ثم انظر مبلغ عفوه وحلمه وسماحةِ نفسه، فيما يرويه أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور فى كتابه، قال : «كان للمأمون خادم يتولّى وضوءه، فكان يسرق طِسَاسَه، فبلغ ذلك المأمونَ فعاتبه، ثم قال له يوما وهو يوضئه : وَيْحَك ! لِمَ تسرق هذه الطِّسَاسَ، لو كنتَ اذا سرقتَها أتيتَنى بها اشتريتُها منك، قال : فاشترِ هذا الذى بين يديك، قال : بِكم؟ قال بدينارين، قال المأمون : أعطوه دينارين، قال : هذا الآن فى الأَمَان .

ومهما يكنْ على هذه الرواية من مَسْحَة المبالغة، أو أنها أُقْصُوصةٌ أكثر منها حقيقةٌ، فان طبيعة المأمون وسجيته، وجُنُوحه الى العفو، وأخذَه بالحلم، لمّا يؤيّد لُبابَها وعُصَارتَها، ويقرّر جوهرَها وخلاصتَها، ولما يصدق فيه قول مَنْ قال له :

أميرَ المؤمنين عفوتَ حتى * كأن الناسَ ليس لهم ذنوبُ

أما حديث حلمه مع عمه ابراهيمَ بن المهدى فمتعارف مشهور، ومُذَاع مذكور، فقد أبى ابراهيمُ أن يبايعه، ثم ذهب الى الرَّىّ، وادّعى فيها الخلافةَ لنفسه، وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما، والمأمون يتوقع منه الانقياد الى الطاعة، والانتظام

(١) جمع مقراض وهو ما يقطع به الثوب أو غيره وهو المعروف بالمقص .

(٢) العادة كانت جارية فى العراق أن يوضع الخيش فوق سطح المنزل ويبل وقت الحر ليكون تأثير الشمس واقعا عليه دون السقف وهكذا كانت تفعل ملوك فارس . فلما كان زمن المأمون عمل بطانة للسقف استغنى بها عن الخيش وبله وهى ما نسميه (بغدادلى) وفى بعض البلاد يسمى المأمونىّ .

فى سلك الجماعة ، حتى يئس من عَوْده ، فركب بخَيْـله ورَجْله ، وذهب الى الرىّ وحاصر المدينة وافتتحها ، فهرب ابراهيم وتنكّر ثم أُخذ بعد لَأْيٍ ، وقدم الى المأمون فى زىّ امرأة .
فلما مَثَل بين يديه ، سلّم عليه بالخلافة ، فقال المأمون : لاسلّم الله عليك ، ولاحيّاك ولا رعاك !
فقال ابراهيم : مهلًا يا أمير المؤمنين ! ان ولىّ الثأر محكّم فى القِصَاص ، ولكن العفو أقربُ للتقوى ، ومن تناوله الاغترارُ بما مُدّ له من أسباب الشقاء ، أمكن عَادِيَةَ الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كلّ ذى ذنب ، كما جعل كلّ ذى ذنب دونَك ، فان أخذت فبحقّك ، وإن عفوتَ فبفضلك ، ثم أنشد :

ذَنْبى اليـكَ عظـيمٌ * وأنت أعظمُ منـه
فَخُـذْ بحقّك أَوْلَا * فاصفحْ بفضلك عنه
إن لم أكنْ فى فعالِى * من الكِرَام فكُنْـهُ

فقال المأمون : شاورتُ أبا اسحاق والعباسَ فى قتلك ، فأشارا به ، فقال : فما قلت لهما يا أمير المؤمنين؟ قال المأمون : قلت لهما : نبدؤه باحسان ، ونَسْتأمره فيـه ، فإن غيّر فالله يغيّر ما به . قال : أمّا أن يكونا قد نصحا فى عظيم بما جرت عليه السياسة فقد فعلا ، وبَلَغا ما يلزمهما ، وهو الرأى السـديد ، ولكنك أبيتَ أن تستجلب النصر إلّا من حيثُ عوّدك الله ، ثم استعبر باكيًا ، فقال له المأمون : ما يُبْكيك؟ قال : جَذَلًا اذ كان ذنبى الى من هذه صفته فى الإنعام . ثم قال : إنه وإن كان قـد بلغ جرمى استحلالَ دمى ، فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلّغانى عفوَه ، ولى بعدهما شـفاعة الاقرار بالذنب ، وحق الأبوّة بعـد الأب ، فقال المأمون : يا ابراهيم ، لقد حُبِّب الىّ العفو حتى خِفْت ألّا أُؤْجَرَ عليـه . أمَا لو علم الناس ما لنا فى العفو من اللذة ، لتقرّبوا الينا بالجنايات ! لا تَثْرِيبَ[1] عليك ، يغفر الله لك . ولو لم يكن فى حق نسـبك ، ما يبلّغ الصفحَ عن جرمك ، لبلّغك ما أمّلتَ حسنُ تفضـلك ولطفُ توصّلك . ثم أمر بردّ ضِيَاعه وأمواله ، فقال ابراهيم :

(١) التثريب : اللوم والتعيير بالذنب .

رددتَ ما لِي ولم تبخـــل عليّ به * وقبل ردِّك ما لى قد حقَنْتَ دَمِي
وقام علمُك بى فاحتجّ عنـدك لى * مقامَ شاهـــدِ عَدْلٍ غيرِ متَّهـــم
فلو بذلتُ دمى أَبْغى رضـاك به * والمـالَ حتى أسُلَّ النعلَ من قدمى
ما كان ذاك سوى عَارِيّة سلفت * لو لم تَهَبْها لكنتَ اليـــوم لم تُلَم

« وبعــد » فشدّ ما يحتاج الولاةُ والقادة والزعماء، الى خَلّة العفو والاحسان، فى حزم وحسن مواناة، ليَسّتلُّوا من القلوب عداوتَها، وليستأصلوا من النفوس سَخِيمتَها، وليضمنوا من الرعية والأتباع الاخلاص المحض والود الصحيح .

* * *

(ح) احـــتماله :

ومن الدلائل على صـلاحية المأمون لمـا أعدّته له الأيام اتصافه بالاحتمال الذى لا يقوم الملك إلا به ، ولا تسير الأمور بدونه ، وهو خُلُق يراه البعض سمـاحة ، ونراه من المأمون سياسة ، هى من الصميم فى آداب الملوك ، و إنه ليحتمل ، حتى لتحسبه من الغافلين ، ولكن الرجل كان يعرف أن للملك مصاعب ومتاعب ، أقلها مداراة النـاس ، والنزول لهم عن بعض ما يشتهون .

روى بعضهم عن قُثَم بن جعفر أنه قال : قال المأمون فى يوم الخميس ، وقد حضر الناس الدار لعلى بن صالح : ادْعُ اسماعيل قال : فخرج ابن صالح ،فأدخَل اسماعيلَ بن جعفر، وأراد المأمون اسماعيل بن موسى، فلما بَصُر به من بعيد ، وكان أشدّ الناس له بغضا ، رفع يديه مادّهما الى السماء،ثم قال : اللهم أَبْدِلْنِي من ابن صالح مطيعا فانه لصداقته لهذا آثر هواه على هواى ، قال : فلما دنا اسماعيلُ بن جعفر،سلم فردّ عليه ثم دنا فقبّل يده، فقال : هات حوائجك ، قال : ضيعتى بالمُغِيثَة ، غُصِبْتُها وقُهِرتُ عليها ، قال: نأمر بردّها عليك، ثم قال: حاجتَك ، قال: يأذن لى أمير المؤمنين فى الحج، قال: قد أَذِنَّا لك، ثم قال: حاجتك، قال: وَقْفُ أبى أُخْرِج من يدى وصار الى قُثَم والقاسم ابنى جعفر، قال: فتريد ماذا؟ قال : يردّ الىّ، قال :

أمّا ما كان يُمْكِنُنا من أمرك فقد جُدْنا لك به، وأمّا وقفُ أبيك فذاك الى ورثته ومواليه، فان رَضُوا بك واليا عليهم وقيّما لهم ردّدناه اليك، وإلا أقررناه فى يد من هو فى يده، ثم خرج، فقال المأمون لعلى بن صالح : مالى ولك عافاك الله، متى رأيتنى نَشِطْتُ لاسماعيل بن جعفر وعُنيت به وهو صاحبى بالأمس بالبصرة ! قال : ذهب عن فكرى يا أمير المؤمنين، قال : صدقت، لعَمْرى ذهب عن فكرك ما كان يجب عليك حفظه، وحفظ فكرُك ما كان يجب عليك ألاّ يخطُر به، فأما اذْ أخطأتَ فلا تُعْلِم إسماعيل ما دار بينى و بينك فى أمره . فظنّ علىٌّ أنه عنى بقوله هـذا اسماعيل بن موسى، فأخبر اسماعيلَ بن جعفر القصة حرفا حرفا، فأذاعها، و بلغ الخبرُ المأمونَ فقال : الحمد لله الذى وهب لى هذه الأخلاق، التى أصبحتُ أحتمل بهـا علىّ بن صالح وابن عمْران وابن الطُّوسىّ وحُمَيـد بن عبـد الحميد ومنصور ابن النُّعمان ورعامش .

« و بعد » فالاحتمال خلة محبّبة الى النفوس، تدعو الى الوفاق والوئام، وهى بالملوك أولى وأجدر لمكانهم من الزعامة والقيادة، ولمنزلتهم من الرياسة والسلطان . ولأنهم أحق الناس بكل سجية تحبّبهم الى الناس، وتكون قدوة يَتَّسِمُها مَنْ عداهم ممن يتصرفون فى شؤون العباد ومستقبل البلاد .

***

(ط) بصـــره بالأدب :

سترى فيما نعرض له، فى القسم الأدبى، من آثار المأمون وكتابته، مبلغ تبريزه فى الفنون الأدبية، وتملكه أعنّـة البلاغة، وحسن تصريفه لكل أفانين الثقافة العربية، الى جانب حسن تصريفه، لشتى أمور ملكه .

والآن — وسبيلنا تحليل شخصية المأمون، نرى من الواجب لتوفية البحث حقه من مختلف وجوهه، أن نشير الى كلفه بالأدب، مفترضين على كل حال، ما قد يكون بمثله، من تشيع المغالين من الولاء له، وماقد يضاف اليه من الآثار .

ولكن ذلك كله، لن يؤثر فى اللب والجوهر، وهو أنــ المأمون كان أديبا، عالما بأفانين القول ومناحيه، وليس ذلك ببعيــد، على من تتلمذ على شـيوخ الأدب العربى، كسيبويه واليَزيدى ويحيى بن المبارك بن المُغيرة، الذى أخذ العربيــة عن أمثال أبى عمرو ابن العَلَاء وابن أبى اسحاق الحَضْرَمى، وأخذ اللغة والعروض عن الخليل بن أحمد، والذى ألف كتابا فى النحو لبعض أولاد المأمون .

فقد أفاد المأمون من هؤلاء وأمثالهم من رجال الأدب والكفاية أيّمـا إفادةٍ .

قال عِمَارة بن عَقيل : أنشدتُ المأمونَ قصيدةً مائة بيت، فأبتدئ بصــدر البيت، فيُبَادِرُنى الى قافيته كما قفَّيته، فقلت : والله يا أمير المؤمنين، ما سمعها منّى أحد قط! فقال هكذا ينبغى أن يكون، ثم قال لى : أمَا بلغك أن عمر بن أبى ربيعة أنشد عبدَ الله بن عباس قصيدته التى يقول فيها * تَشُطّ غدًا دارُ جيراننا * فقال ابن عباس * وللدّارُ بعد غدٍ أبعدُ * حتى أنشده القصيدة يقفّيها ابن عباس ثم قال : أنا ابنُ ذاك . ورووا أن المأمون قال :

بعثتُــك مُرْتادا ففـــزتَ بنظــرة * وأغفلتنى حـــتى أسأتُ بك الظنّــا

فناجَيْتَ مَنْ أهــوى وكنتُ مباعَدا * فياليت شـــعرى عن دنوك ما أَغْنى

أرى أثرًا منـــه بعينيْـــك بيِّنًــا * لقــد أخذتْ عيناك من عينه حسنا

ومهما قيل إن المأمون أخذ هذا المعنى من العبّاس بن الأَحْنف الذى يقول :

إن تَشْقَ عينى بهــا فقد سَعِدَتْ * عينُ رســـولى وفزتُ بالخـــبر

وكلّمــا جاء نى الرســـولُ لهــا * رَدَّدْتُ عهـــدا فى عينه نظـرى

خذ مقلـــتى يا رســـولُ عاريةً * فانظـــرْ بهــا وٱحتَكِمْ على بصرى

فان شــعر المأمون يدل فى جملته، على تذوّقه الحسنِ، بالشعر الحسنِ، والخيال الحسنِ . ثم لتنظر معى فى الحديث الذى دار بين عبد الله بن أبى السِّمْط وعمارة بن عَقيل، فانـــ أوّلها يقول لعمارة : أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر؟ فقال عمارة : ومن يكون أعلم منه؟ فوالله إنا لننشده أوّلَ البيت فيسبقُنا الى آخره، قال عبــد الله : إنى أنشــدته بيتا أجدتُ فيه فلم يتحرك له، فقال عمارة : وما هو؟ قال :

أضحى إمامُ الهدى المأمونُ مشتغلا * بالدين والناسُ بالدنيا مَشَاغيلُ

فقال عمارة : والله ما صنعتَ شيئا ! هل زدتَ على أن جعلتَه عجوزا فى محرابها ، فاذًا مَن الذى يقوم بأمر الدنيا اذا تَشاغل عنها ، وهو المُطَوَّق بها ؟ ألا قلتَ كما قال جدّى جرير فى عبد العزيز بن الوليد :

فلا هو فى الدنيا مضيعٌ نصيبَه * ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شاغلُهْ

فقال عبد الله : الآن علمتُ أنى قد أخطأت .

ولقد كان المأمون واقفا أتم وقوف وأكمله على شعر العصر ، ومقولات الشعراء ، مع حسن بصر ، وأتمّ حذق ، وأدقّ تفهم ، يدلك على ذلك ، ما ذكره أبو نزّار الضّرير الشاعر قال : قال لى علىّ بن جَبَلة : قلت لحُمَيد بن عبد الحميد : يا أبا غانم ، قد امتدحتُ أمير المؤمنين بمَدْحٍ لايُحْسِن مثلَه أحد من أهل الأرض ، فاذكُرْنى له ، فقال : أَنْشِدنيه ، فأنشدتُه ، فقال : أشهد أنك صادق ، فأخذ المديح فأدخله على المأمون ، فقال : يا أبا غانم ، الجواب فى هذا واضح ، إن شاء عفونا عنه ، وجعلنا ذلك ثوابا لمديحه ، وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفى أبى دُلَف القاسم بن عيسى ، فان كان الذى قال فيك وفيه أجودَ من الذى مدحَنا به ، ضربنا ظهره وأطلقنا حبسَه ، وإن كان الذى قال فينا أجود أعطيتُه بكل بيت من مديحه ألف درهم ، وإن شاء أَقَلْنَاه ، فقلت : ياسيدى ، ومن أبو دلف ومن أنا حتى يمدحنا بأجود من مديحك ! فقال : ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة فى شىء ، فاعرِضْ ذلك على الرجل . قال على بن جبلة : فقال لى حُمَيد : ما ترى؟ قلت : الإقالة أحبّ الىّ ، فأخبر المأمون ، فقال : هو أعلم ، قال حُمَيد ، فقلت لعلىّ بن جَبَلة : الى أى شىء ذهب فى مدحك أبا دلف وفى مدحك لى؟ قال : الى قولى فى أبى دلف :

إنما الدنيا أبو دُلَفٍ * بين مُبْداه ومُحْتَضَرهْ

فإذا ولّى أبو دلف * ولّت الدنيا على أَثَرِهْ

والى قولى فيك :

لولا حُمَيـد لم يكن * حَسَبٌ يعدّ ولا نسبْ
يا واحد العـرب الذى * عزّتْ بعزته العـربْ

ثم انظر سعة عطفه، وكثير تسامحه، وما جبلت عليه نفسه من العفو والحلم، فيما رواه أحد قَرَابة دِعْبل الشاعر، حيث قال : إن دعبلا هجا المأمون بقوله :

أيَسُومنى المأمونُ خطـةَ عاجز * أوَما رأى بالأمس رأسَ محمد
يُوفِى على هَامِ الخلائف مثلَ ما * تُوفِى الجبالُ على رءوس القَرْدَدِ(١)
ويَحُـلّ فى أكناف كل ممنّـع * حتى يذلّل شـاهقا لم يُصْـعَد
إنَّ التِّراتِ مسهَّد طُلّابهـا * فاكفُفْ لُعابَك عن لعاب الأسود

فلم يتقدّم المأمون بإيذاء دعبل، وكل مافعل أن قال : هو يهجو أبا عبّاد، ولا يهجونى. يريد حِدَّةَ أبى عباد .

وكان بصيرا بأخبار العرب، واقفا على تاريخ مجاويدهم وغطاريفهم، فقد ذكر عِمَارة ابن عَقِيل قال : « قال لى المأمون يوما، وأنا أشرب عنـده، ما أخبثك يا أعرابىّ، قال قلت : وماذاك يا أمير المؤمنين، وهَمَّتْنِى نفسى، قال كيف قلت :

قالتْ مُفَـدّاةُ لمـا أن رأتْ أرقِى * والهمّ يعتـادُه من طيفِـه لَمَمُ
نَهَبْتَ مالَك فى الأدنَيْن آصِرةً * وفى الأباعد حتى حَفّـك العـدمُ
فاطلبْ اليهم ثرى ماكنت من حسن * تُسْدِى اليهم فقـد باتت لهم صِرمُ(٢)
فقلتُ عَذْلَكِ قد أكثرتِ لائمتى * ولم يَمُتْ حاتمٌ هزلًا ولا هَرِمُ

فقال لى المأمون : أين رميتَ بنفسك الى هَرِم بن سِنَان سيدِ العرب، وحاتم الطائى . فعلا كذا وفعلا كذا وأقبل يَنْثَالُ(٣) علىّ بفضلهما، قال : فقلت يا أمير المؤمنين : أنا خير منهما، أنا مسلم وكانا كافرين وأنا رجل من العرب .

(١) القردد : ما ارتفع وغلظ من الأرض. (٢) الصرم : جمع صرمة وهى القطعة من الإبل نحو الثلاثين .
(٣) يعدّد محاسنهما و يذكرها .

ثم انظر بلاغته ومتانة عبارته، فى مشافهاته ومبادهاته . فقـد روى ابراهيم بن عيسى قال : لمـا أراد المأمون الشخوصَ الى دمشق هيّأتُ له كلاما، مكثت فيه يومين وبعض آخَر، فلما مثلتُ بين يديه، قلت : أطال الله بقاء أمير المؤمنين فى أدوم العزّ وأسبغ الكرامة، وجعلنى من كل سوءٍ فداه، إنّ مَنْ أمسى وأصبح يتعرّف من نعمة الله — له الحمد كثيرا — عليه برأى أمير المؤمنين أيده الله فيه، وحسنِ تأنيسه له، حقيقٌ بأن يستديم هذه النعمة، ويلتمس الزيادة فيها، بشكر الله، وشكر أمير المؤمنين — مدّ الله فى عمره — عليها . وقد أُحبّ أن يعلم أمير المؤمنين أيده الله، أنى لا أرغب بنفسى عن خدمته، أيده الله بشىء من الخَفْض والدَّعة، إذ كان هو أيده الله، يتجشّم خشونةَ السفر، ونَصَبَ الظَّعْن، وأولى الناس بمواساته فى ذلك، وبذل نفسه فيـه أنا، لمـا عرّفنى الله من رأيه، وجعل عنـدى من طاعته، ومعرفة ما أوجب الله من حقـه، فان رأى أمير المؤمنين أكرمه الله، أن يكرمنى بلزوم خدمته، والكَيْنونة معـه فعل . فقال لى المأمون مبتـدئا من غير روية : لم يعـزم أمير المؤمنين فى ذلك على شىء، وإن آستصحب أحدا من أهل بيتـك، بدأ بك وكنت المقـدّم عنده فى ذلك، ولا سيما إذ أنزلت نفسك بحيث أنزلك أمير المؤمنين من نفســه، وإن ترك ذلك فمن غير قِلًى لمكانك، ولكن بالحاجة اليك . قال ابراهيم : فكان والله ابتداؤه أكثر من رويتى .

قال أبو العتاهية : وجه الىّ المأمون يوما، فصرتُ اليه، فألفيته مُطرقا مفكرا، فأحجمت عن الدنو منـه فى تلك الحال، فرفع رأسه، فنظر الىّ، وأشار بيده أن آدْنُ، فدنوت . ثم أطرق مليا، ورفع رأسه، فقال : يا أبا اسحاق، شأن النفس الملل، وحب الاستطراف، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفـة . قلت : أجلْ يا أمير المؤمنين . ولى فى هذا بيت قال: ما هو ؟ قلت :

لا يُصْلِـح النفسَ إذ كانت مدبرة * إلا التنقّلُ من حالٍ الى حال

ثم انظر الى بلاغة المأمون، التى كانت سليقة فيه، وإن نزلت بساحته الهموم والفوادح، فقد ذكر المؤرخون أنه أصيب بابنة له، كان يجدُ عليها وَجْدا شـديدا . فجلس وأمر أن

يؤذن لمن بالباب ، فدخل عليـه العباس بن الحسن العلوىّ ، فقال له : يا أمير المؤمنين إنا لم نأتك معزّين ، ولكن أتيناك مقتدين . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن لسانى ينطلق بمدحك غائبـا . وأحبّ أن يتزيّد عنـك حاضرا ، أفتأذن فأقول ، قال المأمون : قل فانك تقول فتحسن ، وتشهد فتزين ، وتغيب فتؤتمن ، فقال العباس له ، وصدق فيما يقول ، : يا أمير المؤمنين ما أقول بعد هذا ! لقد بلغتَ من مدحى مالا أبلغه من مدحك .

وانظر الى حلاوته فى بلاغتـه ، وفراهته فى طُلاوته ، ومتانتـه فى عبارته ، حين نصح لابنه العباس فقال له : ينبغى يا بنىّ لمن أَسْبغ الله عليـه نِعَمه ، وشَركَه فى ملكه وسلطانه ، وبسط له فى القدرة ، أن ينافس فى الخـير ، بما يبقى ذكره ، ويجب أجره ، ويرجى ثوابه . وأن يجعـل همته فى عدل ينشره ، أو جور يدفنـه ، وسنّةٍ صالحة يحييها أو بدعة يميتها . أو مكرمة يعتقدها ، أو صنيعة يسديها ، أو يدٍ يودعها ويوليها ، أو أثرٍ محمود يتبعه .

ويقول لنا الجاحظ فى البيان والتبيين : كان سهل بن هارون شـديد الإطناب فى وصـف المأمون بالبلاغة والجهارة ، وبالحلاوة والفخامة ، وجودة اللهجة والطلاوة . ويقول ثُمَامة بن أَشْرَس النميرىّ : ما رأيت رجلا أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون . وإن فيما ذكره ابن الجوزى والعاملىّ وغيرهما فى طرب المأمون للطُّرَف واللغة ، لمـا يثبت بصره بالأدب وحذقه للغـة ، وتمكنه فى النحو . وإنا نختتم كلمتنا هـذه بمـا قاله المأمون لولده وعنده عمرو بن مَسْعدة ويحيى بن أَكْثم فانها فى السِّماك بلاغة ودقة معنى وحلاوة أسلوب وسموّ سجايا وحسن تدبير ونضوج دُرْبة ، ولا يقولها إلا من كان الى جانب ما وصفناه حمال أعباء ، نهاضا ببزلاء (١) ، قصيا مَرْمَى همتـه ، رفيعا مَنَاطُ عزمتـه ، وهى مع كل ذلك من عَفْو الخاطر ، ونتاج البديهة .

قال : « اعتبروا فى علو الهمة بمن ترون من وزرائى وخاصتى ، إنهـم والله ما بلغوا مراتبهم عندى إلا بأنفسهم . إنه مَنْ تبع منكم صِغارَ الأمور ، تبعه التصغير والتحقير وكان

(١) يقال : هو نهاض ببزلاء أى صاحب همة يقوم بالأمور العظام .

قليلُ ما يَفْتقِد من كبارها أكثرَ من كثير ما يستدرك من الصِّغار ، فترفعوا عن دناءة الهمة ، وتفرّغوا لجلائل الأمور والتــدبير ، واستكفُوا الثِّقات ، وكونوا مثــلَ كِرَام السّباع التى لا تشتغل بصغار الطير والوحش بل بجليلها وكبارها . واعلموا أن أقدامكم ان لم تتقدّم بكم ، فإن قائدكم لا يقدمكم ولا يغنى الولىُّ عنكم شيئا ما لم تعطوه حقَّه . وأنشده :

نحن الذين اذا تخَمَّط عُصْـبةٌ * من مَعْشرٍ كنّا لهـا أَنْكالَا

وتَرَى القُــرُومَ مخالةً لقُرومنـا * قبــل اللّقاء تُقَطِّــر الأبْوالَا

نَرِدُ المنــيةَ لا نخاف ورودَها * تحت العَجَاجة والعيونُ تَلالَا

نعطى الجزيلَ فلا نُمُنّ عطاءنا * قبــل السؤال ونحمل الأثقالَا

واذا البلاد على الأنام تزلزلتْ * كنا لزلزلة البــلاد جبالَا

«وبعــد» فشدّ ما يروق الرعية تبريزُ ولاتها فى البلاغة والبيان ، وشدّ ما يُثْلج الأفئدة ويُقِرّ العيون تملكهم لأعنّة القول ، واطلاعهم على الغُــرَر والمُلَح وتشجيعهم لذوى الاحسان .

وجميــل جدا أن تنشر الكفايات ، وأن يتخذ الولاة من كلمة المأمون : « إن وزرائى والله ما بلغوا مراتبهم عنــدى إلا بأنفسهم » ســنة يترسَّمُونها ، وقاعدة يتبعونهــا ، وحكمة يذيعونها لترتفع النفوس وتسمو النزعات ولينال الاحسانَ أهلُ الاحسان .

(ى) علم المـــأمون :

كان المأمون وافر العلم ، غزير الاطلاع وليس ذلك بعزيز على خليفة ملأ عصرَه بأنواع المعارف الانسانية ، ونفخ فيه من روحه القوى ، حتى استطاع الباحث أن يَسِمَه بسِمَتِه ، وأن يرجع فضلَ الحضارة العباسية اليه .

ولكن المأمون فى علمه وثقافته لم يقف عنــد حدّ الثقافة الذاتية ، وإنما وجّه حرصه الى أن يثير فى نفوس أصحــابه كوامن الرغبــة الى التعمق فى الدرس ، والشوق الى إدراك حقائق الأشياء ، وكانت له فى ذلك طريقة معروفة ، هى توجيه السَّمَر والحديث الى فنون

العلم، وضروب العرفان، فكان حديث الليل وحديث المـائدة يفتح لجلسائه أبوابا من القول ما كانت تخطر لهم ببال .

قال جعفر بن محمـد الأَنْمَاطِيّ : إن المأمون لمـا دخل بغداد، وقرّ بها قرارُه، وأمر أن يدخل عليـه من الفقهاءِ والمتكلمين وأهلِ العلم جماعةٌ، يختارهم لمجالسته ومحادثته، وكان يقعد فى صـدر نهاره على لُبُودٍ فى الشتاء وعلى حصرٍ فى الصيف، ليس معها شيء من سائر الفرش، ويقعد للمظالم فى كل جمعـة مرتين، لا يمتنع منه أحد، قال : واختـير له من الفقهاء لمجالسته، مائة رجل، فمـا زال يختارهم، طبقة بعـد طبقةٍ، حتى حصّل منهـم عشرة، كان أحمد بن أبى دُوَادٍ أحدهم، وبِشْرٌ المَرِيسِيّ . قال جعفر بن محمد الانماطى : وكنتُ أحدهمُ، قال : فتغدّينا يوما عنده، فظننت أنه وضع على المـائدة أكثر من ثلثمائة لون، فكلما وضع لون، نظر المأمون اليه، فقال : هذا يصلح لكذا، وهـذا نافع لكذا، فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة، فليجتنب هـذا، ومن كان صاحب صَفْراء فليأكل من هذا، ومن غلبت عليـه السَّوْداء فليأكل من هذا، ومن أحبّ الزيادة فى لحمه فليأكل من هذا، ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هـذا، قال : فوالله إن زالت تلك حالَه فى كل لون يقدّم، حتى رُفعتِ الموائد . قال فقال له يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين، ان خضنا فى الطب كنتَ جالينوس فى معرفته ! أو فى النجوم كنت هِرْمِس فى حسابه ! أو الفقـه كنتَ على بن أبى طالب صلوات الله عليـه فى علمه ! أو ذكرنا السـخاء فأنت فوق حاتم فى جوده ! أو ذكرنا صـدق الحديث كنت أبا ذرّ فى صـدق لهجته ! أو الكرم كنت كعب بن مامة فى إيثاره على نفسه ! قال : فسرّ بذلك الكلام، وقال : يا أبا محمد، إن الانسان إنما فُضّل على غيره من الهوامّ بفعله وعقله وتمييزه، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم، ولا دمٌ أطيب من دم . وانك اذا قلت : إن يحيى بن أكثم، قد بالغ فى تحليـل المأمون، وغلا فى صفته، فأنا معك فى ذلك، ولكننى ألاحظ أن هـذا الغلو لا يخلو من أَثَارَةٍ من حق وصدق .

ولتنظر معى نظرة مُستقصٍ لاطلاع المأمون ، وتدفّق المعانى اليــه ، ومواتاة الأفكار له حينما ارتدّ رجل من أهل خراسان ، وأمر المأمون بحمله الى مدينة السلام، فلما أُدخل عليــه أقبل بوجهه اليــه ، ثم قال له : « أخبرْنى : ما الذى أوحشك مما كنت به آنسا من ديننا ، فوالله لأن أستحييك بحق أحب الىّ من أن أقتلك بحق ، وقــد صرت مسلما بعــد أن كنت كافرا ثم عدت كافرا بعد أن صرت مســلما . فإن وَجَدت عنــدنا دواء دائك ، تعالجتَ به اذ كان المريض يحتــاج الى مُشَاورة الأطبــاء . فان أخطأك الشــفاء ونبــا عن دائك الدواء ، كنت قــد أعذرتَ ولم ترجع على نفســك بلائمة ، فان قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت فى نفســك الى الاستبصار والثقــة ، وتعلم أنك لم تُقَصِّر فى اجتهــاد ، ولم تَدَع الأخذ بالحزم » . فقــال المرتدّ : « أوحشنى ما رأيتُ من كثرة الاختلاف فى دينكم » فقال المأمون : « فإنّ لنــا اختلافين : أحدهما كالآختلاف فى الأذان وتكبير الجنائز، والآختلاف فى التشهد وصــلاة الأعياد، وتكبير التشريق ووجوه القراءات ، واختلاف وجوه الفُتْيا، وما أشبه ذلك، وليس هــذا باختلاف إنمــا هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المِحْنة ، فمن أذَّنَ مَثْنَى وأقام فُرادَى لم يُؤَثِّم من أذّن مثنى وأقام مثنى، لا يتعايرون ولا يتعايبــون ، أنت ترى ذلك عيانا ، وتشهد عليــه بيانا ؛ والاختــلاف الآخر كنحو الاختلاف فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم، مع إجماعنا على أصــل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر ، فان كان الذى أوحشك هــذا حتى أنكرت كتابنا ، فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التوارة والإنجيــل متفقا على تأويله ، كالاتفاق على تنزيله ، ولا يكون بين الملتــين من اليهود والنصــارى اختلاف فى شىء من التأويلات ؛ وينبغى لك ألّا ترجع إلّا الى لغة لا اختلاف فى ألفاظها ، ولو شاء الله أن ينزّل كُتُبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج الى تفسير لفعل ؛ ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنيا دُفع الينا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البَلْوَى والمِحنة ، وذهبت المسابقة

والمنافسة ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بَنَى الله جل وعز الدنيا» فقال المرتد : «أشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له ، وأنّ المسيح عبد الله ورسوله ، وأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنك أمير المؤمنين حقا ! »قال : فانحرف المأمون نحو القبلة فخر ساجدا ، ثم أقبل على أصحابه فقال : «وفّروا عليه عِرْضه ، ولا تبرّوه فى يومه ، ريثما يعتق إسلامه ، كيلا يقول عدوّه إنه يسلم رغبة ، ولا تنسوا نصيبكم من بره ونصرته وتأنيسه والفائدة عليه» .

وهــذا المنحى الذى نحاه المأمون ، فى إقناع ذلك المرتدّ يدلنـا على ناحيتين من نواحى تفكيره :

الأولى : بصره بأسرار الشريعة ، وعلمه بدقائق الدين ، وتدقيقه فى فهم أنواع الخلاف بين المسلمين ، و يكاد هذا التقسيم يَقْضى على كل شُبْهة ، عند من يَرِيبُهم هــذا النزاع الذى طال بين الفِرَق الاسلاميــة ، وتشعّبت به مذاهب الفقهاء .

الثانية : تعمّقه فى درس النفسيّات ، وٱستقصاء خلجات القلب ، وهجسات الضمير ، وذلك ظــاهر فى مراجعته لحيــاة الرجل الروحيّــة ، وتأمله لمـا أَلِفَتْه نفسُه وسكن اليه وجدانه قبل إســلامه ، فقد بنى على هــذه السابقةِ طريقة التآلف والتسامح التى قضى بها على مامُنِيَ به الرجل من الكفر بعد الإيمــان .

« و بعــد » فان المأمون فى علمه وعرفانه أهلٌ للاحتذاء والارتسام من أقرانه ، قَمِنٌ بالتمثّل به والاقتفاء من أخدانه ، ليكونــ زمانهم غُرّة فى جَبين الدهر كزمانه ، وليكون نصيبهم نصيبه فى مهابته و رفعة شانه ، و رسوخ عَرْشه وقوّة بنيانه .

* * *

(ك) احترامــه للديــن :

كان المأمون شديد الاحترام للتّقاليد الدينية ، يرى فيها صيانةً لنفسه ، واستبقاء لقلوب رعيته ، ولكنه كان يَشْــتَطّ فى ذلك ، فيعاقب على هَفْوة مَرّت عليهــا عشرات السنين ، وسنقصّ عليك حادثة ، هى دلالة على هذا الإسراف ، وهى أيضا عُنوان على ذوقه فى نقد

الشعر، وإنا لنرجّح أن للظرف الذى وقعت فيه هـذه الحادثة تعليلا لمـا اجْتُرِح فيهـا، فلولا مجلس الغناء ولعبه بالنفس، لمـا عزل قاضٍ لهفوة لفظية، طال على عهدها الزمان، واليك الحديث :

ذكر أحد المعاصرين وهو أبو حَشِيشة محمد بن علىّ بن أمية بن عمرو قال : كنا قدّام أمير المؤمنين المأمون بدمشق، فغنى علُّويَه :

بَرِئتُ من الإسلام إن كان ذا الذى * أتاك به الواشـون عنّى كما قالوا
ولكنّهم لمـا رَأَوْكِ سريعــةً * إلىّ تَوَاصَــوْا بالنميمة وٱحتالوا

فقال : ياعلُّويَه، لمن هذا الشعر؟ فقال : للقاضى، قال : أىّ قاضٍ ويحك؟ قال : قاضى دمشق . فقـال : يا أبا اسحاق، اعزله، قال : قد عَزَلْتُـه، قال : فيُحضَر الساعة، قال : فأحضر شـيخ مخضوبٌ قصـيرٌ، فقال له المـأمون : مَن تكون ؟ قال : فلان بن فلان الفلانى، قال : تقول الشعر؟ قال : قد كنتُ أقوله، فقال : يا علُّويَهْ، أنْشِدْه الشعر فأنشده، فقال : هذا الشعر لك؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، ونساؤه طوالق وكل ما يملك فى سبيل الله، إن كان قال الشعر منذ ثلاثين سنة إلا فى زُهْد، أو معاتبة صديق، فقال : يا أبا اسحاق، اعزِلْه، فما كنت أُوَلِّى رقابَ المسلمين من يبدأ فى هَزْله بالبراءة من الإسلام... ثم قال : يا علُّويَه، لا تقل برئت من الاسلام، ولكن قل :

حُرِمتُ مُناىَ منك إن كان ذا الذى * أتاك به الواشـون عنّى كما قالوا

وهذا الموقف من المأمون شبيهٌ كل الشبه بموقفـه مع يحيى بن أكثم وزيره وقاضيه، حيث قال له المأمون : «لا أترك قاضيا يشرب النبيذ!» .

ثم لننظر ما يُرْوَى عن سَعيد بن زِيَاد أحد المعاصرين، فانه يدلّك على تقديس المأمون لآثار النبىّ واحترامه لها، وتيمّنه بها، مع وَرَع وخشوع، فقد قيل : إنه لمـا دخل المأمون دمشق قال له : «أرِنى الكتابَ الذى كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم»، فأراه سعيد إياها، فقال له : «إنى لأشتهى أن أدرىَ أىّ شىء هذا الغشاء على هذا الخاتَم» فقال له أبواسحاق :

حُلّ العُقْـدة حتى ترى ما هو فقال المأمون : ما أشـكُّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم عقد هـذا العَقْد، وما كنت لأحلّ عقدًا عَقَده رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال للواثق : خذه فضَعْه على عينيك، لعل الله أن يَشْفيك، وجعل المأمون يضعه على عينيه ويبكى .

على أنا نرى من الوفاء للنقد العلمىّ أن نحيل القارئ هنـا الى كلمتنا عن سياسـة المأمون ، والى مذهبـه الدينىّ فى الاعتزال، كما نحيله الى مبحثنا فى الحياة العلمية والأدبية فى عصره، ونظنّ أنه سيلاحظ معنا أن هذه السذاجةَ الطيّبة، وذلك الإيمان الجميل فى تقدير المأمون للآثار النبوية لاتتفق فى حقيقة جوهرها مع ما أجمع عليـه المؤرخون فى سياسته، ولا مع اعتزاله أو توغّله فيما ترك الفلاسفة الأولون (١) ، ولا مع ما أخذ به المأمون بعض معاصريه من ألوانِ النقد فى شؤون دينهم ودُنْياهم .

والمأمون عند صحة هذه الرواية بين اثنتين : إما أن يكون قوىّ العاطفة الدينية، رقيق الحس، يخضع لِوُجدانه وإيمانه ؛ وإما أن يكون فى مثل هذه الأحوالِ رجلَ سياسةٍ ودهاءٍ، يحسب ألفَ حساب لعواطف الجماهير ويحترم مُيُول الجماعات الدينية .

« وبعـد » فالدِّين للديّان جلّ جلاله ، وأَنْعِمْ بالوُلَاة الذين يحـترمون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات .

* * *

(ل) سـياسـته :

ولقـد كان المأمون سياسيا فذّا ، وليس أدلّ على « دِبْلُوماطِقِّيته » ، من خُطّته التى لا نجد لهـا فى عصره ما هو أحكم منها ولا أسـدّ، مع رُكُونه الى مُشاورة شِيعته وأنصاره اذا حَزَبَهُ أمر . ولا أدلّ على كِياسـته وكبير مهارته من تصرّفاته مع سفراء أخيـه الأمين مما وقفتُك على طرف منه، فى فصل النزاع بين الأخوين .

(١) يقول الأستاذ الشيخ عبـد الوهاب النجار : « الاعتزال مذهب من مذاهب التوحيد أراد القائمون به تنزيه الله عن الأشباه فنفوا أن يكون لله صفات لئـلا يتعدّد القدماء، ثم انتقلوا الى الأفعال فنفوا أن يكون لله أثر فى فعل الشر فقالوا إن الله منزه عن الشر وإن الانسان يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة أودعها الله فيه الخ ما قالوا . وليس فى هذا ما ينافى إجلال المأمون لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وكان سـياسيا فذًّا ، فى تزوجه من بُوران بنت الحسن بن سهل ليكتسب الحـزب الفارسىّ، وفى تزويجه علىّ بن موسى الرضا ابنته أم حبيب ، ومحمد بن على بن موسى ابنته أم الفضل ليكتسب الحزب العلوىّ ، راميا بذلك كلّه الى ضمان تأييد الأحزاب له ، عارفا لنفسيّات الجمهور وأمزجة الجماعات .

وكان سياسـيا فذّا ، مصيبا لُبـابَ الصواب فى قوله لأحمد بن أبى دواد عن أهـل بغداد : «الناس على طبقاتٍ ثلاث فى هذه المدينة، ظالم، ومظلوم، ولا ظالم ولا مظلوم، فأما الظالمُ فليس يَتوقع إلّا عفوَنا وإمساكنا، وأما المظلومُ فليس يتوقّع أن يُنصَف إلا بِنا، ومَن كان لا ظالمـا ولا مظلوما فبيتُه يَسعه» .

وكان سياسيا فَذًّا ، فى مداراته عمّاله ، وليس أدلّ على ذلك من تصرّفه مع ابراهيم بن السِّندىّ صاحب الأخبار، وقد رَفَع اليه خبرا عن حادثة بمصر، فكذّبه عبد الله بن طاهر، فعنّف المأمونُ السندىّ آلَم التعنيف، أمام ابن طاهر ثم بعث اليه، وقال له : « إنى آمر وأُدارى عمّالى وعمالهم، مداراةَ الخائف، والله ما أجد الى حملهم على المحجّة البيضاء سبيلا، فاعمَلْ لى على حسب ما ترانى أعمل؛ ولِن لهم تسلمْ لك أيامُك، ويَغَضّ دينُك » .

وكان سياسيا فَذّا ، حينما رَفع اليـه صاحب خبره « إنا أصبنا يا أمير المؤمنين رِقاعا ، فيهـا كلامُ السفهاء والسِّفْلة ، وفيها تهديدٌ ووعيد ، وبعضها عندنا محفوظ ، الى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره، فكتب المأمون بخطه : «هذا أمر إن أكبرناه كثر غمنا به، واتسع علينا خَرقُه، فمُرْ أصحاب أخبارك، متى وجدوا من هذه الرِّقاع رُقعة أن يُمزّقوها، قبل أن ينظروا فيها، فانهم اذا فعلوا ذلك لم يُرَ لها أثر ولا عين» ففعلوا ذلك فكان الأمر كما قال.

وتعالَ ننظرْ نظرة تحليلية قصيرة، فيما يَرويه لنا زيد بن على بن الحسين، قال: «لمّا كان فى العيد ، بعـد قدوم المأمون سنة أربع ومائتين والمأمون يتغدّى، وعلى مائدته طاهر بن الحُسين وسعيد بن سَلْم وحُميد بن عبد الحميد وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يقرّظه، ويذكر مناقبـه، ويصف سيرته ومجالسه، اذ انهملت عينا المأمون بالدموع، فرفع يده عن الطعام، فأمْسك القوم حين رأَوْه بتلك الحال، حتى اذا كفّ، قال لهم: كلوا، قالوا: يا أمير

المؤمنين، وهل نُسيغ طعاما أو شرابا وسيّدنا بهذه الحال. قال : أما والله ما ذلك من حَدَث ولا لمكروه هَممتُ به بأحد، ولكنه جنس من أجناس الشكر لله لعظمته، وذكر نعمته التى أتمّها علىَّ، كما أتمّها على أبوَىّ من قبلى، أما ترَوْن ذلك الذى فى صحن الدار، يعنى الفضلَ بن الربيع — قال : وكانت الستور قد رفعت، ووُضعت الموائد للناس على مراتبهم، وكان يجلس الفضل مع أصحاب الحرس — وكان فى أيام الرشيد وحالُه حالُه يرانى بوجه أعْرِف فيه البغضاء والشّنآن، وكان له عندى كالذى لى عنده، ولكنّى كنت أدار يه خوفا من سعايته وحَذَرًا من أكاذيبه، فكنت اذا سلّمت عليه، فردّ علىّ أظَلُّ لذلك فرحا، وبه مبتهجا، وكان صَغْوه الى المخلوع، فحمله على أن أغراه بى، ودعاه الى قتلى، وحرّك الآخر ما يحرّك القَرابة والرحم الماسّة، فقال : أمّا القتل فلا أقتله، ولكنى أجعله بحيث اذا قال لم يُطَع، واذا دعا لم يُجَب، فكان أحسن حالاتى عنده، أنْ وجّه مع علىّ بن عيسى قيدَ فضة، بعد ماتنازعا فى الفضّة والحديد ليُقَيّدنى به، وذهب عنه قول الله جلّ وعزّ : ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ فذاك موضعه من الدار بأخَسّ مجالسها، وأدنى مراتبها، وهذا الخطيب على رأسى، وكان بالأمس يقف على هذا المنبر، الذى بإزائى مرّة، وعلى المِنْبر الغربىّ أخرى، فيزعم أنّى المأفون واستُ بالمأمون، ثم هو الساعة يقرّظنى تقريظَه المسيحَ ومحمدا عليهما السلام، فقال طاهر بن الحسين : ياسيّدَنا، فما عندنا فيهما وقد أباحك الله إراقة دمائهما، فخصّتَهما بالعفو والحلم ! قال : فعلتُ ذلك لموضع العفو من الله . ثم قال المأمون : مُدّوا أيديكم الى طعامكم، فأكَل وأكلوا .

ألا يسوغ لنا أن نستنبط مما قدّمناه لك أن المأمون كان سياسيا ذَهنا، حاذقا فى تصرفه مع الفضل ؟ ألم يكن للفضل مكانة عند الرشيد، ونفوذ بَعيد المَدَى فى الدولة ؟ ألا يجوز أن سِعايته بالمأمون وأكاذيبَه عليه، إن لم يُداره، تجد آذانا مُصْغية . وأنها قد تجر عليه من الشرور ماليس فى حاجة اليه ؟

ألم يكن خير سبيل لاتّقاء شانئته أن يداريه، عملا بقول أبى الدّرداء «إنا لنَبَشُّ فى وجوه قوم وقلوبُنا تلعنهم» ؟

فهـل ترى سـياسة أحكم ، و بصرا بالأمور أتمّ ، من تصرف المأمون ومداراته ، ثم انظر ما كان من مداراته للفضـل بن سهـل ، كما صرح بذلك اولىّ عهده علىّ بن موسى الرِّضا ، ومداراته لطاهر بن الحُسين قاتل أخيه ، وما كان من تصرفاته مع الوفود الأمينية ، تؤمن معنا أن المأمون كان سـياسيا ، ولعـل لاطّلاعه على ماتُرجم من المؤلفات اليونانيـة والفارسية ، مع اسـتعداده الخاص ونزوعه الى البحوث الكلامية عامّةً ، وحبـه للمشاورة واكتنافه بالرءوس المفكرة الناضجة ، لعل لهذا وأمثاله الفضلَ فى تكوين المأمون على مارأيتَ ، وتخريجه على ماشاهدتَ .

« و بعد » فإن للحياة تقاليدها ، و إن لسياسة الشعوب أسرارها ، كما أن للصراحة محـامدها ، وللمداراة ضرورتها ، وأنعم بمن يضع الأمور فى مواضـعها ، و يزن المواقف بميزانها ، ويَطبّ لكل حاجة دواءها وعلاجها .

***

(م) مذهب المـأمون الدينى :

أمّا مذهب المأمون الدينى أو السياسىّ إن شئت ، وهل كان يميل للفُرْس حقا ويُؤْثِرهم على غيرهم من العرب فى خدمة الدولة ، وهل كان شِيعيّا عَلَويًّا ، أو معتـدلا فى التشيّع ؛ أو معتزليّا ، فهذا بابٌ يستفيض القول فى شتّى نواحيه ، وتزدحم معانيه ، لاختلاف وجهات النظر فيه . ولعلك تبيَّنت مما كتبناه عن المأمون السياسى ، بعضَ مايُساعدك على تفهّم مذهبه الدينىّ .

ولمـا كنا قد أرجأنا الكلام فى موضوع المِحْنـة والقول بخلق القرآن الى قسم العـلوم والآداب ، فنحن نَلْفت النظر هنا الى ذلك .

بَيْـدَ أنّا نرى من واجبنا أن نُسَـيرهنا ، الى أن المأمون كان محُوطا بشـيوخ الاعتزال والكلام ، أمثال ثُمَـامة بن أَشْرَس ويحيى بن المبارك وغيرهما . ويجوز لنا أن نفترض أن المأمون قد أخذ مذهب الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدِّبه ؛ فان ياقوتا الرومىّ قد ذكر

عنه ، فى الجزء السابع من معجمه ، : أنه كان يُتَّهم بالميل الى الاعتزال ، فلا يستبعد اذًا ، وصلته بالمأمون صلةُ الأستاذ بتلميذه ، أن يكون المأمون قد تأثّر بميله خصوصا ، أنه اتّصل به منذ صباه فى أيام الرشيد . وكذلك كان محُوطا بشيوخ آخرين ، لهم آثارهم ومكانتهم فى الدولة ، مثل يحيى بن أكثم وغير يحيى بن أكثم .

وكان على ذلك ، متأثرًا بما تُرجِمَ من أخلاقيّات فلاسفة اليونان وعلومهم ، وآداب الفرس وفنونهم . كما كان ، الى حدّ غير قليل ، تحت سلطان الفرس ووزرائهم أمثال الفضل بن سهل . وكان يحسب للعلويين حسابهم ، وللعباسيين حسابهم . فلا غرو اذًا أن يكون لكل هذه العوامل أثر غير قليل فى تكييف مِزاجه الدينى . وقد يَفْتُر بعض هذه العوامل حينا وقد يشتدّ حينًا آخر ، طبقًا للأحوال .

هذا هو رأينا فى مذهبه الدينى أو السياسىّ على وجه عام . على أن هذا لا يمنعنا ، وقد اتخذنا لأنفسنا خطّةَ الحَيْدة فى تدوين التاريخ ، من أن نُثْبت آراء القدماء فيه ، وأن نذكر طَرَفا مما جاء منها فى هذا الصدد .

قال ابن الأثير فى كامله : «قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمار : كان المأمون شديد الميل الى العلويّين ، والإحسانِ اليهم ، وخبرُه مشهور معهم ، وكان يفعل ذلك طبعًا لا تكلّفا ، فمن ذلك أنه تُوُفِّىَ فى أيامه يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين العَلَوىّ ، فحضر الصلاةَ عليه بنفسه ، ورأى الناسُ عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه ، ثم إن ولدًا لزينب بنت سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس ، وهى ابنة عمّ المنصور تُوفّى بعده ، فأرسل له المأمون كفنًا ، وسيّر أخاه صالحًا ليصلّى عليه ويعزّى أمّه ، فانها كانت عند العباسيين بمنزلة عظيمة ، فأتى اليها وعزّاها عنه واعتذر عن تخلّفه عن الصلاة عليه ؛ فظهر غضبها وقالت لابن ابنها : تقدّم فصلِّ على أبيك ، وتمثلت :

سَبَكْناه ونحسَــبُه لُجَيْنًا * فأَبْدى الكيرُ عن خَبَثِ الحديدِ

ثم قالت لصالح : قل له يابنَ مَراجِل، أما لوكان يحيى بن الحسين بن زيد اوضعتَ ذيلك على فيك، وعَدَوْتَ خلفَ جنازته .

ثم تَعَالَ معى نتدبَّرْ ما يَرْويه لنا التغلبيّ أحد المعاصرين ، قال : سمعت(١) يحيى بن أكثم يقول : أمرنى المأمونُ عند دخوله بغداد، أن أجمع لهوجوهَ الفقهاء وأهلَ العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائلَ، وأفاض فى فنون الحديث والعلم، فلما انقضى ذلك المجلس ، الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين، قال المأمون : يا أبا محمد، كَرِه هذا المجلسَ الذى جعلناه للنظر طوائفُ من الناس ، بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم، فطائفةٌ عابوا علينا ما نقول فى تفضيل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وظنّوا أنه لايجوز تفضيلُ علىّ الا بانتقاص غيره من السلف! والله ما أستجيز أن أنتقص الحجّاجَ فكيف السلفَ الطيّب ! وإن الرجل ليأتينى بالقُطَيعة من العُود أو بالخشبة أو بالشىء الذى لعلّ قيمته لا تكون إلا درهمًا أو نحوَه ، فيقول : إن هذا كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم قد وضع يَده عليه أو شرب فيه أو مسّه، وما هو عندى بثقة ولا دليلَ على صدق الرجل ، إلا أنّى بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقلّ وأكثر، ثم أضعه على وجهى وعينى، وأتبرّك بالنظر اليه وبمسّه، فأستشفى به عند المرض يُصيبنى أو يُصيب مَن أهتمّ به ، فأصونه كصيانتى نفسى ، وإنما هو عُود لم يفعل شيئا ، ولا فضيلَةَ له يستوجب المحبّةَ، إلا ما ذُكِرَ من مسّ رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فكيف لا أَرْعَى حقّ أصحابه وحُرْمة مَن قد صحبه، وبذَل ماله ودمه دونه، وصبَر معه أيامَ الشدّة وأوقاتَ العُسْرة ، وعادَى العشائرَ والعمائرَ والأقاربَ ، وفارق الأهل والأولاد، واغترب عن داره ليُعِزَّ الله دينَه ويُظْهِرَ دعوتَه ، يا سبحان الله! والله لو لم يكن هذا فى الدِّين معروفا، لكان فى الأخلاق جميلا! وإن من المشركين لمن يَرْعَى فى دينه من الحرمة ما هو أقلّ من هذا . معاذَ الله ممّا نطق به الجاهلون . ثم لم تَرْضَ هذه الطائفةُ بالعيب لمن خالفها، حتى نَسَبتْه الى البِدْعة فى تفضيله رجلاً على أخيه ونظيره ومن

(١) هذه القطعة منقولة كما هى عن تاريخ بغداد ج ٦ ص ٧٥ وما بعدها .

يقار به فى الفضل، وقد قال الله جلّ من قائل : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ثم وسّع لنا فى جهل الفاضل من المفضول، فما فَرَض علينا ذلك ولا نَدَبَنا اليه، إذ شَهِدنا لجماعتهم بالنبوّة، فمن دون النبيين من ذلك بعد إذ شهد لهم بالعدالة والتفضيل آمرؤ لو جهله جاهل رجونا ألّا يكون اجترح إثمًا . وهم لم يقولوا بِدْعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وشك الآخرُ واحتجّ فى كسره وإبطاله من الأحكام فى الفُروج والدِّماء والأموال التى النظرُ فيها أوجبُ من النظر فى التفضيل . فيغلط فى مثل هذا أحد يَعرِف شيئا ، أوله رَوية أو حُسن نظر، أو يدفعه من له عقل ، أو معاند يريد الإلطاط[1]، أو مُتَّبِع لهواه ، ذابٌّ عن رياسة اعتقدها . وطائفةٌ قد اتّخذ كلّ رجل منهم مجلسًا ، اعتقد به رياسةً ، لعله يدعو فئةً الى ضرب من البدعة، ثم لعلّ كلَّ رجل منهم يُعادى مَن خالفه فى الأمر الذى قد عقد به رياسةَ بِدْعة، ويُشيط[2] بدمه، وهو قد خالفه من أمر الدين فيما هو أعظم من ذلك، إلا أن ذلك أمرٌ لا رياسةَ له فيه، فسالمه عليه وأمسك عنه ، عند ذكر مخالفته إياه فيه، فاذا خولف فى نِحْلته، ولعلّها ممّا وسّع الله فى جهله بها، أو فيما اختلف السلفُ فى مثله ، فلم يُعاد بعضُهم بعضا، ولم يَرَوْا فى ذلك إثما، ولعله يُكَفِّر مخالفه ، أو يُبْدعه أو يَرميه بالأمور التى حرّمها الله عليه من المشركين دون المسلمين، بغيًا عليهم، وهم المترقّبون الفِتَنَ، والراسخون فيها، لينهبوا أموالَ الناس ويستحلّوها بالغلبة، وقد حال العدلُ بينهم وبين ما يُريدون، يَزْأَرون على الفتنةِ زئيرَ الأُسْد على فرائسها . وإنى لأرجو أن يكون مجلسُنا هذا — بتوفيق الله وتأييده، ومعونته على إتمامه — سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين، إمّا شاكٌّ فيتبيّن ويتثبّت فينقاد طَوْعًا، وإما مُعاند فيردّ بالعدل كَرْهًا » .

ولقد همّ فى سبيل عَلَوِيّته هذه أن يَلعن معاويةَ ، وأن يكتب بذلك كتابا، يُقرأ يوم الدار، ومَحْفِل الناس، فثناه عن ذلك يحيى بن أكثم ، وقد يكون من الممتع الطريف حقا أن نذكر لك ما قاله يحيى وغيرُه، لتتبيّن نفسية الزعماء فيما نحن بسبيله .

(١) الإلطاط : الاشتداد فى الأمر والخصومة . (٢) يشيط بدمه : يهدره .

قال يحيى بن أَكْثم : يا أمير المؤمنين ، إن العامّة لا تحتمل هـذا ، ولا سيّما أهـل خُرَاسَان ، ولا تأمن أن تكون لهم نَفْرة وإن كانت لم تَدْرِ ما عاقبتها ، والرأىُ أن تَدَعَ الناسَ على ما هم عليه ، ولا تُظْهِرَ لهم أنك تميل الى فِرْقة من الفِرَق ، فإن ذلك أصلح فى السياسة ، وأحرى فى التدبير . فركَنَ المأمونُ الى رأيه ، ثم دخل عليه ثُمَامةُ أحدُ المعاصرين ، فقال له المأمون : يا ثُمامة ، قد علمتَ ما كنا دبّرناه فى معاوية ، وقد عارَضَنا رأىٌ هو أصلح فى تدبير المملكة ، وأبقى ذكرًا فى العـامّة ، ثم أخبره أن ابن أكثم خوّفه إياها ، وأخبره بنفورها عن هـذا الرأى ، فقال ثمـامة : يا أمير المؤمنين ، والعامة فى هـذا الموضع الذى وصفها به يحيى ! والله لو وجّهت إنسانا على عاتقه سواد ، ومعه عصا لساق اليك بعصاه عشرة آلاف منها ! والله يا أمير المؤمنين ، ما رضى الله جلّ ثناؤه أَنْ سوّاها بالأَنْعام ، حتى جعلها أضـلَّ منها سبيلا ، فقال تبارك وتعـالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ . إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ والله يا أمير المؤمنين ، لقد مررتُ مُنذ أيام فى شارع الخُلْد ، وأنا أريد الدار ، فاذا إنسان قد بَسَطَ كساءَه ، وألقى عليـه أدوية ، وهو قائم ينادى عليها : هـذا الدواءُ لبياض العين والعَشَا والغِشَاوَة والظُّلمة وضعف البصر ، وإنّ إحدى عينيه لمطموسة ، وفى الأخرى مُؤْسًى له ، والناس قد انثالوا عليه وأَجْفَلوا اليه يستوصفونه ، فنزلتُ عن دابّتى ناحيـة ودخلتُ فى غُمَار تلك الجماعة فقلت : يا هذا ، أرى عينَك أحوج هـذه الأعينِ الى العلاج وأنت تصف هـذا الدواء وتخبر أنه شفاء لوجع العين ، فلِمَ لا تستعمله ؟ فقال : أنا فى هـذا الموضع منذ عشر سنين ما مرّ بى شيخ أجهـل منك ، فقلت له : وكيف ؟ قال : يا جاهل ، أين اشتكتْ عينى ؟ قلت : لا أدرى . قال : بمصر ، فأقبلت علىّ تلك الجماعة فقالوا : صدق الرجل ، أنت جاهل ، وهمّوا بى ، فقلت : لا والله ، ما علمت أنّ عينه اشتكت بمصر ، فمـا تخلّصت منهم إلا بهذه الحجة .

نريد بعـد ما قدّمناه لك أن نقول لك : إن مذهب المأمون الدينى كان متمشيا تمـاما مع مذهبـه السياسىّ ، وإنه اذا كان يريد من وراء خطته السياسية من التزوّج من هذا

الحزب وذاك ، ومن إرضاء هذا الطرف وذاك ، أن يظفر بتكوين وحدة سياسية من شتى الأحزاب ولو أدّى ذلك أن يكون من العلويين خليفة ، ثم من العباسيين خليفة ما دامت بغيته متحققة من استتباب الأمن ، وامتزاج الأحزاب ، وتوحيد القوى ، فكذلك كان يريد أن يتخذ من مذهبه الديني مذهبا وَسَطًا . ويخيّل الينا من النتائج التي وقفنا عليها من دراسة هـذا العصر أن المأمون لم يظفر بغايته لا من الوجهة السياسـية كما علمت من انتهاء حياة الرِّضا من آل محمد ، ولا من الوجهة الدينية .

وبعـد ، فقد قلنا لك : إن الدين للديان جل جلاله ، وأكبرنا وأكبرت معنا أولئك الولاة الذين يحترمون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات ، ويظهر أن المأمون لم يكن فيما رامه في هذا السبيل موفقا توفيقه فيما عداه ، وأن له زَلّة كان يجدُر ألّا يقع مثله في مثلها ، وسترى ذلك موضّحا في الفصل الذى عقدناه عن « محنة القرآن » .

*
*

(ن) كلمة ختامية عن المـأمون :

وإنا بعـد أن حللنا شخصية المأمون بما يجب من التفصيل والتوضيح ، نرى من المستصوب أن نضم الى آراء المؤرّخين العرب وروايات المعاصرين للمأمون التي لا تخلو من مبالغـة في تمدحهم بفضائله ، رأى مؤرّخ متشرق عكف على دراسة عصر المأمون وهو السير وليم موير ، فربما أفادنا كثيرا من ناحية استيعاب وجهات النظر عنـد الفرنجة من المؤرخين ، ذلك لأنّ الحقيقة العلمية لا تُخدم بمثل ما يخدمها تبَايُن الآراء واختلاف المصادر وتناقض الروايات . وليس من مهمّتنا أن نعرض للردّ على « السير موير » وإنما نحن بسبيل إثبات وجهات النظر المختلفة كما قلنا .

قال الأستاذ موير في كتاب الخلافة في مختتم بحثه عن المأمون ما نترجمة لك بنصه : « فمما لا نزاع فيـه أن المأمون كان على وجه العموم متّصفا بالعدل والحلم ، وإنما يؤخذ بأنه كان مُتقلبا في آرائه وشعوره ، سواء أكان ذلك في المسائل السياسية أم الدينية .

ويرجع السبب فى ذلك الى نزعتــه الفارسـية التى ورثها عن أمه ، والبيئة التى رُبّى فيهـا من جهة ، والى غريزة حبه للاستسلام بتأثير مَن حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى . على أننا مع اعترافنا بعدله ، لا نستطيع أن ننزّهه عن الجنوح فى بعض الأحايين الى الجور وآستعمال القسوة من غير مسوّغ ، فإنه قد تصرّف فى بعض الحوادث تصرّف الجبابرة والقُسَــاة من أسـلافه الذين أَتَوْا من المنكرات ما سوّدوا به صحائف تاريخهم . وسأذكر على سبيل المثال حادثة استعمل فيها المأمون وحشيّة غريبة ، ذلك أن أبا دُلَف — وكان بطلا من أشراف العـرب وزعيما لإمارة همذان ، إذ كان من أسرة كريمة نالت شهرة عظيمة وصيتا واسـعا بين عشائرها وذوى البيوتات فيهـا — كان من الذين انضمّوا الى نصرة الأمين وشايعوه ، فلمـا قُتـل وآستقل المأمون بالخـلافة ، أبى أبو دلف أن يدخل فى طاعته ، وآثر العودة الى مَسْقِط رأسـه فى فارس ، فمدحه شاعر أعمى بقصيدة رائعة ، وغالى فى مدحه وإطرائه ، ووصفه بأنه أشرف العرب والمقدّم عليهم ، فاغتاظ المأمون من الشاعر غيظا شديدا ، إذ ظن أن الشاعر يقصـد إهانته ، فأمر بتعذيبه وقتله شرّ قتلة ؛ ولكن لم يمض على ذلك غير قليـل من الزمن حـتى دخل أبو دلف فى طاعة المأمون فاحتفل به وقرّبه اليـه ، فان كان تجاوزه عن أبى دلف وسعة حلمه عليه مما يعظم شأن المأمون ويدل على رحابة صـدره ، فهذا التجاوز لا يغـيّر حكمنا عليـه بالقسوة الوحشـية فى قتـل ذلك الشـاعر الأعمى ، ولو أغضينا عن الشبهات التى حامت حول مقتل الفضل وموت علىّ الرضا غدرًا وغيلَة ، فاننا لا نستطيع أن نغضى عن معاملته الجائرة لابن عائشـة ، وما لقيه هَرْثمة وطاهر مع تفانيهما فى نصرته وتوطيد حكمه ، واضطهاده لكثير من أجلّاء المفكرين ، وأصحـاب الآراء المخالفـة لرأيه فى بعض مسـائل الدين ، فى مجلس المناظرة ، ممـا يدل على قسوته ، إلا أننا اذا راعينا طول مدّة حكمه وموقفـه النبيل فى عفوه عن الخارجين عليـه فى بغـداد ، نرى كِفّة عدله وحلمه أرجح من كِفّة جوره وقسوته ؛

وقصـارى القول أن عصر خلافته كان بوجه الإجمـال من أزهى عصور التاريخ الاسلامى » اهـ .

* *

وبعـد ، فلقـد حللنا شخصية المـأمون الفـذة البارزة بمـا استحقته من الاستقصاء والاستيعاب ، والدرس والتحليل ، وأعقبنا كل كلمـة عن سجاياه ما نعتـبره موضع العظة والاعتبار من دراسة هذا العصر المُتْرَع بالمُثُـل العليا . ونأمل أن نكون قد وُفِّقنـا فيما رُمناه من إصابة شاكلة الحقّ ولُبَاب الصواب .

الفصل الثامن

الحيـاة العلمية فى عصر المـأمون

توطئة — حركة النقل — الترجمة — كتب العصر — آثار النهضة المأمونية — القول بخلق القرآن .

(أ) توطئـــة :

قيل : إن سهل بن هارون كان يتولّى الهيمنة على إدارة دار الكتب الخاصة بالدولة المأمونيــة فى بغــداد ، وكانت تعرف ببيت الحكمة ، كما كان يتـولى تنظيم خزانة المأمون . وقيل : إن بيت الحكمة هــذا أُنشئ فى الغالب أيام الرشـيد ، حيث قد جمع له فيـه البرامكةُ من الكتب ما وُفِّقوا اليه ، هندية كانت أو فارسية أو يونانية .

وقيـل : إن يحيى بن أبى منصور الموصـلى المنجّم المعروف وأحد أصحاب الأرصاد فى العصر المأمونى ، ومحمد بن موسى الخُوَارَزْمى صـاحب الأزياج وصورة الأرض ، كانا من خزنة دار الحكمة المأمونية ، كما كان جدّ أحمد الطّيبى المعروف بالصَّنَوْبَرِىّ الحلبى والفضل ابن نَوْبَخْت وأولاد شاكر وغيرهم من رجالات بيت الحكمة فى العصر المـأمونى ، أو ممن كان يتردّد على هذه الدار للعمل فيها بصفةٍ رسميةٍ أو للمطالعة أو النسخ أو الترجمة أو التأليف .

وقيل : إن الراوية النسّابة المعروف علّان الشُّعُوبِىّ الفارسىّ الأصل ، كان ممن ينسخ فى بيت الحكمة ، أو فى أحد بيوت الحكمة هذه ، إذ يلوح لنا أنها كانت على الأرجح أكثر من بيت ، للرشيد والبرامكة والمأمون .

وقيـل : إن المأمون بعث الى حاكم صِقِلِّيَة المسيحى أن يبادر بأن يرسل اليه مكتبة صِقِلِّيَة الشهيرة الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية الكثيرة ، وإن الحاكم تردّد فى إرسالها ، وكان بين الضنّ بها والحِرْص عليها والخوف من القوّة المأمونية والهيبة المأمونية ، ومن أجل ذلك جمع كبار رجالات الدولة وأدلى اليهم بطلب المأمون ، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله :

« أرسلها اليه ، فوالله ما دخلتْ هـذه العلوم فى أمة إلا أفسدتها » فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها .

ويقول الأستاذ كرد علىّ : إن المأمون هو الذى جمع بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التى نسبت اليه ، ودُعيت الصورةَ المأمونيـة ، صوّروا فيها العالَم بأفلاكه ونجومه وبَرّه وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن الى غيرذلك ، وهى أحسن ممـا تقـدّمها من جغرافيـة بطلميوس ، وجغرافيـة مارينوس ، وقد وضع له علماء رسم الأرض ـ وقال الزهرى : إنهم كانوا سبعين رجلا من فلاسفة العراق ـ كتابا فى الجغرافية أعان عمال الدولة على التعرّف الى البلاد والأمم ، التى أظلتها الراية العباسية ، هذا الى عنايته بالفلك ؛ وفلكيُّه الفـزارىّ أوّل من استعمل الأسطرلاب من العرب ، وعُنِى بالطبيعـة والرياضيات فوق عنايتـه بالطب ومعـرفةِ العقاقير والنبات والحيوان ، الى ما شاكل تلك العلوم ممـا كان له الأثر المحسوس فى إدخال المدنية على دولة العرب ، وفَتَح به المأمون باب العقل على مِصْراعيهِ فى كل مطلب وشأن .

قيـل هذا ، وقيل أكثر من هـذا ، مما يدلنا دلالة صحيحة أو دلالة تقريبية على كثرة الكتب فى العهد المأمونى ، ومما يشير الى عدم قلتها فى أيام مَن سبقه من الخلفاء العباسيين .

والان يحق لنا أن نتساءل ، هل أفاد المأمون من هذه الكتب ؟ وماذا أفادنا المأمون خاصة ؟ وما هى الحركة العملية المأمونية ، ومَن هم رجالها وما هى مؤلفاتها ؟ ؟

يحّق لنا أن نتساءل عن ذلك ، وعن مثل ذلك ، ويحق لنا أن نَعْرِض لهذه البحوث ، وأن نُوَضّح بعض ما كنا أجملناه فى كلمتنا عن الحياة العلمية فى العصر العباسىّ .

أما أن المأمون أفاد من كتب عصره ، سواء أكانت مترجمة عن اليونانية أو الفارسية ، أو غيرهما ، أم كانت مؤلفة موضوعة ، فهذا ما لا شك فيه مما قد تبينته فيما وضحناه لك عند تعرّضنا لتحليل شخصية المأمون ، وحين تكلمنا عنه تلميذا ، وولى عهد ، وخليفة ، وأديبا ، وعالمـا ، وسياسيا ، وباحثا دينيا .

وأما أن المأمون أفاد عصره بمؤلفاته الخاصة ، فهذا مالا ريب فيه أيضا ، وهاك ابن النديم يحدثنا فى فهرسته أن للمأمون من الكتب كتاب جواب ملك البرغر فيما سأل عنه من أمور الاسلام والتوحيد . ورسالته فى إعلان النبوة .

وأما عن الحركة العلمية المأمونية ورجالاتها ومؤلفاتهم فهذا ما نحن مقبلون على بحثه . يحدثنا ابن أبى أصيبعة فى طبقاته عن أوكد الأسباب عند المأمون لاستخراج الكتب فيقول: قال يحيى بن عدى : قال المأمون : رأيت فيما يرى النائم : كأن رجلا على كرسىّ جالسا فى المجلس الذى أجلس فيه فتعاظمْتُه وتهايَبْتُه وسألت عنه ، فقيل لى هو أرسطوطاليس . فقلت : أسأله عن شىء ، فسألته . فقلت : ما الحسن؟ فقال : ما استحسنَتْه العقول ، فقلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنَتْه الشريعة ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنه الجمهور . قلت : ثم ماذا؟ قال : ثم لا ثم . فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب . فان المأمون ، كان بينه وبين ملك الروم مراسلات . وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة فى بلد الروم . فأجاب الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة ، منهم الحجّاج بن مَطَر ، وابن البِطْريق وسَلْم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا . فلمّا حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل ، وقد قيل : إن يوحنّا بن ماسَويه ممن نفذ الى بلد الروم . وأحضر المأمون أيضا حُنَين بن إسحاق وكان فتىّ السنّ وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيّين الى العَرَبىّ وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره .

ومما يحكى عنه أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربى مِثْلًا بمثل . وقال أبو سليمان المنطقىّ : إن بنى شاكر ، وهم محمد ، وأحمد ، والحسن ، كانوا يرزقون جماعة من النَّقَلَة . منهم حُنَين بن إسحاق ، وحُبَيش بن الحَسن ، وثابت ابن قُرّة وغيرهم ، فى الشهر نحو خمسمائة دينار للنَّقْل والملازمة .

ويقول القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى : إن العرب فى صدر الإسلام لم تُعْن بشىء من العلوم، إلا بِلُغَتِها ومعرفةِ أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطب . فانها كانت موجودة عنـد أفراد منهم غيرَ منكرة عند جماهيرهم، لحاجة الناس طُرّا اليهـا . فهذه كانت حال العـرب فى الدولة الأموية . فلما أدَالَ(١) الله تعالى للهاشميّة، وصَرفَ المُلْك اليهم ثابتِ الهممُ من غفلتها ، وهبّت الفِطَن من مَوتتها ، فكان أوّل من عُنِى منهم بالعلوم الخليفة الثـانى أبو جعفر المنصور، وكان مع براعته فى الفقه، كَلِفا بالفلسفة وعلم النجوم . ثم لمّـا أفضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرّشيد، تمّم ما بدأ به جدّه المنصور، فأقبل على طلب العلم فى مواضعه، وداخَل ملوكَ الروم وسألهم صلتَه بمـا لديهم من كتب الفلسـفة فبعثوا اليه بمـا حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطلميوس وغيرهم من الفلاسفة، فاستجاد لها مَهرَة التراجمة وكلّفهم إحكام ترجمتها . فتُرجمت له على غاية ما أمكـن، ثم حضّ النـاسَ على قراءتها ورغّبهم فى تعليمها . وكان يخلو بالحكماء ويأنَسُ بمناظرتهم، ويلتذّ بمذاكراتهم، علما منه بأن أهل العـلم هم صفوة الله من خلقه ، ونُخْبته من عباده، وأنهم صرفوا عنايتهم الى نَيْـل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يَرغب فيه الصّـين والترك ومن نزع منْزَعهم من التنافس فى دقّة الصناعة العَمَليّـة، والتباهى بأخلاق النفس والتفاخر بالقوى . إذ علموا أن البهائم تَشرَكُهم فيها وتَفْضُلُهم فى كثير منها . فلهذا السبب كان أهل العـلم مصابيح الدجى، وسادة البَشَر وأوحشت الدنيا لفقدهم .

فهذا الحلم الذى قيل إنه دفع بالمأمون الى الاستهامة بأرسطو ومؤلفات أرسطو، أو بعبارة علمية أدقّ، هذا الميل الى الفلسفة والمنطق عند المأمون، كان من آثاره حركة نقل وتأليف عنيفة قوية . ويخيّل الينا أن المأمون لاتساع دائرة معارفه العامة، ورغبته فى القياس العقلى، وتأثره بمذهب الاعتزال كما سترى فى كلمتنا التى عقدناها لك فى القول بخلق القرآن،

(١) نقل الدولة اليهم .

كان لذلك كله وأمثاله أكبر رجل عمل فى انتشار حركة الترجمة والتأليف . وخاصة فى مؤلفات أرسطو ، وكان من نتائج إقبال العرب وغيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عندهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

(ب) حركة الترجمة والنقل :

يقول الأستاذ «سنتلانه» فى مفتتح محاضراته فى تاريخ المذاهب الفلسفيّة بالجامعة المصرية : إن تاريخ الترجمة فى عهد آل عباس على ثلاثة أدوار : فالدور الأوّل من خلافة أبى جَعْفر المنصور الى وفاة هارون الرشيد ، أى من سنة ١٣٦ الى سنة ١٩٣ وهى الطبقة الأولى من المترجمين ، منهم يحيى بن البِطْريق مترجم المجسطى فى أيام المنصور . وجورجيس بن جبرئيل الطبيب عاش سنة ١٤٨ . وعبد الله بن المقفّع الذى مات نحو سنة ١٤٣ وترجم بعض الكتب المنطقية لأرسطوطاليس . ويوحنا بن ماسَويه ، وكان فى أيام الرشيد ، وقد أدرك أيام المتوكّل، واعتنى فى الأغلب بالكتب الطبّية . وسَلّام الأَبْرَش، وكان فى أيام البرامكة . وباسيل المطران .

والدور الثانى ، من وَلَاية المأمون سنة ١٩٨ الى سنة ٣٠٠ ، وهى الطبقة الثانية من المترجمين ، منهم يُوحَنّا بن البِطْريق . والحجّاج بن مَطَر الذى عاش سنة ٢١٤ . وقسطا ابن لوقا البَعْلَبَكّى وعاش سنة ٢٢٠ . وعبد المسيح بن ناعِمة الحِمْصىّ وعاش سنة ٢٢٠ . وحُنَين بن اسحاق وتوفى سنة ٢٦٠ وقيل سنة ٢٦٢ . وابنه اسحاق بن حُنَين ، وتوفى سنة ٢٩٨ . وثابت بن قُرّة الصابى المتوفى سنة ٢٨٨ . وحُبَيْش بن الحسن ، ويدعى حَبَش الأَعْسم ابن أخت حُنَين ، وتوفى سنة ٣٠٠ ، وممّا ترجَم فى هذا العصر أغلب كتب أبقراط وجالينوس وأرسطوطاليس وشىء من كتب أفلاطون ومن التفاسير على الكتب المذكورة .

والدور الثالث من سنة ثلاثمائة للهجرة ، وهى تاريخ وفاة حبيش ، الى منتصف القرن الرابع ، ومن مُتَرْجِمى هذه الطبقة ، متّى بن يُونُس ، وتاريخ وفاته مجهول إلا أنه

يُذْكر عنه أنه كان ببغداد بين سنة ٣٢٠ وسـنة ٣٣٠ . ومنهم سِنان بن ثابت بن قُرّة ، المتوفى سنة ٣٦٠ . ويحيى بن عدىّ وتوفى سنة ٣٦٤ . وأبو علىّ بن زرعة، من سنة ٣٣١ الى سنة ٣٩٨ . وهلال بن هلال الحِمْصىّ . وعيسى بن سهربخت ، وكان أكثر اشتغالهم بالكتب المنطقيـة والطبيعية لأرسـطو، وبالمفسرين كالاسكندر الأفروديسى ويحيى النحوى وغيرهما اه .

وبعـد ، فقد سبق لنا أن بينّا لك طَرَفا عن الحياة العلمية فى العصر الأموىّ وفى صدر العصر العباسىّ ، وآن لنا الآن أن نذكر لك بعض أسماء أقطاب الحركة العلمية سواء أكانت فى علم الفلك أم الطب أم الفلسفة ، ترجمة وتأليفا فى العصر المأمونىّ ، معتمدين فى ذلك على الفِهْرِست لابن النّديم ، وطبقات الأطباء لابن أبى أُصَيْبِعة ، وكتاب أخبار الحكماء للقِفْطِىّ . وهاك جملة منهم وهم : أحمد بن محمد بن كثير الفرغانىّ أحد منجّمى المأمون ، وبَخْتيشُوع جورجيس ، وجبرائيل بن بختيشوع ، وجبرائيل الكحال المأمونى ، والحارك المنجّم صاحب الحسن بن سهل ، والحسن بن سهل بن نَوْبَخْت ، وزكريا الطَّيْفُورىّ ، وسهل بن سابور ابن سهل المعروف بالكَوْسَج الذى كان يجتمع مع يوحنّا بن ماسويه وجورجيس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفورى ، ثم سِنْد بن علىّ المنجم المأمونى ، وسلمويه بن بنان صاحب المعتصم ، وصالح بن بهلة الهندىّ صاحب الرشيد ، والعباس بن سعيد الجوهرى المنجّم صاحب المأمون ، وعبد الله بن سهل بن نَوْبَخْت المنجم المأمونى ، وأبو حفص عمر ابن الفَرُّخان الطبرىّ أحد رؤساء التراجمة والمتحققين بعلم النجوم ، وموسى بن شاكر وبنوه محمد وأحمد والحسن من منجمى المأمون ، وكان بنـوه الثلاثة فيما ذكره القفطىّ من أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل ، وموسى بن إسرائيل صاحب أبى اسحاق بن ابراهيم بن المهدىّ ، وما شاء الله المنجم اليهودىّ ، وميخائيل بن ماسويه ، ويحيى بن أبى منصور المنجم المأمونى ، ويعقوب بن اسحاق وتلاميذه : حسنويه ونفطويه وسلمويه ورحمويه وأحمد بن الطيب ، ثم يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، ويوحنا بن ماسويه النصرانىّ السريانىّ ،

وأبو قريش المعروف بعيسى الصيدلانى وغيرهم كآل ثابت وماسرجويه ، وآل الكرخى ، وابن دهن الهندى مدير بيمارستان البرامكة ، وكان فيما يذكره ابن النديم ينقل من الهندية الى العربية ، ومنكه طبيب الرشيد الهندى ، وكان ينقل من الهندية (السنسكريتية) وعشرات غيرهم ممن لا يقع تحت حصر .

ولو أردنا أن نكتب عن واحد واحد من رجال هذه الحركة العلمية العنيفة لخرجنا عن وضع كتاب فى العصر المأمونى ، الى وضع موسوعة أو معجم ، واذا لم نكتب عنهم فقد رُمينا بالتقصير المعيب ولم نصوّر العصر بما ينبغى أن يصوّر به ، لذلك آثرنا أن نكتب كلمة عن جبرائيل بن بختيشوع ، وقدرُه فى العصر قدره ومنزلتُه منزلتُه ، لتكون مثالا وتوضيحا لسواه من رجالات العلم فى ذلك العصر الغنىّ حقا ، والغنىّ برجالاته صدقا ، وستقف على هذه الكلمة فى موضعها من الفصل العاشر من هذا الكتاب .

(ج) كتب العصر :

وإنا ننقل لك هنا طَرَفا من أسماء الكتب التى تُرْجمت فى ذلك العصر من اليونانية ، والفارسية ، والهندية ، والقبطية ، والعبرانية ، واللاتينية ، والنبطية ، معتمدين فى ذلك على البحث الطريف الذى كتبه صاحب التمدّن الاسلامى ، ولخص فيه ما كتبه ابن النديم ، وصاحب الطبقات ، وتراجم الحكماء ، منوهين بجهده أمانة للعلم واعترافا بالفضل .

أوّلا — الكتب المنقولة عن اليونانية

(١) كتب الفلسفة والأدب

كتب أفلاطون :

(١) كتاب السياسة ... ... نقله حُنَين بن إسحاق

(٢) « المناسبات ... ... « يحيى بن عدىّ

(٣) « النواميس ... ... « حنين ويحيى

(٤) « طيماوس ... ... « ابن البطريق وأصلحه حنين

(٥) كتاب أفلاطن الى أقرطن... نقله يحيى بن عدى
(٦) « التوحيـد ... ... « « « «
(٧) « الحس واللذة ... ... « « « «
(٨) « أصـول الهندسة ... « قسطا بن لوقا

كتب أرسطوطاليس :

(١) قاطيغورياس (المقـولات) ... نقله حنين بن إسحاق
(٢) كتاب العبـارة ... ... « « الى السريانية واسحاق الى العربية
(٣) تحليـل القياس ... ... « ثيادورس وأصلحه حنين
(٤) كتاب البرهان ... ... « اسحاق الى السريانى ومتى الى العربى
(٥) « الجـدل ... ... « « « ويحيى « «
(٦) « المغالطات أو الحكمة المموّهة « ابن ناعمة وأبو بشر الى السريانى ويحيى الى العربى
(٧) « الخطابة ... ... « إسحاق وابراهيم بن عبد الله
(٨) « الشـعر ... ... « أبو بشر من السريانى الى العربى
(٩) « السماع الطبيعى ... ... « أبو روح الصابى وحنين ويحيى وقسطا وابن ناعمة
(١٠) « السماء والعالم ... ... « ابن البطريق وأصلحه حنين
(١١) « الكون والفساد ... ... « حنين الى السريانى واسحاق والدمشقى الى العربى
(١٢) « الآثار العـلوية ... ... « أبو بشر ويحيى
(١٣) « النفس ... ... « حنين الى السريانى واسحاق الى العربى
(١٤) « الحس والمحسوس ... ... « أبو بشر متى بن يونس
(١٥) « الحيوان ... ... « ابن البطريق
(١٦) « الحروف أو الإلهيات ... « اسحاق ويحيى وحنين ومتى
(١٧) « الأخلاق ... ... « اسحـاق

(١٨) كتاب المرآة ... ... نقله الحجاج بن مطر

(١٩) « أثولوجيا ... ... « « «

ولكتب أرسطو شروح وتعاليق لبعض تلامذته، أو من جاء بعده، كثاوفرسطس، وديدوخس برقلس، والاسكندر الافروديسى، وفرفوريوس، وأمونيوس، وتامسطيوس ونيقولاوس، وفلوطرخس، ويحيى النحوى وغيرهم. ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة، وكلها فى الفلسفة وفروعها، وقد نقل كثير منها الى العربية ولم يعلم ناقلها، فأغضينا عن ذكرها وقد ذكرها صاحب الفهرست.

وذكروا لجالينوس فى جملة كتبه الطبية الآتى بيانها بضعة كتب فى الفلسفة والأدب، وهى كتاب ما يعتقده رأيا، ترجمه ثابت، وكتاب تعريف المرء عيوب نفسه، نقله توما وأصلحه حنين، وكتاب الأخلاق نقله حبيش، وكتاب انتفاع الأخيار بأعدائهم، نقله حبيش، والمحرك الأول لا يتحرك، نقله حبيش وعيسى، وغير ذلك.

(٢) كتب الطب وفروعه

كتب أبقراط:

(١) كتاب عهد أبقراط ... ... نقله حُنين الى السريانية وحبيش وعيسى الى العربية

(٢) « الفصول ... ... « حنين لمحمد بن موسى

(٣) « الكسر... ... ... « « « « «

(٤) « تقدمة المعرفة ... ... « « وعيسى بن يحيى

(٥) « الأمراض الحادّة ... ... « عيسى بن يحيى

(٦) « أبيذيميا ... ... « « « «

(٧) « الأخلاط ... ... « « « لأحمد بن موسى

(٨) «* قاطيطيون ... ... « حنين لمحمد بن موسى

(٩) « الماء والهواء ... ... « « وحبيش

(١٠) « طبيعة الانسان... ... ... « « وعيسى

كتب جالينوس :

وأشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر وهى : كتاب الفرق، الصناعة، كتاب النبض، شفاء الأمراض، المقالات الخمس، الاسطقصات، كتاب المزاج ، القوى الطبيعية ، العلل والأمراض ، تعرّف علل الأعضاء الباطنة، كتاب النبض الكبير، كتاب الحميات، البُحْران، أيام البحران، تدبير الأصحّاء، حيلة البرء، وقد نقلها كلها حنين بن إسحاق الى العربية إلا كتاب العلل الباطنة، وكتاب النبض الكبير ، وكتاب تدبير الأصحّاء، وكتاب حيلة البرء فقد نقلها حبيش، أما ما بقى من كتب جالينوس الطبية، فإليك أسماءها مع أسماء ناقليها :

(١) التشريح الكبير	حبَيش الأعسم	(١٧) الحث على تعليم الطب	حُبَيش الأعسم
(٢) اختلاف التشريح	« «	(١٨) قوى النفس ومزاج البدن	« «
(٣) تشريح الحيوان الحىّ	« «	(١٩) حركات الصدر	نقله أصطفان وأصلحه حنين
(٤) « « الميت	« «		
(٥) علم أبقراط بالتشريح	« «	(٢٠) علل النفس	أصطفان وأصلحه حنين
(٦) الحاجة الى النبض	« «	(٢١) حركة العضل	« « «
(٧) علوم أرسطو	« «	(٢٢) الحاجة الى النفس	« « «
(٨) تشريح الرحم	« «	(٢٣) الامتلاء	« « «
(٩) آراء أبقراط وأفلاطون	« «	(٢٤) المرّة والسوداء	« « «
(١٠) العادات	« «	(٢٥) علل الصوت	حُنين
(١١) خصب البدن	« «	(٢٦) الحركات المجهولة	«
(١٢) المنىّ	« «	(٢٧) أفضل الهيئات	«
(١٣) منافع الأعضاء	« «	(٢٨) سوء المزاج المختلف	«
(١٤) تركيب الأدوية	« «	(٢٩) الأدوية المفردة	«
(١٥) الرياضة بالكرة الصغيرة	« «	(٣٠) المولود لسبعة أشهر	«
(١٦) « « الكبيرة	« «	(٣١) رداءة التنفس	«

(٣٢) الذبول	حنين	(٤١) أفلاطون فى طيماوس	حنين واسحاق
(٣٣) قوى الأغذية	»	(٤٢) تقدمة المعرفة	عيسى
(٣٤) التدبير الملطف	»	(٤٣) الفصد	عيسى وأصطفان
(٣٥) مداواة الأمراض	»	(٤٤) صفات لصبى يصرخ	ابن الصلت
(٣٦) أبقراط فى الأمراض الحادّة	»	(٤٥) الأورام	» »
(٣٧) الى تراسوبولوس	»	(٤٦) الكيموس	ثابت وحبيش
(٣٨) الطبيب والفيلسوف	»	(٤٧) الأدوية والأدواء	عيسى
(٣٩) كتب أبقراط الصحية	»	(٤٨) الترياق	ابن البطريق
(٤٠) محنة الطبيب	»		

وهنـاك كتب فى الطب وتوابعـه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقليها . وأما مؤلفوها فمنهـا بضعة وعشرون كتابا لروفس من أهل أفسس كان قبـل جالينوس ، ولعلها لم تنقل كلها . وممـا ذُكر ناقلوه بضعة كتب لأوريباسيوس ، وهى كتاب الأدوية المستعملة ، نقله أصطفان بن باسيل . وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى السريانية ، وكتاب الى ابنه أسطاث نقله حنين ، وكتاب الى أبيه أونافيس نقله حنين . ولديسقوريدس العين زربى ، ويقال له السائح فى البـلاد لسياحته فى طلب العقاقير والحشائش ، كتابٌ فى الحشائش سيأتى تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب البرسام نقله ابن البطريق . وغير هذه مما لم يعرف ناقلوها .

٣ ــ كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويشتمل النظر فى ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكات ، وهاك خلاصة الكلام فيها :

(١) كتب أقليدس ، منها أصول الهندسـة ، نقله الحجاج بن مطر نقلين الهارونى والمأمونى ، ونقله اسحاق بن حنين ، وأصلحه ثابت بن قرة ، ونقله أبو عثمان الدمشقى ، ولا يزال هـذا الكتاب باقيا الى الآن . ومن كتب أقليدس التى لم يعرف مترجموها كتاب

الظاهرات، وكتاب اختلاف المناظر، وكتاب الموسيقى، وكتاب القسمة، وكتاب القانون، وكتاب الثقل والخفة .

(٢) كتب أرخميدس، وهى عشرة ولم يعرف ناقلوها .

(٣) ابلونيـوس ، صاحب كتاب المخروطات ، وكتاب قطع السطوح ، وقطع الخطوط ، والنسبة المحدودة، والدوائر المماسة، ولم يعرف ناقلوها .

(٤) منالاوس ، له كتاب الأشكال الكروية ، وكتاب أصول الهندسـة ، نقله الى العربى ثابت بن قرة .

(٥) بطليموس القلوذى، صاحب كتاب المجسطى الشهير، وقـد تقدّم خبر نقـله وتفسيره على يد يحيى البرمكى . ولبطليموس أيضا كتاب الأربعة ، نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه حنين ، وكتاب جغرافيا المعمور وصـفة الأرض ، نقله ثابت الى العـربى نقلا جيداً، ولبطليموس ١٥ كتابا أُخَر فى الجغرافيا وغيرها، لم يعرف ناقلوها .

(٦) أبرخس ، له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحـدود ، وكتاب قسمة الأعداد لم يعرف ناقلهما .

(٧) ذيوفنطس، له كتاب صناعة الجبر، لم يعرف ناقله .

وهنـاك كتب عديدة فى الرياضـيات والهيئة والأزياج ونحوها ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقليها ، منهـا : كتاب العمل بالأسطرلاب المسطح لأبيون البطريق ، وكتاب جرم الشمس والقمر لأرسطرخس، وكتاب العمل بذات الحلق، وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير، وكتاب العمل بالاسطرلاب، وكلها لثاون الاسكندرى .

أضف الى ذلك كتب الرياضة التى تقدّم ذكرها أثناء ذكر كتب الفلسفة رغبةً فى إيرادها لأصحابها مع سائر مؤلفاتهم . وقد نُقل للمسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى الكبير لنيقوماخس الجهراسينى، وكتاب الموسيقى المنسوب لأقليدس، وقد تقـدّم ذكره،

ومقالات فى الموسيقى لفيثاغورس وغيره، وكتاب الريموس، وكتاب الايقاع لأرسطكاس، وكتاب الآلات المصوّتة المسماة بالأرغن البوقىّ، والأرغن الزمرىّ، لمورطس .

ونقل لهم من كتب الميكانيكيات غيرما جاء فى كتب أرخميدس ، كتاب الحيل الروحانية ، وكتاب رفع الأثقال لأيرن، وكتاب استخراج المياه لبادروغوغيا ، وكتاب الآلات المصوّتة على ستين ميلا لمورطس .

***

ثانيا — الكتب المنقولة عن الفارسية

أكثر الكتب المنقولة عن الفارسية فى النهضة العباسية من قبيل الآداب والأخبار والسيروالأشعار وبعضها فى النجوم مما نقله آل نَوْبَخت وعلىّ بن زياد التميمىّ وغيرهم . أما ما بقى من كتبهم المنقولة الى العربية فهى مع أسماء ناقليها .

(١)	كتاب	رستم وأسفنديار	جبلة بن سالم
(٢)	»	بهرام شوس	» »
(٣)	»	خداينامه فى السير	عبد الله بن المقفع
(٤)	»	آيين نامه	» »
(٥)	»	كليلة ودمنة	» »
(٦)	»	مزدك	» »
(٧)	»	التاج فى سيرة أنوشروان ...	» »
(٨)	»	الأدب الكبير	» »
(٩)	»	الأدب الصغير	» »
(١٠)	»	اليتيمة	» »
(١١)	»	هزار أفسانه...	لم يذكر ناقله
(١٢)	»	شهريزاد مع أبرويز	» »

(١٣) كتاب الكارنامج أنوشروان... ... ... لم يذكر ناقـــله
(١٤) « دارا والصنم الذهب... ... ... « «
(١٥) « بهرام ونرسى .. .. « «
(١٦) « هزاردستان ... ... « «
(١٧) « الدب والثعلب ... ... « «

(١٨) ســير ملوك الفرس ، وهى غير كتاب ، ترجم أحدها محمـد بن جهم البرمكىّ ، وآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الأصفهانىّ ، وآخر محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهانىّ .

وممـا يجب ذكره من مترجمات الفرس — وان كان من مؤلفاتهم بعـد نشوء التمدن الاسلامىّ — كتاب « شاهنامه » التى نظمها الفردوسى للسلطان محمود الغزنوى سنة ٣٨٤ ﻫ فى نحو ٦٠,٠٠٠ بيت على نسق إلياذة هوميروس، وقد تضمنت تاريخ الفرس القـديم، نقلها الى العربية الفتح بن علىّ البندارىّ الأصبهانىّ نثرا للملك المعظم عيسى الأيوبىّ ، أتم ترجمتها سنة ٦٩٧ ﻫ . ولا ريب أن العرب نقلوا من اللغة الفارسـية كتبا أخرى تاريخية وأدبية وخصوصا مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها .

*
* *

ثالثـا — الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغـة الهندية (السنسكريتية) كثيرا من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والأسمـار والتواريخ . والكتب الطبيـة المنقولة عنها كثيرة وان لم يصل الينا من أخبارها إلا القليل، لأن بغداد كانت فى إبّان الزهو العباسىّ ، كعبة العلمـاء والأطباء والتجار والسيّاح من كل الملل . وكان للبرامكة عناية باستقدام أطباء الهند اليها . وقد بعث يحى بن خالد فاستقدم بضعة صالحةً منهم : "كنكه" و "بازيكر" و "قليرفل" و "سندباز" وغيرهم .

و يظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العباسىّ فى الأدب أو الطب أو الصيدلة أو السِّيَر أنهم اعتمدوا فى جملة مصادرهم على كتبٍ هندية الأصل ، فانك اذا راجعت مثلا قانون ابن سينا

أو الملكى للرازى أو غيرهما من كتب الطب الكبرى ، رأيتهم يذكرون بعض الأمراض ويشيرون الى أن الهنود يسمونها مثلا كذا وكذا أو يعالجونها بكذا وكذا . واذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه أو سراج الملوك للطرطوشى أو غيرهما من كتب الأدب المهمة ، رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب أو الأخلاق أو نحوها قالوا : « وفى كتاب الهند كذا وكذا » .

كتب الطب وفروعها

على أننا نعلم مما كتبه صاحب طبقات الأطباء أنه اشتهر حوالى العصر العباسىّ جماعة من علماء الهند فى الطب والنجوم والفلسفة وغيرها ، منهم كنكه الهندى ، وهو من متقدّميهم وأكابرهم ، وخصوصا فى علم النجوم فضلا عن الطب ، وله مؤلفات كثيرة منها : كتاب النموذار فى الأعمار ، وكتاب أسرار المواليد ، وكتاب القرانات الكبير والصغير ، وكتاب فى الطب يجرى مجرى الكناش ، وكتاب فى التوهم ، وكتاب فى إحداث العالم والدور فى القرآن ، ومنهم أيضا صنجهل وباكهر ، وغيرهما .

وقد نقل كثير من مؤلفاتهم فى النجوم والطب الى اللغة العربية ، إما رأسا أو بوساطة اللغة الفارسية ، بأن ينقل الكتابُ من الهندى الى الفارسىّ ، ثم ينقل من الفارسىّ الى العربىّ ، منها كتاب سيرك الهندى ، وقد نقله من الفارسى الى العربىّ عبد الله بن على . وكتاب آخر فى علامات الأدواء ومعرفة علاجها ، أمر يحيى بن خالد البرمكىّ بنقله . وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند فى الحارّ والبارد ، وقُوَى الأدوية . وكتب أخرى فى فروع الطب .

ومن مشهوريهم منكه الهندى المتقدّم ذكره بين المترجمين . وقد أتى بغداد بإشارة يحيى ابن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقا واسعا . وكان منكه يعرف الفارسية أيضا ، فكان ينقل من الهندىّ الى الفارسىّ ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الأطباء . ومنهم صالح بن بهلة الهندى ، جاء العراق فى أيام الرشيد أيضا ، ونال شهرة واسعة

وخالط أطباءها يومئذ واختلطوا به ، فان لم يكونوا نقلوا شيئا من كتبه فلا بدّ أن يكونوا قد اقتبسوا شيئا من آراء الهند فيه .

ومن مشهوريهم أيضا شاناق، وله كتاب فى السموم خمس مقالات، نقله من اللسان الهندىّ الى الفارسىّ منكه الهندى، وأوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بأبى حاتم البلخىّ بنقله الى العربىّ ، ثم نُقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهرى مولاه . ولجودر الحكيم كتاب فى المواليد نقل الى العربىّ أيضا .

ومن الكتب الطبية التى نقلت من الهندية الى لسان العرب فى العصر العباسىّ غير ما تقدّم ذكره :

(١) كتاب سسرد فى الطب نقله منكه .

(٢) « أسماء عقاقير الهند نقله منكه لاسحق بن سليمان .

(٣) « استانكر الجامع « ابن دهن .

(٤) « صفوة النجح « «

(٥) « مختصر الهند فى العقاقير لم يذكر ناقله .

(٦) « علاجات الحبالى للهند « « «

(٧) كتاب روسا الهندية فى علاجات النساء لم يذكر ناقله

(٨) « السكر للهند « «

(٩) « التوهم فى الأمراض والعلل « «

(١٠) « رأى الهند فى أجناس الحيّات وسمومها « «

كتب النجوم والرياضيات

أما الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير فيه، وقد ذكرنا خبر السندهند فيما تقدّم، وكان لنقل هذا الزيج تأثير فى علم النجوم عند العرب، وقد قلّدوه وألّفوا على مذهبه . فمن ألّف على هذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزارىّ، وحبش بن عبد الله البغدادىّ،

ومحمد بن موسى الخوارزمىّ وغيرهم . والفزارىّ أوّل من عمل إسطرلابا فى الاسلام . وما من فلكىّ من فلكيّى المسلمين أراد التوسع فى علم النجوم إلا طالع كتبهم، إما فى اللغة الهندية أو فى ترجمتها الى العربيـة . وأكثر المسلمين عناية فى ذلك واطلاعا على آداب الهنـد وعلومهم، أبو ريحان البيرونىّ المتوفّى سنة ٤٤٠ هـ فانه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم، ثم ألف كتابه « الآثار الباقيـة عن القرون الخالية »، وله من المؤلفات ما يعـدّ بالعشرات، ومنها كثير فى علوم الهند إما ترجمةً أو تصحيحا أو نقدا .

ومما ذكره من كتبه التى ألفها فى هذا الصدد قوله : وعملتُ فى السند هند كتابا سميته جوامع الموجود لخواطر الهنود فى حساب التنجيم جاء ماتم منه ٥٥٠ ورقة . وهذّبت زيج الاركند وجعلته بألفاظى اذ كانت الترجمة الموجودة منـه غير مفهومة وألفاظ الهنـد فيها متروكة لحالهـا . وعملت كتابا فى المدارين المتحدين والمتساويين، وسميته بخيال الكسوفين عند الهنـد، وهو معنى مشتهر فيما بينهم لا يخلو منه زيج من أزياجهم وليس بمعلوم عنـد أصحابنا . وعملت تذكرةً فى الحساب والعدّ بأرقام السند والهند فى ٣٠ ورقة وكيفية رسوم الهند فى تعلم الحساب، وتذكرةً فى أن رأى العرب فى مراتب العدد أصوب من رأى الهند فيها . وفى راسكيات الهند وترجمة ما فى ابرهم سدهاند من طرق الحساب . ومقالة فى تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة فى الجوابات على المسائل الواردة من منجمى الهند . ومقالة فى حكاية طريقة الهند فى استخراج العمر . وترجمة كلب باره، وهى مقالة للهند فى الأمراض التى تجرى مجرى العفونة وغير ذلك .

فيؤخذ من هذا أن الهنود أهل علم ورأى فى النجوم وعلومها وأن المسلمين نقلوا عنهم شيئا كثيرا .

كتب الأدب

وأما ما نُقل الى العربية فمنها : كتب الهند فى الأدب والتاريخ والمنطق والأسمار والخرافات :

(١) كتاب كليلة ودمنـة، وقد نُقل عن طريق الفارسية كما تقدّم، وبعد نقله الى العربية

نظموه شعرا كما نظمه الفرس من قبلهم . وممن نظمه فى العربية أبان بن عبـد الحميد ابن لاحق بن عفير الرقاشىّ وعلى بن داود . (٢) كتاب سندباد الكبير (٣) كتاب سندباد الصغير (٤) كتاب البـد (٥) كتاب يوذاسف (٦) يوذاسف مفرد (٧) كتاب أدب الهنـد والصين (٨) كتاب هابل فى الحكمة (٩) كتاب الهند فى قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب دبك الهنـدى فى الرجل والمرأة (١٢) كتاب حدود منطق الهنـد (١٣) كتاب ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح (١٥) كتاب بيدبا فى الحكمة .

ومما نقله العرب عن الهنود: كتاب فى الموسيقى اسمه فى الهندية «بيافر» ومعناه ثمـار الحكمة، وفيه أصول الألحان وجوامع تأليف النغم .

***

رابعـا ـ الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدّم كتبا كثيرة فلسفية وطبية نُقلت من اليونانىّ الى العربىّ بوساطة اللغة السريانية أخت النبطية أو هى عينها فلا نتعرّض لذكرها ، وإنما نريد هنا الكتب التى كانت مكتوبة فى اللغة الكلدانيـة أو النبطية، ونُقلت الى العربية رأسا، ولولا نقلها لضاعت . وأهم تلك الكتب : (١) كتاب الفلاحة النبطية ، فانه فريد فى بابه، وقد نقله الى العربية أحمد بن علىّ بن المختار النبطىّ، المعروف بابن وَحْشية سنة ٢٩١ هـ وظل معتمدَ أهل الزراعة الى أمدٍ غير بعيد ، وقد نُقِل الى اللغات الافرنجية ، ولولا نقله الى العربيـة لضاع وخسره العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدّمته، فقد قال ابن وحشية، وهو يملى الكتاب على علىّ بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨ هـ : «اعلم يا بنىّ أنى وجدت هذا الكتاب فى كتب الكسدانيين (الكلدان أو النبط) يترجم معناه فى العربيـة كتاب فلاحة الأرض و إصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها، وكان هؤلاء الكسدانيون أشـدّ غَيرةً عليها، لئلا يظهر هذا الكتاب ، فكانوا يخفونه بجهدهم ، وكان الله عز وجل قد رزقنى المعرفة بلغتهم ولسانهم، فوصلت الى ما أردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجلٍ

متميز ، فأخفى عنى علمه ، فلما اطلعت عليـه لمته فى إخفاء الكتاب عنى ، وقلت له : إنك إن أخفيت هـذا العلم دُثِر ومضى ولا يبقى لأسلافك ذكر ، وما يصـنع الانسان بكتب لا يقرؤها ولا يدع من يقرؤها ، فهى عنده بمنزلة الحجارة والمدر ، فصدّقنى فى ذلك وأخرج الىّ الكتب ، فجعلت أنقل كتابا بعـد كتاب ، فكان أول كتاب نقلته كتاب دواناى البابلىّ فى معرفة أسرار الفلك والأحكام على حوادث النجوم ، وهو كتاب عظيم المحـل ، ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه » الخ... . (٢) كتاب طرد الشياطين ، ويعرف بالأسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب النبط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين فى الأصنام (٧) كتاب الإشارة فى السحر (٨) كتاب أسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحة الصغير (١٠) كتاب فى الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت فى علاج الأمراض (١٢) كتاب الأصـنام (١٣) كتاب القرابين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الأسمـاء ، وأكثرها من نقل ابن وحشية ، غير ما لا بدّ من نقله من كتب الدين وأخبار الكلدان القدماء .

*
* *

خامسا ــ الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب أن كثيرا من تعـاليم اليهود وآدابهم المدوّنة فى التلمود وغيره من كتبهم قـد نُقل الى العربية ، وإن كنا لا نرى شيئا منها مدوّنا على أنه مترجم ، لأنهم كانوا ينقلونها شفاها للصحابة وغيرهم على ما تقدّم ، وربمـا دوّنوا منها شيئا وضاع ، وأما ما وصل الينا خبره من المنقول عن العبرانية ، فترجمة أسفار التوراة ، نقلها سعيد الفيومى المتوفّى سنة ٣٣٠ هـ ، وهو أقدم من نقل التوراة الى العربية ، مما وصل الينا خبره ، وله أيضا شروح وتفاسير عليها .

ولا يبعد أن يكون قد نُقل الى العربية بعض الكتب عن اللاتينية ، لأنها كانت تحوى كثيرا من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها ، وربما فات نَقَلَة الأخبار ذكر ما نقل عنها ، وقد رأينا فى جملة المترجمين يحيى بن البطريق لا يعرف غير اللغة اللاتينية ، وأنه ترجم عدّة كتب ، فالظاهر أنه ترجمها عن اللاتينية .

وأما القبطية فاذا لم ينقل العرب عنها رأسا ، فلا نشك فى أنهـم نقلوا كثيرا من علوم المصريين بوساطة اللغة اليونانية ، وخصوصا صناعة الكيمياء القديمة وغيرها ممـا برع فيه المصريون ، وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطى والیونانی معا بأمر خالد بن يزيد .

(د) آثار النهضة المأمونية :

هـذه هى بعض كتب العصر وكانت لهـا آثارها ونتائجها فى العقلية العربيـة أولا ، وفى المدنيـة العربية ثانيـا ، حتى أصبحنا نرى المأمون يُضرب به المثـل فى عِظَم الحركة العلميـة ، وحتى نرى «نولدكا» ومحررى دائرة المعارف البريطانيـة وغيرهم ، يمثلون المأمون بأنوشروان وغيره من خَدَمَة الإنسانية ورُسُل الثقافة العامّة .

والحق أن المأمون وعصر المأمون كانا متقـدمين عن زمنهما ، إذ كانت حالة المأمون وحالة المملكة المأمونية فى ذلك الحين ، أرقى بمراحل من حالة ملوك أوروبا وممالك أوروبا .

ويقول الدكتور «طوطح» فى رسالته الانجليزية عن حالة التعليم عند العرب : «إنه بينما كان شارلمـان يتعلم القراءة مكبًّا على مطالعة رسائله مع أترابه فى مدرسـة القصر كان المأمون يعالج الفلسفة ومناقشة أقضيتها هناك فى بغداد» . ويقول فى مكان آخر من رسالته القيّمة : «إن المأمون أوفد عَميـد بيت الحكمة الى بلاد اليونان لنقـل حكمة اليونان وعلوم اليونان الى اللغة العربية» . وهناك أقوال كثيرة عن آثار النهضة المأمونية ، وهى لا تخرج عمـا قدّمناه لك من رأى السير وليام ميور عن ازدهار العلوم والمعارف فى عصر المأمون . فنكتفى بما قدّمناه عن التبسط فى القول فى هذه الناحية الهامة حقا .

على أن لهذه النهضة المأمونيـة آثارها ونتائجها أيضا فى زيادة الثروة اللفظية فى اللغة العربية ، وقد بيّنا لك طرفا منه فى كلمتنا عن حالتها فى الصدر العباسى ، فلا حاجة اذاً بنا الى تكراره هنا ، وقصارى ما نقوله أنّا نحيلك الى بعض المصادر القيّمة فيما نحن فى صدده من بيان تأثر اللغة بهذه النهضة التى تشبه فى كل وجوهها حركة التجديد «رينسانس» فى أوروبا ، وهى : كتاب خطى منسوب للجاحظ عن الألفاظ الفارسية فى اللغة العربية ، وبحوث العلامة

أنستانس الكرملىّ البغدادى فى السنة الأولى من المشرق عن الكلم اليونانية فى اللغة العربية ، كما أحيلك الى بحوث «مجلة المجمع العلمى» فى شأن تفسير الألفاظ العباسية الواردة فى كتاب «نشوار المحاضرة» .

أما فن التاريخ والجغرافيا ، فلم تبدأ العناية الجدّية بهما إلا منذ أيام اليعقوبى ، وابن خرداذبه[١] فى نهاية القرن الثانى .

وأما العلوم القرآنية وما تفرّع عنها ، فقد سبق أن أشرنا اليها فى بابها من العصر العباسىّ . ويظهر أن عناية المأمون بها لم تكن مثل عنايته بالفلسفة اليونانية ، وما اليها ، اللهم اذا كانت موجهة الى الناحية الاعتزالية الكلامية .

وقد آن لنا الآن أن نتكلم عن القول بخلق القرآن لاتصاله وكبير أثره فى الحياة العلمية والعقلية فى عصر المأمون .

(ه) القول بخلق القرآن :

يقول ابن الأثير فى تاريخه عن هشام بن عبد الملك : إن الجَعْد بن درْهَم قد أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام ، فأخذه وأرسله الى خالد القسرىّ ، وهو أمير العراق ، وأمره بقتله ، فحبسه خالد ولم يقتله ، فبلغ الخبر هشاما فكتب الى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله ، فأخرجه خالد من الحبس فى وَثَاقه ، فلما صلّى العيدَ يوم الأضحى ، قال فى آخر خطبته : إنصرفوا وضحُّوا يقبل الله منكم ، فإنى أريد أن أضحّى اليوم بالجعد بن درهم ، فانه يقول : ما كلم الله موسى ، ولا اتخذ ابراهيمَ خليلا ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ، ثم نزل وذبحه .

ويقول ابن الأثير فى حياة مروان بن محمد : إن سبب تسميته بالجعدىّ ، ذهابه مذهب الجعد بن درهم فى القول بخلق القرآن ، والقدر ، وغير ذلك .

ومن هذا تعلم أن القول بخلق القرآن ، بدعة نبتت فى العصر الأُموىّ ، ثم لم تجد الجو الذى تنمو فيه وتُترعرع ، حتى كان عصر المأمون فوجدت من شخصيته العالمة ومن نفوذه العظيم ونفوذ علمائه ، خيرَ متعهد لنمائها ، حريص على نُصْرتها ، شديد اليد بالبطش على مخالفيها .

(١) أنظر القاموس وشرحه فى مادة «روم» فانه ضبطه بالياء المثناة بعد الذال المعجمة وبعد الياء هاء .

ولعلك تتساءل لم وَجَدَ القولُ بخلق القرآن من المأمون الصدرَ الرحب والعاملَ على نصرته؟ وهل كان مُوَفَّقا فيما أخذه على عاتقه أو قد اشتدّ به الغلوّ فى تأييد وجهة نظره حتى خرج به عن القصد ؟؟ .

ونحن قبل أن نُجيبك عن هذه الأسئلة، وقبل أن نَعْرِض للموضوع من وجهاته المختلفة، نريد أن ننقل لك كلمة للأستاذ «ميور» فى هذا الصدد، وهى وإن لم تكن تتفق مع وِجهة نظرنا فى هذا المبحث، تبين لنا وجهة نظر مُتَشَرِّقٍ بحّاثةٍ كبير فيما نحن بصدده .

يقول الأستاذ «ميور» فى الفصل الذى عقده عن المأمون فى كتابه الممتع "الخلافة" :

«وفى الحق أن المأمون كان متعصّبا لفارس مسقط رأس أمه وزوجه، شديدَ الميل الى العلويين، ونشأ عن ذلك فى السنوات الأخيرة من حكمه، مَزِيجٌ من حرية الأفكار والتعصّب . وكان المأمون فى بعض هذه المسائل واسع الحرّية حقا لدرجة مدهشة . وقد ألغى من بضع سنوات مضت، الامرَ الذى كان أسلافه قد أصدروه، يحرّمون فيه ذكر معاوية أو أحد الأمويين بخير، وأباح للمسيحيين حرّية المناقشة فى أىّ الدِّينين أفضل : الإسلام أم المسيحية . غير أن ميوله الفارسية التى كان يجنح اليها دائما، دفعته أخيرا أن يتناقش بحماسة فى نظريات المعتزلة الذين أباحوا حرّية التفكير . ثم أحاط المأمون نفسه بالفقهاء وعلماء الدين من كل فئة، وأباح لهم المناقشة فى حضرته فى نظريّات كان البحث ممنوعا فيها، كعلاقة الانسان بخالقه، وطبيعة الألوهية وغير ذلك . وأخيرا أعلن تحوّله الى عقائد تخالف تعاليم الدين الصحيحة، فمن ذلك أنه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون بالاختيار لا بالجبر، وأن القرآن وإن كان وَحْيا إلا أنه مخلوق، بدلا من العقيدة التى كانت لا تُنَازَع (١) وهى أن القرآن أزلىّ

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « ما كان عند المسلمين عقيدة بهذا الوصف ولكن القول بخلق القرآن جاء بكرا لم يكن لرسول الله ولا لأصحابه ولا للتابعين قول ينافيه أو يوافقه فلما أغرم المأمون بهذه المقالة وعرضها على العلماء لجأوا الى كتاب الله ينظرون فيه حكم المقالة التى لا عهد لهم بها فلم يجدوا . فنظروا الى السنة فلم يجدوا . والقوم فى ذلك العهد يردّون كل شىء الى الكتاب والسنة . فلما لم يجدوا فيهما حكما توقفوا فى هذا القول احتياطا لدينهم أن يقولوا على الله ما لا يعلمون . فلم يرض المأمون هذا التوقف واعتقدوا أنهم يرمون بهذا الى اعتقاد أن مع الله قديما سواه وأنه يوجد موجود ولا أثر لله فى إيجاده ولج فى إعناتهم وتناولهم بالحبس والإيذاء» .

غير مخلوق . وأعلن المأمون أيضا أن عليًّا أشرف الخلق بعد النبى ، وعلى هذه النظريّة بُنِيت نظريّة الإمامة المقدّسة أو الزعامة الدينية التى كانت تنتقل من عضو الى آخر من بيت علىّ . وبدأ فى تلقين النـاس أنه يوجد مصادر أخرى غير القـرآن والحديث يمكن الاسترشاد بها فى مسائل الدين ، وفسّر القرآن تفسيرا من غير تقييد بلفظه ، وبذلك ذُلِّلت صعوبات كثيرة كانت تعترض حرّية التفكير أو تقف عَثْرة فى تقدّم العمران ، كإباحة شرب الخمر (كذا !) وزواج المتعة(١) . وعلى ممرّ السنين تحوّلت فكرة المأمون فى خلق القرآن من مجرّد رأى الى إعلانه المشئوم الذى حَمّل فيه رعاياه بالاضطهاد والعقوبات على اتخاذه عقيدةً لهم . وقد أرسل الى والى بغداد ، وهو فى حملته الأخيرة على الروم ، أمرا بأن يجمع كبار العلماء والفقهاء ويمتحنهم فى هذه المسألة الخطيرة ويرسل اليه إجاباتهم ، وقد تأثر كثير من العلماء فى مجلس المناظرة الذى كان أشبه بمحكمة التفتيش ، حتى أظهروا القول بخلق القرآن ، إلا أن البعض بقى ثابتا على عقيدته بأن القرآن غير مخلوق ، كأحمـد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلىّ ، الذى حملوه مكبلا بالحـديد الى معسكر الخليفة . ولقـد ذكر التاريخ أن اثنين من هؤلاء المخالفين هُدِّدا بالقتل ، وأُرسِل عشرون منهم تحت خِفَارة حُرّاس لينتظروا فى "طَرَسُوس" عودة الخليفة من حروبه ، ولكن جاءتهم الأنباء فى أثناء سيرهم فى الطريق بموت المأمون . ولقد سوّدت أمثال هذه الفظائع سُمْعة المأمون فى سنوات كثيرة » اهـ .

ذلك هو رأى المتشرق « ميور » . ولنرجع الآن الى معالجة الإجابة عمـا تساءلتَ عنه ، فنقول : إنك جِدُّ عالِمٍ بأن المأمون كان تلميذا ليحيى بن المبارك الزَّيْدىّ المتهم بالاعتزال . جِدُّ عالِمٍ بصلته بثُمَامة بن أشرس ، زعيم المذهب الثمامى فى الاعتزال ، وإعجابه به ، حتى عرض

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « قد رجع المأمون عن هذه المقالة بعد أن أقام أحمد بن دواد الحجة عليه فى ذلك بما ملخصه : أن زوجة المتعة ليست الزوجة التى يجب نفقتها وترث ويثبت نسب الولد منها كما هو شأن الزوجة الشرعية فهى ليست زوجة وليست ملك يمين والله تعالى يقول : (والذين هم لفروجهـم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) فهى بما وراء ذلك ويكون زواج المتعة زنا — وعامة أهل الاسلام على هذا سوى الشيعة الرافضة » .

عليه الوزارة مرتين، كما أسلفنا لك القول فى باب الوزارة . جدُّ عالم بأن المأمون كان يعقد مجالس للكلام فى مختلف البُحُوث، وكان من نتائج هذه المجالس أن قرَّب اليه كل متكلم حاذق، أو مُفَكّر بصـير بمداخل القـول ومخارجه ، مثال أبى الهُذَيل العـلّاف، وابراهـيم ابن سيّار وغيرهم . وأنت جدُّ عالم بأن ثُمَامة والعلّاف وابراهيم كانوا من مشيخة الاعتزال. أنت جدُّ عالم بهذا كله، فلا غرو أن حَبَّب هؤلاء القـوم الى المأمون مذهبهـم، ولا غرو أن كانت مهمتهم ميسورة معبّدة، لأنهـم وجدوا من المأمون ذلك التلميذ المتأثر بمذهب أستاذه ابن المبارك .

كل هذه العوامل كانت فى الواقع ناحية واحدة، ولها أثرها القوىّ فى تنميـة النزعة، الاعتزالية فى نفس المأمون . بيد أن هنالك ناحية قوية أخرى لها أثرها القوىّ أيضا، تلك الناحية هى حركة النقل والترجمة، تلك الحركة التى حببت الى المأمون الفلسفة وما الى الفلسفة، ووجّهت عنايته الى المنطق وما الى المنطق، وبعثت فى نفسه حبَّ أرسطاليس ، حتى أصبح موضع تفكيره فى يقظته ونومه . وصفوة القول أن الناحية الثانية لم تكن لتقـلّ عن الأولى أثرا، فقد هيأت منه ذلك التسامح الذى يتبع ما توحى به سلسلة أفكاره .

وسـترى فى أخذه بالقول بخلق القرآن الى أىّ مَـدًى دفعت به حرّية التفكير حتى وصلت به الى ما يناقض حرّية التفكير؛ لأنه ليس من حرّية التفكير فى شىء تلك الطريقة الشاذّة فى إلزام العلماء وجِلّة الفقهاء الأخذ بمذهبه . وليس من حرّية التفكير فى شىء تلك النتائج السيئة التى انتهت اليها مأساة القول بخلق القرآن، فى أيام المعتصم وأيام غير المعتصم .

وقد أثبتنا لك فى باب المنثور فى الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث مثلا مما كتبه المأمون الى وُلاته فى الأخذ بمذهبـه فى القول بخلق القـرآن، وهو كتابه الى اسحاق بن ابراهـيم؛ كما أثبتنا لك ما رواه لنا الطبرى مما حصل وقتئذ . فراجعهما ثَمَّةَ .

الفصل الرّابع

الحيــاة الأدبية فى عصر المأمون

توطئة : المحادثة أو لغة التخاطب ، الخطابة ، الكتابة ، مجالس المناظرة وأبهاء الأدب ، الشعر .

(ا) توطئـــــة :

لكتاب الخلافة «للسير وليام ميور» ، مكانة رفيعة فى التاريخ العربىّ ، ولا سيما عصرنا المأمونى ، بناحيتيه العلمية والأدبيــة . ذلك لأن الرجل ، الى جانب دراســته الدقيقة لمؤلفات العرب وكتابات العرب وبُحُوث المؤرّخين العرب ، لم يترك مصــدرا من مصــادر المتشرقين أمثال : «نولدكه» و «كريمر» و «هرزلد» و«أمرز» و «بربياد» و «مينارد» و « چوچ » وغيرهم من عشرات المؤرّخين إلا وقد استوعبــه واستقصى البحث فيــه . كذلك لم يترك مصــدرا من مصادر التاريخ الفارسىّ ، وهو كما نعــلم ، شديد الصــلة بعصرنا المأمونىّ ، من غير أن يدرسه حق دراســته ويفهمه حق فهمه ، فطالع فيما طالعــه فى ذلك الباب ، آثار « ماكولم » و « فرازر » و « برون » و « سيكس » و « جوجينس » وغـــيرهم .

من أجل هــذا ومن أخذ ذلك المؤرّخ البحاثة بالدقة فى كل ما تصــدّر له ، جاءت جُلُّ بحوثه أفضل من سواه وأرفع مكانة من غيره . ونحن نستبيح لأنفسنا أن ننقل اليك ما ذكره فى هــذا الباب . قال : « كان حكم المأمون مجيدا عادلا ، وكان عصره مزدهرا بأنواع العلوم والفنون والفلسفة ، وكان أديبا مُولَعا بالشعر متمكنا منه . ولقد حدث مرّة أن شاعرا كان ينشد بين يديه قصيدة من مائة بيت ، فكان الشاعر كلما أنشد شطر بيت بادره المأمون بشطره الآخر ، حتى دهش الشاعر وحار فى سرعة بديهته . وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة ، إذ كان يقرّبهم اليــه ويجزل لهم العطاء ، وكما كان عصره عامرا بالعلمــاء والأدباء والنحاة فإنه كان كذلك حافلا بجماعة المحدّثين والمؤرّخين والفقهاء

كالبخاريّ ، والواقديّ ، الذى نحن مَدِينـون له بأوثق السِّـيَر عن حياة النبيّ ، والشافعيّ[(1)] وابن حنبل . وكان المأمون يُجِلّ علماء اليهود والنصارى ، ويَحتفِي بهم فى مجلسه ، لا لعلمهم فحسب ، بل لثقافتهم فى لغة العرب وحِذقهم فى معرفة لغة اليونان وآدابها . ولقـد أخرجوا من أديرة سوريا وآسـيا الصـغرى وسواحل الشأم وفلسـطين ، كتبا خطية فى الفلســفة والتـاريخ وعلم الهنـدسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم ، ثم ترجموها الى العربيـة بدقة وعناية عظيمة . وبهذه الوسيلة انتقلت علوم الغرب الى العالم الإسلاميّ . ولم تقتصر جهود هؤلاء الجهابذة على نقل هذه الكتب القديمة الى اللغة العربية ، بل توسعوا وأضافوا اليها ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعهم . وأقاموا مرصدا فى «سهل تَدْمُر» مُجَهزًّا بجميع الآلات التى تمكنهم من النجاح فى دراسة علمى الفلك والهندسة والتوسّع فيهما . وقد صنفوا كتبا فى الرحلات والتاريخ ، ولا سيما كتب الطب ، وعُنُوا عناية كبيرة ببعض علوم تافهـة ، إلا أنهـا كانت أكثر ذيوعا وانتشارا ، كالتنجيم والكيمياء . وكان لجهود هؤلاء العلماء الأثر الأكبر فى نهضة أوروبا التى كانت غارقة فى بحار الجهالة فى العصور الوسطى ، حيث أيقظتهم من غفلتهم وأنارت لهم سبل علومهم التى كانوا أغفلوها ، وهى علوم اليونان وفلسفتها» اهـ .

ويقول الأستاذ البحاثة "كرد على" فى بحث طريف له : إن عصر المأمون قد ازدان بكثير من حَمَلة الشريعـة والأدب ، منهم : يحيى بن أكثم ، وأبو محمد اليزيديّ ، والحسن ابن زياد ، وأبو داود الطيالسيّ ، وأبو عُبَيد القاسم بن سـلام ، وابن الأعرابيّ ، والنضر ابن شُمَيل ، وأبو عمرو الشيبانى ، ومحمد بن عمر الواقديّ ، وأبو عبيدة ، والفرّاء ، والأخفش ، والأصمعيّ ، والصغانيّ ، والضبيّ ، والشـافعى ، وابن سعد ، وأبو داود ، وابن أبى دواد ، وابن حرب ، وابن حنبل ، والجاحظ ، والفواريرى ، وقُتَيبة ، وسـعدويه الواسطى ، وابن الجَعْد ، وابن عُلَيّة الأكبر ، وأبو نصر التمّـار ، وأبو مَعْمَر القَطِيعيّ ، وأبو العَوّام البزّاز ، وابن شُجاع ، وبِشْر المَرِّيسيّ ، وبِشْر بن الوليـد ، وسَجّادة ، ومحمـد بن نوح ، وأبو هارون

(1) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « لم يكن للشافعى اتصال بالمأمون » .

ابن البكاء، والهــذيل محمــد بن الهــذيل، وأبو زكريا المُرى ومحمد بن مبشر، الى مئات غيرهم، كانوا فخرَ الدولة وعنوانَ نبوغ الأمة . أما الشعراء والكتّاب فكانوا طبقة عاليــة، كثيرة العدد كالحصى، جيّــدة المَنْحَى والأسلوب، تغلب الرِّقة والجزالة على أهــل هاتين الصناعتين . تأثّروا كلهم بالحضارة الجديدة، حتى غدا الشعر المدنى البديع ظاهرَ الاختلاف عن الشــعر الجاهلىّ، بعيدا عن وصف الأطلال والدِّمَن والركاب، وطلب الثأر، والمفاخرات الفارغة . هــذا، وكان الجمهور يُشارك الأدباءَ فى فهم الشــعر، وقدْرَ الخطبَ والرسائل قَدْرها، فلم يكن الشعراء فى وادٍ والأمة فى آخر، بل كان الشاعر أو الكاتب، اذا قَرَض شعرا أو حبر خطابا، تتناقله الأيدى فى الحال، وتتعاوره الرواة فيفشو فى الأمصار، وهــذا ما كان يزيد فى طلاوة أدب الأديب وشــعر الشاعر وخطبة الخطيب، ويحثّه على تجويد مقاله . اهـ

وبعــــد، فقد بيّنا فى كلمتنا عن الحياة الأدبيــة فى صــدر العصر العباسىّ ما أخذتْ تتحوّل اليــه الآداب العربية عامة فى الألفاظ والأساليب والمعانى والأغراض، وبيّنا لك الأسبابَ التى كانت تبعَث على هــذا التحوُّل، من شدّة الامتزاج بين العناصر المختلفة التى خضعت لسلطان العرب بالغرب، وما استتبعه هذا الامتزاج من إضافة ثقافات ومدنيات جديدة، الى ما كان للعرب من ثقافة ومدنيــة، ومن اتّساع الســلطان، وامتداد أطرافه، ومن تشجيع الخلفاء لأهل العلم وإكرامهم لرجال الأدب، ومن انصراف همم أولى الفضل الى التأليف والترجمة، ومن كثرة حاجات النــاس وتنوّعها، حتى اضطرت اللغة أمام هذه العوامل وغيرها، مما سبق أن بيّناه لك، أن تنفرج جوانبها، لتسع هذه الأغراض، ولتقوم بحاجات الناس، طِبْقًا لمقتضَيَات العصر، وخضوعا لسنّة التحوّل .

بيّنا لك كلّ هــذا . وقد يكون من التعسُّف أن نَعْرِض لتحوّل الآداب فى أيام المأمون خاصّةً، فانه اذا افترضــنا أن الآداب تحوّلت تحوّلا خاصّا فى أيام المأمون، فقــد يكون من العسير تبيين هذا التحوّل وتحديد مداه، ذلك بأن تحوّل الآداب بطىءٌ، ولا يمكن

تبيينه إلا بعد ظهور آثاره ظهورا لا سبيلَ الى الشــك فيه ، بخلاف الحوادث السياسية ، فانك تستطيع أن تؤقّت الحوادثَ السياسية بالسنة بل بالشهر بل باليوم ، ولا تستطيع ذلك فى الآداب إلّا بعشرات السنين .

إذًا رأيُنا فى الآداب لعصر المأمون هو رأينا فى الآداب لصدر العصر العباسىّ . وإنمــا الذى حدث أن السبيل التى سلكتها الآداب فى صــدر العصر العباسىّ قد بلغت غايتهــا فى أيام المأمون ، فعصر المأمون اذًا هو الثمرة الناضجة لتغيُّر الآداب فى العصر العباسىّ ، أو بعبارة أخرى : يعتبر عصرُ المأمون العصرَ الذى بلغت فيه الآداب العربيــة الذروة من الكمال المقدور لها .

وسبيلنا الآن أن نورد لك من آثار عصر المأمون ما يقوم لديك دليــلا على هــذه النتيجة . وقد أوردنا من هذه الآثار فى المجلد الثالث ما فيه الكفاية .

(ب) المحادثة أو لغة التخاطب :

بدأت لغــة التخاطب تنحدر مدارجةً عن الفصحى منــذ الفتوح الإسلامية ، بسبب اتصال العرب بغير العرب ، ممّن دان لسلطانهم وانتظم فى مُلْكهم .

ولقد لاحظنا أثناء مطالعتنا فى الطبرىّ وفى غير الطبرى فى الفترة المأمونية ، أن بعض جُند خُراسَان كانوا لا يفهمون العربية فيقولون مثلا (بُسرَ زبيدة) (ومكن) وغيرها من الألفاظ الفارسية التى أثبتها المؤرّخون .

وقد يكون من المُمتع حقا أن يُخصص باحث ممن لهم اطلاع على لغــات البُلْدان التى فتحها العرب كتابًا لدراسة مبلغ تأثر اللغة العربية بلغات من خضع لسلطان العرب فى الأرجاء المختلفة . وقُصارى ما نقرّره هنا أن اللغة العربية تأثرت حقا من أثر الفتوح سواء أ كانت فتوحَ سيف أم فتوحَ ثقافات وترجمات قد أضعفت من بلاغةِ اللسان ومَتانة اللفظ بقدر ما أغنت من ثروة ذهنية عظيمة .

وإنك اذا ذكرت ما كتبناه فى الفصل السادس وفى نظيره من كتابنا عن الصدر العباسىّ فى شأن ما زيد فى الألفاظ العربية، من ألفاظ العلوم المترجمة فى ذلك العصر، وذكرتَ أن الموالى الفرس وغيرهم، هم الذين قد عُهِد اليهم بالترجمة والنقل والتحرير، اذا ذكرتَ هذا، الى جانب ما قدّمناه لك، فانك تسوّغ معنا ما نذهب اليه من القول بتأثر اللغة فى ذلك العصر.

وفى هذا القدر الكفاية، ولنتدرّج الى ذكر كلمة عن الخطابة.

(ج) الخطابة :

قلنا فيما سبق: إن عصر المأمون كان الثمرةَ الناضجة للآداب العربية فى العصر العباسىّ، فهل كان الأمر كذلك فى الخطَابة أيضا؟

أنت تعلم أن قوّة الشىء ترجع الى قوّة عوامله وأسبابه. ونحن نرى، معتمدين على ما لدينا من آثار خطابية لهذا العصر، أن أسباب الخطابة وعواملها، كانت ضعيفة ضعفا نسبيا، ومن ثَمّ لم تُماشِ الخطابةُ سائر أنواع الآداب فى سبيلها الى الكمال المقدور لها. ولعل ذلك يرجع الى ضيق مجالها وضعف الحاجة اليها، فبعد أن كنا نراها فى العصر الأُمَوىّ، الوسيلةَ الى قَمْع الفِتَن وردّ البِدَع، ولسانَ الخليفة فى رعيته، والقائد فى جنده، والزعيم فى أتباعه، وبعد أن كنّا نرى حظها فى عصر الانتقال وصدر العصر العباسىّ لا يقل عن حظها فى العصر الأُمَوىّ، لحاجة الدّعاية والزعماء اليها، أصبحنا نرى مجالها فى عصر المأمون يضيق، حتى كادت تُقْصر على التهنئة والتعزية والخُطَب الدينية كالجمعة والعيدين. وضِيقُ مجالها يرجع الى استغناء الخلفاء العباسيين وعُمّالهم وقوّادهم عنها بالمنشورات العامّة، حيث يتبسطون فيها ويضمنونها مايريدون من أغراض، ثم تُتلى على مَن يُراد أن تُتلى عليهم. ولعل ذلك لاصطباغ الخلافة العباسية بالصبغة الفارسية، ولاحتجاب الخلفاء عن مخالطة الجماهير، ولأن جُلّ عُمّال بنى العباس فى ذلك العصر كانوا من الموالى وهؤلاء وإن أُوتوا

حظًّا عظيما من بلاغةِ القــول وحسنِ البيان ، فقــد كانت لا تزال بألســنتهم لُوثةٌ من العُجْمة ، تحول بينهم وبين ما تقتضيه الخطابة من اندفاع الألفاظ وتدفقها .

لعل لكل هــذا أو بعضه أثرا مّا فى تضييق مجال الخطابة والاستغناء عنهــا بالرسائل والمنشورات العامة . ومهما يكن من شيء ، فقد أُلْقيت فى عصر المأمون خُطَبٌ قليلة القَدْر والقيمة ، ننشر لك منها على ســبيل المثال خطبتين : إحداهما للمأمون فى عيد الفطر ، والأخرى تهنئة بمَقْدم المأمون الى بغداد .

خطبــة المأمون :

أَلَا وإن يومكم هذا يومُ عيدٍ وسنة وابتهال ورغبة ، يومٌ ختم به الله صيام شهر رمضان ، وافتتح به حَجّ بيتــه الحرام ، فجعله أوّل أيام شهور الحج ، وجعــله مُعَقِّبا لمفــروض صيامكم ومُتَنَفَّل قيامكم ، فاطلبوا الى الله حوائجكم واســتغفروه لتفريطكم ، فانه يقال : لا كثير مع ندم واستغفار ، ولا قليل مع تمادٍ وإصرار . اتقوا اللهَ عبادَ الله ، وبادروا الأمرَ الذى لم يحضُر الشك فيــه أحدا منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فانه لا يستقال بعــده عثرةٌ ، ولا تُحظَر قبلَه توبةٌ . واعلموا أنه لا شيءَ بعده الا فوقه ، ولا يُعين على جَزَعه وعَلَزه وكُرَبه ، وعلى القــبر وظلمته ، ووحشته وضيقه ، وهول مطلعه ومسألة مَلَكَيْه ، إلا العملُ الصالح الذى أمر الله به ، فمن زَلّت عنــد الموت قدمُه ، فقد ظهرتْ ندامتُــه وفاتته استقالتُــه ، ودعا من الرَّجعة مالا يُجابُ اليه ، وبذَل من الفِدْية مالا يُقبل منه ، فاللهَ اللهَ عبادَ الله ، كونوا قوما سألوا الرَّجعــةَ فأُعْطُوها إذْ مُنِعها الذين طلبوها ، فانه ليس يتمنى المتقــدّمون قبلكم ، إلا هــذا الأجل المبسوطَ لكم . فاحذروا ما حذَّركم اللهُ منه ، واتقوا اليومَ الذى يجمعكم الله فيــه لوضع موازينكم ، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم . فلينظر عبــدٌ ما يَضَــع فى ميزانه ممــا يثقُل به ، ومما يُمْلِى فى صحيفته الحافظة لمــا عليه . واستُ أنها كم عن الدنيا بأكثر ممــا نهتكم به الدنيا عن نفسها ، فان كلّ ما بهــا يُحذِّر منها ويَنْهَى عنها ، وكلُّ ما فيها يدعو الى غيرها . وأعظمُ ما رأته أعينكم من فجائعها وزوالهــا ذمّ الله لها والنهى عنها ، فانّه يقول تبارك

وتعالى : ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وقال ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ . فانتفعوا بمعرفتكم بها وبإخبار الله عنها . واعلموا أن قوما من عباد الله ، أدركتهم عصمةُ الله ، فحَذِروا مصارِعَها ، وجانبوا خدائِعَها وآثروا طاعة الله فيها وأدركوا الجنة بما يتركون منها .

خطبة التهنئة :

قال ابن أبى طاهر : دخل المأمون بغداد فتلقاه وجوهها ، فقال له رجل منهم : يا أميرالمؤمنين ، بارك الله لك فى مَقْدَمك ، وزاد فى نعمتك ، وشكرك عن رعيتك ، تقدّمت مَنْ قَبْلَك ، وأتعبتَ مَن بعدَك ، وأيأستَ أن يُعايَنَ مثلُك ، أما فيما مضى فلا نعرفه ، وأما فيما يبقى فلا نرجوه ، فنحن جميعا ندعو لك ونُثْنِى عليك . خَصَبَ لنا جنابُك ، وعذب ثوابُك ، وحسُنت نظرتُك ، وكرُمت مقدرتُك ، جبرتَ الفقير ، وفككتَ الأسير ، والخيرُ بفنائك ، والشرُّ بساحة أعدائك ، والنصر مَنُوطٌ بلوائك ، والخِذْلانُ مع أَلْوِيَة حُسَّادك ، والبِرُّ فعلك ، قد طَحْطَح عدوَّك غضبُك ، وهَزَم مغايِبَهم مشهدُك ، وسار فى الناس عدلُك ، وشَسِعَ بالنصر ذكرُك ، وسكَّن قوارِعَ الأعداء ظَفَرُك ، الذهب عطاؤُك ، والدواةُ رمزك ، والأوراق لحظك وأطرافك .

* * *

(د) الكتابة :

قلنا فى كلمتنا عن الكتّابة فى صدر العصر العباسى : إن أسبابا كثيرة وقوية — ذكرناها هناك — دفعت الكتّابة فتعدّدت أغراضها ، وتنوّعت أساليبها ، ومال الكُتّاب الى السهولة فى العبارة ، والتأنق فى اللفظ ، والجودة فى الوصف ، وأطالوا فى المقدّمات ، ونوّعوا المبدأ والختام ، والألقاب والدعاء ، ومالوا الى الغلوّ والمبالغة . ثم قلنا بعد كلام : أما الإطناب فى الكتّابة فكان صفة غالبة فى كلّ ما شَمِل بَيْعةً ، أو عهدا ، أو احتجاجا ، أو انتصارا ، أو تقريرا لمذهب ، أواستهواء أودفعا لشبهة ، أوطلبا لنعمة ... الخ . وقد أثبتنا لك جُملةً صالحة

من آثار العصر المأمونى ممـا يقوم حجة على ما ذهبنا اليـه . ونحيلك الى رسالة أبى الربيع محمـد بن الليث، الى قُسطنطين ملك الروم، والى رسالة يحيى بن زياد الحارثى فى تقريظ أمير المؤمنين الرشيد، وقد أثبتناهما لك — نقلا عن النسخة الخطية من كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور — فى باب المنثور فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى، كما أثبتنا لك فى الكتاب الثالث من المجلد الثالث رسالةً قيّمة للأمون تسمّى رسالة الخميس، كان بعث بها الى أهل خُراسان كمنشور من الخليفة، ورسالةً مُمْتِعة لسهل بن هارون خازن بيت الحكمة فى عهده، فراجع ذلك ثمّة .

ولو قد ذهبنا نورد لك من آثار عصر المأمون الكتابية لعَدَوْنا القصـد وأمللنا، فحسبنا ما أحلناك الى مراجعته الآن، وهو فيه الكفاية لاثبات ما ذهبنا اليه . وقد أوردنا هـذه الرسائل من غير أن نَعْرِض لهـا بتحليل أو بيان . فهى فى وضوحها ودلالتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شىء .

* * *

(ه) مجالس المناظرة و" أبهاء " الأدب والغِناء والمنادمة :

أما مجالس المناظرة ومكانتها السامية فى العصر المأمونى، فقد وقفت على طرف عظيم منه فى الفصول التى عقدناها لك عن المأمون وعلمه، وأدبه، ودينه، وسياسته . فمن نافلة القول وتكراره أن ننقلها لك هنا . وقصارانا أن نقول : إن المناقشات الحادّة بين سيبويه والكسائىّ فى شأن مسألة نحوية، وبين الشعراء والأدباء فى تفضيل شاعر على شاعر، وبين السُّنّيين والمعتزلة فى القول بخلق القرآن، وأَبْهاء الأدب عند الأمين والمأمون وأنصارهما، وأمراء العـرب كأبى دُلَف وعبد الله بن طاهر وغيرهما، لتدل أوضح الدلالة على ما كان للمناظرة فى هذا العصر من مكانة، حتى أصبحت من أهم ميزاته وكُبْرَيات آثاره .

وأما المنادمة والغِناء، فقـد سبق أن نقلنا لك ما رواه صاحب «التاج» عن حالة المنادمة فى الصـدر العباسىّ . وقد آن لنا أن نُتمّ لك القول فى حالتها فى العصر المأمونىّ ،

وتحيلك فى الوقت نفسه الى كتاب حَلْبة الكُمَيْت، والأغانى، ونهاية الأَرَب، وغيرها من كتب الأدب، فهى مُتْرَعة بأخبار الغناء والمنادمة، غنيةٌ بأخبار المنادمين والمغنين .

سئل إسحاق بن ابراهيم الموصلى عن رأيه فى حال المنادمة فى تلك الأيام، فقال عن الأمين: ما كان أعجب أمره كله، فأما تبذُّله فما كان يُبالى أين قعد ومع من قعد، وكان لو كان بينه وبين ندمائه مائةُ حِجابٍ خَرَقها كلّها وألقاها عن وجهه، حتى يقعد حيث قعدوا، وكان من أعطى الخَلْقِ لذهبٍ وفضةٍ، وأنهبهم للأموال اذا طَرِب أو لَهَا. وقد رأيته وقد أمر لبعض أهل بيته فى ليلة بوِقْر زَوْرَق ذهبًا فانصرف به، وأمر لى ذات ليلة بأربعين ألف دينار فحُمِلت أمامى. ولقد غنّاه إبراهيم بن المَهْدىّ غناءً لم أرتضه، فقام عن مجلسه فأكبّ عليه فقبّل رأسه، فقام إبراهيم فقبّل ما وطئت رجلاه من بساطه فأمر له بمائتى ألف دينار. ولقد رأيته يوما وعلى رأسه بعضُ غِلْمانه فنظر اليه؛ فقال: ويلك! ثيابك هذه تحتاج الى أن تُغسل، إنطلق فخذ ثلاثين بَدْرة فاغسل بها ثيابك .

ولقد حدثنى عَلُّويه الأعسر، وهو أبو الحسن على بن عبد الله بن سيف عنه قال: لمّا أُحيط به وبلغت حجارةُ المَنْجَنيق بساطَه، كنا عنده، فغنّته جارية له بغناء تركت فيه شيئا لم تُجِدْ حكايته، فصاح: يازانية، تُغَنِّينى الخطأ! خذوها فحُمِلت، وكان آخر العهد بها .

وسئل عن حال المنادمة عند المأمون، فقال: أقام بعد قدومه عشرين شهرا، لم يَسْمع حَرْفًا من الغِناء، ثم سَمِعه من وراء حِجاب متشبّها بالرشيد، فكان كذلك سَبْعَ حِجَج، ثم ظهر للندماء والمغنّين . قال: وكان حين أحبّ السماع ظاهرًا بعينه، أكبرَ ذاك أهلُ بيته وبنو أبيه .

ويقال إنه سأل عن إسحاق بن ابراهيم المَوْصِلى، فغمزه بعضُ مَن حضر وقالوا: ما يغادر تيهًا وبأْوًا، فأمسك عن ذكره . قال فجاءه زُرْزُر يوما، فقال له: يا إسحاق نحن اليوم عند أمير المؤمنين، فقال إسحاق: فغنّه بهذا الشعر:

يا سَرْحَةَ المـاءِ قد سُدَّت موارِدُه * أَمَا إليـكِ طـريقٌ غيرُ مسـدودِ
لحـائمٍ حامَ حتى لا حَرَاكَ به * مُحَـلَّإٍ عن سبيل المـاء مطرودِ

فلما غنّاه به زُرْزُرُ أطربه و بهجه، وحرّك له جوارحه، وقال: ويلك! من هذا؟ قال: عبدك المجفوّ المُطَّرح . ياسيدى إسحاق! قال يحضر الساعة! فجاءه رسوله، وإسحاق مستعدّ، قد علم أنه إن سمع الغناء من مُجيدٍ مُؤَدٍّ أنه سيبعث اليه، فجاءه الرسول، فحدّث أنه لما دخل عليه، ودنا منه، مدّ يده اليه، ثم قال: ادْنُ منى فأكبّ عليه، واحتضنه المأمونُ وأدناه، وأقبل عليه بوجهه مُصْغيا اليه، مسرورا به .

وحسبنا هذا القدر . وإن أردت زيادة وإفاضة فانا نُحيلك الى بعض أخبارها فى الجزء السادس من كتاب بغداد مع ما ذكرناه لك من المراجع .

* * *

(و) الشـــــعر :

أشرنا فى كلمتنا عن حالة الشعر وفنونه فى صدر العصر العباسىّ، الى ما أخذ يتحول هو اليه أيضا، تبعا لمقتضيات العصر وظروف الزمان، ومسايرةً للحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولما جدّ على أحوال النـاس ومعايشهم من الغنى والتّرَف، وما يستلزمه الغنى والترف من الاستمتاع بألوان اللهـو واللذات، والافتنان فى بنـاء القصور والسفن وإنشاء الحدائق والمتنزهات . ولقد كان فى مرجوّنا أن نفرد لك فصلا خاصا نضمّنه ما كان من الخلفاء فى إقامة مبان وقصور وحدائق ودُور، لم يكن للعرب بها ولا بنظيراتها سابقةُ عهد، وإنما ألجأتهم اليها المدنية والبَذْخ، وما أصابوه فيها من رَفَاهة عيش، وسـعَة يَدٍ، ووَفْرة غنى . بيـد أن ذلك يطول، ويخرج بنا عما رسمناه لأنفسنا من القَصْـد والإيجاز، مع الإلمـام بكافّة النواحى لهذا العصر .

على أنه من الميسور لك أن تتصور مبلغ ما وصل اليه الخلفاءُ العباسيون وأمراءُ البيت المالك ورجالاتُ الدولة من الثروة والبَذَخ، بما أوْمَأْنا اليه فى كلمتنا عن خراج الدولة، وما كان فيها من آستصفاءٍ وأعطيات عظيمة .

وقد كانت أيضا الحياة السياسية والفكرية حادّةً عنيفةً، فقد اشتدت المُلاحاةُ بين شيعة العَلويِّين والعباسيين، وبلغ النزاع غايتَه بين أصحاب المذاهب وزعماء الآراء. ولا تنس أن تضيف الى ما تقدّم ما كان لترجمة العلوم اليونانية وغير اليونانية من أثر بعيد فى أفكار الناس وأخيلتهم وأساليبهم، والدقة فى تعبيراتهم، والتنظيم فيما لهم من آثار .

وقد كانت الآثار الشعرية لهذا العصر، الى حدّ ما، مرآةً صادقة لأحواله وما كان يجرى فيه من شؤون .

أسرف الناس فى شرب الخمر فافتنّ الشعراء فى وصف الخمر ووصف كؤوسها . وتخيّر الناس السُّقاة من الغِلْمان ومن فى زِيّ الغلمان، فوصف الشعراء السقاةَ وتغزلوا فى الغلمان . وولِع الناس بالصيد، فوصف الشعراء الصيد وما يجرى فى مجال الصيد . وآفتنّ الناس كما قلنا فى بناء القصور وغير القصور، ففتحوا المجال واسعا لخيال الشعراء فى شتّى الأبواب. واشتدت المنافسة السياسية بين شيعة العلويين والعباسيين، فأخذ شعراء كلِّ فريق ينْضَحون عن رأيهم ويؤيّدون مذهبهم . وألّف العلماء فى الفقه والأخلاق والكلام، فأخذ الشعراء يعالجون نَظْمَ الفقه والأخلاق والكلام. وهكذا تعدّدت أغراض الشعر وتنوّعت ألوانُه .

وتحضّر الناس فى بغداد وغير بغداد من الحواضر الإسلامية، فرقتْ طباعُهم، ولانت أخلاقُهم، ونبت عن الحُوشيّة أذواقُهم، فرقّ شعرُ أهل الحواضر، وسَلِست ألفاظه، وبعُدت من الحُوشيّة . وتُرجمتْ العلوم اليونانية وغيرُ اليونانية، من فلسفة ومنطق وأخلاق، فكان لهذه العلوم أثرها فى تنظيم أفكار الشعراء ودقّة خيالاتهم .

ولو ذهبنا نُورد لك شواهدَ على كل هذا وغيره، لأطلنا وأمللنا . وإنما نُحيلك على آثار شعراء هذا العصر، كأبى نُواسٍ فى الخمر وكؤوسها، وأوقات شرابها وسُقاتها، والغَزَل

بالغلمان، والصيد، والطرد، ووصف مَظاهر الحَضارة العباسية. وكدِعْبِل الخُزَاعِىّ والسيد الحِمْيَرِىّ فى النزاع السياسى بين العَلَويين والعباسيين . وكأبى العَتَاهِيَـة فى الأخلاق، وأَبانَ ابن عبد الحميد فى نظم العلوم كالفقه وغير الفقه . وهذه الإحالة لا تمنعنا أن نورد لك أمثالا من آثار هذا العصر الشعرية .

وهنا تعرض لنـا ملاحظةٌ نرى إيرادها حتما علينا ، وهـذه الملاحظة هى أن الشـعر فى عصر المأمون كان مرآةً صادقةً للحياة وما يجرى فيها من شؤون الى حدّ ما .

نقول «الى حدّما» . ويدفعنا الى هذا القول مُعْتَقَدُنا القوىّ الذى تكوّن لنا من دراستنا لرُوح هذا العصر . ذلك بأنّا نرى كثيرا من شعراء الحاضرة المُجيدين فى هذا العصر وفى العصر الذى قبله ، يَنْحَلُونَ نتائج أفكارهم وما تجود به قرائحُهم ، شـعراءَ الجاهليـة وأعراب البادية . ونرى أيضا أن كِبار الرُّواة وأهلَ الأدب، يُنْشَدُون الشعر الجيد لُمحْدَث، فيعجبون به على أنه قديم أو لأعرابىّ، حتى اذا تبين لهم أنه لُمحْدَث أنكروه وازْوَرُّوا عنه .

هـذا يدلّنا على أن جماعةً قويةً يُعتدّ بها فى هذا العصر، كانت تَميل الى إيثار الشـعر القـديم وشعر أعراب البادية على الشعر الجديد ورجال الشـعر الجديد . واذا كان هـذا حقا كان من الطبيعى أن يعيش الشعراء من الناحية الشعرية فى غير عصرهم، وأن يكونوا بأخيلتهـم فى غير حاضرتهم، لكى يَتَمَلَّقوا الرُّوح الغالبة ويَظْفَرُوا برضا العلماء . وقد يكون لهؤلاء العلماء والرُّواة حظٌّ كبير فى صرف أذهان الناس الى الشعر القديم .

وليس معنى ذلك أن شعر المحدَثين لم تكن له مكانة رفيعة عند القوم، بل على النقيض كانت له منزلة رفيعة فى النفوس .

لذلك نحن نميـل الى القول بأن خير من يمثّل هذا العصر أولئك المجدّدون الذين لم يتقيدوا ببكاء الأطلال، والحنين الى الرسوم، كأبى نواس وأضراب أبى نواس .

على أنه يجدر بنا أن نورد لك مثلين مما كانوا يتذوّقونه فى هذا العصر من شعر المحدثين، وما قاله أبو دُلَف ناعيا منهج التقعُّر، بعد إيرادنا لك ما وعدناك بإيراده من شعر لهذا العصر فى شتى الأنحاء .

وقد نشرنا لك فى باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلّد الثالث أمثلة من شعر هذا العصر كما نشرنا لك تلك القصيدة التى أنشدها محمد بن عبد الملك للمأمون يحرّضه فيها على قتل ابراهيم بن المهدى حين ظفر به ، فقال المأمون : لا ! والله أُشْمِتُه به بل أعفو عنه . وانظر الى مطلع القصيدة ، تر الفاسفة اليونانية جاثمة فيه :

ألم تر أن الشيءَ للشيء علةٌ * يكون له كالنار تُقْدح بالزَّنْد

وكان للمأمون جارية تسمّى عَرِيب ، كانت تعشَق جعفر بن حامد ، وكان يتعشّقها ، فلما وجدت من المأمون غفلةً ، وضعت على فراشها مثال رخام ، يحسب من رآه من بعيد أنها نائمة . وكان جعفر بن حامد قد نزل الى جانب قصر المأمون . فصعِدَتْ الى السطح ونزلت فى زِنْبِيل ، فلما قضى نَهْمَتَه منها قعدت فى الزنبيل فصعدت ورجعت الى مكانها . وطلبها المأمون قبل أن ترجع الى فراشها فلم يجدها ، فعلم الى أين صارت . فقال أبو موسى حاكيا لهذه القصة :

قاتل الله عَرِيبَا * فعلتْ فعلا عجيبَا
ركبتْ والليلُ داجٍ * مركبا صعبا مَهِيبَا
فارتقتْ متّصلًا بالنـ * ـجم أو منه قريبَا
صبرتْ حتى اذا ما * أَقْصَدَ النومُ الرقيبَا
مثّلتْ بين حشايا * ها لكى لا يستريبا
خَلَفًا منها اذا نُو * دِىَ لم يُلْفَ مُجِيبَا
ومضتْ يحملها الخو * ف قضيبًا وكثيبا
مُحَّةٌ لو حُرّكت خفـ * ـتَ عليها أن تذوبا
فتــدلّتْ لمحبٍّ * فتلقاها حبيبَا
جَــذِلًا قد نال بالد * نيا من الدنيا رَغِيبَا
أيها الظبىُ الذى تسـ * ـحر عيناه القلوبَا
والذى يأكل بعضا * بعضُه حسنًا وطيبَا

كنت نَهْبًا لذئاب * فلقد أطعمت ذيبَا
وكذا الشاةُ اذا لم * يك راعيها لبيبَا
لا يبالى وَبَأ المَرْ * عَى اذا كان خَصِيبًا
ولقد أصبح عبدُ * الله كَشْخَانًا (١) حَرِيبًا
قد لَعمْرِى لَطَم الخدَّ * وقد شقَّ الجيوبَا
وجرتْ منه دموعٌ * بَلَّت الذقنَ الخضيبَا

ومما يعتبر من الهجاء السياسى قصيدة جحشويه الشاعر فى يحيى بن أكثم قاضى المأمون بالبصرة، إذ فيه أيضا هجوٌ لآل العباس وخلافتهم . قال :

أنطقنى الدهرُ بعد إخراسِ * بحادثاتٍ أطَلْنَ وَسْوَاسِى
يا بؤسَ للدهر لا يزال كما * يرفَع ناسًا يَحُطُّ من ناسِ
لا أفلحتْ أمةٌ وحقّ لها * بطول نعسٍ وطول إتعاسِ
تَرْضَى بيحيى يكون سائسها * وليس يحيى لها بسَوَّاسِ
قاضٍ يرى الحدَّ فى الزِّناء ولا * يرى على من يَلُوط مِنْ بَاسِ
يحكم للأمردِ الظريف على * مثل جُوَيْنٍ ومثل عُدَّاسِ (٢)
فالحمد لله قد ذهب الـ * ـجود وقلَّ الوفاءُ فى الناسِ
أميرُنا جائرٌ وقاضينا * يلوط والرأسُ شرُّ ما راسِ
لو قصد الرأسُ واستقام لقد * قام على القصد كل مُرْتَاسِ
ما أحسب الجورَ ينقضى وعلى النـ * ـاس أميرٌ من آلِ عبّاسِ

وقد أثبتنا لك فى باب المنظوم من الكتاب الثالث فى مجلدنا الثالث مثلا آخر من الهجاء قاله بعض الشعراء فى يحيى بن أكثم، فراجعه ثمة .

---

(١) الكشخان بفتح الكاف وبكسر : الديوث .

(٢) كذا فى تاريخ بغداد وفى ابن خلكان ج ٢ ص ٣٢٦ : « مثل جرير ومثل عباس » .

وهناك نوع من الشعر يمثل لك ناحية من نواحى العصبية بين القبائل وهو الى حدّ مّا يعتبر من الشعر السياسى . وهذا النوع مثل ما قاله مُسْلِم بن الوَلِيد فى هجاء قريش والافتخار بالأنصار، وردّ ابن قَنْبَر عليه . وإنا نحيلك على موضع ذلك من مجلدنا الثانى للاطلاع عليه، لضيق المقام عن إيراده هنا .

وفى هذه القصة الآتية طَرَافة من الفِرَاسة فى العصر، آثرنا إثباتها لذلك وهى :

قال أبو السَّمْراء : خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجّهين الى مصر، حتى اذا كنا بين الرَّمْلة ودِمَشْق، إذ نحن بأعرابى قد اعترض، فاذا شيخٌ فيه بقيةٌ، على بَعير له أَوْرَقَ، فسلَّم علينا فرددنا عليه السلام، قال أبو السمراء : وأنا وإسحاق بن إبراهيم الرَّافِقِى، وإسحاق بن أبى ربعىّ، ونحن نُسَايِر الأمير، وكنا يومئذ أَفْرَهَ من الأمير دَوَابَّ، وأجود منه كُسًا . قال: فجعل الأعرابى ينظر فى وجوهنا، قال : فقلت : ياشيخ، قد ألححتَ فى النظر! أعرفتَ شيئا أم أنكرته؟ قال : لا والله ما عرفتكم قبل يومى هذا، ولا أنكرتُكم لسوءٍ أراه فيكم، ولكنى رجل حسن الفِرَاسة فى الناس جيد المعرفة بهم؛ قال : فأشرت له الى إسحاق بن أبى ربعى، فقلت : ما تقول فى هذا؟ فقال :

أرى كاتبًا دَاهِى الكتَابة بيّنٌ * عليه وتأديبُ العراق منيرُ
له حركاتٌ قد يشاهدْنَ أنه * عَلِيمٌ بتقسيط الخراج بصيرُ

ونظر الى إسحاق بن إبراهيم الرافقى فقال :

ومظهرِ نسكٍ ما عليه ضميرُه * يحبّ الهدايا بالرجال مَكُورُ
أخال به جُبْنًا وبخلا وشيمةً * تخبّر عنه إنه لوزير

ثم نظر الىّ وأنشأ يقول :

وهذا نديم للأمير ومؤنسٌ * يكون له بالقرب منه سرور
وأحسبه للشعر والعلم راويًا * فبعضٌ نديمٌ مرةً وسَمِير

ثم نظر الى الأمير وأنشأ يقول :

وهذا الأمير المُرْتجَى سَيْبُ كفه * فما إن له فيمن رأيتُ نظيرُ
عليه رداء من جمال وهيبة * ووجهٌ بإدراك النجاح بشير
لقد عُصِمَ الاسلامُ منه بذائد * به عاش معروف ومات نكيرُ
ألا إنّما عبدُ الاله بن طاهر * لنا والدٌ بَرٌّ بنا وأميرُ

قال : فوقع ذلك من عبد الله أحسن موقع ، وأعجبه ما قال الشيخ ، فأمر له بخمسمائة دينار وأمره أن يصحبه .

هذا ، وقد حدّث بعضهم قال : احتجّ أصحابُ المأمون عنده يوما ، فأفاضوا فى ذكر الشعر والشعراء ، فقال بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مُسْلم بن الوليد حيث يقول ؛ قال : ماذا قال؟ قال : حيث يقول ورَثَى رجلا :

أرادوا لِيُخْفوا قبرَه عن عدوّه * فطيبُ ترابِ القبر دلّ على القبر

وهجا رجلا بقبح الوجه والأخلاق فقال :

قُبِحَتْ مَنَاظرُه فحين خبرته * حَسُنَتْ مناظرُه لقبح المخبَرَ

ومدح رجلا بالشجاعة فقال :

يجود بالنفس إن ضنّ الجوادُ بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وتغزّل فقال :

هوًى يَجِدّ وحبيبٌ يلعبُ * أنت لَقًى(١) بينهما مُعذَّب

ومما كان يستحسنه المأمون من دِعْبِل الخزاعى هَجّاءِ المأمون المعروف قولُه :

ألم يأنِ للسَّفْر الذين تحمّلوا * الى وطنٍ قبل الممات رجوعُ
فقلتُ ولم أملكْ سَوَابِقَ عَبْرةٍ * نَطَقْنَ بما ضُمّتْ عليه ضلوعُ

---

(١) اللقى : الملقى المطروح .

تبيَّنْ فكم دارٍ تفرّقَ شملُها * وشملٍ شَتِيتٍ عاد وهو جميعُ
طِوالُ الليالى صَرْفُهن كما ترى * لكل أناس جَدبةٌ ورَبيعُ

وقد حدّث ابن طيفور عن مشيخته أن منصورا النَّمَرِىّ ، والحسن بن هانىء ، وأبا العتاهية وأبا زغبة (١) اجتمعوا فتذاكروا أبياتا على وزن واحد ، ففُضِّلَ أبو العتاهية عليهم . فقال النمرىّ :

أعُمَيرُ كيف بحاجةٍ * طُلبتْ الى صُمِّ الصخورِ
لله درّ عُداتكم * كيف انتسبْنَ الى الغرورِ
ولقد تبيتُ أناملى * يجْنِينَ رُمَّانَ النحور

وقال أبو العتاهية :

لَهفِى على الزمن القصير * بين الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ
إذ نحن فى غُرَفِ الجنا * ن نَعُومُ فى بحر السرورِ

وقال الحسن بن هانىّ :

وعظتْك واعظةُ القَتِير (٢) * وعلتْك أُبّهةُ الكبيرِ
ورددتَ ما كنتَ استعر * تَ من الشباب الى المُعيرِ
ولقد تحل بعقوة (٣) الـ * ألباب من بَقَر القُصُورِ
صُورٌ اليك مؤنثا * تُ الدَّلّ فى زىّ الذكور
أُرهِفنَ إرهافَ الأعنَّـ * ـة والحمائل والسُّيورِ
أصداغُهن معقربا * تٌ والشوارب من عَبِيرِ

قال المحدِّث : ولا أحفظ ما قال أبو زغبة ، ففضلوا أبا العتاهية ، وأبو نُوَاس عندى أشعرُهم .

---

(١) كذا فى تاريخ بغداد ، وعلق عليه ناشره بأنه فى ديوانه : « ابن زغيب » .
(٢) القتير : الشيب .
(٣) العقوة : ساحة الدار .

وقد روى ابن طيفور أن عامل أبي دُلَف قد قصَّر في أمره ، فبعث اليـه مَنْ عزله وقيّـده وحبسه ، فكتب الى أبي دلف من السجن كتابا تنطّع فيـه وقعّر وطوّل ، فكتب اليه أبو دلف :

يا صاحبَ التطويل في كُتْبِهِ * وصاحب التقصير في فعـلِه
وراكبَ الغامضِ من جهله * وتارك الواضح من عقْـله
لم يُحْظِ من ألزمه قيـــدَه * بل صـــيّر القيـدَ الى أهـله
قيّـــده للحبس تقعـــيرُه * فالقيـد لن يخرجَ من رِجْله
والله لا فارقـــه قيـــدُه * أو يَقْطعَ التقعيرَ من أصله

وفي الختام نرى لِزَامًا في عنقنا ، أن نحيلك على ما قاله الشعراء وصفًا لثورة بغـداد وحريقها ، وعلى رثائهم للأمين ونمـاذج أخرى لمختلف مقولاتهم في مختلف المناحي . وقد نشرنا لك من هذا جملة صالحة في باب المنظوم من الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث ، فانها تعطيك صورة صادقة لدرجة الشعر في ذلك العصر ، فراجعهْ ثمة .

الفصل العاشر

نمـاذج لبعض الشخصيات البارزة فى العصر المأمونى

توطئة — جبرائيل بن بختيشوع — الجاحظ — أبان بن عبد الحميد اللاحق — أحمد بن يوسف الكاتب — يحيي بن أكثم القاضى — اسحاق بن ابراهيم .

(ا) توطئـــــة :

أعترف أنه من الصعوبة بمكان أن أختار لك أشخاص هذه النماذج . لأن الكثرة من رجالات العصر من النباهة والكفاية بمكان ، وقد كان يحلو لى حقا ويسرنى أيما سرور لو اتسعت رسالتى للكتابة عن رجالات العصر من وزراء وعلماء وقضاة وشعراء وكتاب وأطباء ومغنين وندماء ، بيد أن ذلك يتطلب سعة لايحتملها هذا المقام .

على أنا قد رأينا أن نكتب لك كلمات مجملة عن « جبرائيل بن بختيشوع » من أطباء العصر ، وعن « الجاحظ » من ملوك الكتاب ورؤساء الاعتزال ، وعن « أبان اللاحق » الشاعر وصاحب نظم كليلة ودمنة ، وعن « أحمد بن يوسف » الوزير المأمونى ومدبج رسالاته ، وعن « يحيى بن أكثم » قاضى قضاته وأخيرا عن « اسحاق بن ابراهيم » وهو مجموعة هؤلاء .

ونعترف لك بأن فى كتابنا شيئا من التقصير نحسه ، وسببه حاجة هذه الموضوعات الى الإفاضة فى الشرح والبيان وإلى التحليل والإسهاب مما لا قبل لرسالتنا به .

« و بعد » فلنبدأ بهذه النماذج فنقول :

(ب) جبرائيل بن بُخْتَيَشُوع الطبيب النّسطورى :

لسنا نريد أن نستطرد فى الحديث عن بختيشوع الطبيب الشهير وإنما نريد أن نلم إلمامة به يتعرف منها القارئ ماكان للرجل من أثر فى عصره فنقول : إن هذه

الأُسْرة هى الأسرة الوحيدة النّسطُوريّة ، التى استقام دور عزّها ثلاثة قرون ، كان لها خلالها حظّ وجاه ، وكانت لأفرادها حُظْوة ، فاستعملهم الخلفاء العباسيون ، فانتفعوا من الخلفاء ، ونفعوا الطب وغيرَ الطب من العلوم بآثارهم ومُنتَجات عقولهم .

أمّا هـذه التسمية فسريانية ، وهى مركبة من لفظتين سريانيّتين ، بُخْت ومعناه العبد ، ويَشُوع ومعناه يسوع أى عبد يسوع ، وكانت هذه الأسرة من مدينة جُنْدَيْسابُور ، وأوّل من عرفه التاريخ منهـا هو ديورجيس بن جبرائيـل بن بختيشوع وكان يزاول مهنة الطب فبَرَع فيها ، وَنَبُهَ ذكره ، وأقيم رئيسا لمستشفى مدينته حتى إن أبا جعفر المنصور قد أرسل وفدا من قِبَـله الى جنديسابور يستدعيه إليه إذ كان قد انتابه مرض فعجزت عن شفائه نُطُس الأطبـاء فتأبى بُخْتيشوع بادئ الرأى حتى اعتقله العامل ، ولكن أعيان بلده من مَطَارِنَةٍ وقَسَاوِسَـة وغير هؤلاء نصحوا له بأن يمتثل للأمر ، فانقاد لنصيحتهم وولّى وجهه شَطْر دار السلام ، ثم كانت له حُظْوة عند المنصور . وما كنا لنستطرد فى الحديث عن هذه الأسرة ، وإنّما سقنا هذه الكلمة لنأتى على شىء من أخبار أسرة جبرائيل ، لنُظْهِر ما لهذا الرجل من المكانة فى عالم الطب ، وأنه من سُلَالة كانت تتوارث أخلافُها عن أسـلافها هذه الصناعة .

نقول : إن جبرائيل هذا ، قد نبغ على مثال ذَوِيه ، وظهرت فيه عوامل الوراثة ، فورث عن آبائه الصفات الأدبية ، وبَرَع فى صناعة الطب ، وكان الى جانب هذا وديع الخلق ، لطيف المَحْضر ، كريم السّجايا ، عُرِف فى جوّ الطب سنة ١٧٥ هـ — سنة ٧٩١ م . ذلك بأن جعفر بن خالد بن بَرْمك ، بعد أن أَبَلّ من مرضه باعتناء بختيشوع ، رغب اليـه أن يبقى معه طبيبا له ، فاعتذر وأناب عنه ابنه جبرائيل هذا ، فلقى منه كل رعاية . وكاشفه جعفر بداء خفىّ كان قد أصابه ، فعالجه جبرائيل فى ثلاثة أيام ، وشفى جعفر فزادت مكانة جبرائيل عنده ، وقرّبه منه فكان جليسَه ، وكان نديمَه ، وكان لا يفارقه ساعة واحدة . وحَدَث أن جارية من جوارى هارون الرشيد قد يبستْ ذراعُها ، فأبرأها جبرائيل بحيلة لطيفة بعد أن

أخفق الأطباء فى معالجتها، فحباه بخمسين ألف درهم، وقد عظم شأنه حتى قال الرشيد لأصحابه : كل من كانت له الىّ حاجة فليخاطب بها جبرائيل لأنى أقبل كل ما يسألنى فيه و يطلبه منى، وكان فى صحبة الرشيد أينما حلّ وحيثما ارتحل، فقد ذهب معه الى الرّقة وصار معه الى الحجاز .

ولما تولى الأمين الخلافة عرض جبرائيل على الخليفة أن يكون له خادما، فقبله ورحّب به، ولم يكن يأ كل شيئا إلا باذنه، ولما بلغ ذلك المأمون اعتقل جبرائيل ولم يُطلِق سَرَاحه حتى شفع فيه الحسَن بن سَهل . وفى سنة ٢١٠ هـ — ٨٢٦ م مرض المأمون مرضا أعجز أطباءَه وكان فى مقدّمتهم ميخائيل صِهْر جبرائيل، فأخذ جبرائيل على نفسه شفاءالمأمون ،وكان مُوفّقا،فلم تمض أيام حتى شفى المأمون،فغمره بنعمائه واتخذه أنيسا ونديما، ولم يَقِف احترام المأمون لجبرائيل و إكرامه له عند هذا الحدّ بل قد عَدّاه الى غيره من عمال الدولة، فقد أصدر المأمون أمره الى الموظفين والعمال والقوّاد، بأن يوقّروا جبرائيل ويُجلوه، وكان الرجل يتدخّل فى شؤون طائفته كلها، حتى الشؤون الكنَسيَّة، وبتأثيره انْتُخِب البطريرك جيورجيس المعروف بأبن الصباغ فتولّى الرّياسة الدّينية فى طائفته وهو فى سنّ الشيخوخة . ولمّا كانت سنة ٢١٣ هـ — ٨٢٨ م . مرض جبرائيل، واتفق أن الخليفة المأمون كان فى ذلك العهد قد سافر الى بلاد الروم، فأقعد المرض جبرائيل عن ملازمته، ولكنّه أناب عنه ابنه بختيشوع، ولم يرجع المأمون وبختيشوع من رحلتهما حتى كان جبرائيل قد توفى . فأقيم له مأتم حافل، قلّما كان لمثله فى ذلك العصر . ودفن فى مدفن القديس سرجيس بالمدينة، وترك مالا كثيرا، وملكا واسعا، فكانت له ضِيَاع بجُنْدَيْسَابُور والسوس والبَصرة والسَّواد . حصل عليها بما ناله من الخلفاء من التخصيصات الجزيلة، والهدايا الكثيرة فى المواسم والمعاشات . وله من الكتب رسالة فى المطعم والمشرب قدمها الى المأمون، وكتاب المدْخل الى صناعة المنطق ، ورسالة مختصرة فى الطب وهى مختصر تأليف ديروكوريدس وجالينوس و بولس الايجينى ،وله أيضا كتاب فى صناعة البَخُور وقد نسب اليه السمعانىّ فى مكتبته الشرقية معجما سُريانيا على أن هذا مشكوك فى روايته .

*
* *

(ج) الجـاحـــظ :

«الكتاب وعاءٌ ملئ علماً، وظَرْف حُشِي ظَرْفا، و بستان يُحْمل في رُدْن، وروضة تقلّب في حِجْر، ينطق عن الموتى، ويترجم كلامَ الأحياء، ولا أعلم جارا أبرّ، ولا خَليطا أنصف، ولا رفيقا أطوع، ولا معلّمـا أخضع، ولا صاحبا أظهر كِفَاية، وأقل جناية، ولا أقل إمْلالًا و إبْراما، ولا أقل خلافا وإجراما، ولا أقل غِيبّة، ولا أبعد من عَضِيهَة[1]، ولا أكثر أعجوبة وتصرفا. ولا أقل صَلَفا وتكلّفا، ولا أبعد من مِرَاء، ولا أتْرك لشَغْب، ولا أزهد في جِدَال، ولا أكفّ عن قِتَال من كتاب. ولا أعلم قرينا أحسن مواتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحضر مَعُونة، ولا أقل مؤونة، ولا شجـرة أطول عمـرا، ولا أجمع أمرا، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مُجْتَنًى، ولا أسرع إدراكا في كل أوان، ولا أوجد في غير إبّان من كتاب. ولا أعلمُ نتاجا في حداثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، و إمكان جوده، يجمع من التدابير الحسنة، والعلوم الغريبـة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأخبار اللطيفة، ومن الحكم الرقيقة، ومن المذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، والاخبار عن القرون المـاضية، والبلاد المتراخية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة ما يجمع الكتاب».

بهذا الأسلوب الحسن في مَنْحاه، الناصع البيان في مَبْناه، الداني القطوف، السـديد في منهجه، العذب في مورده: يخاطبنا شيخ الكتّاب غير مدافع، والمتفنن في الرسالات غير منازع، أبو عثمان عمرو بن بحـر الجاحظ بعبارات تُسْتَساغ في غير مؤونة ولا كدّ ذهن، وتُسْتوعب بلا إرهاق خاطر ولا إعنات روية. والجاحظ أيدك الله ليس وراء كتاباته — كما تعلم — مذهب لمستفيد، ولا مَرَاد لراغب. فِقَرُها متناسبة متراصفة، وألفاظها متنخّلة متخيّرة. وعباراتُها مُطّردة منسجمة، وجملُها ممـا يُوطّأ له مِهَادُ الطبع، ويرتفع له حجاب السمع، وهي — وأنت جِدُّ عليم — من ذلك النوع الذى يدخل الآذان بلا استئذان، لمكانها

(١) الكذب والنميمة.

من الألباب، وهو من أجل ذلك يتطلب منا درسا تحليليا مطوّلا، وليس هذا فى مقدورنا لتعدّد الموضوعات التى نعالجها، ولأنها تستلزم عناية ببحثها، والاشارة اليها، بقدر ما يتطلبه الجاحظ من عناية ودرس، فلْنكتفِ بإلْمَاعةٍ موجزة عن حياة هذا النابغة الفذّ الذى تسنّم ذروةَ الكمال، وبلغ غاية النضج فى الأدب العربىّ وفنونه، وكان الى جانب هذا صاحب مذهب فى الاعتزال، هو المذهب الجاحظى، معتمدين فيها على ما كتبه ابن خلّكان وصاحب معجم الأدباء ومؤلفات الجاحظ نفسه .

نشأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ . ولم تكن أسرته برفيعة القدر ولا سامية المكانة، بل على النقيض كانت خدما وخَوَلا لمولاهم أبى القَلَمَّس عمرو بن قلع الكِنَانِىّ ثم الفُقَيمى النسّاب . وقد قيل: إن فزارا جدّ الجاحظ كان جمّالا، وإن الجاحظ نفسه كان يبيع الخبز والسمك بسَيْحان .

قال الجاحظ : أنا أَسَنّ من أبى نُوَاس بسنة، وُلدتُ فى أوّل سنة ١٥٠ ﻫ وولد فى آخرها . وانكبّ الجاحظ على العلم منذ طفولته انكبابا عظيما، وشُغف بالمطالعة والقراءة، وعكف على الدرس والحفظ . وقد قال عنه أبو هَفَّان أحد معاصريه: لم أَرَ قطّ ولا سمعتُ من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فانه لم يقع بيده كتاب قطّ إلا استوفى قراءته كائنا ما كان، حتى إنه كان يَكْترى دكاكينَ الورّاقين ويبيت للنّظر فيها، ثم ثنّى أبو هفّان بالفَتْح بن خَاقَان، وذكر بعده اسماعيلَ بن إسحاق القاضى .

سمع الجاحظ من أبى عُبَيدة، والأصمعىّ، وأبى زيد الأنصارىّ . وأخذ النحو عن صديقه أبى الحسن الأخفش . وأخذ الحديث عن يزيد بن هارون، والسَّرىّ بن عَبْدويه، وأبى يوسف القاضى، والحجاج بن محمد بن حَماد بن سَلَمة . والكلامَ عن أبى إسحاق ابراهيم بن سَيّار النظّام المعتزلى النابه الذكر، وبه تأثّر، وعليه تخرج فى مذهبه فى الكلام والاعتزال .

وإذ كانت ميوله الى الاطلاع واستيعاب مايقع تحت يديه من المؤلفات على ما وصفنا ، وكان قُصَارَى همه ، فى مَغْداته ومَرَاحته وبُكُوره وآصاله ، أن يحفظ كتاباً أو يفهم بابا ، وكان العصر الذى فيه دَرَج ونمـا على ما علمتَ من غزارة المـادة ، وتعدّد التآليف ، وازدحام المعارف ، ووَفْرة مختلف الثّقافات ، فلاغَرْو اذا أخبرنا الجاحظُ عن نفسه بقوله : «لقد نسيتُ كنيتى ، لقد تغيبت ثلاثة أيام حتى أتيت أهلى فقلت لهم : بِمَ أُكْنى ؟ فقالوا : بأبى عثمان» . ولا غَرْو اذا كان الجاحظ قد اتّصل بكثير من علمـاء ونوابغ عصره ، وشَهيرى الكتّاب والمترجمين من فرس وسُرْيان ، فتأثّر بلا ريب ذَكَاؤه بهذا الاختلاط ، وطالَعَ جِماعَ ما تُرجم فى أزمان المنصور والرشيد والمأمون ، فما كان يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائناما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر — كما قلنا آنفا — فكان لذلك من نوابغ العالم .

وغلب عليـه أمران اثنان : الكلام على طريقـة المعتزلة ، والأدب ممزوجا بالفلسفة والفكاهة . ولقـد قضى عامّةَ عمره بالبصرة موفور الكرامة ، مَحْبُوًّا من خلائق الله ، سيّما رؤساء الموالى وأعيان الهاشمية والعثمانيـة بالعطايا والمنح ، لمـا كان يصنّفه لهم من الرسائل التى كان يتعمد فى كتابتها التشيّع لمذهبهم ومعاضدة مزاعمهم ونقض أقوال مخالفيهم . وكانت له مهارة فى التلاعب بعقولهم وابتزاز أموالهم ، واقتـدارٌ على التعبير فى كل ما يعالجه وفى كل موقف . وكان يحج كثيرا الى بغداد فى أواخر عصر المأمون وغيره ، فكان المأمون يُرفده ، ثم انقطع الى الانتجاع الى محمد بن الزيات طَوَالَ وزاراته الثلاث ، ثم أقام بعد موت ابن الزيات بالبصرة حتى أُصيب بالفَالج ، فبقى مفلوجا حتى أسلم الروح .

ذكاؤه وخلقـه :

كان له حظ كبير وقسـط وفير من الذكاء ورقة الشـعور ودقة العاطفـة . وله فى ذلك نوادر هى من خوارق الطبيعـة . وكان غريب الأطوار ، به شـذوذ فى أحواله وأطواره . ذلك لأنه كان يجمع بين الجِدّ والفكاهة ، حاضر النكتة ، حاضر البديهة ، سريع

الخاطر . وكانت به دُعَابة وتظرّف وتَمَاجُن . وكان لا يحتفل لما يأخذ الناسُ به أنفسَهم وما يتواضعون عليه من العادات والرسوم وأنواع العصبية والمذهبية والجنسية . وكان كريم الأخلاق ، كريم اليد ، سخيًا سَمِحا ، ولطيف المَحْضَر ، خفيف الروح ، وكان على ما به من دَمَامة ، غايةً فى الظَّرْف وحلاوة اللفظ ، وهو من أجل ذلك كان يجمع بين الضدّين .

اعتقاده ومذهبه :

قلنا إنه تخرّج على أبى إسحاق إبراهيم بن سيار النَّظّام زعيم الفرقة التى تنسب اليه من المعتزلة ، وكان يلازم أستاذه هذا ويتوفّر على دروسه . فمن أجل ذلك كان الجاحظ معتزليا ، وزعيم الفرقة الجاحظية فى الاعتزال . وقد انتفع مواهبه وما حباه الله من فصاحة الكلام وطلاقة اللسان وحسن البيان ، فى ترويج مذهبه والدّعاوة له ، فكان لسانَ المعتزلة الناطق ، وسلاحَهم القاطع . وبرع فى الكلام ، وخلطه بالفلسفة اليونانية . ويرميه كثيرون بالضلالة ، وأنه مَاجِنٌ مِهْذار ، متناقض نقّال ، يتلاعب بالناس ، وينقض اليوم ما بناه أمس . وقد دافع عنه أبو الحسن الخيّاط فى كتابه "الانتصار" على انتقادات ابن الرَّاوندى العنيفة المرّة التى تناول فيها عقيدة الجاحظ بالتجريح الشديد .

ومما قاله أبو الحسن الخياط فيما يفنّد به هجمات ابن الراوندى : «وأما رميك للجاحظ ببغض الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو دليل على أنك لا تعرف المحب من المبغض ، ولا الولى من العدو ، لأنه لا يعرف المتكلمون أحدًا منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة ، بلغ فى ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يُعرف كتابٌ فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه ؛ وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوّته غير كتاب الجاحظ . وهذه كتبه فى إثبات الرسالة ، وكتبه فى تصحيح مجىء الأخبار مشهورة . وهل يُستدلّ على حب الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان به وتصديقه فيما جاء به بشىء أوكد مما يستدل به على حب الجاحظ الرسول وتصديقه إياه! » .

وقد تناول كبار المؤلفين من العرب : كابن قتيبة ، والأزهرى ، والمسعودى ، والبـديع الهمذانى ، وأبى العباس أحمـد بن يحيى ، وأبى العبـاس محمد بن يزيد المبرّد ، والفتح بن خاقان ، والرئيس أبى الفضـل بن العميد وغيرهم شخصيةَ الجاحظ بمـا تستحقه من العناية والدرس ومن النقد والتقريظ ، ممـا لا نثبته لك هنـا مخافةَ الإطالة والملل ، فلتراجع فى مظانّها ومواضعها .

علمـــــه :

يقول صاحب المعجم : « كان الجـاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره ، وعلا قدره ، واستغنى عن الوصف » . وقال غيره : إنه كان واسع العلم بفنون الكلام ، كثير التبحّر فيـه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا . ولا غرو فانّ مؤلفاته العـديدة تشهد بأنه كان واسع الاطلاع حقا ، غزير المـادة ، خِصْبَ الذهن ، كثير المحصول العقلى ، وقد أكثر التصنيف فى الأدب واللطائف والفكاهات ، وأتيح له أن يكون من أئمة الدين وكبار السُّمّار .

ويقول الفتح بن خاقان فى كتاب له الى الجاحظ : « إن أمير المؤمنين يَجِدُ بك ، ويَهَشّ عند ذكرك ، ولولا عَظَمتُك فى نفســه ، لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بُعْـدك عن مجلســه ، ولَغَصَبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفّر عليــه . ولقد كان ألقى إلىّ مِنْ هذا عنوانَه ، فزدتُك فى نفسه زيادة كفّ بها عن تَجْشيمك ، فاعرِفْ لى هـذه الحال واعتقِدْ هـذه المِنّة على كتاب « الردّ على النصارى » وافرُغْ منـه وعجّل به إلىّ ، وكُنْ ممن جدا به على نفســه ، وتنال مُشَاهرتَك . قد آستطلقته لمـا مضى ، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة ، وهذا مما لم تحتكم به نفسُك . وقد قرأت رسالتك فى « بصيرة غنام » ؛ ولولا أنى أزيد فى تَخيلتك لعرّفتُك ما يعتريني عند قراءتها ، والسلام » .

رســائله :

للجاحظ كثير من قصار الرسائل وطوالها ، منها : أنه كتب الى عبد الله بن خاقان فى يوم عيــد : « أخّرتنى العلّةُ عن الوزير ، أعزه الله ، فحضرت بالدعاء فى كتابى لينوب عنى ،

ويعمر ما أخلفت العوائق منى ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركةً على الوزير، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحبّ ويُحَبّ له ، ويقبّل مما ما نتوسل به الى مرضاته ، ويضاعف الاحسان اليه على الاحسان منه ، ويمتعه بصحة النعمة ولباس العافية ، ولا يُريه فى مَسَرّة نقصا ، ولا يقطع عنه مزيدًا ، ويجعلنى من كل سوء فداءه ، فيصرف عيون الغِيَر عنه وعن حظّى منه » .

وكتب الى محمد بن عبد الملك الزيّات يستعطفه : « أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سَرَف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوّة الى حب الإنصاف ، ورجّح فى قلبك إيثارَ الأناة ، فقد خفتُ ، أيدك الله ، أن أكون عندك من المنسوبين الى نَزَق السفهاء ، ومجانبة الحكماء . وبعد ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن امرأً أمسى وأصبح سالمًا * من الناس إلا ما جَنَى لسعيدُ

وقال الآخر :

ومَنْ دعا الناسَ الى ذمه * ذمُّوه بالحقّ وبالباطل

فان كنتُ اجترأتُ عليك ، أصلحك الله ، فلم أجترئ إلا لأن دوامَ تغافُلك عنى شبيهٌ بالإهمال الذى يُورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤيس من المكافأة . ولذلك قال عُيَيْنة ابن حصْن بن حُذَيفة لعثمان رحمه الله : عمرُ كان خيرًا لى منك ! أرهبنى فاتّقانى ، وأعطانى فأغنانى . فان كنتَ لا تَهَبُ عقابى ، أيّدك الله ، لخدمة سَلَفتْ لى عندك ، فهَبْه لأياديك عندى ؛ فان النعمة تشفع فى النِّقمة . وإلا تفعل ذلك لذلك ، فعُدْ الى حسن العادة ، وإلا فافعَلْ ذلك لحسن الأُحدوثة ، وإلا فأْتِ ما أنت أهلُه من العفو دون ما أنا أهلُه من العقوبة . فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمِّد ، وتتجافَى عن عقاب المُصرّ ، حتى إذا صرتَ الى من هفوتُه ذِكْرٌ ، وذنبُه نسيان ومن لا يعرف الشكرَ إلا لك ، والانعامَ إلا منك ، هجمتَ عليه بالعقوبة . واعلم ، أيدك الله ، أن شَيْنَ غضبك علىّ ، كزَيْنِ صفحك عنى ، وأن موتَ ذكرى مع انقطاع سببى منك ، لحياة ذكرى مع اتصال سببى بك . واعلم أن لك فِطْنةَ عليم ، وغَفْلةَ كريم . والسلام » .

وللجاحظ رسائل فى الاستعطاف وشكوى الزمان آية فى البـلاغة أثبتناها فى المجلد الثالث من هذا الكتاب .

وقد قال فيه بديع الزمان الهمذانىّ فى المقامة الجاحظية : «إن الجاحظ فى أحَد شِقّى البلاغة يَقْطِف ، والآخر يقف ، والبليغُ من لم يُقَصِّر نظمُه عن نثره ، ولم يُزْرِ كلامُه بشعره ، فهل تَرْوُون للجاحظ شعرًا رائقا؟ قلنا : لا . قال : فَهَلُمُّوا الى كلامه ، فهو بعيدُ الاشارات ، قريبُ العبارات ، قليـلُ الاستعارات ، منقادٌ لعُرْيان الكلام يستعملُه ، نَفُورٌ من مُعْتاصه يُهْمِلُه ؛ فهل سمعتم له لفظةً مصنوعة أو كلمةً غير مسموعة ؟ » .

شــــعره :

قيـل : إن للجاحظ شـعرا ، ولكنا نظرنا فيما ينسـبه له يموت بن المُزَرَّع وأبو العَيْناء وأبو الحَسَن البَرْمكى وغيرُهم فوجدناه أقلّ طبقةً من بلاغته . فمما يُنسب اليه قوله :

يَطيبُ العيش أن تَلْقَى حكيما * غذاه العـلمُ والفهمُ المصيبُ
فيكشِفُ عنك حَيْرَةَ كل جهلٍ * وفضـلُ العـلم يعرفه اللبيبُ
سَقامُ الحِـرْص ليس له شِفاءٌ * وداءُ الجهـل ليس له طبيبُ

مصـــنفاته :

صنف الجاحظ أكثر من مائتى كتاب . قال المسعودى : وكُتُب الجاحظ مع انحرافه تجلو صَدَأَ الأذهان ، وتكشِفُ واضحَ البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورَصَفها أحسن رَصْف ، وكساها من كلامه أحسنَ وأجزلَ لفظ . وكان اذا تخوّف مَلَلَ القارئ وسآمة السامع ، خرج من جِدّ الى هَزْل ، ومن كلمة بليغة الى نادرة طريفة . وله كتبٌ حِسان : فمنها «البيان والتبيين» وهو أشرفها ، لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مُقتصر لاكتفى ؛ « وكتاب الحيوان » و « كتاب الطفيليين » و «كتاب البخلاء» . وسائر كتبه فى نهاية الكمال مالم يقصـد منها الى تصعيب ولا الى دفع حق . ولا يُعْلَم ممن سَلَف وخَلَف أفصحُ منه .

وقال ابن العميد : كتب الجاحظ تعلِّم العقلَ أوّلا والأدبَ ثانيا .

أخباره :

حدثنا أبو معاذ عبدالله الخُولى المتطبِّب قال : دخلنا يوما «بسُرّمَنْ رَأى» ، على عمرو بن بَحْر الجاحظ نعوده وقد فُلِجَ ، فلمّا أخذنا مجالسنا ، أتى رسول المتوكل فيه ؛ فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشِقٍّ مائل ، ولُعَابٍ سائل . ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون فى رجل له شقّان ، أحدُهما لو غُرِزَ بالمَسالّ ما أحسّ ، والشقّ الآخرُ يمرّ به الذباب فيُغوِّث ، وأكثرُ ما أشكوه الثمانون . ثم أنشدَنا أبياتاً من قصيدة عَوْف بن محلِّم الخُزَاعىّ . قال أبو مُعَاذ : وكان سبب هذه القصيدة أن عوفًا دخل على عبد الله بن طاهر ، فسلّم عليه عبدُ الله فلم يسمع ، فأُعْلِم بذلك ، فزعموا أنه ارتجل هذه القصيدة ارتجالا :

يابن الذى دَانَ له المشرقان * طُرًّا وقد دان له المَغْربان
إنّ الثمانينَ وبُلِّغْتَها * قد أحوجتْ سمعى الى تَرْجُمان
وبدّلتنى بالشّطَاط انحنًا * وكنتُ كالصَّعْدة تحت السِّنان
وبدّلتنى من زَماع الفتى * وهمّتى هَمَّ الجبان الهِدَان
وقاربتْ منّى خُطًا لم تكن * مُقارَباتٍ وثنَتْ من عِنان
وأنشأت بينى وبين الورى * عَنانةً من غير نسج العَنَان
ولم تدعْ فىَّ لمستمتِعٍ * إلا لسانى ، وبحسبى لسان
أدعو به الله واثنى به * على الأمير المُصْعَبِىّ الهِجَان
فقرِّبا نى ، بأبى أنتما ، * من وطنى قبل اصفرار البَنَان
وقبل مَنعاىَ الى نسوةٍ * أوطانُها حرَّانُ والرَّقّتان

والجاحظ ، أيدك الله ، قد جمع الى مواقفه الكبار فى الجدل والتناظر ، ومتانة الأسلوب وتدفّقه ، وسمو المنحى وبلاغته ، وقوّة اللفظ وفخامته ، جنوحًا عظيما الى الدُّعابة واللطائف والتنــدُّر والطرائف ، والمُلَح والنُّخَب ، والنكت مع الأدب ، مع خفة ظل ، وظَرْف روح حبّباه الى النفوس ، ومع نباغة وعبقرية جعلتاه فوق الهام والرءوس ، وعذوبة عبارة ، ومائية أسلوب ، كأنهما الراح فى الكؤوس !

ومن جملة أخباره أنه قال : ذُكرت للمتوكل لتأديب بعض وَلَده، فلما رآنى استبشع مَنْظَرى، فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصَرَفنى، فخرجت من عنده، فلَقِيتُ محمد بن ابراهيم، وهو يريد الانصراف الى مدينة السلام، فعرض علىّ الخروجَ معه والانحدارَ فى حَرّاقته، وكنا بسُرّ مَنْ رَأى، فركبْنا فى الحرّاقة، فلما انتهينا الى فم نهر القاطُول، ضرب ستارًا وأَمَرنا بالغناء، فاندفعتْ عوّادةٌ فغنّتْ :

كلَّ يومٍ قَطِيعةٌ وعِتابُ * ينقضى دهرُنا ونحن غِضابُ
ليت شعرى أنا خُصِصْتُ بهذا * دون ذا الخلق أم كذا الأحبابُ

وسكتتْ، فأمر الطُّنْبورية فغنّتْ :

وَارَحْمَتَا للعاشقينَا * ما إن أرى لهمُ مُعِينَا
كم يُهْجَرون ويُصْرَمو * نَ ويُقْطَعون فيَصْبِرونا

قال : فقالت لها العوّادة : فيصنعون ماذا؟ قالت : هكذا يصنعون، وضربت بيدها الى الستار فهتكتْه، وبرزتْ كأنها فِلْقة قمر، فألقت نفسَها فى الماء، وعلى رأس محمد غلامٌ يضاهيها فى الجمال وبيده مِذَبّة، فأتى الموضعَ ونظر اليها وهى بين الماء وأنشد :

أنتِ التى غَرَّقْتِنى * بعد القَضا لو تعلمينا

وألقى نفسَه فى أَثَرها، فأدار الملّاحُ الحرّاقة، فاذا بهما متعانقان، ثم غاصا فلم يُرَيَا، فاستعظم محمد ذلك وهاله أمرُهما، ثم قال : يا عمرو لَتُحَدّثنّى حديثًا يُسَلّينى عن فعل هذين وإلا ألحقتك بهما؛ قال : فحضرنى حديثُ يزيد بن عبد الملك وقد قعد للظالم يوما، وعُرِضت عليه القصصُ، فمرّت به قصةٌ فيها : « إن رأى أميرُ المؤمنين أن يُخْرِجَ إلىّ جاريتَه فلانة حتى تغنّينى ثلاثة أصوات فعل» فاغتاظ يزيد من ذلك وأمر مَنْ يخرج اليه ويأتيه برأسه، ثم أتبع الرسولَ رسولًا آخر، يأمره أن يُدخل اليه الرجلَ فأدخله، فلما وقف بين يديه قال له : ما الذى حملك على ما صنعتَ ؟ قال : الثقة بحلمك والاتكال على عفوك؛ فأمره بالجلوس

حتى لم يبق أحدٌ من بنى أمية إلا خرج، ثم أمر فأُخرجت الجاريةُ ومعها عودها، فقال لها الفتى غنّى :

أفاطِمَ مَهْـــلًا بعض هـــذا التدلّل * وإن كنت قد أزْمعتِ صرْمى فأجْملى

فغنّته، فقال له يزيد : قل، فقال : غنّى :

تألّق البرقُ نجـــديًّا فقلتُ له * يأيها البرق إنى عنك مشغول

فغنّته، فقال له يزيد : قل، فقال : يا مولاى، تأمر لى برطل شراب ! فأمر له به، فمـا استتمّ شربَه حتى وثب وصعِد على أعلى قبّـة ليزيد فرمى نفسه على دماغه فمات، فقال يزيد : (إنا لله وانا إليه راجعون) أتراه الأحمق الجاهل ظنّ أنى أُخرج اليه جاريتى وأردّها الى مِلْكى ! يا غلمانـــ، خذوها بيدها وآحملوها الى أهله إن كان له أهل وإلا فبيعوها وتصدقوا بثمنها، فانطلقوا بها الى أهله، فلما توسطت الدار نظرت الى حفيرة فى وسط دار يزيد قد أُعدّت للمطر، فجذبتْ نفسَها من أيديهم وأنشدت :

مَن مات عشقًا فليمُتْ هكذا * لا خير فى عشـــق بلا موت

فألقت نفسَها فى الحفيرة على دماغها فماتت، فسُرِّىَ عن محمد وأجزل صلتى .

«وبعد» فان رسالتنا لا تتسع التبسّط فى القول، ولاسيما شخصية بارزة كشخصية الجاحظ، التى تطلب كما قلنا رسالة مُسْهَبة، لمكانة الرجل، ففيما قدّمناه لك عنه الغُنْيةُ والكفاية. ونرى واجبا علينا قبل أن نختم كلمتنا أنـــ نحيلك هنا، على رسالة خطية منسوبة اليه عثرنا عليها بدار الكتب المصرية، قيل إنه كتبها عن بنى أميـــة : وسبق أن أشرنا اليها فى كلمتنا عن العصر الأُموىّ . وهى وحدها تنطق بوجهة نظر الرجل ومذهبه فى الاعتزال، وتشهد بطول باعه فى التبسط والإسهاب، مع فخامة اللفظ وحلاوته، وفراهة الأسلوب وطلاوته، وسمو البيان ومكانته . وقد أثبتناها لك فى باب المنثور من الكتاب الثالث من المجلد الثالث . فراجعها ثمة .

(د) أبان بن عبد الحميد اللاحقى :

هو أَبَان بن عبد الحميـــد بن لاحق بن عفر مولى بنى رَقَاش . كان بالبصرة، ثم رحل الى البرامكة ببغداد، فاتصـــل بهـــم ومدحهم ونال جوائزهم ؛ ثم قويت الصـــلةُ بينهم

وبينــه حتى اتخذوه لهم معلّمـا ونصيحا ، يستشيرونه فى مهامّ أمورهم وتدبير شؤونهـم . وبلغ من حفاوتهم به وإكرامهم له ، أن جعلوا اليه امتحان الشـعراء وتقدير ما يسـتحقون من الجوائز والصلات لكن هـذا المنصب . جعله غَرَضًا لهَجْو الشـعراء وذمّهم ، لأنه ليس فى مقدوره أن يرضيهم جميعا من جهـة ، ولأنهم كانوا يرونه دون أن يكون لهم حَكَمًا من جهة أخرى .

وكان أبو نُواس من أشـدّ هؤلاء الشـعراء نِقْمةً على أَبَان ؛ فان أبا الفرج الأصبهانىّ يحدّثنا أن أبا نواس لم يرضَ المرتبةَ التى جعله فيها أبان ، فقال يهجوه بهذه الأبيات :

جالستُ يومًا أبانا * لادَرّ دَرُّ أبانِ
ونحن حضـرُ رِواقِ الـ * ـأمير بالنَّهْـرَوانِ
حتى اذا ما صَـلاةُ الـ * أُولَى دنتْ لأوانِ
فقـام مُنْـذرُ ربِّى * بالـبِرِّ والإحسانِ
فكلمـا قال قلنـا * الى ٱنقضاء الأذانِ
فقال كيف شـهدتُمْ * بذا بغـير عيانِ
لا أَشْهَدُ الدهرَ حـتى * تُعايِنَ العينانِ
فقلت سبحانَ ربِّى * فقـال سـبحانَ مانى (١)

وبقية القصيدة فى ديوان أبى نواس .

فقال أبان يجيبه : —

ان يكن هـذا النُّـوَا * سِىّ بلا ذنبٍ هَجَـانَا
فلقـد ... ... حينًـا * وصَـفَعْناه زمانا
هانئُ الجَوْنِ أبوه * زاده الله هَـوَانا
سائـلِ العبّاسَ وٱسمع * فيه من أمِّك شانا
عَجَنـوا من جُلَّنَارٍ * ليكـيدوك عجَـانَا

(١) اسم لصاحب طائفة من الملحدين .

وجُلَّنار هذه هي أمّ أبي نُوَاس، كان قد تزوجها العباس بعد أبيه . وربّما كان لباعث هذه المُهَاتَرة بين أبي نُوَاس وأَبَان أثرٌ كبير فيما كان بين أبي نُوَاس والبَرَامكة من كراهية وبغضاء ، فان أبا نُوَاس كان معروفا بسمو المكانة في الشعر ، فلا يستطيع مثل أَبَان أن يُنْزِله عن منزلته التي هو جَدِير بها ، إلا اذا كان في ذلك هَوًى للبرامكة ، وقد يكون بوَحْي منهم . لكنّ أبا نُوَاس لم يجد مَصْدَرًا للحكم غير أَبَان فَهَجَاهُ ، ولم يكن هَجْوه أَبَان لِيَشْفِي غليله و إنما يشفي غليله لو استطاع أن ينال بالهجو من يراهم خليقين بهجوه ، وهم البرامكة ! ولكنّه لا يستطيع أن ينالهم بالهجو ، وهم أصحاب الدولة والسلطان .

كان أَبَان شديد الإعجاب بنفسه ، مُدِلًّا بعلمه وأدبه . والقصيدة التي قدّمها للبرامكة ، حين حاول أن يتصل بهم ، على زعم أن يكون له شفيع من ترغيبهم فيه ، تُعْطِينا صورة واضحة عنه . وهذه هي القصيدة : —

أنا مِنْ بُغْيَة الأمير وكَنْزٌ * من كُنُوز الأمير ذو أَرْبَاح
كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديبٌ * ناصحٌ زائدٌ على النُّصَّاح
شاعرٌ مُفْلِقٌ أَخَفّ من الرّيـ * ـشة مما يكون تحت الجناح
لي في النّحو فِطْنَة واتّقادٌ * أنا فيه قِلَادةٌ بِوِشَاحِ
ثم أَرْوَى من ابن سِيرِين للعلـ * ـم بقَوِيٍ منوّر الإفصاح
ثم أروى من ابن سيرين للشعـ * ـر وقول النَّسيب والأَمداح
وظريفُ الحديثِ في كل فنٍّ * وبَصِيرٌ بِـتُرَّهَاتِ المِلَاح
كم وكم قد خَبَأْت عندي حديثًا * هو عند الملوك كالتُّفَّاح
فبمثلي تَخْلُو الملوك وتَلْهُو * وتُنَاجِي في المُشْكِل الفَدَّاح
أَيْمَنُ الناس طائرًا يوم صيدٍ * لغدوّ دُعِيتُ أو لرَوَاح
أبصرُ الناس بالجواهر والخيـ * ـل وبالخُرَّدِ الحِسانِ الصِّبَاح
كلّ ذا قد جمعت والحمدُ للّـ * ـه على أنني ظريفُ المِزَاح

لستُ بالناســك المشــمِّرِ ثوبيـــــه * ولا المــاجنِ الخليــعِ الوَقَاح
لو رمى بى الأمــيرُ أصــلحه اللـــه * رِماحًا ثَلَمتُ حــدَّ الرِّمَاح
ما أنا واهنٌ ولا مســتكينٌ * لســوى أمر سيّدى ذى السَّماح
لستُ بالضَّخْم يا أميرى ولا القَزْ * م ولا بالمُجَحْــدَرِ الدَّحْــداح
لِحْيــةٌ جَعْــدةٌ ووجهٌ صَـبِيحٌ * واتّقادٌ كشُعْلة المصــباح
إن دعانى الأمــيرُ عَايَنَ منّى * شَمَّـــرِيًّا كالبُلْبُــل الصــيَّاح

على أن أبَان ، مع إعجابه بنفسه ، وإدلاله بعلمه وأدبه ، لم يكن فى مقدوره أن يُسَايِر كِبَارَ معاصريه من الشــعراء ، كأبى نُوَاس وأضرابه ، فى قوّة الشــعر واختــلاف فنونه ، وحسن لفظه ، ورقة معانيه .

ولعلّ ذلك يرجع الى أنه كان ينقصه خِصْب النَّفْس ، وقوة الحسّ ، والخيــال المبدع للصّور الشِّعْرِية ، أى قوة الابتكار والاختراع ، فانّ هــذه القُوَى جميعا لا بدّ منهــا للشاعر ، لكى يُحِسّ وينتزع ويصوّر . وهذا يفضى بنا الى إحدى نتيجتين : إمّا أن نشك فيما وَصَف به نفسه : من جمال الظَّرف ، وخفَّة الروح ، واتّقادِ الذّهن ، نشك فى آتصــافه حقا بهذه الصــفات ، التى تملأ النفس شعورا بمــا فى الحياة من صور للشِّــعر ، وإمّا أنه كان قصير الباع فى تصوير ما تُحِسُّه نفسه . وكلا الأمرين يبعد البَوْن بينه وبين أبى نُوَاس وأضْرَاب أبى نُوَاس . ولئن نَقَصته القوى التى تمدّه بالصور الشعرية ، فقــد وُفِّق إلى فنّ جديد نحْسَب أنّه لم يُسبَق إليــه ، وهذا الفن لا يضطره الى كدّ القريحة وإعمال الفكر فى تَصيُّد المعانى الجميلة ، وإبرازها فى أثواب زاهية جذّابة ، بل لا يحتاج معه الى أكثر من أن تكون لديه ملكة النَّظْم ووزنُ الكلام ؛ اذ المعــانى بَيْن يديه ، لا يتكلف فى ســبيلها سعيا ، أو كدّ قريحة . وهــذا الفن الجــديد هو النَّظْم التَّعليمىّ ، وهو أن يَعْمِد الشاعر الى كتاب معروف منثور فَيَنظِمَه ، أو إلى قواعد عامة فى الشَّريعة أو فى اللغــة أو فى فرع من فروعهما ، فينظِمَها أيضا ، لِيَسْهُل حفظها ويَقْرُب تناولهــا . وهــذا ما فعله أبَان ،

وما جعلنا نُؤْثِره بالكلام، فإن هذا النوع من النَّظم، يُمثِّل ناحيةً طَرِيفَة من نَواحى الأدب الجديدة فى عصرنا المأمونىّ . فقد نكون مُقصِّرين كلّ التقصير، إذا أغفلنا ذكر مُبْدِعه ومُبْتَكِره . نقول « وهذا ما فعله أَبَان » فإن الصّولىّ وأبا الفرج الأصفهانىّ يحدّثاننا بأن أَبَانًا نَظَم للبرامكة كتابَ كَلِيلة ودِمْنَة ، ليِسْهُل عليهم حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف دينار ، ولم يعطه جعفر شيئا ، وقال له : يكفيك أن أحفظه فأكونَ راوِيَتَك . وقد نقل الأصفهانىّ من هذا الكتاب بيتين هما :

هذا كتاب أدبٍ ومحنهْ * وهو الذى يُدْعَى كليلَه دمنهْ
فيه آحْتِيالاتٌ وفيه رُشْدُ * وهو كتاب وضعته الهِنْدُ

وقد أبادت الأيّام هذا الكتاب، كما أبادت كثيرا غيره من الكتب العربية القيّمة ، حتى يَئِس الأدباء والمؤرّخون فى العصر الحديث، من العثور على شىء منه . وقد يكون من حسن الحظ أن نعلن سرورنا بأنّا قد وُفِّقنا الى جزء كبير من هذا الكتاب ، فى جزء أو أوراق من جزء من كتاب الأوراق المنسوب للصُّولى، اذ عثرنا عليه بدار الكتب المصرية منذ أمد طويل حينما كنا نبحث فيها عما وضعه العرب من الموسوعات والمَعْلَمَات . وسنذكر فى المجلد الثانى ما وجدناه فيه .

ويحدّثنا أبو الفرج بأنه عمل أيضا القصيدة التى ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئا من المنطق، وسمّاها ذات الحُلَل، ومن الناس من يَنسُبها الى أبى العتاهِيَة، والصحيح أنها لأَبان . وسياق أبى الفرج هذا ، لايدع سبيلا الى الشّك فى وجود هذه القصيدة ، ومع الأسف لم ينقل الينا منها شيئا .

ويحدّثنا الصُولى بسنده أنّ أَبَانًا ، لما عمِل كتاب كليلة ودِمْنَةَ شِعرا ، فى قصيدته المُزْدَوِجة أعطاه البرامكة على ذلك مالا عظيما ، فقيل له بعد ذلك : ألا تعمل شعرا فى الزهد ؟ فعمل قصيدةً مزدوجة فى الصيام والزكاة، وقد وجدت هذه القصيدة ،

وترجمتها « قصيدة الصيام والزكاة نقل أبان من فم الرواة » ثم ذكر القصيدة . وقـد نشرنا ذلك كله فى موضعه من المجلد الثانى .

*
* *

(ه) أحمد بن يوسف الكاتب :

هو أبو جعفر أحمد بن يوسـف بن القاسم بن صُبَيح الكاتب من أهل الكوفة ومن موالى بنى عِجْل . كان مذهبه الرسائل والإنشاء ، وزّره المأمون بعد أحمد بن أبى خالد ، فقد كان يتـولى ديوان الرسائل له ، وكان معـروفا بين أهل عصره بسـمو المكانة فى العـلم والأدب ، والكتابة والشعر . حَكَى عن المأمون ، وعبـد الحميد بن يحيى الكاتب ، وحكى عنه ابنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وعلىّ بن سليمان الأخفش ، وغيرهما .

كتابته :

أما مكانته فى الكتابة فرسائله وتوقيعاته التى تحلّت بهـا صدور الأدب ، وتزيّنت بها كتب التاريخ ، تجعله فى مقدّمة الكتّاب ومن أئمتهم ، وهى بمـا فيها من جَوْدة وإحكام ، وتخيّر للألفاظ ، وسلاسة فى المعانى ، تدل على أنه كان خصيب النفس ، سريع الخاطر ، وعلى أنه مالك أعنّة المعانى ونواصى الكلام . ولقـد شَهِد له بالسَّبْق فى الكتابة والرسائل كبار رجال عصره ومن جاء بعده .

قال الصولى : لمـا مات أحمد بن أبى خالد الأحول ، شاور المأمون الحسن بن سهل فيمن يكتب له ويقوم مقامه ، فأشار عليـه بأحمد بن يوسـف ، وبأبى عباد ثابت بن يحيى الرازىّ ، وقال : هما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين ، وخدمته ، وما يرضيه ؛ فقال له : اخترلى أحدهما ؛ فقال الحسن : إن صَـبَر أحمد على الخدمة ، وجفا لذّته قليلا ، فهو أحبّهما الىّ ، لأنه أعرف فى الكتابة وأحسنهما بلاغة ، وأكثر علما ! فاستكتبه المأمون .

وروى الصولى بسـنده : أن الكتّاب اجتمعوا عنـد أحمد بن اسرائيـل ، فذكروا المـاضين من الكتّاب ، فأجمعوا أن أكتب من كان فى دولة بنى العباس : أحمد بن يوسف ،

وابراهيم بن العباس؛ وأن أشعر كتّاب دولتهم : ابراهيم بن العباس ، ومحمد بن عبد الملك الزيات؛ فابراهيم أجودهما شعرا، ومحمد أكثرهما شعرا ، ثم الحسن بن وهب، وأحمد ابن يوسف .

فأنت ترى — أعزك الله — أن هؤلاء الكتّاب لم يقدّموا أحدا من كتّاب دولة بنى العباس على أحمد بن يوسف فى الكتابة ، وإن قدّموا عليه فى الشعر . والحقّ أنّ نبوغه فى الكتابة هو الذى كان سببا الى ظهوره ورفعته؛ فقد روى العلماء أنه لما قُتل الأمين ، أمر طاهر بن الحسين الكتّاب أن يكتبوا الى المأمون فأطالوا، فقال طاهر : أريد أقصر من هذا ! فوُصف له أحمد بن يوسف فأحضره لذلك، فكتب :

« أما بعد، فإنّ المخلوع ، وإن كان قَسيم أمير المؤمنين فى النّسَب واللُّحْمَة ، فقد فرّق حُكم الكتاب بينه وبينه فى الولاية والحُرْمة، لمفارقته عصمة الدين، وخروجه عن إجماع المسلمين؛ قال الله عز وجل لنوح عليه السلام فى ابنه : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ولا صلة لأحد فى معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت فى ذات الله ؛ وكتبت الى أمير المؤمنين ، وقد قتل الله المخلوعَ وأحصد لأمير المؤمنين أمره، وأنجزله وعده، فالأرض بأكنافها أوطأ مهاد لطاعته ، وأتبع شىء لمشيئته؛ وقد وجهت الى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع ، وبالآخرة وهى البُرْدَة والقضيب ؛ والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه، والكائد له من خان عهده ونكث عقده، حتى ردّ الألفة، وأقام به الشريعة . والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

قيل : فرضى طاهر ذلك وأنفذه ، ووصل أحمد بن يوسف وقدّمه .

وقيل : إن المأمون لما حُمل رأس المخلوع اليه ،وهو بمرو، أمر بإنشاء كتاب عن طاهر ابن الحسين، ليُقرأ على الناس فكُتبت عدّة كتب لم يرضها المأمون ولا الفضل بن سهل، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب ، فلما عُرضت النسخة على ذى الرياستين، رجع نظره فيها، ثم قال لأحمد بن يوسف : ما أنصفناك ، ودعا بقهرمانه ،وأخذ القلم والقرطاس ،

وأقبل يكتب بما يُفْرَغ له من المنازل، ويعـدّ له فيها من الفُرُش، والآلات، والكسوة، والكُرَاع، وغير ذلك؛ ثم طرح الرقعة الى أحمد بن يوسف وقال له: اذا كان فى غد، فاقعد فى الديوان، وليقعد جميع الكتّاب بين يديك، واكتب الى الآفاق.

قيل: ومما كتبه للمأمون حين كثر الطلاب للصلات ببابه: «داعى نداك يا أمير المؤمنين، ومُنادِى جَدْواك، جمعا الوفود ببابك يرجون نائلك المعهود، فمنهم مَن يمتّ بحُرمة، ومنهم من يُدِلّ بخدمة، وقد أجحف بهم المُقام، وطالت عليهم الأيام؛ فإن رَأَى أمير المؤمنين أن يُنعشهم بسيبه، ويحقّق حُسن ظنهم بطَوْله، فعل إن شاء الله تعالى». فوقّع المأمون: «الخير مُتّبع، وأبواب الملوك مغانٍ لطالبى الحاجات، ومواطن لهم؛ ولذلك قال الشاعر:

يَسقُط الطيرُ حيث يلتقط الحبّ * وتُغْشَى منـازلُ الكرماء

فاكتب أسماءَ من ببابنا منهـم، وآحك مراتبهم، ليصل الى كل رجل قَدْرُ استحقاقه، ولا تكدّر معروفنا عندهم بطول الحجاب، وتأخير الثواب؛ فقد قال الشاعر:

فإنك لن ترى طـردًا لحـرّ * كإلصاقٍ به طَـرَفَ الهوان»

وقال ابراهيم بن العباس: سمعت أحمد بن يوسف يقول: أمرنى المأمون، أن أكتب الى النـواحى فى الاستكثار من القناديل فى المساجد، فبتّ لا أدرى كيف أفتتح الكلام، ولا كيف آخذ به، فأتى آت فى منامى، فقال: قل: فإنّ فى ذلك أُنسًا للسابلة، وإضاءة للمتهجّدة، ونفيًا لمكامن الرِّيَب، وتنزيها لبيوت الله عن وحشة الظُّلَم، فانتبهت وقد آنفتح لى ما أريد، فابتدأت بهذا وأتممت عليه.

ومن رسائله أيضا: "لقد أحلّك الله فى الشرف أعلى ذروته، وبلّغك من الفضل أبعدَ غايتـه؛ فالآمالُ اليك مصروفة، والأعناق اليك معطوفة؛ عنـدك تنتهى الهِمَم السامية، وعليك تقف الظنون الحسنة، وبك تُثْنَى الخناصر، وتُسْتَفتح أغلاق المطالب؛ ولا يُستَريث النُّجْح من رجالك، ولا تعروه النوائب فى دارك" وإنا نحيلك على ما أثبتناه لك فى المجلد الثالث من آثاره الممتعة.

شـــعره :

كان أحمد بن يوسف شاعرا مُعرقًا فى الشعر كما كان مُعرقًا فى الكتابة ، إلّا أن حظّه من الشعر كان دون حظّه من الكتابة ، فإنّ نُقّاد عصره لم يقدّموا عليه أحدا فى الكتابة من كتّاب بنى العباس ووزرائهم ، وقد قدّموا عليه كثيرا فى الشعر . وقد ذكرنا فيما سبق من ترجمته إجماع فريق من الكتّاب على سبقه فى الكتابة دون الشعر . وقد روى الصولى بسنده أن قَعْنَب بن مُحْرز الباهلىّ قال : كنا نقول لم يلِ الوزارةَ أشعر من أحمد بن يوسف ، حتى وَلِىَ محمد بن عبد الملك ، فكان أشعرَ منه !

ولم يكن المدح كثيرا فى شعر أحمد بن يوسف ، فإنه كان بحكم مركزه كوزير للمأمون ورئيس ديوان رسائله ، غير محتاج الى أن يتكسّب بشعره ، أو يمدح الناس ، ولذلك لا نرى فى شعره مدحا لغير المأمون وليّه وربّ نعمته . وكذلك كان هجاؤه قليلا ، فإنّ مروءته ، وأدبه ، ومركزه ، واعتداده بنفسه ، كل ذلك كان يرفعه عن أن يكون هجّاء مُقْذعا ، وإنما كان يُضطر أحيانا الى ذمّ أعدائه ومنافسيه ، فى غير إقذاع ولا فحش . فمن ذلك قوله فى سعيد بن سالم الباهلى وولده — وقد كانت بينهم وبينه عداوة — فذكرهم يوما فقال : "لولا أن الله عزّ وجل ختم رسالته بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكُتُبَه بالقرآن ، لبعث فيكم نبىّ نَقْمة ، وأنزل عليكم قرآن غَدْر ، وما عَسَيتُ أن أقول فى قوم ، محاسنهم مساوئ السِّفَل ، ومساوئهم فضائح الأمم" . وقال يهجوهم :

أبنى سَعِيدٍ إنكم من مَعْشر * لا تُحسنون كرامةَ الأضيافِ
قومٌ لباهلةَ بن أَعْصُر إن هُمُو * فخروا حسبتهمو لعبد مناف
مَطَلُوا الغداء الى العشاء وقرّبوا * زادًا لَعَمْرُ أبيك ليس بكاف
بينا أتاك أتاهمُ كبراؤهم * يَلْحَوْن فى التبذير والإسراف
وكأنى لمّا حَطَطتُ اليهمو * رَحْلى حططت بأبرق العزّاف

اخلاقه وســـيرته :

كان أحمـد بن يوسف فَطِنا ، بصيرا بأدوات الملك وآداب السلاطين ، ذ كيّا سريع الخاطر ذا مروءة وكرم ، وكان مع ذلك يضرب فى المجون واللهو بسهم . ومما يدل على عظيم مروءته ما قاله عبد الله بن طاهر حين خرج من بغداد الى خراسان لابنه محمد ، وما وقع بين محمد هـذا و بينه بعد ذلك . قال عبد الله لابنه : إن عاشرتَ أحدا بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب فإن له مروءة . فما عرج محمد حين انصرف من توديع أبيه على شىء حتى هجم على أحمد بن يوسف فى داره ، فأطال عنده ، فَفَطِنَ له أحمد فقال : يا جارية غدّينا ، فأحضرت طبقا وأرغفة نقيّة وقدّمتْ ألوانا يسيرة وحلاوة وأعقب ذلك بأنواع من الأشربة فى زجاج فاخر وآنية حسنة وقال : يتناول الأمير من أيها شاء . ثم قال : إن رأى الأمير أن يُشَرِّف عبده ويجيئه فى غَدٍ فأنْعِمْ بذلك . فنهض وهو متعجّب من وصف أبيه له ؛ وأراد فضيحته ، فلم يترك قائدا جليلا ولا رَجُلا مذكورا من أصحابه إلّا عرّفهم أنه فى دعوة أحمد بن يوسف وأمرهم بالغدوّ معه ؛ فلما أصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أُهبتــه وأظهر مروءته ، فرأى محمد من النضائد والفُرُش والستور والغلمان والوصائف ما أدهشه ، ونَصَب ثلثمائة مائدة وقد حُفَّت بثلثمائة وصيفة ، ونقل الى كل مائدة ثلثمائة لون فى صحاف الذهب والفضة ومثارد الصين ؛ فلما رُفعت الموائد قال ابن طاهر : هل أكل مَن بالباب؟ فنظروا ، فاذا جميع مَن بالباب قد نُصبت لهم الموائد فأكلوا ؛ فقال : شتان بين يوميك يا أبا الحسن! (كذا فى هذه الرواية كنّاه بأبى الحسن) فقال : أيها الأمير ، ذاك قُوتى وهذه مروءتى .

أما اللهو والمجون فقـد كان حظّه منهما غير قليـل . وحسبنا أن نذكر ما قاله الحسن ابن سهل ، حين شاوره المأمون فيمن يختاره ، بعـد أحمد بن أبى خالد ، فأشار عليه بأحمد ابن يوسف و بأبى عباد ثابت بن يحيى الرازى ؛ فقال له : اختر لى أحدهما ؛ فقال الحسن : إنْ صَبَر أحمد وجفا لذّته قليلا فهو أحبّهما الىّ .

ولقد كان به ما كان ببعض معاصريه، من الكتّاب والشعراء والادباء، من ميـل الى الغلمان... ! لذلك لم يكن غَزَله بريئا، ولم يعالجه على أنه فنٌّ من فنون الشعر، وإنما كان غَزَله يترجم ترجمة صادقة عن شعوره ونوازع نفسه؛ فإنك لا تستطيع أن تسمع ما كان بينه وبين موسى بن عبد الملك ثم تحكم له بأنه اصطنع الغزل فنّا من فنون الشعر؛ فقد كان موسى هذا فى ناحيته، وهو الذى قدّمه وخرّجه، وكان يرمى بما كان يُرْمَى به مما نمسك عن ذكره.

حدّث موسى نَفْسُه، فقال : وهب لى أحمد بن يوسف ألف ألف درهم فى مرّات .

وقد لامه محمد بن الجهم على تقديمه موسى بن عبد الملك على صباه؛ فكتب اليه أحمد ابن يوسف شعرا يلتمس اليه فيه أن يكفّ عن عذله . وقد أمسكنا عن ذكره أيضا لما فيه من مجون .

ومن غزله ما قاله فى محمد بن سعيد بن حماد الكاتب، وكان يميل اليه، وقيل عنه إنه كان صبيّا مليحا :

صَـدَّ عنّى محمد بن سـعيد * أحسنُ العالمين ثانىَ جِيد
صَدَّ عنّى لغـير جُرْم اليـه * ليس إلا لحُسْنه فى الصدود

وكان محمد بن سعيد يكتب بين يديه، فنظر الى عارضه قـد اختط فى خدّه، فأخذ رقعة وكتب فيها :

لحاكَ اللهُ من شَـعْر وزادا * كما ألبستَ عارضه الحدادا
أَغَرْتَ على تورّد وَجْنتيه * فصيَّرت احمرارهما سوادا

ورمى بهـا الى محمد بن سعيد؛ فكتب مجيبا : عَظَّم الله أجرك فىّ ياسـيدى وأحسن لك العوضَ منى ! !

وكان لظَرْفه وفطنته وبصره بالأمور موضعا لرضا المأمون وعطفه عليه. ويظهر أن علاقته بالمأمون وثقته به وملء يديه منـه جعلته لا يتحرّز فى كلامه كثيرا؛ فكان يسقط السقطة بعـد السقطة حتى أتلف نفسه فى بعض سَقَطاته؛ فقـد حُكى : أن المأمون كان اذا تبخّر

طُرح له العود والعنبر، فاذا تبخّر أمر بإخراج المِجْمَرَة ووَضْعِها تحت الرجل من جلسائه إكراما له . وحضر أحمد بن يوسف وتبخّر المأمون على عادته، ثم أمر بوضع المجمرة تحت أحمد بن يوسف؛ فقــال : هاتوا ذا المروءة ! فقال المأمون : ألنا يقال هــذا ؟ ونحنُ نَصِل رجلا واحدا من خدمنا بستة آلاف دينار ! إنمـا قصدنا إكرامك، وأن أكون أنا وأنت قـد اقتسمنا بخورا واحدا؛ يُحضَر عَنْبر! فأُحضر منــه شيء فى الغاية من الجودة، فى كل قطعة ثلاثة مثاقيل، وأمر أن تُطرح القطعة فى المجمرة يتبخّر بها أحمد بن يوسف، ويُدْخِل رأسَه فى زِيقِه حتى يَنْفَدَ بخورها، وفُعِــل به ذلك بقطعة ثانية وثالثة، وهو يستغيث و يصيح، وانصرف الى منزله وقد آحترق دماغه، وآعتل ومات سنة ٢١٣ وقيل سنة ٢١٤ هـ .

وكانت له جارية يقال لها نَسيم، لها من قلبه مكان خطير، فقالت ترثيه :

ولو أنّ مَيْتاً هَابَهُ الموتُ قبــلَه * لمـا جاءه المِقدارُ وهو هَيُوبُ
ولو أنّ حيًّا قبــله هابه الردَى * إذًا لم يكن للارض فيه نصيبُ

وقالت أيضا ترثيه :

نَفْسِى فِدَاؤك لَوْ بالناس كُلِّهم * ما بِى عليك تَمَنَّوْا أنهــم ماتوا
وللوَرَى مَوْتةٌ فى الدهر واحدةٌ * وَلِى من الهمّ والاحزان مَوْتات

(و) يحيى بن أكثم القاضى :

هو أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قَطَن ينتهى نسبه الى أكثم بن صَيْفى التميمى حكيم العرب المعروف .

عرف التــاريخ يحيى بن أكثم حَدَثًا فى مجلس سـفيان بن عُيينة ، المعروف بعلمــه ووَرَعه ونفوذه ؛ اذ يقول ابن خِلِّكان فى كتابه "وفيــات الأعيان" : ورأيت فىْ بعض المجاميع أن سفيان خرج يوما الى من جاءه يسمع منه وهو ضَجِر، فقال : أليس من الشقاء أن أكون جالستُ ضَمْرة بن سعيد وجالس هو أبا سَـعيد الخدرىّ، وجالست عمرو ابن دينــار، وجالس هو عبــد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وجالست الزُّهْرىّ وجالس

هو أنس بن مالك، حتى عدّ جماعة، ثم أنا أجالسكم! فقال له حَدَثٌ فى المجلس : انتصف يا أبا محمد، قال : إن شاء الله تعالى؛ فقال : والله لَشَقاءُ أصحاب أصحاب رسول الله بك أشدّ من شقائك بنا! فأطرق سفيان وأنشد قول أبى نُوَاس :

خَلِّ جَنْبيك لرام * وآمضِ عنه بسلامِ
مُتْ بداء الصمت خيرٌ * لك من داء الكلام
إنما السالم من ألـ * ـجم فـاهُ بلجام

فتفرّق الناس وهم يتحدّثون برجاحة الحَدَث، وكان ذلك الحدث يحيى بن أكثم التميمىّ، فقال سفيان : هذا الغلام يصلُح لصحبة هؤلاء، يعنى السلاطين . اهـ

هـذا كل ما نعلمه عن حداثة يحيى بن أكثم . وهى حداثة تبشر بما سيكون لهـذا الناشئ من مكانة ونفوذ جديرين بما وهبه الله من ذكاء وسرعة خاطر، وقوّة قلب وسلاطة لسان . تلك المخايل كانت واضحة فيه، وقد جعلته حديث حاضرى مجلس سفيان، وحملت سفيان على أن يقول عنه : هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء (مشيرا الى ولاة الأحكام) !

لقـد صدّقت الأيام حَدْس سفيان فيـه، فقد انخرط يحيى فى سِلْك القُضَاة صـغيرا لنجابته، ثم درج فى مناصب القضاء حتى تبوّأ أسمى مناصب الدولة؛ تبوّأ منصب قاضى القضاة، ومنصب الوزارة للمأمون، منظورا اليـه فى كل ما تولّاه من المنـاصب بالتجلّة والإكبار من الخاصّة والعامّة .

ونحن ذاكرون لك حياته وما تولّاه من مناصب، ومكانتَه العلمية والأدبية، وما كان متّصفا به من الحزم وحسن السياسـة، وأقوالَ الناس فيه وفى أخلاقه، ووجهةَ نظر كل فريق من الناس فيـه، معتمدين فى ذلك على ما بين أيدينا من مصادر تاريخية وأدبية، منبّهين على ما يمكن أن يقع بينها من خلاف كثير أو قليل .

أوّل عمل تولاه :

أما أوّل عمل تولاه فيحدّثنا عنه ابن طَيْفور بقوله : «قال حدّثنى أحمد بن صالح الأضجم، قال : هل تدرى ما كان سبب يحيى بن أكثم؟ قلت : لا وإنى أحبّ أن أعرفه .

قال : يحيى بن خاقان هو وَصَّـله بالحسن بن سهل وقرّبه من قلبـه وكثّره فى صدره، حتى ولّاه قضاء البصرة ثم استوزره المأمون فغلب عليه . وحدّثنى عبـد الله بن أبى مروان الفـارسىّ ، قال : كان ثُمَـامة سبب يحيى بن أكثم فى قضـاء البصرة مرّتين وسبب تخلصـه من الخادم الذى أمر بتكشيفه بالبصرة ، ويقال : إنه قطع خُصْيَته فى تعذيبـه بالقصب اهـ .

ويقول ابن خلكان فى سبب اتصاله بالقضاء : أراد المأمون أن يُوَلّى رجلا القضاء ، فوُصِف له يحيى بن أكثم فاستحضره ، فلما حضر دخل عليه ، وكان دَمِيم الخَلْق فاستحقره المـأمون لذلك ، فعـلم ذلك يحيى فقال : يا أمير المؤمنين سَلْنى إن كان القصد علمى لا خَلْقى ؛ فسأله المأمون المسألة المعروفة فى الميراث بالمسئلة المأمونية ، وهى أبوان وبنتان لم تُقسم التركة حتى ماتت إحدى البنتين وخَلّفت من فى المسألة ، فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، الميّت الأوّل رجل أم امرأة ؟ فعرف المأمون أنه قد عرف المسألة فقلّده القضاء .

ثم يذكر لنا ابن خلكان بعد ذلك نقلا عن تاريخ بغداد للخطيب : أنّ يحيى بن أكثم وُلى قضاء البصرة وسـنه عشرون سنة أو نحوها ، فاستصغره أهـل البصرة فقالوا : كم سنّ القاضى ؟ فعلم أنه قد استصغر فقال : أنا أكبر من عَتّاب بن أُسَيد الذى وجّهه به النبىّ صلى الله عليه وسلم قاضيا على مكة يوم الفتح ؛ وأنا أكبر من مُعَاذ بن جَبَل الذى وجه به النبىّ صلى الله عليه وسـلم قاضيا على اليمن ؛ وأنا أكبر من كعب بن سَوْر الذى وَجّه به عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قاضيا على أهل البصرة ، فجعل جوابَه احتجاجا .

قد عَرَفتَ مما ذكرناه عن ابن طيفور المعاصر ليحيى وعن ابن خلكان أن بين روايتى المؤرّخين فى سبب اتصال يحيى بالقضـاء خلافا ، فابن طيفور يروى لنا أنه اتصـل أوّلا بالحسن بن سهل نائب الخليفة المأمون فى بغداد ثم ولّاه قضاء البصرة . وابن خلكان يروى لنا أنه اتصل بالمأمون وبعـد أن امتحنه وعرف فضله ولّاه القضاء . فهل يمكن التوفيق بين روايتيهما .

يخيّل الينا أنّ كلتا الروايتين صحيحة، خصوصًا اذا ذكرنا مارواه ابن طيفور من أن ثمامة كان سبب يحيى بن أكثم فى قضاء البصرة مرّتين، إذ يمكن أن تكون توليته قضاء البصرة فى المرّة الأولى كانت عن طريق اتصاله بالحسن بن سهل، وأن توليته فى المرّة الثانية كانت عن طريق اتصاله بالخليفة المأمون، وأن ما ذكره ابن خلكان فى تاريخه من استصغار أهل البصرة له ثم احتجاجه عليهم بما فعله النبيّ صلى الله عليه وسلم وبما فعله عمر رضى الله عنه كان فى المرّة الأولى .

وبهذا التحليل نستطيع أن نفهم ما يذكره المؤرخون من أنه عُزل من قضاء البصرة لأمره بتعذيب خادم بالقصب بعد تكشيفه حتى قطعت خصيته، ثم ما يذكرونه من أنه عُزل لقوله أبياتا من الشعر تغزّلا فى ابنى مسعدة، وكانا على نهاية الجمال .

ومهما يكن من شيء، فنحن نرجح أنه تولّى قضاء البصرة مرتين : الأولى عن طريق الحسن بن سهل ثم عزل لأحد السببين المذكورين أو غيرهما مما لا نقطع به، والثانية عن طريق المأمون .

بقى شيء آخر فيما يرويه ابن خلكان نريد أن نلفت النظر اليه، فقد يكون فيه شيء من التناقض أو السهو . ذلك بأنه يروى لنا أن يحيى حين وُلِّى قضاء البصرة كانت سنه نحو عشرين سنة وأن أهل البصرة استصغروه فاحتج عليهم بما فعله النبيّ وعمر . وسواء أكانت توليته عن طريق الحسن بن سهل أم عن طريق المأمون فهى لا تعدو أوائل القرن الثالث الهجرى، ثم يذكر بعد ذلك أنه توفّى بالرَّبَذَة سنة اثنتين وأربعين ومائتين وقبل غرة ثلاث وأربعين وعمره ثلاث وثمانون سنة . إذ مهما بالغنا فى سنه متمشين مع رواية ابن خلكان نقلا عن تاريخ بغداد من أنه تولّى قضاء البصرة وسنه نحو العشرين فلن نعدو به الستين إلا قليلا ، فكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين ما يقوله ابن خلكان من أنه توفّى وعمره ثلاث وثمانون سنة ! ولو فرضنا صحة ما يقوله ابن خلكان فى عمره حين الوفاة ، وفرضنا أيضا صحة ما نقله عن تاريخ بغداد من أنه تولّى قضاء البصرة وسنه نحو

العشرين لكانت توليتـه قضاء البصرة فى النصف الأول من عهـد الرشيد لا فى عهد المأمون ، وهو خلاف المجمع عليـه وخلاف ما ينقله هو أيضا من أن توليته البصرة كانت سنة اثنتين ومائتين .

ثم نرى يحيى بعـد أن عُزل من قضاء البصرة فى بغداد ثاويا فى دار شادّها له صديقه الحميم ثُمَامة بن أَشْرَس بحضرته ؛ وكان ثمامة بن أشرس هذا عالمـا متكلّما سَليط اللسان قوىّ الحجة ذا آراء فى الاعتزال واليه تنسب الطائفة الثمـامية من المعتزلة ، وكان متصلا بالمأمون ، محبّبا اليه ، موثوقا به منه ، فكان خير وسـيلة لاتصال صـديقه يحيى بالخليفة المأمون ؛ ثم عرف المأمون ما فى يحيى من علم وذكاء وحزم فأدناه اليه وقرّبه منه وخصّه برعايته وعطفه حتى غلب عليه دون الناس جميعا .

ويحدّثنا ابن طيفور أن يحيى بن أكثم قال للمأمون : أظهر لكل قاض ماتريد أن تولّيه إيّاه وأْمُره بكتمانه ، ثم انظر أيفعل أم لا ، وَضَعْ عليهم أصحاب أخبار ؛ فقال له المأمون : أولّيك قضاء القضاة ، وقال لغيره ما يريد أن يولّيه ، فشاع ذلك كله إلا خبر يحيى فإنه أتاه أن الناس ذكروا أنه يريد الخروج الى البصرة على قضائها ، فذمّهم وقال له : كيف شاع هذا وأمرت باكتراء السفن الى البصرة ؟ قال يحيى : يا أمير المؤمنين ، ليس يستقيم كتمان شىء إلا بإذاعة غيره وإلا وقع الناس عليه ؛ قال : صدقت وحمده .

من المجمع عليه أن يحيى بن أكثم كان قاضى القضاة للخليفة المأمون ، ولكن هل تَوَزّر له ؟ لم يذكره الفخرى فى وزراء المأمون ، لكن ابن طيفور ذكر فيما نقلناه عنـه أن المأمون استوزره . فهل يمكن أن يكون المراد من استيزار المأمون له ما ذكره طلحة بن محمد بن جعفر إذ يقول فى آخر وصفه لفضل يحيى بن أكثم وعلمه وأخلاقه : وكان المأمون ممن برع فى العلوم فعرف من حال ابن أكثم وما هو عليه من العـلم والعقل ما أخذ بمجامع قلبه حتى قلّده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل فى تدبير الملك شيئا إلا بعد

مطالعة يحيى بن أكثم » . ليس يبعد أن يكون هذا هو المراد . على أنّا قد عددناه من وزراء المأمون فى كلمتنا المجملة عن وزرائه .

ومهما يكن من شيء، فقد كان يحيى بن أكثم قاضى القضاة وصاحب الكلمة العليا والأمر النافذ فى الدولة، وكانت مكانته من المأمون لا تدنو منها مكانة . ولكى تَقْدُر حظوته لدى المأمون وأدب المأمون معه نورد لك ما يروى عن يحيى بن أكثم نفسه . قال :

«بِتّ ليلة عند المأمون فانتبه فى بعض الليل فظنّ أنى نائم ، فعطش ولم يَدْعُ الغلام لئلا أنتبه ،وقام متسللا خائفا هادئا فى خُطاه حتى أتى البرّادة، فشرب ثم رجع وهو يُخفى صوته كأنه لصّ حتى اضطجع ؛ وأخذه سُعَال فرأيته يجمع كمه فى فمه كى لا أسمع سُعَاله ؛ وطلع الفجر فأراد القيام وقد تناومت فصَبَّر الى أن كادت تفوت الصلاة، فتحرّكت، فقال : الله أكبر، ياغلام نَبِّه أبا محمد . فقلت: يا أمير المؤمنين رأيت بعينى جميع ما كان الليلة من صنيعك وكذلك جعلنا الله لكم عبيدا وجعلكم لنا أربابا » .

وهاك حكاية أخرى تدلّ على أدب المأمون وحُظْوة يحيى لديه، وهى مَرْوية عن ثُمامة ابن أشرس صديق يحيى وثقة المأمون . قال ثمامة: «كان يحيى بن أكثم يماشى المأمون يوما فى بستان موسى والشمس عن يسار يحيى والمأمون فى الظل ، وقد وضع يده على عاتق يحيى وهما يتحادثان حتى بلغ حيث أراد،ثم كرّ راجعا فى الطريق التى بدأ فيها، فقال ليحيى: كانت الشمس عليك لأنك كنتَ عن يسارى وقد نالت منك، فكن الآن حيث كنتُ وأتحوّل أنا الى حيث كنتَ ؛ فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين لو أمكننى أن أقيك هَوْل المطلع بنفسى لفعلت ؛ فقال المأمون : لا والله ما بُدٌّ من أن تأخذ الشمس منى مثل ما أخذت منك ، فتحوّل يحيى وأخذ من الظل مثل الذى أخذ منه المأمون » اه .

ولم يزل فى هذه الرعاية من المأمون والحظوة لديه، يفوّض اليه المأمون جليل الأعمال ويرسله فى مهامّ الأمور، حتى كانت سنة ٢١٦ﻫ إذ نرى المأمون بمصر يَسْخَط على يحيى بن أكثم الذى كان فى حاشيته ويرسله مغضوبا عليه الى العراق ؛ ثم يبلُغ من حَنَقه عليه أن يكتب

فى وصيّته الى ولىّ عهده المعتصم محذّرا إياه من اصطناع الوزراء والركون اليهم ضاربا بيحيى ابن أكثم مَثَلًا فى سوء السِّيرة وقَبِيح الفعال . ونحن نلق على مسامعك ما كتبــه فى وصيّته متعلقا بيحيى : «ولا تتخذن بعدى وزيرا تُلق اليه شيئا ، فقد علمتَ ما نكبنى به يحيى بن أكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته ، حتى أبان الله ذلك منه فى صحة منى ، فصرتُ الى مفارقته قاليا له غير راض بما صنع فى أموال الله وصدقاته ، لا جزاه الله عن الاسلام خيرا » .

ثم لم تزل تختلف الأحوال على يحيى بن أكثم بعد ذلك ، وتتقلّب به الأيام حتى أيام المتوكل على الله ، فلما عُزِل القاضى محمد بن القاضى أحمد بن أبى دُوَاد فوّض ولاية القضاء الى القاضى يحيى وخلع عليه خمس خلع ، ثم غضب عليه المتوكل وعزله سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله وأُلزم منزله . ثم حجّ بعد ذلك وأخذ معه أخته واعتزم أن يجاور ، ثم بلغه رضا المتوكل عنه ورجوعه له ، فبدا له فى المجاورة ورجع يريد العراق ، فلما كان بالرَّبَذَة فى طريقه الى العراق وافتــه المنية يوم الجمعة منتصف ذى الحجة سنة أربعين ومائتين ، وقيــل غرّة ثلاث وأربعين ومائتين ودفن هناك . وقد قدّمنا لك ما ذكره ابن خلكان فى عُمْره حين الوفاة وشفعناه بمــا يمكن أن يكون فى كلامه من تناقض أو سهو أو تحريف .

كان يحيى بن أكثم فقيها عالمــا بالفقــه ، بصــيرا بالأحكام ، وقــد عدّه الدارقطنىّ فى أصحــاب الشافعىّ رضى الله عنــه ، راويا للحديث ، آخذا بحظّ كبــير من كل فنّ ، سمع الحديث عن عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما ، ويَرْوِى عنه الترمذى وغيره من رجال السُّنّة وحَفَظَة الحديث . وكانت له منزلة ساميــة لدى رجال الدين وعلماء الجماعة . وممــا رفع منزلته لدى الناس جميعا موقفه المشهور ، مع المأمون مما يدلّ على سعة علمه وقوّة حجتــه وعظيم جراءته . ذلك بأن المأمون رأى وهو فى طريقه الى الشأم جواز نكاح المتعة فوقف له يحيى موقفا أكسبه حَمْدَ أئمة الدين وثناءهم عليه . ونحن نزجى اليك هذا الحديث نقلا عن ابن خلّكان . قال : «حدّث محمد بن منصور قال : كنا مع المأمون فى طريق الشأم فأمر فنودى بتحليل المتعة ؛ فقال يحيى بن أكثم لى ولأبى العيناء : بكّرا غدا اليــه فإن رأيتما للقول

وجها فقولا و إلا فأمسكا الى أن أدخل ، قال : فدخلنا عليه وهو يستاك و يقول وهو مغتاظ : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبى بكر رضى الله عنـه وأنا أنهى عنهما ! ومن أنت يا جعل حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه ! فأومأ أبو العيناء الى محمد بن منصور وقال : رجل يقول فى عمر بن الخطاب ما يقوله نكلمه نحن ! فأمسكنا . فجاء يحيي بن أكثم فجلس وجلسنا . فقال المأمون ليحيي : مالى أراك متغيرا؟ فقال : هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث فى الإسلام ؛ قال : وما حدث فيه؟ قال : النداء بتحليل الزنا ؛ قال : الزنا ؟ ! قال : نعم ، المتعة زنا ؛ قال : ومن أين قلت هذا ؟ قال : من كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الى قوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ يا أمير المؤمنين ، زوجة المُتْعة مِلْك يمين؟ قال : لا ، قال : فهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها؟ قال : لا ، قال : فقد صار متجاوز هذين من العادين ؛ وهـذا الزُّهْرِىّ ياأمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن ابنى محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه قال : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعـد أن كان قد أمر بها ؛ فالتفت الينا المأمون فقال : أمحفوظ هـذا من حديث الزهرىّ ؟ فقلنا : نعم يا أمير المؤمنين رواه جماعة منهم مالك رضى الله عنه ؛ فقال : أستغفر الله ! نادوا بتحريم المتعة فنادَوْا بها . " اه

أما آراء يحيي الكلامية فإنّ المؤرّخ يقف أمامها موقف حيرة وإحجام ، ويحتاج إذا أراد أن يبـدى رأيا فيها الى شىء غير قليل من الأناة والروّية . ذلك بأن يحيي كان يقف موقفا قريبا من الفتنة العنيفة التى كانت مضطرمة فى وقته ، فهو قاضى قضاة المأمون ، ومنزلته منه منزلة يُغْبَط عليها ، والمأمون زعيم القائلين بخَلْق القرآن ، وهى بدعة اعتزالية ، ثم هو فى الوقت نفسه مرضىّ عنه من الجماعة وأهل السنة ، ثم نراه حينا يقف موقف المعارضة من صديقه

وحميمه ثُمَـامة بن أشرس المعتزلىّ وزعيم الطائفة الثمامية، معارضة تشتدّ فى بعض الأحيان الى المخاشنة والمهاترة . وأنت تعلم مَنْ هو ثمامة وما علاقته بالمأمون وثقة المأمون به، ثم تعلم ما كانت علاقته بيحيى نفسه وكم له من يَدٍ عليه . أضف الى كل هذا ما يرويه ابن خلكان من أنه كان يقول : القرآن كلام الله، فمن قال : إنه مخلوق يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه . ولاحظ أنّ المأمون زعيم القائلين بذلك .

فهل يمكن مع ذلك إبداء رأى فى عقيدة يحيى الكلاميـة؟ وهـل يمكن أن تكون كل هذه الروايات صحيحة مع ما يبدو عليها من شبه تناقُض ؟

نظن أنه باستعمال شىء من التحليـل يمكن إبداء الرأى، ويمكن التوفيق أيضا . ذلك بأن يحيى بن أكثم كان كيِّسا حازما، خفيف الروح حُلْو اللسان، فاستطاع بذلك أن يدارى الناس جميعا، خاصّتهم وعامتهم، وأن يكتسب رضاهم جميعا . فاذا حُووِرَ وجُودِلَ فاشتدّ أحيانا فإنمـا يكون ذلك الى الحـدّ الذى لا يمسّ مكانتـه ونفوذه؛ فبقى فى حُظْوة لدى المأمون وإخوان المأمون دونها كل حظوة، وكان فى الوقت نفسـه بموضع الكرامة والرضا من أهل السنّة والجماعة .

الى هنا لم نستطع أن نبدى شيئا فى رأيه . وكل ما يمكن أن يستنبط مما تقدّم أنه كان حسن التقية، بارعا فى المداراة والمصانعة والرِّياء. وكانت هذه الخَلّة من أظهر مُمَيِّزات العصر؛ فالخليفة يدارى فيقابل قاتل أخيه بالترحاب، فاذا ما خرج القائد القاتل وسئل المأمون عن عَبْرة استعبرها كانت إجابته : «قتلنى الله إن لم أقتل طاهرا»، ثم هو بعدُ يوصى صاحب أخباره بالرِّياء، ويعدّد لنا أهل الرياء فى عصره، وهاك مثلا قاضى قضاته كما ترى من سيرته .

ولكن هل من الممكن أن نستسيغ مشادّته العنيفة أحيانا فى محاورة صديقه ومصطنعه ثمامة بن أشرس، مع ما فى هذه المشادّة من نُكْران للجميل ومن تعريض نفوذه للضياع، دون أن يكون على خُلْف معه فى الرأى، ودون أن نميل الى صحة ما يرويه المؤرخون من أنه كان سليما من البدعة، ينتحل مذهب أهل السنة ؟

هذا مايمكن أن تؤدى اليه المقدمات وإن كانت حياة يحيي والبيئة التى تحيط به تجعله الى الجانب الآخر أقرب . نريد من كل هذا أن نستنبط رأى يحيي الكلامىّ وإن كان وهو قاضي القضاة حريصا على أن يكون بنجوة عن منازعات الأحزاب الكلامية، إذ نظن أن الذى ينصح الى المأمون حين أراد أن يلعن معاوية؛ وأن يكتب بذلك كتابا يقرأ فى حَفْل من الناس بقوله : «ياأمير المؤمنين إن العامّة لاتحتمل هذا، ولا سيما أهل خراسان؛ ولا تأمن أن تكون لهم نَفْرة، وإن كانت لم تدر ماعاقبتها ، والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل الى فرقة من الفِرَق (١)، فإن ذلك أصلح فى السياسة، وأحرى فى التدبير» . نظن أن الذى يفعل ذلك هو من أحرص الناس .

هذا كله كان فى الفترة التى كان فيها متصلا بمناصب الدولة أو على أمل الاتصال بها . أما بعد أن سَخِط عليه المأمون وأقصاه من مناصب الدولة، وأوصى الى المعتصم بأن يتدرّع بالحذر منه ومن أمثاله، فقد ظهر يحيي بن أكثم معارضا عنيفا لبدعة خَلْق القرآن . ومن هنا نميل الى أن نفترض أن الجملة التى رواها ابن خلّكان صحيحة النسبة اليه، وأنها من آثاره بعد غضب المأمون عليه .

أدبه :

ذُكر أن يحيي بن أكثم كان فقيها بصيرا بالأحكام ، راويا للحديث، آخذا من كل فنٍّ بطرف، ويظهر أن حظّه من الأدب الإنشائىّ لم يكن كحظّه من غيره ؛ فإنه لم يؤثر عنه فى المصادر التى بين أيدينا من القطع الرائعة النثرية أو الشعرية إلا أبيات من الشعر نُسبت اليه فى الغزل بالمذكر . من ذلك ما عزى اليه حين دخل عليه ابنا مَسعدة ، وكانا فى نهاية الجمال، وكانا كلما يمشيان فى الصحن أنشد قوله :

يازائرينْا من الخيام * حيّاكم الله بالسلام

(١) هذه السياسة حازمة وهى التى يجرى عليها الملوك فى الدول التى فيها أحزاب مختلفة يكون الملك فوق الأحزاب منازعتها ولا يظهر ميله لحزب دون حزب .

لم تأتيانى وبى نهـوض * الى حـــلالٍ ولا حرامِ
يحـــزننى أنْ وقفتما بى * وليس عندى سوى الكلامِ

ويقال : إن هذه الأبيات كانت سببا لعزله كما قدّمنا .

ومما ينسب اليه من الشعر قوله فى غلام جميل كان يكتب بين يديه، فقرص القاضى خدّه، فخجل الغلام وطرح القلم من يده، فأملى عليه هذه الأبيات :

أيا قمـــرًا جَمَّشْـــتُهُ فتغضَّـــبا * وأصـبحَ لى من تيهِهِ مُتَجَنِّبَا
اذا كنتَ للتجميش والعضِّ كارها * فكنْ أبدا ياســيّدى مُتَنَقِّبَا
ولا تظهرِ الأَصْـداغَ للناس فتنةً * وتجعل منهـا فوقَ خدّيك عقْرَبَا
فَتَقْتُلَ مِسكينا وتفتنَ ناسكا * وتترك قاضى المسلمين مُعَـــذَّبا

وقيل : إن هذه الأبيات قالها فى الحَسَن بن وَهْب وهو صبىّ، وقد لاعبـه وجمّشه فغضب الحسن .

أخــــلاقه :

حسبُنا أن نذكر لك دلالة على ما لهـذا الرجل من فطنة وحزم وتدبير وحسن سياسة أنه تملّك قلب المأمون، الذى قدّمنا لك عنه ما قدّمنا ، حتى غلب عليه دون الناس جميعا وكان مع ذلك مَهيبا، خفيفَ الروح ، سَليطَ اللســان ، قوىَّ القلب، سريعَ الخاطر . وحَسْبُك دلالةً على قوة قلبـه وسرعة خاطره ما رُوى من أن المأمون قال له معرِّضا به : مَن الذى يقول :

قاضٍ يَرَى الحـدَّ فى الزناء ولا * يَرَى على مَنْ يَلُوطُ من بَاسٍ؟ .

قال : أوَ مَا يعرف أمير المؤمنين مَن القائل ؟ قال : لا، قال : يقوله الفاجر أحمـد بن نعيم الذى يقول :

لا أحسبُ الجَـوْرَ ينقضِى وعلى الأُمـة وَالٍ من آل عَبّاس

فأُفحِم المأمون خجلا وقال : ينبغى أن يُنْفى أحمد بن أبى نعيم الى السِّنْد . وهذان البيتان من قصيدته التى قد ذكرناها فى الحياة الأدبية لعصر المأمون .

وقد جعل العلماء مقارنة بين أحمد بن أبى دُوَاد ويحيى بن أكثم فى أخلاقهما وآرائهما ونفوذهما لدى الملوك فيقال : إن كليهما غلب على سلطانه فى عصره . ووصفهما بعض البلغاء وقد سئل عن أيّهما أنْبل فقال : كان أحمد يَجِدّ مع جاريته وابنته ، ويحيى يَهْزل مع خصمه وعدوّه .

سيرته :

أما سيرته فلم نر رجلا فى مركزه الدينىّ والاجتماعىّ حامت حوله الرِّيب والإشاعات مِثْلَ ما حامت حولَ هذا القاضى ، ومع هذه الريب والإشاعات فقد كان مرعىَّ الجانب ، موفورَ الكرامة . ويظهر أن جلّ الناس حتى أخصّ أصدقائه به ، كانوا يَجْنحون الى تصديق هذه الإشاعات ، إلا أئمة الدين فقد كانوا يُكْبرونه وينكرون أن يكون لهذه الاشاعات ظلّ من الحق ، فقد سئل أحمد بن حنبل عن هذه الإشاعات فأنكرها إنكارا .

ولعل الذى يفسر موقف رجال الدين منه هذا الموقف ، وإنكارهم ما ينسب اليه من إشاعات ، موقف يحيى من المأمون يوم (المتعة) وغير يوم المتعة ، مما جعله فى نظرهم بطلا من أبطال الدين ، وخَليقا بمثله أن يكون بنَجْوة من كل منكر .

أما يحيى نفسه فيحدّثنا ابن خلكان نقلا عن ابن الأنبارىّ أنه قال لرجل كان يأنس به ويمازحه : ما تسمع الناسَ يقولون فىّ ؟ . قال : ما أسمع إلا خيرا ، قال : ما أسألك لتزكّينى . قال : أسمعهم يرمون القاضى ... قال : فضحك وقال : اللهم غَفْرًا المشهور عنا غير هذا .

ويقال : إن المأمون لما تواترت هذه الإشاعات أراد أن يمتحنه فأخلى له مجلسا واستدعاه ، وكان قد أسرَّ الى غلام خَزَرِىّ أن يكون فى خدمتهما وحده ، حتى اذا خرج المأمون عابث القاضى ، فلما استقرّ بهم المقام وخرج المأمون ، أخذ الغلام يعابث القاضى ، فسمع المأمون — وكان يستمع حديثهما — القاضى يقول : " لولا أنتم لكنّا مؤمنين " فدخل عليهما منشدا قول أبى حكيمة راشد بن اسحاق الكاتب :

وكنّا نُرَجّى أن نرى العدل ظاهرًا * فأعقبَنا بعدَ الرجاء قُنُوطُ
متى تَصْلُح الدنيا ويَصْلُح أهلُها * وقاضى قضُاة المسلمين يَلُوطُ

وقد قلنا : إنّ أخصّ أصدقائه به كان يجنح الى تصديق هذه الإشاعات، فقد قيل : إن صديقه أبا عبـد الله الحسين بن عبد الله بن سـعيد اشتهى بعد أن مات يحيي أن يراه فى المنام ليعلم ما فعـل الله به ! فأوحت اليه الأحلام أن الله غفر له بعد أن وبّخه على تخليطه، وأن يحيي حاجّ ربه بالحديث المشهور : "إنى لأستحى أن أعذّب ذا شيبة بالنار" فهل يستوحى الأحلام ليعلم ما فعل الله بصديقه مَن يعتقد براءته ! .

تآليفـــــه :

يحدّثنا المؤرّخون أن يحيي بن أكثم ألّف كُتباً فى الفقه ، وأخرى فى الأصول، وله كتاب أورَده على العراقيين أصحاب أبى حنيفة سماه : « كتاب التنبيه » . وهـذا يؤيد ما قاله الدارقطنىّ من أنه كان من أصحاب الشافعىّ .

***

(ز) إسحاق بن ابراهيم الموصلى :

قد يكون حظُّ المغنين وأهـل الموسيقى المسلمين من عناية المؤرّخين فى العصور الإسـلامية أكثرَ من حظّ غيرهم ، وقـد عُنِى المؤرّخون بتسـجيل حوادثهم وألحانهم وإيقاعاتهم، وما كان يقع بينهم من خلاف منشؤُه المنافسةُ والحسد، أو التقرّب الى ذوى السلطان، وما كان يتفق لهم من مُفاكهات لطيفة، ونكات طَريفة . وهذه العناية ظاهرة من الكتب الكثيرة التى أُرصدت لهذه الناحية من تاريخ الحَضارة الإسلامية، وقد عَبِث الدهر بُجلّ هذه الكتب، ولم يبقَ منها إلا القليلُ ، وعلى رأس هذا القليل البـاقى، وهو الحجةُ فى هذا الموضوع « كتاب الأغانى لأبى الفَرَج الأصفَهانىّ» .

وقبـل أن نعرض للكلام على إسحاق وتفصـيل حياته، نقرر أننا عاجزون كلّ العجز عن أن نجلُوَ الناحيـةَ الفنّية من شخصيته، فإن جلاءَ هذه الناحية وكشفَها لا يتّسق إلا لرجل أُوتِىَ حظًّا كبيرا من الموسيقى ، يستطيع به أن يقدّر مواهبَ أهل الفنّ وما وُفِّقوا اليه من إجادة، ونرجو أن يُتاح لإسحاق مَن يتوافر له هذا الحظ، فيجلُوَ لنا شخصيته الفنية، ومبلغ

المَدَى الذى قطعـه فى سـبيل الكمال الموسـيقى، كما أُتيح "لبتهوفن" وغير "بتهوفن" من أصحاب المواهب الكبيرة فى الموسيقى، مَن أبرز شخصياتهم الفنيةَ للناس، وأبان ما لعبقرياتهم من آيات خالدات فى الفنّ .

ولن يستطيع أحد مهما أُوتِىَ من مواهب، وآتخذ من أسباب أن يجلُوَ شخصية إسحاق الفنيـة، ما بَقِيتْ مصطلحات الموسيقى العربيـة مُغْلَقةً لم تفتح، وما بَقِيت تعاليمُها ألغازا لم تُحلّ .

واذ كان هذا هو موقفنا من الناحية الفنية إزاء شخصية إسحاق، فلنكن مؤرّخين ليس غيرُ . نُورد لك الحوادث كما رواها المؤرّخون، مع تحليل ما نُوفّق الى تحليـله من أخلاقه وأعمـاله، فنقول :

هو أبو محمـد إسحاق بن إبراهيم بن مَيْمون بن بَهْمَن بن نسـك . ووالده إبراهيم وهو ماهان، وسبب نسـبته الى ميمون أنه كتب كتابا الى صـديق له فعنونه : من إبراهيم بن ماهان ... فقال بعض إخوانه من فِتْيان الكوفة : أما تستحى من هذا الاسم؟ قال : هو اسم أبى قال : فغـيِّره ؛ قال : فكيف أغيّره، فأخذ الفتى الكوفى الكتاب فمحا ماهان، وكتب ميمونا فصار من ذلك الحين إبراهيم بن ميمون .

وأصل أُسرة إسحاق من فارس، من بيت شريف فى العجم، كان هَرَب جَدُّه ماهان من جَوْر بعض عُمّال بنى أمية لخَرَاج طُولب بأدائه، فنزل الكوفة . وأمّ إبراهيم والد إسحاق من بنات الدَّهّاقين الذين هَرَبُوا كما هَرَب ماهان، وتزوّجها ماهان بالكوفة، فولَدت له إبراهيم ثم مات وسنُّ ابراهيم سنتان أو ثلاث فكَفَل إبراهيمَ آلُ خزيمة بن خازم، ومن هذا صار وَلاؤُه الى تميم .

وقد سأل الرشيد ابراهيم عن السبب بينه و بين تميم فقال له : رَبَّوْنا يا أميرَ المؤمنين، فأحسنوا تربيتنا، ونشأتُ فيهم وكان بيننا و بينهم رضاع فتولّونا بهذا السبب . وقال إسحاق يفتخر بأصله و بيته وكافلى أبيه :

اذا كانت الأشرافُ أصلى ومَنْصِبى * ودافــع ضيمى حازمٌ وٱبنُ خازمِ
عَطَسْتُ بأنفٍ شـامخ وتناولتْ * بَــدَاىَ الثُّرَيّا قاعدًا غــيرَ قائمِ

وسبب قولهم الموصــلىّ أنه لمـا اشــتدّ إبراهيم وأدرك صَحِب الفِتْيانَ وٱشتهى الغِنَاء وطلبه ، فاشتدّ أخوالُه عليه فى ذلك ، و بلغوا منه ، فهَرَب الى المَوْصِل ، وأقام بها سنةً ، فلما رجع الى الكوفة قال له إخوانُه من الفِتْيان : مَرْحبا بالفتى الموصلىّ ، فغلبتْ عليه .

ثم ما زال ابراهيم يأخذ بأسباب الغناء حتى حَذَقَه ، وٱتصــل بأحد عُمّال المهدىّ ، ثم بلغ المهدىَّ أمرُه ، فطلبه اليه ، و بقى بعد ذلك متصلا بالخلفاء ورجالات الدولة حتى تُوُفِّى فى عهد الرشيد سنة ١٨٨ هـ .

أما ابنــه إسحاق الذى عَقَدنا هــذا الفصل لتحليل شخصيته ، وللكشف عن مواهبه وأخلاقه ، فوُلِد سنة ١٥٠ هـ . ولم يظهر شأنُه ، وتتمّ منزلتُه إلا فى أيام الرشيد ، ثم أخذ نجمُه يتألّق فى سماء الخلافة العباســية أيام الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق ، ثم تُوُفِّى سنة ٢٣٥ هـ فى صــدر أيام المتوكّل . وكان يَحُلُّ من هؤلاء الخلفاء جميعا بموضع العطف والتَّجِلّة ، وســنذكر شيئا من صلته بكلّ خليفة ، وما كان يُغْدِقه عليــه كلُّ خليفــة من عطف ومال .

نشــــأته :

كان حظّ إسحاق من وسائل التهــذيب والتثقيف خيرا من حظّ والده إبراهيم ، فإن والده نشأ يتيما فكَفَله غيرُ أبيــه حتى اذا شبّ وترعرع ، وظهر ميــلُه الى نوع خاص من الفنون ، لم يجد من القائمين بأمره ومَن لهم سلطانٌ عليــه مَن يقدّر استعداده الفِطْرىّ ، ونَزَعاتِه النفسية ، حتى ٱضطر من إلحاح ضغط أخواله عليه ، ومطالبتهم إياه أن يترك الغِنَاء ، وألّا يأخذ فى شىء من أســباب الموسيقى أن يَهِيم على وجهه فى الأرض ، فى سبيل تحقيق ما تَمِيل اليه نفسه ، ويُهَيِّئُه له ٱستعدادُه .

أما إسحاق فقد نشأ فى بيت أبيه، وشبّ وترعرع بعينه[1]، وقد وجد من أبيـه الذى فَهِم الحياةَ ولَذَعَتْـه آلامُها، مَن يهتمّ بتثقيفه، ويحترم نَزَعاته الفِطْـرية، وميوله النفسية . وإسحاق يُعدّ ابن رجل أثير عند الخلفاء، مُقَدّم لدى رجالات الدولة، وفى وَفْرة من الثَّراء، وحظّ عظيم من التَّرَف، مما يصله به الخلفاء وغَيْرُ الخلفاء؛ فاستطاع إسحاق لجاه أبيـه وماله أن يختلف الى جِلّة العلماء، وكبار رجال الفنّ، وأن يَرتاد خيرَ البيئات والأوساط التى لا يقلّ أثرها فى تهذيب النفوس عن أثر التعليم، وقد كان من حظّ الموسـيقى والآداب أن تتهيّأ الأسباب وتستوىَ الوسائلُ لرجلها الفَذّ ونابغتها العظيم .

ويحدّثنا إسحاق عن شىء من تربيته وتثقيفه، فيقول : «أقمتُ دهرا أُغَلِّسُ كلّ يوم الى هشيم ، فأسمع منه ثم أصـير الى الكسائىّ أو الى الفرّاء فأقرأ عليـه جزءا من القرآن، ثم آتى منصورَ زَلْزَل، فيضاربنى طريقتين أو ثلاثا، ثم آتى عاتكةَ بنت شهدة، فآخذ منها صوتا أو صوتين، ثم آتى الأصْمعىّ وأبا عُبيدة، فأناشـدهما وأحادثهما وأسـتفيد منهما ، ثم أصـير الى أبى ، فأُعْلِمه بمـا صنعت وأخذت ، وأتغدّى معـه وأروح معه عشاء الى أمير المؤمنين» .

فأنت ترى من حديث إسحاق عن فَتْرة من فترات نشأته وتثقيفه، أنه كان يختلف كلّ يوم الى رجال الحـديث، ثم رجال القرآن والنحو، ثم أهل الفنّ الضاربين على الالات والمُلحّنين، ثم يذهب بعد ذلك الى أهل الأدب والرِّواية، فيناشـدهم ويحادثهم، ويستفيد منهم؛ ثم يجتمع بأبيه بعد ذلك كلّه يخبره بما صنع وأخذ، حتى اذا جاء المَسَاء ذهب مع أبيه الى دار الخلافة، وهى — أيّدك الله — خيرُ مُنْتَدًى لرجال العلم والأدب والسياسة فى الدولة .

هذه التربية المنظّمة، والبيئات الراقيـة، أخرجت من طفل ابراهيم الموصـلىّ : ذلك الطفل الذكىّ النشيط، رجلا يصفه صاحبُ الأغانى بقوله : «موضعه من العـلم، ومكانه

(١) أى تحت رعايته وعنايته .

من الأدب ، ومحلّه من الرواية ، وتقدُّمه فى الشعر ، ومنزلتُه فى سائر المحاسن ، أشهرُ من أن يُدَلّ عليها بوصف ، وسترى فى مَطَاوِى ما نورده عليك من أحاديثـه ، ونوادره أنه ما عالج عِلْمًا من العلوم ، أو فنا من الفنون ، إلا بَرَع فيه وبرز» .

فأما الغناءُ ، فحدّثنا أبو الفَرَج صاحب الأغانى : أنه كان أصغرَ علومه ، وأدنى ما يُوسَم به ، وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يُحسنه ، فإنه كان له فى سائر أدواته ، نظراء وأكفاء ، ولم يكن له فى هذا نظير لحِق بمَن مَضَى فيه ، وسَبَق مَن قد بَقِى ، وسهّل طريق الغناء وأنارها ، فهو إمام أهل صناعته جميعا ، وقدوتُهم ورأسُهم ومعلِّمُهم ، يَعرف ذلك منه الخاصّ والعام ، ويَشهد له المُوافق والمُفارق ، على أنه كان أكرهَ النـاس للغناء ، وأشـدَّهم بُغْضا له ، لئلا يُدّعى عليه ويُسمّى به .

وهذه الجملة الأخيرة ، وهى أنه كان من أكْرِه النـاس للغناء ... الخ ، تدّلنا بوضوح على نفسية إسحاق ومَطامحه من جهة ، وعلى ما كان للمغنين وأهل الموسيقى عامة من قيمة ومنزلة من جهة أخرى ، كما تدلّنا على أن المغنين وأهلَ الموسيقى ، كانت منزلتُهم مهما نالوا من حظوة لدى الخلفاء وأرباب السلطان دون منزلة الرُّواة وأهـل الأدب ، من الفقهاء ورجال الحديث ، وتدلنا أيضا على أن إسحاق كان عالىَ النفس ، بعيدَ الهِمّة ، يَكْرَه أن يتصل بفنّ يقعُد به دون ما هو خليق به من منزلة ومكانة ، وماذا يصنع إسحاق وقد أُوتِىَ مَوْهبة لم يُؤْتَها أحدٌ غيرُه ، وهى موهبةٌ تأبى إلا أن تُعلن نفسها ، كما يُعلن الزهر نفسه بأَرَجه ، والقُمْرِىّ بهَديله ، وماذا يُجْدِى عليه كُرْهُه للغناء وبغضُه له ، وقد يطالبه به مَن لا يَرى سبيلا الى مخالفته ؟

ولقد كان إسحاق فى كراهيته للغناء صادقَ الشعور ، صادقَ الحسّ ، فإنه لم يَحُلْ بين المـأمون وبين أن يُوَلِّيَـه أسمى المنـاصب إلا شهرته بالغناء ، إذ يقول المـأمون : « لولا ما سبق لإسحاق على أَلْسِنة الناس وشهرته عنـدهم بالغناء ، لولّيتُه القضاءَ بحضرتى ، فإنه أولى به وأعفّ وأصـدق وأكثر دينا وأمانةً من هؤلاء القضـاة » . وقد يكون من حق إسحاق أن يَكْرَه الغناء ، ويَألَمَ لاتصاله به ، إذ يَرى المناصب الساميةَ فى الدولة ، يتبوّؤُها قوم

هم دونه فيما وصلوا اليها به ، وهم وصلوا اليها بالعلم ، وقد كان هو عالماً بالفقه والحديث وعلم الكلام ، وباللغة والشعر وأخبار الشعراء وأيام الناس ، وكان لا يدع فُرْصةً دون أن يُعلن سُخْطَه وما ناله من ظلم ، فقد حدّثنا ابن خلكان أن محمد بن عطيّة العَطَوِي الشاعر قال : كنت في مجلس القاضي يحيى بن أكثم ، فوافى اسحاقُ بن ابراهيم الموصليّ ، وأخذ يناظر أهل الكلام ، حتى انتصف منهم ثم تكلّم في الفقه فأحسن ، وقاس واحتجّ ، وتكلّم في الشعر واللغة ففاق مَن حضر ، ثم أقبل على القاضي يحيى فقال : أعزّ الله القاضي ، أفي شيء مما ناظرتُ فيه وحكيتُه نقصٌ أو مَطْعَنٌ ، قال : لا ، قال : فما بالى أقومُ بسائر هذه العلوم قيام أهلها ، وأنتسب الى فَنّ واحد ، قد اقتصر الناسُ عليه ، يعني الغناء ، قال العَطَوِيّ : فالتفت اليّ القاضي يحيى ، وقال لي : الجواب في هذا عليك ، وكان العَطَوِيّ من أهل الجَدَل ، فقال للقاضي يحيى : نعمْ — أعزّ الله القاضي — الجواب عليّ ، ثم أقبل على إسحاق فقال : يا أبا محمد ، أنت كالفرّاء والأخفش في النحو؟ فقال : لا ، فقال : أنت في اللغة ومعرفة الشعر كالأصْمَعِيّ وأبي عُبيدة؟ قال : لا ، قال : فأنت في علم الكلام كأبي الهُذَيْل العلّاف والنظّام البَلْخيّ؟ قال : لا ، قال : فأنت في الفقه كالقاضي؟ — وأشار الى القاضي يحيى — فقال : لا ، قال : فأنت في قول الشعر كأبي العَتَاهية وأبي نُوَاس؟ قال : لا ، قال : فمن هاهنا نُسبتَ الى ما نُسبتَ اليه ، لأنه لا نظيرَ لك فيه ، وأنت في غيره دون رؤساء أهله ، فضَحِك وقام وانصرف ، فقال القاضي يحيى للعَطَوِيّ : لقد وَفَّيتَ الحُجّةَ حقَّها ، وفيها ظلم قليل لإسحاق ، وإنه ممن يَقِلّ في الزمان نظيرُه . اهـ .

ومهما يكن من شيء فقد اشتهر إسحاق بالغناء دون غيره ، مما كان يُحسنه من سائر العلوم ، وقد كان إسحاق مع ذكائه وعلمه ، وعلو نفسه ، وبُعد همّته ، مَهيباً كريماً ، جمّ الأدب ، عفيفَ اللسان . أما عن كرمه فيَرْوِي لنا صاحبُ الأغانيّ ، أنه كان يُجْرِى على أبي عبد الله الأعرابيّ في كل سنة ثلاثمائة دينار ، وأن ابن الأعرابيّ هذا وقف على

المدائنيّ يوما، فقال له المدائنى : الى أين يا أبا عبد الله ؟ فقال : أَمْضِى الى رجل هو كما قال الشاعر :

تَرْمِى بأشـباحنا الى مَلِكٍ * نأخذُ من ماله ومن أدَبِه

قال : ومَن ذلك؟ قال : إسحاقُ بن إبراهيم ! .

وإنا نسوق اليك قصّةً أخرى وهى مع دلالتها على شَغَف إسحاق بالعلم، والحِرْص على استثباته، تدلّ أيضا على سخاء نفسه وكرمه .

قال اسحاق: جئت يوما الى أبى معاوية الضَّرير، ومعى مائةُ حديث، فوجدت حاجبه يومئذ رجلا ضَريرا، فقال لى : إن أبا معاوية قد وَلّانى حِجَابته لينفعنى، فقلت له : معى مائةُ حديث، وقد جعلتُ لك مائةَ درهم اذا قرأتها، فاستأذنْ لى، فدخلتُ على أبى معاوية فلما عَرّفنى دعاه؛ فقال له : أخطأتَ، إنما جعلتُ لك ذلك على الضعفاء من أصحاب الحديث، فأمّا أبو محمد وأمثـالُه فلا، ثم أقبل علىّ يُرغّبنى فى الإحسان اليه، ويذكر ضعفه، وعنايته به، فقلتُ له : احتَكِمْ فى أمره، فقال : مائة دينار، فأمرتُ الغلام بإحضارها، وقرأتُ عليه ما أردتُ وانصرفت . وهذه القصة تدلّ على أريحيته الى جانب دلالتها على علمه .

قال أحمد بن الهَيْثم : كنتُ يوما جالسا «بسُرّ مَنْ رَأَى» عند إخوان لى، وكان طريق إسحاق فى مضيه الى دار الخليفة، ورجوعه علينا، فجاءنى الغلام يوما، وعندى أصدقائى، فقال : إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ بالباب، فقلتُ : يدخلُ، أوَفى الأرض مَن يُستأذن عليه لإسحاق، فذهب الغلامُ يأذن له، وبادرتُ الى تلقيه، فدخل وجلس مُنبسطًا آنسا، فعَرَضْنا عليه ماعندنا، فأجاب الى الشراب، فأحضرنا نبيذا مُشمسا، فشرب منه، ثم قال : أتحبون أن أغَنِّيَكم؟ فقلنا : إى والله ! أطال الله بقاءك، إنا نُحبّ ذلك، قال : فلِمَ لا تسألونى ؟ قلنا : هِبْناك، قال : فلا تفعلوا، ثم دعا بعُود، فأحضرناه فاندفع يُغنّى، فشربْنا وطَرِبْنا، فلما فَرَغ قال : أحسنتُ أم لا ؟ فقلنا : بَلى والله! جعلنا فداك، لقد أحسنتَ، قال : فما

منعكم أن تقولوا لى أحسنتَ؟ قلنا : الهَيْبة والإجلال لك، قال : فلا تفعلوا هذا فيما تستأنفون، فإن المُغنّى يحبّ أن يقال له : أحسنت، ثمّ غنّى :

خليلىّ هُبّا نَصْطبِح بسَوَادِ * ونَرْوِ قلوباً هامُهنّ صَوَادِى

وقُولا لساقينا زيادٍ يُرِقّها * فقد هَدّ بعضَ القوم سَقْىُ زيادِ

فقلتُ : يا أبا محمد، فمن هو زياد؟ قال : غلامى الواقف على الباب، ادْعُه ياغلام، فدخل فإذا هو غلامٌ خِلاسىّ(١)، قيمتُه عشرون دينارا أو نحوها، فقال : أتسألونى عنه، فأعرِّفكم إياه، وأُدْخِله اليكم، ويخُرج كما دخل! وقد سمعتم شعرى فيه وغنائى! أشهدكم أنه حرٌّ لوجه الله تعالى، وقد زوّجتُه أختى فلانة، فأعينوه على أمره، قال: فلم يخرج حتى أوصلْنَا اليه عشرين ألف درهم. ولعل فى هذه القصة المتقدّمة أيضا، مَقْنَعًا لك بما كان لإسحاق فى نفوس الناس من هَيْبة وكرامة.

منزلة إسحاق فى الغناء :

قدّمنا لك أننا نعترف بالعجز عن أن نجلُوَ الناحية الفنيّةَ من حياة إسحاق، وأن ذلك لا يتسق إلا لرجل أُوتِىَ من المواهب الفنية حظا عظيما، وقدّمنا لك أن إسحاق كان يُحسن كثيرا من العلوم إحسانا، قلّ أن يتّسق لغيره، وأنه كان مع إجادته الغناءَ وتبريزه فيه، وسَبْقه أقرانَه، يَكْرَه أن ينتسب اليه أو يُسمّى به، لأنه كان عالىَ النفس، بعيدَ مرامى الهمة، ويَرَى أن انتسابه الى الغناء يقصر به عن بلوغ مرامى همته. والآن نقول : إنه كان مع هذا شديدَ الغَيْرة على الغناء، كثيرَ الذبّ عنه، وله العذر، فإن صاحب الفنّ أيا كان الفنّ، لا يجد الى الصبر سبيلا، اذا عَيبَ بفنه العائبون أو تَهَجّم عليه المتهجّمون.

واذا كنّا نعترف بالعجز عن أن نجلُوَ الناحية الفنية لإسحاق، فإن ذلك لا يمنعنا من أن ننقل اليك شيئا مما رواه المؤرّخون، لتعلم ما كان يُحيط به من إكبار وإعجاب من الخلفاء، ورجالات الدولة، وأصحاب الفنّ، لنبوغه فى فنه، وتبريزه فيه، ولتعلم — أيضا مما كان

(١) الخلاسىّ : الولد بين أبوين أسود وأبيض.

يُبديه من مُلاحظات — مبلغَ ما كان له من دِقّة حِسّ ، وقوة ذَوْق ، وحِدّة شعور ، وسلامة فِطْرة .

ويعدو بنا الكلام عن القَصْد ، لو أطلقنا لأنفسنا العِنَان ، فى إيراد كل ما نراه حسنا وظريفا من أحاديث إسحاق ومجالسه ، وما كان يتفق له من مفاكهات ونوادر ؛ لذلك نكتفى بإيراد بعض حوادثه ، مما يتصل بالخلفاء الذين عاشرهم ، وما كانوا يحيطونه به من عطف ورعاية .

وقدّمنا لك أن إسحاق ظهر فى عهد الرشيد ، وتُوُفِّيَ فى صدر أيام المتوكّل . فلنذكر لك شيئا من تاريخه ، ونوادره مع كلّ خليفة من خلفاء هذه الفترة من العصر العباسىّ .

أما الرشيد فقد كان يُلَقِّبه من إعجابه به ، بأبى صَفْوان ، ولقبه «إسحاق أبو محمد» كما رأيت ، وقد بلغ من إعجابه به أن استأثر بِهِ لنفسه ، ونهاه عن أن يُغنى أحدًا غيرَه ، ويحدّثنا إسحاق عن هذا بقوله : نهانى الرشيد أن أُغنى أحدا غيره ، ثم استوهبنى جعفر بن يحيى ، وسأله أن يأذن له فى أن أُغنيه ففعل ، واتفقنا يوما عند جعفر وعنده أخوه الفضل ، والرشيد يومئذ عقيب عِلّة قد عُوفِي منها ، وليس يشرَب ، فقال لى الفضل : انصرف الليلةَ ، حتى أَهَب لك مائةَ ألف درهم ، فقلت له : إن الرشيد نهانى أن أُغَنِّى إلا له ولأخيك ، وليس يخفى عنه خبرى ، وأنا مُتَّهَم بالميل اليكم ، ولستُ أتعرّض له ولا أعرّضك ، فلما نكبهم الرشيد ، وقال : إيهٍ يا إسحاق تركتنى بالرِّقَّة ، وجلستَ ببغدادَ تُغَنِّى الفضلَ بن يحيى ؛ فحلفت بحياته إنى ما جالستُه قطُّ إلا على الحديث والمذاكرة ، وإنه ما سمعنى قطُّ إلا عند أخيه وحلّفته بتربة المهدى أن يسأل عن هذا فى دارهم من نسائهم ، فسأل عنه فحُدِّث بمثل ما ذكرتُه وعرف خبر المائة ألف الدرهم التى بذلها لى ورددتُها ، فلما دخلت عليه ضحك ، ثم قال : سألت عن أمرك فعرفته مثل ما عرّفتنى ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم ، عوضا عما بذله لك الفضل .

ويقول الأصمعىّ : دخلت أنا واسحاق بن ابراهيم الموصلىّ يوما على الرشيد، فرأيناه لَقِسَ(١) النفس فأنشده إسحاق :

وآمرةٍ بالبخل قلت لها آقصرى * فذلك شىءٌ ما اليه سبيلُ
أرى الناسَ خُلّانَ الكرام ولا أرى * بخيلا له حتى المماتِ خليلُ
وإنّى رأيتُ البخلَ يُزْرِى بأهله * فأكرمتُ نفسى أن يُقالَ بخيلُ
ومن خير حالات الفَتَى لو علمته * اذا نال خيرا أن يكون يُنيلُ
فَعَالِى فَعَالُ المُكْثِرِين تجمُّلاً * ومالى كما قَدْ تَعلَمِينَ قليلُ
وكيف أَخاف الفقرَ أو أُحْرَم الغنى * ورأْىُ أميرِ المؤمنين جميلُ

قال فقال الرشيد : لا تخفْ إن شاء الله، ثم قال : لله درُّ أبياتٍ تأتينا بها، ما أشدَّ أصولَها، وأحسنَ فصولَها، وأقلّ فضولَها، وأمر له بخمسين ألف درهم، فقال له إسحاق : وَصْفُكَ والله يا أمير المؤمنين أحسنُ منه، فعَلَامَ آخذ الجائزةَ؟ فضحك الرشيد، وقال : آجعلوها مائة ألف درهم؛ قال الأصمعىّ : فعلمت يومئذ أن إسحاق أحذقُ بصيد الدراهم منِّى ! .

وكان من أشدّ منافسى إسحاق فى الغناء إبراهيمُ بن المهدى أخو الرشيد الذى كان يعتزّ عليه بجاهه، وبماله من حظّ فى الفن كبير؛ ومن أشدّ الملاحاة التى حدثت بينهما، ما كانت فى مجلس الرشيد . قال إسحاق : كنت عند الرشيد يوما، وعنده ندماؤه وخاصته، وفيهم ابراهيم بن المهدى، فقال الرشيد غنّ :

أعاذل قد نُهيتُ فما انتهيتُ * وقد طال العتاب فما آرعويتُ
أعاذل ما كَبِرتُ وفىّ مَلْهًى * ولو أدركت غايتَك آنثنيتُ
شَرِبتُ مُدامَةً وسُقِيتُ أُخرى * وراحَ المُنْتَشُون وما آنْتَشَيْتُ

(١) لقست نفسه عن الشىء : خبثت وغثت .

فغنيته ، فأقبل علىّ ابراهيم بن المهدىّ فقال لى : ما أصبتَ يا إسحاق ولا أحسنت ، فقلت له : ليس هذا مما تعرفه ولا تُحسنه ، وإن شئت فغنّه ، فإن لم أَجِدْك أنك مخطئ فيه منذ ابتدائك الى انتهائك ، فدمى حلال ! ثم أقبلتُ على الرشيد فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، هذه صناعتى ، وصناعةُ أبى ، وهى التى قرّبتْنا منك ، وأوطأتْنا بساطَك ، فاذا نازعنا أحد بلا علم ، لم نجد بُدًّا من الإيضاح والذّبّ ، فقال : لا لومَ عليك ، وقام الرشيد ليبول فأقبل إبراهيم بن المهدى علىّ وقال لى : ويلك يا إسحاق ، أتجترئ علىّ وتقول ماقلت يآبن الزانية ! فداخلنى ما لم أَمْلِكْ نفسى معـه ، فقلت له : أنت تشتمنى ، ولا أقدر على إجابتك وأنت آبن الخليفة ، وأخو الخليفة ، ولو لا ذلك لقلت لك : يآبن الزانية ، كما قلت لى يابن الزانية ، أوَ ترانى لا أُحْسِن أن أقول لك يآبن الزانية ، ولكن قولى لك ذلك ينصرف الى خالك ، ولو لا ذلك لذكرت صناعته ومذهبه ، قال : وكان بَيْطارا ، ثم سكتّ ، وعلمتُ أن ابراهيم سيشكونى الى الرشيد ، وسوف يسأل مَن حضر عمّا جَرَى ، فيخبرونه فتلافيتُ ذلك بأن قلت : أنت تظنّ أن الخلافة لك ، فلا تزال تهدّدنى بذلك ، وتعادينى كما تُعادى سائر أولياء وغلمانِ أخيك حسدًا له ولولده على الأمر ، وأنت تضعفُ عنه وعنهم وتستخفّ بأوليائهم تَشَفِّيًا ، وأرجو ألّا يُخرجها الله تعالى عن الرشيد ولا عن ولده ، وأن يقتُلك دونها ، فان صارت اليك — والعياذ بالله تعالى — فحرامٌ علىّ العيش حينئذ ! والموت أطيب من الحياة معك ، فاصنع حينئذ مابدالك ! فلما خرج الرشـيدُ وثب ابراهيمُ فجلس بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين ، شتمنى وذكر أمى واستخفّ بى ! فغضب الرشيد ، وقال لى : ويلك ما تقول؟ قلتُ : لا أعلم ، فَسَلْ مَن حضر ، فأقبـل على مَسْرورٍ وحُسين ، فسألهما عن القصّة ، فجعلا يُخبرانه ووجهه يتربّد الى أن انتهيا الى ذكر الخلافة ، فَسُرِّى عنه ورجع لونه ، وقال : لاذنبَ له ، شتمته فعرّفك أنه لايقدر على جوابك ، ارجع الى موضعك ، وأمسك عن هذا ! فلما انقضى المجلسُ وانصرف الناس ، أمر بألّا أبرح ، وخرج كلّ مَن حضر حتى لم يبقَ غيرى ، فساء ظنّى وأوهمتنى نفسى ، فأقبل علىّ

وقال: يا إسحاق أترانى لم أفهم قولك ومرادك! وقد زيّنتَه ثلاثَ مرات، أترانى لا أعرف وقائعك وإقدامك وأين ذهبت! ويلك لا تَعُدْ! حدِّثنى عنك: لوضربكَ ابراهيمُ أكنتُ أضربه وهو أخى ياجاهل! أتراه لو أمر غلمانَه فقتلوك أكنتُ أقتلُه بك! فقلت: والله يا أمير المؤمنين، قتلتنى بهذا الكلام وإن بلغه ليقتلنّى، فما أشكّ فى أن بلغه الآن، فصاح بمسرور وقال: علىّ بابراهيم، فأُحْضِر فقال لى: قم فانصرف فقلت لجماعة من الخدم — وكلهم كان لى مُحِبّا، والىّ مائلا، ولى مطيعا — : أخبرونى بما يجرى، فأخبرونى من غد، أنه لمـا دخل عليه وبّخه وجهّله وقال له: أتستخفّ بخادمى وصنيعتى، وابن خادمى وصنيعتى، وصنيعة أبى فى مجلسى! وتُقْدِم علىّ وتستخفّ بمجلسى وحضرتى! هاه هاه! وتُقْدِم على هذا وأمثاله! وأنت مالك وما للغناء! وما يدريك ما هو؟ ومن أخَذَك به وطارحك إياه حتى تتوهم أنك تبلغ فيـه مبلغَ إسحاق الذى غُذِّى به وعُلِّمـه، وهو من صناعته؟ ثم تظن أنك تُخَطّئه فيما لا تدريه ويدعوك الى إقامة الحجة عليـه، فلا تَثْبُت لذلك، وتعتصم بشتمه، هذا مما يدلّ على السقوط وضعف العقل، وسـوء الأدب، من دخولك فيما لا يشبهك وغلبة لذتك على مروءتك وشرفك، ثم إظهارك إياه ولم تُحكمه، وإدعائك ما لا تعلمه حتى يسبكَ الى إفراط الجهل، ألا تعلم أن هـذا سوءُ أدبٍ، وقلّة معرفة، وعدم مبالاة لخطأ والردّ القبيح والتكذيب ثم قال: والله العظيم، وحق رسـوله، وإلّا فأنا برىء من المهدىّ إن أصابه أحدٌ بمكروه، أو سقط عليه حجرٌ من السماء أو وقع من دابّته، أو سقطت عليـه سقيفةٌ، أو مات فجأةً، لأقتلنّك به، والله والله وأنت أعلم. قم الآن فاخرُج ولا تعرض له. فخرج وقد كاد أن يموت، فلما كان بعد ذلك، دخلتُ عليـه وإبراهيم عنده، فجعل ينظر اليه مرّة، والىّ مرّة، ويضحك، ثم قال له: إنى لأعلم شهوتك لإسحاق وميلك اليه، والى الأخذ عنه، وإن هذا لا يجيئك من جهتـه كما تُريد إلّا بعد أن يَرْضَى، والرضا لا يكون بمكروه، ولكن أحْسِنْ اليـه وأكرمه، واَعْرِف حقه وصِـله، فاذا فعلت ذلك، وخالف ما تهواه، عاقبتُه بيـد

مستطيلة ولسان منطَلِق، ثم قال لى : قم الآن الى مولاك، وابن مولاك، فقبِّـل رأسه، فقمت اليه، وقام الىّ واصطلحنا .

ولعل ما قدّمناه لك يعطيك صورةً واضحة، عما كان لاسحاق من مكانة لدى الرشيد، وما كان للرشيد من حَدْب عليه وبِرٍّ به .

أما مكانة إسحاق عنـد الأمين وبطانتـه، فانها لا تقلّ، أيدك الله، عن مكانته عند الرشيد وبطانة الرشيد، ولا ترى خيرا فى الدلالة على هـذه المكانة، من كلام إسحاق نفسه قال إسحاق : استـدنانى الأمين يوما، وهو مُسْـتَلْقٍ على فراش، حتى صارت ركبتى على الفِراش، ثم قال : يا إسحاق، أشكو اليك أصحابى، فعلتُ بفلان كذا ففعـل كذا، وفعلتُ بفلان كذا ففعل كذا، حتى عدّد جماعة من خواصـه، فقلت له : أنت يا سيدى تتفضل علىّ وتُحسن رأيك فىّ! ظننتَ أنى ممن يُشاوَر فى مثـل هذا الحديث، تجاوزت بى حدّى ومقدارى، وهذا رأى يَجِلّ ولا يبلغه قدرى، فقال : ولِمَ ؟ أنت عندى عالم عاقل ناصح . قلت : هذه المنزلة عند سيدى ! علَّمتَنى ألّا أقول إلّا ما أعـرف، ولا أطلبَ إلا ما أُنال، فضحك وقال : بلغنى أنك عملت فى هـذه الأيام لحنًا فى شـعر الراعى، فلم أسمعه منك، فقلتُ : يا سـيدى ما سمعه أحد إلا جَوَارِىّ، ولا حضرتُ عندك منذُ صنعتُه . فقال : غَنّه فقلت : الهيبةُ والصَّحْو يَمنعانى من أن أؤديَه كما أريد، فلو آنس أميرُ المؤمنين عبـدَه بشىء يُطـربه ويُقوِّى طبعـه كان أجود . قال : صـدقت، ثم أمر بالغـداء فتغدّينا، وأمر بالستائر فُمدّت، وغنّى مَنْ وراءها وشربنا أقداحا، فقـال : يا إسحاق، ما جاء أوان الصوت؟ فقلت : بلى يا سيدى، وغنّيتُ فى شعر الراعى :

ألم تسألْ بعـارمة الدِّيَارَا * عن الحىّ المُفارق أين سارا
بلى ساءلتُهـا فأبتْ جوابًا * وكيف تسائل الدِّمَنَ القِفارَا

فاستحسـنه وطرب عليـه، وقال : يا إسحاق، لا تطلب بعـد البُغْية ووجود المُنْيـة، وما أشربُ بقية يومى إلا على هذا الصوت، ووصلنى وخلَع علىّ من ثيابه .

ومما حدث بين الأمين وإسحاق أن الأمين اصطبح ذات يوم ، وأَمَر بالتوجيه الى إسحاق ، فوُجِّه اليــه عِدّةُ رُسُل كلّهم لا يصادفه ، حتى جاء أحدهم به ، فجاء مُنْتشيًا ومحمد مُغْضَب ، فقال له : أين كنت ؟ و يلك ! قال : أصبحتُ يا أمير المؤمنين نشيطا ، فبكّرتُ الى بعض المتنزّهات ، فاستطبتُ المَوْضِـع فأقمت فيه ، وسقانى زياد فذكرتُ أبياتا للأخطل وهو يسقينى ، فدَارَك فيها لحنٌ حسن ، فصنعتُه وقد جئتُك به ؛ فتبسّم وقال : هاته ، فما تزال تأتى بما يُرضى عنك عند السُّخط ، فغنّاه :

إذا ما زيادٌ علَّنِى ثم علنِى * ثلاث زجاجات لهنّ هــديرُ

خرجتُ أجرّ الذيلَ حتّى كأنّنِى * عليك أميرَ المؤمنين أمــيرُ

فقال : بل على أبيك قبّح الله فعلَك ! فما زال إحسانُك فى غنائك يمحو إساءَتك فى فعلك ، وأَمَر له بألف دينار . وأصلُ قول الأخطل :

* اذا ما نــديمى علّــنى *

وزياد هذا غلام لإسحاق . وقد ذكرنا فيما سبق أنه أعتقه وزوّجه من أخته بدافع من أريحيّته وأثر الشَّراب فيه .

أما عبد الله المأمون ، فيحدّثنا إسحاق عن ناحية من شخصيته ، وهى موقفه من الغناء وسماعه ، وقد ألمعنا اليها حين عرضنا للكلام عن المنادمة فى عصره ، ثم نسوق اليك بعــد هذا الحديث ما كان لإسحاق من مكانة لدى المأمون أيضا .

قال إسحاق : أقام المأمونُ بعد قدومه بغداد عشرين شهرا لم يسمع حرفا من الأغانى ، ثم كان أوّل من تغنّى بحضرته أبو عيسى بن الرَّشيد ، ثم واظب على السماع مُستترًا ، متشبها فى أوّل أمره بالرشـيد ، فأقام على ذلك أربع حِجج ، ثم ظهر للندماء والمغنين . وكان حين أحبّ السماعَ سأل عنى ، فجرحتُ بحضرته ، وقال الطاعن علىّ : ما يقول أميرُ المؤمنين فى رجل يتيه على الخلافة ، وما أبقى من التِّيه شيئا حتى استعمله ! فأمسك المأمونُ عن ذِكْرِى ، وجفانى مَن كان يَصِلنى لسوء رأيه فىّ ، فأضَرّ ذلك بى ، حتى جاءنى عَلُّويَه يوما فقال لى :

أتأذنُ لى فى ذكرك عند المأمون؟ فإنّا قد دُعينا اليوم، فقلتُ : لا ولكن غنِّه بهذا الشعر، فإنه سيبعثه على أن يسألك لمَن هـذا الشعر، فاذا سألك فتح لك ما تُريد ، وكان الجواب أسهلَ عليك من الابتداء، فقال : هاتِ، فألقيتُ عليه لحنى فى شعرى :

يَاسَرْحَةَ المـاء قد سُدَّت موارِدُه * أما اليـك طريقٌ غيرُ مســدود

لحـائم حام حتّى لا حَرَاكَ به * مُحَلَّأٍ عن طريق المـاء مطرودِ

ومضى عَلُّويَه ، فلما استقرّ به المجلس غنّاه ، فمـا عدا المأمونُ أن يسمَع الغناء حتى قال : ويحك ياعَلّويَه ! لمن هذا الشعر؟ قلتُ : ياسيدى لعبد من عبيدك جفوتَه وأطَّرحتَه بغير جُرْم ، فقال : إسحاقَ تَعْنِي ؟ فقلت : نعم ، فقال : يحضر الساعةَ ، فجاءنى رسوله ، فحضرت فلمـا دخلت ، قال : أدنُ فدنوتُ ، ورفع يديه مادَّهما إلىّ ، فأكببتُ عليه فاحتضننى بيديه ، وأظهر من بِرّى ما لو أظهره صديقٌ مؤانسٌ لصديقه لسرّه (١) .

ثم ما زالت تعظُم مكانته عنـد المأمون ، حتى سأله يوما أن يكون دخوله مع أهـل العـلم والأدب والرُّواة لا مع المغنين ، فاذا أراد الغنـاء غنّاه ، فأجابه الى ذلك . ثم سأله بعـد مدّة طويلة أن يأذن له بالدخول مع الفقهاء فأذن له ، فدخل يوما مع يحيى بن أكثم متماسِكَيْن ، وعَلُّويَه ومخـارق فى حُجرة لهما جالسين يتنظران جلوسَ المأمون ، فرأياهما وقد دخلا حتى جلسا بين يدى المأمون ، فكاد علُّويه أن يُجَنّ ، وقال : ياقوم سمعتُم بأعجبَ من هذا ! يدخُل قاضى القضاة ويدُه فى يد مُغنٍّ حتى يجلسـا بين يدَى الخليفة ! ثم مضت مدّة فسأل إسحاقُ المأمونَ فى لُبْس السواد يوم الجمعة والصلاة معه فى المقصورة ، فضحك المأمون وقال : ولا كلّ هذا يا إسحاق ! وقد اشتريتُ منك هذه المسألة بمائة ألف درهم ، وأمر له بهـا . وهذا الخبرُ يؤيِّد ما ذكرناه فى أوّل كلامنا على إسحاق من أنه كان يطمح الى أن يكون فى مرتبة غير مرتبة المغنين .

---

(١) أنظر كتاب بغـداد (ج ٦ ص ٣٢٨) وقد سبق أن ذكرنا هـذه القصة فى فصل المنادمة بصيغة أخرى نقلا عن كتاب التاج .

وانظر الى دقّة إحساس إسحاق وقوة ذَوْقه فى تبينه الخطأ فى وَتَرٍ واحد بين ثمانين وَتَراً، وكان ذلك فى مجلس المأمون، قال اسحاق : دعانى المأمون يوما، وعنده ابراهيم بن المهدى، وفى مجلسه عشرون جارية، قد أجلس عَشْرا عن اليمين وعَشْرا عن يساره، فلما دخلت، سمعتُ من الناحية اليُسْرَى خطأً فأنكرتُه؛ فقال المأمون : أسمعتَ خطأً؟ فقلتُ : نعم يا أمير المؤمنين، فقال لإبراهيم بن المهدى : هل تسمعُ خطأً؟ قال لا؛ فأعاد علىّ السؤالَ فقلت : بلى يا أمير المؤمنين، فإنه لفى الجانب الأيسر؛ فأعاد إبراهيم سمعه الى الناحية اليُسْرَى، ثم قال : لا، والله يا أمير المؤمنين مافى هذه الناحية خطأ! فقلتُ : ياأمير المؤمنين مُر الجوارىَ اللائى على اليمين يُمْسِكْنَ، فأمرهنّ فأمسكنَ، ثم قلتُ لإبراهيم : هل تسمع خطأ؟ فتسمّع ثم قال : ما ها هنا خطأ؛ فقلتُ : ياأمير المؤمنين، يُمسكْن وتضرِب الثامنةُ، فأمسكن وضربت الثامنةُ، فعرف إبراهيم الخطأ، فقال : نعم ياأمير المؤمنين هاهنا خطأ؛ فقال المأمون عند ذلك لابراهيم ابن المهدى : لا تُمارِ إسحاقَ بعدها، فان رجلا عرف الخطأ بين ثمانين وَتَرًا وعشرين حلقا لجديرٌ ألّا تُمارِيَه! قال : صدقتَ يا أمير المؤمنين؛ وكان فى الأوتار كلِّها مَثْنًى فاسدُ التسوية، فطَرب المأمون وقال : لله درُّك يا أبا محمد! فكأنى يومئذ .

وخبر آخر يدل على حِذْق إسحاق بفنه فى مجلس آخر للمأمون، قال اسحاق : دخلت على المأمون يوما، وعَقِيد يُغَنِّيه مُرتجلا وغيرُه يضرب عليه، فقال : يا إسحاق كيف تسمع مُغَنِّينا هذا؟ فقلت : هل سأل أميرُ المؤمنين غيرى عن هذا؟ فقال : نعم، سألت عمى ابراهيم فقرّظه، واستحسنه؛ فقلت : يا أمير المؤمنين — أدام الله سرورك، وأطاب عيشك — إن الناس قد أكثروا فى أمرى، حتى نسبتْنى فِرْقة الى التزيُّد فى علمى؛ قال : فلا يمنعك ذلك من قول الحق اذا لزِمك؛ فقلت لعَقيد : أُردد الصوت الذى غنّيتَه، فردّه وتحفّظ فيه وضرب عليه ضاربُه، فقلتُ لابراهيم بن المهدىّ : كيف رأيْتَه؟ فقال : ما رأيتُ شيئا أُنْكِرُه مما سمعته، فأقبلتُ على عَقيد، وقلتُ له لما استوفاه : فى أىّ طريقة غَنّيتَ؟ فقال : فى الرَّمَل؛ فقلت للضارب : فى أى طريقة ضربت؟ فقال : فى الهَزَج الثّقيل؛ فقلت : ياأمير المؤمنين، ما عسى أن أقول

فى صوت يُغنّيه مُغنّيه رَمَلًا ، ويضرب به ضارب هَزَجًا ثقيلا ، وليس هو صحيحا فى إيقاعه الذى ضُرب عليه؟ قال وتفهّمه إبراهيم بن المهدىّ، فقال: صَدَق يا أمير المؤمنين، والأمر فيه بيّن! فعَجب المأمون من ذلك كيف خَفِىَ على كل مَن حضر .

أمّا مَنزلتُه عند الواثق ، فيقول ابن حَمْدون : سمعت الواثق يقول: ما غَنّانى إسحاق قطّ إلا ظننتُ أنه قد زِيدَ فى ملكى ، ولا سمعته قطُّ يُغنّى غِناء ابن سُرَيْج إلا ظننتُ ابن سُرَيْجٌ قد نُشِر، وإنّى ليَحْضُرنى غيره إذا لم يكن حاضرا فيتقدّمه عنــدى بطيب الصوت، حتى إذا اجتمع عنـدى رأيت إسحـاق يَعلو ورأيت من ظننتُ أنه يتقدمه ينقُص ؛ وإن إسحاق لنعمة من نعم الملوك التى لم يَحظَ أحد بمثلها ، ولو أن العُمر والشباب والنشاط ممـا يُشْتَرى لاشتريتهنّ له بشَطْر ملكى .

أما المتوكّل الذى تُوُفِّى إسحاق فى أوّل عصره، فيحدّثنا ابن حَمْدون أنه سأل عن إسحاق، فعرف أنّه كُفّ وأنه بمنزله ببغـداد ، فكتب فى إحضاره ، فلما دخل عليه رَفَعَـه حتّى أجلسه قُدّام السّرير، وأعطاه مِخَدّة، وقال: بلغنى أن المعتصم دفع إليك فى أوّل يوم جلستَ بين يديه مِخَدّة، وقال: إنه لايَستجلب ما عند حُرٍّ مثلُ إكرامه. ثم سأله: هل أكَلَ؟ فقال: نعم، فأمر أن يُسْقَى ، فلما شَرب أقداحا قال : هاتوا لأبى محمد عُودا ، فجىء به فاندفع يُغنى بشـــعره :

ما عِلّة الشّيخ عيناه بأربعةٍ * تَغرَوْرِقانِ بدمع ثم تَنْسَكِبُ

قال ابن حَمْدون : فمـا بقِى غلام من الغِلْمانِ الوُقُوف إلا وجدتُه يرقُص طَرَبًا، وهو لا يَعلم بمـا يفعل؛ فأمر له بمائة ألف درهم . ثم انحدر المتوكل الى الرّقة ، وكان يستطيبها لكثرة تغريد الطّير فيها ، فغنّاه إسحاق :

أأن هتفت وَرْقاءُ فى رَوْنَق الضُّحى * على فَنَن غضّ النّبات مِن الرَّنْد

بكيتَ كما يَبْـكى الوليـــدُ فلم تكن * جليدا وأبديتَ الذى لم تكن تُبْدى

فضحك المتوكّل، ثم قال: يا إسحاق، هذه أختُ فِعْلَتك بالواثق لمّـا غنّيتَهُ بالصّالحية:

طَـرِبْتُ الى أُصَيْبِيَةٍ صِـغَارِ * وذكّرنى الهوى قُرْبُ المَزَارِ

فكم أعطاك لما أَذِن لك فى الانصراف؟ قال : مائة ألف دينار، فأمر له بمائة ألف دينار وأَذِن له بالانصراف .

و إنّا لو ذهبنا نذكر لك من أخبار إسحاق ، وما كان له من نوادر فى مجالس الخلفاء وغير مجالس الخلفاء من رجالات الدَّوْلة لعَدَوْنا حدّ القصد ، و إنّما نُحيل مَن يريد التزيّد من أمر إسحاق على كتاب الأغانى. ونَخْتِم هذا الفصل من أخبار اسحاق بما قاله محمد بن عِمْران الجُرْجَانىّ ، حين ذُكِر عنده . قال : كان والله إسحاق غُرّةً فى زمانه ، وواحدا فى عصره ، عِلْمًا وفهما ، وأدبا ووَقَارا ، وجَوْدَة رأى ، وصحّة مودّة ، وكان والله يُخرِس الناطق اذا نطق ، ويُحيِّر السامع اذا تحدّث ، لا يَمَل جليسُه فى مجلسه ، ولا تَمُجّ الآذان حديثه ، ولا تَنْبو النفس عن مطاولته ، إن حدّثك ألهاك ، وإن ناظرك أفادك ، وإن غنّاك أطرَبك ، وما كانت خَصْلة من الأدب ولا جِنْس من العلم ، يتكلّم فيه إسحاق فيُقْدِم أحد على مُساجلته أو مناوأته فيه !

قال إسحاق بن إبراهيم : رأيتُ فى منامى جَرِيرا جالسا يُنشد وأنا أسمع ، فلما فَرَغ أخذ كُبّةً من شَعرى فألقاها فى فىّ فابتلعتُها ، فأوّل ذلك بعضُ من ذكرتُه له أنه وَرّثنى الشِّعْرَ. قال زيد بن محمد المهلبىّ : وكذلك كان ، لقد مات إسحاق وهو أشعر أهل زمانه .

وقال أبو الفرج الأصفهانىّ : وكان إسحاق جيّد الشّعر ، كان يقول ويَنْسبه للعرب ، فمن ذلك قوله :

لَفَظَ الخدُورُ عليك حُورًا عِيناَ * أَنْسَيْنَ ما جمع الكِنَاسُ قَطِيناَ
فاذا بَسَمْنَ فَعنْ كمثل غَمَامةٍ * أو أُقْحُوان الرّمل بات معينا
وأَصحّ ما رأتِ العيون محاجرا * ولهنّ أمرضُ ما رأيتَ عيونا
فكأنّما تلك الوجوهُ أَهِلّةٌ * أَقْمَرنَ بين العَشْرِ والعِشْرِيناَ
وكأنّهنّ اذا نَهضْنَ لحاجةٍ * ينهضن بالعَقَداتِ من يَبْرِينا

وأشعاره فى هذا النّوع كثيرة . ولعلّ الذى كان يدفع أولئك الشّـعراء الى أن ينسبوا خير ما تجود به قرائحهـم الى العرب الجاهليّين أو أعراب الصحراء، رُوحُ ذلك العصر، وأنها كانت رُوحا تميـل الى القديم ، ولا سيّما اذا زُيّن هذا القـديم بإطار من خيال الرّواة والقصّاصين ويظهر أن ما كانوا يَظْفَرون به رواةً للشّعر العربىّ أكثر مما كانوا يَظْفَرُون به شعراءَ مُجيدين ، وإلا فهل يُتصوّر أن يَنْسب المرء نتـاجَ قريحته الى غيره ، ما لم يكن ثَمَنُ ذلك عظيما ؟ .

ومن شعر إسحاق ما اعتذر به الى الواثق حين عَتَبَ عليه فى تأخّره عنه، وهو قوله :

أشْكُو الى الله بُعدى عن خَليفتِهِ * وما أُعالجُ من سُـــقْم ومن كِبَرِ
لا أستطيع رَحيلا إن هَمَمْت به * اليه يومًا ولا أَقْوَى على السَّـــفرِ
أنْوِى اليـــه رَحيـلا ثم يَمْنَعُنِى * ما أحْدَثَ الدّهرُ والأيامُ فى بَصرى

ومن شعره أيضا عند علوّ سنه :

سَلامٌ على سَيْرِ القِلاَصِ مع الرَّكْبِ * ووصْلِ الغـوَانِى والمُدَامَةِ والشَّربِ
سَـلاَمَ آمرئ لم يَبْقَ منـــه بقيَّة * سِوى نَظَرِ العيْنَيْنِ أو شهوةِ القَلْبِ

ومن جيّد شـعر اسحاق ما كان يستحسنه ابن الأعرابىّ ويعجب به أيّمـا إعجاب ، وهو قوله :

هَـلْ الى أن تَنَام عينى سبيلُ * إنّ عهدى بالنّوم عهدٌ طويل
غاب عنّى مَن لا أُسَمّى فعينِى * كلّ يوم وَجْدًا عليـــه تَسيلُ
إنّ ما قلّ منـــك يكثر عندى * وكثيرٌ ممّن تُحبُّ القليـــلُ

وكان إسحاق اذا غنّى هـذه الأبياتَ تَفِيضُ عيناهُ . ولـمّا سُـئِلَ عن بُكائِه أجاب : تَعَشّقتُ جارية فقلت لهـا هذه الأبيات، ثُمّ مَلَكْتُها، فكنت مَشْغُوفا بهـا، حتّى كَبِرْتُ واعتلّت عينى، فإذا غنّيت هـذا الشـعر ذكرت أيّامى المتقـدّمة، وأنا أبكى على دهرى الذى كنتُ فيه .

وقال إسحاق : أنشدت الأصمعيّ الأبيات الثلاثة ، فجعل يعجب بها ويردّدها ، فقلت له : إنها بنتُ ليلتها ، فقال : لا جَرَمَ أن أثَرَ التوليد فيها ظاهر ، فقال إسحاق : ولا جرمَ أن أثَرَ الحسد فيك ظاهر ! ولعل هذا هو سبب الجَفْوة التى كانت بين إسحاق والأصمعيّ . فإن ابن منظور يَرْوى لنا فى مختصره : أن إسحاق كان يأخذ عن الأصمعيّ ويذكر عنه الروايات ، ثم فسد ما بينهما ، فهجاه إسحاق وثَلَبَهُ ، وذكر عند الرشيد أنه قليل الشّكر ، بخيل ، ساقط النفس ، لا تزكو الصّنيعة عنده ، وذكر له أبا عُبَيْدَةَ مَعْمَر بن المُثَنّى بالثّقة والصّدق والسّماحة ، واشتماله على جميع علوم العرب ، وفعل مثلَ ذلك عند الفضل بن الرّبيع ، ولم يزل بهما حتى وضع منزلة الأصمعيّ عندهما ، ثم أنْفَذا الى أبى عُبَيْدة مالا جليلا واستَقْدَمَاه ، فكان إسحاق سبب ذلك .

وكان إسحاق قليل الهَجْو ، فإذا هجا رأيت فى هَجْوِه عفّةَ اللسان ، وجَمال التّعريض . ونريد أن نذكر لك من هذا الباب قولَه فى أحمد بن هشام ، وكان اسحاق يألف أحمد هذا وأخاه عليًا وسائر أهله إلْفًا شديدًا ، فوقعت بينهم نَبْوَةٌ ووحشة فهجاهم . وهذا ممـا قاله فى أحمد :

وصَافِيَة تُغْشِى العُيونَ رقيقَة * رهينة عام فى الدِّنَانِ وعامِ
أدرْنا بها الكأس الرويّة مَوْهِنًا * من الليل حتّى انْجَابَ كلُّ ظَلامِ
فما ذرّ قَرْنُ الشّمس حتّى كأنّنا * من العِيّ نحكى أحمد بن هِشامِ

ويقال ان أحمد سأله ما ذنبى ؟ فقال : لأنك قعدتَ على طريق القافية ... !

وكان إسحاق يَسْأَلُ الله ألّا يَبْتَلِيَه بالقُولَنْج ، لِمَا رأى من صُعُوبته على أبيه ، فرأى فى منامه كأنّ قائلا يقول : قد أُجيبَتْ دعوتُك ، ولست تَمُوتُ بالقُولَنْج ، ولكنّك تموت بضدّه ، ثم أصابه ذَرَبٌ فى شهر رمضان سنة ٢٣٥ هـ فكان يتصدّق فى كل يوم يمكنه صومه بمائة درهم ، ثم ضَعُفَ عن الصوم فلم يطِقه ومات فى الشهر .

ولمّا نُعِى الى المتوكّل غَمّهُ وحَزِنَ عليه ، وقال : ذهب صدْرٌ عظيم من جمال الملك وبهائه وزينتـه !

مؤلفـاته :

علمتَ مما أوردناه لك فى الكلام على إسحاق أنه كان يُحسن كل ما كان عالجه من العلوم إحسانا قلّ أن يستوى لغيره، ولكنه قَصَر تأليفَه على ما قَصَرتْه عليه وظيفتُه، وعمله، فألّف فى الأغانى، والإيقاع والنَّغَم، وآداب الشَّراب، والندماء، والمُنَادَمَات، وأخبار الشعراء، وأهـل الفنّ من المغنـّين والمُغنّيَات . فمن مؤلّفاته : كتاب الأغانى الكبير، وكتاب اللحظ والإشارات، وكتاب الرّقص والزّفْن، وكتاب النّغم والإيقاع، وكتاب النّدماء والمنادمات . وله مؤلفات عمّن سبقه من أهل الفن، رجالا ونساء، أمثال : مَعْبَد، وابن مِسْجَح، وعَزَّة المَيْلاء، وغيرهم . وله أيضا كتاب الهُذَلِيِّين، وكتاب تفضيل الشعر، وكتاب أخبار ذى الرُّمة، وكتاب جواهر الكلام . وله كتاب مُنادمة الإخوان، وتسامرُ الخلّان، وكتاب القِيَـان، وغير ذلك مما ينطق بعلو كعبه فى شتى الفنون، ويشهد بأنه دائرة معارف عامّة .

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨/٥٦٤/٢٠٠٠)

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعى

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثانى

[الطبعة الثالثة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م

فهرس

المجلد الثانى من عصر المأمون

ملحق الكتاب الأول — عصر بنى أمية

ملحق الكتاب الثانى — عصر بنى العباس



ملحق الكتاب الأول

باب المنثور

ذكرنا فى مقدمة المجلد الأول من "عصر المأمون" أننا قسمنا المجلد الثانى الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة ، وعُنينا عناية خاصّة الى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص لتمثيل عصرهما . واتخذنا من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبى ربيعة أنموذجا أمويّا ، ومن أبى الربيع محمد بن الليث وبشّار بن بُرْد مثالا عباسيا ، ومن عمرو بن مَسْعدة وأبى نُوَاس نموذجا لتصوير الحياة الكتابية والشعرية فى عصر الأمين والمأمون ، الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام ، وقد أوردناها من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان — اللهم إلّا تفسير بعض ألفاظها الغريبة وشرح كلماتها الغامضة — فهى فى وضوحها ودلالتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شىء . وها نحن أولاء نذكر ما وعدناك به .

١ — رسالتا أبى بكر وعلىّ

قال أبو حيّان على بن محمد التّوحيدىّ البَغْدادىّ (١) : سَمَرْنا ليلةً عند القاضى أبى حامد أحمد بن بِشْر المَرْورُّوذىّ ببغداد ، فتصرف فى الحديث كلَّ متصرَّف ، وكان غزير الرواية ،

(١) انظر كتاب صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١

لطيف الدِّراية، بجرى حديثُ السَّـقيفة، فركب كلٌّ مركبًا، وقال قولا، وعرّض بشىء، ونزّع الى فنّ . فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة لأبى بكر الصـدّيق[1]، رضى الله عنه، الى على بن أبى طالب كرّم الله وجهه، وجواب علىّ عنها، ومبايعته إياه عَقيب تلك المناظرة ؟ فقال الجماعة : لا والله ؛ فقال : هى والله من بنات الحقائق، ومخبّـآت الصنادق، ومنذ حفِظتُها ما رويتها إلا لأبى محمد المهلّبىّ فى وزارته ، فكتبها عنّى بيده . وقال : لا أعرف رسالة أعقل منها ولا أَبْين؛وإنها لتدلّ على علم وحلم، وفصاحة ونباهة، وبُعد غور، وشدّة غوص . فقال له العبّادانىّ : أيها القاضى، فلو أتممتَ المنّـة علينا بروايتها ! أَسْمِعْنـاها ، فنحن أوعى لك من المهلّبىّ، وأوجبُ ذِمَاما عليك؛ فاندفع وقال :

حدّثنا الخُزاعىّ بمكة عن أبى مَيْسرة ، قال حدّثنا محمد بن أبى فُلَيح عن عيسى بن دَوْأب بن المُتَاح ، قال سمعت مولاى أبا عُبَيدة يقول : لمـا آستقامت الخـلافة لأبى بكر رضى الله عنـه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنةٍ كاد الشيطان بها، فدفع الله شرّها ويسّر

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة صاحب رسول الله وأوّل خليفة له فى الإسلام وخطيب يوم السقيفة .

ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب . ولد بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين وبضعة أشهر . ونشأ من أكرم قريش خلقا ، وأرجحهم حلما ، وأسماهم يدا ، وأشدّهم عفة . وكان أعلمهم بالأنساب وأيام العرب ومفاخرها . صحب رسول الله قبل النبوّة . وكان أوّل من آمن به من الرجال وصدّقه فى كل ما جاء به ، ولذلك سمّى الصدّيق ، وأنفق أمواله فى تأييد دعوته ، وهاجر معه الى المدينة مؤثرا صحبته على كل أهله وولده ، وشهد معه أكثر الغزوات . وما زال ينفق ماله وقوّته فى معاضدة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . واختلفت العرب ، وارتدّت عن الإسلام ، ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف ، بجرّد عليهم الجيوش حتى قمعهم، وجمع العرب على الإسلام ، وساقهم توّا إلى فتح ممالك كسرى وقيصر . وما مات إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم وتستولى على مدائنهم وحصونهم . وكان رحمه الله فصيحا بليغا ، خطيبا مفوّها ، حاضر البديهة ، قوى الحجة ، شديد التأثير ، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة ، وذلك أنه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة فيمن يبايعونه خليفة له عليهم ؛ فأبت الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم ، وأبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون منهم . واشتدّ النزاع حتى كادت تقع الفتنة ، فخطبهم خطبة لم يلبث الجميع بعدها أن بايعوه خليفة . وكانت وفاته سنة ١٣ هـ ومدّة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال .

خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ تلكُّؤٌ وشِمَاس[1] ، وتهمُّم[2] ونِفاس[3] ، فكره أن يتمادى الحالُ فتبدوَ العورة ، وتشتعلَ الجمرة ، وتتفرقَ ذاتُ البَيْن ، فدعانى بحضرته فى خَلْوة ، وكان عنده عمر ابن الخطّاب رضى الله عنه وحدَه ، فقال : يا أبا عُبَيدة ، ما أَيْمن ناصيتَك ، وأَبْين الخيرَ بين عينيك ، وطالما أعزّ الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يديك ، ولقد كنتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المَحُوط ، والمحلّ المغبوط ؛ ولقد قال فيك فى يوم مشهود : "لكل أُمة أمينٌ وأمينُ هذه الأمّة أبو عُبَيدة" ، ولم تزل للدين مُلْتَجا ، وللمؤمنين مُرْتَجى ، ولأهلك ركنا ، ولإخوانك رِدْءا . قد أردتُك لأمرٍ خَطَره مَخُوف ، وإصلاحُه من أعظم المعروف ، ولئن لم يَنْدَمِلْ جرحُه بيَسارك ورِفْقك ، ولم تُجَبَّ[4] حيّتُه بُرقيتك ، وقع اليأس ، وأُعْضِل البأس ، وٱحتيج بعد ذلك الى ما هو أمرّ منه وأَعْلَق ، وأَعْسر منه وأَغْلَق ؛ والله أسأل تمامَه بك ، ونظامَه على يديك . فتَأَتَّ[5] له أبا عُبَيدة وتلطَّفْ فيه ، وٱنصحْ لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذه العِصَابة غيرَ آلٍ جَهْدا ، ولا قالٍ حَمْدا ، والله كالئُك وناصرُك ، وهاديك ومبصِّرُك ، ان شاء الله . امضِ الى عليّ واخْفِضْ له جناحَك ، وٱغضُضْ عنده صوتَك ، واعلم أنه سُلَالة أبى طالب ، ومكانُه ممّن فقدْناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم — مكانُه ، وقل له : البَحْر مَغْرَقة ، والبرّ مَفْرَقة ، والجوُّ أَكْلَف[6] ، والليل أَغْدَف[7] ، والسماء جَلْواء[8] ، والأرض صَلْعاء[9] ، والصعود متعذّر ، والهبوط متعسّر ، والحقّ عَطُوف رَءُوف ، والباطل عَنُوف عَسُوف ، والعُجْب قَدَّاحةُ الشرّ ، والضِّغْن رائدُ البَوَار ، والتعريض شِجَار الفتنة ، والقِحَة ثَقُوبُ العداوة ، وهذا الشيطانُ متَّكئٌ على شِماله ، متحيِّلٌ بيمينه ، نافِخٌ حِضْنَيْه[10] لأهله ، ينتظر الشّتات والفُرْقة ، ويَدِبّ بين الأمة بالشَّحْناء والعداوة ، عناداً لله عز وجل

(١) الشماس : المعاداة والمعاندة . (٢) تهمم الشىء : طلبه وتحسّسه . (٣) نافس فى الشىء منافسة : رغب فيه على وجه المباراة والمفاخرة . (٤) تجب : تقطع . (٥) تأتى فلان للأمر : تهيأ له وأتاه من وجهه .

(٦) الجو أكلف : أسود تعلوه حمرة . (٧) الليل أغدف : مرخ سدوله مظلم . (٨) السماء جلواء : مصحية . (٩) خالية لا شجر فيها . (١٠) أى مستعد لأن يعمل عمله من الشر .

أوّلا، ولآدمَ ثانيا، ولنبيه — صلى الله عليه وسلم — ودينه ثالثا، يُوَسْوِس بالفُجُور، ويُدْلِي بالغرور، ويمنّي أهلَ الشرور . يُوحِي الى أوليائه زُخْرُفَ القول غُروراً بالباطل، دأْباً له مُنْذُ كان على عهد أبينا آدمَ صلى الله عليه وسلم، وعادةً له منذُ أهانه الله تعالى فى سالف الدهر، لا مَنْجَى منه إلا بعضِّ الناجذ على الحق، وغَضِّ الطَّرْف عن الباطل، ووَطْء هَامَةِ عدوّ الله بالأشدّ فالأشدّ، والآكَد فالآكد، وإسلامِ النفس لله عزّ وجل فى ٱبتغاء رضاه . ولا بدّ الآن من قول ينفع إذا ضرّ السكوت وخِيفَ غِبُّه؛ ولقد أرشدك مَنْ أفاء ضالَّتَك(١)، وصافاك من أَحْيا مودّته بعِتابك، وأراد لك الخيرَ مَنْ آثر البقاءَ معك ؛ ما هذا الذى تُسَوِّل لك نفسُك، وتَدْوَى به قلبُك، ويلتوى عليه رأيُك، ويتخاوصُ(٢) دونه طَرْفُك، ويَسْرِى فيه ظَعْنُك، ويَتَرادُّ معه نَفَسُك، وتكثر عنده صُعَدَاؤُك، ولا يَفِيضُ به لسانُك . أَعُجْمَةٌ بعد إفصاح ! أتلبيسٌ بعد إيضاح ! أدينٌ غيرُ دين الله ! أخُلُق غيرُ خلق القرآن ! أهَدْيٌ غيرُ هَدْىِ النبى صلى الله عليه وسلم ! أمثلى "تَمْشِي له الضَّرَاءَ وتَدبُّ له الخَمَر(٣) !" أم مثلك يَنْقبِض عليه الفضاء، ويُكْسَف فى عينه القمر! ما هذه القَعْقَعة بالشِّنَان(٤) ! وما هذه الوَعْوعة باللسان ! إنك والله جِدُّ عارف بٱستجابتنا لله عزّ وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبّتنا، هجرةً الى الله عزّ وجل، ونصرةً لدينه فى زمان أنت فيه فى كِنِّ الصِّبَا، وخِدْرِ الغَرَارة، وعُنْفُوان الشَّبِيبة، غافلٌ عما يَشِيب ويَرِيب، لا تَعِي ما يُرَاد ويُشَاد، ولا تحصِّل ما يُسَاق ويُقَاد، سِوَى ما أنت جارٍ عليه الى غايتك التى اليها عُدِل بك، وعندها حُطّ رَحْلُك، غيرَ مجهول القدر ولا مجحود الفضل؛ ونحن فى أثناء ذلك نُعَانِى أحوالا تُزِيل الرَّوَاسِى، ونُقَاسِى أهوالا تُشِيب النَّوَاصِى، خائضين غِمَارَها، راكبين تَيَّارَها، نتجرّع صابَها، ونَشْرَج(٥) عِيابها، ونُحْكِم آساسَها، ونبرم

---

(١) أفاء : أرجع . (٢) يتخاوص : يغضّ من بصره . (٣) الضراء : الاستخفاء . والخمر : ما واراك من شجر، وهو مثل يضرب لمن يخدع صاحبه . (٤) الشنان جمع شن وهو القربة الخَلَق الصغيرة . والقعقعة : الصوت، يريد أنه لا يخوف بمثل هذا . (٥) نشرج عيابها : ننضدها ونضم بعضها الى بعض . والعياب : جمع عيبة، وهى زنبيل من أدم تجعل فيه الثياب .

أَمْرَاسَها(١)، والعيونُ تَحْدِجُ بالحسد ، والأنوفُ تَعْطِس بالكِبْر ، والصـدور تَسْتَعِر بالغَيْظ ، والأعناق تتطاول بالفخر، والشِّفَار تُشْحَذ بالمكر، والأرض تَميـد بالخوف ؛ لا ننتظر عند المساء صباحا ، ولا عنـد الصباح مساء ، ولا ندفع فى نَحْرِ أمر إلا بعـد أن نَحْسُوَ الموتَ دونه ، ولا نبلغ مُرَادًا إلا بعد الإياس من الحياة عنـده ؛ فَادِينَ فى جميع ذلك رسـولَ الله صلى الله عليه وسـلم بالأبِ والأمّ ، والخـال والعم ، والمـال والنَّشَب ، والسَّـبَد(٢) واللَّبَد ، والهَلَّة(٣) والبِلَّة ، بِطِيب أَنْفُس ، وقُرَّة أَعْيُن ، ورَحْبِ أَعْطَان ، وثَبَاتِ عزائم ، وصحة عقول ، وطَلَاقة أَوْجُه ، وذَلَاقة أَلْسُن ؛ هـذا مع خَفِيَّات أسرار ، ومَكْنونات أخبار ، كنتَ عنها غافلا ، ولولا سِنُّك لم تكن عن شىء منها ناكِلا ، كيف وفؤادُك مَشْهوم(٤) ، وعُودُك مَعْجُوم ! .
والآن قد بلغ اللهُ بك وأنهض الخيرَ لك ، وجعـل مرادَك بين يديك ، وعن علم أقول ما تسمع ؛ فارتقبْ زمانَك ، وقلِّص أَرْدانَك ، ودَعِ التقعُّس والتجسُّس لمن لا يَظْلَعُ لك اذا خطا ، ولا يتزحزح عنك اذا عَطَا(٥) ؛ فالأمر غَضّ ، والنفوسُ فيها مَضّ ، وإنك أَدِيمُ هذه الأمة فلا تَحْلَم(٦) لِجَاجًا ، وسيفُها العَضْب ، فلا تَنْبُ اعْوِجَاجا ، وماؤها العَذْب فلا تَحُلْ أُجَاجًا .
والله لقد سألتُ رسـول الله صلى الله عليه وسـلم عن هـذا الأمر ، فقال لى : « يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يُجَاحِشُ(٧) عليه ، ولمن يتضاءل عنه لا لمن يتنفَّجُ(٨) اليه ، هو لمن يقال هو لك لا لمَنْ يقول هو لى » .

ولقد شاورنى رسـول الله صلى الله عليه وسـلم فى الصِّهْر ، فذكر فتيانًا من قريش ، فقلت : أين أنت من علىّ ! فقـال صلى الله عليه وسـلم : إنى أكره لفاطمةَ مَيْعةَ شبابِه ، وحَدَاثة سنّه . فقلت له : متى كَنَفْتَه يدُك ، ورَعَتْه عينُك ، حَفَّت بهما البركة ، وأُسْبِغت عليهما النعمة ؛ مع كلامٍ كثيرٍ خاطبتُه به رغبةً فيك ، وما كنت عرفت منك فى ذلك لا حَوْجاء(٩)

(١) جمع مرس ككتف وهو الحبل . (٢) السبد : الشعر . واللبد : الصوف . (٣) يقال : جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة أى لم يأتنا بشىء ؛ فالهلة من الفرح والاستهلال ، والبلة من البلل والخير . (٤) مشهوم (بالشين المعجمة) : ذكىّ متوقد . (٥) عطا : مدّ اليك عنقه وأقبل نحوك . (٦) حلم الجلد (من باب فرح) : فسد وتثقب . (٧) أى يطالبه ويدافع عنه . (٨) يتطاول اليه ويفتخر به . (٩) أى ما كنت عرفت منك شيئا .

ولا لَوْجاء، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرك، وأجد رائحةَ سِواك، وكنتُ إذ ذاك خيرًا لك منك الآن لى . ولئن كان عرّض بك رســول الله صلى الله عليه وســلم فى هذا الأمر، فلم يكن مُعرِضا عن غيرك : وإن كان قال فيك فما سكت عن سِواك، وإن تلجْلج فى نفسك شىء فهلُمّ، فالحكم مرضىّ، والصواب مسموع، والحقّ مُطَاع . ولقد نُقِل رسولُ الله صلى الله عليه وســلم الى الله عز وجل، وهو عن هذه العِصابة راض، وعليها حَذِر، يسرّه ما سرّها ويسوءه ما ساءها، ويكيده ما كادها، ويُرْضيه ما أرضاها، ويُسْخِطه ما أسخطها. أَمَا تعلم أنه لم يَدَعْ أحدا من أصحــابه وأقاربه وسُجَرائه[1]، إلا أبانه بفضيلة، وخصّه بمزية، وأفرده بحــالة ! أتظن أنه صلى الله عليه وســلم ترك الأمة سُــدًى بَدَدا، عَبَاهِلَ مَبَاهِل[2]، طَلاَحَى مفتونةً بالباطل، مغبونةً عن الحــق، لا رائد ولا ذائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقىَ ولا واقى، ولا هادىَ ولا حادى ! كلا ! والله ما آشــتاق الى ربه تعالى ولا سأله المَصِــير الى رضوانه وقُربه، إلا بعد أن ضرّب المَدَى، وأوضح الهدى، وأبان الصُّوَى[3]، وأمّن المسالك والمطارح، وسهّل المبارك والمَهَايع[4]، وإلا بعد أن شَدَخ يافوخ[5] الشرك بإذن الله، وشَرَم وجهَ النفاق لوجه الله ســبحانه، وجَدَع أنفَ الفتنــة فى ذات الله، وتفَل فى عين الشيطان بعون الله، وصَدَع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل .

وبعــد، فهؤلاء[6] المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بقعة واحدة ودار جامعة، إن استقالونى لك وأشاروا عنــدى بك، فأنا واضــع يدى فى يدك، وصائر الى رأيهم فيك . وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيــه المسلمون، وكن العونَ على مَصَالِحهم، والفاتحَ لمَغَالقهم، والمرشدَ لضالّتهم، والرادعَ لغَوَايتهم . فقد أمر الله تعالى بالتعاوُن على البرّ والتقوى، والتناصُر على الحق . ودَعْنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغِلّ، ونلقَ الله تعالى بقلوب سليمة من الضِّغْن .

(١) سجرائه : أصدقائه . (٢) عباهل مباهل (بالباء الموحدة فى الكلمتين) : مهملة . (٣) الصوى : الأعلام . (٤) المهايع : الطرق . (٥) اليافوخ (يهمز ولا يهمز) جزء الرأس الذى يتحرك فى الطفل . (٦) فى صبح الأعشى : «فهذه» .

وبعد، فالناس ثُمامةٌ فارفُقْ بهم وٱحنُ عليهم ولِنْ لهم، ولا تُشْقِ نفسَك بنا خاصة فيهم، وٱترك ناجمَ الحقد حصيدا، وطائرَ الشرّ واقعا، وبابَ الفتنة مُغْلَقا، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تَبِيع، والله على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عُبَيدة: فلما تأهّبتُ للنهوض، قال عمر رضى الله عنه: كُنْ لدَى الباب هُنيهةً فلى معك دورٌ من القول؛ فوقفتُ وما أدرى ما كان بعدى، إلا أنه لحقنى بوجه يَنْدَى تهلّلا، وقال لى: قل لعلىّ: الرقادُ مَحْلَمة، والهوى مَقْحَمة، ومامنّا إلا له مقامٌ معلوم، وحق مشاعٌ أو مقسوم، ونبأ ظاهر أو مكتوم؛ وإن أكيَس الكَيْس من منَح الشاردَ تألّفا، وقارَبَ البعيدَ تلطُّفا، ووَزَن كلَّ شىء بميزانه، ولم يخلِطْ خبرَه بعيانه، ولم يجعل فِتْرَه مكان شِبْره، دينًا كان أو دُنيا، ضلالًا كان أو هُدى. ولا خير فى علم مستعمَلٍ فى جهل، ولا خير فى معرفة مَشُوبة بنُكْر. ولسنا كجِلدة رُفْغ(١) البعير بين العِجَان والذنب. وكُلُّ صَالٍ فبناره، وكل سيل فإلى قَرَاره. وما كان سكوت هذه العصابة الى هذه الغاية لِعِىّ وشِىّ(٢)، ولا كلامُها اليوم لفَرَقٍ أو رِفْق. وقد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنفَ كل ذى كِبر، وقصَم ظهرَ كل جبّار، وقطع لسانَ كل كَذُوب، فماذا بَعْدَ الحقّ إلا الضلال. ما هذه الخُنْزُوَانة(٣) التى فى فَرَاش رأسك! ما هذا الشَّجَا المعترض فى مَدَارج أنفاسك! ما هذه القَذَاة التى تَغَشّت ناظرَك! وما هذه الوَحَرَة(٤) التى أكلت شَرَاسيفَك! وما هذا الذى لَبِستَ بسببه جلدَ النَّمر، وٱشتملتَ عليه بالشَّحْناء والنُّكْر! ولَسْنا فى كِسْرويّة كِسْرى، ولا فى قيصريّة قيصر! تأملْ لإخوان فارس وأبناء الأصفر! قد جعلهم الله جَزَرًا لسيوفنا، ودريئةً لرماحنا، ومرمًى لطعاننا، وتبعًا لسلطاننا؛ بل نحن فى نور نبوّة، وضياء رسالة، وثمرة حكمة، وأَثَرَة رحمة، وعُنوان نعمة،

---

(١) الرفغ: أصل الفخذ من باطن. والعجان: الاست. يريد أن منزلتهم بين الأحياء والعشائر ليست حقيرة مهينة. (٢) الشىّ بالكسر إتباع للعىّ. (٣) الخنزوانة: الكبر. (٤) الوحرة (بالتحريك): والحقد العداوة والشراسيف: جمع شرسوف، والشرسوف مقط الضلع.

وظلِّ عِصْمة، بين أمّة مهديّة بالحق والصدق، مأمونةٍ على الرَّتْق والفَتْق، لها من الله قلبٌ أبِيّ، وساعدٌ قويّ، ويدٌ ناصرة، وعينٌ باصرة. أتظن ظنا ياعليّ أن أبا بكر وثَب على هذا الأمر مُفْتاتًا على الأمة خادعًا لها أو متسلّطا عليها! أتُرَاه حلّ عقودها وأحال عقولَها! أتُرَاه جعل نهارها ليلا، ووَزْنَها كيْلا، ويَقَظَتَها رُقادا، وصلاحَها فسادا! لا والله! سَلَا عنها فوَلِهَتْ له، وتَطَامَن لها فَلَصِقتْ به، ومال عنها فمالت إليه، وٱشمأزّ دونها فٱشتملتْ عليــه، حَبْوةٌ حَبَاه الله بها، وعاقبةٌ بلّغه الله إليها، ونعمةٌ سَرْبَله جمالَها، ويدٌ أوجب الله عليــه شكرَها، وأمّةٌ نظر الله به إليهـا. والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخِيَرَة. وإنك بحيث لا يُجْهَل موضعُك من بيت النبوّة، ومَعْدِن الرسالة، ولا يُجْحَد حقُّك فيما آتاك الله، ولكن لك مَنْ يزاحمك بمَنْكِبٍ أضخمَ من منكبك، وقُرْبٍ أمسّ من قرابتك، وسنّ أعلى من سـنّك، وشَيْبةٍ أروعَ من شيبتك، وسـيادةٍ لها أصلٌ فى الجاهلية وفرعٌ فى الإسـلام، ومواقفَ ليس لك فيها جملٌ ولا ناقة، ولا تُذْكَر منها فى مقدّمة ولا سَاقة، ولا تَضْرب فيها بذراع ولا إصـبع، ولا تخرُج منها ببازلٍ ولا هُبَع[1]. ولم يزل أبو بكر حبّة قلب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وعِلَاقة نفسـه، وعَيْبة سِرّه، ومَفْزَع رأيه ومشورته، وراحةَ كفّه، ومَرْمَق طَرْفه. وذلك كله بمَحْضَر الصـادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شهرتُه مغنيةٌ عن الدليل عليــه. ولعمرى إنك أقربُ الى رسول الله صلى الله عليه وسـلم قرابةً، ولكنه أقربُ منك قربةً، والقرابةُ لحم ودم، والقُرْبةُ نفس ورُوح. وهذا فرق عَرَفه المؤمنون، ولذلك صاروا إليــه أجمعون. ومهما شَكَكْتَ فى ذلك، فلا تشكّ أن يدَ الله مع الجماعة، ورضوانَه لأهل الطاعة. فادخُل فيما هو خيرٌ لك اليوم وأنفعُ لك غدا، وٱلفِظْ مِن فيك ما يَعْلَق بلَهَاتك، وٱنفُثْ سخيمةَ صدرك عن تُقَاتك، فإن يكُ فى الأمد طولٌ، وفى الأجل فُسْحة، فستأكله مريئا أو غيرَ مرىء، وستشربه هنيئا أو غير هنىء، حين لا رادّ لقولك إلا من كان آيسًا منك، ولا تابعَ لك إلا من كان طامعًا فيك، يَمُضُّ إهابَك[2]، ويَعْرُكُ[3] أديمَك،

(١) البازل: الجمل القوى الذى دخل فى سنته التاسعة. والهبع: الفصيل الذى ينتج فى الصيف فيكون ضعيفا.

(٢) يمض إهابك: يحرق جلدك. (٣) يعرك: يدلك.

ويُزْرِي على هَدْيك . هنالك تقرَع السنّ من ندم، وتجرّع المـاءَ ممزوجا بدم، وحينئذٍ تأسى على ما مضى من عمرك ودارج قوّتك، فتودّ أن لو سُقيتَ بالكأس التى أبيتَها، ورُددتَ إلى حالتك التى آستغويتَها . ولله تعالى فينا وفيك أمرٌ هو بالغه، وغيبٌ هو شاهده، وعاقبةٌ هو المرجوّ لسرّائها وضرّائها، وهو الولىّ الحميد، الغفور الودود .

قال أبو عُبَيدة : فتمشّيت متزمّلا أَنُوء كأنّما أَخْطُو على رأسى، فَرَقًا من الفُرْقة، وشَفَقًا على الأمّة، حتى وصلتُ الى علىّ (١) رضى الله عنه فى خَلَاء، فأبثثتُه بَثّى كلَّه، وبرئتُ إليه منه، ورَفَقْت به . فلمـا سمعها ووعاها، وسَرَتْ فى مفاصله حُمَيّاها، قال : "حَلّت مَعْلُوطَة (٢)، وولّتْ مُخْرَوّطة (٣)"، وأنشأ يقول :

إحدى لياليك فهِيسِى هِيسِى (٤) * لا تَنْعَمِى الليـلةَ بالتَّعرِيسِ

نعمْ يا أبا عبيـدة، أكلُّ هـذا فى أنفس القوم، ويُحِسّون به، ويَضْطَغِنون (٥) علىّ ! قال أبو عبيدة : فقلت : لا جواب لك عندى، إنما أنا قاضٍ حقَّ الدِّين، وراتقٌ فتق المسلمين، وسادٌّ ثُلْمة الأمّة، يعلم الله ذلك من جُلْجُلان (٦) قلبى، وقرارة نفسى .

---

(١) هو أمير المؤمنـين أبو الحسن على بن أبى طالب . وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسـلم . وزوج ابنته . ورابع الخلفاء الراشدين . وإمام الخطباء من المسلمين .

ولد رحمه الله بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم باثنتين وثلاثين سنة . وهو أول من آمن من الصبيان . وكان شجاعا لا يشق له غبار . أيدا جليدا . شهد الغزوات كلها مع النبى إلا غزوة تبوك . وأبلى فى نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يبله أحد . ولمـا قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز وامتنع عن بيعته معاوية وأهل الشام شيعة بنى أمية غضبا منهـم لمقتل عثمان وقلة عنايتـه بالبحث عن القتلة على حسب اعتقادهم، فحـدث من جراء ذلك الفتنة العظمى بين المسلمين وافتراقهم الى طائفتين فتحاربوا مدّة من غير أن يستتب الأمر لعلى أو معاوية حتى قتـل أحد الخوارج عليا غيلة بمسجد الكوفة . وكان كرم الله وجهه أفصح الناس بعد رسول الله . وأكثرهم علما وزهدا وشدّة فى الحق : وهو إمام الخطباء من العرب على الاطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدّة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

(٢) معلوّطة : مقتحمة من غير روية . (٣) مخروّطة : مسرعة . (٤) هيسى : سيرى أىّ سيركان .

(٥) أى ينطوون على الضغن وهو الحقد . (٦) جلجلان قلبى، أى حبته .

فقال علىّ رضى الله عنه : والله ما كان قُعُودى فى كِنّ هــذا البيت قصدًا للخلاف ، ولا إنكارًا للمعروف ، ولا زِرَايةً على مسلم ، بل لمــا قد وقَذَنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فِرَاقه ، وأودعنى من الحزن لفَقْده . وذلك أنى لم أشهد بعده مَشْهدًا إلا جدّد علىّ حزنا ، وذكّرنى شجَنا . وإن الشوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره . وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرّق ، رجاء ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وأسلم لعلمه ومَشيئته ، وأمره ونهيه . على أنى ما علمت أن التظاهر علىّ واقع ، ولا عن الحق الذى سيق إلىّ دافع . وإذ قد أُفْعِمَ الوادى بى ، وحشِد النادى من أجلى ، فلا مرحبًا بما ساء أحدًا من المسلمين وسرّنى . وفى النفس كلامٌ لولا سابقُ عقــد وسالف عهد ، اشتَفَيْتُ غيظى بخِنْصَرى وبِنصَرى ، وخُضْتُ لجُتَّه بأَخْمَصِى ومَفْرِقى ، ولكننى مُلْجَمٌ إلى أن ألقى الله ربى ، وعنــده أَحْتسِب ما نزل بى . وإنّى غادٍ إلى جماعتكم ، فمبايعٌ صاحبَكم ، صابرٌ على ما ساءنى وسرّكم ، ليَقْضِىَ الله أمرا كان مفعولا .

قال أبو عُبَيدة : فعدتُ إلى أبى بكر رضى الله عنه فقصَصْتُ عليه القولَ على غَرِّه (١) ، ولم أختزل شيئا من حُلْوه ومُرّه ، وبكَرت غُدوةً إلى المسجد ، فلما كان صباحُ يومئذ وإذا علىّ مخترق الجماعة إلى أبى بكر رضى الله عنهما فبايعه ، وقال خيرا ، ووصف جميلا ، وجلس زَميتا (٢) ، واستأذن للقيام فمضى وتبعه عمر مُكْرِمًا له ، مستأثرا لمــا عنده .

فقال علىّ رضى الله عنــه : ما قعدتُ عن صاحبكم كارهاً ، ولا أتيتهُ فَرَقاً ، ولا أقول ما أقول تَعِلّة . وإنّى لأعرف منتهى طَرْفى ، ومَحَطّ قَدَمى ، ومَنْزَعَ قوسى ، وموقِعَ سهمى ؛ ولكن قد أَزَمْتُ على فَأْسى (٣) ثِقةً بربى فى الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضى الله عنــه : كَفْكِفْ غَرْبَك ، واستوقِفْ سِرْبَك ، ودَعِ العِصِىّ بلِحَائها ، والدِّلاءَ على رِشَائها . فإنّا من خَلْفِها وورائها ، إن قَدَحْنا أَوْرَيْنا ، وإن مَتَحْنا أَرْوَيْنا ،

(١) على غرّه ، أى كما هو وكما قص علىّ . (٢) زميتا : حليما وقورا . (٣) يقال : أزم الفرس على فأس اللجام اذا عضها وقبض عليها . وفأس اللجام : الحديدة المعترضة منــه فى الحنك . يريد أنه ألجم نفسه ثقة الخ .

وإن قَرَحْنا أدمَيْنا . ولقد سمعتُ أماثيلَك التى لَغَزْتَ بها عن صدرٍ أُكِل بالجَوَى، ولو شئتُ لقلتُ على مقالتك ما إن سمعتَــه نَدِمتَ على ما قلتَ . وزعمتَ أنك قعدتَ فى كِنِّ بيتِــك لمـا وَقَذك به رسول الله صلى الله عليــه وسلم من فقــده ، فهو وَقَذك ولم يَقِذْ غيرَك ! بل مصابُه أعظم وأعمّ من ذلك، وإن من حق مُصابه ألّا تَصْدع شَمْل الجماعة بفُرْقةٍ لا عصامَ لها ، ولا يؤمَن كيدُ الشيطان فى بقائها . هذه العرب حولنا ، والله لو تَدَاعتْ علينا فى صبح نهــار لم نلتقِ فى مسائه . وزعمتَ أن الشوق إلى اللَّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرةُ دينــه ، ومؤازرةُ أوليائه ومعاونتهــم . وزعمت أنك عَكَفتَ على عهد الله تجمع ما تفرّق منه ؛ فمن العكوف على عهد الله النصيحةُ لعبَاد الله ، والرأفةُ على خلق الله ، وبذل ما يَصْلُحون به ، ويَرْشُدون عليه . وزعمتَ أنك لم تعلم أن التظاهر واقعٌ عليك ، وأىُّ حقٍّ لُطَّ[1] دونك ! . قد سمعتَ وعلمتَ ما قال الأنصار بالأمس سِرًّا وجهرا ، وتقلّبتَ عليه بطنا وظهرا ، فهل ذكرتْ أو أشارتْ بك ، أو وجدْتَ رضاهم عنك؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلُح لهذا الأمر ؟ أو أومأ بعينه أو همّ فى نفسه ؟ أتظن أن الناس ضلُّوا من أجلك ، وعادوا كفّارا زهدًا فيك ، وباعوا الله تحاملًا عليك؟ . لا والله ! لقد جاءنى عَقِيل ابن زِيَاد الخَزْرَجى فى نَفَرٍ من أصحــابه ومعهم شُرَحْبِيل بن يعقوب الخَزْرجىّ وقالوا : إن عليًّا ينتظر الإمامة ، ويزعُم أنه أولى بها من غيره ، ويُنكِر على من يَعْقِد الخلافة ؛ فأنكرتُ عليهم ، ورددتُ القولَ فى نَحْرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوَحْىَ ويتوكَّف[2] مناجاةَ الملك ؛ فقلت : ذاك أمر طواه الله بعــد نبيه محمد صــلى الله عليه وســلم أكان الأمر معقودًا بأُنْشوطة[3] ، أو مشدودًا بأطراف لِيطَة[4] ؟ كلَّا ! والله لا عجماءَ بحمد الله إلا أفصحتْ ، ولا شَوْكاءَ إلا وقد تفتّحتْ . ومن أعجب شأنك قولك : «ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشفَيْتُ غيظى» وهل ترك الدينُ لأهله أن يَشْفُوا غيظَهم بيدٍ أو بلسان؟ تلك جاهليةٌ وقد استأصل الله شأفتَها واقتلع جُرثومتَها ، وهوّر ليلَها ، وغوّر سيلَها ، وأبدل منها الرَّوحَ والريحان ، والهُدَى والبرهان .

(١) لط : جحد . (٢) يتوكف : ينتظر . (٣) الأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها ، اذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت . (٤) الليطة قشرة القصبة التى تليط بها أى تلزق .

وزعمت أنك مُلْجَم، ولعمرى إنّ من آتق الله، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه وأطبق فاه، وجعل سعيَه لما وراه .

فقال على رضى الله عنه : مهلًا يا أبا حَفْص، والله مابذلتُ مابذلتُ وأنا أريد نكثَه، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغى حِوَلًا عنه . وإنّ أخسر الناس صفقةً عنــد الله مَنْ آثر النِّفاق، وآحتضن الشِّقاق، وفى الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكل فى جميع الحوادث . ارجع يا أبا حفص الى مَجْلِسك ناقعَ القلب، مبرودَ الغليل، فسيحَ اللَّبان(١)، فصيحَ اللسان، فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشدّ الأَزْر، ويحطّ الوِزْر، ويَضَع الإصْر، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنــه : فانصرف علىّ وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ علىّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

٢ — ومن كلام عائشة(٢) رضى الله عنها فى الانتصار لأبيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضى الله عنه، فأرسلتْ الى أَزْفَلةٍ(٣) من الناس، فلما حضروا، أسدلتْ أستارَها، وعَلَتْ وِسادَها ، ثم قالت : أبى، وما أُبِيَــهْ ! أبِى والله لا تَعْطُوه(٤) الأيدى، ذاك طودٌ مُنِيف، وفرعٌ مَدِيد، هيهات، كذبتِ الظنون! أَنْجح إذ أَكْدَيتم، وسَبَق إذ وَنَيْتم ؛ سَــبْق الجوادِ إذا استولى على الأَمَــد . فتى

(١) اللبان : الصدر . (٢) هى عائشة بنت أبى بكر الصديق بن أبى قحافة، عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين، ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع، وكان مولدها سنة أربع من النبوّة، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر، وكان صداقها أربعمائة درهم، وكانت أحب نسائه إليه، وكنيتها أم عبد الله، كنيت بابن أختها أسماء، ولها خطب ووقائع . وكانت من أكبر العاملات فى وقعة الجمل المشهورة فى الاسلام صحبة الزبير وطلحة . وكانت أفصح أهل زمانها وأبينهم منطقا وأحفظهم للحديث وأفقههم . توفيت سنة سبع وخمسين ودفنت ليلا بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه . راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩) .
(٣) الأزفلة : الجماعة . (٤) لا تعطوه : لا تناله .

قريش ناشئا، وكهفُها كَهْلا، يَفُكّ عانيَها، ويَريش مُمْلِقَها، ويَرْأب شَعْبها، ويلمّ شَعَثَها، حتى حَلِيَتْه قلوبُها، ثم استشْرَى فى دِين الله فما بَرِحتْ شكيمتُه فى ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجدًا يُحيى فيه ما أمات المُبْطلون. وكان رحمه الله غَزِيرَ الدمعة، وَقِيذَ الجوانح، شَجِىّ النَّشيج، فانقضّت اليه نسوانُ مكة وولْدانُها يسخَرون منه ويستهزئون به ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فأكبرتْ ذلك رجالاتٌ من قريش فحَنَتْ قِسِيَّها، وفوّقت سهامَها، وانتثَلُوه غَرَضًا، فما فَلُّوا له صَفَاة، ولا قَصَفوا له قَنَاة، ومرّ على سِيسائه[(١)]، حتى اذا ضَرَب الدينُ بجِرَانه، ورستْ أوتادُه، ودخل الناسُ فيه أفواجا، ومن كل فِرقة أَرْسالا وأشتاتا، اختار الله لنبيّه ما عنده؛ فلما قبَض الله نبيّه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطانُ رواقَه، ومدّ طُنُبه، ونَصَب حبائلَه، وأَجْلب بخَيْله ورَجْله، واضطرب حبلُ الإسلام، ومَرِج عهدُه وماج أهلُه، وبُغِىَ الغوائل، وظنت رجالٌ أن قد أَكْثَبتْ أطماعُهم نُهَزَها، ولاتَ حينَ الذى يرجون، وأنّى والصِّدّيق بين أظهرهم! فقام حاسرًا مشمّرا، فجمع حاشيتيه ورفع قُطْرَيه، فردّ رَسَنَ الإسلام على غَرْبه، ولمّ شعثَه بِطبّه، وانتاش الدينَ فنعشه، فلما أراح الحقَّ على أهله، وقرّر الرءوسَ على كواهلها، وحَقَن الدماءَ فى أُهُبِها، أتته منيّته، فسدّ ثُلْمته بنظيره فى الرحمة، وشقيقه فى السيرة والمَعْدَلة، ذاك ابنُ الخطاب، لله درّ أمّ حَمَلتْ به ودرّتْ عليه! لقد أوحدتْ به، ففنّخ[(٢)] الكَفَرةَ ودَيّخها، وشرّد الشركَ شَذَرَ مَذَرَ، وبَعَج الأرض وبَخَعها، فقاءت أُكُلها، ولَفَظتْ خَبْأها[(٣)]، ترأمه ويَصْدِف عنها، وتَصَدّى له ويأباها. ثم وزّع فيها فيئَها وودّعها كما صَحِبَها. فأرونى ماذا تَرْتَئُون، وأىّ يومىْ أبى تَنْقِمون: أيومَ إقامته اذ عَدَل فيكم، أم يومَ ظَعْنه إذ نظر لكم؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم. ثم أقبلتْ على الناس بوجهها فقالت: أنشُدكم اللهَ هل أنكرتم مما قلتُ شيئا؟ قالوا: اللّهم لا.

---

(١) على سيسائه، أى على دأبه وعادته. (٢) فنخ: غلب وقهر. (٣) خبأها: ما غاب عنها.

* * *

٣ — كلمة أم الخير بنت الحريش(١)

ومن كلام أمّ الخير بنت الحُرَيش البارقية يوم صِفّين فى الانتصار لعلىّ رضى الله عنه :

يُروى أن معاوية كتب الى واليه بالكوفة أن يحمل اليه أمّ الخير بنت الحُرَيْش البارقية برَحْلها، وأَعْلمه أنه مُجازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشر شرا . فلما ورد عليه كتابه ، ركب اليها فأقرأها الكتابَ، فقالت : أمّا أنا فغيرُ زائغة عن طاعةٍ ولا معتلّة بكذب! ولقد كنتُ أُحبّ لقاءَ أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صـدرى . فلما شيّعها وأراد مفارقتَها قال لها : يا أمّ الخير، إن أمير المؤمنين كتب الىّ أنه يجازينى بقولك فىّ بالخير خيرا وبالشرّ شرا ، فما عندك؟ قالت : يا هذا لا يُطْمِعنّك برُّك بى أن أسُرّك بباطل، ولا تؤيسْك معرفتى بك أن أقول فيك غيرَ الحق . فسارت خيرَ مَسير حتى قَدِمت على معاوية، فأنزلها مع حرمه ثلاثا ، ثم أدخلها عليه فى اليوم الرابع، وعنده جلساؤه، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ؛ قال لها : وعليك السلام ياأم الخير، وبالرغم منك دعوتنى بهذا الاسم ؛ قالت : مَهْ ياأمير المؤمنين ! فإن بديهة السلطان مَدْحَضة لما يجب علمه ولكل أجلٍ كتاب ؛ قال : صدقتِ، فكيف حالك ياخالة؟ وكيف كنتِ فى مسيرك؟ قالت : لم أزل فى عافيةٍ وسلامةٍ حتى صرتُ اليك فأنا فى مجلس أنيق، عند ملِك رفيق ؛ قال معاوية : بحسن نيتى ظَفِرتُ بكم ؛ قالت : يا أمير المؤمنين أُعيذُك بالله من دَحْض المقال وما تُرْدى عاقبتُه ؛ قال : ليس هـذا أردنا ، أخبرينى كيف كان كلامك يوم قُتِل عمّار بن ياسر؟ قالت : لم أكن والله زوّرته(٢) قبلُ ولا رويته بعدُ ، وإنما كانت كلماتٌ نَفَثهنّ لسانى حين الصّدْمة ، فان شئتَ أن أُحدث لك مقالا غير ذلك فعلتُ ؛ قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت الى أصحابه فقال : أيُّكم يحفظ كلام أم الخير؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد ؛ قال : هاته ؛ قال : نعم كأنى بها يا أمير المؤمنين فى ذلك اليوم عليها

---

(١) منقولة عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨ (٢) زوّر الكلام فى نفسه : هيأه .

بُردٌ زَبِيديّ كثيف الحاشية، وهى على جمل أَرْمَكَ(١) وقد أحيط حولها، وبيدها سوط منتشر الضفر، وهى كالفحل يَهدِر فى شِقْشِقَته تقول :

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ! ان الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل، ونوّر السبيل، ورفع العَلَم، فلم يَدَعْكم فى عَمْياءَ مُبْهمة ! ولا سوداءَ مُدْلَهِمّة، فالى أين تريدون رحمكم الله ! أفرارًا عن أمير المؤمنين، أم فِرارًا من الزَّحْف، أم رغبةً عن الاسلام، أم ارتدادًا عن الحق ! أَمَا سمعتم الله عزّ وجلّ يقول : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ .

ثم رفعت رأسها الى السماء وهى تقول :

قد عِيلَ الصبر، وضَعُف اليقين، وانتشر الرعب، وبيدك يا ربِّ أزِمَّةُ القلوب، فاجمع الكلمة على التقوى، وألِّف القلوبَ على الهدى . هَلُمُّوا رحمكم الله الى الإمام العادل، والوصىّ الوفىّ، والصِّدِّيق الأكبر! إنها إحَنٌ بَدْرِيّة، وأحقاد جاهليّة، وضغائن أُحُديّة، وثَب بها معاوية حين الغفلة لِيُدْرِك بها ثاراتِ بنى عبد شمس .

ثم قالت : قَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . صبراً معشرَ المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرةٍ من ربكم، وثباتٍ من دينكم، وكأنى بكم غدًا قد لَقِيتم أهلَ الشأم كحُمُرٍ مُستنفِرة، فَرّتْ من قَسْوَرة، لا تدرى أين يُسْلَكُ بها من فِجَاجِ الأرض، باعوا الآخرةَ بالدنيا، واشتَرَوا الضلالةَ بالهدى، وباعوا البصيرةَ بالعمى، وعمّا قليلٍ لَيُصْبِحُنّ نادمين، حين تَحُلّ بهم الندامة، فيطلبون الإقالة ! إنه والله مَنْ ضلّ عن الحق وقع فى الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل فى النار . أيها الناس، إن الأكياس استقصروا عمرَ الدنيا فرفضوها واستبطئُوا مدّة الآخرة فسَعَوْا لها . والله أيها الناس لولا أن تبطُلَ الحقوق، وتُعَطَّل الحدود، ويظهرَ الظالمون، وتَقْوَى كلمةُ الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فالى أين تريدون — رحمكم الله — عن ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) جمل أرمك : لونه لون الرماد .

وزوج ابنتــه وأبى ٱبنيه؟ خُلق من طينته، وتفرّع عن نَبْعته، وخصّــه بسرّه، وجعــله باب مدينته، وأعلَمَ بحبه المســلمين، وأبان ببغضه المنافقــين . فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونتــه، ويمضى على سنن ٱستقامته، لا يعرّج لراحة اللذات . وهو مُفَلِّق الهام، ومكسِّر الأصنام، إذ صــلّى والناس مُشْركون، وأطاع والناس مرتابون . فلم يزل كذلك حتى قتَل مُبارِزِى بَدْر، وأفنى أهــلَ أُحُد، وفرّق جَمْعَ هوازن؛ فيالهــا وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقا، ورِدّة وشِقاقا . وقد ٱجتهدتُ فى القول، وبالغتُ فى النصيحة، وبالله التوفيــق . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فقال معاوية : والله يا أمّ الخير ما أردتِ بهــذا إلا قتلى ! والله لو قتلتُــكِ ما حَرِجتُ فى ذلك .

قالت : والله ما يسوءنى يابن هند أن يُجْرِىَ الله ذلك على يَدَىْ من يُسعدنى الله بشقائه؛ قال : هيهاتَ يا كثيرة الفضول، ما تقولين فى عثمان بن عفان؟ قالت : وما عَسَيْتُ أن أقول فيه، إستخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال : إيهًا يا أم الخير، هذا والله أصلكِ الذى تبنين عليه؛ قالت : لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا، ما أردتُ بعثمان نقصا، ولقد كان سبّاقا إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة . قال : فما تقولين فى طلحة بنِ عبيد الله؟ قالت : وما عسى أن أقول فى طلحة، إغتيل من مأمَنه، وأُتِىَ من حيث لم يَحْذَر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنةَ . قال : فما تقولين فى الزبير؟ قالت : يا هذا لا تَدَعْنى كرجيع الصَّبِيغ يُعْرَكُ فى المِرْكَن[(١)]؛ قال : حقًّا لتقولِنّ ذلك وقد عزمتُ عليك؛ قالت : وما عَسَيتُ أن أقول فى الزبير ابنِ عمة رسول الله صلى الله عليه وســلم وحَوَاريِّه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وســلم بالجنة، ولقد كان سبّاقا إلى كل مَكْرُمة فى الإسلام . وإنى

(١) المركن : الإجانة وهى إناء تغسل فيه الثياب . ويعرك : يحك . والرجيع المردود . أى لا تجعلنى كالثوب المصبوغ يحك فى الإناء مرة بعد أخرى لإخراج صبغه منه : تشــبه محاورة معاوية إياها وسؤاله لها مرة بعــد مرة لاستخراج ما فى نفسها بمــا يغسل من الثياب المصبوغة لاستخراج صبغها منها .

أسألك بحق الله يا معاوية، فإن قريشا تحدّث أنك من أحلمها، أن تسعني بفضل حلمك، وأن تعفيني من هذه المسائل، وامض لما شئت من غيرها؛ قال: نعم وكرامةً، قد أعفيتك، وردّها مكرّمة إلى بلدها .

* * *

٣ — كلمة الزرقاء[1] بنت عدىّ

ومن كلام الزرقاء بنت عدىّ بن قيس الهَمْدانية ما قالته يوم صِفِّين أيضا :

يروى أنها ذُكِرتْ عند معاوية يوما، فقال لجلسائه : أيُّكم يحفَظ كلامها؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين؛ قال : فأشيروا علىّ فى أمرها، فأشار بعضهم بقتلها، فقال : بئس الرأى ! أيحسُنُ بمثلى أن يقتل امرأة! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها اليه مع ثِقة من ذوى مَحْرَمِها وعدّة من فُرْسان قومها، وأن يمهّد لها وطاءً لينا، ويسترها بستر خَصِيف[2]، ويُوسّع لها فى النفقة . فلما دخلتْ على معاوية، قال: مرحباً بكِ وأهلا! قَدِمتِ خيرَ مَقْدَم قَدِمه وافد، كيف حالكِ ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة ! قال : كيف كنتِ فى مَسيرِك؟ قالت : ربيبةَ بيتٍ أو طفلا ممهَّدا؛ قال : بذلك أمرناهم. أتدرِين فيم بعثتُ إليك؟ قالت : وأنَّى لى بعلم مالم أعلم؟ وما يعلم الغيبَ إلا الله عز وجل؛ قال: ألستِ الراكبةَ الجمل الأحمر، والواقفةَ بين الصفَّيْن بصفِّين تحُضِّين الناس على القتال، وتُوقدين الحربَ؟ فما حملك على ذلك؟ قالت : يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبُتِرَ الذَّنَب، ولن يعود ما ذهب؛ والدهر ذو غِيَرٍ، ومن تفكّر أبصر، والأمرُ يحدُث بعده الأمر؛ قال

(١) هى الزرقاء بنت عدىّ بن غالب بن قيس الهمدانية، كانت من أهل الكوفة، وكانت ذات شجاعة فائقة، وبلاغة نادرة، شهدت مع قومها واقعة صفين، ولها عدّة خطب تحرّض الناس فيها على القتال ضد معاوية . وبعد أن تم لمعاوية ما أراد كتب الى عامله بالكوفة باستدعائها، فأحضرت اليه، وبعد محاورة بينه وبينها سألها حاجتها، فقالت : « يا أمير المؤمنين، آليت على نفسى ألا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا » ثم انصرفت، وبعد ذلك أرسل لها معاوية جائزة .

(٢) خصيف : غليظ .

لها معاوية : أتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت : لا والله، ولقد أنسيتُه ؛ قال : لكنى أحفظه ، لله أبوكِ حين تقولين :

أيها الناس ، اِرعَوُوا وٱرجِعُوا ! إنكم أصبحتم فى فتنةٍ غَشَّتكم جلابيبَ الظلم ، وجارت بكم عن قصد المَحَجّة . فيالها فتنةً عمياء، صَمَّاء بَكْماء ، لا تسمع لناعقها ، ولا تَنْسَلِس لقائدها . إن المصباح لا يُضيء فى الشمس ، والكواكب لا تُنير مع القمر ، ولا يقطع الحديدَ إلا الحديد . أَلا مَنْ ٱسترشد أرشدناه ، ومَنْ سألَنا أخبرناه .

أيها الناس ، إن الحق كان يطلب ضالّته فأصابها ! فصبرًا يامعاشر المهاجرين والأنصار على الغُصَص ؛ فكأنْ قد ٱندمل شَعْبُ الشَّتات ، وٱلتأمت كلمةُ التقوى ، ودَمَغ الحقُّ باطلَه ! فلا يجهلن أحدٌ فيقول : كيف العدلُ وأنَّى ! ليقضى الله أمرًا كان مفعولا . أَلَا وإن خِضاب النساء الحِنَّاء ، وخِضابَ الرجال الدماء ! ولهذا اليوم ما بعده ، والصبر خيرٌ فى عواقب الأمور . إيهًا الى الحرب قُدُمًا غيرَ ناكصين ولا مُتَشاكِسين .

ثم قال لها : يازرقاء ، لقد شَرِكْتِ عليًّا فى كل دم سَفَكه ؛ قالت : أحسن الله بشارتك ، وأدام سلامتك ؛ فمثلُك من بشّر بخير وسَرّ جليسه ؛ قال : ويَسُرّك ذلك؟ قالت : نعم سُرِرتُ بالخبر فأنّى لى بتصديق الفعل ! فضحك معاوية وقال : لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ عندى من حبكم له فى حياته ! أذكرى حاجتَك ؛ قالت : يا أمير المؤمنين ، آليتُ على نفسى ألّا أسأل أميرا أعنتُ عليه أبدا ، ومثلك من أعطى من غير مسألة ، وجاد من غير طلْبة ؛ قال : صدقتِ ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكُسًا .

٤ ــ عكرشة بنت الأطرش

ومن كلام عِكْرِشة بنت الأطرش ما قالته يوم صِفِّين أيضا :

يُروى أنها دخلت على معاوية متوكّئة على عُكّازٍ لها ، فسلّمت عليه بالخلافة ثم جلست ؛ فقال لها معاوية : الآن صرتُ عندكِ أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم إذ لا علىٌّ حىّ ! قال :

ألستِ المتقلّدة حمائل السيف بصفّين وأنت واقفة بين الصفّين تقولين : أيها الناس ، عليكم أنفسَكم لا يضرُّكم من ضلَّ اذا اهتديتم . إن الجنة لا يحزَن من قطَنها ، ولا يهرَم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ؛ فابتاعوها بدارٍ لا يدوم نعيمُها ، ولا تنصرم همومُها . وكونوا قومًا مستبصرين فى دينهم ، مستظهرين على حقّهم ؛ إن معاوية دَلَف إليكم بعجم العرب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرُون ما الحكمة . دعاهم الى الباطل فأجابوه ، واستدعاهم إلى الدنيا فلبّوه . فاللهَ اللهَ عبادَ الله فى دين الله ! وإياكم والتَّواكُلَ فإن ذلك ينقض عُرَى الإسلام ، ويُطفئ نورَ الحق . هذه بَدْرٌ الصغرى ، والعقَبة الأخرى . يا معشر المهاجرين والأنصار ، امضوا على بصيرتكم ، واصبِروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غدًا وقد لَقِيتم أهلَ الشأم كالحُمُر الناهقة تَقْصَع قصعَ البعير (١) .

ثم قال : فكأنى أراك على عصاك هذه قد انكفأ عليك العسكران يقولون هذه عِكْرشة بنت الأطرش ، فإن كدتِ لَتَقتُلِين أهل الشأم لولا قَدَرُ الله ، وكان أمر الله قَدَرًا مقدورا ، فما حملكِ على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، يقول الله جل ذكره : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ الآية ، وإن اللبيب إذا كره أمرًا لا يحبّ إعادته ، قال : صدقتِ ، فاذكرى حاجتك ، قالت : كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فتُرَدّ على فقرائنا ، وقد فقدنا ذلك ، فما يُجْبَر لنا كسير ، ولا يُنْعَش لنا فقير ، فإن كان عن رأيك فمثلُك من انتبه من الغفلة وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك فما مثلُك من استعان بالخَوَنة ، ولا استعمل الظَّلَمة ، قال معاوية : يا هذه ، إنه ينوبُنا من أمور رعيتنا ثغورٌ تنفتق ، وبحور تندفق ، قالت : سبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقًّا فجعل فيه ضررا لغيرنا وهو علّام الغيوب ، قال معاوية : هيهاتَ يا أهل العراق ، نبّهكم علىّ فلن تُطَاقوا . ثم أمر بردّ صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

(١) يقال : قصع البعير بجرّته يقصع قصعا : مضغها .

٦ — رسالة لعبد الحميد الكاتب[1]

كتب عبد الحميد[2] بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لبعض من ولّاه[3] :

أما بعد ، فإنّ أميرَ المؤمنين — عند ما اعتزم عليه من توجيهك الى عدو الله الجِلْف الجافي الأعرابيّ ، المتسكّع فى حَيْرة الجَهالة ، وظُلَم الفتنة ، ومهاوِى الهَلَكة ، ورَعَاعه الذين عاثُوا فى أرض الله فسادًا ، وانتهكوا حُرْمة الإسلام استخفافا ، وبدّلوا نعمة الله كفرا ، واستحلّوا دماءَ أهل سِلْمه جهلا — أحبَّ أن يَعْهَد اليك فى لطائِف أمورك ، وعوامّ شُؤونك ، ودخائل أحوالك ، ومُصْطَرَف تنقُّلك عَهْدا يحمِّلك فيه أدبه ، ويَشْرَع لك به

---

(١) هذه الرسالة منقولة عن صبح الأعشى ح ١٠ ص ١٩٥ . (٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرىّ ولاء ، الشامى دارا ، شيخ الكتّاب الأوائل ، وأوّل من أطال الرسائل .

كان عبد الحميد من أهل الشام من موالى بنى عامر ، وتخرج فى البلاغة والكتابة على ختنه أبى العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب دولته وأحد بلغاء العالم والنقلة من اليونانية . وكان عبد الحميد فى أوّل أمره معلم صبيان يتنقل فى البلدان حتى فطن له مروان بن محمد أيام توليته أرمينية وانتدابه لتسكين فتنتها ، فكتب له مدّة ولايته ، حتى إذا بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة سجد مروان لله شكرا وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان لم لا تسجد؟ فقال : ولم أسجد؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا ! قال : إذا تطير معى ؛ قال : الآن طاب لى السجود وسجد ، فاتخذه مروان كاتب دولته ، فصدر عنه من الرسائل ما صار نموذجا يحاكيه من بعده من البلغاء .

ولما دهمت مروان جيوش خراسان أنصار الدعوة العباسية وتوالت عليه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه فى كل هذه الشدّة ؛ فقال له مروان : قد احتجت أن تصير مع عدوّى وتظهر الغدر بى ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم الى كتابتك ، تحوجهم إلى حسن الظن بك ؛ فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى وإلا لم تعجز عن حفظ حرمى بعد وفاتى ؛ فقال له : إن الذى أشرت به علىّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . وأنشد :

أسرّ وفاء ثم أظهر غدرة * فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره

وبقى معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ ففر واختبأ عند صديقه ابن المقفع ففاجأه الطلب وهو فى بيته ، فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، خوفا على صاحبه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا الى ابن المقفع فقال : ترفقوا بنا فإن كلا منا له علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ويمضى بعض آخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم ففعلوا وأخذ عبد الحميد إلى السفاح فقتله سنة ١٣٢ هـ . انظر ترجمته فى ابن خلكان (ح ١ ص ٤٣٦) . (٣) هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى .

عِظَتِه ، وإن كنتَ بحمد الله من دِينِ الله وخلافتِه بحيث ٱصطنعك اللهُ لولاية العهد مختصًّا لك بذلك دون لُحْمَتك وبَنِي أبيــك . ولولا ما أمَرَ الله تعالى به دالًّا عليــه ، وتقدمتْ فيه الحكماءُ آمِرِين به : من تقديم العِظَة ، والتذكير لأهل المعرفة ، وإن كانوا أُولِى سابقةٍ فى الفضل وخِصِّيصاء فى العلم ، لاعتمدَ أميرُ المؤمنين على ٱصطناع الله إيّاك وتفضيله لك بما رآك أهلَه فى محلّك من أمير المؤمنين ، وسبْقك الى رغائب أخلاقه ، وٱنتزاعك محمودَ شيمِه ، وٱستيلائك على مَشَابِه تدبيره . ولو كان المؤدِّبون أخذوا العلمَ من عِند أنفسهم ، أو لُقِّنوه إلهاماً من تلقائهم ولم يُصِبهم تعلّموا شيئا من غيرهم ، لنحَلْناهم عِلم الغيب ، ووضعناهم بمنزلةٍ قصَّر بهــا عنهم خالِقُهم المستأثِرُ بعلم الغيب عنهم بوَحْدانيّته فى فردانيّته وسابقِ لاهُوتيّته ، ٱحتجاباً منهم لتَعقُّبٍ فى حكمه ، وتثبُّتٍ فى سلطانه وتنفيذ إرادته ، على سابقِ مشيئته . ولكن العالِمَ الموفَّق للخير ، المخصوص بالفضل ، المحبُوَّ بمزِيّة العلم وصفوته ، أدركه مُعاناً عليه بلطف بحثه ، وإذلال كَنَفه ، وصِحّة فهمه ، وهَجْر سآمته .

وقد تقــدّم أميرُ المؤمنين إليك ، آخذًا بالحجّــة عليك ، مؤدِّيا حقّ الله الواجبَ عليــه فى إرشادك وقضاءِ حقِّك ، وما ينظر به الوالد المَعْنِيُّ الشفيق لولده . وأميرُ المؤمنين يرجو أن ينزِّهك الله عن كل قَبِيح يَهَشُّ له طمَع ، وأن يَعْصِمك من كلّ مكروهٍ حاقَ بأحدٍ ، وأن يحصِّنك من كلّ آفة ٱستولتْ على ٱمرِئٍ فى دِين أو خُلُق ، وأن يبلّغه فيك أحسنَ ما لم يَزل يعوِّده ويُرِيه من آثار نعمة الله عليك ، ساميةً بك الى ذِروة الشرف ، متبَحبِحةً بك بَسْــطةُ الكرم ، لائحةً بك فى أزهرِ معالى الأدب ، مُورِثةً لك أنفَسَ ذخائر العِزّ ؛ واللهَ يسـتخلف عليــك أميرُ المؤمنين ويسألُ حِياطتَــك ، وأن يعصمك من زَيْغ الهوى ، ويُحضرك داعيَ التوفيق ، مُعاناً على الإرشاد فيه ، فإنه لا يُعين على الخير ولا يوفّق له إلا هو .

اِعلم أنّ للحكمة مسالكَ تُفضِى مضايِقُ أوائلِها بمن أمَّها سالِكا ، وركِب أخطارها قاصدا ، الى سَــعَة عاقبتها ، وأمْنِ سَرْحها ، وشرفِ عِزّها . وأنها لا تُعار بسُخْف الخِفّة ، ولا تُنشَأ بتفريط الغفلة ، ولا يُتعدَّى فيها بامرئٍ حدُّه . وربمــا أظهرتْ بسـطةُ الغَيِّ

مستورَ العيب . وقد تلقَّتـك أخلاقُ الحكمة من كل جهةٍ بفضلها ، من غير تعب البحث فى طلبها ، ولا مُتطاوَلٍ لمناولة ذِرْوتها ؛ بل تأثّلتَ منها أكرَمَ نَبعَاتها ، وآستخلصتَ منهـا أعتقَ جواهرها ؛ ثم سموتَ الى لُبـاب مُصَاصِها(١) ، وأحرزتَ مُنْفِسَ ذخائرها ، فآقتعِـد ما أحرزتَ ، ونافِسْ فيما أصبتَ .

وآعلم أن آحتواءَك على ذلك وسَبْقَك إليه بإخلاص تقوى الله فى جميع أمورك مُؤْثرًا لهـا ، وإضمارِ طاعته منطويًا عليها ، وإعظامِ ما أنعم الله به عليك شاكرًا له ، مرتبطًا فيـه للزيد بحسن الحِياطة له والذّبّ عنـه من أن تَدْخُلك منه سآمَةُ مَلَال ، أو غفلة ضَـياع ، أو سِنَة تهاون ، أو جَهالة معرفة ، فإن ذلك أحقّ ما بُدِئ به ونُظِر فيه ، معتمدا عليه بالقوّة والآلة والعُدّة والآنفراد به من الأصحاب والخاصّة . فتمسَّكْ به لاجئًا إليه ، وآعتمِد عليـه مؤْثرا له ، وآلتجِئ إلى كَنَفه متحيِّزًا إليـه : فإنه أبلَغُ ما طُلِب به رضا الله وأنجحُه مسألة ، وأجزله ثوابا ، وأعوده نفعا ، وأعمّه صلاحا ؛ أرشدك اللهُ لحظّك ، وفهَّمك سَداده ، وأخذ بقلبك إلى محموده . ثم آجعـل لله فى كل صباح يُنعِم عليك ببلوغه ، ويُظهِر منك السلامة فى إشراقه ، من نفسك نصيبًا تجعله له شكرا على إبلاغه إيّاك يومَك ذلك بصِحّة جوارح وعافيةِ بَدَن ، وسبُوغ نِعَم ، وظهور كرامة ، وأن تقرأ فيه من كتاب الله — تبارك وتعالى — جزءا تُردّد رأيَك فى آيه ، وترتّل(٢) لفظك بقراءته ، وتُحضِره عقلَك ناظرًا فى مُحْكَمه ، وتتفهّمه مفكرا فى مُتَشابهه : فإن فى القرءان شِفاءَ الصدور من أمراضها ، وجِلاء وساوسِ الشيطان وصَعَاصعه(٣) ، وضياء مَعالم النّـور ، تبيانا لكل شيء وهـدى ورحمة لقومٍ يؤمنون . ثم تعهّدْ نفسك بمجاهدة هواك ، فإنه مِغـلاق الحسنات ، ومِفتاح السيئات ، وخَصم العقل .

وآعلم أن كل أهوائك لك عدوٌّ يحاول هَلَكتك ، ويعـتَرِض غفلتك ، لأنهـا خُدَع إبليس ، وخَواتِل مكره ، ومصايدُ مكيدته ؛ فاحذرها مجانبا لها ، وتوقَّها محترسا منها ؛ وآستعذ

(١) المصاص : خالص كل شيء .

(٢) كذا فى صبح الأعشى وفى مفتاح الأفكار (ص ٢٨٢) وغيره « وتزين » .

(٣) الصعاصع : جمع صعصع وهو طائر أشهب يصيد الجنادب ، شـبه وسوسة الشيطان به . وفى بعض المؤلفات «وسفاسفه» .

بالله عزّ وجلّ من شرها، وجاهدها إذا تناصرتْ عليك بعزمٍ صادق لا وَنْيَةَ[1] فيه، وحزمٍ نافذٍ لا مَثْنَوِيَّةَ[2] لرأيك بعد إصداره، وصدقٍ غالبٍ لا مطمعَ في تكذيبه، ومضاءةٍ صارمةٍ لا أناة معها، ونيّةٍ صحيحةٍ لا خَلْجةَ شكٍّ فيها: فإن ذلك ظِهْرِيّ صدقٍ لك على رَدعها عنك، وقمعها دون ما تتطلّع إليه منك، فهى واقيةٌ لك سُخْطة ربّك، داعيةٌ إليك رضا العامّة عنك، ساترة عليك عيب من دونك، فازدنْ بها متحلِّيا، وأصب بأخلاقك مواضعَها الحميدة منها، وتوقَّ عليها الآفة التى تقتطعُك عن بلوغها، وتقصِّر بك دون شأوها: فإن المؤونة إنما اشتدّت مستصْعبةً، وفدَحت باهظةً أهلَ الطلب لأخلاق أهل الكرم المنتحلين سموَّ القدْر، بجهالة مواضع ذميم الأخلاق ومحمودها، حتى فرّط أهلُ التقصير فى بعض أمورهم، فدخلَتْ عليهم الآفات من جهاتٍ أمِنُوها، فنُسبوا إلى التفريط، ورضُوا بذلّ المنزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، عَمِهين عن دَرَج الشرف، ساقطين دون منزلة أهل الحجا. فحاوِل بلوغَ غاياتها مُحرِزا لها بسبْق الطلب إلى إصابة الموضع، محصِّنا أعمالك من العُجب: فإنه رأس الهوى، وأوّل الغَواية، ومَقاد الهَلَكة، حارسًا أخلاقك من الآفات المتّصلة بمساوى الألقاب وذميم تنابُزها، من حيث أتت الغفلة، وانتشر الضَّياع، ودخَل الوَهْن. فتوقَّ غُلُوب الآفات على عقلك، فإن شواهد الحق ستُظهِر بأماراتها تصديقَ آرائك عند ذوى الحجا حالَ الرأى وفَحْص النظر. فاجتلبْ لنفسك محمودَ الذّكر وباقِىَ لسانِ الصّدق بالحذر لما تقدّم إليك فيه أمير المؤمنين، متحرِّزا من دخول الآفات عليك من حيث أمنك وقلّة ثقتك بمُحْكَمها: من ذلك أن تملك أمورَك بالقصد، وتدارِىَ جُندك بالإحسان، وتصونَ سِرّك بالكتمان، وتداوىَ حِقدك بالإنصاف، وتذلِّلَ نفسك بالعدل، وتحصِّنَ عيوبك بتقويم أَوَدك، وتمنعَ عقلك من دخول الآفات عليه بالعُجب المُرْدِى. وأناتَك فوقِّها المَلالَ وفوتَ العمل، ومضاءتَك فدرِّعها روِيّة النظر واكْنُفها بأناة الحلم. وخلوتَك فاحْرُسها من الغفلة واعتماد الراحة، وصَمْتَك

---

(١) لا ونية: لا توانى. (٢) أى لا استثناء.

فانْفِ عنه عِيَّ اللفظ ، وخَفْف سوء القالة ؛ وآستماعَك فأرْعِه حُسن التفهّم ، وقوِّه بإشهاد الفكر ؛ وعطاءَك فأمْهِد له بيوتاتِ الشرف وذوى الحسب ، وتحرّزْ فيه من السَّرَف وآستطالة البَذْخ وآمتنانِ الصنيعة ؛ وحياءَك فآمنَعه من الخجـل وبلادةِ الحَصَر ؛ وحلمَـك فزَعْه عن التهاون وأحْضِره قوّةَ الشكيمة ؛ وعقوبتَـك فقصِّربها عن الإفراط ، وتعمَّد بها أهلَ الآستحقاق ؛ وعفوَك فلا تُدْخله تعطيلَ الحقوق ، وخذْ به واجبَ المفترض ، وأقِم به أوَدَ الدِّين ؛ وآستئناسَك فآمنع منه البَذَاء وسوء المُنَاقَشَة[(١)] . وتعهُّدك أمورَك فخُذْه أوقاتا ، وقدِّره ساعاتٍ لاتَسـتفرغ قوَّتك ، ولا تسـتدعى سآمتَك ؛ وعَزَماتِك فأنف عنها عجـلة الرأى ، ولجاجةَ الإقدام ؛ وفرحاتِك فآشكُمْها عن البَطَر ، وقيِّـدها عن الزَّهْو ؛ وروْعاتِك فحُطْها من دَهَش الرأى وآستِسلام الخضـوع ؛ وحذَراتِك فآمنعها من الجبن ، وآعمد بها الحزم ؛ ورجاءَك فقيِّده بخوف الفائت ، وآمنعه من أمْنِ الطَّلب .

هذه جوامعُ خِلال ، دخَّالُ النقص منها واصلٌ إلى العقل بلطائف أبنِه ، وتصاريف حوِيله[(٢)] ، فأحْكِمها عارفًا بها ، وتقدّم فى الحفظ لها ، معتزما على الأخْذ بمراشدها والآنتهاء منها إلى حيث بلغتْ بك عِظةُ أمير المؤمنين وأدَبُه إن شاء الله .

ثم لتكن بِطانتُك وجلســاؤك فى خلواتك ودخلاؤك فى سِرِّك ، أهلَ الفقه والورع من خاصّة أهلِ بيتك ، وعامّة قوّادك ممن قد حنّكته السنُّ بتصاريف الأمور ، وخبطته فصالها بين فراسن البُزَّل[(٣)] منها ، وقلَّبته الأمور فى فنونهـا ، وركب أطوارها ، عارفًا بمحاسن الأمور ومواضع الرأى وعينِ المشورة ؛ مأمونَ النصيحة ، منطوِىَ الضمير على الطاعة . ثم أحْضِرهم من نفسك وقارًا يستدعى لك منهم الهيبة ، وآستئناسا يَعطِف إليك منهم المودّة ، وإنصاتا يفُلّ إفاضتهـم له عِندك بما تكره أن يُنْشَرعنك من سخافة الرأى وضَياع الحزم . ولا يَغْلِبنّ عليك هواك فيصرفك عن الرأى ويقتطعك دون الفكر . وتعـلّم أنك وإن خلوتَ بسِرّ

(١) يقال : ناقش فلان فلانا بالكلام : آذاه . (٢) الحويل : الحذق والقدرة على التصرف .
(٣) الفراسن : واحدها فرسن وهو طرف خف البعير .

فألقيتَ دونه سُتورك، وأغلقتَ عليه أبوابك، فذلك لا محالةَ مكشوفٌ للعامّة، ظاهرٌ عنك و إن ٱستترت بر بّما واعلّ وما أُرَى إذاعة ذلك وأعلم، بما يرون من حالاتٍ من ينقطع به في تلك المواطن. فتقدّمْ في إحكام ذلك من نفسك، وٱسدُد خاله عنك: فإنه ليس أحدٌ أسرعُ إليه سوء القالة ولغَطُ العامّة بخيرٍ أو شرٍّ ممن كان في مثل حالك ومكانك الذي أصبحتَ به من دينِ الله والأملِ المرجُوّ المنتظرِ فيك. وإيّاك أن يَغمِز فيك أحدٌ من حامّتك وبطانة خدَمتك بضَعْفةٍ يجد بها مَساغا إلى النطق عندك بما لا يَعترِك عيبُه، ولا تخلو من لائمته، ولا تأمنُ سوء الأُحدُوثة فيه، ولا يرخُص سوءُ القالة به إن نجَم ظاهرا أو عَلَنَ باديا، ولن يجترئوا على تلك عندك إلا أن يروْا منك إصغاء إليها وقبولا لها وترخيصا لهم في الإفاضة بها. ثم إيّاك وأن يُفاض عندك بشيءٍ من الفُكاهات والحكايات والمِزاح والمَضاحك التي يَستخِفّ بها أهلُ البِطالة، ويتسرّع نحوها ذوُو الجهالة، ويجد فيها أهلُ الحسد مقالا لعيبٍ يُذيعونه، وطعْنا في حقّ يجحدونه؛ مع ما في ذلك من نقْص الرأي، ودَرَن العِرض، وهدْم الشرف، وتأثيل الغفْلة، وقوّة طِباع السوء الكامنة في بني آدم كَكُمُون النار في الحجر الصَّلْد، فإذا قُدِح لاح شررُه، وتلهّب وميضُه، ووَقد تضرمه. وليست في أحد أقوى سطوةً، وأظهرَ توقُّدا، وأعلى كُمونا، وأسرَع إليه بالعيب وتطرُّق الشَّين منها لَمن كان في مِثل سِنّك: من أغفال[1] الرجال وذوي العُنفُوان في الحداثة الذين لم يقع عليهم سِمَات الأمور، ناطقا عليهم لائحُها، ظاهرا فيهم وسْمُها، ولم تمحّضهم شهامتُها، مظهرةً للعامة فضلَهم، مُذيعة حسنَ الذكر عنهم؛ ولم يبلُغ بهم الصِّيت في الحُنْكة مستمَعا يدفعون به عن أنفسهم نواطِقَ ألسُن أهل البَغي، ومَوادَّ أبصار أهل الحسد.

ثم تعهّدْ من نفسك لطيفَ عيبٍ لازمٍ لكثيرٍ من أهل السلطان والقدرة: من إبطار الذرع[2] ونخوة الشّرف والتيه وعيب الصّلَف؛ فإنها تُسرع بهم الى فسادٍ وتهجينِ

(١) الأغفال جمع غفل وهو الذي لم يجرب الأمور.

(٢) يقال: أبطره ذرعه اذا حمله فوق ما يطيق. وفي صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٠١) «أبطال الذرع». وقد توقف فيها مصححه.

عقولهم فى مواطِنَ جمّة، وأنحاء مُضْطَرِفة، منها قِلّة اقتدارهم على ضبْط أنفسهم فى مواكبهم ومسايرتهم العامّة : فمن مُقَلْقِل شخصه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله، تزدهيه الخفّة، ويُبطِره إجلابُ الرجال حوله؛ ومن مُقْبِل فى موكبه على مداعبة مُسايِره بالمفاكهة له والتضاحُك إليه، والإيجاف فى السير مَرَحا، وتحريك الجوارح متسرّعا يخال أن ذلك أسرعُ له وأحثُّ لمطيته. فلتَحْسُن فى ذلك هيئتُك، ولتَجمُل فيه دَعَتك؛ وليَقِلّ على مُسايِرك إقبالُك إلا وأنت مطرِق النظر، غيرُ ملتفتٍ إلى محدِّث، ولا مقبل عليه بوجهك فى موكبك لمحادثته، ولا مُوجِف فى السير مقلْقِلٍ لجوارحك بالتحريك والاستنهاض؛ فإن حسنَ مسايرة الوالى واتّداعه فى تلك الحالة دليلٌ على كثير من غيوب أمره ومستَتِر أحواله.

واعلم أن أقواما يتسرّعون إليك بالسِّعاية، ويأتُونك على وجه النّصيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة، ويستدعونك بالإغراء والشبهة، ويُوطِئونك عَشْوة الحيْرة : ليجعلوك لهم ذريعة إلى استئكال العامّة بموضعهم منك فى القَبول منهم والتصديق لهم على من قَرَفُوه بتهمة، أو أسرعوا بك فى أمره إلى الظِّنّة؛ فلا يَصِلنّ إلى مشافهتك ساعٍ بشُبهة، ولا معروفٌ بتهمة، ولا منسوبٌ إلى بدعة فيعرِّضك لإيتاغ[1] دينك، ويحملك على رعيّتك بما لا حقيقةَ له عندك، ويُلْحِمك[2] أعراضَ قوم لا علم لك بِدَخلهم[3]، إلا بما أقدم به عليهم ساعيا وأظهر لك منهم مُنْتَصِحا. وليكن صاحبُ شُرْطتك المتولِّى لإنهاء ذلك هو المنصوبَ لأولئك، والمستمعَ لأقاويلهم، والفاحصَ عن نصائحهم؛ ثم ليُنْهِ ذلك إليك على ما يُرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه، وتَقِفه على رأيك من غير أن يَظْهَر ذلك للعامّة : فإن كان صوابا نالتك خِيَرَتُه، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل، أو فَرْطةً سعى بها كاذب، فنالت الساعيَ منها أو المظلومَ عقوبةٌ، أو بدَر من وَالِيك إليه عقوبةٌ ونَكَال، لم يَعْصِب[4] ذلك الخطأُ بك ولم تُنْسَب إلى تفريط، وخلوتَ من موضع الذمّ فيه مُحْضرا إليه ذهنك وصوابَ رأيك.

---

(١) أرتغ دينه بالإثم : أفسده. (٢) ألحمه عرض فلان : أمكنه منه يشتمه. (٣) دخل الرجل (بالفتح والكسر) : نيته ومذهبه. (٤) لم يعصب أى لم يلحق.

وتقدّمْ الى من تُولِّى ذلك الأمرَ وتعتمد عليه فيه ألا يُقْدِم على شيء ناظرًا فيه ، ولا يحاول أخْذَ أحد طارقًا له ، ولا يُعاقِبَ أحدا مُنكّلا به ، ولا يُخَلِّيَ سبيلَ أحد صالحًا عنه لإصحار(١) براءته وصحّة طريقته ، حتى يرفَع إليك أمرَه ، ويُنْهِى إليك قضيّته على جهة الصّدق ، ومَنْحَى الحقّ ، ويقين الخبر ؛ فإن رأيتَ عليه سبيلا لَحبْس أو مجازًا لعقوبة ، أمرتَه بتولِّى ذلك من غير إدخاله عليك ، ولا مشافهةٍ لك منه ؛ فكان المتولِّيَ لذلك ولم يَجرِ على يديك مكروهُ رأْى ولا غِلظةُ عقوبة . وإن وجدتَ إلى العفو عنه سبيلا ، أوكان مما قُرِف به خَليًا ، كنتَ أنتَ المتولِّيَ للإنعام عليه بتخليَة سبيله ، والصفح عنه بإطلاق أسْره ، فتولَّيتَ أجرَ ذلك وآستحققت ذُخْره ، وأنطقتَ لسانَه بشكرك ، وطوّقتَ قومَه حمْدَك ، وأوجبتَ عليهم حقّك ؛ فقرَنْت بين خَصْلتين ، وأحرزْت حُظوتين : ثوابَ الله فى الآخرة ، ومحمودَ الذكر فى الدنيا .

ثم إيّاك أن يصلَ إليك أحدٌ من جندك وجلسائك وخاصّتك وبطانتك بمسألة يَكشِفها لك ، أو حاجةٍ يَبْدَهُك بطلبها ، حتى يرفعَها قبل ذلك إلى كاتبك الذى أهدفتَه لذلك ونصبتَه له ، فيعرِضَها عليك مُنْهيا لها على جهة الصّدق عنها ، وتكونَ على معرفة من قدْرها : فإن أردتَ إسعافَه بها ونجاحَ ما سألَ منها ، أذنتَ له فى طلبها ، باسطًا له كَنَفك ، مُقبِلا عليه بوجهك ، مع ظهور سرورك بما سألك ، وفُسْحة رأى وبَسْطة ذَرْع ، وطيب نفس . وإن كَرِهتَ قضاء حاجته ، وأحببتَ ردَّه عن طَلِبته ، وثقُل عليك إجابتُه إليها وإسعافُه بها ، أمرتَ كاتبك فصفَحه(٢) عنها ، ومنعه من مواجهتك بها ؛ فخفَّت عليك فى ذلك المؤونةُ ، وحَسُن لك الذِّكرُ ، ولم يَنْشَر عنك تجهُّم الردّ ، وينَلْك سوءُ القالة فى المنع ، وحُمِل على كاتبك فى ذلك لائمةٌ أنت منها برىء الساحة .

وكذلك فليكن رأيُك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود وأتاك من الرُّسل ، فلا يَصلنَّ إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك ، وعلم ما قَدِم له عليك ، وجهةِ ما هو مكلِّمك

(١) أى لوضوح براءته ؛ ففى حديث علىّ : فأصحر لعدوّك ؛ أى كن من أمره على أمر واضح .
(٢) صفحه عنها ؛ ردّه عنها .

به ، وقَدْرِ ما هو سائلُك إيّاه إذا هو وصل إليـك ، فأصدرتَ رأيك فى حوائجه ، وأجَلْتَ فكرك فى أمره ، وآخترْتَ معـتزما على إرادتك فى جوابه ، وأنفـذْت مصدور رَوِيَّتـك فى مَرجوع مسألته قبـل دخوله عليك ، وعلمه بوصول حاله إليك ؛ فرفعتَ عنك مؤونةَ البديهة ، وأرخيتَ عن نفسك خِناق الرَّوِيَّة ، وأقدمتَ على ردّ جوابه بعـد النظر وإجالة الفكر فيه . فإن دخل إليك أحدٌ منهم فكلّمك بخلاف ما أَنْهى إلى كاتبك وطوى عنه حاجته قِبَلك ، دفعْته عنك دَفعا جميلا ، ومنعتَه جوابك منعا وديعـا ؛ ثم أمرتَ حاجبَك بإظهار الجفوة له والغِلْظة عليـه ، ومنْعه من الوصول إليك ؛ فإن ضَبْطَك لذلك مما يُحْكِم لك تلك الأسباب ، صارفًا عنك مؤونتها ، ومسهِّلا عليك مُستَصْعَبَها .

اِحذرْ تضييعَ رأيك وإهمالَك أدبَك فى مسالك الرضا والغَضب وآعتِوارهمـا إياك ، فلا يَزْدَهِيَنَّك إفراطُ عُجب تستخِفّك روائعُه ، ويستهويك مَنظَرُه ، ولا يَبْـدُرَنّ منك ذلك خَطَأً ونَزَق خِفّـة لمكروه إن حلّ بك ، أو حادثٍ إن طرأ عليك . وليكن لك من نفسك ظِهْرِىٌّ مَلجأ تحترز به من آفاتِ الردى ، وتستَعْضِده فى مُهِمٍّ[(١)] نازلٍ ، وتتعقّب به أمورك فى التـدبير . فإن آحتجتَ إلى مادّة من عقلك ، وروِيّةٍ من فكرك ، أو آنبساطٍ من منطقك ، كان آحيازُك إلى ظِهْرِيِّك مُزدادا ممـا أحببتَ الآمتياح منـه والآمتيار ؛ وإن آســتدبرتَ[(٢)] من أمورك بوادرَ جهـل أو مضىّ زلل أو معاندةُ حقٍّ أو خطَلُ تدبيرٍ ، كان ما آحتجتَ إليه من رأيك عذرا لك عند نفسك ، وظِهْرِيًّا قويًّا على ردّ ما كرهت ، وتخفيفًا لمؤونة الباغين عليك فى القالة وآنتشار الذكر ، وحصْنا من غُلُوب الآفاتِ عليك ، وآستعلائها على أخلاقك .

وآمنعْ أهلَ بطانتك وخاصّةَ خدمك من آستِلْحام أعراض النـاس عندك بالغِيبَة ، والتقرّب اليك بالسّعاية ، والإغراءِ من بعضٍ ببعض ؛ أو النميمةِ اليك بشىء من أحوالهم

(١) فى صبح الأعشى : « وتستعضد فى موهم النازل » . وفى رسائل البلغاء : «وتستعهده فى مهم نازل» . وآخترنا من العبارتين ما يناسب المقام .

(٢) كذا فى صبح الأعشى والمفتاح ورسائل البلغاء ، ولعله وإن ابتدرت ... الخ .

المستترة عنك، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة : فإن ذلك أبلغُ بك سموّا الى مَنالة الشرف، وأعونُ لك على محمود الذكر، وأطلقُ لعنان الفضل فى جَزالة الرأى وشرف الهمة وقوّة التدبير .

وآملك نفسَك عن الانبساط فى الضحك والانفهاق، وعن القطوب بإظهار الغضب وتنحُّله : فإن ذلك ضَعْف عن مِلْك سَوْرَة الجهل، وخروجٌ من انتحال اسم الفضل . وليكن ضَحِكك تبسُّمًا أو كَشْرا فى أحايين ذلك وأوقاته، وعند كلّ رائع مستخِفّ مُطْرِب؛ وقطوبُك إطراقا فى مواضع ذلك وأحواله، بلا عَجَلة الى السَّطوة، ولا إسراعٍ الى الطِّيَرة، دون أن تكنُفها روِيَّةَ الحلم، وتملك عليها بادرة الجهل .

اذا كنتَ فى مجلس مَلَئك، وحيث حضور العامّة مجلسَك، فإياك والرمْىَ بنظرك الى خاصّ من قُوّادك، أو ذى أُثْرة عنـدك من حشمك . وليكن نظرُك مقسومًا فى الجميع، وإراعتُك سمعَك ذا الحديث بدَعةٍ هادئة، ووقارٍ حسن، وحضورِ فَهْم مجتمع، وقلّةِ تضجّر بالمحدِّث، ثم لا يبرح وجهُك الى بعض حرسك وقوّادك متوجها بنظرٍ ركين، وتفقّدٍ محض. وإن وجّه اليك أحد منهم نظره محدِّقا، أو رماك ببصره مُلِحّا، فاخفض عنه إطراقا جميلا باتّداع وسكون . وإيّاك والتسرّعَ فى الإطراق، والخفّةَ فى تصريف النظر، والإلحاحَ على من قصد اليك فى مخاطبته إيّاك رامقًا بنظره .

واعلم أن تصفُّحك وجوه جلسائك وتفقُّـدك مجالِسَ قوّادك من قوّة التدبير، وشهامة القلب، وذكاء الفطنة، وانتباه السِّنة . فتفقَّد ذلك عارفا بمن حضَرك وغاب عنك، عالما بمواضعهم من مجلسك، ثم اعْدُ بهم عن ذلك سائلا لهم عن أشغالهم التى منعَتْهم من حضور مجلسك، وعاقتهم بالتخلّف عنك .

إن كان أحدٌ من حشمك وأعوانك تثِقُ منه بغيب ضمير، وتعرف منه لِينَ طاعة، وتُشرف منه على صحة رأى، وتأمَنه على مشورتك، فإيّاك والإقبالَ عليه فى كلّ حادثٍ يَرِد عليك، والتوجّهَ نحوه بنظرك عند طوارق ذلك، وأن تُرِيَه أو أحدا من أهل مجلسك أن

بك حاجةً اليه مُوحِشة ، أو أن ليس بك عنه غِنًى فى التدبير، أو أنّك لاتقضى دونَه رأيا ، إشراكًا منك له فى رويّتــك، وإدخالا منك له فى مشُورتك، وآضطرارا منــك الى رأيه فى الأمر يَعْرُوكَ : فإن ذلك من دخائل العيوب التى ينتشر بها سوءُ القالة عن نظرائك ، فانفها عن نفســك خائفا لآعتلاقها ذِكرك، وآحجُبها عن رويّتك قاطعا لأطماع أوليائك عن مثلها عِندك ، أو غُلُوبهم عليها منك .

وآعلم أن للشورة موضعَ الخَلْوة وآنفرادَ النظر، ولكل أمرٍ غاية تُحيط بحدوده، وتجمعُ معالمَه . فابغها مُحْرِزا لها ، ورُمْها طالبــا لنَيْلها ؛ وإيّاك والقصورَ عن غايتها أو العجزَ عن دَرْكها، أو التفريط فى طلبها . إن شاء الله تعالى .

إيّاك والإغرامَ عن حديثٍ مّا أعجبك، أو أمرٍ مّا آزدهاك بكثرة السؤال، أو القَطْعَ لحديث مَن أرادك بحديثه حتى تنقُضَه عليه بالخوْض فى غيره أو المسألة عما ليس منه : فان ذلك عند العامّة منسوب الى ســوء الفهم وقِصَر الأدب عن تناوُل محاسن الأمور والمعرفة بمساويها ، ولكن أنْصِت لمحدّثك وأرْعِه سمعَك حتى يعلم أن قد فهمتَ حديثه، وأحطتَ معرفةً بقوله ؛ فان أردتَ إجابتَه فعن معرفةٍ بحاجته وبعد عِلم بطَلِبته ؛ وإلا كنتَ عند آنقضاء كلامه كالمتعجِّب من حديثه بالتبسّم والإغضاء، فأجْزَى عنك الجواب، وقطَع عنك ألسُن العَتْب .

إيّاك وأن يظهر منك تبرّم بطول مجلسك ، أو تضَجُّر ممّن حضرك؛ وعليك بالتثبُّت عند سَوْرة الغضب ، وحَمِيّــة الأَنَف، ومَلَال الصبر : فى الأمر تستعْجِل به والعملِ تأمُر بإنفاذه؛ فان ذلك سُخْف شائن، وخِفّة مُرْدِيَة ، وجهالة بادية . وعليك بثبوت المنطِق ، ووقار المجلس ، وســكون الريح ، والرّفض لحَشْو الكلام ، والتّرْك لفضوله والإغرامِ بالزيادات فى منطقك، والترديد للفظك : من نحو آسمع ، وآفهم عنّى ،ويا هَنَاه ، وألا تَرَى ، أو ما يُلْهَج به من هــذه الفضول المقصِّرة بأهل العقل، الشائنــة لذوى الحِجــا فى المنطِق ، المنسوبة إليهم بالعِىّ، المُرْدِية لهم بالذّكر . وخِصالٌ من مَعايب الملوك ، والسُّوقة عنها غبيّة

النظرِ إلّا من عرفها من أهل الأدب ، وقلّما حاملٌ لها ، مضطلع بها ، صابرٌ على ثقلها ، آخذٌ لنفسه بجوامعها ، فأنفها عن نفسك بالتحفّظ منها ، وآملكْ عليها آعتيادك إياها معتنيا بها ، منها كثرةُ التنخّم ، والتبصّق ، والتنحّع ، والتّؤباء ، والتمطّى ، والجُشاء ، وتحريك القَدَم ، وتنقيضُ الأصابع (١) ، والعبثُ بالوجه واللّحية أو الشارب أو المِخْصَرة أو ذؤابة السيف ، أو الإيماضُ بالنظر ، أو الإشارةُ بالطَّرف إلى بعض خَدَمك بأمر إن أردتَه ، أو السِّرار فى مجلسك ، أو الآستعجال فى طَعْمك أو شُرْبك . وليكن طَعْمك متّدعا ، وشُرْبك أنفاسا ، وجَرْعك مصّا . وإياك والتسرّعَ إلى الأيمان فيما صَغُر أو كَبُر من الأمور ، والشّتيمةَ بقول : يآبن الهَنَاه ؛ أو الغميزة (٢) لأحدٍ من خاصّتك بتسويغهم مُقارَفة الفُسُوق بحيث مَحْضُرك أو دارُك وفناؤك : فان ذلك كله مما يقبُحُ ذكرُه ، ويسوء موقعُ القول فيه ، وتحمّلُ عليك معايبُه ، وينالك شينُه ، وينتشِر عليك سوءُ النبإ به . فاعرفْ ذلك متوقّيا له ، وآحذَره مجانبا لسوء عاقبته .

آستكثِرْ من فوائد الخير : فانها تنشُر المحمدة ، وتُقيل العثرة ، وآصبِر على كَظْم الغيظ : فانه يورث الراحة ، ويؤمّن الساحة ، وتعهّد العامّةَ بمعرفة دَخْلهم ، وتبطُّنِ أحوالهم ، وآستثارةِ دفائنهم ، حتى تكون منها على رأْيِ عَيْن ، ويقينِ خِبْرة ، فتُنْعِش عديمَهم ، وتجبُر كسيرهم ، وتُقيم أوَدَهم ، وتعلِّم جاهلهم ، وتستصلح فاسدَهم : فان ذلك من فِعلك بهم يورثك العزّة ، ويقدّمك فى الفضل ، ويُبقى لك لسان الصّدق فى العاقبة ، ويُحرِز لك ثوابَ الآخرة ، ويردّ عليك عواطفهم المستنْفِرة منك ، وقلوبَهم المتنحية عنك .

قِسْ بين منازل أهل الفضل فى الدّين والحِجا والرأى والعقل والتدبير والصِّيت فى العامّة ، وبين منازل أهل النّقْص فى طبقات الفضل وأحواله ، والخمول عند مُباهاة النّسب ؛ وآنظُرْ بصحبة أيّهم تنال من مودّته الجميل ، وتستجْمِع لك أقاويلَ العامّة على التفضيل ، وتبلُغ درجةَ الشرف فى أحوالك المتصرِّفة بك . فاعتمِد عليهم مُدْخِلا لهم فى أمْرك ، وآثرهم بمجالستك لهم مستمِعًا منهم ، وإيّاك وتضييعَهم مفرّطا ، وإهمالَهم مضيِّعا .

(١) يقال : أنقض أصابعه : صوّت بها وليس فى كتب اللغة نقض بالتضعيف . (٢) الغميزة : المطعن .

هذه جوامع خصال قد لخّصها لك أميرُ المؤمنين مفسّرا، وجمع لك شواذّها مؤلّفا، وأهداها إليك مُرْشِداً؛ فقِفْ عند أوامرها، وتَناهَ عن زواجرها، وتثبّتْ في مجامعها؛ وخُذْ بوثائق عُرَاها، تَسْلَم من معاطب الرّدى، وتَنَلْ أنفَس الحظوظ ورغيبَ الشّرف؛ وأعلى دَرَج الذّكر، وتأثَّل[1] سَطْر العزّ. واللهَ يسأل لك أميرُ المؤمنين حُسْنَ الإرشاد، وتتابُعَ المزيد، وبلوغَ الأمل، وأن يجعل عاقبة ذلك بك الى غِبْطة يُسوِّغُك إيّاها، وعافيةٍ يُجلِّلك أكنافَها، ونعمةٍ يُلهِمُك شكرها: فإنه الموفّق للخير، والمعينُ على الإرشاد؛ منه تمامُ الصالحات، وهو مُؤْتِي الحسنات، عنده مفاتيحُ الخير، وبيده المُلك وهو على كلّ شيءٍ قدير.

فاذا أفضيتَ نحو عدُوّك، وآعتزمتَ على لقائهم، وأخذتَ أُهْبة قتالهم، فاجعلْ دِعامَتك التي تلجأ اليها، وثقتك التي تأمل النجاةَ بها، ورُكْنك الذى ترتجى منالةَ الظَّفر به وتكتنِف[2] به لمعالق الحذر، تقوى الله مستشعرًا لها بمراقبته، والاعتصام بطاعته متبِعًا لأمره، مجتنبًا لسُخطه، محتذيًا سُنّته، والتوقّي لمعاصيه في تعطيل حدوده، أو تعدّى شرائعه؛ متوكّلا عليه فيما صَمَدْتَ له، واثقًا بنصره فيما توجّهت نحوه، متبرئا من الحوْل والقوّة فيما نالك من ظَفَر وتلقّاك من عِزّ، راغبًا فيما أهاب[3] بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد، ورمى بك اليه محمودَ الصبر فيه عند الله من قتال عدوّ المسلمين، أكْلَبِهم[4] عليه وأظهرَه عداوة لهم، وأفدحه ثِقْلا لعامّتهم، وآخذه برِبَقِهم، وأعلاه عليهم بَغْيا، وأظهرَه عليهم فسقا وفجورا، وأشدّه على فَيْئهم الذى أصاره اللهُ لهم وفتحه عليهم مؤونةً وكَلًّا[5]. والله المستعانُ عليهم، والمستنصَر على جماعتهم، عليه يتوكّل أمير المؤمنين، وإياه يستصْرِخ عليهم، وإليه يفوّض أمره، وكفى بالله وليًّا وناصرا ومُعينا، وهو القويّ العزيز.

ثم خُذْ من معك من تُبّاعك وجندك بكَفّ مَعَرّتهم، وردّ مشتعِل جهلهم، وإحكام ضَياع عملهم، وضمّ منتَشِر قواصيهم، ولَمّ شعَث أطرافهم، وتقييدهم عمّن مرّوا به من

(١) تأثل: تثبت. (٢) اكتنف الكهف: دخله. (٣) أهاب بك: دعاك.
(٤) من قولهم كلب الدهر على أهله اذا اشتدّ وألح. (٥) الكل: الثقل.

أهل ذِمّتك وملّتك بحُسن السـيرة، وعفاف الطُّعْمة، ودَعَة الوَقار، وهَدْى الدَّعَة، وجَمَام المستجمّ، محكما ذلك منهم، متفقّدا لهم تفقّدك إيّاه من نفسك. ثم ٱصْمِد لعدوّك المتسمّى بالإسـلام، الخارج من جماعة أهله، المنتحل ولاية الدّين مستحلّا لدماء أوليـائه، طاعنًا عليهم، راغبا عن سُنّتهم، مفارقا لشرائعهم، يَبْغِيهم الغوائلَ، ويَنْصِب لهم المكايد؛ أَضْرَم حِقدًا عليهم، وأرصَد عداوةً لهم، وأَطْلَبَ لغرّات فُرَصهم من التُّرك وأُمم الشِّرك وطواغى المِلل؛ يدعو الى المعصية والفُرقة، والمُروق من دين الله الى الفتنـة، مخترعا بهَواه للأديان المنتحَلَة والبِدع المتفرّقة خَسَارا وتخسيرا، وضَلالا وتضليلا، بغير هدًى من الله ولا بيان. ساء ما كسبتْ له يداه وما الله بظلّام للعبيـد، وساءَ ما سوّلتْ له نفسُه الأمّارةُ بالسوء، والله من ورائه بالمرصاد: ﴿ وسَيَعْلَمُ الّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾.

حَصِّنْ جنـدك، وٱشْكُمْ نفسك بطاعة الله فى مجاهَـدة أعدائه، وٱرجُ نصرَه، وتَنجّز موعوده، متقدّمًا فى طلب ثوابه على جهادهم، معتزمًا فى ٱبتغاء الوسيلة إليه على لقائهم: فإن طاعتك إيّاه فيهم، ومراقبتَك له ورجاءَك نَصْرَه مسهِّلٌ لك وُعورَه، وعاصِمُك من كل سُـبّة، ومُنجيك من كل هُوّة، وناعِشُك من كلّ صَرْعة، ومُقيلك من كل كَبْوة، ودارئٌ عنـك كلّ شبهة، ومُذْهِب عنك لَطخة كلّ شك، ومُقَوّيك بكل أَيْد[1] ومكيدة، ومُعِزّك فى كل مُعْتَرك قِتال، ومؤيّدك فى كل مَجْمع لقاء، وكالئُك عنـد كل فتنةٍ مُغْشِية[2]، وحائطك من كل شبهة مُرْدِية، والله وليُّك وولىّ أمير المؤمنين فيك، والمستخلَف على جنـدك ومن معك.

اعلم أن الظَّفَر ظَفَران: أحدُهما — وهو أعمّ منفعةً، وأبلغُ فى حسن الذكر قالَةً، وأحوطُه سلامةً، وأتمّه عافيةً، وأحسنُه فى الأمور وأعلاه فى الفضل شرفًا، وأصحُّه فى الرَّوِيّة حَزْما، وأسلمُه عنـد العامّة مَصْدرا — ما نيل بسلامة الجنود، وحُسن الحِيلة، ولُطف المكيدة ويُمْن النَّقيبة، وٱستنزال طاعة ذوى الصُّدوف بغير إخطار الجيوش فى وَقْدة جَمْرة الحرب،

(١) الأيد: القوّة. (٢) أى مدلهمة سوداء، من قولهم: أغشى الليل اذا أظلم.

ومبارزة الفرسان فى معترك الموت ، وإن ساعدتك طُلُوق الظّفَر ، ونالك مزيدُ السعادة فى الشرف ، فهى مُخاطرة التلَف مكروهُ المصائب ، وعضاضُ السيوف وألم الجراح ، وقصاص الحروب وسجالها بمُغاورة(١) أبطالها . على أنك لا تدرى لأىٍّ يكون الظّفَر فى البديهة ، ومن المغلوبُ بالدولة ، ولعلك أن تكون المطلوبَ بالتمحيص . فحاولْ إصابةَ أبلغهما فى سلامة جندك ورعيّتك ، وأشهرِهما صيتًا فى بُدُوّ تدبيرك ورأيك ، وأجمعهما لألفة وليّك وعدوّك ، وأعونهما على صلاح رعيّتك وأهل ملّتك ، وأقواهما شكيمةً فى حَزْمك ، وأبعدهما من وَصْم عزمك ، وأعلقهما بزمام النجاة فى آخرتك ، وأجزلها ثوابا عند ربّك .

وابدأ بالإعذار إلى عدوّك ، والدعاء لهم إلى مراجعــة الطاعة وأمرِ الجمــاعة وعزّ الأُلْفة ، آخذًا بالحجّة عليهم ، متقــدّمًا بالإنذار لهم ، باسطًا أمانك لمَنْ لجأ إليك منهم ، داعيًا لهم اليه بألين لفظك وألطف حِيَلك ، متعطّفا برأفتك عليهم ، مترفّقا بهــم فى دُعائك ، مشفقا عليهم من غَلَبة الغَوَاية لهم وإحاطة الهَلَكة بهم ، منفذا رُسُلك إليهم بعــد الإنذار : تَعِدُهم إعطاءَ كلّ رغبة يَهَشّ إليها طَمَعُهم فى موافقة الحقّ ، وتَبْسط كل أمان سألُوه لأنفسهم ومَنْ معهم ومن تَبِعهم ؛ موطِّنًا نفسَك فيما تبسُط لهم من ذلك على الوفاء بعهــدك ، والصبرِ على ما أعطيتَهم من وثائق عَقْدك ؛ قابِلًا توبةَ نازعهم عن الضّلالة ، ومُراجَعةَ مُسيئهم إلى الطاعة ؛ مُرصِدا للْمُنحاز إلى فِئــة المسلمين وجماعتهم إجابةً إلى مادعوتَه إليه وبصّرتَه إيّاه من حقّك وطاعتك ، بفضل المنزلة ، وإكرام المَثْوَى ، وتشريف الجاه . وليَظْهَرْ من أثَرك عليــه وإحسانك إليــه ما يرغَب فى مثله الصادفُ عنك ، المُصِرّ على خلافك ومعصيتك ؛ ويدعو إلى اعتلاق حبْل النجاة وما هو أمْلَك به فى الاعتصام عاجلا ، وأنجى له من العقاب آجلا ، وأحوطُه على دينه ومهجته بَدْءًا وعاقبةً ؛ فإن ذلك مما يَستدْعى به من الله نصرَه عليهم ، ويعتضِدُ به فى تقديمه الحجّة إليهم ، مُعْذرا أو مُنْذرا ، إن شاء الله .

(١) المغاورة : المقاتلة . (٢) كذا فى صبح الأعشى ويظهر أن السياق يقتضى معمولا لهذا الفعل اما ضميرا أو اسما ظاهرا .

ثم أذْكِ عيونَك على عدوّك متطلّعا لعلم أحوالهم التى يتقلّبون فيها، ومنازلهم التى هم بها، ومطامعهم التى قد مَدُّوا أعناقهم نحوها، وأىُّ الأمور أدعى لهم إلى الصّلح، وأقودُها لرضاهم إلى العافية، وأسهلُها لاستنزال طاعتهم، ومن أىّ الوجوه مأْتَاهم: أمِنْ قِبَل الشدّة والمُنافرة والمكيدة والمُباعدة والإرهاب والإيعاد، أم التّرغيب والإطماع؛ متثبّتا فى أمرك، متخيّرا فى رويّتك، مستمكنا من رأيك، مستشيرا لذوى النصيحة الذين قد حنّكتهم السّنُّ، وخبطتهم التجربة، ونجّذتهم الحروبُ، مُتَشَزِّنًا(١) فى حربك، آخذا بالحَزم فى سوء الظن، مُعِدًّا للحَذَر، محترسًا من الغِرّة؛ كأنّك فى مَسيرك كلّه ونزولك أجمع مُواقفٌ لعدوّك رأْىَ عينٍ تنتظرُ حملاتهم، وتخوّف كَرّاتهم، مُعِدًّا أقوى مكايدك، وأرهبَ عتادك، وأنكأَ جِدّك، وأجدَّ تشميرك؛ معظّما أمرَ عدوّك لأعظَمَ مما بلغك، حَذَرا يكاد يُفرِط: لتُعِدّ له من الاحتراس عظيما، ومن المكيدة قويًّا؛ من غير أن يَفْثأَك(٢) ذلك عن إحكام أُمورك، وتدبير رأيك، وإصدار رويّتك، والتأهُّب لما يَحْزُبك؛ مصغِّرا له بعد استشعار الحذر، واضطِّهار الحزم، وإعمال الرّويّة، وإعداد الأُهْبة. فإن ألفيتَ عدوّك كايلَ الحدّ، وَقْم(٣) الحزم، نَضِيضَ(٤) الوَفْر، لم يضرّك ما اعتدَدتَ له من قوّة وأخذت له من حزم، ولم يزدْك ذلك إلا جُرأةً عليه، وتسرّعا إلى لقائه. وإن ألفيتَه متوقِّد الحرب، مُستكثِف الجمع، قويّ التّبَع، مُستعلِيَ سَورة الجهل، معه من أعوانِ الفتنة وتَبَع إبليس من يُوقِد لهَبَ الفتنة مُسَعِّرا، ويتقدّم الى لقاء أبطالها متسرِّعا، كنت لأخْذك بالحزم، واستعدادك بالقوّة، غيرَ مُهين الجند، ولا مفرِّط فى الرأى، ولا متلهِّف على إضاعة تدبيرٍ، ولا محتاجٍ الى الإعداد وعجلة التأهّب مبادرةً تدهَشك، وخوفًا يُقلِقك. ومتى تغترَّ بترقيق المرقِّقين، وتأخذ بالهُوَينا فى أمر عدوّك لتصغير المصغِّرين، ينتشر عليك رَأْيُك، ويكون فيه انتقاضُ أمرك ووهْنُ تدبيرك، وإهمالٌ للحزم فى جندك،

(١) تشزن للأمر: استعدّ له.

(٢) يفثأك (بالفاء والثاء المثلثة) أى يكسرك ويؤخرك. (٣) كذا فى صبح الأعشى. ولعلها «وقوم الحزم» أى مقهورة أو لعلها محرفة عن كلمة أخرى بمعنى الضعف أو القلة. (٤) نضيض: قليل. والوفر: المال.

وتضييعٌ له وهو مُمْكِن الإصحار، رَحْب المَطْلَب، قوىّ العصمة، فسيحُ المضْطَرب؛ مع مايدْخُل رعيّتك من الاغترار والغفلة عن إحكام أحراسهم، وضبْط مراكزهم، لما يروْن فيه من آستنامتك الى الغرّة، وركُونك الى الأمن، وتهاوُنك بالتدبير؛ فيعود ذلك عليك فى آنتشار الأطراف، وضَياع الأحكام، ودخول الوهن بما لايُستقال محذوره، ولا يُدفع مخُــوفُه .

اِحفظْ من عيونك وجواسيسك ما يأتُونك به من أخبار عدوّك . وإيّاك ومعاقبةَ أحدٍ منهم على خَبَرٍ إن أتاك به آتّهمته فيه أو سُؤتَ به ظنًّا وأتاك غيرُه بخلافه، أو أن تكذّبه فيه فتردَّه عليـه، ولعلّه أن يكون قد مَحَضَك النصيحةَ وصدَقَك الخبرَ وكذَبَك الأوّلُ، أو خرج جاسُوسُك الأوّل متقدِّما قبل وصول هذا من عند عدوّك، وقد أبرموا لك أمرا، وحاولوا لك مكيدة وأرادوا منك غِرّة فازْدَلفوا إليك فى الأُهْبة، ثم آنتقض بهم رأيُهــم وآختلف عنه جماعتُهــم، فأرادوا رأيًا، وأحدثوا مكيـدة، وأظهروا قوّة، وضربوا موعدا، وأمُّوا مَسلَكا لمَدَدٍ أتاهم، أو قوّةٍ حدثَت لهم، أو بصيرةٍ فى ضَلالةٍ شغلتهم؛ فالأحوالُ بهم متنقّلة فى الســاعات، وطوارق الحادثات . ولكن آلْبَسْهم جميعا على الآنتصاح، وآرضَخْ لهم بالمطامع، فإنّك لن تستعبِدَهم بمثلها . وعِدْهُم جَزَالة المَثاوب، فى غير ما آستنامةٍ منــك إلى ترقيقهم أمْرَ عدوّك، والاغترار إلى ما يأتُونك به دون أن تُعمِل رويّتك فى الأخذ بالحزم، والاستكثار من العُــدّة . وآجعلهم أوثقَ من تَقْدر عليـه، وآمَنَ من تسكُن إلى ناحيته؛ ليكون ما يُبرِم عدوّك فى كل يوم وليلة عنــدك إن آستطعتَ ذلك، فتنقُضَ عليهم برأيك وتدبيرك ما أبرموا، وتأتيَهم من حيث أمِنُوا، وتأخذَ لهم أهبة ما عليه أقدموا، وتستعدَّ لهم بمثل ماحَذِروا .

وآعلم أن جواسيسَك وعيونك ربما صدَقُوك وربما غشُّوك، وربما كانوا لك وعليك: فنصَحُوا لك وغشّوا عدوّك، وغشّوك ونصحوا عدوّك؛ وكثيرا مايصدُقُونك ويصدُقُونه . فلا تَبْدُرَنّ منك فَرْطة عقوبةٍ إلى أحد منهــم، ولا تعجَل بسوء الظن إلى من آتّهمته على

ذلك ، وٱستنزِلْ نصائحهــم بالمِيَاحة(١) والمَنَالة ، وٱبسُط من آمالهم فيك من غير أن يرى أحدٌ منهم أنك أحذتَ من قوله أخْذَ العامل به والمتّبِـع له ، أو عملتَ على رأيه عَمَلَ الصادر عنــه ، أو رَددْتَه عليه ردَّ المكذِّب به ، المتهم له ، المستخِفّ بمـا أتاك منه ، فتُفسِدَ بذلك نصيحتَه ، وتَسْتدْعى غِشَّــه ، وتَجترَّ عداوتَه . وٱحذَرْ أن يُعْرَفوا فى عسكرك أو يُشار إليهم بالأصــابع . وليكن منزلُهم على كاتبِ رسائلك وأمينِ سِرِّك ، ويكونـ هو الموجِّه لهم ، والمُدخِل عليك من أردتَ مشافهتَه منهم .

وٱعلمْ أن لعدوّك فى عسكرك عُيونًا راصدة ، وجواسِيسَ متجسِّسة(٢) ، وأنه لن يقع رأيُه(٣) عن مكيدتك بمثل ما تُكايده به ، وسيحتال لك كٱحتيالك له ، ويُعِدّ لك كاعدادك فيما تُزاوله منه ، ويُحاوِلُك كمحاولتك إيّاه فيما تقارِعه عنه ، فٱحذرْ أن يُشْهَر رجلٌ من جواسيسك فى عسكرك فيبلُغَ ذلك عدوَّك ويعرِف موضــعَه ، فيُعِدّ له المَراصد ، ويحتال له بالمَكايِد . فإن ظَفِر به فأظهَر عقوبتَــه ، كَسَر ذلك ثِقاتِ عيُونك ، وخذّلهم عن تطلُّب الأخبار من معادِنها ، وٱستِقصائِها من عيونها ، وٱستِعْذاب ٱجتنائها من ينابيعها ، حتى يصيروا إلى أخذها ممـا عَرَض من غير الثّقة ولا المُعاينَة ، لَقْطًا لهـا بالأخبار الكاذبة ، والأحاديث المُرْجِفة . وٱحذرْ أن يعرِف بعضُ عيونك بعضا : فإنّك لا تأمَن تواطُؤَهم عليك ، ومُمالأتَهم عدوَّك ، وٱجتماعَهم على غِشِّك ، وتطابُقَهم على كذبك ، وإصفاقَهم(٤) على خِيانتك ، وأن يورِّط بعضُهم بعضا عند عدوّك . فأحْكِم أمرَهم فإنهم رأسُ مكيدتك ، وقِوامُ تدبيرك ، وعليهم مَدار حرْبك ، وهو أوّل ظفرك . فاعْمَــل على حَسَب ذلك وحيث رجاؤك به ، تَنَــلْ أملَك من عدوّك ، وقوّتَك على قتاله ، وٱحتِيالَك لإصابة غِرّاته وٱنتهازِ فُرَصه ، إن شاء الله .

فإذا أحكمتَ ذلك وتقدّمتَ فى إتقانه ، وٱستظهرت بالله وعونْه ، فولِّ شُرْطتَك وأمرَ عسكرِك أوثقَ قوّادِك عندك ، وأظهرَهم نصيحةً لك ، وأنفذَهم بصيرةً فى طاعتك ، وأقواهم

(١) المياحة : الإعطاء .

(٢) فى مفتاح الأفكار ورسائل البلغاء : « كامنــة » . (٣) فى رسائل البلغاء : « وأن رأيه فى مكيدتك مثل ما تكايده به » . (٤) إصفاقهم : اجتماعهم .

شكيمةً فى أمرك، وأمضاهم صَرِيمةً[١]، وأصدقَهم عفافا، وأجزأهم غَنَاء، وأكفاهم أمانةً، وأصحَّهم ضميرا، وأرضاهم فى العامّة دِيناً، وأحمدهم عند الجماعة خُلُقاً، وأعطفهم على كافّتهم رأفةً، وأحسنَهم لهم نظرا، وأشدَّهم فى دِين الله وحقّه صلابةً. ثم فوّض إليـه مُقَوِّيا له، وآبسُط من أمَله مُظهِرا عنـه الرضا، حامدًا منه الاَبْتـلاء. وليكن عالمـا بمراكز الجنود، بصـيرا بتقدّم المنازل، مجرِّبا، ذا رأى وحزم فى المكيـدة؛ له نباهةٌ فى الذّكر، وصيتٌ فى الوِلاية؛ معروفَ البيت، مشهورَ الحسب. وتقـدّم إليه فى ضَبْط مُعَسكره، وإذكاءِ أحراسه فى آناء ليله ونهاره، ثم حذِّره أن يكون منه إذنٌ لجنوده فى الاَنتشار والاَضطراب، والتقـدّم لطلائعك، فتُصابَ لهم غِرّة يجترئُ بهـا عدوُّك عليـك، ويُسرِع إقداما إليك، ويكسر من إياد[٢] جندك ويوهِن من قوّتهم: فإن الصوت[٣] فى إصابة عدوّك الرجلَ الواحد من جندك أو عبيدهم مُطمِعٌ لهم فيك، مُقوٍّ لهم على شَحْذ أتباعهم عليك وتصغيرهم أمْرَك، وتوهينهم تدبيرَك. فحذِّره ذلك وتقدّمْ إليه فيه؛ ولا يكوننّ منه إفراطٌ فى التضييق عليهم، والحَصْر لهم، فيعُمَّهم أزْلُه[٤]، ويشملَهُم ضَنْكه، وتسوءَ عليهم حالُه، وتشتدّ به المؤونةُ عليهم، وتخبُث له ظنونهم. وليكن موضعُ إنزاله إيّاهم ضامًّا لجماعتهم، مستديرًا بهم جامعًا لهم؛ ولا يكون منبسطا منتشرا متبدِّدا، فيَشُقّ ذلك على أصحاب الأحراس، وتكون فيـه النُّهزة للعدوّ، والبُعد من المـادّة[٥] إن طرَق طارقٌ فى فَجَآتِ الليل وبَغَتاته. وأوْعِز إليه فى أحراسه، وتقدّمْ إليـه فيهم كأشَدّ التقدُّم وأبلَغ الإيعاز. ومُرْه فلْيُوَلِّ عليهم رجلا ركينا مجرِّبا جرىء الإقدام، ذاكِىَ الصّرامة، جَلْد الجوارح، بصـيرًا بمواضع أحراسه، غيرَ مُصانَع ولا مشفِّع للناس فى التنحِّى إلى الرَّفاهية والسَّعة، وتقدُّمِ العسكر والتأخُّر عنه، فإن ذلك ممـا يُضعِف الوالىَ ويُوهنه لاَستنامته إلى من وَلّاه ذلك وأمنه به على جيشه.

وآعلمْ أن مواضعَ الأحراس من معسكرك، ومكانَها من جنـدك، بحيث الغنـاءُ عنهم والردّ عليهم، والحفظُ لهم، والكِلاءَة لمن بَغتَهم طارقا، أو أرادهم خاتِلا؛ ومراصِدُها المُنْسَلّ

(١) الصريمة: العزيمة. (٢) فى مفتاح الأفكار وغيره: «أفئدة». وإياد كل شىء: ما يقوى به من جانبيه ومنه إيادا العسكر وهما ميمنته وميسرته. (٣) الصوت: كالصيت والصات: الذكر والشهرة.
(٤) الأزل: الضيق والشدّة. (٥) المـادة: كل مدد تستعين به فى حرب أو غيره.

منها والآبِق من أَرِقائِهم وأَعْبُدهم ؛ وحفظُها من العيون والجواسيس من عدوّهم . واحذر أن تضرِبَ على يديه أو تشكُمه عن الصّرامة بمؤامَرتك فى كلّ أمر حادثٍ وطارئ إلا فى المهمّ النازل والحَدَث العام : فإنك إذا فعلتَ ذلك به ، دعوته إلى نُصْحك ، واستوليتَ على محصول ضميره فى طاعتك ؛ وأجهَدَ نفسه فى ترتيبك ، وأعمَل رأيَه فى بلوغ موافقتك وإعانتك ؛ وكان ثِقتَك ورِدْأك وقوّتَك ودِعامتَك ، وتفرّغْتَ أنت لمكايَدة عدوّك ، مُريحا لنفسك من همّ ذلك والعناية به ، مُلْقيا عنك مؤونةً باهظة وكُلْفة فادحة .

واعلم أن القضاء من الله بمكانٍ ليس به شىءٌ من الأحكام ، ولا بمثل محلّه أحدٌ من الوُلاة : لما يجرى على يديه من مَغاليظ الأحكام ومجارى الحدود . فليكن من تُولِّيه القضاء فى عسكرك [من ذوى][1] الخير والقناعة والعفاف والنّزاهة والفهم والوقار والعصمة والوَرع ، والبصر بوجوه القضايا ومواقعها ، قد حنّكته السِّنّ وأيّدته التجربة وأحكمته الأمور ، ممن لا يتصنّع للولاية ويستعِدّ للنُّهْزة ، ويجترئ على المحاباة فى الحكم ، والمُداهنة فى القضاء ، عَدْلَ الأمانة ، عفيفَ الطُّعمة[2] ، حَسَن الإنصاف ، فَهِم القلب ، وَرِعَ الضمير ، متخشّع السَّمْت ، بادِى الوقار ، محتَسِبا للخير . ثم أَجْرِ عليه ما يكفيه ويَسَعه ويُصلحه ؛ وفرِّغه لما حمّلته ، وأعنْه على ما ولّيته : فإنك قد عرّضتَه لهَلَكة الدنيا وبَوار الآخرة ، أو شَرَف الدنيا وحُظْوة الآجلة ، إن حسُنت نيّتُه ، وصدَقت رويّته ، وصحّت سريرتُه ، وسلّط حكمَ الله على رعيّته ، مُطلِقا عِنانه ، منفّذا قضاءَ الله فى خلقه ، عاملًا بسنّته فى شرائعه ، آخذًا بحدوده وفرائضه .

واعلم أنه من جندك بحيث ولايتُك[3] ، الجاريةُ أحكامُه عليهم ، النافذةُ أَقْضِيتُه فيهم ؛ فاعْرِف من تولّيه ذلك وتُسنده إليه . ثم تقدّم فى طلائعك فإنها أوّلُ مكيدتك ، ورأسُ حربك ، ودِعامة أمرك ، فانتخب لها من كلّ قادةٍ وصحابةٍ رجالا ذوى نَجْدة وبأس ، وصرامة وخِبرة ، حُماةً كُفاة ، قد صَلَوا بالحرب وذاقوا سِجالَها ، وشربوا مِرارَ كؤوسها ، وتجرّعوا

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٠) وغيره . (٢) الطعمة بالضم والكسر وجه الكسب الطيب أو الخبيث . (٣) فى مفتاح الأفكار وغيره : «بحيث ولايتك وفى الموضع الجارية» الخ .

غُصَص دِرَّتها ، وزيّنتهم بتكْرار عواطفها ، وحملتهم على أصعب مراكبها ، وذلّلتهم بثِقَاف أَوَدها . ثم ٱنتقِهِمْ على عينك ، وٱعْرِض كُرَاعَهم بنفسك ، وتوخَّ في ٱنتقائك ظهورَ الجَلَد ، وشهامة الخُلُق ، وكمال الآلة . وإيّاك أن تقْبل من دوابّهم إلا الإناث من الخيل المَهْلُوبة[(١)] ، فإنهنّ أسرعُ طلبا ، وأنجى مهربا ، وألين مَعْطَفا ، وأبعـدُ في اللُّحُوق غاية ، وأصبرُ في معترَك الأبطال إقداما . وخُذْهم من السّلاح بأبدان الدّروع ، ماذيّة[(٢)] الحديد ، شاكّة النَّسج ، متقاربة الحلَق ، متلاحمة المسامير وأَسْـوُق الحديد ، مموّهة الركب ، مُحْكمَة الطَّبْع خفيفة الصَّوْغ ؛ وسـواعدَ طبْعُها هندىّ ، وصَوْغُها فارسىّ ؛ رقاقِ المعاطف بأكفٍّ واقية وعمـلٍ محكم . ويَلْمَق[(٣)] البَيْض مُذْهَبة ومجرّدة ، فارسيّة الصّوْغ ، خالصة الجوهر ، سابغة المَلْبس ، واقيـة الجُنَن ، مستديرة الطَّبْع ، مُبْهَمة السَّرْد ، وافيـة الوزن كَتَرِيك[(٤)] النعام في الصّنعة وٱستـدارة التَّقْبيب ، وٱستواء الصَّوْغ ، مُعْلَمة بأصناف الحرير وألوان الصِّبْغ ؛ فإنها أَهْيبُ لعدوّهم ، وأَفَتُّ لأعضاد مَنْ لقيهم ، والمُعْلَمُ مَخْشِيٌّ محذور ، له بديهةٌ رادعة ، وهيبة هائلة ؛ معهم السّيوف الهنـدية ، وذُكور البيض اليمـانية ؛ رِقاقُ الشَّفَرات ، مَسنُونةُ الشَّحْذ ، مشَطَّبة[(٥)] الضرائب . معتدلة الجواهر ، صافيـة الصّفائح ؛ لم يَدْخُلها وَهْن الطبْع ، ولا عابها أَمْتُ[(٦)] الصوغ ، ولا شانها خِفّة الوزْن ، ولا فَدَح حاملَها بهُورُ الثقـل ؛ قد أشرعوا لُدْن القَنَا ، طِوالَ الهوادى ، مُقَوَّمات الأَود ، زُرْق الأَسِـنّة ، مستوِية الثّعالب[(٧)] ؛ وميضُها متوقِّد ، وسِـنْخُها[(٨)] متلهِّب ، مَعاقِص[(٩)] عُقَدها منحوتة ، ووصُومُ أَوَدِها مقوّمة ، وأجناسُها مختلفة ، وكُعوبها جَعْدة ، وعُقَدُها حبكة ؛ شَطْبة الأسنان ، مُموَّهة الأطراف ، مستَحدّة الجَنَبات ، دِقاقُ الأطراف ، ليس فيهـا ٱلتواءُ أَوَد ، ولا أَمْتُ وَصْم ، ولا بها مَسْقَط عيب ، ولا عنها

(١) المهلوبة : المنتوفة الهلب ، وهو شعر الذنب أو الشعر كله . (٢) أى خالصة وجيدته .

(٣) اليلمق : القباء المحشو . (٤) التريك : بيضة النعام خاصة ، ومنه قوله :

* وتلق بها بيض النعام ترائكا *

(٥) سيف شطب : ذو شطب وهى طرائقه التى فى متنه . (٦) الأمت : العوج والاختلاف .

(٧) الثعلب : طرف الرمح الداخل فى جبة السنان . (٨) فى مفتاح الأفكار وغيره : «وشحذها متلهب» وسنخ النصل : الحديدة التى تدخل فى رأس السهم . (٩) المعاقص : السهام المعوجة .

وقوع أمنية ؛ مُسْتَحْقِبِى كنائن النَّبْل وقِسِيّ الشَّوْحط[1] والنَّبْع ؛ أعرابيّة التعقيب ، رُوميّة النُّصول ، مسمُومة الصَّوْغ ؛ ولتكُن سِهامها على خمْس قَبَضات سِوَى النُّصُول . فإنها أبلغ فى الغاية ، وأنفذُ فى الدروع ، وأشكّ فى الحديد ؛ سامِطين حقائبهم على مُتُون خيولهم ، مُسْتَخفِّين من الآلة والأمتِعة والزاد ، [إلا ما لا غَنَاء بهم عنه][2] .

وآحذر أن تكل مباشرة عَرْضهم وآنتخابهم إلى أحد من أعوانك وكُتّابك : فإنّك إن وكلته إليهم أضعْتَ مواضع الحزم ، وفرّطت حيث الرأى ، ووقفتَ دون عزم الروِيّة ، ودخل عملَك ضَياعُ الوَهْن ، وخلَص إليك عيبُ المحاباة ، وناله فسادُ المُداهنة ، وغلَب عليه من لا يصلُح أن يكون طليعة للسلمين ولا عُدّة ولا حِصنا يدّرِئون به ، ويكتهفون بموضعه ، والطلائعُ حصون المسلمين وعيونُهم ، وهم أوّل مكيدتك ، وعُروةُ أمرك ، وزِمامُ حربك . فليكن آعتناؤك بهم ، وآنتقاؤك إيّاهم بحيث هم من مُهِمّ عملك ، ومكيدة حربك ؛ ثم آنتخِبْ للولاية عليهم رجلا بعيدَ الصوت ، مشهورَ الاسم ، طاهرَ الفضل ، نبيه الذّكر ؛ له فى العدوّ وَقَعات معروفات ، وأيّامٌ طِوال وصَوْلاتٌ متقدّمات ؛ قد عُرِفت نكايتُه ، وحُذِرت شوْكته ، وهِيبَ صوتُه ، وتُنُكِّب لقاؤه ؛ أمينَ السّريرة ، ناصحَ الجَيْب[3] ؛ قد بلوتَ منه ما يُسَكِّنك إلى ناحيته : من لِين الطّاعة ، وخالِص المودّة ، ورَكانة الصّرامة ، وغُلُوب الشّهامة ، وآستجماع القوّة ، وحَصافة التدبير . ثم تقدّم إليه فى حسن سِياستهم ، وآستنزال طاعتهم ، وآجتلاب مَوَدّاتهم وآستعذاب ضمائرهم ؛ وأجْرِ عليهم وعليه أرزاقا تَسَعُهم ، وتُمِدّ من أطماعهم سوى أرزاقهم فى العامّة ، فإن ذلك من القوّة لك عليهم ، والآستنامة إلى ما قِبَلهم .

وآعلمْ أنهم فى أهمّ الأماكن لك ، وأعظمِها غَناءً عنك وعمّن معك ، وأقمعها كَبْتا لحُادِّك ، وأشجاها غيْظا لعدوّك : ومَنْ يكن فى الثّقة ، والجَلَد ، والبأس ، والطاعة ، والقوّة ، والنصيحة والعُدّة ، والنّجدة حيث وصف لك أميرُ المؤمنين وأمَرك به ، يضَعْ عنك مؤونة الهمّ ، ويُرِحْ

(١) الشوحط : شجر تتخذ منه القسِىّ . (٢) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥١) .

(٣) يقال : فلان ناصح الجيب يراد بذلك قلبه وصدره أى أمين .

من خِناقك روْع الخوف ، وتلتجئ إلى أمرٍ منيع ، وظَهر قوىّ ، ورأيٍ حازم ، تأمن به فَجآت عدوّك ، وغِرّاتِ بغَتاتهم ، وطوارق أحداثهم ؛ ويصير إليك علْم أحوالهم ، ومتقدّمات خيولهم ؛ فآنخبهم رأْىَ عَين ، وقوّهم بما يُصْلِحهم من المَنَالات والأطماع والأرْزاق ، وآجعلْهم منك بالمنزل الذى هم به من مَحَارِز علاقتك ، وحَصانة كهوفتك ، وقوة سَيَّارة عسكرك . وإيّاك أن تُدخل فيهم أحدا بشفاعة ، أو تحتمله على هَوَادة ، أو تقدّمه لأُثْرة ؛ أو أن يكون مع أحدٍ منهم بَغْل ثَقَلٍ(١) ، أو فضلٌ من الظَّهْر ، أو ثَقَلٌ(٢) فادح ، فتشْتدّ عليهم مَؤُونة أنفسهم ، ويدخُلُهم كَلَالُ السآمة فيما يعالجُون من أثقالهم ، ويشتغلُون به عن عَدُوّهم إن دَهمهم منــه رائع ؛ أو فَجَأهم منــه طليعةٌ . فتفقَّد ذلك محكِّا له ، وتقدّم فيــه آخذا بالحزم فى إمضائه ؛ أرشــدك الله لإصابة الحظّ ، ووفَّقك ليُمْن التدبير ، وقصَــد بك لأسْهل الرأى وأعوده نفْعا فى العاجل والآجل ، وأكبَته لعدوّك وأشجاه لهم ، وأردَعه لعاديَتهم .

ولِّ دَرَّاجة عســكرك وإخراجَ أهلِه إلى مَصَافهم ومراكزهم رجلًا من أهل بيوتات الشّرف ، محمودَ الخبْرة ، معروفًا بالنجْدة ، ذا سِنٍّ وتَجْربة ، لَيّنَ الطاعة ، قــديمَ النَّصيحة ، مأْمُونَ السَّريرة ، له بصيرةٌ بالحق نافذة تقدّمه ، ونيّة صادقة عن الإدهان(٣) تحجُزه . وآضْمم إليه عِدّةَ نَفَرٍ من ثِقات جندك وذوى أسنانهم يكونُون شُرطةً معه ؛ ثم تقدّمْ إليه فى إخراج المَصَافّ ، وإقامة الأحراس وإذكاء العُيون ، وحِفْظ الأَطراف ، وشــدّة الحَذَر ؛ ومُره فليَضــع القُوّادَ بأنفسهم مع أصحابهم فى مَصافّهم ، كُلّ قائد بإزاء مكانه ، وحيثُ منْزِله ، قــد سُدّ ما بينه وبيْنَ صاحبِه بالرِّماح شارعةً ، والتِّرَسَة موضُونةً(٤) ، والرجال راصدةً ، ذاكية الأحراسِ ، وَجِلةَ الرَّوْع ، خائفة طوارقَ العدوّ وبَيَاتَه . ثم مُرْه فليُخْرِج كــلّ ليلة قائدًا فى أصحابه أو عِدّةٍ منهم إن كانوا كثيرًا ، على غَلْوة أو آثنتين من عسكرك ، منتبِذًا عنك مُحيطا بمنْزِلك ، ذاكيةً أحراسُه ، قَلِقةَ الترددِ ، مُفْرِطةَ الحَذَر ، مُعِدّة للرّوْع ، متأهّبةً للقتال ، آخذةً على أطراف المعسكر ونواحيه ، متفرّقين فى آختلافهم كُرْدُوسا كُرْدُوسا(٥) ؛ يستقبل بعضُهم بعضا

(١) النقل محركة : الغنيمة والهبة . (٢) الثقل : متاع المسافر . (٣) الإدهان : المداهنة وهى أن يظهر الانسان خلاف ما يبطن . (٤) الترسة موضونة ؛ أى منسوجة حلقتين حلقتين . (٥) أى كتيبة كتيبة .

[فى الاختلاف][1] ويكسع تالٍ متقدّمًا فى التردّد ؛ واجعلْ ذلك بين قوّادك وأهلِ عسكرك نُوَبًا معروفة ، وحِصَصا مفْرُوضة ، لا تُعْرِ منها مُزْدَلِفا منك بمودّة ، ولا تُحامل فيه على أحدٍ بمَوْجِدة . إن شاء الله تعالى .

فوِّضْ إلى أُمَراء أجنادك وقُوّاد خَيْلك أمورَ أصحابِهم ، والأخْذَ على قافيسة أيْديهم ، رياضةً منك لهم على السّمع والطاعة لأُمَرائهم ، والاتّباع لأمْرِهم ، والوُقُوف عند نَهْيِهم ؛ وتقـدّمْ إلى أُمَراء الأجناد فى النوائب التى ألْزَمْتهم إيّاها ، والأعمال التى استنجَدْتَهم لها ، والأسلحة والكُرَاع التى كتبْتَها عليهم ؛ واحذَر اعتلالَ أحدٍ من قوّادك عليك بما يَحُول بينك وبينَ تأديب جندك ، وتقويمهم لطاعتك ، وقَمْعهم عن الإخلال بمَرَاكزهم لشىء مما وُكلوا به من أعمالهم ؛ فإن ذلك مَفْسدة للجند ، مَفْثَاةٌ[2] للقوّاد عن الجدّ والإيثار للناصحة ، والتقدّم فى الأحكام .

واعلم أنّ فى استخفافهم بقوّادهم وتضْييعهم أمْرَ رؤسائهم دُخولا للضَّياع على أعمالك ، واستخْفافا بأمْرك الذى يأْتمرون به ورأْيك الذى ترْتئى . وأوعِزْ إلى القُوّاد ألّا يُقْدِم أحدٌ منهم على عقوبةِ أحدٍ من أصحابه ، إلا عقوبةَ تأديبٍ فى تقويم مَيَل ، وتثقيف أَوَد ؛ فأما عقوبةٌ تبلُغ تَلَف المُهْجة ، وإقامةُ حدٍّ فى قطْع ، أو إفراطٌ فى ضَرْب ، أو أخذُ مال ، أو عقوبةٌ فى شَعَر ، فلا يَلِيَنّ ذلك من جنـدك أحدٌ غيرُك ، أو صاحبُ شُرْطتك بأمرك وعن رأيك وإذنك ؛ ومتى لم تُذَلّل الجنـدَ لقوّادهم ، وتُضْرِعهـم لأمرائهم ، تُوجبْ لهم عليـك الحجّةَ بتضييع — إن كان منهـم — لأمْرك ، أو خَلَل — إن تهاوَنُوا به — من عَمَلك ، أو عجز — إن فرّط منهم — فى شىءٍ ممـا وكّلتهم به أو أسـندته إليهم ؛ ولا تجِد إلى الإقدام عليهم باللّوم وعَضّ العقوبة عليهـم مَجازًا تصـل به إلى تعنيفِهم ، بتفريطك فى تذليل أصحابِهم لهم ، وإفسادِك إيّاهم عليك وعليهم . فانْظُر فى ذلك نظَرا مُحْكَما ، وتقدّمْ

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٢) . (٢) أى يقعد بهم عن الجد الخ .

فيه برِفْقك تقدّما بليغا، وإيّاك أن يدخل حزمَك وهْنٌ، أو يشوبَ عَزْمَك إيثار، أو يخالط رأيَك ضَيَاع؛ واللهَ يستودِعُ أميرُ المؤمنين نفسَك ودينَك .

إذا كنت من عدوِّك على مسافةٍ دانية وسنَنَ لقاءٍ مختصَر، وكان من عسكرك مُقترِباً قد شامتْ طلائعُك مقدّماتِ ضَلالته وحُماةَ فتنته، فتأهب أُهبة المُناجز، وخُذ اعتدادَ الحَذِر، وكتِّبْ(١) خيولَك، وعَبِّ جندك . وإيّاك والمسيرَ إلا فى مقدّمة وميْمنة وميْسرة وساقة، قد شَهَروا الأسلحةَ، ونَشَروا البنودَ والأعلام . وعرِّف جندَك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم قد أخذوا أهبة القتال، واستعدُّوا للّقاء؛ ملتجئين إلى مَواقفهم، عارفين بمواضعهم فى مسيرهم ومُعَسْكرهم . وليكن ترحُّلُهم وتنزُّلُهم على راياتهم وأعلامهم وفى مراكزهم، قد عَرَّف كلُّ قائد منهم أصحــابَه مَواقفهم : من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطّليعة، لازمين لها، غيرَ مُخلّين بمــا استُنْجِدوا له، ولا مُتهاونين فيما أُهيب بهم إليه؛ حتى تكون عساكرُك فى مَنْهَلٍ تصل إليه، ومسافةٍ تختارها، كأنها عسكرٌ واحد فى اجتماعها على العــدوّ، وأخْذها بالحزم، ومسيرها على راياتها، ونزولها فى مراكزها، ومعرفتهــا بمواضعها : إن ضلّت دابّةٌ من موضعها، عرف أهلُ العسكر من أىّ المراكز هى، ومَنْ صاحبُها، وفى أى المحلّ حلولُه منها، فرُدّت إليه، هداية معروفة بِسَمْتِ صاحب قيادتها؛ فانّ تقدُّمك فى ذلك وإحكامَك له طارحٌ عن جندك مؤونةَ الطلب، وعناية المعرفة، وابتغاءَ الضالّة .

ثم اجعــلْ على سَاقتك أوثقَ أهل عسكرك فى نفسك صرامةً ونَفَاذا ورِضًا فى العامّة، وإنصافًا من نفسه للرعية، وأخذًا بالحق فى المَعْدلة، مستشعِرًا تقوى الله وطاعته؛ آخذا بهَدْيك وأدبك، واقفًا عند أمرك ونهيك، معتزمًا على مناصحتك وتزيينك، نظيرًا لك فى الحال، وشبيها بك فى الشرف، وعديلا فى الموضــع، ومقاربا فى النسب(٢)؛ ثم أكثِفْ معه الجمع، وأيِّده بالقوّة، وقوِّه بالظَّهْر، وأعِنْه بالأموال، وأعمِدْه بالسلاح، ومُرْه بالتعطُّف على ذوى الضعف من جندك ومَنْ أزحفتْ به دابّتُه وأصابته نكبة : من مرضٍ أو رُجْلة(٣) أو آفة،

(١) كتب الجيش أو الخيل : جعلها كتائب . (٢) فى مفتاح الأفكار وغيره : « فى الصيت » .
(٣) الرجلة بالضم : أن يشكو رجله وقد رجل كفرح أصابه فى رجله ما يكره .

من غير أن يأذن لأحد منهم فى التنحّى عن عسكره، أو التخلّف بعد ترحّله، إلا لمجهود سَقَماً، أو لمطروق بآفة جائحة. ثم تقدّم إليه محذّرا، ومُره زاجرا؛ وآنَهُ مُغالظا فى الشدّة على من مرّ به منصرفًا عن معسكرك من جنـدك بغير جَوَازك، شادًّا لهم أسْرًا، ومُوقِرهم حديدا، ومُعاقِبَهم مُوجِعا، وموجّهَهم إليك فتنهكهم عقوبةً، وتجعلهم لغيرهم من جندك عِظة.

وآعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه واثقًا بنصيحته قد بلوتَ منه أمانةً تُسَكّنك إليـه، وصرامةً تؤمّنك مهانته، ونفـاذًا فى أمرك يُزْحى عنك خنـاق الخوف فى إضاعته — لم يأمَنْ أميرُ المؤمنين تسلُّل الجند عنك لِواذًا[1]، ورَفْضَهم مراكزَهم، وإخلالَهم بمواضعهم، وتخلُّفَهم عن أعمالهم، آمنين تغييرَ ذلك عليهم، والشدّةَ على من آجترمه منهم، فأوشك ذلك فى وَهْنك، وخَذَل من قوّتك، وقلّل من كثرتك.

اجعلْ خلف ساقتك رجلا من وجوه قوادك، جليدًا، ماضيًا، عفيفًا، صارمًا، شهمَ الرأى، شديدَ الحَـذَر، شكيمَ القوّة، غيرَ مُداهن فى عقوبة، ولا مَهين فى قوّة، فى خمسين فارسا يحشُر إليك جندَك، ويُلْحق بك من تخلّف عنك بعد الإبلاغ فى عقوبتهم، والنَّهْك لهم، والتنكيل بهم. وليكن بعَقْوتك[2] فى المنزل الذى ترحّل عنه، والمنهل الذى تتقوّض منه، مُفرِطًا فى النَّفْض له، والتتبّع لمن تخلّف عنك به؛ متشدّدًا فى أهل المنزل وساكنيه بالتقدّم، موعِزًا اليهم فى إزعاج الجند عن منازلهم، وإخراجهم عن مكامنهم؛ وإيعاد العقوبة الموجعة والنَّكال المُبْسل فى الأشعار والأبشار، وآستصفاء الأموال وهدم العَقَار لمن آوى منهم أحدًا أو سَتَر موضِـعه، أو أخفى محلّه. وحَذِّره عقوبتَـك إيّاه فى الترخيص لأحد، والمحاباة لذى قَرابة، والآختصاص بذلك لذى أثرة وهَوَادة. ولتكن فرسانُه متخَيَّرين فى القـوّة، معروفين بالنجدة؛ عليهم سوابِـغُ الدروع دونها شِعارُ الحشو وجُبَبُ الاستجنان؛ متقلّدين سيوفَهم، سامِطين[3] كنائنَهم، مستعِدين لهَيْج إن بَدَهَهم [أو كمين إن يظْهَرْ لهم][4]. وإياك

---

(١) لواذا: مراوغة أى مستخفين يستتر بعضهم ببعض. (٢) العقوة: ما حول الدار أو ساحته.
(٣) سامطين: معلقين. (٤) الزيادة عن مفتاح الأفكار وغيره.

أن تقبــل منهم فى دوابهم إلا فرسا قويا أو برذونا وثيجا(١) : فإن ذلك من أقوى القوّة لهم ، وأعون الظّهْرِىّ على عدوّهم ، إن شاء الله .

ليكن رحيلك إبّانًا واحدا ، ووقتا معلوما : لتخفّ المؤونة بذلك على جندك ، ويعلموا أوان رحيلهم ، فيقدّموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأعلاف دوابّهم ، وتسكُن قلوبهم الى الوقت الذى وَقَفوا عليه ، ويَطْمئنّ ذوُو الرأى الى إبّان الرحيل . ومتى يكن رحيلك مختلفًا ، تَعْظُم المؤونة عليك وعلى جندك ولا يزال ذوو السَّفَه [والنَّزَق] يترحّلون بالإرجاف وينزِلُون بالتوهّم ، حتى لا ينتفع ذُو رأي بنوم ولا طُمَأْنِينة . .

إيّاك أن تُظْهِر آستقلالًا ، أو تُنَادى برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمرَ صاحب تَعْبِئتك بالوقوف بأصحابه على مُعسكرك آخذًا بجَنَبَتَىْ فوهته ، بأسلحتهم عدّة لأمرٍ إن حضر أو مفاجأةٍ من طليعــة للعدوّ إن رأت منكم نُهْــزة ، أو لمحَتْ عندكم غِرّة . ثم مُرِ الناسَ بالرحيل وخيلُك واقفة ، وأُهْبتك مُعَدّة ، وجُنّتُك واقيــة ، حتى اذا آستقللتم من معسكركم ، وتوجّهتم من منزلكم ، سِرْتم على تعبئتكم بسكون ريح ، وهــدوّ حَمْلة ، وحُسن دَعَة . فاذا آنتهيتَ الى مَنْهل أردتَ نزولَه أو هَمَمت بالمعسكر به ، فإيّاك ونزولَه إلا بعــد العلم بأهله ، والمعرفة بمَرَافقه ؛ ومُرْ صاحب طليعتك أن يعرِف لك أحوالَه ، ويستثيرَ لك علمَ دفينه ، ويستبطِنَ علم أموره ثم يُنهِيها اليك على ما صارت اليه : لتعلم كيف احتمالُه لعسكرك ، وكيف ماؤه وأعلافه وموضِعُ مُعسكرك منه ، وهل لك — إن أردتَ مُقامًا به ، أو مطاولةَ عدوّك أو مكايدتَه فيه — قوّةٌ تحملك ومَدَدٌ يأتيه(٢) ؛ فإنك إن لم تفعلْ ذلك ، لم تأمَنْ أن تهجُمَ على منزل يُعجِزك ويزعِجك عنه ضِيقُ مكانه ، وقِلّةُ مياهه ، وآنقطاعُ مَوَادّه ، إن أردتَ بعدوّك مَكيدةً ، أو آحتجتَ من أمورهم الى مطاولة ، فإن ارتحلتَ منــه كنتَ غَرَضًا لعدوّك ، ولم تجِــدْ الى المحاربة والإخطار سبيلا ؛ وإن أقمتَ به أقمتَ على مَشَــقّة وحَصْر وفى أَزْل

(١) برذونا وثيجا : كثير اللحم .

(٢) كذا فى صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٢٦) ولعل فيه تحريفا صوابه : قوّة تصلك ومدد يأتيك .

وضيق ، فاعرف ذلك وتقدّم فيه . فإن أردتَ نزولًا أمرتَ صاحبَ الخيل التي وكّلت بالناس فوقفت خيلُه متنحيةً من معسكرك ، عُدّةً لأمرٍ إن غالك ، ومَفْزَعًا لبديهة إن راعتك ، فقد أمنتَ بحمد الله وقوّته فجأةَ عدوّك ، وعرفتَ موقعَها من حِرْزك ، حتى يأخذ الناس منازلَهم ، وتُوضَعَ الأثقالُ مواضعَها ، ويأتيك خبر طلائعك ، وتُخرج دبّابتك من معسكرك درّاجةً ودبّابًا مُحيطين بعسكرك ، وعُدّةً إن احتجتَ اليها . ولتكن دبّابات جندك أهلَ جَلَدٍ وقوّة ، قائدًا أو اثنين أو ثلاثةً بأصحابهم ، في كل ليلةٍ ويومٍ نُوَبًا بينهم . فاذا غَرَبت الشمس ووَجَبَ(١) نورُها ، أخرَج اليهم صاحبُ تعبيتك أبدالَهم ، عَسَسًا بالليل في أقربَ من مواضع دبّابي النهار ، يتعاوَرُ ذلك قوّادُك جميعا بلا محاباةٍ لأحدٍ فيه ولا إدهان .

إياك وأن يكونَ منزلك إلا في خَنْدق وحِصْن تأمن به بيَات عدوّك وتستنيمُ فيه الى الحزم من مكيدتك . اذا وُضعت الأثقالُ وحطّت أبنيةُ أهل العسكر ، لم يُمْدَدْ طُنُبٌ ، ولم يُرفَع خِباء ، ولم يُنْصَب بناء حتى تقطَعَ لكل قائدٍ ذَرعًا معلومًا من الأرض بقدر أصحابه ، فيحفروه عليهم خندقا يُطيفونَه بعد ذلك بخنادق الحَسَك(٢) ، طارحين لها دون اشتِجار الرماح ، ونَصْب التِّرَسة ، لها بابانِ قد وكّلتَ بحفظ كل باب منهما رجلًا من قوّادك في مائة رجلٍ من أصحابه ؛ فإذا فُرِغ من الخندق كان ذانِك الرجلانِ القائدانِ بمن معهما من أصحابهما أهلَ ذلك المركز ، وموضعَ تلك الخيل ، وكانوا هم البوّابين والأحراس لذينك الموضعين ، قد كفَوْهما وضبطوهما وأُعْفُوا من أعمال العسكر ومكروهه غيرَهما .

واعلم أنك إذا كنت في خندق ، أمنتَ بإذن الله وقوّته طوارقَ عدوّك وبَغَتاتهم ، فإن راموا تلك منك ، كنتَ قد أحكمتَ ذلك وأخذتَ بالحزم فيه ، وتقدّمتَ في الإعداد له ، ورَتَقتَ مخوفَ الفتق منه ؛ وإن تكنِ العافيةُ استحققتَ حمدَ الله عليها ، وارتبطتَ شكرَه بها ، ولم يَضْرُرْك أخْذُك بالحزم : لأن كل كُلْفة ونَصَبٍ ومؤونةِ إنفاق ومشقّةِ عمل مع

(١) أي ذهب وغاب . (٢) الحسك : أسلاك كالشوك تعمل من الحديد تلق حول المعسكر لتنشب في رجل من يدوسها من الخيل والناس الطارقين له ، وهي المعروفة الآن : « بالاسلاك الشائكة » .

السلامة غُنْمٌ وغير خَطَر بالعاقبـة، إن شاء الله . فإن ٱبتُلِيتَ ببيات عدوّك أو طَرَقك رائعا فى ليلك، فليُلْفِك حذِرًا مشمِّرا عن ساقك، حاسرًا عن ذراعك، متشَزِّنًا (١) لحربك؛ قد تَقَدّمتْ درّاجتُك إلى مواضعِها على ما وصفه لك أمير المؤمنين، ودَبّابتك فى أوقاتها التى قَدَّر لك، وطلائعُك حيث أمَرك، وجندُك على ما عبَّأ لك، قد خَطَرتَ عليهم بنفسك؛ وتقدّمتَ إلى جندك، إن طرقهم طارق أو فاجأهم عدوّ، ألا يتكلم منهم أحد رافعا صوتَه بالتكبير مُغرقا فى الإجلاب، مُعلنا بالإرهاب لأهل الناحية التى يقع بها العدوّ طارقا، وليشرعوا رماحَهم ناشبين بها فى وجوههم، ويرشقوهم بالنبل مكتنِّين بتَرِسهم، لازِمين لمراكزهم، غير مُزِيلى قدم عن موضِعها، ولا متجاوِزين إلى غير مركزهم، وليكبِّروا ثلاثَ تكبيرات متوالياتٍ وسائرُ الجند هادون، لتعرِف موضِع عدوّك من معسكرك، فتُمدّ أهلَ تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشرطتك، ومن ٱنتخبتَ قبل ذلك عدّةً للشدائد بحضرتك، وتدُسّ إليهم النشّاب والرماح .

وإياك وأن يشهَروا سيفًا يتجالدون به، وتقدّمْ إليهم ألا يكون قتالُهم فى تلك المواضع لمن طرقهم إلا بالرماح مُسنِدين لها إلى صدورهم، والنُّشَّاب راشقِين به وجوهَهم؛ قد ألْبَدوا بالأترسة، وٱستجنُّوا بالبَيْض، وألقَوْا عليهم سوابِغَ الدروع وجِبابَ الحَشْو . فإن صدّ العدوّ عنهم حاملين على جهةٍ أخرى، كبّر أهلُ تلك الناحيـة التى يقع فيها كفعل الناحيةِ الأولى، وبقيّةُ العسكر سكوتٌ والناحيةُ التى صدّ عنها العدوّ لازمةٌ مراكِزَهم منتطقةُ الهدو ساكنةُ الريح، ثم عَمِلتَ فى تقويتهم وإمدادهم بمثل صنيعك فى إخوانهم .

وإياك أن تُخمِدَ نار رُواقك، واذا وقع العدوّ فى معسكرك فأجِّجها ساعِرًا لها وأوقِدْها حَطَبًا جَزْلا يعرف به أهلُ العسكر مكانَك وموضعَ رِواقك، فيسكن نافرُ قلوبهم، ويَقْوَى واهِى قوّتهم، ويشتدّ منخذِلُ ظهورهم، ولا يرجُمون بك الظنونَ، ويجعلون لك آراء

(١) متشزنا : متجهزا .

السوء، ويُرْجفون بك آناء الخوف؛ وذلك من فعلك رادٌّ عدوَّك بغيظه لم يستفلل منك ظُفُرا، ولم يبلُغْ من نِكايتك سرورا . وإن آنصرف عنك عدوُّك ونَكَل عن الإصابة من جندك وكانت بخيلك قوةٌ على طلبه أو كانت لك من فرسانك خيلٌ معدَّةٌ وكتيبة منتخَبَة، [و] قدرت على أن تركَبَ بهم أكساءَهم(١)، وتحملَهم على سَنَنهم؛ فأتْبِعهم جريدةَ خيل عليها الثِّقاتُ من فُرسانك وأولو النجدة من حماتك؛ فإنك تَرْهق(٢) عدوّك وقد أمِن من بيَاتك، وشُغِلَ بكَلَاله عن التحرُّز منك والأخذ بأبواب معسكره والضبط لمحارسه عليك، موهَنَةً حُماتُهم لَغبةَ أبطالهم : لما ألفوْكم عليه من التشمير والجدّ، قد عَقَر الله فيهم، وأصاب منهم، وجرح من مقاتِلتهم، وكسرَ من أماني ضلالهم، وردّ من مستعلِي جماحهم .

وتقدَّم إلى من تُوَجِّهه في طلبهم، وتُتْبِعه أكساءَهم : في سكونِ الريح، وقِلة الرَّفَث، وكثرة التسبيح والتهليل ، وآستنصار الله عز وجل بألسنتهم وقلوبهم سرًّا وجهرا ، بلا لَجَب ضجّة ، ولا آرتفاع ضوضاء، دون أن يردّوا على مطلبهم، وينتهزوا فُرصتَهم . ثم ليشهَروا السلاح، وينتضُوا السيوفَ، فإن لها هيبةً رائعة، وبديهة مخوفةً، لا يقوم لها في بُهْمة الليل وحِندسه إلا البطلُ المحارب، وذو البصيرة المحامي، والمستميتُ المقاتل، وقليل ماهم عند تلك الحميّة وفي ذلك الموضع .

ليكن أوّلَ ما نتقدّم به في التهيؤ لعدوّك، والآستعداد لِلقائه، آنتخابُك من فرسان عسكرك وحُماة جندك ذوِي البأس والحُنْكة والجَلَد والصَّرَامة، ممن قد آعتاد طِرادَ الكُماة، وكشَّر عن ناجذه في الحرب، وقام على ساقٍ في منازلة الأقران ، ثقِفَ الفروسية ، مجتمِعَ القوّة، مستحصِدَ المرِيرة، صبورًا على هول الليل، عارفا بمناهزة الفُرص؛ لم تَمْهَنْه الحُنْكة ضعفًا، ولا بلغت به السنّ كَلالا، ولا أسكرته غِرّةُ الحَدَاثة جهلا، ولا أبطرته نجدةُ الأغمار صَلَفا، جريئا على مخاطرة التلَف، مُقْدِما على آدّراع الموت، مكابرا لَمهيب الهول، متقحما مخشيَّ الحتوف، خائضا غمراتِ المَهالك؛ برأى يؤيِّده الحزم، ونيّة لا يُخالجها الشك،

(١) الأكساء : الأبار، واحدها كسء . (٢) ترهق عدوّك : تغشاه .

وأهواء مجتمعة، وقلوب مؤتلفة، عارفين بفضل الطاعة وعزّها وشرفها، وحيث محل أهلها من التأييد والظفر والتمكين. ثم آعرضهم رأى عين على كُرَاعهم وأسلحتهم، ولتكن دوابّهم إناثَ عتاق الخيل، وأسلحتُهم سوابغَ الدروع وكمالَ آلة المحارب، متقلّدين سيوفهم المستخلَصة من جيّد الجوهر وصافي الحديد، المتخيَّرة من معادن الأجناس، هنديّة الحديد يمانية الطبع، رِقاق المضارب، مسمومة الشَّحْذ، مشطّبة الضريبة، مُلْبِدين بالتِّرَسَة الفارسية، صينيّة التعقيب، مُعْلَمة المَقَابِض بحَلَق الحديد، أنحاؤها مربعة، ومخارزها بالتجليد مضاعفة، مَحْمَلُها مستخفّ، وكنائن النبل وجعاب القِسِيّ قد آستحقَبُوها، وقِسِيّ الشَّرْيان[1] والنَّبْع أعرابيّة الصَّنعة، مختلفة الأجناس، مُحْكَمَة العمل، مقوّمة التثقيف، ونصول النبل مسمومة، وعملها مَصِّيصِيّ، وتركيبها عِراقِيّ، وتريشها بدوِيّ، مختلفة الصوغ فى الطبع، شتّى الأعمال فى التشطيب والتجنيح والآستدارة. ولتكن الفارسيّةُ مقلوبة المقابض، منبسطة السِّيَة، سهلةَ الآنعطاف، مقرَّبة الآنحناء، ممكنة المَرْمَى، واسعةَ الأسهم، فُرَضُها سهلة الورود، ومعاطفها غير مقتربة المُوَاتاة. ثم وَلِّ على كل مائة رجل منهم رجلًا من أهل خاصّتك وثقاتك ونُصَحائك، له صِيتٌ فى الرياسة، وقَدَمٌ فى السابقة، وأوّلية فى المشايَعة. وتقدَّمْ إليه فى ضَبْطهم، وكَفِّ مَعَرّتهم، وآستنزال نصائحهم، وآستعداد طاعتهم، وآستخلاص ضمائرهم، وتَعَاهُد كُرَاعهم وأسلحتهم: مُعْفِيًا لهم من النوائب التى تلزمُ أهلَ عسكرك وعامّةَ جندك، وآجعلهم عُدّةً لأمرٍ إن حَزَبك، أو طارقٍ إن أتاك؛ ومرهم أن يكونوا على أُهبة معدّة، وحَذَرٍ نافٍ لسِنَة الغفلة عنهم؛ فإنك لا تدرى أىّ الساعات من ليلك ونهارك تكون إليهم حاجتك. فليكونوا كرجلٍ واحدٍ فى التشمير والترادُف وسرعةِ الإجابة؛ فإنك عَسَيتَ ألّا تجد عند جماعة جندك فى مثل تلك الرَّوعة والمباغتة — إن آحتجتَ إلى ذلك منهم — معونةً كافية، ولا أُهبةً مُعَدّة. بل ذلك كذلك فليكن هؤلاء القوم الذين تنتخب عُدّتَك وقوتك، بعوثًا قد وظّفتها على القوّاد الذين ولّيتهم أمورَهم، فسمّيتَ أوّلًا وثانيًا وثالثًا ورابعًا وخامسًا وسادسًا؛ فإن آكتفيتَ فيما يَطْرُقك ويَبْدَهُك

(١) الشريان بفتح الشين وكسرها: شجر من عضاه الجبال تعمل من القس.

ببَعْثٍ واحد، كان مُعَـدًّا لم تحتج إلى ٱنتخابهم فى ساعتك تلك، فقطِّع البعثَ عليهم عنـد ما يَرْهَقُك. وإن ٱحتجت إلى ٱثنـين أو ثلاثةٍ، وجَّهتَ منهم إرادتك أو ما ترى قوتك، إن شاء الله .

وكِّلْ بخزائنك ودواوينك رجلًا ناصحا أمينا، ذا وَرَع حاجز، ودينٍ فاصـل، وطاعة خالصة، وأمانةٍ صادقةٍ؛ وٱجعل معه خيلًا يكون مَسيرها ومنزلها ومَرْحَلها مع خزائنـك وحولها . وتقدّم إليه فى حِفظها ، والتَوَقّى عليها، وٱتّهام كلّ من تُسْنِد إليـه شيئا منها على إضاعته والتهاوُن به ، والشـدّة على من دنا منها فى مَسير، أو ضَامَّها فى منزل، أو خالطها فى مَنْهَل . وليكن عامّة الجنـد والجيش — إلا من ٱستخلصت للسير معهـا — متنحّين عنها، مجانبين لها فى المسـير والمنزل؛ فانه ربما كانت الجَوْلة وحَدَثت الفَزْعة، فان لم يكن للخزائن ممن يُوَكَّل بها أهلُ حِفْظ لها وذَبٍّ عنها، وحياطةٍ دونها، وقوةٍ على من أراد ٱنتهابَها، أسرع الجندُ إليها وتداعَوْا نحوَها، حتى كاد يترامى ذلك بهم إلى ٱنتهاب العسكر وٱضطراب الفتنة؛ فإن أهلَ الفِتن وسـوءِ السيرة كثير، وإنما هِمَّتُهم الشرّ؛ فإيّاك أن يكـون لأحد فى خزائنك ودواوينك [وبيوت أموالك](١) مطمع، أو يجِد سبيلا إلى ٱغتيالها ومَرْزَأتها .

واعلم أن أحسن مكيدتك أثرًا فى العامة، وأبعدَها صِيتًا فى حسن القَالَة، ما نلتَ الظفرَ فيـه بحزم الرويّة، وحسن السِّيرة، ولطف الحيلة . فلتكن رَوِيَّتُك فى ذلك وحِرصُك على إصابته بالحيل لا بالقتال وأخطار التلف؛ وٱدسُسْ إلى عدوّك، وكاتِبْ رؤساءَهم وقادَتَهم وعِدْهم المَنَالاتِ، ومَنِّهم الولايات، وسوِّغْهم التُّرَاث، وضَعْ عنهم الإحَن، وٱقطع أعناقَهم بالمطامع، وٱستدعِهم بالمَثاوب؛ وٱملأْ قلوبَهم بالترهيبِ إن أمكنتك منهم الدوائر، وأصارتهم إليك الرواجع؛ وٱدعُهم إلى الوثوب بصاحبهم أو ٱعتزاله إن لم يكن لهم بالوثوب عليه طاقة؛ ولا عليك أن تطرَح إلى بعضهم كتبًا كأنها جوابُ كتبٍ لهم إليـك، وتكتُب على ألسنتهم كتبا إليك تدفعها إليهم وتحمِل بها صاحبَهم عليهم، وتُنزلهم عنده بمنزلة التُّهمة ومحلّ

(١) الزيادة من رسائل البلغاء .

الظِّنّة، فلعل مَكيدتَك فى ذلك أن يكون فيهـا ٱفتراقُ كلمتهم، وتشتيتُ جماعتِهم، وإحَنُ قلوبهم، وسوءُ الظن من واليهم بهم، فيوحشهم منه خوفُهم إيّاه على أنفسهم إذا أيقنوا باتّهـامه إياهم، فان بَسَط يَده فقتلهم، وأولغ سـيفَه فى دِمائهم، وأسرع الوثوبَ بهـم، أشعرَهم جميعا الخوف، وشَمِلهم الرُّعب، ودعاهم إليك الهَرَب، فتهـافتُوا نحوَك بالنصيحة وأمُّوك بالطلب. وإن كان متأنّيا محتملًا رجوتَ أن يستميل إليك بعضهـم، ويستدعى الطمع ذوِى الشرَه منهم، وتنالَ بذلك ما تُحِب من أخبارهم، إن شاء الله.

إذا تَدَانى الصـفَّان، وتواقَف الجَمْعان، وٱحتضَرَت الحرب، وعبّأتَ أصحابك لقتال عدوّهم، فأكْثِرْ من قول: لا حول ولا قوّة إلا بالله، والتوكُّلِ على الله عز وجل والتفويض إليه، ومسألته توفيقَك وإرشادَك، وأن يَعْزِم لك على الرَّشَـد المُنْجِى، والعصمة الكالئة، والحياطةِ الشاملة. ومُرْ جنـدَك بالصّمت وقلّة التلفُّت عنـد المُصاوَلَة، وكثرةِ التكبير فى أنفسهم والتسبيح بضمائرهم، ولا يُظهِروا تكبيرًا إلا فى الكَرّات والحَمَلات، وعنـد كل زُلْفةٍ يزدلِفونهـا؛ فأما وهم وقوفٌ فان ذلك من الفشل والجبن؛ وليذكروا الله فى أنفسهم ويسألوه نصرَهم وإعزازَهم، وليُكثِروا من قول: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم ٱنصُرنا على عدوّك وعدوّنا الباغى، وٱكفِنا شوكتَه المستحِدّة، وأيِّدْنا بملائكتك الغالِبين، وٱعصِمنا بعونك من الفشل والعجز إنك أرحم الراحمين".

وليكن فى معسكرك المكبرون فى الليل والنهار قبل المُوَاقعة، وقومٌ موقوفون يَحُضُّونهم على القتال ويحرِّضونهـم على عدوّهم، ويَصِفون لهم منازلَ الشهداء وثوابَهم، ويذكِّرونهم الجنةَ ودرجاتِها، ونعيمَ أهلها وسكّانها، ويقولون: ٱذكروا الله يذكركم، وٱستنصِروه ينصرْكم، وٱلتجئوا إليه يمنعْكم. وإن ٱستطعتَ أن تكون أنت المباشرَ لتلبية جندك ووضعِهم مواضِعَهم من رأيك، ومعك رجالٌ من ثِقات فرسانك ذَوُو سنٍّ وتجربة ونَجْـدة على التعبية التى أمير المؤمنين واصفُها لك فى آخر كتابك فافعل، إن شاء الله تعالى.

أيّدك الله بالنصر، وغلب لك على القوة، وأعانك على الرّشد، وعصمك من الزيغ، وأوجب لمن استشهد معك ثوابَ الشهداء ومنازلَ الأصفياء، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وكتب سنة تسع وعشرين ومائة .

٧ — رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد الرسالة التي أوصى فيها الكتّاب[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن الله عز وجل جعل الناسَ بعد الأنبياء والمرسلين صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرّمين أصنافا، وإن كانوا فى الحقيقة سواءً، وصرّفهم فى صنوف الصناعات، وضروب المحاولات، الى أسباب معاشهم، وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشرَ الكُتّاب فى أشرف الجهات، أهل الأدب والمُروءات والعلم والرّزانة، بكم تنتظم للخلافة محاسنُها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يُصلح اللهُ للخلق سلطانَهم، وتَعمُر بلدانُهم، لا يستغنى المَلك عنكم، ولا يُوجد كاف إلّا منكم، فموقعكم من المُلوك موقعُ أسماعهم التى بها يَسمعون، وأبصارهم التى بها يُبصرون، وألسنتهم التى بها يَنطقون، وأيديهم التى بها يَبطشون، فأمتعكم اللهُ بما خصّكم من فضل صناعتكم، ولا نزَعَ عنكم ما أضفاه[2] من النّعمة عليكم، وليس أحدٌ من أهل الصناعات كلّها أحوجَ الى اجتماع خلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم . أيها الكتّاب اذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم، فإنّ الكاتب يحتاج فى نفسه، ويحتاج منه صاحبُه الذى يثق به فى مُهمّات أموره، أن يكون حليما فى موضع الحلم، فهيما فى موضع الحُكم، مِقداما فى موضع الإقدام، محجاما فى موضع الإحجام، مُؤثرا

(١) هذه الرسالة من مقدمة ابن خلدون (ص ٢٠٦ طبعة بلاق) . (٢) أضفاه : أتمه .

للعَفاف والعَدْل والإنصاف، كَتُوما للأسْرار، وفيًّا عند الشدائد، عالمـا بما يأتى من النوازل؛ يَضَع الأمُور مَواضعَها، والطَّوارق فى أماكنها؛ قد نَظَر فى كل فنّ من فُنون العلْم فأحكَمَه، وإن لم يُحْكِمْه أخَذ منه بمقدار ما يكْتَفى به؛ يَعْرف بغريزة عَقْله، وحُسْن أدَبَه، وفَضْـل تَجْربته، ما يَرِد عليه قبلَ وُرُوده، وعاقبَةَ ما يَصْدُر عنه قبلَ صُدُوره؛ فيُعِدّ لكل أمْر عُدّتَه وعَتـادَه، ويُهَيِّئ لكل وجه هيئتَه وعادَته. فتَنافسُوا يا معشر الكتّاب فى صُنوف الاداب، وتَفَقَّهوا فى الدين، وآبدؤا بعِـلْم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العَرَبيـة فإنها ثِقافُ ألْسنَتكم، ثم أجيدُوا الخَطّ فإنه حِلْيَـة كُتُبكم، وآرْوُوا الأشْعار وآعرفوا غَريبَها ومَعانيها، وأيّامَ العَرَب والعَجَم وأحاديثَها وسيَرَها؛ فإن ذلك مُعين لكم على ما تَسْمُو اليه هِمَمُكم، ولا تُضَيِّعوا النَّظَر فى الحساب، فإنه قوام كُتّاب الخَراج، وآرْغَبُوا بأنْفُسكم عن المَطامع سَنيِّها ودَنيِّها، وسَفْساف الأمور ومَحاقرها؛ فإنها مَذَلّة للرِّقاب، مَفْسَدة للكُتّاب، ونَزِّهوا صناعَتكم عن الدَّناءة، وآرْبَـؤُوا بأنْفُسكم عن السِّعاية والنَّميمة وما فيه أهل الجَهالات.

وإيّاكم والكِبْرَ والسُّخْف والعَظَمة، فإنها عَداوة مُجْتَلبة من غير إحْنَة؛ وتَحابُّوا فى الله عز وجل فى صناعتكم، وتَوَاصَوْا عليها بالذى هو ألْيَق لأهل الفضل والعـدل والنُّبْل من سَلَفكم؛ وإن نَبَا[1] الزمانُ برجُل منكم، فاعْطفوا عليه وواسُوه حتى يرجع اليه حالُه، ويَثُوب اليه أمْرُه، وإن أقْعَدَ أحَدًا منكم الكِبَرُ عن مَكْسَبه ولقاء إخْوانه، فزُورُوه وعَظِّموه وشاوِرُوه، وآسْتَظْهروا بفَضْل تَجْربَته، وقَديم مَعْرفَته؛ ولْيَكُن الرجُل منكم على مَن آصْطَنَعَه وآسْتَظْهر به ليَوْم حاجَته اليه أحْوَطَ منه على ولَده وأخيه، فإن عَرَضَت فى الشُّغْل مَحْمَدَةٌ فلا يَصْرِفْها إلا الى صاحبه، وإن عَرَضَتْ مَذَمّة فلْيَحْملْها هو من دونه؛ ولْيَحْذَر السَّقْطَة والزَّلّة والمَلَل عند تغيُّر الحال، فإن العَيب اليكم مَعشر الكتّاب أسْرَعُ منه الى القرّاء، وهو لكم أفْسَد منه لها؛ فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صَحِبَه مَن يَبْذُل له من نَفْسه، ما يَجب له عليه من حَقّه؛ فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وفائه وشُكْره، وآحتماله ونصيحته، وكتمان سرّه وتدبير أمره،

(١) نبا: تجافى وتباعد.

ما هو جزاءٌ لحقّه، ويصدّق ذلك فعْلُه عند الحاجة اليه، والاضطرار الى ما لديه؛ فاستشعروا ذلك — وفقكم الله — من أنفسكم فى حالة الرَّخاء، والشدّة والحرْمان والمُواساة والإحسان والسَّراء والضَّراء؛ فنعمَتِ الشيمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة؛ واذا وَلِىَ الرجلُ منكم أو صُيِّر اليه من أمْرِ خَلْقِ الله وعياله أمْرٌ، فليُراقب الله عز وجل وليُؤْثِرْ طاعتَه؛ وليكُن على الضعيف رفيقا، وللمظلوم مُنْصفا؛ فإنّ الخَلْقَ عيالُ الله، وأحبّهم اليه أرفقُهم بعياله؛ ثم ليكُنْ بالعَدْل حاكما، وللأشراف مُكْرِما، وللفَىء مُوَفِّرا، وللبلاد عامرا، وللرَّعيَّة مُتَألِّفا، وعن أذاهم متخلّيا؛ وليكن فى مجلسه متواضعا حليما، وفى سجلات خراجه واستقضاء حقوقه دقيقا؛ واذا صَحِبَ أحدُكم رجلا فليَخْتَبِر خَلائقَه، فاذا عَرَف حَسَنَها وقبيحَها أعانه على ما يوافقه من الحَسَن، واحتال على صَرْفه عمّا يَهْواه من القبيح بالطف حيلة وأجمل وسيلة .

وقد علمتم أن سائس البَهيمة اذا كان بصيرا بسياستها التمَس معرفةَ أخْلاقها، فإن كانت رَمُوحا لم يَهِجْها اذا ركبها، وإن كانت شَبوبا اتّقاها من بين يديها، وإن خاف منها شُرودا تَوَقّاها من ناحية رأسها، وإنْ كانت حَرُونا قَمَع برفْقٍ هَواها فى طُرُقها، فإن استمرّت عَطَفَها يسيرا، فيَسْلس له قيادُها، وفى هذا الوصف من السياسة دلائلُ لمَن ساسَ الناس وعامَلَهم وجَرّبهم وداخَلَهم .

والكاتب لفَضْل أدَبه وشريف صنعته ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناظره، ويَفْهم عنه أو يَخاف سَطْوتَه، أوْلَى بالرِّفْق لصاحبه ومُداراته وتقويم أوَده، من سائس البهيمة التى لا تُحير جوابا، ولا تَعْرف صوابا، ولا تَفْهم خطابا، إلّا بقدر ما يُصَيِّرها اليه صاحبُها الراكب عليها؛ ألَا فارْفُقوا رحمكم اللهُ فى النظر، واعْمَلوا ما أمكنكم فيه من الرَّويّة والفكر، تأمَنُوا بإذن الله ممّن صَحِبْتُموه النَّبْوةَ والاستثقال والجَفْوة؛ ويصير منكم الى الموافقة، وتصيروا منه الى المُؤاخاة والشفقة، إن شاء اللهُ؛ ولا يُجاوِزَنَّ الرجلُ منكم فى هيئة مجلسه، ومَلْبَسه ومَرْكبه، ومَطْعمه ومَشْربه وخَدَمه، وغير ذلك من فنون أمْره قَدْرَ حقّه؛ فإنكم مع ما فضّلكم اللهُ به من شَرَف صَنْعتكم، خَدَمةٌ لا تُحْمَلون فى خدْمتكم على التقصير، وحَفَظةٌ

لا تُحْتَمَلُ منكم أفعالُ التَّضييع والتبذير، وآستعينوا على أفعالكم بالقَصْـد فى كل ما ذكَرْتُه لكم، وقَصَصْتُه عليكم، وآحذَروا مَتالف السَّرَف، وسوءَ عاقبة التَّرَف، فإنهما يُعْقِبان الفقر، ويُذِلّان الرِّقابَ ويَفْضَحان أهلَهما، ولا سيما الكُتّاب وأرباب الآداب . وللأمور أشباه وبعضُها دليـل على بعض، فاسْتَدلّوا على مُؤْتَنَف أعمالكم، بمـا سبقت اليه تَجْربَتُكم ، ثم آسْلُكوا من مَسالك التدبير أَوْضَحَها مَحَجّة، وأصدَقَها حُجّة، وأحْمَدَها عاقبة .

وآعلموا أن للتدبير آفةً مُتْلفة، وهو الوَصْف الشاغل لصاحبه، عن إنْفاذ علْمه ورَوِيَّته، فليَقْصد الرجل منكم فى مجلسه، قَصْد الكافى فى مَنْطقه، وليُوجِزْ فى آبتدائه وجوابه، وليَأخُذ بمجَـامع حُجَجه، فإن ذلك مصلحة لفعْله، ومَدْفَعَـة للشاغل من إكْثاره، وليَتَضرَّع الى الله فى صلة توفيقه، وإمْداده بتسديده، مَخافة وُقوعه فى الغَلَط المُضرّ ببدنه، وعَقْله وأدبه، فإنه إنْ ظَنَّ منكم ظانٌّ أو قال قائل: إنّ الذى بَرَز من جميل صَنْعته وقوّة حركته، إنما هو بفَضل حيلته وحُسْن تدبيره، فقـد تعرّض بحُسْن ظنّه أو مَقالتـه الى أن يَكلَه اللهُ عز وجل الى نفسـه، فيصير منهـا الى غير كاف، وذلك على مَن تأمّله غيرُ خاف، ولا يَقُلْ أحدٌ منكم إنه أبْصَر بالأمور، وأحْمَل لأعْباء التدبير، من مُرافقه فى صناعته، ومُصاحبه فى خدمته، فإنّ أعْقل الرجُلين عند ذَوِى الألبـاب مَن رَمَى بالعُجْب وراءَ ظهره، ورأى أن أصحـابَه أعْقَلُ منه وأجمـلُ فى طريقته، وعلى كل واحد من الفريقين أن يَعْرف فضْلَ نعَم الله جلّ ثنـاؤه من غير آغترار برأيه، ولا تَزْكية لنفسـه، ولا يُكاثر على أخيـه أو نظيره، وصاحبه وعَشيره، وحمدُ الله واجبٌ على الجميع .

وذلك بالتواضع لعظمته، والتذلُّل لعزّته، والتَّحدّث بنعمته، وأنا أقول فى كتابى هذا ما سَبق به المَثَـل : "مَنْ تَلْزَمه النصيحة يَلْزَمه العَمَل" وهو جوهر هذا الكتاب وغُرّة كلامه، بعـد الذى فيه من ذكر الله عز وجل، فلذلك جعلْتُه آخرَه وتَمَّمْتُه به . تولّانا الله وإيّاكم يا معشر الطَّلَبة والكَتَبة بما يتولّى به مَن سَبَق علْمُه بإسْعاده وإرْشاده، فان ذلك اليه وبيده . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

٨ — رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد رسالة فى الشطرنج[(١)] :

أما بعد ، فإن الله شَرَع دِينَه بإنهاج سُبُله ، وإيضاح مَعَالِمه بإظهار فرائضه ، وبعث رسلَه الى خلقه دلالةً لهم على ربوبيّته ، وآحتجاجاً عليهم برسالاته ، ومقدّما اليهم بإنذاره ووعيده ، ليهلِكَ من هَلَكَ عن بيِّنة ، ويحيا من حَىّ عن بينة ؛ ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وسلم وحيَه ، وقَفّى به رسله ، وآبتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضياً له على حين انطمست الأعلامُ[(٢)] مختفية ، وتشتّتت السبل متفرقة ، وعَفَتْ آثارُ الدين دارسة ، وسطَع رَهَج الفِتَن ، وآعتلى قَتَامُ الظُّلْم ، وآستَنْهد الشِّركُ ، وأسدفَ[(٣)] الكفرُ ، وظَهر أولياءُ الشيطان لطموس الأعلام ، ونطق زعيمُ الباطل بسكتة الحق ، وآستُطْرِق الجور وآستُنْكِح الصُّدوف عن الحق ، وآقمطَرّ[(٤)] سَلْهَبُ الفتنة ، وآستضرم لِقاحُها ، وطَبَّقت الأرضَ ظلمة كفرٍ وغَيَابةُ[(٥)] فساد ؛ فصدَع بالحق مأمورا ، وأبلغ الرسالةَ معصوما ، ونصح الإسلامَ وأهلَه ، دالًّا لهم على المَرَاشد ، وقائدًا لهم الى الهداية ، ومنيرًا لهم أعلامَ الحق ضاحية ، مرشدًا لهم الى آستفتاح باب الرحمة وإعلاق[(٦)] عُرْوة النَّجاة ؛ مُوضحا لهم سُبُلَ الغَوَاية ، زاجرًا لهم عن طريق الضَّلالة ، محذِّرا لهم الهلكة ، مُوعزا اليهم فى التقدمة ، ضارباً لهم الحدود على ما يتّقون من الأمور ويخشَوْن ، وما إليه يسارعون ويطلبون ؛ صابراً نفسَه على الأذى والتكذيب ، داعيًا لهم بالترغيب والترهيب ؛ حريصا عليهم ، متحنّنا على كافّتهم ،

---

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المنظوم والمنثور » لابن طيفور المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٨١ أدب) ومراجعة على نسخة أخرى منه محفوظة برقم (١٨٦٠ أدب) .

(٢) وردت هذه الجملة فى رسائل البلغاء هكذا : « على حين انطمست له الأعلام ... » بزيادة "له" وليس لها محل من السياق فلعلها من زيادات النساخ .

(٣) أسدف الكفر : أظلم وعم النواحى والأرجاء كالليل . (٤) اقمطر : اشتد .

(٥) الغيابة ، ما أظل الانسان من فوق كالسحابة والغبرة ونحوهما .

(٦) فى رسائل البلغاء وإعلان بالنون بدل القاف ، وهو تحريف .

عزيزا عليه عَنَتُهم ، رءوفًا بهم رحيما ، تقدمه شفقته عليهم وعنايته برشدهم الى تجريد الطلب الى ربه فيما فيه بقاءُ النعمة عليهم ، وسلامةُ أديانهم ، وتخفيفُ آصار (١) الأوزار عنهم ، حتى قبضه الله اليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ناصحا متنصّحا ، أمينًا مأمونا ، قد بَلّغ الرسالةَ ، وأدّى النصيحةَ ، وقام بالحق ، وعدّل عمودَ الدين ، حتى اعتدل ميلُه ؛ وأذلّ الشركَ وأهلَه ، وأنجز الله له وعدَه ، وأراه صدقَ أنبائه (٢) فى إكماله للمسلمين دينَه ، وآستقامة سنّته فيهم ، وظهور شرائعه عليهم . قد أبان لهم مُوبقات الأعمال ، ومفظعات الذنوب ، ومهبطات الأوزار ، وظلم الشبهات ، وما يدعو اليه نقصان الأديان ، وتستهويهم به الغوايات . وأوضح لهم أعلام الحق ، ومنازلَ المراشد ، وطُرُقَ الهدى ، وأبوابَ النجاة ، ومعالق العصمة ، غيرَ مدّخرٍ لهم نصحا ولا مبتغٍ فى إرشادهم غُنْما . فكان مما قدّم اليهم فيه نهيَه ، وأعلمهم سوءَ عاقبته ، وحذّرهم إصْرَه ، وأوعز اليهم ناهيًا وواعظًا وزاجرًا ، الاعتكافُ على هذه التماثيل من الشِّطْرَنْج والمواصلةُ عليها ، لما فى ذلك من عظيم الإثم ، ومُوبِق الوِزْر ، مع مَشْغلتها عن طلب المَعَاش ، وإضرارها بالعقول ، ومَنْعها من حضور الصلوات فى مَوَاقيتها مع جميع المسلمين .

وقد بلغ أميرَ المؤمنين أن ناسا ، ممن قِبَلَك من أهل الاسلام ، قد ألهجهم الشيطان بها ، وجَمَعهم عليها ، وألّف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لَدُنْ صُبْحِهم الى مُمْساهم ، مُلهيةً لهم عن الصلوات ، شاغلةً لهم عما أُمِرُوا به من القيام بسُنَن دينهم ، وافْتُرِضَ عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعبتهم فيها ، وسوءِ لفظهم عليها . وإن ذلك من فعلهم ظاهرٌ فى الأندية والمجالس ، غيرُ منكَرٍ ولا مَعِيب ولا مُستفظَع عند أهل الفقه ، وذوى الورع والأديان والأسنان منهم ؛ فأكبر أميرُ المؤمنين ذلك وأعظَمَه ، وكرهه

(١) آصار : جمع إصر وهو الثقل . وفى رسائل البلغاء واختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور « أواصر » بدل آصار ، وهو تحريف . (٢) فى رسائل البلغاء واختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور « أسبابه » وهو تحريف .

واستكبره، وعلم أن الشيطان عندما يئس منه من بلوغ إرادته فى معاصى الله عز وجل، بمصر المسلمين ونجمهم صُرَاحًا وجهارا، أقدم بهم على شُبهة مُهْلِكة، وزيّن لهم وَرْطَةً مُوبقة، وغرّهم بمكيدة حيله، إرادةً لاستهوائهم بالخُدَع، واجتيالهم[1] بالشُّبَه والمراصد الخفيّة المشكلة. وكلٌّ مقيمٌ على معصية الله، صغُرت أو كبُرت، مستحلًّا لها مُشيدا بها، مظهرًا لارتكابه إياها، غيرَ حَذِرٍ من عقاب الله عز وجل عليها، ولا خائفٍ مكروهًا فيها، ولا راهبٍ من حلول سَطْوته عليها، حتى تلحَقه المنية، فتختلجَه وهو مُصِرٌّ عليها، غير تائب الى الله منها، ولا مستغفر من ارتكابه إيّاها؛ فكم من أقام على مُوبِقات الآثام وكبائر الذنوب، حتى مدته وتَخَرَّم أيامه.

وقد أحبّ أميرُ المؤمنين أن يتقدّم اليهم، فيما بلغه عنهم، وأن يُنذرهم ويُوعِزَ إليهم، ويُعلمهم ما فى أعناقهم عليها، وما لهم فى قبول ذلك من الحظ، وعليهم فى تركه من الوِزْر، فآذِن[2] بذلك فيهم، وأَشِده فى أسواقهم وجميع أنديتهم، وأوعز اليهم فيه. وتقدّمْ الى عامل شُرْطتك فى إنهاك العقوبة لمن رُفِع اليه: من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للّعب بها، وإطالة حبسه فى ضيق وضَنْك، وطَرْحِ اسمه من ديوان أمير المؤمنين. وافطمهم عما لَهِجُوا به من ذلك. والتمسْ بشدّتك عليهم فيه وإنهاكك بالعقوبة عليه، ثواب الله وجزاءه، واتباعَ أميرِ المؤمنين ورأيه. ولا يجدَن أحد عندك هوادةً فى التقصير فى حق الله عز وجل، والتعدّى لأحكامه، فتُحِلّ بنفسك ما يسوءك عاقبةُ مَغَبّته، وتتعرّض به لغير الله عز وجل ونكاله. واكتب الى أمير المؤمنين ما يكون منك، إن شاء الله والسلام.

---

(١) اجتالهم: حوّلهم عن طريق قصدهم ويحتمل أن يكون: واحتبالهم، والاحتبال: الاصطياد.

(٢) آذنه الأمر وبه: أعلمه.

رسـالة رابعة لعبـد الحميد الكاتب

٩ — ومن رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التى وصف بها الصيد[(١)] :

أطال الله بقاءَ أمير المؤمنين مؤيَّدا بالعز، مخصوصا بالكرامة، ممتَّعا بالنعمة، إنه لم يُلْق[(٢)] أحدٌ من المقتنِصين، ولا مُنِـح متطرِّف من المتصـيِّدين، إلا دون ما لقَّانا[(٣)] اللهُ به مـن اليمن والبركة، ومَنَحنا من الظفَر والسعادة فى مسيرنا من كثرة الصيد، وحُسن المقتنَص، وتمكين الحاسة[(٤)]، وقُربِ الغاية، وسهولة المورد، وعموم القُدورة[(٥)]. إلا ما كان من محـاولة الطلب، وشدة النَّصَب، لنافر الصيد، وقائد الطريدة التى أمعنَّا فى الطلب لهـا، وأعجزَنا البُهْرُ عن اللَّحاق بها، لتفاوت سبقها، ومنقطع هربها، ومتفرق سُبُلها، ثم آل بنا ذلك الى حُسن الظفَر، وتناولِ الأرب، ونهـايةِ الطرب .

وإنى أخبر أمير المؤمنين أنّا خرجنـا الى الصيد بأعدَى الجوارح، وأثقف الضوارى؛ أكرمها أجنـاسا، وأعظمها أجساما، وأحسنها ألوانا، وأحدّها أطرافا، وأطولها أعضاءً، قد ثُقِّفَتْ بحُسن الأدب، وعُوِّدت شدّة الطلب، وسَبَرت أعلامَ المواقف، وخبَرت المجاثم، مجبولةً على ما عُوِّدت، ومقصورةً على ما أُدِّبتْ . ومعنا من نفائس الخيل المخبورةِ الفَراهَة[(٦)]، من الشِّهْرِيَّة[(٧)] الموصوفةِ بالنجابة، والجرى والصلابة. فلم نزل بأخفض سير، وأثقف طلب، وقد أمطرتنا السماء مطرا متداركا، فربَتْ منه الأرض، وزَهَر البقل، وسكن القتامُ من مُثار[(٨)] السنابك، ومتشعِّباتِ[(٩)] الأعاصير، مُهلةَ أن سِرْنا غَلَواتٍ، ثم برزت الشمسُ طالعة، وآنكشفت [من] السحاب مسفرة، فتلألأت الأشجار، وضحك النوار، وآنجلت الأبصار، فلم نر منظَرا أحسنَ حُسنا، ولا مرموقا أشبهَ شكلا، من آبتسام نور الشمس عن اخضرار

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المنظوم والمنثور » لابن طيفور .
(٢) فى الأصل : "يلف" .
(٣) فى الأصل : "الفانا" .
(٤) كذا فى الأصل ولعلها محرفة عن الحبالة .
(٥) القدورة : القدرة، وفى الأصل : "المقدورة" .
(٦) الفراهة : النشاط فى السـير .
(٧) الشهرية : البراذين .
(٨) فى الأصل : هكذا "مسا" :
(٩) فى الأصل "متسعات" ؛

زهرة الرياض . والخيلُ تمرحُ بنا نشاطا ، وتجتذبُنا أعنّتها انبساطا ؛ ثم لم نلبث أن علتنا ضبابةٌ تقصُر(١) طرفَ الناظر ، وتُخفي(٢) سُبُلَ السلام ، تغشانا تارةً وتنكشف أخرى ، ونحن بأرض دمثة التراب ، أشبة(٣) الأطراف ، مُغدقة الفجاج ، مملوءة صيدا من الظباء والثعالب والأرانب ؛ فأدّانا المسيرُ الى غاية دونها مألف الصيد ، ومجتمعُ الوحش ، ونهاية الطلب ، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون ، وبكلّ حَرّة(٤) جَوْنة(٥) متفرّقون ، فرجع بنا العودُ على البدء ، وقد انجلت الضبابة ، وامتدّ البصر ، وأمكن النظر ، فاذا نحن برعْلة(٦) من ظباء ، وخلْفة آرام يرتَعْن آنسات ، قد أحالتهنّ الضبابةُ عن شخصنا ، وأذهلَهنّ أنيقُ الرياض عن استماع حسّنا ، فلم نعجْ(٧) إلا والضوارى لائحةٌ لهنّ من بُعد الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص ؛ ثم مدّت الجوارحُ أجنحتَها ، واجتذبت الضوارى مَقاودَها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بحُضرها ، وسُرعة الجوارح فى طلبها ، فمرّت تحفُّ حفيفَ الريح عند هُبوبها ، تُسِفُّ الأرضَ سفًّا ، كاشفةً عن آثارها ، طالبةً لخيارها ، حارشةً بأظفارها ، قد مزّقتْها تمزيقَ الريح الجراد ؛ فمن صائح بها وناعر ، وهاتف بها وناعق ، يدعو الكلبَ باسمه ، ويفديه بأبيه وأمّه ، وراكض تحت مُفرّه ، وخافق يطلبه الرمح ، وطامح يمنعه ، وسانح قد عارضه بارح ، قد حيّرتنا الكثرة ، وألهجتنا القُدرة ، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد ، والله المنعم الوهّاب .

ثمّ ملنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمته التجارب ، وخَبَرَ أعلامَ المَذانب ، الى غدير أفيح ، وروضة خَضِرة ، مستأجمة بتلاوين الشجر ، ملتفّة بصُنوف الخَمر(٨) ، مملوءة من أنواع الطير ، لم يَذْعَرهنّ صائد ، ولا اقتنصهنّ قانص ، خفّقَ لها بطبول ، وصُفر بنفير الحتف ، فثار منها ما ملأ الأُفُقَ كثرتُها ، وراعت الجوارحَ خَفَقاتُ أجنحتها ؛ ثم انبرت البُزاة

---

(١) فى الأصل : "تقتصر" . (٢) فى الأصل : "ويحيى" .

(٣) الأشبة : الملتفة الشجر . وفى الأصل «آسنه» . (٤) الحرة : أرض ذات حجارة نخرة سود ، وفى الأصل «حر» . (٥) الجونة : السوداء ، وفى الأصل هكذا : «حومة» . (٦) رعلة : جماعة متفرقة . (٧) فى الأصل : «يفح» . (٨) الخمر : الشجر .

لها صائدة، والصقورُ كاسرة، والشواهينُ ضارية، يرفعن الطلب لنا، ويخفضْن الظفَر بها، حتى سئمنا من الذّبح، وآمتلأْنا من النّضيح (١)؛ كأنّا كتيبةٌ ظَفِرت ببغيتها، وسَرِيّةٌ نُصِرتْ على عَدوِّها، وألحقتْ ضعيفَها بقويِّها (٢)، وغلَبتْ محسنَها بمسيئها؛ لا نملك أنفسَنا مَرَحا، ولا نستفيق من الجذَل بها فرحا، بقيّة يومنا، والله المنعم الوهّاب .

ثمّ غدونا يا أمير المؤمنين الى أرض وُصف لنا صيدُها بالكثرة، ورياضُها بالنزهة، فزلّ واصفُها عن الطريقة، وآعتمدَ بنا على غير الحقيقة؛ فأتيناها فلم نر صيدا ولا عُشبا، ولا نزهةً ولا حسنا، فجعلنا نسلُك منها حُزونا ووُعورا، وجُدوبا وقَفرا، حتى قصّر بنا اليأسُ عن الطلب، وقطَعَ بنا عن الطمع النَّصَب . فبينا نحن كذلك، إذ بدا لنا جَأْبٌ (٣) قد أوفى بنا على حائلٍ دلَّ (٤) على عابة من ورائها حَميرُ وحشٍ كثيرةٌ، فأمّمْناها، فلمّا تطرَّقنا مشيًا وتَقرِيبا (٥) الى عاناته (٦)، توالى نهيقُه، وكثُر شهيقُه، فألتفتنَ اليه، فرمقنَ بأعينهنّ منّا ما آستكثرن شخصَه، وآستهولن أمرَه، حتى اذا كنّا بمرأًى ومسمع آنجذبن موليّات، وهربن مسيّبات، فأجهدنا الركضَ فى طلبهنّ، نتبع آثارَهنّ، ونَستشِفّ بلاءً بين أحفارٍ (٧) ودكادكَ (٨) وخَنَاذيذَ (٩)، حتّى أشفَى بنا الطلبُ لها على وادٍ هائلٍ سائل، بجنبَتيْه غابةٌ أشِبَةٌ قد سبقنَ اليها، وآستخفَيْنَ فيها، فنظَمناها بالخيل نَظْمَ الخَرَزِ، ثم أوغلتْ عِدّةُ فُرسانٍ فى نفْضها ومعرفةِ أحوالها، والطبولُ خافقةٌ، والأصواتُ شاهقةٌ، فكان وكان؛ والحمد لله على كل حال .

---

(١) النضيح : العرق .

(٢) فى الأصل : "قلب" . (٣) الجأب : الغليظ من حمر الوحش . (٤) فى الأصل : "مسيسا" . (٥) التقريب : ضرب من العدو . (٦) العانة : القطيع من حمر الوحش .

(٧) الأحفار جمع حفر وهو التراب المخرج من المحفور . (٨) الدكادك : جمع دكدك ودكداك وهو أرض فيها غلظ . (٩) الخناذيذ : جمع خنذيذ وهو رأس الجبل المشرف ، والذى يتفق والسياق "أخاديد" ، وهى جمع أخدود : الحفرة المستطيلة فى الأرض .

باب المنظـــوم

الغـــزل

ذكرنا فى المجلد الأوّل حالةَ الغَزَل فى العصر الأمَوىّ، وكثرةَ مانجد فيه من لَوَاعِج الحب ولَفَحاته، وشِكَايات الصب وأنّاته ، وزَفَرات العاشق وعَبَراته . وبيّنا أنواعَه المتباينة التى قسمناها الى أربعة أقسام :

(أ) غزل إباحىّ : ويصح لنا أن نتخذ من عمر بن أبى ربيعة زعيما لهذا النوع الذى يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معانىَ العَبَث والاستمتاع باللذة المادّية مما ينفر منه الأدب الجاهلىّ، ومما حظَره عليه الكثيرون من خلفاء الاسلام وأئمته . وقد كانت مكة والمدينة مَسْرحا لهذا النوع فى العصر الأموىّ . وقد شرحنا سبب ذلك فى المجلد الأوّل فراجعه ثَمّة .

(ب) غزل عُذْرىّ : وهو غزل الحب الصادق، والعواطف المتأججة، والنفس المتألّمة المعنّاة، تلك النفس التى تجد لذتها فى الكَلَف بمن تحب والتعلق بها والشعور بالسعادة فى الفناء فى حبها، حبًّا يملك عليه لبّه ويعذب روحه ويُفْنى جسمه، كغزل جميل زعيم هذا النوع . وليس أدل على صدق حبه مما أثبتناه عن كتاب الأغانى اذ حاول أبوه أن يَصرفه عن حبه وحاجّه فى ذلك أجمل مُحَاجّة، فكان من جميل ماكان مما تجده مفصّلا فى هذا الباب .

(ج) غزل صناعىّ : بين هذا وذاك، همُّه الإجادة فى الشعر من حيث هو شعر، لا فى الحب من حيث هو حبّ ، ولنا فى كثيِّر عزة زعيم لهذا النوع الثالث .

(د) غزل قصصىّ : خلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى الغزل والى حياة القَصْف وما يتبع حياة القصف، فنظموا قصائد نحلوها لشعراء لا نستطيع أن نحتمل تَبِعة

القول بوجودهم فى الحياه ، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة ، أو زادوا من عندهم مقطّعات نسبوها لهم وأضافوها الى شعرهم . وزعيما هذا النوع : قَيْس بن الملوّح وليلاه ، وقَيس بن ذَرِيح ولُبْناه .

وإيفاء بمـا وعدناك به نذكر زعيم كل نوع من هـذه الأنواع مع ذكر ترجمته والمختار من شعره .

(ا) الغـــزل الاباحىّ

عمـــر بن أبى ربيعة (١)

« راقَ عمرُ بن أبى رَبيعة النـاسَ وفاق نُظَراءَه وبَرَعَهم بسهولة الشعر وشدّة الأَسْر ، وحُسْن الوَصْف ، ودقّة المعنى ، وصواب المَصْدر ، والقَصْد للحاجة ، واستنطاق الرَّبع ، وإنطاق

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبـد الله بن أبى ربيعـة القرشى المخزومى ، أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل ، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليـه ، وكانت أمه نصرانيـة ، وكان أبوه تاجرا موسرا ، وعاملا لرسـول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الثلاثة من بعده ، فشب فى نعيم وترف ، وقال الشعر صغيرا ، وسلك فيـه طريق الغزل ، ووصف أحوال النساء ، وتزاورهنّ ومداعبـة بعضهن لبعض ، وما يعتدن قوله من الكلام ، ممـا يتوقر الشعراء الفحول عن الخوض فيه ، ولذلك لم يحفلوا بشعره وعدّوه من هذيان خلعاء المدينة ، فـا زال يعالج الشـعر والشعر ينقاد له ، حتى ملك ناصيته ، وقبض على زمامه ، وبزّ الشعراء ، وقال رائيته المشهورة على طريقته المبتكرة وهى التى أولهـا :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر * غداة غد أم رائح فمهجـر

والتى قال فيها جرير حين سمعها : ما زال هذا القرشىّ يهذى حتى قال الشعر .

ثم اسـتطار شرّه فى التشبيب بالنساء : من يعرفها ومن لا يعرفها ، وتعرّض للحصنات المتعففات من نساء قومه ومن غيرهن ، فوقعن منـه فى بلاء عظيم وصرن يخفن الخروج الى الحج لأنه كان يتلقاهن بمكة ، ويترقب خروجهن للطواف والسعى ويصفهنّ وهنّ محرمات . وحملت عليه رجالات قريش لمكانة نسبه منهم ولترقب توبته وإقلاعه ، فلما تمادى فى أمره وشبب ببنات السادات والخلفاء ، غضب عليه عمر بن عبد العزيز ونفاه الى دهلك : (وهى جزيرة أمام مدينة مصوّع) ، ثم رأى ابن أبى ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالتوبة والجهاد فغزا فى البحر فاحترقت السـفينة التى كان فيهـا واحترق هو أيضا سـنة ٩٣ هـ وقد اقتبسنا تصدير بحثنا عنـه عن أبى الفرج الأصفهانى وتجد ترجمته مطوّلة فى الأغانى ج ١ ص ٦١ — ٢٤٨ (طبعة دار الكتب المصرية) والشعر والشعراء ص ٣٤٨ وابن خلكان (ج ١ ص ٧٨٣) والدميرى (ج ١ ص ٣٢٦) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١٣٢) وله ديوان مطبوع فى ليبزج سنة ١٨٩٣ وفى مصر سنة ١٣١١ ومنه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية .

القلب، وحسن العَزاء، ومخاطبة النساء، وعفّة المقال، وقلّة الٱنتقال، وإثبات الحُجّة، وترجيح الشك فى موضع اليقين، وطُلاوة الٱعتذار، وفتح الغزل، ونَهْج العِلل. وعَطْف المَسَاءة على العُذّال، وحسن التفجُّع، وبُخْل المنازل، وٱختصار الخبَر، وصِدْق الصَّفاء؛ إن قَدَح أَوْرَى، وإن ٱعتذر أَبْرا، وإن تَشكّى أَشْجى، وأَقْدم عن خِبْرة، ولم يَعْتذر بغِرّة، وأَسَر النوم، وغمّ الطير، وأَغَذَّ السير، وحيّر ماءَ الشَّباب، وسهّل وقوّل، وقاس الهوى فأَرْبى، وعَصَى وأَخْلى، وحالف بسَمْعِه وطَرْفه، وأَبْرم نعتَ الرُّسُل وحذّر، وأعان الحبّ وأسرّ، وبطن به وأَظْهر، وألحّ وأسفّ، وأنكح النوم، وجنّى الحديث وضرب ظهرَه لبطنه، وأذلّ صَعْبه، وقَنِع بالرجاء من الوفاء، وأَعْلى قاتلَه، وٱستبكى عاذلَه، ونفّض النوم، وأغلق رَهْنَ مِنًى وأهْدَر قَتْلاه؛ وكان بعد هذا كلّه فصيحا.

فمن سُهُولة شعره وشدّة أَسْره[1] قولُه:

فلما تواقَفْنا وسلَّمتُ أَشْرقَتْ * وُجوهٌ زَهَاها الحسنُ أن تتقنَّعا
تَبَالَهْنَ بالعِرْفان لما رَأَيْنِني * وقُلْنَ ٱمرؤٌ باغٍ أَكَلَّ وأَوْضَعا[2]

ومن حُسْن وصفه قولُه:

لها من الرِّيم[3] عيناه ولَفْتتُه * ونَخْوةُ السابِق المُختالِ إذ صَهَلا

ومن دقّة معناه وصوابِ مَصْدره قولُه:

عُوجَا[4] نُحَيِّ الطَّلَلَ المُحْوِلَا[5] * والرَّبْعَ مِن أسماءَ والمنزلَا
بسابِغِ البَوْباةِ[6] لم يَعْدُه * تقادُم العهدِ بأَنْ يُؤْهَلا

(١) المراد من شدة الأسر هنا إحكام النسج ومتانة التركيب. (٢) أكلّ: أعيا وأوضع: أسرع فى السير. (٣) الريم: الظبى. (٤) عوجا: قفا. (٥) المحول والمحيل: الذى أتت عليه أحوال كثيرة فغيرته. (٦) البوباة: الفلاة واسم لصحراء بأرض تهامة اذا خرجت من أعالى وادى النخلة اليمانية وهى بلاد بنى سعد بن بكر بن هوازن. (معجم البلدان لياقوت).

ومن قَصْدِه للحاجة قولُه :

أيّها المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهيلاً (١) * عَمْـرَكَ اللهَ كيفَ يلتقيانِ
هى شاميّةٌ اذا ما استقلّتْ * وسُهَيلٌ اذا آسـتقلَّ يمانِى

ومن آستنطاقِه الربعَ قولُه :

سـائلا الرَّبعَ بالبُــلَىّ (٢) وقولا * هِجتَ شوقًا لىَ الغداةَ طويلا
أين حىٌّ حلُّوكَ إذ أنت محفو * فٌ بهم آهلٌ أراكَ جميــلا
قال ساروا فأمْعَنوا وآسـتقلّوا (٣) * وبرُغْمِى ولو وجدتُ سبيلا
سَئِمُـونا وما سَئِمْنا جِـوَارًا * وأحبُّـوا دَمَاثَةً (٤) وسُـهولا

قال إسحاق : أُنْشِدَ جريرٌ هذه الأبياتَ فقال : إن هذا الذى كنّا نَدورُ عليه فأخطأناه .

ومن إنطاقه القلبَ قولُه :

قال لى فيهـا عَتِيقٌ مقـالا * فجَـرتْ ممـا يقولُ الدموعُ
قال لى ودِّعْ سُلَيمى ودَعْهـا * فأجاب القلبُ : لا أسـتطيعُ

ومن حسن عَزَائه قولُه :

أألحقُّ إنْ دارُ الرَّبابِ تباعدتْ * أو آنْبَتَّ (٥) حبلٌ أنّ قلبَـك طائرُ
أفِقْ قد أفاقَ العاشقون وفارقوا الـ * ـهوى وآستمـرَّتْ بالرِّجال (٦) المرائرُ
زَعِ (٧) النفسَ واستبقِ الحيـاءَ فإنّما * تُباعِد أوتُدنِى الرَّبابَ المَقـادرُ
أَمِتْ حبَّها وآجعلْ قديمَ وِصَالِها * وعِشْرَتِها كمثـلِ مَن لا تُعاشِرُ

(١) هى الثريا آبنة عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبدشمس بن عبد مناف الأموية . تزوّجها سهيل ابن عبدالرحمن بن عوف الزهرى رضى الله عنه ونقلها الى مصر فقال عمر هذا الشعر . (٢) البلىّ — بضم وفتح و ياء مشدّدة — : تل قصير أسفل حاذة بينها و بين ذات عرق (ياقوت) . (٣) استقلوا : واصلوا السير وجدّوا فى الآرتحال . (٤) يقال : دمثت الأرض دماثة : سهلت ولانت . (٥) انبت : انقطع . (٦) المراد أن الرجال قد أفاقوا واستحكمت عزائمهم وهو يريد أن يسلو سلوّهم .
(٧) زع النفس ، أى آزجرها وكفها عن هواها .

وهَبْهـا كشيءٍ لم يكن أو كنازحٍ * به الدارُ أو من غَيَّبتْه المَقَـابرُ
وكالناس عُلِّقتَ الرَّبابَ فلا تكنْ * أحاديثَ من يَبْدُو ومن هو حاضرُ (١)

وهذه الأبيات يرويها بعض أهل الحجاز لكُثيِّر، ويرويها الكوفيون للكُمَيت بن معروف الأَسَدِىّ ، وذكر بعضَها الزُّبَير بن بَكَّار عن آبن عُبَيدة لكُثيِّر فى أخباره .

ومن حسن غَزَله فى مخاطبة النساء — قال مُصْعب الزُّبَيرى : وقد أجمع أهلُ بلدنا ممَّن له علمٌ بالشعر أن هذه الأبيات أَغْزَلُ ما سَمِعوا — قولُه :

تقولُ غَـداةَ آلتقَيْنا الرَّبَابُ * أيا ذا أَفَلْتَ أُفُـولَ السِّماكِ
وكفَّتْ سـوابقَ مِن عَبْرةٍ * كما آرْفَضَّ نظمُ ضعيفُ السِّلاكِ
فقلتُ لها مَنْ يُطِعْ فى الصَّديـ * ـق أعداءَه يجتنبْـه كذاكِ
أغرَّكِ أنِّى عصَيتُ المَـلَا * مَ فيكِ وأنّ هوانا هواكِ
وأن لا أرى لَذّة فى الحياة * تَقَرُّ بها العينُ حتى أراكِ
فكان من الذنبِ لى عندكم * مُكَارَمتى وآتّباعى رضَاكِ
فليتَ الذى لَامَ فى حُبّكم * وفى أن تُزارِى بقَرنٍ (٢) وَقَاكِ
همـومَ الحيـاة وأسقامَها * وإن كان حَتْفٌ جهيزٌ (٣) فداكِ

ومن عِفّة مقاله قولُه :

طال لَيْـلِى وآعتادَنِى اليومَ سُقْمُ * وأصـابتْ مَقَـاتِلَ القلبِ نُعْـمُ
حُرّةُ الوجـهِ والشَّمائلِ والجَـو * هرِ تكليمُها لمن نال غُـنْمُ
وحـديث بمثـله تُنْزَل العُصْـ (٤) * ـمُ رَخِيمٌ يَشُوب ذلكَ حِـلْمُ
هـكذا وَصْفُ ما بدا لِىَ منها * ليس لى بالذى تغيَّب عِـلْمُ
إن تَجُودِى أو تَبْخَـلِى فبحَمْدٍ * لستِ يا نُعْـمُ فيهما مَنْ يُذَمُّ

(١) أى من يقيم فى البـدو والحضر . (٢) المراد به قرن المنازل ، وكثيرا ما يذكره فى شعره . (٣) جهيز : سريع . (٤) العصم : جمع أعصم وهو من الظباء والوعول ما فى ذراعيه بياض ، وهى تعتصم غالبا بقنن الجبال .

ومن قلة ٱنتقاله قولُه :

أيُّهـا القـائِلُ غيرَ الصـوابِ * أَمْسِكِ النصحَ وأقلِلْ عِتـابِى
وٱجتنِبْنى وٱعلمنْ أن ستُعْصَى * ولخـيرٌ لك طـولُ ٱجتنابِى
إن تَقُلْ نصحًا فعن ظهرِ غِشٍّ * دائمِ الغِمْـرِ(١) بعيـدِ الذَّهَابِ
ليس بى عِىٌّ بمـا قلتُ إنِّى * عالمٌ أَفْقَـهُ رَجْعَ الجـوابِ
إنمـا قُـرَّةُ عيـنى هـواها * فـدَعِ اللـومَ وكِلْنِى لمـا بِى
لا تلُمْنِى فى الرَّبابِ وأَمْستْ * عَدَلَتْ(٢) للنفسِ بَرْدَ الشَّرابِ
هى واللهِ الذى هـو ربِّى * صادقًا أحلِفُ غيرَ الـكِذَّابِ
أكرمُ الأحيـاءِ طُـرًّا علينـا * عنـد قربٍ منهـمُ وٱجتنابِ
خاطبتْنى ساعةً وهى تبـكِى * ثم عَزَّتْ(٣) خُلَّتِى فى الخطَـابِ
وكفى بى مِدْرَهًا لخصـومٍ * لسِواها عنـد حدِّ تَبَـابِى(٤)

ومن إثباته الحجة قولُه :

خليلىَّ بعضَ اللومِ لا تَرْحَلا(٥) به * رفيقَـكما حتى تقُولا على عِلْمِ
خليلىَّ من يَكْنَف بآخَر كالذى * كَلِفتُ به يَدْمُلْ(٦) فؤادًا على سُقْمِ
خليلىَّ ما كانت تُصاب مَقَاتِلِى * ولا غَرَّنِى حتى وقعتُ على نُعْمِ
خليلىَّ حتى لُفَّ حَبْلِى(٧) بخادِعٍ * مُوَقًّى إذا يُرْمَى صَيُودٍ إذا يَرْمِى
خليلىَّ لو يُرْقَى خليلٌ من الهوى * رُقِيتُ بما يُدْنِى النَّوارَ(٨) من العُصْمِ
خليلىَّ إن باعدْتُ لانتْ وإن أَلِن * تُبَاعِدْ فلم أَنْبُلْ(٩) بحَرْبٍ ولا سَلْمِ

(١) الغمر (بكسر الغين) : الحقد والغل . والغمر (بفتح الغين) : الماء الكثير ، وكلا المعنيين يحتمله البيت .
(٢) عدلت : ساوت . (٣) أى غلبتنى صديقتى فى الخطاب قال تعالى : (وعزنى فى الخطاب) .
(٤) يريد : حسبي غالبا لكل خصم سواها الى حدّ هلاكى . (٥) يقال : رحل فلان فلانا بما يكره ، والمراد أنه يثقله باسماعه إياه . (٦) يدمل : يطوى . قال فى اللسان : ويقال : آدمل القوم ، أى آطوهم على ما فيهم . (٧) يكنى بهذا عن الوقوع فى شركها . (٨) النوار : النافرة من الظباء .
(٩) لم أنبل : لم أصب ، أو لم أحسن الرمى .

ومن ترجيحه الشك فى موضع اليقين قولُه :

نظـرتُ إليها بالمُحَصَّب من مِنًى * ولى نظـرٌ لـولا التحـرّج عارِمُ (١)
فقلت : أشمسٌ أم مَصَابيـحُ بِيعَةٍ * بدتْ لك خَلْفَ السِّجْفِ (٢) أم أنت حالِمُ
بعيـدةُ مَهْوَى القُـرْطِ (٣) إمّا لنوفلٍ * أبـوها وإما عبـدُ شمْسٍ وهاشِمُ
ومدّ عليهـا السِّجفَ يـومَ لقِيتُهـا * على عَجَـلٍ تُبّاعُهـا والخَـوادمُ
فـلم أستطعْها غيرَ أنْ قد بدا لنا * عشيّةَ راحتْ وجهُها والمَعَـاصِمُ
معاصمُ لم تَضْرِب على البَهْمِ (٤) بالضُّحَى * عَصَـاها ووجـهٌ لم تَلُحْه (٥) السَّمَائمُ
نُضَـارٌ تَرَى فيـه أَسَارِيـعَ (٦) مائه * صَبِيحٌ تُغَـاذِيه الأكُفُّ النَّـوَاعِمُ
إذا مادعتْ أترابَهـا فاكتنفْنَهـا * تمـايَلْنَ أو مالتْ بهنَّ المآكِمُ (٧)
طلبْنَ الصِّبَـا حتى إذا ما أصَبْنَه * نَزَعْنَ وهنّ المسلمـاتُ الظـوالمُ

ومن طُلَاوة اعتذاره قولُه :

عاوَدَ القلبَ بعضُ ما قد شجَاه * من حبيبٍ أمْسَى هوانا هَوَاهُ
يالَقَوْمى فكيف أصـبرُ عمّنْ * لاترَى النفسُ طيبَ عَيْشٍ سَواهُ
أرسلتْ إذ رأتْ بِعَادىَ ألّا * يَقْبلَن بى محرِّشًا (٨) إن أتاه
دونَ أن يسمع المقـالةَ منّـا * وليُطْعِنى فإنّ عنـدى رِضَاه
لاتُطِعْ بى فَدَتْكَ نفسِى عدوّا * لحـديثٍ على هواه افـتراه
لاتُطِعْ بى من لو رآنى وإيّا * كِ أسـيرىْ ضرورةٍ ما عَنَـاه
ما ضِرَارِى نفسى بهَجْرِىَ من ليـ * ـس مُسيئًا ولا بعيـدا ثَرَاهُ (٩)
واجتنابى بيتَ الحبيب وماالخُلْـ * ـدُ بأشْهى إلىّ من أن أراه

(١) عارم : حادّ . (٢) السجف : الستر . (٣) كناية عن طول العنق ، وبه فسر فى المثل السائر (طبعة بولاق ص ٣٨٣) . (٤) البهم : جمع بهمة ، وهى الصغير من أولاد الضأن والمعز والبقر . (٥) لم تلحه : لم تغيره . (٦) أساريع الماء : طرائقه . والمراد أنه يترقرق فيه ماء الشباب . (٧) المآكم : جمع مأكمة وهى العجيزة . (٨) المحرّش : المغرى ، من التحريش وهو الاغراء والافساد . (٩) الثرى : الخير .

ومن تَهَجه العِلَل قولُه :

وآيـــةُ ذلك أن تَسْمَعِى * إذا جئتُـــكم ناشدًا يَنْشُـــدُ
فرُحْنا سِراعًا وراح الهـــوى * دليـــلًا إليها بنـــا يَقْصِـــدُ
فلمـا دنـــوْنا لجَـــرْس(١) النُّبَا * ح والصوتِ، والحىُّ لم يَرْقُدوا
بعثنا لهـا باغيًا ناشـــدًا * وفى الحىِّ بُغْية من يَنْشُدُ

ومن فَتْحه الغزلَ قولُه :

إذا أنتَ لم تعشَقْ ولم تدرِ ما الهوى * فكُنْ حجرًا من يابس الصَّخْر جَلْمَدَا

ومن عَطْفه المَسَاءة على العُذَّال قولُه :

لا تَلُمْنِى عَتِيقُ حَسْبِى الذى بى * إنّ بى ياعَتِيقُ ما قد كَفَـانِى
لا تَلُمْـــنِى وأنت زيَّنْتَهـا لى * أنت مثـــلُ الشيطانِ للإنسان

ومن حُسْن تفجُّعه قولُه :

هجـرتَ الحبيبَ اليومَ من غيرِ ما اجتَرمْ * وقطَّعتَ من ذى وُدِّكَ الحبـــلَ فانصرمْ
أطعْتَ الوُشاةَ الكاشحين ومن يُطِعْ * مقالةَ واشٍ يَقْـــرَعِ السِّنَّ مِن نَدَمْ
أتانى رســـولٌ كنتُ أحسِبُ أنه * شَـــفِيقٌ علينـا ناصحٌ كالذى زعم
فلمّـا تبَاثثْنـا(٢) الحـــديثَ وصرَّحَتْ * سَرَائرُه عن بعضِ ما كان قـــد كَتَمْ
تبيَّن لى أن المُحَـــرِّشَ(٣) كاذبٌ * فعنـــدى لكِ العُتْـبَى على رَغْمِ من رَغَمْ
فـــلآنَ لُمْتُ النفسَ بعـــد الذى مَضَى * وبعـــدَ الذى آلتْ وآليتُ مِن قَسَم
ظلمتَ ولم تُعْتِبْ وكان رسـولُهـا * إليـــك سريعًا بالرضا لكَ إذ ظَـــلَمْ

(١) الجرس : الصوت . (٢) بث الحديث : إفشاؤه . (٣) المحرّش : المغرى، يقال : حرّش بين القوم : أفسد بينهم .

ومن تخيله المنازلَ قولُه :

ألم تسألِ الأطلالَ والمتربَّعا * ببَطْنِ حُلَيّاتٍ(١) دَوَارِسَ بَلْقَعَا

إلى السَّرْحِ(٢) من وادى المغمَّسِ(٣) بُدِّلَتْ * معالمُها وَبْلًا ونَكْباءَ(٤) زَعْزَعا(٥)

فيَبْخَلْنَ أو يُخْبِرنَ بالعلمِ بعد ما * نَكَأْنَ(٦) فؤادًا كان قِدْمًا مفجَّعا

ومن اختصاره الخبرَ قولُه :

أمِن آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرُ * غَداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهجِّرُ

بحاجةِ نفسٍ لم تَقُلْ فى جوابها * فتُبلِغَ عذرًا والمقالةُ تُعذِرُ

أشارت بمِدْراها(٧) وقالت لتِرْبِها * أهذا المُغيرىُّ الذى كان يُذْكَرُ

لئن كان إياه لقد حال بعدَنا * عن العهد والإنسانُ قد يتغيَّرُ

قال الزُّبَير حدّثنى إسحاق المَوْصلىّ قال : قلتُ لأعرابىّ : ما معنى قولِ ابن أبى ربيعة :

بحاجة نفسٍ لم تَقُلْ فى جوابِها(٨) * فتبلِغَ عذرًا والمقالة تُعْذِرُ

فقال : قام كما جلس .

ومن صِدْقه الصفاءَ قولُه :

كلُّ وصلٍ أمسى لديكَ لأُنثَى * غيرِها وصلُها إليها أداءُ

كلُّ أنثَى وإن دنتْ لوِصالٍ * أو نأتْ فَهْىَ للرَّباب الفِداءُ

---

(١) حايات (بضم الحاء المهملة وفتح اللام وتشديد الياء) : اسم موضع ذكره البكرى و ياقوت ولم يبيناه ، ولعله موضع قرب مكة بقرينة ذكره مع المغمس الوارد فى البيت بعده . (٢) السرح : موضع . (٣) المغمس (بتشديد الميم وفتحها كما فى ياقوت ، وضبطه البكرى فى معجمه بكسر الميم وتشديدها) : موضع قرب مكة فى طريق الطائف ، مات فيه أبو رغال وقبره يرجم لأنه كان دليل أبرهة صاحب الفيل . (٤) النكباء : الريح التى تنكب عن مهاب الرياح . (٥) يقال : ريح زعزع ، أى شديدة ، وكذلك زعزاع وزعزوع . (٦) يقال : نكأ الجرح : قشره قبل أن يلتئم . (٧) المدرى والمدراة : حديدة يحك بها الرأس . (٨) أى هى فى غاية من السرّ لا يجاب عليها إذا سئل عنها ، والإعذار : نفى العذر .

وقولُه :

أُحِبُّ لحبِّـك مَن لم يكنْ * صفياً لنفسى ولا صاحِبـا
وأبذُلُ مالِى لمَرْضاتِكم * وأُعْتِبُ[1] من جاءكم عاتبـا
وأرغبُ فى وُدّ من لم أكن * إلى وُدّه قبلَكم راغبـا
ولو سَلَكَ الناسُ فى جانبٍ * من الأرض وٱعتزلتُ جانبَا
ليَمَّمْتُ طِيَّتَهـا[2] إنّــنى * أرى قُربَها العَجبَ العاجِبَا

وممـا قَدَحَ فيه فأَوْرَى قولُه .

طالَ ليْـلِى وتعنَّانِى[3] الطَّـرِبُ[4] * وٱعترانى طولُ همٍّ ووَصَبْ
أرسلَتْ أسمـاءُ فى مَعْتَبةٍ * عَتَبَتْهَا وهى أحلى مَن عَتَبْ
أَنْ أَتَى منهـا رسولٌ مُوهِنًا[5] * وجَـد الحيَّ نيـاما فٱنقلبْ
ضربَ البـابَ فلم يَشعُرْ به * أحدٌ يفتـح بابا إذ ضَرَبْ
قال : أَيقاظٌ ، ولكن حاجةٌ * عَرَضَتْ تُكتَمُ منّا فٱحتجبْ
ولَعَمْدًا ردَّنى ، فاجتهـدَتْ * بيمين حَلْفَةً عنــد الغضبْ
يشهَد الرحمنُ لا يجمعُنا * سقفُ بيتٍ رجَبا بعد رجبْ
قلتُ حِلًّا فٱقبـلى مَعْـذِرتِى * ما كذا يَجْزِى مُحِبٌّ من أحبّْ
إنَّ كفِّى لكِ رَهْنٌ بالرضـا * فٱقبلِى ياهند ، قالت قدوجَبْ

قالوا : ومن شعره الذى ٱعتذَر فيه فأبرأَ قولُه :

فٱلتقينا فرحَّبَتْ حين سلَّمْـ * ـتُ وكفَّتْ دمعاً من العين مارَا[6]
ثم قالت عند العِتَاب رَأَيْنـا * منــك عنّا تجـلُّدا وٱزْوِرارَا[7]

(١) يقال : أعتبه إذا أعطاه العتبى وأرضاه . (٢) طيتها : ناحيتها وقصدها . (٣) تعنانى : أوقعنى فى العناء . (٤) الطرب : خفة تعترى الانسان عند شدّة الفرح أوالحزن والهم . (٥) الموهن : نحو من نصف الليل . (٦) مار : جرى وسال . (٧) الازورار : الإعراض .

قلتُ كلَّا لاهِ[1] ٱبنُ عمِّكِ بل خفْـ * ـنا أمورًا كُنَّا بها أغْمارا[2]

فجعلنا الصدودَ لمَّا خشينا * قالةَ الناسِ للهوى أستارا

ليس كالعهدِ إذ عَهِدْتِ[3] ولكن * أوقدَ الناسُ بالنميمة نارا

فلذاكِ الإعراضُ عنكِ وما آ * ثرَ قلبي عليكِ أُخرى ٱختيارا

ما أُبالِي إذا النَّوى قرَّبتْكم * فدنوتم مَن حَلَّ أو مَنْ سارا

فالليالي إذا نأيتِ طِوالٌ * وأراها إذا قَرُبْتِ قِصارا

ومن تَشَكِّيه الذى أشْجَى فيه قولُه :

لَعَمْرُكَ ما جاورتُ غُمْدانَ[4] طائعًا * وقصرَ شَعُوبٍ[5] أن أكونَ به صَبَّا

ولكنَّ حُمَّى أَضْرَعَتْنِي[6] ثلاثةً * مُجَرَّمَةً[7] ثم ٱستمرّت بنا غِبَّا[8]

وحتى لو ٱنّ الخُلْدَ يَعْرِضُ إن مشتْ * إلى البابِ رِجْلِي ما نقلتُ لها إرْبا[9]

فإنك لو أبصرتِ يومَ سُوَيْقَةٍ[10] * مُنَاخِي وحَبْسِي العيسَ دامِيةً حُدْبا[11]

ومَصْرَعَ إخوانٍ كأنّ أنينَهم * أنينُ مَكَاكِيّ[12] فارقتْ بلدًا خِصْبا

إذًا لاقشعرَّ الجلدُ منكِ صَبابةً * ولاستفرغتْ عيناكِ من عبرةٍ سَكْبا

ومن إقدامِه عن خِبْرة ولم يعتذر بِغِرّةٍ قولُه :

صَرَمْتُ وواصلتُ حتى عرفْـ * ـتُ أين المصادرُ والمَوْرِدُ

وجرَّبتُ من ذاك حتى عرفْـ * ـتُ ما أتوقَّى وما أعمِدُ

---

(١) لاه بمعنى لله . (٢) الغمر (بضم الغين وفتحها مع سكون الميم، وفتحتين، وبفتح فكسر) : الغرّ الجاهل الذى لم يجرّب الأمور . (٣) أى ليس الأمر كما تعهدين من قبل .

(٤) غمدان : قصر باليمن بناه « يشرح بن يحصب » . (٥) قصر شعوب : قصر عال مرتفع باليمن .

(٦) أضرعتنى : أضعفتنى وأذلتنى . (٧) مجرّمة كمعظمة : تامة ، يريد ثلاثة أحوال كاملة .

(٨) الغب من الحمى : ما تأخذ يوما وتدع يوما . (٩) أى ما حرّكت له عضوا . (١٠) سويقة : موضع . (١١) حدبا جمع حدباء، وأصل الحدب : ما آرتفع من الأرض، يريد أنه أعياها السير فهى دامية متقوّسة الظهور هزالا . (١٢) المكاكىّ : جمع مكاء، وهو طير يشبه القبرة إلا أن فى جناحيه بلقا، وهو حسن الصوت فى تغريده .

ومن أسرِه النومَ قولُه :

نام صَحبِي وبات نومِي أسِـيرا * أرقُب النجمَ مَوْهِنـا أن يغـورا

ومن غَمِّه الطيرَ قولُه :

فَرُحْنَا وقلنا للغـلام ٱقضِ حاجةً * لنـا ثم أدرِكْنا ولا تتغـبَّر

سِرَاعًا نَغُمُّ[1] الطيرَ إن سَنَحَتْ لنـا * وإن تَلْقَنـا الرُّكْبانُ لا نتخَبَّرِ[2]

تتغبر من قولهم : غبِرَ فلان ، أى لبِث .

ومن إغْذَاذه[3] السيرَ قولُه :

قلتُ سِـيرًا ولا تُقِيما ببُصْرى[4] * وحَفِـيرٍ[5] فمـا أُحِب حَفِـيرًا

وإذا ما مررتُمـا بمَعَانٍ[6] * فأقِـلَّا به الثَّـواءَ وسِـيرًا

إنمـا قصرُنا[7] إذا حَسَرَ[8] السيـ * ـرُ بعـيرًا أن نَستجِدَّ بعيرًا

ومن تحييره ماءَ الشباب قولُه :

أبْرَزُوها مثلَ المَهاة تَهَـادَى * بين خَمْسٍ كَوَاعِبٍ أتْرابِ

ثم قالوا تحبُّهـا قلتُ بَهْـرًا * عددَ القَطْرِ والحَصَى والترابِ

وهى مكنونةٌ تحـيَّرَ منهـا * فى أَدِيم الخَدَّينِ ماءُ الشبابِ

ومن تَقْوِيله وتَسْهيله قولُه :

قالتْ على رِقْبةٍ يوما لجارتِهـا * ما تأمُرِينَ فإن القلبَ قد تُبِلا[9]

وهل لىَ اليومَ مِنْ أختٍ مُوَاخِيةٍ * منكنّ أشْكُو إليها بعضَ ما فَعلا

---

(١) لعله يريد : تحزنها بالسبق ، أو بهرها وتغلبها ، من قولهم : غمّ القمر النجوم : بهرها وكاد يستر ضوءها .

(٢) التخبر : السؤال عن الخبر . (٣) أغذ السير وأغذ فيه : أسرع . (٤) بصرى : بلد بالشأم .

(٥) حفير : نهر بالأردن ببلاد الشأم . (٦) معان : مدينة فى طرف بادية الشأم تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء . (٧) قصرنا ، أى قصارانا وغايتنا . (٨) حسر السير بعيرا : أجهده وأعياه .

(٩) المتبول : من أسقمه الهوى وغلبه الحب على أمره .

فراجعتْها حَصَانٌ(١) غيرُ فاحشـةٍ * برَجْعِ قولٍ ولُبٌّ لم يكن خَطِلا(٢)

لا تذكُرى حبَّه حتى أُراجعَه * إنى سأَكْفِيكَه إنْ لم أمُتْ عَجَلا

فاَقْنَىْ(٣) حياءَكِ فى سِترٍ وفى كَرَمٍ * فلستِ أوّلَ أنثى عُلِّقتْ رجُلا

وأما ما قاس فيه الهوى فقولُه :

وقرَّبْنَ أسـبابَ الهوى لمتـيَّمٍ * يَقِيسُ ذِراعا كلّما قِسْن إصبعًا

ومن عِصيانه و إخلائه قولهُ :

وأَنُصُّ(٤) المَطِىَّ يَتْبَعْنَ بالرَّكْـ * ـبِ سِرَاعًا نَوَاعِمَ الأَظْعَانِ

فنَصِـيدُ الغَرِيرَ(٥) من بقرالوحـ * ـش ونَلْهُو بلذّة الفِتْيَانِ

فى زمانٍ لو كنتِ فيه ضَجِيعِى * غيرَ شكٍّ عرفتِ لى عِصْيانِى

وتقلّبتِ فى الفِراش ولا تَدْ * رِينَ إلا الظُّنونَ أين مكانى

ومن مخالفته بسمعه وطرفه قولُه :

سَمْعِى وطَرْفِى حَليفَاهَا على جسدى * فكيف أصبِرُ عن سَمْعِى وعن بَصَرِى

لـو طاوعانى على ألّا أكلِّمَهـا * إذًا لقضَّيْتُ من أَوْطَارِها وَطَرِى

ومن إبرامه نعتَ الرسلِ قولُه :

فبعثتُ كاتمةَ الحـديـ * ـثِ رَفِيقـةً بجَوَابِها

وحشـيَّةً إنسـيَّةً * خَرَّاجةً مِنْ بابِها

فَرَقَتْ فسهَّلتِ المَعَـا * رِضَ من سبيل نِقَابِها

ومن تحذيره قولهُ :

لقـد أرسلتُ جاريتى * وقلت لها خُذِى حَذَرَكْ

وقُولِى فى مُلَاطَفَـةٍ * لزينبَ نَوِّلِى عُمَـرَكْ

---

(١) حصان : عفيفة . (٢) الخطل : الفاسد المضطرب . (٣) اقنى حياءك : الزميه .

(٤) نص المطىّ : استخراج أقصى ماعندها من السير . (٥) الغرير : الغافل .

فإن داويتِ ذا سَقَــمٍ * فأخزَى اللهُ من كَفَرَكْ
فهَــزَّتْ رأسَها عجبًا * وقالتْ مَنْ بذَا أمرَكْ
أهـذا سِحْــرُك النِّسْوا * نَ، قد خبَّرْنني خبَرَكْ
وقُلْنَ إذا قضَى وَطَـرًا * وأدْرَك حاجةً هجَــرَكْ

ومن إعلانه الحبَّ وإسراره قولُه :

شكوتُ اليها الحبَّ أُعلِنُ بعضَه * وأخفيتُ منــه فى الفؤاد غَليلَا

ومما أبطن فيه وأظهر قولُه :

حُبُّــكم يا آلَ لَيْــلَى قاتِلِي * ظهرَ الحبُّ بجسمى وبَطَنْ
ليس حبٌّ فوقَ ما أحببتُكمْ * غيرَ أَنْ أقتُلَ نفسى أو أُجَنّْ

ومما أَلَحَّ فيه وأَسَفَّ قولُه :

ليت حَظِّى كطَرْفة العين منها * وكثيرٌ منهــا القليلُ المُهَنَّــا
أوحديثٌ على خَلاءٍ يُسَــلِّى * ما يُجِنُّ الفؤادُ منها ومِنَّا
كَبُرَتْ رَبِّ نعمةً منكَ يومًا * أنْ أراها قبل المَمــاتِ ومَنَّا

ومن إنكاحه النومَ قولُه :

حتّى اذا ما الليلُ جَنّ ظلامُه * ونظرتُ غَفْلةَ كاشحٍ أن يَعْقِلَا
واستَنْكَح النومُ الذين نَخافُهم * وسَقَى الكَرَى بوّابَهُمْ فاستُثْقِلَا (١)
خرجتْ تأطَّرُ فى الثياب كأنها * أَيْمٌ يَسِيبُ على كَثِيبٍ أَهْيَــلَا (٢)

ومن جَنْيِه الحديثَ قولُه :

وجَوارٍ مُسَاعِفَاتٍ على اللهـ * ـو مُسِرَّاتِ باطنِ الأَضْــغانِ
صُــيَّدٍ للرجال يَرْشُقْن بالطّرْ * فِ حِسَانٍ كخُــذَّل الغِزْلانِ (٣)

---

(١) يقال : أثقله النوم فهو مستثقل بصيغة المفعول . (٢) تأطر أصله تتأطر فحذفت إحدى تاءيه ومعناه تتثنى . والأيم : الأفعى . ويسيب : يمشى . والكثيب الأهيل : الرمل المنهال . (٣) الخذل : جمع خاذل وهى الظبية تخلف عن صواحباتها أو أولادها .

قـد دَعَانِي وقد دَعَاهُنَّ للّهـ * ـو شُجُونٌ مُهيِّـجةُ الأشجـانِ[1]
فٱجتنينا من الحديث ثِمَـارًا * ما جَنَى مثلَها لعمرُك جَانِي

ومن ضربه الحديث ظهرَه لبطنه قولُه :

فى خَلَاءٍ من الأَنِيسِ وأَمْنٍ * فَبَثثْنَا غَلِيلَنَـا وٱشـتفينا
وضربْنا الحديثَ ظهرًا لبطن * وأتينا من أمرنا ما ٱشتهيْنا
فمكثنا بذاك عشرَ ليـالٍ * فقضينا ديوننـا وٱقتضَيْنا

ومن إذلاله صعبَ الحديث قولُه :

فلمـا أَفَضْنَا فى الهوى نستبينُه * وعاد لنا صعبُ الحديثِ ذَلُولَا
شكوتُ اليها الحبَّ أُظْهِرُ بعضَه * وأخفيتُ منـه فى الفؤاد غليلا

ومن قَنَاعته بالرجاء من الوفاء قولُه :

فعِدِى نائلًا وإن لم تُنيلِى * إنه ينفع المحبَّ الرجاءُ

قال الزبير : هذا أحسن من قول كثيِّر :

ولست براضٍ من خليلٍ بنائلٍ * قليـــلٍ ولا أرضَى له بقليل

ومن إعلائه قاتلَه قولُه :

فبعثتُ جاريتى وقلتُ لها ٱذهَبِى * فٱشْكِى إليهـا ما علمتِ وسلِّمِى
قُولِى يقولُ تحـرَّجِى فى عاشـقٍ[2] * كَلِفٍ بكم حتّى الممـاتِ مُتيَّمِ
ويقــول إنك قد علمتِ بأنكمْ * أصبحتُمُ يا بِشْرُ أَوْجهَ ذى دمِ[3]
فُكِّى رَهينَتَه فإنـ لم تفعَـلى * فٱعْلِى على قتْلِ ٱبنِ عمِّك وٱسْلَمِى
فتضاحكتْ عَجَبًا وقالت حقُّـه * ألّا يعــلَّمَنا بمـا لم نَعْــلِمِ

---

(١) أى مثيرة الأشجان . (٢) أى كفى عن الحرج والاثم .
(٣) أى أحق إنسان آخذ منه بدمى .

علمى به والله يغفرُ ذنبَـه * فيما بدا لى ذو هَـوًى متقسّم
طَرِفٌ(١) ينازعُه الى الأدنَى الهوى * ويَبُتُّ خُلّةَ ذى الوِصَالِ الأقْدَمِ

ومن تنفيضه النومَ قولُه :

فلما فَقَدْتُ الصوتَ منهم وأُطفِئتْ * مَصَـابِيحُ شُبَّتْ بالعشَـاء وأَنْوُرُ
وغاب قُمَـيْرٌ كنتُ أرجو غيوبَه * وروّحَ رُعْيانٌ ونَوَّم سُمَّـرُ(٢)
ونفَّضْتُ عنِّى النومَ أقبلْتُ مِشْيةَ الـ * ـحُبَاب وركْنِى خَشـيةَ القوم أزْوَرُ(٣)

ومن إغلاقه رهنَ مِنًى وإهداره قتلاه قولُه :

فكم من قَتيـلٍ ما يُباءُ(٤) به دمٌ * ومن غَـلِقٍ(٥) رَهْنًا إذا لفَّـه مِنَى
ومن مالئٍ عينيه من شىءِ غيره * اذا راح نحو الجَمْرة البِيضُ كالدُّمَى(٦)

وكان بعد هذا كلّه فصيحًا شاعرا مِقْوَلًا(٧) .

ومن شعره المشهور قولُه :

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمُبكِرُ * غداةَ غـدٍ أم رائحٌ فمهجِّـرُ
لحاجةِ نفسٍ لم تَقُـلْ فى جَوَابِها * فتُبْلِـغَ عُـذْرًا والمقـالةُ تُعْـذِرُ
أشارتْ بمِدْرَاها وقالت لأختِهـا * أهـذا المُغِيرِىُّ الذى كان يُذْكَرُ
فقالتْ نعمْ لا شـكَّ غـيَّر لونَه * سُرَى الليـلِ يَطْوِى نَصَّه(٨) والتهجُّرُ
رأتْ رجُلًا أمّا إذا الشمسُ عارضتْ * فيَضْـحَى وأمّا بالعشِىّ فيَخْصَرُ

(١) الطرف : من لا يثبت على امرأة ولا صاحب . (٢) روّح من الرواح وهو وقت العشىّ . والرعيان : جمع راع كالرعاة والرعاء والرعاء . ونوّم الرجل تنويما : مبالغة فى نام . (٣) الحباب : الحية . وأزور كأحسن : مائل من زور يزور إذا مال . (٤) يقال : أباء القاتل بالقتيل : قتله به ، والمراد هنا : فكم من قتيل يطل دمه ولا يؤخذ له بثأر . (٥) يقال : غلق الرهن فى يد المرتهن يغلق غلقا : لم يقـدر الراهن على افتكاكه فى الوقت المشروط . يريد : وكم من قلوب أسيرة لا يقدر أصحابها على افتكاكها .
(٦) الدمى : جمع دمية وهى الصورة المنقشة من العاج ونحوه . (٧) المقول : الحسن القول المفصح المبين .
(٨) نص السرى : إسراعه ، وأصله حث الدابة واستخراج أقصى ما عندها من السير .

أخا سفرٍ جوَّابَ أرضٍ تقاذفتْ * به فَلَواتٌ فهْوَ أشْعَثُ أغْبَرُ
قليلًا على ظَهرِ المطيَّةِ ظِلُّه * سوى ما نَفَى عنه الرداءُ المُحَبَّرُ (١)
وأعجبها من عَيشها ظِلُّ غُرفةٍ * وريّانُ مُلتفُّ الحدائقِ أخْضَرُ
ووالٍ كَفاها كلَّ شيءٍ يَهُمُّها * فليستْ لشيءٍ آخرَ الليلِ تَسهَرُ
وليلةَ ذى دَوْرانَ (٢) جَشَّمْنِي السُّرَى (٣) * وقد يَجْشَمُ الهولَ المُحِبُّ المُغرَّرُ

ومن شعره قوله فى فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية :

تَشِطُّ (٤) غدًا دارُ جيراننا * ولَلدَّارُ بعدَ غدٍ أبعدُ
إذا سلكتْ غَمْرَ (٥) ذِى كِنْدَةٍ * مع الرَّكْبِ (٦) قَصْدٌ لها الفَرْقَدُ (٧)
وحثَّ الحُداةُ بها عِيرَها * سِراعًا إذا ما وَنَتْ تُطْرَدُ (٨)
هنالكَ إمّا تُعَزِّى الفؤاد * وإمّا على إثْرِها تَكْمَدُ
وليستْ ببِدْعٍ إذا دارُها * نأتْ والعَزاءُ إذًا أجْلَدُ
صَرَمْتُ وواصلتُ حتى علمـ * ـتُ أين المصادرُ والمَوْرِدُ
وجرَّبتُ من ذاك حتى عرفـ * ـتُ ما أتوقّى وما أحمَدُ
فلما دَنَوْنا لجَرْسِ (٩) النُّبا * حِ والضوءِ والحىُّ لم يَرْقُدُوا
نأيْنا عن الحىِّ حتى إذا * تَودَّعَ (١٠) من نارِها المُوقَدُ
وناموا بعثْنا لها ناشدًا * وفى الحىِّ بُغْيةُ مَنْ يَنْشُدُ

---

(١) المحبر : المزين المحسن . (٢) ذو دوران — بفتح أوله وبعد الواو راء مهملة وآخره نون — : موضع بين قديد والجحفة (ياقوت) . (٣) أى كلفتنى السير ليلا .

(٤) تشط : تبعد . (٥) غمر ذى كندة : موضع وراء وجرة بينه وبين مكة مسيرة يومين .

(٦) كذا فى ديوانه ، وفى الأغانى « الصبح » . (٧) الفرقد : نجمان فى السماء من نجوم الدب الأصغر وهى فى الشمال ، ويقال لها : الفرقد بالإفراد ، والفرقدان بالتثنية . ولعله يريد أنها تسير جهته ، لأن العراق التى تقصده فى الشمال الشرقىّ من مكة . (٨) الحداة : جمع حاد وأصله المغنى للابل لتنشط فى السير ، وقد يراد به الزاجر والسائق . والعير : الإبل ، ولا واحد له من لفظه . وونت : ضعفت وتباطأت . وتطرد : تساق .

(٩) الجرس : الصوت . (١٠) تودع : سكنت ناره وانطفأت .

أَتَتْنا(١) تَهَادَى على رِقْبَـــةٍ(٢) * من الخوف أحشاؤها تُرْعَدُ
تقـــول وتُظْهِر وَجْدًا(٣) بنـا * ووَجْدِى وإن أظهرتْ أَوْجَدُ
لِمَّا شَـــقَائِى تعلَّقْتُكم * وقـــد كان لى عنكُمُ مَقعَدُ(٤)
وَكَفَّتْ سَـــوَابِقَ من عَبْرةٍ * على الخَـــدِّ جَالَ بها الإِثْمِدُ(٥)
فإنّ التى شـــيَّعَتْنا الغَـــدَاةَ * مع الفجر قلبى بها مُقْصَـــدُ(٦)

وشبَّبَ عمرُ بن أبى ربيعة بزينبَ بنتِ موسى الجُمَحيّة فى قصيدته التى يقول فيها :

يا خَليـــلىَّ مِنْ مَلامٍ دَعَانِى * وأَلِمَّا الغَـــدَاةَ بالأَظْعانِ
لا تـــلوما فى آلِ زينبَ إنّ الـ * ـقلبَ رَهْنٌ بآلِ زينبَ عانِى
ما أَرَى ما بقيتُ أن أذكُرَ المـــو * قفَ منهـا بالخَيْـــفِ(٧) إلّا شجَانِى
لم تَدَعْ للنسـاءِ عنـــدِىَ حظًّا * غـــيرَ ما قلتُ مازِحًا بلسـانى
هى أهـــلُ الصَّفَاء والوُدِّ مـــنِّى * وإليهـا الهَـــوَى فلا تَعْـــذُلانى
حين قالت لأختهـا ولأخرى * من قَطِينٍ(٨) مُوَلَّدٍ : حَـــدِّثانى
كيفَ لى اليومَ أن أَرَى عُمَرَ الْمُرْ * سِـــلَ سِرًّا فى القول أن يَلْقانى
قالَتا : نَبْتَـــغِى رسولًا إليـــه * ونُميتُ الحـــديثَ بالكِتمانِ
إنّ قلبى بعـــدَ الذى نِلْتُ منهـا * كالمُعَمَّى(٩) عن سائر النِّسْـوانِ

---

(١) تهادى : تمشى فى تمايل وسكون . (٢) الرقبة : التحفظ والفرق . (٣) الوجد : الشغف والشوق الشديد . (٤) المراد : قد كان لى غنى عن حبكم . (٥) الإثمد : حجر للكحل وأجوده بأصبهان . (٦) أقصده : رماه بسهم فقتله . (٧) الخيف : ما آرتفع عن مجرى السيل وآنحدر عن غلظ الجبل . قال آبن سيدة : وخيف مكة موضع فيها عند منى ، سمى بذلك لآنحداره عن الغلظ وآرتفاعه عن السيل . (٨) القطين : الخدم والأتباع والحشم ، والمولد من العبيد والإماء : من ولد بين العرب ونشأ مع أولادهم . (٩) كذا فى الأغانى . وفى ديوانه "كالمعنى" أى المأسور المحبوس عن غيرها .

وكان سببُ ذكره لها أنّ آبنَ أبي عتيق ذكّرها عندَه يوما فأطْراها ووصَف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغَل قلبَ عُمَرَ وأماله اليها ، فقال فيها الشعرَ وشبّب بها ، فبلغ ذلك آبنَ أبي عَتيقٍ ، فلامه فيه وقال له : أتَنطِقُ الشعرَ في آبنة عمّي؟ فقال عمرُ :

لا تَلُمْني عتيقُ حَسبي الذي بي * إنّ بي يا عتيقُ ما قد كَفَاني
لا تَلُمْــنِي وأنتَ زيّنتَها لي * أنتَ مثلُ الشيطانِ للإنسانِ
إنّ بي داخلًا من الحبّ قد أبْـ * ـلَى عِظَامِي مكنونُهُ وبَرَانِي
لو بعينيــكَ يا عتيقُ نَظَرْنا * ليــلةَ السَّفْحِ قرّتِ العينانِ
إذ بدا الكَشْحُ والوِشاحُ من الدُّ * رّ وفَصْـلٌ فيه من المَرْجانِ (١)
وقَلَى قلبيَ النســاءَ ســواها * بعــد ما كان مُغرمًا بالغــواني
لم تَدَعْ للنســاء عندي نصيبًا * غــيرَ ما قلتُ مازحًا بلســاني

وأنشد آبنُ أبي عَتيقٍ قولَ عمرَ :

مَنْ (٢) لسَــقيمٍ يكتُم النــاسَ ما به * لزينبَ نَجْوَى صـدرِه والوَسَاوِسُ
أقولُ لمن يبْغِي الشّــفاء متى تَجِئْ * بزينبَ تُدرِكْ بعضَ ما أنتَ لامِسُ
فإنكَ إن لم تَشْفِ من سَقمِي بها * فإنّي من طِبِّ الأطبّاء آيِسُ
ولستُ بناسٍ ليــلةَ الدار مجلسا * لزينبَ حتى يعْــلُوَ الرأسَ رَامِسُ (٣)
خَلاءً بَدَتْ قَمْراؤه وتكشَّفَتْ * دُجُنّتُه وغابَ من هو حارِسُ
وما نلتُ منهــا محْرَمًا غــيرَ أنّنــا * كلانا من الثوبِ المــورَّدِ (٤) لابِسُ
نَجِيَّيْنِ نَقْضِي اللهوَ في غير مَأْثَمٍ * وإن رَغِمَتْ مِ الكَاشِحِينَ المَعَاطِسُ

---

(١) الكشح : ما بين الجبة — وهي رأس الورك الذي يشرف على الخاصرة — إلى الإبط . والوشاح : شبه قلادة ينسج من أديم عريض يرصع بالجواهر تشدّه المرأة بين عاتقيها .

(٢) هذا البيت دخل عليه الخرم وهو حذف الفاء من فعولن . (٣) الرامس : الدافن في الرمس وهو القبر .

(٤) المورّد : الذي صبغ على لون الورد .

قال : فقال آبنُ أبى عَتيق : أمِنَّا يسخَرُ آبن أبى رَبيعة ؟ فأىُّ مَحْرَم بَقِيَ ! ثم أتى عمرَ فقــال له : يا عمرُ، ألم تُخْــبرنى أنك ما أتيتَ حرامًا قــطُّ ؟ قال : بَلَى، قال : فأخبِرْنى عن قولك :

* كلانا من الثّوْبِ المورَّد لا بسُ *

ما معناه؟ قال : والله لأخبرنَّك : خرجتُ أريد المسجدَ وخرجتْ زينبُ تريده ، فالتقينـا فاتّعـدْنا لبعض الشِّعَاب ، فلما توسّطْنا الشِّعبَ أخذتْنا السماءُ ، فكرِهتُ أن يُرى بثيابها بَلَلُ المطر ، فيقالَ لها : ألا آستترتِ بسَقَائف المسجد إن كنتِ فيه ! فأمرتُ غِلْمانى فستَرُونَا بكساء خَزٍّ كان علىّ ، فذلك حين أقول :

* كلانا من آثواب المَطَارِف لابس *

فقال له : آبنُ أبى عتيق : يا عاهِرُ ! هذا البيت يحتاج الى حاضِنة ! .

ومن جيد شعره قولُه فى زينب بنت موسى :

يا مَنْ لقلبٍ مُتَــيَّمٍ كَلِفِ * يَهْذِى بخَودٍ (١) مَريضــةِ النَّظَرِ
تمشى الهُوَيْنَا إذا مشتْ فُضُلًا (٢) * وهْىَ كمِثْلِ العُسْلُوجِ (٣) فى الشَّجَرِ
ما زال طَـرْفِى يَحَارُ إذ بَرَزَتْ * حتى رأيتُ النقصانَ فى بَصَرِى
أبصــرتُها ليــلةً ونِسوتَهــا * يَمْشِينَ بين المَقَامِ والحَجَــرِ
ما إن طَمِعْنَا بها ولا طَمِعَتْ * حتى آلتقينا ليــلًا على قَــدَرِ (٤)
بيضًــا حِسَانًا خَرَائدًا قُطُفًا (٥) * يَمْشِينَ هَوْنًا كمِشية البقــرِ
قد فُزْنَ بالحسن والجَمال معًــا * وفُزْنَ رِسْلًا (٦) بالدَّلِّ والخَفَــرِ

(١) الخود : الفتاة الحسنة الخلق الشابة ما لم تصر نصفا ، والنصف : المرأة بين الحدثة والمسنة .

(٢) الفضل بضمتين : المختالة التى تفصل من ذيلها . ويروى : «قطفا» والمراد به تقارب الخطو .

(٣) العسلوج : الغصن اللين الأخضر . (٤) على قدر : على غير موعد . والوجه فيه أن التقاءهما كأنه مقدّر فى الأزل لا علم له به ولا سعى إليه كما قيل :

جاء الخـــلافة أو كانت له قـــدرا * كما أتى ربه موسى على قـــدر

(٥) جمع قطوف وهى البطيئة فى السير . (٦) الرسل بالكسر : الرفق والتؤدة . والخفر : شدّة الاستحياء .

يُنْصِتْنَ يومًا لهـا إذا نطقتْ * كَيْما يُشَرِّفْنَها على البَشَـر
قالت لـترْبٍ لهـا تُحـدّثها * لَنُفْسِـدَنّ الطَّوَافَ فى عُمَـر
قُومى تَصَـدَّىْ له ليعرفَنـا * ثم ٱغمِزيه يا أخت فى خَفَـرِ
قالت لهـا قد غمـزتُه فأبى * ثم ٱسْبَطَرَّتْ (١) تسعَى على أثَرى
من يُسْقَ بعـد المنام ريقَتَهـا * يُسْـقَ بمِسْـكٍ وباردٍ خَصِر (٢)

وقولُه فيها أيضا :

أَلْمِمْ بزينبَ إن البَيْنَ قد أَفِدَا (٣) * قَلَّ الثَّوَاءُ لَئِنْ كان الرَّحِيـلُ غَدَا
قد حلَفَتْ ليلةَ الصَّوْرَيْنِ (٤) جاهدةً * وما على المرء إلا الحُلْفُ مجتهِـدَا
لأختها ولأخرى من مَنَاصِفِها (٥) * لقد وجدتُ به فوقَ الذى وَجَدَا
لو جُمِّعَ النـاسُ ثم ٱختِير صَفْوُهُمُ * شخصًا من الناس لم أعدِلْ به أحدَا

ومن شعر عمر فى تشوّقه الى مكة بعد أن خرج منها الى اليمن قولُه :

هيهاتَ من أَمة الوَهَّاب منزلُنـا * اذا حللنا بسِيف البحر (٦) من عَدَنِ
وٱحتـلَّ أهلُكِ أَجْيادًا (٧) وليس لنـا * إلا التـذكُّرُ أو حظٌّ من الحَزَنِ
لو أنهـا أبصرتْ بالجِـزْع عَبْرَتَه * من أن يغَـرِّد قُمْرِىٌّ على فَنَنِ
اذًا رأت غـير ما ظنَّت بصاحبهـا * وأيقنتْ أن لَحْجًا ليس من وَطَنِى
ما أَنْسَ لا أَنْسَ يومَ الخَيْفِ (٨) موقفَها * وموقـفى وكلانا ثَمَّ ذو شَجَنِ
وقولَهـا للـثُّرَيّا وهى باكيةٌ * والدمعُ منها على الخدّين ذو سَنَنِ (٩)

(١) اسبطرت : أسرعت . (٢) الخصر : البارد . (٣) أفد كفرح : عجل وأسرع .
(٤) الصوران : موضع بالمدينة بالبقيع ، وقد ذكره ياقوت وٱستشهد بالبيت . (٥) المنصف كمنبر ومقعد : الخادم ، والأنثى بالهاء ، جمعه مناصف .
(٦) سيف البحر : ساحله . (٧) أجياد : موضع بمكة ، سمى بذلك لأن تبعا لما قدم مكة ربط خيله فيه فسمى بذلك ، وهما موضعان : أجياد الكبير وأجياد الصغير . (٨) الخيف : موضع بمنى وبه سمى مسجد الخيف . (٩) ذو سنن : ذو طرائق .

بالله قـــولى له فى غـــير مَعْتَبَــةٍ * ماذا أردتَ بطـول المُكْث فى اليمنِ
إن كنتَ حاولتَ دنيا أو ظفِرْتَ بها * فـا أخـذتَ بتَرْك الحجِّ مـن ثمنِ

وقال أيضـا :

خليـــلىّ ما بالُ المَطَـايا كأنَّمـا * نَرَاها على الأدْبار بالقـوم تَنكِصُ(١)
وقـــد قُطِعَتْ أعنـاقُهن صَبَابةً * فأنفُسُنا ممـا يُلاقِينَ شُخَّصُ
وقد أتعبَ الحادى سُراهُنَّ وٱنْتَحَى * بهنّ فـا يَألُو عَجُـولٌ مُقَلِّصُ(٢)
يَزِدْنَ بنـا قـربًا فيزدادُ شَـوْقُنا * إذا زاد طولُ العهد والبعدُ ينقُصُ

ومن شعره قولُه :

جَرَى ناصحٌ بالوُدّ بيـنى وبينَهـا * فقرَّبنى يومَ الحِصَابِ(٣) إلى قَتْـلِى
فطارت بحَدّ من فؤادى وقارنتْ * قرينتُها حبـلَ الصَّفاء إلى حبـلى
فلمّـا توافَقْنا عرفتُ الذى بهـا * كمثل الذى بى حَذْوَكَ النعلَ بالنعلِ
فقُلْنَ لهـا هـذا عِشاءٌ وأهلُنـا * قريبٌ ألَمَّا تَسْأَمى مَرْكَبَ البَغْلِ
فقالت فـا شئْتُن قلن لهـا ٱنزلى * فَلَلأرضُ خيرٌ من وقوفٍ على رَحْلِ
نُجُـومٌ دَرَارِىٌّ(٤) تكنّفْنَ صـورةً * من البدر وافتْ غيرَ هُوجٍ(٥) ولا عُجْلِ
فسلَّمْتُ وٱستأنستُ خِيفَةَ أن يَرَى * عدوٌّ مُقَامى أو يَرَى كاشحٌ فِعْـلِى
فقالتْ وأَرْخَتْ جانبَ السِّتْر إنمـا * معى فتكلَّمْ غيرَ ذى رِقْبَـةٍ أَهْـلِى
فقلتُ لها ما بى لهم مِن تَرَقُّبٍ * ولكنّ سِرِّى ليس يَحمِلُه مثـلى
فلمّـا ٱقتصرْنا دونهنّ حديثَنـا * وهنّ طَبيبَاتٌ بحاجة ذى الشَّكْلِ
عَرَفْنَ الذى تَهْوَى فقلنَ ٱئذنِى لنا * نَطُفْ ساعةً فى بَرْدِ ليلٍ وفى سَهْلِ

---

(١) تنكص : ترجع وتولى وتحجم . (٢) مقلص : مشمر جادّ فى السير . (٣) الحصاب كالمحصب : موضع رمى الجمار . (٤) دراري ممنوعة من الصرف ونوّنت لضرورة الشعر . (٥) هوج : جمع هوجاء وهى المتعجلة فى السير كأن بها هوجا وحمقا .

فقالتْ فلا تَلْبَثْنَ قُلْنَ تَحَدَّثِي * أتيناكِ، وٱنْسَبْنَ ٱنسيابَ مَهَا الرَّمْلِ
فقمنَ وقد أفهمْنَ ذا اللُّبِّ أنما * أَتَيْنَ الذى يَأْتِينَ من ذاك من أَجْلى

وقد كان عمر حين أَسَنَّ حلَف ألّا يقولَ بيتَ شعر إلّا أعتق رقبةً، فانصرف عمرُ إلى منزله يحدِّث نفسَه، فجعلتْ جاريةٌ له تكلِّمه فلا يردّ عليها جوابا، فقالت له: إن لك لأمرا، وأراك تريد أن تقول شعرا، فقال:

تقولُ وليدتي لما رأتْني * طَرِبْتُ وكنتُ قد أقصرتُ حِينا
أراكَ اليومَ قد أحدثتَ شوقًا * وهاج لك الهوى داءً دَفِينَا
وكنتَ زعمتَ أنك ذو عَزَاء * إذا ما شئتَ فارقتَ القَرِينَا
بربِّكَ هل أتاك لها رسولٌ * فشاقك أم لَقِيتَ لها خَدِينَا (١)
فقلتُ شكا إلىّ أخٌ محِبٌّ * كبعْض زماننا إذ تعلَمِينَا
فقصَّ علىّ ما يَلْقَى بهند * فذكَّر بعضَ ما كُنَّا نَسِينَا
وذو الشَّوْق القديم وإن تعزَّى * مَشُوقٌ حين يلقَى العاشقينَا
وكم من خُلَّةٍ (٢) أعرضتُ عنها * لغير قِلًى وكنتُ بها ضَنِينَا
أردت بِعادَها فصدَدْتُ عنها * ولو جُنَّ الفؤادُ بها جنونَا

ثم دعا تسعةً من رقيقه فأعتقهم بكلّ بيتٍ واحدًا.

وله:

يقولون: إنى لستُ أصدُقُك الهوى * وإنّى لا أرعاك حين أغيبُ
فما بالُ طَرْفِى عَفَّ عما تَسَاقطتْ * له أعينٌ من مَعْشَرٍ وقُلوبُ
عشيَّةَ لا يَسْتَنْكِفُ القومُ أن يَرَوْا * سَفَاهَ آمرئ ممن يقال لبيبُ

(١) الخدين: الصديق الذى يخادنك فيكون معك فى كل أمر ظاهر وباطن، ومنه خدن الجارية: محدثها، وكان العرب فى الجاهلية لا يمتنعون من خدن يحدث الجارية فجاء الاسلام بهدمه. وفى التنزيل العزيز: (اليوم أحل لكم الطيبات) الى قوله: (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) الآية. (٢) الخلة: الخليلة.

ولا فتنـــةٌ من ناسكٍ أومَضَتْ له (١) * بعين الصِّبَا كَسْلَى القيامِ لَعُوبُ

تَرَوَّحَ يرجُـو أن تُحَطَّ ذنوبُهُ * فآبَ وقد زِيدتْ عليـه ذنوبُ

وما النُّسْكُ أسْلَانِى ولكنَّ للهوى * على العين منِّى والفـؤادِ رقيبُ

وله :

ألم تسألِ المـنزل المُقْفِـرا * بيـانًا فيكتُمَ أو يُخْـبِرَا

ذكرتَ به بعض ما قد شجَاكَ * وحَقٌّ لذى الشَّجْوِ أن يَذْكُرَا

مَبِيتَ الحبيبينِ قد ظاهرا (٢) * كِسَـاءً وبردين أن يُمْطَـرَا

ومَمْشَى الثـلاثِ به مَوْهِنًـا * خرجن إلى زائـرٍ زُوَّرَا

إلى مجلس من وراء القِبَـا * بِ سَهْـلِ الرُّبَى طيِّبٍ أعْفَرا (٣)

غَفلْنَ عن الليـل حتى بدتْ * تبـاشيرُ من واضحٍ أسْـفَرَا

فقُمْنَ يُعفِّينَ آثارَنا * بأكسية الخَزِّ أن تُقْفَـرا (٤)

مَهَاتانِ شـيَّعتا جُؤْذُرًا (٥) * أسِـيلًا مُقَـلَّده (٦) أحْـوَرا

وقُمْنَ وقُلْنَ لـو انَّ النها * رَ مُدَّ له الليـلُ فاسـتأخَرا

قَضَـيْنا به بعضَ أشْجـاننا * وكان الحـديثُ به أجْدَرَا

وله :

أفى رَسْمِ دارٍ دمعُـك المـترَقْرِقُ (٧) * سَفَاهًا ! وما استنطاقُ ما ليس يَنْطِقُ !

بحيثُ التقى "جَمْعٌ" (٨) وأقصى "مُحَسِّرٍ" (٩) * مَعَالِمُـه كادت على العَهدِ تَخْـلُقُ

ذكرتُ به ما قـد مضى من زماننـا * وذكرُكَ رَسْمَ الدارِ ممَّا يُشَـوِّقُ

---

(١) أومضت له : سارقته النظر .

(٢) يقال : ظاهر بين الثوبين إذا لبس أحدهما على الآخر . (٣) أعفر : ذى رمل أحمر .

(٤) يقال : قفر الاثر قفرا : اقتفاه وتبعه . (٥) الجؤذر (بضم أوله وضم الذال وفتحها) : ولد البقرة والربرب : القطيع من بقر الوحش وقيل من الظباء، ولا واحد له من لفظه . (٦) المقلد : موضع القلادة ويراد به الجيد . (٧) ترقرق الدمع : سال . (٨) جمع، هى المزدلفة . (٩) محسر : موضع بين منى والمزدلفة .

ليالىَ من دهرٍ إذ الحىُّ جيرةٌ * وإذ هو مأهولُ الخميلة مؤنِقُ
مَقَامًا لنا عند العشاء ومجلسا * به لم يُكدِّره علينا مُعَوِّقُ(١)
وممشى فتاةٍ بالكساء تكُنُّنا * به تحت عَيْنٍ(٢) برقُها يتألَّقُ
يبُلُّ أعالى الثوب قَطْرٌ وتحته * شُعاعٌ بدا يُعْشِى العيونَ ويُشْرِقُ
فأحسنُ شىء بَدْءُ أوّلِ ليلنا * وآخره حُزْنٌ إذا نتفرّقُ

وروى أن ليلى كانتْ جالسةً فى المسجد الحرام، فرأتْ عمرَ بن أبى ربيعة فوجّهتْ إليه مَوْلًى لها فجاءها به، فقالت له : يابنَ أبى ربيعة، حتّى متى لا تزال سادرًا(٣) فى حَرَم الله تُشبِّبُ بالنساء وتُشيد بذكرهنّ ! أما تخاف الله ! قال : دعينى من ذاك واسمعى ما قلتُ، قالت : وما قلتَ؟ فأنشدها الأبياتَ المذكورة، فقالت له القول الذى تقدّم أنها أجابتْه به. قال : وقال لها : اسمَعِى أيضا ما قلتُ فيكِ، ثم أنشدها قولَه :

أمِنَ الرسم وأطْلالِ الدِّمَنْ * عاد لى وَجْدِى وعاودتُ الحَزَنْ
إنّ حبِّى آلَ ليلَى قاتلى * ظهر الحبُّ بجسمى وبطَنْ
يا أبا الحارث قلبى طائرٌ * فأْتَمِرْ أمرَ رشيدٍ مؤتمنْ
التمِسْ للقلب وصلًا عندها * إنّ خيرَ الوَصْلِ ما ليس يُمَنّْ(٤)
عَلِقَ القلبُ، وقد كان صَحَا، * من بنى بَكْرٍ غزالًا قد شَدَنْ(٥)
أحورَ المُقْلة كالبدر، إذا * قُلِّدَ الدُّرَّ فقلبى مُمْتَحَنْ(٦)
ليس حُبٌّ فوقَ ما أحببْتكم * غيرَ أن أقْتُلَ نفسى أو أُجَنّْ
خُلِقَتْ للقلب منِّى فِتْنَةً * هكذا يُخْلَقُ معروضُ الفِتَنْ

(١) معوّق : عائق ومانع . (٢) العين : السحاب .
(٣) السادر : الذى لا يهتم ولا يبالى ما صنع .
(٤) كذا فى الديوان، ومعناه ما ليس يقطع، ومنه قوله تعالى : (وإنّ لك لأجرا غير ممنون) .
(٥) شدن : شب وترعرع . (٦) ممتحن : واقع فى محنة .

وفيها يقول :

إنّ ليــلَى وقــد بلغتُ المَشيبا * لم تدعْ للنساء عنــدى نصيبا
هاجرٌ بيتَهــا لأنــفِىَ عنهــا * قولَ ذى العيب إن أراد عيوبا

وله فى النَّوار وقد شغلت قلبه :

عَلِق النَّــوَارَ فــؤادُهُ جَهْلا * وصَــبا فلم تترك له عقــلا
وتعرّضت لى فى المَســير فمــا * أمسَى الفؤادُ يَرى لهــا مِثــلا
ما نعجةٌ من وحش ذِى بَقــرٍ (١) * تَغْذُو بسَقْط صَريمــةٍ (٢) طِفْلا
بألَذَّ منهــا إذ تقــول لنــا * وأردتُ كشفَ قِناعها مَهْــلا
دَعْنــا فإنك لا مُكــارمــةً * تَجزى ولَسْتَ بواصــلٍ حَبْلا
وعليكَ مَنْ تَبَــلَ الفؤادَ وإن * أمسَى لقلبــك ذكرُه شُــغْلا
فأجبتُها إنــ المحبّ مكلَّفٌ (٣) * فدَعى العتــابَ وأحدِثى بَذْلا

اجتمع نسوةٌ من أهل المدينــة من أهل الشرف فتذاكَرْنَ عمرَ بن أبى ربيعة وشعرَه وظَرْفَه وحسنَ حديثه فتشوّقْنَ اليه وتمنّيْنَه ، فقالت سُكَينةُ بنت الحُسَين عليهما السلام : أنا لكنّ به ، فأرسلتْ اليــه رسولا وواعدتْه الصَّورَيْنِ ، وسمّتْ له الليلةَ والوقتَ وواعدتْ صواحباتها ، فوافاهنّ عمرُ على راحلته ، فحدّثهنّ حتى أضاء الفجر وحان آنصرافهنّ ، فقال لهنّ : والله إنى لمحتاج الى زيارة قبر رســول الله صلى الله عليه وســلم والصلاة فى مسجده ولكن لا أخلِط بزيارتكنّ شيئا ، ثم آنصرف الى مكة وقال :

---

(١) ذو بقر : موضع . (٢) سقط الصريمة : منتهاها . والصريمة : الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر. (٣) مكلف : لهج بالحب ، يقال : كلف بالشى كلفا ، أى لهج به فهو كلف ومكلف ، والأبيــات من الكامل الأحذ ، وهو ما حذف من عروضه وضربه الوتد المجموع «علن» من «متفاعلن» . وقد جاء عروض هذا البيت تاما على خلاف بقية الأبيات ، وظاهر أن حذف الوتد فى آصطلاح علماء العروض علة ، والعلة إذا لحقت بعروض أو ضرب لزم استعمالها فى سائر الأبيــات ولو قال : * فأجبتها إنى بكم كاف * لخلت القصيدة من هــذا العيب .

قالت سُكينةُ والدموعُ ذَوَارِفٌ * منها على الخدّين والجِلْباب (١)
ليت المُغيرِيَّ الذى لم أجزِه * فيما أطال تصيُّدى وطِلابى
كانت تردُّ لنا المُنَى أيامنا * إذ لا نُلامُ على هوًى وتَصابى
خُبِّرتُ ما قالتْ فبتُّ كأنما * رُمِىَ الحشَا بنوافذ النُّشّاب (٢)
أسُكَيْنَ ما ماءُ الفرات وطيبُه * منِّى على ظمأٍ وفَقْدِ شَرابِ
بألذَّ منك وإن نأيتِ وقلَّما * ترعى النساءُ أمانةَ الغُيَّاب

وقال فيها :

أُحبُّ لحبِّك من لم يكن * صَفيًّا لنفسى ولا صاحبا
وأبذُلُ نفسى لمَرْضاتكم * وأُعتِبُ (٣) من جاءكم عاتبا
وأرغب فى وُدِّ من لم أكن * الى ودِّه قبلكم راغبا
ولو سلك الناسُ فى جانبٍ * من الأرض واعتزلتْ جانبا
ليمَّمْتُ طيَّتَها ، إننى * أرى قربَها العَجَب العاجبا
فما ظبيةٌ من ظباء الأرا * ك تقرو (٤) دَميثَ (٥) الرُّبَى عاشبا
بأحسنَ منها غَدَاةَ الغَميم (٦) * وقد أبدت الخدّ والحاجبا
غداةَ تقولُ على رِقْبَةٍ * لخادمها (٧) : يا احْبِسى الراكبا
فقالت لها : فيمَ هذا الكلامُ * وأبدتْ لها عابسًا قاطبا (٨)
فقالت كريمٌ أتى زائرًا * يمُرُّ بكم هكذا جانبا
شريفٌ أتى ربعَنا زائرا * فأكرهُ رجعتَه خائبا

(١) الجلباب : القميص أو هو الخمار، وهو ما تغطى به المرأة رأسها . (٢) النشاب : النبل .
(٣) أعتب : أزال سبب العتب ، فالهمزة للسلب . والمعنى أعذر . (٤) قراه يقروه : تتبعه .
(٥) دميث الربى : سهلها ولينها . (٦) الغميم كأمير : موضع بين مكة والمدينة . (٧) الخادم : واحد الخدم غلاما كان أو جارية . (٨) قاطبا من القطوب : وهو تزوى ما بين العينين من العبوس .

وقال فى جاريته بغُوم :

صرمَتْ حبلَك البغومُ وصدّتْ * عنـك فى غير ريبــة أسماءُ
والغَوانى اذا رأينـك كَهْلًا * كان فيهنّ عن هواكَ ٱلْتِوَاءُ
حَبّــذَا أنتِ يا بَغُــومُ وأسمـا * ءُ وعِيصٌ يكنُّنا وخَـلَاءُ
ولقـد قلتُ ليــلةَ الجَزْل لمّا * أخضلتْ رَيطتى علىّ السماءُ(١)
ليتَ شعْرى ـوهل يَرُدَّنَّ لَيتٌ ـ * هـل لهذا عنـد الرَّبَاب جزاءُ
كلُّ وَصْـل أَمْسَى لدىّ لأنثى * غيرها وَصْـلُها إليهـا أداءُ
كل خَلْق وإن دنا لوِصَال * أو نأى فهو للربَاب الفـدَاءُ
فعِــدِى نائلا وإن لم تُنيلى * إنمـا يَنْفَـعُ المحبَّ الرجـاءُ

وكان يهوَى حميدةَ جارية ٱبن تُفَّاحَةَ؛ وفيها يقول :

حُمِّلَ القلبُ من حميدةَ ثِقْلَا * إن فى ذاك للفؤاد لشُـغْلَا
إن فعلتُ الذى سألت فقُولى * حَمْـدُ خيرًا وأَتْبِعى القولَ فعْـلَا
وصِـلِينى وأُشْـهِدُ اللهَ أنّى * لستُ أُصْفِى سواكِ ماعشتُ وَصْلَا

وفيها يقول :

ياقلبُ هل لك عن حميدةَ زاجرُ * أم أنت مُدَّكِرُ الحياء فصابرُ
فالقلبُ من ذِكْرَى حميدةَ مُوجَعٌ * والدمعُ منحدرٌ وعَظْـمى فاترُ
قدكنت أحسَب أننى قبلَ الذى * فعلتْ على ما عنـد حَمْدَةَ قادرُ
حتى بَدَا لى من حميدةَ خُلّتى * بينٌ وكنتُ من الفـراق أُحاذرُ

(١) الجـزل : موضـع قـرب مكة . وأخضـل : بل . والريطة : ملاءة كلها نسـج واحد وقطعـة واحـــدة .

وله فى هند :

أَرِبْتُ(١) الى هنـد وتِرْبَيْن مرّةً * لهـا إذ تواقفْنا بفَرْع المُقَطَّعِ
لِتَعْرِيج يوم أو لِتَعْرِيس(٢) ليـلةٍ * علينا بجَمْع الشَّمْل قبلَ التصَدُّعِ
فقُلْنَ لهـا لولا ٱرتقابُ صَحَـابة * لنـا خَلْفَنا عُجْنا ولم نتـوَرَّعِ
فقالت فتاةٌ كنتُ أحسَبُ أنها * مُغَفَّـلةٌ فى مئزر لم تُدرَّعِ(٣)
لهنّ ــ وما شاوَرْنَها ــ ليس ما أرى * بحُسْنٍ جزاءٍ للحبيب المودِّعِ
فقلن لها لا شَبَّ(٤) قَرْنُك فافتحى * لنا بابَ(٥) ما يخْفَى من الأمر نَسْمَعِ

(١) يقـال : أرب بكذا : كلف به ، وأرب الى كذا : احتاج اليه . ولعل المراد : دعانى الشوق اليهنّ .

(٢) التعريس : قيل هو نزول القوم فى السفر آخر الليل يستريحون قليلا ثم يرحلون مع الصبح . وقيل : هو النزول أوّل الليل . وقيـل : النزول فى أى وقت كان من ليل أو نهـار . والمراد هنا : لإقامة يوم أو لإقامة ليـلة .

(٣) لم تدرّع : لم تلبس الدرع ، يقال : درّعت الصبية اذا ألبست الدرع ، والدرع : جبة مشقوقة المقـدّم .

(٤) قال الأصمعى : يقال أشـبه الله وأشب الله قرنه بمعنى واحد (وهو الدعاء له بأن يشب و يكبر) ، والقرن زيادة فى الكلام اه . والقرن : الضفيرة . والمراد التعجب من حديثها كما يقال فى هـذا المقام : قاتلك الله .

(٥) البابة : الوجه والطريق ، قال تميم بن مقبل :

بنى عامر ما تأمرون بشـاعر * تخير بابات الكتاب هجـائيـا

أى تخير هجائى من وجوه الكتاب ، كما فسره صاحب اللسان . وللبابة معان أخرى لا بأس من إيرادها وهى : القبيل والنوع — كما قال الجاحظ فى «كتاب الحيوان» ج ٢ ص ٤٥ : «فليس الديك من بابة الكلب لأنه إن ساوره قتله قتلا ذريعا» وقال أيضا فى ج ٧ ص ٤٣ : «وقد أيقنا أنهما ليسا من بابته» . وقال فى كتاب البخلاء ص ٤٥ ، ١٤٣ : «أنت من ذى البابة ... وأما سائر حديث هـذا الرجل فهو من هذه البابة» . ومثل ذلك فى نفح الطيب ج ١ ص ٥٥٩ طبع ليدن ، ج ١ ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٧٩ هـ قول القاضى محمد بن بشير الأندلسى :

إنمـا أزرى بقدرى أننى * لست من بابة أهل البلد

واذا قال الناس : «من بابتى» فمعناه من الوجه الذى أريده و يصلح لى .

والشرط — ومثله ما فى «تاج العروس» : هذا بابته أى شرطه .

والغاية — ويستعمل ذلك فى الحساب والحـدود . وفى «شفاء الغليل» أنهم يقولون للعب خيال الظل بابة فيقولون : بابات خيال الظل ، وعلى ذلك قول ابن إياس المؤرخ المصرى : فكانوا مثل بابات خيال الظل فشىء يجىء وشىء يروح (بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ٣٤٧) .

ويجوز أن يسمى به كل فصل من فصول التمثيل المسماة الآن فصول الرواية . (انظر كتاب التاج للجاحظ ص ٣٨ و ٣٩) .

وله :

لَيتَ هِنْدًا أنْجَزَتْنا ما تَعِـدْ * وشَفَتْ أنفسَنا ممّـا تَجِـدْ (١)

وٱستبدَّتْ مرّةً واحدةً * إنمـا العاجزُ من لا يستبِدّْ

ولقد قالتْ لجاراتٍ لهـا * ذاتَ يومٍ وتعرّتْ تَبْـتَرِدْ (٢)

أكَما يَنْعتُنِي تُبْصِـرْنَنِي * عَمْرَكُنَّ اللهَ أم لا يقتصِـدْ

فتَهانَفْنَ (٣) وقـد قُلْنَ لهـا * حَسَنٌ فى كلِّ عَينٍ من تَوَدّْ

حسدًا حُمِّلْنَه من أجْلِها * وقديمًا كان فى الناس الحَسَدْ

وله :

يا مَنْ لقلبٍ دَنِفٍ مُغْرَمِ * هَامَ (٤) الى هِنْـدٍ ولم يَظْـلِمِ

هَامَ الى رِيمٍ (٥) هَضِيمِ الحَشَى * عَذْبِ الثَّنَايا طَيِّبِ المَبْسِمِ

لم أَحْسَبِ الشمسَ بليلٍ بَدَتْ (٦) * قَبْـلِي لِذِى لَحْمٍ ولا ذِى دَمِ

---

(١) وجد به يجـد وجدا : أحبه حبا شديدا ، ووجد عليه يوجد وجدا : حزن . (٢) تبترد : تغتسل بالماء البارد . (٣) كذا فى الكامل للبرد طبع ليبزج ص ٥٩٤ وهى رواية جيدة . والتهانف كالاهناف والمهانفة : ضحك فيه فتور كضحك المستهزئ . وفى الأغانى والديوان : «فتضاحكن» . وقد رجحنا الرواية الأولى لأنها تؤدّى تمـام المعنى المراد . (٤) هام تتعدّى بالباء وقد ضمنت هنا معنى صبا ولهـذا تعدّت بالى . (٥) كذا فى الأغانى ، وفى ديوانه : «رئم» بالهمز . والرئم : الظبي الأبيض الخالص البياض ، وقيل ولد الظبي ، يهمز ولا يهمز . (٦) كذا فى الأغانى ، و بين هذا البيت والذى قبله فى ديوانه :

كالشمس بالأسعد إذ أشرقت * فى يوم دجنٍ بارد مقـتم

يريد بالأسعد هنا سعود النجوم ، وهى عشرة : أربعة منها فى برج الجدى والدلو ينزلها القمر وهى سعد الذابح وسعد بلع وسعد الأخبية وسعد السعود وهو كوكب منفرد نير . وأما الستة التى ليست من المنازل فسعد ناشرة وسعد الملك وسعد البهام وسعد الهمام وسعد البارع وسعد مطر . وكل سعد من هذه الستة كوكبان بين كل كوكبين فى رأى العين قدر ذراع وهى متناسقة . وأما سعد الأخبية فثلاثة أنجم كأنها أثافىّ ورابع تحت واحد منهنّ . أنظر المرتضى والمقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية للامام العينى المطبوع بهامش الخزانة ج ١ ص ٨ ٥ فى الكلام على البيت :

اذا دبران منـك يوما لقيته * أؤمّل أن ألقاك غدوا بأسعد

وقال فى اللسان فى مادة «سعد» بعد أن ذكر هـذه السعود : فأحسن ما تكون الشمس والقمر والنجوم فى أيامها لأنك لا ترى فيها غبرة ، وقد ذكرها النابغة الذبيانى فقال :

قامت تراءى بين سجفى كلة * كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

وقد ضبط خطأً فى اللسان بفتح العين . وقال :

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها * لم تؤذ أهـلا ولم تفحش على جار

قالت ألَا إنك ذو مَــلّةٍ * يَصْرِفُك الأدنى عن الأَقْدَمِ
قلتُ لهــا بل أنتِ معتلّةٌ * فى الوَصْل ياهندُ لكى تَصْرِمِى

بينــا عمرُ بن أبى ربيعة يَطوف بالبيت إذ رأى عائشــةَ بنتَ طَلْحَةَ بنِ عبيد الله ، وكانت من أجمل أهلِ دهرها ، وهى تريد الرُّكْنَ تستلمه ، فبُهِتَ لمّــا رآها ورأته ، وعلمتْ أنها قد وقعتْ فى نفسه ، فبعَثَتْ إليه بجارية لها وقالت : قولى له : اتّقِ اللهَ ولا تَقُلْ هُجْرًا ، فإنّ هذا مَقَامٌ لا بدّ فيه ممــا رأيتَ ؛ فقال للجارية : أَقْرِئيها السلامَ وقولى لها : ابنُ عمّك لا يقول إلا خيرا ؛ وقال فيها :

لعائشةَ ابنةِ التَّيْمِىّ عندى * حِمًى فى القلب ، لا يُرْعَى حِمَاها
يُذَكّرُنى ابنــةَ التَّيْمِىّ ظبىٌ * يَرودُ بروضــةٍ سَهْلٍ رُبَاها
فقلتُ له وكاد يُرَاعُ قلبى * فلم أرَ قَطُّ كاليوم اشتِبَاها
سِوَى حَمَشٍ(١) بساقِكَ مستبينٍ * وأن شَوَاكَ(٢) لم يُشْبِهْ شَوَاها
وأنك عاطلٌ عارٍ وليست * بعــارية ولا عُطْلٍ يدَاها
وأنكَ غيرُ أفْرعَ(٣) وهى تُدْلِى * على المَتْنَيْنِ أَسْحَمَ(٤) قد كَسَاها
ولو قعَدَتْ ولم تَكْلَفْ بوُدٍّ * سِوَى ما قد كَلِفتُ به كَفَاها
أَظَلُّ إذا أُكَلِّمُها كأنّى * أُكلِّمُ حيّةً غَلَبَتْ رُقَاها
تَبيتُ إلىّ بعد النوم تَسْرِى * وقد أمسيتُ لا أخشَى سُرَاها

ولــه :

إنّى وأوّلَ ما كَلِفْتُ بحبّهــا * عَجَبٌ وهل فى الحبّ من متعجَّبِ
نعتَ النساءُ فقلتُ لستُ بمُبْصِرٍ * شَبَهًا لهــا أبدًا ولا بمُقَــرَّبِ

---

(١) الحمش : دقة الساقين . (٢) الشوى : الأطراف . (٣) الأفرع : طويل شعر الرأس .
(٤) الأسحم : الأسود ، يريد به الشعر .

فمكثن حيناً ثم قلن توجهت * للحج ، موعدها لقاء الأخشب (١)
أقبلت أنظر ما زعمن وقلن لى * والقلب بين مصـدق ومكذب
فلقيتها تمشى بها بغلاتها * ترمى الجمار عشية فى موكب
غراء يعشى الناظرين بياضها * حوراء فى غلواء عيش معجب (٢)
إن التى من أرضها وسمائها * جلبت لحينك ليتها لم تجلب

وكان عمر بن أبى ربيعة يهوى كلثم بنت سعد المخزومية ، فأرسل إليها رسولا فضربتها وحلقتها وأحلفتها ألا تعاود ، ثم أعادها ثانية ففعلت بها مثل ذلك ، فتحاماها رسله ؛ فابتاع أمة سوداء لطيفة رقيقة وأتى بها منزله فأحسن اليها وكساها وآنسها . وعرفها خبره وقال لها : إن أوصلت لى رقعة الى كلثم فقرأتها فأنت حرة ولك معيشتك ما بقيت ؛ فقالت : اكتب لى مكاتبة (٣) واكتب حاجتك فى آخرها ، ففعل ذلك ، فأخذتها ومضت بها الى باب كلثم فاستأذنت فخرجت إليها أمة لها فسألتها عن أمرها ؛ فقالت : مكاتبة لبعض أهل مولاتك جئت أستعينها فى مكاتبتى ، وحادثتها وناشدتها حتى ملأت قلبها ، فدخلت الى كلثم وقالت : إن بالباب مكاتبة لم أر قط أجمل منها ولا أكمل ولا آدب ؛ فقالت : إئذنى لها ، فدخلت ، فقالت : من كاتبك ؟ قالت : عمر بن أبى ربيعة الفاسق ! فاقرئى مكاتبتى ، فمدت يدها لتأخذها فقالت لها : لى عليك عهد الله أن تقرئيها ، فإن كان منك الى شىء مما أحبه وإلا لم يلحقنى منك مكروه ؛ فعاهدتها وفطنت وأعطتها الكتاب ، فإذا أوله :

من عاشق صب يسر الهوى * قد شفه الوجد الى كلثم
رأتك عينى فدعانى الهوى * إليـك للحين ولم أعلم

---

(١) الأخشب : مفرد الأخشبين وهما جبلان بمكة أحدهما أبوقبيس والآخر قعيقعان ، ويقال : هما أبوقبيس والجبل الأحمر المشرف هنالك ، وقد تفرد هذه التثنية فيقال لكل واحد منهما : الأخشب ، قال ساعدة بن جؤية .

ومقامهن إذا حبسن بمأزم * ضيق ألف وصدهن الأخشب

(٢) فى غلواء عيش : فى أنصره وأرغده . (٣) المكاتبة : أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منجما (مقسطا) فإذا أداه صار حرا ، وسميت كذلك لأنه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه ، ومولاه يكتب له عليه عتقه .

قَتَلْتِنــا ، يا حبَّــذا أنتُمُ * فى غيرِ ما جُرْمٍ ولا مَأْثَمِ
واللهُ قد أَنْزَلَ فى وَحْيِــه * مُبَيَّنــا فى آيهِ المُحْكَمِ
من يقتُلِ النفسَ كذا ظالمًــا * ولم يُقِدْها نفسَــه يَظْلِمِ
وأنتِ ثَأْرى فتَلَافَىْ دَمِى * ثم ٱجعليــه نعمةً تُنْعِمِى
وحَكِّمِى عَدْلًا يَكُنْ بينَنا * أو أنتِ فيما بينَنا فَٱحْكُمِى
وجالِسِينِى مجلِسًــا واحدا * من غيرِ ما عارٍ ولا مَحْــرَمِ
وخَبِّرِينِى ما الذى عنــدكم * باللهِ فى قتلِ ٱمرئٍ مُسْــلِمِ

فلما قرأتِ الشعرَ قالت لها : إنه خدّاعٌ مَلِقٌ وليس لما شَكَاه أصلٌ ؛ قالت : يامولاتى ، فما عليكِ مِن ٱمتحانه ؟ قالت : قد أَذِنْتُ له وما زال حتى ظَفِرَ بِبُغْيَتِه ! فقولى له : إذا كان المَسَاءُ فلْيَجْلِسْ فى موضع كذا وكذا حتى يأتيَه رسولى ؛ فٱنصرفتِ الجاريةُ فأخبرتْه فتأهَّبَ لها ، فلما جاءه رسولُها مضَى معه حتى دخل إليها وقد تهيَّأتْ أجملَ هيئة ، وزيَّنَتْ نفسَها ومجلسَها وجلَسَتْ له من وراء سِتْر ، فسلَّم وجلَس ، فتركتْه حتى سكَن ثم قالت له : أخبِرْنِى عنكَ يافاسق ! ألستَ القائل :

هلَّا ٱرْعَوَيْتِ فتَرْحَمِى صَبًّا * صَــدْيانَ لم تَدَعِى له قلبَــا
جَشِــمَ الزيارةَ فى مودّتكم * وأراد ألَّا تُرْهِــقِى ذَنْبَــا
ورجَا مُصَالَحَةً فكان لكم * سَلْمًــا وكنتِ تَرَيْنَــه حَرْبَا
يا أيهــا المُصْــفِى مودّتَه * مَنْ لا يَرَاكَ مُسامِيًا خِطْبَــا(١)
لا تَجْعَلَنْ أحدًا عليــك اذا * أحببتَــه وهَوِيتَــه رَبَّا
وصِلِ الحبيبَ إذا شُغِفْتَ به * وٱطــوِ الزيارةَ دونَه غِبَّــا
فَلِذَاكَ أحسنُ من مُواظَبــةٍ * ليستْ تَزِيدُكَ عنــده قُرْبَا
لا بل يَمَلُّكَ عنــد دَعْوته * فيقــولُ هاهِ(٢) وطَالَمَا لَــبَّى

(١) الخطب : الخاطب . (٢) وهاه : كلمة وعيد ، وحرّك لضرورة الشعر وقد روى البيت فى ديوانه :

لا بل يملك ثم تدعو بٱسمه * فيقول هــاه وطالما لبى

ورأى عمرُ لُبَابَةَ بنتَ عبدِ الله بن العباس ٱمرأةَ الوليدِ بن عُتْبةَ بن أبي سفيان تَطُوف بالبيت فرأى احسنَ خَلْق الله ، فكاد عقلُه يذهبُ ، فسأل عنها فأخبر بنسبها ، فنسَب بها وقال فيها :

وَدِّعْ لُبَـابَةَ قبـلَ أن تترحَّلا * وٱسْأَلْ فإنَّ قُلَالَهُ(١) أن تَسْأَلَا

اِلبَثْ بعَمْرِك ساعةً وتأَنَّهـا * فلعلَّ ما بَخِلَتْ به أن يُبْـذَلا

قال ٱئْتَمِرْ(٢) ما شئتَ غيرَ مُخالَفٍ * فيما هَوِيتَ فإننا لن نَعْجَلا

لَسْنا نُبَالِي حين تَقْضِي حاجةً * ما باتَ أو ظَلَّ المَطِيُّ مُعَقَّلا

حتى إذا ما الليلُ جَنَّ ظَلَامُه * ورَقَبْتُ غفلةَ كاشحٍ أن يَمْحَلا

خرجتْ تأَطَّرُ(٣) في الثياب كأنّها * أَيْمٌ(٤) يَسِيبُ على كثيبٍ أَهْيَلا

رحّبتُ حينَ رأيتُها فتبسَّمتْ * لتحيّتي لمّا رأتْني مُقْبِـلا

وجَلَا القِنَاعُ سَحَـابةً مشهورةً * غَرَّاءَ تُعْشِي الطَّرْفَ أن يتأمّلا

فَلبثْتُ أَرْقِيها بمـا لو عَاقِـلٌ(٥) * يُرْقَى به ما ٱسْطَاعَ ألّا يَنْزلا

وحَجَّتْ رَمْلَةُ بنتُ عبد الله بنِ خَلَفٍ الخُزَاعيّةُ فقال فيها :

أَصْبحَ القلبُ في الحِبَال رَهِينَا * مُقْصَـدًا يومَ فَارَقَ الظَّاعِنِينَا

عَجِلتْ حُمَّـةُ الفـراقِ علينـا * برَحيلٍ ولم نخفْ أن تبِينَا

لم يَرُعْـني إلّا الفتـاةُ وإلّا * دمعُهـا في الرداءِ سَحًّا سَـنِينَا

ولقـد قلتُ يومَ مكةَ سِرًّا * قبـلَ وَشْكِ من بينِكم نَوِّلِينَا

أنتِ أهوَى العبـادِ قُربًا ودلًّا * لو تُنِيلِينَ عاشـقًا محزونًا

قاده الطَّرفُ يومَ مَرَّ إلى الحيـ * ـنِ جِهاراً ولم يخفْ أن يَحِينَا

(١) القلال كغراب وسحاب : القليل . (٢) ائتمر ما شئت : افعل ما شئت فإننا لا نعصى لك أمرا .

(٣) تأطر : محذوفة إحدى تاءيه ، أي تتثنى . (٤) الأيم : الحية . (٥) يقال : عقل الوعل يعقل عقولا : امتنع في الجبل ، وبه سمي الوعل عاقلا على حدّ التسمية بالصفة ، ومنه المثل : « إنما هو كبارح الأروى قليلا ما يرى » . والأروى : جمع أروية وهي تيوس الجبل البرية .

فاذا نعجةٌ تـراعى نعاجًا * ومَهًا يُهِّجُ المناظرَ عِينَا
قلتُ مَنْ أنتمُ فصدَّت وقالتْ * أَمُبِدٌّ(١) سؤالَكَ العالمينَا
قلتُ باللهِ ذى الجلالةِ لما * أن تبلْتِ الفؤادَ أن تَصْدُقينا
أىُّ من تجمعُ المواسم قولى * وأبينى لنا ولا تكتُمينَا
نحن من ساكنى العراقِ وكُنَّا * قبلَه قاطنين مكةَ حِينَا
قد صدَقْناكَ إذ سألتَ فمن أنـ * ـت عسى أن يَجُرَّ شأنٌ شُؤونا
ونَرى أننا عَرَفْناكَ بالنَّعْـ * ـتِ بظَنٍّ وما قَتَلْنَا يَقينَا
بسَوادِ الثَّنِيَّتَيْنِ ونَعْتٍ * قد نَراه لناظرٍ مُسْتَبِينَا

وقال فى الثريا وقد صَرمته .

مَنْ رَسولى إلى الثريا فإنِّى * ضِقْتُ ذَرْعًا بهَجْرِها والكتابِ
سلبتْنى مَجَّاجةُ(٢) المِسْكِ عقلى * فسَلُوها ماذا أَحَلَّ اغتصابى
وهى مكنونةٌ تحيَّرَ منها * فى أديمِ الخدَّين ماءُ الشبابِ
أَبْرَزُوها مثلَ المَهاةِ تَهادَى(٣) * بين خمسٍ كواعبٍ أترابِ
ثم قالوا تُحِبُّها قلتُ بَهْرًا * عددَ القَطْرِ والحَصَى والترابِ
أَزْهَقَتْ أمُّ نَوفلٍ إذ دعَتْها * مُهْجَتى(٤)، ما لِقاتلى مِنْ مَتابِ
حين قالتْ لها أجيبى فقالتْ * مَنْ دعانى قالت أبو الخَطَّابِ
فاستجابتْ عند الدعاء كما لـ * ـبَّى رجالٌ يَرْجُون حسنَ الثوابِ

---

(١) قال فى اللسان مادة بدد بعد أن أورد هذا الشطر : «معناه أمقسم أنت سؤالك على الناس واحدا واحدا حتى تعمّهم» . من البداد وهو أن يبدّ المال القوم فيقسم بينهم ، وأبدّهم المال والعطاء : فرقه فيهم ، والمراد : لماذا تسألنا ! ألك حق السؤال على جميع الناس ! . أو معناه : «أأنت ملزم سؤالك الناس ، من قولهم : مالك منه بدّ» ؛ والمراد : أأنت ملزمنا الإجابة عن سؤالك ! إنّا لانجيبك . (٢) مجاجة المسك ، يريد بذلك وصفها بطيب ريقها وبأنه كالمسك . (٣) تهادى ، يريد يهدى بعضها بعضا فى مشيتها (الكامل للبرد طبع ليبزج ص ٣٧٩) . (٤) فى الكامل للبرد طبع ليبزج ص ٣٧٩ : أزهقت : أبطلت وأذهبت قال الله عز وجل : (فيدمغه فاذا هو زاهق) اه . يريد : أذهبت أم نوفل نفسى إذ دعت الثريا لوصالى فلم تجبها .

ومن شعره :

كتبتُ إليكَ من بلدى * كتابَ مُــولَّهٍ كَمِــدِ
كئيبٍ واكِفِ العينيـ * ـن بالحسرات منفــردِ (١)
يُؤَرِّقُهُ لهيبُ الشـــو * قِ بين السَّحْرِ والكَبِدِ (٢)
فيُمسِكُ قلبَـه بيــدٍ * ويَمْسَحُ عينَــه بيــدِ

لمـا تزوّج سُهَيلُ بنُ عبد العزيز الثّرَيا ونقلها الى الشأم، بلَغ عمرَ بنَ أبى ربيعة الخبرُ، فأتى المنزلَ الذى كانت الثريا تنزِلُه، فوجَدها قد رحَلتْ منه يومئذٍ، فخرَج فى أثَرِها فلَحِقَها على مَرْحَلتيْن، وكانت قبل ذلك مُهَاجِرَته لأمرٍ أنكرَتْه عليه، فلما أدركهم نزلَ عن فرســه ودفَعــه الى غلامه ومشَى مُتنكّرا حتى مَرَّ بالخَيْمة، فعرَفَتْــه الثريا وأَثْبَتَتْ (٣) حركتَه ومِشْيَتَه، فقالت لحاضنتها (٤): كلّميه، فسلّمتْ عليــه وسألتْه عن حاله وعاتبَتْــه على ما بلَغ الثريا عنه، فاعتذر وبكَى، فبكتِ الثريا، فقالت : ليس هذا وقتَ العِتاب مع وَشْك الرّحيل، فحادثها الى وقت طلوع الفجر ثم ودّعها وبَكَيَا طويلًا، وقام فركب فرسَه ووقَف ينظُر اليهم وهم يَرْحَلُون (٥)، ثم أَتْبَعَهم بصرَه حتى غابوا، وأنشأ يقول :

يا صــاحِبيّ قِفَـا نَسْــتَخبِرِ الطَّلَلَا * عن حالِ مَنْ حَلَّه بالأمسِ ما فعَــلَا
فقال لى الرَّبْعُ لمـا أنْ وقفْتُ به * إنّ الخَلِيطَ أجَــدَّ البَيْنَ (٦) فاحْتَمَلَا (٧)
وخادَعتْــكَ النَّوى حتى رأيتَهـــمُ * فى الفَجْر يَحْتُثُّ حَادِى عِيسِهم زَجِلَا (٨)

(١) يقال : وكفت العين : سالت دموعها . (٢) السحر : الرئة .

(٣) أى عرفتهما حق المعرفة . (٤) لحاضنتها : لمربيتها . (٥) يرحلون يشدّون على إبلهم الرحال . (٦) أجدّ البين : اعتزمه . (٧) احتمل : ارتحل . (٨) النوى : الفراق والبعد . ويحتث : يسوق . وزجلا : رافعا صوته فى حداء الإبل لتسرع فى السـير، وأصل الزجل الجلبة ورفع الصوت وخص به التطريب، وأنشد سيبويه فى وصف حمار وحش :

له زجل كأنه صـوت حاد * اذا طلب الوسيقة أو زمير

وذكره فى باب ما يحتمل الشعر من استباحة الضرورة، وهى هنا حذف الواو المبينة لحركة الهاء فى قوله : كأنه . والوسيقة : أنثاه التى يضمها ويجمعها، من وسقت الشيء : جمعته .

لما وَقَفْنا نُحَيِّيهم وقد صَرَخَتْ * هَوَاتِفُ البَيْنِ وآستولتْ بهم أُصُلَا (١)
صَدَّتْ بِعادًا وقالتْ للتى معها * بالله أُوميه فى بعض الذى فعَلَا
وحَدِّثيه بما حُدِّثتِ وآسْتَمِعى * ما ذا يقول ولا تَعْيَىْ به جَدَلَا (٢)
حتى يَرَى أنّ ما قال الوُشَاةُ له * فينا لَدَيْه إلينا كلُّه نُقِلَا
وعَرِّفيه به كالْهَزْلِ وآحْتَفِظِى * فى بعض مَعْتَبةٍ أن تُغْضِبى الرجُلَا
فإنّ عَهْدِى به واللهُ يَحْفَظُه * وإن أتَى الذنبَ ممن يَكْرَه العَذَلَا
او عندنا آغْتِيبَ أو نِيلَتْ نَقِيصتُه * ما آبَ مُغتابُه من عندنا جَذِلَا
قلتُ آسَمعِى فلقد أَبْلغتِ فى لَطَفٍ (٣) * وليس يَخْفَى على ذى اللُّبِّ من هَزَلَا
هذا أرادتْ به بُخْلًا لأعذرَها * وقد أرَى أنها لن تَعْدَم العلَلَا
ما سُمِّى القلبُ إلّا من تَقَلُّبه * ولا الفؤاد فؤادًا غيرَ أن عَقَلَا (٤)
أما الحديث الذى قالت أُتيتَ به * فما عَبَأْتُ به إذ جاءنى حِوَلَا
ما إن أطَعْتُ بها بالغَيْبِ قد عَلِمتْ * مقالةَ الكاشح الواشى إذا مَحَلَا
إنى لأرْجِعُه فيها بسَخْطَته * وقد يَرَى أنه قد غرنى زللا

وهى قصيدة طويلة مذكورة فى شعره .

---

(١) فى ديوانه :

لما وقفنا نحييهم وقد شحطت * نعامة البين فاستولت بهم أصلا

وشحطت نعامة البين : ارتحلوا وفرّقهم البين ، وفى اللسان مادة نعم وشال : يقال للقوم إذا ارتحلوا عن منزلهم أو تفرّقوا : قد خفت نعامتهم وشالت نعامتهم ، . والأصل : جمع أصيل وهو العشىّ وقيل هو مفرد ، أنشد ثعلب :

وتمذرت نفسى لذاك ولم أزل * بدلا نهارى كله حتى الأصل

فقوله : بدلا نهارى كله ، يدل على أن الأصل هاهنا واحد . (٢) لا تعيي به جدلا : لا تعجزى فى مجادلته . (٣) اللطف لغة فى اللطف . (٤) قال فى اللسان : والتفؤد : التوقد ، والفؤاد : القلب لتفؤده وتوقده . وقال فى القاموس وشرحه : والتفؤد : التحرّق والتوقد ، ومنه الفؤاد للقلب ، لأنّ عقل الفؤاد للعلومات نتيجة اشتغاله وتوقده وتحركه وجولته فيها حتى يمحصها ، ويميز الصحيح من الفاسد والحق من الباطل .

وله :

هل تَعْرِفُ الدارَ والأطلالَ والدِّمَنا * زِدْنَ الفؤادَ على عِلاَّتِه(١) حَزَنَا
دارٌ لأسماءَ قد كانت تَحُلُّ بها * وأنتَ إذ ذاك قد كانت لكم وَطَنا
لم يُحْبِب القلبُ شيئا مِثْلَ حُبِّكُمُ * ولم تَرَ العينُ شيئا بعدكم حَسَنا
مَا إنْ أُبالِى أدام اللهُ قُرْبَكُمُ * مَنْ كان شَطَّ من الأحياء أو ظَعَنا
فإن نَأَيْتُمْ أصاب القلبَ نَأْيُكُمُ * وإن دَنَتْ داركم كنتم لنا سَكَنا
إن تَبْخَلِى لا يُسَلِّ القلبَ بُخْلُكم * وإن تَجُودِى فقد عَنَّيْتِنِى زَمَنا
أمسى الفؤادُ بكم ياهِنْدُ مُرْتَهَنا * وأنتِ كُنْتِ الهوى والهَمَّ والوَسَنا
إذ تَسْتَبِيكَ بمَصْقولٍ عَوَارِضُه * ومُقْلَتَىْ جُؤْذَرٍ لم يَعْدُ أن شَدَنا

وقال :

أَعَبْدَةُ ما يَنْسَى مَوَدَّتَكِ القَلْبُ * ولا هُوَ يُسْلِيهِ رَخَاءٌ ولا كَرْبُ
ولا قَولُ واشٍ كاشِحٍ ذى عداوة * ولا بُعْدُ دارٍ إن نَأَيتِ ولا قُرْبُ
وما ذاك من نُعْمَى لَدَيْكِ أصابها * ولكنَّ حُبًّا ما يُقاربه حُبُّ
فإنْ تَقْبَلِى ياعَبْدَ تَوْبَةَ تائبٍ * يَتُبْ ثُمَّ لا يُوجَدْ له أبدًا ذَنْبُ
أذِلُّ لكم ياعَبْدَ فيما هَوِيتُمُ * وإنى إذا ما رامنى غيرُكم صَعْبُ
وأعْذُلُ نفسى فى الهوى فتَعوقُنى * ويأْصِرُنى قلبٌ بكم كَلِفٌ صَبُّ
وفى الصبرِ عَمَّن لا يُؤاتيك راحةٌ * ولكنَّه لا صَبْرَ عندى ولا لُبُّ
وعَبْدَةُ بيضاءُ المحاجِرِ طَفْلَةٌ * مُنعَّمةٌ تُصْبِى الحليمَ وما تَصْبُو
قَطُوفٌ من الحُورِ الأوانسِ بالضحى * متى تَمْشِ قِيسَ الباعِ من بُهْرِها تَرْبُو
فَلَسْتُ بناسٍ يومَ قالت لأربعٍ * نَواعِمَ غُرٍّ كُلُّهنَّ لها تِرْبُ
ألا لَيْتَ شِعْرى فِيمَ كان صُدُودُه * أعُلِّقَ أخرى ! أم عَلَىَّ به عَتْبُ

---

(١) كذا فى ديوانه وفى الأغانى ج ١ ص ٢٧٩ « على ما عنده » .

وقال :

إنَّ طَيْفَ الخيَالِ حينَ أَلَمَّا * هاجَ لى ذُكْرَةً وأحْدَثَ هَمَّا
جَدِّدِى الوَصْلَ ياسُكَيْنَ وجُودِى * لِمُحِبٍّ رَحيلُه قد أَحَمَّا
ليسَ بين الحياةِ والموتِ إلّا * أنْ يَرُدُّوا جِمَالَهُمْ فَتُزَمَّا
ولقد قلتُ مُخْفِيًا لغَرِيضٍ * هَلْ تَرَى ذلكَ الغَزَالَ الأَحَمَّا
هَلْ تَرَى فوقَهُ منَ الناسِ شَخْصًا * أَحْسَنَ اليومَ صُورةً وأَتَمَّا
إن تُنِيلِى أَعِشْ بخَيْرٍ وإنْ لَمْ * تَبْذُلِى الوُدَّ مُتُّ بالهَمِّ غَمَّا

وله أيضا :

أيا مَنْ كانَ لى بَصَرًا وسَمْعًا * وكيفَ الصَّبْرُ عن بَصَرى وسَمْعِى
وعَمَّنْ حِينَ يَذْكُرُه فُؤادى * يَفِيضُ كما يَفِيضُ الغَرْبُ دَمْعِى
يقولُ العاذِلُون نَأَتْ فَدَعْها * وذلكَ حِينَ تَهْيامِى وَوَلْعِى
أأَهْجُرُها فأَقْعُد لا أَراها * وأَقْطَعُها وما هَمَّتْ بقَطْعِى
وأَصْرِمُ حَبْلَها لمَقالِ وَاشٍ * وأَفْجَعُها وما هَمَّتْ بفَجْعِى
وأُقْسِمُ لَوْ خَلَوْتُ بهَجْرِ هِنْدٍ * لَضاقَ بهَجْرِها فى النَّوم ذَرْعِى

وهو القائل :

ما كُنْتُ أَشْعُرُ إلّا مُذْ عَرَفْتُكُمُ * أَنَّ المَضاجِعَ تُمْسِى تُنْبِتُ الإبَرَا
لَقَدْ شَقِيتُ وكان الحَيْنُ(١) لى سَبَبًا * أن عُلِّقَ القَلْبُ قَلْبًا يُشْبِهُ الحجرا
قَدْ لُمْتُ قَلْبِى فَأَعْيَانِى بواحدةٍ * وقالَ لى لا تَلُمْنِى وادْفَعِ القَدَرَا
إنْ أُكْرِهِ الطَّرْفَ يَحْسُرُونَ غَيْرَكُمُ * ولَسْتُ أُحْسِنُ إلّا نَحْوَكِ النَّظَرَا
قالوا صَبَوْتَ فلم أُكْذِبْ مَقالَتَهُمْ * وليسَ يَنْسَى الصِّبَا إنْ وَالِهٌ كَبِرَا

(١) الحين : المحنة .

وقال أيضا :

ألا لَيْتَ قَبْرِى يوم تُقْضَى مَنِيّتى * بتلك التى مِنْ بَيْن عَيْنَيْك والفمِ
ولَيْتَ طَهُورِى كان رِيقَكِ كُلَّه * وليت حَنُوطِى من مُشَاشِك والدَّمِ
ألا لَيْتَ أمّ الفضْل كانت قَرِينَتِى * هُنَـا أو هُنَـا فى جَنَّةٍ أو جَهَنَّمِ

نظر عمرُ بن أبى ربيعةَ فى الطَّوَاف الى امرأةٍ شريفةٍ فرأى أحسنَ خَلْق الله صورةً، فذهَب عقلُه عليها وكلَّمها فلم تُجِبْه، فقال فيها :

ٱلريحُ تَسـحب أَذْيالا وتَنشُرها * يا ليتنى كنتُ ممَّن تَسحَب الريحُ
كيما تَجُرَّ بنا ذَيْلًا(١) فتَطْرَحُنا * على التى دونَها مُغْبَرّةٌ(٢) سُوحُ(٣)
أنَّى بقُربِكمُ أم كيفَ لى بِكُمُ * هَيْهاتَ ذلكَ ما أَمْسَتْ لنا رُوحُ
فليت ضِعْفَ الذى أَلْقَى يكونُ بها * بل ليت ضِعْفَ الذى أَلْقَى تَبَارِيحُ(٤)
إحْـدَى بُنَيّاتِ عَمِّى دون منزلها * أرضٌ بقِيعَاتِها القَيْصُومُ(٥) والشِّيحُ

فبلَغها شعرُه فجَزِعتْ منه، فقيل لها : اذكريه لزوجك، فإنه سيُنْكِر عليه قولَه، فقالت : كَلَّا والله لا أشكوه إلا إلى الله، ثم قالت : اللهم إن كان نَوَّه باسْمِى ظالمًا فاجعلْه طعامًا للريح، فضَرَب الدهرُ مِنْ ضَرْبِه، ثم إنه غدا يومًا على فرس فهبَّتْ ريحٌ فنزَل فاستتر بسَلَمةٍ، فعصَفَتِ الريحُ فخدَشَه غُصْنٌ منها، فدَمِىَ وَوَرِمَ به ومات من ذلك .

---

(١) هذا أحد الوجهين فى الفعل الواقع بعد كيما : الرفع على أن ما كافة لها عن العمل، والنصب على أن ما زائدة وكى عاملة فيما بعدها، وقد روى بالوجهين :

إذا أنت لم تنفع فضرّ فإنما * يرجى الفتى كيما يضرّ وينفع

(٢) مغبرة، يريد بها الفلاة المجدبة . (٣) سوح : جمع ساحة وهى الفضاء . (٤) تباريح الشوق : توهجه، قال السيد محمد مرتضى : قال شيخنا وهو من الجموع التى لا مفرد لها وقيل : مفرده تبريح واستعمله المحدثون وليس بثبت . (٥) قال فى اللسان : القيصوم : ما طال من العشب، ثم قال : والقيصوم من نبات السهل قال أبو حنيفة : القيصوم من الذكور ومن الأمرار وهو طيب الرائحة من رياحين البر وورقه هدب وله نورة صفراء وهى تنهض على ساق وتطول .

(ب) الغـــزل العـــذرى

جميـــــل (١)

قال نُصَيْب مولى عبد العزيز بن مروان: قدمتُ المدينة فسألتُ عن أعلم أهلها بالشعر، فقيل لى: الوَليد بن سَعِيد الأشْجعى، فوجدته بشِعْب سَلْع مع عبد الرحمن بن حسّان وعبد الرحمن بن أَزْهَر، فإنّا بجلوسٌ إذ طلع علينا رجل طويلُ بين المَنْكِبين يقود راحلةً

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر من عذرة، وكان شاعرا فصيحا مقدّما جامعا للشعر والرواية. اشتهر بحبه بثينة ابنة عمه، ولذلك عرف بجميل بثينة، وكانا يقيمان فى وادى القرى، وكان أول عهده بها وهى صغيرة. ومن أوائل نظمه فيها قوله:

وأوّل ما قاد المودّة بيننا * بوادى بغيض يا بثين سباب

وقلت لها قولا فجاءت بمثله * لكل كلام يا بثين جواب

ولم يكن يراها حتى صارت شابة، فأخذ ينظم القصائد فيها حتى اشتهر أمره. واتفق مرة أن توبة بن الحمير صاحب ليلى من بنى عذرة فرأته بثينة فجعلت تنظر إليه وجميل حاضر فثارت الغيرة فى قلب جميل، فقال لتوبة: من أنت؟ قال: أنا توبة بن الحمير، قال: هل لك فى الصراع: قال: ذلك إليك، فأعطته بثينة ملاءة حمراء فأتزر بها، ثم صارعه فصرعه جميل. ثم قال: هل لك فى النضال؟ قال: نعم، فناضله فنضله جميل. ثم قال: هل لك فى السباق؟ قال: نعم. فسابقه فسبقه جميل. فقال له توبة: يا هذا، إنما تفعل ذلك بريح الجالسة، ولكن اهبط بنا الوادى، فهبط، فصرعه توبة ونضله وسبقه.

وكان عند بثينة مثل ما عند جميل، ولما رأت مناصلته عنها زادت شغفا به، ولكنهما لم يكونا يجتمعان إلا خلسة على موعد. ولم يكن جميل يخلو من الرقباء، لكنهم لم يستطيعوا رميه بريبة. وأخباره معها كثيرة لا يسعها هذا المقام. ولم يزل يجتمع بها سرا عن أهلها، فألحوا بالشكوى منه إلى العامل، ففر إلى اليمن حتى عزل العامل. وانتجع أهل بثينة الشام، فرحل جميل اليهم، فترصدوه وشكوه إلى عشيرته، فعنفه أهله وهددوه، فانقطع عنها، وأخيرا لجأ إلى مصر، وعاملها عبد العزيز بن مروان، فأحسن وفادته، ومرض هناك ومات. وكان طويل القامة عريض بين المنكبين جميل الخلقة حسن البزة، توفى سنة ٨٢ هـ.

ولجميل ديوان شعر كبير كان مشهورا فى أيام ابن خلكان ولم نقف على خبره، ولكن منه أشعارا مجموعة فى كتاب منه نسخة خطية فى مكتبة برلين.

أنظر الكلام على جميل فى الأغانى ج ٧ ص ٧٧ و ج ١ ص ٨٠ وابن خلكان ج ١ ص ١١٥ وخزانة الأدب ج ١ ص ١٩١ والشعر والشعراء ص ٢٦٠

عليها بِزّةٌ حسنة، فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهر : يا أبا حَبْتَر، هذا جميل فادعُه لعله يُنْشِدنا، فصاح به عبد الرحمن : هَيّا جميلُ، فٱلتفتَ فقال : من هذا ؟ فقال : أنا عبد الرحمن بن أزهر، فقال : قد علمتُ أنه لا يجترئ عليّ إلا مثلك، فأتاه، فقال له : أنشدنا، فأنشدهم :

ونحن منَعْنا يوم أَوْلِ نساءَنا * ويوم أُفَيٍّ والأسـنّة تَرْعُفُ(١)
يُحِبّ الغواني البيضُ ظِلَّ لوائنا * اذا ما أتانا الصـارخُ المتلهّف
نسـير أمام الناس والناسُ خلفَنا * فإن نحن أومأْنا الى الناس وَقّفوا
فأيّ معـدّ كان فَيْءُ رماحه * كما قـد أفأْنا والمفـاخر يُنصف
وكنا اذا ما معشرٌ نصبوا لنا * ومرّتْ جوارى طيرهم وتعيّفوا(٢)
وضعنا لهم صاعَ القِصاص رهينةً * بما سوف نُوفيها اذا الناسُ طَفّفوا(٣)
اذا استبق الأقوامُ مجدًا وجدتَنا * لنـا مَعْرِفا مجـدٍ وللناس مَعْرِف

ثم قال له : أنشِدْنا هَزَجًا، قال : وما الهزج ؟ لعله القصير! قال : نعم، فأنشده :

رسمُ دارٍ وقفتُ فى طَـلَله * كدتُ أقضى الحياة من جَلَلِه(٤)
مُوحِشًـا ما ترى به أحـدًا * تنسج الريحُ تربَ معتـدِله
وصريعًـا بين الثُّمام تَرَقَّى * عازفاتُ المدبّ فى أسـله
بين عَلْيـاء رائش فبُـلَيٍّ * فالغَمـيم الذى الى جَبَـله
واقفًـا فى ديار أم جُسَـيرٍ * من ضُحَى يومه الى أُصُله
يا خليـليّ إنّ أمّ جُسَيرٍ * حين يدنُو الضجيعُ من غُلَلِه(٥)
روضـةٌ ذاتُ حَنْـوةٍ وخُزَامَى * جاد فيها الربيعُ من سَبَله(٦)
بينما نحن بالأراك معًـا * اذ بدا راكبٌ على جَمَـله

(١) ترعف : تقطر دما . (٢) تعيفوا : من العيافة، وهى زجر الطير والاعتبار بأسمائها ومساقطها وأصواتها، فيتسعد أو يتشاءم . (٣) التطفف : نقص الكيل . (٤) من أجله .
(٥) الغلال : جمع غلة، وهى ما يتوارى فيـه أو شعار تحت الثوب . (٦) السبل : المطر .

فتأطّرتُ(١) ثم قلتُ لها * أكرميه حُيّيت فى نُزُله
فظَلِلْنا بنعمةٍ واتّكأنا * وشربنا الحلالَ من قُلَله
قد أصونُ الحديثَ دون أخٍ * لا أخافُ الأذاةَ من قِبَله
غيرَ بغضٍ له ولا ملقٍ * غير أنّى أُشَحتُ(٢) من وَجَله
وخليلٍ صافيتُ مرتضيا * وخليل فارقتُ من مَلَله

ثم اقتاد راحلته موليا؛ فقال ابن الأزهر: هذا أشعر أهل الإسلام؛ فقال ابن حسان: نعم والله وأشعرُ أهل الجاهلية، والله ما لأحد منهم مثلُ هجائه ولا نسيبه؛ فقال عبد الرحمن ابن الأزهر: صدقت.

قال محمد بن سَلّام: كان لكُثيّر فى النسيب حظٌّ وافر، وجميلٌ مقدّم عليه وعلى أصحاب النسيب فى النسيب، وكان جميلٌ صادق الصّبابة والعشق، ولم يكن كُثَيّر بعاشق ولكنه كان يتقوّل، وكان الناس يستحسنون بيت كثيّر فى النسيب، وهو:

أُريد لأنسى ذكرَها فكأنما * تمثّلُ لى ليلى بكل سبيلِ

ورأيت من يفضّل عليه بيتَ جميل:

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما * قتيلًا بكى من حبّ قاتله قبلى

قيل إن بثينة واعدتْ جميلا أن يلتقيا فى بعض المواضع، فأتى لوعدها، وجاء أعرابى يستضيف القوم، فأنزلوه وقَرَوْه، فقال لهم: قد رأيتُ فى بطن هذا الوادى ثلاثة نفر متفرّقين متوارين فى الشجر وأنا خائفٌ عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم، فعرفوا أنه جميل وصاحباه، فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده، فلما أسفر له الصبح انصرف كئيبا سيّئ الظن بها ورجع الى أهله؛ فجعل نساء الحىّ يقرّعْنه بذلك ويقلن له: انما حصلت منها على الباطل والكذب والغدر، وغيرُها أولى بوصلك منها، كما أن غيرك يحظَى بها؛ فقال فى ذلك:

(١) تأطرت: ملت. (٢) أشاح: حذر وخاف.

فأجبتُها بالقـــول بعـــد تســـتُّر * حبِّي بُثَيْنـــةَ عن وِصالكِ شاغلى
أُبثَين إنك قـــد مَلَكتِ فأسجِحى (١) * وخُذى بحظّك من كريم واصـــل
فلربّ عارضــــةٍ علينـــا وصلَهـــا * بالجِـــدّ تخلطه بقـــول الهـــازل
لو كان فى صـــدرى كقَدْرِ قُلَامةٍ * فضـــلًا وصلتُك أو أتتك رسائلى
ويقلن إنك قد رضيتَ ببـــاطلٍ * منها فهل لك فى اجتناب الباطل
ليُزِلْنَ عنـــك هـــواى ثم يَصِلْنَنى * واذا هَويتُ فمـــا هـــواى بزائل
صادت فؤادى يا بُثَين حبـــالُكم * يوم الحُجُـــون وأخطأتْك حبـــائلى
مَنَّيْتِنـــى فَلَوَيتِ ما منّيتِـــنى * وجعلتِ عاجلَ ما وعدتِ كآجل
وتثاقلتْ لمـــا رأت كَلَفِى بهـــا * أَحْبِبْ الىّ بذاك من متثاقل
وأطعتِ فىّ عواذلًا فهجـــرتِنى * وعَصَيْتُ فيكِ وقد جَهَدنَ عواذلى
حاولْنَنى لأُبِتَّ حبـــلَ وصالكم * منّى ولستُ وإن جهَـــدنَ بفاعل
فرددتُهنّ وقد سَعَيْنَ بهجركم * لمـــا سـعين له بأفْوَقَ ناصـــلِ (٢)
يَعْضَضْن من غيـــظٍ علىّ أناملًا * ووَدِدتُ لو يعضَضْنَ صُمَّ جَنَادِلِ
ويقلن إنكِ يا بُثَيْن بخيـــلةٌ * نفسى فداؤكِ من ضَـــنِينٍ باخل

وقال جميل فى وعد بثينة بالتلاقى وتأخُّرها قصيدةً أولها :

يا صاحِ عن بعض الملامة أقْصِرِ * إنَّ المُنَى لِلقـــاءُ أمِّ المِسْـــوَرِ

ومنهـــا :

وكأنَّ طارقَها على عَلَلِ الكَرَى * والنجمُ وَهْنًـــا قـــد دنا لتغـــوُّرِ
يَسْـــتافُ (٣) ريحَ مُدَامـــةٍ معجونةٍ * بذكىّ مســـكٍ أو سَحِيقِ العنـــبرِ

---

(١) أسجحى : أحسنى العفو . (٢) الأفوق : السهم الذى كسر فوقه ، وهو مشق رأس السهم حيث يقع الوتر . وناصل : لا نصل فيه . (٣) يستاف : يشم .

ومنها :

إنّى لأحفظُ غيبَكم ويسُرّنى * اذ تذكرين بصالحٍ أن تذكرى
ويكون يومٌ لا أرى لكِ مُرسَلًا * أو نلتقى فيه علىّ كأشهر
يا ليتنى ألقى المنيّةَ بغتةً * إن كان يومُ لقائكم لم يُقْدَرِ
أو أستطيع تجلُّداً عن ذكركم * فيُفيق بعض صبابتى وتفكُّرى

وفيه يقول :

لو قد تُجَنّ كما أُجنّ من الهوى * لعذرتَ أو لظلمتَ إن لم تعذرِ
والله ما للقلب من علمٍ بها * غيرُ الظنون وغيرُ قول المخبِرِ
لا تحسبى أنّى هجرتُكِ طائعًا * حَدَثٌ لعمرُكِ رائعٌ أن تُهجَرى
فلتبكينّ الباكياتُ وإن أبُحْ * يوما بسرّكِ مُعلنًا لم أُعْذَرِ
يهواكِ ما عشتُ الفؤادُ فإن أمت * يتبعْ صَدَاى صداكِ بين الأقبُرِ
إنّى إليكِ بما وعدتِ لناظرٌ * نَظَرَ الفقيرِ الى الغنىّ المُكْثِرِ
يعد الديونَ وليس يُنجز موعدًا * هذا الغريمُ لنا وليس بمُعْسِرِ
ما أنتِ والوعدَ الذى تَعِدينَنى * إلا كبرقِ سحابةٍ لم تُمطِرِ
قلبى نصحتُ له فردّ نصيحتى * فمتى هجرتيه فمنه تكثّرى

وقال فى إخلافها إيّاه هذا الموعد :

ألا ليت ريعانَ الشبابِ جديدُ * ودهرًا تولّى يا بُثَين يعودُ
فنَغْنَى كما كنّا نكون وأنتمُ * قريبٌ وإذ ما تبذُلين زهيدُ
وما أنسَ مِلْأشياءِ لا أنسَ قولَها * وقد قربت نِضْوى أمصرَ تريد (١)
ولا قولَها لولا العيونُ التى ترى * أتيتُكَ فاعذِرْنى فدتْكَ جدودُ
خليلَىّ ما أُخْفِى من الوجد ظاهرٌ * ودمعى بما قلتُ الغداةَ شهيد

---

(١) النضو : المهزول من الابل وغيرها .

أَلَا قـد أرى والله أنْ ربّ عَبْرةٍ * اذا الدار شَطَّت بيننـا ستزيد
اذا قلتُ ما بى يا بثينـــةُ قاتلى * من الحبّ قالت ثابتٌ ويزيد
وإن قلت رُدّى بعضَ عقلى أعِشْ به * مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردودٌ بمـا جئتُ طالبًا * ولا حُبُّهـا فيما يَبيــدُ يبيــدُ
جزتك الجوازى يا بثين ملامةً * اذا ما خليلٌ بانَ وهو حميد
وقلتُ لهـا بَيْنى وبينـك فاعلمى * من الله ميثاقٌ له وعهــود
وقد كان حُبِّيكم طريفًا وتالدًا * وما الحبُّ إلا طارفٌ وتليــد
وإن عَرُوضُ(١) الوَصْل بينى وبينها * وإن سَهّلته بالمنى لَصَــعود
فأفنيتُ عيشى بانتظارى نوالَهـا * وأبليتُ ذاك الدهرَ وهو جديد
فليت وُشاةَ النـاس بينى وبينهـا * يدوفُ(٢) لهم سُمًّـا طماطمُ سُــود
وليت لهم فى كل مُمْسًى وشـارقٍ * تضاعفُ أكبالٌ لهم وقيــود
ويحسب نسوانٌ من الجهل أننى * اذا جئتُ إيّاهن كنتُ أُريد
فأقسم طَرْفى بينهن فيستوى * وفى الصدر بَوْنٌ بينهن بعيـد
ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليـلةً * بوادى القُـرَى إنّى إذًا لسعيد
وهل أهبِطَنْ أرضًا تظَلُّ رياحُها * لهـا بالثنايا القـاويات(٣) وئيــد(٤)
وهل ألقَيَنْ سُعْدَى من الدهر مرةً * وما رَثَّ من حبل الصفاء جديد
وقد تلتقى الأهواءُ من بعـد يَأْسةٍ * وقد تُطلَبُ الحاجاتُ وهى بعيد
وهــل أزجُرَنْ حَرْفًا(٥) عَلاةً شِمِـلَّةً * بخَرْقٍ تُباريهـا سَـوَاهمُ قُــود
على ظهر مرهوبٍ كأنّ نشوزَه * اذا جاز هُلَّاكُ الطـريق رُقود

---

(١) العروض : الطريق فى عرض الجبل فى مضيق، يريد الطريق الى وصلها . (٢) يدوف : يخلط . وطماطم : جمع طمطم وهو من فى لسانه عجمة ، وأراد بالطماطم هنا : الموالى . (٣) القاويات : الخاليات . (٤) الوئيد : الصوت العالى الشديد . (٥) الحرف : الناقة الضامرة الصلبة . والعلاة : المشرفة الصلبة . والشملة : السريعة . والخرق : الأرض الواسعة . والساهمة : الناقة الضامرة .

سَبَتْنى بعينَىْ جُؤْذَرٍ وَسْطَ رَبْرَبٍ (١) * وصدرٍ كفاثور اللُّجَيْن وجيدِ (٢)
تَزِيفُ (٣) كما زافتْ الى سلفاتها * مُباهيةً طَيَّا الوشاح مَيُودُ
اذا جئتُها يومًا من الدهر زائرًا * تعرّض منقوضُ اليدين صَدُودُ
يَصُدّ ويُغضى عن هواى ويجتنى * ذُنوبًا عليها إنه لعَنُودُ
فأصرمُها خوفًا كأنى مُجانبٌ * ويغفُل عنا مرّةً فنعودُ
فمن يُعْطَ فى الدنيا قرينًا كمثلها * فذلك فى عيش الحياة رشيدُ
يموتُ الهوى منّى اذا ما لَقِيتُها * ويَحيَا اذا فارقتُها فيعودُ
يقولون جاهِدْ يا جميلُ بغزْوةٍ * وأىَّ جهادٍ غيرهن أريدُ
لكل حديثٍ بينهن بشاشةٌ * وكُلُّ قتيلٍ بينهن شهيدُ
ومن كان فى حبّى بُثَيْنةَ يمترى * فبَرْقاءُ ذى ضالٍ علىّ شهيدُ
ألم تعلمى يا أمّ ذى الوَدْع أننى * أُضَاحك ذكراكم وأنتِ صَلُودُ

بعثت أَمَةٌ لبثينة الى أبيها وأخيها وقالت لها: إن جميلا عندها الليلة، فأتياها مشتملَين على سيفين، فرأياه جالسا منها حَجْرةً (٤) يحدّثها ويشكو لها بثَّه، ثم قال لها: يا بثينة، أرأيتِ ودّى إياك وشَغَفى بك ألا تَجْزِينَنِيه؟ قالت: بماذا؟ قال: بما يكون من المتحابين، فقالت له: ياجميل، أهذا تبغى! والله لقد كنتَ عندى بعيدًا منه، ولئن عاودت تعريضا بريبةٍ لا رأيتَ وجهى أبدا! فضحك وقال: والله ما قلتُ لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه، ولو علمتُ أنك تجيبيننى لعلمتُ أنك تجيبين غيرى، ولو رأيتُ منك مساعدةً لضربتُك بسيفى هذا ما استمسك فى يدى، ولو أطاعتنى نفسى لهجرتُك هجرةَ الأبد، أو ما سمعتِ قولى:

وإنى لأرضَى من بُثَيْنةَ بالذى * لو ٱبصَرَه الواشى لَقَرّتْ بَلَابِلُهْ
بلا وبألا أستطيعَ وبالمُنَى * وبالأملِ المرجوّ قد خاب آمِلُهْ
وبالنَّظْرة العَجْلَى وبالحول ينقضى * أواخرُه لا نلتقى وأوائلُهْ

(١) الفاثور: الخوان من رخام أو فضة أو ذهب. (٢) فى البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروى بالرفع والكسر. (٣) زاف: تبختر. (٤) أى ناحية.

فقال أبوها لأخيها : قم بنا، فما ينبغى لنا بعد اليوم أن نمنع هـذا الرجل من لقائها، فانصرفا وتركاهما .

ومن قول جميل :

إنّ المنازلَ هيّجَتْ أطرابِى * واسْـتَعْجَمَتْ آياتُهـا بجَوابِى
قَفْرًا تَلُوحُ بِذِى اللُّجَيْنِ كأنَّها * أنْضاءُ رسمٍ أو سطورُ كتابِ
لمـا وقفتُ بها القَلُوصَ تبادرتْ * منى الدموعُ لفُرقة الأحبـاب
وذكرتُ عصرا يا بثينـةُ شاقَنِى * وذكرتُ أيامى وشَرْخَ شـبابِى

لما نذر أهلُ بثينة دمَ جميل وأهدره لهم السلطان ضاقت الدنيا بجميل، فكان يصعَد بالليل على قَوْزِ(١) رمل يتنسّم الريحَ من نحو حىّ بثينة ويقول :

أيا ريحَ الشَّمالِ أما تـرَيْنِى * أهـيمُ وأننى بادِى النحـولِ
هَبِى لى نَسْمةً من ريحِ بَثْنٍ * ومُنِّى بالهبُـوب الى جميـل
وقولى يا بثينـةُ حَسْبُ نفسى * قليـلُك أو أقلُّ من القليل

ومن قوله :

يَقيكِ جميـلٌ كلَّ سوءٍ أما له * لديك حديثٌ أو اليك رسولُ
وقد قلتُ فى حُبِّى لكم وصَبَابتى * محاسنَ شعرٍ ذكرُهن يطولُ
فان لم يكن قولى رضاك فعلِّمِى * هبوبَ الصَّبا يابثْنُ كيف أقول
فما غاب عن عينى خيالُك لحظةً * ولا زال عنهـا والخيالُ يزول

ومنــه :

خليـلىَّ عُوجَا اليومَ حتى تُسَلِّمـا * على عَذْبة الأنيـاب طيِّبـةِ النَّشرِ
أَلِمَّا بها ثم اشـفَعَا لى وسلِّمـا * عليها سَـقاها الله من سائغ القَطْرِ

---

(١) القوز : المستدير من الرمل، وقال الأزهرى : إنه الكثيب المشرف .

اذا ما دنتْ زِدتُ اشتياقًا وان نأتْ * جَزِعتُ لنأى الدار منها وللبعد

أبى القلب إلا حبَّ بثنة لم يرد * سواها وحبّ القلب بثنة لايجدى

وفيها يقول :

سلى الركبَ هل عُجْنا لَمغْناك مرّةً * صُدورَ المطايا وهى مُوقَرةٌ تَخْدى(١)

وهل فاضتِ العينُ الشَّرُوقُ بمائها * مِنَ آجلِك حتى آخضَلّ من دمعها بُرْدى

وإنى لأَسْتجرى لكِ الطيرَ جاهدًا * لتَجْرى بيُمْنٍ من لقائك أو سَعْد

وإنى لأستبكى اذا الركبُ غَرّدوا * بذكراك أن يحيا بك الركب إذ يَخْدى

فهل تجزِيَنِّى أمُّ عمرو بودّها * فانّ الذى أُخفى بها فوق ما أبدى

وكلّ محبٍّ لم يَزِدْ فوق عهده * وقد زدتُها فى الحبّ منى على العهد

ومن قوله فيها :

لها فى سواد القلب حبٌّ ومنعةٌ * هى الموتُ أو كادت على الموت تُشرِفُ

وما ذكرتْكِ النفسُ يا بَثْنُ مرة * من الدهر إلا كادت النفس تتلف

وإلا اعترتنى زَفْرةٌ واستكانةٌ * وجاد لها سَجْلٌ من العين يَذْرِف

وما استطرفتْ نفسى حديثًا لخُلّةٍ * أُسَرُّ به إلا حديثُكِ أَطْرفُ

وأوّل هذه القصيدة :

أمِنْ منزِلٍ قَفْرٍ تعفّتْ رسومَه * شَمَالٌ تُغاديه ونكباءُ حَرْجَفُ(٢)

فأصبح قفرًا بعد ما كان آهلًا * وجُمْلُ المُنَى تشتُو به وتُصَيِّف

ظَلِلتُ ومُسْتَنٌّ من الدمع هاملٌ * من العين لما عُجتُ بالدار ينزِف

أمُنْصِفتى جملٌ فتَعدِلَ بيننا * اذا حكمتْ والحاكم العدلُ يُنصف

تَعلقتُها والجسمُ منى مصحَّحٌ * فما زال يَنْمِى حبُّ جملٍ وأضعُفُ

(١) موقرة : محملة الوقر وهو الحمل . وخدى البعير يخدى : أسرع وزج بقوائمه .

(٢) الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .

الى اليوم حتى سُـلَّ جسمى وشفّنى * وأنكرتُ من نفسى الذى كنتُ أعرف
قَنـاةٌ من المُرّان ما فوق حَقْوها (١) * وما تحتــه منهـا نَقًـا يتقصّـف (٢)
لهـا مُقلتا رِيم وجيـــدُ جَـــدايةٍ (٣) * وكَشْحٌ كطىّ السابريّـــة أهيَفُ
ولستُ بناسٍ أهلَها حين أقبلوا * وجالُوا علينـا بالسيوف وطَوّفوا
وقالوا جميـلٌ بات فى الحىّ عنـدها * وقد جَـــرّدوا أسـيافهم ثم وَقّفوا
وفى البيت ليثُ الغابِ لولا مخافةٌ * على نفس جمـــلٍ والإلهِ لأُرعِفوا
هَمَمْتُ وقـد كادت مرارًا تطلّعتْ * الى حربهم نفسى وفى الكفّ مُرْهَفُ
وما سرّنى غيرُ الذى كان منهمُ * ومنى وقـــد جاءوا الىّ وأوجفوا
فـكم مُرْتَجٍ أمرا أُتيح له الرّدَى * ومن خائفٍ لم ينتقِصْه التخوّف

ومنهـا :.

أأنْ هَتَفتْ ورقاءُ ظِلْتَ سفاهةً * تُبَـكِّى على جمـــلٍ لورقاء تهتِفُ
فلو كان لى بالصّرْم ياصاحِ طاقةٌ * صَرَمتُ ولكنى عن الصرم أضعفُ

قيل : إن مروان طلب الى جميـل أن ينزل فيرجز (٤) به ، وهو يريد أن يمدحه ، فنزل جميل فقـال :

أنا جميلٌ فى السَّــنام الأعْظَم * الفارع الناس الأعزّ الأكرم
أحمِى ذِمَارى ووجدتُ أقْرُمى (٥) * كانوا على غاربِ طَوْدٍ خِضْرِم (٦)
* أعيـا على الناس فلم يُهَـدّم *

فقال : عَدِّ عن هذا ؛ فقال جميل :

لهفا على البيت المَعَـدِّى لهَفَا * من بعـد ما كان قد استكفّا
ولو دعا اللهَ ومـدّ الكفا * لرَجَفت منـه البـلادُ رجفا

---

(١) الحقو : الخصر . (٢) يتقصف : يتهيل و يتقطع بعضه عن بعض . (٣) الجداية : الغزالة . والسابرىّ : ثوب من أجود الثياب منسوب الى سابور على غير قياس . (٤) يرجز به : ينشده أرجوزة . (٥) أقرم : جمع قرم (بالفتح) وهو السيد العظيم . (٦) خضرم : عظيم .

وطلب ذلك اليه الوليد فقال :

أنا جميل فى السَّنام من مَعَدّْ * فى الذروة العلياء والركن الأشَدّْ

والبيت من سعد بن زيد والعَدَدْ * ما يبتغى الأعداءُ منى، ولقد

أُضْرِىَ بالشَّتْم لسانِى ومَرَدْ * أقودُ من شئْتُ وصَعْبٌ لم أُقَدْ

فقال له الوليد : اركبْ لاحملك الله! وما مدح جميل أحدا قط .

ومن قول جميل فى مُرَاجزة جَوّاس بن قُطْبَة، وكان ذلك بوادى القُرَى :

يا أمّ عبد المَلِكِ اصرِمِينى * فبيِّنِى صرمِىَ أو صِلينى

أبكى وما يُدرِيكِ ما يُبكينى * أبكى حِذارَ أن تُفارقينى

وتجعلى أبعدَ منّى دونى * إن بنى عمّك أوعدونى

أن يقطعوا رأسى اذا لَقُونى * ويقتلونى ثم لا يَدُونى (١)

كلا وربِّ البيت لو لَقُونى * شفْعًا ووَتْرًا لتَوَاكلونى (٢)

قد علم الأعداء أنّ دونى * ضربًا كإيزاغ (٣) المَخاض الجُون

ألا أسبّ القومَ إذ سبُّونى . * بَلَى وما مَرّ على دفين

وسابحاتٍ بلِوَى الحَجُونِ * قد جرّبونى ثم جرّبونى

حتى إذا شابوا وشيَّبونى * أخزاهمُ الله ولا يُخزُونى

أشباه أعيارٍ على مَعِينِ * أحْسَسْنَ حِس أسدٍ حَرونِ

فهنّ يَضْرِطنَ من اليقين * أنا جميل فتعرَّفونى

وما تَقَنَّعتُ فتنكرونى * وما أُعَنِّيكم لتسألونى

---

(١) يدونى : من الدية وهى ما يعطى لولىّ القتيل من المال بدل النفس . (٢) تواكلونى : تركونى .

(٣) أوزغت الناقة ببولها : رمت به دفعة دفعة . ومنه الطاعنة توزغ بالدم أى ترمى به كذلك .

أَنَمِى الى عاديّةٍ طَحُونِ * يَنْشقُّ عنها السيلُ ذو الشؤونِ
غَمْرٍ يُزِفُّ(١) رُجَّحَ السَّفينِ * ذو حَدَبٍ(٢) اذا يُرَى جَجُونِ(٣)
* تنحلّ أحقادُ الرجال دونى *

ومن قوله يمدح أخواله من جُذام :

جُذامُ سيوفُ الله فى كلّ مَوْطنٍ * اذا أَزِمتْ(٤) يوم اللقاء أَزامِ
هُمُ منعوا ما بين مِصْرَ فذى القُرَى * الى الشأم من حِلٍّ به وحَرامِ
بضَرْبٍ يُزيل الهامَ عن سَكِنَاته * وطَعْنٍ كإيزاغ المخاض تُؤَامِ
اذا قَصُرَتْ يوما أكُفُّ قبيلةٍ * عن المجد نالتْه أكُفُّ جُذامِ

اجتمع جميل وعمر بن أبى ربيعة بالأبطح، فأنشده جميل قصيدتَه :

لقد فَرِحَ الواشُون أن صَرَمَتْ حَبْلِى * بُثَيْنَةُ أو أَبْدَتْ لنا جانبَ البُخْلِ
يقولون مَهْلًا ياجميلُ وإننى * لَأُقْسِم ما بى عن بُثَيْنَةَ مِن مَهْلِ
أَحِلْمًا فقبلَ اليوم كان أوانُه * أَمَ آخْشَى فقبل اليوم أُوعِدْتُ بالقتل
لقد أَنْكَحوا حَرْبى نُبَيْهًا ظَعينة * لطيفة طىّ البطن ذات شَوًى جَزْلِ
وكم قد رأينا ساعيًا بنميمةٍ * لآخر لم يَعْمِد بكَفٍّ ولا رجلِ
اذا ما تَرَاجَعْنا الذى كان بَيْنَنا * جَرَى الدمعُ من عَيْنَىْ بثينة بالكُحْلِ
كِلانا بَكَى أو كاد يَبْكِى صَبَابةً * الى إلْفِه وآسْتَعْجَلَتْ عَبْرَةً قَبْلِى
فلو تركتْ عَقْلِى معى ما طلبتُها * ولكن طِلَابِيها لِمَا فاتَ من عقلى
فَيَاوَيْحَ نَفْسى حَسْبُ نفسى الذى بها * وياويحَ أهلى ما أُصِيبَ به أهلى
وقالتْ لأترابٍ لها لا زَعانفٍ * قِصَارٍ ولا كُسِّ الثنايا(٥) ولا ثُعْلِ

(١) يزف : يجعلها تسرع . (٢) ذو حدب : ذو موج . (٣) ججون : معوج .
(٤) أزمت : اشتدّت . (٥) الكسس محركة : قصر الأسنان أو صغرها أو لصوقها بسنوخها .
وثعلت سنه ولثته فهى ثعلاء : تراكبت أسنانها .

اذا حَمِيتْ شمسُ النهار آتقيتَها * بأكسية الديباج والخَزّ ذى الخَمْل
تداعَيْن فاسْتَعْجمن مَشْياً بذى الغَضَى * دَبِيبَ القَطَا الكُدْرىّ فى الدَّمِث السهل
اذا آرتعنَ أو فُزِّعن قُمْن حَوَالَهَا * قيامَ بنات الماء (١) فى جانب الضَّحْل (٢)
أجِدَّك لا أَلْقَى بُثَيْنة مرّةً * من الدّهر إلا خائفاً أو على رِجْل
خليلىّ فيما عِشْتُما هل رأيتما * قتيلاً بكى من حبِّ قاتِله قَبْلى
أَبِيتُ مع الهُلّاك (٣) ضَيْفاً لأَهْلها * وأهلى قريب مُوسِعون ذَوُو فضل
ألا أيها البيْتُ الذى حِيلَ دونه * بنَا أنتَ من بيْتٍ وأهلُكَ من أهلى
ثلاثةُ أبياتٍ فبيْتٌ أُحِبّه * وبيْتان ليسا من هَوَاى ولا شَكْلى

وقال فى هجرةٍ هجرته إياها بثينة :

ألم تَسْأل الرَّبْعَ القَوَاء فينطقُ * وهل تُخْبِرَنْك اليومَ بَيْداءُ سَمْلَقُ (٤)
وقفتُ بها حتى تجلّت عَمَايَتى * ومَلّ الوقوفَ الأَرْحَبِىُّ (٥) المُنَوَّق
تَعَزّ وإن كانت عليك كريمةً * لعلّك من رِقٍّ لبَثْنَة تُعْتَق
لَعَمْرُكم إن البِعادَ لَشائِق * وبعضُ بعادِ البيْن والنأى أشوق
لعلّك محزونٌ ومُبْدٍ صبابةً * ومُظْهِرُ شكوى من أُناس تفرّقوا
وبِيضٍ غَرِيراتٍ تُثَنِّى خصورَها * اذا قُمْن أعجازٌ ثِقالٌ وأَسْوُق
غَرائِزُ لم يلقَيْن بؤسَ معيشة * يُجَنّ بهنّ الناظرُ المتنوّق
وغلغلتُ من وجدٍ اليهنّ بعد ما * سرَيْتُ وأحشائى من الخوف تَخْفُق
معى صارمٌ قد أخلَص القَيْنُ صَقْلَه * له حين أُغْشِيه الضَّرِيبةَ رَوْنق
فلولا آحتيالى ضِقْن ذَرْعاً بزائرٍ * به من صَبابات اليهن أَوْلَق (٦)

(١) بنات الماء : ما يألف الماء من السمك والطير والضفادع (أنظر المضاف والمضاف اليه) .
(٢) الضحل : الماء القليل على الأرض لا عمق له . (٣) الهلاك : الصعاليك . (٤) السملق : القاع الصفصف . (٥) الأرحبي : الفحل النجيب نسبة الى أرحب وهى قبيلة من همدان تنسب اليها النجائب الأرحبية . والمنوق : المحسن المزين . (٦) أولق : جنون .

تَسُـوك بقُضْـبان الأراك مُفَلَّجا * يُشَـعْشَعُ فيـه الفارسيّ المُـرَوَّق
أبثنـة للْوَصْـلُ الذى كان بيننـا * نضا مثل ما ينضو الخضاب فيَخْلُق
أبثنـــة ما تنأيـن إلا كأنّنى * بنجـم الـثريا ما نأيت مُعَلَّق

قال الرشـيدُ لإسحاق الموصلىّ : أنشـدنى أحسنَ ما تُحبّ فى عتاب مُحِبّ وهو ظالم متعتِّب ، فأنشده قولَ جميل :

رِدِ المـاءَ ما جادَتْ بصَفْوِ ذَنَائبُه * ودَعْه اذا خِيضَتْ بطَرْقٍ (١) مَشَاربُه
اعاتبُ مـن يَحْلُو لدىّ عتابُه * وأترُك مـن لا أشتهى وأُجانِبُه
ومن لذّة الدنيا وإن كنتَ ظالمـًا * عناقُك مظلومًا وأنتَ تعاتبُـه

ومن قوله فى زيارة له :

زُوْرَا بثينـةَ فالحبيبُ مَزُورُ * إن الزيارة للمحبّ يسـيرُ
إن الترحّل أن تلبّس أمرُنا * واعتاقنا قـدَرٌ أحَمُّ بكور
إنى عشيّةَ رُحْتُ وهى حزينةٌ * تشكو الىّ صـبابةً لصَبُور
وتقول بِتْ عندى فديتُك ليلةً * أشكو اليـك فإن ذاك يَسـير
غرّاءُ مِبْسامٌ كأن حديثها * دُرٌّ تحـدّر نَظْمُـه منثور
مَخْطُوطَةُ المَتْنَيْنِ (٢) مُضْمَرةُ الحَشَى * رَيّا الروادِف خَلْقُها مَمْكُور
لا حُسْنُها حُسْنٌ ولا كَدَلالهـا * دَلٌّ ولا كوقارها توقـير
إن اللسانَ بذكرها لَمُوَكَّلٌ * والقلبُ صادٍ والخواطِرُ صُـور
ولئن جَزَيْتِ الودَّ منّى مثـلَه * إنى بذلك يا بُثَيْنَ جـدير

وعذّله فيها ابن عمّه رَوْق، فقال :

لقـد لامَنى فيها أخٌ ذو قَرَابةٍ * حبيبٌ إليه فى مَلامته رُشْـدى
وقال أفِقْ حتى متى أنتَ هائمٌ * ببثنة فيها قد تُعيـد وقد تُبْـدى

(١) الطرق : الماء الذى خوّضته الابل وبوّلت فيه وبعرت .
(٢) مخطوطة المتنين : ممدودتهما . والممكورة : المطوية الخلق .

فقلتُ له فيهـا قضى اللهُ ما ترى * عليّ وهـل فيما قضى اللهُ من رَدّ
فإن يَكُ رُشْـدًا حبّها أو غَوَايةً * فقد جئتُه، ما كان منّى على عَمْد
لقد لجّ ميثاقٌ من الله بيننا * وليس لمن لم يُوفِ لله من عَهْد
فلا وأبيها الخَيْرِ ما خنتُ عهدَها * ولا لِيَ عِلمٌ بالذى فعلتْ بعـدى
وما زادها الواشُـون إلا كرامةً * علىّ وما زالت مَودّتُها عنـدى
أفى الناس أمثالى أَحَبَّ فَحَالُهم * كحالى أم أحْبَبْتُ من بينهم وحدى
وهل هكذا يَلْقى المحِبّون مثل ما * لَقيتُ بها أم لم يجد أحدٌ وجدى

وقال فيهـا :

خليـلىّ عُوجا اليومَ حتى تُسَـلِّما * على عَذْبة الأنيابِ طيّبَـة النَّشْر
أَلِمّـا بها ثم آشْـفعا لِى وسَلِّمـا * عليها سَـقَاها اللهُ من سائغ القَطْر
وبُوحا بذكرى عنـد بثنة وآنظُرا * أترتاح يومًا أم تَهَشّ إلى ذكرى
فإن تلك لم تقطع قُوَى الودّ بيننا * ولم تَنْس ما أسلفتُ فى سالف الدهر
فكيف يُرَى[1] منها آشتياقٌ ولوعـةٌ * ببَيْنٍ وغَرْبٌ من مدامعها يجرى
وإن تَكُ قد حالَت عن العهد بعدَنا * وأصغتْ الى القول المؤنِّب والمُزْرى
فسوف يُرَى منها صُدودٌ ولم تكن * ــ بنَفْسىَ ــ من أهل الخيانة والغدر
أعوذُ بك اللَّهمّ أن تَشْحط النَّوى * ببثنة فى أدنى حياتى ولا حَشْرى
وجَاوِرْ اذا ما مِتُّ بينى وبينهـا * فيا حبّذا موْتِى اذا جاوَرتْ قبرى
عدمتُكَ من حبٍّ أمَا منك راحةٌ * وما بك عنّى من تَوانٍ ولا فَتْرِ
ألا أيها الحبُّ المبرِّحُ هل ترى * أخا كَلَفٍ يُغْرِى بحبٍّ كما أُغْرِى
أجِدَّكَ لا تَبْلَى وقد بَلِى الهوى * ولا ينتهى حبّى بثينةَ للزَّجْر

---

(١) هكذا وردت «فكيف» ولعلها فسوف ليستقيم بها السياق .

ومن قوله فيها :

قِفِي تَسْلُ عنكِ النفسُ بالخُطَّة التى * تُطيلين تخويفى بها ووعيدى
فقد طالما من غير شكوى قبيحةٍ * رَضينا بحكم منك غير سَديد

ومنه :

بُثَيْنَ سَلِينِى بعضَ مالى فإنما * يُبِينُ عند المال كلُّ بخيل
فإنى وتَكْرارَ الزيارة نحوكم * لَبَيْنَ يَدَىْ هَجْرٍ بُثَيْنَ طويل
فياليت شعرى هل تقولين بعدنا * اذا نحن أزْمعنا غدًا لرحيل
ألا ليْت أياما مَضَيْن رواجعٌ * وليت النَّوى قد ساعدت بجميل

ومنه :

أتَعْجَب أن طرِبْتُ لصوتِ حَادٍ * حدا بُزْلًا يَسِرْن ببَطْنِ واد
فلا تعجبْ فإن الحبّ امسى * لبثنة فى السَّواد من الفؤاد

ومنه :

خليليّ عوجَا بالمحَلَّة من جُمْل * وأتْرابها بين الأُصَيفر والخبل
نقِفْ بمغانٍ قد محا رسمَها البِلى * تُعاقِبُها الأيامُ بالريح والوَبْل
فلو دَرَج النملُ الصغارُ بجِلدها * لأندَب أعلى جلدها مَدْرَجُ النمل
وأحْسَنُ خَلْق الله جِيدًا ومُقْلةً * تُشَبَّهُ فى النِّسوان بالشَّادن الطِّفْل(١)

ومن قوله :

أمِنْك سرى يا بَثْنَ طَيْفٌ تأوّبا * هُدُوًّا فهاج القلبَ شَوْقًا وأنْصَبا
عجِبتُ له أن زارَ فى النوم مَضْجَعِى * ولو زارنى مُسْتَيقِظًا كان أعجبا

لما قدِم جميل من الشأم بلغ بثينةَ خبرُه ، فراسلته مع بعض نساء الحىّ تذكُرُ شوقَها اليه ووجدَها به ، وطَلَبَها للحيلة فى لقائه ، وواعَدَته لموْضع يلتقيان فيه ، فسار إليها وحدّثها

(١) الطفل : الرخص الناعم من كل شىء .

طويلًا وأخبرها خبرَه بعـدها ، وقد كان أهلُها رَصَدوها ، فلما فقَدوها تَبِعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما ، فوثَب جميلٌ فانتَضَى سيفَه وشدّ عليهما ، فاتّقَياه بالحرب ، وناشدتْه بثينة اللهَ إلّا آنصرفَ ، وقالت له : إن أقمْتَ فضحتنى ، ولعلّ الحىّ يلْحقونك ، فأبى وقال : أنا مقيم وآمضى أنتِ وليصنعوا ما أحبّوا ، فلم تزل تناشِــده حتى آنصرف وقال فى ذلك ، وقد هجرته وآنقطع التلاقى بينهما مدّة :

هى البدرُ حُسْنًا والنساءُ كواكبٌ * وشَــتّان ما بين الكواكب والبدر
لقد فُضّلتْ حسناً على الناس مثل ما * على ألف شَهْر فُضِّلت ليلةُ القَدْر

وقال :

لقد خِفْتُ أن يغتالنى الموتُ عَنْوةً * وفى النفس حَاجاتٌ اليك كما هِيَا
وإنى لتُثْنِينى الحفيظـةُ كلّما * لقيتُك يوما أن أَبُثّك ما بِيَا
ألم تعلمى ياعذْبَــةَ الرِّيق أننى * أظَلّ اذا لم أُسْـقَ ريقَكِ صَادِيا

ورحل الى مصر فأدركته بها منيّتُه ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاةُ :

صَـــدَع النَّعِىُّ وما كَنَى بجميـل * وثَوَى بمصر ثَوَاءَ غيرِ قُفُولِ
واقد أجُرّ الذيْلَ فى وادى القُرى * نَشْوانَ بين مَزَارِع ونخـيل
قومى بثينـــة فاندُبى بعَـــويل * وابكى خليلَك دون كلّ خليل

ولـما أُنْشِدت بثينةُ قولَ جميلٍ قالت :

وإن سُلُوّى عن جميلٍ لساعةٌ * من الدّهر ماحانت ولا حان حِينُها
سَــواءٌ علينا يا جميـلُ بن مَعْمَرٍ * اذا متَّ بأْسَاءُ الحيـاةِ ولِينُهـا

وقال :

رَحَلَ الخَلِيـطُ جِمـالَهم بسُواد * وحَدَا على أَثَرِ البَخيـلة حادى
ما إن شَعَرْتُ ولا سَمِعْتُ ببَيْنِهم * حتى سمعت به الغرابَ ينادى

لمّـا رأيتُ البَـيْنَ قلتُ لصاحبي * صَدَعتْ مُصَدِّعةُ القلوب فؤادى
بانوا وغُودِرَ فى الديار مُتَيَّمٌ * كَلِفٌ بذكرِكِ يا بُثَيْنَةُ صادى

وقال أيضا :

خَليلَيَّ هـل فى نَظْرة بعـد تَوْبةٍ * أُداوِى بهـا قلبى علَىَّ فُجُـورُ
إلى رُجَّحِ الأكفال هِيفٍ خُصورُها * عِذابِ الثَّنـايا رِيقُهُنَّ طَهُورُ
تَذَكَّرتَ مَن أضحَتْ قُرَى اللُّدِّ(١) دونَه * وهَضْبٌ لِتَيْما والهِضابُ وعُورُ
فَظَلَّتْ لِعينَيْكَ الْلَجُوجَيْنِ عَبرةٌ * يُهيِّجها بَرْحُ الهَـوَى فتَمُورُ
على أننى بالبَرْق من نَحْو أرضها * إذا قَصُرَتْ عنه العيون بَصِـيرُ
وإنى إذا ما الريحُ يوما تَنَسَّمَتْ * شآمِيَّـةً عادَ العِظامَ فُتُـورُ
ألا يا غُرابَ البَيْن لَونُك شاحبٌ * وأنتَ بَرَوْعاتِ الفـراق جَديرُ
فإن كان حقًّا ما تقول فأصبحت * هُمومُك شَتَّى والجَنـاحُ كَسِير
ودُرْتَ بأعداء حَبيبك فيهـم * كما قـد تَرانى بالحبيب أدُورُ
وكيف بأعداء كأنّ عيونهـم * إذا حانَ إتيانى بُثَينةَ عُور
فإنى وإن أصبحت بالحبِّ عالما * على ما بَعَيْـنِى من قَـذًى لَخَبير

وله أيضا :

فلو أرسلتْ يوما بثينةُ تَبْتغى * يمينى ولو عَزَّت علىّ يمينى
لأَعْطَيْتُها ما جاء يَبْغى رسولُها * وقلت لهـا بعـد اليمين سَلِينِى
سَلِينِىَ مالى يا بُثَيْنَ فإنما * يُبيِّنُ عنـد المـال كُلُّ ضَنِين
فمـا لَكِ لَمّا خَبَّر الناسُ أننى * أسأتُ بظَهْر الغيب لم تَسَلِينى
فأُبْلِىَ عُذْرا أو أجىءَ بشاهـد * من الناس عَدْلٍ أنهم ظلمونى
ولستُ وإن عَزَّت علَىَّ بقائل * لهـا بعد صرمٍ يا بثين صِلِينِى

---

(١) اللد بالضم والتشديد : قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين .

وُنَبِّئْتُ قوما فيكِ قد نَذَرُوا دَمِي * فليتَ الرجال المُوعِدين لَقُونى
إذا ما رَأَوْنِى مُقْبِلًا عن جَنابةٍ * يقولونَ مَنْ هذا وقد عَرَفُونى

وله أيضا :

تَنَادى آلُ بُثْنَــةَ بالرَّواح * وقد تَرَكُوا فؤادَك غيرَ صَاحِ
فيالَكَ مَنْظَرًا ومَسِيرَ رَكْبٍ * شَجَانى حين أَمْعَنَ فى الفَيَاحِ
ويالَكِ خُلَّةً ظَفِرتْ بعقلى * كما ظَفِرَ المُقَامِر بالقِــداحِ
أريد صــلاحها وتريد قتلى * فَشَتَّى بين قَتْلِي والصلاحِ
لَعَمْرُ أبيكِ لا تَجِدِين عَهْدى * كَعَهْدِك فى المَوَدّة والسَّماحِ
ولو أرسلْتِ تستهدين نفسى * أتاكِ بها رَسُولُكِ فى سَرَاحِ

وله أيضا :

فإن يَكُ جُثْمانى بأرض ســواكم * فإنّ فؤادى عنــدكِ الدَّهْرَ أجمعُ
إذا قلت هذا حِينَ أسلو وأَجْتَرِى * على صرمِها ظَلَّت لها النَّفْسُ تَشْفَعُ
وإن رُمْتُ نفسى كيف آتى لِصَرْمِها * ورُمْتُ صدودا ظَلَّت العينُ تَدْمَعُ

وله أيضا :

ألم تعلمى ياعــذْبة المـاء أننى * أَظَلُّ إذا لم أُسْقَ ماءكِ صاديا
وما زلتِ بى يا بَثْنُ حتى لَوَ انّنى * من الوجد أَسْتَبْكِى الحمامَ بَكَى ليا
وِدْدتُ على حُبِّ الحيــاةِ لَوَ انّها * يُزَاد لها فى عمرها من حياتيا

وله أيضا :

وقلتُ لهــا آعتَلَلْتِ بغيرِ ذنب * وشَرُّ الناس ذو العلل البخيلُ
فَفَاتِينِى إلى حَكَمٍ من آهلى * وأَهْلِكِ لا يَحِيف ولا يميــل
فقالت أَبْتَغِى حَكَمًا من آهــلى * ولا يَدْرِى بنا الواشى المَحُول
فَوَلَّيْنــا الحُكومةَ ذا سُجوف * أخا دُنْيا له طَرْفٌ كليل

فقلنا ما قَضَيْتَ به رَضِينا * وأنْت بما قَضَيْت به كفيل
قضاؤك نافذ فاحكم علينا * بما تَهْوى ورأيك لا يَفِيل
فقلت له قُتِلْتُ بغير جُرْم * وغِبُّ الظلم مَرْتَعُه وَبِيل
فَسَلْ هَذِى متى تقْضى دُيونى * وهل يقضيك ذو العِلَل المطُول
فقالت إن ذا كَذِبٌ وبُطْلٌ * وشَرٌّ من خُصومَته طويل
أأقْتُلُه ومالى من سلاح * وما بى لو أُقَاتِله حَوِيل (١)
ولم آخُذْ له مالا فَيُلْفَى * له دَيْنٌ عَلَىَّ كما يقول
وعند اميرنا حُكْمٌ وعدل * ورأْىٌ بعد ذلكمُ اصيل
فقال أميرُنا هاتوا شهودا * فقلت شهيدُنا الملك الجليل
فقال يَمينَها وبذاك أقْضِى * وكلُّ قضائه حَسَنٌ جميل
فَبَتَّتْ حَلْفَةً ما لى لديها * نَقِير أَدَّعيه ولا فَتِيل
فقلتُ لها وقد غُلِبَ التَّعَزِّى * أما يُقْضَى لنا يا بَثْن سُولُ
فقالت ثم زَجَّتْ حاجبيها * أطَلْتَ ولستَ فى شىء تُطيل
فلا يَجِدَنَّك الأعداءُ عندى * فَتَثْكَلَنِى وإيّاك الثُّكُول

وله أيضا :

حَلَفْتُ يمينًا يا بُثَينةُ صادقا * فإن كنتُ فيها كاذبا فَعَميتُ
إذا كان جِلْدٌ غير جِلْدِك مَسَّنِى * وباشَرَنِى دُونَ الشِّعار شَرِيتُ (٢)
ولو أن راقِى الموت يَرْقِى جَنازتى * بمَنْطِقِها فى الناطقين حَيِيت

وقال أيضا :

فقد لانَ أيامُ الصِّبا ثُمّ لم يَكَدْ * مِن الدهر شىءٌ بعدهنّ يَلِينُ
ظعائن ما فى قُرْبِهِنّ لذى هَوًى * من الناس إلا شِقْوَةٌ وفُتُونُ

(١) الحويل : القوة والحذق والقدرة على التصرف . (٢) يقال : شرى جلده : خرج عليه الشرى ، وهو بثور صغار حمر حكاكة مكربة تحدث دفعة واحدة غالبا وتشتد ليلا لبخار حارّ يثور فى البدن دفعة .

وواكلْنَه والهَـمَّ ثم تركنَه * وفى القلب مِن وَجْدٍ بهنّ رَهِين
فَوَاحَسْرتا إن حِيلَ بينى وبينها * ويا حِينْ نَفسى كيف فيكِ تَحِين
فَشَيَّب رَوْعاتُ الفِراق مَفـارِقى * وأَنْشَزْن نفسى فوقَ حيثُ تكون
شَهِدْت بأنى لم تَغَـيَّرْ مَوَدَّتى * وأنى بكم حَتَّى المماتِ ضَنِين
وأنّ فؤادِى لا يلين الى هَـوًى * سِـواكِ وإن قالوا بَلَى سَـيَلِين
وإنى لأسْـتَغْشى وما بى نَعْسةٌ * لَعَـلّ لِقـاءً فى المنـام يكون
ولمّا عَلَوْتُ اللَّابتَين تَشَـوَّقت * قلوب الى وادى القرى وعيون
كأنّ دموع العـين يومَ تَحمَّلَتْ * بُثَينةُ يَسْقِيها الرَّشاشَ مَعِين
ورُحْنَ وقد ودَّعْنَ عندى لُبانةً * لِبَثْنةَ سِـرٌّ فى الفـؤاد كَمِين
كَسِرِّ الثَّرَى لم يعـلِم الناسُ أنّه * ثَوَى فى قرار الأرض وهْوَ دَفِين
فإنْ دام هذا الصرمُ منك فإنّنى * لأَغْبَرُ هارى الجانبين رَهِين
لكيما يقول الناس مات ولم أَهُنْ * عليكِ ولم تَنْبَتّ منـكِ قُرون

(ج) الغــــزل الصناعى

كثيّر (١)

قال أبو الفرج قال محمد بن عبد العزيز: ما قَصّد القصيدَ ولا نَعَت الملوكَ مثل كُثيّر. وقال إبراهيم بن سعد : إنى لأَروِى لكثيّر ثلاثين قصيدة او رُقِىَ بها مجنونٌ لأفاق ، وكان بعضُ أصحابِ الحديث يأتونه ، وهو خبيث النفس ، فيسألونه عن شعر كثيّر فتطيبُ نفسُه ويحدّثهم . وقال عبد الله بن أبى عُبَيْدَة : من لم يجمع من شعر كثيّر ثلاثين لاميّةً فلم يجمع شعره . وكان ابن أبى عبيدة يُمْلى شعره بثلاثين دينارا . وسُئِل مُصْعَب : مَنْ أشعر الناس؟ فقال: كثيّر بن أبى جُمْعَة ، وقال : هو أشعر من جرير والفرزدق والرّاعى وعامّتهم ، يعنى الشعراء . ولم يُدرك أحدٌ فى مديح الملوك ما أدرَكَ كثيّر . وقال محمد بن سلّام: كان كثيّر شاعرَ أهل الحجاز ، وهو شاعر فحل ولكنّه منقوصٌ حظُّه بالعراق . وقال يونس النحوىّ : كثيّر أشعر

(١) هو كثير بن عبد الرحمن من خزاعة ، ويعرف بكثير عزة ، نسبة إلى عشيقته التى كان يشبب بها . وكان يدخل على عبد الملك وينشده ، وكان رافضيا شديد التعصب لآل أبى طالب ، وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا ينكره ، فاذا أراد أن يصدقه بشىء حلفه بعلىّ . وكان له صديق اسمه خندق الأسدىّ ، شديد التشيع مثله ، وبلغ من جرأة خندق هذا أنه وقف مرة فى الموسم والناس مزدحمون وقال : «أيها الناس ، إنكم على غير حق ، قد تركتم بيت نبيكم والحق لهم وهم الأئمة» فوثب عليه الناس ، فضربوه ورموه حتى قتلوه ، ودفن خندق بقنونا ، فقال إذ ذاك كثير يرثيه .

أصادرة حجاج كعب ومالك * على كل عجلى ضامر البطن محنق

بمرثيـــة فيها ثناء محبر * لأزهر من أولاد مرة معرق

والقصيدة طويلة . أما معشوقته عزة فهى بنت حميد بن وقاص من ضمرة ، وكانت من أجمل النساء وآدبهن وأعقلهن . ويقال إنه لم يرلها وجها إلا أنه استهيم بها قلبه لما ذكر له عنها . وعاتبه بعض أهلها فقالوا : «قد شهرت نفسك وشهرت صاحبتنا فاكفف نفسك» فقال : «إنى لا أذكرها بما تكرهون» .

واتفق خروجهم الى مصر فى عام الجلاء ، فتبعهم على راحلته فزجروه فأبى إلا أن يلحقهم ، فتربص له بعضهم فى بعض الطريق وقبضوا عليه وجعلوه فى جيفة حمار وربطوها عليه فمر به صديقه خندق فأطلقه وألحقه ببلاده . وكان كثير دميما قليلا أحمر أقيشر عظيم الهامة قبيحا . وأكثر أشعاره فى عزة هذه . توفى سنة ١٠٥ هـ ، وأخباره كثيرة تجدها فى الأغانى (ج ١١ ص ٤٦) و(ج ٨ ص ٢٧) و(ج ٧ ص ٧٨) والشعر والشعراء (ص ٣١٦) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٣) والعقد الفريد (ج ١ ص ١١٥ و٢٠٣) وخزانة الأدب (ج ٢ ص ٣٨١) وله ديوان شرحه أبو عبد الله الرشيدى منه نسخة خطية فى الاسكوريال .

أهل الإسلام، وكان آبن أبي حَفْصَة يعجبه مذهبُه في المديح جدا، ويقول: كان يستقصي المديحَ، وكان فيه مع جودة شعره خَطَل وعُجب. وقال المِسْوَر بن عبد الملك: ما ضَرّ مَنْ يروى شعر كثيّر وجَميل ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان.

وكان قصيرا، قال الوَقّاصي: رأيتُ كثيّرا يطوف بالبيت، فمن حدّثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذِّبه. وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروانَ يقول: طَأْطِيء رأسَك لا يُصِبه السَّقف. وقال كثيّر: في أي شيء أعطى هؤلاء الأحْوَصَ عشرةَ آلاف دينار؟ قالوا: في قوله فيهم:

وما كان مالي طارفًا من تجارةٍ * وما كان ميراثا من المال مُتْلَدَا

ولكن عطايا من إمامٍ مبارَكٍ * مَلَا الأرضَ معروفا وجُودا وسُوددا

فقال كثيّر: إنه لضَرِعٌ قبّحه الله! ألا قال كما قلت:

دع عنك سَلْمَى إذ فات مَطْلبُها * وآذكر خَليلَيْك من بني الحَكَمِ

ما أعطياني ولا سألتُهما * ألّا وإنّي لحَاجزي كَرَمي

إني متى لا يكن نوالُهما * عندي بما قد فعلتُ أحتشم

مُبْدِي الرِّضا عنهما ومنصرِفٌ * عن بعض ما لو فعلتُ لم أُلَمِ

لا أُنْزِرُ[1] النائلَ الخليلَ إذا * ما آعتلّ نَزْر الظُّؤُور لم تَرِم

وطلب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أرْضًا له يقال لها: غُرّب، وقدّم بين يدىْ طلبِه تلك الأبياتَ:

جَزَتْك الجوازى عن صديقك نَضْرة * وأدناك ربّي في الرفيق المقرَّب

فإنك لا يُعطَى عليك ظُلامةً * عدوٌّ ولا تنأى عن المتقرِّب

وإنك ما تمنَعْ فإنك مانِعٌ * بحقّ وما أعطيتَ لم تتعقَّب

فقال له: أترْغَب غُرَّبا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: آكتبوها له، ففعلوا.

(١) يقول: لا ألح عليه بالمسألة، يقال: نزرته أنزره إذا ألحت عليه. والظؤور: العاطفة على أولاد غيرها. ولم ترم: لم ترأم.

ونُسِبَ كثيّر لكثرة نسيبه بعَزّة الضَّمْريّة اليها، وعُرِف بها فقيل : كثير عزة، وهى عزّة ٱبنة حميد بن وقّاص. وكان ٱبتداء عشقه إياها أنه مر بنسوة من بنى ضَمْرة ومعه جَلَب غنم، فأرسلن اليه عزّة وهى صغيرة، فقالت : يقلن لك النسوةُ : بِعْنا كَبْشًا من هذه الغنم وأنْسِئنا بثمنه الى أن ترجع، فأعطاها كبشا، وأعجبته، فلما رجع جاءته امرأة منهن بدراهمه؛ فقال : وأين الصَّبيّة التى أخذت منى الكبش ؟ قالت : وما تصنع بها وهذه دراهمك ؟ قال : لا آخذ دراهمى إلا ممن دفعتُ الكبش اليها، وخرج وهو يقول :

قَضَى كلُّ ذى دين فوفّى غَرِيمَهُ * وعزّةُ ممطولٌ مُعَنًّى غريمُها

فكان أوّل لقائه إياها . ثم قال فيها :

نظرتُ اليها نظرةً وهى عاتِقٌ * على حين أن شَبّت وبان نُهُودُها
وقد دَرَّعوها وهى ذات مُؤَصَّدٍ (١) * مَجُوبٍ ولمّا يلبَس الدِّرْعَ رِيدُها
من الخَفِرات البِيض ودّ جَليسُها * اذا ما ٱنقضت أُحْدُوثةٌ لو تُعِيدها
نَظرتُ اليها نظرة ما يسرُّنى * بها حُمْرُ أنعام البلاد وسُودها
وكنتُ اذا ما جئتُ سُعدى بأرضها * أرى الأرضَ تطْوَى لى ويدنو بعيدها

ثم أحبّته بعد ذلك عزّة أشدّ من حبّه إياها .

قال محمد بن صالح الأسْلَمىّ : دخلت عزّة على عبد الملك بن مروان وقد عَجَزَت؛ فقال لها : أأنتِ عزّة كثيّر؟ فقالت : أنا عزّة بنت حميد؛ قال : أنت التى يقول لك كثيّر:

لعَزة نارٌ ما تبوخ (٢) كأنها * اذا مارَمَقناها من البعد كَوْكَبُ

فما الذى أعجبه منك ؟ قالت : كلا يا أمير المؤمنين، لقد كنتُ فى عهده أحسن من النار فى الليلة القَرَّة . ويُروى أنها قالت له : أعجبَه منى ما أعجب المسلمين منك حين صيّروك خليفةً، وكانت له سِنٌّ سوداء يخفيها، فضحك حتى بدت، فقالت له : هذا الذى أردتُ أن أبديه؛ فقال لها : هل تَرْوِين قوله :

---

(١) مؤصد : ألبس الأصدة (بالضم) وهى قيص صغير يلبس تحت الثوب . والمجوب : القميص ذو الجيب . والرئد (يهمز ولا يهمز) : الترب . (٢) تبوخ : تخمد .

وقد زَعَمتْ أنى تغيّرت بعدها * ومن ذا الذى يا عزّ لا يتغيّر
تغيّر جسمى والخليقةُ كالتى * عهِدتِ ولم يُخبَرْ بسرك مُخْبَر

قالت : لا أروى هذا، ولكنى أروى قولَه :

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضَتْ * من الصُّم لو تمشى بها العُصْمُ زلّت
صَفُوحًا فما تلقاك إلا بخيلةً * فمن مَلّ منها ذلك الوصلَ مَلّت

فأمر بها، فأُدخلت على عَاتكة بنت يزيد، فقالت لها : أرأيت قول كثيّر :

قضى كلّ ذى دَيْن فوفّى غريمَه * وعَزّة مَمْطُول مُعَنّى غريمُها

ما هذا الذى ذكره؟ قالت : قُبْلَة وعدتُه إياها، قالت : أنجزيها وعلىّ إثمُها .

ومما قال فيها

خليلىّ هذا رَسْمُ عزّة فاْعقِلا * قَلُوصَيْكما ثم ٱبكيا حيث حلّت
وما كنتُ أدرى قبل عزّة ما البكا * ولا مُوجِعاتِ القلب حتى تَوَلّت
فقد حَلَفتْ جَهْدًا بما نَحَرتْ له * قريشٌ غداةَ المَأْزِمَيْن (١) وصلّت
أُناديك ما حَجّ الحجيجُ وكبّرت * بِفَيْفَا (٢) غَزالٍ رُفْقَةٌ وأهلّت
وكانت لقَطْعِ الحبل بينى وبينها * كناذرة نَذْرًا وفَتْ فأحلّت
فقلت لها يا عزّ كل مصيبة * اذا وُطّنت يوما لها النفسُ ذلّت
ولم يَلْق إنسانٌ من الحبّ مَيْعةً * تَعُمُّ ولا غَمّاء إلا تجلّت
كأنى أُنادى صخرةً حين أعرضتْ * من الصُّمّ لو تمشى بها العُصْمُ زلّت
صَفُوحا (٣) فما تلقاك إلا بخيلةً * فمن مَلّ منها ذلك الوصلَ مَلّت
أباحت حِمًى لم يَرْعَه الناسُ قبلها * وحلّت تِلاعا لم تكن قَبْلُ حُلّتْ

---

(١) المأزمان : بين عرفة والمزدلفة . (٢) فيفا غزال : بمكة حيث ينزل الناس فيها الى الأبطح . وأناديك : أجالسك، مأخوذ من الندىّ والنادى جميعا وهما المجلس .
(٣) الصفوح : المعرضة .

فليتَ قَلُوصى عند عزّة قُيِّدَت * بحبل ضعيف عُزَّ منها فَضَلّت
وغُودِر فى الحَىّ المقيمين رَحْلُها * وكان لها باغٍ سواى فَبَلّت (١)
وكنت كذى رِجْلَيْن رجلٍ صحيحةٍ * ورجلٍ رَمى فيها الزمانُ فَشَلّت
وكنتُ كذات الظَّلْع لما تحامَلَت * على ظَلْعها بعد العِثار ٱستقلّت
أريد الثَّواءَ عندها وأظنّها * اذا ما أطَلْنا عندها المُكْثَ مَلّت
فما أنْصَفَتْ، أمّا النساء فبَغَّضَتْ * الىّ وأمّا بالنوال فضَنّت
يُكَلّفها الغَيْرانُ شَتْمِى وما بها * هَوانى ولكن للمليك ٱستذلّت
هَنيئًا مريئًا غيرَ داء مُخَامِرٍ * لعزّة من أعراضنا ما ٱستحلّت
فواللهِ ما قارَبْتُ إلّا تَباعَدَتْ * بصُرْمٍ ولا أكثرتُ إلا أقلّت
فإن تكن العُتْبَى (٢) فأهلًا ومرحبا * وحقّت لها العتبى لدينا وقلّت
وإن تكن الأُخْرَى فإن وراءنا * مَنادِحَ (٣) لو سارت بها العيسُ كلّت
خليلىّ إن الحاجبيّة طَلّحَتْ (٤) * قَلُوصَيْكما وناقتى قد أكلّت
فلا يَبْعَدَنْ وصْلٌ لعزّة أصبحت * بعاقبةٍ أسبابُه قد تولّت
أسِيئى بنا أو أحسنى لا مَلُومة * لدينا ولا مَقْلِيّة إن تَقَلّت
ولكن أنيلى وٱذكرى من مودّة * لنا خُلّةً كانت لديكم فَطُلّت (٥)
فإنى وإن صَدّت لَمُثْنٍ وصادقٌ * عليها بما كانت إلينا أزلّت (٦)
فما أنا بالداعى لعزّة بالجوى * ولا شامتٌ إن نَعْلُ عزّة زلّت
فلا يحسب الواشون أنّ صَبابتى * بعزّة كانت غَمْرةً فتجلّت
فأصبحتُ قد أبْلَلْتُ (٧) من دَنَفٍ بها * كما أُدْنِفَتْ هَيْماءُ ثم ٱستبلّت

(١) بلت : ذهبت . (٢) العتبى : الإعتاب ، يقال : عاتبنى فلان فأعتبته اذا نزعت عما عاتبك عليه ، والعتبى الاسم والإعتاب المصدر (٣) المنادح : المفاوز . (٤) الطليح : المعى الذى سقط من الأعياء .
(٥) طلت : هدرت . (٦) أزلت : اصطنعت . (٧) يقال : بل من مرضه وأبل واستبل اذا برأ . والهيماء : التى أصابها داء الهيام ، وهو داء يصيب الإبل من ماء تشربه مستنقعا فتهم فى الأرض لاترعى .

فـــوالله ثم الله ما حَـــلّ قبلهـا * ولا بعــدها من خُلّة حيث حَلّت
وما مَرّ من يوم عليّ كيومها * وإن عظُمت أيامُ أخرى وجَلّت
وأضحت بأعلى شاهقٍ من فـؤاده * فلا القلبُ يَسْلاها ولا العين مَلّت
فياعَجَبـا للقلب كيف آعترافُه (١) * وللنفس لما وُطّنتْ كيف ذَلّت
وإنى وتَهْيَـامى بعـــزّة بعد ما * تخلّيْت مما بيننا وتخلّت
لكالمُرْتجى ظِـــلّ الغَمامة كلما * تَبَــوّأ منها للمَقيــل آضْمَحلّت
كأنى وإياهـا سَحَـابة مُمْحِـل * رَجَاهـا فلما جاوَزْته آستهَلّت
فإن سأل الوَاشُــون فِيم هَجَرْتَهـا * فَقُــل نَفْسُ حُرٍّ سُلّيَتْ فَتَسلّت

قال آبنُ سَلّام : كان كثيّر مدّعيا ولم يكن عاشقا، وكان جميلٌ صادق الصبابة والعشق. وآختبرته عزّة ذات مرّة فوجدت علامة ذلك، وكانت متنقبة فأسفرت، فأبلَس (٢) ولم ينطق وبُهت، فلما مضت أنشأ يقول :

ألا ليتنى قبل الذى قلت شِيبَ لى * من السم خَضْخاض بماء الذّرارح (٣)
فمت ولم تعـلم علىّ خيـانةً * وكم طـالب للربح ليس برابح
أبوءُ بذنبى، إننى قد ظلمتُهـا * وإنى بباقى سرّهـا غير بائح

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز :

وَلِيتَ فلم تَشْـــتُم عَلياً ولم تُخِف * بَرِيّاً ولم تَتْبـع مقـالةَ مُجْــرِم
وقلتَ فصدّقت الذى قلتَ بالذى * فعلتَ فأضحى راضيـاً كلُّ مُسْـلِم
ألا إنمـا يَكْفِى الفتى بعد زَيْغِـه * من الأَوَد البـاقى ثِقَافُ المقـوِّم
لقـد لبستْ لِبْسَ الهَلُوك ثيابهـا * تَرَاءَى لك الدّنيا بكَفٍّ ومِعْصَم
وتُومِضُ أحيـانا بعينٍ مريضـةٍ * وتَبْسِم عن مثـل الجُمـان المُنَظَّم

(١) اعترافه : اصطباره، يقال : نزلت به مصيبة فوجد عروفا، أى صبورا.

(٢) أبلس : انكسر وحزن. (٣) الدراح : دويبـة حمراء منقطة بسواد تطير، وهى من السموم القاتلة، والذرارح جمعه. والخضخاض : نفط أسود لا خثورة فيه تهنأ به الإبل الجرب.

فأعْرَضْتَ عنهــا مُشْمَئِزا كأنمــا * سَــقتْك مَدُوفاً(١) من سِمَام وعَلْقَم
وقد كنتَ من أجبالهــا فى مُمَنَّع * ومن بحــرها فى مُزْبِد الجَوْد مُفْعَم
وما زِلتَ ســبَّاقًا إلى كل غاية * صَعِدتَ بها أعلى البِناء المقــدَّم
فلما أتاك المُلْكُ عَفْــوا ولم يكن * لطالب دنيــا بعـــده من تَكَلُّم
تركت الذى يَفْنَى وإن كان مُونِقًا * وآثرتَ ما يَبْــقى برأى مُصَمِّم
فأضررتَ بالفانى وشمَّــرْتَ للذى * أمامك فى يوم من الهول مظــلم
ومالك أن كنتَ الخليفـــة مانعٌ * سوى الله من مال رغيب ولا دَم
سما لك هــمٌّ فى الفـــؤاد مؤرِّق * صعِدتَ به أعلى المعــالى بِسُــلَّم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها * مُنَــادٍ ينادى من فصــيح وأعجم
يقــول أميرَ المؤمنيـن ظلمتنى * بأخْــذٍ لدينــار وأخــذٍ لدرهم
ولا بسطِ كفٍّ لامرىء ظالم له * ولا السفكِ منه ظالمًا ملءَ مِحْجم
فلو يستطيع المســلمون نفسّــموا * لك الشَّــطرَ من أعمارهم غيرَ نُدَّم
فعِشتَ به ما حَجَّ لله راكــبٌ * مُغِــذٌّ(٢) مُطيفٌ بالمقــام وزمزم
فأرْبِحْ بهــا من صــفقةٍ لِمُبــايع * وأعْظِمْ بهــا أعْظِمْ بهــا ثم أعْظِم

ومن نسيبه بعزّة لمــا أُخْرِجتْ إلى مصر :

لعــزّة من أيام ذى الغصن شاقنى * بِضاحى قرار الرَّوضتيــن رُسُومُ
هى الدار وَحْشًا غير أن قد يَحُلُّها * ويَغْنَى بهــا شخص علىّ كــريم
فمــا بِرسوم الدار لو كنت عالمــا * ولا بالتِّــلاع المُقْــوِيات(٣) أَهِيم
سألت حَكِيما(٤) أين شَطّت بها النّوى * فخــبّرنى ما لا أُحبّ حــكيم
أجَدُّوا فأما آلُ عــزّة غُــدْوَةً * فبــانوا وأما واســط فمقــيم
لعمرى لئن كان الفؤادُ من الهوى * بَغَى ســقمًا إنى إذا لســقيم

(١) مدوفا : مخلوطا ، داف الدواء والزعفران يدوفه : خلطه .   (٢) مغذ : مسرع .
(٣) أقوت الدار : خلت من ساكنها .   (٤) هو أبو السائب بن حكيم .

ومنها :

ولستُ بِرَاءٍ نحــو مصر سحـابةً * وإن بَعُـدَتْ إلا قعدتُ أَشِـيم

فقد يَقْعُد النِّكْس الدَنِيُّ عن الهوى * عَزُوفًا ويصـبو المرءُ وهو كريم

وقال خليــلى ما لهـا إذ لقيتَهـا * غداةَ السّـنا فيهـا عليـك وُجُوم(١)

فقلتُ له إن المودّة بيننـا * على غــير فُحْشٍ والصفاءُ قـديم

وإنى وإن أعرضتُ عنها تجلّدا * على العهـد فيما بيننـا لمقـيم

وإن زمانا فرّق الدهرُ بيننـا * وبينكُم فى صَرْفه لَمَشُــوم

أفى الحقّ هـذا أن قلبَـك سالم * صحيحٌ وقلبى فى هـواكِ سـقيم

وأن بجسـمى منـك داءً مُخَامِرا * وجسـمك موفور عليـك سليم

لَعَـمْرُكِ ما أنصـفتنى فى مودّتى * ولكننى ياعــزّ عنـك حليم

فإما تَرَيْنى اليـــوم أُبدى جَلادةً * فإنى لعـمرى تحت ذاك كليم

ولستُ ٱبنةَ الضَّمْرىّ منـك بناقم * ذنوبَ العــدى إنى إذًا لَظَـلوم

وإنى لذو وجـدٍ اذا عاد وصلُها * وإنى عــلى ربّى إذًا لـكريم

ومن نسيبه بها :

لعـزّة أطلالٌ أبت أن تَكَلَّما * تهيج مغانيهـا الفــؤادَ المُكَلَّما

وكنتُ اذا ما جئتُ أَجْلَلْنَ مجلسى * وأَظْهَـرنَ منى هيبــةً لا تَجَهُّما

يُحاذِرْن منى غَــيْرةً قـد عرفنها * قديمًـا فما يَضْحَكْن إلا تبسُّما

ومنــه :

خليـلىَّ عوجَا منكما ساعــةً معى * على الرَّبْع نقض ساعــةً ونودِّع

ولا تُعجِلانى أن أُلِمَّ بِدِمْنَــة * لعـزّة لاحت لى ببيــداء بَلْقَع

وقولا لقلبٍ قد سَلا راجِعِ الهوى * وللعين أذْرِى من دموعك أودَعِى

فلا عيش إلا مثل عيشٍ مضى لنا * مَصِيفًا أقمنا فيــه من بعد مَرْبَع

(١) وجم : سكت على غيظ .

ومنـــه :

بليـــلى وجارات لليـــلى كأنهـا * نِعَاجُ الفـلا تُحْدَى بهن الأباعرُ
أمُنْقَطِعٌ ياعزّ ما كان بيننـا * وشاجَرنى ياعزّ فيـك الشـواجر
اذا قيـل هـذا بيتُ عزّة قادنى * اليـه الهوى وآستعجلتنى البوادر
أَصُدّ وبى مثل الجنون لكى يَرى * رُواةُ الخَنَا أنى لبيْتـك هـاجِر
ألا ليت حظّى منـك ياعزّ أننى * اذا بِنْتِ باع الصبرَ لى عنك تاجر

ومنـــه :

وما زلتُ من ليلى لَدُنْ طَرّ شاربى * الى اليـوم أُخفى حبّهـا وأُداجنُ
وأحمـل فى ليـلى ضغـائنَ مَعْشَر * وتُحْمَـل فى ليـلى علىّ الضغائن

ومنـــه :

وإنى لأرعى قومَها من جلالها * وانأظهرواغِشًّانصَحْتُلهمجَهْدى
ولو حاربوا قومى لكنتُ لقومها * صديقًا ولمأحملعلىحربها حقدى

ومنـــه :

هـلّا سألتَ مَعَـالمَ الأطلال * بالجزع من حُرُض(١) وهنّ بَوال
سَـقْيًا لعـزّة خُلّةً سَـقْيًا لهـا * اذ نحن بالهَضَبات من أَمْلال(٢)
إذ لا تكلّمنـا وكـان كلامُها * نَفَلًا نؤمّـله من الأنفـال

ومنـــه :

ألا حيّيا ليـلى أجَدّ رَحِيـلِى * وآذنَ أصحـابى غَدًا بقُفُول(٣)
تبـدّت له ليـلى لتُذْهِب عقـله * وشاقتك أمُّ الصَّلْت بعد ذُهُول
أريد لأنْسَى ذِكرَهـا فكأنمـا * تَمَثّـلُ لى ليـلى بكل سبيل
إذا ذُكِرَتْ ليـلى تَغَشَّـتك عَبْرةٌ * تُعَلّ بهـا العَيْنان بعد نُهـول

---

(١) حرض : واد من وادى قناة ، من المدينة على ميلين .

(٢) أراد ملل ، وهو منزل على طريق المدينة من مكة .

(٣) قفول : رجوع .

وكم من خليل قال لى هل سألتَها * فقلت له ليلى أضنّ خليل
وأبعَدَه نَيْلًا وأوْشَكه قِلًى[1] * وإن سُئلتْ عُرْفًا فشرّ مَسُول
حلفتُ بربّ الرّاقِصات الى مِنًى[2] * خلالَ الملا يَمْدُدْن كلّ جَديل
تراها رِفاقًا بينهنّ تَفاوتٌ * ويَمْدُدْن بالإهلال كلَّ أصيل[3]
تَوَاهَقْنَ[4] بالحُجّاج من بطن نَخْلة * ومن عَزْوَرٍ والخَبْتِ خَبْتِ طَفيل[5]
بكلّ حَرام خاشِع مُتَوَجّه * إلى الله يَدْعُوه بكلّ ثَقيل
على كلّ مِذْعانِ[6] الرّواح مُعيدة * ومَخْشِيّة ألا تُعيد هَزيل
شوامذَ[7] قد أرْتَجْنَ دون أجِنّة * وهُوجٍ تَبَارى فى الأزمّة حُول
يمين آمرئٍ مُسْتَغْلِظ من أَلِيّة[8] * ليُكْذِبَ قِيلا قد ألحّ بقِيل
لقد كَذَب الواشون ما بُحتُ عندهم * بليلى ولا أرسلتُهم برسول
فإن جاءك الواشون عنى بكِذْبة * فَرَوْها ولم يأتوا لها بحَويل[9]
فلا تعجلى ياليل أن تتفهّمى * بنصح أتى الواشون أم بحُبول[10]
فإن طِبْتِ نفسا بالعطاء فأجْزِلى * وخيرُ العطا ياليل كلُّ جزيل
وإلا فإجمالٌ إلى فإننى * أُحبّ من الأخلاق كلَّ جميل
وإن تَبْذُلى لى منك يوما مودّة * فَقِدْما تخِذْت القَرْضَ عند بَذُول
وإن تبخلى ياليْل عنى فإننى * تُوَكّلُنى نفسى بكل بخيل
ولستُ براضٍ من خليل بنائلٍ * قليل ولا راضٍ له بقليل

---

(١) أوشكه : أسرعه . والقلى : البغض . (٢) الراقصات : الابل، والملا : الفضاء، والجديل : زمام مجدول أى مضفور . (٣) الأصيل : العشىّ . (٤) تواهقن : تبارين ، وبطن نخلة : بستان بنى عامر ، وعزور : ثنية الجحفة . والخبت ، المطمئن من الأرض . وطفيل : موضع . (٥) الثقيل : الطريق . (٦) المذعان : المذللة . ومعيدة : قد عاودت السفر . (٧) الشوامذ : الشائلات الأذناب ، وأرتجن : أغلقن أرحامهن على أولادهن . والحول : جمع حائل وهى التى لا تلقح .
(٨) الألية : اليمين . (٩) فروها من الفرية ، يقال فرى يفرى . والحويل : المحاولة .
(١٠) الحبول : الدواهى .

وليس خليــلى بالملول ولا الذى * اذا غِبْتُ عنــه باعنى بخليــل

ولكن خليــــلى من يُديم وِصالَه * ويحفظ سرّى عنــد كل دَخيل (١)

ولم أَرَ من ليلى نوالا أَعُدُّه * ألا ربمـا طالبت غيرَ مُنيــل

يلومك فى ليــلى وعَقْلُك عنــدها * رِجالٌ ولم تَذْهَب لهـــم بعقول

يقولون ودِّع عنـك ليلى ولا تَهِمْ * بقاطعة الأقران ذات حَليل

فما نَقَعَتْ نفسى بمـا أمروا به (٢) * ولا عُجْتُ من أقوالهم بفَتِيـل

تَذَكَّرت أترابا (٣) لعــزّة كالمَهَا * حُبِينَ بِليـط ناعم وقَبُـول

وكنتُ اذا لاقيتُهنّ كأننى * مُخَالِطَــةٌ عقـلى سُلافُ شَمـول

تأطَّرْنَ (٤) حتى قلتُ لَسْنَ بوَارحا * رجاءَ الأمانى أن يَقِلْنَ مَقيلى

فأبْدَيْنَ لى من بَيْنِهِن تَجَهُّــما * وأخلفن ظنّى إذ ظننت وقيـلى

فَــلَأْيًا بِلَأْيٍ (٥) ما قَضَيْنَ لُبـانةً * من الدار وآستقللن بَعْــدَ طويل

فلما رأى وآستيقن البينَ صاحبى * دعا دعوةً يا حَبْـتَرَ بْنَ سَلُول

فقلتُ وأسْرَرْتُ النــدامة ليتنى * وكنتُ آمرأً أغْتَشّ كل عَذُول

سلكتُ سبيلَ الرائحات عشــيّةً * مَخَــارِمَ (٦) نِصْــع أو سَلَكن سبيلى

فأسْعدت نفسا بالهوى قبل أن أرى * عَوادِىَ (٧) نأْىٍ بيننـا وشُــغُول

نَدِمْتُ عــلى ما فاتنى يوم بِنْتُمُ * فيـاحَسْرتا ألا يَرَيْنَ عَويلى

كأن دموع العين واهِيــةُ الكُلَى (٨) * وعَتْ ماءَ غَرْب يوم ذاك سَجِيل

---

(١) الدخيل : الذى ينتسب الى قوم وليس منهم . (٢) أى ما رويت . (٣) الأتراب : الأقران . والليط : اللون وهو الجلد أيضا . (٤) تأطرن : تلبثن، وأصل التأطر : التعطف .

(٥) اللأى : البطء . واللبانة : الحاجة .

(٦) المخارم : جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل . ونصع : جبل أسود بين الصفراء وينبع . (٧) العوادى : الصوارف . (٨) الكلى : جمع كلية وهى الرقعة تكون فى أصل عروة المزاد . والغرب : الدلو العظيمة . وسجيل : ضخم .

تكنّفها خُرْقٌ تَوَاكَلْن خَرْزَها * فأبْجَلْنَه والسّير غيرُ بَجِيل (١)
أقيمى فإن الغَوْرَ ياعزّ بعدكم * الىَّ اذا ما بِنْتِ غير جَميل
كفى حَزَنا للعين أن رَدّ طرفَها * لعزّة عِيرٌ آذنَتْ برحيل
وقالوا نَأَتْ فاخْتَرْ من الصّبر والبُكا * فقلت البكا أشفى إذًا لغَليلى
تولّيت محزونا وقلت لصاحبى * أقاتلِى ليلى بغير قَتيل
لعَزّةَ اذ يَحْتَلّ بالخَيْف أهلُها * فأَوْحَش منها الخيفُ بعد حُلول
وبَدّل منها بعد طول إقامة * تَبَعُّثُ نَكْباء العَشىّ جَفُول (٢)
لقد أكثر الواشون فينا وفيكمُ * ومال بنا الواشون كل مَميل
وما زلتُ من ليلى لَدُنْ طَرّ شاربى (٣) * الى اليوم كالمُقصَى بكل سبيل

وله :

إذا ما أرادَ الغزوَ لم تَثْنِ هَمَّه * حَصَان عليها نَظْمُ دُرٍّ يَزِينُها
نَهَتْهُ فلمّا لم تَرَ النّهْىَ عاقه * بَكَتْ فبَكَى مِمّا شَجاها قَطِينُها (٤)
ولم يَثْنِه يومَ الصّبابة بَثُّها * غَداةَ آسْتَهَلّتْ بالدموع شُؤونُها
ولكنْ مَضَى ذو مِرّةٍ مُتثبّتٌ * بِسُنّةِ حقٍّ واضحٍ مُستَبِينُها

وله فى مدح عبد الملك بن مروان :

أحاطتْ يداه بالخلافة بَعْدَ ما * أراد رجالٌ آخرون اغْتيالَها
فما أَسْلَمُوها عَنْوَةً عن مودّة * ولكنْ بِحَدّ المَشْرَفِىِّ استقالَها
وكنتَ إذا نابَتْكَ يومًا مُلِمّةٌ * نَبَلْتَ (٥) لها أبا الوليد نبالَها
سَمَوْتَ فأدركْتَ العَلاءَ وإنّما * يُلَقَّى عَلِيّاتِ العُلا مَنْ سَما لَها
وصَلْتَ فنالت كفُّكَ المجدَ كلّه * ولم تَبْلُغِ الأيدى السَّوَامِى مَصالَها

---

(١) خرق : جمع خرقاء وهى التى لا تحسن العمل . وأبجلنه : أوسعنه . والبجيل الغليظ ؛ يريد أنهن أغلظن الإشفى وأدققن السير . (٢) النكباء : الريح التى تهب بين مهبى ريحين . والجفول : التى تذهب التراب .
(٣) طرور الشارب : نباته . (٤) القطين : الخدم . (٥) نبلته : أعددته .

وله ايضـا :

أهاجَكَ بَرْقٌ آخرَ اللَّيْلِ وَاصِبُ * تَضَمَّنَهُ فَرْشُ الجَبا فالمَسارِبُ

يَجُـرُّ ويَسْــتَأْنِى نَشاصًا(١) كَأَنَّه * بِغَيْقَةَ حادٍ جَلْجَلُ الصَّوْتِ جالِبُ

تَأَلَّقَ واحْمَــومَى وخَــيَّمَ بالرُّبا * أحَمُّ الذُّرى ذو هَيْدَبٍ مُتَراكِبُ

اذا حَرَّكَتْــه الريحُ أَرْزَمَ(٢) جانبٌ * بلا هَزَقٍ(٣) منــه وأَوْمَضَ جانبُ

كما أَوْمَضَتْ بالعَيْنِ ثم تَبَسَّمَتْ * خَرِيعٌ(٤) بدا منهـا جَبِينٌ وحاجب

يمجُّ النَّــدى لا يذكُر السيرَ أهله * ولا يرجع المـاشى به وهو جادِب

وله أيضـا :

سَيَنْهاكَ فى الدنيـا شَـفيقٌ عليكُمُ * اذا غالَهُ من حادثِ الدهرِ غائلُه

ويُخْفِى لكم حُبًّا شــديدا ورَهْبة * وللنــاس أشغال وحُبُّك شاغلُه

وحُبُّك يُنْسِينى مِنَ الشيء فى يَدِى * ويُذْهِلُنى عن كل شيءٍ أزاولُه

كريمٌ يُميت السِّرَّ حتى كانه * اذا اسْتَبْحَثُوه عن حَديثِك جاهلُه

يَوَدّ بأن يُمْسِى سَــقيماً لعلَّها * اذا سَمِعَتْ عنه بشَكْوَى تُراسِــلُه

ويرتاح للمعروف فى طلب العــلا * لتُحْمَــد يوما عند لَيْلَى شمـائلُه

فلو كُنْتُ فى كَبْلٍ(٥) وبُحْتُ بلَوْعَتِى * اليه لأَنتْ رحمــةً لى سَلاسِــلُه

وله أيضـا :

أقول لمـاء العَيْنِ أَمْعِنْ لَعَلَّه * بما لا يُرَى من غائب الوَجْدِ يَشْهَدُ

فلم أدر أن العين قبـــل فراقها * غَداةَ الشَّبا مِنْ لاعجِ الوَجْدِ تجمُــد

ولم أر مثــل العين ضَنَّتْ بمـائها * عَلَيَّ ولا مثلى على الدمع يُحْســد

---

(١) النشاص : السحاب المرتفع بعضه فوق بعض . (٢) أرزم : صوّت . (٣) الهزق : شدة صوت الرعد . (٤) خريع : امرأة حسناء . (٥) كبل : قيد شديد .

وله أيضـا :

تَسْـمَعُ الرعدَ فى المُخِيلةِ منهـا * مِثْلَ هَزْمِ القُرومِ (١) فى الأشْـوَالِ (٢)

وتَرَى البَرْقَ عارِضًا مُسْـتَطِيرا * مَرَحَ البُلْقِ جُلْنَ فى الأجْلال

أو مَصابِيـحَ راهبٍ فى يَفاعٍ * سَـغَّمَ الزَّيْتَ ساطعاتِ الذُّبال

وله أيضـا :

فياعَزَّ إنْ واشٍ وَشَى بِيَ عنـدكم * فلا تُكْرِميـه أن تقولى له أهلا

كما لو وشى واشٍ بعزَّة عنـدنا * لَقُلْنَا تَزَحْزَح لا قريبًـا ولا سَهْلا

---

(١) القروم : الفحول التى أعفيت من الحمل عليها وتركت للفحلة .

(٢) الأشوال : الإبل التى مضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وجف لبنها .

(د) الغـــزل القصصى

١ — أخبـار قيْس بن المـلوّح (المجنون)(١)

قال الأصفهانىّ عن محدِّثيه عن ٱبن دأب قال : قلتُ لرجل من بنى عامر : أنعرف المجنونَ وتَرْوِى من شعره شيئا؟ قال : أوقد فرَغنا من شعر العقلاء حتى نَروِىَ أشعار المجانين! إنهم لكثيرٌ! فقلتُ : ليس هؤلاء أعنِى ، إنمـا أعنِى مجنونَ بنى عامر الشاعرَ الذى قتـله العشقُ ، فقال : هيهات! بنو عامر أغلظُ أكباداً من ذاك ، إنما يكون هذا فى هذه اليمـانيةِ الضِّعافِ قلوبُها ، السخيفةِ عقولها ، الصَّعْلَةِ(٢) رءوسها ، فأما نزَارُ فلا .

وقال الرِّياشىُّ سمعت الأصمعىَّ يقول : رجلان ما عُرِفا فى الدنيـا قطُّ إلا بالاسم : مجنونُ بنى عامر ، وٱبنُ القِرِّيةِ(٣) ، وإنمـا وضعهما الرُّواةُ .

وقال المدائنىّ : المجنونُ المشهورُ بالشعر عنـد الناس صاحبُ لَيْلَى قيس بن مُعَاذ من بنى عامر ، ثم من بنى عُقَيل ، أحد بنى نُمَير بن عامر بن عُقَيل ، قال : ومنهـم رجل آخر يقال له : مَهدِىّ بن المُلَوّح من بنى جَعْدَة بنِ كعب بنِ ربيعةَ بنِ عامر بن صَعْصَعَة .

وقال ٱبن الكلبىّ : حُدِّثتُ أن حديثَ المجنونِ وشـعرَه وضعه فتًى من بنى أميَّةَ كان يهوَى ٱبنَةَ عمٍّ له ، وكان يكرَه أن يظهرَ ما بينه وبينها ، فوضع حديثَ المجنون وقالَ الأشعارَ التى يَرويها الناسُ للمجنون ونَسبها إليه .

---

(١) هو قيس بن الملوّح ، ويقال : ٱبن معاذ بن مزاحم من بنى عامر بن صعصعة ، ويعرف بمجنون ليلى ، نسبة الى ليلى التى كان يتعشقها وهو مشهور ، ولكن بعض أهـل النقد من علمـاء الشعر يرون أن قصته موضوعة ، وضعها رجل من بنى أمية كان يحب ٱبنـة عم له ويكره أن يظهر ما بينـه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التى يظنها الناس للمجنون ، وقد زاد الناس فيه بعدئذ . ويؤيد ذلك أن كثيرا ممـا ينسب اليه من الأشعار رويت لغيره ، فقصته اذا من قبيل الشعر التمثيلى (درام) الذى يراد به تمثيل بعض الفضائل . وهى تمثل العشق مع التعفف ، أو لعل لها أصلا قليلا وزاد فيه الرواة كما فعلوا بقصة عنترة التى تمثل الشجاعة والعشق ، وعلى كل حال فان بين الأشعار المنسوبة الى المجنون طائفة تمثـل شعائر المحبين كما هى على طبيعتها . وأخبار المجنون فى الأغانى (ج ١ ص ١٦٧) والشعر والشعراء (ص ٣٥٥) وخزانة الأدب (ج ٢ ص ١٧٠) . (٢) الصعلة : صغر الرأس . (٣) هو أيوب ابن زيد بن قيس والقرية أمه قتله الحجاج لاتهامه بالميل لابن الأشعث .

وعن حمّاد بن طالوت بن عبّاد : أنه سأل الأصمعيّ عنـه، فقال : لم يكن مجنونا، بل كانت به لُوثةٌ أحدثها العشقُ فيه، كان يهوى آمرأة من قومه يقال لهـا ليلى، وآسمه قيسُ آبن مُعاذ .

وذكر عَمْرو بن أبى عَمْرو الشَّيْبانىّ عن أبيه أنّ آسمه قيسُ بن مُعَاذ .

وذكر شُعَيبُ بن السَّكَن عن يُونُس النَّحْوِىّ أن آسمه قيسُ بن المَلوّح، قال أبو عمرو الشَّيْبانىّ : وحدّثنى رجل من أهـل اليمن أنه رآه ولقِيَه وسأله عن آسمـه ونسبه، فذكر أنه قيسُ بن الملوّح .

وذكر هشام بن محمد الكَلْبىّ أنه قيسُ بن الملوّح، وحدّث أن أباه مات قبل آختلاطه(١)، فعقرَ على قبره ناقتَه وقال فى ذلك :

عقـــرتُ على قـــبر الملوّح ناقتى * بذى السَّرْح(٢) لمـا أن جفاه الأقاربُ
وقلتُ لهـا كُونى عَقِـــيرًا(٣) فإننى * غدًا راجلٌ أمشى وبالأمسِ راكبُ
فـــلا يُبعِدَنْكَ اللهُ يا ابنَ مُزَاحِمٍ * فكلٌّ بكأس الموت لا شكَّ شاربُ

وقال الأصمعىّ : سألتُ أعرابيًّا من بنى عامر بن صَعْصَعَة عن المجنون العامرىّ فقال : عن أيّهم تسألُنى ؟ فقد كان فينا جماعةٌ رُمُوا بالجنون، فعن أيّهم تسألُ ؟ فقلت : عن الذى كان يُشَبِّب بلَيْـلَى، فقال : كلُّهم كان يُشبِّب بليْـلَى، قلتُ : فأنشِدْنى لبعضهم، فأنشَدَنى لمُزَاحِم بن الحارث المجنون :

ألا أيُّهـا القلبُ الذى لَجَّ هائمًا * بلَيْـلى وليـــدًا لم تُقَطَّعْ تمـائمُهْ
أَفِقْ قد أفاق العاشقون وقد أَنَى(٤) * لكَ اليومَ أن تلقَ طبيبا تُلائمُـهْ
أَجِدّكَ لا تُنسِيكَ لَيْـــلَى مُلِمَّـةٌ * تُلِمُّ ولا عهـدٌ يَطُولُ تَقَادُمُــهْ

(١) يقـال : اختلط عقـله اذا تغير وفسـد . (٢) ذو السرح : واد بأرض نجـد .
(٣) عقيرا، أى معقورة، وأصـل العقر : قطع القوائم ثم أطلق بمعنى النحر . قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى أى ينحرونها و يقولون : إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته فنكافئه بمثل صنيعه بعـد وفاته . وانما أطلق العقر على النحر لأنهـم كانوا اذا أرادوا نحر البعير عقروه لئلا يشرد عنـد النحر اھ من اللسان مادة عقر . (٤) أنى : حان وقرب .

قلت : فأنشِدْنى لغيره منهم، فأنشَدَنى لمُعَاذ بن كُليبٍ المجنون :

ألا طَالَما لاعَبْتُ لَيْلَى وقادَنى ✽ إلى اللَّهو قلبٌ للحِسَانِ تَبُوعُ
وطال آمتراءُ[1] الشّوقِ عينىَ كلّما ✽ نَزَفْتُ دُمُوعا تَسْتَجِدُّ دُموعُ
فقد طال إمساكِى على الكَبِدِ التى ✽ بها مِن هَوَى لَيْلَى الغَدَاةَ صُدُوعُ

قلتُ : فأنْشِدْنى لغير هذين ممن ذكرتَ، فأنشَدَنى لمَهْدِىّ بن المُلَوّح :

لو آنّ لك الدنيا وما عُدِلَتْ به ✽ سِوَاهَا وليلى بائنٌ عنكَ بَيْنُها[2]
لكنتَ إلى ليلى فقيرا وإنما ✽ يقود إليها وُدُّ نفسك حَيْنُها

قلتُ له : فأنشِدْنى لمن بقى من هؤلاء ، فقال : حَسبك ! فوالله إنّ فى واحد من هؤلاء لمن يُوزَنُ بعقلائكم اليومَ .

وقال الجاحظُ : ما ترك الناسُ شعرا مجهولَ القائل قِيل فى لَيْلَى إلا نسَبوه إلى المجنون، ولا شعرا هذه سبيلُه قيل فى لُبْنَى إلا نسَبوه إلى قَيْس بن ذَرِيح .

قال أبو الفرج : وأنا أذكر مما وقع إلىّ من أخباره جُمَلًا مستحسنةً، مُتبرّئًا من العُهدة فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورةِ فى أخباره ينسُبُها بعضُ الرُّوَاة إلى غيره وينسُبُها مَنْ حُكِيتْ عنه إليه، وإذا قدّمتُ هذه الشريطةَ برِئتُ من عيبِ طاعنٍ ومُتَتَبّعٍ للعيوب .

أخبرنى بخبره فى شَغَفه بليلى جماعةٌ من الرُّواة ، ونسختُ ما لم أسمعه من الروايات وجمعتُ ذلك فى سِياقة خبره ما آتّسق ولم يختلِف ، فاذا آختلفَ نسَبتُ كلَّ رواية الى راويها .

فممن أخبرنى بخبره أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ وحبيبُ بن نصر المهلّبىّ ، قالا : حدّثنا عمرُ بن شَبّة عن رجاله وإبراهيمُ بن أيّوبَ عن آبن قُتَيبة ، ونسختُ أخبارَه من رواية خالد بن كُلْثُوم وأبى عمرو الشَّيبانىّ وآبن دَأْبٍ وهشام بن محمد الكلبىّ وإسحاق بن الجَصّاص وغيرِهم من الرُّواة .

---

(١) الامتراء : الاستدرار . (٢) بينها هنا معناه وصلها لأنه من أسماء الأضداد ، يطلق على الوصل والفراق .

قال أبو عمرو الشّيبانيّ وأبو عُبَيدةَ : كان المجنون يهوَى ليلى بنتَ مَهْدِى بن سعد بن مهديّ بن ربيعة بن الحَرِيش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتُكنَى أُمَّ مالك ، وهما حينئذ صبيّان ، فعَلِق كلّ واحد منهما صاحبَه وهما يرعَيانِ مواشيَ أهلهما ، فلم يزالا كذلك حتى كَبِرا فحُجِبت عنه ، قال : ويدل على ذلك قولُه :

تَعلّقتُ لَيْلَى وهى ذاتُ ذُؤَابةٍ (١) * ولم يَبْدُ للأتراب من ثَدْيِها حجمُ
صغيرين نرعَى البَهْمَ يا ليتَ أننا * إلى اليوم لم نَكْبَرْ ولم تَكْبَرِ البَهْمُ

وقال ابن الكلبيّ : كان سببُ عشقِ المجنون لَيلى ، أنه أقبل ذاتَ يوم على ناقة له كريمةٍ وعليه حُلّتان من حُلَل الملوك ، فمرّ بامرأة من قومه يقال لها : كريمةُ ، وعندها جماعةُ نسوةٍ يتحدّثنَ ، فيهنّ ليلى ، فأعجبهنّ جمالُه وكمالُه ، فدعَوْنه الى النزول والحديث ، فنزل وجعل يُحدّثهنّ وأمر عبدًا له كان معه فعقرَ لهنّ ناقته ، وظَلّ يحدّثهن بقيةَ يومه ، فبينا هو كذلك ، إذ طلع عليهم فتًى عليه بُرْدةٌ من بُرَدِ الأعراب يقال له : "مُنَازل" يسوق مِعْزَى له ، فلما رأَيْنَه أقبلنَ عليه وتركن المجنونَ ، فغضِب وخرج من عندهنّ وأنشأ يقول :

أأعقرُ مِنْ جرّا (٢) كريمةَ ناقتى * ووَصْلِيَ مَفْروشٌ لِوَصْلِ مُنَازِلِ
إذا جاء قَعْقَعنَ الحُلِيَّ ولم أكُنْ * إذا جئتُ أرضَى صوتَ تلكَ الخلاخِلِ
متى ما انتضَلْنا (٣) بالسِّهام نضَلتُه * وإن نَرْمِ رَشْقًا (٤) عندها فهو ناضِلِى

قال : فلما أصبح لِبس حلّتَه وركب ناقة له أخرى ومضى متعرِّضا لهنّ ، فألفى ليلى قاعدةً بفِناء بيتها وقد عَلِق حبُّه بقلبها وهوِيَتْه ، وعندها جُوَيرِياتٌ يتحدّثن معها ، فوقفَ بهنّ وسلم ، فدعوْنه إلى النزول وقلن له : هل لك فى مُحادثةِ من لا يَشغَلُه عنك مُنازلٌ ولا غيرُه؟ فقال :

---

(١) الذؤابة : شعر الناصية .

(٢) أى من أجل ، يقال : فعلت ذلك من جرّاك أى من أجلك ومما أُنشِدَ على هذا :

أمن جرّا بنى أسد عضبتم * ولو شئتم لكان لكم جوار

(٣) أى ترامينا بالسهام ، ونضلته : غلبته . (٤) الرشق : رمى أهل النضال ما معهم من السهام فى جهة واحدة .

إى لعَمْرِى، فنزل وفعل مثلَ ما فعله بالأمس، فأرادت أن تعلم، هل لها عنده مثلُ ما له عنـدها، فجعلتْ تُعرِض عن حديثه ساعةً بعـد ساعةٍ وتُحدّث غيرَه، وقد كان عَلِق بقلبه مثلُ حبِّها إياه وشغَفَتْه وآستملحها، فبينا هى تُحدِّثه، إذ أقبل فتىً من الحىّ فدعته وسارّته سِرارا طويلا، ثم قالت له: انصرف، ونظرت إلى وجه المجنون قـد تغيّر وآنْتُقِع لونه وشَقّ عليه فعلُها، فأنشأت تقول:

كِلانا مُظهِرٌ للنـاس بغضًا * وكلٌّ عنـد صاحبه مَكِينُ
تُبلِّغُنَـا العيونُ بمـا أردنا * وفى القلبين ثَمَّ هَوًى دَفِين

فلما سمع البيتين شَهَق شَهْقةً شـديدة وأُغمِىَ عليه، فمكث على ذلك ساعةً، ونضَحوا المـاء على وجهه حتى أفاق وتمكّن حبُّ كل واحد منهما فى قلب صاحبـه حتى بلغ منـه كلَّ مَبلغ.

وعن أبى الهيثم العقيلىّ قال: لمـا شُهِر أمرُ المجنون وليلى وتناشد الناسُ شـعرَه فيها، خطَبها وبذَل لها خمسين ناقة حمراء، وخطبها وَرْدُ بن محمد العُقَيلىّ وبذل لها عَشرًا من الإبل وراعِيَها، فقال أهلُها: نحن مخيِّروها بينكما، فمن آختارتْ تزوّجتْه، ودخلوا إليها فقالوا: واللهِ لئن لم تختارِى وَرْدًا لنُمَثِّلَنّ بك، فقال المجنون:

ألا يا لَيـلَ إن مُلِّكْتِ فينا * خِيارَكِ فانظُرِى لِمَنِ الخِيـارُ
ولا تَستَبْدِلى مـنّى دَنيًّـا * ولا بَرَمًا(١) إذا حُثَّ القُتَـارُ(٢)
يُهَرْوِل فى الصـغير إذا رآه * وتُعجِـزُه مُلِمَّـاتٌ كِبَارُ
فمثـلُ تأيُّمٍ منـه نِكاحٌ * ومثـلُ تَمَوُّلٍ منـه آفتقـارُ

فاختارَتْ وَرْدًا فتزوّجتْه على كُرْهٍ منها.

وقال:

أيا وَيْحَ مَنْ أَمْسى تُخُلِّسَ(٣) عقـلُه * فأصـبح مذهوبًا به كلَّ مذهب
خليًّـا من الخـلّانِ إلا مُعَـذِّرًا(٤) * يُضَاحِكُنى مَنْ كان يهـوَى تَجَنُّبِى

(١) البرم: الثقيـل. (٢) القتار: ريح اللحم المشـوى. (٣) تخلس: سلب.
(٤) هو المقصر الذى لا عذر له ولكنه يتكلف العذر، ومنه قوله تعالى: (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم).

إذا ذُكرتْ ليلى عَقلتُ وراجعَتْ * روائعُ[1] عقلى من هَوًى مُتَشَعِّبِ
وقالوا صحيحٌ ما به طيفُ جِنَّةٍ * ولا الهمُّ إلا بافتراء التكذّبِ
وشاهدُ وجْدِى دمعُ عينى وحُبُّها * بَرَى اللحمَ عن أحناءِ[2] عظمى ومنكِبى
تجنَّبتَ ليلى أن يَلِجَّ بكَ الهوى * وهيهاتَ كان الحبُّ قبل التجنُّبِ
ألا إنّما غادَرْتِ يا أمّ مالكٍ * صَدًى[3] أينما تَذْهبْ به الريحُ يَذْهبِ
فلم أرَ ليلَى بعد مَوْقِفِ ساعةٍ * بخَيْفِ مِنًى تَرمى جِمارَ المحصَّبِ
ويُبدِى الحصَى منها إذا قذفتْ به * من البُرْدِ أطرافَ البَنانِ المُخضَّبِ
فأصبحتُ من لَيْلَى الغَداةَ كناظرٍ * مع الصبح فى أعقابِ نجمٍ مُغرِّبِ

قال أبو الفرج : أنشدنى الأخْفَش عن أبى سعيد السُّكرىّ عن محمد بن حبيب للمجنون :

فواللهِ ثم اللهِ إنِّى لدائبٌ * أُفَكِّر ما ذنبِى إليها وأعجَبُ
وواللهِ ما أدرِى عَلامَ قتلتِنِى * وأىَّ أمورى فيكِ ياليلَ أركبُ
أأقطَعُ حبلَ الوصلِ فالموتُ دونه * أمَ اَشربُ رَنْقا منكمُ ليس يُشْرَبُ
أمَ اَهرُبُ حتى لا أرَى لى مجاورا * أمَ اَصنعُ ماذا أم أبوح فأُغلَبُ
فأيّهما ياليلَ ما ترتضِينَه * فإنّى لمظلومٌ وإنّى لَمُعْتِبُ

وقال :

عَرَضتُ على قلبى العَزاءَ فقال لى * من الآنَ فَايْأَسْ لا أعزَّكَ مِن صَبْرِ
إذا بان مَنْ تهوَى وأصبح نائيًا * فلا شىءَ أجدَى من حُلُولكَ فى القبرِ

(١) الروائع : جمع رائعة ، أى مرتاعة . (٢) الأحناء : جمع حنو وهو كل شىء فيه أعوجاج كعظم الحجاج (العظم الذى ينبت عليه الحاجب) واللحى والضلع . (٣) الصدى : الجسد من الآدمىّ بعد موته ، و يطلق على الرجل النحيف الجسد ، كما أنه يطلق على الصوت الذى يسمعه المصوّت عقب صياحه راجعا اليه من نحو الجبل والبناء المرتفع .

وداعٍ دعا إذ نحن بالخَيْف مِن مِنًى * فهيَّـــجَ أطرابَ(١) الفؤاد وما يدرِى

دعا باسم ليـــلى غيرَها فكأنَّما * أطارَ بليلى طائرا كان فى صـــدرِى

دعا باسم ليـــلى ضلَّل اللهُ ســـعيَه * وليـــلَى بأرضٍ عنـه نازحةٍ قفر

وقال :

أيا جبَـــلَىْ نعمانَ باللهِ خلِّيَا * سبيل الصَّبا يخلُصْ إلىّ نسيمُها

أجدْ بردَها أو تَشْفِ منّى حرارةً * على كبدٍ لم يبقَ إلا صَميمُها(٢)

فانّ الصَّبا ريحٌ إذا ما تنسَّمَتْ * على نَفْسِ محزونٍ تجلَّتْ هُمُومُها

وقال :

أيا حَرَجَاتِ(٣) الحىّ حيث تحمّلوا * بذى سَـــلَمٍ(٤) لا جادَكُنّ رَبيعُ

وخَيماتُكِ اللاتى بمُنعَرَجِ اللِّوَى * بَلِينَ بِلًى لم تَبلَهنّ رُبُـــوعُ

نَدمتُ على ما كان منّى ندامةً * كما يَندَمُ المغبونُ حين يبيعُ

فَقَدتُكِ من نفسٍ شَعَاعٍ(٥) فإنّنى * نهيتُكِ عن هـــذا وأنتِ جميعُ(٦)

فقرّبتِ لى غيرَ القريب وأشرفتْ(٧) * إليـــكِ ثنَـــايا(٨) ما لهنّ طُلُوعُ

وله :

يا صاحبى ألمَّــا بى بمـــنزلةٍ * قد مرّ حينٌ عليهـــا أيَّمَـــا حينِ

إنى أرى رَجَعاتِ الحبّ تقتُلُنى * وكان فى بَدْئِها ما كان يكفِينى

لا خيرَ فى الحبّ ليستْ فيه قارعةٌ * كأنّ صاحبَها فى نَزْعِ مَوتونِ(٩)

---

(١) الأطراب : جمع طرب وهو خفة تعترى الشخص من شدّة الفرح أو الحزن . (٢) صميمها : أصلها .
(٣) الحرجات : جمع حرجة وهى الغيضة ، وسميت بذلك لضيقها ، وقيل : الشـــجر الملتف ، وهى أيضا الشجرة تكون بين الأشجار لا تصـــل اليها الآكلة وهى ما رعى من المـــال . (٤) ذو ســـلم : موضع بالحجـــاز .
(٥) يقال : نفس شـــعاع اذا انتشر رأيها فلم تتجه لأمر جزم . (٦) الجميع : ضـــدّ المتفرّق .
(٧) أشرفت : ظهرت وارتفعت . (٨) الثنايا : جمع ثنية وهى الطريقة فى الجبل ، وقيل : هى العقبة ، وقيل : هى الطريق العالى فيه ، يريد أن الوصول الى ليلى صعب لا يستطيعه . (٩) الموتون : المضروب على الوتين ، وهو عرق معلق بنياط القلب .

إن قال عُذَّالُهُ مَهْــلًا فَلَانَ لهم * قال الهوى غيرُ هذا القولِ يَعْنِينِي
أَلْقَى من اليأس تاراتٍ فتقتُلُنِي * ولِلــرجاء بشاشاتٌ فتُحْيِينِي

وله :

أَمُسْتَقْبِلِي نَفْحُ الصَّبَا ثم شَائِقِي * بِبَرْدِ ثَنَـايا أُمّ حَسَّانَ شائِقِ
كأنَّ على أنيابها الخمرَ شَجَّهَا (١) * بماء الندى من آخرِ الليلِ عَاتِقُ (٢)
وما شِمْتُــه إلا بعيــنِي تَفَرُّسًا * كما شِيم فى أعلى السَّحابةِ بَارِقُ

وروى الأصمعيّ له قولَه :

أخذَتْ محاسنَ كلِّ ما * ضَنَّتْ محاسـنُه بحُسْنِهْ
كاد الغـــزالُ يكونُها * لولا الشَّوَى ونُشُوزُ قَرْنِهْ

قال : وهو القائل :

ولم أرَ ليلَى بعــــد موقفِ ساعةٍ * بِخَيْفِ مِنًى ترمِى جِمــارَ المحصَّبِ
ويُبْدِى الحصى منها إذا قَذَفَتْ به * من الــبُرْدِ أطرافَ البَنَانِ المخضَّبِ
فأصبحتُ مِن لَيْلَى الغــداةَ كناظرٍ * مع الصبح فى أعقابِ نجمٍ مُغَرِّبِ
ألا إنَّمـا غادَرْتِ يا أمَّ مالكٍ * صَدًى أينما تَذْهبْ به الريحُ يذهَبِ

وقال :

يقول أناسٌ عَلَّ مجنونَ عامرٍ * يرومُ سُـــلُوًّا قلتُ أنَّى لِمَـا بِيَا
وقد لامنِي فى حُبِّ ليــلى أقاربى * أخى وابنُ عمّى وابنُ خالِي وخالِيَـا
يقولون ليلَى أهلُ بيتِ عَدَاوةٍ * بنفسىَ ليـلى مِن عَدُوٍّ ومالِيَـا
ولو كان فى ليلى شَذًا من خصومةٍ * للَوَّيتُ أعنـاقَ المَطِىّ المَـلاوِيَا (٣)

---

(١) شجها : مزجها .   (٢) العاتق : البكر التى لم تبن عن أهلها ، والظاهر أنها ليست مرادة هنا وأن كلمة «عاتق» محرّفة عن «غابق» وهو الساقى فى الغبوق أى العشىّ .

(٣) الملاوى : جمع ملوى وهو مصدر ميمىّ من لوى بمعنى خاف .

وقال :

ألا ما لِليلَى لا تُرَى عند مَضْجَعِى * بليلٍ ولا يَجْرِى بذلكَ طائرُ
بَلَى إنّ عُجْمَ الطيرِ تجرِى إذا جَرَتْ * بليلَى ولكن ليس للطيرِ زاجرُ
أزالَتْ عن العهد الذى كان بيننا * بِذِى الأَثْلِ أم قد غيّرتْها المقادرُ
فواللهِ مافى القربِ لى منكِ راحةٌ * ولا البعدُ يُسْلِينِى ولا أنا صابرُ
وواللهِ ما أدرِى بأيّةِ حِيلَةٍ * وأىّ مَرَامٍ أو خِطَارٍ (١) أُخاطِرُ
وتاللهِ إنّ الدهرَ فى ذاتِ بيننا * علىّ لها فى كلّ حالٍ لجائرُ
فلوكنت إذ أزمعتِ هجرِى تركتِنِى * جميعَ (٢) القُوَى والعقلُ منّى وافرُ
ولكنّ أيامِى بِحَقْلِ (٣) عُنَيزةٍ * وبالرَّضْم أيامٌ جناها التّجاوُرُ
وقد أصبح الوُدُّ الذى كان بيننا * أمانِىَّ نفسٍ والمؤمّلُ حائرُ
لَعَمْرِى لقد رنّقتِ (٤) ياأمّ مالكٍ * حياتِى وساقَتْنِى إليكِ المقادرُ

وقال :

يا لَلرِّجالِ لهمٍّ بات يَعْرُونِى * مُستطْرَفٍ وقديمٍ كان يَعْنِينِى
على غَرِيمٍ مَلِيءٍ (٥) غيرِ ذِى عُدُمٍ (٦) * يأبَى فيمْطُلُنِى دَيْنِى ويَلْوِينِى (٧)
لا يذكُرُ البعضَ مِن دَيْنِى فَيُنكِرَه * ولا يُحَدِّثنِى أنْ سوف يَقْضِينِى
وما كَشُكْرِىَ شُكْرٌ لو يُوافِقُنِى * ولا مُنًى كمُنَاهُ إذ يُمَنِّينِى

---

(١) الخطار : مصدر من خاطر بمعنى راهن .

(٢) جميع : مجتمع . (٣) الحقل : المزرعة ويطلق على الموضع البكر الذى لم يزرع فيه قط . وعنيزة : موضع بين البصرة ومكة . والرضم : موضع على ستة أميال من زُبَالة ، وزبالة : منزل معروف بطريق مكة من الكوفة . (٤) رنقت : كدرت ، والترنيق كما يطلق على التكدير يطلق على ضدّه الذى هو التصفية .

(٥) ملىء بالهمز أى ثقة غنىّ . قال صاحب اللسان : وقد أولع فيه الناس بترك الهمز وتشديد الياء .

(٦) عدم أى فقر ومثله العدم بضم العين وسكون الدال . قال صاحب اللسان : اذا ضممت أوّله خففت فقلت : العدم واذا فتحت أوّله ثقلت فقلت : العدم . (٧) يلوينى : يمطلنى ، يقال : لواه دينه وبدينه : مطله .

أطعتُه وعَصَيتُ النـاسَ كُلَّهُـمُ * فى أمره ثم يأبَى فهـو يَعْصِينِى
خَيرِى لمن يبتغِى خيرى ويأمُلُه * من دون شَرّى وشَرِّى غيرُ مأمونِ
وما أُشارِكُ فى رأيِى أخا ضَعَفٍ (١) * ولا أقولُ أخى مَنْ لا يُوَاتِينِى (٢)

وله :

ألا أيُّها البيتُ الذى لا أَزُوره * وإن حَلّه شخصٌ إلىّ حبيبُ
هجرتُكَ إشفاقا وزرتُك خائفا * وفيك علىّ الدهـرَ منكَ رقيبُ
سأستعتِبُ الأيامَ فيـكَ لعلّهـا * بيومِ سُرورٍ فى الزمانِ تؤوبُ

وبلغ المجنون أن أهل ليلى يريدون نقلَها إلى الثَّقفِىّ فقال :

كأنّ القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغدَى * بلَيْـلَى العـامريّةِ أو يُرَاحُ
قَطَـاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ * تُجاذِبُه وقـد عَلِقَ الجَنـاحُ

فلما نُقلتْ ليلى إلى الثَّقفِىّ قال :

طربتَ وشاقتكَ الحُمُولُ (٣) الدّوافعُ * غَداة دعا بالبين أسْفَعُ (٤) نازعُ
شَحَا (٥) فَاهُ نعباً (٦) بالفراق كأنه * حَرِيبٌ (٧) سَلِيبٌ نازحُ الدار جازعُ
فقلتُ ألا قد بيّن (٨) الأمر فانصرِف * فقـد راعَنا بالبينِ قبلكَ رائعُ
سُقِيتَ سُمُـوما من غـراب فإنّنى * تبيّنتُ ما خـبَّرتَ مـذ أنتَ واقعُ

(١) الضعف هكذا بالتحريك : لغـة فى الضعف بالفتح والسكون . ويستعمل فى ضعف الرأى والعقل، وأنشد عليه ابن الأعرابىّ هذا البيت . ويستعمل فى ضعف الجسم وأنشد عليه :

ومن يلق خيرا يغمز الدهر عظمه * على ضعف من حاله وفتـور

(٢) يواتينى : يساعدنى .

(٣) الحمول فى الأصل : الهوادج واحدها حمل ثم اتّسع فيها وصارت تستعمل فى الإبل التى عليها الهوادج . والدوافع : المندفعة فى السير . (٤) كذا فى أغلب النسخ وتزيين الأسواق . وفى ب ، سـ : «أسحم» والأسفع والأسحم معناهما واحد وهو الأسود . والنازع : المسرع . والمراد بالأسفع النازع «الغراب» .

(٥) شحافاه يشحوه ويشحاه : فتحه . (٦) نعبا : صياحا وتصويتا . (٧) الحريب : من سلب حرِيبته وهى ماله الذى يقوم به أمره . (٨) بين بمعنى تبين، ومنه المثل: «قد بين الصبح لذى عينين» .

ألم تَـــرَ أنّى لا مُحِبٌّ ألومُـــه * ولا بِبـــديلٍ بعـــدهم أنا قانع
ألم تر دارَ الحىّ فى رونقِ الضحى * بحيثُ انحنتْ للهَضْبتين الأَجارعُ (١)
وقد يتناءى الإِلْفُ من بعد أُلْفةٍ * ويصدَعُ ما بين الخليطين صادِعُ
وكم من هوى أو جِيرةٍ قـد أَلِفْتُهم (٢) * زمانا فـلم يمنعهمُ البينَ مانِـعُ
كأنّى غداةَ البيــنِ ميْتٌ جوبةٍ (٣) * أخو ظمإ سُـدّتْ عليـه المشارعُ
تَخَلّس (٤) مــن أوشالِ (٥) ماءٍ صُبَابةً * فـلا الشُّربُ مبذولٌ ولا هو ناقِعُ (٦)
وبيضٍ تَطَلّى بالعَبِـــير كأنهـا * نِعاجُ المَـلا (٧) جِيبَتْ (٨) عليها البراقعُ
تحمّلن من وادى الأراكِ (٩) فأومَضَت * لهنّ بأطراف العيونـــِ المدامعُ
فما رِمْنَ (١٠) ربعَ الدار حتى تشابهتْ * هجائنُها (١١) والجُونُ منها الخواضعُ (١٢)
وحتى حملنَ الحُورَ (١٣) من كلّ جانب * وخاضت سُدُولَ (١٤) الرَّقْمِ منها الأكارعُ (١٥)

(١) الهضبتان : مثنى هضبة وهى الرابية أو الجبل المنبسط على الأرض أو الجبل المخلوق مـن صخرة واحدة ، والأجارع : جمـع أجرع ، والأجرع كالجرعاء : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل أو الرملة السهلة المستوية أو القطعة من الرمل لاتنبت شيئا (انظر اللسان فى مادتى هضب وجرع) . (٢) الهوى بمعنى المهوىّ وهو المحبوب ، ومنـه قول الشاعر :

هَوَايَ مع الركب اليَمانين مُصْعِدٌ * جنيبٌ وجُثْمانى بمكة مُوثَقُ

(٣) الجـوبة : فضاء أملس سهل بين أرضين . (٤) تخلس الشىء : انتهبه وأخذه خلسـة . (٥) الأوشال : جمع وشل وهو المـاء القليل . والصبابة : بقية المـاء تبقى فى الاناء والسقاء . (٦) هو من نقع بمعنى روى . (٧) الملا : الصحراء . (٨) أى قطعت . (٩) هو واد قرب مكة . (١٠) معناه ما برحن . يقال : ما رام المكان أى ما برحه . (١١) الهجائن : الابل البيضاء الكريمة واحدها هجان . والجون : جمع جون بفتح الجيم وهو الأسود المشرب بحمرة ، و يطلق على الأسود اليحمومى وعلى الأبيض فهو من أسماء الأضداد . (١٢) الخواضع : الابل وإنما يقال لهـا خواضع لأنها تخضع أعناقها حين يجدّ بها السير ، قال جرير :

ولقد ذكرتك والمطىّ خواضع * وكأنهنّ قطَا فَـــلاة مُجْهَل

(١٣) الحور : جمع حوراء وهى البيضاء أو مــن فى عينها حور وهو شدّة سواد المقلة فى شـدّة بياضها . (١٤) السدول : جمع سديل وهو ما يجلل به الهودج من الثياب . (١٥) الأكارع : جمع أكرع والأكرع جمع كراع ، أو الأكارع كما يقول سيبويه جمع كراع على غير قيـاس . والكراع من الانسان : ما دون الركبة الى الكعب ، ومن الدابة قوائمها مطلقا .

فلما استوتْ تحتَ الخدورِ وقد جرى * عَبِيرٌ ومسكٌ بالعرانين رَادِعُ (١)
أَشَرْنَ بأن حُثُّوا الجمالَ فقد بدا * من الصيف يومٌ لافحُ الحرِّ ماتِعُ (٢)
فلمّا لحِقْنا بالحُمُول تباشَرَتْ * بنا مُقْصِرَاتٌ (٣) غاب عنها المطامِعُ
يُعَرِّضنَ بالدَّلِّ المَلِيح وإن يُرِدْ * جَنَاهُنَّ مشغوفٌ فهنَّ مَوَانِعُ
فقلتُ لأصحابي ودمعِيَ مُسْبَلٌ * وقد صَدَعَ الشملَ المشتَّتَ صَادِعُ
أليلَى بأبواب الخُدورِ تعرّضَتْ * لِعَيْنِيَ أم قرنٌ من الشمس طالِعُ

وروى أنّ أبا المجنون حجّ به ليدعوَ الله عزّ وجلّ فى الموقف أن يُعافيَه، فسار ومعه ٱبنُ عمه زيادُ بنُ كعب بن مُزَاحِم، فمرّ بحمامة تدعو (٤) على أَيْكة فوقف يبكى، فقال له زياد: أىّ شيء هذا؟ ما يُبْكِيك أيضا؟ سر بنا نلحق الرُّفقة، فقال:

أأن هَتفَتْ يوما بوادٍ حمامةٌ * بكيتَ ولم يَعْذِرك بالجهل عاذِرُ
دعَتْ ساقَ حُرٍّ (٥) بعد ما عَلَت الضُّحَى * فهاج لكَ الأحزانَ أن ناحَ طائرُ
تُغنِّى الضُّحَى والصُّبحَ فى مُرْجَحِنَّةٍ (٦) * كثَافِ الأَعالِى تحتها الماءُ حائرُ (٧)
كأن لم يكن بالغَيْل (٨) أو بطنِ أَيْكَةٍ (٩) * أو الجِزْعِ (١٠) من تولِ الأَشَاءةِ (١١) حاضرُ

(١) المراد بالرادع هنا المردوع به الجسد أو الثوب وهو العبير والمسك . وأصل الردع اللطخ بالطيب والزعفران، يقال : قميص رادع ومردوع أى فيه أثر الطيب والزعفران، وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما : « لم ينه عن شيء من الأدوية الا عن المزعفرة التى تَردع الجلد» أى تنفض صبغها عليه . (٢) الماتع : الطويل . (٣) مقصرات : جمع مقصِرة أى داخلة فى القصر وهو العشىّ، يقال : أتيته قصرا أى عشيا، وأقصرنا أى دخلنا فى قصر العشى، كما تقول أمسينا من المساء من أعصرتِ الجارية اذا بلغت عصر شبابها، أو من أعصرت أى دخلت فى العصر (انظر لسان العرب مادة قصر) .

(٤) تدعو : تصوّت وتنوح . (٥) ساق حرّ : أصله صوت القمارى ويطلق على الذكر من القمارى تسمية له باسم صوته وهو المراد هنا (انظر اللسان مادتى سوق وحرّ) . (٦) المرجحنة : المهتزة المتمايلة . (٧) حائر : متردّد . (٨) الغيل : اسم لعدّة مواضع والظاهر أنّ المراد هنا واد لبنى جعدة وهم قوم المجنون . (٩) الأيكة : الغيضة الملتفة الأشجار ولم نجد فى الكتب التى بأيدينا « أيكة » ولا « بطن أيكة » اسما لموضع خاص كما هو المناسب للسياق . (١٠) الجزع : منعطف الوادى ولعله هنا اسم لموضع خاص وقد يكون جزع بنى حماز وهو واد باليمامة . (١١) الأشاءة : موضع باليمامة فيه نخيل . ولعل كلمة « تول » محرّفة عن « تال » والتال : صغار النخل واحدته تالة .

يقولُ زيادٌ إذ رأى الحيَّ هَجَّرُوا[(١)] * أرَى الحيَّ قد ساروا فهل أنتَ سائرُ
وإنّى وإن غَالَ[(٢)] التقادُمُ حاجتى * مُلِمٌّ على أوطانِ لَيْلَى فَنَاظِرُ

كان المجنونُ وليلَى وهما صَبيّانِ يَرعَيانِ غنما لأهلهما عند جبلٍ فى بلادهما يقال له التوباد[(٣)]، فلما ذهب عقله وتوحّش، كان يجيء إلى ذلك الجبلِ فيقيمُ به، فإذا تذكر أيام كان يُطيف هو وليلى به جزِع جزعا شديدا وٱستوحش فهام على وجهه حتى يأتى نواحى الشأم، فإذا ثاب إليه عقله رأى بلدا لا يعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم : بأبى أنتم، أين التوباد من أرض بنى عامر ؟ فيقال له : وأين أنت من أرض بنى عامر ! أنت بالشأم عليك بنجم كذا فأمَّه، فيمضى على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن، فيرى بلادا يُنكرها وقوما لا يعرفهم فيسألهم عن التوباد وأرض بنى عامر، فيقولون : وأين أنت من أرض بنى عامر ! عليك بنجم كذا وكذا ، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوبادِ ، فإذا رآه قال فى ذلك :

وأجْهَشْتُ[(٤)] للتَّوبادِ حين رأيتُه * وكَبَّرَ للرحمن حينَ رآنِى
وأذرَيتُ دمعَ العين لمّا عرفتُه * ونادى بأعلى صوته فدعانِى
فقلتُ له قد كان حولكَ جيرةٌ * وعهدى بذاكَ الصّرم منذ زمانِ
فقال مَضَوْا وٱستودَعُونِى بلادَهم * ومَنْ ذا الذى يبقَى على الحدَثانِ
وإنى لأبكِى اليومَ من حَذَرى غدًا * فِراقَكَ والحيَّانِ مُجْتَمعَانِ
سِجَالًا وتَهْتانًا[(٥)] ووَبْلًا وديمَةً * وسحًّا وتَسْجَامًا[(٦)] الى هَمَلَانِ[(٧)]

---

(١) هجروا : ساروا فى وقت الهاجرة . (٢) غال الشىء : ذهب به . (٣) التوباد (بالدال المهملة) وهو الموافق لما فى معجم ما ٱستعجم للبكرى إذ قال فى ضبطه : هو بفتح أوّله و باء معجمة بواحدة ودال مهملة وأنشد عليه : * وأجهشت للتوباد حين رأيته * البيت .
وضبطه ياقوت بالذال المعجمة فقال فى معجمه : « توباذ » بالفتح ثم السكون والباء موحدة وآخره ذال معجمة : جبل بنجد . (٤) أجهشت : تهيأت للبكاء . (٥) يقال : هتنت السماء تهتن هتنا وتهتانا أى صبت . (٦) يقال : سجمت السحابة مطرها تسجيما وتسجاما اذا صبته . (٧) الهملان : فيض العين بالدموع .

وكان المجنون يسير مع أصحابه فسمع صائحا يصيح : يا ليلى فى ليلة ظلماء أو توهم ذلك ، فقال لبعض من معه : أما تسمع هذا الصوت؟ فقال : ما سمعت شيئا ، قال : بلى ، والله هاتف يهتف بليلى ، ثم أنشأ يقول :

أقولُ لأدنَى صاحبَيَّ كُلَيمةً * أُسِرَّتْ من الأقصى أجِبْ ذا المناديَا

إذا سِرْتُ فى الأرض الفضاءِ رأيتُنِى * أُصانِعُ رَحْلِى(١) أن يَميلَ حِيَالِيَا

يمينًا إذا كانت يمينًا وإن تكن * شِمالًا يُنازِعْنِى الهوَى عن شِمَالِيَا

خطب ليلَى صاحبةَ المجنون جماعةٌ من قومها فكرِهَتْهم ، فخطبها رجلٌ من ثقيف مُوسِرٌ فرضيته ، وكان جميلا فتزوّجها وخرج بها ، فقال المجنونُ فى ذلك :

ألا إنّ ليلى كالمَنِيحةِ(٢) أصبحَتْ * تَقَطَّعُ إلا من ثقيفٍ حِبالُهَا

فقد حبسوها مَحْبَسَ البُدْنِ وابتغَى * بها الربحَ أقوامٌ تَساحَتْ(٣) مالُهَا

خليلَىَّ هل مِنْ حيلةٍ تعلمانِها * يُدَنِّى لنا تكليمَ ليلَى احتيالُهَا

فإن أنتما لم تعْلَمَاها فلستُما * بأوّلِ باغٍ حاجةً لا ينالُهَا

كأنّ مع الركب الذين اغتدَوْا بها * غمامةَ صيفٍ زعزعَتْها شَمالُهَا

نظرتُ بمُفْضَى سَيْلِ جَوْشَنَ(٤) إذ غَدَوْا * تَخُبُّ بأطرافِ المَخَارِمِ(٥) آلُهَا

بِشافيةِ الأحزانِ هيَّج شوقَها * مُجَامَعَةُ الأُلَّافِ ثم زِيَالُهَا

إذا التفتتْ من خَلْفِها وهى تَغْتَلِى * بها العيسُ جَلَّى عَبْرَةَ العينِ حَالُهَا

(١) الرحل : ما يوضع على البعير للركوب ثم يعبر به عن البعير .

(٢) المنيحة فى الأصل : الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلا يشرب لبنها ثم يردّها اذا انقطع اللبن ، ثم كثر استعمالها فى كل موهوب . (٣) يقال أسحت ماله : استأصله وأفسده ، ومال مسحوت ومسحت أى مذهب . وأسحتت تجارته : خبثت وحرمت ، ولم نجد فى كتب اللغة « تساحت » على وزن تفاعل من هذه المادة

(٤) لم نجد فى بلاد العرب ما يسمى جوشن الا جبلا فى غربى حلب . (٥) المخارم (بالراء المهملة) : جمع مخرم وهو الطريق فى الجبل أو الرمل .

وله :

وأَحْبِسُ عنكِ النفسَ والنفسُ صَبّةٌ * بذِكْراكِ والْمَمْشَى إليـــكِ قـريبُ
مخافةَ أنْ تسعى الوُشَاةُ بظنّـةٍ * وأَحْرُسُكم أن يسـتريبَ مُريبُ
فقد جعلتُ نفسي ـ وأنتِ اجترمتِه * وكنتِ أعزَّ الناسِ ـ عنكِ تَطِيبُ
فلو شئتِ لم أَغضَبْ عليكِ ولم يزل * لكِ الدهرَ منّى ما حييتُ نصيبُ
أمَا والذى يَبْـلُو السرائرَ كلَّهـا * ويعـلَمُ ما تُبْـدِى به وتَغِيبُ
لقد كنتِ ممن تَصْطَفِى النفسُ خُلّةً * لهـا دون خُلّانِ الصَّـفاء حُجُوبُ

---

٢ — قيس بن ذَرِيح (١)

من شعر قيس :

يقولون لُبْنَى فتنـةٌ كنت قبلهـا * بخـيرٍ فلا تنـدَمْ عليهـا وطَلِّقِ
فطاوعتُ أعدائى وعاصَيْتُ ناصحى * وأقـررتُ عينَ الشامت المتخلّقِ
وَدِدْتُ وبيتِ الله أنى عَصَـيتُهم * وحُمِّلتُ فى رِضْوانهـا كلَّ مُوبِقِ
وكُلِّفتُ خوضَ البحر والبحرُ زاخرٌ * أبيتُ على أثبـاجِ مَوجٍ مغـرِّقِ

(١) هو قيس بن ذريح الكنانى من ليث بن بكر كان منزل قومه بظاهر المدينـة . مر لبعض حاجته بخيام بنى كعب بن خزاعة فرأى لبنى بنت الحباب الكعبية ، وكانت فتاة جميلة ، فعلقها ، فطلبها من أبيه فمنعه إياها لمكانه من الثروة ، وكان يريد أن يزوجه من بنات عمومته حتى يحفظ تراثه فى أهله ، فطار لب قيس وتقسمت نفسه وذهب ، فاستشفع بأخيه من الرضاع ، الحسين بن على ، فوجد ما أحب وتزوجها ومكثا زمنا ولم يعقبا ، وشغل قيسا حب لبنى عن مواساة أمه فاضطغنت على زوجه وسعت بها عند أبيه متخذة عدم الولد سلما ترقى به الى شرها ، فطلب اليه أبوه أن يطلقها فأبى ، فما زال به بالوعد والوعيد حتى أجابه الى طلبته ، وكان فى ذلك القضاء الأخير على ما لقيس من حظ وعقل فى هذه الحياة ولم ينتفع بتزويجه غيرها ، وطارت نفسه شعاعا وذهب على وجهه يتنسم أخبار لبنى ويمرغ خده فى آثارها ، وبقى طول حياته يساقط من نفسه على شعره غير عابئ بشقاء بدنه وإهدار دمه حتى لفظ النفس الأخير . وأخبار قيس كثيرة فى الأغانى (ج ٨ ص ١١٢) والشعر والشعراء (ص ٣٩٩) وله ديوان مشروح ، ومنه نسخة فى مكتبة الإسكوريال وغيرها فى برلين .

كأنى أرى الناسَ المحبّين بعــدها * عُصــارةَ ماءِ الحنظــل المتفلّقُ
فتُنكر عيني بعـــدها كلَّ مَنْظَـــرٍ * ويكره سمعى بعـــدها كلَّ مَنْطِقِ

وخرج قيس فى فِتْية من قومه واعتلّ على أبيه بالصيد ، فأتى بلادَ لُبْنى ، فجعل يتوقّع أن يراها أو يرى من يُرْسِل اليها ، فاشتغل الفتيانُ بالصيد ، فلما قضَوْا وَطَرهم منه رجعوا اليه وهو واقف ، فقالوا له : قد عَرَفْنا ما أردتَ بإخراجنا معك وأنك لم تُرِد الصيد وإنما أردتَ لقاء لبنى وقد تعذّر عليك ، فانصرف الآن ؛ فقال :

وما حائمــاتٌ حُمْنَ يومًا وليـــلةً * على المــاء يَغْشَـيْنَ العِصِىَّ حَوَانى
عَوَافِىَ لا يصــدُرنَ عنــه لوجهةٍ * ولا هنّ من بَرْدِ الحِيــاض دَوَانى
يَرَيْنَ حَبَاب المــاء والموتُ دونه * فهن لأصوات السُّقاة رَوَانى
بأجهــدَ منى حَرَّ شــوقٍ ولوعــةٍ * عليــكِ ولكنّ العــدوّ عدانى
خليـــلَىّ إنى ميّتٌ أو مكلِّمٌ * لُبَيْنَى بسرِّى فأمضِــيا وذَرَانى
أنَلْ حاجتى وحدى ويارُبّ حاجةٍ * قضيتُ على هولٍ وخوفِ جَنان
فإنّى أحقُّ النــاسِ ألّا تُحــاوِرَا * وتَطّرِحا من لو يشاء شــفانى
ومن قادنى للموت حتى اذا صفتْ * مشــاربه السُّمَّ الذُّعاف ســقانى

فأقاموا معه حتى لقيها .

لمــا ألحّ ذَرِيح على ٱبنــه قيس فى طلاق لبــنى فأبى ذلك قيس ، طَرَح ذريح نفســه فى الرَّمْضاء وقال : لا والله لا أرِيمُ هذا الموضعَ حتى أموتَ أو يُخَلِّيها ، فجاءه قومه من كل ناحية فعظّموا عليه الأمر وذكّروه بالله وقالوا : أتفعل هذا بأبيك وأمك ! إن مات شيخك على هــذه الحال كنت مُعينا عليــه وشريكا فى قتله ، ففارق لبنى على رغم أنفه وقلّة صــبره وبكاءٍ منه حتى بكى لها من حضرهما ، وأنشأ يقول :

أقول لخُلّتى فى غير جُرْمٍ * ألَا بِينِى ، بنفسىَ أنتِ ، بِينِى
فوَٱللهِ العظَــيم لَنَزْعُ نفسِى * وقطــعُ الرِّجلِ منى واليمينِ

أحبُّ إلىَّ يا لُبْنَى فِراقًا * فبَكِّى للفراق وأسعدينى
ظلمتُكِ بالطّلاق بغير جُرْم * فقد أذهبتِ آخرتى ودينى

قال : فلما سمعت بذلك لبنى بكت بكاء شديدا ، وأنشأت تقول :

رحَلتُ اليه من بلدى وأهلى * فجازانى جــزاءَ الخائنينا
فمَنْ رآنى فلا يغترَّ بعــدى * بحُلْو القــول أو يَبْلُو الدَّفينا

فلما آنقضت عِدّتها وأرادت الشخوصَ الى أهلها أُتِيتْ براحلة لتُحمَّل عليها ، فلما رأى ذلك قيسٌ داخله أمر عظيم وآشتدّ لهفه ، وأنشأ يقول :

بانتْ لُبينى فأنت اليــوم متبولُ * وإنك اليومَ بعــد الحزم مخبــولُ
فأصبحتْ عنك لبنى اليومَ نازحةً * ودَلُّ لبنى ـ لها الخيراتُ ـ معسولُ
هــل تَرْجِعنّ نَوَى لبنى بعاقبــةٍ * كما عهدتُ ليالى العشــقُ مقبول
وقــد أرانى بلبنى حقَّ مقتنِعٍ * والشملُ مجتمعٌ والحبلُ موصــول
فصرتُ من حبّ لبنى حين أذكرها * القلبُ مرتَهَنٌ والعــقلُ مدخول
أصبحت من حبِّ لبنى بل تذكّرها * فى كُربةٍ ففؤادى اليومَ مشــغولُ
والجسم مــنّىَ منهوكٌ لفرقتهــا * يَبْريه طولُ سَــقَامٍ فهو منحولُ
كأننى يومَ وَلّتْ ما تكلّمنى * أخو هُيَامٍ مصابُ القلب مسلولُ
أســـتودع اللّه لبنى اذ تُفــارقنى * عن غير طوعٍ وأمرُ الشيخ مفعولُ

ثم آرتحلت لبنى ، فجعل قيس يقبّــل موضع رجليها من الأرض وحول خِبائها ، فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعَذْل واللّوم ، فقال ذَرِيح لمــا رأى حاله تلك : قد جنَيْتُ عليك يابُنَىّ ؛ فقال له قيس : قد كنتُ أخبرك أنى مجنون بهــا فلم ترضَ إلا بقتــلى ، فاللّه حسبُك وحسبُ أمّى . وأقبل قومه يعذُلونه فى تقبيل التراب ، فأنشأ يقول :

فمــا حُبِّى لِطيبِ تراب أرضٍ * ولكن حبّ من وَطِئ التُّرابا
فهــذا فعــل شــيخَيْنا جميعًا * أرادا لى البليّــة والعَــذابا

وله قصيدة طويلة فى تطليقه لبنى يقول فيها :

فوا كبدى وعاودنى رُداعى (١) * وكان فراق لبنى كالخداع (٢)
تكنّفنى الوُشاةُ فأزعجونى * فيالَلّهِ للواشى المُطَاعِ
فأصبحتُ الغَداةَ ألومُ نفسى * على شىء وليس بمستطاع
كمغبونٍ يَعَضُّ على يديه * تَبَيّن غَبْنَه بعد البِياع
بدارِ مَضِيعةٍ تركتُكِ لُبْنى * كذاك الحَيْنُ يُهْدى للضَاع
وقد عشنا نَلَذّ العيشَ حينًا * لو آنّ الدهرَ للإنسان واعى
ولكنّ الجميعَ الى آفتراقٍ * وأسباب الحتوف لها دَوَاعى

واجتمع إليه نسوة فأطَلْنَ الجلوسَ عنده وحادثْنَه وهو ساهٍ عنهنّ، ثم نادى : يا لبنى، فقلن له : ما لك ويحك ؟ فقال : خَدِرتْ رجلى « ويقال : إن دعاء الانسان باسم أحبّ الناس اليه يُذهِب خَدَرَ الرجل، فناديتها لذلك . وقال :

اذا خَدِرَتْ رجلى تذكّرتُ من لها * فناديتُ لُبنى باسمها ودعَوْتُ
دعوت التى لو أنّ نفسى تُطيعنى * لفارقتُها من حبّها وقضيتُ
برَتْ نبلَها للصّيد لُبْنَى وريَّشتْ * وريَّشتُ أخرى مثلَها وبَرَيْتُ
فلمّا رمتنى أَقْصَدتْنى بسهمها * وأخطأتُها بالسهم حين رميْتُ
وفارقتُ لُبنى ضَلّةً فكأننى * قُرِنْتُ الى العَيُّوق (٣) ثم هَوَيْتُ
فياليتَ أنّى متُّ قبلَ فراقها * وهل ترجعنْ فوتَ القضيّة لَيْتُ
فصرتُ وشيخى كالذى عَثَرتْ به * غداةَ الوغَى بين العُداة كُمَيْتُ
فقامتْ ولم تضرر هُزالًا سوية * وفارسُها تحت السّنابك ميْتُ
فان يك تَهْيامى بلُبْنى غَوايةً * فقد يا ذَرِيحُ بنَ الحباب غَوَيتُ

(١) الرداع : النكس، وهو رجوع المرض . (٢) الخداع : الموت . (٣) هو نجم أحمر مضيئ فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها .

فـلا أنت ما أمّاتَ فىّ رأيتَـــه * ولا أنا لبنى والحيـاة حـــويتُ
فوطِّنْ لهلكى منـــك نفسًا فإننى * كأنك بى قـد يا ذريحُ قضيتُ

ومرض قيسٌ، فسأل أبوه فتَيَاتِ الحىّ أن يَعُدْنه ويحدّثنه أو يعلّق بعضهن، ففعلن ذلك، ودخل اليه طبيب ليداويه والفَتَيات معه، فلما اجتمعن عنده جعل يحادثنه وأطلْنَ السؤالَ عن سبب علته، فقال :

تَعَلّق رُوحى روحَها قبـــل خلقنا * ومن بعد ما كنا نِطافًا وفى المهـدِ
فـــزاد كما زِدنا فأصـــبحناميًا * وليس اذا متنا بمُنْصرِمِ العهـــد
ولكنه باق على كل حادثٍ * وزائرنا فى ظلمة القـبر واللحـــد

فقال له الطبيب : إن ممـا يسليك عنها أن تتذكر ما فيهـا من المساوى والمعايب، فان النفس تنبو حينئذ وتسلو ويخفّ ما بها .

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أبيه بأن يزوّجه امرأة جميلة فلعله يسلو بهـا عن لبنى، فدعاه الى ذلك فأباه وقال :

لقد خِفتُ ألّا تقنعَ النفسُ بعدها * بشىء من الدنيـا وإن كان مقنعاً
وأزجر عنها النفس اذ حيل دونَها * وتأبىَ اليهـا النفسُ إلّا تطلُّعـا

ولمـا تزوّجت لبنى بآخر أتى موضعَ خبائها فنزل عن راحلته وجعـل يتمعك (١) موضعـها ويمرّغ خدّه على ترابها ويبكى أحرّ بكاء ثم قال :

الى الله أشكو فقدَ لُبنى كما شكا * الى الله فَقـــدَ الوالدينْ يتـيمُ
يتيمٌ جفـاه الأقربون بجسمه * نحيـــلٌ وعهـــد الوالدين قديمُ
بكتْ دارُهم من نأيهم فتهلّلت * دموعى فأىَّ الجـازعينِ ألومُ
أمستعبرٌ يبكى من الشوق والهوى * أمَ آخرُ يبـكى شجـــوَه ويهـيمُ
تهيَّضنى من حبّ لُبـنَى علائقٌ * وأصـنافُ حبٍّ هَوْلُهنّ عظيمُ

---

(١) يتمعك : يتمرّغ فى التراب .

ومن يتعلّق حبَّ لُبنى فـؤادَه * يمتْ أو يعشْ ما عاش وهو كليمُ
فإنّي وإن أَجْمعتُ عنك تجـلُّدا * على العهـد فيما بيننـا لمقـيمُ
وإن زمانا شتّت الشملَ بيننـا * وبينـكمُ فيـه العـدا لمشومُ
أفى الحقّ هـذا أنَّ قلبَكِ فارغٌ * صحيحٌ وقلبى فى هـواكِ سـقيمُ

وقال فى رحيل لُبنَى عن وطنها وآنتقالها الى زوجها بالمدينة وهو مقيم فى حيّها :

بانت لُبينَى فهاج القلبَ من بانا * وكان ما وعدتْ مَطلا وليّانا(١)
وأخلفتـك منًى قد كنتَ تأمُلُها * فأصـبح القلبُ بعـد البين حيرانا
الله يدرى وما يدرى به أحـدٌ * ماذا أُجمجم من ذكراكِ أحيـانا
ياأكمل النـاسِ من قَرْنٍ الى قدمٍ * وأحسنَ الناس ذا ثوب وعُريانا
نعم الضجيع بعَيـد النوم تجلبـه * اليـك ممتلئـا نوما ويقظـانا
لا باركَ اللهُ فيمن كان يحسَـبكم * إلا على العهـد حتى كان ما كانا
حتى آستفقت أخيرا بعد ما نُكحتْ * فبتّ للشـوق أُذرِى الدمعَ تهتانا
إن تصرِمى الحبلَ أو تُمسى مفارِقةً * فالدهرُ يُحدث للإنسانِ ألوانا
وما أرى مثلَكم فى الناس من بَشَرٍ * فقـد رأيتُ به حيًّا ونسوانا

وشـكا أبو لبنى لمعاوية تعرّض قيس لآبنته بعـد طلاقها، فكتب معاوية الى الأمير يُهدِر دمه إن ألمّ بها، وأن يشتدّ فى ذلك؛ فكتب مروان فى ذلك الى صاحب المـاء الذى ينزله أبو لبنى كتابا وكيدا، ووجّهتْ لبنى رسولا الى قيس تُعلمه ما جرى وتحذّره؛ وبلغ أباه الخبر، فعاتبه وتجهّمه، وقال له : انتهى بك الأمر الى أن يهدِر السلطان دمك؛ فقال :

فان يحجبوها أو يَحُـلْ دون وصلها * مقـالةُ واشٍ أو وعيـدُ أمـيرِ
فلن يمنعوا عينىّ من دائم البكا * ولن يُذهِبوا ما قد أجَنّ ضميرى
الى الله أشكو ما أُلاقى من الهوى * ومن حُرَقٍ تعتادنى وزفـيرِ

(١) الليان : اللىّ والمطل؛ قال أبو الهيثم : لم يجئْ من المصادر على فعلان إلا ليان .

ومن حُرقٍ للحبّ فى باطن الحشى * وليـــلٍ طويلِ الحزن غيرِ قصـــيرِ
سـأبكى على نفسى بعينٍ غزيرةٍ * بكاءَ حزينٍ فى الوثاق أسـيرِ
وكنا جميعًا قبـل أن يَظهـرَ الهوى * بأنعمِ حالَىْ غِبْطـةٍ وسـرورِ
فما بَرِح الواشـون حتى بدتْ لهم * بطونُ الهـوى مقـلوبةً لظهورِ
لقد كنتِ حَسْبَ النفس لودام وصلُنا * ولكنما الدنيـا متـاعُ غرورِ

وقال فى إهدار معاوية دمَه إن هو زارها :

إن تك لُبْنى قـد أتى دون قربها * حجـابٌ منيعٌ ما اليـــه سبيـلُ
فإن نسيمَ الجو يجمـع بيننا * ونُبصر قَرنَ الشمس حين تزولُ
وأرواحُنا بالليـل فى الحىّ تلتقى * ونعـــلَم أنَّا بالنهـار نقيـلُ
وتجمعنا الأرضُ القـــرار وفوقنـا * سمـاءٌ نرى فيهـا النجومَ تجـولُ
الى أن يعودَ الدهرُ سَلمًا وتنقضى * تراتٌ بغـاها عنـــدنا وذُحولُ(١)

ولما انصرف الناس من الحج مرض قيس مرضا شديدا فلم يأته رسولها عائدا، فقال:

ألُبنى لقد جلَّتْ عليك مصيبتى * غداةَ غدٍ إذ حـلَّ ما أتوقّـعُ
تُمنِّيننى نَيْـــلًا وتَلوِيننى قِـلًى * فنفسىَ شوقًا كلَّ يومٍ تَقطَّعُ
وقلبُـك قطُّ لا يلين لمـا يَرَى * فوا كبِدى قد طال هذا التضرّعُ
ألومُـك فى شأنى وأنتِ مُليمةٌ * لعـمرى وأجفَى للمحب وأقطعُ
أخُبِّرتِ أنى فيك ميّتُ حسرتى * فما فاض من عينيك للوجد مدمعُ
ولكن لعمرى قد بكيتُك جاهدا * وإن كان دائى كلُّه منك أجمعُ
صبيحةَ جاء العائداتُ يعُـدْنَنى * فظَلّتْ علىّ العـــائداتُ تَفَجَّعُ
فقائلةٌ جئنا اليـــه وقـد قضى * وقائـــلةٌ لا بل تركناه ينزِعُ
فما غشِيتْ عينيك من ذاك عَبرةٌ * وعينى على ما بى بذكراكِ تدمعُ
اذا أنتِ لم تبكى علىّ جنـازة * لديك فلا تبكى غدا حين أُرفَعُ

(١) ذحول : جمع ذحل وهو الثأر .

ومن شعره قوله :

أتبكى على لُبنى وأنت تركتها * وكنت عليها بالملا(١) أنت أقدرُ
فإن تكن الدنيا بلُبنى تقلّبتْ * علىّ فللدنيا بطونٌ وأظهُرُ
لقد كان فيها للأمانةِ موضعٌ * وللكفّ مُرْتادٌ وللعين منظَرُ
وللحائم العطشانِ رِى بريقها * وللمَرِح المختالِ خمرٌ ومُسْكِرُ
كأنّى لها أُرجوحةٌ بين أحبُلٍ * اذا ذُكرةٌ منها على القلبِ تخْطُرُ

وقوله :

لقد عذّبتَنى ياحب لبنى * فقعْ إمّا بموتٍ أو حياةِ
فانّ الموتَ أروَحُ من حياة * تدوم على التباعُدِ والشتاتِ
وقال الأقربون تَعزَّ عنها * فقلتُ لهم اذا حانتْ وَفَاتى

وقالت له لبنى : أنشدنى ما قلت فى علتك، فأنشدها قولَه :

أُعالج من نفسى بقايا حُشاشةٍ * على رَمَقٍ والعائداتُ تَعودُ
فان ذُكرتْ لبنى هَشَشْتُ لذكرها * كما هَشّ للثّدْى الدَّرور وليدُ
أُجيب بلبنى من دعانى تجلُّدًا * وبى زَفَراتٌ تنجلى وتعود
تُعيد الى رُوحى الحياةَ وإننى * بنفسىَ لو عاينتِنى لأجود

وفيها يقول :

ألا ليت أياماً مَضَينَ تعود * فإن عُدْنَ يوماً إننى لسعيدُ
سقى دارَ لبنى حيث حَلّتْ وخيَّمت * من الأرض مُنْهَلُّ الغمام رعيدُ
على كل حالٍ إن دنتْ أو تباعدتْ * فإن تدنُ منّا فالدنوّ مَزيدُ
فلا اليأسُ يُسلينى ولا القربُ نافعى * ولبنى مَنُوعٌ ما تكاد تجودُ
كأنىَ من لبنى سليمٌ مسهَّدٌ * يظَلّ على أيدى الرجال يَميدُ
رمتنى لُبينى فى الفؤاد بسهمها * وسهم لبينى للفؤاد صَيُودُ

(١) الملا : موضع .

سـلا كلُّ ذى شجوٍ علمت مكانه * وقلـبى للبــنى ما حَيِيتُ وَدود
وقائـلةٍ قـد مات أو هو ميت * وللنفس منى أن تفيضَ رصــيدُ

وعاتبته على تزوّجه، فحلف أنه لم ينظر اليها ملء عينيه، ثم قال :

ولقد أردتُ الصبرَ عنك فعاقنى * عَلَقٌ بقلبى من هواكِ قديمُ
يبقى على حَدَثِ الزمان ورَيْبه * وعـلى جفـائك إنه لكريمُ
فصَرَمْتِه وصَحَحْتِ وهو بدائه * شتّانَ بين مصحَّحٍ وسقيمِ
وأريته زَمِنًا فعـاذَ بحلمه * إن المحبَّ عن الحبيب حليمُ

فلم يزل معها يحدّثها ويشكو اليها حتى أمسى، فانصرفت ووعدته الرجوع اليه من غد فلم ترجع، وشاع خبره، فلم ترسل اليه رسولا، فكتب هذين البيتين :

بنفسىَ مَنْ قلبى له الدهرَ ذاكرٌ * ومَنْ هو عنّى مُعرِضُ القلبِ صابرُ
ومَنْ حبُّه يزداد عنـدىَ جِدّةً * وحُبِّى لديه مخلَقُ العهــدِ داثرُ

وقال ابن أبى عتيق لقيس يوما : أنشدنى أحرّ ما قلتَ فى لبنى؛ فأنشده :

وإنّى لأهوى النومَ فى غيرِ حينِه * لعـلّ لقاءً فى المنامِ يكونُ
تحـــدّثنى الأحلام أنّى أراكُمُ * فياليتَ أحلام المنام يقينُ
شهِدْتُ بأنى لم أَحُلْ عن مودّة * وأنى بكم لو تعلمين ضنينُ
وأن فؤادى لا يلينُ الى هوًى * سواكِ وإن قالوا بَلَى سيلينُ

وقال عبد الملك بن عبد العزيز : أنشدتُ أبا السائب المخزومىّ قول قيس :

أُحبُّك أصنافًا من الحبّ لم أجِدْ * لهـا مَثَلًا فى سائر الناس يوصفُ
فمنهن حبٌّ للحبيب ورحمـةٌ * بمعـــرفتى منـه بمـا يتكلّفُ
ومنهن ألاّ يَعرِضَ الدهرَ ذكرُها * على القلب إلا كادت النفس تتلفُ
وحبٌّ بدا بالجسم واللون ظاهر * وحبٌّ لدى نفسى من الروح ألطفُ

وقصيدة (١) قيس العينية من جيد شعره وهى :

عَفَا سَرِفٌ من أهله فسُرَاوِعُ * فجَنْبَا أَرِيكٍ فالتِّلاعُ الدوافِعُ (٢)
فغَيْقَةُ فالأخيافُ أخيافُ ظَبْيَةٍ * بها من لبينى مَخْرَفٌ ومَرَابِعُ (٣)
لعلّ لُبَينى أن يُحَمَّ لقاؤها * ببعض البلادِ إن ما حُمَّ واقِعُ (٤)
بجِزْعٍ (٥) من الوادى خلاء أنيسُه * عَفَا وتخطَّته العيونُ الخوادِعُ
ولما بَدَا منها الفِراقُ كما بَدَا * بظَهْرِ الصَّفَا الصَّلْدِ الشقوقُ الشوائعُ (٦)
تمنَّيْتَ أن تَلْقَى لبيناكَ ، والمُنَى * تُعاصيك أحيانًا وحينًا تُطاوع
وما من حبيبٍ وامِقٍ لحَبيبه * ولا ذى هوًى إلا له الدهر فاجعُ
وطار غرابُ البين وانشقّت العصا (٧) * ببينٍ كما شَقّ الأديمَ الصوانعُ
ألا يا غرابَ البينِ قد طِرتَ بالذى * أُحاذر من لبنى فهل أنت واقعُ
وإنك لو أبلغتَها قِيلَك اسلمِى * طوتْ حَزَنًا وارفضّ (٨) منها المدامعُ
أتبكى على لبنى وأنت تركتَها * وكنتَ كآتٍ غَيَّه وهْو طائعُ
فلا تبكينْ فى إثر شىء ندامةً * اذا نزعتْه من يديك النوازع
فليس لأمرٍ حاول الله جَمْعَه * مُشِتٌّ (٩) ولا ما فرّق اللهُ جامعُ
كأنك لم تَغْنَهْ اذا لم تُلاقِها * وإن تلقَها فالقلبُ راضٍ وقانعُ

---

(١) وردت هذه القصيدة برمتها فى كتاب الأمالى لأبى على القالى (ج ٢ ص ٣١٤ — ٣١٨ طبعة دار الكتب المصرية) . (٢) سرف وسراوع وأريك : مواضع . والتلاع واحدتها تلعة وهى مسيل ما ارتفع من الأرض الى بطن الوادى . والدوافع : جمع دافعة وهى التى تدفع الماء . (٣) أخياف ظبية : موضع . والمخرف : المنزل الذى يقام فيه فى الخريف . والمرابع : جمع مربع وهو الموضع الذى يقام فيه فى الربيع . (٤) حم : قدر . (٥) جزع الوادى : منعطفه . وعفا : درس . والخوادع واحدها خادعة وهى التى لا تنام ، يقال : خدعت عينه تخدع اذا لم تنم ، وأتيناهم بعد ما خدعت العين . (٦) الصفا : الصخر . والصلد : الصلب الذى اذا أصابه شىء صلد أى صوّت . والشوائع : جمع شائعة وهى الظاهرة . (٧) أى تفرقت الجماعة . (٨) ارفض : سال ولا يكون إلا سيالا مع تفرّق . (٩) مشت : مفرق .

فياقلبُ خبّرني، اذا شَطّت النوى (١) * بلُبْنَى وصدّت عنك، ما أنت صانع
أتصبر للبين المشتّ مع الجَوَى * أم أنت أمرؤ ناسي الحياء بجازعُ
فما أنا إن بانت لُبيْنى بهاجع * اذا ما أستقلّت بالنِّيام المَضَاجعُ
وكيف ينام المرءُ مستشعِرَ الجوى * ضجيعَ الأسى فيه نِكاسٌ رَوَادعُ (٢)
فلا خير فى الدنيا اذا لم تُوَاتِنا * لُبَيْنى ولم يجمعْ لنا الشَّمْلَ جامعُ
أليست لبيني تحت سَقْفٍ يُكنّها * وإياىَ هذا إن نأت لىَ نافع
ويَلبَسُنا الليل البهيمُ اذا دَجَا (٣) * ونُبصرُ ضوءَ الصبح والفجرُ ساطع
تَطأُ تحت رجليها بِساطًا (٤) وبعضُه * أطَاهُ برِجْلى ليس يَطويه مانع
وأفرَح إن تُمسى بخيرٍ وإن يكن * بها الحَدَثُ الغادى تَرُعْنِى (٥) الروائع
كأنك بِدْعٌ لم ترَ الناسُ قبلها * ولم يَطّلِعْك الدهرُ فيمن يطالع
فقد كنتُ أبكى والنوى مطمئنةٌ * بنا وبكم من علم ما البينُ صانعُ
وأهجرُكم هجرَ البَغيض وحبُّكم * على كبدى منه كُلومٌ صوادعُ
وأعجَل للإشفاق حتى يَشُفَّنى * مخافةُ شحط الدار والشملُ جامعُ
وأعمد للأرض التى من ورائكم * ليَرجِعَنى يومًا عليك الرواجعُ
فيا قلبُ صبرًا وآعترافًا (٦) لما ترى * ويا حبَّها قَعْ بالذى أنت واقعُ
لعمرى لَمَنْ أمسيَ وأنتِ ضجيعُه * من الناس ما اختيرتْ عليه المضاجعُ
ألَا تلك لُبنى قد تَرَاخَى مَزارُها * وللبين غمٌّ ما يزال ينازعُ
اذا لم يكن إلا الجَوَى فكَفَى به * جَوَى حُرَقٍ قد ضُمِّنَتْها الأضالع
أبائنةٌ لبنى ولم تقطع المَدَى * بوصلٍ ولا صرمٍ فييأسَ طامعُ

(١) شطت : بعدت . (٢) المستشعر : الذى لبس الشعار وهو الثوب الذى يلى الجسد . والجوى : الهوى الباطن . والأسى : الحزن . ونكاس : جمع نكس بالضم . وروادع . جمع رادعة وهى التى تردعه عن الحركة والتصرّف . (٣) دجا : ألبس بظلمته كل شىء . (٤) البساط : ما بسط من الفرش .
(٥) ترعنى : تفزعنى . (٦) اعترف : ذل وانقاد .

يظلُّ نهارَ الواهين نهارُه * وتَهْدِنُه[1] فى النائمين المضاجعُ
سواى فلَيْلى من نهارى وإنما * تُقَسَّمُ بين الهالكين المَصَارعُ
ولولا رجاءُ القلبِ أن تعطفَ النّوَى * لما حَمَلَتْه بينهن الأضالع
له وَجَبَاتٌ[2] إثْرَ لُبْنى كأنها * شقائقُ بَرْقٍ فى السحاب لوامع
نهارى نهارُ الناس حتى اذا دجا * لِىَ الليلُ هزَّتنى اليك المضاجع
أُقَضِّى نهارى بالحديث وبالمنى * ويجمعنى بالليل والهمّ جامع
وقد نشأتْ فى القلب منك مودةٌ * كما نشأتْ فى الراحتين الأصابع
أبى الله أن يَلْقَى الرشادَ متيمٌ * ألَا كلُّ أمرٍ حُمَّ لا بد واقع
هما برّحا بى مُعْوِلَين كلاهما * فؤادٌ وعينٌ مأْقُها[3] الدهرَ دامع
اذا نحن أنفدنا البكاءَ عشيّةً * فموعدُنا قَرْنٌ من الشمس طالع
وللحب آياتٌ تَبَيَّنُ بالفتى * شُحوبٌ وتَعْرَى من يديه الأشاجع[4]
وما كلّ ما منّتك نفسُك خاليًا * تلاقى ولا كلّ الهوى أنت تابع
تداعتْ له الأحزانُ من كل وجهةٍ * فحَنّ كما حنّ الظُّؤارُ[5] السواجع
وجانبَ قُربَ الناس يخلو بهمّه * وعاوده فيها هُيَامٌ مُراجِعُ
أراكَ اجتنبتَ الحىّ من غير بِغْضةٍ * ولو شئتَ لم تجنح اليك الأصابع
كأنّ بلادَ الله ما لم تكن بها * وإن كان فيها الخلقُ قَفْرٌ بلاقع
ألا إنما أبكى لما هو واقعٌ * وهل جَزَعٌ من وشك بينِك نافع
أحال علىّ الدهرُ من كل جانبٍ * ودامت ولم تُقْلِع علىّ الفواجع
فمن كان محزونا غدًا لفراقنا * فملآنَ فليبكى لما هو واقع

---

(١) تهد : تسكنه . (٢) وجبات : خفقات . (٣) المأق من العين : الجانب الذى يلى الأنف . (٤) الأشاجع : عروق ظاهر الكف . (٥) الظؤار : جمع ظئر وهى التى عطفت على ولد غيرها . والسواجع : جمع ساجعة وهى التى تمد حنينها على جهة واحدة .

الشـــعر السـّـياسى

أوضحنا لك فى المجلد الأوّل ما لاستعمال الشعر من أثرٍ فى كثير من الحركات السياسية وٱستحثاث العزمات وإنهاض الهمم فى الانقلابات الاجتماعية، وبيّنا مَيْزة ٱستعمال الشعر فى الأغراض السياسية فى عصر الدولة الأموية، وذكرنا عدّة أمثلة تبيّن ما وصل إليه هذا النوع الطريف، ووعدناك بذكر قصيدة النعمان بن بشير فى هذا الباب . وها هى ذى :

النُّعْمانُ بن بَشِـــير (١)

قال أبو الفَرَج الأَصْفهانىّ :

لما كثر الهجاءُ بين عبد الرحمن بن حَسّان وعبد الرحمن بن الحَكَم بن أبى العاصى وتفاحَشَا، كتب مُعَاوِيَةُ الى سَعِيد بن العَاصى، وهو عامِلُه على المدينة، أن يَجلِدَ كلَّ واحد منهما مائة سوط، وكان ٱبنُ حسّان صديقًا لسعيد وما مدَح أحدًا غيرَه قطّ، فكرِه أن يضربَه أو يضرب ٱبن عمّه، فأمسك عنهما؛ ثم ولِىَ مروانُ، فلما قدِم أخذ ٱبنَ حسّان فضربَه مائة سَوْط ولم يضرب أخاه، فكتب ٱبنُ حسان الى النّعمان بن بشير وهو بالشأم، وكان كبيرًا أثيرًا (٢) مكِينًا عند معاوية، قال :

---

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد الأنصارى، من الخزرج أهل يثرب، لكنه ساير معاوية، فكان معه فى واقعة صِفين، ولم يكن مع معاوية فى تلك الواقعة من الأنصار سواه . وقد اجتذبه بسخائه ودهائه وكان يراعى جانبه، وكثيرا ما سمع توسطه للأنصار عنده . وعاش النعمان المذكور الى خلافة مروان بن الحكم، وكان يتولى حمص، فلما أفضت الخلافة الى مروان دعا الى ابن الزبير وخالف على مروان بعد قتل الضحاك، فلم يجبه أهل حمص الى ذلك، فهرب منهم فتبعوه وأدركوه وقتلوه . وكان على مسايرته بنى أمية شديد التعصب للانصار، ولذلك عند ما علم بقصيدة الأخطل فى الطعن عليهم رد عليه . والنعمان بن بشير من العريقين فى الشعر خلفا عن سلف فان جده وأباه وعمه وأولاده وأحفاده كلهم شعراء . وهو أوّل مولود ولد فى الاسلام من الأنصار، وآخر من ولى الكوفة لمعاوية بن أبى سفيان . وله ديوان مطبوع فى الهند . توفى سنة ٦٥ هـ . وترى أخبار النعمان بن بشير فى الأغانى (ج ١٤ ص ١١٩) وأمالى القالى (ج ٣ ص ٨) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) وفى سيرة ابن هشام وابن خلكان وابن الأثير وغيرها .

(٢) أثيرا : مكرّما .

ليت شِعْرى أغائبٌ أنت بالشا * م خَليلى أم راقدٌ نُعْمَانُ
أيَّةً ما يكن فقــد يَرجِع الغا * ئبُ يوما ويُوقَظ الوَسْنَانُ
إن عَمْرًا وعامرًا أبوينـا * وحَراماً قِدْمًا على العهد كانوا
أفهُــمْ مانعُوك أم قلّةُ الكُتّـ * ـاب أم أنتَ عاتب غضبان
أمْ جَفَاءٌ أمْ أعْوَزَتْك القَرَاطيـ * ـسُ أَم أمرى به عليك هَوَان
يــوم أُنبِئتَ أن ساقِىَ رُضَّتْ * وأتتكم بذلك الرُّكبان
ثم قالوا إن ٱبن عمّك فى بَلْـ * ـوى أمورٍ أتى بها الحَدَثان
فنسيتَ الأرحامَ والوُدَّ والصُّحْـ * ـبَة فيما أتت به الأزمان
إنما الرمحُ فاعلمن قَنَـاةٌ * أوكبعض العيدان لولا السِّنان

قال أبو الفرج الأصبهانى :

دخل النعمانُ بن بَشِـير على مُعَاوية لما هجا الأخطلُ الأنصارَ ، فلما مَثَلَ بين يديه أنشأ يقول :

مُعَاوِىَ إلّا تُعْطِنا الحقَّ تَعْـترِفْ * لِحَى الأزْد مَشْـدودًا عليها العَمَائمُ
أيَشْتُمُنا عبـدُ الأراقم (١) ضَـلَّةً * وماذا الذى تُجدى عليك الأراقم
فما لِىَ ثأرٌ دُون قطع لِسانه * فدُونك من يُرضيه عنك الدراهم
وَراعِ رُوَيدًا لا تَسُـمْنا دَنِيّـةً * لعلّك فى غِبِّ الحـوادث نادم
متى تَلْقَ منا عُصْبةً خَزْرَجِيّـةً * أو الأوْسَ يوماً تَخْـتَرِمْك المَخارم
وتلقاك خَيْـلٌ كالقَطا مُسْـتَطيرةٌ * شَمَاطِيطُ (٢) أرْسَالٌ عليها الشَّكائم (٣)
يُسَوِّمُها العَمْران : عمرو بن عَامرٍ * وعِمْرانُ حتى تُستباحَ المحارم
ويبدو من الخَوْد العَزيزَة حِجْلُها * وتَبْيَضَّ من هَوْل السيوف المَقَادم
فتَطْلُبَ شَعْب الصَّدْع بعد ٱلتئامه * فتُعْـرِيَه فالآن والأمرُ سالم

(١) الأراقم : حىٌّ من بنى تغلب . (٢) شماطيط : متفرقة . (٣) الشكائم : جمع شكيمة وهى الحديدة المعترضة فى فم الفرس .

وإلّا فثَـوبى لَأُمَـــةٌ تُبَّعِيَّـــةٌ * تَـوَارِيثُ آبائى وأبيضُ صـارم
وأسمَـــرُ خَطِّىٌّ كأن كُعُـوبَه * نَوى القَسْب فيهـا لَهْذَمِىٌّ خُتَارِم
فإن كنتَ لم تَشْهد ببَـدرٍ وقيعـةً * أذلَّتْ قُرَيْشـا والأنـوفُ رَوَاغِم
فَسَـائِلْ بِنـا حَىَّ لُؤَىِّ بن غَالِبٍ * وأنتَ بمـا يَخْـفَى من الأمرِ عالم
ألم تَتَبَـدَّر يومَ بَدْر سـيوفُنـا * ولَيْلُكَ عمـا ناب قومَـك قاتم
ضَرَبْناكُمُ حـتى تفـرّق جمعكم * وطارت أكُفٌّ منكمُ وجماجم
وعاذَتْ على البيْت الحرام عَرَائسٌ * وأنت على خوف عليـك التمائم
وعَضَّت قريشٌ بالأنامل بِغْضَـةً * ومِنْ قَبْلُ ماعضّتْ عليك الأداهم
فكنّا لهـا فى كلّ أمرٍ تَكِيده * مكانَ الشَّجَا والأمرُ فيـه تَفَاقُم
فمـا إن رَمَى رَامٍ فأوْهَى صَفَاتَنـا * ولا ضامَنَا يومًا من الدهرِ ضائم
وإنّى لأُغْضِى عن أمـورٍ كثيرة * سَتَرْقَى بهـا يومًا إليك السَّلالم
أُصَانِـع فيهـا عبـدَ شَمْس وإنّنى * لِتلك الـتى فى النفس منى أُكاتم
فما أنتَ والأمرَ الذى لستَ أهله * ولكن وَلِىُّ الحـق والأمرِ هاشم
إليهم يَصير الأمرُ بعـد شَتاته * فَمَنْ لك بالأمر الذى هـو لازم
بهم شَرَع اللهُ الهدى فآهتدى بهم * ومنهـم له هَادٍ إمامٌ وخاتم

فلمـا بلغت القصـيدةُ معاويةَ أمر بدفْع الأخطل اليـه ليقطعَ لسانَه، فاستجار بيزيد ابن معاوية، فمنعه منه، وارضى النعمانَ حتى كفّ عنه .

وقال عمرو بن أبى عمرو الشَّيْبانىّ عن أبيه : لمـا ضرب مَرْوانُ بن الحَكَم عبدَ الرحمن آبن حسّان الحَدَّ ، ولم يضرب أخاه حين تَهَاجَيـا وتَقَاذَفَا ، كتب عبـدُ الرحمن الى النعمان ابن بشير يشكو اليه ، فدخل الى معاوية ، وأنشأ يقول :

يابنَ أبى سُـفْيَانَ ما مِثْلُنـا * جارَ عليـه مَـلِكٌ أو أمـير
أُذكُرْ بنـا مُقْـدَمَ أفراسِـنا * بالحِنْـو إذ أنتَ الينـا فقـير

واذكر غَـداةَ الساعِدِيّ الذى * آثركم بالأمر فيها بَشِـير
فاحذَرْ عليهم مثـلَ بَدْرٍ وقد * مرّ بكم يومٌ ببـدر عَمِـير
إنّ ابن حسّان له ثائـر * فأعْطِه الحقّ تصِحّ الصُّـدور
ومثـل أيامٍ لنـا شَـتَّتَتْ * مُلْكا لكم أمْرُك فيها صغير
أما ترى الأزْدَ وأشْـيَاعَها * تجـول خُزْرًا كاظِمَاتٍ تَـزِير
يصُـول حـوْلى منهم مَعْشَرٌ * إن صُلْتُ صالوا وهُمُ لى نَصِير
يأبى لنـا الضَّيمَ فـلا يُعْتَـلى * عِزٌّ مَنيع وعـديدٌ كثير
وعُنْصُرٌ فى عِـزّ جُرْثُومـةٍ * عادِيَّةٍ تنقـلُ عنها الصّخور



باب المنثـــور

شرحنا لك فى المجلد الأوّل ما كانت عليه الكتابة فى عصر العباسيّين من جَوْدة اللفظ، ومتانة الأسلوب، وجَلاء المعنى، ووضوح القصد وبساطته . ووعدناك بذكر طُرَف من رسائل القوم فى ذلك العصر الزاهى الزاهر؛ وإليك ما وعدناك به :

١ — مُشَاوَرَةُ المهدىّ لأهلِ بيته فى حرب خُراسان

قال ٱبنُ عبد ربّه فى العِقْد الفريد :

هذا ما تراجعَ فيه المهدىّ ووزراؤه وما دار بينهم من تدبير الرأى فى حرب خُرَاسان أيامَ تحامَلَتْ عليهم العمالُ وأعنفتْ، فحملتهم الدَّالَّة وما تقدّم لهم من المكانة على أن نَكَثوا بَيْعَتَهم، ونقضوا مَوْثِقهم، وطردوا العمال، وٱلتَوَوْا بما عليهم من الخَرَاج؛ وحمل المهدىَّ ما يُحِبّ من مصلحتهم ويكره من عَنَتِهم على أن أقال عَثْرَتَهم، وٱغتفر زلّتهم، وٱحتمل دالّتهم، تطَوُّلًا بالفضل وٱتّساعا بالعفو، وأَخْذًا بالحُجّة ورِفقا بالسياسة؛ ولذلك لم يزل مُذْ حَمَّله اللهُ أعباءَ الخلافة وقلّده أمورَ الرعيّة رفيقا بمَدار سلطانه، بصيرا بأهل زمانه، باسطًا للمَعْدَلة فى رَعيّته، تسكن الى كَنَفه وتأنس بعفوه وتثِق بحِلمه؛ فإذا وقعت الأَقْضِيةُ اللازمةُ والحقوقُ الواجبة، فليس عنده

هَوَادة ولا إغضاء ولا مُداهَنة ، أثَرَةً للحق وقياما بالعدل وأَخْذًا بالحزم؛ فدعا أهلَ خراسان الاغترارُ بحلمه والثّقة بعفوه أن كَسروا(١) الخراج وطَرّدوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحقّ، ثم خلطوا آحتجاجا باعتذار، وخصومةً بإقرار، وتَنَصُّلا باعتلال ؛ فلما آنتهى ذلك الى المهدىّ خرج الى مجلس خَلَائه وبعث الى نَفَرٍ من لُحْمَته ووزرائه، فأعلمهم الحالَ وآستنصحهم للرعيّة، ثم أمر المَوالى بالابتداء، وقال للعباس بن محمد : أى عمّ! تَعَقَّبْ قولَنا وكن حَكَمًا بيننا ؛ وأرسل الى وَلَدَيْه موسى وهارون ، فأحضرهما الأمْرَ وشارَكَهُما فى الرأى ، وأمر محمدَ بن اللَّيث(٢) بحفظ مراجعتهم، وإثبات مقالتهم فى كتاب .

فقال سلّام(٣) صاحبُ المظالم :

أيّها المهدىّ، إنّ فى كل أمر غاية، ولكل قوم صِناعة؛ آستفرغتْ رأيهم، وآستغرقت أشغالَهم، وآستنفدت أعمارَهم، وذهبوا بها وذهبت بهم، وعُرِفوا بها وعُرفت بهم؛ ولهذه الأمور التى جعلتنا فيها غاية، وطلبت معونتَنا عليها أقوامٌ من أبناء الحرب وساسة الأمور وقادةِ الجنود وفُرسانِ الهَزاهِز(٤) وإخوانِ التجارب، وأبطالِ الوقائع؛ الذين رَشَّحتهم سِجالها، وفَيَّأتهم ظلالُها، وعضّتهم شدائدُها، وقَرَمتهم نواجذُها؛ فلو عَجَمتَ ما قِبلهم ، وكشفتَ ما عندهم؛ لوجدتَ نظائرَ تؤيّد أمْرَك، وتجارِبَ توافق نَظَرَك، وأحاديثَ تقوّى قلبَك؛ فأما نحن معاشرَ عُمّالك، وأصحاب دواوينك، فحَسَنٌ بنا وكثيرٌ منا أن نقوم بثقل ما حمّلتنا من عملك، وآستودَعْتنا من أمانتك، وشغَلْتنا به من إمضاء عَدْلك ، وإنفاذ حُكْمك ، وإظهار حقّك .

فأجابه المهدىّ : إنّ فى كل قوم حكمة ، ولكل زمان سياسة ، وفى كل حال تدبيرا يبطل الآخِرُ الأوّلَ، ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا .

(١) كسروا الخراج أى كفوا عن أدائه . (٢) هو ابن الليث بن نصر بن سيار . وكان أرسل المهدىّ أباه الليث لمحاربة المقنع فلم يتمكن منه . وكان آبنه محمد هذا من كتاب المهدى ولم تعرف سنة وفاته .
(٣) هو سلام بن الأبرش، آستعمله المنصور ثم تولى العقوبات فى أيام المهدى . (٤) الهزاهز : تحريك البلايا والحروب فى الناس .

قال : نعم أيها المهدىّ ، أنت مُتّبع الرأى ، وَثِيق العُقْدة ، قَوِىّ المُنّـة(١) ، بليغ الفِطْنة ، معصوم النّيّـة ، مَحْضور الروِيّة ، مؤيّد البديهة ، موفّق العزيمة ، مُعَانٌ بالظّفَر ، مَهْدِىّ الى الخير ؛ إن هممتَ نَفَى عزمُك مواقِـعَ الظّنّ ، وإن ٱجتمعت صَدَع فعلُك مُلْتَبِسَ الشك ؛ فاعْزِم يَهْـدِ اللهُ الى الصواب قلبَك ، وقُلْ يُنْطِق اللهُ بالحقّ لسانك ؛ فإنّ جنودك جَمّـة ، وخزائنك عامِرة ، ونفسك سخيّة ، وأمرك نافذ .

فأجابه المهـدىّ : إنّ المُشاورة والمنـاظرة بَابَا رحمة ، ومِفْتاحا بركة ؛ لا يَهْلِك عليهما رأىٌ ، ولا يَتَغيّل(٢) معهما حزم ، فأشيروا برأيكم ، وقولوا بما يحضُركم ؛ فإنى من ورائكم ، وتوفيقُ الله من وراء ذلك .

قال الربيـــع :

أيهـا المهدىّ ، إنّ تصاريف وُجُوه الرأى كثيرة ، وإنّ الإشارة ببعض مَعَـاريض(٣) القول يسيرة ؛ ولكن خراسان أرضٌ بعيدة المسافة ، مُتَراخِية الشُّقّة ، مُتَفاوِتة السبيل ؛ فإذا ٱرتأيْت من مُحْكَم التدبير ، ومُبْرَم التقدير ، ولُباب الصواب ، رأيًا قد أحكمه نَظَرُك ، وقلّبه تدبيرك ، فليس وراءَه مَذْهبُ طاعن ، ولا دُونه مَعْـلَقٌ لخصومة عائب ؛ ثم أَجْبتَ البُرُدَ به ، وٱنطوتْ الرسلُ عليه ، كان بالحَرَى ألّا يصل اليهم مُحكَمُه إلا وقد حدث منهم ماينقُضه ؛ فمـا أيْسَر أن ترجع اليك الرسل ، وترِدَ عليك الكتب بحقائق أخبارهم ، وشوارد آثارهم ، ومصادر أمورهم ؛ فتُحْدِث رأيا غيره وتَبْتَدِع تدبيرًا سواه ؛ وقد ٱنفرجت الحلَق ، وتحلّلت العُقَـد ، وٱسترخى الحِقاب(٤) ، وٱمتدّ الزمانُ ، ثم لعلّمـا مَوْقع الآخرة كَمَصْدر الأُولى ؛ ولكن الرأى لك أيها المهدىّ — وفّقك الله — أن تَصْرِف إجالةَ النّظر ، وتقليبَ الفِكَر ، فيما جَمَعْتنا له ، وٱستشرْتنا فيه من التدبير لحربهم ، والحِيَل فى أمرهم ، الى الطلب لرجلٍ ذى دين

(١) المنـة : القوة . (٢) لا يتغيل : لا يضعف . (٣) معاريض الكلام ما عرّض به ولم يصرّح وهى التورية بالشىء عن الشىء . (٤) الحقاب : شىء تتخذه المرأة تعلق به معاليق الحلىّ تشدّه على وسطها .

فاضل، وعقــل كامل، وورَع واسع، ليس موصوفًا بهوًى فى سواك، ولا متَّهما فى أَثَرة عليك، ولا ظَنينًا[1] على دُخْلَة مكروهة، ولا منسوبا الى بدعة محذورة؛ فَيَقْدَحَ فى مُلْكك، ويُرَبِّضَ[2] الأمورَ لغيرك؛ ثم تُسنِد اليــه أمورَهم، وتفوض اليه حربهم، وتأمُره فى عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك مالَزِمه الحزمُ، وخلافِ نَهْيك اذا خالَفه الرأىُ عندٱستحالة الأمور، وٱشتدادِ الأحوال التى يُنْقَضُ أمر الغائب عنها، ويُثْبِتُ رأىُ الشاهد لهـا؛ فإنه اذا فعل ذلك فوَاثب أمرَهم منقريب، وسقَط عنه مايأتى من بعيد، تَمّت الحيلةُ وقَويت المكيدةُ، ونَفَذ العمل وأُحِدّ النظر، إن شاء الله .

قال الفضل بن العباس :

أيها المهدىّ ، إن وَلِىَّ الأمورِ وسائس الحروب ربما نَحّى جنودَه، وفرّق أموالَه فى غير ماضِيق أمرٍ حَزَبه، ولا ضَغْطَة حال ٱضطرّته؛ فيَقْعد عند الحاجة إليها، وبعد التّفرقة لهـا عَديما منها فاقدا لها، لا يثِق بقوّة، ولا يصول بعُدّة، ولا يفزَع الى ثقة؛ فالرأىُ لك أيها المهدى — وفقــك الله — أن تُعْفِى خزائنَك من الإنفاق للاموال، وجنودَك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتغريرِ القتال، ولا تُسْرِع للقوم فى الإجابة الى ما يطلبون، والعطاءِ لمـا يسألون؛ فيفسُد عليــك أدبهُم، وتُجرِئَ من رعيتــك غيرَهم؛ ولكن ٱغْزُهُم بالحيــلة، وقاتِلهم بالمكيدة، وصارِعهم باللّين، وخاتِلهم بالرِّفق، وأَبْرِقْ[3] لهم بالقول، وأَرْعِد نحوهم بالفعل؛ وٱبعث البُعوثَ[4]، وجنِّد الجنود، وكتِّب الكتائب، وٱعقِد الألوية، وٱنصِب الرايات، وأظهِر أنك موجِّه اليهم الجيوشَ مع أَحْنَق قوادك عليهم، وأسوَئِهم أثرًا فيهـم؛ ثم ٱدْسُس الرُّسُل، وٱبثُث الكتب، وضَعْ بعضَهم على طَمَع من وعدك، وبعضًا على خوف

---

(١) ظنينا : متهما . ودخلة مكروهة : أى نية سيئة . (٢) ربضه أى أثبته .

(٣) أبرق وأرعد بمعنى تهدّد وتوعد . (٤) البعوث : الجيوش .

من وعيدك ؛ وأوقد بذلك وأشباهه نيرانَ التحاسد فيهم ، وٱغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تُملأَ القلوبُ من الوحشة ، وتنطوى الصدورُ على البِغْضَة ، ويدخل كلًّا من كلٍّ الحذرُ والهيبةُ ؛ فإنّ مرام الظَّفَر بالغيلة ، والقتالَ بالحيلة ، والمُناصبة بالكتب ، والمكايَدة بالرُّسل ، والمقارعةَ بالكلام اللطيف المُدْخَل فى القلوب ، القوىّ المَوْقِع من النفوس ، المعقودِ بالحُجَج ، الموصولِ بالحيل ، المبنىِّ على اللّين الذى يستميل القلوبَ ، ويَسْتَرِق العقولَ والآراء ، ويستميل الأهواءَ ، ويستدعى المُواتاة ، أنفذُ من القتال بظُبَات السيوف وأسنّة الرماح ؛ كما أنّ الوالىَ الذى يَسْتَنزِل طاعةَ رعيّته بالحيل ، ويفرّق كلمة عدوّه بالمكايدة ، أحكمُ عملًا وألطفُ منظَرا وأحسن سياسة من الذى لا ينال ذلك إلا بالقتال ، والإتلافِ للأموال والتغرير والخِطار[1] .

وليَعْلم المهدىُّ أنه إن وجّه لقتالهم رجلا لم يَسِرْ لقتالهم إلا بجنود كثيفة ، تخرج عن حال شديدة ، وتُقْدِم على أسفار ضيّقة ، وأموال متفرّقة ، وقوّاد غَشَشَة ؛ إن ٱئتمنهم ٱستنفدوا مالَه ، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له .

قال المهدىّ : هذا رأىٌ قد أسفر نورُه ، وأبرق ضَوءُه ، وتمثّل صوابُه للعيون ، ومجُد حقّه فى القلوب ، ولكن فوق كل ذى علم عليم ؛ ثم نظر الى ٱبنه علىّ فقال : ما تقول ؟

قال على :

أيها المهدىّ ، إنّ أهل خراسان لم يَخْلَعوا عن طاعتك ، ولم ينْصِبوا من دونك أحدًا يَقْدَح فى تغيير مُلْكك ، ويُرَبِّص الأمورَ لفساد دولتك ؛ ولو فعلوا لكان الخَطْب أيسر ، والشأن أصغر والحال أذلّ ، لأنّ الله مع حقّه الذى لا يَخْذُله ، وعند موعده الذى لا يُخلِفُه ، ولكنهم قومٌ من رعيّتك ، وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم والِيًا ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكما ، طلبوا حقًّا ، وسألوا إنصافًا ، فإن أجَبْتَ الى دعوتهم ونفّستَ[2] عنهم

(١) الخطار : الاشراف على هلكة .

(٢) نفست عنهم : فرجت عنهم .

قبل أن يتلاحم منهم حال، أو يحدث من عندهم فتق؛ اطعت أمر الربّ، وأطفأت نائرة[(١)] الحـرب، ووفّرت خزائن المـال، وطرحت تغر يرَ القتال، و همّل النـاسُ تحمّل ذلك على طبيعة جُودك، وسجيّة حلمك، و إسْجاح[(٢)] خليقتك، ومَعْدَلة نظرك، فأمنت أن تُنْسَب الى ضَعْف، وأن يكون ذلك فيا بَقِي دُرْبَة؛ و إن مَنَعْتهـم ما طلبوا ولم تُجبهـم الى ما سألوا، اعتدلَتْ بك وبهم الحال، وساو يتهـم فى ميْدان الخِطاب؛ فما أَرَبُ المهدىّ أن يعمد الى طائفة من رعيّتـه ، مقرّين بمملكته، مُذْعنين لطاعته ، لا يُخْرِجون أنفسهم عن قدرته، ولا يُبرّئونها من عُبُوديّته، فيُمَلّكهُم أنفسَهم ويخلَع نفسَه عنهم، و يقِفَ على الجِدَل معهم، ثم يجازِيهم السوءَ فى حدّ المنازعة ومِضمار المخاطرة؛ أيريد المهدىّ — وفّقه الله — الأموالَ؟ فلعمرى لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر منها ، ممـا يطلب منهم وأضعاف ما يدّعى قبلهم، ولو نالها لحُمِلت اليه، أو وُضعت بخرائطها[(٣)] بين يديه، ثم تجافى لهم عنها وطال عليهم بها، لكان ممـا اليه يُنْسَب و به يُعرف من الجود الذى طبعه الله عليه ، وجعل قُرّة عينـه ونَهْمَة نفسه فيه؛ فإن قال المهدىّ : هذا رأى مستقيم سديد فى أهل الخرَاج الذين شكوْا ظُلْم عمّالنا، وتحامُلَ وُلاتنـا؛ فأما الجنودُ الذين نقضُوا مواثيق العهود، وأنطَقوا لسانَ الإرجاف[(٤)] وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة ، فقد ينبغى لهم أن أجعلهم نَكَالا لغيرهم وعِظَةً لسواهم؛ فيعلمَ المهدىّ أنه لو أُتِىَ بهـم مغلولين فى الحديد ، مقرّنين فى الأصْفاد؛ ثم اتّسع لحَقْن دمائهم عَفْوُه، ولإقالة عثرتهم صَفْحُه، واستبقاهم لمـا هم فيه من حزْبه، أولمن بإزائهـم من عَدُوّه، لمـا كان بِدْعا من رأيه، ولا مُسْتَنْكَرا من نظره، لقـد علمت العربُ أنه أعظم الخلفاء والملوك عفوًا، وأشدُّها وَقْعا، وأصدقها صوْلة؛ وأنه لا يتعاظمه عفوٌ،

(١) نائرة الحرب : ما اشتعل واتقد منها .

(٢) الإسجاح : مصدر أسجح الوالى . اذا أحسن العفو .

(٣) الخريطة : وعاء من أدم وغيره .

(٤) الارجاف : مصدر أرجف القوم اذا خاضوا فى أخبار الفتن على أن يوقعوا فى الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شىء .

ولا يتكاءده(١) صفح، وإن عظم الذنب وجلّ الخطب، فالرأى للمهدىّ — وفّقه الله تعالى — أن يحُلّ عُقْدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله فى العفو عنهم، وأن يذكر أُولَى حالاتهم وضَيْعة عيالاتهم، برًّا بهم وتوسُّعًا لهم؛ فإنهم إخوان دولته، وأركان دعوته، وأساس حقّه الذين بعزّتهم يصول، وبحجّتهم يقول؛ وإنما مَثَلُهم فيما دخلوا فيه من مَسَاخطه، وتعرّضوا له من معاصيه، وآنطوَوْا فيــه عن إجابته، ومَثَلُه فى قلّة ما غيّر ذلك من رأيه فيهم، أو نُقِل من حاله لهم، أو تغيّر من نعمته بهــم، كَمَثَل رَجُلين أخَوَيْن متناصرَين متآزرَيْن، أصاب أحدَهما خَبْــلٌ عارضٌ، ولَهْوٌ حادث، فنهض الى أخيه بالأذى، وتحامَل عليــه بالمكروه، فلم يَزْدد أخوه إلا رِقّة له ولُطْفًا به، وآحتيالا لمُداواة مرضه ومراجعة حاله؛ عَطْفًا عليــه وبِرًّا به ومرحمةً له.

فقال المهــدىّ: أما علىّ فقد كوى سَمْتَ اللّبّان، وفَضّ القلوبَ فى أهل خراسان، ولكل نبأ مُسْتَقَرّ، ثم قال: ما ترى يا أبا محمد؟ يعنى موسى آبنه.

فقال موسى:

أيها المهدىّ، لا تَسْكُن الى حَلاوة ما يَجرى من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماءَ تسيل من خَلَل فعلهم؛ الحَالُ من القوم ينادى بمُضْمَرة شرّ، وخَفِيّة حقد؛ قد جعلوا المعاذير عليها ســتْرا، وآتخذوا العِلَلَ من دونها حِجَابا؛ رَجَاءَ أن يُدافعوا الأيامَ بالتأخير، والأمورَ بالتطويل؛ فيكسِروا حيــل المهدىّ فيهم، ويُفْنُوا جنودَه عنهــم حتى يَتلاحَم أمرُهم، وتتلاحق مادّتُهم، وتستفحل حربهم، وتستمر الأمور بهم؛ والمهــدىّ من قولهم فى حال غِرّة ولباس أَمَنَــةٍ، قد فَتَرلهــا وأنِس بها وسكَن اليها؛ ولولا ما آجتمَعت به قلوبُهــم، وبَردتْ عليه جلودُهم من المُنَاصَبة بالقتال، والإضمار للقِراع عن داعية ضَلالٍ، أو شيطان فسادٍ، لرَهِبوا عواقبَ أخبار الوُلاة، وَغِبّ سكون الأمور؛ فليَشْدُد المهدىّ — وفّقه الله —

---

(١) لايتكاءده: لا يشق عليه.

أَزْرَه لهم ويكَتِّب كتائبَه نحوهم ، وليضَع الأمر على أشـدّ ما يحضُره فيهم، وليُوقِن أنه لا يعطيهم خُطّةً يريد بهـا صلاحَهم إلا كانت دُرْبَةً الى فسادهم ، وقوةً على معصيتهم ، وداعيــة الى عودتهم؛ وسببًا لفساد من بحَضْرَته من الجنود، ومن ببابه من الوفود، الذين إن أقرّهم وتلك العادة ، وأجْراهُم على ذلك الأرب، ولم يَبْرَح فى فَتْقٍ حادثٍ وخلاف حَاضِر، لا يصلُح عليه دِين، ولا تستقيم به دنيا ؛ وإن طَلَب تغييره بعد آستحكام العادة، وآستمرار الدُّربةِ ، لم يصل الى ذلك إلّا بالعقوبة المفْرِطَـة ، والمؤونة الشـديدة، والرأى للمهـدىّ وفّقـه الله — ألّا يُقيـل عثرتَهم ، ولا يقبـل مَعْذرتهم ، حتى تطَأَهم الجيوشُ، وتأخذهم السيوف، ويَسْتَحِرَّ(١) بهم القتل، ويُحْدِق بهم الموت ، ويُحيط بهم البـلاء ، ويُطْبِق عليهم الذلّ؛ فإن فعل المهدىّ بهم ذلك، كان مَقْطَعَة لكل عادة سُوءٍ فيهم ، وهزيمةً لكل بادرة شرٍّ منهــم ، وآحتمالُ المهدىّ مؤونة غَزْوَتهم هـذه يَضَعُ عنـه غزواتٍ كثيرة ، ونفقاتٍ عظيمــة .

قال المهدىّ : قد قال القوم فآحكم يا أبا الفضل .

فقال العباس بن محمد :

أيها المهـدىّ :

أما المَوَالى فأخَذُوا بفُـروع الرأى ، وسلكوا جَنَبات الصواب، وتَعَدّوْا أمورا قصَّر بنظرهم عنها أنه لم تأتِ تجاربُهم عليها .

وأما الفضــل فأشار بالأموال ألّا تُنْفَـق ، والجنـود ألّا تفرّق، وبألا يعطى القـوم ما طلبوا، ولا يبذَل لهم ما سألوا،وجاء بأمرٍ بَيْن ذلك آستصغارًا لأمرهم وآستهانة بحربهم؛ وإنمـا يَهِيج جَسِيمات الأمور صغارُها .

(١) يستحرّ : يشتدّ ويقوى .

وأما علىّ فأشار باللّين و إفراط الرّفق، واذا جرّد الوالى لمن غَمط(١) أمْرَه وسفِه حقّه، اللّينَ بَحْتًا والخير مَحْضًا، لم يَخْلِطهما بشدّة تَعْطف القلوبَ عن لينه، ولا بِشَرّ يحبسهم الى خيره، فقد ملّكهم الخَلْع لعُذُرهم(٢) و وسّع لهم الفُرْجة لِثَنْى أعناقهم؛ فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطرهم ولا شدّة، فنَزْوةٌ(٣) فى رءوسهم يستدعون بها البلاءَ الى أنفسهم، ويستصرخون بها رأى المهدىّ فيهم؛ وإن لم يقبلوا دعوته ويُسرعوا لإجابته باللّين المَحْض والخير الصُّراح، فذلك ما عليه الظنّ بهم والرأى فيهم، وما قد يُشْبِه أن يكون من مثلهم، لأن الله تعالى خَلق الجنّة وجعل فيها من النعيم المقيم والمُلك الكبير ما لا يخطُر على قلب بشر ولا تدركه الفِكَر ولا تعلَمه نفسٌ؛ ثم دعا الناس إليها ورغّبهم فيها، فلولا أنه خلَق نارا جعلها لهم رحمة يسوقهم بها الى الجنّة، لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبوا(٤) بشدّة لا لينَ فيها، وأن يُرْمَوْا بشرّ لا خير معه، وإذا أضمر الوالى لمن فارق طاعتَه، وخالَف جماعتَه، الخوفَ مُفْردًا، والشرَّ مجرّدًا، ليس معهما طمع ولا لين يثنيهم، اشتدّت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم الى أحد أمرين : إما أن تدخُلَهم الحَمِيّة من الشدّة، والأَنَفَةُ من الذّلة، والامتعاضُ من القَهْر؛ فيدعوهم ذلك الى التمادى فى الخلاف، والاستبسالِ فى القتال، والاستسلامِ للموت؛ و إما أن ينقادُوا بالكُره، ويُذْعِنوا بالقهر على بِغْضة لازمة، وعداوة باقية، تُورِث النّفاق وتُعْقِب الشّقاق؛ فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قوِيَتْ لهم حال؛ عاد أمرهم الى أصعب وأغلظ وأشدّ مما كان .

(١) غمط الأمر : ازدراه . وسفه حقه : امتهنه وبخسه .

(٢) العذر جمع عذار .

(٣) النزوة : الوثوب الى الشرّ .

(٤) عصب الشيء : لواه وشدّه .

وقال فى قول الفضل :

أيها المهدىّ، أكْفَى دليل، وأوضح برهان، وأبْيَنُ خبرٍ بان؛ قد أجمع رأيُه وحَزْم نظرُه على الإرشاد ببِعْثَة الجيوش اليهم، وتوجيه البُعُوث نحوهم، مع إعطائهم ماسألوا من الحقّ، و إجابتهم الى ما سألوه من العدل .

قال المهدىّ : ذلك رأْىٌ .

قال هارون :

ما خُلِطتْ الشدّةُ أيها المهدىّ باللّين، وآنتظم أمر الدنيا بالدين، فصارت الشدّة أمَرّ فِطامٍ(١) لمـا تكره، وعاد اللين أهدى قائد الى ما تُحِبّ؛ ولكن أرى غير ذلك .

قال المهدىّ :

لقد قلتَ قولا بديعًا ، خالفتَ فيه أهل بيتك جميعا؛ والمرءُ مؤتَمَن بمـا قال، وظَنِين(٢) بما آدّعى حتى يأتى ببيّنة عادلة، وحجّة ظاهرة، فآخرج عما قلتَ .

قال هارون :

أيها المهدىّ، إن الحرب خُدْعة، والأعاجمَ قَوْمٌ مَكَرة؛ وربما آعتدلت الحـالُ بهم، وآتفقت الأهواءُ منهم؛ فكان باطن ما يُسِرّون على ظاهر ما يُعْلِنون ، وربما آفترقت الحالان، وخالَف القلبَ اللسان ، فانطوى القلب على مَحْجُوبةٍ تُبْطَن ، وآستَتَرّ بمدخُولةٍ لا تُعلَن؛ والطبيبُ الرفيقُ بِطبّه، البصيرِ بأمره، العالِم بمقدَّم يده وموضع مِيسَمه(٣)؛ لا يتعجّل بالدواء ، حتى يقع على معرفة الداء، فالرأىُ للمهدىّ — وفّقه الله — أن يَفُرّ باطنَ أمرهم فَرّ المُسِنَّة(٤)، ويَمْخَض ظاهر حالهم مَخْضَ السِّقاء بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، ومُوَالاة

(١) الفطام هنا : القطع والاستئصال .
(٢) ظنين بما ادعى : متهم بدعواه .
(٣) الميسم : المكواة يوسم بها الحيوان .
(٤) فرّ الدابة : فتح فاها وكشف عن أسنانها ينظر ما سنها . والمسنّ من الدواب ما دخل فى الثامنة .

العيون ، حتى تُهتَك حجبُ عيونهم ، وتُكْشَف أغْطية أمورهم ؛ فإن انفرجت الحال، وأفضت الأمور به الى تغيير حال أو داعية ضَلال ، اشتملت الأهواءُ عليه ، وانقاد الرجال اليه ، وامتدّت الأعناقُ نحوه بدين يعتقدونه ، وإثم يستحلّونه ، عَصَبَهم بشدّة لا لين فيها ، ورماهم بعقوبة لا عفو معها ، وإن انفرجت العيون ، واهتُصرت الستور ، ورُفعت الحُجُب ، والحالُ فيهم مَرِبعة ، والأمورُ بهم معتدلة فى أرزاق يطلبونها ، وأعمال يُنكرونها ، وظُلامات يَدَّعونها ، وحقوق يَسْألونها ، بمَـاتّة(١) سابقتهم ، ودالّة مُناصحتهم ؛ فالرأى للمهدى — وفّقه الله — أن يتّسع لهم بمـا طلبوا ، ويتجافى لهم عما كرهوا ، ويَشْعَب من أمرهم ما صدَعوا ، ويرتق من فَتْقهم ما قطعوا ، ويولّى عليهـم من أحبّوا ؛ ويداوى بذلك مرض قلوبهم ، وفساد أمورهم ؛ فإنما المهدى وأمّته ، وسَواد أهل مملكته ، بمنزلة الطّبيب الرفيق ، والوالد الشفيق ، والراعى المجرّب الذى يحتال لمرابض غنمه ، وضَوالّ رعيّته ، حتى يُبرئ المريضـةَ من داء علّتها ويردّ الصحيحةَ الى أُنس جماعتها ؛ ثم إنّ خراسان بخاصّة الدين لهم دالّةٌ محمولةٌ ، وماتّةٌ مقبولة ، ووسيلة معروفة ، وحقوقٌ واجبة ؛ لأنهم أيدى دولتـه ، وسيوف دعوته ، وأنصار حقّـه ، وأعوان عدله ؛ فليس من شأن المهدى الاضْطِغَانُ عليهم ، ولا المؤَاخَذَةُ لهم ، ولا التوغير(٢) بهم ، ولا المكافأةُ بإساءتهم ، لأنّ مبادرةَ حَسْم الأمور ضعيفةً قبـل أن تَقْوَى ، ومحاولةَ قَطْع الأصول ضئيلةً قبـل أن تغلُظ ، أحزمُ فى الرأى ، وأصحُّ فى التدبير من التأخير لهـا والتهاون بها ، حتى يَلْتئم قليلُها بكثيرها ، وتجتمع أطرافُها الى جُمْهُورها .

قال المهدى : ما زال هارونُ يقع وقع الحَيَا حتى خرج خروج القِـدْح من المـاء ، وانسلّ انسلال السيف فيما ادّعى ، فدَعُوا ما سبق موسى فيـه أنّه هو الرأى ، وثَنّى بعـده هارونُ ، ولكن من لأَعِنّـة الخيل وسياسةِ الحرب وقادةِ النـاس إن أمعن بهم اللَّجـاجُ ، وأفرطتْ بهم الدالّة ؟ .

(١) المـاتّة : الحرمة والوسيلة .

(٢) التوغير بهم : التشديد عليهم .

قال صـالح :

لسنا نبلغ أيها المهدىّ بدوام البحث وطول الفكر أدنى فراسة رأيك، وبعضَ لحظات نظرك ؛ وليس يَنْقَصّ عنك من بيوتات العرب ورجال العجم ذو دين فاضل ، ورأى كامل، وتدبير قوىّ؛ تقـلّده حربَك، وتستودعه جندك، ممن يحتمل الأمانةَ العظيمة ، ويضطلع بالأعباء الثقيلة؛ وأنت بحمد الله ميمونُ النّقيبة (١)، مبارك العزيمة، مَخْبُور التجارب، محمود العواقب، معصوم العـزم؛ فليس يقع آختيارُك، ولا يقف نظرُك على أحدٍ تولّيـه أمرك، وتُسند اليه ثغرك، إلّا أراك اللهُ ما تحبّ، وجمع لك منه ما تريد .

قال المهـدىّ : إنى لأرجو ذلك لقديم عادةِ الله فيه، وحسنِ معونته عليـه ؛ ولكن أُحبّ الموافقة على الرأى، والاعتبار للمشاورة فى الأمر المهم .

قال محمد بن اللّيْث :

أهلُ خراسان أيها المهدىّ، قوم ذَوُو عزّة ومَنَعة، وشياطين خَدَعَة؛ زُرُوع الحَمِيَّة فيهم نابتـة، وملابس الأَنَفَة عليهم ظاهرة؛ فالروِيّة عنهم عازبة (٢)، والعَجَلة فيهم حاضرة؛ تَسبق سـيولُهم مطرَهم، وسيوفُهم عَذَلَهم (٣)، لأنهم بين سِـفْلة لا يعدو مَبْلَغُ عقولهم مَنْظَرَ عيونهم، وبين رؤساء لا يُلْجَمُون إلا بشدّة، ولا يفطَمُون إلا بالمرّ؛ وإن ولّى المهدىّ عليهم وضيعا لم تَنْقَد له العظماءُ، وإن ولّى أمرَهم شريفاً تحامل على الضعفاء؛ وإن أخّر المهدىّ أمرَهم، ودافع حربَهم، حتى يُصيب لنفســه من حَشَمه ومواليه، أو بَنى عمّه أو بنى أبيه، ناصحا يتّفق عليه أمرُهم، وثِقَةً تجتمع له أملاؤهم بلا أنَفَة تلْزَمهم، ولا حميّة تَدْخُلهم، ولا مصيبة تنفّرهم؛ تَنَفّست الأيامُ بهـم، وتراخَتْ الحالُ بأمرهم؛ فدخل بذلك من الفساد الكبير، والضّياع العظيم، ما لا يتلافاه صاحبُ هذه الصِّفة وإن جدّ، ولا يستصلحه وإن جَهَد ،

(١) ميمون النقيبة : أى مبارك النفس ينجح فيما يحاول . ومخبور التجارب : خبير بها .
(٢) العازب : الغائب .
(٣) العذل : اسم مصدر من العذل بمعنى اللوم ومنه المثل "سبق السيف العذل" يضرب لما قد فات .

إلا بعـد دهر طويل وشرّ كبير ؛ وليس المهدىّ — وفّقه الله — فاطمًا عاداتهم، ولا قارعا صَفَاتهم، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما . ولا عِدْلَ فى ذلك بهما :

أحدُهما لسانٌ ناطق موصولٌ بسمعك، ويَدٌ ممثّلة لعينك، وصخرةٌ لا تُزَعْزَع، وبُهْمَة لا يُثْنَى؛ وبازِلٌ لا يُفْزِعه صوتُ الجُلْجُل، نَقِىّ العِرض، نزيه النفس، جليـل الخَطَر، قد اتّضعت الدنيا عن قَدْره، وسمـا نحو الآخرة بهمّته، فجعل الغرضَ الأقصى لعينه نُصْباً، والغرضَ الأدنى لقَدَمه مَوْطئا؛ فليس يقبَل عملا، ولا يتعدّى أملا؛ وهو رأس مَوَاليك، وأنصح بنى أبيك؛ رجل قد غُذِّى بلطيف كرامتك، ونبَتَ فى ظل دولتك، ونَشأَ على قوائم أدبك؛ فإن قلّدته أمرهم، وحمّلتـه ثِقَلهم، وأَسْنَدت اليه ثغرهم؛ كان قُفْلا فتحه أمْرُك، وبابا أغلَقه نَهْيك؛ فجعل العدلَ عليه وعليهم أميرا، والإنصافَ بينه وبينهم حاكما؛ واذا حَكَّم النصَفَة وسلَك المَعْدَلة، فأعطاهم مالهم وأخذ منهم ما عليهم، غَرَس فى الذى لك بين صدورهم، وأسكَنَ لك فى السويداء داخل قلوبهم، طاعةً راسخةَ العروق، باسقةَ الفروع، متماثلةً فى حواشى عوامّهم، متمكّنة من قلوب خواصّهم؛ فلا يبقى فيهـم ريب إلا نفَوْه، ولا يلزمهم حقٌّ إلا أدّوْه؛ وهذا أحدهما .

والآخر عُودٌ من غَيْضتك، ونَبْعَة من أَرومَتك، فَتِىُّ السّن كهل الحِـلم راجحُ العقل محمودُ الصَّرامة مأمونُ الخلاف؛ يجرِّد فيهم سيفه، ويبسُط عليهم خيره بقدر ما يستحقّون، وعلى حَسَب ما يستوجبُون؛ وهو فلان أيها المهدىّ، فسلِّطه — أعزّك الله — عليهم، ووجِّهه بالجيوش اليهـم، ولا تمنعك ضَرَاعة سنه (١)، وحداثة مولده؛ فإن الحلم والثقة مع الحداثة، خير من الشك والجهل مع الكهولة؛ وإنما أحداثُكم أهل البيْت فيما طبعكم الله عليـه، واختصّكم به من مكارم الأخلاق، ومحامد الفعال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصرامة الأنفس؛ كفراخ عِتَاق (٢) الطير المُحْكَمَة لأخذ الصـيد بلا تدريب، والعارفة

---

(١) ضراعة سنه : شبابه وحداثة سنه .

(٢) عتاق الطير : كرام الطير .

لوجوه النّفع بلا تأديب؛ فالحلمُ والعلم والعزم والحزم والجود والتؤدة والرفق ثابت فى صدوركم، مزروعٌ فى قلوبكم، مستحكمٌ لكم، متكاملٌ عندكم، بطبائعَ لازمة، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله :

أفتاء أهل بيتك أيها المهدىّ فى الحلم على ما ذكر . وأهلُ خراسان فى حال عزٍّ على ما وُصف، ولكن إن ولّى المهدىُّ عليهم رجلا ليس بقديم الذكر فى الجنود، ولا بنبيه الصّوْت فى الحروب، ولا بطويل التّجربة للأمور، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة فى الأعداء، دخل ذلك أمْران عظيمان وخَطَران مَهُولان، أحدهما : أن الأعداء يَغْتَمِزونها منه ويَحْتَقِرونها فيه، ويجترئون بها عليه فى النهوض به والمقارعة له، والخلاف عليه، قبل الاختبار لأمره، والتكشّف لحاله والعلم بطباعه . والأمرُ الآخر : أن الجنودَ التى يقود والجيوشَ التى يَسُوس اذا لم يَخْتبروا منه البأسَ والنجدةَ، ولم يعرفوه بالصِّيت والهيبة، آنكسرت شجاعتُهم، وماتت نجدتهم، وآستأخرت طاعتهم الى حين آختبارهم، ووقوع معرفتهم؛ وربما وقَع البَوار قبل الآختبار؛ وبباب المهدىّ — وفّقه الله — رجلٌ مَهيب نَبِيه حَنِيك صَيِّتٌ، له نسب زَاكٍ وصوتٌ عالٍ، قد قاد الجيوشَ وساس الحروبَ، وتألّف أهلَ خراسان، وآجتمعوا عليه بالمِقَة، ووثِقوا به كل الثقة؛ فلو ولّاه المهدىّ أمْرَهم، لكفاه الله شرَّهم .

قال المهدىّ : جانَبْتَ قَصْد الرَّمِيّة، وأبَيْتَ إلا عَصَبِيّة؛ إذ رأْيُ الحَدَث من أهل بيتنا، كرأى عشرة حُلَماء من غيرنا؛ ولكن أين تركتم ولىّ العهد .

قالوا :

لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جَدّه، ونسيجَ وَحْده؛ ومن الدين وأهله، بحيث يقصُر القولُ عن أدنى فضله؛ ولكن وجدنا الله عزّ وجل حَجَب عن خلقه، وستَر من دون عِباده عِلْمَ ما تختلف به الأيام، ومعرفة ما تجرى عليه المقادير، من حوادث الأمور ورَيْب المَنون

المُخْتَرِمة لحَوالى القرون ومواضى الملوك ، فكَرِهنا شُسُوعه[١] عن مَحَلّة المُلك ودار السلطان ومقرّ الإمامة والوِلاية وموضِع المدائن والخزائن ، ومستقرّ الجنود ومَعْدن الجود ، ومَجْمَع الأموال التى جعلها الله قُطْبًا لدار الملك ومصْيَدة لقلوب الناس ومَثابة لإخوان الطمع وثُوّار الفتن ، ودواعى البِدَع وفرسان الضّلال وأبناء الموت . وقُلْنا : إن وجّه المهدىُّ ولىَّ عهده فحَدَث فى جيوشه وجنوده ما قد حدث بجنود الرُّسل من قبله ، لم يستطع المهدىّ أن يُعْقِبهم بغيره إلا أن يَنْهَد اليهم بنفسه ؛ وهذا خَطر عظيم وهول شديد ، إن تنفّست الأيام بمَقامه ، وٱستدارت الحال بإمامه ، حتى يَقَعَ عِوَضٌ لا يُسْتَغْنَى عنه ، أو يحدُثَ أمر لا بدّ منه ، صار ما بعده مما هو أعظم هَوْلا وأجَلّ خطرا له تَبَعًا وبه مُتّصلا .

قال المهدىّ :

الخَطْب أَيسَرُ مما تذهبون إليه ، وعلى غير ما تَصِفُون الأمر عليه ؛ نحن أهلَ البيت نَجْرِى من أسباب القضايا ومواقع الأمور ، على سابِقٍ من العلم ومحتومٍ من الأمر ؛ قد أنبأت به الكتب ، ونبأت عليه الرّسُل ؛ وقد تَنَاهى ذلك بأجمعه الينا ، وتكامل بحذافيره عندنا ؛ فبه نُدبِّر وعلى الله نتوكّل . إنّه لا بدّ لولىّ عهدى وولىّ عهد عَقِبى بعدى أن يقود الى خراسان البُعُوث ، ويتوجّه نحوها بالجنود .

أما الأول فإنه يُقدِّم اليهم رسله ، ويُعمِل فيهم حِيَله ؛ ثم يخرج نَشِطًا اليهم حَنِقًا عليهم ، يريد ألا يَدَعَ أحدا من إخوان الفتن ودواعى البِدَع وفرسان الضّلال ، إلا تَوَطّأه بحَرّ القتل ، وألبسه قِناع القَهْر ، وقلّده طوق الذلّ ؛ ولا أحدًا من الذين عملوا فى قصّ جَناح الفتنة ، وإخماد نار البدعة ، ونُصْرة وُلاة الحقّ ، إلا أجرى عليهم دِيَم فضله ، وجداول نهله ؛ فإذا خرج مُزْمِعًا به مُجْمِعا عليه ، لم يَسِرْ إلا قليلا حتى تأتيَه أن قد عَمِلتْ حِيَلُه ، وكَدَحت[٢] كُتُبه ونفَذَت مكايِدُه ؛ فهدأتْ نافِرةُ القلوب ، ووَقَعتْ[٣] طائرةُ الأهواء ، وٱجتمع

(١) شسوعه : ابتعاده .

(٢) سعت ودأبت حتى أثرت .

(٣) وقعت طائرة الأهواء : خمد غضبها وسكن روعها .

عليـه المختلفون بالرضا ، فيميل نَظَرا لهم ، وبِرًّا بهم ، وتعطُّفـا عليهم ، الى عدوّ قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقهـم ، ومنع حُجّاجَهم بيتَ الله الحـرام ، وسَلَب تُجّارهم رِزقَ الله الحـــلال .

وأما الآخر فانه يوجّه اليهم ، ثم تُعتَقَد له الحجّةُ عليهم ، بإعطاء ما يطلبون ، وبذل ما يَسألون ؛ فاذا سَمَحت الفِرَق بقَرَاباتها له ، وجَنَح أهل النواحى بأعناقهم نحوه ؛ فأصغَتْ اليـه الأفئدةُ ، وآجتمعت له الكلمة ؛ وقَدِمت عليـه الوفودُ قَصَدَ لأوّل ناحيـة تَجَمعت بطاعتها وألقت بأزِمّتها ، فألبَسها جَناح نعمته ، وأنزلها ظلّ كرامته ، وخَصَّها بعظيم حِبَائه ؛ ثم عَمّ الجماعة بالمَعْدَلة ، وتعطّف عليهم بالرحمة ؛ فلا تَبْقَ فيهم ناحِيةٌ دانية ولا فِرْقة قاصية ، إلا دخَلَتْ عليها بركته ، ووصلتْ اليها منفعتُه ؛ فأغنى فقيرَها ، وجبرَ كسيرها ، ورفع وضيعها ، وزاد رفيعها ماخلا ناحيتين ؛ ناحيـةً يغلب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فتَستخفّ بدعوته ، وتبطئ عن إجابته ، وتتثاقل عن حقّه ، فتكون آخرَ من يَبْعَث وأبطأَ من يوجّه ؛ فيَصْطَلى عليها مَوجِدة ويبتغى لهـا عِلّة ، لا يَلْبَث أن يَجِدَ بحقّ يلزمهم وأمر يَجب عليهم ، فتَستَلْحِمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويَسْتَحِرّ بهم القتل ، ويحيط بهم الأسر ، ويُفْنيهم التتبّع ؛ حتى يخرب البلاد ، ويُوتِم الأولاد ؛ وناحيةً لا يبسُط لهم أمانا ، ولا يقبل لهم عهدا ولا يجعـل لهم ذمة ؛ لأنهم أوّل من فتح باب الفُرقة ، وتدرّع جلباب الفتنـة ، وربض فى شقّ العصا ؛ ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوّادهم ؛ ويطلب هُرّابهم فى لجج البحار ، وقُلَل الجبال ، ونَحمِل الأودية ، وبطون الأرض ، تَقْتيلا وتغليلا وتنكيلا ؛ حتى يدع الديارَ خرابا ، والنساء أيامى ؛ وهذا أمر لا نعرف له فى كُتُبنا وقتا ، ولا نصحح منـه غير ما قلنا تفســيرا .

وأما موسى ولىّ عهـدى فهذا أوان توجّهه الى خراسان ، وحلوله بجُرْجَان ؛ وما قضى الله له من الشخوص اليها ، والمُقام فيها ، خيرٌ للسلمين مَغَبّة ، وله بإذن الله عاقبةٌ من المُقام ، بحيث يُغْمَر فى لُجَج بحورنا ، ومَدَافِـع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ؛ فيتصاغَرُ عظيم فضـله ،

ويتذأب[١] مشرق نوره، ويتقلّل كثير ما هو كائن منه؛ فمن يصْحَبه من الوزراء ويُختار له من الناس .

قال محمد بن الليث :

أيها المهـدىّ : إنّ ولىّ عهدك أصبح لأُمّتـك وأهل ملّتك عَلَمًا ، قد تَثَنّت نحوه أعناقُها، ومَدّت سَمْتَـه أبصارَها؛ وقد كان لقرب داره منـك، ومحل جِواره لك، عُطْلَ الحال غُفْلَ الأمر واسِعَ العُـذْر؛ فأما اذا آنفرد بنفسـه وخلا بنظره وصار الى تدبيره، فإن من شأن العامة أن تتفقّد[٢] مَخَارج رأيه، وتَسْتَنْصِت لمواقع آثاره، وتسألَ عن حوادث أحواله فى برّه ومرحمته وإقساطه ومَعْدَلتـه وتدبيره وسياسته ووزرائه وأصحابه؛ ثم يكون ما سبـق اليهم أغلب الأشـياء عليهم وأملَك[٣] الأمور بهم وألزمها لقلوبهم، وأشدّها آستمالةً لرأيهم وعطفًا لأهوائهم؛ فلا يفتأ المهدىّ — وفّقه الله — ناظرا له فيما يقوّى عُمُدَ مملكته، ويُسَدِّد أركان ولايته، ويستجمعُ رِضَا أمته بأمرٍ هو أزْيَن لحاله وأظهَرُ لجماله، وأفضل مَغَبّةً لأمره، وأجَلّ موْقِعًا فى قلوب رعيّته، وأحمَـد حالا فى نفوس أهل ملّته؛ ولا أدفَع مع ذلك باستجماع الأهواء له، وأبلَغ فى آسـتعطاف القلوب عليـه، من مرحمة تظهرُ من فعْله، ومَعْدلة تنتَشر عن أثَره ومحبّـة للخير وأهله، وأن يختار المهدى — وفّقه الله — من خِيار أهل كل بَلْدة، وفُقهاءِ أهل كل مِصْر، أقواما تَسْكُن اليهم العامّة اذا ذُكروا، وتأنس الرعيّةُ بهم اذا وُصِفوا؛ ثم تُسهَّل لهم عِمارة سُبُل الإحسان وفَتْح باب المعروف، كما قد كان فُتِح له وسُهِّل عليه .

قال المهدىّ : صدقت ونصحت، ثم بعث فى آبنه موسى فقال :

أىْ بُنَىّ، إنك قد أصبحت لِسَمْت[٤] وجوه العامّة نُصْباً، ولِمَثْنى أعطاف[٥] الرعيّة غاية؛ فحَسَنَتُك شاملة ، وإساءتك نائيـة ، وأمرك ظاهر؛ فعليك بتقوى الله وطاعته، فاحتمل

(١) يتذأبّ : يخبث . (٢) تتفقد مخارج رأيه : أى تفحص عن وجوه رأيه وتدبيره . (٣) أملك الأمور : أضبطها . (٤) السمت : المذهب والقصد . (٥) الأعطاف : جمع عطف وهو الجانب .

سُخْط الناس فيهما، ولا تطلب رضاهم بخلافهما؛ فإن الله عزّ وجل كافيك مَن أسخطه عليك إيثارُك رضاه، وليس بكافيك من يُسخطه عليك إيثارُك رِضَا مَنْ سواه . ثم آعلم أن لله تعالى فى كل زمانٍ فَتْرةً من رُسُله، وبقايا من صَفْوة خَلْقه وخبايا لنُصْرة حقه، يجدّد حبل الإسلام بدعواهم، ويشيّد أركان الدين بنصرتهم؛ ويتخذ لأولياء دينه أنصارا، وعلى إقامة عدله أعوانا؛ يَسُدّون الخَلَل ويقيمون المَيَل، ويدفعون عن الأرض الفساد؛ وإنّ أهل خراسان أصبحوا أَيْدى دولتنا، وسيوف دعوتنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونَستصْرف نزول العظائم بمُناصحتهم؛ ونُدافع رَيْب الزمان بعزائمهم، ونُزاحم ركن الدّهر ببصائرهم؛ فهم عِماد الأرض اذا أُرْجِفَت كُنُفُها[1]، وخوفُ الأعداء إذا برزت صَفْحتها، وحصونُ الرعيّة اذا تضايقت الحال بها؛ قد مَضَتْ لهم وقائعُ صادقات، ومواطنُ صالحات؛ أخمَدتْ نيرانَ الفتن، وقَسمت دواعى البِدع، وأذلّت رقاب الجبّارين ولم ينفكّوا كذلك ما جَرَوْا مع ريح دولتنا، وأقاموا فى ظلّ دعوتنا، وآعتصموا بحبل طاعتنا؛ التى أعزّ الله بها ذِلّتهم ورفع بها ضَعَتَهم؛ وجعلهم بها أربابا فى أقطار الأرض، وملوكا على رقاب العالمين بعد لِبَاس الذلّ، وقِناع الخوف، وإطباق البلاء ومحالفة الأسى، وجَهْد البأس والضُّر؛ فظاهِرْ عليهم لباس كرامتك، وأنزلهم فى حدائق نعمتك؛ ثم آعْرِف لهم حقّ طاعتهم، ووسيلة دالّتهم، وماتّة سابقتهم، وحُرْمة مناصحتهم؛ بالإحسان اليهم، والتّوسعة عليهم، والإثابة لمُحْسنهم، والإقالة لمُسيئهم .

أى بُنيّ، ثم عليك العامّة فاسْتَدْعِ رضاها بالعدل عليها، وآستجلب مودّتها بالإنصاف لها؛ وتحسّن بذلك لربّك، وتوثّق به فى عين رعيّتك، وآجعل عمّال العُذْر وولاة الحُجَج مقدّمة بين عملك، ونَصَفَة منك لرعيّتك، وذلك أن تأمر قاضىَ كلّ بلد، وخيار أهل كل مِصْر، أن يختاروا لأنفسهم رجلا تولّيه أمرَهم، وتجعل العدل حاكما بينه وبينهم؛ فإن أحسن حُمِدتَ، وإن أساء عُذِرتَ . هؤلاء عمال العُذْر وولاة الحُجَج، فلا يَسقُطَنّ عليك

(١) الكنف : جمع كنف وهو الجانب . وأرجفت : زلزلت .

ما فى ذلك اذا آنتشر فى الآفاق ، وسبق الى الأسماع ، من آنعقاد ألْسِنة المُرْجِفين ، وكَبْت قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ؛ ولا يَنْفكَّنّ فى ظِلّ كرامتك نازلا ، وبِعُرًا حبلك متعلّقا رَجُلان : أحدهما كريمة (١) من كرائم رجّالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف ، له أدبٌ فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآخر له دين غير مغموز (٢) ، وموضع غير مدخول ، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأى وأنحاء العرب ووضْع الكتب ، عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب ؛ يضع آدابا نافعة وآثارا باقية ، من محاسنك وتحسين أمرك وتَحْلية ذكرك ؛ فتستشيرُه فى حربك ، وتُدْخله فى أمرك ؛ فرَجُلٌ أصبتَه كذلك فهو يأوى الى مَحَلّتى ، ويَرْعى فى خُضْرة جِنانى ؛ ولا تَدَعْ أن تختار لك من فقهاء البُلدان ، وخيار الأمصار ، أقواما يكونون جيرانك وسُمّارك ، وأهلَ مُشاوَرتك فيما تُورِد ، وأصحابَ مناظَرتك فيما تُصْدِر . فَسِر على بَرَكة الله ، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلا يَهْدى الى الصواب قلبَك ، وهاديا يُنْطِق بالخير لسانك . وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد .

(١) الكريمة : صاحب الكرم . وكرائم الرجال : أخاير رجال العرب وأحاسنهم . (٢) غير مغموز : غير مطعون : وغير مدخول : لا يداخله فساد .

٢ — رسالة أبي الرَّبيع محمد بن اللَّيْث التى كتبها للرشيد الى قُسْطَنْطِين ملك الروم

من عبد الله هارونَ أميرِ المؤمنين الى قسطنطينَ عظِيم الروم: سلامٌ على من آتبع الهدى، فإنى أحمد الله الذى لا شريك معه، ولا ولد له، ولا إلهَ غيرُه، الذى تعالى عن شبه المحْـدودِين بعظمته، وآحتجب دون المخلوقين بعزّته، فليست الأبصـار بمُدْرِكة له، ولا الأوهام بواقعةٍ عليه، انفرادًا عن الأشياء أن يُشْبِهها، وتعاليـًا أن يشبهه شيءٌ منها، وهو الواحد القهّار، الذى آرتفع عن مَبَالغ صـفات القائلين، ومذاهب لُغَات العـالمين، وفِكَر الملائكةِ المقرّبين، فليس كمِثْلِه شيءٌ، وله كلُّ شيء، وهو على كلّ شيء قدير.

أما بعـد، فإن الله جلّ ثناؤه وتباركت أسماؤه، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنْزل من آيات الوحى اليـه: ﴿ أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَـلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَـدِينَ ﴾. فرأى أميرُ المؤمنين من أحسـنِ قوله وأفضـلِ فعله، أن يكون الى سبيل ربّه داعيا، وبرسوله صلى الله عليه وسلم متأسّيا، ولقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ موافقا. وكنتَ من كتب الله المنزّلة، وآياته المفسّرة، وخَلْقه الكثير بحيثُ رجا أميرُ المؤمنين آستماعَك لمَوْعِظَتِـه، وآنتفاعُك بمُجادلتِـه انتفاعُ بَشَرٍ كثيرٍ وخَلْق عظيم قـد بُؤْتَ بأَوْزارِهم مع وِزْرِك، وآحتملتَ من آثامهم الى إثمك، فأَحَبَّ أن يدعُوك ومَنْ رجا أن ينتفع بدعوته معك، الى كلمةٍ سَوَاء بيننا وبينكم ألَّا نعبُدَ إلّا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئا ولا يتّخـذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون الله؛ فإن تولّيتم عن ذلك رغبةً عنـه، أو تركتُموه زَهَادَةً فيـه، فآشهدوا بأنّا مسلمون. وآستمعـوا ما أميرُ المؤمنين واصفٌ لكم، ومحتجّ به إن شاء الله عليكم، بقلوب شاهدة وآذانٍ واعية، ثم آتّبِعُوا أحسنَ ما تستمعون. ولا قوة إلا بالله.

فان الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه واقتص على عباده : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾. إن الله تبارك اسمُه وتعالى جَدُّه، وصَف فيما أنزل من آياته، وشرح من بيِّناته، الأُمَمَ الماضية، والقُرُونَ الخالية، والمِلَلَ المتفرقة، الذين يجعلون مع الله آلهةً أُخرى لا بُرهانَ لهم بها، ولا حجة لهم فيها، فقال : ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ٱنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

قالت العربُ الذين يعبدون الملائكةَ وأهلُ الكتاب الذين يقولون ثالثُ ثلاثةٍ بأيّما آيةٍ يا محمدُ تزعم أن الله إلٰه واحد ؛ فأنزل الله عزّ وجل فى ذلك آيةً تشهد لها العقول، وتؤمن بها القلوب ، وتعرفها الألباب، فلا تستطيع لها ردّا ، ولا تُطيق لها جَحْدا ، ذكر فيها آتصالَ خلقه وآتفاقَ صُنْعه، ليُوقِنَ الجاهلون من العرب، والضالُّون من أهل الكتاب، أن اله السماء والأرض ، وما بينهما من الهواء والخَلْق، واحدٌ لا شريكَ له ، خالقٌ لا شيء معه ، فقال : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ . فتفكَّرْ فى تفسير هذه الآية من كلام الربّ عز وجل، وما أوضح فيها من بيان الخَلْق، فإنه ما مِنْ مفكِّرٍ ينظر فيما ذكر اللهُ فيها مما بين السماء والأرض، إلّا رأى من آتصال بعض ذلك ببعض، مثلَ ما رأى فى تدبيره نفسه ، وعرَف من آتصال خَلْقه، فيما بينَ ذَوَائبِ شؤون رأسه الى أطراف أنامل قَدَمه . وفى ذلك أوْضَحُ آية وأبينُ دلالة، على أن الذى خلَقه وصنَعه إلٰهٌ واحد لا إلٰه معه، ولا من شيء آبتدعه، ولا على مثالٍ صَنعه . قد ترَوْن بعيونكم وتعلمون بعقولكم ، أن الله عز وجل خلق للأنام الأرضَ ، وجعلها موصولةً بالخَلْق ، فليس يَدْحُوها إلا لهم ، ولا يُديمها إلا معهم ، وجعل ذلك الخلقَ متصلا

بالنّبْت، لا يقوم إلا به، ولا يصلُح إلا عليه . وجعل ذلك النبتَ الذى جعله متاعًا لكم ومَعَاشا لأنعامكم، متصلًا بالماء الذى ينزل من السماء بقَدَرٍ معلوم، لمعاشٍ مقسوم؛ فليس ينجُم النبتُ إلا به ولا يَحيا إلا عنه . وجعل السحابَ الذى يبسُطه كيف يشاء متصلا بالريح المسخَّرة فى جوّ السماء تُثيره من حيث لا تعلمون ، وتَسُوقه وأنتم تنظرون؛ كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ ووصل الرياح التى يصرّفها فى جوّ السماء بما يؤثّر فى خَلْق الهواء من الأزمنة التى لا تثبُت الهَوَاجِرُ إلا بثباتها، ولا يزول عنه بَرْدٌ إلا بزوالها؛ ولولا ذلك لظلّ راكدا بالحرّ المميت، أو ماثلا(١) بالبرد القاتل . ووصل الأزمنةَ التى جعلها متصرفة متلاونة بمَسير الشمس والقمر الدائبين لكم المختلفين بالليل والنهار عليكم . وجعل مَسيرَهما الذى لا تعرفون عددَ السنين إلا به، ولا مواقعَ الحساب إلا من قِبَله، متصلًا بدَوَران الفَلَك الذى فيه يَسْبَحان، وبه يأفُلان؛ ووصل مسيرَ الفَلَك بالسماء للناظرين سواء . فهذا خَلْقُ الله عز وجل، ما فيه تباينٌ ولا تزايُل ولا تفاوت؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ . ولو كان لله شريكٌ أو معه ظَهير عليه، يُمْسك منه ما يُرْسِل، ويرسل منه ما يمسك، أو يؤخّر شيئا من ذلك عن وقت زمانه، أو يعجّله قبل مجىء إبّانه، لتفاوت الخلقُ، ولتباين الصُّنع، ولفسدت السموات والأرض، ولذهب كل إله بما خَلَق، كما قال عز وجل — وكذّب المبطلين — : ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

والعجَبُ: كيف يَصِفُ مخلوقٌ ربّه، أو يجعل معه إلها غيره، وهو يرى فيما ذكر اللهُ من هذه الأشياء صنعةً ظاهرة، وحكمةً بالغة، وتأليفا متفقا، وتدبيرا متصلا، من السماء والأرض، لا يقوم بعضه إلا ببعض، متجلّيًا بين يديه، ماثلًا نُصْبَ عينيه، يناديه الى صانعه، ويدلّه على خالقه، ويشهد له على وَحْدانيته، ويهديه الى رُبُوبيّته، ﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ

(١) فى الأصل: «مايلا» .

عَمَّا يُشْرِكُونَ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ . حقًّا ما كرّر هؤلاء الجاهلون بربهم الضالّون عن أنفسهم ، فى خلق الله النظر ، ولا رجّعوا كما قال الله عز وجل الفكر . ولو أعملوا فكرهم وأجهدوا نظرهم ، فيما تسمع آذانهم وترى أبصارهم ، من حوادث حالات الخلق ، وعجائب طبقات الصنع ، لوجدوا فى أقرب ما يرون بأعينهم : من التأليف لتركيب خلقهم ، والأثر فى التدبير بصنعهم ، ما يدلهم على توحيد ربهم ، ويقف بهم على انفراده بخلقهم . فانهم يرون فى أنفسهم بأعينهم ويجدون بقلوبهم ، أنها مخلوقة صَنْعَةً بعد صنعة ، ومحوَّلةٌ طبقةً عن طبقة ، ومنقولةٌ حالًا إلى حال : سُلَالَةً من طين ، ثم نُطْفَةً من ماء مَهين ، ثم عَلَقة ، ثم مُضْغة ، ثم عَظْما ، كساه الله عز وجل لحْما ، ونفخ فيه رُوحًا ، فإذا هو خَلْقٌ آخر ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين ، الذى خلق فى قرارٍ مكين ، من ماءٍ قليل ضعيفٍ ذليل ، خلقا صوّره بتخطيط ، وقدّره بتركيب ، وألّفه بأجزاءٍ متفقة ، وأعضاءٍ متصلة ، من قَدَمٍ الى ساق الى فخذ الى ما فوق ذلك : من مَفَاصل ما يُعْلِن أو عجائب ما يُبْطِن ، ليعلم الجاهلون ويُوقِن الجاحدون ، أن الذى صنع ذلك وخلقه ودبّره وقدّره وهيّأ ظاهره وباطنه إلهٌ واحد لاشريك معه . فلا يَذْهبنَّ ذكرُ هذا صفحًا عنكم ، ولا تسقُطْ حكمتُه جهلًا به عليكم ، وفكِّروا فى آيات الرسل وبيِّنات النُّذُر ، فإن فى ذلك فكرًا للمُبْصِرين ، وبَصَرا للمعتبِرين ، وذِكْرَى للعابدين ، والحمد لله رب العالمين .

وأميرُ المؤمنين واصفٌ لكم ، ومقتصٌّ من ذلك إن شاء الله عليكم ، مافيه شَهَاداتٌ واضحات ، وعلامات بيِّناتٌ ، ومبتدئٌ بذكر آياتِ نبينا صلى الله عليه وسلم فيما أنزل الله منها فى الوَحْى اليه ، فإنه ما أحدٌ يقرَع بآيات النبوّة قلبَه ، ويحصّن ببيّنات الهدى عقلَه ، إلا قادتْه حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لا يجد الى إنكار ما جاء به من الحق سبيلا .

فأردتُ أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقة من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وحقّه ، وما أُنْزِل اليه من ربّه عز وجل . فأَحْضِرْ كتابَ أميرِالمؤمنين فَهْمَك ، وأَلْقِ الى ما هو واصفٌ إن شاء الله سمعَك . إن الله عز وجل اصطفى الإسلامَ لنفسه ، واختار له رُسُلا من خَلْقه ، وابتعثَ كلَّ رسول بلسان قومه ، ليبيِّن لهم ما يتَّبِعُون ، ويعلِّمَهم ما يجهلون : من توحيد

الرب وشرائع الحق ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ . فلم تزل رسلُ الله قائمــةً بأمره ، متواليــةً على حقّه ، فى مَوَاضِى الدُّهور ، وخَوَالِى القُرون ، وطبقاتِ الزَّمان ، يصدِّق آخرُهم بنبوّة أوّلهم ، ويصــدِّق أوّلُهم قولَ آخرهم ؛ ومَفَاتِحُ دعوتهم واحدةٌ لا تختلف ، ومَجَامعُ ملَّتهم ملتئمةٌ لا تفترق ، حتى تناهت الولايةُ والوراثة التى بنَى عيسى عليه السلام عليها وبشَّر بها ، الى النبيّ الأُمّىّ الذى انتخبه الله لوَحْيه ، واختاره بعلمه ؛ فلم يزل ينقلُه بالآباء الأَخَاير ، والأمَّهات الطَّوَاهر ، أمّةً فأمّة ، وقَرْنا فقرنا ، حتى استخرجه الله فى خيرِ أوان ، وأفضل زمان ، من أَثْبت مَحَاتد(١) أُرُوماتِ(٢) البريَّة أصلا ، وأَعْلى ذوائب نَبَعاتِ(٣) العربِ فَرْعا ، وأَطْيبِ مَنَابتِ أعيــاص(٤) قُرَيش مَغْرِسا ، وأرفعِ ذُرَى مجد بنى هاشم سَمْكا : محمدٍ صلى الله عليه وسلم خيرِها عند الله وخلقِه نَفْسا ، على حين أَوْحشتِ الأرضُ من أهل الإسلام والإيمان ، وامتلأتِ الآفاقُ من عَبَدةِ الأصنام والأوثان ، واشتعلت البِدَعُ فى الدين ، وأَطْبقت الظُّلَم على الناس أجمعين ، وصار الحق رَسْما عَافيا ، خَلَقا بَاليا ، ميتا وسط أموات ، ما إن يُحِسُّون للهدى صوتًا يسمعونه ، ولا للدين أثرا يتَّبعونه . فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائمــا بأمر الله الذى أُنْزِل إليه ، يدعوهم الى توحيد الرب عز وجل ، ويُحَذِّرهم عقوباتِ الشِّرْك ، ويجادلُهم بنور البرهان ، وآيات القرآن ، وعلامات الإســلام ، صابرا على الأذى ، محتملا للمكروه ؛ قد ألهمه الله عز وجل أنه مظهرُ دينِه ، ومُعِزُّ تمكينه ، وعاصمه ومستخلفُه فى الأرض ، فليس يَثْنِيه رَيْب ، ولا يَلْوِيه هَيْب ، ولا يَعْنِيه أذى ؛ حتى اذا قهرت البيِّناتُ ألبابَهم ، وبَهرتِ الآياتُ أبصارَهم ، وخَصَم نورُ الحقِّ حُجَّتَهم(٥) ، فلم تمتنع القلوبُ من المعرفةِ بدونِ صِدْقِه ، ولم تجد العقول سبيلا الى دفع حقِّه . وهم على ذلك مكذِّبون بأفواههم ، وجاحدون بأقوالهم ، كما قال الله عز وجل العَلِيمُ بمــا يُسِرُّون ، الخابر بما يُعْلِنُون : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ بَغْيا وعداوة ، وحَسَدا ولجَاجة ، افترض

(١) محاتد : جمع محتد ، وهو الأصــل . (٢) أرومات : جمع أرومة ، وهى الأصــل .
(٣) نبعات : أصول كريمة . (٤) أعياص قريش : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر ، وهم : العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص . (٥) فى الأصل : ‹‹فلا›› .

الله عليه قتالهم ، وأمره أن يجرّد السيف لهم ، وهم فى عصابة يسيرة ، وعدّة قليلة ، مستضعفين مستذلّين ، يخافون أن يتخطّفهم العربُ ، وتداعى[(١)] عليهم الأممُ ، وتستحملهم[(٢)] الحروبُ ، فآواهم فى كنفه ، وأيدهم بنصره ، وأنذرهم بمقدمة من الرعب ، ومشغلة من الحق ، وجنودٍ من الملائكة ، حتى هزم كثيرا من المشركين بقلّتهم ، وغلب قوةَ الجنود بضعفهم ، إنجازًا لوعده ، وتصديقا لقوله : ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فأحسِن النظر وقلِّب الفكر فى حالات النبىّ صلى الله عليه وسلم من الوحى قائما لله ، لتجد لمذاهب فكرك وتصاريف نظرك ، مضطربا واسعا ، ومعتمدا نافعا ، وشُعوبا جمّة ، كلّها خيرٌ يدعوك الى نفسه ، وبيانٌ ينكشف لك عن محْضه . وأخبِرْ أميرَ المؤمنين ما كنتَ قائلا لو لم تكن البعثة للنبىّ — صلى الله عليه وسلم — بلغتك ، ولم تكن الأنباءُ بأموره تقرّرتْ قِبلَك ، ثم قامت الحجةُ بالاجتماع عندك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : إنه نَجَم بين ظَهْرانى مثلِ هذه الضّلالات المستأصلة ، والجماعات المستأسدة[(٣)] ، التى ذكر أمير المؤمنين : من قبائل العرب ، وجماهير الأمم ، وصناديد الملوك ، ناجمٌ قد نصب لها وغَرِى بها ، يجهّل أحلامَها ، ويكفّر أسلافها ، ويفرّق أُلّافها ، ويلعن آباءها ، ويضلّل أديانها ، وينادى بشهاب الحق بينها ، ويجهر بكلمة الإخلاص الى من تراخى عنها ، حتى حميت العربُ ، وأنفت العجمُ ، وغضبت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه اليه ، وحيدا فريدا ، لا يحفِل بهم غضبا ، ولا يرهب عنتا ، يقول الله عز وجل : ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أكنتَ تقول فيما تجرى الأقاويلُ به وتقع الآراءُ عليه ، إلّا أنه أحدُ رجلين : إما كاذبٌ يجهل ما يفعل ويَعْمَى عما يقول ، وقد دعا الحتفَ الى نفسه ، وأذن اللهُ لقومه فى قتله ، فليست الأيام بمادّة ولا الحالُ بثابتة له إلّا ريثما تستلحمه[(٤)] أسبابهم ، وينهض به حلماؤهم ، غضبًا لربّهم ، وأنفةً لدينهم ، وحميّةً لأصنامهم ، وحسدًا من عند أنفسهم . وإما صادقٌ

(١) أصله تتداعى فحذفت إحدى تاءيه ، ومعناه يجتمعون عليهم ويتألبون بالعداوة .

(٢) تستحملهم : تلق عليهم حملها وعبأها . (٣) المستأسدة : القوية . (٤) تستلحمه : تعلق به وتنشب .

بصــيرٌ بموضع قدمه ومَرْمَى نَبْله ، قد تكفَّل الله عز وجل بحفظه ، وصحبه بعزّه ، وجعله فى حِرْزه ، وعصمه من الخَلْق ، فليست الوحشةُ بواصلة مع صحبة الله اليه ، ولا الهيبة بداخلة مع عصمة الله عليه ، ولا سيوفُ الأعداء بمأذونٍ لها فيه . ثم ان آيتكم(١) يا أهلَ الكتاب لو قيـل لكم : إن الرجل الذى يدّعى العِصْمة وينتحل المَنَعـة ، قد لجمت الأمُور به على ما قال ، وسَـلِمتِ الحالُ له فيما آدّعى ، حتى نصَب لعمارات(٢) العـرب ، وجماعات الأمم ، يقاتل بمن طاوعه مَنْ خالفه ، وبمن تابعـه من عانده ، جادّا مشمِّرا ، محتسبا واثقًا بموعود الله ونصره ، لا تأخذُه لومةُ لائم فى ربه ، ولا يوجد لَدَيْه غَميزةٌ(٣) فى دينه ، ولا يلفته خِذْلان خاذلٍ عن حقّه ، حتى أعزَّ الله دينَـه ، وأظهر تمكينَه ، وآنقادتْ الأهواء له ، وآجتمعت الفِرَقُ عليـه ، ألم يكن ذلك يزيد حقه يقيناً عندكم ، ودعوتَه ثبوتًا فيكم ، حتى تقول الجماعة من حُلَمائكم وأهلُ الحُنْكة من ذوى آرائكم : ما كان الرجل ، اذ كان وحيـدًا فريدا قليلا ضعيفا ذليـلا معروفا بالعقل منسـوبا الى الفضل ، ليجترئَ أن يقول : إن الله عز وجل أَوْحى اليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يَعْصِمه من العرب جميعا ويمنَعه من الأمم طُرّا ، حتى يبلِّغ رسالاتِ ربه ، ويُظْهِرَه على الدين كلّه ، ويَدْخُل الناسُ أفواجًا فى دينه ، إلّا وهو على ثقة من أمره ، ويقين من حاله .

فسبحان الله ! يا أهلَ الكتاب ما أَبْين حقَّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمن طلبه ، وأَسْهله لمن قصَد له . وآستعملوا فى طلبه ألبابَكم ، وآرفعوا ...(٤) أبصاركم ، تنظُروا بعَوْن الله اليـه ، وتَقِفُوا ان شـاء الله عليـه ؛ فإن علاماتِ نبوّته وآياتِ رسالتِـه ، ظاهرةٌ لاتَخْفى على من طلبها ، جمّـةٌ لايُحْصَى عددُها ، منها خواصُّ تعرِفها العـربُ ، وعوامُّ لا تدفعها الأمم ؛ فأما الخواص المعروفة لدينا ، المعلومةُ عنـدنا ، التى أخذتْها الأبناءُ عن الآباء ، وقبِلها الأتباعُ عن الأَسْلاف ، فأمور قد كثرت البيناتُ فيها ، وتداولت الشهادات عليها ، وثبتت الحجج بها ، وتراخت الأيام ببعضها ، حتى رأيناه عِيَانا ، وقبِلْنـاه إيقانا ؛ فهى أَظْهر فينا من الشمس ،

(١) كذا فى الأصل . (٢) عمارات العرب : أحياؤها العظيمة . (٣) غميزة : مطعن .
(٤) بياض فى الأصل بمقدار كلمة .

وأبين لدينا من النهار، ولكن غيّبت الأزمانُ عنكم أمرَها، ولم ينقـل الآباءُ اليكم علمَها، وما لا يُدْرَك إلا بالسمع موضوعُ الحجـة عن العقل، فليس أميرُ المؤمنين مُحَاجًّ لكم، ولا قاصـدٍ اليكم من قِبلها . وأما الآياتُ العـوام والدلالات الظاهرة فى آفاق الأرَضين، القاطعةُ لحُجج المُبْطلين، التى لا تنكر عقولُ الأمم وجوبَ حقّها، ولا تدفع ألبابُ الأعداء صحةَ أمرها، فسَيُوبِخُها أميرُ المؤمنـين مسالك أسماعكم، ويُعيـد بها حجةَ الله فى أعناقكم، من وجوهٍ جمّة وأبوابٍ كثيرة، إن شاء الله : منها أنه لم تزل الشياطينُ، فيما خلا من فَتَرات الرسل ونَدَراتِ النُّذُر، تصعَدُ الى سماء الدنيا، وتُنْصِت للملأ الأعلى فتسترق السمعَ وتحتفظ العلمَ، وتنزل به الى كلّ أفّاكٍ أثيم، يَبْنُون أكاذيبَهم على واضح صدقه، ويُنَفّقون أباطيلَهم بحسب حقّـه، خلطًا للباطل فيه، وسوءها[(١)] للعباد عليه . فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسـلم وأنزل آياتِ القرآن اليه، حُرِست السماءُ بالنجوم، ورُميت الشياطينُ بالشُّهُب، وآنقطعت الأباطيـلُ، وآضمحلّت الأكاذيب، وخلَص الوحىُ، فبطَلتِ الكُهّان، وضلّت السُّحّار، وكذَبتِ الأحلام، وتحيّرت الشياطين، فكانت آيةً بينةً، وعلامةً واضحة، وحجةً بالغة، تبهر قرائحَ العـقول، وتخرق حُجُب الغيوب، فلا يقوم مع ضيائها ظُلْمة، ولا يثبُت عند مُحْكَمها شُـبْهة، ولا يُقيم معها فى محمد صلى الله عليه وسـلم شكٌّ، لا من أصحابه خاصـةً ولا ممّن جاء بعده عامة . وإنما جعلها الله عز وجل آيةً باقيةً فى الغَابِرين، وحِرَاسةً ثابتـة من الشياطين، لأن الله جل وعلا جعل نبينا صلى الله عليه وسلم آخرَ النبيين، فليس باعثًا بعده نبيًّا يكذّب أقاويلَ الكَهَنة، ويقطَع أخابير الجِنّة .

وستقول، فيما يذهب اليه الظنّ ويقع عليه الرأى، أنت ومن عقَل من أمتك وأهـل ملتك : هذه آية حاسمـةٌ وحجة قاطعـة بينة قائمة، مستعلية لأمرها، مسـتغنيةٌ بنفسها، لا تحتاج الى ما قبلها، ولا تُتّكل على ما بعـدها، إن أقرت العقول بـا تقول، أو قامت البينة على ما تدّعى، بلى، ثم تقول : وأنّى لك بالبينة، ولسنا نُقر بكتابك، ولا نؤمن برسولك،

(١) كذا فى الأصل .

ولا نقبَـل قولَك فيما قد سبقَنا وإيّاك زمانُه، وحجبتِ الغُيوبُ عنّا وعنك علمَه؛ فأرجعُ اليكم إن قلتم ذلك؛ فإن وُجْدانَ القضاة قبل طَلَب البينات .

وليس يجعَل أميرُ المؤمنين فيما يُنَازِعُك ويُحَاجُّك فيه حاكما غيرَ عقلك، ولاقاضيا سوى نفســك؛ ولكنه يذكّرك اللهَ الذى اليــه مَعَادك وعليــه حِسَابك، لمـّا جعلتَ التفهُّم لمسألته مِن بالك، وركبتَ حدودَها فى جوابك، عادلا بالقِسْط، قاضيا بالحق، قائلا بالصدق ولو على نفسك، ناظرا بالأَثَرة لدينك؛ فلقد وفَّق الله لك آية، وأهْدى اليك بينة، لا تستطيع دفعَها لحجْبها عن عقلك، ولا حِجَابا لنُورها دون بَصَرك، فلا تدفَع الآية بقولك، والبينـةَ بلسانك، جَحْدا بقَطْع وصولِ الحُجَج اليـك، ويد(١) تُغْلق أبوابَ الفهم عنك؛ فإن اللسان لك مُدَاوَلٌ حيث شئت، ومنقادٌ تُصَرِّفُه فيما هَويت؛ ولكن ٱنصب نفسك للفهـم وأنت شهيـد، وأَرِدِ الحقَّ وقبـولَه فيما تريد . فاذا تصوّرتَ البيناتِ مجسَّدة فى قلبـك، وتبيَّنْتَ الحُجَج ممثَّـلة لنظَرك، قــد أضاء صــوابُها لك وقرَع حقُّها قلبَك، فاجعل القولَ بها شِعارًا للسانِ به متَّصلا . وٱفْهَم المسئلة فهَّمَك اللهَ الحقَّ، وجنَّبك الجحدَ، ما تقول أنت ومَنْ قِبَلَك فى رجلٍ كان يتيماً ضعيفاً أجيراً سَاهيا لاهيا عائلا خاملا، لم(٢) يتل كتابا، ولم يتعلم خطا، ولم يَكُ فى مَحَـلَّة علم، ولا إرْثِ مُلْك، ولا مَعْدن أدب، ولا بيتِ نبوّة، فتراقَتِ الأيامُ به، وٱتصلتِ الحالُ بأمره، حتى خَرج الى العرب عامـة والقبائل كافة، وحيـدا طَريدا شَريدا، مخـذولا مجهولا، مجفُوًّا مرمِيًّا بالعقوق لآلهتهم، مقـذوفا بالكذب على أصنامهم، منسوبا الى الهَجْر لأديانهم، وهم مُجْمِعُون على دَعْوة العصبية، وحَمِيَّة الجاهلية، مُتَعادُون مُتَبَاغُون، مختلفـةٌ أهواؤهم، متفرقة أمْلاؤهم، يتسافَكُون الدماء، ويتنـاوَحُون النساء، ويستحِلُّون الحُرَم، لا تمنَعهم ألفَـة، ولا تَعْصِمُهم دَعْوة، [ولا] يَحْجِـزُهم بِرّ، فألَّف قلوبَها، وجمَع شَتِيتَها، حتى تناصرت القلوب، وتواصلت النفوس، وتَرَافدت الأيدى؛ ثم ٱجتمعت الكلمـة، وٱتفقت الافئـدة، حتى صار غايةً لمُلْقِ رِحَالهم، ونهـايةً لمُنْتَجع

---

(١) لعله : ولا تغلق . (٢) فى الأصل : لا .

أسفارهم، وصاروا له حزبا متفقين، وجندا مطيعين، بلا دنيا بسطها لهم، ولا أموال أفاضها بينهم، ولا سلطان له عليهم، ولا ملك سلف لآبائه فيهم، ولا نباهة كانت له بين ظهرانيهم. أتقول إنه [ما] قال ذلك كله إلا بوحي عظيم، وتنزيل كريم، وحكمة بالغة! فإن قلت ذلك فقد أقررت أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول، وتركت ما كنت تقول إنه لم يدركه ولم يبلغه إلا بعقل سديد، ونظر بعيد، ورفق لطيف، ورأى وثيق، استبى به عقول الرجال، واستمال عليه أفئدة العوام. فإن قلتم ذلك فأنا سائلكم بإلهكم الذى تعبدون، ودينكم الذى تنتحلون، لما صدقتم أنفسكم وتجنبتم الهوى عنكم: أتؤمن قلوبكم، وتقر عقولكم، ويحتمل نظركم، أن محمدا صلى الله عليه وسلم الذى وصفتموه بكمال العقل، وبيان الفضل، ورفق التدبير، كان يقول لرجالات العرب، وجماعات الأمم، [و] دهاة قريش: إن من آيات نبوتى، ودلالات رسالتى، وعلامات زمانى، أن الشياطين ترمى بنجوم السماء، ولم تك ترمى بها فيما خلا؛ ثم يجعل ذلك كتابا يقرأ، وقرآنا يتلى، وهو كاذب فيما تلا، ومبطل فيما ادعى، إبطالا تدركه عيون الناظرين، وكذبا يظهر لجميع العالمين! سبحان الله! أرأيتم أن لو كان فيما قال من الكاذبين، وعلى ما ادعى من الآثمين، ثم حاول إبعاد القلوب، وإنغال الصدور، وإنفار النفوس، وتفريق الجموع، أكان يزيد على ذلك!

فيا أهل الكتاب لا يحملنكم الإلف لدينكم على اللعب بتوحيدكم! فلعمر الله لئن تداركتم أنفسكم وناصحتم نظركم لتعلمن أن محمدا صلى الله عليه وسلم لو حاول الكذب أو رام الإفك، لما كان يترك جميع الأرض، وما يغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض، ويقصد للسماء المتصلة بالبصر، البارزة للنظر، التى لا تخفى على بشر، ولا تغيب عن أحد، فيدعى فيها كذبا ظاهرا، وإفكا بارزا مكشوفا، لا يبقى صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى، إلا عرف أنه إفك وزور، وكذب وغرور، ولا سيما اذا كان يلقى ذلك الى أقوام أكثرهم أعراب، ليس بينهم وبين السماء حجاب، إنما يراعون الكواكب ويتفقدون الغيوم، فأبعد عهد آخرهم بها تفقده لها ونظره اليها، ساعة أو ساعتين، أو ليلة أو ليلتين.

لعَمْرُ الله لو عثّرت العربُ من أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم على كذبٍ لكان أوّل من يُوَاثِبه به ويُجَادِله فيه أعداؤُه من قريش عامة، وحُسَّادُه من جيرته خاصة، ونظراؤه من أهل بيته دِنْيَةً(١) الذين كانوا يستعيرونه لكلّ طريق، ويقعدون له على كل سبيل، ويتساءلون من أمره عن كل ذى حادث، فيتعلّقون بالحروف المُشْكِلة، والآيات المُشْتَبِهة، جَدَلًا وخصومة بها، وطعنًا وإلحادًا ومنازعة فيها، حتى لقد وصفهم الله بفعالهم، وأخبر عن ذلك من أمرهم، فقال عز وجل: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ وما كان الله عز وجل ليقولَ ذلك ولا لأحد أن يقوله على الله فى أمرهم إلا عن خصومةٍ شديدة، ومنازعة بليغة، ومجادلة معروفة. فأحسنِ النظرَ لنفسك، ولا تَهْلِكَن شفقةً على مُلْكك؛ فَايمُ اللهِ لئن قلتَ إن النجوم شيء كانت العرب تراه بعيونها وتعرفه بقلوبها، فما كان محمد صلى الله عليه وسلم، وهو عارف بها غير جاهل لها، ليقولَ فيها إلا حقًّا، وينتحل فيها إلا صدقا، لقد ثبتت فروع كلامك فيها على أسِّه، ووصلتَ آخرَ قولك له بأوّله، ثبوتا على ما ذكرتَ من عَقْده، ولزوما لما فرّطتَ من نظره، ولكنك لا تجد مع الإقرار بذلك بُدًّا من التصديق برسالته، ولا مذهبا عن الإيمان بنبوّته.

ولئن زعمتَ أنه ادّعى أمر النجوم كذبا وانتحلها باطلا، عارفا كان بها أم جاهلا، لقد نسبتَه من الخطأ الذى لا يَعْمَى عن بصره الى ما يخطئ فيه بَشَرٌ، فأكذبت نفسك، وتركت قولك: إنه لم يكن التأليفُ لقلوب العرب والجمعُ لشتِيت القبائل، إلا برأى سديد، وعقلٍ أصيل، ورفق بالغ، الى أحد أمرين لا تجد لكلامك وجها تذهب اليه غيرَهما، ولا مَحْملا تضعُه عليه سواهما: إما أن تقول: إنه ألّف قلوبَ العرب، وفرّق جُموعَ الأمم بتنزيل الوحى، فتؤمن أنه نبيّ؛ وإما أن تقول: فعل ذلك بجهل؛ وهذا قول لا يُقْبل. كيف يصفه أحد من الجاحدين به المكذِّبين له بغباوة، أو يرمونه بجهالة، وهم يجَوِّزون به حدود الأنبياء، ويرفعونه فوق أمور العلماء، ويتخطّون به مراتبَ الحكماء، ومنازل الناس

(١) كذا فى الأصل.

تكثيرًا لعلمه، وتسديدًا لعقله، وتثبيتًا لفضله، فيما لا يقدر الخلقُ عليه ولا تهتدى الألسنُ اليه؛ حتى لقد نَحَلُوه فعلَ الربّ الذى لا يقدر عليــه الخلق فى وجوه كثــيرة وأنحاء جمة : من ذلك أنه اذا قالت البقايا من أمتنا : كان محمد صــلى الله عليه وسلم يُخبرنا بالغُيُوب قبــل ظهورها، ويَصِفُ الأمورَ قبل حُلُولها، ويتجاوز [ما يكون] فى زمانه من ذلك الى ما يكون فى زماننا غيبًا أطلعه الله عز وجل عليــه، أضافوا ذلك علمًا اليه، فقالوا : كان أعلم الناس بمواقع النجوم، وأبصرَهم بمنــازل البُرُوج، وأنظرَهم فى دقائق الحساب . كيف ولم يكن الحجــاز دارَ نجوم ولا محلَّ حساب ولا معــدن أَدَب ! بل كيف والمنجِّم يقيس ويخطئ، ويشك فيما يدّعى، وهو أخو صواب لا شك فيه، وفارس صدق لا قياس معه .

ومن ذلك أنه اذا قالت العلمــاء من المسلمين : كان نبينا صلى الله عليه وســلم [عليما] بباطن أخبــار النبيين، وخَفِيّ قِصَص القرون الأوّلين، قالوا : كان أحيا النــاس قلبًا، وأوسعَهم سَرَبا، وأسرَعهــم أخذا، يتتبّع ذلك ويحبــه، وقد رواه وعَلِّمه . سبحان الله! أولا يعلمون أن المتعلّم معروفُ المعلِّم، متفاوتُ الحالات، متنقّل الطبقات، وأنه ما أحدٌ يؤدَّب صغيرًا أو يطلب العلم كبيرا، إلا وله درجاتٌ فى علمه، وتاراتٌ فى أخذه، ومنازلُ فى تعلُّمه، تارة تلميذ، وتارة مُقَارِبٌ، وأخرى حاذق؛ وبكل ذلك موصوفٌ من أهله، معروفٌ عنــد قومه، ظاهرٌ بِخيرته، مستفيضٌ فى عشيرته، لا يجْهَل أمرُه، ولا يخفَى ذكْره، ولا يُنْسَى عنــد مواضع الحاجة اليــه، وتارات الاحتجاج به عليه . ولو كان ذلك معروفًا فيهم، أو موجودا لديهــم، أو ظاهرا عنــدهم، لمــا أمره الله عز وجل أن يحتجّ عليهم ويقول فى ذلك لهم : لقد لَبِثْتُ فيكم عُمُرًا من قبله، لا أتلو قرآنا، ولا أدَّعى وحيا، أفلا تعقِلون !

وآيم الله ! لو كانوا يعقلون أو ينظرون، لعلموا أن معلِّمــه على غير الملة التى يعرفون، لأنه لهم من المخالفين، وعليهم من الطاعنين، يذكر فَضَائح قولهم، ومَعَايبَ أمرهم، ومَخَازِىَ أســلافهم، وعوائر أديانهم؛ وإنه لو كان معلّمه نَصْرانيًا لدعاه الى النصرانيــة، أو يهوديًا

لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسيًّا لدعاه الى المجوسية . ولو لم يكن له معلّم لمّا وقع على الحقيقة هدايةً من تلقاء نفســه ومعرفةً بقوّة عقله . ولو كان معلمه الشيطانَ لمّا دعاه الى عبادة الرحمن ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر الأصــنام ، وصلة الأرحام ، والإصــلاح فى الأرض ؛ كيف [و] كان الشيطان يصُدّ الناسَ عن سبيله ، ويُزَهّدهم فى دينه ، وينهاهم عن طاعته ، ويخرجهم من عبادته ، ويُدخلهم فى مَسَاخطه ، ويحملهم على معَاصيه ! إنه اذًا لرحيمٌ بهم ، ناظرٌ لهم ، شفيقٌ عليهم ، كأنه هو المبعوثُ اليهم ؛ كلا ! ما كان ليُنْقِذهم من حَبَائله ، ويُخَلِّصهم من مَصَايده ، ويُخْرِجَهم من ولايتــه وطاعته وسلطانه وخُدَعه وفتنته وحزبه ، الى غير ذلك من أمره . وما كان لينهى العرب أن يقتــلوا أنفسهم ، ويتناوحوا حُرَمهم ، ويُؤْذُوا ذرِّيتهم ، ولا ليقولَ لهم : لم تعبــدون نَحِيتَ الحجارة التى جعلها الله لكم عارا ، وتَدَرُون عبادةَ الربّ الذى خلقكم أطوارا ! هيهاتَ ! لقد ذهبتم بالشيطان الرجيم الى صراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولا تُنكره العقول ، وتدفَعه القلوب ، وتستوحش منه النفوس . أَلَا تسمعون الى قول الله عز وجل : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ فما كان الشيطان ليرضى للعرب باللعنة والبكم والعمى والصمم ؛ فاتّقِ الله ولا تكن من الجاحدين .

ومنها أنه اذا قالت الفقهاء والحكماء : أتانا محمد — صلى الله عليه وسلم — بكلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولم تقع القلوبُ على لُغته ، له رَوْنَقُ كحَبَاب المـاء ، وزِبْرِجٌ يعلو ولا يُعْلَى وعجائب لا تَبْلَى ولا تفنَى ، وجِدّةٌ لا تتغيّر ، [قالوا] : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — أبلغَهم قولا ، وأحسنهم وصفا . فيا سبحان الله ! ألا يعلمون أن لو كان القرآن كلاما للعباد لما أقرّت الأعداءُ من ... ...(١) بفضله ، ولا عَجَزتْ القبائل طُرًّا عن مثله ، وهو يناديهــم فى الكتاب ويتحدّاهم فى الوحى ، بصوت رفيع ، ونداء سميع ، فيقول : فأْتُوا بسورةٍ مِنْ مِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وهم فرسان الكلام ، وإخوان البلاغة ، وأبناء الخُطب ، وأهل عداوة له وبغى

(١) بياض فى الأصل بمقدار كلمة .

عليه ، فتستحسر الأبصار ، وتثقُل الأسماع ، وتنعقد الألسُن ، وتخْرَس الخطباء ، وتعجز البلغاء ، وتَحار الشعراء ، وتستسلم الكُهّان . ثم لقد قايست البُصَراءُ بالكلام والعلماءُ بالمنطق ، بين ما بأيدينا من كلام النبى — صلى الله عليه وسلم — وما جاء به من كلام الوحى ، فاذا بينهما بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس بتشبه له ولا مدانٍ ولا قريب . وكذلك ينبغى لكلام الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألّا يشبه قولَ العباد فى تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه ؛ لأن الله عز وجل لا يشبهه شىء من ذلك أنه اذا قال المسلمون : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — يُرى ماضِىَ أسلافنا وصُلّح آبائنا من العجائب العظام ، والآيات الكبار ، ما هو جديدٌ عندنا ، بيّنٌ قِبَلَنا لم يَعْفُ أثرُه ، ولم يَدْرُس خبرُه ، ولم يتقادَمْ عهدُه : من شجرةٍ ناداها فأقبلتْ ثم أمرها فرجعتْ ، ومن نحو بعيرٍ تَظَلَّمَ ، وذئبٍ تكلم ، وأشباهٍ لذلك كثيرة ، ونظائرَ له عجيبة ، قالوا : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — كاهنا حاذقًا ، وساحرا ماهرا ، يُشَبِّه بالخيال ، ويأخذ بالأبصار . كيف والجموعُ الكثيرةُ تصدُرُ عن الأطعمةِ اليسيرةِ والمياهِ القليلةِ ، شِباعًا رِوَاء ، أيكون ذلك والسحر سواءً ! والأخذُ بالعيون لا يجرى فى البطون ! ولو كانوا ينظرون لدينهم ويُنْصِفون من أنفسهم ، لعلموا أن أمر الساحر يدور على إفكٍ وغُرور ، وأن لمحمد — صلى الله عليه وسلم — آثارًا قائمة ، ومنافعَ دائمة . ثم لو كانت الكهَانةُ والسحرُ يبلُغان مثل هذا من الأمر ، لبطَلَتْ آياتُ الكُتُب ، وعلامات الرسل ، ولَعَلَت الشُّبْهة ، وسقَطت الحجّة ، وكَذَبَت النبوّة ، ولَبَطَل ما كان [يفعله](١) عيسى عليه السلام : من إبرائه الأكمَهَ والأبرصَ وإحيائه الموتى . فلا يكونن التقليدُ للرجال مبلغَ علمك ، ولا القبولُ لدعواهم بلا بيِّنة .

ومن ذلك [أنه] اذا قالت البُصَراء من أمتنا والعلماء بملتنا : كان النبىّ — صلى الله عليه وسلم — أُمّيًّا لا يُحسن الكتابَ وحافظا لا ينسى القرآن ، وقلما يجتمع العقل السديد والحفظ السريع والنسيان البطىء ، قالوا : كان أخطّ الناس يدًا ، وأذكاهم حفظًا ، كان يكتب بالنهار ، ويدرس بالليل .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون ، لما خَفيت الصحف له ، ولا آكْتُتِمت الدراسةُ عليه ، ولَمَا كان يُطيق سَتْرَها من أهله ، ولا حِجابَها دون قومه . وكيف تُؤْمن القلوب وتُقِرّ العقول أنّ رجلا كبيرا حَمَل علما كثيرا وحِكَمًا جَمَّاء : من آيات متشابهة ، وسُوَرٍ متوالية ، وهو صاحب أسفار مترامية (١) ، وأخو حربٍ دائمة ، لا يبطئ لفظه ، ولا يسقط حفظه ! لولا (٢) أن الله عز وجل كَفَاه أن يُحَرِّكَ به لسانه ، وضَمِن له جَمْعَه وقُرْآنَه ، فقال عز وجل : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ فلم يكن يُسقط واواً ولا ألفا ، ولا يَنْسَى كلمةً ولا حرفا . ما أبينَ هذا وأعجبَه ! وأعجبُ منه المنكِرُ له .

وأما قولهم في الخطّ وإكثارُهم في الكتّاب ، فإن الله عز وجل جعله أُمِّيًّا ليُثبت حجّته ، ويصدق مقالته ، ولئلا يَشُكّ المبطلون في أمره ، ويقولون : تَعَلّمه من غيره ؛ فإنه قد قال ذلك بطائنُ من مُنَافقة العرب وطوائفُ من كَفَرة العجم ، فنطقت [به] الأعداء من جيرته ، والحسدة من عشيرته ، الذين بلغوا [ما بلغوا] (٣) من مجادلة حقّه ، ومخاصمة ربه ، كفاة لمن قَرُب ، ووكلاءَ لمن بَعُد ، فيما لم تكن العرب واقعةً عليه ، ولا الأممُ مهتديةً اليه ؛ لأنهم (٤) قد أحاطوا من علم خَبَره ، وخَفِيِّ أثره ، بما كان عن غيرهم محتجبا ، ومن سواهم مكتتما . وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلّم من بشر أو يختلف إلى أحد ، لما خفي عنا واسقط (٥) علينا . وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلّم من بشر كبيرا ، لعَرَف ذلك أترابُه المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك من حوله من جيرته نصرة ، ولا منْ معه من أهل بيته دِنية ، الذين عليهم يورِد ومن قِبَلهم يُصْدِر ، ولكان شائعًا عند حشَم معلّمه وجيرة موضعه الذين كان يختلف اليهم ، ويتأدّب بين ظَهْرَانَيْهم . ولو كانوا بذلك عالمين ، أو فيه من أمره شاكّين ، ثم بَلَغهم وتقرّر قِبَلَهم أنه يقول : إنّ الله عز وجل أوحَى اليه ، فيما أنزل من الكتاب عليه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ لخاصمه منهم من كَفَر ،

(١) في الأصل : «متراخية» . (٢) في الأصل : « ... ولا يسقط حقه ولولا أن ... الخ» .
(٣) زيادة يتطلبها الكلام . (٤) في الأصل : « إلا أنهم ... » . (٥) في الأصل "ولا سقط" .

ولكفر به منهم من آمن . ثم يدّعى ذلك قرآنا ، وينتحله وحيا ؟ أمَا كان يرهَبُ أن ينتشرَ فى الأقربين ، ويخرّج الى الأبعدين ، فتبطُلَ حجّتُه ، وتنتقضَ دعوتُه ، وتسقُطَ نبوّته ، وينْفِرَ أصحابُه الذين لم يَصْبِروا معه فى المجاهدة أنفسَهم[١] ، ويبذُلوا عند الشدائد مُهَجهم ، وينفقوا فيه على الحاجة أموالَهم ، مُنَاصِبِين لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم ، وهم قليلون مُسْتضعَفون عائلون جائعون ، لا طلباً لدنيا ولا طَمَعاً فى منال ، إلا لما تعقّبوا من قوله ، وعَرَفوا من صدقه . ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقيصرلهم ، فصدّقوا بقوله ، وآمنوا بوعده ، حتى قَوِيت البصائر ، وصَرُمت العزائم ، وقويت النيات ، فنَشِطت النفوس ، وشُجِّعت القلوب ، وحملت الأبدان ، لمّا وَقَع لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وَهَلٌ[٢] اليه . فكن من ذلك على يقين لا يخلجه شكّ ، ومعرفةٍ لا يخالطها ريب ، إن شاء الله .

ومن ذلك أنه اذا قال المسلمون : ما من فَعَالٍ محمود ، ولا مقالٍ معروف ، ولا خلق كريم ، ولا أدب فاضل ، إلا وقد أدّب الله عز وجل به محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزله فى الكتاب اليه ، فكان يأمر بالمكارم ، ويحضّ على المحامد ، ويعمل بالمحاسن التى ليس فيها مَدْخل لشبهةِ طاعنٍ ، ولا مَعْلَقٌ لحجة قائل ، ولا مغمزٌ لبصيرة عائب ، ولا موضعٌ لخصومةِ بشر ، فى وعد أو عهد ، أو حَلٍّ أو عقد ، أو مقال أو فعال ، أو غير ذلك من الأمور — قالوا : أمور حَمَلَ عليها نفسَه ، ودعاه اليها عقلُه ، وصبَرَ عليها ، لمّا أمّل ورجا فيها . سبحان الله ! وما أمّل بها وارتجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا ، فلقد أكذبهم إدبارُه عنها ، حيث أمكنته القدرةُ منها ، وآعترته الحال عليها . وإن قالوا : حبّ الأَثَرة ، فقد جعل نفسَه للمسلمين أُسوةً : فى سِهامهم وقِصاصهم ، وحُدودهم وحقوقهم ، وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : المُلْك ، فلقد كان أشدّ الناس لربه تواضُعا ، وأعظمَهم فى جَنْبه تصاغُرا ، ما إن أكل متكئاً قط إلا مرة ، ثم قعد كهيئة الفَزِع لها النادمِ عليها ، فقال :

(١) صبر نفسه : حبسها . (٢) وهل : فزع .

"اللهم إنى عبـدُك ورسولك" . وإن قالوا : النعيم ، فمن كان أيبَس منه مَعَاشًا ، وأخشَنَ رِياشا ، وأغلظ مأكلا ! وكيف يذوق العيشَ أو يجـد لذيذ النعيم ، من حَرّم السُّكرَ والخمر ، ونهى عن الديباج والقزّ ، وكان أكثرَ دهره صائمـا ، وأطولَ ليله قائما ! فإن قالوا : طلب الصوت (١) ورغب فى الدين ، فذلك ما لم يطلبـه أحدٌ فى حبّ الصوت وٱلتمـاس الحمد لمـا صـبر مغاضب قومه ، وملاوم أهـله ، وشتائم العرب وتوعد العجم ، وٱستهزاء قريش ؛ يرمونه بالعقوق ، ويقذفونه بالجنون ، ويبهتونه بالسحر ، وليس يدرى ما يهجُم به الأمر (٢) .

أم يقولون طَلَبَ تأثيــلَ المُلْك لقومه ، وأراد توطئـةَ الولاية لأقاربه فكيف يطلبُ لقومه ما قد زهد فيه لنفسه ! أم كيف يطلبُ لهم عزَّ المُلْك وقد أوطأهم الذلّ ثم القتل . لَعَمْرُ الله أن لو أرادَ المُلْكَ لأقاربه ، وأراد طلبَ السلطان لذوى رَحِمـه ، لوَكّد لهم عَقْـدًا لا يُحَلّ ، ولأبْرم لهم أمرًا لا يُنْقَض ، ولأثّل لهم فى عُنْفوان أمره مُلْكًا لا يخرج من أيديهم ، ولا يبرح (٣) أبدًا فيهم ، امتثالًا لصنيعكم وٱحتذاءً على مِثالكم ؛ مع أقاويلَ جَمّة ونظائرَ كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمدا صلى الله عليه وسلم غَلَب العرب وقَهَر العجم ؛ أو قال فى أمر السلطان والنجوم بكذب .

فان قلتم إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان فى قوة عقله وبيان فضـله ، على ما قلنا وقلتم وصَـدَّقنا به نحن وأنتم ، ولكن هَفَتِ العلماء وزَلّت الحكماء وأخطأت القلوب ؛ فقـد يعلم أميرُ المؤمنين — وأنتم بذلك من العالمين — أنّ خطأ قلوب العلماء تخطأ دائرة الرَّحا ، ليست العلماء بمخطئة إلا المرّةَ والثنتين ، كما لا تخطىء الرحا إلا الحَبّةَ والحبتين . ومثل الذى نسبتم الى النبى صـلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل فى أنفسكم ، كثيرٌ لا يُحصيه أحد ، ولا يبلُغه عدد . وأمير المؤمنين واصفٌ بعضَـه لكم ، ومورِدٌ ما حَضَر كتابَه إن شاء الله لكم . وٱيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هَبُوا محمدا صلى الله عليه وسلم كان

(١) الصوت : الذكر الحسن كالصيت . (٢) كذا وردت هذه الجملة فى الأصل وهى مضطربة .
(٣) فى الأصل : "ولا ينوح ..." .

فى أمر النجوم من المخطئين، فكيف أخطأت العربُ وهفَت الأمم فى ترك مجادلته ورفض منازعته، وكيف لم تقل العلماء من إفنائه[١] والحكماء من حكمائهم، توبيخاً منهم له، وتعييراً لمن آمن معه : هذا أمرٌ من أوضح الأكاذيب وأبطل الأباطيل، فلا يثبُتُ مع قولهم إيمانٌ، ولا يُقيم على شرحهم إنسان . فإن قلتَ : فلعل ذلك قد كان، ولكنه دَرَج على طول الأزمان، فكيف اذًا صدّقت العربُ بنبوّته، ولم تكفُر القبائلُ برسالته، وهم يسمعون كذبًا لا ينفع معه صدقٌ كان قبلَه، وباطلًا لا يَعْصِم معه حقٌ حَدَثَ بعده . وإن قلتم : أدخلهم بالقهر وضَبَطهم بالقتل وأكرههم بالسيف، فما بالُ القليلِ من المسلمين الذين قهَرهم الكثير من المشركين، ما بالهم آمنوا وصدّقوا، وصَبَروا وصابَرُوا، وجَدُّوا وجاهدوا، كيف لم تنكسرْ عزائمهم، وتَهِنْ بصائرهم، ويَرْجِعُوا الى دِينهم، ويهرُبُوا عن توحيدهم! كلا ! لو كان الأمر على ما تقول، لأرفضّ القومُ عن الرسول، ولكان صلى الله عليه وسلم أوّلَ مقتولٍ أو مخذول . فأحسِنِ النظرَ فيما تذهب الأهواء برأيك اليه من آيات النبى صلى الله عليه وسلم . وإن جَمحت الدعوى بكم، فقائل : قد مالت به الأهواء فى الباطل، فقال : إنه إلا يكن الأنبياء ذكرت النجومَ فى صُحُفها بينت الحكماء منها ذكرًا فى كُتُبها، فجعلت المنقضّ من الكواكب بين الأعوام، دليلا على أمر يحدُثُ تلك الأيامَ، ولا ما هذا الاختلاق يلطّ به الجاهل للفساق . ما[٢] ان وضعت الحكماءُ ذلك فى الكتب، إلا ليالى ملئت السماء من الشهب . وبالله لوآدّعيتم غير ذلك فكان حقًّا، وكانت القالةُ منكم صدقًا، لما كانت الدعوى بناقضةٍ لآية النجوم حجة، ولا مدخلة على أحدٍ فيها شُبْهة؛ لأنّ رميا يقع فَرْطَ السنين من الكواكب، لايُبْطل رَجْماً قد ملأ السماء من كل جانب، . ثم لو لم تكن النجوم آية دامغة[٣]، وحجة بالغة، ودلالة قاهرة، وعلامة باهرة، وأمارة ظاهرة، وشهادة قاطعة، وبينة عادلة، وداعية قائمة، تُبْطِل أظانين المشركين، وتَرْدَع أقاويلَ المنافقين، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليُعظم أمرَها، ولا ليكرّر فى آى القرآن ذكرها، رهبة

---

(١) كذا فى الأصل . (٢) فى هذا الموضع اضطراب . (٣) فى الأصل "دافعة ..."

لمناهضة أحياء العرب ، ومعرفةً بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وَجَدوا فيما كَتَبَ به اليك أميرُ المؤمنين من أمر النجوم واحتجّ [به] عليك من ذكر الرجوم ، موقعًا لظن أو مَعْلَما بطعن أو مغمزًا لقول ، لناصبوه اذا بالمجـادلة ، وكاشفُوه بالمنـازعة ، وجاهَرُوه بالقول الذى لا يستطيع له ردّا ، ولا يطيق له جَحْدا ، ولكنها آيةٌ ملأت الأقطارَ كثرةً ، وحَسَرت الأبصارَ قوة ، قد وجّلت العقولَ ، وولّهت القلوبَ ، وملأت النفوسَ جَزَعا ووجعا ، وفَزَعًا شَغلهم عن الأولاد ، وأذْهلهم عن البـلاد ، حتى بلغ أميرَ المؤمنـين وتقرّر عنـد فقهاء المسلمين أن الله عزّ وجل ، لمـا ملأ السماءَ حَرَسًا ، وأحدث لها رَصَدًا ، وخلق فيها شُهُبًا ، ذكرت العقلاءُ من العـرب ، وقعَات الله عز وجل فى الكتب ، بقوم نُوحٍ وعادٍ وثَمُودَ ، وأشـباههم من مؤلّفى تلك الجنود ، الذين كانوا أشـدَّ بَطْشا ، وأكثرَ جَمْعًا ، فانفَرجتْ أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أنفسُهم مَتَائِنَ عُقَدِهم . وإن أهلَ الطائف لمـا فعلوا ذلك بأموالهم ، وأجمعوا فيه الخروجَ الى فقرائهم ، قام فيهم رجلٌ منهم ذو سِنٍّ وعقل فقال :

يامَعشرَ العرب ، لاتُهْلِكوا أنفسكم قبل أن تَهْلِكوا ، ولا تَخْرُجوا من أموالكم قبل أن تُخْرَجوا ، تفقّدوا مواقعَ نجوم السماء ، وكواكبَ بدورِ الدُّجَى ، فان كانت النجومُ التى حدث الرمىُ بهـا والنجومُ التى أخليتُم الأموالَ لهـا ، هى لبُرُوج الشمس والقمر ومسابِ(١) الحيوان والشجر ، فهى جوائحُ الاستئصال ، المُتلفةُ الأنفسِ والأموال ؛ وإن كانت النجوم التى حدث القذف بها ، إنمـا هى نجومٌ خُلقت اليوم ، فليست المعرفة بواقعـةٍ على مُبْتَدَاها ، ولا الأبصارُ بلاحقةٍ منتهاها ، فأمسكوا العُقَد(٢) عليكم والأموال ، فإنه أمر يحدُث فى إحدى هذه الليال .

فإن قلت : وكيف وقعت الأمورُ فى هذا الرجل كالعِيَان ، وصارت المقالةُ منه كوَعْيِ الآذان ، أنبأك أميرُ المؤمنين أن أوعيةَ الفقه من المسلمين ، الذين حَملُوا الينا سُنَنَ الدين ، هم

(١) كذا فى الأصل . (٢) العقد : جمع عقدة وهى الضيعة أو العقار الذى اقتناه صاحبه .

أدَّوْا ذلك الينا ، وأبقَوْه فخرًا (١) ... علينا ، فما إن يَنْفَكُّ منهم مفتخرٌ يقول : أبونا الذى حبَس على العرب الأموالَ والعقد ، فما إن يدفَع القول فى ذلك منَّا أحد . هيهات ما كانت العربُ لتُقرَّ عند الفخار ، إلا بطَوْلٍ هو أبْينُ فيها من ضوءِ النهار . فافهمْ ما كتب به أميرُ المؤمنين فى هذا اليك ، ولا يكن التعللُ فيها بالشُّبهاتِ أوثقَ ما لديك ، فإنه قَلَّ حُجَّةٌ إلا وإلى جنبها شبهةٌ تَخَيَّل للعقول ، وتَعَرَّض للقلوب ، وتَجَلْجَلُ فى الصدور ، فلا يثبت مع تخيُّلها ، ولا يُقيم لتعرُّضها بَشَرٌ إلا من وزَنَ الحقَّ والباطلَ بميزان عادل ، لا يميـل الى تفْـريط ، ولا ينحطُّ فى تقصـير . وقد جعـل الله عزّ وجلّ العقولَ موازينَ للأمور ، فزِنُوا ما سمعتم من حجج كلام الرب عزّ وجلّ بما تَنْفُون به الشبهةَ عن الحق ، ولا تُميلُوا اللسانَ ، فتخسَرُوا الميزان . وسـيعلِّل أميرُ المؤمنين إن شاء الله بمـا جاء عن ذكر ما كتب به اليكم من أمر النجوم والرُّجُوم والشُّهُب فى القرآن والرِّواية والكُتُب ، فألْطفُوا النظرَ فى صحة معانيه ، ونَحُّوا الهوى عن شبهةٍ ما وقعتْ فيه (٢) : قال الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ وقال : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ . وإن شطب عن الحق شاطب ، أو ذهب الى الباطل ذاهب ، لا يعرف مذاهبَ كلام العرب ، ولا وجوهَ معانى الكتب ، ولا تفسـيرَ آيِ القرآن ، فقال : إنمـا جُعلت الكواكبُ والمصابيح حفظًا من الله عز وجل للسماء ، ورُجُوما للشياطين من قبل أن يبعثَ الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالدين .

فإن فى آيات القرآن ما فيـه بيانٌ ممـا يُبْطِل دعواه التى لا بينةَ عليها ، ويكذِّب مقالتَه التى لا شُهُود لهـا ؛ فقالت الجن — فجعَل الله تبارك وتعالى قولَها وَحْيا — وبه منها صِدْقا : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ . ألا ترون أنها كانت الجن لمست السماء فلم تجـدها ملئت حرسا شـديدا وشهبا ، وقعدت الشياطينُ منها مقاعدَ للسمع

(١) بياض بالأصل بمقدار كلمة . (٢) فى الأصل « عن شبهة انما الخ » .

فلم تجد شُهُبا ولا رَصَدا ، أو لايسمعون الى مايحقّق ذلك ويسدّده ويصدّقه ويشهد له من قول الله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ مع قول الجنّ أيام حُرِست السماءُ ورُميت الشياطينُ : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ . فاذا أعملتُم فى ذلك فكركم ، وقلّبتم فيه نظركم ، فكنتم على برهانٍ يقين ، ونورٍ مستبين ، من آستطاعة الجنّ للاَستماع ، وقدرةِ الشياطين على الاَستراق ، وإمكان السماء للقعود فى تلك الحال الأولى ، ففكّروا فى الحال الأخرى حيث حرست الآياتُ أن تعارض باطلًا بحق ، ومُنعت الشياطينُ أن تَنْزِل بصدق ، وآمتنعت السماء أن يصعَد اليها شيطان ، فقال الله عز وجل : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ . قالَتِ الجنُّ : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ إن فى قولهم الآن لأعظمَ نور وبيان . وأَبْينُ من ذلك لكم وأصحُّ لِمَنْ عقل إن شاء الله منكم ، إخبـارُ الله عز وجل حين جُعلت الكواكبُ حفظًا من كل شيطان مارد ، أنهـم ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ مع إخباره فى الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعُدون ويتزلون ويستطيعون ويتلُون على مُلْكِ سليمانَ ، فكن لهذا من الحافظين ، وفيه من المفكّرين .

ومن آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه لمـا نفَرت القبائلُ من أعلام الشرك بجموعها ، وتداعتِ القادةُ من صَنَاديد الكفر بأتباعها حَذَرًا على عِيرٍ لهـا أقبلت من الشـام بصنوف رَغَائب أموالٍ عِظَامٍ ، فكانت العِـيرُ والنَّفيرُ طائفتين : طائفـةٌ ذاتَ عُدّة كثيرة وشوكة شديدة ، وطائفةٌ ذات أموال رَغيبة ورجالٍ قليلة وفرصـةٍ ممكنة ، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسـلم ووعَده ومَنْ معـه من المسلمين إحداهما ، فكره المؤمنون جموع المشركين ، وأراد الله عز وجل أن يقطعَ دابرَ الكافرين ، ويشيّد بذلك أركانَ الدين ، فلما تراءتِ الفئتان ، وتناوشت الفُرْسان ، وتلاقى الناس ، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل :

(١) كذا وردت هذه الجملة فى الأصل وهى غير واضحة .

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قبض النبيّ صلى الله عليه وسلم قبضةً [من تراب] حثاها في وجوههم ، فلم يتناه دون مناخرهم وعيونهم ، فانصرفوا منهزمين بلا كثير قتالٍ من المسلمين . يا أهل الكتاب ، فأيّما آيةٍ أعظم حجةً وأوضح بيّنة وأقهر غلبةً من هذه التي لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها ، لانفضّت الجموع من المسلمين كفارا بها . أبشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقرّبين ، وهزيمة نفير المشركين ، التي نجحت الأمور عليها ، وتناهت الحال بهم اليها . أم قبضةٌ من تراب يسيرٍ ، ما ملأ المناخرَ من عَدد كثير .

فلئن قلتم : إن هذه آيات بيّنات ، وعلامات واضحات ، ولكنّا [لا] نقرّ لكم بها ولا نؤمن بقولكم فيها .

أفتؤمنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع ما نسبتموه من الفضل اليه ، كان يختلقها كذبا من تلقاء نفسه ، ثم يدّعيها وحيًا من عند ربه ، وهو لا يدرى لعل الأمور [تقع] بخلاف ما يقول ، فيظهر كذبُه ، ويَرْفَضّ تَبَعه . وإن تزعم[1] أن أصحابه كانوا كثيراً أقوياء ، نشاطًا جُلَداء ، فكان على معرفةٍ بقوّتهم ويقينٍ من غَلَبتهم ؛ فقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ . ولم يكن الرسول ولا غيره ليُخْبِر أصحابَه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ، ثم يدّعى ذلك تنزيلًا من ربهم . هذا لا تقبله الآراء ، ولا تُقِرّ به الحكماء ، ولا يحدّه النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم ببشارته لهم وإخباره ما أخبرهم من هزيمة الله عدوّهم ، أن يشجّع جُبْنَهم ويُقوّىَ ضعفهم[2] ، فكيف اذا لم يبق لما كان يرى من كثرة المشركين وقوّتهم ، وضعف المسلمين وقلتهم ، بظهور الأنباء على خلاف قوله ، وأن يحال[2] الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر يكذب نبوّته ، ويقطع حجته ، ويكون له ما بعده ! وكيف اذا لم ينسب الأمرَ الى نفسه ويُنَحّى الخبرَ عن ربه ، ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر ، إن جرت الأقدارُ بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره . ولكنه أثبته فى كتاب .

(١) فى الأصل « ويزعم أن أصحابه ... » والكلام عليه غير واضح . (٢) هكذا فى الأصل .

مسطور، ورَقٍّ منشور . فعـلٌ لعمر الله يدلّ على النبوّة التى كان بهـا واثقا، ويهدى الى الوحى الذى كان اليه ساكنا .

وإن عَرَض لنظَرك، أو وقع فى خَلَدك، أن الله عز وجل عَوَّد محمدا صلى الله عليه وسلم الغَلَبة وأجراه على المَنَعة ، فكان يجرى على عادةٍ قد عَرَفها، ويسلُك جادّةً قد خبَرها، فلقد كانت الهزيمة فى أوّل وَقْعةٍ أوقعها الله، ثم لقد دالت الحربُ فيما بعدُ[1] سِجَالاً فيما بينه وبينهم : تارةً عليــه لهم ، وأخرى له عليهم . فناصحُوا اللهَ عز وجل فى نَظَركم ، وقلِّبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكركم . فلعَمْرُ الله ما كان النبى صلى الله عليه وسلم ليقول للملوك المشركين : إن الله هَزَمكم برَمْيــةٍ من تراب وهو يعلم أنه عنــده من الكاذبين . فأحضِر كتابى هــذا فهمَك، وأصغِ له وإن خَصَمك، فإن هذه آية عظيمة، وحجة بليغة، وبيِّنة عجيبة، فى غَلَبة العرب .

وأعجب من هذه وألطف، وأكثر منها وأعظم، الآية فى غلبة العجم . وآستمِعْ : أَمَرَ الله نبيّــه — صلى الله عليه وسلم — أن يقول للؤمنين — وكانوا كما قال الله عز وجل قليــلا مستضعفين — : إن قبائل العرب ستتحزّب عليكم، وإن الله سيهزِمُهم لكم ، وحيًا أنزله فى الكتاب، فقال : ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ ﴾ ؛ فكان أصحاب رســول الله صلى الله عليــه وسلم بعد مانزل هــذا القول عليه بدهور طويلة وســنين كثيرة ، محبوسين محصورين فى حومة الموت وعسكر الخــوف وخندق القهر وذل الحصر، ســوادُهم الأعمّ وجلُّهم الأعظم حُفَــاةٌ عُراة عالَةٌ ، إخوان دير، وأصحـاب وَبَر، لا قوة بهـم ، ولا مَنَعة لهم ، ولا أسلحةَ عندهم، ولا عدّة معهم ، قد أحدقت العربُ بعسكرهم وأحاطت القبائل بخندقهم، وسالت الأحزابُ تصديقا لحتم الله عليهم، تريد أن تزلزل أقدامَهم وتُهريق دماءهم؛ فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من ســوء الحال ، وضيق المآل ، وشدّة الكِظَاظ[2]؛ فإن الله قد وصف لهم حالهم، وأذكرهم فعلهم؛ ولم يكن النبىّ صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله ما يجهــلون ، ولا ليذكرهم من أمره ما لا يعرفون ؛ حِذارًا أن تنكسر

(١) فى الأصل : "فيما بعد ..." . (٢) الكظاظ : التعب والشدّة .

عزائمهم وتتغيّر بصائرهم ، فتنهزمَ أفئدتُهم وتموتَ نجدتُهم ، وتختلفَ كلمتهم ؛ فقال الله عز وجل : ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا . يقول الله تعالى : ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ . فبيناهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم فى الجبال ، وتقسيمهم بالقِدَاح ، وأخْذهم بالأيدى ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما ينبّئهم به من علم الغُيوب ، ويبشّرهم به من أمر الفُتوح : " إن الله سينصركم على جمع الروم ويغلبُ لكم جنودَ فارس فيهزِمُ لكم جنودَهم ويُورثكم قصورَهم ويستخلفُكم فى الأرض من بعدهم ويبدِّلُكم من بعد خوفكم أمْنًا " . وَعْدًا صَدَّقه الكتابُ ، وبشارةً نطق بها الوحى ، فقال : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ . فقال أقوامٌ وأناسٌ ارتابوا حين تضايقت الحال ، وتزلزلت الأقدام ، وطارت القلوب ، ودارت العيون ، وأشرف الموت : مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا أيَعِدُنا هزيمةَ جموعِ الأحزاب ، وفَتْحَ قصورِ الشأم ، وغَلَبةَ جنودِ كِسْرَى ، وقد سالت القبائلُ علينا من كل جانب ، وأحدقَ الموتُ بنا من كل مكان ، فبقينا فى مَسْغَبةٍ من الجوع ، ومَجْهَدةٍ من الخوف ، وضَنْكٍ من الحال ، مقهورين مَقْموعين[1] . وقالت الخاصة من المؤمنين حين عاينوا الجموعَ من المشركين ، وذكروا ما خبّرهم الله من تحزبهم عليهم ومسيرهم اليهم : ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ . فبينا أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مضايق تلك الحال ، وشدّة ذلك الخصال[2] ، وعمومِ تلك البلايا الباهظة ، والأمورِ الفادحة ، التى قد أخَذَ بأنفاسهم غَمُّها ، وبلغ

(١) مقموعين : مقهورين مذللين . (٢) الخصال : النضال .

مجهودَهم كربُها، رافعين الى الله عز وجل أيديَهم، يقلّبون فى السماء أعيُنَهم، إذ أرسل الله على تلك الجنودِ الكثيفة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة، ريحًا من الأرض وجنودًا من السماء، فقَطعتِ الأبنيةَ، وطَيَّرت الأمتعةَ، وسَفَتِ الترابَ فى العيون، وقذَفتِ الرُّعْبَ فى القلوب، فولَّوْا مُدْبِرين، وخرجوا منهزمين، لا يَلْوِى والدٌ على وَلَد، ولا مولودٌ على أحد. أمرٌ صَدَّق الله فيه قولَه، وأنجز به وَعْدَه، وهَزَم الأحزابَ وحدَه، وذَكَّر المؤمنين نعمتَه فيهم، وعَرَّفهم منّته بهم، فقال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾. وقال عز وجل: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ما كان الله عز وجل ليقتصّ على المسلمين فى أنفسهم، إلا ما قد رأوه بأعينهم.

لولا أن هذا ما لا يُنكره عقلك ولا يدفَعُه نظرُك، لمـا جادلتُك بالكتاب، ولا نازعتُك بالتنزيل. وإنى لأترُكُ من آيات النبىّ صـلى الله عليه وسلم وعلامات الوحى، ماهو أعظمُ من هذا وأبين وأجلُّ وأوضح. ولكن ليس لى أن أُحاجَّك من آيات القرآن، إلا بمـا عليه شاهدٌ من بُرهان، ومخبر من بيان؛ لا يستـطيع عقلُك رَدًّا له ولا قلبُك جَحْدًا له. وكيف ينبسط لسانُك أو يجترئُ قلبك أن يقول: إن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابَه بالكذب وهم يعلمون، فاقتصّ عليهـم من أمورهم ما لا يعرفون! لا! ما يسوغُ لك ولا يَجْمُل بك، ولا يُقْبَل منك أن محمدا صـلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه؛ كيف! أَمَا كان يخافُ أن يكذِّبه أصحابُه، وتنتقلَ أحوالُه، وتنتقضَ أمورُه! لعمرُ الله لو وصفتَ بهذا مَنْ لا يُعْرَف بفضل ولا يُنْسَب الى عقل، لمـا كان سائغًا لك ولا جائزا منك، فكيف تصف به من يُرْفَعُ عن الناس قدرُه، ويفضُلُ عليهم عقلُه! وتُقِرُّ أنك لم تر فى الدنيـا أحدًا صَنَع [ما صنع] وبلغ ما بلغ! فأيّتُما آيةٍ فيما اقتص عليـك أميرُ المؤمنين أعظم أو بينةٍ أعجب: أَمَا كان يُتْلَى على المؤمنـين فى الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بجنود عظيمة قبـل اجتماعهم بسـنين

كثيرة ، أم ما كان يُنَادِى به القرآن[١] من الهزيمة لهم وينطق به الوحى من الفتح عليهم، أم قول النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " إن الله عز وجل يُؤَمِّنُ خوفكم ويُعِزّ نصرَكم على الأمم " وهو على تلك الحال ثم نجمت الأمور على ما قال، أم عسكران مطابقان وجيشان متقابلان ، باتت الريح تحوس[٢] أحدَهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها فى عافية وغَفْلةٍ حتى أصبحوا ؟ فأحسنْ النظرَ فى أمرك، والتَّثبُّتَ فى دينك إن شاء الله .

واعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات، على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وحقه، وأن ليس يتقوّل شيئا من تلقاء نفسه ، أنه قال فى عُنْفوان أمره : " إنّ الله عز وجل سَيُظْهِرُ دِينى على الدِّين كلِّه " وجاء مع ذلك بأثَرَةٍ عن ربّه ، فى كتابٍ مخطوط وتنزيل محفوظ . فأىّ أَمْرَيه[٣] لك أدلّ، أو أيّهما عندك أعجب، إذ كنت بنبوّته مصدِّقا، ولرسالته محققا : الخبرُ الذى أخبره، أم الفعلُ الذى صَدَّقه؟ لئن نظرت بعقلك وقلت فى نفسك : كيف تَرَقَّتْ الى هذا نيته وارتفعت نحوَه همّتُه، أم كيف امتدّتْ اليه طِبَتُه وقَوِيتْ عليه رَوِيّته؟ بل كيف دعته اليه نفسه ، وشجّعه عليه قلبه ، ودخل فيه طَمَعه ، وطاوعه فيه لسانُه ، وهو يذكر جنود كسرى ، وجموعَ الروم ، وملوكَ الترك ، وملوك الشرك ، وقُيُولَ اليمن ، وصناديدَ الأمم؟ إن هذا لعَجَبٌ ، ولا سيما اذا لم يكن فى إرث مُلْكٍ قاهر ، ولا كَنَفِ عزٍّ غالب ، ولا معدنِ علمٍ سالف .

ولئن أعدتَ النظرَ وكررت ، فقلت : كيف وافق خبرُه أثرَه ، وكيف صَدَّق فعلُه قولَه ، حتى غَلَب الشرقَ والغربَ ! إن هذا لعجبٌ ! وأعجب من هذا أمرٌ يدلّك أمير المؤمنين عليه ، ويهديك إن شاء الله اليه : لو قلتَ لأهل مملكتك ومن قِبَلك من أمتك : هل بلَغكم أو تقرّر قِبَلَكم ، أنه كان فى الدهر الأوّل ، والعصر الخالى ، أحد مثل محمد — صلى الله عليه وسلم — دأبت الأمورُ به مثلَ حاله من الوَحْدة والضَّعْف والذِّلة والقلّة ، وصَدَرَت الحالُ به كفعاله فى الغَلَبة والمَنْعة ، والقهر والظهور ، وغير ذلك؟ لقالوا لا .

(١) فى الأصل : « أما كان ... » .
(٢) تحوس أحدهما : تغشاه وتهينه . وفى الأصل « تحوش ... » بالشين المعجمة وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : «فأىّ أمر بذلك ... » .

ثم أنت لا تُؤمن بمَقالته، ولا تُقِرّ برسالته، إلفًا لدينك، وضَنًّا بملكك، وطَمَعًا فى قليل من الدنيا قد نَعَـاه الله اليك، ورغبةً فى صُبَابةِ عيشٍ غيرِ باقيةٍ فى يديك؛ فهـذا عَجَبٌ. وأعجبُ من هـذا أمرٌ يَقِفُك أميرُ المؤمنين على نور حقـه، ويُوضح لك إن شاء الله بيـانَ أمره: أصبحت العربُ طُرًّا والأممُ جميعـا فى محمد صلى الله عليـه وسلم ثلاثةً لا رابعَ لهم ولا مَخْرَجَ للحق من بينهم: رجلٌ مصدِّقٌ به من المؤمنين، ورجلٌ مكذِّبٌ به من الكافرين، ورجلٌ شاكٌّ فيه من المنافقين.

فأما الشاكُّ فلمّا قيل له: أخرجتَ نفسك من الحق، وأبرأتَها من الصواب، وأقررتَ عليها بالخطأ، لقولك: لا بدّ أن يكون الحقُّ فى التصديق أو التكذيب، ولستَ على واحدٍ منهما، اعتزل عنها.

وأما المكذِّب فلمّا قيـل له: أنت مُنكِر والمنكر ليس بمدّع، ومن لم يَدّع لم يَلْزَمْه بيِّنةٌ ولا يسأل عن حجة، اتبع صاحبه. وأيمُ الله على ذلك، لو سُئل هـذا المدّعى عن بيّنتـه وكَشْفِ حُجّته، فقيل له: من أين عَرَف قلبُك، وأيقنتْ نفسُك إيقانًا لا يخالجه شـكٌّ، ومعرفةً لا يشوبُها ريبٌ ولا ينازعها شُبْهة، أن محمدا صلى الله عليـه وسلم ليس برسول، لَمَا دَرَى ما يقول؛ لأنه لا يستطيع أن يتقوّل على الرسل، ولا أن يَتَكذَّب على الكتب، فيقول: قد أخبر اللهُ فيها أنه لا يبعث نبيًّا، ولا يُنزِل وحيًا فى كتاب مسطور، بعد التوراة والإنجيـل والزبور. بل قد يجد أهلُ الكتاب فى أقاويل رسلهم وأخابير كُتُبهم، أن الله تبارك وتعالى يُنزل كتابًا جديدا أو كلامًا حديثا، بعـد خراب بيت المقدس فى آخر الزمان، ولم يُنزِلْ بعد ذلك كتابًا إلا القرآن.

وأما الرجل المصدّق بمحمد صلى الله عليـه وسلم فقيل له: أمّا أنت فقـد ٱدَّعيتَ، والمدّعى يُسأل عن الحجة ويُقبل منـه البيّنةُ، فمـا بيِّنتُك ومن يشهد لك؟ فقال: ألم تقولوا: إن الحقّ لا يخرُج من بيننا، ولا بد أن يكونَ مع بعضنا؟ قالوا بلى! قال: فأيّة بيّنـةٍ أحقّ وأعدل، وأى شهودٍ أزكى وأفضـلُ من شهادتكم بسقوط صاحبيَّ وثبوت

الحق من بعدهما فى يَدَىّ؟ قالوا : إن الأمرَ لَكَمَا تقول، ولكنّ البيِّنةَ أشفَى للصدور؛ فأقام بينةً من الكتاب، وشهودًا من الوحى، وآياتٍ سوى ذلك عظامًا، وبيِّناتٍ عَوَامَّ، من كلامٍ لا يَقْدِر عليه الخَلْق، وصِدْقٍ لا يكون إلا من قِبَل الرب، شبيهًا بما أورده أميرُ المؤمنين عليكم، وكَتَبَ به فى صَدْر كتابه هذا اليكم، مما قد تشهَدُ له قلوبُ الأمم، ويُزَكِّيه فِعالُ العرب.

فلمّا أقام بيِّنتَه، وثبتتْ حجّتُه، ووَجَب حقُّه، وقُضِىَ به له، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك، وضاقت المقالة لك، أن تقول : إن الله لا يبعث نبيا بعد محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا وحيا ينزل غير القرآن، فأبطلت الكتب المحدَثَة، وأكذبت الوثيقة، ولم تترك وحيا غير القرآن، ولم يجز للنصارى أن تقول : لا نبيّ بعد عيسى عليه السلام، ولا كتاب خلف الإنجيل؛ وعن ذلك من أخبار الكتب ماقلنا كل متنبئٍ بعد نبينا كذاب[1]، فشاعت وجازت الحجة، ووضح العذر. وأما النصارى فيجدون فى أواخر كتبهم، وأقاويل رسلهم، أن الله عز وجل، يبعث نبيا حديثا، وينزل كتابا جديدا، فليس لهم أن يكذبوا نبينا — صلى الله عليه وسلم — ولا أن يردّوا كتابنا.

فهؤلاء الثلاثة. أما الشاك فسقط، وأما المنكر فبطل، وأما المصدّق فثبت ثبوتا ليس فيه مدخل شبهة، ولا موضع لحجة، ولا معلق لمنازعة. وذلك أن المنكر لوجوب حقه، والشاك فى ثبوت صدقه، لا يجد بدا من أن يُنحى الصدق عن الخلق، ويخلى الدنيا من الحق، وهذا قول المكذبين بربهم، الشاكين فى بعثهم، فأحسن النظر فى معانيه ينكشف لك عما فيه، إن شاء الله.

ومن أبين آياته وأدلِّ علاماته — صلى الله عليه وسلم — ووسع له فيما صدر اليه : أنه لما أخبرت النصارى واليهودُ أنهم لم يَجِدوا محمدا — صلى الله عليه وسلم — فى التوراة والانجيل موصوفًا مكتوبًا، تجمّعتِ العلماءُ منهم، وتدارست الكُتُبَ فيما بينهم؛ فلمّا نظروا

(١) فى هذه الجملة غموض لم نوفق الى كشف سببه وان كان المراد منها واضحا.

الى اسمه وعاينوه بنعته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويستفتحون بذكره على من سواهم ، [كفرت] طائفةٌ حسدًا من عند أنفسها ، وجحدًا من بعد ما تبيّن لها ، وآمنتْ طائفةٌ ، تصديقًا بكتابها ، وخوفًا من ربّها .

فلعَمْرُ الله لو [لا] أن الذين آمنوا بحقه وصدّقوا بأمره ، رأوا صفته عيانًا ، وقبلوا نعته إيقانًا ، لما فارقوا أديانهم ، ولا جادلوا إخوانهم ، حتى وقفوهم على اسمه ونسبه ، وصفته وعلامته ، وهم علماءُ بنى إسرائيل ، وحملةُ الإنجيل : من أهل الكتاب الذين احتجّ الله عز وجل بهم على العرب ، فقال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . ولعمرُ الله إنها لآيةٌ عظيمةٌ ، وحجّةٌ بليغة ، ذكرها الله فى كتابه ، وجعلها على العرب من بيّناته ، فقال لهم : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ . يقولون : وَعَدنا أن يُرسل رسولا ، فقد أرسله ، وحقّق قوله ، وصدّق وعده . واحتجّ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وذكره . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليُجادل ويحتجّ فى أمرهم بكذبٍ وباطل ، ولم يكن ليقول للنصارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود : إنه فى التوراة والإنجيل مكتوبٌ موجود ، إلا وهو من ذلك على حقّ يقينٍ ، ونورٍ مُستبين . وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكذب ، ويتقوّل عليهم الباطل ، مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعى به إيمان أحياء العرب . أمّا كان يعلم أنه اذا قال لهم : إنه موجود فى مثانى كتبهم ، وسُمّى على أفواه رُسُلهم ، فلم يجدوا خبره يقينا ، ولا وصفه مستبينا ، أنهم سيُدبرون عنه إدبارا ، تزداد به العرب نفارا ، إلا أن يقولوا خطأ من علمه ، وهواء من خبره ، فكيف لم يخط إذًا فى كتبهم حرفا غيره ، ولم يخالف منها شيئا سواه ، سبحان الله ! لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم ، فأنتم إن تنكر ما يقولون لكم ، مما ليس لذى لب أن يأذن له أن يؤمن به ، ولا أن ينبذ اليه .

سمعه،(١) يقولون : إن أنبياء الله ورسله، المبعوثين بالرحمة الى خلقه، لطفت النبوّة منهم، ووقعت الأخبار المنزلة عليهم، على صغائر الأمور، وغوامض الخطوب، فسار الناس عليها، وأشاروا لهم الى طلبها، فهى مكررة فى مثانى كتبهم، وبطون صحفهم، وأقاويل رسلهم، وتركوا من كلام الله النبأ العظيم، والأمر الكبير، والذكر الحكيم، الذى ملك آفاق الأرضين، وآستفاض على جميع العالمين، لم يذكروه بخير يأتمرون به، ولا بشرٍّ ينتهون عنه، كلا! ما ترك الله على هذا خَلْقَه، ولا بهذا وَصَفَ تبارك وتعالى نفسَه، إنه لأرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين.

ولئن رجعت الى قلبك، لتقولَنّ فى نفسك : لعمر الله لو كان هذا الأمرُ الذى طلع طلوعَ الشمس، وآمتد آمتدادَ النهار فبلَغ مشارقَ الأرض ومغاربَها، وسُهُول الآفاق وحُزونَتها، حقًّا وصدقًا وعدلًا، لَبَشَّرت الكتبُ به، وتنبأت الرسل عليه، ودَعَتِ النُّذُر اليه، تزيينا له وترغيبا فيه، وأمرا به. ولو كان ضَلالةً وجهالةً وعَمَايةً، لتقدّموا فى التحذير منه، والتزهيد فيه، والتثبيط عنه؛ فيدعو ذلك الى أن تنظروا(٢) الى كتب الأنبياء وأقاويل الرسل. فايمُ الله لئن طلبتَ لتجِدَنّ، ولئن آجتهدتَ لَتُوَفَّقَنّ. وما الصواب بممنوع، ولا الخيرُ بمحظور. ولقد كانت العلماء بالكتب والبصراءُ بالتأويل تجده، ولكنها كانت تكتُمُه بتحريف كلامِ الكتب عن مواضعه، وصَرف تأويل الحكم الى أشباهه، حَسَدًا من عند أنفسهم وبَغْيًا بعد ما تبيّن لهم. ثم لقد آقتديتم بهم وجَرَيتم معهم وأخذتم عنهم، بلا حجة لكم، ولا قوة معكم إلا الآقتداء بالآباء والآتباع للا ثار. فآتّقِ اللهَ فى نفسك، وآتَّهِمْ الرجالَ على دينك، ولا تجعَلِ النظرَ الى غيرك من ذوى الشك فى القلوب، والفسخ فى ...(٣) والتُّهَم فى التعطيل، الذين لعلهم يَعْرِض لآرائهم ويقع فى أوهامهم أن يقولوا : فلعلّ ما يتلو عليكم أميرُ المؤمنين من آيات القرآن، ويقرع لكم من حجج الوحى شيءٌ زِيدَ

(١) هكذا فى الأصل. (٢) فى الأصل «أن ينظروا ...» بياء الغيبة. (٣) كذا فى الأصل. وظاهر أن كلمة بعد «فى» سقطت من الناسخ سهوا.

فى المصاحف بعـد النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوى ، وذاك الشاك فى شهادات الرجال ، متفقة من بلدان وأمصار مختلفة ، وشعوب وقبائل متفرّقة ، ليس يدعوهم الى ما شهدوا دينٌ ، ولا يحملهم على ما اتّفقوا عليه دنيا ، لا يستقيم له أن يؤمن[1] بمـا لم تدركه جوارحه وتُحيط به حواسّه ، لإسقاطه حجّةَ الإجماع وإبطاله شهادةَ العوامّ . واتّفاقُ المختلفين دلالةٌ واضحة . فهو سائلكم عن الحجّة فى الإنجيل والبيّنة على التوراة ، شكًّا فى الربّ وتكذيبًا بالرسل ، فما كنتَ قائلَه له أو مُجيبَه به فى كتابكم ، فأجبْه بمثله فى كتابنا وإن كانت الأحوال منهـا غير معتدلة ولا مؤتلفة ولا مرتفقة ولا واحدة ، تعتدل حالاهمـا ، ويتفق أمرهمـا ، من كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشافه المسـيح به أصحابه باللسان ، إنما كان فعـلا أثبت من بعده ، ولم يكن الفعال موضوعا بعـده[2] . وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا اليكم شكًّا فيه ، ولا يورده عليكم مرية به .

ولقـد علم أميرُ المؤمنين أن كُتُبَ الله عز وجل محفوظة ، وأن حُجَجه مخزونة ، لا يُزَاد فيهـا على تقادُم عهد ، ولا يُنْتقَص منها على تقارُب دَهْر ، وأن ذلك ثبت فى الإنجيل من بعـد عيسى عليه السـلام ، وأنه قال لمن اجتمع اليه من الحواريين : " بالوحى أكلّمكم ، والأمثالَ أضربُ لكم " . فأمثالُه المضروبة كلام ، وكلامه الرائع وحى . ولكن ما بالُ الشكّ يُنفَى عن كتابكم ، بحجة الأجتماع عليـه عنـدكم ، وهو على ما وَصَـف أميرُ المؤمنين لكم ، وسـيان فى تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينـه ، إما ما قربا[2] من عهده ومعاينـة وحيه واجتماع على حفظه ، هذا حكم مختلف .

فقـل للذين يشكون فيـه ويرتابون به : أوقعـوا أوهامكم على حالات الأوقات التى تعرفون ووهوها[3] بطبقات الرجال الذين يتهمون .

فإن قالوا : أمّا طبقات الرجال التابعيـن ، وحالات زمان أمير المؤمنـين ، فذلك ما لا يَسُوغ الأقاويلُ فيـه ، ولا تدخُلُ الشـبهة عليه ، لانتشار القرآن وامتـداد الزمان ،

(١) فى الأصل : «لا يستقيم له أن يؤمن له بمـا ... » . بزيادة "له" . وهى قلقة فى موضعها فلعلها زيدت من الناسخ . (٢) فى هذا الموضع اضطراب فى الكلمات ، والمراد واضح . (٣) كذا فى الأصل .

وكثرة الحملة لآياته فيهم، والحفظة للسانه منهم ؛ ولكن الدين الذى نزل به القرآن، وقبض النبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم . وكيف بوقوع تهمة أو دخول شبهة، على أقوام [لبث] النبى صلى الله عليه وسلم عشرين حجّة فيهم يتلو كتابَ الله عز وجل فى كل عام عليهم، حتى حملوه فى صدورهم، وحفظوه فى قلوبهم، وكُرِّر فى آذانهم مسموعا، وأُمِرّ على أبصارهم مكتوبا ، وجَرَى على ألسنتهم متلواً ، وجمعه كثيرٌ منهم محفوظا؛ ثم توارثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم، حتى أدّوه الينا، وأوفوا به عندنا، من مواضع متفاوتة، وأصناف وأجناس متباينة، على كلمة واحدة ! .

فإن قالوا : اتّفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنت الحالُ من الحمل عليه، فليعلموا أن المؤمنين المخلصين ليسوا فى الزيادة متهمين، وأن المنافقين الملحدين ليسوا على ذلك بقادرين . وكيف يقدر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من المؤمنين، بعد ما حفظته قلوبهم، ووعته أسماعُهم، ثم تُكْتَم القدرةُ لهم وتُسْتَتر الزيادةُ منهم ! هذا ما لا يقدر عليه منافق، ولا يطيقه مُشرك ولا فاسق . وآيمُ الله أن لو قَدَرت اليهودُ على الزيادة فى الإنجيل، لأفسدوا كتابكم وغيّروا دينكم ؛ ولو جعل الله المنافقين على الزيادة فى كتابه قادرين، لبدّلوا ديننا وغيّروا حالنا . ولو كانوا لذلك مُقْرنين وعلى ذلك مقتدرين، لكان الذى كتب به أميرُ المؤمنين اليكم، وأورده من حجج الله عليكم، أولى ما تلقون، ورأس ما تقترفون. فلا تُلقينّ الى ما قاله [المضل] سمعَك، ولا تُنصِتِ الدهرَ اليه ذهنَك، فإنه اتّخذ الشكَّ فى كتابنا ذريعةً الى الإخلال بكتابك، وسُلّماً الى الشكّ فى دينك(١) وعلّةً فى الطعن على ملّتك ؛ ولكن قل ياولىَّ الشيطان : أنّى وقع لك إيمان بأنك من ولد فلان ؟ أتقول : شهدت الجيرةُ، واجتمعت العشيرة، واتّفق المختلفون، فذهب الشك، وزال الريب، ووقع الإيقان، من غير العيان؟ صَدَقتَ . فما بالُ الشكّ فيما اجتمعت العامّة على القول به، واتّفقت الجماعةُ فى الشهادة عليه من آيات الكتب وبيّنات الرسل! وإن ذهب بهذا عن أمره، وباعده(٢)

(١) فى الأصل " فى دينه ... " . (٢) كذا بالأصل .

عن شبهه ، فنؤمن أنه من نطفــة خُلِق ، ومن رَحِم خَرَج ، فإن جحدوا بى ألا يؤمن بمـا لا يرى ، فقلْ : أرأيتَ لو كنت سميعًا أعمى ، أكنتَ تُؤمن بشىء مما فى الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سبع ، أو أرض أو جبل ، أو شبه ذلك ممـا لم يدركه العيان ولم يقبلْه إلا عن الناس؟ فإن قال نعم ، فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالربّ(١) ، وما لدائه دواء غير الصلب . فاتّقِ اللهَ إذ كنتَ إمامًا وقائدًا لأهـل ملكك ، لا تقدهم الى النـار فتحمل أوزارهم مع وزرك .

فإنّ من أبين آيات الوحى ، وأدلّ علامات النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه لا يبتدع فى الدين أمرًا من تلقاء نفســه ، ولا يتقدّم فى الأمور بين يَدَىْ ربّه . والله أظهَر فيما أنزل من الكتاب أمورًا كان يحسبها صـلى الله عليه وسلم مستورة ، فقال تأديبًا له ، وإخبارًا لمن آمن من بعـده(٢) : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْـهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْـدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ . وقال : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْـتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْـهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ . وقال تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِـيرًا﴾ . وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس الى البلد الحرام حين سكنت القلوبُ اليها ، وأنِسَت النفوس بها : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ . وكانت القبلة التى صرفه الله اليها وأمَره بها عظيمةً على المنافقين واقعــةً بخلاف الكافرين ، كبيرةً(٣) إلا على الذين هَـدى الله من المؤمنين ؛ فإنهـم قالوا : اذا اختلفت القبلتان وافترقت الجهتان ، كانت الطاعةُ فيهما واحدة لا اختـلافَ فيها ولا افتراقَ عليهـا . وكيف تختلف الطاعة من رجلٍ بَنَى بأمر الله عز وجل ثم هَدَمَ بوحى الله .

(١) كذا فى الأصل . (٢) فى الأصل : "لمن آمن من بعده إذ يقول ..." وظاهر أن كلمة "إذ يقول" غير مفيدة هنا ، فلعلها زيدت سهوا من الناسخ . (٣) فى الأصل : "كثيرة ..." .

فإن قلتَ : إن الله حوّله عن أفضل القبلتين وأقوم الجهتين، فلا سواء فى الفضل البيّن والخير السرّ : قبلة سلّط الله عليها الكافرين ولم يمنعْها من الظالمين، وقبلة منَعها بجنود من عنده، وعَصَمَها بغير ما حَوْلٍ من خَلْقه ولاحرمةٍ يَدّعيها أحدٌ ممن فيها ؛ فأرسل طيراً أبابيل تَرْمِى الأعداءَ بحجارةٍ من سِجِّيلٍ، فجعلهم كعَصْفٍ مأكول . فإن تقلْ : هذا خَبَرٌ نُنْكِره، وقول لا نعرفه ؛ فبأىّ حديثٍ بعدَ هذا تؤمن ، وتَشْهد لله عز وجل أنه من قِبَلِه ، وأنتم تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورةَ الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فإن قلت : إن محمدا صلى الله عليه وسلم خَبّرهم بما عاينوه وأدركوا خلافه ، نقلْ : إنه أراد أن يفرِّقهم عنه ويوحشهم منه ، وأحب أن يرموه بالكذب، ويقذفوه بالحمق ، ويصموه بالجنون ، ويظُنّون(1) به الظنون، كلا ! ما كان نبى ولاغير نبى ليجاهد أقواما بخلاف ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم ، فيخبرهم بخلاف ما شهدوا، وتكذيب ما عاينوا . فلا تكونن فى هذا من الممترين، ولا بأمر الفيل من المكذّبين .

فلعمرُ الله لو كان من أمر النبى صلى الله عليه وسلم ما تُلْحِد أنت وقومُك اليه لما قام معه رجلان ولا اختلف فيه سيفان . وإن فيما صنَع الله عز وجل بالفيل وأتباعه ، دلالةً على قبلة الله وأنبيائه . فاتق الله ! فقد شرح أميرُ المؤمنين علاماتِ النبى صلى الله عليه وسلم وكَشَفَ الأغطيةَ لك عن النُّور بآيات الوحى . فإن مالت الأهواءُ بك ، وغَلَبت الأساقفةُ عليك ، وحضرك الرؤساءُ الذين يجعلون مع الله آلهةً أُخرى بلا حجّةٍ عندهم، ولا سلطانٍ أتاهم فقل : أنبؤنى عما اجتمعت عليه النَّصْرانية وذهبتْ اليه بهم المعانى من تشقيق الكلام وتصريف الكتب : أحروفٌ تتعسّفونها، أم لغة تعرفونها ؟ فإن قالوا : إنهم بغير لغة يتكلّمون ، فهم إذًا قوم يلعبون . وإن قالوا : إنهم يتكلّمون بلغة معروفة ومعانٍ معلومة، فقل : أخبرونى عن قولكم : أب وآبن، أهما ما تعترف العقول من المنطق ويقع فى القلوب من المعنى أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذى

(١) كذا بالأصل .

تذهب أوهام العباد اليه، ولا بالذى تقع الحقائق فى الآباء والأبناء عليه، إنما هو كقول الله عز وجل فى التوراة لإسرائيل: "بكرى" لا يعنى ولادة الرحم؛ وكقول المسيح عليه السلام للحواريين: "أنتم إخوتى" لا يعنى أُخوّة النسب. فذلك قولٌ لا يجدون معه بدًّا من أن ينسبوا عيسى عليه السلام عبدًا. وإن قالوا: بل هو ماتجرى به ألسن العباد، ويقع فى قلوب الخلق من الولادة المعروفة والأبوة المعلومة، فليخبرونا متى كان الأب والدا، والابنُ مولودا: أقبل الولادة أم بعدها؟ فإن قالوا: قبلها، رجعوا عن القول الأول بتثبيت الأبوة. إلا أن ذلك ليس بالشىء الذى تذهب إليه الأوهام، ولا بالمعنى الذى يقع فى قلوب الأنام.

ولا بدّ اذا سقطت الولادةُ المعروفة وبطَلت الأبوّة الموجودة، أن يقولوا: إن الأب والابن اسمان عُلِّقا على غير معنى، ونَسَبانِ أُضيفا الى غير حق؛ فيقرّون أن عيسى عليه السلام خُلِقَ مثلَهم، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحدٍ منهم.

وإن قالوا: إنما كان الابن مولودا والأب والدا بعد الولادة، فقد أقرّوا بأن الابن حَدَث مخلوق وعبد مربوب، لقولهم إنه لم يكن حتى وُلِد، ولم يُولد حتى خُلِق. وقل لمن يقول الزورَ العظيم، ويقذِف بالإفك المبين: أليس الأبُ أبًا على حياله ولم يزل، والابن ابنا نُجِل، وروحُ القدُس كذلك؟ فإن قالوا: نعم، فقد أقرّوا بأنهم ثلاثةٌ متباينةٌ، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة، وتركوا قولَهم: إنهم ثلاثةٌ أصلُهم واحد.

وإن قالوا: الأب والابن وروح القدس واحد، ولكنّ بعضه أبٌ وبعضَه ابن وبعضه روح القدس، فقد دخلوا فى التحديد الذى هو عيب عندهم، وقالوا فى التبعيض بما هو كفرٌ قِبلَهم. وإن قالوا: ليس مُبَعَّضا، ولا مجزَّأ، ولا محدودا، ولا ثلاثة متباينين، فإذًا هم قوم يلعبون: يقولون: الأبُ ابنٌ، والابن أب، والوالد مولود، والمولود والد، والكبير صغير، والصغير كبير، والقليل كثير، والكثير قليل. وهذا من أبين المحال وأخلف المقال. وليس من المنطق مالا يوجد فى لغة عرب ولا عجم، ولا لسان أمّة من الأمم. وإنما

أرسل الله عز وجل كل نبيّ بلسان قومه ليبيّن لهم، فيُضلّ الله الظالمين . ولولا ذلك لمَا فَهِمت الأممُ مذاهبَ أقاويل الرسل ولا معانيَ أحاديث الكتب . فلا تُطع الذين يلعبون بأنفسهم، ويتكلّمون بغير لغتهم، ويقولون : الثلاثةُ واحدٌ، والواحد ثلاثة؛ وهذا محالٌ فى مَجارى المَقال، ومعانى الفِعال .

لعمرُ الله لئن اتّهمتَ عقولَ الأساقفة على دينك، واهتَمَمْتَ بالنظر فى توحيدك، لتعلمَنّ أن الواحدَ لا يكون ثلاثةً وأن الثلاثةَ لا تكون واحدا، إلا على وجه ماله ثانٍ يقول به، ولا منه مَخْرجٌ تستريح اليه . فألقِ نحوَه سمعَك، وأَنصِتْ اليه فهمَك؛ فإن أمير المؤمنين واصِفُه لك، وليس واقعًا إلا على المخلوقين، ولا لازمًا غيرَ المحدودين، ولا داخلًا على رب العالمين : وهو أن يكون الشيءُ أصلُه واحد وأجزاؤه كثيرة، من نحو الانسان، وهو أصل يجمعه اسم، وله أجزاء تلزمها أسماء؛ فليس الجزءُ بالأصل، ولا الأصلُ بالجزء، ولكن الجزء بعض الأصل . فإذا أردتَ الجزءَ، قلت يد الانسان وسَمْع الانسان . ولولا أنه محدود مخلوق مجزّأ مبعّض لما جاز هذا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه؛ وكذلك الشمس : الأصلُ واحد، وهى شمس، والأجزاء كثيرة وهو عينُ الشمس وضوءُ الشمس وشُعاع الشمس ودقيقُها وغليظها وحرورها وأعلاها وأسفلها وأشباه ذلك .

فلئن قلت : سمّيْتُ كلَّ جزء من الأجزاء على حِياله إنسانًا، وكلَّ جزء من الشمس دون أصله شمسا، ونسبتَ فعلَ الأصل الى بعض أجزائه، وتركتَ أن تنسُب الأصلَ فاعلًا ببعض الأجزاء، كما تقول : بَسَط الانسانُ بيده، ومَشَى برجله، ونَظَر بعينه، ثم ضربتَ ذلك لله عز وجلّ مَثَلا وجعلتَ الله له قياسًا، فقلت : الأصلُ واحد، وهو الله عز وجل، والأجزاء كثيرة وهى أب وابن وروح القدس، وكل جزء منها إلهٌ على حِياله وربٌّ دون غيره، لم تجِدْ بُدًّا أن تُلْحِقَ اليدَ والعينَ والنفسَ بالأب والابن ورُوح القُدُس، فتكثِر آلهتَك، وتحدّدَ ربّك، وتترك قولك : إن الله ليس محدودًا ولا مجزّأ ولا مبعّضا؛ إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول : المعنى واحد، وهو الله عز وجل، والأسماء أبٌ وابنٌ ورُوح القدس .

فإن كنتَ تقول هذا وكنتَ إنمـا تعبـد أسماء، فمـا تجد بدًّا من أن تعبدَ الأسماء كلها وتقول : إنهـا آلهةٌ على حِيالها ، حتى تقول باسمِ ٱرحمنى ، و بثانٍ اغفـر لى . فاتّقوا الله ياأهل الكتاب ، فإن الله عز وجل ليس بأب ولا ٱبن ولا ٱسم ، ولكن له الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يُلْحِدون فى أسمائه سيُجْزَوْنَ ما كانوا يعملون .

فإن أشارت الأساقفةُ الى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك وقالوا ليس إنساناً، فقل لا ، ولكنه الإنسان ، وقل هو إنسانٌ بكماله . وكذلك إن أشاروا الى بعض الشمس فقالوا : أليس هذا الشمس طالعا ، فقل لا ، ولكنه بعضها ، ولو كانت الأسماءُ التى تقع أبصاركم عليها وتشـير أيديكم اليها من الشمس والسماء والهواء شمسا وهواءً وسمـاءً لكانت الشمس والهواء والسماء أ كثر ممـا يبلُغه الإحصاء . ولو قصدتَ بالإجابة لمسالك هـذه الأودية ، لبطَلَتِ الحجج الداحضـة وٱنقطعت الأقاويلُ المناقضة . وسـل مَنْ قِبَلَك من أساقِفِ أُمّتك وشَمَامِسَة أهل مِلَّتك الذين يزعمون أن عيسى المسـيح، ويرفعونه أن يكون عبـدًا : على أى شىء وقع اسمُ المسيح من عيسى : على الروح أم الجسد أم على كليهما؟ فإن قالوا : وقع على الروح نفسه ، لأن الروح إلهٌ دون غيره ، فقد أقروا بأن إلَههم يأ كل و يشرب ، و يمشى و يركب ، لأنهـم يجدون ذلك من فعل عيسى مبينـا قِبَلَهم ، موصوفاً عنـدهم . فإن قالوا : وقع ٱسم المسيح على الجسـد بعينه ، فكان الجسد هو المسيـح اذًا دون غيره ، والمسيحُ اذًا مخلوقٌ عنـدهم ، والإله إنسانٌ اذًا مثلهم ، فَلِمَ يعبُـدون المخلوقَ ويدعون من خَلَقه وبَرَأه . وإن قالوا : وقع الاسم على الروح والجسد جميعا ، فلن يجدوا مَخْرَجا ولا بُدًّا ولا مَحِيصًا ، اذا أوقعوا الاسمَ عليهما ، من أن يُضيفوا الأعمالَ إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوقَ هو خَلَقَهم ، وإن الرُّوحَ الخالقة قد ماتت قَبْلَهم ، وذلك لمـا يجدون من ذكر موتِ عيسى عليه السلام فى الكُتُب عنـدهم وفى الإنجيل الذى قِبَلهم . وسل مَنْ قِبَلَك عن الأب والاَبن ، فقـل أيهما أعظم وأيهما أصغر ؛ فإن قالوا : الأب أعظم والاَبن أصغر ، فقـد جعلوهما متباينين . وإن قالوا : هما واحدٌ وكلاهما عظيم ، وليس الأب بأعظم من الاَبن ،

ولا الابن بأصغر من الأب، فقد نُقض حينئذ جوابُهم، وأ كذب المسيحُ عليه السلام كلامَهم، حيث يقول : "لو كنتم تحبُّوننى لفَرِحتم حيثُ أذهب الى إلهى فإنّ إلهى أعظم منّى"(١) فلم يَقُل أعظمُ منى، إلا وهو مقرٌّ بأنه أصغرُ منه . وسلهم عن قول المسيح : "أنا أذهب الى إلهى وإلهكم"(٢)، فقل : مَنْ هذا الإلهُ الذى ذهب عيسى اليه صلى الله عليه وسلم : إلهٌ فى السماء متباين منه منقطعٌ عنه؟ فهما اذا اثنان متباينان، أم إلهٌ كان به متّصلًا وكانا جميعًا واحدًا؟ فكيف اذًا يجوز له أن يقول اذًا أذهبُ اليه ! إلا أن يقولوا : إن بعضه ذهب الى بعض! وهذا مما لا يجوز عندهم فى صفة الربّ عزّ وجل .

وسَلْ مَنْ قِبَلَك : أَخَرَج المسيحُ من بطن أمه مريم بكماله حتى كان البطن منه فارغا وكان هو منه بكماله خارجا؟ فإن قالوا : نعم، فقد انكسر قولهم : إن الله بكل مكان . وإن قالوا : لم يخرُج المسيح ولم يخلُ البطن، فقد كَذَبوا اذًا فى قولهم : إنه قد خَرَج، وأقرّوا أنه قد وُلِدَ . فتعالى الله عما يَصفون، وتنزّه عما يُشركون . وسَلْهم لِمَ هَبَطَ عيسى الى بطن مريم، وتجسّد باللحم والدم ؛ فإن قالوا : ليَمْحَقَ الخطايا من الأرض ويربُطَ الشيْطَان عن الخَلق، فقل : كيف اذًا لم يربطه عن نفسه ! وكيف جلاباه(٣) من اليهود بصلبه ! ولِمَ سُلِّطَ على أهل دِينه يُتَّبَعون فى كل شِعْبٍ ويُقْتَلون بكل واد !

وقل للذين يقولون : إن الخالقَ فى كل مكانٍ من السماء والأرض وغير ذلك : أيهما أعظم : المحيطُ المشتَمِلُ، أم المُحَاط المشتَمَل عليه كما يقولون ؟ تعالى الله عما يشركون . فإن قالوا : إنما التحم بعضه دون بعض، فقد حَدُّوا وبعّضوا ونَقَصوا وانتقصوا، وإمّا قالوا فلن يجدوا بدًّا من أن يقولوا : إن بعض المسيح الذى جعلوه ربهم، وهو إله عندهم، ميّت بعضه جيفة، وإن بعضه حيٌّ طيب ؛ لأنهم زعموا أنه التحم بجسد حيٍّ فيه

(١) الوارد فى إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٨ ج ٣ ص ١٨٦ من الكتاب المقدس طبعة بيروت سنة ١٨٨٢ م) : «فلو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون بأنى ماض الى الأب لأن الأب هو أعظم منى» .

(٢) الوارد فى إنجيل يوحنا (فصل ٢٠ آية ١٧ ج ٣ ص ١٩٦ من الكتاب المقدّس) : «إنى صاعد الى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم» . (٣) كذا بالأصل »

رُوح، فلابدّ اذًا أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفزع والفرح والعطش وأشباه ذلك، وهو عندهم كفر عظيم وإفكٌ مبين . فاتّق عقوبةَ الله ربك، ولا تمشِ مُكبًّا على وجهك، ولكن اطلبْ والتمس وابحث؛ فقد قال عيسى عليه السلام فى الإنجيل : ”من سَأَل أُعْطِيَ ومن طَلَب وَجَد ومن استفتح فُتِحَ له“[(١)] .

اجمَع العلماءَ والبصراءَ [الذين] عندك، والأساقفة والرهبان الذين قِبَلَك، فقل : لأى شيء نَسَبتم المسيح إلهًا وجعلتموه ربًّا؟ ونجد الله سمّاه فى الكتاب ابنًا، وقد تجدونه قال : ” إنى أذهبُ الى أبى وأبيكم وإلٰهى وإلهكم أيضا“ . وهـذا كلامٌ يحتمل وجهين أحدهما أولَى به، وقولٌ لايحتمل إلا وجهًا وهو الرُّبُوبيّة . أم كيف تنظرون الى كلامه : ”أذهب الى أبى وأبيكم“ . فتُفْرِدونها فى نفسه وقد قالها فيه وفى غيره !

فاتّق الله وكن من القائمين بالحق، الموحِّدين للرب. إن أمير المؤمنين قد ضَرَب لك أمثالًا جمّة، وصَرَف اليك مسائلَ كثيرة، وبيّن لك من آيات النبى صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحى قليلًا من كثير، واضحا من تفسير، لا تمتنع العقولُ من التصديق به، ولا القلوبُ من الإقرار به .

وسيذكر لك أميرُ المؤمنين من علامات النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل، ما يُكْتَفَى به، إن شـاء الله، وباليسـير منه؛ لأن كتب الله عز وجل محفوظة، وحُجَجه محروسة، لا يزاد فيها ولا ينقص منها . واذا وجدتَ فيها كلمةً تدلّك على حق وتَهْدِيك الى رُشْد، فلستَ واجدًا أخرى تَصُدُّك عنه وتشكِّكُك فيه، اذا تُلِيَ ذلك بالحق ووُضِع على الصـدق . ولكن ضلّت اليهودُ والنصارى بتحريف تأويل الكلام، وتصريف تفسـير الكُتُب . وأميرُ المؤمنين يسأل الله العِصْمَة والتوفيق .

---

(١) الوارد فى إنجيل متى (فصل ٥ آية ٤٢ ج ٣ من الكتاب المقدّس) : «من سألك فأعطه . ومن أراد أن يقترض منك فلا تمنعه» . والوارد فى إنجيل لوقا (فصل ١١ آية ١٠ ج ٣ من الكتاب المقدّس) . «من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له» .

من ذلك ما قد شَهِدَ به عيسى عليه السلام عندكم وبيّنه فى الإنجيل لكم ، إذ قال للحَوَارِيِّين[١] : "أنا أذهبُ وسيأتيكم البار قليط روح الحق الذى لا يتكلّم من قِبل نفسه إنما يقول كما يُقَال له ، وهو يشهد علىّ وأنتم تشهدون لأنكم معى من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شىء أعدّ الله لكم يخبركم به" . وترجمة البار قليط : أحمد . هذا ما لا شكَّ ولا مِريةَ فيه ، وهو الذى يُخبر بما وَعَد الله المؤمنين وصالحى الحَوَارِيِّين فى القرآن ، ولستم تجدون ذلك فى التوراة ولا فى الإنجيل .

ومن ذلك قول أَشْعَيَا[٢] النبى عليه السلام : "قيل لى : اقم بطارا ما ترى بخبرى[٣]؟ قال : أرى راكبين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها المنحوته[٤]" . ولسنا نعلم نبيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا .

ومن ذلك قول داود عليه السلام[٥] : "اللهم ابعث جاعلَ السُّنَّة كى يعلم الناسُ أنهم بشر" يقول : كى يتبيّن الناس أن عيسى عليه السلام إنسان . ولسنا نعلم نبيا وضع سنّةً تُنْسَب اليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فإنه نَصَب سُنّةَ موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حَبَقُّوق[٦] المتنبىء فى زمان دانيال : "جاء الله من السماء[٧] والقِدّيس من جبال فاران ، وآمتلأت السماء من تحميد أحمد وتقديسه ، ومَسَح الأرضَ بيمينه ، ومَلَك رقابَ الأمم" . وقال أيضا[٨] : "تضىء لنوره الأرضُ ، وتُحْمَلُ خيلُه فى البحر" . فالى من

(١) راجع إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٦ وفصل ١٥ آية ٢٦ وفصل ١٦ آية ١٣ ج ٣ ص ١٨٨ من الكتاب المقدّس) .

(٢) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٢١ آية ٩ ج ٢ ص ٣٤٨ من الكتاب المقدّس) . (٣) كذا بالأصل ، ولم نوفق الى تصحيحه . (٤) فى الأصل : «المنحرة» وقد استأنسنا فى اثبات ما أثبتناه بالكتاب المقدس .

(٥) راجع سفر المزامير (فصل ٩ آية ٢١ ج ٢ ص ٥٢ من الكتاب المقدّس) . (٦) راجع نبوءة حبقوق (فصل ٣ آية ١ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدّس) . (٧) فى الأصل : "من السمان ..." .

(٨) راجع نبوءة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدّس) .

بنحو هـذا القول ، والى أين يُذْهَبُ بهذا المعنى؟ لئن ذُهِبَ به إلى غير الذى [تحمل][1] خيلُه فى البحر ، وبدأ من جبال فاران أمره ، وغَلَب على الأرض ومسحها[2] ، وملَكَ رقابَ الأمم كلها ، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى الزَّبُور[3] : " صَدِّقُوا وسَبِّحوا الربَّ تسبيحًا حديثا . سَبِّحوا الذى هلّله[4] الصالحون . ليفرَحْ إسرائيلُ بخالقــه ويتوب صِهْيُونُ من أجل أن الله اصطفى له أمته ، وأعطاه النصر وسَدَّد الصالحين بالكرامة ، يسبِّحونه على مَضَاجعهم ، ويكبّرون الله بأصواتٍ عالية ، بأيديهـم سيوفٌ ذاتُ شَفْرَتين ، لينتقم الله من الأمم الذين لا يعبدونه ، ثم يقيِّد ملوكهم بالقيود وأشرافَهم بالأغلال " . فأيّتما أُمّةٍ يكبِّرون اللهَ بأصواتٍ وأذان الصلوات الدائمة وعلى كل شَرَفٍ وعند كل حرب ، وأيّتمـا أمةٍ كانت سيوفُها ذاتَ شَفْرتين إلا أُمة محمد صلى الله عليه وسلم !

ومن ذلك قول أَشْعَيَا[5] : " سَبِّحوا الربَّ تسـبيحًا حديثا ، ويسبّحه من آفاق الأرض فرح يكون فى بنى فيار[6] " . وبنو فيار قريش أهل فاران الذى نزل فيه القرآن . وأيّتمـا أُمّةٍ تسبِّح من آفاق الأرض إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم . عبدى أكدى[7] .

ومن ذلك قول أشعيا[8] : " عبدى الذى وجب به حبّى الذى بشرت به نفسى أُفيض عليه رُوحى ، يُوصِى الأممَ بالوصايا ، لا يضحَك ولا يُسْمَع صوتُه فى الأسواق ، ويفتح العيون العُور ، ويُسمِع الآذانَ الصُّمّ ، ويُحْى القلوبَ الغُلْف ، وما أُعطيــه لا أُعطى غيرَه ، أحمد يحَمد اللهَ حمدًا حديثا ، تهليلُه يأتى من أقصى الأرض ، يجوز المــاءَ بشدة أمواجه ، ويفرح[9] وكورها ، سكانها يحمدون الله على كل شَرَف ، ويكبِّرونه على كل رابية " .

(١) زيادة يدل عليها ما قبلها . (٢) فى الأصل : "ومنحها ... " . (٣) راجع سفر المزامير (فصل ١٤٩ آية ١ — ٩ ج ٢ ص ١٥٧ من الكتاب المقدّس) . (٤) فى الأصل "هلكه الصالحون..." (٥) راجع نبوءة أشعيا (فصــل ٤٢ آية ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدّس) . (٦) كذا فى الأصل ، ولعله محرف عن «فوج» . والفوج : الجماعة من الناس . (٧) كذا بالأصل ، ولم ندر لهاتين الكلمتين ولا لذكرهما معنى . (٨) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١ — ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدّس) . (٩) كذا بالأصل .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى المزمور الخامس والأربعين(١)، (٢) يقول الله عز وجل لمحمد فى الزبور: "انصبّت رحمتى على شفتيك من أجل ذلك باركتك الدهرَ(٣)، تقلّد السيف على الأمم، أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسباء بهائك وحمدك أحمد نعلب البر منك كلمة الحق وذلت لك الأشياء سيفك بحسمه يمينك ونبالك مسمومة وتسقط عند الأمم". فأى نبى كان على الأمم جبارا ولهم بإذن الله قتالا إلا نبينا صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك فى آخر التوراة(٤): "جاء الله تبارك وتعالى من سيناء وأشرف من ساعير واستبان واستعلن من جبال فَارَان، وجاء عن يمينه ربوات القِدّيسين". وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى فى طُورِسيناء، وأنزل الإنجيلَ على عيسى عليه السلام فى جبل ساعير وهو جبل بالشام، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فى جبال فَارَان وهى بلاد مكة. وأنتم تجدون ذلك فى كتبكم مكرّرا وتعرفونه جميعا بلغتكم.

ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام(٥) «سأُقِيمُ لهم من إخوتهم مثلَكَ أجعَلُ كلامى على فهمه ولا يتكلّم إلا بما آمرُه به». فمَنْ إخوة بنى اسرائيل إلا بنو إسماعيل! أَمَا تعلم أن لو كان الله عزّ وجل يعنى أحدًا منهم لقال لهم: أُقيم لكم نبيا منكم!.

فإن قلتم إنما قال من إخوتكم، وهو يريد من أنفسكم، فهَبْ أميرَ المؤمنين قَبِلَ هذا الخُلْفَ منكم ووَسّعَ فى هذا المجال لكم، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل فى التوراة: "مثلُ موسى فى بنى إسرائيل لا يقوم" فهل تجدون من هذا مَخْرَجًا، ومن الإيمان أن المعنى وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدًّا.

---

(١) راجع سفر المزامير (فصل ٤٤ « وفى بعض النسخ ٤٥ » آية ٣ — ٨ ج ٢ ص ٧٩ من الكتاب المقدّس). (٢) فى الأصل: « فى خمسة وأربعين مزمورا ». (٣) فى الأصل: « من أجل ذلك باركل الدهر. واستعنا فى تصحيحها بالكتاب المقدس الذى وردت فيه الجملة هكذا: « وقد انسكبت النعمة على شفتيك فلذلك باركك الله الى الأبد ». أما الباقى فلم نوفق الى تصحيحه فأثبتناه كما وردت بالأصل.

(٤) راجع سفر تثنية الاشتراع (فصل ٣٣ آية ٢ ج ١ ص ٤٤٣ من الكتاب المقدّس).

(٥) راجع سفر تثنية الاشتراع (فصل ١٨ آية ١٥ ج ١ ص ٣١٨ من الكتاب المقدس).

ألا تسمع قول الله عز وجل : " أجعَـلُ كلامى على فمه كى يُعْنَى به ، أمّىٌّ لا يقرأ ولا يكتب" .

أوليس قد أمر عيسى عليه السـلام حَوَارِيِّيه أن يقولوا فى صَلَواتهم (١) : «ياأبانا الذى فى السماء تقدس اسمك» . كيف صار عيسى دونهم ابنا ، وصار له دونهم أبا (٢) ، وهم يقولون : ياأبانا ! أم كيف لم يُجْعَل سليمانُ بن داود إلهاً وقد قال الله عز وجل لداود : "يُولَد لك غلامٌ يُسَمَّى لى وأُسَمَّى له" ! ولِمَ لايجعلون إسرائيلَ إلها وقد قال الله عز وجل له : "أنت بِكْرِى" ! بل لِمَ لا يُسَمُّون المؤمنين عامّةً والحواريّين خاصة[آلهة] ، وقد قال المسيح للحواريين : أنتم إخوتى ، وقد قال فى الانجيل (٣) : " أَعطِ كلَّ من آمن بى سلطاناً يُدْعَى له" . وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح إخوة أفلا تجعلونهم كلهم آلهة ! وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله ، وهو يقول فى مواضع جمّة وأماكن كثيرة إنه ابن الانسان ! فكيف يكون ابنُ الانسان ابنَ الله ؟ ومتى كان ذلك ؟ لئن قالوا : إن عيسى لم يزل ابنَ الانسـان ، لقد جعلوا مع الله إنساناً قديمـا وجعلوا الله إنسانا حديثا ، وجعلوا المسيحَ ابنَ الله لم يَزَلْ ، وابنَ الإنسان فيما حَدَث . وهذه أمورٌ متناقضة ، وحجج داحضة ، وأقاويل فاحشة .

فإن قالوا : إنما نعبد المسيحَ لأنه رُفِعَ الى السماء ، فليعبدوا الملائكةَ فإنهم فى السماء قبله ، وإدريسَ فقد رفعه الله وغيرَه . وإن كانوا يعبدون المسـيح لأنه لم يُخْلَقْ من ذكر ، فآدمُ وحوّاء لم يُخْلَقا من ذكر ولا أنثى ، ولم يَقَعَا من غمّ الرحم وضِيق البطن وحال الصِّبا فيما [وقع] فيه المسيح .

وإن قالوا : إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى ، فما أحيا حزقيل (٤) أكثر ، وما كان من اليَسَع تلميذ إليـاس أعجب ؛ لأنه أحيا الموتى بعد مئين من السـنين . وإن طلبتم ذلك فى سِير الملوك عند قصة اليسع أصبتموه ، إن شاء الله .

(١) راجع إنجيل متى (فصل ٦ آية ٩ ج ٣ ص ١٠ من الكتاب المقدس) . (٢) فى الأصل : «وصار دونه أبا ...» . (٣) لم نجد هذا فى الإنجيل . (٤) حزقيل نبىّ بعثه الله تعالى الى بنى اسرائيل ، وهو الذى أحيا الله به القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدعوته . وهو ما يشير اليه قوله تعالى : (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) الآية .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيحَ من أجل الأسقام التى أبرأ والعجائب التى أَرَى ، فعجائبُ موسى أعجب وآياته أعظم . أين ما ذكرت لك من [عجائب] عيسى من عجائب موسى : من آنقلاب البحر له ، وسلوك الجيش معه ! أم أين ذلك من حجرٍ يضرب به فيتفجّر بعيون الماء ، ويحمله معه حيث شاء ! بل أين تلك وهذه وغيرهذه من الآيات من حبس يُوشَعَ الشمس[1] ثلاثَ ساعات ! وكلُّ ماصنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره وقضائه . فاتّقِ الله وكن من القائلين بالحق ، الموحّدين للرب ، ولا تقل على عيسى ما لم يَقُل ؛ فإنكم لاتجدونه قال لكم فى شيء من كتبكم : اعبدونى فإنى ربكم . تعالى الله عما يقول الظالمون ، ويذهب اليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحبّ أن ينصح لك ، فى أَوْلَى دارَيْك بك وأهمّ شأنَيْك لك ، فدعاك الى الإسلام وأمرك بالإيمان الذى به تدخل الجنة وتنجو من النار . فإن قبلتَ فحَظَّك أصبتَ ، ونفسَك أحرزت ، ولك ما للسلمين ، وعليك ما عليهم . وإن رددتَ نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الحظُّ فى آخرتك ، فإن أميرَ المؤمنين ينصَح لك فيما فيه الصلاحُ فى عاجلتك : من إعطاء الجزية التى يحقِن الله بها دماءَكم ويحرّم بها سباءَكم ، ويجعلها قِوامًا لمَعَاشكم ، وصَلاحًا لبلادكم ، وتوفيرًا لأموالكم ، وأَمْنًا لجنابكم ، وسعةً لسِرْبكم[2] ، وبركةً على فقرائكم ، وغِنًى لأهل الحاجة والفاقة والمَسْكَنة منكم .

وإن يذكر أمير المؤمنين فى الجزية لكم من حلول الأمن فيكم ، وعموم العافية إياكم ، وآستقامة البركة عليكم ، وكَفِّ أيدى المسلمين عنكم ، وبَسْطِها على الأعداء منكم ، شيئا إلا وفى قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك الفدية التى كان الله أجرى نعمتَها لكم على يده ، وفَتَح بركتَها عليكم من قِبَله ، ما يدلُّكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهَدُ له على حقّه فيما يقول ان شاء الله . فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طَرَف من أطرافكم ،

---

(١) إشارة الى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس ؛ فقد روى أن يوشع قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ، فدعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم . (٢) السرب : الطريق .

وصِنْف من أصنافكم، بتلك الفدية، أمورًا عظيمةَ البركة، واسـعةَ المنفعة، فى أمورٍ غير واحدة :

منها : أن قادةَ جنودكم وساسةَ حربكم، كانوا بعـد وقوع أمرها وٱستحكام عَقْدها، فراغًا لمحاربة أعدائكم ومناصبةِ من ناوأ كم، بين أن يستعجموهم (١) فى بلادهم وينزلوا عليهـم فى ديارهم، ولا يرهبون تَعَقُّبَ بَشَرٍ إن ساروا فى أرضهم، ولا يتخوّفون طِرادًا إن ٱجتمعوا لقتالهم أن يقيموا فى خَفْضٍ ودَعة، وأمْنٍ وَسَـعَة، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمَحَال، وهم اليوم يترقّبون الجيوش من كل شِعْبٍ ويتخوّفون الحتوفَ فى كل وقت، لا يهدأ (٢) لهم جأش، ولا يسكن لهم فَزَع، ولا ينامُ لهم ليل، ولا يأمن فيهم حال، قد قَطَعت الهمومُ دابرَهم، وأضمرت المخاوفُ جُنُوبَهـم، وٱستأصلت الجنودُ أموالَهم .

ومنها : أن أهل الحِراثة وإخوان العمارة، فى بلادك وأطراف أرضك، كانوا سِراعًا الى عِمارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم، فيما لا قِوامَ لهم ولا لمعاشهم إلا به، ولا بقاءَ لدينهم إلا معه؛ قد أمِنوا الجيوشَ ومَعَرَّتَها، والجنودَ وبادرتها، وٱنتشروا للعمارة، وٱبتكروا فى الزراعة، فارقوا رءوسَ الجبال وإقحامَ الغِياض، وراحوا فى أوساط أوطانهـم وظِـلال مَحَالِّهم، يشقّقون الأنهار، ويغرسون الأشجار، ويُفَجِّرون العيون، حتى نَمَت الأموال، وٱخضَرّت الحال، وأخصب الجنَاب؛ وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممسكين، وللحِراثة تاركين، وبغيرها مشتغلين فى إصلاح آلات الحَرب، وإحراز العيال فى الحصون، ورمِّ القِلَاع للجلاء، وتحريش الحصون للبلاء، قد ٱنتقلوا عن منابت البر وكرائم الأرض، ومجارى المياه، الى أوشال الجبال، وأشجار الغِياض، وبطون الأودية؛ فليس يبلُغون من عِمارة بلادهم، ولزوم أوطانهم، [و] من تناول ثمـارهم وقوَام معاشهم مثلَ ما كانوا يبلُغون، ولا ينالون من خَفْض العيش وطِيب الأمن ولذّة الدَّعَة، قريبًا مما كانوا ينالون .

(١) كذا فى الأصل . (٢) فى الأصل : «لا سكن لهم الخ» .

ومنها : أن إخوان التجارات، وأصحاب الأموال وأهل الظِّلْف والحافر، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم من أسواقنا[(١)]، فينفِّقون تجاراتهم ويُغلون بضائعهم، فتعظُم الأرباح وتضعف الأثمان . وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من الذميين، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم، فعمّت البركة وسَهُلت المنفعة، حتى نالت الرعاءَ فى جبالها وامالها[(٢)]، والنساءَ فى غزولهن وعمل أيديهن فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومَنْ قِبَلك من ذوى العبادة والزهادة والتألُّه والنسك والنيات، كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب، وسلامةٍ من أوزار الحضِّ على قتال الخوف؛ قد نَجَوْتم من معصية المسيح فى الدنيا التى نهاكم عنها، والأمور التى أمركم بها، من نحو قوله[(٣)] : "مَنْ لَطَم خدّك الأيمن فأمكِنْه من الأيسر، ومَنْ انتزع قميصَك فأعطِه كساءَك ، ومن لَطَمك فاغفرْ له، ومن شتمك فأعرِضْ عنه" .

ومنها : أن من بأقاصى بلادك ونواحى حوزتك، قد ذاقوا تلك الأيامَ من لذة الخفض، ودعة الحال، وحلاوة الأمن، ورَفَاهِيَة العيش، وسَعَةِ العافية من سِبَاء أزواجهم، وهَيْض أولادهم، وحطم معاشهم، وأسر رجالهم، وغنيمة بقرهم وغنمهم، وإفساد شجرهم وثمارهم، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم، ما لم يكن لهم رأىٌ يعرفه ، ولا ظنٌّ يبلُغه ، ولا طَمَعٌ يُقاربه ، ولا أملٌ يذهب إليه . وما قد عرفت الخاصّةُ من بطارقتكم ، والعامةُ من أهل ملتكم به : من رأفتكم بهم ، ورحمتكم لهم، وشَفَقتكم عليهم، وأَثَرتكم إياهم، وبركةِ ولايتكم ملكَهم ، ومنفعةِ سياستكم أمرَهم، ما قد ازدادوا لكم به محبةً، وفى بقائكم رغبةً، ولأمركم طاعة، وعلى ملككم شفقةً، وفيما نابكم نصيحةً؛ مع ما قد ازددتم بذلك من الهيبة فى صدور الأعداء ، والشرف فى قلوب النظراء ، والعظم فى عيون الأمم ، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول ، وفضل سياسة الأمور ، وصحة تدبير الملك ، وصدق النية ، ولطف الحيلة التى

(١) فى الأصل : "من بلادهم ..." . (٢) كذا فى الأصل . (٣) راجع إنجيل متى (فصل ٥ آية ٣٩ ج ٣ ص ٩ من الكتاب المقدّس) .

جعلوا نسبة عملكم بها ، ومحل رأيكم فيها ؛ على أنكم نظرتم لضعفائكم حتى قَوُوا ، ولفقرائكم حتى استَغْنَوْا ، ولقرائكم حتى سدوا وحيو ووووا (١) المسلمين من أيام الحروب وأوزار القتال ، ومعصية المسـيح عليه السـلام ، ولأعدائكم الأبعدين وجيرتكم الأقربين ، حتى كنتم من فراغكم لهم ، وآشتغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر بحر (١) القتل ، وذل الأسر وغلبة القهر ، والإذعان والاستسلام . وإما كفيتموهم بالصلح ، وآستوثقتم منهـم بالرهن .

فاذا ذكرتَ ما كان من هـذا وأشباهه وأمثاله فى الفدية ، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم فى الجزية ، فلا يكونن لك رأيٌ غيرها ولا أمر سواها ؛ فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب من أمركم ، وأطال تقليب الفكرة فى بعضكم ، فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه الى خلافه ممـا أصبحتم عليـه من آنتظار وقعات الحروب ، وصولات الجنود وأكل الحدود ، وتوقع الجلاء والسباء والقتل ، والأسر والحصر ، شيئا آختدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيدًا آستدرككم به لمـا علم من قلوبكم .

ألا إن أعجبَ عذركم وأفظعه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتُكم على الله عز وجل فى نقض عهده ، وآستخفافُكم بحقّه فى خَفْر ذمته ، وتهاونُكم بما كان منكم ، وأنتم تعلمون أن مواثيق العهود ونذور الأيمان الذى وضعه الله عز وجل حَرَمًا بين ظهرانَىْ خَلْقه ، وأمانًا أفاضه فى عباده ، لتسكُنَ اليه نفوسُهم ، وتطمئنّ به قلوبهم ، وليتعاملوا به فيما بينهم ، ويقيموا به من دنياهم ودينهم ؛ فمـا من ملك من الملوك ولا امة من الأمم ، تبيح حِمَى الله عز وجل ، تهاونا به وجرأة عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأنزل عليهم عذابا من السماء . وقد رجا أمير المؤمنين أن يُجرى الله نقمته منكم بأيدى المسلمين ، بعد إذ كان آعتقد عهـدكم ، وأخذ ميثاقكم بالأيمـان المغلّظة ، والعهود الموكّدة ، التى قد اعتقدها فى رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فأشهدتم اللهَ بها على أنفسكم ، وتسامعَ بها مَنْ حولكم ، وحكم بها بطارقتكم وأساقفتكم . فلا اللهَ آتقيتم ، ولا من الناس آستحييتم ، نكثًا للعهد ، وبغضا للمسلمين ،

(١) كذا فى الأصل .

وخَتْرًا بالأمانة ، وإباحةً للحمى . فتوقّعوا العقوبة ، وانتظروا الغيب ؛ فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حالٌّ إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم ، ما قد أزمع أمير المؤمنين وعزم عليه ، وقذف الله فى قلبه : من الإرادة والنية والرغبة فى إيطاء الجيوش بلادكم ، واستباء المقاتلة أرضكم ، والتفرُّغ لكم من كل شغل ، والإيثار لجهادكم على كل عمل ، حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون ، وتؤدُّوا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون . فكونوا على عدة من الجزية ، ويقين من الانتجاع الذى لاطاقة لكم إن شاء الله به ، ولا صبر لكم بإذن الله عليه ؛ فان جنود أمير المؤمنين فارغة كثيرة ، وخزائنه عامرة وافرة ، ونفسه سخية بالإنفاق ، ويده مطلقة بالبذل ، والمسلمون نشّاط اليكم ، منقلبون عليكم ، قد عوّدهم الله فى لقائكم عادة يرجون انتظار مثلها ، وأبلاهم فى قتالكم بلاء من أمثالها ، إن شاء الله .

وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدى جنوده ، ومُقدّمه إن شاء الله من جيوشه ، إلا أن تؤدُّوا الجزية عن التى دعاك أمير المؤمنين اليها ، وحداك ومن قِبَلك عليها ، رحمةً للضعفاء الذين لا ترحمهم ، وتوجّعا للمساكين مما لا تَوَجّع منه لهم من الجلاء والسباء والقتل والأسر والقهر ، وقساوة من قلوبكم ، وأثرة لأنفسكم ، واعتصاما بخواصكم ، وإجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لا تمنعونهم بقوة ، ولا تدفعون عنهم بحيلة ، ولا تراقبون فى الرحمة لهم والتعطّف عليهم ، أدبَ المسيح إياكم ، وقولَه فى الكتاب لكم[1] : "طوبى للذين يرحمون الناس ، فإن أولئك أصفياء الله ونور بنى آدم" .

وايم الله لو يعلم مَنْ قِبَلك من المساكين والزراعين والفقراء والضعفاء والعَمَلة بأيديهم ، ما لهم عند أمير المؤمنين لتحدّروا عليه وأقبلوا اليه ، من إيوائهم ، وإنزالهم الأرض الواسعة ، وإمكانهم من مسايل المياه السائحة ، والعدل عليهم بما لا تبلغه أنت ولا تقار به ، رفقا بهم ونظرا لهم وإحسانا اليهم ، مع تخليته إياهم واديانهم ، لا يُكرههم على خلافها ولا يجبرهم على

---

(١) راجع إنجيل متى (فصل ٥ آية ٧ ج ٣ ص ٧ من الكتاب المقدّس) .

غيرها ، لاختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك ، وجواره على جوارك ، ولأنقذوا (١) أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم ، مما يحل بهم فى كل عام ويلقون من كل غزاة . فاتق الله واقبل ما عُرض (٢) عليك من الجزية ، ولا يمنعك ما فيه الحظ لك ولأهل مملكتك . ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الوراثة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخل عليكم فى الإذعان [لهم] وأداء الجزية اليهم حميةٌ ولا نقيصة ولا عار ، والذين يَفُون لكم بما يعقدون ، ويتبعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة والإقساط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، نظرًا لدينه وخوفا من ربه ، ولما قذف الله فى قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، واتفاق الأفئدة ، والنصائح فى السر والعلانية ، وما عوّده الله ممن نصب له بمجاذبة ورماه بمكايدة ، وعراه بحيلة : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر المبين . فابذُلْ من الجزية ما شئت ، وسمِّ منها ماهَويت . واعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به اليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سببا لما يريد أن يجرى فيما بينه وبينكم . وإنه إنما كان قبول المهدى — رحمه الله — الفدية منكم ، بطلبة أمير المؤمنين كانت اليه ، والحاجة كانت فيها عليه (٣) ، ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة اليها ، ولا استعظام لها ، ولقد كان يعطى فى المجلس الواحد مرارا أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم . فأما اليوم اذ استبان له غدرُكم ونقضكم ونكثكم واستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم : إلا الاسلام أو الحرب المجلية ، ان شاء الله . ولا حول بأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ؛ عليه يتوكل وبه يثق وإياه يستعين . والسلام على من اتبع الهدى .

(١) فى الأصل : "ولأبتذلوا ..." . (٢) كذا فى الأصل وهو غير واضح ولعل أصل الجملة "ولا يمنعك الشيطان مما فيه ... الخ" فسقط هذا أو نحوه سهوا من الناسخ . (٣) كذا فى الأصل .

٣ — رسالة يحيى بن زياد فى تقريظ الرشيد

أما بعدُ، فإنى أسألُ الله لأمير المؤمنين فى غابر أموره، أحسنَ ما عوّده فى سالفها من السلامة التى حرسه بها من المكاره، والعزّ الذى قهر له به الأعداءَ، والنصر الذى مكّن له فى البلاد، والهدى الذى وهب له به المحبّةَ، والرّفق الذى أدرّ له به الحَلْبَ، والاستصلاح الذى اتّسقتْ له به الرعيّةُ، حتى يكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مُسْتَقْبَلٌ به منه، أبعدَ خُلَفائه فى الخير ذِكْرًا، وأبقاهم فى العدل أثرًا، وأطولَهم فى العمر مدّةً، وأحسنَهم فى المَعاد مُنْقَلَبًا.

ثم نحمَدُ الله الذى جعل نعمتَه على أمير المؤمنين شَواهِدَ منه على منْزِلَتِه منه ومكانه عنده، لا يحتاج معها الى شهادات المُثْنِين، ولا صفاتِ المقرِّظين، ثم جعل ذِكْرَ نعمتِه على أمير المؤمنين ومُناصحتَها والمجاهدةَ لمن كادها فريضةً أوجبَها على العِباد، ومحبةً امتحنَهم بها، وفُرْقانًا مَيّزَ به بينهم، فمن أصبح من رعيّته أكْثَرُ شغلِه أن يستعمِلَ لسانَه فى صِفَتِه، وذِكْرِ محاسنه وفضائله، ووجوبِ حقّه وطاعته، فقد أصبح آثرًا أوْلى الأمور وأحسنَها مَغَبّةً فى دنياه ودينه، ومن بدّل ذلك عن قدرةٍ عليه، ودفَعَه بعد معرفة، فلم يَدَعه إلا عن خِذْلان حاقَ به، أو بِدْعةٍ استمالته، كانت حُجّةُ الله لأمير المؤمنين عليه هى الكافية لمؤونته. وقد كان علماءُ الناس وجُهّالهم يُسَوّون فى عامِّ المعرفة بفضل أمير المؤمنين، فأما الخاصّ فلأهل الفضل فيه فَضْلُهم، غير أنه مهما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم فيه على مَنازل ثلاث: حاسدٌ تَحَجّب الحسدُ بصَره عن مَواقع الصّواب أن يراه، والنعمةَ أن يشكرها، والحقِّ أن يُؤَدّيَه، وكانت معرفتُه عليه وَبالا(١)، وحسدُه الى الضر به قائدا. أو ذُو هَوًى قاده الهوى الى البدعة وأخرجتْه الضَّلالةُ من الجماعة، فهو عُرْضَةٌ لسُوء الأدب أو سيْف النَّكال، لم يُوحِشِ اللهُ أحدًا بفقده، ولم يُعَزِّزْ أحدا بمُوَالاته. وموفّقٌ(٢) معصوم استنقذه [لله]

(١) فى الأصل: «الغير». (٢) فى الأصل: موفق معصوم ثم استنقذه بمولاة الخ.

بمُوَالاة أمير المؤمنين من غِلّ الحسد وبِدَع الآراء وجَبَلَه على صحّة الهوى، فهو إن نَظَر فبعينه ينظر، وإن قال فبلسانه يقول، لا يأمَنُ حتى يعلم أنّ أمير المؤمنين قد ٱستَوْطأ مِهادَ الخَفْض، ولا يزال له طليعةُ رأْيٍ تُوفِي على خُطّة حَزْم وغامض فِطْنة، تَغَلْغَلُ الى لطيف منفعته و[تكون] سهم مكيدة نحو عروة(١)، قدعلِم أنّ يومَ أميرالمؤمنين يومُه، وأن غدَه غدُه، فهو وإن تعرّض لأداء الحقّ فى نصيحته ينظر لنفسه نظرَ من لا يأمُل السلامةَ إلا بسلامته، ولا البقاءَ إلا ببقائه. وقد رجوتُ بالقرابة التى جعلها الله لى به، والواجبِ الذى عرّفته من حقّه، والعظيم الذى حمّلتُه من معروفه، ألّا يكونَ أحدٌ ينظر اليه بعين الإشفاق أقوم ما جعله الله أهلَه منّى، فإن أبلُغ الذى أردتُ فبتوفيق الله، وإن أُقَصّر فَعَنْ مثلِ ما حاولتُ قَصَّر المجتهدُ.

فأوّلُ ما أنا ذاكِرُه من فضله: أنّ الله قدّم له الصُّنْعَ فى سابق علمه، بجعل مَحْتِدَه خيرَ المحاتد عُنْصرًا، ثم ٱختار له أبًا فأبًا لا ينقله من أبٍ الى أبٍ إلا نقَل معه وإليه فضيلةَ العنصرُ الذى هو منه حتى صَيّره بعد فضائلِ آبائه الى أفضل بَدَنة، فكان خيرَ خَلَفٍ من خير سَلَف، وأفضلَ ولد من أفضل أُبُوّةٍ، وأرْضَى إمامٍ من أزْكَى أئمةٍ؛ ثم ٱختار له مكارمَ الأخلاق، وألبسَه جمالَ الصُّورة، فلا نعلم نحن ولا آباؤنا خليفةً أبعدَ فى حِلْمه من ذُلّ، ولا فى هَيْبته من تجبُّر، ولا فى شِدّته من عُنْف، ولا فى لِينه من وَهْن، ولا فى أَناته من غَفْلة، ولا فى ٱقتصاده من بُخْل، ولا فى بَذْله من إضاعة، ولا أرقّ وجهًا عند لقاء، ولا أحسن بِشْرا عند تحيّة، ولا أغزرَ دمعًا عند مَوعِظة، ولا ألينَ قِيادًا عند تذكيرٍ بالله منه.

ثم أفضتْ اليه الخلافةُ وفى المال ما فيه من القِلّة، وفى الناس ما فيهم من الإحراج(٢)، فما دَفَع عن مال يُعطيه عن قِلّة، ولا قطع عادةَ تَوْسعةٍ على رعيّته؛ ثم ٱستدرّ الحَلْبَ برِفْقه، فكلّما دَرّ له منه شُخْب(٣) فوّقه(٤) طائفةً من جُنْده حتى سقاهم بعد التفويق رِيًّا، وبعد النَّهَل

(١) فى الأصل: "عورة". (٢) الاحراج: الضيق وفى الأصل. "الاستخراج".
(٣) الشخب (بالضم): ما خرج من تحت يد الحالب عند كل غمزة وعصرة للضرع. (٤) فوقه الشيء: أعطاه إياه قليلا قليلا.

عَلَلا؛ ثم ساس رعيّتــه بألين السـياسة فعفا عن مذنبها ولو شاء لعاقبَ، وآمَنَ خائفَها ولو طلب لأَدْرَكَ، ودفَع بالحسـنة السيئةَ ولو كَافأ لقــدَر، فما بَرِحَ صُنْعُ اللهِ له يَفُضّ جُمُوعَ الضّلالة بلاقِتال، و يُعِزّ له النَّصْرَ بلا مُكَاثرة، حتى فرَغ بشُغْله من كان لا يَفْرُغُ من الوزراء، ونام بسهره من كان لا ينام من العامّة، واطمأنّتْ بمنا آته (١) للأسفار دارُ من كان لا يَنـالُ الخَفْض من الجنود حتى ٱستَوْطَئُوا مَرْكَبَ الأمْن فكلّهم ضَنِينٌ بمفارقته. أما ذُو النيّة فَركَن الى النَّقْض. وأما من لا يبدله ففعل ما كان يُؤْخَذ به من الاستكراه. وأما الحَشْر من الجند والرَّعَاع فغلبت عليهم عادةُ الهُوَيْنا، حتى لو رأيناه يجذبُه الأمرُ فما يَجد له الأمرُ غَنَاءً عنده ولا نشاطا ولا حدا إن وَكَلَه الى قوّته، وقوّاه بماله (٢).

فلما رأى ما رأى من تَخَاذُلِ العامّة، وتواكُلِ الجنود، ونُزُورِ الفيء، وجُمُودِ الحَلْب، وٱستكلابِ العمّال على الخيانة، وجُرْأة الرعيّة على منع الحق، ومال الفراغُ بكثير من الناس عن القَصْـد، فتحرّكت الأهواءُ، وٱسْتَعَرتْ نيرانُ العصبيّة، وجاشَتْ صدورُ الحَسَـدة وأشياعِهم بالأمانى، وظنّوا أن لا شدّةَ معه، وأنّ عفوَه لا نَكِيرَ بعده، وأميرُ المؤمنين يرمُقُهم بعينٍ بصيرةٍ، وأذُنٍ مُصيخة، وقلْبٍ يَقْظان؛ وقد وَقَر الحِلْمُ أن يَخِفّ لأوّل بوادر السفهاء، فهو ينتظر بالمُدْبر أن يُقبل، و بالمـائد أن يَعْتَدِل، و بالمغلوب على رأيه أن يتذكّر فيُبصر، شَمَّرَ فى إثْرهم تشميرَ من قَدَّم الرَّوِيَّةَ قبـل العجَلة، والعفوَ قبل العقوبة، والتثبّتَ قبـل الإقدام، فاتّخذ روابطَ أنتجها على الجَـلَد والنّشاط، ليست لهم سوابِقُ تدعوهم الى الإدلال، وتسمو بهم الى كثير لم ينالوه؛ إنمـا همُّهم أن يتفاضلوا فى النجدة، و يستوْجبوا بالغَناء، ثم فرّقهم على خَوَاصّ خَدَمه، فإذا أراد أن يتناولَ بهم فرصةً ممكنةً، أو عَدوًّا غاط (٣)، أو راتِقَ فَتْقٍ قبل الساعة، يغمس يديه الى أيِّهم أراده، فينفِّذُ لأمره ولم يَشْركه فيه مُشير، ولم يخرج به توقيع، ولم يخصّ فيه عامّة، ولم يُطْلَعْ منه على مكيدة، فلم نعلم أننا رأينا جُنْدا

(١) فى الأصل: «بمفا آته». (٢) فى الأصل: «إن وكله إلى قوته ولا نشاطا ولا حدا وقواه بمـاله». (٣) غاط: دخل.

أسرع نهضةً اذا مُرِوا ، وأحسن إجابةً اذا دُعُوا ، وأفضلَ غَنَاء اذا ٱستكْفُوا مِنْ جُنْده . ثم قَصَدَ بنفســه حتى مَثَل بين النواحى الى اهمّها له فَسَادًا فى البَيْضَــة ، وٱنتقاصًا من الأطراف ، فأتى ناحيةَ الشأم فَوطِئها وَطْأَةً جمع الله بها لهم شَتَاتَ الفُرْقة ، وأخْمَد بها بينهم نار الفتنة .

وأما الجَزيرةُ فإنه ألفاها وهى كالجُرْح النَّغِل ، فاستأصل اللهُ به منها شأفَةَ الداء ، وأطفأ به عنهـا بوادرَ الســفهاء ؛ وخُيِّرَ أمير المؤمنـين من منزله الذى هو به منزلا جمع من بَسْطَته فى الموضع ، ورَفَاهيته فى المعاش ، أنه حاملٌ للجنود ، جامعٌ للمَرَافق ، فباشَر أمْرَه أمْرًا أمْرًا ، حتى اذا ٱستُدْبِرله منها مُبْرَمٌ ، ٱستُقْبِل بعــده جُسَامٌ مُنتَقِضٌ ؛ واذا أشْحَن من ثغوره ثغرًا لم يَرْض حتى يفتتحَ من حصون أعدائه حصــنا ، واذا قضى اللهُ عنه حَجَّةً ، وصل خَطْوَه منهـا عِزًّا ؛ ثم رأينا ما عزَم اللهُ به عليه من تَرْك الصَّوائف[1] مُراقبًا للذى كان من غُمُوط أهل الشأم لمـا كانوا فيــه من النِّعمة ، فلم نَتَشكَّك فى أنه توفيــقٌ من الله له وافَقَ سُخْطًا عليهم حتى ٱستباحوا الحُرَم ، وتَسَافكوا الدماءَ ، ونقَضُوا ما بينهم من مُبْرَم حَبْلِ الإسلام .

ومن ذلك أن أرْمِينِيَةَ كانت فيها جنودٌ تُخْرَجُ عليهم أطماعٌ تحمل اليها ، بعــد ٱعترافهم بإخراجهم الأموال من كُوَر الشأم ، فلما رأى ذلك فعلَ كذا وكذا ، فلم يتوكّل على الله فى أمْرٍ فوكَلَه الى نفســه ، ولم يَكْتَفِ به فى حفظ طَرَفٍ أو قاصِيَة ثَغْرٍ إلا كَفَاه مؤونتَه ، وعَلِم أن ما يدخل مُتَن أضعاف العافية من عَوَارض العِلَل ، إنمـا هو بتقدير من الله لا يَمْتنع بعذر ، ولا يُستطاع دفعُه بحيلة ، يصيبُ فيه أقوامًا بالبلايا والتمحيص ، ويَقْسِم فيه لأقوامٍ الأجرَ والجهادَ والسعادةَ ، فرأى أن فى عاجل ما يَرْفع عن أهــل أرْمِينِيَة من ضرر مؤونتهم وغَمْطِهم نفعًا للرعية ، وإجْمَالًا للفَىْء ، ورفْقًا بالعامّة مع ٱقتصاده فى الأبواب على أكناف سجِيّتها ، وفى سائر أرمينية على المُقَاتِلة من أهلها ، ولم يَزَل منذ أراه اللهُ ذلك ، يَكفيه مؤونةَ ذاك الثغر ، ويَكُفُّ عنه بَوائِقَه ، حتى كأنه فى هُدُوء الأحْداث عنه ، وسُكُون الأفئدة من

(١) الصوائف : جمع صائفة وهى الغزوة فى الصيف .

رَوْعاته مِصْرٌ من الأمصار، واسِطُ المحلّة مأمُون النائرة . فلما اغتنم خاقانُ ما اغتنم، وانتهز الفرصة مُبَادرًا ، لما قد ايقن من معالجة المؤمنين إيّاه ، فكأنّه حين بلَغه ذلك من إعظامه إياه بسببه له ،وما أنصَب فيه من بَدَنه ، وأسهَر فيه من ليله ، وأنصَب فيه من نهاره، لم يعلم الذى يكون من اشتباهه فى الأزمنة الماضية قَبْله ، وأنه بذلك لِجدٌّ عالم ، غير أن حَمِيّته للإسلام وشفقته عليه وامتعاضه من أن يُتَنَاوَل شئٌ من أطرافه ، قد زاد ذلك عنده قَدْرا فى العِظَم ، وتفاقُمًا فى الخَطْب ، حتى أكمل البَعْثَ بأكثر العدد ، وأكمل العُدّة ، واستقلّ أهل الكُوَر والأمصار ، وندَب له من أهل بيته مَنْ لم يَتْرك بعده نهايةً فى التّخيُّر ، وكان قد صرَف بالَه الى هذين الثَّغْرَيْن من الخزَر والروم ، والى هذين العدوّيْن المحاربيْن له من المارِقة المتعصِّبة .

فلما بلَغ اللهُ فى إحكام أمْرهما ما بلَغ ، لم يَسْتَغنِ عن إعادة النظر فى أمر غيرهما من نواحيه ليَسْتَبْرِئَ به ،وإرادته فى أقوامٍ يُدَافع ظنونَهم به فى أُخرى ، وعلّم غيرَهُما أنّ ما شَمِلَ مَنْ بمدينة السلام من الأَمْن والفَرَاغ نتيجةٌ مكروهةٌ ، فشَخَص عنها لتحقيق ذلك مُؤثِرًا لأبغَض وَطَنيْه على أحبِّهما وأخشَن عَيْشَيْه على أليَنهما ، فلما ظهرتْ له العَوْرَةُ أقدَمَ إقدامَ ذى الحُجّة ، فلم يرمثلها نارًا خَبَتْ ، وسحابةً أقشعت ، لم يَسْفك بها دمَ امرئٍ مُسْلِم صَبْرًا ، ولم ينْتَهك فيها حُرْمَةَ مُحْرَم إباحةً .

وذلك أنه بَسَط يَدَه بَسْطَ من يُريد الاستصلاحَ لا من يريد الانتقامَ ، فلمْ يلبَث الظالمُ أن رَجَع عن ظَلْمه ، والناطِقُ أن صَمَتَ عن بِدْعته ، والناكِثُ أنْ رَجَع الى قَصْده ، وازداد البرىء على البراءة فرحا ، والسالم بالسلامة اغتباطًا ، ولم نَرَ مثلَه فيما أفضى اللهُ به اليه من خلافته ، وحَمّله من أمور عباده ، أما لَيْلُه بمُنَاجَاة ربِّه فيها واستعانته إيّاه عليها فساهرٌ ، وأما نَهَارُه فى حَلْب فَيْئها وإحكام أمورها فتَعِبٌ ، وأما صَدَقاتُه على فقرائها وأهلِ الحاجة فجارِيةٌ ، وأما مَجْلسُه من فُقهائها وصُلحائها فغَاصٌ ، وأما غِلْظَتُه على ظالمها فعَتيدة ، وأما أفضالُه لمظلومها فمبسوطةٌ ، ولئن كان الحقُّ ألزَمَ أقواماً استوجَبوا فى أنفُسهم وأموالهم ،

إنّا لنعلم أنّ ما تَرَك أكثر، وأنه لولا ما خَفَّف من الوَطْأة على أقوام لحمْل الواحد منهم مثل الذى حمّــله للجميع ، ولكنّه رَضِى بالعفو، وسَخَا نَفْسًا عن الاستقصاء، فأوجَب أن يَبْسط يدًا بغِلْظة ويتبعها أخرى بلين؛ فكان من ذلك نظرُه فى هــذه البقايا التى هى فَىْءُ المسلمين ومالُ الله ، غير أن الله جَعَله قيِّمَه فيــه ، وفى أخْذه وصَرْفه فى وُجُوهه؛ فلما رأى ضَرَاوة(١) العمّال بها ومُصَانَعَتهم دُونَها ، وأن قد صارت كالسُّنَّة اللازمة لا يدَعُها عفيفُهم تورُّعًا ، ولا شريفُهم تنزُّهًا ، أحبَّ مع توفيره للمسلمين فَيْئَهم ، أن يُحْدِث لهم أدبًا يَقْطَعُ به عنهم أهلَ الضراوة ، ويَعْرِف به ذَوُو الاستخفاف بالأمانة ، والأمر للتبعة، أن عليهم(٢) من تَفَقُّده وأدَبِه عَيْنًا ترمُق، ويدًا تَقْبِض، ولو أنّه حين همّ بأخذ تلك البقايا حَمَل على المُوسِر بقَدْر يَسَاره، وأخَذ المُعْسرَ بطاعته، كان قد أنْصَف، كلّا! ولكنّه أحبّ أن يَستبقِىَ قوّةً، ولا يبلُغ من المُكْثِر جَهْدا، واقتصر بهــم على العُشْر من ذلك، كَرَمًا فى القُدْرة حين رأى موضعَ الرِّفق، وتجافَى عن العلّة حين عرَف مكانَ الغَدْر، فأىّ نعمةٍ أعظم، وأىّ بَلاءٍ أحسن من هــذه البقايا! كانت فى أيديهم جُمَامًا، فلما اطّلَع طِلْعها، وأخذ ما أخذ، وترك ما ترك، محلَّلًا مع ما جعل اللهُ فى ذلك من [كلمات](٣) المقصِّر من العمال المؤذية التى لم تكن تعــدُو أفواهَهم ، فليس منهم أحدٌ إلا وكان منــه له واعظ ألا يَكسِر شــيئًا من الخَرَاج تَضْييعًا ، أو يأخذه غُلُولًا(٤) أو يُنْفِقَه إسرافًا، أو يتركَه إرهابًا .

فلما تفرّغ من عِلاج الداء المخُوف واستأصَلَه ، ومن الفَىء المتفرّق بجمْعَه ، ومن الأمور المُعَطَّلة فأحْكَمها ، استَخْلف على القيام بذلك من يحويه عقله عن حذر ، ولا إضاعة عن حفظ، ولا لِين عن تشدّد، ولا يستحل الأكف عن نقض ما أبرَم، ولا مُزَاولة ما أحْكَم، ولا فَتْح ما أغلق، ولا إغلاق ما فَتَح ، فلان خَيْرة أبَوَيْه ، ومُخُّ بَيْضته، وجَوْهر أرومته، الفائت سبقًا ، البيّن عَدْوًا ، الراسخ عِرْقا ، المنفجر بحرًا ، المحمود أمْرًا ، القائل فَصْلا ،

(١) الضراوة : اللهج بالشىء والإغراء به . (٢) فى الأصل : «لهم» والسياق يقتضى ما أثبتناه .
(٣) وضعنا هذه الكلمة لأنها تتفق والسياق ، ومكانها فى الأصل بياض . (٤) الغلول : الطعام أو الشراب الذى يدخل فى الجوف .

الحاكم عَدْلا، ثم آنصرف بما أفاده الله من الأجر إلى جَنَاحه الذى كان مدّه على من خَلّف من الأهل والأموال والرعايا والجنود، فلان سليلة صُلْبه، وثمرة قلبه، المُحْتَنك مع فَتَاء سِنّه عَقْلا، والمأمون مع شِدّة شَكيمته حَمْلا، والمحصد مع لينه وتعطفه أمْرًا، الشبيه بأمير المؤمنين إن نَطَق نُطْقا، وإن نَظَر لَحْظًا، وإن سُئِل جُودا، وإن اهتصر عُودا، وإن ساس رِفْقًا، وإن غَضِب حِلْمًا، وإن وَصَف عِلْما، وإن كُلِّم فَهْما، وإن قدر عَفْوًا، وإن لَقِيَ بِشْرًا، وإن نازع فَلْجا، وإن قارَع ظَفَرا؛ فكان عند ظنّه به، رعايةً للحُرْمة، وحَزْمًا فى المكيدة، وحَلْبًا للفيء، وحياطةً للغائب، ومباشرةً للشاهد؛ هذا قليلٌ من كثير. ممّا جعلك الله أهلَه، وإنما آقتصرتُ عليه لأنى رأيتُ المتكلّمين من الخطباء تركوه، وأن ما سمعت من الكتب المقروءة لم تنظمه، فأحببتُ أن يعلَم أميرُ المؤمنين أن له فى كلّ أمرٍ عمِل به فى رعيته حجّةً واضحةً، وعذرًا معروفا، إن قام به متكلّمٌ فى خاصّةٍ حَسُن مَوْقعُه، وإن قُرِئَ به كتابٌ فى عامّة، قوِيَت به حجّتُه.

والحمدُ لله الذى جعله وذرّيّته أولياءَ هذه النِّعم، والمخصوصين بهذه الفضائل، ونسأله أن يُبْقِيَه وإيّاهم للدِّين الذى سدّ بهم عَوْرته، والحقّ الذى أقرّ بهم جَادّته، والعدلِ الذى أوضح بهم أعلامَه، حتى يكونوا وَرَثَةَ هذه الأمة وخلفاءَها فى غابر الدهر، وباقيات الأيام؛ مستقلّين بالعدل، موفَّقين للسَّداد، معصومين من الشُّبهات، مُستوجبين مع فضائل الدنيا لأفضل كرامات المَعاد. والسلام. (١)

(١) هذه الرسالة ورسالة أبى الربيع محمد بن الليث السابقة من كتاب اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور.

كتب الرشـــيد

١ ـــ كتاب عهـــد البيعـــة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هـــذا كتابٌ لعبـــد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمدُ بن هارون أمير المؤمنين في صحّةٍ من عقـــله ، وجَوَازٍ من أمْره ، طائعًا غير مُكْرَه ، إن أميرَ المؤمنـــين ولّاني العهدَ من بعـــده ، وصيَّر البيْعـــةَ لي في رِقاب المســـلمين جميعا ، وولّى عبـــدَ الله بن هارون أمير المؤمنين العهدَ والخلافةَ ، وجميع أمور المسلمين بعدى ، برضًا منّى وتسليم ، طائعًا غير مُكْرَه . وولّاه خُرَاسانَ وثُغورَها ، وكُوَرَها وحَرْبَها ، وجندَها وخَراجَها ، وطِرازَها وبَرِيدَها ، وبيوتَ أموالها وصَدَقاتها ، وعُشْرَها وعُشُورها ، وجميعَ أعمالها في حياته وبعده ؛ وشَرَطْتُ لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، برضا منى وطِيب نفس ، أنّ لأخى عبد الله بن هارون علىَّ الوفاءَ بما عقَدَ له هارونُ أميرُ المؤمنين : من العَهْد والوِلاية والخلافة ، وأمورِ المسلمين جميعا بعدى ، وتسليمِ ذلك له وما جُعِل له من ولاية خُراسان وأعمالها كلِّها ، وما أقطَعَه أميرُ المؤمنين من قَطيعة ، أو جعَل له من عُقْـــدَةٍ أو ضَيْعَةٍ من ضِيَاعه ، أو ٱبتاع من الضِّياع والعُقَد ، وما أعطاه في حياته وصحّتـــه من مال ، أو حُلِيٍّ أو جَوْهر ، أو مَتَـــاع أو كُسْوة ، أو منزِلٍ أو دَوابّ ، أو قليلٍ أو كثير ؛ فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، مُوَفَّرًا عليه مسلَّما له . وقد عَرَفْتُ ذلك كلَّه شيئا شيئا ، فإن حَدَث بأمير المؤمنين حَدَثُ الموت ، وأفْضَت الخـــلافة الى محمـــد ٱبن أمير المؤمنين ، فعلى محمـــد إنفاذُ ما أمَرَه به هارون أمير المؤمنين ، في تَوْلِيَةِ عبـــد الله بن هارون أمير المؤمنين خُرَاسانَ وثغورَها ، ومن ضُمّ اليـــه من أهـــل بيت أمير المؤمنين بقَرْمَاسِين (٢) ، وأن يَمْضِى عبدُ الله ابن أمير المؤمنين الى خراسان والرَّى ، والكُوَر

(١) هذا العهد ورد في تاريخ اليعقوبى (ج ٢ ص ٥٠٢ طبعة ليدن) وفيـــه عبارات تخالف ما أثبتناه هنا عن الطبرى .

(٢) قرماسين : موضع بين الزبيدية ومكة .

التى سمّاها أميرُ المؤمنين حيث كان عبد الله آبن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره، من سلطان أمير المؤمنين، وجميع مَن ضَمّ اليه أمير المؤمنين حيث أحبَّ من لَدُن الرّىّ الى أقصى عمل خُراسان، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحوِّل عنه قائدًا ولا مَقُودًا ولا رجلا واحدًا ممن ضُمّ اليه من أصحابه الذين ضمّهم اليه أميرُ المؤمنين؛ ولا يحوّلَ عبدَ الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التى ولّاه إياها هارون أمير المؤمنين : من ثغور خُراسان وأعمالها كلّها، ما بين عمل الرّىّ مما يلى هَمَذَان الى أقصى خراسان، وثغورها وبلادها، وما هو منسوب اليها ولا شَخْصه اليه؛ ولا يفرق أحدًا من أصحابه وقوّاده عنه، ولا يُوَلّى عليه أحدًا، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عمّاله وَوُلاة أموره بُنْدارًا(١) ولا محاسبًا ولا عاملا، ولا يُدْخل عليه فى صغيرٍ من أمره ولا كبير ضررًا، ولا يَحُول بينه وبين العمل فى ذلك كلّه برأيه وتدبيره، ولا يَعْرِض لأحد ممن ضَمّ اليه أميرُ المؤمنين من أهل بيته وصَحَابته، وقُضَاته وعُمّاله، وكُتّابه وقوّاده، وخَدَمه ومَوَاليه وجنده، بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم فى أنفسهم، ولا قَرَاباتهم ولا مَوَاليهم، ولا أحدٍ يَتَنَسّل منهم؛ ولا فى دمائهم ولا فى أموالهم، ولا فى ضِياعهم ودُورهم، ورِباعهم وأمتعتهم، وَرَقيقهم ودوابّهم، شيئا من ذلك صغيرًا ولا كبيرًا؛ ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، وبترخيص له فى ذلك، وإدهان منه فيه لأحد من ولَد آدم، ولا يحكمُ فى أمرهم، ولا أحدٌ من قُضَاته ومن عمّاله، وممّن كان بسبب منه، بغير حكم عبد الله آبن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قُضَاته؛ وإن نَزَع اليه أحدٌ ممّن ضَمّ أميرُ المؤمنين الى عبد الله آبن أمير المؤمنين، من أهل بيت أمير المؤمنين وصَحَابته، وقُوّاده وعمّاله وكُتّابه وخَدَمه، ومواليه وجنده، ورفَضَ آسمَه ومَكْتَبَه ومكانَه مع عبد الله آبن أمير المؤمنين، عاصيا له، أو مخالفا عليه، فعلى محمد آبن أمير المؤمنين رَدُّه الى عبد الله آبن أمير المؤمنين، بصغَرٍ له وقَمَاء(٢)، حتى يُنَفِّذ فيه رأيَه وأمْرَه؛ فإن أراد محمد آبن أمير المؤمنين خَلْعَ عبد الله آبن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بَعْده، أو عَزْل عبد الله آبن أمير المؤمنين

(١) البندار : الحافظ . (٢) القماء : الذل والخضوع .

عن ولاية خراسان ، وثغورها وأعمالها ، والذى مِن حَدّ عملها ممـا يَلِى همذان ، والكُوَر التى سمّاها أميرُ المؤمنـين فى كتابه هـذا ، أو صَرْفَ أحدٍ من قوّاده الذين ضمّهـم أميرُ المؤمنين اليه ، ممن قَدِم قَرْمَاسِين ، أو أن يَنْتَقِصه قليلا أو كثيرا ، مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه من الوجوه ، أو بحيلةٍ من الحِيَـل ، صَغُرتْ أو كَبُرتْ ، فَلِعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافةُ بعد أمير المؤمنين ، وهو المُقَدَّم على محمد ٱبن أمير المؤمنين ، وهو ولِىُّ الأمر من بعد أمير المؤمنين ، والطّاعةُ من جميع قوّاد أمير المؤمنين هارون ، من أهل خراسان وأهل العطَاء ؛ وجميع المسلمين فى جميع الأجناد والأمصار لعبد الله بن أمير المؤمنين والقيامُ معه ، والمُجَاهدةُ لمن خالفَه ، والنّصرُ له والذّبُّ عنه ، ما كانت الحيـاةُ فى أبدانهم ، وليس لأحدٍ منهم جميعا من كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ولا يَعْصيه ، ولا يخرج من طاعته ؛ ولا يطيع محمدَ ٱبن أمير المؤمنين فى خَلْع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، وصَرْف العهد عنه من بعده إلى غيره ، أو تنقصه شيئا ممـا جعله له أميرُ المؤمنين هارون ، فى حيـاته وصحّته ، وٱشـترط فى كتابه الذى كَتَبه عليه فى البيت الحرام ، وفى هـذا الكتاب ؛ وعبدُ الله ٱبن أمير المؤمنين المصدَّق فى قوله ، وأنتم فى حِلّ من البَيْعة التى فى أعناقكم لمحمد ٱبن أمير المؤمنين هارون ، إن نقَصَ شيئا مما جعله له أميرُ المؤمنين هارون ، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقادَ لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ، ويُسْـلِم له الخلافةَ ؛ وليس لمحمد ٱبن أمير المؤمنين هارون ، ولا لعبد الله ٱبن أمير المؤمنين ، أن يَخْلَعا القاسمَ ٱبن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدّما عليه أحدًا من أولادهما وقَرَاباتهما ، ولا غيرهم من جميع البريّة ؛ فإذا أفضت الخلافةُ إلى عبد الله ٱبن أمير المؤمنين ، فالأمْرُ إليه فى إمضـاء ما جعلهَ أميرُ المؤمنين مِن العهد للقاسم بعده ، أو صَرْف ذلك عنـه إلى مَنْ رَأَى من ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقـدِّم قَبْلَه ، وتَصْيِير القاسم بن أمير المؤمنين بعـد من يقدّم قبـله ، يحكم فى ذلك بمـا أحبَّ ورَأَى ؛ فعليكم مَعْشَرَ المسلمين إنفاذُ ما كتَب به أميرُ المؤمنين فى كتابه هذا ، وشَرَط عليهم وأمر به ؛ وعليكم السمعُ والطاعةُ لأمير المؤمنـين فيما ألزمكم وأوجَبَ عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين ؛

وعهـدُ الله وذمّته وذمّة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمم المسلمين ، والعهود والمواثيق التى أخذ اللهُ على الملائكة المُقرّبين والنبيّين والمرسلين ، ووكّدها فى أعناق المؤمنين والمسلمين ، لَتَفُنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمّى ، ولمحمد وعبد الله والقاسم بَنِى أمير المؤمنين بما سمّى ، وكتب فى كتابه هذا واشترط عليكم ، وأقررتم به على أنفسكم ؛ فإن أنتم بدّلتم من ذلك شيئا ، أو غيّرتم أو نكثتم ، أو خالفتم ما أمركم به أميرُ المؤمنين ، واشترط عليكم فى كتابه هذا ، فبَرِئَتْ منكم ذمّة الله ، وذمّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمم المؤمنين والمسلمين ، وكلُّ مالٍ هو اليوم لكل رجل منكم ، أو يَسْتفيده إلى خمسين سنة فهو صَدَقَةٌ على المساكين ، وعلى كلّ رجل منكم المَشْىُ الى بيت الله الحرام الذى بمكّة خمسين حجّة ، نَذْرا واجبا ، لا يقبل الله منه إلّا الوفاءَ بذلك ؛ وكلُّ مملوك لأحد منكم ، أو يملكه فيما يُسْتَقْبَل الى خمسين سنة حُرّ ، وكلّ امرأة له فهى طالق ثلاثا البتّة ، طلاق الحَرَج لا مَثْنَوِيّة فيها ، والله عليكم بذلك كفيلٌ وراعٍ ، وكفى بالله حسيبا .

٢ — نسخةُ الشّرط الذى كتَب عبدُ الله بن أمير المؤمنين بخطّ يده فى الكعبة

هـذا كتابٌ لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتَبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، فى صحّةٍ من عقله ، وجَوازٍ من أمره ، وصِدْق نيّة فيما كتب فى كتابه هـذا ، ومعرفةٍ بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعةِ المسلمين .

إنّ أمير المؤمنين هارون ولّانى العهدَ والخلافة ، وجميعَ أمور المسلمين فى سلطانه ، بعد أخى محمد بن هارون ، وولّانى فى حياته ثُغورَ خُراسان وكُوَرها وجميعَ أعمالها ، وشَرط على محمد بن هارون الوفاءَ بما عَقد لى من الخلافة ، وولايةِ أمور العباد والبلاد بعده ، وولايةِ خراسان وجميع أعمالها ، ولا يَعْرِض لى فى شىء مما أَقْطَعنى أميرُ المؤمنين ، وابتاع لى من الضِّياع والعُقَد والرِّباع ، وابتعتُ منه من ذلك ، وما أعطانى أميرُالمؤمنين من الأموال ، والجوهر والكِساء ، والمتاع والدوابّ ، والرقيق وغير ذلك ؛ ولا يَعْرِض لى ولا لأحدٍ من

عمّالى وكُتّابى بسبب محاسبة، ولا يتّبع لى فى ذلك، ولا لأحدٍ منهم أبدا، ولا يُدْخل علىّ ولا عليهم، ولا على من كان معى؛ ومن آستعنتُ به من جميع الناس مكروهًا فى نفس ولا دَم ولا شَعْرٍ ولا بَشَرٍ ولا مال، ولا صغيرٍ من الأمور ولا كبير، فأجابه الى ذلك وأقرّ به، وكتب له كتابا أكّد فيه على نفســه، ورَضِى به أميرُ المؤمنين هارون، وقَبِله وعَرَف صــدق نيّته فيه؛ فشَرَطْتُ لأمير المؤمنين، وجعلتُ له على نفسى أن أسمع لمحمد، وأُطيع ولا أعْصِــيه، وأنصحه ولا أغشّــه، وأُوفى ببيعته وولايته، ولا أغدر ولا أنْكُث، وأُنَفِّذ كُتُبه وأموره، وأُحْسِن مُؤَازرته وجهادَ عدوّه فى ناحيتى، ما وفّى لى بمــا شَرَط لأمير المؤمنين فى أمرى، وسمّى فى الكتاب الذى كتبه لأمير المؤمنين، ورضى به أمير المؤمنين، ولم يتّبعنى بشىء من ذلك، ولم يَنْقُض أمرًا من الأمور التى شرَطها أمير المؤمنين لى عليه؛ فإن آحتاج محمد آبنُ أمير المؤمنين إلى جُنْد، وكتب إلىّ يأمرنى بإشخاصه إليه، أو إلى ناحيةٍ من النّواحى، أو إلى عدوّ من أعدائه خالَفه، أو أراد نَقْص شىء من سلطانه أو سـلطانى الذى أَسْنَده أميرُ المؤمنين إلينا، وولّانا إياه، فعلىّ أن أُنَفِّذ أمْره، ولا أخالفه ولا أقصّر فى شىء كتب به إلىّ؛ وإن أراد محمد أن يولّى رجلا من ولده العهدَ والخلافةَ من بعدى، فذلك له ما وَفَى لى بما جعله أميرُ المؤمنين إلىّ، وآشترطَه لى عليه، وشرَط على نفسه فى أمرى؛ وعلىّ إنفاذُ ذلك والوفاءُ له به لا أنقُص من ذلك ولا أغيّره ولا أبدّله ولا أقدِّم قَبْله أحدًا من ولدى ولا قريبا ولا بعيدا من النــاس أجمعين؛ إلا أن يولّى أميرُ المؤمنين هارونُ أحدًا من ولده العهدَ من بعدى، فيُلْزِمنى ومحمّدًا الوفاءَ له، وجعلتُ لأمير المؤمنين ومحمــد علىّ الوفاءَ بمــا شرطتُ وسمّيت فى كتابى هــذا، ما وفّى لى محمــد بجميع ما اشترط لى أميرُ المؤمنين عليــه فى نفسى، وما أعطانى أميرُ المؤمنين من جميع الأشياء المُسَمّاة فى هذا الكتاب الذى كتَبه لى؛ وعلىّ عهــدُ الله وميثاقه، وذمّةُ أمير المؤمنــين وذمتى، وذمم آبائى وذمم المؤمنين، وأشــدُّ ما أخذ اللهُ على النبيّين والمرسلين من خَلْقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمانُ المؤكّدة التى أمر اللهُ بالوفاء بهــا، ونَهى عن نقضها وتبــديلها؛ فإن أنا نَقَضْتُ شيئا ممــا شرطت

وسمّيت فى كتابى هذا، أو غيّرت أو بدّلت أو نكثتُ أو غدرت، فبرئتُ من الله عزّ وجلّ، ومن ولايته ودينه، ومحمد رسـول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيتُ الله يوم القيـامة كافرا مشركا؛ وكلّ آمرأة هى لى اليومَ، أو أتزوّجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثا البتّـة، طلاقَ الحرَج؛ وكلّ مملوك هو لى اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله؛ وعلىّ المشىُ إلى بيت الله الحرام الذى بمكّة ثلاثين حجّة، نَذْرا واجبا علىّ فى عُنُق، حافيًا راجلا لا يقبَلُ الله منّى إلّا الوفاء بذلك؛ وكلّ مال لى أو أملكه إلى ثلاثين سـنة هَدْىٌ بالغُ الكعبة، وكلّ ما جعَلتُ لأمير المؤمنين، وشَرطتُ فى كتابى هذا لازمٌ لى، لا أُضْمِر غيرَه، ولا أنوى غيرَه .

وشَهِد سليمانُ بن أمير المؤمنين، وفلان وفلان . وكُتِبَ فى ذى الحجّة سنة ست وثمانين ومائة .

٣ — نسخة كتاب الرشيد الى العمّال

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإنّ الله وَلِىُّ أمير المؤمنين وولىّ ماولّاه، والحافظ لمـا آسترعاه، وأكرمَه به من خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدّم وأخّر من أموره، والمنعم عليه بالنصر والتأييـد فى مشارق الأرض ومغاربها، والكالئ والحافظ والكافى من جميع خَلْقه، وهو المحمود على جميع آلائه، المسئول تمامَ حُسْن ما أمضى من قضائه لأمير المؤمنين وعادته الجميلة عنـده، وإلهـامَ ما يَرْضى به ويُوجب له عليـه أحسنَ المزيد من فضله؛ وقد كان من نعمة الله عزّ وجل عند أمير المؤمنين وعنـدك وعند عَوام المسلمين ما تولّى اللهُ من محمد وعبـد الله آبنَىْ أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسنَ ما أمّلت الأمةُ ومدّت اليه أعناقَها، وقذَف اللهُ لهما فى قلوب العامّة من المحبّـة والمودّة والسكون اليهما والثقة بهما لِعماد دينهـم وقِوام أمورهم وجَمْع أُلْفتهم وصلاح دَهْمائهم ودَفْع المحذور والمكروه من الشّتات والفرقة عنهم حتى ألقوا اليهما أزِمّتهم، وأعطوهما بيعتهم، وصفقات أيْمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلَّظة عليهم؛ أراده اللهُ فلم يكن له مردٌّ، وأمْضاه فلم يقدِر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته، ولا صَرْفٍ له عن محبّته ومشيئته، وما سبق فى علمه منه؛ وأميرُ المؤمنين يرجو تمـامَ النعمة

عليه وعليهما فى ذلك، وعلى الأمة كافّة لاعاقِبَ لأمر الله ولارَادَّ لقضائه ولا معقِّبَ لحكمه؛ ولم يزل أميرُ المؤمنين منذ آجتمعت الأمّةُ على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعـد أمير المؤمنين ، ولعبد الله آبن أمير المؤمنين من بعد محمد آبن أمير المؤمنين يُعْمِل فكرَه ورأيَه ونظره ورويّته، فيما فيه الصلاحُ لهما ولجميع الرعيّة، والجمعُ للكلمة، واللّم للشّعَث، والدّفعُ للشّتات والفرقة، والحسمُ لكَيْد أعداء النّعم من أهل الكفر والنّفاق ، والغِـلّ والشّقاق ، والقطع لآمالهم من كلّ فرصة يرجون إدراكَها وآنتهازَها منهما بانتقاص حقّهما، ويَسْتَخير اللّه أميرُ المؤمنين فى ذلك ويسأله العزيمةَ له على مافيه الخيرَة لهما، ولجميع الأمة والقوّة فى أمر الله وحقّـه وآئتلاف أهوائهما، وصـلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كيد أعداء النّعم، وردّ حَسَدهم ومكرهم وبَغْيهم وسعيهم بالفساد بينهما، فعزَم اللّهُ لأمير المؤمنين على الشُّخُوص بهما الى بيت الله وأخذ البيعـة منهما لأمير المؤمنـين بالسّمع والطّاعة والإنفـاذ لأمره، وآكتتاب الشَّرْط على كلّ واحد منهما لأمير المؤ منين ولهما بأشدّ المواثيق والعهود، وأغْلَظ الأيمان والتوكيد ، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما آلتمس به أمير المؤمنين آجتماع ألفتهما ومودّتهما وتَواصُلهما ومُؤَازرتهما ومكاتَفتهما على حسن النظر لأنفسهما ، ولرعيّـة أمير المؤمنين التى آسترعاهما ، والجماعة لدين الله عزّ وجل وكِتابه وسُنَن نبيّه صلّى الله عليه وسـلم، والجهاد لعدوّ المسلمين مَن كانوا وحيث كانوا وقَطْع طَمَع كلّ عدوّ مُظْهِر للعداوة ومُسِرّ لهـا ، وكلّ منافق ومارق، وأهلِ الأهواء الضّالة المضلّة من فُرْقة تَكِيد بكَيْد توقعه بينهـما ، وبدَحْس(١) يُدْحَس به لها، وما يلتمس أعداءُ الله وأعداء النّعم وأعداءُ دينـه من الضّرب بين الأمّة والسـعى بالفساد فى الأرض، والدعاءِ الى البدع والضلالة ، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيّته، وأمّةِ نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، ومناصَحَةً لله ولجميع المسلمين، وذَبًّا عن سلطان الله الذى قدّره وتوحّد فيه للذى حمّله إيّاه، والاجتهاد فى كلّ ما فيه قُرْبةٌ الى الله، وما يُنَال به رضوانُه والوسيلة عنده .

---

(١) الدحس : الفساد .

فلما قَدِم مكّةَ أظهر لمحمد وعبد الله رأيَه فى ذلك وما نَظَر فيه لهما، فقبِلا كلَّ مادعاهما اليه من التوكيد على أنفسهما بقَبوله، وكَتَبا لأمير المؤمنين فى بَطْن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما بمَحْضر ممن شَهِد المَوْسِمَ من أهل بيت أمير المؤمنين وقواده، وصَحَابته وقُضَاته، وحَجَبة الكعبة وشهاداتهم عليهما، كتابين آستودعهما أميرُ المؤمنين الحَجَبَةَ، وأمر بتعليقهما فى داخل الكعبة؛ فلمــا فرّغ أميرُ المؤمنين من ذلك كلّه فى داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة؛ أمر قُضَاتَه الذين شهِدوا عليهما وحضَروا كتابهما أن يُعْلِموا جميعَ مَن حضَر الموسم من الحاجّ والعُمّار ووفود الأمصار، ما شهدوا عليه من شَرْطهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهم، لِيُفَهِّموه ويَعُوه ويعرفوه ويحفظوه ويؤدّوه الى إخوانهم وأهلِ بلدانهم وأمْصَارهم، ففعلوا ذلك، وقُرِئ عليهم الشرطان جميعا فى المسجد الحرام؛ فانصرفوا وقد آشتهر ذلك عندهم، وأثبتوا الشّهادة عليه، وعرَفوا نَظَرَ أمير المؤمنين وعنايتَه بصلاحهم، وحقْن دمائهم ولَمّ شَعَثهم، وإطْفَاء جَمْرة أعداء الله وأعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم، وأظهروا الدُّعاء لأمير المؤمنين والشكرَ لما كان منه فى ذلك، وقد نَسَخ لك أميرُ المؤمنين ذَيْنِكَ الشرطيْن اللذين كتبهما لأمير المؤمنين آبناه محمد وعبد الله فى بطن الكعبة فى أسفل كتابه هذا؛ فاحمَد الله عزّ وجل على ما صنع لمحمد وعبد الله وليَّيْ عهد المسلمين حَمْدا كثيرا، وآشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليّيْ عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمّة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا؛ وآقرأ كتاب أمير المؤمنين على مَن قِبَلك من المسلمين وأفهِمْهم إيّاه، وقُمْ به بينهم وأثبته فى الديوان قِبَلك، وقِبَل قواد أمير المؤمنين ورعيّته قِبَلك، وآكتُب الى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك، إن شاء الله . وحسبنا الله ونعم الوكيل، وبه الحَوْلُ والقوّة والطَّوْلُ . كَتَبه اسماعيل بن صَبِيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرّم سنة ست وثمانين ومائة .

باب المنظـــوم

صوّرنا لك بالمجلد الأوّل حالة الشعر فى صدر الدولة العباسية وذكرنا لك بجملة صالحة من شعراء ذلك العصر ووعدناك بذكر مختارات من شعرهم، وإليك ماوعدناك به .

١ — بَشَّـارُ بن بُرْد العُقَيْلِىّ (١)

سأله المهدىُّ لمـا دخل عليه فقال له : فيمن تَعْتَدّ يابشّار؟ فقال : أمّا اللّسان والزِّىّ فَعَرَبِيّان، وأما الأصل فعَجَمِىّ، كما قلتُ فى شعرى يا أمير المؤمنين :

ونبّئْتُ قـومًا بهـم جِنّـــةٌ * يقولون مَنْ ذا وكنتُ العَلَمْ
ألا أيّهـا السـائلى جاهِـدًا * ليعـرفنى أنا أنْفُ الكَرَم

(١) هو أبو معاذ بشار المرعث بن برد، أشعر مخضرمى الدولتين، ورأس الشعراء المحدثين، وممهد طريق الاختراع، والبديع للتفننين، وأحد البلغاء المكفوفين . وأصله من فرس طخارستان من سبى المهلب بن أبى صفرة، ووقع ملك أبويه لبنى عقيل بن كعب، فنشأ بشار فيهم وتربى فى منازلهم، واختلف الى الأعراب الضاربين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه فى الفصاحة والشعر . وكان أكمه مجدور الوجه، قبيح المنظر، مفرط الطول، ضخم الجثة، متوقد الذكاء، صادق الحس، لطيف الدراية، شديد المجون والاستخفاف بالناس، كثير الاستهتار بالدين، قليل المبالاة للوقوع فيه، متهما بالزندقة شعوبيا، متعصبا على العرب، شديد التبرم بالناس، نهاشا لأعراضهم، لا يسلم من لسانه خليفة ولا سوقة، وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشارا ولا بشار يعرفه، فانه إن لم يصبه فى عرضه أصابه فى ماله . وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين، وما بلغ الحلم إلا وهو مخشىّ معرّة لسانه .

وقد أجمع رواة الشعر ونقدته على أن بشارا هو رأس المحدثين وأسبقهم الى معاطاة البديع، وطرق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضرى، والهجاء المقذع .

وأنه أوّل من جمع فى شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين، وفنن عن المعانى الدقيقة، والأخيلة اللطيفة، حتى عدّ شعره برزخا بين الشعر القديم والحديث، ومجازا يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة الى مقاصير الحضارة .

وقد طرق كل باب من أبواب الشعر التى عرفت قبله وأربى عليها، وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والخروج به عن الحدّ المألوف عند أهل زمنه، حتى أنكره عليه العلماء والمتورعون لمـا رأوا من سوء أثره فى شبان البصرة .

وقـد نهاه المهدى عن التشبيب، فكان اذا مالت له نفسه يذكر منه ما يشاء ويقول: إن الخليفة منعه من كذا وكذا وأنه له مطيع .

وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة، فلم يزد على أن حرمه الجائزة، وشجعه على ذلك وزيره يعقوب بن داود، وكان متورعا، فهجاهما، فكان ذلك الى زندقته سبب قتله . توفى سنة ١٦٧ هـ وقد نيف على التسعين . وتجد ترجمته فى الأغانى (ج ٣ ص ١٩ وج ٦ ص ٧) وابن خلكان (ج ١ ص ٨٨) والشعر والشعراء (ص ٤٧٦) والفهرست (ص ١٥٩) .

نمَتْ فى الكرام بنى عامرٍ * فروعى وأصْلِى قريشُ العَجَم
فإنى لأُغنى مقام الفتى * وأُصْبى الفتاةَ فما تَعْتَصِم

وكان أبو دُلَامة حاضرًا، فقال : كلّا ! لَوَجْهُكَ أقبح من ذلك، وجهى مع وجهك، فقال بشّار : كلّا ! والله ما رأيتُ رجلا أصدقَ على نفسه وأكذبَ على جليسه منك، والله إنى لطويلُ القامة، عظيمُ الهامة، تامُّ الألواح، أسْجحُ الخدّيْن، ولربّ مُسْتَرْخى المزورين للعيْن فيه مُرَاد . ثم قال له المهدىّ : من أىّ العجم أصلك ؟ فقال : من أكثرها فى الفُرسان وأشدّها على الأقران، أهل طَخَارِسْتان؛ فقال بعضُ القوم : أولئك الصُّغْد، فقال : لا ! الصّغد تجّار؛ فلم يَرْدُدْ ذلك المهدىّ .

وكان بشار كثيرَ التّلوّن فى وَلَائه، شديدَ التشيُّع والتعصّب للعجم، مرّةً يقول يفتخر بولائه فى قيْس :

أمِنْتُ مَضَرَّةَ الفُحشَاء إنى * أرى قيْسا تُشَبُّ(١) ولا تُضَارُ
كأن الناس حين تغيبُ عنهم * نباتُ الأرض أخْطَاه القِطَار
وقد كانت بتَدْمُرَ خيلُ قيس * فكان لتَدْمُرٍ فيها دَمَار
بحىٍّ من بَنِى عَيْلان شُوسٍ * يسير الموتُ حيث يقال ساروا
وما نلقاهم إلا صَدَرنا * بِرِىٍّ منهم وهم حِرَار

ومرة يتبرأ من ولاء العرب فيقول :

أصبحتُ مولى ذى الجَلالِ وبعضُهم * مولَى العُرَيْب فخُذْ بفضلك فافْخَرِ
مولاك أكرمُ من تَمِيم كلِّها * أهلِ الفِعَال ومن قُرَيْش المَشْعَر
فارجِع الى مولاك غيرَ مُدَافَع * سبحان مولاك الأجلّ الأكبر

وقال يفتخر بولاء بنى عُقَيْل :

إننى من بنى عقيل بن كَعْبٍ * موضِعُ السيف من طُلَى الأعناق

(١) تشب : تزداد وترتفع .

وَوُلد بشار أعمى ، فما نظر إلى الدنيا قط ، وكان يشبّه الأشياءَ بعضها ببعض فى شعره ، فيأتى بمـا لا يقدر البُصَراء أن يأتوا بمثله ؛ فقيل له يوما وقد أنشَد قوله :

كأن مُثارَ النَّقْع فوق رءوسنا * وأسيافَنا ليـلٌ تهاوَى كواكبُه

ما قال أحد أحسنَ من هذا التشبيه ، فمن أين لك هـذا ولم ترَ الدنيا قطّ ولا شيئا فيها ؟ فقال : إن عدم النظر يقوّى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغلَ بمـا ينظر اليه من الأشياء ، فيتوفر حسُّه وتذكو قريحتُه ؛ ثم أنشدهم قوله :

عَميتُ جنينا والذكاءُ من العمى * فجئتُ عجيبَ الظنّ للعـلم مَوْئلا
وغَاضَ ضِياءُ العينِ للعلم رافدا * بقلبٍ اذا ما ضَيّع الناسُ حَصّلا
وشعرٍ كَنَوْر الروض لَاءَمْتُ بينه * بقول اذا ما أحْزَن الشـعرُ أسْهَلا

وكان من أشـدّ الناس تبرّمًا بالناس . وكان يقول : الحمـد لله الذى ذهب ببصرى . فقيل له : ولم يا أبا مُعَاذ ؟ قال : لئلا أرى ما أُبْغِض .

قال الأصمعى : بشّارٌ خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرتْ لفضّلتُه على كثير منهم .

وقيل لأبى عُبَيْدة : أمَرْوَان أشعر أم بشّار ؟ فقال : حَكَمَ بشّارٌ لنفسه بالاستظهار ، إنه قال ثلاثةَ عشرَ ألف بيْت جيّـد ، ولا يكون عددُ الجيّـد من شعر شعراء الجاهليـة والإسلام هذا العدد ، وما أحسبهم بَرّزُوا فى مثلها ، ومروان أمدحُ للملوك .

وسئل الأصمعىُّ عن بشار ومروان أيهما أشْعَر؟ فقال : بشار ؛ فَسُئل عن السبب لذلك ؛ فقال : لأن مروان سلَك طريقًا كَثُر من يسلُكه ، فلم يَلْحق بمن تقدّمه وشركه فيه من كان فى عصره ، وبشّار سلَك طريقا لم يُسْـلَك وأحسنَ فيه وتفرّد به ، وهو أكثر تصرّفًا وفنون شعرٍ ، وأغزرُ وأوسع بَديعًا ، ومروان لم يتجاوز مَذْهبَ الأوائل .

وقيل لبشّار : ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئا آستنكرتْه العرب من ألفاظهم وشُكّ فيه ، وإنه ليس فى شعرك ما يُشَكّ فيه ؛ قال : ومن أين يأتينى الخطأ ؟ وُلِدتُ هَا هُنا ، ونشأتُ فى حُجُور ثمانين شيخا من فُصَحاء بنى عُقَيل ما فيهم أحد يعرف كلمةً

من الخطأ ، وإن دخلتُ الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيْفَعْتُ فأبْديتُ[1] الى أن أدركتُ ، فمن أين يأتينى الخطأ ؟ .

كان جَرير بن المُنذِر السَّدُوسِىّ يفاخر بشّارا ، فقال فيه بشار :

أمثـــل بنى مُضَرٍ وائِلٌ * فقَـدْتُك من فاخرٍ ما أجَنّْ
أفى النوم هـذا أبا منـذرٍ * فخيرًا رأيتَ وخيرا يُكَنّْ
رأيتُـك والفخرَ فى مثلها * كعاجنة غير ما تَطّحن

كان بشار يهوى امرأةً من أهل البصرة ، فراسَلها يسألهـا زيارتَه ، فوعَدَته بذلك ثم أخلَفته ، وجعل ينتظرها ليلته حتى أصبح ، فلما لم تأته أرسل اليها ليعاتبها فاعتذرت بمرض أصابها ، فكتب اليها بهذه الأبيات :

يا ليـــلتى تزدادُ نُكْـرا * من حُبّ من أحببتُ بِكْرا
حوراء ان نظرتْ اليـ * ـك سَقَتْك بالعينين خَمْرا
وكأنّ رَجْعَ حـــديثها * قِطَعُ الرياض كُسِينَ زَهْرَا
وكأنّ تحت لســانها * هاروتَ ينفُث فيـه سِحْرا
وتخـالُ ما جُمِعَتْ عليـ * ـه ثيابُها ذَهَبـا وعِطْرا
وكأنّهـــا بَـــرْدُ الشّرا * ب صَفَا وصادَفَ منك فِطْرا
جنّيـــــةٌ إنْســــيّةٌ * أو بين ذاك أجلّ أمْرا
وكفاك أنى لم أحِطْ * بشَكاة من أحببتُ خُبْرا
إلا مقـــالةَ زائــــرٍ * نثرتْ لى الأحزانَ نَثْرا
متخشّــعا تحت الهـوى * عَشْرا وتحت الموت عَشْرا

وكان إسحاق الموصلىّ لا يعتدّ ببشار ويقول : هو كثير التخليط فى شعره ، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا ، أليس هو القائل :

---

(١) أبديت أى أخرجت الى البادية .

إنما عَظْمُ سُـلَيْمى حُبَّتى * قَصَبُ السُّكَّرِ لا عَظْم الجَمَل
وإذا أدنيْتَ منها بَصَـلًا * غلَبَ المِسْكُ على ريح البصل

لو قال : كلّ شيء جيّد ثم أُضيف إليه هذا لزَيَّفه . وكان يُقَدِّم عليه مروانَ ويقول : هو أشدُّ آستواءَ شعر منه، وكلامُه ومذهبُه أشبه بكلام العرب ومذاهبها، وكان لا يعدّ أبانُواس البَتّةَ ولا يرى فيه خيرا .

قال الجاحظ : كان بشّار خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسَجْع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والآختراع ، المتفنّنين فى الشعر ، القائلين فى أكثر أجناسه وضُروبه . وقال الشعرَ فى حياة جرير وتعرّض له ، وحكى أنه قال : هجوتُ جريرًا فأعرض عنّى ، ولو هاجانى لكنتُ أشعر الناس ، وكان يَدين بالرَّجْعة ، ويكفّر جميعَ الأمّة ، ويصوِّب رأىَ إبليس فى تقديم النار على الطين ، وذكَر مثلَ ذلك فى شعره فقال :

الأرضُ مُظلِمةٌ والنار مُشْرِقةٌ * والنارُ معبودةٌ مُذْ كانت النارُ

وقال بعضُ الرُّواة لأبى عمرو : مَنْ أبدع الناس بيتا؟ قال الذى يقول :

لم يَطُلْ لَيْـلى ولكن لم أَنَمْ * ونَفَى عَنّى الكرى طيفٌ أَلَمّْ
وإذا قلتُ لهـا جُودى لنـا * خرجتْ بالصَّمْت عن لا ونَعَم
رَوِّحى يا عَبْـدَ عنّى وآعلمى * أننى يا عبـد من لحم ودَم
إنّ فى بُرْدَىَّ جسما ناحلا * لو توكأت عليـه لآنْهَـدَم

وهذه الأبياتُ لبشار .

قال : فمنْ أمدح الناس ؟ قال الذى يقول :

لَمَسْتُ بكفّى كفّه أبتغى الغِنَى * ولم أدْرِ أن الجُودَ من كفّه يُعْدى
فلا أنا منـه ما أفاد ذَوُو الغـنى * أفدتُ وأعدانى فأتلفتُ ما عندى

وهذه الأبيات لبشار .

ودخل بشّارٌ على إبراهيم بن عبد الله بن حسن، فأنشده قصيدةً يهجو فيها المنصورَ ويُشير عليه برأى يستعمله فى أمره، فلما قُتِل إبراهيم خاف بشار، فقلَب الكُنْية وأظهر أنه كان قالها فى أبى مُسْلم، وحذَف منها أبياتا، وأوّلُها :

أبا جَعْفَرٍ ما طولُ عيْشٍ بدائمٍ * ولا سالِمٌ عمّا قليلٍ بسالِمِ

قلَب هذا البيت فقال : أبا مسلم :

على الملك الجبّار يَقْتحِم الردى * ويَصْرَعه فى المأزِق المُتَلاحِمِ

كأنك لم تسمعْ بقتل مُتَوَّج * عظيمٍ ولم تسمع بفَتْك الأعاجم

تَقَسّم كسرى رهطُه بسيوفهم * وأمسى أبو العباس أحلامَ نائم

يعنى الوليد بن يزيد

وقد كان لا يَخشى آنقلابَ مكيدةٍ * عليه ولا جَرْىَ النُّحوس الأشائم

مُقيمًا على اللّذات حتى بدت له * وجُوهُ المنايا حاسراتِ العَمائم

وقد تَرِدُ الأيامُ غُرًا وربما * وَرَدْن كُلُوحًا باديات الشَّكائم

ومَرْوانُ قد دارت على رأسه الرَّحا * وكان لِما أجْرَمْتَ نَزْرَ الجرائم

فأصبحتَ تجرى سادِرا فى طريقهم * ولا تَتَّقِى أشْباه تلك النَّقائم

تجرّدتَ للإسلام تعفو سبيلَه * وتُعْرِى مَطَاه(1) لليوث الضّراغم

فما زِلتَ حتى آستنصر الدِّينُ أهلَه * عليك فعاذُوا بالسيوف الصّوارم

فَرُمْ وَزَرًا يُنْجِيك يا بنَ سَلَامة * فلستَ بِنَاجٍ من مَضِيمٍ وضائم

جعل موضع "يابن سلامة" "يابن وشيكة" وهى أمّ أبى مسلم

لَحَا اللهُ قوما رَأّسُوك عليهمُ * وما زلتَ مرءوسا خبيثَ المَطاعِم

أقول لبَسّامٍ عليه جلالةٌ * غدا أرْيَحِيًّا عاشقا للمكارم

من الفاطِميّين الدُّعاة الى الهُدى * جِهارا ومن يَهْديك مثلُ آبنُ فاطم

(1) مطاه : ظهره .

هذا البيتُ حذفه بشّار من الأبيات :

سِراجٌ لعيْنِ المُسْتَضِيء وتارَةً * يكون ظلاما للعـدوّ المُزَاحم
اذا بلغ الرأىُ المشورةَ فٱسْتَعِن * برأى نَصِيحٍ أو نصيحةِ حازم
ولا تجعلِ الشُّورى عليك غَضَاضةً (١) * فإن الخَـوافى (٢) قوّةٌ للقوادم
وما خيرُ كفٍّ أمسك الغُلّ (٣) أختَها * وما خيرُ سيفٍ لم يُؤَيَّد بقائم
وخَلِّ الهُوَيْنا للضعيف ولا تكن * نَؤُوما فإن الحـزم ليس بنائم
وحارِبْ اذا لم تُعْطَ إلا ظُلَامة * شَبَا (٤) الحربِ خيرٌ من قَبُول المظالم
وأدْنِ على القُرْبى المقرِّبَ نفسَه * ولا تُشْهِد الشّورى آمرأً غيرَ كاتم
فإنك لا تَسْتَطرِدُ الهمَّ بالمُنى * ولا تبلُغُ العَلْيا بغير المكارم
اذا كنتَ فَردا هرّك القومُ مُقبِلا * وإن كنتَ أدْنى لم تَفُزْ بالعزائم
وما قَرَع الأقوامَ مثلُ مُشَيَّع (٥) * أريبٍ ولا جَلّى العَمَى مثلُ عالم

قال أبو عبيدة : ميميّةُ بشّار هذه أحبّ إلى من ميميّتَىْ جرير والفرزدق . وقال الأصمعى لبشار: يا أبا معاذ، إن الناس يُعْجَبون من أبياتك فى المشورة؛ فقال له : يا أبا سَعيد، إن المُشَاوِر بين صواب يفوز بثمرته، أو خطأ يُشَارك فى مكروهه؛ فقال له : أنتَ فى قولك هذا أشعر منك فى شعرك .

تُوُفِّىَ ٱبنٌ لبشّار فجزع عليه، فقيل له : أجْرٌ قدّمتَه، وفَرَط ٱفترطْتَه، وذُخْر أحرزته؛ فقال : ولَدٌ دَفَنْتُه، وثُكلٌ تعجّلتُه، وغَيْبٌ وُعِدْتُه فانتظرته، والله لئن لم أجزع للنَّقْص لا أفرح للزيادة . وقال يرثيه :

---

(١) الغضاضة : المنقصة . (٢) الخوافى : الريشات الصغيرات التى فى جناح الطائر اذا ضمها خفيت، واحدتها خافية ضدّ القوادم . (٣) الغل بالضم : الحديدة التى تجمع بين يد الأسير وعنقه وتسمى الجامعة . (٤) الشبا بالفتح جمع شباة وهى من كل شىء حده . (٥) المشيع : الشجاع .

أجَارَتَنَا لا تجزعى وأنيبى * أتانى من الموت المُطِلِّ نَصِيبى
بُنَىّ على رغمى وسُخْطى رُزِئْتُه * وبُدِّل أحجارا وجَالَ[1] قَلِيب
وكان كَرَيحانِ العروس تخالُه * ذوى بعد إشراقٍ يَسُرّ وطِيب
أصِبْتُ به فى حين أوْرق غصنهُ * وألقى علىّ الهمّ كلّ قريب
عجِبتُ لإسراع المنيّة نحوه * وما كان لو مُلِّيتُه بعجيب

قيل لبشّار : إنك لتجىء بالشىء الهجين المتفاوت؛ قال : وما ذاك؟ قيل : بينما تقول شعرا يُثير النقع وتُخْلَع به القلوب مثل قولك :

إذا ما غَضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيّةً * هَتَكْنَا حِجابَ الشمس أو تُمْطِرَ الدّمَا
اذا ما أعَرْنا سيّدا من قبيلة * ذُرَى منبر صلّى علينا وسلّما

تقول :

رَبَابَةُ ربّةُ البَيْت * تَصُبّ الخَلَّ فى الزيْت
لها عَشْر دَجَاجاتٍ * وَدِيكٌ حَسَنُ الصّوت

فقال : لكلٍّ وجهٌ، فالقول الأوّل جدّ، وهذا قلتُه فى ربابةَ جاريتى، وأنا لا آكل البيْض من السوق، وربابة لها عشر دجاجات وديك، فهى تجمع لى البيض، فهذا عندها أحسن من «قِفَانَبْكِ» عندك . وسألَتْه جاريةٌ مغنية لبعض ولَد سليمان بن على ، وكانت محسنة بارعة الظَّرْف، أن يذكرها فى قصيدة ولا يذكر فيها ٱسْمَها ولا ٱسمَ سيدها ويكتب بها اليها، فانصرف وكتب اليها :

وذاتِ دَلٍّ كأن البدر صورتُها * باتت تغنّى عَمِيدَ القلبِ سَكْرانا
« إن العيونَ التى فى طَرْفها حَوَرٌ * قَتَلْنَنَا ثم لم يُحْيِينَ قَتْلانا »
فقلتُ أحسنتِ ياسُؤلى ويا أملى * فأسْمِعِينى جَزاكِ الله إحسانا
« ياحَبّذا جَبَلُ الرَّيّان من جبل * وحبّذا ساكِنُ الرّيان مَنْ كانا »
قالت فهلّا فَدَتْك النّفس أحسَنُ من * هذا لمن كان صَبّ القلب حَيْرانا

(١) الجال : حافة القبر ونواحيه .

« يا قوم أُذْنِى لبعض الحىِّ عاشـقةٌ * والأذنُ تعشَقُ قبـل العين أحيانا »

فقلتُ أحسنتِ أنت الشمسُ طالعةً * أضْرَمْتِ فى القلب والأحشاء نيرانا

فأ سمعيـنِىَ صوْتًا مُطْرِبا هَزَجًا * يَزِيـد صَـبًّا محبًّا فيـك أشجـانا

يا ليتنى كنتُ تُفّـاحًا مفلَّجَةً * أوكنتُ من قُضُبِ الريْحـان رَيْحانا

حتى إذا وجَـدَتْ رِيحى فأعجبها * ونحن فى خَـلْوَةٍ مثّلْتُ إنسـانا

فحـرّكَتْ عُودَها ثم آنثنتْ طَرَبا * تَشْـدُو به ثم لا تُخفيـه كِتْمانا

« أصبحتُ أطوعَ خَلْقِ اللهِ كلِّهم * لأكثر الخَلْق لى فى الحبِّ عِصْيانا »

فقلتُ أطْرَبْتِنَـا يازَيْنَ مجلسنا * فهاتِ إنّكِ بالإحسان أوْلَانا

لو كنتُ أعلم أنّ الحب يقتُلُنى * أعددتُ لى قبـل أن ألقاك أكفانا

فغنَّت الشَّرْبَ صوتًا مونَقا رَمَـلا * يُذْكى السرور ويُبْكِى العين ألوانا

« لا يقتـل اللهُ من دامتْ مودتُه * واللهُ يقتـل أهـلَ الغـدر أحيانا »

كان الزُّوَّارُ يُسَمَّوْن فى قديم الدهر الى أيام خالد بن بَرْمك السُّؤَّالَ، فقال خالد : هذا والله آسم أستثقله لطلّاب الخير، وأرفَعُ قَدْرَ الكرم عن أن يُسمَّى به أمثالُ هؤلاء المؤمنين، لأن فيهم الأشرافَ والأحرار وأبناء النعيم ، ومن لعلّه خيرٌ ممّن يقصد وأفضل أدباً ، ولكنّنا نسمّيهم الزوّار ، فقال بشّار يمدحه بذلك :

حَذَا خالد فى فعله حَذْوَ برمك * فَمَجْدٌ له مُسْـتَطْرَفٌ وأصيلُ

وكان ذَوُو الآمالِ يُدْعوْن قبله * بلفظٍ على الإعدام فيه دليـل

يسمَّوْن بالسؤّال فى كل موطنٍ * وإن كان فيهـم نابِهٌ وجليـل

فسمّاهمُ الزوّارَ سَـتْرا عليهـمُ * فأستارُه فى المهتدين سُدُول

وقال بشّار هـذا الشعرَ فى مجلس خالد فى الساعة التى تكلّم خالد بهـذا فى أمر الزوّار ، فأعطاه لكل بيت ألف درهم .

دخل بشّار على عُقْبَة بن سَلْم فأنشده بعض مدائحه فيه، وعنده عُقْبَة بن رُؤْبَة ينشده رَجَزا يمدحُه به ، فسمعه بشار وجعل يستحسن ما قاله الى أن فرَغ ، ثم أقبل على بشّار فقال : هذا طِراز لا تُحْسِنه أنت يا أبا مُعاذ، فقال بشار : أَلِى يقال هذا ! أنا والله أرجَزُ منك ومن أبيك وجدّك ، فقال له : عقبةُ أنا وأبى فتَحْنا للناس بابَ الغريب وباب الرَّجَز، وإنى لخليقٌ أن أسُدّه عليهم ، فقال بشّار : ٱرحمهم رحِمَك الله، ولمّا كان من غَدٍ غدا على عقبة ٱبن سلم وعنده عقبة بن رؤبة، فأنشده أُرْجُوزته التى مدحه فيها :

يا طَلَلَ الحىِّ بذات الصمْدِ * بالله خَبِّرْ كيف كنتَ بعدى
أَوحشْت من دَعْدٍ وتِرْب دعد * سَقْيًا لأسماء ٱبنة الأشَدّ
قامت تَراءَى إذ رأتنى وحدى * كالشمس تحت الزِّبْرِج[1] المنقَدّ
صدّتْ بخدٍّ وجَلَتْ عن خدّ * ثم انثنتْ كالنَّفَس المُرْتَدّ
عَهْدِى بها سَقْيًا له من عَهْد * تُخْلِف وعدا وتفى بوعد
فنحن من جَهْد الهوى فى جهد * وزاهر من سَبِط وجَعْد
أهْدَى له الدهرُ ولم يَسْتَهْدِ * أفوافَ نَوْر الحِبَر الجُدّ
يلقى الضّحى ريحانه بسَجْد * بُدِّلتُ من ذاك بُكًى لا يُجدى
وافق حظًّا من سَعَى بجِدّ * ما ضرّ أهلَ النوْك ضَعْفُ الجَدّ
الحُرّ يُلْحَى والعصا للعبد * وليس للمُلْحِف مثلُ الرّدّ
والنَّصْفُ يكفيك من التعدّى * وصاحبٍ كالدُّمَّلِ المُمِدّ
حملتُه فى رقعة من جِلْدى * أرقُبُ منه مثلَ يوم الوِرْد
حتى مضى غيرَ فقيد الفَقْد * وما دَرَى ما رغبتى من زُهد
إسْلَم وحُيّيت أبا المُلِدّ * مفتاح باب الحدث المُنْسَدّ
مُشْترَك النَيْل ورِىّ الزَّنْد * أغرّ لبّاسَ ثياب الحمد

---

(١) الزبرج : الزينة من وشى أوجوهر .

ما كان منّى لك غـــيرُ الـودّ * ثم ثنـاءٌ مثـــلُ ريح الوَرْد
نَسَـجْتُه فى مُحْكَمَات النَّـــدّ * فالبَس طِرازى غير مُسْتَـــرَدّ
لله أيامـــك فى مَعَـــدّ * وفى بَنِى قَحْطان غـــير عَدّ
يومًا بذى طِخْفَة(١) عند الحـدّ * ومثله أودَعْتَ أرض الهنـد
بالمُرْهَفَات والحـــديد السَّرْد * والمُقْرَبات(٢) المبعدات الجُرْد
اذا الحيا أكْدى بها لا تُكْدِى * تَلْحُم أمرًا وأمورا تُسْـــدِى
وآبن حكيم إن أتاك يَرْدِى * أصمّ لا يسـمع صوتَ الرّعد
حَيّيتَـــه بتحفـــةِ المُعِـــدّ * فانْهَدّ مثـــل الجبـــل المنهدّ
كلّ آمرئ رَهْنٌ بمـا يؤدّى * وربّ ذى تاج كريم الجَـــدّ
كآل كسرى وكآل بُرْد * أنكب جافٍ عن سبيل القصد
* فَصَلْتَه عن ماله والوُلْد *

فطرِب عقبةُ بن سلم وأجزَل صِلَته، وقام عقبةُ بن رؤبة فخرج عن المجلس يخزى وهرب من تحت ليلته فلم يعُد اليه .

قال الجاحظ : فانظر الى سُوء أدب عقبة بن رؤبة وقد أجمَل بشّارٌ مَحْضَره وعشرته، فقابَله بهذه المقابلة القبيحة، وكان أبوه أعلمَ خلق الله به، لأنه قال له وقد فاخَره بشعره : أنت يابنىّ ذهبان الشعر، اذا متّ مات شعرُك معك، فلم يُوجد من يَرْويه بعدك ، فكان كما قال له، ما يُعرف له بيتٌ واحد ولا خبرٌ غير هذا الخبر القبيح الإخبار عنه، الدالّ على سُخْفه وسقوطه وسوء أدبه .

وقال بشّار فى هَوًى له كانت بالبصرة، ثم خرجتْ مع زوجها الى عُمَان :

هوى صاحِبى ريحَ الشَّمال اذا جَرَتْ * وأشْـــفَى لقلبى أن تَهُبّ جَنُـوب
وما ذاك إلا أنهـا حين تنتهى * تَنَاهَى وفيهـا من عُبَيْـدة طِيب

(١) طخفة : موضع بعد النباج و بعد إمرة فى طريق البصرة الى مكة، ومنه يوم طخفة لبنى يربوع على قابوس ابن المنذر بن ماء السماء . (٢) المقربات : الخيل التى يقرب مربطها ومعلفها لكرامتها .

عَذيرى من العُــذَّال إذ يَعْــذُلُونَنى * سَــفَاهًا وما فى العاذلين لبيب

يقولون لو عَزَّيت قلبَــك لارعوى * فقلتُ وهــل للعاشقين قلوب

اذا نطَــق القــومُ الجلوسُ فإننى * مُكِبٌّ كأنى فى الجميــع غريب

جاء أبو الشَّمَقْمَق الى بشّار يشكو اليه الضيقة ويحلف له أنه ما عنده شىء ، فقال له بشّار : والله ما عندى ما يغنيك ، ولكن قُمْ معى الى عُقْبَة بن سَــلْم ، فقام معه ، فذكر له أبا الشمقمق وقال : هو شاعر وله شكرٌ وثناء ، فأمر له بخمسمائة درهم ، فقال له بشّار :

ياواحدَ العــربِ الذى * أمسى وليس له نَظِــير

لوكان مثلُك آخَرًا * ماكان فى الدنيا فقــير

فأمر لبشّــار بألفى درهم ، فقال أبو الشمقمق : نَفَعْتنا ونفعناك يا أبا معاذ ، فجعــل بشّار يضحك .

دخل يزيدُ بن منصور الحِمْيَرِىّ على المهدىّ وبشّار بين يديه يُنشِــده قصيدةً آمتدحه بها ، فلما فرَغ منها أقبل عليه يزيدُ ، وكانت فيه غَفْلةٌ ، فقال : ياشيخ ، ماصِنَاعتُك؟ فقال: أثقُبُ اللؤلؤَ ، فضحك المهدىّ ، ثم قال لبشّار : أُغْرُبْ ويلك ! أتَتَنَــادَر على خالى ؟ فقال له : وما أصنع به ؟ يرى شيخا أعمى يُنشِد الخليفةَ شعراً ويسأله عن صناعته .

وقف على بشّار بعض المُجّان ، وهو ينشِد شعرا ، فقال له : آسْتُرْ شعرَك هــذا كما تستر عَوْرَتك ، فصفَّق بشار بيديه وغضب ثم قال له : ومن أنت؟ ويلك ! قال : أنا — أعزك اللهُ — رجل من بَاهِــلَة ، وأخوالى سَــلُول ، وأصْهارى عُكْل ، وآسمى كَلْب ، ومولدى بأُضَاخ (١) ، ومنزلى بظفر بلال ، فضحك بشّار ، ثم قال : آذهب ويلك ! فأنت عتيقُ لؤمك ، قد علم الله أنك آستترتَ منّى بحصون من حديد .

مرّ بشّار برجل قد رَمَحَتْه بغلةٌ وهو يقول : الحمد لله شكرا ، فقال له : بشّار آستَزِدْه يَزِدْك . ومرّ به قومٌ يحملون جنازة وهم يُسرعون المشى بها ، فقال : مالهم مسرعين ؟ أتراهم سرَقوه فهم يخافون أن يُلْحَقوا فيؤخذ منهم .

(١) من قرى اليمامة لبنى نمير .

رفع غلامٌ بشّار إليه فى حساب نَفَقَته جِلاءَ مِرْآةٍ عشرةَ دراهم، فصاح به بشار وقال: والله ما فى الدنيا أعجب من جِلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم، والله لو صَدِئَتْ عينُ الشمس حتى يبقى العَالَم فى ظُلْمة ما بلغتْ أجرةُ من يجلوها عشرة دراهم .

قال قُدامةُ بن نُوح : كان بشّارٌ يحشو شعرَه إذا أعْوَزته القافيـةُ والمعنى بالأشـياء التى لا حقيقةَ لها، فمن ذلك أنه أنْشَد يوما شعرًا له فقال فيه : « غنّنى للغريض يا بن قنان » فقيل له : من ابن قنان هذا ؟ لسنا نعرفه من مُغَنِّى البصرة، قال : وما عليكم منه؟ أَلَكُم قِبَله دَيْن فتطالبوه به، أو ثأرٌ تريدون أن تُدركوه، أو كَفَلْتُ لكم به، فاذا غاب طالبتمونى بإحضاره؛ قالوا : ليس بيننا وبينه شىء من هذا، وإنما أردنا أن نعرفه، فقال : هو رجل يغنّى لى ولا يخرج من بيتى، فقالوا له : إلى متى؟ فقال : مذ يوم وُلِد وإلى أن يموت . وذكَر أيضـا فى هذه القصيدة « البردان» فقيل له : يا أبا معاذ، أين البردان هـذا ؟ لسنا نعرفه بالبصرة، فقال : هو بيْت فى بيتى سمّيته بالبردان، أفعليكم من تَسْميتى دارى وبيوتها شىء فتسألونى عنه ؟ .

قالت امرأةٌ لبشّار : أىّ رجل أنت لو كنتَ أسود اللّحية والرأس، قال : أما علِمْتِ أن بيض البُزاة أشهر من سودِ الغربان ؟ فقالت له : أما قولُك فحسن فى السمع، ومن لك بأن يَحسُن شَيْبُك فى العين كما حسن قولُك فى السمع؟ فكان بشّار يقول : ما أفحمَنى قطّ غير هذه المـــرأة .

دعاه رجل إلى منزله فأكل وشرب، ولما أراد الانصرافَ قامت جاريةٌ للرجل وأخذت بيده، فلما صار بالصَّحْن أومأ اليها ليُقبِّلَها، فأرسَلتْ يدَها من يده، فجعل يجول فى العَرْصة وخرج مَوْلى الجارية فقال : مالك يا أبا معاذ؟ فقال : أذنبتُ ذَنْبًا ولا أبرح أو أقول شعرا، فقـــال :

أتوبُ اليك من السَّيئات * وأستغفرُ الله من فَعْلتى
تناولتُ ما لم أُرِدْ نَيْـــله * على جهل أمرى وفى سَكْرتى

ووالله والله ما جئتـــه * لِعَــمْدٍ ولا كان من هِمّتى
وإلا فَمِتُّ إذًا ضائعـا * وعَـــذّبنى اللهُ فى مَيْتَتى
فمن نال خَــيْرا على قُبْــلةٍ * فـــلا بارك اللهُ فى قُبلتى

لمـا كثُر ٱستهتارُ نساء البصرة وشـبَّانها بشعر بشار، وقال سَوَّار بن عبد الله ومالكُ بن دينار : ما شىء أدعى لأهل هذه المدينة الى الفِسْق من أشعار هذا الأعمى، وما زالا يَعظانه وكان واصِلُ بن عَطَاء يقول: إن من أخْدَع حبائل الشيطان وأغواها لَكَلِمَاتِ هذا الأعمى المُلْحِد، فلما كثر ذلك وٱنتهى خبرُه إلى المهدىّ نَهَاه عن ذِكْر النساء وقول التشبيب، وكان المهدىّ من أشد الناس غَيْرة، فقال فى ذلك :

يا مَنْظَـرًا حَسَــنا رأيتُــه * فى وجه جارية فَدَيْتُــه
بَعَثَــتْ إلىّ تَسُــومُنى * ثَوْبَ الشباب وقد طويتُه
والله رَبِّ محمـــــدٍ * ما إن غَدَرتُ ولا نَويتُــه
أمْسَكتُ عنـــك وربمـا * عَرَض البَلاءُ وما ٱبتغيتُه
إن الخليفة قـــد أبَى * واذا أبى شيئًـا أبيتُــه
ومُخَضَّبٍ رَخْصِ البَنَـا * نِ بَكَى علىّ وما بكيْتُه
ويَشُــوقنى بَيْتُ الحبيـ * ـب اذا ٱدّكَرتُ وأين بيْته
قام الخليفـــةُ دونَــه * فصبَرتُ عنــه وما قَلَيتُه
ونَهـانِىَ الملكُ الهــما * م عن النســاء وما عصيتُه
لا بل وفيْتُ فــلم أُضِع * عهـــدا ولا رأيا رأيتُــه
وأنا المُطـلّ على العِــدا * واذا غلا الحمـــدُ ٱشتريتُه
أُصْفِى الخليـــلَ إذا دنا * واذا نأى عـنى نأيتُـــه
وأميـــلُ فى أُنْسِ النديـ * ـم من الحَياء وما ٱشتهيتُه

وكان الخليل بن أحمد ينشد هذه الأبيات ويستحسنها ويعجب بها .

وكان لبشار خمسة نُدَماء، فمات منهم أربعة وبقي واحد يقال له : البراء، فركب فى زورق يُريد عبور دِجْلة العَوْراء فغرق، فكان بشّار يقول : ماخير فى الدنيا بعد الأصدقاء، ثم رثى أصدقاءه بقوله :

يا بن موسى ماذا يقــول الإمامُ * فى فتــاة بالقلب منهــا أُوَامُ
بتُّ من حبّها أُوَقَّــرُ بالكأ * س ويهفــو على فؤادى الهُيَــام
لم يكن بينهــا وبينى إلّا * كُتُبُ العاشقين والأحـــلام
يابن موسى اَسْقِنِى ودَعْ عنك سَلْمى * إن سلمى حِمًى وفى اَحْتِشام
ربّ كأس كالسلسبيل تعلّلـ * ـتُ بهــا والعيونُ عنّى نيــام
حُبِست للشَّراة فى بَيْتِ رأسٍ(١) * عَتَقَتْ عانِّســا عليهــا الختــام
نَفَحتْ نفحةً فَهَــزّت نديمى * بنســيم وآنشقّ عنها الزُّكام
وكأن المَعْلول منهــا إذا را * ح شَــجٍ فى لســانه بِرْسَــام(٢)
صَـــدَمتْه الشَّمولُ حــتى بعينيـ * ـه آنكسارٌ وفى المفاصل خَام
وهو باقى الأطراف حِيّتْ(٣) به الكأ * سُ وماتت أوصــالُه والكلام
وفــتى يشـــرَبُ المُدامــةَ بالمــا * ل ويمشى يروم ما لا يُرام
أنفدَتْ كأسُه الدنانيرَ حــتى * ذهَب العَيْنُ وآستمرّ الســوام
تركتْه الصهبــاءُ يرنو بعين * نام إنْسانُهــا وليست تنــام
جُنّ من شَرْبة تُعَــلّ بأخرى * وبكى حين ســار فيـــه المُدام
كان لى صاحبًــا فأودى به الدهـ * ـرُ وفارقْتُـــه عليـــه الســـلام
بَقِيَ النــاسُ بعـــد هُلْك نَدامَا * يَ وُقُوعا لم يشعـــروا ما الكلام
كجَزُور الأيْسَــار(٤) لا كَبِدٌ فيهـ * ـا لِبَــاغٍ ولا عليهــا ســنَام

---

(١) بيت رأس : قرية بالشأم من قرى حلب ينسب اليها الخمر .
(٢) البرسام : علة يهذى فيها وهو ورم حار يعرض للحجاب الذى بين الكبد والأمعاء ثم يتصل الى الدماغ .
(٣) حيت بالإدغام لغة فى حى كرضى .
(٤) الأيسار : جمع يسر، وهو اللاعب بالقداح .

يابن موسى فَقْدُ الحبيب على العيـ * ـن قَذَاةٌ وفى الفؤاد سَقَام
كيف يصفو لىَ النعيمُ وحيدًا * والأَخلّاءُ فى المقابر هَام
نَفِسَتهم علىّ أمُّ المنايا[1] * فأنامتهم بعُنْفٍ فناموا
لا يَغيض انْسِجَامُ عينى عليهم * إنما غايةُ الحزين السِّجَامُ

وقال فى نَهْى الخليفة إياه عن ذِكْر النساء :

والله لولا رِضا الخليفة ما * أعطيْتُ ضَيْمًا علىّ فى شَجَن
وربما خيّرَ لابن آدم فى الـ * ـكُرْه وشَقّ الهوى على البدن
فاشربْ على أُبْنَةِ الزمان فما * تلق زمانًا صَفا من الأُبَن
الله يُعطيك من فواضله * والمرء يُغْضِى عَيْنًا على الكُمَن[2]
قد عِشْتُ بين الرَّيْحان والرّاح والزّ * هر فى ظِلّ مجلسٍ حَسَن
وقد ملأتُ البلاد ما بين يغبـ * ـور الى القَيْرَوان فاليمن
شِعْرًا تُصَلِّى له العواتقُ والشّـ * ـيبُ صلاةَ الغُواة للوَثَن
ثم نهانى المهدىُّ فانصرفَتْ * نفسى صنيعَ الموفَّق اللَّقِن
فالحمدُ لله لا شريكَ له * ليس بباقٍ شىءٌ على الزمن

وأنشد المهدىَّ قصيدته التى أوّلها :

تجالَلْتُ عن فِهْرٍ وعن جَارَتَىْ فهر * وودَّعْتُ نُعْمًا بالسلام وبالبِشر
وقالت سُلَيْمى فيك عنّا جَلادة * محلّك دانٍ والزيارةُ عن عُفْرِ[3]
أخى فى الهوى مالى أراك جَفَوْتنا * وقد كنتَ تَقْفُونا على العُسْر واليُسر
تثاقلتَ إلا عن يَدٍ أستفيدُها * وزَوْرة أملاكٍ أشُدُّ بها أَزْرِى
وأخرجنى من وِزْر خمسين حِجّة * فتًى هاشمىٌّ يَقْشَعِرّ من الوِزر

---

(١) نفستهم : حسدتهم . (٢) الكمن واحدها كمنة وهى جرب وحمرة تبقى فى العين من رمد يساء علاجه .
(٣) العفر : قلة الزيارة ، يقال : ما تأتينا الا عن عفر أى بعد قلة زيارة وطول عهد .

دَفنْتُ الهوى حيّا فلستُ بزائرٍ * سليمى ولا صفراء ما قَرقر القُمْرِى
ومُصْفَرَّة بالزعفران جلودُها * اذا ٱجْتُليتْ مثل المفرطحة الصفر
فربّ ثقال الرِّدْفِ هبّتْ تلومنى * ولو شَهدت قبرى لَصَلّت على قبرى
تركتُ لمهدىّ الأنام وِصالها * وراعيتُ عهدا بيننا ليس بالخَتْر
ولولا أميرُ المؤمنين محمدٌ * لقبّلتُ فاها أو لكان بها فِطْرى
لعمرى لقد أوْقَرتُ نفسى خطيئةً * فما أنا بالمُزداد وقْرا على وقر
تَسلّى عن الأحباب صَرّامُ خُلّة * وَوصّال أخرى ما يُقيم على أمر
وركّاض أفراس الصّبابة والهوى * جرت حِجَجًا ثم ٱستقرّتْ فلا تَجرى
فأصبحن ما يُرْكَبْن إلا الى الوغى * وأصبحتُ لا يُزْرَى علىّ ولا أُزْرِى
فهذا وإنى قد شَرَعْتُ مع التُّقى * وماتت همومى الطّارقات فما تَسْرى

ثم قال يصف السفينة :

وعذراء لا تجرى بلحم ولا دَم * قليلة شكوى الأَيْن مُلْجَمة الدُّبْر
اذا ظَعَنَتْ فيها الفُلُول تَشَخّصتْ * بفُرسانها لا فى وُعُوثٍ ولا وَعْر
وإن قصدَتْ زلّت على متنصب * ذليل القوى لا شىء يَفْرى كما تفرى
تُلاعِبُ تيّارَ(١) البحور وربما * رأيتَ نفوسَ القوم من جَرْيها تجرى
الى مَلِك من هاشم فى نُبُوةٍ * ومن حِمْيَرٍ فى المُلْك والعدد الدَّثْر(٢)
من المُشترين الحمدَ تَنْدَى من النّدى * يداه و يَنْدَى عارِضَاه من العِطْر
فألزمتُ حَبْلى حبل من لا تُغبّبه * عُفَاةُ النّدى من حيث يدرى ولا يدرى
بنى لك عبدُ الله بيتَ خلافة * نزلتَ بها بين الفَرَاقد والنَّسْر
وعندك عهدٌ من وَصَاة محمد * فَرَعْتَ به الأملاكَ من ولد النَّضْر

(١) كان قد قال : تينان البحور، فعابه بذلك سيبويه ، فجعله تيار البحور .
(٢) الدثر : الكثير .

ولما أنشد الوليد بن يزيد قولَ بشار :

أيها السّاقيان صُبّا شَرَابى * وٱسْقِيانى من رِيقِ بيضاءَ رُودِ(١)
إن دائى الظّمَا وإن دوائى * شَرْبَةٌ من رُضَاب ثَغْرٍ بَرُود
ولها مَضْحك كغُرّ الأقَاحى * وحديثٌ كالوَشْى وَشْيِ البُرود
نزلتْ فى السّواد من حَبّة القلـ * ـب ونالتْ زيادةَ المُسْتزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليال * والليالى يُبْلِين كلَّ جديد
عندها الصبرُ عن لقائى وعندى * زَفراتٌ يأكُلْنَ قلبَ الحديد

طَرِب الوليدُ وقال : من لى بمزج كأسى هذه من رِيق سَلْمَى، فيَرْوَى ظمئى، وتَطْفأَ غُلّتى، ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه، وقال : إن فاتنا ذاك فهذا .

مدَح بشار خالدَ بن بَرْمَك فقال فيه :

لعمرى لقد أجدى علىّ ٱبنُ برمك * وما كلُّ من كان الغنى عنده يُجْدى
حلَبتُ بشعرى راحتيه فَدَرّتا * سَماحًا كما دَرّ السَّحابُ مع الرّعْد
إذا جئته للحمد أشْرَق وجهُه * اليك وأعطاك الكرامةَ بالحمد
له نِعَمٌ فى القوم لا يَسْتثيبها * جَزاءً وكيْلَ التّاجر المُدّ بالمُدّ
مُفيدٌ ومِتْلافٌ سبيلُ تُراثه * اذا ما غدا أو راح كالجَزْر والمَدّ
أخالدُ إن الحمدَ يبقى لأهله * جَمَالا ولا تبقى الكنوزُ على الكَدّ
فأطْعِمْ وكُلْ من عَارَةٍ مُسْتَرَدّةٍ * ولا تُبْقِها إن العَوَارِىَ للردّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألفَ درهم، وكان قبل ذلك يعطيه فى كل وِفادة خمسة آلاف درهم، وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان فى صدر مجلسه الذى كان يجلس فيه، وقال ٱبنه يحيى ابن خالد : آخر ما أوصانى به أبى العملُ بهذين البيتين .

(١) الرود : الشابة الحسنة الناعمة .

وكان إسحاق الموصلىّ يطعن على شعر بشّار ويضع منه، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضُه بعضا، فقيل له : أتقول هذا لمن يقول :

إذا كنتَ فى كلّ الأمور مُعَاتِبًا * صديقَك لم تَلْقَ الذى لا تعاتبُــهْ
فَعِشْ واحدًا أوصِــلْ أخاك فإنه * مُقَــارِفُ(١) ذنبٍ مرّة ومُجَانِبُــهْ
إذا أنتَ لم تشربْ مِرارًا على القَذَى(٢) * ظَمِئتَ وأىُّ الناس تصفو مَشَاربه

وهى من غُرَر قصائده، مدح بها عمر بن هُبَيْرة، ومنها قوله :

يخاف المنـايا إن تَرَحّلتُ صاحبِى * كأن المنـايا فى المُقَـام تُنَاسِـبه
فقلت له إن العــراقَ مُقَـامُه * وخيمٌ إذا هبّتْ عليـك جَنَائبــه
لألقى بَنِى عَيْـلان إن فَعالهــم * تزيد على كل الفَـعال مراتبــه
أولاك الألَى شَقّوا العَمى بسيوفهم * عن العين حتى أبصر الحقَّ طالبه
وجيش كجنح الليل يَزْحَف بالحصا * وبالشّوك والخَطِّىِّ حُمْـرًا تغالبــه
غدوْنا له والشمسُ فى خِدْر أمّها * تطالِعُنا والطَّـــلُّ لم يَجْـرِ ذائبُــه
بضَربٍ يذوق الموتَ من ذاق طعمَه * وتُدرك من نَجّى الفِـرارُ مَثَالِبُــه
كأنّ مُثَارَ النقع فوق رءوسـنا * وأسيافَنا ليــلٌ تَهَاوَى كواكبُه
بعثنا لهــم موتَ الفُجَاءة إننّـا * بنو الموتِ خَفّاقٌ علينـا سَـبائبُه(٣)
فراحوا فريق فى الإسَارِ ومثــلُه * قتيــلٌ ومثــلٌ لاَذَ بالبحر هاربُه

ومنهـا :

إذا الملك الجبّـارُ صَــعَّر خــدَّه * مشيْنا إليـــه بالسـيوف نعاتبُــه
رُوَيدًا تَصَاهل بالعــراق جِيادُنا * كأنك بالضَّــحّاك قد قام نادبُه
وسام لمَــرْوانٍ ومن دونه الشَّــجَا * وهوْلٌ كَلُجّ البحر جَاشت غَوَاربه

---

(١) مقارف ذنب : مخالطه ومرتكبه من قارف الخطيئــة اذا خالطها . (٢) القذى : ما يســقط فى الشراب من ذباب أو غيره . (٣) السبائب : جمع سبيبة ، وهى شقة من الكتّان رقيقة يريد بها الألوية .

أحلّتْ به أمُّ المنايا بناتِها * بأسيافنا إنا رَدَى مَن نحاربه
وكنّا إذا دَبّ العدوُّ لسخْطنا * وراقبنا فى ظاهرٍ لا نراقبُه
ركبنا له جَهْرا بكل مُثقَّفٍ * وأبيَض تَستسقى الدماءَ مضاربُه

ومنها :

فلما تولّى الحَىّ واعتصر الثرى * لَظَى الصّيف من نَجْمٍ توقّد لاهبُه
وطارت عصافيرُ الشّقائق واكتسى * من الآل أمثالَ المجَرَّة ناضبه
غدت عانةٌ[1] تَشكو بأبصارها الصَّدى * الى الجأْب إلا أنها لا تخاطبه

ومن حسن شعره :

لو كنت تَلْقَيْنَ ما نَلْقَى قَسَمْتِ لنا * يوما نعيش به منكم ونَبْتهِجُ
لا خير فى العيش إن كنّا كذا أبدا * ما فى التّلاقى ولا فى قُبْلَةٍ حَرَج
مَنْ رَاقبَ الناسَ لم يظْفَرْ بحاجته * وفاز بالطيّبات الفاتكُ اللّهِج
أشكو إلى الله همًّا ما يفارقنى * وشُرَّعاً فى فؤادى الدهرَ تَعْتَلج

وقال يهجو عبيد الله بن قزعة :

خَليلىَّ من كَعْبٍ أعِينا أخاكما * على دهره إن الكريمَ مُعِينُ
كأن عبيد الله لم يلْق ماجدا * مخافَةَ أن يرجو نداه حَزين
ولا تَبْخلا بُخْلَ ٱبن قزعة إنه * ولم يَدْر أن المكرمات تكون
فقل لأبى يحيى متى تُدْرِك العلا * وفى كل معروف عليك يمين
اذا جئتَه فى حاجةٍ سَدّ بابه * فلم تلْقَه إلّا وأنت كمين

وفَد على خالد بن برمك فأنشده :

أخالدُ لم أخْبِط[2] اليك بذمّةٍ * سوى أننى عافٍ وأنت جَوادُ
أخالدُ بين الأجْرِ والحمد حاجتى * فأيّهما تأتى فأنت عمادُ

(١) العانة : القطعة من الحمير . والجأب : ذكرها ، ومعنى شكواها الصدى بأبصارها أن العطش قد تبين فى أحداقها فغارت ، وهذا من أحسن ما وصف به الحمار والأتن . (٢) أى لم اطلب معروفك متوسلا اليك بعهد أوقرابة .

فإن تُعْطِنى أُفْرِغ عليــك مدائحى * وإن تأب لم يُضْرب علىّ سِـدَادُ
ركابى على حَرْفٍ(١) وقلبى مشـيّع * ومالى بأرض الباخلين بـلاد
اذا أنكرتنى بـلدةٌ أو نَكِرْتُها * خَرَجت مع البَـازى علّى سَـواد

فدعا خالد بأربعة آلاف دينارفى أربعة أكياس، فوضع واحدا عن يمينه، وواحدا عن شماله، وآخر بين يديه، وآخر خلفه، وقال: ياأبا معاذ، هل آستقلّ العِماد؟ فلمس الأكياس ثم قال: استقلّ والله أيها الأمير.

قال أَبَان بن عبد الحميد: نزل فى ظاهر البصرة قوم من أعراب قَيْس بن عَيْلان، وكان فيهم بيان وفصاحة، فكان بشّار يأتيهم وينشدهم أشعارَه التى يمدح بها قيسا، فيجلّونه لذلك ويعظّمونه، وكان نساؤهم يجلسن معه ويتحدثن اليــه وينشدهن أشعارَه فى الغزل، وكنت كثيرا ما آتى فى ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم، فأتيتُهم يوما فاذا هم آرتحلوا، فجئتُ الى بشّار فقلت: ياأبا معاذ: أعلمتَ أن القوم قد آرتحلوا؟ قال: لا، فقلتُ: فاعلم، قال: قد علمت لا علمتَ، ومضيتُ، فلما كان بعد ذلك بأيام سمعتُ الناسَ ينشدون:

دعا بفـراق من تَهْوَى أَبَانُ * ففاض الدمعُ وآحترق الجَنانُ
كأن شرارةً وقَعَت بقـلبى * لهـا فى مقلتى ودَمى آستِنَان
اذا أَنْشَدْتُ أو نَسَمَتْ عليها * رِياحُ الصّيف هَاج لها دُخَان

فعلمت أنها لبشّار، فأتيتُه فقلت: يا أبا معاذ، ما ذنبى اليك؟ قال: ذنبُ غراب البيْن، فقلت: هل ذكرتنى بغير هذا؟ قال: لا، فقلتُ: أُنْشِدك اللهَ ألّا تزيد، فقال: آمض لشأنك فقد تركتُك.

مدح بشّار المهدىَّ فلم يُعْطه شيئا، فقيل له: لم يَسْتَجِدْ شـعرَك، فقال: والله لقد قلتُ فيه شـعرًا لوقيل فى الدهر لم يُخْشَ صَرْفُه على أحدٍ، ولكنّا نكذب فى القول فيكذب فى الأمل.

---

(١) الحرف: الناقة المهزولة.

مدح بشّار سليمانَ بن هشام بن عبد الملك، وكان مقيما بحرّان ونحرج اليه، فأنشده قوله فيـــه :

نأتْكَ على طول التّجاوُرِ زينبُ * وماشعرتْ أنّ النّوى سوف تَشْعَبُ
يرى الناسُ ماتلقى بزينب إذ نأتْ * عجيبـا وما تُخْفِى بزينب أعْجَب
وقائلة لى حين جدّ رحيلُنـا * وأجفانُ عينيها تجـــودُ وتسكُبُ
أغادٍ الى حرّانـــ فى غير شـيعةٍ * وذلك شأْوٌ عن هواهـا مُغَــرِّب
فقلتُ لهـا كلّفتنى طلبَ الغـنى * وليس وراء آبن الخليفة مَذْهَب
سيكْفِى فتًى من سَعْيه حَدُّ سيفه * وكَوْرٌ علافِىٌّ[1] ووجنــاء ذِعْلب[2]
اذا آستوغرتْ دارٌ عليه رمى بها * بناتَ الصُّوَى منها ركوبٌ ومُصْعَب
فمــدّى الى يوم آرتحلت وسائلى * بزَوْرك والرّحالُ من جاء يَضْرِب
لعلّك أن تَسْتيقنى أنـــ زَوْرتى * سليمانَ مِنـــ سير الهواجر تُعْقِبُ
أغرّ هشامىّ القنـاةِ اذا آنتمى * نَمَتْـــه بُدور ليس فيهنّ كوكب
وما قَصَدتْ يومًا لحيلينـــ خيلُه * فتُصْرَف إلا عن دماء تَصَبَّبُ

فوصــله سليمان بخمسة آلاف درهم، وكان يبخّل، فلم يرضَها وآنصرف عنــه مُغْضَبا، فقال :

إن أمس منقبضَ اليدين عن الندى * وعنـــ العـــدوّ مخيّس الشّيطان
فلقـــد أروح على اللئـام مسـلّطًا * ثَلِجَ المقيـــل مُنَعّم النّــدْمانـــ
فى ظل عيش عشــيرة محمـــودة * تَنْــدَى يدى ويُخَاف فَرْط لسانى
أزمان خيّبنى الشــبابُ مطاوع * وإذ الأمـــيرُ علىّ مِنـــ حرّان
رِيم بأحْـــوِيَة العـــراق اذا بدا * برقت عليـــه أكِـلّةُ المرْجان
فاكْحَـــلْ بعَبْدة مقلتيك من القَذَى * وبوَشْـــك رؤيتهـا من الهَمَلان
فلَقـــرْبُ من تَهْـــوى وأنت متيّمٌ * أشْـــفَى لدائك من بنى مروان

(١) العلاق : الرحل العظم .   (٢) وجناء ذعلب أى ناقة شديدة سريعة .

قدم بشّار على المهـدىّ بالرصافة فدخل عليـه فى البستان، فأنشده مديحا فيه تشبيب حسن، فنهاه عن التشبيب لغَيْرة شديدة كانت فيه، فأنشده مديحا يقول فيه :

كأنما جئتُـــه أبشّـــره * ولم أجئْ راغـــبا ومُحْتَلِبا
يزيّن المنبر الأشمّ بعِطْفيْـ * ـه وأقـــواله إذا خَطبا
تُشَمّ نَعْلاه فى النَّـــدِىّ كما * يُشَمّ ماءُ الريحان مُنْتَهَبا

قال : وقد طلب منه أن يُنشده شيئًا من غَزَله :

وقائلٍ هَات شَـوِّقْنَا فقلتُ له * أنائمٌ أنتَ ياعمرو بن سَمْعـان
أما سمعتَ بما قد شاع فى مُضَرٍ * وفى الحليفَيْن من بَكْرٍ وقَحْطَان
قال الخليفةُ لا تَنْسِبْ بجارية * إيّاك إيّاك أن تَشْـقَى بعصيان

وقال له المهـدىّ : قل فى الحب شـعرا ولا تُطل، وآجعل الحب قاضيا بين المحبّين لا تُسَمّ أحدا، فقال :

آجعل الحبَّ بين حِبّى وبينى * قاضِـــيا إننى به اليوم راضِ
فاجتمعنا فقلت يا حِب نفسى * إن عينى قليـــلةُ الإغمـاض
أنتَ عذّبتنى وأنحلت جسمى * فآرحم اليوم دائمَ الأمراض
قال لى لا يَحِلّ حكمى عليهـا * أنتَ أولى بالسّقم والإعراض
قلتُ لمـا أجابنى بهـــواها * شَمِلَ الجوْرُ فى الهوى كل قاض

فبعث اليه المهدىّ : حكمت علينا ووافقنا ذلك، فأمر له بألف دينار .

وقال بشّار فى عشق السَّمْع :

يا قومُ أُذْنى لبعض الحى عاشقةٌ * والأذنُ تعشق قبـل العين أحيانا
قالوا بمَنْ لا تَرَى تَهْذِى فقلتُ لهم * الأذنُ كالعين تُوفِى القلبَ ما كانا
هـل من دواء لمشغوفٍ بجـارية * يَلْـــقى بلُقْيانهـا رَوْحًا وريحـانا

وقال فى مثل ذلك :

قالت عُقَيْلُ بن كعب إذ تعلّقها * قلبى فأضحى به من حبّها أثَرُ
أنّى ولم تَرَها تَهْــذِى فقلتُ لهم * إن الفــؤادَ يَرَى مالا يرى البصرُ
أصبحتُ كالحائم الحيْران مجتنبًا * لم يقض وِرْدا ولا يُرْجَى له صَــدَر

وقال :

يزهّــدُنى فى حبّ عَبْــدة مَعْــشَرٌ * قلوبهُــم فيهــا مخالِفــةٌ قلبى
فقلتُ دعوا قلبى وما ٱختار وٱرتضى * فبالقلبِ لا بالعين يُبْصر ذُو الحبّ
فما تبصر العيْنان فى موضع الهوى * ولا تسمع الأذُنان إلا من القلب
وما الحسنُ إلا كلّ حسن دعا الصبا * وألّف بين العشق والعاشق الصبّ

وقال :

يا قلب مالى أراك لا تَقِــرُ * إيّاك أعنى وعنــدك الخَــبَرُ
أذعت بعد الألى مضوْا حُرَقًا * ما ضاع ما ٱسْتَوْدَعُوك إذ بَكَروا

وقال :

إن سُلَيْمى واللهُ يكلؤها * كالسُّــكْر يزداد على السُّكْر
بلِّغتُ عنها شــكلا فأعجبنى * والسَّــمعُ يكفيك غَيْبةَ البَصَر

وقال وقد مدح المهدىّ فحرمه :

خليلىّ إن العُسْرَ سوف يُفِيق * وإن يَسَــارا فى غــد لخَلِيق
وما كنتُ إلا كالزمان اذا صحا * صحوتُ وإن ماق (١) الزمان أموق
أأدْمَاء لا أسطيع فى قــلّة الثرا * خُزُوزًا ووَشْــيا والقليل محيق
خذى من يدى ما قل إن زماننا * شَمُوسٌ ومعروفُ الرجال رقيق
لقد كنتُ لا أرضى بأدنى معيشة * ولا يَشْتكى بخــلًا علىّ رفيق

(١) ماق : حمق فى غباوة .

خليلىّ إن المـال ليس بنـافع * اذا لم يَنَـلْ منه أخٌ وصديق
وكنتُ اذا ضاقت علىّ مَحَـلّة (١) * تيمّمْتُ أخرى ما علىّ تضيق
وما خاب بين الله والناس عامل * له فى التقى أو فى المحامد سُوق
ولا ضاق فضلُ الله عن متعفِّف * ولكنّ أخلاقَ الرجال تَضِيق

هجا بشّار يعقوب بن داود وزير المهدىّ فقال :

بنى أميّـــةَ هُبُّوا طال نومُكم * إن الخليفـة يعقوب بن داود (٢)
ضاعَتْ خلافتُكم ياقوم فالتمسوا * خليفةَ الله بين النّـاى والعُود

فاتهمه عند المهدىّ بالزندقة وقال : إنّه قد هجا المهدىّ ، فأمر ، فضُربَ بالسياط حتى مات .

---

(١) المحلة : منزل القوم . (٢) أصله من الموالى ، وقد استوزره الخليفة المهدى وسلمه الأمور كلها وآشتغل هو باللهو .

٢ — حَمّادُ عَجْرَد (١)

(٢) « ولو أنّى أحببتُ أن أشخّص حَمّادا لوصفتُه قبل كل شيء بحدّة الطبع، وسُوء الخُلُق، وحب الانتقام، والإسراع إليه، ثم بالصراحة فى القول، والملاءَمة بينه و بين العمل، و بِكُرهِ النِّفاق والانصراف عنه، لا يَعْنيه أرَضِى الناسُ عنه أم سَخِطوا عليه، ثم بحِدّةِ اللسان ومُضيّه و إقذاعه وكَلَفِه بفاحش القول و بحثه عن أسوئه وأقبحه، ثم بالسُّخْرِيَة من الناس وازدرائهم، لا على أنّه يَتّخِذُ ذلك فلسفةً وأصْلًا من أصول الحياة كالوَليد ومُطِيع وأبى نُوَاس، بل على أنّه يتّخذُ ذلك وسيلةً من وسائل الشعراء يَخْلُص بها كلّما ضاقتْ عليه المذاهبُ وأُخِذَتْ عليه، أو دعَتْه إلى ذلك حاجةٌ . لم يكن حمّادٌ يحفِلُ بما يحفِلُ به الناسُ من الوفاء والانصراف عن التناقُض، وإنما كان صديقًا مُخْلِصا حتى تبدو له حاجة أو تَسنَحَ له فرصةٌ أو تضطّره ضرورةٌ ، فإذا صَداقتُه قد استحالتْ إلى عَدَاء ، وإذا هو ليس أقلّ صِدْقًا وإخلاصًا فى العَدَاء منه فى المودة والحُبّ : فقد مدح يحيى بن زياد واتّخذه صديقًا ونال جَوَائزَه، ثم كان الخلافُ فهَجاه . وصادَق بَشّارا وصَافاه، ثم اختصما فلم يَعْرِفا فى الخصومة رحمة ولا رِفْقًا . وصافَى مُطيعًا وأحبَّه ومَدَحَه وأكثر فى الثناء عليه، ثم اخْتَصَما فى امرأةٍ مَرّةً وفى غلامٍ مرّةً أخرى ، فهَجَاه وأقْذَع فى هجائه . وكان على هذا كلّه يؤثر شعره وضروراته على البِرّ بالناس فى معاملتهم : هجا ذاتَ يومٍ رجلا يقال له حُشَيْشٌ وجعل اسمَه قافيةً لهذا الشعر وأراد أن يبالغ فى ذَمّه فشبّهه بِحُبَيْش، وكان بُحَيْشٌ هذا رجلًا من أهل البَصْرة

---

(١) هو حماد بن يحيى بن عمرو مولى عامر بن صعصعة . نشأ فى الكوفة ثم واسط . وعاصر الدولتين، لكنه نبغ فى الدولة العباسية بعد أن نادم الوليد بن يزيد الأموى . وجاء بغداد أيام المهدى ومعه مطيعُ بن إياس ويحيى بن زياد، وكلهم من المتهمين فى دينهم . وحماد من الشعراء المجيدين، وكان ماجنا ظريفا خليعا متهما فى دينه مرميا بالزندقة . وأدرك بشار بن برد وله معه أهاج فاحشة ، ولم يكن يهاب كبيرا ولا صغيرا، عالما كان أو خليفة . توفى سنة ١٦١ هـ . وتجد ترجمته فى الأغانى (ج ١٣ ص ٧٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١٦٥) والشعر والشعراء (ص ٤٩٠) والفهرست (ص ٩١) . (٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

وادِعًا لا يعرف حمّادًا ولا يعرفه حمّادٌ، فلما قرأ الرجلُ هذا الشعرَ جزِع له وسافرَ من البصرة حتى بلغ الكوفةَ فعاتَب حمّادًا ، فقال له حماد ضاحكًا معتذرًا : لا بأسَ عليك فإن هذا من آثام القافية ولن أعود إليه » .

وكان السبب فى مُهَاجَاةِ حماد وبشّار أن حمّادًا كان نديما لنافِـع بن عُقْبة، فسأله بَشّار تَنْجِيزَ حاجة له من نافع فأبطأ عنها، فقال بشّارٌ فيه :

مَوَاعِيــدُ حَمّادٍ سَماءٌ مُخِيـلَةٌ * تَكَشَّفُ عن رَعْدٍ ولكن سَتَبْرُقُ

اذا جئتَه يــوما أحالَ على غَدٍ * كما وَعَدَ الكمّون ماليس يَصْدُقُ

وفى نَافِـع عـنّى جَفَاءٌ وإنّنى * لأُطْرِقُ أحيانًا وذو اللبّ يُطْرِقُ

ولِلنَّقَرى(١) قومٌ فلو كنتُ منهمُ * دُعِيتُ ولكن دُونىَ البابُ مُغْلَقُ

ومازلت أستأنيك حتى حَسَرْتَنى * بوَعْدٍ كَجَارى الآلِ يَخْفَى ويَخْفُقُ

فغَضِب حمّادٌ وأنشَد نافعًا الشعرَ فمنع بشارا، فقال بشّار :

أبا عُمَــرٍ مافى طِلابِيــكَ حَاجَةٌ * ولا فى الذى مَنّيْتَنَا ثم أصْحَــرا

وَعدتَ فلم تَصْدُق وقلتَ غَدًا غدًا * كما وعَد الكمّـــون شربًا مؤخّرا

فكان ذلك سببَ التهاجى بين بشّار وحمّـاد . وكان بشّارٌ يرمى حمادًا بالزندقة ، وفى ذلك يقـــول :

ابنَ نهى رَأسٌ علىّ ثَقِيلُ * واحتمالُ الرءوس خَطْبٌ جليلُ

أُدْعُ غــيرى إلى عِبَادةِ الاثْنَيـ * ـنِ فإنى بواحد مشــغولُ

يابنَ نهى بَرِئْتُ منـــك إلى الله جهارًا وذاك مـــنّى قليـــل

فأشاع حمّادٌ هذه الأبيات لبشّار، وجَعل فيها مكان : « فإنى بواحدٍ مشغول » « فإنى عن واحد مشغول » ليصحّ عليه الزندقة والكفر بالله تعالى . فما زالت الأبياتُ تدور فى الناس حتى انتهتْ الى بشّار ، فاضــطرب منهـا وجزِع وقال : أشاط ابنُ الفَاعِلةِ بدَمِى، والله ما قلتُ إلا « فإنى بواحد مشغول » فغيّرها حتى شُهِرتْ فى الناس .

(١) النقرى : الدعوة الخاصة .

كان رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حمّاد وبشار على آتفاقٍ منهما وَرِضًا بأن ينقُل إلى كل واحد منهما وعنه الشعرَ، فدخَل يومًا الى بشّار فقال له : إيه يا فلانُ ، ما قال آبن الفاعلة؟ فأنشَدَه :

إن تاه بشّارٌ عليكم فقد * أمكنتُ بشّارًا من التِّيهِ

فقال بشّار : بأىّ شىءٍ ويحك؟ فقال :

وذاك إذ سمّيتُه باسمه * ولم يكن حُرًّا نُسَمِّيه

قال : سَخِنَتْ عينُه ، فبأىّ شىء كنتُ أُعْرَف! إيه ، فقال :

فصار إنسانًا بذكرى له * ما يبتغى من بعد ذِكْرِيه!

فقال : ما صَنَع شيئا ، إيه ويحك! فقال :

لم أهْجُ بشّارا ولكنّنى * هجوتُ نفسى بهِجَائِيه

فقال : على هذا المعنى دار وحوله حام . وتمامُ الأبيات :

لم آتِ شيئًا قطّ فيما مضى * ولستُ فيما عشتُ آتيه

أسوأ لى فى الناس أُحْدُوثةً * من خَطَا أخطأتُه فيه

فأصبح اليومَ لِسَبِّى له * أعظمَ شأنًا من مَوَالِيه

وقال بشّارٌ لراويةِ حمّاد : ما هجانى به اليومَ حمّاد؟ فأنشده :

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عنّى الـ * ـذى والدُه بُرْدُ

فقال : صَدق آبنُ الفاعلة فما يكون ؟ فقال :

إذا ما نُسِبَ الناسُ * فلا قَبْلٌ ولا بَعْدُ

فقال : كذَب ، أين هذه العَرَصَاتُ من عُقَيْلٍ! فما يكون؟ فقال :

وأعمى قَلْطَبَانٌ[1] ما * على قاذِفِه حَدُّ

(١) القلطبان : الذى لا يغار.

فقال : كذب، بل عليه ثمانونَ جَلْدةً، هيه، فقال :

وأعمى يُشْـــبِهُ القِرْدَ * إذا ما عَمِيَ القِـــرْدُ

فقال : والله ما أخطأ حين شبّهني بقردٍ، حَسْـبُك حَسْبُك ! ثم صفّق بيـديه وقال : ما حيلتي ! يراني فيُشَبّهني ولا أراه فأُشبّهه . وتمامُ الأبيات :

دَنِيٌّ لم يَـــرُحْ يومًا * الى مَجْـــدٍ ولم يَغْـــدُ
ولم يَحْضُر مــع الحُضَّا * رِ في خَيْرٍ ولم يَبْـــدُ
ولم يُخْشَ لـــه ذَمٌّ * ولم يُـــرْجَ له حَمْـــدُ
جَرَى بالنَّحْس مُذْ كان * ولم يَجْـــرِ له سَـــعْدُ
هو الكلبُ اذا مات * فلم يُـــوجَد له فَقْـــدُ

وقال عليّ بن مَهْدىّ : أجمع علماء البصرة أنه ليس فى هجاء حمّاد عَجْرد لبشّار إلا أربعون بيتًا معدودة، ولبشّار فيه من الهجاء أكثرُ من ألف بيتٍ جيّدٍ . وكلُّ واحدٍ منهما هو الذى هتك صاحبَه بالزّندقة وأظْهَرها عليه، وكانا يجتمعان عليها، فسقَط حمّادٌ وهُتِك بفضل بلاغة بشّار وجَوْدة معانيه، وبَقِي بشّار على حاله لم يسقُط، حتى عُرِف مذهبُه فى الزندقة فقُتِل به .

ومن أغلَظ ما هَجا به حمّادٌ بشارًا :

نَهَـــارُه أخبثُ من ليـــله * ويومُه أخبثُ من أَمْسِه
وليس بالمُقْلِـــعِ عن غَيّه * حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسِه

كان حمّادٌ صديقا ليحيى بن زياد، فأظهر يحيى تَوَرُّعًا وقراءةً ونُزُوعًا عمّا كان فيه وهجر حمادًا وأشباهَه، فكان اذا ذُكر عنده ثَلَبَه وذكر تهتُّكه ومُجُونه ؛ فبلَغ ذلك حمادًا فكتب اليه :

هَلْ تَذْكُرَنْ دَلَجِي اليـ * ـك على المُضَمَّرة القِلاص
أيامَ تُعطيـــني وتأ * خُذُ من أباريق الرّصَاص
إن كان نُسْكُك لا يتِـ * ـمُّ بغير شَتْمِي وانتقاصي
أو كنتَ لستَ بغير ذا * ك تنَـــال منزلةَ الخَلاص

فعليــك فاشــتم آمنًــا * كلّ الأمان من القصاص
وأقعــد وقم بى ما بدا * لك فى الأدانى والأقاصى
فلطالمــا زكّيتنى * وأنا المقيــم على المعاصى
أيام أنت اذا ذكــر * ت مناضلٌ عنّى مناصى (١)
وأنا وأنت عــلى ارتكا * ب الموبقات من الحراص
وبنــا مواطــن ما بنا * فى البرّ آهــلةٌ العــراص

فاتّصل هذا الشعرُ بيحيى بن زياد، فنسب حمّادا الى الزندقة ورماه بالخروج عن الإسلام؛ فقال حمّاد فيه :

لا مؤمنٌ يعــرف إيمانُه * وليس يحيى بالفتى الكافرِ
منــافقٌ ظاهرُه ناســكٌ * مخالفُ الباطنِ للظاهرِ

كان حمّادٌ صديقا لحُرَيْث بن أبى الصَّلْت الثّقفىّ، وكان يعيبه بالبخل، وفيه يقول :

حُرَيثٌ أبو الفضلِ ذو خبرةٍ * بما يُصلِحُ المعِدَ الفاسده
تخوّفَ تخمــةَ أضــيافه * فعوّدهم أكلةً واحــده

ومن قوله :

ألا قل لعبد الله إنّك واحــدٌ * ومثلُك فى هذا الزمانِ كثيرُ
قطعتَ إخائى ظالمًا وهجــرتنى * وليس أخى من فى الإخاء يجور
أديم لأهــل الودِّ ودّى وإنّنى * لمن رام هجرى ظالمًا لهجُــور
ولو أن بعضى رابنى لقطعتُــه * وإنى بقطع الرائبين جــدير
فلا تحسبنْ منحى لك الودّ خالصا * لعــزٍّ ولا أنّى إليــك فقــير
ودونك حظّى منك لستُ أريده * طوالَ الليــالى ما أقام ثبــير (٢)

(١) مناص : مدافع، من قولهم ناصاه مناصاة : أخذ كل بناصية صاحبه . (٢) ثبير : اسم جبل .

كان حمّادٌ صديقا لحفص بن أبى بُردة ، وكان حفصٌ أعمش أفطس أعضب مُقبّح الوجه، فاجتمعوا يوماً على شراب وجعلوا يتناشدون ويتحدّثون ، فأخذ حفصٌ يطعن على مُرقّش ويعيبُ شعره ويلحّنه، فقال له حمّاد :

لقد كان فى عينيك يا حفصُ شاغلٌ * وأنفِ كثيلِ(١) العَوْدِ عمّا تتبّعُ
تتبّعُ لحنًا فى كلام مُرقّشٍ * ووجهُك مبنيٌّ على اللحن أجمعُ
فأذناك إقواءٌ وأنفُك مُكفأٌ * وعيناك إيطاءٌ فأنت المُرقّعُ

ومن قوله :

إنّى أحبُّك فاعلمى * إن لم تكونى تعلمينا
حبًّا أقلُّ قليله * بجميع حبِّ العالمينا

وأنشد بشّارٌ قولَ حمّاد عجرد :

أخى كُفّ عن لومى فإنّك لا تدرى * بما فعل الحبُّ المبرّح فى صدرى
أخى أنتَ تلحانى وقلبُك فارغٌ * وقلبى مشغولُ الجوانح بالفكر
دوائى ودائى عند من لو رأيته * يقلّبُ عينيه لأقصرتَ عن زجرى
فأُقسم لو أصبحتَ فى لوعة الهوى * لأقصرتَ عن لومى وأطنبتَ فى عُذرى
ولكن بلائى منك أنّك ناصحٌ * وأنّك لا تدرى بأنّك لا تدرى

فطرب بشّارٌ ثم قال: ويلكُم أحسن والله! مَنْ هذا؟ قالوا: حمّاد عجرد، قال: أوّهْ وكلتمونى والله بقيّة يومى لهمٍّ طويل ، والله لا أطعَمُ بقيّة يومى طعاما، ولأصومنّ غمًّا بما يقول النّبطىّ مثل هذا .

قال محمدُ بن الفضل السّلولىّ: لقيتُ حماد عجرد بواسط وهو يمشى وأنا راكبٌ، فقلتُ له : انطلق بنا الى المنزل، فإنى الساعةَ فارغٌ لنتحدّث، وحبستُ عليه الدّابّة، فقطع شُغلٌ عرض لى لم أقدر على تركه، فمضيتُ وأُنسيتُه، فلما بلغتُ المنزل خفتُ شرّه فكتبتُ اليه :

(١) الثيل : وعاء قضيب البعير، والعود : البعير .

أبا عُمَــرَ ٱغْفِرْها هُــدِيتَ فإنّنى * قــدَ ٱذْنَبْتُ ذَنْبًا مخطِئًا غيرَ عامِد
فلا تجِدَنْ فيــه علىّ فإنّنى * أُقِرُّ بإجْــرامى ولستُ بعائد
وهَبْــه لنا تَفْــديك نفسى فإنّنى * أرى نِعْمَةً أن كنتَ لستَ بواجِد
وعُدْ منك بالفضل الذى أنتَ أهلُه * فإنك ذو فضــلٍ طَريفٍ وتالد

فأجابنى عن الأبيات :

محمَّدُ يا أبَا الفضــلِ ياذا المحامِد * ويابهجةَ النادى وزَيْنَ المَشاهد
وحقِّك ما أذنبتَ منذ عرفتَنى * على خطأ يوما ولا عَمْدِ عامد
ولوكان ما ألفيتنى متسرّعا * اليك به يومًا تَسَرُّعَ واجــد (١)
ولوكان ذوفضلٍ يُسَمّى لفضله * بغير ٱسمــه سُمِّيتَ أمَّ القلائد

فبينْا رقعتُه فى يدى وأنا أقرؤها اذ جاءنى رسولُه برقعة فيها :

قد غَفَرْنا الذنبَ يابنَ الـ * ـفضــلِ والذنبُ عظيمُ
ومُسِيءٌ أنتَ يابن الـ * ـفضــلِ فى ذاك مُليمُ
حين تخشانى على الذنـ * ـبِ كما يُخْشَى اللئيمُ
ليس لى إن كان ما خِفْـ * ـتَ من الأمر حريمُ
أنا والله ولا أفـ * ـخَرُ للغيظ كَظُوم
وبأصحابى ولا ريـ * ـبَــةَ بَرٌّ ورحــيم
وبمـا يُرْضــيهمُ عنّـ * ـى ويُرْضينى علــيم

كان عثمان بن شَيْبَة مُبَخَّلا وكان حمّاد يهجوه ، فجاء رجل كان يقول الشعرَ الى حماد فقــال له :

أغنِّى من غِناك ببيْت شِــعْرٍ * على فقرى لعثمان بن شــيبه

فقــال :

فإنك إن رَضِيتَ به خليــلًا * ملأتَ يديْك من فقر وخَيْبه

(١) أى لوكان لك ذنب ما صادفتنى مسرعا اليك بالمكافأة .

فقال له الرجل : جَزاك اللهُ خيرا فقد عرّفتنى من أخلاقه ما قطّعنى عن مدحه وصفت وجهى عنه .

لما مات محمدُ بن أبى العباس طلّب محمد بن سليمان حمادَ عجرد لما كان يقوله فى أخته زينب من الشعر ، فعلم أنه لا مُقامَ له معه بالبصرة ، فآستجار بقبر أبيه سليمان بن على وقال فيه :

مِنْ مُقِرٍّ بالذنب لم يُوْجِب اللـ * ـهُ عليه بِسَيِّئٍ إقْرارا
ليس إلا بفضل حلمك يَعْـ * ـتَدّ بلاءً وما يعُدّ آغترارا
يا ابنَ بنتِ النبيّ أحمدَ لا أجـ * ـعَلُ إلا اليك منك الفِرارا
غيرَ أنّى جعلتُ قبرَ أبى أيّو * بَ لى من حوادث الدهر جارا
وحَرِىٌّ من آستجار بذاك الـ * ـقبرِ أن يأمَنَ الرَّدى والعِثارا
لم أجِد لى من العِباد مُجيرا * فآستجرتُ الترابَ والأحجارا
لستُ أعتاضُ منك فى بُغْيَة العـ * ـزّة قَحْطَانَ كلّها أو نِزارا
فأنا اليومَ جارُ من ليس فى الأر * ض مُجِيرٌ أعزُّ منه جِوارا
يا ابنَ بنتِ النبيّ يا خيرَ من حطّـ * ـتْ اليه الغَواربُ الأكْوارا
إن أكن مذنبًا فأنتَ آبنُ من كا * ن لمن كان مذنبًا غفّارا
فآعفُ عنّى فقد قَدَرْتَ وخيرُ الـ * ـعفو ما قلتَ : كُن ، فكانَ آقتدارا
لو يُطيلُ الأعمارَ جَارٌ لعزٍّ * كان جارى يُطَوِّل الأعمارا

فقال : والله لأُبَلِّنّ قبرَ أبى من دمه ، فهرب حمّاد إلى بغداد ، فعاذ بجعفر بن المنصور فأجاره ، وقال : لا أرضى أو تهجوَ محمد بن سليمان ، فقال يهجوه :

قل لوَجْه الخَصِىّ ذى العار إنى * سوف أُهدى لزينبَ الأشعارا
قد لَعَمْرى فرَرْتُ من شدّة الخو * ف وأنكرتُ صاحبىّ نَهارا
وظننتُ القبورَ تمنع جَارًا * فاستجرتُ الترابَ والأحجارا

كمتُ عند آستجارتى بأبى أيّـ * ـوب أبْغى ضَـلالةً وخَسارا
لم يُجِرْنى ولم أجِد فيـه حظًّا * أضْـرَم اللهُ ذلك القبر نارا

فبلغ هجاؤه محمدَ بن سليمان فقال : والله لا يُفْلِتُنى أبدا ، وإنما يزداد حَتْفًا بلسانه! ولا والله لا أعفو عنه ولا أتغافل أبدا .

ومن قوله :

إن الكريمَ ليخفِى عنك عُسْرَته * حتى تراه غَنِياًّ وهو مَجْهُود
وللبخيل على أمواله عِلَلٌ * زُرْقُ العيون عليها أوجُهٌ سُود
إذا تكرّمتَ أن تُعطى القليلَ ولم * تَقْدِر على سَعَةٍ لم يَظْهَر الجُود
أَبْرِقْ بخير تُرَجَّى للنوال فما * تُرْجَى الثمارُ إذا لم يُورِق العُود
بُثَّ النّوالَ ولا تَمْنَعْك قِلّتُه * فكُلُّ ما سَدّ فقرًا فهو محمود

وقال أيضا :

كَمْ من أخٍ لك لستَ تُنْكِرُه * ما دمتَ من دنياك فى يُسْر
مُتَصنِّع لك فى مَوَدّته * يلقاك بالترحيب والبِشْر
يُطرى الوفاءَ وذا الوفاء ويَلْـ * ـحَى الغَدْر مجتهدا وذا الغدر
فإذا عدا ، والدّهرُ ذو غِيَرٍ ، * دهرٌ عليك عَدَا مع الدهر
فارْفُضْ بإجمالٍ مودّةَ مَنْ * يَقْلِى المُقِلَّ ويَعْشَقُ المُثْرِى
وعليك مَنْ حَالاه واحِدةٌ * فى العُسر إمّا كنت واليسر
لا تَخْلِطَنّهُمُ بغيرهمُ * من يَخْلِطُ العِقيانَ بالصُّفْر!

وهو القائل فى محمد بن طلحة :

زرتُ آمرأً فى بيته مرةً * له حَياءٌ وله خِيرُ
يَكره أن يُتْخِمَ إخوانَه * إنّ أذَى التُّخْمة محذور
ويَشْتَهِى أن يُؤْجَروا عنده * بالصَّوْم والصائمُ مأجورُ
ياابنَ أبى شُهْدَةَ أنتَ آمرؤٌ * بصحّة الأبدان مسرور

وهو القائل فى محمد بن أبى العبّاس السّفاح :

أرجوك بعد أبى العباس إذ بَانا * يا أكرمَ الناس أعْرَاقا وأغصانا
او مَجّ عُودٌ على قـــوم عُصَارتَه * لَمجَّ عودُك فينا المِسْك والبَـانا

قيل : إن حمادا مضى الى الأهْوَاز ، فأقام هناك مُسْتَتِرا ، وبلَغ محمدا خبرُه فأرسل مولى له الى الأهواز، فلم يزل يطلبُه حتى ظفر به فقتلَه غِيلَةً . وقيل : إنه خرج من الأهواز يريد البصرة، فمر بسُيرَاز فى طريقه، فمرض بها، فاضْطُرّ الى المقام بسبب علّته، فاشـتدّ مرضُه فمات هناك ودُفِن على تَلْعَـةٍ . وكان بشّارٌ بلغه أن حمادًا عليـلٌ ، ثم نُعِيَ اليه قبل موته ، فقال بشّـار :

لو عاش حمّـاد لهَوْنا به * لكنّه صار الى النّـار

فبلغ هذا البيتُ حمادًا قبل أن يموت وهو فى السِّياقِ(١)، فقال يردّ عليه :

نُبِئتُ بشّارًا نَعَـانى ولل * ـموتِ برَانى الخالقُ البارى
يا ليتَنى مِتُّ ولم أهْجُـــه * نَعَم ولو صِرتُ الى النّـار
وأىّ خِزْىٍ هو أخزى من آن * يُقـال لى يَا سِبُّ(٢) بشّـار

فلما قتل المهدىّ بشارًا بالبَطيحَة آتّفق أن حُمِل الى منزله مَيّتًا ، فدُفِن مع حمّاد على تلك التَّلْعَـةِ ، فمَرّ بها أبو هِشام البَاهِلىّ الشـاعر البصرى الذى كان يُهاجى بشارًا ، فوقَف على قبريهما فقـال :

قد تَبِـع الأعمى قفا عجـرد، * فأصبحا جارَيْنِ فى دار
قالت بِقاعُ الأرض لا مَرْحباً * بقُـــرْب حمّـادٍ وبشّار
تَجَـاوَرا بَعْـــد تَنَائِيهما * ما أبغضَ الجارَ الى الجار
صـارا جميعا فى يَدَىْ مالك * فى النارِ والكافرُ فى النار

---

(١) السياق : الاحتضار . (٢) السب : الكثير السباب .

٣ — مَرْوان بن أبى حَفْصة (١)

« لم يكن مَرْوانُ (٢) متصرِّفا فى فنون الشعر، ولعله لم يَعْدُ منها فنًّا أو فنَّين؛ فلسنا نعرف له غَزَلا إلا هـذا الغزل الذى تعوّد الشعراءُ أن يبدءوا به مدائحَهم؛ ولسنا نعرف له هجاءً إلا هذا النحوَ من الهجاء الذى يضطر اليه الشعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم . على أنّ موقف مروان كان فى هذا دقيقا جدا، فهو لم يكن ينصُر بنى العباس على بنى أميّة فيبلغُ منهم ما يريد، ويهجوهم فى حُرّية؛ وإنما كان السيف هو الذى انتصر للعباسيين من بنى أمية، وكان العباسيون فى حاجة الى مَن ينصرهم على العَلَويِّين وأتباعهم من بنى هاشم، ولم يكن هجاء العلويِّين يسيرا ! كان الدّين يأباه فى ذلك الوقت، وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضا، فالعلويُّون من بنى هاشم وهجاؤهم هجاءٌ للعباسيين؛ ومن هنا سلك مَرْوان وأمثالُه من الشعراء السياسيين الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين مسلكَ الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقَذْف، فكان دفاعهم أبلغ، وكانت مناظراتهم أحسنَ وقعًا من هجاء أولئك الشتّامين المسرفين فى الشتم؛ ثم لا نعرف

---

(١) هو من الشعراء الموالى أصل جده من سبى اصطخر، وكان غلاما اشتراه عثمان بن عفان ووهبه لمروان بن الحكم، وأقام بعدئذ باليمامة، وقد اختلفوا فى حقيقة نسبه . شب مروان على كره الشيعة لأنه من موالى بنى أمية وقد حارب معهم، وكان شجاعا مجرّبا، فلما نبغ فى الشعر قدم بغداد ومدح المهدى ثم الرشيد، وكان يتقرّب اليه بهجاء العلويين، وهو من الفحول المقدّمين، أوّل من شهره ونوّه به معن بن زائدة الجواد المشهور بقصيدة نونية مدحه بها، مطلعها :

معن بن زائدة الذى زيدت به * شرفا على شرف بنو شيبان

ولكنه اشتهر على الخصوص بقصيدة لامية مدح بها معنا مطلعها :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم * أسود لهم فى بطن خفان أشبل

فأجازه عليها بمال كثير، فكان كلما زاده معن عطاء زاده مروان مدحا . توفى سنة ١٨١ هـ . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٩ ص ٣٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٠) والشعر والشعراء (ص ٤٨١) وخزانة الأدب (ج ١ ص ٤٤٧) والفهرست لابن النديم (ص ١٦٠) .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لمروان مُجُونا ولا عَبَثا ، فلم يكن كما قلنا ماجنا ولا عابثا وإنمـا كان بخيلا ، والبخل والعبث شيئان لا يتفقان ، ومن ضنَّ على نفسه باللحم وطيِّبات الطعـام لم يستبح لنفســه خمرا ولا ما تستتبعه الخمر . ثم لا نعرف لمروان فخـرا وما نَحْسَب أنه فاخر أو مال الى الفخر ، فقـد كان رجلا عمليًا يَعْنيه أن يظفَر بالمكانة والثروة وكان يضَنّ بوقته وجُهْده على الفخر الذى لا يفيد . لم يَعْرِض إذنْ إلا لفنَّين آثنين : المدح والرِّثاء ، وهو فى المدح أشعر منه فى الرثاء وهذا طَبَعِىٌّ ، فهو راغبٌ حين يَمدح ، يطلب المـال ويحرِص على أن يظفَر به ، فمعقولٌ أن يُجيد وأن يبلُغ من الإجادة حظًا عظيما ؛ أما فى الرثاء فهو لا يرغَب ولا يطلب مالا وإنمـا يَفِى بعهـد ويشكر صنيعة . ومعقولٌ أنّ موقفه هـذا لا يدفعه الى الإجادة إلّا أن يكون حسّاسا دقيقَ الشعور راقِىَ النفس ، ولم يكن مروان من هـذا كله فى شىء ، وإنمـا كان كما قلتُ لك رجلا عمليًا يريد المـال . على أنّ رثاءه لمَعْنٍ ليس بالردىء وكذلك رثاؤه للهدىّ ، وهل نستطيع أن نَعُدّ رثاءه للهدى رثاء ! هو مدح لأنه عَزاء للخليفة الجديد ، ففيه ذكر للخليفة الراحل ، والثناء على وارثه ، وفيه المَثُوبة والعطاء . فهو الى المدح أقرب منه الى الرثاء .

أما مَدْح مروان فمن آيات المدح العربىّ ، ونحن لا نحفظ منـه إلا متفرّقات قليـلة ولكنها تكفى لنحكم أنّ مروان كان قد أتقنَ المدح وبرّع فيه ، بل نحسب أنه برَّز فى هـذا الفنّ على غيره من المعاصرين ، ولكنّ مَدْح مروان ينقسم الى قسمين متمايزين :

أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف ، وهو موجّه لمعن بن زائدة ، فهو يَفْتَنّ فى وصف مَعْن بالجود والكرم والشجاعة والحبّ ، ثم يفتنّ فى مدح بنى شَيْبان الذين ينتمى اليهم معن ، وهو لا يخرج فى مدحه هذا عن سُنّة الشعراء من قبله ، ولكنه جيّد المعانى مُنتقاها ، حَسَن الألفاظ صافيها .

وأما القسم الثانى فهو هـذا المدح السياسىّ الذى كان يُنْشِده الخلفاءَ من بنى العباس ، وهو مدح إن شئتَ ولكنه يمتـاز عن المدح المعروف بمـا فيه من هـذا النضال السياسىّ

الذى كان يحتاج الى مهارة وفطنة ودقّة وخفّة ، والذى كان يضطر صاحبه الى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، والى أن ينصُر العباسيّين دون أن يزدرى خصومَهم ، وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويّين لا لأنه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد ، بل لأنه كان خصما قويّا عنيدا ماهرا فى الخصام .

ثم هناك شيئان لا بدّ من الإشارة اليهما ليكمُل رأينا فى مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معلّلا إن صحّ هذا التعبير :

الأول : أنّ مروان لم يكن عِراقيّا ولم يرض الإقامة فى العراق ولم يُطل عِشْرة العراقيّين من أهل المُجُون والعَبَث ، وإنما كان من أهل اليمامة أقامَ فيها لا يَبْرَحها إلا وافدا على أمير أو وزير أو خليفة ، فاذا أنشَد قصيدته وظَفِر بجائزته عاد الى اليَمامة وأقامَ فيها عَامَهُ ثم آستأنف الرحلة . ولهذا أثَرُه فى شعر مروان ، فهو أقربُ الى شعر الجاهليّين والإسلاميّين منه الى شعر المُحْدَثين من شعراء الحضارة العباسيّة ، تقرؤه فتجد عليه هذه المَسْحة التى تخلو أو تكاد تخلو من الدُّعابة والخِفّة ، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة ، يُمثِّل البادية تمثيلا صحيحا ، ولهذا أثَرُه من وجهة أخرى ، فقد رضِى علماء اللغة جميعا عن مروان وأحبّوه من هذه الناحية ، وما أشكّ أنا فى أنهم كانوا يودّون لو آستطاعوا إيثاره على بَشّار وأبى نُوَاس ، لأنه كان أقرب منهما الى الأسلوب البدوىّ القديم ، ولكن أنَّى لهم ذلك ! وقد سَلّط الله عليهم لسان بشار وأبى نواس فاضطروا الى أن يحابُوا هذين الشاعرين ويتملّقوهما ، وأجمعوا أو كادوا يُجمعون على تقديم بشار وإيثاره على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين اذا آتخذنا وِجْهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التى كان يُعْنَى بها علماءُ اللغة وهى وجهة المتانة والرصانة فى اللفظ والأسلوب ، لا يُقَاس الى مروان فى هذا أحدٌ من شعراء العراق ، أما اذا آتخذنا وِجْهةً أخرى للنقد ، اذا آتخذنا آختلافَ الفنون التى طَرَقها الشاعر ، وقُرْبَ المأخذ ، والدنوَّ من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس الى بَشّار ولا الى أبى نُوَاس بنوع خاص ؛ على أنّ من علماء اللغة من آستطاع أن يكون شجاعا شريفا فى فنّه لا يخاف

ولا يهاب فصَدَق نفسَه وصَدَق الناسَ ، وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين ، وهذا العالمُ اللغوىّ هو ابن الأعرابىّ الذى ختم الشعر بمروان وأبى أن يدوّن لأحد من المحْدَثين بعده ، والذى كان يُنشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيّدة من شعر مروان ، وهى :

بَنُــو مَطَرٍ يومَ اللقـاءِ كأنهــم * أُسودٌ لها فى بَطْن خَفَّانَ أَشْــبُلُ
هُمُ يمنعــون الجار حــتى كأنّمـا * لجارهمُ بين السِّماكَيْنِ مَــنْزِلُ
لَهَامِيمُ[1] فى الإسلام سادُوا ولم يكن * كأوّلهم فى الجاهليّــة أوّلُ
هُمُ القومُ إنْ قالوا أصابوا وإنْ دُعُوا * اجابُوا وإنْ أَعْطَوْا أَطابُوا وأَجْزَلُوا
ولا يسـتطيع الفاعلون فَعَالَهم * وإنْ أحسنوا فى النائبات وأجملوا

وكان ابن الأعرابىّ يقول : لو أنّ مَعْنًا أعطى مروان كلّ ما يملك بهذه الأبيات لَمَـا بلغ حقّه .

الثانى : أنّ مروان لم يكن سريعا فى الشعر ولا متعجّلا ولا مسترسلا مع الطبع وإنمـا كان بطيئا متمهّلا . كان يجيد الشعر لأنه كان يُجَوِّده . كان يسلك هذه الطريقة التى يزعُم الرُّواة أنّ زُهَيرا كان يسلكها فى هذه القصائد التى يُسَمُّونها الحَوْليّات ، كان يُنْفق أَشْهُرًا فى إنشاء القصيدة وأشهرا فى إصلاحها وأشهرا فى عَرْضها حتى اذا استقام له هــذا كلُّه أنشد قصيدته لممدوحه خليفــةً كان أو وزيرا أو أميرا ، فليس عجيبا مع هذه الأَناة أن يخلو شعره ممــا يُسْتَنكَر وأن يبرأ من الضعف والوحشية معا . ولقد يُحَدّثنا الرواة بطائفــة من أخبــار مروانَ مع اللغويين والشــعراء الذين كان يَعْرِض عليهم شعرَه قبل أن يُنْشــده الخلفاءَ . ولستُ أُشير إلّا إلى سيرته مع بَشّار فلها معناها . كان مروان يعرض القصيدة على بشّار ويسأله رأيه فيهـا فلا يجيبه بشار بأنها جَيِّــدة أو بأنها رديئة ، بل يُقَدِّر له قيمــة القصيدة ماليًّا ، فيقول : سيعطونك عليها كذا وكذا ... وقد صــدق بشار مرّتين فأظهر له مروانُ العَجَبَ من ذلك ، فقال بشار : ألم أقل لك إنى أعلم الغيب ! ولم يكن يعلم الغيب ،

---

(١) لهاميم واحدها لهموم ، وهو العظيم الكثير الخير .

وإنما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم الميول السياسية التى كان من شأنها أن تُجْزِل حظّ مروان من العطاء .

كان مروان متناقضا ولكنه تناقُضٌ مفهوم، كان شديدَ الحرص على الإجادة، فكان يشكّ فى شعره، ويستشير فيه الشعراء والنُّحاة، ولكنّه كان مع ذلك مُعجَبا بنفسه لا يقدِّم عليها أحدا بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجرير . وٱسمعْ رأيه فيهم وفى نفسه، فقد عَقَده شعرا لِيُثْبِتَ كما يقول :

ذَهَبَ الفَرَزْدَقُ بالفَخَار وإنَّما * حُلْوُ القَرِيض ومُرُّهُ لِجَرِيرِ
ولقد هَجَا فأمضَّ أخطلُ تَغْلِبٍ * وحَوَى اللُّهَى ببيانه المشهور
كُلُّ الثلاثة قد أجادَ فمدحُه * وهجاؤه قد سارَ كلَّ مَسِير
ولقد جَرَيتُ ففُتُّ غير مهلَّل * بجِرَاءٍ لا قَرِف ولا مبهور
إنى لآنف أنْ أُحبِّر مِدْحة * أبدًا لغير خليفة ووزير
ما ضرّنى حَسَدُ اللئام ولم يزَل * ذو الفضل يَحْسُده ذوو التقصير

أما رأْيُ مروان فى النقد فبديع، كان يُنشِد الشعر لأمرئ القيس ويقول : هو أشعرُ الناس، ثم ينشد شعر الأعشى ويقول : هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر زهير ويقول : هو أشعر الناس، حتى اذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء، فرآهم جميعا أشعرَ الناس ، قال ضاحكا : الناس أشعر الناس ! ولست أعرف رأيا كهذا الرأى يمثّل الشك فى نقد الناقدين المعاصرين والسخرية بهذا النقد» .

ونتقل من ذاك الوصف الرائع الى ذكر نبذة صالحة من أخباره وأشعاره .

دخل مروان بن أبى حَفْصة على المهدىّ بعد وفاة مَعْن، فأنشده مديحا فيه، فقال له المهدى : ألستَ القائل :

أقَمْنا باليمامة بعْدَ مَعْنٍ * مُقاما لا نُريدُ به زَوالَا
وقلنا أين نَرْحلُ بعد مَعْنٍ * وقد ذهب النوالُ فلَا نَوالا

قد ذهب النوال فيما زعمتَ، فلِمَ جئتَ تطلب نوالنا؟ لا شيء لك عنـدنا . فلمـا كان من العام المقبل تلطّف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة، فمثَل بين يديه، وأنشد — بعد رابع أو خامس من الشعراء — :

طَرقتْكَ زائرةً فحَيِّ خيالَهـا * بيضاءُ تخلِـط بالجمـال دَلالها
قادتْ فؤادَكَ فاستقادَ ومثلُها * قادَ القلوبَ الى الصِّبا فأمالها
فكأنّما طَرَقتْ بنفحة رَوْضةٍ * سَحَّت بها دِيَمُ الربيـع طِلالَها
باتتْ تسائل فى المنام مُعرِّسًا * بالبيدِ أشعَثَ لا يَمَلّ سؤالها
فى فِتيةٍ هجعوا غِرارا بعـد ما * سئِموا مُراعَشة السُّرى ومطالها
فكأنّ حَشْوَ ثيابهـم هنـديّةٌ * نحلتْ وأغفلتِ القيونُ صِقالَها
وضعوا الخدودَ لدى سواهِمَ جُنّحٍ * تشكو كُلومَ صِفاحها وكَلالَها
طَلَبتْ أميرَ المؤمنين فواصلتْ * بعـد السُّرى بغُدُوِّها آصالَهـا
نَزعتْ اليكَ صواديًا فتقاذفتْ * تطوى الفـلاةَ حُزُونَها ورمالَها
يتبعن ناجيـةً يَهُـزّ مِراحُها * بعـد النحول تَليلَها(١) وقَذالهـا
هوجاءَ تَدّرِع الرُّبا وتَشُـقّها * شقّ الشُّموس إذا تُراع جلالَها
تنجو(٢) إذا دَفَع القَطيعُ كما نجتْ * خرجاءُ(٣) بادرت الظلامَ رِئالهـا(٤)
كالقوس ساهمةً أتتك وقد تُرى * كالبُرْج تملأ رَحْلَها وحِبالهـا

وفيها يقول

هل تَطمِسون من السماء نُجُومَها * بأكفّكم أو تَسْتُرون هلالهـا
أو تجحَدون مقالةً عن ربّكم * جبريلُ بَلّغها النبيَّ فقالهـا
شَهِدَتْ من الأنفـال آخرُ آيةٍ * بتُراثهـم فأردتُمُ إبطالهـا

ومنهـا

أحيـا أميرُ المؤمنين محمدٌ * سُـنَنَ النبيّ حرامَها وحلالهـا
ملك تَفَـرّع نبـعةً من هاشم * مدّ الإلهُ على الأنام ظِلالَهـا
جبَـلٌ لأمّتـه تلوذ بركنه * رادَى جبالَ عدوّها فأزالهـا

(١) التليل : العنق . (٢) تنجو : تسرع . (٣) الخرجاء : النعامة . (٤) الرئال : فراخ النعامة واحدها رأل .

لم يَغْشَها مما يخاف عظيمةٌ * إلا أجال لها الأمورَ مُجَالَها
حتى يُفرِّجها أغرُّ مهذّب * أَلْفَى أباه مُفرِّجا أمثالَها
ثَبْتٌ على زَلَل الحوادث راكبٌ * من صَرْفهنّ لكل حالٍ حالَها
كلتا يديك جَعَلتَ فضلَ نوالِها * للمسلمين وللعدوّ وَبالَها
وقعَتْ مواقعها بعفوك أنفسٌ * أذهبتَ بعد مخافة أوجالَها
ونصبت نفسك خيرَ نفس دونها * وجعلت مالك واقيًا أموالَها
هل تعلمون خليفةً مِنْ قبله * أجرى لغايته التى أجرى لَها
طلَع الدروبَ مُشمِّرا عن ساقه * بالخيل مُنْصلتا يُجِدّ نعالَها
قُودٌ تَريع إلى أغرّ لوجهه * نورٌ يُضيء أمامها وخلالَها
قصُرتْ حمائله عليه فقَلّصتْ * ولقد تحفّظ قَيْنُها فأطالَها
حتى إذا وردتْ أوائلُ خيله * جَيْحانَ بثّ على العدوّ رِعالَها (١)
أحمى بلادَ المسلمين عليهمُ * وأباح سهلَ بلادهم وجبالَها
أدمتْ دوابرَ خيله وشكيمَها * غاراتُهنّ وألحقتْ آطالَها
لم يُبْقِ بعد مُغَارها وطرادها * إلا نَحائزَها (٢) وإلا آلَها
رفع الخليفةُ ناظرىّ وراشنى * بيد مباركة شكرتُ نَوالَها
وحُسِدتُ حتى قيل أصبح باغيا * فى المشى مُتْرَف شيمةٍ مُختالَها
ولقد حذوتَ لمن أطاع ومن عصى * نعلا ورِثتَ عن النبىّ مثالَها

فزحَف المهدىّ من صدر مُصلّاه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع ، ثم قال : كم هى؟ قال : مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانتْ أول مائة ألف درهم أُعطيَها شاعر فى أيام بنى العباس ، وهكذا فعل معه الرشيد لما أنشده قصيدته التى يقول فيها :

لَعَمْرُكَ ما أنسى غَداة المُحَصَّبِ * إشارة سَلْمَى بالبنان المُخَضَّبِ
وقد صدَر الحُجّاج إلّا أقلَّهمْ * مصادرَ شتى مَوْكِبا بعد مَوْكِب

(١) الرعال : القطع من الخيل واحدها رعلة . (٢) النحائز : الانساع .

قال مروان : دخلتُ على المهـدى فى قصر السلام، فلما سلّمت عليه وذلك بعقب سُخطه على يعقوب بن داود، فقلت : يا أمـير المؤمنين، إن يعقوب رجل رافضىّ، وإنه سمعنى أقول فى الوراثة :

أنّى يكونُ وليس ذاك بكائنٍ * لبَنى البناتِ وراثةُ الأعمـامِ

فذلك الذى حمله على عداوتى، ثم أنشدته :

كأنّـب أمير المؤمنين محمدا * لرَأفتـه بالنـاس للناس والدُ

فقال له المهدىّ : والله ما أُعطيك إلا من صُلْب مالى، فاعذرنى، وأمر لى بثلاثين ألف درهم وكسانى جُبّة ومُطْرَفا، وفرض لى على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفا أخرى .

لمـا قدِم مَعْن من اليمن دخل عليه مروان والمجلس غاصٌّ بأهله، فأخذ بعضادتى الباب وأنشأ يقول :

أرى القلبَ أمسى بالأوانس مولَعًا * وإن كان من عهد الصِّبا قد تمتّعا

ويقول فيها :

ولمـا سَرَى الهم الغـريب قريتُـه * قِرَى من ازال الشكَّ عنـه وأزمعا
عزمتُ فعجّلتُ الرحيل ولم أكن * كذِى أُوثة لا يطلع الهـمّ مطلعا
فأمت ركابى أرضَ مَعْنٍ ولم تزل * الى أرض مَعْنٍ حيثما كان نُزّعا
نجائب لولا أنهـا سُخّـرَت لنـا * أبتْ عِزّةً من جهلهـا أن تورّعا
كسونا رِحال المَيْس(١) منهـا غواربًا * تدارَك فيهـا النّىُّ(٢) صَـيْفا ومَرْبعا
فمـا بلغَتْ صَنْعاءَ حتى تواضَعتْ * ذُراها وزال الجهـلُ عنها وأقلعا

الى أن قال :

وما الغيثُ اذ عمّ البـلادَ بصَوْبه * على الناس مِنْ معروف مَعْنٍ بأوسعا
تَدارك مَعْنٌ قبّـةَ الدّين بعـدَ ما * خَشِينا على أوتادها أن تُنَزّعا

(١) الميس : شجر عظيم تتخذ منه الرحال . (٢) النىّ : الشحم .

أقام على الثَّغْـر المَخوف وهاشِمٌ * تُسَاقِى سِمـاما بالأسنّة مُنْقَعـا
مُقامَ آمرئٍ يأبى سوى الخُطّة التى * تكون لدى غِبّ الأحاديث أنفعا
وما أحجَم الأعداءُ عنـكَ بقيّـةً * عليكَ ولكن لم يَرَوْا فيكَ مَطْمعا
رَأَوْا مُخْدِرًا قد جرّبوه وعاينـوا * لَدَى غِيـله منهـم مَجَرًّا ومَصْرَعا
وليس بثانيـه اذا شـدّ أن يَرَى * لدى نحـره زُرْقَ الأسـنّة شُرّعا
له راحتان الغيْثُ والحتْفُ فيهما * أبَى الله إلا أنْ تضُرّا وتنفعـا
لقد دوّخ الأعداءَ مَعْنٌ فأصبحوا * وأمنعُهم لا يدفع الذلَّ مَدْفَعـا
نجيبُ منـاجيبٍ وسـيّدُ سادةٍ * ذُرَى المجـد من فَرْعَىْ نِزارٍ تفرّعا
لبانتْ خِصال الخير فيه وأكمَلتْ * وما كَمُلتْ خمسا سِـنُوه وأربعـا
لقد أصبحتْ فى كلّ شرقٍ ومغرب * بسـيفك أعناقُ المُريبين خُضَّعا
وطِئتَ خدود الحضرميِّين وطأةً * لها هُدّ ركنٌ منهمُ فتَضَعْضَعا
فأقعوْا على الأذناب إقعاء مَعْشرٍ * يروْن لزوم السّـلْم أبقَى وأوْدعا
فلو مُدّت الأيدى إلى الحرب كلها * لكفّوا وما مدّوا الى الحرب أصبعا

فقال له مَعْن : احتكم، قال: عشرة آلاف درهم، فقال مَعْن: رَبحنا عليك تسعين ألفا، قال : أقلْنى، قال : لا أقال الله من يُقيلُك .

لما مات المهدىّ وقدت العـرب على موسى الهـادى يُهنئونَه بالخـلافة ويُعزّونه عن المهدىّ، فدخل مروان فأخذ بعضادتَى الباب وقال :

لقد أصبحَتْ تَختال فى كل بلدةٍ * بقـبر أمير المؤمنين المقـابرُ
ولو لم تُسَكّن بابنه فى مكانه * لمـا بَرِحتْ تبكى عليه المنابرُ

مرض عمرو بن مَسْعدة فدخل عليه مروان وقد أبَلّ من مرضه، فأنشأ يقول :

صحّ الجســم يا عمْـرُو * لك التّمحيص والأجرُ
ولله علينـا الحمـ * ـدُ والمِنّة والشكر
فقـدْ كان شكا شـوقًا * إليك النّهـى والأمر

قال موسى بن يحيى : أوصلنا الى مروان بن أبى حفصة فى وقت من الأوقات سبعين ألف درهم ، وجمع اليها مالا حتى تمت مائةَ ألف وخمسين ألف درهم وأودعها يزيد بن مَزْيَد ، فبينا نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مَزْيَد ، وكانت فيه دُعابة ، فقال : يا أبا علىّ ، أودعنى مروان خمسين ومائة ألف درهم ، وهو يشترى الخبز من البقّال ؛ فغضب يحيى ثم قال : علىّ بمروان ، فأُتى به ، فقال له : قد أخبرنى أبو خالد بما أُودعتَه من المـال وما تبتاعه من البقّال ، والله لَمَـا يُرَى من أثر البخل عليـك أضرّ من الفقر لو كان بك . ويُرْوى أنه قال له : والله لَلبخل أسوأ عليك أثرا من الفقر لو صِرْتَ اليه فلا تبخل . وقال عمر بن شَبَّة قال مروان : ما فرحتُ بشىء قطُّ فرحى بمائة ألف وهبها لى أمير المؤمنين المهدىّ ، فوزنتها فزادت درهما ، فاشـتريت به لحما . وقال جَهْم بن خَلَف : أتينا اليمـامة فنزلنا على مروان بن أبى حفصة فأطعمنا تمرا وأرسـل غلامَه بفَلْس وسُكُرُّجة ليشترىَ زيتـا ، فلما جاء بالزيت قال لغلامه : خُنتَنى ؛ قال : من فَلْس ! كيف أخونك؟ قال : أخذتَ الفَلْس لنفسك وآستوهبت الزيت . وقال التَّوَّزىّ : مرّ مروان بن أبى حفصة فى بعض سفراته وهو يريد مَعْنى آمرأة من العرب ، فأضافتـه ؛ فقـال : لله علىّ إنْ وهب لى الأمير مائةَ ألف أنْ أَهَب لك دِرْهما ؛ فأعطاه ستين ألف درهم ، فأعطاها أربعة دَوانق . وقال أبو دعامة : آشترى مروان لحما بنصف درهم فلما وضعه فى القدر وكاد ينضَج دعاه صديق له ، فردّه على القَصّاب بنقصان دانق ، فشكاه القصّاب وجعل ينادى هذا لحم مروان ، وظنّ أنّه يأنَف لذلك ؛ فبلغ الرشيد ذلك فقال : ويلك ! ما هذا؟ فقال : أكره الإسراف .

دخل مروان على موسى الهادى فأنشده قوله فيه :

تَشَابه يومَا بأسِـــه ونواله * فما أحـدٌ يَدرِى لأيِّهما الفضلُ

فقال له الهادى : أيّما أحبّ اليك؟ أثلاثون ألفا معجّلة ، أم مائةُ ألف تدوّن فى الدواوين؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنت تُحسِن ما هو خير من هذا ، ولكنّك أُنْسِيتَه ، أفتأذن لى أن أذكّرك؟ قال : نعم ؛ قال : تُعجِّل لى الثلاثين ألفا وتُدوّن المـائة ألف فى الدواوين ، فضحك وقال : بل يُعجَّلان جميعا ، فحُمل اليه المـال أجمع .

قال محمد النَّوْفلى : اجتاز مروان برجل من باهلة من أهل اليمامة ، وهو يُنشد قوما كان جالسا اليهم شعرا مدح به مروانَ بن محمد ، وأنه قُتِل قبل أن يلقاه ويُنشده إياه ، أوله :

مروانُ يابن محمّـدٍ أنـتَ الذى * زِيدتْ به شرفا بنـو مروانِ

فأعجبته القصيدة ، فأمهل الباهلى حتى قام من مجلسه ، ثم أتاه فى منزله فقال له : إنى سمعت قصـيدتك وأعجبتنى ، ومروان قد مضى ومضى أهلُه ، وفاتك ما قدَّرتَ عنـده ، أفتبيعُنى القصـيدة حتى أنتحلها ، فإنه خير لك من أن تبقى عليك وأنت فقـير؟ قال : نعم ، قال : بكم؟ قال : بثلثمائة درهم ، قال : قد ابتعتُها ، فأعطاه الدراهم وحلّفه بالطلاق ثلاثا وبالأيمان المُحْرِجة ألّا ينتحلَها أبدا ، ولا يَنسُبَها الى نفسه ولا يُنشِدَها ، وانصرف بهـا الى منزله فغيّر منها أبياتا وزاد فيها وجعلها فى مَعْن ، وقال فى ذلك البيت :

مَعْنُ بن زائدة الذى زِيدتْ به * شرفا على شرف بنو شَيْبانِ

ووفد بهـا الى معن حتى أثرى واتسعتْ حاله ، فكان معن أول من رفع ذكره ونوّه به . وله فيه مدائحُ بعـد ذلك شريفة ومراثٍ حسنة . قال مروان : كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلبا شديدا وجعل فيه مالا ، فحدثنى معن باليمن أنه اضطرّ لشدة الطلب الى أن قام فى الشمس حتى لوّحَتْ وجهَـه ، وخفّف عارضيه ولحيته ، ولبس جُبّـة صوف غليظة ، وركب جملا من الجمال الثّقالة يمضى الى البادية فيقيم بها ، وكان قد أبلى فى حرب يزيد ابن عمر بن هُبَيْرة بلاء حسنا غاظ المنصور وجدّ فى طلبه ، قال معن : فلمّا خرجتُ من باب حرب تبعنى أسودُ متقلّدا سيفا حتى اذا غبتُ عن الحرس قبض على خِطَام جمـلى فأناخه وقبض علىّ ، فقلت له : مالك؟ قال : أنت طَلِبة أمير المؤمنين ، قلت : ومن أنا حتى يَطلُبنى أمير المؤمنين؟ قال : معن ابن زائدة ، قلت : يا هذا ، اتّق الله ، وأين أنا من معن؟ قال : دع هذا عنك ، فأنا والله أعرفُ بك منك ، فقلت له : فإن كانت القصّـة كما تقول ، فهذا جوهر حملتُه معى يَفِى بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بى ، فخذه ولا تسفك دمى ، قال : هاته ، فأخرجته اليه ، فنظر اليه ساعةً وقال : صدقتَ فى قيمته ، ولستُ قابلَه حتى أسألك

عن شيء ، فإن صدقتني أطلقتك ، فقلت : قل ، قال : إن النــاس قد وصفوك بالجود فأخبرني ، هل وهبتَ قطُّ مالك كلّه؟ قلت : لا ، قال : فنصفَه؟ قلت : لا ، قال : فثلثَه؟ قلت : لا ، حتى بلغ العشر ، فاستحييتُ ، فقلت : أظن أني قد فعلت هذا ، فقال : ما أراك فعلتَه ، أنا والله راجل ورزقي من أبي جعفر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير وقد وهبتُه لك ، ووهبتــك لنفسك ولجودك المأثور عنك بين الناس ، ولتعلم أن في الدنيا أجودَ منك فلا تعجبك نفسُك ، ولتُحقِّر بعد هذا كلّ شيء تفعله ولا تتوقّف عن مكرمة ؛ ثم رمى بالعِقْد في حِجري وخلّى خِطام البعير وآنصرف ؛ فقلت : ياهذا ، قد والله فضحتني ولَسفكُ دمي أهون عليّ ممــا فعلت ، فخذ ما دفعتُه اليــك فإني غنيّ عنه ، فضحك وقال : أردتَ أن تكذّبني في مقامي هذا ، والله لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثمنا أبدا ومضى ؛ فو الله لقد طلبته بعــد أن أمنت وبذلت لمن جاءني به ما شاء ، فما عرفت له خبرا وكأن الأرض آبتلعته . وكان سبب رضا المنصور عن معن أنه لم يزل مستترا حتى كان يوم الهاشميّة[1] ، فلمّا وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه ، وثب معن وهو متلثّم فانتضى سيفه وقاتل فأبلى بلاء حسنا وذبّ القوم عنه حتى نجا وهم يحاربونه بعد ؛ ثم جاء والمنصور راكب على بغلة ولجامها بيد الربيع فقال له : تنحّ فإني أحقّ باللّجام منك في هذا الوقت وأعظم فيه غَنَاء ؛ فقال له المنصور : صدق فادفعه اليه ، فأخذه ولم يزل يقاتل حتى آنكشفت تلك الحال ، فقال له المنصور : من أنت؟ لله أبوك ! قال : أنا طَلِبتك يا أمير المؤمنين معنُ بن زائدة ؛ قال : قد أمّنك الله على نفســك ومالك ومثلك يُصْطَنع ، ثم أخذه معه وخلع عليــه وحبّاه وزيّنه ، ثم دعا به يوما فقال له : إني قد أمّلتُك لأمر فكيف تكون فيه؟ قال : كما يُحبّ أميرُ المؤمنين ؛ قال : قد ولّيتك اليمنَ فابسُط السيفَ فيهم حتى يُنْقَضَ حِلْف ربيعة واليمن ، وآبلُغ من ذلك ما يحبّ أمير المؤمنين ؛ فولّاه اليمنَ وتوجّه اليها فبسَط السيف فيهــم حتى

(١) مدينة بناها السفاح بالكوفة وذلك أنه لمــا ولي الخلافة نزل بقصر آبن هبيرة واستتم بناءه وجعله مدينــة وسماها الهاشمية ، فكان الناس ينسبونهــا إلى ابن هبيرة على العادة ، فقال : ما أرى ذكر آبن هبيرة يسقط عنهــا ، فرفضها وبنى حيالها مدينة سماها الهاشمية ونزلها .

أسرف . قال مروان : وقدم معن بعقب ذلك فدخل على المنصور، فقال له بعد كلام طويل : قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانُك عنده ورأيه فيك اغضب عليك ، قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال : إعطاؤك مروان بن أبى حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معنُ بنُ زائدة الذى زِيدتْ به * شرفًا على شرف بنو شيبانِ
إن عُدّ أيام الفعال فإنما * يوماه يومُ ندى ويومُ طعان

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيتُه ما بلغَك لهذا الشعر، وإنما أعطيته لقوله :

ما زلتَ يومَ الهاشميّة مُعلِنًا * بالسيف دونَ خليفةِ الرحمن
فمنعتَ حوزَتَه وكنت وِقاءَه * مِنْ وقع كلّ مهنّدٍ وسِنان

فاستحيا المنصور وقال : إنما أعطيتَه ما أعطيتَه لهذا القول؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، والله لولا مخافة الشُّنْعة لأمكنتُه من مفاتيح بيوت الأموال وأبحتُه إيّاها ، فقال له المنصور: لله دَرّك من أعرابىّ! ما أهونَ عليك ما يعِزّ على الرجال وأهل الحزم !

وأختم هذه الترجمة بموت مروان يَقُصُّه قاتلُه . روى صاحب الأغانى عن رجل يقال له صالح بن عطيّة الأَضْجَم أنه قال :

لما قال مروان :

أنّى يكونُ وليس ذاكَ بكائنٍ * لبنى البنات وِراثةُ الأعمامِ

لَزِمتُه وعاهدت الله أن أغتاله فأقتله أىّ وقتٍ أمكننى، وما زلت أُلاطفه وأَبَرُّه، وأكتب أشعاره حتى خُصِصْت به فأنِس بى جدا ، وعرفتْ ذلك بنو حفصة جميعا فأنِسوا بى، ولم أزل أطلب غِرَّة حتى مرِض من حُمّى أصابته ، فلم أزل أُظهر له الجزع عليه وأُلازمه وألاطفه حتى خلا لى البيت يوما ، فوثبتُ عليه فأخذت بحَلْقه فما فارقته حتى مات ، فخرجت وتركته فخرج إليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميّتا وآرتفعت الصَّيْحة ، فحضرتُ وتباكيتُ وأظهرت الجزع عليه حتى دُفن وما فَطِن لما فعلت أحد ولا آتهمنى به .

٤ — أبو دُلَامَـــــة (١)

كان أوّلُ ماحُفظ من شعره وأُسنيت الجوائزُله به ، قصيدةً مَدح بها أبا جعفر المنصور وذكر قتْلَه أبا مُسْلِم يقول فيها :

أبا مسلم خوّفتنى القتلَ فأنتحَى (٢) * عليك بما خوّفتنى الأسد الوَرْدُ
أبا مسـلم ما غيّر الله نعـمةً * على عبـده حتى يُغَيّرها العبـد

أنشـدها المنصورَ فى مَحْفِل من الناس فقال له : آحتكم ، فطلب عشرة آلاف درهم ، فأمر له بها ، فلما خلا قال له : إيه ، أمَا والله لو تعدّيتَها لقتلتك .

أمر أبو جعفر أصحابَه بلُبْس السواد وقلانِسَ طِوالٍ تُدعَم بعيدان من داخلها ، وأن يُعلّقوا السيوف فى المناطق ويكتبوا على ظهورهم : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فقال أبو دلامة :

وكنّا نُرجّى من إمامٍ زِيادةً * فجادَ (٣) بطُوبٍ زاده فى القلانس
تَراها على هامِ الرجال كأنها * دِنانُ يهـودٍ جُلِّلت بالبرَانس

ودخل الى المنصور مرّة فأنشده :

إن الخَليط أجَدّ البَيْنَ فانتـجعوا * وزَوّدوك خَبالا ، بِئْسما صَـنَعوا
واللهُ يعـلم أَنْ كادتْ لِبَيْنِهِمُ * يومَ الفِراق حَصَاةُ القلب تَنصَدِع
عَجِبتُ من صِبْيَتِي يوما وأُمِّهِـم * أُمّ الدُّلامة لمّا هاجها الجَـزَع

(١) هوزند بن الجون ، وسمى أبا دلامة نسبة إلى ابـه دلامة ، وهو كوفى المنشأ أسود اللون مولى لبنى أسد ، وكان أبوه عبدا لرجل منهم فأعتقه . أدرك أبو دلامة أواخر الدولة الأموية ، ولكـنه نبغ فى الدولة العباسية ، وانقطع الى أبى العباس السفاح والمنصور والمهدى ، وكانوا يقـدّمونه ويصلونه ويستطيبون محاسـنه ونوادره ، وفيـه دعابة وظرف ، لا يخلو حديثـه من نكـتة أو ملحة ، وكان مع ذلك معـدودا فى جملة المتهمين بالزندقة وفساد الدين ، وكان يشرب الخمر ولا يحضر صلاة ولا فروضا . توفى سنة ١٦١ هـ . وأخباره فى الأغانى (ج ٩ ص ١٢٠) وابن خلكان طبع بلاق (ج ١ ص ٢٦٧) والشـعر والشعراء (ص ٤٨٧) والدميرى (ج ١ ص ١٣٢) والمستطرف (ج ٢ ص ٤٣) . (٢) فى الشعر والشعراء : "أبا مجرم" . (٣) فى الطبرى ج ٢ ص ٣٧١ طبع أوربا "فزاد الامام المصطفى" .

لا بارك الله فيها من مُنبِّهةٍ * هبّت تلوم عيالى بعد ما هَجَعوا
ونحن مُشْتَبِهو الألوانِ أوْجُهُنا * سُودٌ قِباحٌ وفى أسمائنا شَنَع
إذا تَشَكَّت إلىّ الجُوعَ قلتُ لها * ما هاجَ جوعَك إلّا الرِّىُّ والشِّبَع
لا والّذى يا أميرَ المؤمنين قَضَى * لك الخلافةَ فى أسبابها الرِّفَع
ما زلتُ أُخْلِصها كَسْبِى فتأكُلُه * دُونِى ودونَ عيالى ثم تَضطجِع
شَوْهاءُ مَشْنَأةٌ فى بطنها بَجَرٌ (١) * وفى المفاصل من أوصالها قَدَع
ذَكّرتُها بكتاب الله حُرْمَتَنا * ولم تكن بكتاب الله تَنتفِع
فاخْرَنْطَمَتْ (٢) ثم قالت وهى مُغْضَبةٌ * أأنت تتلو كتابَ الله يا لُكَع
أُخْرُجْ لِتَبْغِ لنا مالًا ومَزْرَعةً * كما لجيراننا مالٌ ومُزْدَرَعُ
واخدَعْ خليفتنا عنّا بمسألةٍ * إن الخليفة للسُّؤّال يَنخدِع

فضحك أبو جعفر وكتب له بضيعة .

كان واقفا بين يَدَى السَّفّاح فقال له : سلنى حاجتك، قال : كلب أتصيّد به، قال : أعطوه إيّاه، قال : ودابّة أتصيّد عليها، قال : أعطوه دابّة، قال : وغلام يَصيد بالكلب ويقودُه ، قال : أعطوه غلاما، قال : وجارية تُصلح لنا الصَّيْد وتُطعمنا منه، قال : أعطوه جارية، قال : هؤلاء يا أميرَ المؤمنين عبيدُك، فلا بدّ لهم من دار يسكنونها، قال : أعطوهم دارًا تجمعهم، قال : فان لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال : قد أعطيتك مائة جَريب عامرة، ومائة جَريب غامرة، قال : وما الغامرة؟ قال ما لا نباتَ فيه، فقال : قد أقطعتُك يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جَريب غامرة من فيَافِى بنى أَسَد ، فضَحِكَ وقال : اجعلوها عامرة ، قال : فأذَنْ لى أن أُقبِّل يدَك، قال : أما هذه فَدَعْها، قال : والله ما منعتَ عيالى شيئا أقلّ ضررا عليهم منها، قال الجاحظ : فانظر الى حِذْقه بالمسألة ولُطْفه فيها، ابتدأ

---

(١) البجر : خروج السرة ونتوءها وغلظ أصلها . والقدع : اعوجاج فى الرسغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف والقدم الى إنسيها . (٢) أى غضبت .

بكلب فسهّل القصة به وجعل يأتى بمـا يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله بديهة لمـا وصل اليه .

قال علىّ بن سـلّام : كنت أسق أبا دلامة والسِّنْدىّ إذ خرجت بِنْتٌ لأبى دلامة، فقال فيها أبو دلامة :

فما وَلَدتْكِ مريمُ أمُّ عيسى * ولا رَبّاكِ لقمانُ الحكيم

أجِزْ يا أبا عَطَاء، فقال :

ولكنْ قد تَضُمُّك أمُّ سوءٍ * الى لَبّاتهـا وأبٌ لئـيم

فضحك لذلك، ثم غدا أبو دلامةَ الى المنصور فألفاه فى الرَّحَبَة يُصلِح فيها شيئا يريده، فأخبره بقصة ابنته وأنشده البيتين، ثم آندفع فأنشده بعدهما :

لو كان يَقْعُدُ فوقَ الشمس من كَرَمٍ * قومٌ لَقِيل آقعـدوا يا آل عبّاس

ثم آرتقُوا فى شُعاع الشمس كلُّكمُ * الى السماء فأنتم أطهـرُ النـاس

وقدِّموا القـائمَ المنصورَ رأسَكمُ * فالعين والأنف والأُذْنان فى الراس

فاستحسنها وقال : بأىّ شىء تحبُّ أن أُعينَك على قُبْح آبنتك هـذه ؟ فأخرجَ خريطةً كان قد خاطها من الليل، فقال : تملأ لى هذه دراهمَ، فمُلئتْ فوسعت أربعةَ آلاف درهم .

لمـا تُوفّىَ أبو العباس السفّاح دخل أبو دُلامةَ على المنصور والناسُ عنده يعزّونه، فأنشأ أبو دلامة يقول :

أمسيتَ بالأَنْبَـار يا ابنَ محمـدٍ * لم تستطـع عن عُقْرها تحويلا

وَيْلى عليك وويلَ أهلى كلِّهم * وَيْلًا وَعَوْلًا فى الحياة طويلا

فلتبكِيَنَّ لك النسـاءُ بعَـبْرةٍ * وليبـكِيَنَّ لك الرجال عَويلا

مات النَّدَى إذ مُتَّ يا ابنَ محمدٍ * فجعلته لك فى التراب عَديلا

إنى سألتُ الناسَ بعدك كلَّهمُ * فوجدتُ أسمحَ من سألتُ بخيلا

ألِشِـقْوَتى أُخِّرتُ بعدك للتى * تَدَعُ العزيزَ من الرجال ذليـلا

فلأحلِفنّ يمينَ حق بَرّةً * بالله ما أُعطيتُ بعدك سُـولا

فأبكى الناسَ قولُه ، فغضب المنصور غضبا شديدا وقال : لئن سمعتك تُنْشِد هذه القصيدة لأقطعنّ لسانَك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أبا العباس أميرَ المؤمنين كان لى مُكرِما ، وهو الذى جاء بى من البَدْو كما جاء الله بإخوة يوسفَ اليه فقل كما قال يوسف لإخوته : ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فسُرِّىَ عن المنصور وقال : قد أقَلْناك يا أبا دلامة ، فسل حاجتَك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمرَ لى بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض ، ولم أَقْبِضها . فقال المنصور : ومن يعرف هذا؟ فقال : هؤلاء ، وأشار الى جماعة ممّن حَضَر ، فوثب سليمان بن خالد وأبو الجَهْم فقالا : صدق أبو دلامةَ نحن نعلم ذلك ، فقال المنصور لأبى أيّوبَ الخازن وهو مَغيظ : ياسليمان ، ادفعها اليه وسيِّره الى هذا الطاغية « يعنى عبد الله بن على » وقد كان خرج بناحية الشام وأظهر الخلاف ، فوثَب أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين إنّى أعيذك بالله أن أخرج معهم ، فوالله انى لمشئوم ، فقال المنصور : امْضِ ، فإن يُمْنِى يَغلِب شؤمَك فاخْرُج ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أُحبّ لك أن تجرّب ذلك منّى على مثل هذا العسكر ، فإنّى لا أدرى أيّهما يَغلِب ، أيُمْنُك أم شؤمى ، إلا أنى بنفسى أَوْثَق وأَعْرَف وأَطْوَل تجرِبةً ، قال : دعنى من هذا فمالك من الخروج بُدٌّ ، فقال : إنى أُصْدُقك الآن ، شهدت والله تسعة عشر عسكرا كلُّها هُزِمت وكنتُ سببَها ، فإن شئتَ الآن على بصيرة أن يكون عسكرُك العشرين فافعل ، فاسْتَغْرَبَ أبو جعفر ضحكًا وأمره أن يتخلّف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

قال أبو دلامة : أُتِىَ بى المنصورُ أو المهدىّ وأنا سكرانُ ، فحلف ليُخرجنّى فى بَعْث حرب ، فأخرجنى مع رَوْح بن حاتم المُهَلّبى لقتال الشُّراة ، فلما التقى الجَمْعان قلت لِرَوْح : أمَاوالله لو أنّ تحتى فرسَك ومعى سلاحَك لأَثَّرتُ فى عدوّك اليوم أثَرا تَرتضيه ، فضحك وقال : والله العظيم لأدفعنّ ذلك إليك ولآخذنّك بالوفاء بشَرْطك ، ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إلىّ ودعا بغيرهما فاستبدَل بهما ، فلما حصل ذلك فى يدى وزالت عنى حلاوة الطَّمَع قلت له : أيها الأمير هذا مُقام العائذ بك ، وقد قلت أبياتا فاسمعْها ، قال : هات ، فأنشدتُه :

إنى استجرتُك أن أُقدَّمَ فى الوَغَى * لِتَطَاعُنٍ وتَنَــازُلٍ وجِــرَابِ (١)
فهَبِ السُّيوفَ رأيتَها مشهورةً * فتركتُها ومضيتُ فى الهُــرّاب
ماذا تقول لِـما يَجىء وما يُرَى * من واردات الموت فى النُّشّاب

فقال : دَعْ عنك هذا وسَتَعلَمْ ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للبارزة : فقال : اخرج اليه يا أبا دلامة ، فقلت : أَنْشُدك اللهَ أيها الأمير فى دَمى ، قال : والله لتَخرُجنّ ، فقلت : أيها الأمير فإنه أوّلُ يوم من أيّام الآخرة وآخرُ يوم من أيّام الدنيا وأنا والله جائع ما شَبِعَت منّى جارحةٌ من الجوع ، فمُرْ لى بشىء آكلُه ثم أخرُج ، فأمر لى برغيفين ودَجَاجة ، فأخذتُ ذلك وبرزتُ عن الصفّ ، فلما رآنى الشّارى أقبل نحوى وعليه فَرْو قد أصابه المطر فآبتلّ وأصابته الشمس فآنفعل (٢) وعيناه تَقدّان ، فأسرع إلىّ ، فقلت له : على رِسْلِك ياهذا ، كما أنت ، فوقف ، فقلت : أتقتل من لا يقاتلك؟ قال : لا ، قلت : أتقتل رجلا على دِينك؟ قال : لا ، قلت : أفتستحلّ ذلك قبل أن تدعو مَن تقاتله الى دينــك ؟ قال : لا ، فاذهب عنى الى لعنة الله ، قلت : لا أفعل أو تَسمعَ منى ، قال : قُلْ ، قلت : هل كانت بيننا قطُّ عداوةٌ أو تِرَةٌ أو تَعرفنى بحال تُحفِظُك علىّ أو تعلم بينى وبين أهلك وَتْرا ، قال : لا والله ، قلت : ولا أنا والله أضمر لك إلا جميل الرأى ، وإنّى لأهواك وأنتحل مذهبك ، وأدين دينك ، وأريد السوء لمن أرادَه لك ، قال : ياهــذا جزاك الله خيرا فانصرف ، قلت : إن معى زاداً أحبّ أن آكُلَه معك وأحبّ مواكلتك لتتأكّدَ المودّةُ بيننا ويرى أهلُ العسكر هَوَانَهم علينا ، قال : فافعل ، فتقدّمت اليه حتى آختلفت أعناقُ دوابّنا ، وجمعنا أرجُلَنا على مَعَارفها والناس قد غُلِبوا ضَحِكا ، فلمــا آستوفينا ودّعَنى ، ثم قلت له : إن هذا الجاهل إن أقمتَ على طلب المبارزة ندبنى اليــك فتُتعبنى وتتعب نفسك ، فإن رأيتَ ألّا تبرُز اليوم فآفعل ، قال : قد فعلت ، ثم آنصرف وآنصرفت فقلت لرَوْح : أما أنا فقد كَفيتُك قِرْنى ، فقل لغيرى أن يكفيَك قرنَه كما كفيتك ، فأمسك ، وخرج آخر يدعو الى البراز ، فقال لى : اخرج اليه ، فقلت :

(١) الجراب بمعنى المحاربة وفى الأغانى « ضراب » . (٢) هكذا بالأصل ولعلها : اقفعل ، من قولهم اقفعلت يده : تقبضت .

إنّى أعوذ بِرَوْح أن يقدّمنى * الى البِراز فتَخْزَى بِى بنو أسد
إنّ البِراز الى الأقران أعلمُه * ممّا يفرّق بين الروح والجسد
قد حالفتك المنايا إن صَمَدْتَ لها * وأصبحتْ لجميع الخلق بالرَّصَد
إن المُهَلَّب حبَّ الموت أورثكم * وما ورثتُ ٱختيارَ الموت عن أحَد
او أن لى مُهجةً أخرى لَجُدتُ بها * لكنّها خُلقتْ فردا فلم أجِد

فضحك وأعفانى .

قال أبو أيّوب المورياني لأبى جعفر وكان يشنأُ أبا دلامة : إن أبا دُلامة مُعتكِفٌ على الخمر، فما يَحْضُرُ صلاةً ولا مسجدا وقد أفسد فتيانَ العسكر، فلو أمرتَه بالصلاة معك لأُجِرْتَ فيه وفى غيره من فتيان عسكرك بقَطْعه عنهم، فلما دخل عليه أبو دلامة قال له : ماهذا المُجُون الذى يَبلُغُنى عنك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا والمُجُون وقد شارفتُ بابَ قبرى ! ، قال : دَعْنى من ٱستكانتك وتَضَرُّعك، و إيّاك أن تفوتَك الظهر والعصر فى مسجدى، فلئن فاتتاك لأُحسننّ أدبَك ولأُطيلنّ حبسكَ، فوقع فى شرٍّ ولزم المسجد أياما ، ثم كتب قصة ودفعها الى المهدىّ فأوصلها الى أبيه وكان فيها :

ألم تعلما أن الخليفة لزّنى (١) * بمسجده والقصر، مالى وللقصر
أُصَلِّى به الأُولى جميعا وعصرَها * فويلى من الأولى وويلى من العصر
أصليهما بالكُره فى غير مسجدى * فمالىَ فى الأولى ولا العصر من أجْر
لقد كان فى قومى مساجدُ جمّةٌ * ولم ينشرح يوما لغشيانها صدرى
يكلّفنى من بعد ما شِبتُ خُطة * يُحَطّ بها عنّى الثقيلُ من الوِزْر
وما ضرّه واللهُ يغفر ذنبَه * لوآنّ ذنوب العالمين على ظهرى

فقال : صدق، ما يَضُرّنى ذلك، والله لا يصلى هذا أبدا، فدعوه يعمل ما يشاء .

(١) لزه بالشئ : ألزمه إياه .

وقال الهَيْثَمُ فى خَبَره : قد أعفيناك من هذا الحال، ولكن على ألّا تدعَ القيامَ معنا فى ليالى شهر رمضان فقد أَظَلّ، فقال : أفعل، قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمتُ ذلك والله لئن فعلتَ لأَحُدَّنّك، فقال أبو دلامة : البليّة فى شهر أخفّ منها فى طول الدهر، سمعًا وطاعةً، فلما حضر شهرُ رمضانَ لزم المسجدَ، وكان المهدىّ يبعث اليه فى كل ليلة حَرَسِيًّا يجىء به، فشَقّ ذلك عليه وفَزِع الى الخَيْزُران والى أبى عبيد الله وكلّ من يلوذ بالمهدىّ ليشفعوا له فى الإعفاء من القيام، فلم يجبهم، فقال له أبو عبيد الله : الدالّ على الخير كفاعله، فكيف شُكْرُك؟ قال : أتمّ شكر، قال : عليك برَيْطة فإنه لا يخالفها، قال : صدقت، ثم رفع اليها رُقْعة يقول فيها :

أبلغا رَيْطَـــةَ أنّى * كنت عبدا لأبيهـا
فمضى يرحمـــه الله * ـه وأوصى بى اليهـا
وأراها نَسِـيَتْنى * مثل نِسْيانِ أخيهـا
جاء شهر الصوم يمشى * مِشْيةً ما أشتهيها
قائدًا لى ليـــلةَ القد * ر كأنّى أبتغيهـا
تَنطَح القِبْـــلةَ شهرا * جَبْهَـــتى لا تأتليهـا
ولقـد عشتُ زمانا * فى فَيافٍ وجيهـا
فى ليـالٍ من شتـاء * كنت شيخا أصطليها
قاعدًا أُوقِـــد نارا * لضِباب أشْتَويها
وصَبُوح وغَبُـــوق * فى عِلاب أحتسيها
ما أبالى ليـلةَ القـد * ر ولا تُسْـمِعنيها
فآطلبى لى فَـرَجًا منـ * ـها وأَجْرى لكِ فيها

فلما قرأت الرُّقْعة ضحكتْ وأرسلتْ اليه : آصطبر حتى تمضى ليلةُ القدر، فكتب اليها : إنى لم أسألك أن تكلّميه فى إعفائى عاما قابِلا، واذا مضتْ ليلة القدر فقد فَنِيَ الشهر، وكتب تحتها أبياتا :

خافى إلهك فى نفس قد ٱحتُضِرت * قامت قيامتُها بين المُصَلِّينا
ما ليلة القَدْر من هَمّى فأطلبها * إنى أخاف المنايا قبل عشرينا
ياليلةَ القدر قد كسَّرتِ أرجلَنا * ياليلةَ القدر حقا ما تُمَنّينا
لا بارك الله فى خير أؤمّله * فى ليلةٍ بعد ما قمنا ثلاثينا

فلما قرأتِ الرُّقعة ضحكتْ ودخلتْ الى المهدىّ فشَفَعتْ له اليه وأنشدتْه الأبيات ، فضَحِك حتى ٱستلقى ودعا به ورَيْطةُ معه فى الحَجَلَة ، فدخل ، فأخرج رأسه اليه وقال : قد شَفّعْنا رَيْطةَ فيك وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم ، فقال : أما شفاعة سيدتى فىّ حتى أعفيتنى فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فما أعْجَبَنى ما فعلتَه إما أن تُتمّها بثلاثة آلاف فتصير عشرة أو تُنقصنى منها ألفين فتصير خمسة آلاف ، فإنى لا أُحسن حساب السبعة ، فقال : قد جعلتُها خمسة ، فقال : أعيذك بالله أن تختار أدنى الحالين وأنت أنت ، فعبث به المهدىّ ساعة ، ثم تكلمت فيه رَيْطة ، فأتمّها له عشرة آلاف درهم .

شرب أبو دلامة فى بعض الحانات فسكر وٱنصرف وهو يميل ، فلقيَه العَسَس ، فأخذوه وقالوا له : من أنت ، وما دينك؟ فقال :

دِينى علَى دِينِ بَنِى العبّاس * ما خُتِمَ الطينُ على القرطاس
انى ٱصطحَبْتُ أربعًا بالْكاس * فقد أدار شُرْبُها براسى
* فهل بما قُلْتُ لكم من باسِ *

فأخذوه ومضَوْا وخَرّقُوا ثيابَه وسَاجَه[1] ، وأُتِىَ به أبو جعفر ، وكان يُؤتَى بكلّ من أخذه العَسَسُ ، فحبَسه مع الدَّجَاج فى بيت ، فلما أفاق جعَل ينادى غلامَه مرّة وجاريتَه مرّة ، فلم يُجِبْه أحد ، و بينما هو فى ذلك إذ سمع صوت الدَّجَاج وزُقَاء الدُّيُوك ، فلما أكثر قال له السجّان : ما شأنك؟ قال : ويلك من أنت؟ وأين أنا؟ قال : فى الحبس وأنا فلان

(١) الساج : الطيلسان الأخضر ، وقيل الأسود .

السجّان ، قال : من حبَسَنى ؟ قال : أميرُ المؤمنين ، قال : ومن خَرَق طَيْلسانى؟ قال : الحَرَس ، فطلب منه أن يأتيه بدواةٍ وقرطاس ، ففعل ، فكتب الى أبى جعفر :

أميرَ المؤمنين فدتك نفسى * علامَ حبَستنى وخَرَقتَ ساجى
أمن صفراءَ صافيـــةِ المزاج * كأن شُــعاعها لَهَبُ السِّراج
وقد طُبِخت بنار الله حـــتى * لقدصارت من النُّطَف النِّضَاج
تَهَشّ لهـا القلوبُ وتشتهيهـا * اذا برزت تَرَقرقُ فى الزّجاج
أُقاد الى السجون بغـير جُرم * كأنى بعضُ عُمّـال الخَـرَاج
ولو معهم حُبِست لكان سهلًا * ولكنّى حُبِست مع الدَّجاج

فدعا به وقال : أين حُبِست يا أبا دلامة؟ قال : مع الدجّاج ، قال : فمـا كنت تصـنع؟ قال : أُقَوِّق معهن حتى أصبحتُ ، فضحك وخلّى سبيله وأمر له بجائزة ، فلما خرج قال له الربيـع : إنه شرب الخمر يا أميرَ المؤمنين ، أما سمعت قوله : وقد طُبِخت بنار الله ، يعنى الشمس؟ فأمر بردّه ، ثم قال : ياخبيث ، شَربتَ الخمر؟ قال : لا ، قال : أفلم تقل : طُبِختْ بنـار الله تعنى الشمس ؟ قال : لا والله ما عَنَيْتُ إلا نار الله المُوقَدة التى تطّلِـع على فؤاد الرّبيع ، فضحك وقال : خذها يا ربيع ولا تُعاوِد .

صام الناس فى سنة شديدة الحرّ على عهد المهدىّ ، وكان أبو دلامة يَتَنَجَّزُ جائزةً أمر له المهدىُّ بها ، فكتب اليه أبو دلامة رقعة يشكو فيها أذى الحَرّ والصَّوْم ، وهى :

أَدْعوك بالرّحِم التى قد جَمَّعتْ * فى القرب بين قَرِيبنا والأَبْعَـد
إلاسمعتَ وأنتَ أكرم من مشَى * من مُنشِدٍ يرجو جَزاءَ المنشَد
جاء الصِّيامُ فصُمْتُه متعبِّدا * أرجو رَجاءَ الصائم المتعبِّـد
ولَقِيتُ من أمر الصِّيام وحَرّه * أمرين قِيسَا بالعذاب المُؤصَد
وسَجدتُ حتى جَبْهتى مشجُوجةٌ * مما يُنَاطحنى الحصا فى المسجد
فامنُنْ بتسريحى بمَطْلك بالذى * أَسْلَفْتَنِيه من البـلاء المُرصَد

فلما قرأ المهدىُّ رُقْعتَه غضب وقال : أىُّ قرابة بينى وبينك؟ قال : رحِمُ آدمَ وحوَّاء، أَنَسِيتَهما يا أميرالمؤمنين! فضحك وقال : لا والله ما نَسِيتُهما ، وأمر بتعجيل ما أجازه به وزاد فيه، وأنشده أيضا فى ذم الصّوم :

هَلْ فى البــلاد لرزق الله مُفتَرِش * أم لا فتى جِلْدِه من خُشْنةٍ بَرَش(١)
أضْحَى الصيّام مُنيخًا وسط عَرْصتنا * ليت الصيام بأرض دونها جُرَش
إن صمتُ أوجعنى بطنى وأقلقنى * بين الجوانح مَسٌّ ابلجوع والعطش
وإن خرجت بليلٍ نحو مَسجدهم * أضرّنى بَصَر قــد خانَه العَمَش

دخل أبو دلامة على سعيد بن دَعْلَج مولى بنى تميم فقال :

إذا جئتَ الأميرَ فقــل سـلامٌ * عليـك ورحمــةُ الله الرحيم
وأما بعــد ذاك فـلى غريمٌ * من الأعراب قُبِّـح من غريم
غريم لازمٌ بفِنـاء بيتى * لزومَ الكلب أصحابَ الرَّقيم
له مائة علىّ ونِصفُ أُخْرَى * ونِصف النِّصف فى صَكٍّ قديم
دراهمُ ما انتفعتُ بهـا ولكن * وصلتُ بهـا شيوخَ بنى تميم
أَتَوْنى بالعشـيرة يسـألونى * ولم أكُ فى العشـيرة باللئيم

فأمر له بمائتين وخمسـة وسبعين درهما وقال : ما أساء مَن أنصفَ، وقد كافأتُكَ عن قومك وزدتُك مائة .

دخل أبو دلامة على المهدىّ فأنشده قصيدتَه فى بَغلته المشهورة :

أتانى، بغـلةٌ يَسْـتام منّى، * عَريقٌ فى الخَسارة والضَّلال
فقال تَبيعهـا قلت ٱرْتبِطْهـا * بِحُكْمك إنّ بيعى غيرُ غال
فأقْبَـل ضاحكا نحوى سرورا * وقال أراك سَمْحًا ذا جَمـال
هـلمّ إلىّ يخـلو بى خداعا * وما يدرى الشقىّ لمن يُخـالى

(١) البرش : نقط بيض فى الجلد .

فقلتُ بأربعين، فقال أحْسِنْ * إلىّ فإن مثلك ذو سِجال

فأتْرُك خمسة منها لعلمى * بما فيه يصيرُ من الخَبال

فقال المهدى : لقد أفْلَتَّ من بلاء عظيم، قال : والله ياأمير المؤمنين لقد مكثت شهرا أتوقّع صاحبها أن يردّها، ثم أنشده :

فأبدِلْنى بها يا ربّ طِرْفًا * يكون جمالُ مَرْكَبِه جمالى

فقال لصاحب دوابّه : خَيِّره من الإصطبل بين مركبين ، قال : يا أمير المؤمنين إن كان الاختيارُ لى وقعتُ فى شرّ من البغلة ، ولكن مُرْه أن يختار لى ، فاختار له .

خاصم رجل أبا دلامة فى داره فارتفعا الى عافيةَ القاضى ، فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقد خاصَمَتْنى دُهاةُ الرجال * وخاصمتُها سَنَةً وافيه

فما أدحَضَ الله لى حجّةً * ولا خيّبَ الله لى قافيه

ومن خِفت من جَوْره فى القضاء * فلست أخافك يا عافيه

فقال له عافية : والله لأشكونّك الى أمير المؤمنين ، ولأعلمنّه أنك هجوتنى ، قال : إذًا يَعزِلك ، قال : ولِمَه؟ قال : لأنك لا تعرف المديح من الهجاء ، فبلغ ذلك المنصور فضحك وأمر لأبى دلامة بجائزة .

دخل أبو دلامة على المهدىّ وعنده إسماعيل بن محمد و عيسى بن موسى والعباس ابن محمد ومحمد بن محمد بن ابراهيم الإمام و جماعة من بنى هاشم فقال له : أنا اعطى الله عهدا لئن لم تَهْجُ واحدا ممّن فى البيت لأقطعنّ لسانك ، فنظر اليه القوم ، فكلما نظر الى واحد منهم غَمَزه بأن عليه رِضاه ، قال أبو دلامة : فعلمت أنى قد وقعت وأنها عَزْمة من عزَمَاته لابد منها ؛ فلم أر أحدا أحقَّ بالهجاء منّى ، ولا أَدْعَى الى السلامة من هجاء نفسى ؛ فقلت :

ألا أبْلِغ لديك أبا دلامه * فليس من الكِرام ولا كرامه

إذا لبس العمامة كان قِردا * وخِنْزيرا إذا نزَع العمامه

جمعتَ دَمَامة وجمعتَ لؤما * كذاك اللؤم تتبعه الدَّمَامه
فإن تك قد أصبتَ نعيمَ دنيا * فلا تَفرح فقد دنَت القيامه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه .

خرج المهدىّ وعلىّ بن سليمان الى الصيد، فسَنَح لَها قَطِيع من الظِّباء، فأرسلت الكلاب وأُجرِيَت الخيل، فرمى المهدىّ ظبيا بسَهم فصرعه، ورمى علىّ بن سليمان، فأصاب بعض الكلاب فقتله، فقال أبو دلامة :

قد رَمَى المهدىّ ظبيا * شَك بالسّهم فؤادَه
وعلىّ بن سليما * ن رَمَى كلبا فصَاده
فهنيئا لهما كـ * ـلُّ امرئ يأكل زاده

فضحك المهدىّ حتى كاد يسقط عن سرجه وقال : صدق والله أبو دلامة؛ وأمر له بجائزة سَنِيّة، فلُقِّب علىّ بن سليمان صائدَ الكلب، وعَلِق به .

أنشد أبو دلامة المنصورَ يوما :

هاتيك والدتى عجوزٌ همّةٌ (1) * مثل البَليّة دِرْعها فى المِشْجَب (2)
مهزولةُ اللَّحْيَيْن من يرها يَقُل * أبصرتُ غُولا أوخيالَ القُطْرُب (3)
ما إن تركت لها ولا لأبنٍ لها * مالًا يؤمَّل غير بَكْر أَجْرَب
ودَجائجًا خَمْسا يَرُحْن إليهمُ * لمّا يبِضْنَ وغير عَنْز مُغْرِب (4)
كتبوا الىّ صحيفة مطبوعة * جعلوا عليها طِينة كالعَقْرَب
فعلمت أن الشرّ عند فكاكها * ففككتُها عن مثل ريح الجَوْرَب
وإذا شبيه بالأفاعى رُقِّشت * يُوعِدْنَنى بتلمُّظ وتَثَوُّب
يشكون أن الجوع أهلك بعضَهم * لَزَبا فهل لك فى عِيال لُزَّب

(1) همّة : هرمة . (2) المشجب : خشبات موثقة منصوبة توضع عليها الثياب وتنشر.
(3) القطارب : ذكر الغيلان . (4) المغرب : الأبيض من كل شىء .

لا يسألونك غيرَ طَـلّ سَحابةٍ * تَغشاهمُ من سَـيلك المُتَحَلِّب
يا باذلَ الخيرات يابنَ بَذُولهـا * وٱبنَ الكِرام وكلِّ قَرمٍ مُنْجِب
أنتم بنو العباس يُعْلَم أنكـم * قِدْمًا فوارسُ كل يوم أشْهَب
أحْلاس(١) خيل الله وهى مُغيرة * يَخْرُجْنَ من خَلَل الغُبار الأكْهَب

فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم، وكانت الدار قريبـة من قصره، فأمر أن تزاد في قصره بعد ذلك لحاجة دعته اليها، فدخل عليه أبو دلامة فأنشده قولَه :

يابن عمّ النـبىّ دعوةَ شـيخٍ * قـد دنا هَــدْمُ داره ودَمارُهْ
فهو كالماخض التى ٱعتادها الطَّلْـ * ـقُ فقَـــرّتْ وما يَقـرّ قراره
إن تُحز عُسْرةٌ بكفَّيـك يوما * فبكفّيـــك عُسْره ويَســاره
أو تَدَعْـه فللبَـوار وأنّى * ولمـاذا وأنتَ حىّ بَوَاره
هل يخاف الهلاكَ شاعرُ قومٍ * قُدِّمتْ فى مَديحهم أشعاره
لكم الأرض كلُّهـا فأعيروا * شيخَكم ما ٱحتوى عليه جِداره
فكأنْ قد مضى وخلّف فيكم * ما أعرتم وأقْفَرَتْ منه داره

فاستعبر المنصورُ وأمر بتعويضه دارا خيرا منها ووصله .

دخل على المهـدىّ يوما وعنده مُحْرِز ومُقاتِل ٱبنا ذُؤال يعاتبانه على تقريبـه أبا دلامة ويَعيبانه عنده فقال :

ألا أيها المهدىّ هل أنت مُخبِرى * و إن انت لم تفعل فهل أنت سائلى
ألم ترحم اللَّحْيينِ من لحيتيهما * وكلتاهمـا فى طولهـا غير طائل
و إن أنت لم تفعل فهل أنت مُكرِمى * بحلقهما من مُحْرِزٍ ومُقـاتِل
فان يأذن المهدىّ لى فيهما أقُلْ * مقالا كوقع السيف بين المَقَاتل
و إلّا تَدَعْنى والهمـــومُ تنوبُنى * وقلبى من العِلْجَين جمُّ البَلابل

(١) يقال : فلان من أحلاس الخيل ، أى من راضتها وساستها والملازمين ظهورها .

فقال : أو آخذ لك منهما عشرة آلاف درهم يَفْديان بهما أعراضهما منك ، قال : ذلك الى أمير المؤمنين ، فأخذها له منهما وأمسك عنهما .

دخل على أم عبيدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع اليها رُقْعة قد كتبها الى الخَيْزُرَان فيها :

أبلغى سيّدتى بالله * ـه يا أمَّ عبيده
أنها أرشدها الله * ـه وإن كانت رشيده
وعدتنى قبل أن تخـ * ـرج للحج وليده
فتأنيت وارسلـ * ـت بعشرين قصيده
كلّما أخْلَقْنَ أخلفـ * ـتُ لها أخرى جديده
ليس فى بيتى لتمهيـ * ـد فراشى من قعيده
غيرُ عَجْفاءَ عجوزٍ * ساقُها مثل القديده
وجهها أقبح من حُو * ت طرىّ فى عصيده
ما حياةٌ مع أنثى * مثل عُرْسى بسعيده

فلما قُرئت عليها الأبيات ضحكت وٱستعادتها منه لقوله : «حُوت طَرِىّ فى عصيدة» وجعلت تضحك ووهبت له جارية .

دخل يوما على المهدىّ لحادثه ساعةً وهو يضحك وقال له : هل بَقِىَ أحد من أهلى لم يَصِلك؟ قال : إن أمّنتنى أخبرتك وإن أعفيْتَنى فهو أحبُّ إلىّ ، قال : بل تُخبرنى وأنت آمن ، قال : كلهم قد وصلنى إلا حاتم بنى العبّاس ، قال : ومن هو؟ قال : عمُّك العبّاس ابن محمد ، فالتفت الى خادم على رأسه وقال : جَأْ عُنُقَه ، فلما دنا منه صاح به أبو دلامة : تَنَحَّ يا عبدَ السُّوء لا تُحْنِثْ مولاك وتَنْكُثْه عهدَه وأمانَه ، فضحك المهدىّ وأمر الخادم فتَنَحَّى عنه ، ثم قال لأبى دلامة : ويلَك ! والله عمّى أبخلُ الناس ، فقال أبو دلامة : بل هو أسْخَى الناس ، فقال له المهدىّ : والله لو مُتّ ما أعطاك شيئا ، قال : فإن أنا أتيته

فأجازنى ؟ قال : لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم، فانصرف أبو دلامة فحبّر للعباس قصيدةً، ثم غدا بها عليه وأنشده :

قِف بالديار وأىَّ الدهر لم تَقِف * على المنازل بين الظَّهْر والنَّجَف
وما وقوفك فى أطْلال منزلة * لولا الذى اسْتَدْرَجتْ من قلبك الكَلِف
ان كنت أصبحت مشغوفا بساكنها * فلا وربِّك لا تَشْفيك من شَغَف
دَعْ ذا وقُلْ فى الذى قد فاز من مُضَر * بالمكرُمات وعزٍّ غيرِ مُقْتَرَف
هذى رسالة شيخ من بنى أسد * يُهدِى السلام الى العباس فى الصُّحُف
تَخُطُّها من جَوارى المصر كاتبةٌ * قد طالما ضَرَبتْ فى اللام والألف
وطالما اختلفتْ صَيْفا وشاتيةً * الى مُعلِّمها باللَّوْح والكَتِف (١)
حتى اذا نَهَدَ الثَّديانِ وامتلا * منها وخيفت على الإسراف والقَرَف
صِينت ثلاثَ سنينٍ مَا تَرَى أحدا * كما يصون تِجارٌ دُرَّةَ الصَّدَف
فبينما الشيخ يَهوى نحوَ مجلسه * مُبادِرا لصلاة الصبح بالسَّدَف (٢)
حانت له لَمْحَةٌ منها فأبصَرَها * مُطِلَّةً بين سِجْفَيْها من الغُرَف
فخَرَّ والله ما يدرى غداتئذ * أخرَّ مُنْكَشِفًا أم غيرَ منكشف
وجاءه الناس أفواجا بمائهم * ليَغْسِلوا الرجل المَغْشِىَّ بالنُطف
ووسوسوا بقُرانٍ فى مسامعه * مخافةَ الجنِّ والإنسانُ لم يَخَف
شيئا ولكنه من حبِّ جارية * أمسَى وأصبح موقوفا على التَلَف
قالوا لك الويلُ ما أبصرتَ قلت لهم * تطلَّعتْ من أعالى القصر ذى الشُّرَف
فقلت أيُّكُمُ والله يأجُره * يُعين قوته فيها على ضَعَف
فقام شيخ بَهِىّ من رجالهمُ * قد طالما خدَع الأقوام بالحَلِف
فابتاعها لى بألفَىْ درهمٍ فأتى * بها الىّ فألقاها على كَتِفى

(١) الكتف : عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس .

(٢) السدف : الضوء واقبال الصبح .

فبَيْنَ ذاك كذا إذ جاء صاحبُها * يَبْغِى الدراهم بالميزان ذى الكِفَف
وذِكْرَ حقٍّ على زَنْدٍ وصاحبه * والحقُّ فى طَرَف والطِّين فى طَرَف
وبين ذاك شهود لا يضرّهم * أكنتُ معترفًا أم غيرَ معترف
فإن يكن منك شيء فهو حقُّهم * أوْ لَا فإنِّىَ مدفوع الى التَّلَف

فضحك العباس وقال : ويحك! أصادقٌ أنت ؟ قال : نعم والله، قال : ياغلام آدفع اليه ألفَىْ درهم ثمنها ، فأخذها ثم دخل على المهدىّ فأخبره القصّة وما آحتال له ، فأمر له المهدىّ بستة آلاف درهم ، وقال له المهدىّ : كيف لايضرّهم ذلك؟ قال : لأنى مُعْدِم لا شيءَ عندى .

دخل على إسحاق الأزرق يعودُه ، وكان إسحاق قد مرِض مَرضا شديدا ثم تعافَى منه وأفاق ، فكان من ذلك ضعيفا وعند إسحاق طبيب يصف له أدوية تُقَوِّى بدنَه ، فقال أبودلامة للطبيب : أتَصِف هذه الأدوية لرجل أضعفه المرض؟ ما أردتَ والله إلا قتلَه ، ثم آلتفت الى إسحاق فقال : اسمع أيها الأميرمنّى ، قال : هاتِ ما عندك يا أبا دلامة ، فأنشأ يقول :

نَحِّ عنك الطبيب وآسمع لِنَعْتِى * إننى ناصح من النُّصّاح
ذوتجاريبَ قد تقلّبتُ فى الصحّـ * ـة دهرا وفى السَّقام المُتَاح
غادِ هذا الكِبَابَ كلَّ صباح * من مُتُون الفَتِيَّة السَّحّاح
فاذا ما عَطِشتَ فاشرب ثلاثا * من عتيق فى الشّم كالتُّفاح
ثم عند المَساء فآعكُف على ذا * وعلى ذا بأعظم الأقداح
فتُقَوِّى ذا الضَّعف منك وتَلْق * عن ليال أصحَّ هذى الصِّحاح

فضحك إسحق وعُوّاده وأمر لأبى دلامة بخمسمائة درهم ، وكان الطبيب نصرانيًّا فقال : أعوذ بالله من شرّك ياركل «يريد يارجل» وقال الطبيب : اقبَل منى أصلحك الله

ولا تسألني عن شيء قُدّامه ، فقال أبو دلامة : أمّا وقد أخذتُ أجرة صَفْقتي وقضيت الحقّ في نُصْح صديقي فانعتْ له الآن أنت ما أحببت .

دخل على المهديّ وبين يديه سَلَمَة الوَصيف واقفا ، فقال : إني أهديت اليك يا أمير المؤمنين مُهْرًا ليس لأحد مثله ، فان رأيتَ أن تُشرّفني بقبوله ، فأمر بإدخاله اليـه ، فخرج وأدخل اليـه دابّته التي كانت تحته ، فاذا بِرْذَوْن محطَّمٌ أعجف هَرِم ، فقال له المهديّ : أيّ شيء هذا؟ ألم تزعُم أنه مُهْر ؟ قال له : أو ليس هذا سلمة الوصيف بين يديك قائمـا ، تسمّيه الوصيف وله ثمانون سنة ، وهو عندك وصيف ؟ فاذا كان سلمة وصيفا فهذا مُهْر ، فجعل سلمةُ يَشْتُمه والمهديّ يضحك ، ثم قال المهديّ لسلمة : ويلك ! إن لهـذه منه أَخَوات ، وإن أتى بها في مَحْفِل فَضَحك ، فقال أبو دلامة : والله لأفضحنّه يا أمير المؤمنين ، فليس من مَواليك أحد إلا وقد وصلني غيرُه ، فاني ما شربت له المـاء قطُّ ، قال : فقد حكمت عليه أن يشتريَ نفسَـه منك بألف درهم حتى يتخلّص من يدك ، قال : قد فعلت على ألّا يعاود ، فقال له : ما ترى؟ قال : أفعـل ، فلولا أنّي ما أخذت منه شيئا قطُّ ما فعلت معه مثل هذه ، فمضى سلمة فحملها اليه .

———

٥ — أبان بن عبد الحميد اللاحقى (١)

ذكرنا فى المجلد الأول أن أبان كان صديقا للبرامكة متصلا بهم أشد اتصال ، يستشيرونه ويعتمدون عليه فى تدبير أمورهم ، جدها وهزلها ، صعبها وهينها . وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمى ، وبالغوا فى ذلك حتى جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلات . فغضب الشعراء لذلك ، وكان أشدهم غضبا أبو نواس الذى كان يكره البرامكة كرها شديدا ، وكانت بينه وبين أبان مهاجاة ذكرها صاحب الأغانى .

وكان أبان صديقا للمعذل بن غيلان ، وكانا مع صداقتهما يتعابثان بالهجاء ، فيهجوه المعذل بالكفر وينسبه الى الشؤم . ويهجوه أبان وينسبه الى الفساء الذى تهجى به عبد القيس وبالقصر ، وكان المعذل قصيرا . فسعى فى الإصلاح بينهما أبو عيينة المهلبى ، فقال له أخوه عبد الله وهو أسن منه : يا أخى إن فى هذين شرا كثيرا ولا بد من أن يخرجاه ، فدعهما ليكون شرهما بينهما وإلا فرقاه على الناس .

ومن قوله يهجو أبا النضير :

اذا قامت بواكيك * وقد هتكن أستارك
أيثنين على قبر * ك أم يلعن أحجارك
وما تترك فى الدنيا * اذا زرت غدا نارك
ترى فى سقر المثوى * وإبليس غدا جارك
بلى تترك باكيك * ودنياك وأوتارك
وخمسا من بنات الليـ * ـل قد ألبسن أطمارك
تعالى الله ما أقبـ * ـح إذ وليت أدبارك

(١) تجد ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٢٩ وقد ذكرناه هنا لمناسبة ذكر ما عثرنا عليه من منظومته لكتاب كليلة ودمنة . وقد أضفنا هنا مالم نذكره فى ترجمته هناك .

خرج أبان من البصرة طالبا للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائبا فقصده ، فأقام ببابه مدّة مديدة لا يصل اليه ، فتوسّل الى من وصّل له شعرا اليه ، وقال له :

يا عزيزَ النّدى ويا جوهرَ الجو * هرِ من آل هاشمٍ بالبِطَاحِ
إنّ ظنّي ، وليس يُخْلِف ظنّي * بك فى حاجتى سبيلَ النّجاحِ
إنّ من دونها لمُصمَتَ بابٍ * أنت من دون قُفْله مِفتاحى
تاقت النفسُ يا خليلَ السّماحِ * نحو بحر النّدى مُجارِى الرياحِ
ثم فكّرتُ كيف لى واستخرتُ ا * للهَ عند الإمساء والإصباحِ
وامتدحتُ الأميرَ أصلحه ا * للهُ بشعر مُشَهّر الأوضاحِ

فقال : هات مديحك ، فأعطاه شعرا فى هذا الوزن وقافيته ، ترى فيه أن الرجل مُعْجَب بنفسه ، مدلٌّ بعلمه وأدبه ، تياه لا حدّ لتيهه وغروره :

أنا من بغية الأمير وكنزٌ * من كنوز الأمير ذو أرباحِ
كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديبٌ * ناصحٌ زائدٌ على النُّصّاحِ
شاعرٌ مُفْلِقٌ أخفّ من الريـ * ـشة مما يكون عند الجَناحِ

وهى طويلة ذكرناها فى المجلد الأوّل .

وكان أبانُ شديدَ الحرْص على المال يُضَحّى فى سبيله بأشياء كثيرة ، منها العَقِيدةُ والرأى . وكانَ يحسُد مَرْوانَ بن أبى حَفْصة لمكانه من الرشيد ولظَفَره بالصِّلات الضخمة والجوائز السنية ، فقد انتهى الأمر ببنى العبّاس مع مروان بن أبى حَفْصة الى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألفَ درهم ، فغاظ ذلك أبانَ وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مَرْوان ، فعاتَبَ أبانُ البرامكةَ على تركهم إيصالَه للرشيد وإيصالَ مديحه اليه ، فقالوا له : ما تريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظَى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ، فقالوا : إنّ لذلك مذهبا فى هجاء آل أبى طالبٍ وذمّهم ، به يَحْظى وعليه يُعْطَى ، فاسلكه حتى تفعل ، قال : لا أستحلّ ذلك ، قالوا : فما تصنع ، لا يَجىء طلب الدنيا إلا بما لا يحلّ ! فقال أبان :

نَشَدتُ بحقِّ الله مَنْ كان مُسْلِماً * أَعَمَّ بما قد قُلتُه العُجْمَ والعَرَبْ
أَعَمُّ رسولِ اللهِ أَقْربُ زُلْفَةً * لَدَيه أم ابْنُ العَمِّ فى رُتْبَةِ النسَبْ
وأيُّهما أَوْلَى بِه وبعَهْدِه * ومَنْ ذَا لَهُ حَقّ التُّرَاثِ بما وَجَبْ
فإن كانَ عَبّاسٌ أحقَّ بتلكُمُ * وكانَ علِىٌّ بعد ذاك على سَبَبْ
فأبناءُ عبّاسٍ هُمُ يَرِثُونَهُ * كما العَمُّ لابْن العَمِّ فى الإرْثِ قد حَجَبْ

وهى طويلة .

فقال الفضل : ما يَرِدُ على أمير المؤمنين اليومَ شىء أَعْجَبُ من أبياتك . فركِبَ فأنشدها الرشيدَ ، فأمَرَ لأبان بعشرين ألف درهم . ثم اتّصلَ مدحُه للرشيد بعد ذلك وخُصَّ به .

وكان أبَان هَجّاء قبيحَ اللسان ، وكان مع هذا شِرِّيرًا قاسيًا يُؤثِر الشرَّ ويجِدُ فيه لذّة . وقد رَوَى له أبو الفرج قصّةً تُمَثِّل نصيبه من القسوة وحبّ الشرّ ، كما أنها تعطينا صورة من شعره ومن الحياة فى عصره . قالوا : كان يُقيم بالقُرْب من أبان رَجُلٌ ثَقَفِىٌّ يقال له : محمد ابن خالد ، وكان عَدُوّا لأبان ، فتزوّج محمدٌ هذا ثَقَفيَّةً معروفةً هى عَمّارة بنت عبد الوهاب ، وكانت عمارة غَنِيَّةً موفورة الثروة ، فاغتاظ أبان لهذا الزواج ، وقال هذه القصيدة التى بلغت عمارة فأفسدت زواجها :

لما رأيتُ البزَّ والشارَهْ * والفَرْشَ قد ضاقتْ به الحارَهْ
واللَّوْزَ والسُّكَّرَ يُرْمَى به * من فَوْق ذى الدار وذى الدارَهْ
وأحضَرُوا المُلْهِينَ لم يتركوا * طَبْلًا ولا صاحبَ زَمّارَهْ
قلتُ : لماذا قيل : أُعجوبةٌ * محمدٌ زُوِّجَ عَمّارَهْ
ما ذا رأتْ فيه وما ذا رَجَتْ * وهى من النِّسْوَان مُخْتارَهْ
أَسْوَدُ كالسَّفُّود يُنْسَى لدى التَّنُّور بل مِحْرَاكُ قَيّارَهْ(١)
يُجْرِى على أولاده خمسةً * أرغفةً كالريش طيّارَهْ

(١) القيارة : محل إسالة القار .

وأهـلُهُ في الأرض من خوفه * إن أفرطوا في الأكل سـيّارهْ
ويحـك فِرّي واعصى ذا به * فهـــذه أختُــك فـــرّارهْ
اذا غفا بالليــل فاستيقظي * ثم اطفِـرى(١) إنك طفّـارهْ
فصـــعدتْ نائـــلةً سُلَّمًـا * تخاف أن تصعَدَه الفارهْ
"سرورُ" غرّتْها فلا أفلحتْ * فإنهـا الخنـاء غـــرّارهْ
لو نلت ما أبعدت من ريقها * إن لهـا نَفْثَــةَ سحّـارهْ

فلما بلغت هذه القصيدة عمّارة هَرَبت، فحُرِم من جهتها مالا عظيما. والثلاثة الأبيات الأخيرة التي أوّلها * فصعدت نائلة سلما * زادها في القصيدة بعد أن هربت.

جلس أبان ليلة في قوم فثَلَبَ أبا عُبَيْدة فقال: يقدح في الأنساب ولا نسب له. فبلغ ذلك أبا عبيدة فقال في مجلسه: لقد أغفل السلطان كل شيء حين أغفل أخذ الجزية من أبان اللاحق، وهو وأهله يهود، وهذه منازلهم فيها أسفار التوراة وليس فيها مصحف، وأوضحُ الدِّلالة على يهوديتهم أن أكثرهم يدَّعي حفظَ التوراة ولا يحفظ من القرآن ما يصلِّي به. فبلغ ذلك أبان فقال:

لا تنَمَّنّ عن صديقٍ حديثا * واستعِذْ من تسرُّر النمّامِ
واخفِضِ الصوتَ إن نطقتَ بليلٍ * والتفِتْ بالنهـار قبـلَ الكلامِ

قال عيسى بن اسماعيل: كنا في مجلس أبي زيد الأنصاري فذكروا أبان بن عبد الحميد، فقالوا: كان كافرا، فغضب أبو زيد وقال: كان جاري فما فقدت قراءته في ليلة قط.

***

وكان أبان يفوق الشعراء في شيء نحسب أنه هو الذي سبق اليه، فقد ابتكر في الأدب العربي" فنًّا لم يتعاطَه أحد من قبله، وهو فنّ الشعر التعليمي"، طرَق فيه فنونا مختلفة من العلم والحكمة والدين. وقد تحدّث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كليلة ودمنة» ليسهُل عليهم

(١) طمر: وثب في ارتفاع.

حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف واكتفى جعفر بأن يكون راويته . وروى أبو الفرج أبياتا أربعة من هذا النظم ، وقد عثرنا على قطعة من كتاب مخطوط يوجد فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٩٤) تاريخ ، وهو كتاب «الأوراق» للصولى . وفى هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة ، فرأينا أن نثبتها هنا ، لأن المنظومة ضاعت ولم يبق منها إلا الأبيات الأربعة التى رواها أبو الفرج . وها هى ذى :

هـذا كتابُ كَذِب ومِحْنَـهْ * وَهُوَ الذى يُدْعَى كَليلَه دِمْنَـهْ
فيـه دَلالاتٌ وفيـه رُشْـدُ * وهو كتابٌ وَضَعَتْهُ الهِنْـدُ
فَوَصَفُوا آدابَ كُلِّ عَالَم * حِكَايةً عن أَلْسُن البهائم
فالحكماءُ يَعْرِفون فَضْلَهْ * والسخفاءُ يَشْتَهُونَ هَزْلَهْ
وهْوَ على ذاكَ يَسِيرُ الحِفْظِ * لَذٌّ على اللسانِ عِنْدَ اللفظِ
يا نفس لا تشاركى الجهّالا * فى حبّ مذمومٍ كأنْ قد زالا
يا نفسُ لا تشقَىْ ولا تَعَنَّىْ * فى طلب الدنيا ولا تمنَّىْ
ما لم ينلْه أحدٌ إلا نَدِمْ * اذا تولّى ذاك عنه وسدِمْ (1)
دنياكِ بالأحباب والإخوانِ * كثيرة الآلام والأحزانِ
وهى وإن نيل بها السرورُ * آفاتُها وغمُّها كثيرُ
يا نفس لا يحمِلْكِ حبُّ أهلِكِ * ولا أَدانيك على أن تَهلِكى
فى جمع ما يرضيهمُ فإنه * يضرب من أمثال ذاك الدُّخْنَهْ (2)
ينال قوم عَرْفَها وتحترقْ * رأىٌ به يرضى أخو الرأى الحَمِقْ
وجدتُ ذا النُّسْك الذى قد فكّرا * فزاده تفكيرُه توقُّرا
وقلَّ لمّا رضىَ اهتمامُهُ * وتمّ من سروره تمامُهُ

(١) ندم وحزن . (٢) الدخنة : نحو يدخن به الثياب أو البيت وفى الأصل : «الدجنة» بالجيم وهو تحريف .

وترك الدنيا لمن يشقى بها * ومن يُقاسي الكدَّ من أنصابها
فعنــدها نجــا من الشرورِ * ونال أقصى غايةِ الســرورِ
ثم سخت عن كلّ فانٍ نفسُــهُ * فلَقِيَ الســعدَ وغاب نحسُــهُ
وأبصـــر الثّــوابَ فى القيــامهْ * فأمن الحسرةَ والنــدامهْ
ومَثَلُ الدنيــا كبرقِ الخُلَّب * من يغــترر منــه بسَقْيٍ يُكذَب
وهو قيــاسا مثــلُ نوم النــائمِ * تُفرحهُ أضــغاثُ حُلْمِ الحــالمِ
حــتى اذا آستيقظ صار همــا * ما كان فى النــوم به ألمَّــا
فكيف بالصـــبر على أيّامِ * عمّــا قليـــل هُنَّ لآنصرامِ
وكيف والدنيــا بلاءٌ كلّهــا * لا يأمن الآفاتِ فيهــا أهلُها
أشهد أن الله فــردٌ واحدُ * أقــرّ أو أنكرَ ذاك جاحــدُ
ليس له كفوا ولا نِدًّا أحــدْ * لم يَــلِدِ اللهُ ولا له ولدْ
وإننى بمــا عملت مرتهَــنْ * ما كان منه من قبيحٍ وحسَنْ

من باب الأسد والثور

وإنّ من كان دنى النفس * يرضَى من الأرفع بالأخسّ
كمَثَلِ الكلب الشــقِّ البــائس * يفــرحُ بالعظم العتيق اليــابس
وإن أهــلَ الفضــل لا يُرضيهمُ * شيءٌ اذا ماكان لا يَعنيهــمُ
كالأســد الذى يصيد الأرنبــا * ثم الى العَــيْرِ(١) المجــدّ هــربا
فيرســل الأرنبَ من أظفارِه * ويتبــع العــيرَ على أدبارِه
والكلب من رِقّته تُرضــيه * بلقمــةٍ تقْــذِفها فى فيــهِ
فمن يعشْ ما عاش غيرَ خاملْ * له ســرورٌ دائمٌ ونائلْ
فهو وإن كان قصــيرَ العمرِ * أطولُ عمــرا من حليف فقــرِ
ومن يعشْ فى وحشــةٍ وضيقِ * وقــلّة المعروف فى الصــديقِ

(١) فى الأصل "ثم للعير" والعير: الحمار.

فهو وإنْ عُمِّرَ طولَ دهرِهِ * ليس بمغبوط بطولِ عمرِهِ
وقيل أيضا إنه قد ينبغى * للرجل الفاضل فيما يبتغى
ألَّا يُرى إلا مع الأملاكِ (١) * أو يعبُد اللهَ مع النُّسَّاكِ
كالفيل لا يصلحُ إلا مَرْكبا * لملك أو راعيًا مسيَّبا
قال له السبعُ لقد سمعتُ * وكلّ ما تقول قد فهمتُ
لكننى لستُ أظنّ ما تظنُّ * بالثور من غشّ بلى ظنّى حسنْ (٢)
قال له دمنةُ من ثمّ أُتِى * وهذه مَنْ حالُهُ هى التى
رفعتَه حتى تعدّى طورَه * وكان هذا لك منه شكره
وتلك أخلاق اللئيم الفاجرِ * الكافرِ المغرورِ غيرِ الشاكر
ما إن يزال ناصحا نفّاعا * حتى يَرَى من حاله ٱرتفاعا
فعندها يسمو الى ما فوقَها * الى التى لا تستطيع أوقَها (٣)
وربما كان هلاكُ الشجرِ * فى حُسْنِ الغصْن وطيب الثمَرِ
وذنب الطاووس فهْوَ زَيْنُهُ * كذاك أحيانا وفيه حَيْنُهُ
وباذل النصح لمن لم يشكرْهْ * كطارحٍ فى سَبَخٍ ما يبذُرُهْ
لا خير للعاقل فى ذى المَنْظَرهْ * إن هو لم يحْمَدْهُ عند المَخْبَرهْ
وليس فى الصديق ذى الصفاءِ * خيرٌ اذا لم يك ذا وفاءِ
الرجلُ العاقلُ من لا تُسْكِرُهْ * كأسُ سموٍّ وٱقتدار يُبطِرُهْ (٤)
فالجبلُ الثابتُ فى أصولهِ * لا تقدِرُ الريحُ على تحويلهِ
والناقصُ العقلِ الذى لا رأىَ لَهْ * يطغى إذا ما نال أدنى منزلَهْ
مثلُ الحشيش أيّما ريح جرتْ * مالت به فأقبلتْ وأدبرتْ
الأهل والإخوان والأعوانُ * عند ذوى الأموال حيث كانوا

(١) الأملاك : الملوك . (٢) كذا فى الأصل ولعله : «بل الظن الحسن» .
(٣) أوقها : ثقلها . (٤) فى الأصل هكذا "نطره" .

والمـال هادِى الرأى والمــروّهْ * وهـــو على كل الأمور قـــوّهْ
والمـالُ فيـــه العـــزُّ والجمـالُ * والذلُّ حيث لا يكون المـالُ
وربّمـا دعا الفقـــيرَ فقـــرُه * الى التى يُحبَــطُ فيهـا أجرُه
فيخسَر الدِّينَ كما كان خسِرْ * دنيـاه والخسران ما لا ينجـــبِرْ
وليس من شىء يكون مَدْحا * لذى الغـــنَى إلا يكون بَرْحا
على الفقـــير ويكون ذمًّا * كذاك يُدْعَى وبه يُســـمَّى
فإن يكن نَجْدًا يقولوا أهوجُ (١) * كذاك عند الحرب لا يعرِّجُ
وهو إذا كان جوادًا ســـيّدا * سُمِّىَ للفقــرِ مُضيعًا مُفســدَا
أويك ذا حِلمٍ يُقَـــلْ ضعيفُ * أويك بسّـاما يُقَـــلْ سخيفُ
الرجلُ العـاقلُ فيما يُســـدِى * مغتبِـــطٌ بكسـبه للحمـــدِ
لأنه باع قليـــلا فانيـا * وٱعتاض من ذاك كثيرا باقيا
فأغبِـــطُ النـاسِ الكثيرُ نائـلُهْ * ومـــدرِكُ النجـح لديه سـائلُهْ
فــلا تعُدَّنْ ذا غـنى غنيّـا * حتى يكونَ ماجدا سريّا
وٱعلم بأن الملِكَ المشـاورا * ذا العقـــل فيما نابه المؤازرا
فإنه يُعضَـــدُ بالتأييـــد * يَغْنَى به عن كثرة الجنـــودِ
والحـازمُ التـابع أمرَ الحَـــزَمَهْ * النصحاءِ غيرِ أهـــل التُّهَمَـــهْ
يزداد حزما بهِـــمُ ورُشْـــدا * زيادةَ البحـــر إذا ما مُـــدَّا
بمـا يُصَبّ فيـــه من أنهـارِهِ * حتى يهيـجَ المـوجُ من تيّـارِهِ
والموتُ من مات كريمـا صـابرا * خيرٌ من العيش ذليـــلا صاغرا

ولم ينقل لنا الصّولىّ فى كتابه إلا هـذه القطعة . ويعدّ أبان فى هذا ناظما لكتاب معروف، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومة ، فنظم قصيدة طويلة فى الصوم والزكاة، روى منها الصّولىّ طرفا .

(١) الهوج : الحمق . وفى الأصل : «طوج» باللام وهو تحريف .

فقيل لأبان بعد أن نظم كليلة ودمنة : ألا تعمل شعرا فى الزهد ؟ فعمل قصيدة مزدوجة فى الصيام والزكاة ، وترجمتها :

"قصيدة الصيام والزكاة * نقلُ أبان من فم الرواة"

وها هى ذى القصيدة :

هذا كتابُ الصوم وهو جامعُ * لكلّ ما قامت به الشرائعُ
من ذلك المُنْزَلُ فى القرآن * فضلا على من كان ذا بيانِ
ومنه ما جاء عن النبىّ * من عهده المتّبَع المرضىّ
صلّى الإلهُ وعليه سلّما * كما هدَى اللهُ به وعلّما
وبعضُه على اختلاف الناسِ * من أثرٍ ماضٍ ومن قياسِ
والجامعُ الذى اليه صاروا * رأى أبى يوسف مما اختاروا
قال أبو يوسف أمّا المفترَضْ * فرمضانُ صومُه اذا عَرَضْ .
والصوْم فى كفّارة الأيمانِ * من حيثُ ما يجرى على اللسانِ
ومَعَهُ الحجّ وفى الظِّهارِ(١) * الصوْم لا يُدفَع بالإنكارِ
وخطأ القتل وحَلْق المُحرِمِ * لراسه فيه الصيامُ فافهمِ
فرمضانُ شهرُه معروفُ * وصومُه مفترَض موصوف(٢)
والصوم فى الظهار ان لم يقدِرِ * مظاهرٌ يوما على محرَّرِ
والقتلُ إن لم يكُ عَمْدا قتْلُهُ * فإنّ ذاك فى الصيام مثلُهُ
شهران فى العِدّةِ كاملانِ * متّصلان لا مفرّقانِ
والحِنْثُ فى روايةٍ مقبولهْ * ثلاثةٌ أيامُها موصوله
ومثلُها فى عدّة الأيامِ * للمُحرِم الحالِق فى الإحرامِ
ثلاثةٌ يصومها إن حلّقا * لا بأس إن تابعها أو فرّقا

(١) الظهار مصدر ظاهر الرجل من امرأته اذا قال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، فكنى بالظهر عن البطن تأدبا .
(٢) فى الأصل : "موطوف" .

والصومُ فى المُتْعة ان لم يجـدِ * هَدْيًا وكان بالصيام يفتـدى
صـــيامُ أيامٍ مؤقّتـــاتِ * ثلاثةٍ فى الج مفـــروضاتِ
وبعد ما يرجع صومُ سـبعه * عشـــرةٌ كاملة فى المتعـــه
أمّا الثـــلاثةُ التى فى الحجّ * فكان مَنْ أدركتُ من محتـجّ
أو غيرُه ممن يَرَى أن يرويَهْ * يقول يوما قبـل يوم التَّرْويَهْ
ويومها وصـــوم يومِ عرفَهْ * مؤتلفاتٍ الصـوم لا مختلفَـهْ
قالوا وإن أحبَّ أن يُفَـــرِّقا * فذاك ما ليس عليـه ضـيِّقا
إن كان ذاك الصوم منه بعدما * يكون فى عُمـــرَتِه قـد أحرما
ولو أراد الصـــومَ فى شوّالِ * من بعـد أن يوجب بالهلالِ
عمـرتَه لكان ذاك مُجزيا * بذاك يُفتَى من أتى مسـتفتيا

وهى طويلة جدّا

ونحسب أن مكانه من البرامكة هو الذى حمله على اختراع هذا الفن، فقد كان مكانه منهم مكان المؤدّب لصبيانهم وشبابهم، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العـلم تسهيلا . وليس من شك فى أن هذه الأموال التى أصابها من البرامكة حينما نظم كليلة ودمنة قد أطمعته، فنظم القصائد الأخرى ليصيب مثل ما أصاب .

أخبار حمدان بن أبان بن عبد الحميـد بن أبان ومختار من شعره

قال أبو بكر الصّولىّ : حدّثنى محمد بن زياد قال : كانت فى عبد الصمد بن المعذّل عربدة اذا سكر، فعربد يوما فى مجلس فيه حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان، وكان أيِّدا[١]، فقال لهم : كِلُوه إلىّ وحدى، وأخذه وكتفه وجعله فى بيت وأغلق بابه، وقال : اذا أصبحتم فأطلقوه، وآنصرف؛ فبلغه أن عبد الصمد حلف ليهجونّه سنة، فقال حمدان يهجوه :

(١) أيدا : قويا .

قل لعبد الصمد الأحـ * ـمق لا تغضبْ عليَّهْ
وعلى أمّك فاغضـــبْ * وا كوها فى الهَنِ كيَّهْ
أمك العــفلاء جاءتـ * ـنى بسلمى ورُقَيَّــهْ
وهى ساقت ليــلةً فا * طمةً أخرى اليَّــهْ
فقضــينا فيهـــم الحـق * وقلّبنـا الســويّهْ

وقد ذكر الصولى فى كتابه الأوراق ما اختاره من قصيدة حمدان بن أبان بن عبدالحميد ابن أبان فى وصف الحب وأهله وهى طويلة، قال :

ما بالُ أهـلِ الأدبِ * منا وأهــلِ الكتب
قـد وضـعوا الآدابا * وأتعبـوا الكتّابا
لكلّ فنٍّ دفـترُ * منقّـــطٌ محـــبّرُ
ففُـــرِّقتْ أجناســا * وعلّمــوها الناســا
بالحِيَـــل الرقيقـــه * والفِطَن الدقيقه
فأرشـدوا الضُّـلّالا * وعلّمــوا الجُهَّـالا
سِوى المحبينَ فلمْ(١) * يرعَوا لهم حقَّ الذِّمَمْ
فى عِلم ما قد جَهِـلوا * وما به قد ٱبتُـلُوا
قد غَلِقتْ رُهونُهُــمْ * وٱســتعبرَتْ عيونُهمْ
وحالفـــوا السُّهَـادا * وخالفـــوا الرُّقَـادا
فليلُهـــم طـــويلُ * ونومُهـــم قليـــلُ
أبدانُهـــم نحيـــلَهْ * مُتعَبَـــةٌ عليـــلَهْ
نفوسُهـــم حزينَـــهْ * مشـــغوفةٌ رزينَـــهْ
ظاهرةٌ غمومُهـــمْ * باطنـــةٌ كلومُهـــمْ

(١) فى الأصل : "فكم" .

باكيةٌ عيونُهـــم * قريحـةٌ جفونُهـــم
إن ظُلمـوا لم يَظْلِموا * وإن شكَوْا لم يُرْحَمُوا
أحبابُهـــم فى لَعبٍ * وفى دوام الطـــرَبِ
صافيـــةٌ ألوانُهـــمْ * ضاحكةٌ أســـنانُهمْ
قد سكَنُوا القُصورا * وقارَنوا السُّـــرورا
تفـــرَّغوا للهَجْـــرِ * وللنَّـوى والغـــدْرِ
بعاشـــقٍ يهـــواهُمُ * بالله ما أقســـاهُمُ
وَعْـــدُهُمُ وَعِيـــدُ * إقـــرارُهُمْ جُحُـــودُ
بؤسَى لأهـلِ العشقِ * أهـلِ الضَّنَا والرِّقِّ
ليس لهـــم وســـيلَهْ * ولا وجوهُ حيـــلَهْ
رأيتُ لمَّا خُـذِلُوا * وفى هواهمُ وَحـــلُوا
أَنْ أُرشِـــدَ المغَفَّلا * الجاهـلَ المضَـــلَّلا
الى الطـريقِ الواضحِ * عنـد البـلاءِ الفادحِ
وأبتـــدِى كتابا * للوصـــفِ بابا بابا (١)
يا أيّها الناسُ قَعُـــوا * وصـــيَّتِى وآستمِعُوا
ففى صِـــفاتِى عَجَبْ * وفى كتابى أدب
قصـــيدتى مقـــوَّمَهْ * ألفاظُهـا منظَّمَـــه
فيهـا هَوَى العُشّـاقِ * ومُنيَـــةُ المشـــتاقِ
وصَفْتُ أهلَ العشقِ * ولم أَمِلْ عن حقِّ
فاسمعْ مقالا صـادقا * يا من يبيتُ عاشـــقا
للحـــبِّ خَلَّتانِ * هُمَـا هُمَـا اللّتانِ
الصـــبرُ والرفقُ معَـا * يومًا اذا ما آجتمَعا

(١) فى الأصل : * لوصف باب بابا *

فى عاشــقٍ مهجورِ * مبـاعَدٍ مغــرُورِ
قَضَى قريبـا وطَـرَا * وبلّغـاهُ الوطَـرا
ما الحسنُ والإحسانُ * والملكُ والسلطانُ
يعدِلُ وصـلَ الإلفِ * وكَسرَهُ للطَّـرْفِ
ما حَسَنٌ فى العيْنِ * أحسنُ منْ إلفيْنِ
يوما اذا ما ٱلتقيـا * فى مجلسٍ فاشــتفيا
مُداوِمَيْنِ للنظَـرْ * قد أمِنا كلَّ حَذَرْ
يبادرانِ الخَـلوَهْ * ويُظهران الصــبوَهْ
مساعدَيْنِ ٱتفقا * باتا ولم يفــترِقا
هواهمـا مخزونُ * سرُّهمـا مدفونُ
مدارِيَيْنِ أصبحا * للنـاس لم يفتضِحا
مَنْ جرَّب الحبَّ عَرَفْ * ما بين ملكٍ وأسفْ
لن يبلغَ الصبُّ المُنَى * إلا بصــبرٍ وعَنَـا
إن الهــوى ضُروبُ * وأمره عجيـــبُ
وأهــلُه أطــوارُ * فيـــه لهـــم أوطارُ
للعاقلِ الشـــريفِ * والأحمـقِ السخيفِ
فمنهُـــمُ مرزوقُ * محبَّبٌ معشـــوقُ
على ٱضطرابِ الخلْقِ * منـه وسـوءِ الخُلْقِ
تُقضَى له الأوطارُ * وتُعـملُ الأشــعارُ
مقـــرَّبٌ ما يُقصَى * مطـاوَعٌ ما يُعصَى
ومنهُـــمُ محــرومُ * مُحـارَفٌ(١) مَشــئُوم

---

(١) محارف : محروم محدود اذا طلب لا يرزق .

علی جمـالِ هیئتِــهْ * وحســنه وبهجتِــهْ
ومنهُمُ من يُبتَدَا * ينـالُ عيشًـا رَغَدَا
من غير سعي وطَلَبْ * وغـــيرِ كَدٍّ ونَصَبْ
فَـذَّ ذاك الأسـعدُ * والبختُ منه أجْودُ
إذ فاز باللـــذَّاتِ * ودَرَكِ الحـــاجاتِ
ومنهُمُ من يتعَبُ * فی حبِّـــهِ ويدأبُ
أسقمه طولُ الهوی * وشـفَّه وجدُ الجوی
فذاك صبٌّ قد شَقِی * بؤسَی له ما ذا لَـقِی
ومنهُـــمُ البصـــيرُ * العـــاقلُ النِّحـــريرُ
يحتمـــل الهجـــرانا * ويحمِـــلُ الأحـــزانا
فــلا يزال مبتَـــلَی * حتی ينـالَ أمـــلَا
ومنهـــم العميـــدُ * الجاهـــلُ البليـــدُ
يُحِبُّ بالتضـــجُّرِ * والجهـلِ والتكـبُّرِ
يَلقَی الحبيبَ باهتـا * فـلا يزالُ ساكـتا
ومنهُمُ مَن يهوَی * بالغيب ياتی عفـوا
فـيزرَعُ الغُمـــوما * مســتجلبًا هُمـــوما
فـــذاك حبُّ الغيبِ * ليس به من عيبِ
من دونه حجـابُ * ودونـــه أبوابُ
فمـا لـــذاك لَبثُ * وليس منـــه مُكثُ
حتی يُرَی مقهـــورا * فی حبِّـــه محسورا
ومنهُـــمُ جَبَّـارُ * فی حبِّـــه ازورارُ
يُزْهَی اذا ما عَشِـــقا * ورهنُـهُ قـد غَلِقـا

يلــتزم اللَّجاجَــهْ * فليس يُبدي الحاجَهْ
فذاك حبُّ الفَوتِ * وفيــه كَربُ الموت
ومنهُــمُ من للنظَرْ * يهوَى ولم يَعْدُ البصَرْ
اذا رأَى خليــلَه * داوَى به غليــلَه
يكتمُ ما يقــاسِي * من أعين الجُـلَّاسِ
ومنهمُ من اقتصرْ * على الحديث والنظـرْ
غايتُــه الســلامُ * واللحــظُ والكلامُ
مدافعٌ عن حبِّــه * يكتُمُ وجدَ قلبــه
ينفِي الهوى وينــكرُهْ * وبالتَّــبرِّى يســترُهْ
فذاك حبُّ العاقــلِ * حبُّ أديبٍ كامــلِ
وبعضُهم لا يُقنِعُــهْ * إلا عمودٌ يودِعُــهْ
قــد طلَبَ الحراما * والتمــسَ الأثاما
فذاك حبُّ النَّهــمِ * الماجنِ المغتــلِم
حقَّ له الحرمانُ * والمنعُ والخذلانُ
وبعضُهــم مَــذَّاقُ * معــانِثٌ مَــلَّاقُ
مستعمِلٌ للكــذبِ * مُحَــرِّفٌ فى الكُتُبِ
فــذاك حبُّ الزُّورِ * يلسَــعُ كالزُّنبــورِ
وبعضُهــمْ عميــدُ * غايةٌ ما يـــريد
خَلوةُ من يهــواهُ * فى مشهــدٍ يلقــاهُ
لحظتُــهُ مُســارَقه * مَبيتُــهُ مُعانَقَــهْ
مكاتمٌ لحبِّــه * فى بُعــده وقُــربِه
فــذاك حبٌّ يُكمِــدُ * نــيرانُه لا تَخمُــدُ

ومنهم مَنْ يهتِف * بالحبِّ حين يُشغَفُ
اذا الحبيبُ صـــدَّا * ولم ينِـــلْه وُدَّا
تاهَ عليـــه وحَزِقْ (١) * وصدَّ عنه وحَمِـــقْ

وقال فى آخرها :

قـــد تمَّ منى وَصْفُ * ولم يَخُـــنِّى الرَّصْفُ
وانقضتِ القصـيدَهْ * محبـــوبةً حميـــدَهْ
والحمـــدُ للرحمنِ * ذى العـزِّ والسُّلطانِ
والذمُّ للشيطانِ * ذى العَـرِمِ (٢) والطُّغيانِ

(١) حزق : ضن عليه و بخل .

(٢) العرم : الشدّة والشراسة . وفى الأصل : « العزم » .

٦ — منصور النَّمَرِىّ (١)

كان ذا حيلة سياسية ، فأدرك أن الرشيد يسرُّه أن يُمدح بنفى الإمامة عن علىّ والطعن عليه ، لما كان يراه من تقديم مروان بن أبى حفصة بسبب ذلك ، فسلك مذهبه ونحا نحوه — والشعراء يومئذ انما يطلبون الكسب — لكنه لم يصرّح بالهجاء والسبّ كما فعل مروان ؛ ومن قوله فيه قصيدة مطلعها :

أميرَ المؤمنين اليك خُضْنا * غمارَ الهَوْل من بَلَدٍ شَطِير
بخُوصٍ كالأهلّة خافقاتٍ * تَلِين على السُّرى وعلى الهَجِير
حَمَلْن اليك أحمالا ثِقالا * ومثلَ الصخرة الدُّرّ النثير
فقد وَقَفَ المَديح بمُنْتَهاه * وغايَتِه وصار الى المصير
الى من لا تُشير الى رسولٍ * اذا ذُكِر النَّدَى كَفُّ المُشِير

وذكَر فى القصيدة يحيى بن عبد الله بن حسن فقال :

يذلِّل من رقاب بنى علىّ * ومنُّ ليس بالمنّ الصغير
مننتَ عَلَى ابن عبد الله يَحْيَى * وكان من الحُتوف على شَفِير

(١) هو منصور بن الزبرقان بن سلمة النمرى الربعى ، من النمر بن قاسط ، ثم من ربيعة بن نزار ، شاعر من شعراء الدولة العباسية . من أهل الجزيرة ، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابى وراويته ، عنه أخذ ، ومن بحره استق ، وبمذهبه تشبه . وصفه العتابى للفضل بن يحيى بن خالد وقرظه عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحبه ، ثم وصله بالرشيد وجرت بعد ذلك بينه وبين العتابى وحشة حتى تهاجرا وتناقضا وسعى كل واحد منهما فى هلاك صاحبه ؛ وكان النمرى قد مدح الفضل بقصيدة وهو مقيم بالجزيرة ، فأوصلها العتابى اليه واسترفده له وسأله استصحابه ، فأذن له فى القدوم ، فحظى عنده ، وعرف مذهب الرشيد فى الشعر وإرادته أن يصل مدحه إياه بنفى الإمامة عن ولد على بن أبى طالب عليهم السلام والطعن عليهم وعلم مغزاه فى ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبى حفصة وتفضيله إياه على الشعراء فى الجوائز ، فسلك مذهب مروان فى ذلك ونحا نحوه ، ولم يصرح بالهجاء والسبّ كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأومأ ولم يحقق ، لأنه كان يتشيع ، وكان مروان شديد العداوة لآل أبى طالب وكان ينطق عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا فلا يبقى ولا يذر . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٢ ص ١٦ وج ١٧ ص ٣٢ و ١٤١) .

ولقد تخلص الى شيء ليس عليه فيه شيء وهو قوله :

فإن شكروا فقد أنعمتَ فيهم * وإلّا فالنّدامة للكفور
وإن قالوا بنو بنت حقٌّ * وردّوا ما يناسب للذّكور
وما لبنى بنات من تُراث * مع الأعمام فى وَرَق الزّبُور

ومنها :

بنى حَسَن ورَهْطَ بَنِى حُسَينٍ * عليكم بالسَّداد من الأمور
فقد ذُقتم قِرَاع بنى أبيكم * غَداةَ الرّوْع بالبِيض الذّكور
أحين شَفَوْكُمُ من كل وِتْر * وضَمُّوكم الى كَنفٍ وَثير
وجادُوكم على ظمأ شديدٍ * سُقيتم من نَوالهم الغزير
فما كان العقوق لهم جَزاءً * بفعلهم وآدى للشُّور
وإنك حين تُبْلغهم أَذاةً * وإن ظَلَموا لمحزونُ الضّمير

فقال له : صدقت وإلا فعلىّ وعلىّ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وأنشد الرشيدَ يوما قصيدتَه التى أوّلها :

ما تنقضى حَسْرَةٌ منّى ولا جَزَعُ * اذا ذكرتُ شَبابا ليس يُرْتَجعُ
بان الشبابُ وفاتنى بِلَذَّتِه * صُرُوفُ دَهْرٍ وأيامٌ لها خِدَعُ
ما كنت أوفِى شبابى كُنْهَ غُرّته * حتى ٱنقضَى فاذا الدنيا له تَبَعُ

فقال الرشيد : أحسن ! والله لا يَتَهَنّى أحد بعَيْش حتى يَخْطِرَ فى رِداء الشباب .

ومن قوله فيها يمدح الرشيد :

أىّ آمرئٍ باتَ من هارونَ فى سخط * فليس بالصلوات الخمْس يَنْتَفِع
إنّ المكارم والمعروفَ أوْديةٌ * أَحلّك اللهُ منها حيث تَجْتَمِع (١)

(١) رواية الأغانى : "تتسع" .

اذا رَفعتَ آمرءًا فاللهُ يَرفَعُــه * وَمَنْ وَضَعتَ من الأقوام مُتَّضِعُ
نَفْسِى فِداؤك والأبطالُ مُعْلمة * يومَ الوَغَى والمنـايا صابُها فزَع

ومن قوله يمدح الرشيد :

يامَنزِلَ الحى ذا المَغانى * إنعمْ صَبَاحًا على بِلاكَا
هارونُ ياخيرَ من يُرجّى * لم يُطِـع اللهَ مَنْ عَصَاكا
فى خيرِ دِينٍ وخيرِ دنيا * من آتقى اللهَ وآتقـاكا

وناهيك بقصيدته التى رفعت السيفَ عن ربيعةَ بنَصيبِين بعد أن جرده فيها الرشـيد وهى التى يقول فيها :

وقــد علم العُدْوانُ والجَوْرُ والخَنا * بأنك عَيّاف لهن مُزايــلُ
ولو عملوا فينـا بأمرك لم يكن * ينـال بَرِيّا بالأذى مُتناوِلُ
لنـا منك أرحامٌ ونعتــدّ طاعةً * وبأسا إذا آصطكّ القَنا والقنابل(١)
وما يَحْفَظ الإحسانَ مثلك حافظٌ * ولا يَصِلُ الأرحامَ مثلك واصل
جعلناك فامنَعْنا مَعـاذًا ومَفزَعًا * لنا حين عضّتنا الخطوبُ الحلائل
لأنت إذا عاذت بوجهك عُوَّذٌ * تَطامَنَ خوف وآسـتقرّت بلابل

اجتمع جماعة من الشعراء ببَغْداد وفيهم منصور النمرى، وكانوا على نَبيذ، فأبى منصور أن يشرب معهم، فقالوا له : إنمـا تعاف الشّراب لأنك رافِضِىّ، وتَسـمع وتُصغى الى الغِناء، وليس تَرْكُكَ النَّبيذ من ورع، فقال :

خلا بين نَدْمانَىَّ موضـعُ مَجْلسى * ولم يبق عندى للوِصال نَصيب
ورَدّتْ على الساقى تَفِيض وربّما * رددتُ عليه الكأسَ وهو سَليب
وأىّ آمرئ لايَستهشّ اذا جرتْ * عليه بَنَـانٌ كَفُّهن خَضيب

(١) مفرده قنبل بفتح فسكون ثم فتح : الطائفة من الناس .

قال النمرى : كنت واقفا على جِسْر بَغداد أنا وعبيد الله بن هشام، وقد وَخَطَنِى الشيبُ يومئذ، وعبد الله شابٌّ حديث السِّنّ، فاذا أنا بقَصْريّةٍ ظريفة قد وقفتْ، فجعلت أنظر اليها وهى تنظر الى عبيد الله ثم انصرفتْ، وقلت فيها :

لمـا رأيتِ سَـوَام الشَّيب منتشرًا * فى لِمَّـتى وعبيـدَ الله لم يَشِب
سَلَلْتِ سَهمين من عينيكِ فانتضلا * على سـبيَّة ذى الأذيال والطرب
كذا الغـوانى نرى منهنّ قاصدة * الى الفروع مُعَـرَّاة عن الخشب
لا أنتِ أصبحت تعقدْ بيننا أرَبا (١) * ولا وعيشك ما أصبحت من أرَبى
إحدى وخمسين قد أنضيتِ جِدّتها * تحـول بينى و بين اللَّهـو واللَّعِب
لاتحسبينى و إن أغضَيْتِ عن بَصَرى * غَفَلْتُ عنك ولا عن شأنك العَجَب

غضب الرشيد على منصور النمرى لمـا أُنشِد قصيدتَه فى مدح العلويين وأوّلها :

شاءٌ من الناس راتِـعٌ هاملْ * يعـللون النفوسَ بالباطلْ

وفيها يقول :

ألَّا مَسَاعيرُ (٢) يغضبون لهـا * بسَلّة البيض والقَنا الذابلْ

فغضب من ذلك غَضَبا شديدا وقال للفضل بن الربيع : أحضِرْه الساعةَ، فبعث الفضل فى ذلك، فوجده قد تُوُفِّىَ، فأمر بنبشه ليُحرقه، فلم يزل الفضل يُلطِفُ له حتى كَفَّ عنه .

واليك قصيدتَه فى مدح العلويين نقلا عن الشعر والشعراء لابن قتيبة، لأن صاحب الأغانى أغفلها ولم يذكر منها إلا البيتين السابقين :

شاءٌ من النـاس راتِـعٌ هامِلْ * يُعَلِّلون النفـوسَ بالبـاطلْ
تُقتَـل ذُرّيةُ النبىّ ويَرْ * جون جِنانَ الخُـلود للقاتلْ
وَيْلَك يا قاتلَ الحسين لقـد * نُؤْتَ بِحِمْـل يَنُـوءُ با لحامل

(١) كذا فى الأصل ولعله : * لا أنتِ أصبحت يعقد بيننا أرب * بتسكين الفعل يعقد للضرورة وتسكين الفعل فى الضرورة وارد ومنه قول امرئ القيس : فاليوم أشرب غير مستحقب * إثمـا من الله ولا واغل

(٢) فى الشعر والشعراء ''مصاليت'' .

أىّ حِبَاءٍ حَبَوْتَ أحمدَ فى * حُفْرَتِه من حَرارة الثاكلْ
بأىّ وجه تَلْقَى النبىَّ وقد * دَخَلْتَ فى قتله مع الداخل
هَلُمَّ فاطلُبْ غدًا شفاعتَه * أولا فَرِدْ حَوْضَه مع الناهل
ما الشكّ عندى فى حال قاتله * لكننى أشُكّ فى الخاذل
نفسى فداء الحسين حين غدَا * إلى المنايا غُدُوَّ لا قافِل
ذلك يومٌ أنحَى بشَفْرَتِه * على سَنام الإسلام والكاهِل
حتى مَتَى أنتِ تعْجَبِينَ ألَا * تنْزِلُ بالقوم نِقْمَةُ العاجِل
لا يَعْجَلُ اللهُ إن عجلتِ وما * ربُّك عمَّا يريد بالغافل
وعاذلى أننى أحبّ بنى * أحمدَ فالتُّرْب فى فم العاذل
قد ذُقْتُ ما دينُكم عليه فما * وَصَلْتُ من دينكم إلى طائل
دينكمُ جَفْوَةُ النبىّ وما ال * جافى لآل النبىّ كالواصل
مظلومة والنبىّ والدها * تَدِيرُ أرْجاءِ مُقْلةٍ حافِل
ألّا مَصاليتُ يَغْضَبُون لها * بسَلّةِ البيض والقَنا الذابِل

وقال أيضا :

آل النبىّ ومن يُحِبُّهُمُ * يتطامنون مخافةَ القتل
أمِنُوا النَّصارَى واليهودَ وهم * من أمّة التوحيد فى أزْلِ (١)

وأُنشِدَ الرشيدُ هذا بعد موته فقال : لقد هَمَمْتُ أن أَنْبُشَه ثم أحرقه .

ومن جيد شعره قوله فى الرشيد :

يا زائرَيْنا من الخيَامِ * حيّاكما الله بالسّلامِ
يُحْزِنُنِى أنْ أطَفْتُمَا بى * ولم تَنَالا سِوَى الكلام

(١) الأزل : الضيق والشدة .

لم تطرقانى وبى حراك * إلى حلال ولا حرام
هيهات للهو والتصابى * وللغوانى وللمدام
أقصر جهلى وثاب حلمى * ونهنه الشيب من عرامى (١)
عمرو أبيها لقد تولت * سالمة الحد من عذامى (٢)
لله حبى وترب حبى * ليلة أعياهما مرامى
آذنتانى بطول هجر * وغرتانى مع السوام
وأنطوتا لى على ملام * والشيب شر من الملام
بورك هارون من إمام * بطاعة الله ذى اعتصام
له الى ذى الجلال قربى * ليست لعدل ولا إمام
يسعى على أمة تمنى * أن لو تقيه من الحمام
لو استطاعت لقاسمته * أعمارها قسمة السهام
يا خير ماض وخير باق * بعد النبيين فى الأنام
ما استودع الدين من إمام * حامى عليه كما تحامى
يؤنس من رأيه برأى * أصدق من سلة الحسام

وقال :

أعمير كيف لحاجة * طلبت الى صم الصخور
لله در عداتكم * كيف انتسبن الى الغرور
ان الليالى ضمننى * ووسمننى سمة الكبير
أطفأن نور شبيبتى * وفرشننى كنف الغيور
ولقد تبيت أناملى * يجنين رمان النحور

(١) العرام : الحدة . (٢) العذم الشفة كالعض بالأسنان .

٧ — السيّد الحميرىّ [1]

« لم يكن السيّد الحِمْيَرىّ [2] من أنصار الحَسَن والحُسَين، أو بعبارة أصحّ لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين؛ وإنما كان من الكَيْسَانيّة الذين كانوا ينصرون الابنَ الثالث من أبناء علىّ: محمدَ بن خَوْلة الحنفيّة؛ والذين كانوا يَدينون بأنه لم يمت وإنما تغيّب عن الناس واحتجب عنهم حيناً وسيعود فيملأ الأرض عدلًا كما مُلئت جَوْرا، فلم يكن على السيد الحميرىّ بأس أن يمدح بنى العباس ويتقرّب منهم ما دام صاحبُه محمدُ بنُ الحنفيّة لم يَعُد من غيبته بعد. ثم نستطيع أن نُمَيّز هذا الشاعر بخَصْلة لم نرها فى شاعر من الذين تحدّثنا عنهم، وهى أنه كان سخيفًا ضعيفَ العقل شديدَ الإيمان بالخرافات والأوهام، ويظهر أن هذه الخصلةَ جاءته من مذهبه نفسِه فى الرجعة، فقد أسرف فى هذا المذهب كما أسرف فى مدح العَلَويّين والإيمان بهم حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يُقبل وما لا يُقبل؛ فكانَ كلّ خير يمكن أن يُنسَب إلى العلويّين، رضيه العقلُ أم لم يرضه، وكان كل شرّ يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين، رضيه العقل أم لم يرضه، وكان يكفى أن يسمع رجلا من أهل القَصَص ورُواة الأساطير يروى كرامة من الكرامات يُضيفها إلى أحد العلويين حتى يَنظِم فيها قصيدة طويلة جيّدة، ويتخذ هذه القصيدة وسيلةً إلى ذمّ السلَف والنعى عليه.

(١) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحميرى والسيد لقبه ويكنى أبا هاشم، كان شاعرا متقدما مطبوعا، يقال إن أكثر الناس شعرا فى الجاهلية والاسلام ثلاثة: بشار وأبو العناهية والسيد، فانه لا يعلم أن أحدا قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع، وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه فى شعره ويستعمله فى قذفهم والطعن عليهم فتحومى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تخوّفا وترقبا، وله طراز من الشعر ومذهب قلما يلحق فيه أو يقارب، ولا يعرف له من الشعر كثير، وليس يخلو من مدح بنى هاشم أو ذم غيرهم ممن هو عنده ضد لهم. توفى سنة ١٧٣ هـ. وتجد ترجمته وأخباره فى الأغانى (ج ٧ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ١ ص ١٩).

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وخَصْلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ولكنها تجعـل الصلة بينه وبينهم ضعيفةً واهيةً فى الوقت نفسه .

وهى أنه كان يستبيح ضروبا من اللهو والمنكر، ويُسرف فى شرب الخمر وغير ذلك من ألوان العَبَث، لا لأنه كان يجحد الدين أو يَزْدريه بل لأنه كان يدلّ على صـاحب الدين؛ كان يحبّ النبىّ صلى الله عليه وسلم وآله ويَمْنحهم مَوَدّته ونَصْره، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك وسيشفعون له فى ذنوبه وآثامه لِمَا قدَّم بين يديه من مَدْح العلويين ونَصْرهم على خصومهم؛ وكان بنو هاشم وبنو علىّ خاصّة يُطْمِعُونه فى ذلك ويَعْترفون له به، فإذا ذُكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر قالوا : وأىّ ذَنْب يعظُم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت ! بل قال أحدهم : إنّ مَنْ أحبَّ آلَ علىٍّ لم تزلّ له قَدَمٌ إلا ثبتت له أخرى؛ وعلى هـذا كان السيّد الحميرىّ يلهو آمنا فى دينه ودُنياه، يعتمد فى دينه على العلويِّين، ويعتمد فى دنياه على العباسيين، يقـدِّر أنّ العلويين سيشفعون له عند الله، ويعـلم أنّ العباسيين يتّقُون شرّه ويُؤْثِرون مدحه على هجـائه ؛ وكان من مُعاصريه مَنْ يكره ذلك ويَمْقتُـه كلّ المقت، ويُضمر للسيّد عِداءً وحقْدا لا يَعْدلها عِدَاءٌ ولا حِقْد؛ ومن هؤلاء سَوّار بن عبد الله العَنْبَرى قاضى البصرة للمنصور، فقد كان العداءُ بينه وبين السيد شـديدا، وكان قد أجمع ألّا يَقْبل للسيّد شهادة، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غيرَ مرّة؛ وكان السيد قد هجاه فأسرف فى هجائه، فشكا ذلك إلى المنصور فنهاه المنصورُ عنه وأمره أن يذهب الى القاضى فيعتذرَ اليه، وأبى القاضى أن يقبل معـذرته، فاستأنف السيد الهجاء وألحّ فيه . ويقال إنّ سوّارا أعدّ شهودا يشهدون على السيد بالسرقة ليقطع يده، فعلم السيد ذلك فجَزِع وفزِع إلى المنصور، فعزل المنصور سوّارا من القضاء للسيد أو عليـه، ولم يلبث سوّار أن مات فتبعه السيد بعدائه وبُغْضه وهجائه » .

قال أبو جعفر الأعْرَج : كان السيّد أسمر تامَّ القامة، أشنبَ ذا وَفْرة، حسنَ الألفاظ جميلَ الخطاب، اذا تحدّث فى مجلس قوم أعطى كلّ رجل فى المجلس نصيبَه من حديثـه :

وقال الفرزدق : إنّ ههنا لرجلين لو أخذا فى معنى الناس لما كنّا معهما فى شىء : السيد الحميرى وعمران بن حطّان السّدوسىّ ، ولكنّ الله عزّ وجلّ قد شغل كلّ واحد منهما بالقول فى مذهبه ؛ وقال الأصمعىّ لمّا أنشد شيئا من شعره : ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ، ولولا ما فى شعره ما قدّمت عليه أحدا من طبقته ؛ وكان أبو عبيدة يقول : أشعر المحدثين السيّد الحميرىّ وبشّار .

وكان السيّد يذهب مذهب الكيسانيّة ويقول بإمامة محمد بن الحنفيّة ، وله فى ذلك شعر كثير .

وقف السيّد على بشّار وهو ينشد الشعر ، فأقبل عليه وقال :

أيها المادح العباد ليعطى * إنّ لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم * وارج نفع المنزّل العوّاد
لاتقل فى الجواد ما ليس فيه * وتسمّى البخيل باسم الجواد

قال بشّار : من هذا؟ فعرّفه ، فقال : لولا أنّ هذا الرجل قد شغل عنّا بمدح بنى هاشم لشغلنا ، ولو شاركنا فى مذهبنا لتعبنا .

ومن قول السيّد :

أتعرف رسما بالثّويّين قد دثر * عفته أهاضيب السحائب والمطر
وجرّت به الأذيال ريحان خلفة * صبا ودبور بالعشيّات والبكر
منازل قد كانت تكون بجوّها * هضيم الحشى ريّا الشّوى سحرها النّظر
قطوف الخطا خمصانة بختريّة * كأنّ محيّاها سنا دارة القمر
رمتنى ببعد بعد قرب بها النّوى * فبانت ولمّا أقض من عبدة الوطر
ولمّا رأتنى خشية البين موجعا * أكفكف منى أدمعا بيضها درر
أشارت بأطراف إلىّ ودمعها * كنظم جمان خانه السّلك فانتثر
وقد كنت مما أحدث البين حاذرا * فلم يغن عنّى منه خوفى والحذر

لما استقام الأمر لبنى العباس قام السيّد الى أبى العباس السفّاح حين نزل عن المنبر فقال :

دُونَكُمُوها يا بنى هاشم * فجدّدوا من عهدها الدارسا
دونكموها لا علا كَعْبُ مَن * كانَ عليكم مُلْكَها نافسا
دونكموها فالبسوا تاجَهَا * لا تَعْدَموا منكم له لابسا
او خُيِّر المنــبرُ فُرسانَهُ * ما آختارَ إلّا منكُمُ فارسا
قد ساسها قبلكُمُ ساسةٌ * لم يتركوا رَطْباً ولا يابسا
ولستُ من أن تملكوها الى * مَهْبَط عيسى فيكم آيسا

وبعث بهذه الأبيات إلى المهدىّ يسأله ألّا يعطى آل بكر وعمر من مال الدولة :

قل لآبن عبّاسٍ سَمِىِّ محمّد * لا تُعْطِيَنَّ بنى عدىٍّ درهما
احرِمْ بنى تَيْم بن مُرَّة إنهم * شرّ البرية آخرا ومُقَدما
إن تعطهم لن يشكروا لك نعمةً * ويكافئوك بأن تُذَمّ وتُشْتَمَا
وإن آئتمنتهم أو آستعملتهم * خانوك وآتخذوا خَرَاجَك مَغْنَمَا
ولئن مَنَعتهم لقد بدءوكُمُ * بالمنع إذ مَلَكوا وكانوا أظلما
مَنَعُوا تُرَاثَ محمد أعمامَه * وبَنِيه وآبنته عَدِيلةَ مَرْيَمَا
وتأمَّروا من غير أن يُسْتَخْلَفُوا * وكَفَى بما فَعَلُوا هنالك مأثما
لم يشكروا لمحمد إنعامَهُ * أفيشكرون لغيره إنْ أَنْعَمَا
واللهُ مَنَّ عليهمُو بمحمّد * وهداهم وكسا الجنوب وأطعما
ثم آنبروا لوصيّه ووليّه * بالمنكرات فجرّعوه العلقما

أنشد السيّد جعفر بن محمد هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

أُمْرُرْ على جَدَث الحُسَيـ * ـن فقُلْ لأعظُمِه الزكيّهْ
آأعظُمًا لا زِلْتِ مِنْ * وَطْفَاءَ ساكبةٍ رَوِيَّهْ
وإذا مَرَرْتَ بقبره * فأَطِلْ به وَقْفَ المطيّهْ

وآبِكَ المُطَهَّرَ لِلْطَهْرِ والمُطَهَّرَةِ النَّقِيَّهْ * كبكاءِ مُعْوِلَةٍ أَتَتْ يوماً لواحدها المنيّهْ

فانحدرتْ دموعُ جعفر على خدّيه وآرتفع الصراخُ والبكاء من داره حتى أمره بالإمساك فأمسك .

ومن قول السيد فى إمامة ابن الحنفيّة :

أَلَا يا أيُّها الجَدِلُ المعنِّى * لَنَا ما نحنُ وَيْحَكَ والعَنَاءُ
أَتُبْصِرُ ما تقولُ وأنتَ كَهْلٌ * تراكَ عليك من وَرَعٍ رِدَاءُ
أَلَا إنَّ الأئمةَ من قُرَيش * وُلَاةُ الحقِّ أربعةٌ سَواءُ
علىٌّ والثلاثةُ من بَنِيهِ (١) * هُمُ أسباطُهُ والأوصياءُ
فأَنَّى فى وصيّته اليهم * يكونُ الشكُّ منّا والمِرَاءُ
بهم أوصاهُمُ ودعا اليه * جميعَ الخَلْقِ لو سُمِعَ الدعاءُ
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وحِلْمٍ * وسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاءُ
سَقَى جَدَثًا تضمّنه مُلِثٌّ * هَتوفُ الرعد مُرْتَجِزٌ رَوَاءُ
تَظَلُّ مُظِلّةً منها عَزَالٍ (٢) * عليه وتَغْتدِى أُخْرَى مِلَاءُ
وسِبْطٌ لا يذوق الموت حتّى * يَقودَ الخيلَ يَقْدُمُها اللواءُ
من البيت المحجَّبِ فى سَرَاةٍ * شَرَاةٍ لَفَّ بينهم الإخاءُ
عَصائبُ ليس دون أغرَّ أجلَى * بمكّةَ قائمٌ لهم انتهاءُ

وأنشد العتبىّ قصيدته اللامية التى أولها :

هل عندَ مَنْ أَحببتَ تَنْوِيلُ * أَمْ لا فإنّ اللوم تَضْليلُ
أم فى الحَشَى منك جَوًى باطِلٌ * ليس تُداوِيه الأباطيلُ

(١) هم الحسن والحسين ومحمد . (٢) العزلاء : مصب الماء من الراوية ونحوها ، و يقال : أنزلت السماء عزاليها إشارة الى شدة وقوع المطر على التشبيه بنزوله من أفواه المزادات .

عَلِقتَ يامغـرورُ خَدّاعةً * بالوعد منها لكَ تخييـل
رَيّا رَدَاح النَّـوْم خُمْصـانةٌ * كأنّهـا أدْمَاء عُطْبُول
يَشْفيكَ منهـا حين تَخْلو بها * ضَمٌّ الى النحْر وتقْبيـل
وذَوْقُ ريـقٍ طيّبٍ طعمُه * كأنّه بالمسـك مَعْلول
فى نسوةٍ مثـل المَهـا خُرّدٍ * تَضيق عنهُنّ الخلاخيـل

يقول فيها :

أُقْسِم بالله وآلائــه * والمَرْءُ عمّا قال مسئول
إن علىّ بن أبى طالبٍ * على التُّقَى والبرّ مجبول

فقال : أحسنَ والله ما شاء، هذا والله الشعرُ الذى يَهْجُم على القلب بلا حجاب .

قيل للسّيد : مالكَ لا تستعملُ فى شِعْرك من الغريب ما تُسأل عنه كما يفعل الشعراء؟ قال : لَأَنْ أقولَ شـعرا قريبا من القلوب يَلَذّه مَنْ سمعــه ، خيرٌ من أن أقول شيئا مُعَقّدًا تَضلّ فيه الأوهام .

تقدّم السـيّد الى سَوّار القاضى ليَشْهد عنـده ، فلم يرضَ به ، فقام مُغْضَبا من مجلسه ، وكتب رُقعة يقول فيها :

يا أمينَ الله يا منـ * ـصورُ يا خيرَ الوُلاة
إنّ سَـوّارَ بنَ عبد الـ * ـله من شرِّ القُضاة
نَعْثَـلِىٌّ جَمَـلِىٌّ * لكمُ غيرُ مُوات
جـدُّه سـارقُ عَنْزٍ * فَجْرةٌ من فَجَرات
لرسـول الله والقـا * ذِفُـهُ بالمُنْكَرات
وٱبنُ مَنْ كان يُنَادِى * من وراء الحُجُرَات
ياهَنـاةُ ٱخْرُجْ الينـا * إننا أهـلُ هَنَـات
مَدْحُنا المدحُ ومَنْ نَرْ * مِ يُصَبْ بالزَّفَرَات
فاكْفِنِيـه لاكفاهُ الـ * ـلّهُ شـرَّ الطـارقات

قيل : فلمّا قرأها سوّارٌ وثب من مجلسه وقصد أبا جعفر المنصور، وهو يومئذ نازلٌ بالجسر، فسبقه السّيد اليه فأنشده :

قل للإمام الذى يُنجَى بطاعته * يومَ القيامة من بُحبُوحة النار
لا تَستَعِنْ وجزاكَ اللهُ صالحةً * ياخيرَ مَن دبَّ فى حُكْمٍ بسَوّار
لاتستَعِنْ بخبيث الرأى ذى صَلَفٍ * جَمِّ العيوب عظيم الكِبْرِ جَبّارِ
يُضحِى الخصومُ لديه مِنْ تَجَبُّره * لا يرفعون اليه لَحْظَ أبصار
تيهًا وكِبرًا ولولا ما رَفَعْتَ له * من ضَبْعِه كان عينَ الجائع العارى

ودخل سوّار، فلمّا رآه المنصور تبسّم وقال : أَمَا بلغك خبرُ إياس بن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق واستزاد فى الشهود ؟ فما أَحْوَجَكَ للتعرّض للسيّد ولسانه ! ثم أمر السيد بمصالحته .

دخل السيد على المهدىّ لمّا بايع لابنيه موسى وهارونَ، فأنشأ يقول :

ما بالُ مَجْرَى دَمْعك الساجِمِ * أَمِنْ قَذًى باتَ بها لازمِ
أَمْ مِنْ هَوًى أنتَ له ساهرٌ * صبابَةً مِن قلبكَ الهائم
آليتُ لا أمدح ذا نائلٍ * مِن مَعْشرٍ غيرِ بنى هاشم
أَوْليتُهم عندى يدَ المصطفى * ذى الفضل والمَنِّ أبى القاسِم
فإنّها بيضاءُ محمودةٌ * جزاؤُها الشكرُ على العالم
جزاؤُها حِفْظُ أبى جعفرٍ * خليفةِ الرحمن والقائم
وطاعةُ المهدىِّ ثم ابنه * موسى على ذى الإِرْبَةِ الحازم
وللرشيد الرابعِ المرتضى * مُفْتَرَضٌ من حقّه اللازم
مُلْكُهم خمسون معدودةٌ * برغم أنف الحاسد الراغم
ليس علينا ما بَقُوا غيرُهم * فى هذه الأمّة من حاكم
حتى يردّوها الى هابط * عليه عيسى منهم ناجم

ومن شعر السيد :

ما جرت خَطْرةٌ على القلب منّى * فيك إلّا استترتُ عن أصحابى
من دموعٍ تجرى فإن كنتُ وحدى * خاليا أسعدتْ دموعى انتحابى
إنّ حبّى إياكِ قد سلّ جسمى * ورمانى بالشيب قبلَ الشباب
لو منحتِ اللّقا شفى بك صبًّا * هائمَ القلب قد ثوَى فى التراب

ومما قاله فى الحبس :

قِفْ بالديار وحيّها يا مَرْبعُ * وٱسأل وكيف يُجيب مَنْ لا يسمعُ
إنّ الديار خلَتْ وليس بجوِّها * إلا الضوابحُ والحمامُ الوُقّع
ولقد تكونُ بها أوانسُ كالدُّمَى * جُمْلٌ وعزّةُ والرَّبابُ وبَوْزَع
حورٌ نواعمُ لا تُرَى فى مثلها * أمثالُهن من الصّيانة أربع
فعَرِينَ بعد تألّفٍ وتجمّع * والدهر صاحٍ مُشَتِّتٌ ما يَجْمع
فاسلَمْ فإنّكَ قد نزلتَ بمنزلٍ * عند الأمير تَضُرّ فيه وتنفع
تُؤْتَى هواكَ اذا نطقتَ بحاجةٍ * فيه وتَشْفَع عنده فتُشَفَّع
قل للأمير اذا ظفرتَ بخَلْوةٍ * منه ولم يكُ عنده مَنْ يَسْمَع
هَبْ لى الذى أحببتَه فى أحمدٍ * وبنيه إنك حاصدٌ ما تزرَع
يَخْتَصُّ آلُ محمّدٍ بمحبّةٍ * فى الصدر قد طُويَتْ عليها الأضلع

وقال يهجو ٱمرأة وارثٍ مُوسِرٍ من خلّانه، وكانت تعذُل زوجها على إسرافه :

أقول ياليتَ لَيْلَى فى يَدَىْ حَنِقٍ * من العداوة من أَعْدَى أعاديها
يعلو بها فوقَ رَعْنٍ(١) ثم يُحْدِرها * فى هُوَّةٍ فتَدَهْدَى يومَها فيها
أَوْ لَيْتَها فى غمار البحر قد عصفَتْ * فيه الرياحُ فهاجَتْ مِنْ أواذيها(٢)

---

(١) الرعن : أنف يتقدم الجبل جمعه رعون ورعان . والجبل : الطويل ودهدى الحجر فتدهدى ، أى دحرجه فتدحرج . (٢) الأواذى : أمواج البحر، مفردها آذيّ .

أَوْ لَيْتَها قددنَتْ يوماً الى فرسي * قد شُدَّ منه الى هاديه هاديها
حتى يُرَى لحمُها من حُضْره زِيَماً (١) * وقد أتى القومَ بعدَ الموت ناعيها
فَمَنْ بكاها فلا جَفَّت مدامعُه * لا أسخَنَ اللهُ إلّا عينَ باكيها

وقيل : إنّ آخر قصيدة له هي قوله :

أشاقَتْكَ المنازلُ بعدَ هِنْدِ * وتِرْبيها وذاتِ الدَّلِّ دَعْدِ
منازلُ أقْفَرتْ منهنّ مَحَّتْ * معالِمُهنّ مِنْ سيلٍ ورعدِ
وريحٍ حَرْجَفٍ تَسْتَنُّ فيها * بسافى التُّرْبِ تُلْحِم ما تُسَدِّى
ألَمْ يَبْلُغْكَ والأنباءُ تَنْمِى * مقالُ محمّدٍ فيما يُؤَدِّى
الى ذى علمه الهادى علىٍّ * وخَوْلةَ خادمٍ فى البيت تَرْدِى
ألَمْ ترأنّ خَوْلةَ سوف تأتى * بوارى الزَّند صافى الخِيم نَجْدِ
يفوز بكُنْيَتى واسمى لأنّى * نحلتُهما هو المهدىّ بعدى
يُغَيَّبُ عنهمُ حتّى يقولوا * تضمّنه بطَيْبةَ بطنُ لحدِ
سنينَ وأشهراً ويُرَى برَضْوَى * بشِعب بين أنمارٍ وأُسْدِ
مقيمٌ بين آرامٍ وعِينٍ * وحَفّانٍ (٢) تَرُوح خلالَ رُبْدِ
تُراعيها السباعُ وليس منها * مُلاقيهنّ مُفْتَرِساً بحَدِّ
أَمِنَّ به الرَّدى فرتَعْن طوراً * بلا خوفٍ لدى مَرْعًى ووِرْدِ
حَلَفتُ بربّ مكّةَ والمُصلَّى * وبيتٍ طاهرِ الأَركان فَرْدِ
يطوف به الحَجيجُ وكلَّ عامٍ * يَحُلّ لديه وَفْدٌ بعدَ وفدِ
لقد كان ابنُ خَوْلةَ غيرَ شكٍّ * صفاءَ ولايتى وخلوصَ ودّى
فما أحدٌ أحبّ إلىَّ فيما * أُسِرّ وما أبوح به وأُبْدى
سوى ذى الوَحْى أحمدَ أو علىٍّ * ولا أزكى وأطيبَ منه عندى

(١) الزيم : المتفرق من اللحم . (٢) الحفان : صغار النعام .

وَمَنْ ذا يَاْبنَ خولةَ إذ رمتني * بأسهمها المنيّةُ حينَ وَعْدى
يُذَبِّب عنكمُ ويَسُــدّ مما * تثَــلَّم من حصونكمُ كَسَدّى
ومالى أنْ أمُرَّ به ولكنْ * أُؤَمِّل أنْ يُؤَخَّر يومُ فَقْــدِى
فأُدرِكَ دولةً لك لستَ فيها * بجبّارٍ فتُوصَفَ بالتعــدّى
على قومٍ بَغَوْا فيــكمْ علينا * لتُعْــدَى منــكمُ ياخيرَ مُعْــد
لِتَعْلُ بنــا عليهمْ حيث كانوا * بغَوْرٍ من تِهامَةَ أو بِنَجْد
إذا ماسِرْتَ من بَلَدٍ حرامٍ * الى مَنْ بالمدينــة من مَعَــدّ
وماذا عزُّهمْ والخير منهمْ * بأَشْوَسَ أَعْصَلِ الأنياب وَرْد
وأنتَ لمَنْ بغى وَعَدا وأَذْكَى * عليكَ الحربَ واستَرداكَ مُرْد

٨ — سلم بن عمرو الخاسر[1]

كان منقطعًا الى البرامكة والى الفضل بن يحيى خصوصًا من بينهم ، وفيه يقول أبو العتاهية :

إنما الفَضْل لسَلْمٍ وحدَه * ليس فيه لِسِوَى سَلْمٍ دَرَكْ

وكان هذا أحدَ الأسباب الى فساد ما بينه وبين أبى العتاهية . ولسَلْمٍ يقول أبو العتاهية وقد حَجَّ مع عُتْبة :

واللهِ واللهِ ما أُبَالى متى * ما متُّ يا سَلْمُ بعد ذا السفَرِ
أليس قد طُفْتُ حيث طافتْ وقبـ * ـلتُ الذى قبَّلتْ من الحجرِ

وله يقول أبو العتاهية وقد حُبِس ابراهيمُ المَوْصلىّ :

سَلْمُ يا سَلْمُ ليس دونَك سِرٌّ * حُبِسَ الموصلىُّ فالعيشُ مُرُّ
ما استطاب اللذّاتِ ، مُذْ سكنَ المُطْـ * ـبِقَ رأسُ اللذاتِ واللهِ ، حُرُّ
تَرَكَ الموصلىُّ مَنْ خلَق اللـ * ـهُ جميعًا وعيشُهم مُقْشَعِرُّ

(١) هو سلم (و يقال سالم) بن عمرو أحد موالى أبى بكر الصديق ، نشأ فى البصرة ، وكان شاعرا مطبوعا متصرفا فى فنون الشعر ، وكان متظاهرا بالخلاعة والفسوق والمجون ، وزاد شاعرية وتمرسا بالشعر على يد بشار ، لأنه كان راويته وتلميذه ، أخذ عنه واعترف من بحره ونسج على منواله ، وكثيرا ما كان يأخذ أقواله فيسلخها و يمسخها كما مسخ هذا البيت :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

بجعله :

من راقب الناس مات غما * وفاز باللذة الجسور

فبلغ بيته بشارا فغضب وأقسم ألا يدخل عليه ولا يفيده مادام حيا ، فاستشفع اليه بكل صديق حتى رضى وو بخه وقنعه بمخصرة كانت بيده . وكان صديقا لابراهيم الموصلى المغنى المشهور ولأبى العتاهية . وكان يمدح البرامكة وخصوصا الفضل بن يحيى . توفى سنة ١٨٦ هـ . وتجد ترجمته فى الأغانى ح ٢١ ص ١١٠ وابن خلكان ج ١ ص ١٩٨

لمـا قال بشارٌ قصيدتَه الميميةَ فى عمر بن العلاء وهى التى يقول فيها :

اذا نَبَّهتْك صِعَابُ الأمورِ * فنبِّهْ لهـا عُمَــرًا ثم نَمْ

فتًى لا يبيتُ على دِمْنَــةٍ (١) * ولا يشرب المـاءَ إلا بدمْ

بَعث بها مع سلم الى عَمْرِ بن العَلَاء، فوافاه، فأنشده إيّاها، فأمر لبشّار بمائة ألف درهم، فقال له سلم : ان خادمَك — يعنى نفسه — قد قال فى طريقه فيك قصيدةً؛ قال : فإنك لَهُنَاك! قال : تسمَع ثم تحكُم؛ قال : هات، فأنشده :

قد عزّنِى الداءُ فما لى دواءْ * مما أُلَاقى من حِسَان النساءْ

قلبٌ صَحيحٌ كنتُ أَسْطُو به * أصبح من سَلْمَى بداء عَيَاءْ

أنفاسُها مِسْكٌ وفى طَرْفِها * سِحْرٌ وما لى غيرُها من دواءْ

وعدتنى وعــدًا فأَوْفِى به * هل تصلُح الحرةُ إلا بماءْ

ويقول فيهـا :

كم كُرْبةٍ قد مسَّنِى ضرُّها * ناديتُ فيها عُمَرَ بنَ العَلَاءْ

فأمر له بعشرة آلاف درهم، فكانت اوّل عطية سَنيّةٍ وصلتْ اليه .

ومن قوله يَرْثِى بَاقُونَةَ بنتَ المهدى :

أَوْدَى بباقونةَ ريبُ الزمانْ * مؤنسةِ المهدىِّ والخيزُرَانْ

لم تَنْــطَوِ الأرضُ على مثلها * مولودة حَنَّ لهـا الوالدانْ

بَاقُونُ يا بنتَ إمامِ الهــدى * أصبحتِ من زينة أهلِ الجِنَانْ

بكتْ لك الأرضُ وســكَّانُها * فى كل أُفْقٍ بين إنسٍ وجَانّْ

دخل سَلْم على الفضل بن يحيى فى يوم نَيْروزٍ والهدايا بين يديْه، فأنشد :

أمِنْ ربع تسـائلُهُ * وقــد أَقْوتْ منـازلُهُ

بقلبِى مِنْ هَوَى الأَطْلا * لِ حبٌّ ما يُزَايِــلُهُ

---

(١) الدمنة : الحقد .

رُوَيْدَكُمْ عن المَشْعو * فِ إن الحبَّ قاتِلُهُ
بَلَابِلُ صدرِه تَسْرِى * وقد نامتْ عَوَاذِلُهُ
أحقُّ الناسِ بالتفضيـ * ـل من تُرْجَى فواضله
رأيتُ مكارمَ الأخلا * قِ ما ضمَّتْ حَمَائِلُهُ
فلستُ أَرَى فَتًى فى النا * سِ إلّا الفَضْلُ فَاضِلُهُ
يقولُ لسانُه خيرًا * فتفعلُه أناملُهُ
ومَهْما يُرْجَ من خيرٍ * فإن الفضلَ فاعِلُهُ

وكان ابراهيمُ المَوْصِلىّ وابنُه إسحاقُ حاضرَيْن، فقال لإبراهيم: كيف ترى وتسمع ؟ قال: احسنَ مرئىٍّ ومسموع، وفضلُ الأمير أكثرُ منه؛ فقال: خذوا جميعَ ما أُهْدِى الىّ اليوم فاقتسموه بينكم أثلاثًا إلّا ذلك التِّمْثَالَ، فإنى أريد أن أُهْدِيَه اليوم الى دَنَانِيرَ؛ ثم قال: لا والله ما هكذا تفعلُ الأحرار، يقوَّم ويُدْفَع اليهم ثمنه ثم نُهْدِيه، فقُوِّم بألفى دينار، فحملها الى القوم من بيتِ ماله واقتسموا جميعَ الهدايا بينهم .

كان المهدىُّ يعطى مَرْوانَ وسَلْمًا الخاسرَ عطيَّة واحدةً، فكان سَلْمٌ يأتى باب المهدىّ على البِرْذَوْنِ الفَارِهِ، قيمتُه عشرةُ آلاف درهم بسَرْج ولِجَام مفضَّضَيْن، ولباسُه الخَزُّ والوَشْى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان، ورائحةُ المسكِ والطيب والغالِيَة تفوح منه، ويجىء مروانُ بن أبى حَفْصة عليه فَرْوٌ كَبْلٌ(١) وقميصٌ كَرَابِيسُ(٢) وعمامةُ كَرَابِيسَ وخُفَّا كَبْلٍ(٣) وكِساءٌ غليظٌ، وهو مُنْتِنُ الرائحة، وكان لا يأكل اللحمَ حتى يَقْرَمَ اليه بُخْلًا، فاذا قَرِمَ أرسل غلامَه فاشترى له رأسًا فأكله، فقال له قائل: أَرَاكَ لا تأكُلُ إلا الرأسَ، قال: نعمْ أعرف سعره فآمَنُ خيانةَ الغلام ولا أشترى لحمًا فيطبخُه فيأكُلُ منه، والرأس آكُل منه ألوانا: آكل من عينيه لونًا ومن غَلْصَمَتِه(٤) لونًا ومن دِمَاغِه لونًا .

(١) قصير . (٢) الكرابيس : جمع كرباس وهو القطن . (٣) أى خفا فرو كثير الصوف غليظه . (٤) الغلصمة : أصل اللسان .

كان سَلْم قد بُلِيَ بالكيمياء، فكان يذهَب بكلّ شيء له باطلًا، فلما أراد الله عز وجل أن يصنَع له عرَف أن بباب الشام صاحبَ كيمياء عجيبًا، وأنه لا يصل اليه أحد إلا ليلا، فسأل عنه، فدلُّوه عليه. قال: فدخلت اليه الى موضع مُعْوِر[1]، فدققتُ البابَ فخرج إلىّ، فقال: من أنت عافاك الله؟ فقلت: رجل معجَبٌ بهذا العلم؛ قال: فلا تَشْهَرنى فإنى رجل مستورٌ إنما أعمل القوتَ، قلت: إنى لا أَشْهَرك إنما أقتبس منك، قال: فاكتُمْ ذلك، وبين يديه كوزُ شَبَهٍ[2] صغيرٌ، فقال لى: اقلَعْ عُرْوته، فقلعتُها، فقال: اسبكْها فى البوتَقة[3]، فسبكتُها، فأخرج شيئًا من تحت مصلّاه فقال: ذُرّه عليه، ففعلت، فقال: أفرغْه، فأفرغتُه، فقال: دَعْه معك، فاذا أصبحتَ فاخرجْ فبِعْه وعُدْ الىّ، فأخرجتُه الى باب الشام فبعتُ المثقالَ بأحد وعشرين درهمًا ورجعتُ اليه فأخبرتُه، فقال: اطلب الآنَ ما شئتَ؛ قلت: تُفيدُنى؟ قال: بخمسمائة درهم على ألا تُعَلّمه أحدا، فأعطيتُه وكتب لى صفةً فامتحنتُها فاذا هى باطلة، فعدتُ اليه، فقيل لى: قد تحوّل وإذا عُروة الكوز الشَّبَه من ذهبٍ مركبةٌ عليه، والكوز شَبَهٌ، ولذلك كان يدخُل اليه من يطلبه ليلا ليخفى عليه، فانصرفت وعلمت أن الله عز وجل أراد بى خيرا وأن هذا كلَّه باطلٌ.

قال أبو المستهل: دخلت يوما على سلم واذا بين يديه قراطيسُ فيها أشعارٌ يرثى ببعضها أمَّ جعفر، وببعضها جاريةً غيرمسمّاة، وببعضها أقوامًا لم يموتوا، وأمُّ جعفرٍ يومئـذ باقية؛ فقلت له: وَيْحَك ما هذا؟ فقال: تحدُث الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها ويستعجلوننا ولا يَجْمُل بنا أن نقولَ غيرَ الجيد، فنُعِدّ لهم هذا قبلَ كَوْنه، فمتى حدث حادثَ أظهرْنا ما قلناه فيه قديمًا على أنه قيل فى الوقت.

دخل سلمٌ على الرشيد فأنشده: * حَيِّ الأحبَّةَ بالسلام * فقال الرشيد: حيّاهم الله بالسلام؛ فقال سلم: * أعلَى وَدَاعٍ أم مُقَام * فقال الرشيد: حياهم الله على أىّ ذلك كان، فأنشده:

لم يَبْقَ منك ومنهمُ * غيرُ الجلودِ على العظَام

(١) معور: مخوف. (٢) الشبه: النحاس الأصفر. (٣) البوتقة: الوعاء الذى يذيب فيه الصائغ.

فقال له الرشيد : بَلْ منكَ ، وأمر بإخراجه ، وتطيَّر منه ومن قوله ، فلم يسمَع منه باقىَ الشعر ولا أثابه بشىء .

استوهب اسحاقُ المَوْصِلىّ من الرشيد تَركَةَ سَلْم ، وكان قد مات عن غير وارث ، فوهبها له قبـل أن يتسلَّمها صاحبُ المواريث ، فحصل منها على خمسين ألف دينار ، ورُوى أنه رُفع الى الرشيد أنــ سلما قد توفِّى وخلَّف ممـا أخذه منه خاصةً ومن زُبَيدة ألفَ ألفٍ وخمسمائة ألف درهم سوى ما خلَّفه من عقارٍ وغيرِه مما اعتقَده(١) قديما ، فقبَضه الرشيدُ وتظلَّم اليه مَوَاليه من آل أبى بَكْرٍ الصِّدِّيق رضوان الله عليه ؛ فقال : هذا خادمى ونديمى ، والذى خلَّفه من مالى فأنا أحقُّ به ، فلم يُعْطِهم إلا شيئا يسيرا من قديم أملاكه .

(١) امتلكه .

٩ — رَبِيعَةُ الرَّقِّيُّ [1]

كان مُنْقَطِعًا عن الحضارة ، بعيــدًا عن مجالسة الخلفاء ، فأُخْمِلَ ذِكْرُه بسبب ذلك ؛ لكنّهم كانوا يستقدمونه اليهم . وأوّلُ من فعل ذلك المَهْدِيُّ ، فمدحه ونال جَوائِزَه ؛ وكان آبن المُعْتَزّ يرى ربيعــة أشعرَ غَزَلًا من أبي نُوَاس ، لأن في غَزَلِ أبي نُوَاس بَرْدًا كثيرا ، وغَزَلُ هذا سليمٌ عذْب سهْل ، ولذلك فإنّ شهرتَه بلغتْ إلى بَلاط الخليفــة . وكان يمدحُ غيرَ الخلفاء ويَنالُ جوائزَهم ويعُود الى بلده ، وإن قصّر أحَدٌ في إعطائه هجَاه ، وله في ذلك حديثٌ مع العباس بن محمد بن علي من أمراء بني العبّاس .

ومن قوله يمدح يزيد بن حاتم المُهَلَّبي ويهجو يَزيد بن أُسَيْد السُّلَمِيّ :

حَلَفتُ يَمِينًا غيرَ ذِي مَثْنَوِيَّةٍ [2] * يمِينَ آمرِئٍ آلَى بهـا غيرَ آثِمِ
لَشَتَّانَ ما بَيْنَ اليَزِيدَيْنِ في النَّدَى * يَزِيدِ سُـلَيْمٍ والأغرِّ آبنِ حاتمِ
يزيدُ سُلَيْمٍ [3] سالمُ المـالِ ، والفتى * أخو الأَزْدِ للأموال غيرُ مُسَالمِ
فَهَمُّ الفتى الأَزْدِيّ إتْلافُ ماله * وهَمُّ الفتى القَيْسِيّ جَمْعُ الدَّراهم
فلا يحسَبِ التَّمْتَامُ أنّي هَجَوْتُه * ولكنّني فضَّلْتُ أهلَ المكارم

قال رجلٌ لربيعة : يا أبا أُسَامَةَ ، ما حَمَلَك على أن هَجوتَ رَجُلًا من قومك وفضَّلْتَ عليه رجلا من الأزد؟ فقــال : أُخْبِرُك ، أَمْلَقْتُ فلم يَبْقَ لي إلّا دَارِي ، فرهنتُها على خمسمائة درهم ، ورحَلْتُ اليه الى أرْمِينِيَةَ ، فأعلمتُه بمكاني ومدحتُه ، وأقمتُ عنده حَوْلا ، فوهَبَ لي

---

(١) هو أبو أسامة ربيعة بن ثابت من موالى سليم ، ويكنى أبا شبابة ، وكان ينزل الرقة ، وبها مولده ومنشؤه ، فأشخصه المهدى اليــه ، فمدحه بعــدة قصائد وأثابه عليها ثوابا كبيرا ، وهو من المكثرين المجيــدين ، وكان ضريرا وانمـا أخمل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ، ومخالطة الشعراء ، ومع ذلك فما عدم مفضلا مقدما له . وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٥ ص ٣٨) وخزانة الأدب للبغدادي (ح ٣ ص ٥٥) .

(٢) أي لا استثناء فيها .

(٣) هو يزيد بن أسيد (بضم الهمزة) من بهثة بن سليم ، وأخو الأزد هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب .

خمسمائة درهم، فتحمّلتُ وصرتُ بها الى منزلى، فلم يَبْق معى كبيرُ شىء، فنزلتُ فى دارٍ بكِراء، فقلتُ: لو أتيتُ يزيدَ بن حاتم، ثم قلتُ: هذا ٱبن عمّى فعل بى هذا الفعلَ فكيف بغيره! ثم حَمَلتُ نفسى على أن آتيَـه، فأُعلم بمكانى، فتركنى أشهرا حتى ضَجِرتُ، فأكْرِيتُ نفسى من الحمّالين. وكتبتُ بَيْتًا فى رُقْعة فألقيتُه فى دِهْليزه، والبيتُ:

أرَانِى ولا كُفْرَانَ لله راجعًا * بخُفَّىْ حُنَيْنٍ من يزيد بن حاتم

فوقعت الرقعـةُ فى يد حاجبـه، فأوصلها اليـه من غير علمى ولا أمرى، فبعث خَلْفى، فلما دخلتُ عليه قال: هِيه أنْشِدنى ما قلتَ، فتمنّعتُ، فقال: والله لتُنْشِدَنِّى، فأنشدتُه، فقال: والله لا تَرْجِع كذلك، ثم قال: ٱنْزِعُوا خُفَّيْه، فنُزِعا فحَشَاهُمَا دنانيرَ وأمر لى بغِلْمَانٍ وجَوار وكُسًى، ألا ترى لى أن أمدَح هذا وأهْجُوَ ذاك؟ قلتُ: بلى واللهِ، وسار شِعْرى حتى بلغَ المهدىَّ، فكان سببَ دخولى اليه.

قيل لأبى زَيْد النَّحْوىّ: إن الأصمعى قال: لا يقـال شَتَّانَ ما بينهما، وإنما يقال: شتّانَ ما هما، وأنشد قول الأعشى: * شَتّان ما يومى على كُورها * فقال: كذَب الأصمعىُّ، يقال: شتَّان ما هما وشـتّان ما بينهما، وأنشد لربيعة الرّقى: «لشتَّان ما بين اليزيدَيْن» وفى ٱستشهاد مثلِ أبى زيد على دَفْع قول مثل الأصمعىّ بشعرِ ربيعة كِفَايةٌ له فى تفضيله.

ٱمتدح ربيعةُ العبّاسَ بن محمـد بن على بقصيدة لم يُسْبَق إليها حُسْنًا، وهى طويلة، يقول فيها:

لو قيـل للعبّـاس يا ٱبنَ محمدٍ * قُلْ «لا» وأنتَ مُخَلَّدٌ ما قالَهَا
ما إن أَعُدُّ من المكارم خَصْلةً * إلا وجدتُك عمَّها أو خالَهـا
واذا الملوك تَسايَرُوا فى بلدةٍ * كانوا كواكبَها وكنتَ هلالَهَا
إن المكارمَ لم تزَلْ معقـولةً * حتى حلَلْتَ براحَتَيْك عقالَهَا

فبعَثَ اليـه بدينارَيْن، وكانَ يُقَدِّرُ فيه ألفيْن، فلما نظر الى الدينارين كاد يُجَنّ غَيْظًا وقال للرسول: خُذْ هذين الدينارين فَهُما لك على أن تَرُدّ الرّقعـة التى من حيث لا يدرى العبّاسُ، ففعل الرسولُ ذلك، فأخذها ربيعةُ وأمر من كتب فى ظهرها:

مدحتُك مِدْحة السَّيف المُحَلَّى * لِتَجْرِىَ فى الكرام كما جَرَيْتُ
فَهَبْها مِدْحَةً ذهبت ضَياعًا * كَذَبْتُ عليك فيها وآفتريتُ
فأنتَ المــرءُ ليس له وَفاءٌ * كأنى إن مدحتُك قد زَنَيْتُ

ثم دفَعها الى الرســول وقال : ضَعْها فى الموضع الذى أخذتَها منه ، فردّها الرســولُ ؛ فلما كان من الغد أخذها العبّاسُ فنظَرَ فيها ، فلما قرأ الأبيات غَضِب وقام من وقته فركب إلى الرشيد ، وكان أثيرًا(١) عنده يُبَجِّلُه و يقدِّمه ، وكان قد هَمّ أن يخطُب اليه آبنتَه ، فرأى الكَرَاهَةَ فى وجهه ، فقال : ما شأنك؟ فقال : هجانى ربيعة الرّقّى ، فأُحْضِر ، فقال له الرشيدُ : تهجو عمّى وآثَرَ الخَلْق عندى ؟ لقد هَمَمْتُ أن أضرب عُنُقَك ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد مدحتُــه بقصيدة ما قال مثلَها أحدٌ من الشعراء فى أحدٍ من الخلفاء ، ولقد بالغتُ فى الثناء وأكثرتُ فى الوصف ، فإن رَأى أميرُ المؤمنين أن يأمُره بإحضارها ! فلما سمِــع الرشيدُ ذلكَ منه سكن غَضَبُه وأحبَّ أن ينظر الى القصيدة ، فأمَر العباسَ بإحضار الرّقعة ، فَتَلَكّأ عليه العباسُ ، فقال له الرشيدُ : سألتُك بحقّ أمير المؤمنين إلّا أمَرتَ بإحضارها ، فعلم العباسُ أنه قد أخطأ وغَلِط ، فأمر بإحضارها ، فأُحْضِرت ، فأخذها الرشــيدُ واذا فيها القصيدةُ بعينها ، فاستحسنها وآستجادها وأُعْجِبَ بها وقال : والله ما قال أحدٌ من الشعراء فى أحدٍ من الخلفاء مثلَها ، لقد صــدَق ربيعةُ وبَرَّ ، ثم قال للعباس : بِمَ أثَبْتَه عليها ؟ فسكتَ العباسُ وتغيّر لَوْنُه وجَرِض بِرِيقِه(٢) ، فقال ربيعــةُ : أثابَنى عليها يا أميرَ المؤمنين بدينارين ، فتوهَّم الرشــيدُ أنه قال ذلك من المَوْجِدة على العبّاس ، فقال : بحياتى يا رَقّىُّ بكم أثابك ؟ قال : وحياتِك يا أميرَ المؤمنين ما أثابنى عليها إلا بدينارين ، فغضب الرشيدُ غَضَبًا شــديدا ونظر فى وجه العباس وقال : سَوْءَةً لك ! أىّ حالٍ قعدتْ بك عن إثابته ؟ الأموالُ ؟ فوالله لقد موّلتُك جُهْدى ، أم آنقطاعُ المــادّة عنك؟ فوالله ما آنقطَعَتْ ، أم أصْــلُك ؟ فهو الأصلُ لا يُدانيــه شىءٌ ، أم نَفْسُــك فعلَتْ ذلك بك حتى فَضَحْتَ آباءَك وأجدادَك وفضحتنى

(١) أثيرا : مكرّما . (٢) جرض بريقه : ابتلعه بالجهد على همّ وحزن .

وَنَفْسَك ؟ فَنَكَسَ العبّاسُ رأسَه ولم ينطق، فقال الرشيدُ : يا غلامُ، أَعْطِ ربيعةَ ثلاثين ألف درهم وخِلْعةً وٱحْمِله على بغلة، فلما حُمل المالُ بين يديه وأُلْبِس الخلعةَ قال : بحياتى يارقىّ لا تذكُرْه فى شعرك لا تعريضًا ولا تصريحًا، وفَتَر الرشيدُ عمّا كان همّ به أن يتزوّج اليه، وظهر له منه بعد ذلك جَفَاءٌ كثير وٱطِّرَاحٌ له .

قال أبو بِشر : كنتُ حاضرًا ربيعةَ الرقىّ يوما وجاءته ٱمرأة فقالت : تقول لك فلانة إن بِنْتَ مولاى محمومةٌ فإن كنتَ تعرِفُ لها عُوذَةً(١) فٱفْعَلْ، فقال ٱكْتُبْ لها أبا بِشر هذه العوذة :

ثِقُوا ثِقُوا بٱسم إلهى الذى * لا يَعْرِض السُّقْم لمن قد شَفَى

أُعيذُ مَوْلاتى ومَوْلاتَها * وٱبنتَها بعَوْذَة المُصْطَفَى

من شرّ ما يَعْرِضُ من علّةٍ * فى الصبح والليل اذا أسْدَفا

فقلتُ له : يا أبا ثابت، لستُ أُحْسِنُ أن أكتُبَ ثِقُوا ثِقُوا، فكيف أكتبها ؟ قال ٱنْضَحِ المِدَاد من رأس القلم فى موضعين حتى يكون كالنَّفْث(٢)، وٱدْفَع العوذة اليها فإنها نافعةٌ، ففعلتُ ودفعتُها إليها، فلم تلْبَث أن جاءت الجاريةُ وهى لا تتمالك ضَحِكًا، فقالت له : يامجنون ما فعلتَ بنا ! كِدْنا نفتضح بما صنعتَ ! قال : فما أصنع ! أشاعرٌ أنا أم صاحب تعاويذ ! .

وٱتّفَق للرقى أيضا مثلُ ذلك مع مَعْنِ بن زائدةَ، وقد لَقِيَه فى بعض قَدَمَاته إلى العراق، فمدَحه، فلم يَهَشّ له، فهجَاه بقصيدةٍ مطلعُها :

مَعْنُ يا مَعْنُ يابنَ زائدة الكَلْـ * ـبِ الذى فى الذّراع لا فى البَنَانِ

لا تُفَاخِرْ إذا فَخَرْتَ بآبا * ئك وٱفْخَرْ بعمّك الحَوْفَزان(٣)

---

(١) العوذة : الرقية يرقى بها الانسان من فزع أو جنون أو مرض . (٢) النفث النصاق اليسير ينفثه الراقى فى العقدة عند الرقية .

(٣) الحوفزان هو الحارث بن شريك الشيبانى، سمى بذلك لأن قيس بن عاصم التميمى حفزه بالرمح حين خاف أن يفوته، وقد فخر بذلك سوّار بن حبان المنقرى فقال :

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة * سقته نجيعا من دم الجوف أشكلا

ومن غَزَلِه أبياتٌ يُغَنَّى بها ، وهى :

وتزْعُم أنّى قــد تبدّلتُ خُـــلّةً[1] * سِواها وهــذا الباطلُ المُتقَــوَّلُ

لحَـا اللهُ من بَاع الصــديقَ بغيره * فقالتْ نعم حَاشَاكَ إن تَكُ تَفْعَلُ

سَتَصْرِمُ إنســانا اذا ما صَرَمْتَــنِى * بحبِّــك فانظر بعــده من تَبَدَّلُ

(١) الخلة : الخليلة .

١٠ — الـــرقاشى (١)

كان سَهْـلَ الشعر مطبوعًا ، وكان مُنْقَطِعًا إلى آل بَرْمَك ، مُستَغْنِيًا بهم عن سواهم ، وكانوا يَصُولون به على الشعراء ، ويُرَوُّون أولادَهم أشعارَه ، ويُدَوِّنونها القليلَ والكثيرَ منها ، تَعَصُّبًا له ، وحِفْظًا لخدمته ، وتَنْوِيهًا باسمه ، وتحريكًا لنشاطه ، فحَفِظَ ذلك لهم . فلما نُكِبوا صار إليهم فى حَبْسهم ، فأقام معهم مـدّةَ أيامِهم يُنْشِدُهم ويُسامِرهم حتى ماتوا ، ثم رثاهم فأكثر من رثائهم ؛ فمن ذلك قولُه فى جعفر :

كم هَاتِفٍ بك من بَاكٍ وباكِيَـةٍ * يا طِيبَ للضَيْف إذ تُدْعى وللجَار
إن يُعْدَم القَطْرُ كنتَ المُزْنَ بَارِقُه * لَمْعُ الدنانير لا ما خَيَّـل السّارى

وقـــوله :

لَعَمْرُك ما بالموت عَارٌ على الفـتى * اذا لم تُصِبْـه فى الحياة المَعَـايِرُ (٢)
وما أَحَدٌ حَيٌّ وإن كان سالمًا * بأسْـلَم ممّـا غَيّبَتْـه المَقَـابر
ومَنْ كان ممّا يُحْدِثُ الدّهرُ جَازِعًا * فلا بدّ يومًا أن يُرَى وهـو صابر
وليس لذى عَيْشٍ عن الموت مُقْصَرٌ * وليس عـلى الأيام والدّهرِ غَابِر
وكلُّ شبابٍ أو جديدٍ إلى البـلى * وكلُّ آمرئٍ يومًا الى الله صَـائر
فلا يُبْعِـدَنْك اللهُ عَـنّى جَعْفرا * بِرُوحى ولو دَارتْ عَـلىّ الدّوائر
فآلَيْتُ لا أنْفَكُّ أبكيك ما دَعَتْ * عـلى فَنَنٍ وَرْقَاءُ أو طارَ طائر

ومن ذلك قولُه لمـا صُلِب الفَضْلُ بن يحيى وآجتاز به الرقاشىّ وهو مصلوبٌ على الجِذْع ، فوقف يبكى ثم قال :

---

(١) هو الفضل بن عبـد الصمد مولى رقاش ، وهو من أهل البصرة . توفى سنة ٢٠٠ هـ . وتجد ترجمته فى الأغانى (ج ١٥ ص ٣٥) ووفيات الوفيات (ج ٢ ص ١٢٥) والشعر والشعراء (ص ٥١٥) .

(٢) المعاير : المعايب .

أما واللهِ لولا خَـوفُ واشٍ * وعَيْنٌ للخليفـة لا تنامُ
لَطُفْنَا حول جِذْعك واسْتَلَمنا * كما للناسِ بالحَجَرِ اسْتلامُ
فما أبصرتُ قَبْلَك يابنَ يحْيَى * حُساماً حَتْفُه السيفُ الحُسَام
علَى اللّذّاتِ والدنيا جميعاً * ودولةِ آل بَرْمَكَ السّلام

فكتب أهلُ الأخبار بذلك الى الرشيد، فأحضَره فقال : ماحملَك على ما قلتَ؟ فقال : ياأميرَ المؤمنين كان إلىّ مُحْسنًا ، فلما رأيتُه على الحال التى هو عليها حَرّكنى إحسانُه فما ملَكتُ نفسى حتى قلتُ الذى قلتُه، قال : وكم كان يُجْرى عليك ؟ قال : ألف دينارٍ فى كلّ سنةٍ، قال : إنا قد أضعفناها لك .

ومن قوله يَصِفُ جَارِيةً :
صِفَاتٌ وحُسْنٌ أَوْرَثا القلبَ لَوْعَةً * تَضَرَّمُ فى أحْشَاء قَلْبٍ مُتَيَّمِ
تُمَثِّلُها نفسى امِيِنى فأنْثَنى * عليها بطَرْفِ النّاظر المتيمِّم
يُحَمِّلُنِى حُبِّى لها فوقَ طاقتى * من الشوق دَأْبَ الحائرِ المُتَقَسِّمِ

١١ – أبو العَتَاهِيَة (١)

قال أحمد بن زُهَيْر : سمعت مُصْعَب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس ، فقلت له : بأىّ شيء ٱستحقّ ذلك عندك ؟ فقال بقوله :

تعلّقتُ بآمالٍ * طِوالٍ أىِّ آمالِ
وأقبلتُ على الدنيا * مُلِحًّا أىّ إقبالِ
أيا هذا تَجَهَّزْ لِ * فِراقِ الأهلِ والمالِ
فلا بدّ من الموت * على حال من الحال

ثم قال مصعب : هذا كلام سهل حقّ لا حَشْو فيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ويقرّ به الجاهل . وكان الأصمعى يستحسن قوله :

---

(١) هو أبو إسحاق اسماعيل بن القاسم بن سويد ، أطبع أهل زمانه شعرا وأكثرهم قولا وأسهلهم لفظا ، وأسرعهم بديهة وٱرتجالا ، وأول من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد فى الدنيا والنهى عن الاغترار بها ، وأكثر من الحكمة .

ولد بعين التمر سنة ١٣٠ هـ ونشأ بالكوفة فى عمل أهله . وكانوا باعة جرار، إلا أنه ربأ بنفسه عن عمله وقال الشعر فى صباه وامتزج بلحمه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه «لو شئت أن أجعل كلامى كله شعرا لفعلت» فذاع صيته وسلك طريق خلعاء الكوفة . ثم قدم بغداد ومدح المهدى وتعرف ببعض خدم قصر الخلافة وجواريه فتعشق منهن فتاة تدعى عتبة ، ولما يئس منها لهـا عنها بعض الشيء ، ودرس كثيرا من مذاهب المتكلمين والشيعة والجبرية والزهاد فكان يسلك كل مذهب منهـا مدة ثم ينتقل عنه إلى الآخر حتى اختار له من كل ذلك عقيدة مختلطة أفضت به إلى العبادة والزهد فى الدنيا قولا ومعيشة على إفراط منه فى حب المال والجمع له والبخل به على الأهل والولد والخدم .

ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على الزهد فى الدنيا والتذكر بالموت وأهواله ، وهو فى خلال ذلك يمدح الخليفة وملوك الدولة ويأخذ جوائزهم ، ثم عرضت له حال امتنع معها من قول الشعر البتة حتى حبسه الرشيد لعدم تلبيته ما اقترحه عليه من القول فيه ثم أطلقه بعد أن أجاب طلبته ، وعاد الى قول الشعر على عادته فيه وترك الغزل والهجاء ، وبقى على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون . توفى سنة ٢١١ هـ .

وله ديوان مطبوع فى بيروت سنة ١٨٨٧ وتجمد أخباره فى الأغانى ج ٣ ص ١٢٦ وج ٦ ص ١٨٦ وج ٨ ص ٢٤ وابن خلكان ج ١ ص ٧١ وطبقات الشعراء ص ٤٩٧ والفهرست ص ١٦٠ .

أنتَ ما ٱستغنيْتَ عن صا * حِبِـــك الدهرَ أخُوه
فاذا ٱحتجتَ إليـــه * ساعةً مجَّـك فُـــوه

وأنشد له سَلْمٌ الخَاسِر :

سَكَنٌ يَبْقى له سَكَنُ * ما بهـــذا يُؤذِن الزمنُ
نحن فى دار يخـــبِّرُنا * بِبَلاها ناطِقٌ لَسِن
دَارُ سُـوءٍ لم يَدُم فَرَحٌ * لامرىء فيها ولا حَزَن
فى سـبيل الله أنفُسُنا * كلُّنا بالمـوت مُرْتَهَن
كلّ نفس عند مَيْتتها * حَظُّها من مالها الكفن
إن مالَ المـرء ليس له * منـه إلا ذكْرُه الحسن

وقال عبد الله بن عبد العزيز العُمَرىّ : أشعرُ الناس أبو العتاهية حيث يقول :

ما ضَرّ من جَعَل الترابَ مِهادَه * ألّا ينامَ على الحرير اذا قَنِـعْ

وقيل لأبى العتاهيـة : كيف تقول الشعر؟ قال : ما أردتُه قطّ إلا مَثَـل لى، فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول : لو شئتُ أن أجعل كلامى شعرا كلّه لفعلتُ .

حُمَّ الرشيد فصار أبو العتاهية الى الفضل بن الربيع برقعة فيها :

لو علم الناسُ كيف أنتَ لهم * ماتوا اذا ما أَلِـتَ أجْمَعُهمْ
خليفةَ الله أنتَ تَرْجَحُ بالنا * سِ اذا ما وُزِنتَ أنتَ وَهُمْ
قد علم الناس أن وجهك يُغْـ * ـنِى اذا ما رآه مُعْـــدِمُهم

فأنشدها الفضلُ بن الربيع الرشيدَ، فأمر بإحضار أبى العتاهية، فمـا زال يُسامره ويحدّثه الى أنـــ بَرِئَ، ووصل اليه بذلك السبب مالٌ جليـل . وقد حدّث ٱبن الأعرابى بهذا الحديث، فقال له رجل بالمجلس : ما هـذا الشعر بمستحقّ لمـا قلتَ؛ قال : ولم؟ قال : لأنه ضعيف؛ فقال ابن الأعرابى، وكان أَحَدّ النـاس ، الضعيفُ والله عقلُك لا شِـعر

أبى العتاهية، أَلأبى العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر! فوالله ما رأيتُ شاعرا قطّ أطبع ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السحر، ثم أنشد له :

قطّعتُ منك حبائل الآمال * وحططتُ عن ظهر المطىّ رحالى
ويئستُ أن أبقى لشىء نلتُ مـ * ـا فيك يا دنيا وأن يبقى لى
فوجدتُ برد اليأس بين جوانحى * وأرحتُ من حلّ ومن ترحال
يأيها البطر الذى هو من غدٍ * فى قبره متمزّق الأوصال
حذف المنى عنه المشمّرُ فى الهدى * وأرى مناك طويلة الأذيال
حيلُ ابن آدم فى الأمور كثيرةٌ * والموتُ يقطع حيلة المحتال
مالى أراك لحرّ وجهك مُخْلِقًا * أخلقت يا دنيا وجوه رجال
قستُ السؤال فكان أعظم قيمةً * من كلّ عارفةٍ جرتْ بسؤال
فإذا ابتُليتَ ببذل وجهك سائلا * فابذله للمتكرّم المفضال
وإذا خشيتَ تعذّرا فى بلدة * فاشدُدْ يديك بعاجل الترحال
واصبرْ على غِيَر الزمان فإنما * فرجُ الشدائد مثلُ حلّ عقال

ثم قال للرجل : هل تعرف أحدا يُحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل : يا أبا عبد الله، جعلنى الله فداءك، إنى لم أردُد عليك ما قلت، ولكن الزهد مذهبُ أبى العتاهية، وشعره فى المديح ليس كشعره فى الزهد، فقال : أفليس الذى يقول فى المديح :

وهارونُ ماءُ المُزْن يَشْفِى من الصَّدَى * اذا ما الصَّدِى بالرِّيق غصّتْ حناجرُهْ
وأوسطُ بيت فى قريش لبيتُه * وأوّلُ عزّ فى قريش وآخره
وزحفٌ له تحكى البروقَ سيوفُه * وتحكى الرعودَ القاصفاتِ حوافرُه
اذا حميتْ شمسُ النهار تضاحكتْ * إلى الشمس فيه بيضُه ومغافره
اذا نُكب الإسلامُ يوما بنكبة * فهارونُ من بين البريّة ثائره
ومن ذا يفوت الموتَ والموتُ مُدْرِكٌ * كذا لم يفُتْ هارونَ ضدٌّ ينافره

فتخلّص الرجل من شرّ ٱبن الأعرابى بأن قال له : القولُ كما قلتَ ، وما كنتُ سمعت له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه .

قال ثُمَامة بن أشْرَس أنشدنى أبو العناهية :

إذا المرء لم يُعْتِقْ من المـال نفسَه * تملَّكه المـالُ الذى هو مالكه

ألا إنمـا مالى الذى أنا مُنْفِقٌ * وليس لِىَ المـالُ الذى أنا تاركه

اذا كنتَ ذا مال فبَادِرْ به الذى * يَحِقّ وإلا ٱستهلكته مَهالـكه

فقلت له : من أين قضيت بهذا؟ فقال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما لك من مالك ما أكلتَ فأفنيتَ أو لبِسْتَ فأبليتَ أو تصـدّقتَ فأمضيتَ" . فقلت له : أتؤمن بأن هذا قول رسـول الله صلى الله عليه وسلم وأنّه الحقّ؟ قال : نعم؛ قلت : فلِمَ تَحْبِس عندك سـبعا وعشرين بَدْرَةً فى دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكّى ولا تقـدّمها ذُخْرا ليوم فَقْرك وفاقَتِـك ؟ فقال : يا أبا مَعْن ، والله إنّ ما قلتَ لهو الحقّ ، ولكنى أخاف الفقر والحاجةَ الى الناس؛ فقلتُ : وبِمَ تزيد حالُ من ٱفتقر على حالك وأنتَ دائم الحرص ، دائمُ الجَمْع ، شحيحٌ على نفسـك ، لا تشترى اللّحم إلا من عيد الى عيد؟ فترَك جواب كلامى كلّه ، ثم قال لى : والله لقد ٱشتريتُ فى يوم عَاشُوراء لحمـا وتوابِلَه وما يتبعه بخمسة دراهم؛ فلما قال هـذا القول أضحكنى حتى أذهلنى عن جوابه ومُعَاتَبته ، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شَرَح اللهُ صدرَه للإسلام .

زار مرّةً عمرو بن مَسْعَدة فحُجِب عنه ، فلَزِم منزله ، فاستبطأه عمرو، فكتب اليه :

كسَّلَنِى اليأسُ عنك فمـا أر * فـع طَرْفِى اليك من كَسَلِ

إنى اذا لم يكن أخى ثِقَةً * قَطَعتُ منه حَبائلَ الأمل

وكتب اليه مرة أخرى :

مالَكَ قد حُلْتَ عن إخائك وٱسـ * ـتبدَلْتَ ياعمرو شـيمةً كَدِره

إنى اذا البـاب تاه حاجِبُـه * لم يَكُ عنـدى فى هَجْره نَظِره (١)

(١) النظرة : التأخير والإمهال .

لستم تُرَجَّوْن للحساب ولا * يومِ تكون السماء مُنْفَطِره

لكن لدنيا كالظلّ بهجتُها * سريعةِ الإنقضاء مُنْشَمِره

قد كان وجهى لديك مَعْرِفَةً * فاليوم أضحى حَرْفا من النَّكِره

جلس المهدىّ للشعراء يوما فأذن لهم، وفيهم بشّار وأشجع، وكان أشجع يأخذ عن بشّار ويعظِّمه، وكان فى القوم غيرَ هذين أبو العتاهية، قال أشجع: فلما سمع بشّار كلام أبى العتاهية قال : يا أخا سُلَيْم، أهذا ذلك الكُوفِىّ المُلَقَّب؟ قلت : نعم، قال : لا جَزَى الله خيرا من جمعنا معه، ثم قال له المهدىّ : أنْشِد، فقال : ويحك! أو يُستنشد أيضا قَبْلنا؟ فقلتُ : قد ترى؛ فأنشد :

ألَا ما لسيّدتى ما لَها * أدَلًّا فأحمِل إدْلالَها

وإلّا فَفِيمَ تجنّتْ وما * جنيْت سقى الله أطْلالَها

ألا إن جاريةً للإما * م قد أُسْكِنَ الحسن سِرْبالها

مشتْ بين حُورٍ قصارِ الخُطا * تُجاذِب فى المشى أكفالَها

وقد أتعب اللهُ نفسى بها * وأتعب باللّوْم عُذّالها

فقال بشّار لأشجع : ويحك يا أخا سليم! ما أدرى من أىّ أمْرَيْه أعجب، أمن ضعف شعره أم من تشبيبه بجارية الخليفة وهو يسمع ذلك بأُذُنه؟ حتى أتى على قوله :

أتَتْه الخلافةُ مُنْقادةً * إليه تُجَرِّر أذْيالَها

فلم تَكُ تصلُح إلّا له * ولم يكُ يصلح إلّا لها

ولو رَامَها أحَدٌ غيرُه * لزُلْزِلت الأرضُ زِلْزالها

ولو لم تُطِعْه بنات القلوب * لَمَا قَبِل اللهُ أعمالها

وإن الخليفة من بُغْض "لا" * إليه ليُبْغِضُ مَنْ قالها

فقال بشار لأشجع وقد ٱهتزّ طَرَبا : ويحك يا أخا سليم، أترى الخليفة لم يطر عن فراشه طربا لما يأتى به هذا الكوفىّ!

ولمـا آتّهمه منصورُ بن عمّار بالزندقة، لأنه لا يذكر فى شعره الجنّة والنار وإنمـا يذكر الموت، قال فيه :

يا واعظَ الناس قد أصبحتَ متّهما * إذ عِبْتَ منهــم أمورا أنتَ تأْتيها
كالمُلْبِس الثوبَ من عُرْى وعَوْرتُه * للناس باديةٌ ما إنــ يُوارِيهـا
فأعظَمُ الإثم بعــد الشّرك نعلمُــه * فى كلّ نفس عَمَاها عن مَسَاويها
عِرْفانهـا بعيوب النــاس تُبْصِرها * منهــم ولا تبصر العيبَ الذى فيهـا

وقيــل له : زعَم الناس أنك زِنْديق، فقال : والله مادينى إلا التوحيد، فقيل له قل شيئا يُتحدّث به عنك، فقال :

ألا إنّنـا كلُّنا بائدُ * وأىّ بَنى آدم خالدُ
وبَدْؤهم كان من رَبّهــم * وكلٌّ الى ربّه عائد
فياعَجبًا كيف يَعْصِى الإلــ ـــهَ أم كيف يجْحَدُه الجاحد
وفى كلّ شىء له آيةٌ * تدُلّ عــلى أنّه واحــد

وسمِــع الجاحظُ مرّة من ينشد أُرْجُوزة أبى العتاهية التى سمّاها "ذوات الأمثال" حتى أتى على قوله :

يالَلشباب المَرِح التّصابى * روائحُ الجنّــة فى الشباب

فقال للنشد : قِفْ، ثم قال : آنظروا الى قوله : «روائح الجنــة فى الشباب» فإن له معنًى كمعنى الطرب لايقدِر على معرفته إلا القلوب، وتعجِز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وخيرُ المعانى ما كان القلب الى قَبُوله أسرع من اللسان الى وصفه . وهذه الأرجوزة من بدائع أبى العتاهية، ويقال : إن فيها أربعة آلاف مَثَل، منها قولُه :

حَسْــبُك ممـا تبتغيه القُــوتُ * ما أكثرَ القوتَ لمنــ يموت
الفقــرُ فيما جاوَز الكَفَافا * مَنــ آتّــقى الله رجَا وخافا
هى المقــاديرُ فَلُمْنِى أو فَــذَرْ * إن كنتُ أخطأتُ فما أخطا القدَرْ

لكلّ ما يُؤذِى وإن قَلّ أَلَمْ * ما أطولَ الليلَ على من لم يَنَمْ

ما آنتفع المرءُ بمثل عَقْلِهِ * وخيرُ ذُخْرِ المرء حُسْنُ فِعْلِهِ

إن الفساد ضِدّه الصّلاحُ * ورُبّ جِدٍّ جَرّه المُزاحُ

من جَعَل النَّمام عَيْنًا هَلَكا * مُبْلِغُك الشَّرَّ كَباغِيه لَكَا

إن الشبابَ والفَرَاغ والجِدَه * مَفْسَدَةٌ للمرء أىّ مَفْسَده

يُغْنِيك عن كلّ قبيح تَرْكُه * يَرْتَهِن الرأىَ الأصيلَ شَكُّه

ما عَيْشُ مَنْ آفتُه بقاؤه * نغَّص عيشا كلَّه فَنَاؤه

يارُبّ من أسخطنا بجَهْده * قد سرَّنا اللهُ بغير حَمْده

ما تطلُع الشمسُ ولا تَغيبُ * إلا لأمرٍ شأنُه عجيبُ

لكلّ شىء مَعْدِنٌ وجوهرُ * وأوسَط وأصغَر وأكبرُ

مَنْ لك بالمَحْض وكُلّ مُمْتَزِجْ * وَساوِسٌ فى الصدر منه تَعْتَلِجْ

وكلُّ شىء لاحِقٌ بجوهره * أصغَرُه مُتَّصِلٌ بأكبَره

ما زالت الدنيا لنا دارَ أذَى * ممزوجةَ الصَّفْو بألوان القَذَى

الخيرُ والشرّ بها أزواجُ * لذا نِتَاجٌ ولذا نِتَاجُ

مَنْ لك بالمَحْض وليس مَحْضُ * يَخْبُث بعضٌ ويَطيب بعضُ

لكلّ إنسان طَبيعتانِ * خيرٌ وشرّ وهما ضِدّانِ

إنك لو تَسْتَنْشِق الشَّحيحا * وجَدْتَه أَنْتَن شىء رِيحا

والخيرُ والشرّ اذا ما عُدّا * بينهما بَوْنٌ بعيدٌ جِدّا

عجبتُ حتى غَمّنى السُّكُوتُ * صِرْتُ كأنّى حائرٌ مبهوتُ

كذا قَضَى اللهُ فكيف أَصْنَعُ * الصَّمْتُ إن ضَاق الكلامُ أوسَعُ

ومن قول أبى العتاهية فى الوحدة والتبرُّم بالناس :

بَرِمتُ بالناس وأخلاقِهم * فصِرتُ أستأنِسُ بالوَحْده
ما أكثر الناسَ لعمرى وما * أقلَّهم فى حاصِل العِدّه

قال الأصمعىّ : شِعرُ أبى العتاهية كساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخَزَف والنَّوى .

كان أبو العتاهية لا يفارق الرشيد فى سَفَر ولا حضر إلا فى طريق الحج ، وكان يُجرى عليه فى كلّ سنة خمسين ألف درهم سوى الجَوائز والمَعَاون ، فلما قدم الرشيدُ الرَّقَّة لَبِس أبو العتاهية الصُّوفَ وتزهّد ، وتَرَك حضورَ المنادمة والقولَ فى الغزل ، وأمر الرشيدُ بحبسه فحُبِس ، فكتب إليه من وقته :

أنا اليومَ لِى والحمدُ لله أَشْهُرُ * يَروح علىّ الهم منكم ويَبْكُرُ
تذكَّر أمينَ اللهِ حقّى وحُرْمتى * وما كنتَ تُولِينى كذلك يُذْكَر
ليالِىَ تُدنى منك بالقرب مجلسى * ووجهُك من ماء البشاشة يقطُر
فمَن لِىَ بالعين التى كنتَ مرّة * إلىّ بها فى سالف الدهر تَنْظُر

فلما قرأ الرشيد الأبيات قال : قولوا له : لا بأس عليك ، فكتب اليه :

أرِقْتُ وطار عن عينى النُّعَاسُ * ونام السامرون ولم يُواسُوا
أمينَ الله أَمْنُك خيرُ أمن * عليك من التقى فيه لِباس
تُسَاسُ من السماء بكلّ بِرّ * وأنتَ به تسوس كما تُساس
كأنّ الخلقَ رُكِّب فيه رُوحٌ * له جسد وأنتَ عليه راس
أمينَ الله إن الحبس باس * وقد أرسلتَ : ليس عليك باس

وكتب اليه أيضا فى الحبس :

وكلّفتنى ما حُلْت بينى وبينه * وقلتُ سأبغى ما تُريد وما تَهْوَى
فلو كان لى قَلْبان كلّفتُ واحدا * هواكَ وكلّفت الخَلِىَّ لما يَهْوَى

فأمر بإطلاقه .

كان الهادى واجدا على أبى العتاهية لملازمته أخاه هارون فى خلافة المهدىّ، فلما ولى موسى الخلافة قال أبو العتاهية يمدحه :

يَضطرب الخوفُ والرجاءُ إذا * حرّك موسى القضيبَ أو فكَّرْ
ما أبين الفضلَ فى مَغيبٍ وما * أوْرَد من رأيه وما أصْدَرْ
فكم تَرى عَزّ عند ذلك من * مَعْشَرِ قومٍ وذَلّ من معشرْ
يُثْمِر من مَسِّه القضيبُ ولو * يَمَسُّه غيرُه لما أثْمَرْ
مَنْ مِثْل موسى ومثل والده الـ * ـمهدىّ أو جدّه أبى جَعْفَر

فرضى عنه . فلما دخل عليه أنشده :

لَهفِى على الزمن القَصير * بين الخَوَرْنق والسَّدِير
إذ نحن فى غُرَف الجنا * ن نعوم فى بحر السرور
فى فتيةٍ مَلَكوا عنا * نَ الدهرِ أمثال الصُّقُور
ما منهمُ إلا الجَسُو * رُ على الهوى غير الحَصُور
يَتَعاوَرون مُدامةً * صَهْباء من حَلَب العصير
عذراءَ ربَّاها شُعَا * عُ الشمس فى حرّ الهجير
لم تَدْنُ من نار ولم * يَعْلَق بها وَضَرُ القدور
ومُقَرْطَقٍ يمشى أما * م القوم كالرَّشَأ الغرير
بزجاجةٍ تَسْتَخرِج الـ * ـسِّرَّ الدفين من الضمير
زهراء مثل الكوكب الـ * ـدُّرِّىّ فى كَفّ المُدير
تَدَعُ الكريمَ وليس يد * رى ما قَبِيلٌ من دَبِير
ومُخَصَّرَات زُرْنَنا * بعد الهدوّ من الخدور
رِيًّا رَوادفُهن يَلْـ * ـبَسْن الخواتم فى الخصور
غُرِّ الوجوه مُحَجَّبا * تٍ قاصرات الطَّرْف حُور

مُتَنَعِّمـــات فى النعـ * ـيم مُضَمَّخَات بالعبــير
يَرْفُلْن فى حُلَل المحا * سن والمجاسد والحرير
ما إن يَرَيْن الشـمس إلا * القُرْط من خَلَل الستور
والى أمين الله مَهْـ * ـرَبُنا من الدهر العَثُور
واليــه أتعبْنا المـــطا * يا بالرَّواح وبالبُكور
صُـعْرَ الخدود كأنمـا * جُنِّحْن أجنحةَ النُّسور
مُتَسَرْبِلاتٍ بالظـــلا * م على السُّهولة والوُعور
حـتى وَصَلْنَ بنـا الى * ربِّ المدائن والقصور
ما زال قبـــلَ فطامه * فى سِنّ مُكْتَهِـلٍ كبير

استنشده المأمونُ أحسن ما قال فى الموت فأنشده :

أنْسَاكَ مَحْيَـاك المَمَـاتا * فطلبتَ فى الدنيا الثبَاتا
أوَثِقْتَ بالدنيـا وأنـ * ـتَ ترى جماعتها شَتَاتا
وعزمتَ منك على الحيا * ة وطولهـا عَزْما بَتَاتَا
يا من رأى أبوَيْه فيـ * ـمن قد رأى كانا فماتا
هـــل فيهما لك عِبرةٌ * أم خلتَ أنّ لك انْفلاتا
ومَن الذى طلب التّفَلُّـ * ـتَ من منيّتــه ففَاتا
كلٌّ تُصَــبِّحه المنـ * ـيَّـةُ أو تبيّتــه بيَــاتا

دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

ما أحسنَ الدنيـا وإقبالهـا * اذا أطاع اللهَ مَنْ نالَهـا
مَن لم يُواس الناسَ من فضلها * عَـــرض للإدبار إقبالَهـا

فقال له المأمون : ما أجودَ البيتَ الأوّل، فأما الثانى فما صنعتَ فيه شيئا، الدنيا تُدْبِر عمّن واسَى منها أو ضنّ بها، وإنما تُوجِب السماحةُ بها الأجرَ والضَنُّ بها الوِزرَ، فقال : صدقتَ

يا أمير المؤمنين، أهلُ الفضل أولى بالفضل وأهل النقص أولى بالنقص، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كم غافلٍ أودى به الموتُ * لم يأخذ الأُهْبَــةَ للفَوْتِ

من لم تَزُل نعمته قَبْلَه * زالَ عن النّعمة بالمــوت

فقال له : أحسنتَ، طيّبت المعنى، وأمر له بعشرين ألف درهم :

كان أبو العتاهية يحُجّ كل سنة، فاذا قدم أهدى الى المأمون بُرْدًا ومُطْرَفًا ونَعْلا سوداء ومَسَاويكَ أَرَاكٍ، فيبعث اليه بعشرين ألف درهم، فأهدى مرّة له كما كان يهدى كل سنة إذا قدِم، فلم يُثِبْه ولا بَعَث اليه بالوظيفة، فكتب اليه أبو العتاهية :

خبّرونى أن من ضَرْب السَّنَهْ * جُدُدًا بيضا وصُــفرا حَسَنهْ

أُحْدِثَتْ لكننى لم أرَهَــا * مثــلَ ما كنتُ أرى كلّ سنه

فأمر المأمون بحمل العشرين الألف وقال : أغفلناه حتى ذكّرنا .

أنشد المأمونُ بيتَ أبى العتاهية يخاطب سلمًا الخاسر :

تعالى اللهُ يا ســلم بن عمرو * أذلّ الحِرْصُ أعناق الرّجال

فقال المأمون : إن الحرص لمُفســد للدين والمروءة، والله ما عرفت من رجلٍ قطّ حرصًا ولا شَرَها فوجدتُ فيه مُصْطَنَعًا، فبلغ ذلك سلما فقال : ويلى على الجرّار الزنديق جمع الأموال وكنَزَها وعبأ البدور فى بيته ثم تزهّد مُرَاءاةً ونفاقا، فأخذ يهتِف بى اذا تصدّيتُ للطلب .

كان الرشيدُ مما يعجبه غناءُ الملّاحين فى الزلالات اذا ركبها، وكان يتأذّى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء : يعملوا لهؤلاء شعرا يغنّون فيه، فقيل : ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية وهو فى الحبس، فوجّه اليه الرشيدُ : قل شعرا حتى أسمَعَه منهم، ولم يأمر بإطلاقه، فغاظَه ذلك وقال : والله لأقولنّ شعرا يُحزنه ولا يُسَرّ به، فعمل شعرا ودفعه الى من حفظه من الملّاحين، فلما ركب الحرّاقة سمعه وهو :

خانَك الطَّـرفُ الطَّمُوحُ * أيهـا القلبُ الجَمُـــوحُ
لدواعى الخـــيرِ والشـ * ـرِّ دُنُـــــوٌّ ونُـــزُوح
هـــل لمطـلوبٍ بذنبٍ * توبةٌ منـــه نَصُـــوح
كيف إصـــلاحُ قلوبٍ * إنمـا هُنــ قُـــروح
أحسنــ الله بنـا * إنّــ الخطايا لا تَفُوح
فإذا المســـتورُ مِنّـا * بينــ ثَوْبَيْـــه فُضوح
كم رأينـا من عـــزيزٍ * طُوِيَتْ عنه الكُشُوح
صـاحَ منـه برحيـــل * صائحُ الدهرِ الصَّدُوح
موتُ بعضِ الناسِ فى الأر * ض على قـوم فُتُـــوح
سيصـــير المــرء يوما * جسَـــدا ما فيـه رُوح
بينــ عَيْـــنَىْ كلِّ حىّ * عَـلَمُ المــوت يَـــلوح
كلُّنا فى غفــلة والـ * ـموتُ يغـــدو ويَرُوح
لِبَـــنِى الدنيـا من الدنـ * ـيا غَبُــوقٌ وصَـــبُوح
رُحْن فى الوشى وأصبحـ * ـن عليهـنّ المُسُـــوح
كلُّ نطّاحٍ مــن الدهـ * ـر له يــومًا نَطُـــوح
نُحْ على نفســك يا مسـ * ـكين إن كنتَ تنـوح
لَتَمُـــوتَنّ وإنـ عُمِّـ * ـرت ما عُمِّـــر نُـــوح

فلمـا سمع ذلك الرشـيد جعـل يبكى وينتحب ، وكان الرشيد من أغزر النـاس دموعا فى وقت المَوْعِظة ، وأشدّهم عَسْفًا فى وقت الغضب والغِلْظة ؛ فلما رأى الفضلُ بن الربيع كثرة بكائه أومأ الى الملّاحين أن يسكتوا .

لمـا عقد الرشيد العهد لبنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلتُ عن الرَّبْعِ المُحِيلِ قَعُودى * الى ذِى زُحُوفٍ جَمّة وجُنُـودِ
ورَاعٍ يُراعى الليلَ فى حفظ أمّة * يدافع عنهـا الشـــرَّ غير رَقُود

بألوِيَةٍ جبريلُ يَقْــدُم أهلَها * ورايات نَصْــرٍ حوله وبُنُود
تجَافى عن الدنيا وأيقن أنهــا * مُفَارِقةٌ ليست بدار خُلود
وشَدَّ عُرَى الإسلام منه بفتية * ثلاثة أملاكٍ وُلَاة عُهُود
هُمُ خـــيرُ أولاد لهم خيرُ والد * له خيرُ آباء مَضَتْ وجُدود
بَنُو المصطفى هارون حول سريره * فخـــيرُ قيامٍ حـــولَه وقُعُود
تقلّب ألحاظُ المهابة بينهـــم * عيونَ ظباء فى قلوب أُسُــود
جُدُودهم شمسٌ أتت فى أهِلّة * تَبَدّت لِرَاء فى نجـوم سُــعُود

فوصله الرشيدُ بصِلة ما وصل مثلها شاعرًا قطّ .

١٢ — مُسْـــلِمُ بنـ الوَلِيـــد (١)

أحد الشعراء المفلقين والبلغاء المبدعين

قال الشّعْرَ فى صِباه، ولم يَتجاوز به الأمراء والرؤساء، مكتفِيًا بما يناله من قليل العطاء، ويُنفقــه على ملاذّه مع إخوانه من خُلَعاء الشــعراء، ثم آنقطع الى يزيد بن مَزيد الشَّيْبانى قائد الرشــيد، ثم آتّصل بالخليفة هارون الرشيد وعُدّ من شعرائه، ومدَحه ومدَح البرامكةَ وحَسُن رأيهم فيه . ولمــا أصبح الحلّ والعقد بيد ذى الرِّيَاستين الفضــل بن سَهْل وزير المأمون فى أوّل خلافته قرّبه وأدناه : لأنه كان من خاصّته قبــل وزارته، وولّاه أعمالا بجُرْجَان اكتسب منها ألف ألف درهم ثم لزِم منزلَه الى أن أنفقها فى اللّذات ، وعاد إلى الفضل فقلّده الضياع بأَصْبَهان فاكتسب منها ألف ألف أيضا . ولمــا قُتِل الفضل لزم منزلَه ونَسَك ولم يمدح أحدا إلى أن مات بجرجان .

ومسلمٌ أوّل من تكلّف البديع فى شعره وآستكثر منه فى قوله ، وسبَقَه بشار الى ذلك إلا أنه لم يبلغ شَأْوَ مســلم فيه . وقد عدّ العلماءُ هذا التصنّع والتكلّف إفسادًا للشعر، إذ قد تبعه فى ذلك الشعراءُ مثل البحترىّ وأبى تمام وابن المعتزّ وغيرهم .

---

(١) هو مسلم بن الوليد مولى الأنصار يلقب صريع الغوانى ، شاعر متقدّم من شعراء الدولة العباسية ، منشؤه ومولده الكوفة . وهو فيما زعموا أوّل من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعة ، وأشهرهم فيه أبو تمّــام الطائى ، فانه جعل شعره كله مذهبا واحدا فيه ، ومسلم كان متفننا متصرفا فى شعره . قال محمد بن يزيد : كان مسلم شاعرا حسن النمط ، جيــد القول فى الشراب ، وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس فى هذا المعنى ، وهو أوّل من عقد هذه المعانى الظريفة واستخرجها . وقال القاسم بن مهرويه : أوّل من أفســد الشعر مسلم بن الوليد ، جاء بهذا الفن الذى سماه الناس البديع ثم جاء الطائى بعده فتفنن فيه . توفى بجرجان سنة ٢٠٨ هـ وله ديوان مطبوع فى ليدن سنة ١٨٧٥ م . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٣ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٢٨) والعقد الفريد (ج ١ ص ١٤٢) .

وقد مزج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمّنه المعانى اللطيفة ، وكساه الالفاظ الظريفة ، فله جزالة البدويين ، ورقة الحضريين .

لقى مسلم أبا نواس فقال له : ما أعرف لك بيتا إلا فيه سقط ، قال له : فما تحفظ من ذلك؟ قال : قل أنت ماشئت حتى أريك سقطك فيه ، فأنشد :

ذكر الصَّبوحَ بسُحْرة فارتاحا * وأملَّه ديكُ الصَّباح صِياحا

فقال له مسلم : فلِمَ أملَّه وهو الذى أذكره وبه ارتاح؟ فقال أبو نواس : فأنشدنى شيئا من شعرك ليس فيه خَلَل ، فأنشده مسلم :

عاصَى الشبابَ فراح غير مُفَنَّد * وأقام بين عزيمةٍ وتجلُّد

فقال له أبو نواس : قد جعلته رائحا مقيما فى حالة واحدة وبيت واحد ، فتشاغبا وتسابّا ساعةً . وكلا البيتين صحيح المعنى .

اجتمع أصحاب المأمون عنده يوما ، فأفاضوا فى ذكر الشعر والشعراء ، فقال له بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رثى رجلا :

أرادوا ليُخْفُوا قبرَه عن عدوّه * فطِيبُ تراب القبر دلّ على القبر

وحيث مدح رجلا بالشجاعة فقال :

يجود بالنفس إذ ضنّ الجوادُ بها * والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود

وهجا رجلا بقبح الوجه والأخلاق فقال :

قَبُحَتْ مَنَاظِرُه فحين خَبَرْتَه * حَسُنَتْ مناظره لِقُبْح المَخْبَر

وتغازل فقال :

هَوًى يجِدّ وحبيبٌ يلعبُ * أنت لَقًى بينهما معذَّب

فقال المأمون : هذا أشعر من خضتم اليوم فى ذكره .

قال يزيد بن مَزْيَد : أرسل الىّ الرشيد يوما فى وقت لا يرسل فيه الى مثلى ، فأتيتُه لابسًا سلاحى مستعدًا لأمر إن أراده منّى ، فلما رآنى ضحك الىّ ثم قال : يا يزيد ، خبّرنى من الذى يقول فيك :

تَراه فى الأَمْن فى دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ * لا يأمَنُ الدهرَ أن يُدْعى على عَجَلِ
ضافِى العِنانِ طَموحَ العينِ همّتُــه * فَكُّ العُنَــاة وأَسْرُ الفاتك الخَطِلِ

فقال : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ؛ فقال : سَـوْءَةً لك من سـيّد قومٍ يُمْدَح بمثل هـذا الشعر ولا يعرف قائلَه ، وقد بلغَ أميرَ المؤمنين فرواه ووَصل قائلَه ، وهو مسلم بن الوليد! فانصرفتُ فدعوتُ به ووصلتُه ووليته .

وروى أنه دخل على الرشيد فقال له : يا يزيد، من الذى يقول فيك :

لا يَعْبَق الطِّيبُ خدّيْه ومَفْــرِقَه * ولا يُمَسِّــح عينيه من الكُحُلِ
اذا انتضى سـيفَه كانت مسالكُه * مسالكَ الموتِ فى الأبدان والقُلَلِ
وإن خَلَتْ بحـديث النفس فِكْرَتُه * حَىَّ الرجاءُ ومات الخوف من وجَلِ
كالليث إن هِجْتَــه فالموت راحتُه * لا يســتريح الى الأيام والدُّوَلِ

فقال : لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين ، فقال له هارون : أيقال فيك مثـل هذا الشـعر ولا تعرف قائلَه ! فخرج من عنده خجلا ، فلمـا صار الى منزله دعا حاجبه فقـال له : من بالباب من الشعراء؟ قال : مسلم بن الوليد ؛ قال : وكيف حَجَبْتَه عنى ، فلم تُعْلِمنى بمكانه ! فقال : أخبرته أنك مُضَيِّق ، وأنه ليس فى يديك شىء تعطيه إياه ، وسألتُه الإمساك والمُقام أياما الى أن تتّسع ؛ فأنكر ذلك وقال : أَدْخِله ، فأدخله اليه ، فأنشده قوله فيه :

أُجْرِرْتُ(١) حبلَ خليع فى الصِّبا غَزِلٍ * وشَمَّـرَتْ هِمَمُ العُـذّال فى عَـذَلى
هاجَ البكاءَ على العينِ الطَّموحِ(٢) هَوًى * مُفَــرَّقٌ بيــن توديـــع ومُحْتَمَلِ
كيف السُّــلُوُّ لقلبٍ راح مُخْتَبَلا * يَهْــذِى بصـاحب قلبٍ غير مختبَلِ

(١) أجررت فلانا رسنه : تركته وشأنه ، والخليع : الذى خلع عذاره فى الصبا . (٢) الطموح : المرتفعة فى النظر الى الأحبة . ومفرق : مقسم .

عَاصَى العــزاءَ غَداة البين مُنْهمِلٌ * من الدمــوع جرى فى إثر منهمــل
لولا مُدَاراةُ دمـــع العين لانكشفتْ * مـــنّى سرائرُ لم تظْهـــر ولم تُخَـــل (١)
أما كفى البينَ أن أُرْمَى بأسْهُمـــه * حتى رمانى بلحظ الأعين النُّجُـــل
ممــا جنَى لى وإن كانت مُنًى صــدَقَت * صَبَــابةً خُلَسُ التســليم بالمُقَــل
ماذا على الدهر لو لانت عريكتُه * وردّ فى الرأس مـــنّى سَكْرة الغَــزَل
جُرْمُ الحوادث عندى أنها اختلست * مـــنّى بناتِ غذاء الكَرْم والكِلَل (٢)
ورُبّ يوم من اللـــذّات مُحْتَضَر (٣) * قصّرتُـــه بلقــاء الراح والحُلَــل
وليـــلة خُلِستْ للعين من سِـــنَة * هتكتُ فيهــا الصِّبا عن بَيْضَة الحَجَــل
قد كان دهرى وما بى اليومَ من كِبَر * شُرْبَ المدام وعزْفَ القَيْنَـــة العُطُل
اذا شكوتُ اليهــا الحبَّ خَفَّــرها (٤) * شكواى فاحمَـــرّ خَدّاها من الخجــل
كم قد قطعتُ وعينُ الدهر راقـــدةٌ * أيامَـــه بالصِّبا واللهـــو والجَـــذَل
وطَيِّبِ الفـــرع أصـــفانى مـــودّته * كافأتُه بمـــديح فيـــه مُنتخَـــل (٥)
وبـــلدةٍ لمطايا الرَّكب مُنْضِـــيةٍ (٦) * أنضيتُهــا بوَجيف الأَينُـــق الذُّلُل
فِيمَ المُقـامُ وهـــذا النجم مُعْـــترِضًا (٧) * دَنا النَّجاء وحان الســـير فارْتَحِل
يا مائِلَ الرأس إن الليث مُفْـــتَرِسٌ * ميـــلَ الجماجم والأعناق فاعْتَـــدِل
حَـــذَارِ من أَسَـــدٍ ضِرغامةٍ بَطَـــلٍ * لا يُولِـغُ السـيفَ إلا مهجةَ البَطَـــل
لـــولا يزيد لأضحى المُلك مُطَّـــرِدًا (٨) * أو مَائِلَ السَّمْك أو مُسْتَرْخِىَ الطِّـــوَل
سَلّ الخليفـــةُ سيفا من بَنى مَطَـــر * أقام قائمُـــه من كان ذا مَيَـــل
كم صَـــائل فى ذَرا تمهيـــد مملكة * لـــولا يزيدُ بَنى شَيْبان لم يَصُـــل

(١) أى لم تظن بى . (٢) يريد الخمر والجوارى . (٣) محتضر، أى حضرته اللذات . والخلل: جمع خلة وهى الصديقة . (٤) خفرها ، أى ولد عليها الخفر وهو شدّة الحياء . (٥) أى مختار . (٦) منضية : متعبة . والوجيف : ضرب من السير . والذلل : الضامرات . . (٧) يريد بالنجم : الثريا . ومعترضا : منتصبا . (٨) مطردا ، أى مخذولا . وضرب السمك والطول مثلا .

نابَ الإمامُ الذى يَفــترُّ عنـــه اذا * ما ٱفترّت الحربُ عن أنيابها العُصُـــل
من كان يَخْتِـــل قِرْنا عنـــد موقفه * فإن قِرن يزيـــد غيرُ مُخْتَتَـــل
ســدّ الثغور يزيدٌ بعــد ما ٱنْفَرجت * بقائم الســـيف لا بالخَتْل والحِيـــل
كم قــد أذاق حِمـامَ الموت من بَطَل * حامى الحقيقــةِ لا يُؤْتَى من الوَهَـــل
أغرُّ أبيضُ يُغْشِى البِيضَ أبيضَ لا * يرضى لمـــولاه يومَ الرَّوْع بالفَشَـــل
يَغْشَى الوغى وشِهابُ المـــوت فى يده * يرمى الفـــوارسَ والأبطال بالشُّـــعَل
يَفْترّ عنـــد ٱفترار الحـــرب مبتسمًا * اذا تغـــيّر وجه الفـارس البطـــل
مُوفٍ عـــلى مُهَج واليـــومُ ذو رَهَجٍ * كأنه أجَـــلٌ يســـعى الى أمـــل
ينـال بالرِّفـــق ما يَعْيَـا الرجالُ بـــه * كالموت مســـتعجلا يأتى على مَهَـــل
لا يُلْقِـــحُ الحـــربَ إلا رَيْثَ يَنْتِجُها * من هالك وأســـيرٍ غـــيرِ مختتَـــل
إن شِـــيم بارقُـــه حالت خلائقُـــه * بين العطيّـــة والإمساك والعلـــل
يُغْشِى المنايا المنـايا ثم يَفْـــرِجُها * عن النفوس مُطِلّات على الهَبَـــل(١)
لا يَرحـــل النـاسُ إلا نحـــوَ حُجْرته * كالبيت يُضْحِى اليـه مُلْتقَى السُّبُل(٢)
يَقْـــرِى المنيّةَ أرواحَ الكُمَاة كما * يَقْرِى الضيوفَ شُحُـــومَ الكُوم والبُزُل(٣)
يكسو الســـيوفَ دماء الناكثين به * ويجعـــل الهامَ تيجان القَنَـا الذُّبُـــل
يغـــدو فتغـــدو المنـايا فى أسِنَّته * شَوارعا تَتَحَـــدّى الناسَ بالأجَـــل
إذا طَغَت فئةٌ عن غِبّ طاعتهـا * عَبّى لهـا الموتَ بين البِيض والأَسَل
قـــد عَوّد الطـــيرَ عاداتٍ وثِقْنَ بها * فهنّ يَتْبَعنه فى كل مُرْتَحَـــل
تراه فى الأمن فى دِرع مُضَـاعَفَة * لا يأمَنُ الدهرَ أن يُدْعَى على عَجَـــل
ضافى العِنـان طموحَ العين همتُه * فَكّ العُنـاة(٤) وأسْرُ الفاتك الخَطِـــل
لا يَعْبَق الطِّيبُ خـــدّيه ومَفْرِقَـــه * ولا يمسح عينيه من الكُحُـــل

(١) الهبل : الفقدان . (٢) يعنى البيت الحرام . (٣) الكوم : العظام الأسنمة واحدها كوماء . والبزل : جمع بازل وهو ماله تسعة أعوام . (٤) جمع عان وهو الأسير ، والخطل : ذو الخطل وهو الخطأ .

اذا انتضى سيفه كانت مسالكه * مسالكَ الموت فى الأبدان والقُلَل
وإن خلت بحديث النفس فكرته * حىّ الرجاء ومات الخوف من وجل
كالليث إن هجته فالموت راحته * لا يستريح الى الأيام والدول
إن الحوادث لما رمن هضبته (١) * أزمعن عن جار شيبان بمنتقل
فالدهر يغبط أولاه أواخره * اذ لم يكن كان فى أعصاره الأول
اذا الشريكىّ (٢) لم يفخر على أحد * تكلم الفخر عنه غير منتحل
لا تكذبنّ فإن الحلم معدنه * وراثةٌ فى بنى شيبان لم تزل
سلّوا السيوف فأغشوا من يحاربهم * خبطا بها غير ما نكلٍ ولا وُكُل
الزائديون قومٌ فى رماحهم * خوفُ المخيف وأمنُ الخائف الوجل
كبيرهم لا تقوم الراسيات له * حلما وطفلهمُ فى هدى مكتهل
إسلم يزيدُ فما فى الدين من أود * اذا سلمتَ وما فى الملك من خلل
أثبتّ سوق بنى الإسلام فاطّادت (٣) * يومَ الخليج وقد قامت على زلل
لولا دفاعك بأس الروم اذ بكرت * عن عترة الدين (٤) لم تأمن من الثكل
ويوسفُ البَرْم (٥) قد صبّحت عسكره * بعسكر يلفظ الأقدار ذى زجل
غافصته (٦) يوم عبر النهر مُهلته * وكان محتجزا فى الحرب بالمهل
والمارقَ ابن طريف (٧) قد دلفتَ له * بعسكر للمنايا مسبل هطل
لما رآك مجدّا فى منيته * وأن دفعك لا يُسْطاع بالحيل
شام النزال فأبرقت اللقاء له * مقدّم الخطو فيها غير متكل
ماتوا وأنت غليل فى صدورهم * وكان سيفك يستشفى من الغلل

(١) هذا مثل، يريد لما رامت الحوادث من استحاره به . (٢) نسبة الى شريك، وهو أحد أجداد يزيد .
(٣) هكذا فى الأصل . وعندنا أن الكلمة محرفة عن (اتطدت) أى ثبتت . وهى وزان افتعل من وطد . وكانت اوتطد ثم قلبت فاء الافتعال تاء وأدغم المثل فى المثل . (٤) عترة الدين : جماعة الاسلام .
(٥) أحد الخوارج على الرشيد . (٦) غافصه : فاجأه على غرة . (٧) هو الوليد بن طريف الشارى .

لو أنّ غير شريكىّ أطاف به * فاز الوليدُ بقِدح الناضل الخَصِل (١)
وقمتَ بالدين يوم الرَّسّ (٢) فاعتدلت * منه قوائمُ قد أوفَتْ على مَيَل
ما كان جمعُهُم لما لقيتَهُمُ * إلا كمثل نَعَامٍ رِيع مُنْجَفِل
تابوا ولو لم يتوبوا من ذنوبهمُ * لآبَ جيشُك بالأسرى وبالنَّفَل
كم آمنٍ لك نائى الدار مُمْتَنِع * أخرجته من حصون المُلْك والخَوَل
يأبى لك الذمَّ فى يوميك إن ذُكِرا * عَضْبٌ حُسامٌ وعِرض غير مُبتذَل
وما رقين غُزاةٍ من بيوتهمُ * لا يَنْكُلون ولا يؤتَون من نَكَل
خلّفتَ أجسادهم والطيرُ عاكفةٌ * فيها وأقفلتَهم هاما مع القَفَل
فانخَرْ فما لك فى شيبان من مَثَل * كذاك ما لبنى شيبان من مَثَل
كم مشهدٍ لك لا تُحصى مآثرُه * قسَمت فيه كرزق الإنس والخَبَل
لله من هاشم فى أرضه جَبَل * وأنت وابنُك رُكنا ذلك الجبل
قد أعظَموك فما تُدْعى لِهَيِّنة * إلا لمُعضِلة تَستَنّ بالعَضَل (٣)
يا ربّ مكرمة أصبحت واحدها * أعيت صَناديدَ رامُوها فلم تُنَل
تَشاغَلَ الناسُ بالدنيا وزُخرفها * وأنت من بَذلك المعروفَ فى شُغُل
أقسمتُ ما ذُبّ عن جَدْواك طالبُها * ولا دفعتَ اعتزام الجِدّ بالهَزَل
يأبى لسانُك مَنعَ الجود سائلَه * فما يُلَجْلِج بين الجود والبَخَل
صدّقتَ ظنّى وصدّقت الظنونَ به * وحطّ جودُك عَقدَ الرَّحْل عن جَمَلى

فقال له يزيد : قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقبضها واعذر ؛ فخرج الحاجب فقال لمسلم : قد أمرنى أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم : خمسون ألفا منها لك وخمسون ألفا لنفقته ، فأعطاه إياها . وكتب صاحب الخبر بذلك الى الرشيد ، فأمر ليزيد بمائتى ألف درهم وقال : اِقْضِ الخمسين ألفا التى أخذها الشاعر وزِدْه مثلها ، وخُذْ

(١) الناضل : المصيب . والخصل مثله . (٢) الرس : وادى أذربيجان . (٣) تستن بالعضل : تتابع بالعسر . والمعضلة : الداهية .

مائة ألف لنفقتك ، فافْتَكّ ضَـيْعته وأعطى مسلما خمسين ألفا أخرى . ولما أنشده : «لا يعبق الطيب» البيت . قال لجاريته : حرّم علينا مسلم الطِّيب .

كان داود بن يزيد بن حاتم المُهلّبي يجلس للشعراء فى السنة مجلسا واحدا ، فيقصدونه لذلك اليوم ويُنشدونه ، فوجّه اليه مسلم راويته بقصيدته التى أولها : «لا تَدْعُ بى الشوق» فقدِم عليه يومَ جلوسه للشعراء ولحقه بعَقِب خروجهم عنه ، فتقدّم الى الحاجب وحَسَر لثامه عن وجهه ، ثم قال له : آستأذن لى على الأمير؛ قال : ومن أنت ؟ قال : شاعر ، قال : قد آنصرم وقتُك وآنصرف الشعراء وهو على القيام؛ فقال له : ويحك! إنى قد وفدتُ على الأمير بشعر ما قالت العرب مثلَه ، وكان مع الحاجب أدَبٌ يفهم به ما يسمع ، فقال : هاتِ حتى أسمع ، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك اليه؛ فأنشده بعض القصيدة ، فسمع شيئا يقصر عنه الوصف ، فدخل على داود فقال له : قدِم على الأمير شاعر بشعر ما قيل فيك مثله؛ فقال : أدْخِل قائله؛ فلما مَثَل بين يديه سَلّم وقال : قدمت على الأمير — أعزه الله — بمدح يسمعه فيعلم تقدّمى على غيرى ممّن آمتدحه؛ فقال : هات ، فلما آفتتح القصيدة وقال : « لا تدع بى الشوق » آستوى جالسا وأطرق حتى أتى الرجلُ على آخر الشعر ، ثم رفع رأسه اليه فقال : أهـذا شعرك ؟ قال : نعم أيها الأمير؛ قال : فى كم قلته يا فتى؟ قال : فى أربعة أشهر أبقاك الله؛ قال : لو قلته فى ثمانية أشهر لكنت محسنا ، وقد اتهمتك ، لجودة شعرك وخمول ذكرك ، فان كنت قائل هذا الشعر فقد أنْظَرتُك أربعة أشهر فى مثله ، وأمرت بالإجراء عليك ، فان جئتنا بمثل هذا الشعر وهبتُ لك مائة ألف درهم وإلا حرمتك ، فقال : أو الإقالة أعزّ الله الأمير؛ قال : قد أقلتك؛ قال : الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره؛ فقال : أنا آبن حاتم ، إنك لما آفتتحت شعره فقلت : «لا تدع بى الشوق إنى غير معمود» سمعت كلام مسلم ينادينى ، فأجبت نداءه وآستويت جالسا؛ ثم قال : ياغلام ، أعطه عشرة آلاف درهم ، وآحمل الساعة الى مسلم مائة ألف درهم . وهذه هى القصيدة :

لا تَدْعُ بى الشّــوقَ إنى غير معمــود * نَهَى النُّهى عن هــوى الهيف الرَّعاديد (١)
لو شئتُ لاشئتُ راجعتُ الصِّبا ومَشَتْ * فِىّ العيونُ وفاتتــنى بجُـلُود (٢)
سَلْ ليلةَ الخَيْفِ هل أمضيتُ آخرَها * بالرّاح تحت نسـيم الخُــرَّدِ الغيـد
شَجَجْتُها بلُعاب المُزن فاغــتزلت (٣) * نَسْــجَيْن من بين محــلول ومعقــود
كِلا الجديدين قد أُطعِمتُ حَبْرَتَه (٤) * لَــوْ آلَ حىٌّ الى عُمْــر وتخليــد
أهــلا بوافـــدة للشيب واحـــدةٍ * وإن تَرَاءتْ بشخص غير مودود
لا أجمع الحلمَ والصهباءَ قـد سكنتْ * نفسى الى المـاء عن ماء العناقيـد
لم يَنْهَنِى فنَــدٌ (٥) عنهـا ولا كِبَر * لكن صحوتُ وغُصنى غير مَخْضود
أوفى بى الحــلمُ واقتاد النُّهى طَلَقا * شأوى وعفتُ الصِّبـا من غير تفنيـد
اذا تجـافَت بِىَ الهات عن بـلد * نازعت أرضًـا ولم أحفِـل بتمهيـــد
لا تَطَّبِينِى (٦) المُــنَى عن جَهْـد مُطَّلَب * ولا أُحـول لشىء غــير موجـــود
ومَجْهَــلٍ كاطِّـــراد السيف مُحْتَجِـزٍ * عن الأدلّاء مســجُور الصَّياخيد
تمشى الرّياحُ به حَسْـــرى مُوَلَّهـةً * حَــيْرى تلوذ بأطـــراف الجلاميـد
مُوَقَّف المَتْن لا تمضى السَّبيــلُ به * إلا التخلُّــلَ ريْثًـا بعـد تجهيـد
قَرَيْتُــه الوَخْدَ من خَطَّـارةٍ (٧) سُرُحٍ * تَفْــرى الفــلاةَ بإرْقال وتَوْخيـد
اليـك بادرتُ إسفارَ الصباح بهـا * من جُنْح ليل رحيب البـاع ممـدود
وبلدةٍ ذات غَـوْلٍ لا سبيل بهـا * إلا الظّنونُ وإلّا مَسْرَح السِّـيد
كأن أعلامهـا والآلُ يركبُهـا * بُدْنٌ تَــوَافَى بهـا نَذْرٌ الى عيـد

(١) لا تدع بى الشوق، أى لا تدعنى مشتاقا. وسأله دعبل عن معنى ذلك فقال: لا تدعنى صريع الغوانى فلست كذلك، وكان لهذا اللقب كارها. ومعمود: عاشق. والهيف: الضامرات الخصور. (٢) أى ذهبت بجلدى. (٣) اغتزلت: اختلطت، ويريد بالنسجين: ما ولى الماء من الخمر أسرع فيه الماء فحله، وما ولى منها القاع بقى على حاله لم يحله الماء بعد. (٤) الحبرة: النعيم.
(٥) الفند: اللوم. والمخضود: الواهن. (٦) أى لا تدعونى الى نفسها. (٧) الخطارة: الناقة تحرك ذنبها. والسرح: الخفيفة.

كلّفتُ أهوالها عَيناً مؤرّقةً * اليك لولاك لم تُكحَل بتَسْهيد
حتى أتتك بىَ الآمالُ مُطّلِعا * لليُسر عندك فى سربال محسود
من بعد ما ألقتِ الأيامُ لى عَرَضا * مُلْقَى رَهين(١) لحَدِّ السيف مَصْفُود
وساوَرَتنى بناتُ الدهر فامتَحنت * رَبْعى بمُمْحلةٍ(٢) شهباء جارُود
الى بنى حاتم أدّى ركائبَنا * خَوْضُ الدّجى وسُرَى المَهْرِيّة القُود
تَطْوِى النهارَ فإنْ ليلٌ تخمّطها(٣) * باتت تَخَمَّط هامَاتِ القراديد
مِثْلَ السَّمام(٤) بَعيدات المَقيل اذا * ألقى الهجيرُ يَدًا فى كلّ صَيْخود
حَلّت بداوُدَ فامتاحتْ وأعْجَلَها * حَذْوَ النِّعال على أيْنٍ وتَحْرِيد(٥)
أعطى فأفنى المُنى أدنى عَطِيّتِه * وأرهَقَ الوعد نُجْحاً غير منكود
واللهُ أطفأ نار الحرب إذ سُعِرتْ * شَرْقًا بمُوقِدها فى الغرب داود
لم يَأْبَ أمرا ولم يَظْهَر على حَدَث * إلا أُعِينَ بتوفيق وتسديد
مُوَحّدُ الرأى تَنْشَقّ الظنونُ له * عن كل مُلتَبِس منها ومعقود
تُمْنَى الأمورُ له من نحو أوْجُهها * وإن سلكن سبيلا غير مَوْرُود
اذا أباحت حِمَى قوم عقوبتُه * غادَى له العفوُ قومًا بالمراصيد
كالليث بل مثله الليثُ الهَصُور اذا * غَنّى الحديدُ غِناءً غير تَغْريد
يلقى المنيّةَ فى أمثال عُدّتها * كالسّيل يقذف جُلمودا بجُلمود
إن قصّر الرمحُ لم يَمْش الخُطا عددا * أو عَرّد السيف لم يَهْمُم بتَعْرِيد
اذا رَعَى بَلدا دَانَى مَناهِلَه * وإن بَنَين على شَحْطٍ وتَبْعِيد
جَرى فأدرك لم يُعْنَف بمُهْلَتِه * واستودَع البُهْرَ(٦) أنفاسَ المجاويد

(١) الرهين : الأسير . والمصفود : الموثق بالحديد . (٢) الممحلة : السنة الجدبة . والجارود : المنجردة من النبات . (٣) تخمطها : سال بها . والقراديد : جمع قردد، وهو المرتفع من الجبال . (٤) السمام : طائر يشبه القطا . والصيخود : شدّة الحر . (٥) التحريد من الحرد، وهو داء يصيب الإبل فى قوائمها . والأين : التعب . (٦) البهر : هو ما يعترى الانسان عند العدو من اللهث وتتابع النفس .

آلُ المُهَلَّبِ قومٌ لا يزال لهم * رِقّ الصَّريح وأسلابُ المَذاوِد (١)
مُظَفَّرون تُصيب الحربُ أنفسَهم * اذا الفِرارُ تمطَّى بالمَحايِيد (٢)
نجْلُ مَناجِيبَ لم يَعْدَم تِلادُهُم * فتًى يُرَجَّى لِنَقْضٍ أو لتوكيد
قومٌ اذا هَدْأَة (٣) شامَتْ سيوفَهمُ * فإنها عُقُلُ الكُوم المَقاحِيد
نفسى فداؤك يا داود إذ عَلِقت * أيْدى الرّدى بنواصى الضُّمَّر القُود
داويتَ من دائها كَرْمان وٱنتصفت * بك المنون لأقوامٍ مَجاهيد
ملأتَها فَزَعًا أخلى معاقلَها * من كل أبْلَخَ (٤) سامى الطّرف صِنْديد
لما نزلتَ على أدنى بلادهمُ * ألقى إليك الأقاصى بالمَقاليد
لَمَستهم بيد للعفو مُتّصِلٍ * بها الرّدى بين تَلْيينٍ وتشديد
أتيتَهم من وراء الأمن مُطَّلِعًا * بالخيل تَرْدِى بأبطالٍ مَناجيد
وطار فى إثر من طار الفِرارُ به * خوفٌ يعارضه فى كل أُخْدود
فاتوا الرّدى وظُباتُ الموت تَنْشُدُهم * وأنتَ نَصْب المنايا غيرُ مَنْشُود
ولو تلبّث ديّان (٥) لها رَويَتْ * منه ولكن شآها عَدْوَ مَزْءُود
أحْرَزَه أجَلٌ ما كاد يُحرِزه * فَمَرّ يَطْوى على أحشاء مَفْئُود (٦)
ورأسُ مِهْران قد ركّبت قُلّته * لَدْنًا كَفَاه مكانَ اللّيت والجِيد
قد كان فى مَعْزِلٍ حتى بعثتَ له * أمَّ المنيّة فى أبنائها الصِّيد
أجُنّ أم أسْلَمَتْه الفاضحات الى * حَدّ من السّيف من يَعْلَق به يُود
ألحقته صاحبيه فاستمرّ بهم * ضربٌ يفرّق ضَبّاتِ (٧) القَماحِيد

---

(١) رق الصريح، أى استعباد الحر . والمذاويد : الانجاد واحده مذود . (٢) المحاييد : الجبناء جمع محياد . (٣) الهدأة : الفترة . (٤) الأبلخ : المتكبر .

(٥) شآها : سبقها . ومزءود : مرعوب . (٦) المفئود : الذى أصيب فؤاده . (٧) الضبات : أوصال الرأس . والقماحيد : جمع قمحودة وهى العظم الناتئ فى مؤخر الرأس بين القفا وأعلى الرأس .

أعذر(١) من فرّ من حرب صبرت لها * يوم الحضين شعار غير مجحود
يوم استضبت سجستان(٢) طوائفها * عليك من طالب وترا ومحقود
ناهضتهم ذائد الإسلام تقرعهم * عنه ثلاث ومثنى بالمواحيد
تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود
تلك الأزارق إذ ضل الدليل بها * لم يخطها القصد من أسياف داود
كان الحضين يرجى أن يفوز بها * حتى أخذت عليه بالأخاديد
ما زال يعنف بالنعمى ويغمطها * حتى استقل به عود على عود
وضعته حيث ترتاب(٣) الرياح به * وتحسد الطير فيه أضبع البيد
تغدو الضوارى فترميه بأعينها * تستنشق الجو أنفاسا بتصعيد
يتبعن أفياءه(٤) طورا وموقعه * يلغن فى علق منه وتجسيد
فكان فارط قوم حان مكرعهم * بأرض زادان شتى فى الموارد
يوم جراشة إذ شيبان موجفة(٥) * ينجون منك بشلو منه مقدود
زاحفته بابن سفيان فكان له * ثناء يوم بظهر الغيب مشهود
نجا قليلا ووافى زجر عائفه * بيومه طير منحوس ومسعود
ولى وقد جرعت منه القنا جرعا * حى المخافة ميتا غير مودود
زالت حشاشته عن صدر معتدل * دانى الكعوب بعيد الصدر أملود(٦)
إذا السيوف أصابته تقطع فى * سرادق بحوامى الخيل ممدود
يفدى بما نحلته من خلافته * حشاشة الركض من جرداء قيدود(٧)
حل اللواء وخال الخدر عائذه * فعاذ بالخدر ترب الكاعب الرود

(١) أعذر : جاء بما يعذر عليه . (٢) أى أغرت طوائفها . (٣) ترتاب : أى تستنكر .
(٤) الأفياء : جمع فىء وهو الظل آخر النهار . والجسد : الدم . (٥) موجفة : سريعة .
(٦) أملود : أملس . (٧) الجرداء : قصيرة الشعر . والقيدود : الناقة الطويلة الظهر .

وإن يكن شَبها حرباً وقــد خَمَدت * فنائيًّـا حيث لا هَيْـدٍ ولا هِيـــد (١)
كلُّ مَثَلْت به فى مثـــل خُطّتِــه * قتْــلا وأضجعتَـــه فى غير مَلْحـــود
عافُوا رِضاكَ فعاقَتْهــم بعَقْوتهــم (٢) * عن الحياة مناياهــم لِمَوعـــود
وأنتَ بالسِّـــند اذ هاج الصَّريخُ بهـا * وآستنفدتْ حربُها كيــدَ المكايــد
وآستغزر القوم كأسا من دمائهـــمُ * وأحدقَ المـــوت بالكُرّار والحيــد
رددتَ أهمالَها (٣) القصـــوى مخيّســة * وشِمت بالبِيض عَوْرات المراصـــيد
كنت المهلّب حتى شــكّ عالمهـــم * ثم انفـردتَ ولم تُسْـــبَق بتســـويد
لم تقبـــل السَّــلْمَ إلا بعد مقـــدرة * ولا تألفت إلا بعـــد تبـــديد
حـــتى أجابوك من مستأمِنٍ حـــذِر * راجٍ ومنتظـــرٍ حتفـا ومَمْـــود
أهـــدى اليك على الشحناء أُلفتَهـــم * مـــوتٌ تفـــرّق فى شـــتى عبَاديد
وفى يديك بقــايا من سَراتهـــمُ * هـــمُ لديك على وعـــد وتوعيـــد
إن تعفُ عنهـم فأهلُ العفو أنت وإن * تُمض العِقـاب فأمر غـــير مردود
اِسمـــع فإنك قد هيّجت مَلْحَمــة * وفَـــدتْ منهـا بأرواح الصـــناديد
اِقْـــذِف أبا مالك فيهـا يَكُنْ بهـا * ويَسْـــعَ فيهـا بجَـــدّ منك مجـــدود
يمضى بعـزمك أو يجـــرى بشأوك أو * يَفْرى بجدّك كلّ غير محـــدود
لا يعـدَمنْك حمى الإسلام من مَلِكٍ * أقمتَ قُلّتَـــه من بعـــد تأويد
كفيتَ فى المُلك حـتى لم يقف أحد * على ضَيــاع ولم يحزن لمفقـــود
أعطيتَهـــم منـــك نُصْحا لا كِفاء له * وأيّدوك بركن غـــير مهـــدود
لم يبعث الدهر يوما بعـــد ليلتـــه * إلا آنبعثت لـــه بالبأس والجـــود
أجرى لك اللهُ أيام الحيـاة عـــلى * فعـــلٍ حميـــد وجَدّ غير منكـــود

---

(١) كلمتان يزجر بهما الإبل . (٢) بعقوتهم، أى بفنائهم . (٣) الأهمال : جمع همل، وهو الشيء المسيب، ويراد به الصعب . ومخيسة : مذللة .

لا يفقد الدين خيــلا أنت قائدها * يُعْهَــدنَ فى كل ثغر غير معهــود
مُحَجَّــلاتٍ اذا آبتْ غنائمَهــا * ومُقْــدَمات عــلى نصر وتأييــد
هناك أنك مَغْــدَى كلّ ملتمس * جُودا وأنــك مأوى كل مطــرود
تستأنف الحمــد فى دهر أوائــلُهُ * موســومة بفعــال منــك محمــود
اذا عزمتَ عــلى أمر بطشتَ به * وإن أنلت فَنَيْــلا غيرَ تصريد
عوّدت نفســك عادات خُلقت لهــا * صِــدْقَ الحــديث وإنجازَ المواعيــد

دخل الوليد على الفضل بن سهل لينشده شعرا، فقال له : أيها الكهل ، إنى أجلّك عن الشعر فسل حاجتك، قال : بل تستتم اليد عندى بأن تسمع، فأنشده :

دمُوعها من حِذار البين تنسكب * وقلبُها مغــرم من حَرّها يجب
جَــدّ الرحيلُ به عنها ففارقهــا * لبينه اللهو واللــذات والطرب
يهوى المســيرَ الى مَرْو ويحزنه * فراقُها فهو ذو نفسين يرتقب

فقال له الفضل : إنى لأجلك عن الشعر، قال : فأغننى بمــا أحببت من عملك ، فولّاه البريدَ بجُرْجَان (١) .

هجا مسلم قريشا وفخر بالأنصار بشعر يمثل لك ناحيــة من نواحى العصبية بين القبائل وهو يعتبر، الى حدّ ما ، من الشعر السياسى، فقال :

قل لمن تاه إذ بنــا عز جهلا * ليس بالتّيه يفخَــر الأحرارُ
فتناهَــوْا وأقصِرُوا فلقــد جا * رت عن القصد منكم الأبصار
أيُّكــم حاط ذا جِوارٍ بعــزٍّ * قبل أن تحتويه منّا الدار
أورَجا أن يفــوت قوما بوتر * لم تــزل تمتطيهــمُ الأوتار
لم يكن ذاك فيكمُ فدعُوا الفخــ * ــر بمــا لا يسوغ فيــه آفتخار
ونِزَارا ففاخروا تفضُــلُوهم * ودعوا من له عَبيــدٌ نزار

(١) . بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين الى الجنوب الشرقى منه .

فبنا عزّ منـــكمُ الذلُّ والدهـ * ـرُ عليـــكم بريْبـه كرّار
حاذروا دولة الزمان عليـــكم * إنه بين أهــله أطـوار
فَــتُرَدّوا ونحن للحالة الأو * لى وللأوحد الأذلّ الصّغار
فاخَرتنا لمــا بسطنا لهــا الفخـ * ـر قريش ونخـــرها مســتعار
ذكرتْ عزّها وماكان فيهــا * قبــل أن تستجيرنا مُستجار
إنما كان عزّها فى جبال * ترتقيها كما ترَقّى الــوبَار
أيها الفاخرون بالعز والعـ * ـزُّ لقـــوم ســـواهمُ والفخار
أخبرونا من الأعزّ أألمنـ * ـصور حتى اعتلى أم الأنصــار
فلنــا العز قبـــل عزّ قريش * وقريشٌ تلك الدهـــورَ تجار

فانبرى له ابن قنبر يجيبه فقال :

ألا امْثُــل أميرَ المؤمنين بمُسْـلِم * وأقلق بِهِ الأحشاءَ من كل مُجْـــرِمِ
ولا ترجِعَنْ عن قتـــله باســـتتابة * فمــا هو عن شـتم النــبيّ بمُحْـــرِم
ولا عن مُسَاواة له ولقومـــه * قـــريشا بأصْـــداءٍ لِعَــادٍ وجُرْهُم
ويفخَر بالأنصار جهـــلا على الذى * بنُصرته فازوا بحـــظٍّ ومَغْـــنَمَ
وسُمّـــوا به الأنصــار لا عزّ قائـل * أراد قـــريشا بالمَقـام المُـــدَمّم
ومنهـــم رسول الله أزكى مَن انتمى * الى نسبٍ زاكٍ ومجـــد مقـــدَّم
وما كانت الأنصار قبـــل اعتصامها * بنصر قريش فى المحـــلّ المعظَّـــم
ولا بالألى يعلُون أقــدار قومهم * صُداءٍ وخَوْلانٍ ولَخْـــم وسِلْهِـــم
ولكنّهم بالله عاذوا ونصـــرِهم * قريشًا ومن يســتعصم الله يَعصِم
فعَـــزّوا وقد كانوا وفِطْيَوْنُ فيهـــم * من الذل فى باب من العـــزّ مُبْهَـــم
يسومهـــم الفِطْيون مالا يُسامه * كريم ومن لا ينْـكر الظـــلمَ يُظْـــلم
وإن قـــريشا بالمآثر فُضِّلت * على الخَلق طرّا من فصيح وأعجـــم

فما بال هــذا العِلْج ضلّ ضلالُه * يمُدّ اليهم كفّ أجْذَم أعْسَم
يُسامى قريشا مسلمٌ وهُمُ همُ * بمولى يَمانىّ وبيتٍ مُهَدّم
اذا قام فيه غيرهم لم يكن لهم * مقام به من لؤم مَبْنىً ومَدْعَم
جَعاسِيسُ[1] أشباه القرود لو أنهم * يباعون ما ٱبْتيعوا جميعا بدرهم
وما مسلمٌ من هؤلاء ولا ألَى * ولكنه من نَسْل علج مُلَكَّم
تولى زمانا غيرَهم ثمّت ٱدّعى * اليهم فلم يَكرُم ولما يُكَرَّم
فإن يك منهم فالنّضير ولِفُّهم * مواليه لا من يدّعى بالتّزعّم
وإن تَدْعُه الأنصارُ مولى أَسْمُهُم * بقافية تَستكره الجلد بالدّم
عِقابا لهم فى إفكهم وٱدّعائهم * لأَفْلَف منقوش الذراع مُوَشّم
فلا تدّعوه وٱنتفوا منه تسلموا * بنَفْيِكُمُوه من مَقال ومأثم
وإلّا فغُضوا الطرف وٱنتظروا الرّدى * اذا ٱختلفت فيكم صَوَاردُ أسهمى
ولم تَجِدوا عنها مِجَنّا يُجِنُّكم * اذا ٱطّلعتْ من كل فجّ ومَعْلم
وأنتم بنو أذناب من أنتمُ له * ولستم بأبناء السَّنام المُقَدّم
ولا يبنى الرأس الرفيع محلُّه * فيسمو بكم مولى مُسَامٍ وينْتمى
فكيف رضِيتم أن يُسامَى نبيُّكم * ببيتكم الرَّثّ القصير المهدَّم
سأحطِم من سَامَى النبىّ تطاوُلا * عليه وأكوى مُنْتَماه بميسَمى
أيُعْدَل بيتٌ بَثْرِبىّ بكعبة * ثوَتها قريش فى المكان المحرّم
قريشٌ خِيار الله واللهُ خصّهم * بذلك فٱتْعَس أيها العِلج وٱرْغَم
ومن تدّعى منه الولاء مؤَخَّر * اذا قيل للجارى الى المجد أقْدِم

وكان مسلم قال قصيدته فى قريش وكتمها، فوقعت إلى ابن قَنْبَر وأجابه عنها، فاستعلى عليه وهتكه وأغرى به السلطان، فلم يكن عند مسلم فى هذا جواب أكثر من الانتفاء منها

(١) الجعاسيس : اللئام فى الخلق والخلق .

ونسبتها الى ابن قنبر والادّعاء عليه أنه ألصقها به ونسبها اليه ليعرضه للسلطان وخافه، فقال ينتفى من هذه القصيدة :

دعوتَ امـــير المؤمنين ولم تكن * هنـاك ولكن من يَخَفْ يتجشّم
وإنك اذ تدعـــو الخليفـــة ناصرا * لـــكالمُتَرقّى فى السماء بسُـــلّم
كذاك الصّدى تدعوه من حيث لا ترى * وإن تتوهّمـــه تَمُتْ فى التوهّم
هجـــوتَ قـــريشا عامدا وتحلتَـــنى * رُوَيدك يظهـــر ما تقـــول فيُعْـــلم
اذا كان مثـــلى فى قَبيـــلى فإنه * على ابن لُؤَىّ قَصْرَةً غير مُتْهَـــم
سيكشفك التعـــديل عمـا قذفتَنى * بـــــه فتأخّر عارفا أو تقـــدّم
فإن قـــريشا لا يُغَـادر ودُّها * ولا يُســـتمال عهـــدُها بالترحّـــم
مضى سلفٌ منهـــم وصلّى بِعَقْبهـــم * لنـا سلف فى الأوّل المتقـــدّم
جروْا فجـــرينا سابقين بسبقهم * كما اتّبعت كفٌّ نَـــواشرَ مِعْصم
وإن الذى يســـعى ليقطع بيننا * كمُلتمس اليربـــوع فى جحـــر أرقم
أضـــلّك قـــرعُ الابدات طريقَها * فأصبحت من عَمْيـائها فى تَهَيُّم
وخانتـــك عند الجرى لما اتّبعتها * تمـــيمٌ لخاوات العُـــلا بالتّقحُّـــم
فأصبحت ترميـــنى بسهمى وتتّـــقى * يدى بيـــدى أصْلَيْت نارَك فاضْرم

ثم هجاه ابن قنبر بقصيدة أولها :

قُل لعبـــد النَّضير مُسْلِم الوغـ * ـد الدّنِىّ اللئيم سِنْخ النّصاب
اِخْسَ يا كلب اذ نبحتَ فإنى * لستُ ممن يجيب نبحَ الكلاب
أفأَرْضَى ومَنصبى منصب العـ * ـزّ وبيتى فى ذروة الأحساب
أن أحُطّ الرفيع من سَمْك بيتى * بمُهاجاة أوْشَبِ الاوشاب
من اذا سِيل من أبُوه بدا منـ * ـه حياءٌ يَحْميه رَجْعَ الجـواب

وإذا قيــل حين يُقْبِل من أنـ * ـتَ ومن تَعْتزيه فى الأنساب
قلتَ هاجِى ٱبن قنبر فتَسربَلْـ * ـتَ بذكرى فخرًا لدى النَّسّاب

وهى قصيدة طويلة فلم يجبه عنها مسلم بشىء فقال فيه ٱبن قنبر أيضا :

لستُ أنْفيك إن سواى نَفَاكا * عن أبيــك الذى له مُنْتَماكا
ولمــاذا أنفيك يابن الوليد * من أبٍ إن ذكرتُه أخزاكا
ولــو ٱنى طلبتُ ألأم منــه * لم أجده إن لم تكن أنت ذاكا
لــو سِواه أبوك كان جَعَلنا * ه اذا النــاسُ طاوَعونا أباكا
حاك دهرا بغير حِذْق لِــبُردٍ * وتَحُـوك الأشعارَ أنت كذاكا

ثم هجاه بشعر أقْذَع فيه ، فمشى اليه قوم من مشايخ الأنصار وٱستعانوا بمَشْيَخَة من قُرّاء تميم وذوى الفضل والعلم ، فمشوا معهم اليه ، فقالوا : ألا تستحى من أن تهجوَ من لا يجيبك ! أنت بدأت الرجلَ فأجابك ، ثم عدت فكفّ ، وتجاوزتَ ذلك الى ذكر أعراض الأنصار التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحميها ويذبّ عنها ويصونها لغير حال أحلّت ذلك منهم ، فما زالوا به يعظونه ويقولون له كلّ قول حتى أمسك عن المناقضة لمسلم فانقطعت .

ولمسلم بن الوليد :

وإنى وإسماعيــل يوم وَدَاعــه * لكالغمد يوم الرَّوع فارقه النَّصلُ
أما والحِبالات المُمَــرّات بيننا * وسائل أدّتها المــودّة والوصــل
لما خنتُ عهدا من إخاء ولا نأى * بذكرك نأى عن ضميرى ولا شُغل
وإنّى فى مالى وأهــلى كأننى * لنأيك لا مالٌ لدىّ ولا أهــل
يُذَكّرنيك الدينُ والفضل والحِجا * وقيل الخَنا وٱلحلم وٱلعلم والجهل
فألفاك عن مذمومها متــنزِّها * وألقاك فى محمودها ولك الفضــل
وأحمَــد من أخلاقك البخلَ إنه * بعرضك لا بالمــال حاشا لك البخل
أمنتجعا مَرْوا بأثقــال همّــة * دَعْ الثِّقلَ وٱحمل حاجة ما لها ثِقل

ثناءً كعَرف الطِيب يُهدى لأهله * وليس له إلا بَنى خالد أهـــل
فإن أغْشَ قوما بعدهم أو أزورهم * فكالوحش يَستدْنيه للقنص المَحْل

وله يرثى يزيد بن مزيد :

أحَـــقٌّ إنه أودى يزيــــد * تأمّل أيهـا النـاعى المُشِـيدُ
أتدرى من نَعَيْت فكيف فاهت * به شَفَتاك كان به الصَّـعيد
أحامِى المجدِ والإســلامِ أودى * فما للأرض ويحك لا تَميــد
تأمل هل ترى الاسـلامَ مالت * دعائمُـه وهل شاب الوليـــد
وهل شِيمتْ سيوفُ بنى نِزار * وهل وُضِعت عن الخيل اللُّبود
وهل تَسقِ البلادَ عِشارُ مُزْن * بدِرَّتها وهـل يَخضرّ عـود
أما هُـدّت لمصرعــه نزار * بلَى وتقـوّض المجــد المَشيد
وحلّ ضريحَــه إذ حلّ فيــه * طريفُ المجد والحَسَب التليد
أما والله ما تنفــكّ عيــنى * عليــك بدمعها أبدا تجــود
فإن تجمُد دموع لئيم قــوم * فليس لدمع ذى حسب جمـود
أبَعْـد يزيد تختزن البواكى * دمـوعا أو تُصان لها خدود
لتَبكك قُبّــةُ الإســلام لما * وهَتْ أطنابُها ووهى العمـــود
ويبكك شاعر لم يُبْــقِ دهرٌ * له نَشَبا وقد كَسَد القصـــيد
فمن يدعـو الإمامُ لكل خَطْب * ينوب وكل مُعْضِـلة تَئُود
ومن يحمى الخميس اذا تَعايا * بحيــلة نفســه البطلُ النّجيد
فإن تَهلِك يزيدُ فكلّ حىّ * فريسٌ للمنيّـــة أو طـــريد
ألم تعجَبْ له أن المنايا * فتَكْن بــه وهنّ له جنـــود
لقـد عزّى ربيعـــةَ أن يوما * عليها مثـل يومِك لا يعـود

١٣ — العباس بن الأحنف (١)

قال إبراهيم بن العباس يصفه : كان والله ممن اذا تكلم لم يحبَّ سامعُه أن يسكت ، وكان فصيحا جميلا ظريف اللسان، لو شئتَ أن تقول كلامُه كلُّه شعرٌ لقلتَ .

وقال صالح بن عبد الوهاب : كان العباس من عرب خُرَاسان ومنشؤه ببغداد، ولم تزل العلماء تقدّمه على كثير من المُحْدثين ، ولا تزال قد تَرَى له الشيءَ البارع جدّا حتى تُلْحقه بالمحسنين .

وقال الجاحظ : لولا أن العباس بن الأحنف أحذقُ الناس وأشعرُهم، وأوسعُهم كلاما وخاطرا، ما قدَر أن يُكْثِرَ شعرَه فى مذهبٍ واحد لا يجاوزُه، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسّب ولا يتصرّف، وما نعلم شاعرا لزِم فنّا واحدا لزومه فأحسن فيه وأكثر .

أنشد الحِرْمازِيّ للعباس بن الأحنف :

لا جَزَى اللهُ دمعَ عينيَ خيرًا * وجزَى اللهُ كلَّ خيرٍ لسانِي
نَمَّ دمعِي فليس يكتُم شيئا * ورأيتُ اللسانَ ذا كِتمان
كنتُ مثلَ الكتّاب أخفاه طَيٌّ * فاستدلُّوا عليه بالعُنْوانِ

ثم قال : هذا والله طِرَازٌ يطلبُ الشعراءُ مثلَه فلا يقدرون عليه .

(١) كان العباس شاعرا غزلا مطبوعا من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسن ، ولديباجة شعره رونق ، ولمعانيه عذوبة ولطف ، ولم يكن يتجاوز الغزل الى مديح ولا هجاء ، ولا يتصرف فى شيء من هذه المعانى . وقدّمه أبو العباس المبرد فى كتاب الروضة على نظرائه وأطنب فى وصفه ، وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدّمونه ، قال : وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء ، وكان غزلا ولم يكن فاسقا ، وكان ظاهر النعمة ملوكيّ المذهب شديد التظرف ، وذلك بين فى شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلوا مقبولا غزلا غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف فى الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحا . وله ديوان طبع مع ديوان ابن مطروح بالآستانة سنة ١٢٩٨ ﻫ وتجد أخباره وأشعاره فى الأغانى (ج ٨ ص ١٥) وابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٦) والشعر والشعراء (ص ٥٢٥) .

وكان أبو الهُذَيل العَلَّاف يُبْغِضه ويلعنه لقوله :

اذا أردتُ سُلُوًّا كان ناصرَكم * قلبي وما أنا من قلبي بمنتصِر
فأكثِروا أو أقِلُّوا من إساءتكم * فكلّ ذلك محمولٌ على القَـدَرِ

فكان أبو الهُذَيل يلعنه ويقول : يَعْقِد الكفرَ والفجورَ فى شعره ، فقال العباس — وقال محمد بن يحيى : وأظن أنه يهجو به أبا الهُذَيل وما سمعتُ للعباس هجاءً غيره — :

يامَنْ يكذِّب أخبارَ الرسـول لقد * أخطأتَ فى كلّ ما تأتى وما تَذَرُ
كذَّبتَ بالقَدَر الجارى عليك فقد * أتاك منِّى بمـا لا تَشْتهى القَـدَرُ

قيل للأصمعى : ما أحسنُ ما تحفَظ للمحدَثين؟ قال : قولُ العباس بن الأحنف :

لو كنتِ عاتبةً لسكَّن رَوْعتِى * أَمَلِى رِضَاكِ وزُرْتُ غيرَ مُرَاقِبِ
لكن مَلِلْتِ فلم تكن لِىَ حيـلَةٌ * صَدُّ المَلُولِ خلافُ صـدِّ العاتبِ

وممـا أنشده له ابراهيم بن العباس :

قالت ظَلُومُ سَمِيَّةُ الظُّـلْمِ * مالى رأيتُـكَ ناحلَ الجسمِ
يامن رَمَى قلبى فأَقْصَـده * أنت العـليمُ بموضع السهمِ

ولشعره الغَزَلىّ وقعٌ فى النفس ، فانهم كانوا يغنُّون كثيرا منه كقوله :

لو كنت عاتبـــة لسكّن روعتى * أملى رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لى حيـــلة * صـدّ الملول خلاف صدّ العاتب

وأنشد له الأصمعى :

أتأذنونَ لصبٍّ فى زيارتكم * فعندكم شهواتُ السـمع والبصر
لا يُضْمِر السوءَ إن طال الجلوسُ به * عفّ الضميرِ ولكن فاسق النظر

فقال : ما زال هـذا الفتى يُدْخل يَده فى جِرَابه فلا يُخْرِج شيئا حتى أدخلها فأخرج هـذا ، ومن أدمن طلبَ شىء ظفر ببعضه .

وقال سَعيد بن جُنَيد : ما أعرف أحسنَ من شعر العباس فى إخفاء أمره حيث يقول :

أُرِيدُكِ بالسلام فأتَّقيهم * فأعمِدُ بالسلام الى سِوَاكِ
وأُكثِرُ فيهمُ ضحكى لِيَخْفَى * فسِنِّى ضاحكٌ والقلبُ باك

ومما تمثَّل به الواثقُ فى شرٍّ كان بينه وبين بعض جواريه :

عدلٌ من الله أبكانى وأضحكها * فالحمد لله عَدْلٌ كلُّ ما صنَعا
اليومَ أبكى على قلبى وأَنْدُبه * قلبٌ أَلَحَّ عليه الحبُّ فانصدَعا

ومما تمثَّل به أيضا فى مثل ذلك :

أما تَحْسَبينى أَرَى العاشقين * بَلَى ثُمَّ لستُ أرى لى نَظِيرَا
لعلَّ الذى بيديْه الامور * سيجعل فى الكُرْه خيراً كثيرَا

وقال الزُّبير : اِبن الأحنف أشعرُ الناس فى قوله :

تعتلُّ بالشغل عنا ما تكلّمنا * الشغلُ للقلب ليس الشغل للبدنِ

ويقول : لا أعلم شيئا من أمور الدنيا خيرها وشرِّها إلا وهو يصلُح أن يتمثَّل فيه بهذا النصف الأخير .

وقال إسحاق : لقد ظَرُف ابنُ الأحنف فى قوله — يصف طولَ عهده بالنوم — :

قِفا خبرانى أيها الرجلان * عن النوم إن الهجرَ عنه نهانى
وكيف يكون النومُ أم كيف طعمُه * صِفَا النومَ لى إن كنتُمَا تصفانِ

على قلة إعجابه بمثل هذه الأشعار .

قال أحمد بن ابراهيم : رأيت سَلَمة بن عاصم ومعه شعر العباس بن الأحنف ، وقلت مثلك أعزّك الله يحمل هذا ! فقال : ألا أحمِلُ شعرَ من يقول :

أسأتُ إذ أحسنتُ ظنِّى بكم * والحزمُ سوءُ الظن بالناسِ
يُقْلِقُنى الشوقُ فآتيكُمُ * والقلبُ مملوءٌ من الياسِ

وقال أحمد بن ابراهيم : أتانى أعرابىٌّ فصيحٌ ظريف ، فجعلتُ أكتب عنه أشياءَ حِسَانًا ، ثم قال : أنشدْنى لأصحابكم الحَضَرِيّين ، فأنشدته للعباس بن الأحنف :

ذكرتُكِ بالتُّفّاح لما شَمِمْتُه * وبالراح لما قابلتْ أَوْجُهَ الشَّرْبِ
تذكرتُ بالتفاح منكِ ســوالفًا * وبالراح طعمًا من مقبَّلِكِ العَذْبِ

فقال : هذا عندك وأنت تكتب عنّى ! لا أنشدك حرفا بعد هذا .

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل : ما أعرف فى العراق أحسن من قول ابن الأحنف :

سبحانَ ربِّ العلا ما كان أغفلنى * عمـا رمتْنِى به الأيامُ والزمنُ
من لم يَذُقْ فرقةَ الأحباب ثم يرى * آثارَهم بعـدهم لم يَدْرِ ما الحَزَنُ

قال حُسَين بن الضحَّاك : لوجاء العباس بقولٍ ماقاله فى بيتين فى أبياتٍ لعُذر، وهوقوله :

لعَمْرُكَ ما يســتريح المحبُّ * حتى يبـوحَ بأسراره
فقد يكتُم المرءُ أسرارَه * فتظهرُ فى بعض أشعاره

ثم قال : أما قوله فى هذا المعنى الذى لم يتقدّمه فيه أحد فهو :

الحبُّ أملكُ للفؤاد بقهــره * من أن يُرَى للستر فيه نصيبُ
واذا بدا سرُّ اللبيب فإنه * لم يَبْــدُ إلا والفتى مغلوبُ

وقال أبو العتاهية : ما حسدتُ أحدا إلا العباسَ بن الأحنف فى قوله :

اذا امتنع القريبُ فلم تَنَــلْه * على قربٍ فــذاك هو البعيدُ

وقال الكِنْدِىّ : العباس بن الأحنف مَلِيحٌ ظريف حكيم جَزْلٌ فى شعره، وكان قليلا ما يُرْضِينى الشعر، فكان يُنْشِد له كثيرًا :

ألا تَعْجَبُون كما أعجبُ * حبيبٌ يُسىء ولا يُعْتِبُ
وأبغى رضـاه على سُخْطه * فيأبى علىّ ويستصعبُ
فياليت حظى اذا ما أسا * تَ أنك ترضَى ولا تغضَبُ

وكان ابراهيم الموصلى مشغوفا بشعر العباس فيغنّى فى كثير من شعره، فما غنى فيه :

وقد مُلِئتْ ماءَ الشباب كأنها * قضيبٌ من الرَّيْحان رَيَّان أخضرُ
همُ كتَمُونى سيرَهم حين أزْمَعُوا * وقالوا اتّعدْنا للرَّواح وبَكَّرُوا

ومنه :

تمنَّى رجالٌ ما أحبُّوا وإنما * تمنيتُ أن أشكو اليك وتسمَعا
أرى كلَّ معشوقَيْن غيرى وغيرَها * قد ٱستعذَبا طولَ الهوى وتمتَّعا

ومنه :

بكتْ عينى لأنواعِ * من الحزن وأوجاعِ
وإنى كلَّ يومٍ عنـ * ـدكم يحظَى بى الساعى
أَعيش الدهرَ إن عشتُ * بقلب منكِ مُرْتاعِ
وإن حلَّ بىَ البعد * سيَنْعَانِى لكِ الناعى

وقال الواثق لجلسائه : أريد أن أصنعَ لحنًا فى شعر معناه أن الإنسان كائنًا مَنْ كان لا يقدر على الاحتراس من عدوه، فهل تعرفون فى هذا شيئًا؟ فأنشدوه ضروبًا من الأشعار، فقال : ما جئتُم بشىء مثل قول العباس بن الأحنف :

قلبى الى ما ضرَّنى داعى * يكثِرُ أَسْقامى وأَوْجَاعى
كيف احتراسى من عَدُوِّى اذا * كان عدوِّى بين أضلاعى
أسلمنى للحبِّ أشياعى * لما سَعَى بى عندَها الساعى
لقلَّما أَبْقَى على كلِّ ذا * يُوشِكُ أن يَنْعانىَ النَّاعى

ومما غنِّى فيه من شعره :

أَبْكِى الذين أذاقُونى مودّتَهم * حتى اذا أَيْقظُونى للهوى رقَدُوا

وقال ابراهيم بن العباس : ما رأيت كلاما محدَثا أجزلَ فى رقة، ولا أصعبَ فى سهولة، ولا أبلغ فى إيجاز، من قول العباس بن الأحنف :

تَعَالىْ نجدِّدْ دارسَ العهدِ بيننا * كِلَانا على طول الجَفَاءِ مَلُومُ

وأنشد ابراهيم بن العباس للأحنف :

إن قال لم يفعلْ وإن سِيلَ لم * يَبْــذُلْ وإن عوتب لم يُعْتِبِ
صبٌّ بعِصْــيانى ولو قال لى * لا تشربِ البــاردَ لم أَشْربِ
اليك أشــكو ربِّ ما حلّ بى * من صَدّ هذا المذْنب المُغْضَبِ

ثم قال : هــذا واللهِ الكلامُ الحسَــنُ المعنى ، السَّهْل المَوْرد ، القريب المتناوَل ، المليح اللفظ ، العَذْب المستمَع .

وممــا غُنِى فيه من شعره :

نام مَنْ أهدَى لىَ الأرَقَا * مستريحًــا سَامَنِى قَلَقَــا
لو يبيت النــاس كلُّهم * بسُهَادِى بَيَّضَ الحَــدَقَا
كان لى قلبٌ أعيشُ به * فاصطَلَى بالحبِّ فاحترَقا
أنا لم أرْزَق مودّتَــكم * إنمــا للعبـــد ما رُزِقَا

وقال ابن المعتزّ : لو قيل : ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعرُ العباس بن الأحنف :

قد سحَب الناسُ أذيالَ الظُّنون بنا * وفــرّق النــاسُ فينا قولَهم فِرَقَا
فكاذبٌ قد رَمَى بالحبّ غيرَكمُ * وصادقٌ ليس يَدْرِى أنه صدَقا

وممــا تمثّل به الفضلُ بن الرَّبيع فى أمرٍ كان بيْنه وبين إحدى جواريه :

تحمَّلْ عظيمَ الذنب ممن تحبُّــه * وإن كنتَ مظلومًا فقل أنا ظالمُ
فإنك إلّا تغفرِ الذنبَ فى الهوى * يفارقْكَ من تهوى وأنفُك راغمُ

أنشد مُخْلَد المَوْصلىّ قصيدتَه التى يقول فيها :

كلُّ شيءٍ أَقْوَى عليه ولكن * ليس لِى بالفراقِ منك يدانِ

فجعل يستحسنُه ويردِّدُه ؛ فقال له عبد الله بن رَبيعة الرَّقّى : أنت الفِدَاءُ لمن ابتدأ هــذا المعنى فأحسنَ فيه حيث يقول — وهو العباس بن الأحنف — :

سلبتْنِي من السرور ثيابا * وكسَتني من الهموم ثيابَا
كلما أغلقتْ من الوصل باباً * فتحتْ لى الى المنيّة بابَا
عذّبيني بكل شيء سوى الصـ * ـدِّ فما ذقتُ كالصُّدود عذابَا

قال الرِّياشى — وقد ذُكر عنده العباسُ بن الأحنف — : والله لو لم يقل من الشعر إلا هذين البيتين لكفيا :

أحْرَم منكم بما أقولُ وقد * نال به العاشقون من عَشِقُوا
صرتُ كأنى ذُبَالةٌ نُصِبتْ * تُضيء للناس وهى تحترِقُ

ألِف الرشيدُ العباسَ بن الأحنف، فلما خرج الى خُرَاسان طال مقامُه بها، ثم خرج الى أرْمِينِيَة والعباسُ معه، فاشتاق الى بغداد، فعارضه فى طريقه، فأنشده :

قالوا خراسانُ أقْصَى ما يُراد بنا * ثم القُفُولُ فقد جئنا خراسانَا
ما أقْدر اللهَ أن يُدْنِى على شَحَطٍ * سكانَ دِجْلَة من سكانِ جَيْحَانَا
مضى الذى كنتُ أرجوه وآمُلُه * أما الذى كنتُ أخْشاه فقد كانا
عينُ الزمان أصابتْنا فلا نظرتْ * وعُذِّبتْ بصُنُوف الهَجْر ألوانا

فقال له الرشيد : قد اشتقتَ يا عباس، وأذنتُ لك خاصة، وأمر له بثلاثين ألفَ درهم .

وقال مُصْعَب الزُّبيرى : العباسُ بن الأحنف وعمر بن أبى ربيعة ما ابتذلا شعرَهما فى رغبة ولا رهبة، ولكن فيما أحَبَّاه، فلزِما فنًّا واحدا لو لزمه غيرُهما ممن يكثِرُ إكثارَهما لضعُف فيه .

١٤ — ابن مُنَاذِر (١)

كان يَنْحُو نَحْوَ عَدِىّ بن زَيْد فى شِعْره، ويميلُ إليه ويقدّمه، وقد مدَح آل بَرْمَك وغيرَهم. ولما نُكِبتْ البَرَامِكَةُ وآلَتْ الوزارةُ إلى عَدُوّهم الفَضْلِ بن الرَّبيع أصبح شعراءُ البرامكة فى خَطَرٍ، فأراد ابنُ مُنَاذِرٍ أن يَتقرّب إلى الرشيد طَلَباً للرزق، فاغتنم ذهَابَه إلى الحَجّ وتقدّم إليه يومَ التَّرْوِيَةِ بقصيدةٍ، فَلَاح البِشْرُ فى وجه الرشيد؛ فقال الفضلُ بن الربيع للرشيد: هذا شاعرُ البرامكة! فعَبَسَ الرشيدُ؛ فقال الفضلُ: مُرْه أن يُنشدك قولَه فيهم: أتانا بنو الأملاك من آل برمك؛ فأمره، فاعتذر، فألح عليه، فأنشده هذه القصيدَة التى يُطْرِى بها البرامكةَ:

أتانا بَنُو الأملاك من آل بَرْمكٍ * فيَاطِيبَ أخبار ويا حُسْنَ مَنْظَرِ
إذا وردوا بَطْحَاءَ مَكّة أشْرَقتْ * بِيَحْيَى وبالفَضْل بن يَحْيَى وجَعْفَر
فتُظْلِمُ بغدادٌ ويَجْلُو لنا الدُّجى * بمكّةَ ما حَجُّوا ثلاثةُ أقْمُرِ
فما صَلَحَت إلا لجُودٍ أكفُّهُم * وأرْجُلُهم إلا لأعْوادِ مِنْبَر
إذا راضَ يحيي الأمرَ ذلّت صِعَابُه * وحَسْبُك مِنْ رَاعٍ له ومُدَبِّر
تَرى الناسَ إجلالًا له وكأنّهم * غَرانيقُ (٢) مَاء تحت بَازٍ مُصَرْصِرِ (٣)

ولما فَرَغ منها أتْبَع ذلك قوله: «كانوا أولياءَك يا أمير المؤمنين لما مدحتُهم» فأمَر الرشيدُ أن يُلْطَم، فلطَموه، وأمر أن يسحب، فسحَبوه وخرج لا يَلْوِى على شىء؛ فلقيه

(١) هو محمد بن مناذر، مولى لبنى يربوع، ويكنى أبا جعفر، شاعر فصيح، مقدّم فى العلم باللغة وإمام فيها، حتى أخذ عنه أكابر أهلها. وكان فى أوّل أمره يتعبد ثم عدل عن ذلك، فهجا الناس وتهتك وخلع وقذف أعراض أهل البصرة حتى نفى عنها الى الحجاز، فمات هناك سنة ١٩٨ هـ. وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٧ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٥٣). (٢) الغرانيق: جمع غرنوق، وهو طائر مائى أسود وقيل أبيض يشبه الكركىّ. (٣) مصرصر: صائح بشدّة.

أبو نواس فدفع اليه صُرّةً فيها ثلثمائة دينار ، وقال له : اِستعنْ بهذه وآعذرنى . ولم يعُد آبنُ مناذر يرى خيرًا بعد البرامكة .

قال الحسن بن على كنا عند باب سُفْيان بن عُيَيْنة وقد هَرَب منا وعنده الحسنُ بن على التَّخْتاخ ورجلٌ من أصحاب الرشيد ، فخلا بهم وليس يأْذَن لنا ، فجاء آبنُ مناذر فقرُب من الباب ثم رفع صوتَه فقال :

بعمرو وبالزُّهْرىّ والسَّلَف الأُلى * بهم ثَبَتَتْ رِجْلاك عند المقادم
جعلتَ طَوالَ الدهرِ يومًا لصالح * ويوما لصَبّاح ويوما لحاتم
وللحسن التَّخْتاخ يوما ودونهم * خَصَصْتَ حسينًا دون أهل المَوَاسم
نظرتُ وطالَ الفكرُ فيك فلم أجدْ * رَحَاك جَرَتْ إلا لأخذ الدّراهم

فخرج سفيان وفى يده عصا وصاح : خذوا الفاسقَ ، فهرب آبن مناذر منه وأذن لنا فدخلْنا .

كان الرشيدُ قد وصَلَ آبنَ مناذر مَرّاتٍ صِلَاتٍ سنيّةً ، فلما مات الرشيدُ رثاه بقوله :

من كان يَبْكى للعُلا * مَلِكًا وللهِمَم الشَّريفه
فَلْيبكِ هارونَ الخليـ * ـفةَ للخليفة للخليفه

قال علىُّ بن محمد النَّوْفَلىّ : رأيتُ آبنَ مناذر فى الحَجّ سنة ثمان وتسعين ومائة وهو قد كُفَّ بصرُه تقوده جُوَيْرِيَةٌ حرة وهو واقف يشترى ماءَ قِرْبَة ، فرأيتُه وَسِخَ الثوبِ والبدن ، فلما صِرنا الى البصرة أتتنا وفاتُه فى تلك الأيام .

كان يحيى بن زِياد يُرْمَى بالزندقة ، وكان من أظرف الناس وأنظفهم ، فكان يقال : أظرف من الزِنديق ، وكان الحارثىّ ، واسمه محمد بن زياد ، يُظْهِر الزندقةَ تَظَارُفًا ، فقال فيه آبن مناذر :

يا آبنَ زِيادٍ يا أبا جعفر * أظهرتَ دِينا غير ما تُخْفى
مُزَنْدَقُ الظاهرِ باللفظ فى * باطنِ إسلامِ فتًى عَفّ
لستَ بِزِنديقٍ ولكنّما * أردتَ أن تُوسَم بالظَّرف

ومن قوله يرثى سفيان بن عيينة :

يجْـنِي من الحكمة نُوَّارَهـا * ما تشتهى الأنفس ألوانا
يا واحدَ الأمّــةِ فى عِلْمــه * لقيتَ من ذى العرش غُفرانا
راحوا بسفيان على نعشــه * والعِـلْمُ مَكْسُوَّين أكفانا
إن الذى غُـودِر بالمُنْحَنَى * هَــدَّ من الإســلام أركانا
لا يُبْعِــدَنْك اللهُ من مَيّتٍ * وَرَّثنــا عِلْمًــا وأحـــزانا

خطب أبو أُمَيّةَ امرأةً من ثَقِيف فَرُدَّ عنها ، وتصدّى للقاضى أن يُضَمِّنَه مالًا من أموال اليتامى فلم يُجِبْه الى ذلك ولم يَثِق به ؛ فقال فيه ٱبنُ مناذر :

أبَا أُمَيّـــةَ لا تغضَبْ علىّ فمــا * جَزَاءُ ما كان فيما بيننا الغَضَبُ
إن كان رَدّك قــومٌ عن فَتَاتِهِمُ * ففى كثيرٍ من الخُطّاب قد رَغِبوا
قالوا عليك ديونٌ ما تقومُ بهــا * فى كل عامٍ بها تُسْتَحدَثُ الكُتُبُ
وقــد تَقَحَّم من خمسين غايتَها * مع أنه ذو عِيالٍ بعدُ ما ٱنْشَعبوا
وفى التى فعل القاضى فلا تَجِدَنْ * فليس فى تلك لى ذَنْبٌ ولا ذَنَبُ
أردتَ أمــوالَ أيتــام تُضَمَّنُها * وما يضَمَّنُ إلا من له نَشَبُ

قال له جعفر بن يحيى قُلْ فِىّ وفى الرشيد شعرا تصِفُ فيه الألفة بيننا ، فقال :

قــد تُقْطَعُ الرّحِمُ القريبُ وتُكْفَر النِّـ * ـعْمَى ولا كتقَا رُبِ القلْبَيْنِ
يُدْنى الهوى هـــذا ويدنى ذا الهوى * فاذا هُمَــا نَفْسٌ تُرَى نَفْسَيْنِ

١٥ — صالح بن عبد القدّوس (١)

كان متهما بالزندقة، فبلغ الى المهدىّ خبرُ زندقته، فبعث اليه يستقدمه من دِمَشْق، وكان قد رحل اليها وهو شيخ طاعن فى السنّ، فلما جاء بغدادَ ومَثَل بين يدى المهدىّ قال له المهدىّ : ألستَ القائل :

والشيخ لا يَتْرُكُ أخلاقَه * حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسه

قال : بلى يا أمير المؤمنين ! قال : وأنت لا تترك أخلاقك حتى تموت ؛ فأَمَرَ به، فقُتِلَ وصُلِب على جِسْر بغداد سنة ١٦٧ هـ . وأكثر شعره فى الحِكَم الفلسفية .

ومن أحاسن أقواله القصيدة التى منها ذلك البيت، وهو يقول فيها :

لا يَبْلُغُ الأعداءُ من جاهلٍ * ما يَبْلُغُ الجاهلُ من نَفْسه
والشيخ لا يَتْرُكُ أخلاقَه * حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسه
اذا ٱرْعَوَى عادَ الى جهله * كذى الضَّنَا عاد الى نُكْسه
وإنّ من أدّبْتَه فى الصِّبَا * كالعُود يُسْقَى الماءَ فى غَرْسه
حتى تراه مُورقا ناضرًا * بعد الذى أبصرتَ من يُبْسه

وقوله :

لا يُعْجِبَنَّك من يَصُون ثيابَه * حَذَرَ الغُبار وعِرْضُه مَبْذُول
ولربما ٱفْتَقَرَ الفَتَى فرأيتَه * دَنِس الثِّياب وعرضه مَغْسول

(١) هو صالح بن عبد القدّوس بن عبد الله بن عبد القدّوس، من حكماء الشعراء، متهم بالزندقة، قوىّ الحجة، له منزلة سامية عند أهل مذهبه . نشأ فى البصرة، وكان يقص على الناس و يعظهم . توفى سنة ١٦٧ هـ . وتجد أكثر أخباره فى فوات الوفيات (ج ١ ص ١٩١) والدميرى (ج ١ ص ٢٦) .

وكان فيه ميل الى العُزْلة والانقطاع عن الناس شأن الفلاسفة ؛ ومن ذلك قوله :

أنِسْتُ بوَحْدتى ولَزِمتُ بيتى * فتَمّ العزُّ لى ونَمَا السرورُ
وأدَّبَنِى الزمانُ فليت أنّى * هُجِرتُ فلا أزارُ ولا أزُور
ولست بقائلٍ ما دمتُ حيًّا * أقَامَ الجُنْدُ أم نَزَلَ الأمير

وهو القائل :

اذا لم تستطع شيئا فدَعْهُ * وجاوِزْه الى ما تَسْتَطِيع

وله قصيدة حكمية أخلاقية بديعة ، وهى التى يقول فيها :

المَرْءُ يَجْمَعُ والزمان يُفرّق * ويظلّ يَرْقَعُ والخطوبُ تُمَزِّقُ
ولأن يُعادِىَ عاقلا خيرٌ له * من أن يكون له صديقٌ أحْمَقُ
فارْبأ بنفسك أن تصادق أحْمقًا * إن الصديق على الصديق مُصَدَّقُ
وَزِنِ الكلامَ اذا نطقتَ فإنما * يُبدِى عقولَ ذوى العقول المَنْطق
ومن الرجال اذا استوت أخلاقُهم * من يُستشار إذا استُشِير فيُطْرِقُ
حتى يَحُلّ بكل واد قلبُه * فيرى ويَعْرِفُ ما يقول فيَنْطق
لا أُلْفِيَنَّك ثاويا فى غربة * إن الغريب بكل سَهْمٍ يُرْشَق

وله منها :

ما الناس إلا عاملان فعاملٌ * قد مات من عطَشٍ وآخر يَغْرَق
والناسُ فى طلب المَعاش وإنما * بالجَدّ يُرزق منهم من يُرْزَق
لو يُرْزَقون الناسُ حَسْبَ عقولهم * ألفيتَ أكثرَ مَنْ تَرَى يتَصدق
لكنه فضْلُ المليك عليهمُ * هذا عليه مُوَسَّع ومُضَيَّق
واذا الجنازةُ والعَروسُ تلاقيا * ورأيتَ دمعَ نوائح يَتَرَقْرَق
سَكَتَ الذى تَبِع العروسَ مُبَهَّتًا * ورأيتَ من تَبِعَ الجنازة يَنْطق
بَقِىَ الذين اذا يقولوا يَكذبوا * ومَضَى الذين اذا يقولوا يَصْدُقُوا

وله من قصيدته المعروفة بالزينبية :

وابدَأْ عَدُوَّك بالتحيـة ولْتَكُنْ * منـه زمانَك خائفـا تـترقَّب
وٱحـذَره إن لاقيتَـهُ متبسِّما * فالليث يبـدو نابُه إذ يغضب
إن العدوّ وإن تقادمَ عهـدُهُ * فالحقد باقٍ فى الصـدور مغيَّب
وإذا الصَّـديقُ لقيتَه مُتملِّقـا * فهو العـدوّ وحقُّـه يُتجنَّب
لا خَـيْرَ فى وُدّ امرئٍ مُتملِّقٍ * حُـلْوِ اللسان وقلبُه يَتلهَّب
يلقـاك يَحْلِفُ أنه بك واثقٌ * وإذا توارى عنـك فهو العقرب
يُعْطِيك من طَرَف اللسان حلاوة * ويَروغ منـك كما يَروغ الثعلب
وَصِـلِ الكرام وإن رَمَوْك بجَفْوة * فالصَّفح عنهم والتجاوُز أصْـوَب
وٱختر قرينَـك واصطفيه تفاخُرا * إنّ القرين إلى المُقارن يُنْسَب
إنّ الغنىّ من الرجال مُكَرَّم * وتراه يُرْجَى ما لديه ويُرْهَب
ويُبَشّ بالترحيب عنـد قُـدومه * ويُقامُ عنـد سـلامه ويُقرَّب
والفقـر شَين للرجـال فإنه * حقا يَهُون به الشريف الأنسب
وٱخفِضْ جَناحك للأقارب كُلِّهم * بتذلُّلٍ وٱسمَحْ لهم إن أذنبوا
ودعِ الكذوب فلا يكن لك صاحبا * إن الكذوب يَشين حرًّا يصحب
وَزِنِ الكلام إذا نَطَقتَ ولا تكن * ثرثارةً فى كل ناد تَخْطُب
وٱحفَظْ لسانك وٱحترز من لفظه * فالمرء يَسْلَم باللسان ويَعْطَب
والسِّرّ فاكتُمْه ولا تَنْطِق به * إنّ الزُّجاجة كَسْرُها لا يُشْعَب
وكذاك سرّ المـرء إن لم يَطْوِه * نشرته ألسـنة تَزيد وتَكْذِب
لا تَحْرِصَنْ فالحِرْص ليس بزائدٍ * فى الرِّزْق بل يُشْقِى الحريصَ ويُتْعِب

وارْعَ الأمانةَ والخيـانةَ فاجتنِبْ * واعْدِلْ ولا تَظْلِمْ يَطِبْ لكَ مَكْسَب
وإذا أصابك نَكْبة فاصـبِرْ لهـا * مَنْ ذا رأيت مُسَلَّما لا يُنْكَب
وإذا رُميت من الزّمان بِرِيبـةٍ * أو نالك الأمْرُ الأشَقُّ الأصْعَب
فاضرَعْ لربك إنه أدنى لمن * يدعوه من حبـل الوريد وأقْرَب
واحذَرْ مصاحبـةَ اللئـيم فإنه * يُعدِى كما يُعْدِى الصَحيحَ الأجْرَب
واحذَرْ من المظلوم سَهْمًا صائبا * واعْلَمْ بأن دُعاءَه لا يُحْجَب
ولقد نصحتك إن قَبِلْتَ نَصيحتى * والنُّصح أغلى ما يُباع ويُوهب

١٦ — سَعِيدُ بن وَهْب (١)

كان شاعرًا مطبوعًا ومات فى أيام المأمون، وأكثرُ شعره فى الغَزَل والتشبيب بالمُذَكَّر، وكان مشغوفا بالغِلْمان والشراب، ثم تَنَسَّك وتابَ وحَجَّ راجِلًا على قَدَمَيْه ومات على تَوْبةٍ وإقلاعٍ ومذهبٍ جميل، ومات وأبو العتاهية حَىٌّ وكان صديقه فرثاه .

أخبر علىّ بن سليمان الأخفش عن محمد بن مَزْيد قال : حُدِّثْتُ عن بعض أصحاب أبى العتاهية قال : جاء رجلٌ الى أبى العتاهية ونحنُ عنده، فسارّه فى شىء، فبكى أبو العتاهية، فقُلْنا له : ما قال لك هذا الرجلُ يا أبا إسحاق فأبكاك ؟ فقال — وهو يحدّثنا لا يريد أن يقول شعرا — :

قال لى ماتَ سَعِيدُ بنُ وَهْبِ * رَحِمَ اللهُ سَعِيدَ بنَ وَهْبِ
يا أبا عثمانَ أبْكيتَ عَيْنِى * يا أبا عثمانَ أوجعتَ قلبى

قال : فعجبنا من طبعه، وإنه يحدّث فكان حديثه شعرا موزونا .

وكان سعيدُ بن وهب الشاعرُ البصرىّ مولَى بنى سامة قد تابَ وتزهّد وترك قولَ الشعر، وكان له عَشَرة من البنين وعَشْر من البنات، فكان إذا وَجَد شيئا من شعره خرّقه وأحرقه، وكان آمرأً صِدْق، كثيرَ الصَّلاة، يزكِّى فى كل سنة عن جميع ما عنده، حتى إنه لَيزكِّى عن فضّة كانت على امرأته .

وكان سعيدُ بن وهب يتعشّق غلاما يتشطّر يقال له سعيد، فبلغه أنه تَوَعّده أن يجرحه، فقال فيه :

(١) هو سعيد بن وهب أبو عثمان مولى بنى سامة بن لؤى بن نصر، مولده ومنشؤه بالبصرة ثم صار الى بغداد فأقام بها . وكانت الكتابة صناعته، فتصرف مع البرامكة فاصطنعوه وتقدّم عندهم . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٢١ ص ١٠٤) .

مَنْ عَذِيرِى مِنْ سَمِىٍّ * مَنْ عَذِيرِى مِنْ سَعِيد
أنا بالنَّحْـــم أجاهُ * ويَجَـانى بالحَـــدِيد (١)

ونظر سعيد بن وهب إلى قوم من كُتّاب السلطان فى أحوال جميلة، فأنشأ يقول :

مَنْ كان فى الدنيا له شارةٌ * فنحنُ من نَظَّارة الدنيا
نَرْمُقُهـا من كَثَبٍ حَسْرَةً * كأننا لَفْــظٌ بلا مَعْــنَى
يعلو بها النـاسُ وأيامُنـا * تذهبُ فى الأَرْذَل والأَدْنَى

وحدّث حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كان سعيدُ بن وهب لى صديقا، وكان له آبن يكنى أبا الخطاب من أكيس الصبيان، وأحسنهم وجها وأدبا، فكان لا يكاد يفارقه فى كلّ حال، لشدّة شغفه به ورقّته عليه، فمات وله عَشْر سنين، فجزع عليه جزعا شديدا وآنقطع عن لذّاته، فدخلتُ إليه يوما لأعاتبه على ذلك وأستعطفَه، فحين رأى ذلك فى وجهى فاضتْ دموعه، ثم آنتحب حتى رحمتُه، وأنشدنى :

عَيْنِ جُودِى على أبى الخطّابِ * إذ تولى غَضًّا بماءِ الشباب
لم يُقارب ذنبـا ولم يَبْلُغِ الحِنْـ * ـثَ مُرَجًّى مُطَهَّــرَ الأثواب
فَقَدَتْه عَيْنِى إذا ما سَـــعَى أَتْـ * ـرابُهُ من جماعة الأتراب
إن غَدَا مُوحِشًا لدارى فقد أصـ * ـبح أُنْسَ الثَّرَى وزَيْنَ التراب
أحمَـــدُ اللهَ يا حبيـــبى فإنّى * بكَ راجٍ منـــه عظيمَ الثواب

ثم ناشدنى ألّا أذاكره بشىء مما جئتُ إليه، فقمتُ ولم أخاطبه بحرف .

دخل سعيدُ بن وهب على الفضل بن يحيى فى يوم قد جلس فيه للشعراء، فجعلوا ينشدونه ويأمر لهم بالجوائز حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت الى سعيد بن وهب كالمستنطق، فقال له : أيها الوزير، إنى ما كنت آستعددتُ لهذه الحال، ولا تقدّمتْ لها عندى مُقدّمةٌ فأعرفها،

---

(١) وجأه يوجأه ويجاه : ضربه باليد أو بالسكين . وخففت الهمزة ها هنا للشعر .

ولكن قد حضرنى بيتان أرجو أن ينوبا عن قصيدة، فقال : هاتِهما، فربّ قليل أبلغ من الكثير، فقال سعيد :

مَدَح الفَضْلُ نفسَه بالمَعَالِى * فعَلَا عن مَديحنا بالمَقَال
أَمَرُونى بمَدْحه قلتُ كلّا * كَبُرَ الفضلُ عن مديح الرجال

قال : فطرب الفضل وقال له : أحسنتَ والله وأجدتَ، ولئن قلّ القول ونَزُر، لقد اتسع المعنى وكَثُر، ثم أمر له بمثل ما أعطاه كلَّ مَنْ أنشده مديحا يومئذ، وقال : لا خير فيما يجئ بعد بيتيك، وقام من المجلس، وخرج الناس يومئذ بالبيتين لا يتناشدون سواهما .

وحدّث الحَرَمِىّ قال : كان الفضل بن يحيى ينافس أخاه جعفرا وينافسه جعفر، وكان أَنَس بن ابى شيخ خاصًّا بجعفر، ينادمه ويأنس به فى خَلَواته، وكان سعيد بن وهب بهذه المنزلة للفضل، فدخلتُ يوما إلى جعفر ودخل إليه سعيد بن وهب فحدّثه وأنشده وتنادر له، وحكى عن المتنادرين وأتى بكلّ ما يسرّ ويُطْرِب ويُضحك، وجعفر ينظر إليه لا يزيد على ذلك، فلما خرج سعيد من عنده تجاهلتُ عليه وقلت له : مَن هذا الرجلُ الكثير الهَذَيان ؟ قال : أَوَما تعرفُه ؟ قلتُ : لا، قال : هذا سعيد بن وهب صديق أخى أبى العباس وخُلْصانه وعشيقه، قلت : وأىّ شىء رأى فيه ؟ قال : لا شىء والله إلا القَذَر والبَرْد والغَثَاثة، ثم دخلتُ بعد ذلك إلى الفضل، ودخل أنس بن أبى شيخ فحدّث ونَدّر وحكى عن المُضحكين وأتى بكل طريفة، فكانت قصةُ الفضل معه قصةَ جعفر مع سعيد، فقلت له بعد أن خرج من حضرته : مَن هذا المُبْرِم؟ قال : أَوَلا تعرفُه؟ قلت : لا، قال : هذا أَنس بن أبى شيخ صديق أخى الفضل وعشيقه وخاصّته، قلت : وأى شىء أعجبه فيه؟ قال : لا أدرى والله إلا القَذَر والبَرْد وسوء الاختيار، قال : وأنا والله أَعْرَف بسعيد وأنس من الناس جميعا، ولكنى تجاهلتُ عليهما وساعدتُهما على هواهما .

وحدّث عمرو بن بانة قال : كان فى جِوارى رجلٌ من البرامكة، وكانت له جارية شاعرة ظريفة يقال لها حَسْناء، يدخل إليها الشعراء ويسألونها عن المعانى، فتأتى بكل

مُسْتَحسنٍ من الجواب ؛ فدخل اليها سعيد بن وهب يوما وجلس اليها فحادثها طويلا ثم قال لها بعد ذلك :

حَاجَيْتُك يا حَسْـنا * ءُ فى جِنْسٍ من الشِّعْرِ
وفيها طُــولُه شِــبْرٌ * وقد يُوفى على الشِّــبْرِ
له فى رأسِـــهِ شَـــقٌّ * نَطُوفُ بالنَّـدَى يَجْرِى
اذا ما جَفَّ لم يَجْـــرِ * لَدَى بَرٍّ ولا بَحْـــرِ
وإنْ بُلَّ أتى بالعَـ * ـجَبِ العاجِبِ والسِّحْرِ
أجِيبِي لم أُرِدْ فُحْشًا * ورَبِّ الشَّـفْعِ والوِتْرِ
ولكنْ صُغْتُ أبياتًا * لها حَـظٌّ من الزَّجْرِ

قال : فغضب مولاها وتغيّر لونه وقال : أتُفحش على جاريتى تخاطبها بالخَنَى؟ فقالت له : خَفِّضْ عليك ، فما ذَهَبَ الى ما ظَنَنْتَ وإنما يَعْنِي القلم ؛ فسُرِّىَ عنه ، وضحك سعيد وقال : هى أعلمُ منك بما سمعتُ .

١٧ — الحسن بن وهب (١)

حدّث ميمون بن هارون : قال : كنا عند الحسن بن وهب فقال لِبَنان : غَنّينى :

أتأذنونَ لَصَبٍّ فى زيارتكم * فعندكم شَهَواتُ السمعِ والبصرِ
لا يُضْمِرُ السوءَ إن طال الجلوسُ به * عَفُّ الضّميرِ ولكن فاسقُ النظر

قال فضحكت، ثم قالت : فأىّ خير فيه إن كان كذا أو أىّ معنى ؟ فخجل الحسن من بادرتها عليه، وعَجِبنا من حدّة جوابها وفِطْنتها .

وحدّث محمد بن عيسى قال : جاء عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع إلى الحسن ابن وهب، وعنده بنان جارية محمد بن حمّاد، وهى نائمة سَكْرَى وهو يبكى عندها، فقال له : مالَكَ ؟ قال : قد كنتُ نائما فجاءتنى فأنبهتنى وقالت : اجلس حتى تشربَ فجلستُ، فوالله ما غنّتْ عشرة أصوات حتى نامت، وما شربت إلا قليلا، فتذكّرت قولَ أشعر الناس وأظرفهم العبّاس بن الأحنف :

أبكى الذين أذاقونى مودّتهم * حتى اذا أيقظونى للهوى رَقَدُوا

فأنا أبكى وأُنشد هذا البيت .

وحدّث محمد بن موسى بن حمّاد قال : دعا الحسن بن وهب إبراهيم بن العباس فقال له : اركب وأجيئك عشيّا فلا تنتظرنى بالغداة، فأبطأ عليه، وأسرع الحسن فى شربه فسكر ونام، وجاء إبراهيم فرآه على تلك الحال، فدعا بدَوَاة وكَتَب :

رُحْنا اليك وقد راحت بك الراحُ * وأسرعت فيك أوتارٌ وأفراح

وحدّث أيضا محمد بن موسى قال : نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب وهو مخمور فقال له :

عيناك قد حَكَتَا مَبِيـ * ـتَك كيف كنتَ وكيف كانا
ولربَّ عينٍ قد أرتـ * ـكَ مَبِيتَ صاحبها عِيَانا

(١) كان الحسن بن وهب حسن الشعر والبلاغة، جيد اللسان، حلو البيان كأخيه سليمان، وكان موته بالشام. وتجد طرفا من أخباره فى الأغانى (ج ٩ ص ٢٦ وج ٢٠ ص ٥٤) وزهر الآداب (ج ٣ ص ٤٤) .

فأجابه الحسن بن وهب بعشرين بيتا وطالبه بمثلها ، فكتب اليه أربعةَ أبيات وطالبه بأربعين بيتا . وأبيات إبراهيم :

أأبا عليٍّ خـــيرُ قولك ما * حصّلت أنجَعه ومُختَصَره
ما عندنا فى البيع من غَبَنٍ * للستقلّ بواحد عشـــرَه
أنا أهلُ ذلك غيرُ محتشِمٍ * أرضَى القديمَ وأقتفِى أثَرَه
ها نحن وفّيناك أربعـــةً * والأربعون لديك منتظرَه

وقال عبيـــد الله بن سليمان : لعمـــرى ما فى الكُتّاب أشـــعرُ من أبى إسحاق وأبى علىّ (يعنى عمّه الحسن بن وهب) .

حدّث علىّ بن يحيى قال: قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلىّ ، وقد جرى ذكرُ أحمد بن يحيى المكىّ ، : يا أبا محمد ، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكىّ مملوكا كم كان يساوى؟ فقال : أخبرك عن ذلك ، انصرفت ليـــلةً من دار الواثق ، فاجتزتُ بدار الحسن بن وهب فدخلت إليه ، فإذا أحمد عنده ، فلما قام لصلاة العشاء الآخرة قال لى الحسن بن وهب : وكم يساوى أحمد لو كان مملوكا؟ قلت : يساوى عشرين ألف دينار . قال : ثم رجع فغنّى صوتا ، فقال لى الحسن بن وهب : يا أبا محمد ، أضعفها . قال : ثم تغنى صوتا آخر ، فقلت للحسن : يا أبا علىّ أَضْعِفْها ، ثم أردتُ الانصراف فقلت لأحمد غنِّنى :

لولا الحياءُ وأن الســـتر من خُلُقى * اذًا قعـــدتُ اليـــك الدهرَ لم أقُم
أليس عنـــدك شُكْرٌ للتى جعلت * ما ابيضّ من قادمات الرأس كالحُمَم

فغنّاه أحمد بن يحيى المكىّ فأحسن فيـــه كلّ الإحسان ، فلمـــا قمتُ للانصراف قلت للحسن : يا أبا علىّ ، أَضْعِف الجميع ، فقال له أحمد : ما هذا الذى أسْمعُكما تقولانه واستُ أدرى ما معناه ؟ قال نحن نَبيعُك ونَشتريك منذ الليلة وأنت لا تدرى .

وحدّث محمـــد بن موسى قال : كان أبو تمـــام يَعْشَق غلاما خَزَرِيّا للحسن بن وهب ، وكان الحسن يتعشق غلاما روميا لأبى تمام ، فرآه أبو تمام يوما يعبث بغلامه ، فقال له :

والله لئن أعنقتَ (١) الى الروم لنركُضَن الى الحزر، فقال له الحسن : لو شئتَ حكّمتنا واحتكمتَ، فقال له أبو تمام : أنا أشبّهك بداود عليه السلام وأشبّه نفسى بخَصْمه، فقال الحسن : لو كان هذا منظوما خِفْناه، وأمّا وهو منثورٌ فلا، لأنه عارض لا حقيقةَ له ، فقال أبو تمام :

أبا علىٍّ بصَرْفِ الدهرِ والغِيَرِ * وبالحوادث والأيام فاعتبِرِ (٢)

أذكرْتَنى أمرَ داودٍ وكنتُ فتًى * مصرَّفَ القلب فى الأهواء والفِكَرِ

أعندك الشمسُ لم يحظَ المَغيبُ بها * وأنت مُضْطَرِبُ الأحشاءِ للقمرِ

إن أنت لم تترك السيرَ الحَثيثَ الى * جآذِرِ الروم أعنقْنا الى الحَزَرِ

إن القَطُوبَ له منّى محلُّ هوًى * يَحلُّ منى محلَّ السمع والبصرِ

وربّ أمنعَ منه جانبًا وحِمًى * أمسى وتِكّتُه منّى على خَطَرِ

جرّدتُ فيه جنودَ العزم فانكشفتْ * عنه غَيابتُه عن جُرْأةٍ هَدَرِ

سبحان من سبّحتْه كلُّ جارحةٍ * ما فيك من طمحان العَيْنِ بالنّظَرِ

أنت المقيمُ فما تغدُو رواحلُهُ * وفعلُه أبدا منه على سَفَرِ

وحدّث وهب بن سعيد قال : جاء دِعْبِل الى الحسن بن وهب فى حاجة بعد موت أبى تمام، فقال له رجل فى المجلس : يا أبا علىّ، أنت الذى تطعَن على مَن يقول :

شهدتُ لقد أقوتْ مغانيكُمُ بعدى * ومَحّتْ كما مَحّتْ وشائعُ من بُرْدِ

وأنجدتُم من بعد إتهام داركم * فيادمعُ أنجِدْنى على ساكنى نجْدِ

فصاح دِعْبِل : أحسن والله! وجعل يردّد :

* فيادمعُ أنجدْنى على ساكنى نجْدِ *

ثم قال : رحمه الله، لو كان ترك لى شيئا من شِعْره لقلتُ : إنه أشعر الناس .

---

(١) أعنقت : أسرعت . (٢) وردت هذه الأبيات فى الأغانى وفيها بعض ألفاظ تخل بالآداب، فأثبتناها هنا كما وردت فى ديوان أبى تمام .

وحدّث أحمد بن عُبَيْـد الله بن ناصح قال : قلت لدعْبِل وقد عَرَض عليّ قصيدة له يمدح بها الحسن بن وهب أوّلها :

* أعاذِلتِي ليس الهَوَى من هوانيا *

فقلت له : ويحك أتقول فيه هذا بعد قولك :

أين محلُّ الحيّ يا حادى * خَبِّرْ سَقَاك الرائحُ الغادى

وبعد قولك :

قالت سَـلَامةُ أين المـالُ قلتُ لها * المـال ويحكِ لاقَى الحمدَ فاصطحبا

وبعد قولك :

فعلى أيمانِنا يَجْرِى النَّدَى * وعلى أسيافنا تَجْرِى المُهَجْ

والله إنى أراكَ لو أنشـدتَه إيّاها لأمر لك بصَفْع ؛ فقـال : صدقتَ والله، ولقـد نَبهتَنى وحذّرتنى، ثُمّ مزّقها .

وحدّث محمد بن موسى قال : أنشـدنى الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك أبياتا يَرْثِى بها سَكْرانة أمّ ٱبنه عمر، وجعل الحسن يتعجّب من جودتها ويقول :

يقولُ لى الخُلّانُ لو زُرْتَ قبرَها * فقلتُ وهل غيرُ الفـؤادِ لها قبرُ

على حين لم أَحْدُثْ فأجهلَ قدرَها * ولم أبلُغِ السِنَّ التى معها الصـبْرُ

وحدّث محمد بن يزيد قال : دامت الأمطار بـ«سُرَّمَن رَأى» ، فتأخر الحسن بن وهب عن محمد بن عبـد الملك الزيات ، وهو يومئـذ وزير والحسن يكتب له ، فاستبطأه محمد ، فكتب اليه الحسن يقول :

أوجب العـذرَ فى تراخى اللقاءِ * ما توالَى من هــذه الأنواءِ

لستُ أدرى ماذا أقول وأشكو * من سمـاء تَعُـوقُنى عن سمـاءِ

غيرَ أنى أدعو على تلك بالثُّـكْـ * ـلِ وأدعـو لهــذه بالبقـاءِ

فســلامُ الإله أهــديه غضًّا * لك منى ياســيّدَ الوزراءِ

وحدّث محمد بن موسى قال : اعتلّ الحسن بن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك أياماً كثيرة، فلم يأته رسولُه، ولا تعرَّف خبرَه، فكتب إليه الحسن قوله :

أيّهذا الوزيرُ أيّدكَ اللـ * ـه وأبقاكَ لى بقاءً طويلا
أجميلاً تراه يا أكرم النا * س لكيما أراهُ أيضاً جميلا
إننّى قد أقمتُ عَشْراً عليلا * ما تُرى مُرْسِلاً إلىّ رسولا
إنْ يكن موجبُ التعمّدِ فى الصـ * ـحّة مَنًّا علىّ منكَ طويلا
فهو أولى ياسيّدَ الناسِ برًّا * وافتقاداً لِمَنْ يكونُ عليلا
فلماذا تركتَنى عرضةَ الظّـ * ـنِّ من الحاسدين جيلا فجيلا
ألذنبٍ؟ فما علمت سوى الشّكـ * ـرِ قرينًا لنيّتى ودخيلا
أم مَلالٍ؟ فما علمتُك للصّا * حب مثلى على الزمان ملولا
قد أتى اللهُ بالشفاء فما أعـ * ـرف ممّا أنكرت إلا قليلا
وأكلتُ الدُّرّاجَ وهو غذاءٌ * أفلت علّتى عليه أفولا
بعد ما كنتُ قد حملتُ من العلّـ * ـةِ عبئًا على الطّباع ثقيلا
ولعلّى قدمتُ قبلك آتيـ * ـك غدا إن وجدتُ فيه سبيلا

فأجابه محمد بن عبد الملك :

دفع اللهُ عنكَ نائبةَ الدهـ * ـر وحاشاكَ أن تكون عليلا
أشهدُ اللهَ ما علمتُ وما ذا * كَ من العُذر جائزا مقبولا
ولعمرى أن لو علمتُ فلازمْـ * ـتك حولا لكان عندى قليلا
إنّنى أرتجى وإن لم يكن ما * كان مما نقمتَ إلا جليلا
أن أكونَ الذى إذا أضمرالإخـ * ـلاصَ لم يلتمسْ عليه كفيلا
ثم لا يبذُلُ المودّة حتى * يجعلَ الجَهْدَ دونها مبذولا
فاذا قال كان ما قال إذ كا * ن بعيدا من طبعه أن يقولا

فاجعلنْ لى إلى التعلّق بالعُــذْ * ـرِ سبيلا إن لم أجِدْ لى سـبيلا
فقــديما ما جاد بالصفح والعفـ * ـوِ وما سَامحَ الخليــلُ الخليــلا

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الحسن بن وهب وقد تأخر عنه :

قالوا جفاك فلا عهـــدٌ ولا خَبرٌ * ما ذا تراه دهـاه قلتُ أيـــلولُ
شهرٌ تَجُـدُّ حبالُ الوصل فيه فما * عَقْدٌ من الوصل إلا وهو محـلولُ

وكان محمد قد نَدَبه لأن يخرُجَ فى أمرٍ مهمّ فأجابه الحسن فقال :

إنى بحولِ آمرئٍ أعليتَ رتبَتَـهُ * لحظُّه منـــك تعظيمٌ وتبجيـــلُ
وأنت عُـــدَّتُه فى نَيْل همتـــهِ * وأنت فى كلّ ما يهـــواه مأمولُ
ما غالنى عنـــك أيلولٌ بـــلذّته * وطيبِـــه ولنعم الشهر أيـــلولُ
الليــلُ لا قِصَرٌ فيـــه ولا طولُ * والجوُّ صافٍ وظهرُ الكأسِ مَرْحولُ
والعُودُ مُستَنْطَقٌ عن كُلِّ مُعْجِبَـةٍ * يضحى بها كلُّ قلبٍ وهو متبولُ
لكن توقُّعُ وَشْـك البينِ عن بلدٍ * تحـــلُّه فوكَاءُ العينِ محـــلولُ
ما لى إذا شمّرتْ بى عنـك مبتكرا * دُهْمُ البغالِ أو الهُـــوجُ المَراسيلُ
إلّا رِعاياتُك اللاتى يعـــود بها * حدُّ الحوادث عنّى وهو مَفْـــلولُ

وكان الحسَن بن وهب يُساير محمـدا على مُسنَّاة[1]، فعدل عن المُسَنّاة لئــلا يَضيق لمحمد الطريقُ، فظنّ محمد أنه أشفق على نفسه من المسناة، فعدل عنها ولم يساعده على طريقه، وظن بنفسه أن يُصيبَها ما يُصيبه، فقال له محمد :

قـــد رأيناك إذ تركتَ المُسَنّا * ةَ وحاذيتَنى يسارَ الطــريقِ
ولَعَمْرى ما ذاك منك وقد جَـــدَّ * بك الجـدّ من فِعَال الشفيق

فقال له الحسن :

إنْ يكنْ خوفِىَ الحتوفَ أرانى * أنـــ ترانى مشبّها بالعَقُـوقِ
فلقد جارت الظنونُ على المُشْـ * ـفِق والظنُّ مُولَعٌ بالشَّـــفيقِ

(١) المسناة : ما يبنى فى وجه السيل .

عــدّر السيّد الأجلّ وقد سا * ر على الجوف من يمين الطريق
فأخذت الشِّمال بُقْياً عـلى السـيِّد إذ هالنى سلوك المضيق
إن عنـدى مودّةً لك حازتْ * ما حَوَى عاشقٌ من المعشوق
طَودُ عزٍّ خُصِصْتُ منـه ببِرٍّ * صار قدرى به مع العَيُّوق
وبنفسى وإخــوتى وأبى الـبرِّ وعمّى وأُسرتى وصـديقى
مَنْ إذا ما رُوِّعْتُ أَمَّنَ رَوْعِى * وإذا ما شَرِقْتُ سوَّغ ريقى

وحدّث المبرّد قال : استسقى الحسن بن وهب من محمد بن عبد الملك نبيذا ببلد الروم وهو مع المعتصم، فسقاه وكتب إليه :

لم تلْقَ مثـلى صاحباً * أندى يَدًا وأعمَّ جُـودا
يَسقى النـديمَ بقَفْرةٍ * لم يَسقِ فيها الماءُ عُودا
صـفراءَ صافيــةً كأ * نّ بكأسها دُرًّا نضـيدا
وأجودُ حين أجود لا * حَصِرًا بذاك ولا بليـدا
وإذا استقلّ بشكرها * أوجبتُ بالشكر المَزِيدا
خُذها إليــك كأنّما * كُسِيتْ زُجاجتُها عُقودا
واجعل عليك بأن تقو * مَ بشكرها أبدا عُهـودا

ومن جيّد شعره قولُه :

بأبى كرهتُ النارَ لمّا أُوقدتْ * فعرَفتُ ما معناكِ فى إبعادهَا
هى ضَرّة لكِ بالتماع ضيائها * وبحسن صـورتها لدى إيقادها
وأَرى صنيعَكِ بالقلوب صنيعَها * بسَيالها وأَراكِها وعَرادها
شَرِكتْكِ فى كل الأمور بحسنها * وضيائها وصـلاحها وفسادها

ومات الحسن بن وهب فرثاه أخوه سليمان بن وهب :

مضى مذ مضى عزُّ المعالى وأصبحتْ * لآلى الحجا والقـول ليس لها نظمُ
وأضحى نجىُّ الفكر بعـدَ فِراقه * إذا همّ بالإفصاح مَنْطِقـهُ كَظْم

وكتب الحسن بن وهب يشكر :

مَنْ شكرك على درجةٍ رفعتَه إليها ، أو ثروةٍ أقدرتَه عليها ، فإنّ شكرى لك على مُهْجةٍ أحييتَها ، وحُشاشة أبقيتَها ، ورَمَقٍ أمسكت به ، وقمتَ بين التلف وبينه ؛ فلكلِّ نعمة من نعم الدنيا حدٌّ تنتهى إليه ، ومدًى يُوقف عنده ، وغايةٌ من الشكر يسمو إليها الطَّرْف ، خلا هذه النعمة التى فاقت الوصف ، وأطالت الشكرَ وتجاوزتْ قَدْرَه ، وأتت من وراء كلّ غاية ؛ رددتَ عنّا كيدَ العدوّ ، وأرغمتَ أنفَ الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظلٍّ ظليل ، وكَنَفٍ كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبلغ جُهْدَه المجتهدُ ؛ — .

١٨ — أشجع السلمى[١]

كان متصلا بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة، منها قوله فى يحيى بن خالد وكان قد غاب :

قد غاب يحيَى فما أَرى أحدًا * يأنَسُ إلا بذكرِه الحسنِ
أَوْحشتِ الأرضُ حين فارقها * من الأَيَادِى العظام والمِنَنِ
لولا رجاءُ الإيابِ لانصدعتْ * قلوبُنا بعده من الحَزَنِ

وقال أيضا :

رأيتُ بُغَاةَ الخيرِ فى كل وِجْهةٍ * لغَيْبةِ يحيى مُسْتَكِينين خُضَّعا
فإن يُمْسِ مَنْ فى الرَّقتين مُؤَمِّلا * لأوبةِ يحيى نحوَها مُتطلِّعا
فما وجهُ يحيى وحدَه غاب عنهمُ * ولكنَّ يحيى غاب بالخير أجمعا

وقال فيه أيضا :

اذا غاب يحيى عن بلادٍ تغيَّرتْ * وتُشْرِقُ إن يحتلّها فتطيبُ
وإن فَعَالَ الخيرِ فى كل بلدةٍ * إذا لم يكن يحيى بها لغريبُ

وقال فيه حين اعتل :

لقد قرعتْ شَكَاةُ أبى علىّ * قلوبَ معاشرٍ كانت صِحَاحَا
فإن يدفعْ لنا الرحمنُ عنه * صروفَ الدهرِ والأجلَ المُتَاحَا

(١) هو أشجع بن عمرو من ولد الشريد بن مطرود السلمى، وكان يكنى أبا الوليد، شاعر إسلامىّ عباسىّ، نشأ بالبصرة، وقال الشعر وأجاد فيه حتى عدّ من الفحول؛ وكان الشعر يومئذ فى ربيعة واليمن، ولم يكن لقيس شاعر، فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس. وانقطع الى البرامكة ومدحهم واختص بجعفر فأصفاه مدحه، فأعجب به جعفر ووصله الى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضا وأمدّه بالمال فأثرى وحسنت حاله فى أيامه، وتقدم عنده، وله فيه المدائح المختارة، والقصائد السائرة. وتجد أشعاره وأخباره فى الأغانى (ج ١٧ ص ٣٠) والشعر والشعراء (ص ٥٦٢).

فقــد أمسى صـــلاح أبي عليّ * لأهل الأرض كلّهم صــلاحَا
اذا ما الموت أخطأه فلَسْـــنَا * نبالى الموتَ حيث غدا وراحَا

وهو القــائل ،

ليس للحــاجاتِ إلّا * من له وجهٌ وَقاحُ
ولســانٌ طِـرْمِذارٌ (١) * وغــدوٌّ ورَوَاحُ
إن أكنْ أبطأ بـالحا * جةِ عــنّى فالّلحَــاحُ
فعلىّ الجهـــدُ فيها * وعـــلى اللهِ النجاحُ

ويستجاد له فى مدح الرشيد :

وصلتْ يداك السيفَ يوم تقطّعت * أيدى الرجالِ وزَلّتِ الأقـــدامُ
وعلى عدوّك يا ابنَ عمّ محمّــدٍ * رَصَدَانِ ضــوءُ الصبح والإظلامُ
فإذا تنبّـــه رُعْتَـــه وإذا غفَــا * سلّتْ عليـــه سيوفَك الأحلامُ

ويُستجاد له أيضا قولُه :

غدًا يتفــرّق أهلُ الهـــوى * ويكثر باك ومســترجع
وتختلف الأرضُ بالظاعنين * وجوهًا تُشَـــتّ (٢) ولا تُجمَـعُ
وتفنى الطلولُ ويبقى الهوى * ويصنَع ذو الشوقِ ما يصنَعُ
وأنت تُبَــكّى وهم جـــيرةٌ * فكيف يكون اذا ودّعوا
أتطمَع فى العيش بعد الفراق * فبئسَ لعَمْــرُك ما تطمَـــعُ

وفيها يقول فى جعفر بن يحيى :

بديهتُـــه مثـــلُ تدبيره * متى هجْتَـه فهـــو مستجمع
إذا هـــمّ بالأمر لم يَثْنِـــه * هُجوعٌ ولا شادنٌ أفْرَعُ
ففى كفِّه للغـنَى مطلَبٌ * وللســـر فى صدره موضِعُ

(١) الطرمذار : المتكثر بما لا يفعل . (٢) تفرق .

وكم قائلٍ إذ رأى بهجتى * وما فى فُضُولِ الغنى أصنعُ
غَدا فى ظلالِ نَدَى جعفرٍ * يجُرّ ثيابَ الغنى أشجعُ
وما خلفَه لامرئٍ مطمعٌ * ولا دونَه لامرئٍ مَقْنَعُ

وهو القائل فى محمد بن منصور بن زياد يرثيه :

أنعى فتى الجودِ الى الجودِ * ما مثلُ من أنعى بموجودِ
أنعى فتًى أصبح معروفُه * منتشرا فى البيضِ والسودِ
أنعى فتًى مصَّ الثَّرَى بعده * بقيةَ الماء من العودِ
قد ثلم الدهرُ به ثُلمةً * جانبُها ليس بمسدودِ
أنعى فتًى كان ومعروفُه * يملأ ما بين ذُرَى البيدِ
فأصبحَا بعد تساميهما * قد جُمعا فى بطن ملحودِ
ألآنَ نخشَى عثراتِ الندى * وعَدْوةَ البخلِ على الجودِ

ويُستجاد له قولُه فى إبراهيم بن عثمان بن نَهِيك وكان صاحبَ شُرَط الرشيد وكان جبارا عَبُوسا :

فى سيف إبراهيمَ خوفٌ واقعٌ * بذوى النِّفاق وفيه أمنُ المسلمِ
ويبيت يَكْلأ والعيونُ هواجعٌ * مالَ المُضيع ومهجةَ المستسلمِ
جعل الخطامَ بأنف كلّ مخالفٍ * حتى استقام له الذى لم يُخْطَمِ
لا يُصْلح السلطانَ إلا شدّةٌ * تَغْشَى البرىَّ بفضل ذنب المجرمِ
ومن الوُلَاة مقحِّم لا يتقِى * والسيفُ تَقْطُر شَفْرتاه من الدمِ
منعتْ مهابتُك النفوسَ حديثَها * بالأمر تكرَهُه وإن لم تعلَمِ

وقال لأخيه :

أبتْ غَفَلات قلبِك أن تَرُوحا * وكأسٌ لا تزايلُها صَبُوحَا
كأنك لا ترَى حسنًا جميلًا * بعينك يا أخى إلّا قبيحَا

ويُستجاد له قولُه فى الرشيد :

لا زلت تنشُر أعيادًا وتَطْويها * تَمْضِى بهـا لك أيامٌ وتَثْنيها
مستقبلًا جِدَّة الدنيا وبهجتَها * أيامُهـا لكَ نظمٌ فى لياليها
العيدُ والعيـد والأيام بينهما * موصـولةٌ لك لا تَفْنَى وتُفْنيها
ولْيَهْنِك النصرُ والأيامُ مقبـلةٌ * إليـك بالفتح معقودًا نواصيها

ويستجاد له قوله يمدح اسماعيل بن صبيح :

له نظرٌ لا يَغْمُض الأمرُ دونَه * تكاد سُتورُ الغيب عنـه تَمزَّقُ

وهو القائل :

وما ترك المُـــدَّاح فيك مقالةً * ولا قال إلّا دون ما فيك قائلُ

وقال أيضا :

مضى ٱبن سعيدٍ حين لم يبقَ مشرق * ولا مغـــرِبٌ إلا له فيــه مادحُ
وما كنتُ أَدْرى ما فواضلُ كفه * على النـاسِ حتى غيَّبته الصفائحُ (١)
فأصبح فى لحدٍ من الأرض ميّتًـا * وكانت به حيًّـا تضيق الصَّحاصِحُ (٢)
سأبكيك مافاضتْ دموعى فإن تَغِضْ * فحسـبُك منّى ما تُجِنّ الجوانحُ (٣)
فمـا أنا من رُزْءٍ وإن جل جازعٌ * ولا بسرورٍ بعـــد موتك فارِحُ
كأن لم يَمُتْ حىٌّ سِـواكَ ولم يقُمْ * على أحدٍ إلا عليـــكَ النــوائحُ
لئن حَسُنَتْ فيك المراثى وذكْرُها * لقد حسنتْ من قبلُ فيك المدائحُ

(١) الصفائح : أحجار عراض تغطى بها القبور . (٢) الصحاصح : جمع صحصح : وهى الأرض الجرداء المستوية الواسعة ذات حصى صغار . (٣) الجوانح : الضلوع .

١٩ — علىّ بن الجَهْم (١)

كان علىّ بن الجهم قد هجا بختيشوع، فسبّه عند المتوكل فحبسه المتوكل. فقال على بن الجهم فى حبسه عدّة قصائد كتب بها الى المتوكل، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك الى خُرَاسان. فقال أوّل ما حُبِس قصيدةً كتب بها الى أخيه، أوّلها قوله :

توكّلْنا عـلى ربّ السماء * وسَلّمنـا لأسـباب القضـاء
ووَطّنّـا على غـيَرِ الليـالى * نفوسًا سامحتْ بعــد الإباء
وأفنيـــةُ المـلوك محجَّباتٌ * وبابُ الله مبـذُول الفِنـاء
هى الأيأم تَكْلُمُنا وتأسـو * وتأتى بالسـعادة والشــقاء
وما يُجْـدِى الثراءُ على غَنِيٍّ * إذا ماكان محظورَ العَطاء
حَلَبْنَـا الدهرَ أشطُرَه ومَرّتْ * بنـا عُقَبُ الشـدائد والرخاء
وجَرّبْنـا وجرّب أوّلُونا * فلا شيءٌ أعز من الوفاء
ولم نَدَعِ الحيـاءَ لمسّ ضـرّ * وبعضُ الضرّ يَذهب بالحيـاء
ولم نحـزنْ على دُنيـا تولّتْ * ولم نُسْبَق الى حسن العـزاء
تَوَقَّ النـاسَ يابنَ أبى وأمّى * فهـم تَبَـعُ المخـافة والرجاء

(١) هو عربى قرشىّ شاعر فصيح مطبوع، وقد خص بالمتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية اليه بندمائه فكان اذا خلا به عرفه أنهم يعيبونه و يثلبونه، فيكشف الخليفة عن ذلك فلا يجد له حقيقة، فنفاه الى خراسان بعد أن حبسه مدّة. وكان مذهبه فى الشعر مذهب مروان بن أبى حفصة فى هجاء آل أبى طالب وذمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة كقوله :

ورافضة تقول بشعب رضوى * إمام، خاب ذلك من إمام
إمام من له عشرون ألفـا * من الأتراك مشرعة السهام

وله أقوال فى الغزل والعتاب وفى الوصف، توفى سنة ٢٤٩ هـ. وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٩ ص ١٠٤) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٩٧).

ولا يَغْرُرْك من وَغْدٍ إخاءٌ * لأمرٍ مّا غَدَا حَسَنَ الإخاء
ألم تر مظهِرين عليّ عتبًا * وهم بالأمس إخوانُ الصّفاء
فلمّا أن بُليتُ غَدَوْا وراحُوا * عليّ أشدّ أسباب البلاء
أبتْ أخطارُهم أن ينصرونى * بمالٍ أو بجاه أو ثراء
وخافوا أن يقالَ لهم خَذَلتم * صديقًا فادّعَوْا قِدَمَ الجفاء
تَظَافرتِ الروافض والنصارى * وأهل الإعتزال على هِجّائى
وعابونى وما ذنبى إليهم * سوى علمى بأولاد الزناء
فبختيشوع يشهد لابن عمرو * وعَزُّونٌ لهارون المُرائى
وما الجَذْماء بنت أبى سَمِير * بجذماء اللسان على الخَنَاء
إذا ما عُدَّ مثلكُمُ رجالًا * فما فضلُ الرجال على النساء
عليكم لعنةُ الله ابتداءً * وعَوْدًا فى الصباح وفى المساء
إذا سُمّيتُمُ للناس قالوا * أولئك شرُّ مَن تحت السماء
أنا المتوكلىّ هَوًى ورأيًا * وما بالواثقيّة من خَفاء
وما حَبْسُ الخليفة لى بعارٍ * وليس بمؤيسى منه التّنائى

كان سبب حبس المتوكل علىّ بن الجهم أن جماعة من الجلساء سَعَوْا به اليه وقالوا له : إنه يغمش الخدم ويغمزهم ، وإنه كثير الطعن عليك والعيب لك والإزراء على أخلاقك ، ولم يزالوا به يُوغِرون صدرَه عليه حتى حَبَسه ، ثم أبلغوه عنه أنه هجاه ، فنفاه الى خراسان وكتب بأن يُصلَب اذا وردها يومًا الى الليل ، فلما وصل الى الشاذيَاخ حبسه طاهر بن عبد الله بن طاهر بها ، ثم أُخرج فصُلِب يوما الى الليل مجرّدا ثم أنزل ، فقال فى ذلك :

لم يَنْصِبوا بالشاذياخ عشيّةَ الإثنين مسبوقًا ولا مجهولا
نَصَبُوا بحمد الله مِلْءَ قلوبهم * شرفا وملءَ صدورهم تبجيلا
ما ازداد إلا رفعةً بنكوله * وازدادت الأعداء عنه نُكولا

هل كان إلا الليثَ فارق غِيلَه * فرأيتَــه فى محمل محمــولا
لا يأمَنُ الأعداءُ من شَـدّاته * شـدًّا يفصّل هامَهم تفصيلا
ما عابه أنْ بُزّ عنه لباسُــه * فالسيفُ أهولُ ما يُرَى مسلولا
إن يُبْتَذَلْ فالبدرُ لا يُزْرِى به * ان كان ليـلة تمّـه مبـذولا
أو يَسْلُبوه المـالَ يُحْزِنْ فقدُه * ضـيفا ألمّ وطـارقًا ونزيلا
أو يحبسوه فليس يُحْبَس سائرٌ * من شعره يَدَعُ العزيزَ ذليـلا
إن المصائب ما تعدّت دينَـه * نِعَمٌ وإن صَعُبتْ عليـه قليلا
والله ليس بغـافلٍ عن أمره * وكفى بربك ناصرًا ووكـيلا
ولَتَعلمنّ إذا القلوب تكشّفت * عنها الأكِنّةُ من أضلُّ سبيلا

وكتب المتوكل الى طاهر بن عبد الله بإطلاق علىّ بن الجهم، فلما أطلقه قال :

أطاهرُ إنى عن خُراسانَ راحلُ * ومُسْتَخْبَرٌ عنها فما أنا قائل
أأصدُقُ أم أكنى عن الصدق أيّما * تخيّرْتُ أدّته اليـك المحـافل
وسارت به الركبانُ واصطفقتْ به * أكُفُّ قِيـانٍ واجتبته القبائل
وإنى بعـالى الحمـد والذمّ عالمٌ * بمـا فيهما نامى الرميّة ناضـل
وحقًّا أقولُ الصدقَ إنى لمـائلٌ * اليـك وإن لم يَحْظَ بالودّ مائلُ
ألَا حرمةٌ تُرْعَى ألَا عقـدُ ذمّةٍ * لجارٍ ألَا عـدلٌ لقـولٍ مُشَاكِلُ
ألَا منصفٌ إن لم نجِدْ متفضِّلًا * علينا ألَا قاضٍ من الناس عادلُ
فلا تقطعَنْ غيظًا علىّ أنامـلًا * لقبلَك ما عُضّتْ علىّ الأناملُ
أطاهرُ إن تُحْسِنْ فإنّىَ محسنٌ * إليك وإن تبخَـلْ فإنّىَ باخلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيرا، فإنى لا أفعـل بك إلا ما تحب، فوصـله وحمله وكساه .

وقال علىّ بن الجهم للمتوكل :

عفا الله عنــك ! ألّا حرمةٌ * تجـــود بعفوك أن أُبْعَدَا
لئن جَلّ ذنبٌ ولم أعتمد * لأنت أجـــلُّ وأعلى يدا
ألم تر عبـــدًا عَدَا طَوْرَه * ومولًى عفا ورشيدًا هدى
ومُفسِـــدَ أمرٍ تلافيتَـــه * فعاد فأصلح ما أفســـدا
أَقِلْـــنى أقالك من لم يَزَلْ * يَقِيكَ ويَصْرِف عنك الرَّدَى

وأحسن شعر قاله فى الحبس قصيدته التى أوّلها :

قالوا حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرى * حَبْسِى وأىّ مُهَنَّـــدٍ لا يُغْمَـــدُ
أَوَ مَا رأيتَ الليثَ يألَف غِيـــله * كِبرًا وأوباشُ السِّـــباع تَرَدَّدُ
والشمس لولا أنهـا محجـــوبةٌ * عن ناظرَيْكَ لَمَـا أضاء الفَرْقَـــدُ
والبـــدرُ يُدْرِكه السِّرار فتنجـــلِى * أيّامُـــه وكأنه متجـــدّد
والغيثُ يحصُـــره الغمامُ فما يُرَى * إلّا ورَيِّقُـــه يراع ويرعُـــدُ
والزاعبيّـــةُ لا يُقيم كعوبَهـا * إلا الثِّقاف وجَـــذْوةٌ تتوقَّـــدُ
والنـارُ فى أحجـارها مخبـــوءةٌ * لا تُصْـــطَلَى إن لم تُثِرْها الأَزْنُدُ
والحبس ما لم تَغْشَـــه لدنيّـــةٍ * شـــنعاء نعم المـــنزلُ المتـــودّد
بيت يجـــدّد للكريم كرامةً * ويُزَارُ فيـــه ولا يزور ويُحْمَـــد
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه * لا يســـتذلّك بالحجاب الأَعْبُـــد
كم من عليلٍ قد تخطّاه الردى * فنجا ومات طبيبُـــه والعُـــوَّدُ
يا أحمـــدُ بنَ أبى دُوَادٍ إنما * تُدْعَى لكل عظيمةٍ يا أحمـــد
أبلغْ أمـــيرَ المؤمنين ودونَه * خَوْضُ الرَّدَى ومخاوفٌ لا تَنْفَـــدُ
أنتم بنـــو عمّ النـــبىّ محمـــدٍ * أَوْلَى بما شَرَعَ النـــبىّ محمـــد
ما كان من كرمٍ فأنتم أهـــلُه * كَرُمتْ مغارسُكم وطاب المَحْتِـــدُ

أمِنَ السَّوِيّةِ يابن عمّ محمد * خَصْمٌ تُقَرِّبُه وآخرُ تُبْعِد
إن الذين سَعَوْا اليك بباطل * حسادُ نعمتِك التى لا تُجْحَدُ
شَهِدُوا وغِبْنَا عنهمُ فتحكّموا * فينا، وليس كغائبٍ من يشهد
لو يجمع الخُصَماءَ عندك مجلسٌ * يوما لبَانَ لك الطريقُ الأقصد
فبأىّ جُرْمٍ أصبحتْ أعراضُنا * نَهْبا تَقَسَّمها اللئيمُ الأوغد

خرج علىّ بن الجهم إلى الشأم فى قافلة فخرجت عليهم الأعراب فى خُساف(١)، فهرب مَنْ كان فى القافلة من المُقَاتِلة وثَبَتَ علىّ بن الجهم، فقاتلهم قتالا شديدا وثاب الناس اليه فدفعهم ولم يَحْظَوْا بشىء . فقال فى ذلك :

صَبَرتُ ومثلى صبرُه ليس يُنْكَرُ * وليس على ترك التَّقَحُّم يُعْذَرُ
غريزةُ حرّ لا اختلاقُ تكلُّفٍ * إذا خام(٢) فى يوم الوغى المتصبِّرُ
ولما رأيت الموتَ تهفو بنودُه * وبانت علاماتٌ له ليس تنكر
وأقبلتِ الأعرابُ من كل جانبٍ * وثار عَجَاجٌ أسودُ اللون أكدر
بكل مُشِيحٍ(٣) مستميتٍ مشمّر * يجول به طِرْفٌ أقبُّ مشمّر
بأرض خُسافٍ حين لم يك دافعٌ * ولا مانعٌ إلا الصفيحُ المذكَّر
فقلَّل فى عينى عظيمَ جموعهم * عزيمةُ قلبٍ فيه ما جَلَّ يصغُرُ
بمعتَرَكٍ فيه المنايا حواسرٌ * ونارُ الوَغَى بالمَشْرَفيّة تُسْعَرُ
فما صُنْتُ وجهى عن ظُبَاتِ سيوفهم * ولا انحزتُ عنهم والقَنَا تتكسّر
ولم أكُ فى حَدِّ الكريهة مُحْجِما * إذا لم يكن فى الحرب للوِرْد مَصْدَر
اذا سَاعَدَ الطِّرْفُ الفتى وجَنَانُه * وأسمرُ خَطِّىٌّ وأبيضُ مِبْتَر
فذاك وإن كان الكريم بنفسه * إذا اصطلت الأبطالُ فى النقع عسكر

(١) برية بين بالس وحلب . (٢) خام : نكص وجبن .
(٣) المشيح : المانع لما وراء ظهره . والأقب من الخيل : الدقيق الخصر الضامر البطن .

منعتُهُمُ من أن ينالوا قُلامةً * وكنتُ شجاهم والأسنّةُ تقطُرُ
وتلك سجايانا قديمًا وحادثًا * بها عُرِف الماضى وعَزّ المؤخَّر
أبتْ لى قرومٌ أنجبتنى أن أرى * وإن جَلّ خَطْبٌ خاشعًا أتضجّر
أولئك آلُ الله فِهْرُ بن مالك . * بهم يُجْبَرُ العظمُ الكسير ويُكْسَر
هم المَنكِبُ العالى على كل منكبٍ * سيوفُهم تُفْنِى وتُغنِى وتُفْقِر

كان علىّ بن الجهم يعاشر جماعةً من فتيان بغداد لما أُطلق من حبسه ورُدّ من النفى ، وكانوا يتقاينون ببغداد ويلزمون منزل مغنّ بالكرخ يقال له المفضّل ، فقال فيه على بن الجهم :

نزلنا بباب الكَرْخ أطيبَ منزلٍ * على مُحْسناتٍ من قِيَانِ المفضَّل
فلابن سُرَيْج والغَرِيض ومَعْبَد * بدائعُ فى أسماعنا لم تبدّل
أوانس ما للضيف منهنّ حشمةٌ * ولا ربهنّ بالجليل المبجّل
بسرّ اذا ما الضيفُ قَلّ حياؤه * ويَغفل عنه وهو غير مُغَفَّل
ويُكثِر من ذمّ الوَقار وأهله * اذا الضيفُ لم يأنَسْ ولم يَتَبَذّل
ولا يدفع الأيدى المريبة غَيْرة * اذا نال حظًّا من لَبُوس ومأكل
ويُطْرِق إطراقَ الشُّجاع مهابةً * لِيُطْلِق طَرْفَ الناظر المتأمّل
أشِرْ بيدٍ واغمِزْ بطَرْفٍ ولا تَخَفْ * رقيبًا اذا ما كنتَ غير مُبَخَّل
وأعرِضْ عن المصباح والهَجْ بمثله * فإن خمَد المصباح فادنُ وقبِّل
وَسَلْ غيرَ ممنوع وقُلْ غيرَ مسكتٍ * ونَمْ غيرَ مذعور وقم غير مُعْجَل
لك البيتُ ما دامتْ هداياك جَمّةً * وكنتَ مَلِيًّا بالنبيذ المعسّل
فبادرْ بأيام الشباب فإنها * تَقَضَّى وتَفْنَى والغَوايةُ تنجلى
ودع عنك قولَ الناس أتلفَ ماله * فلانٌ فأضحى مُدبِرًا غير مُقْبِل
هل الدهرُ إلا ليلةٌ طَرَحتْ بنا * أواخرُها فى يوم لَهْوٍ معجّل
سقى الله بابَ الكرخ من مُتَنَزَّهٍ * الى قصر وَضّاح فبِركة زَلزَل

مَسَاحِب أذيال القِيان ومَسْرح الـ * حِسان ومَثْوَى كل خِرْقٍ مُعَذَّلِ
لو آن آمرأ القيس بن حُجْرٍ يحلّها * لأقْصَرَ عن ذِكر الدَّخُولِ وحَوْمَلِ
إذًا لَرَأى أن يمنح الودَّ شادنا * مُقَصِّر أذيالِ القَبا غير مُسْبِلِ
إذا الليلُ أدنى مَضْجَعِي منه لم أقُلْ * "عَقَرْتَ بعيرى يا آمرأ القيس فانْزِلِ"

دخل علىّ بن الجهم يوما على عبد الله بن طاهر فى غداة من غَدَوات الربيع وفى السماء غيم رقيق، والمطر يجيء قليلا ويسكن قليلا، وقد كان عبد الله عزم على الصبوح فعاضبته حَظِيّة له، فتنغّص عليه عزمه وفتر، فخُبِّر علىّ بن الجهم بالخبر وقيل له : قل فى هذا المعنى لعله ينشط للصبوح، فدخل عليه فأنشده :

أَمَا تَرَى اليومَ ما أحلى شمائلَه * صَحْوٌ وغيمٌ وإبراقٌ وإرعاد
كأنه أنت يامن لا شبيهَ له * وصلٌ وهجرٌ وتغريب وإبعادُ
فباكرِ الراحَ وآشربها مُعتّقة * لم يَدّخِر مثلَها كِسْرى ولا عادُ
وآشربْ على الروض إذ لاحتْ زَخَارِفُه * زهرٌ ونَوْرٌ وأوراقٌ وأورادُ
كأنما يومُنا فعلُ الحبيب بنا * بَذْلٌ وبُخْلٌ وإبعادٌ وميعادُ
وليس يذهبُ عنى كلّ فعلِكُمُ * غَيٌّ ورُشْدٌ وإصلاحٌ وإفساد

فاستحسن الأبياتَ وأمر له بثلثمائة دينار وحمله وخلع عليه .

لما أطلق عبد الله بن طاهر علىّ بن الجهم من الحبس أقام معه بالشَّاذِياخ مدّة، فخرجوا يوما الى الصيد ، واتفق لهم مَرْج كثير الطير والوحش وكانت أيام الزعفران، فاصطادوا صيدا كثيرا حسنا، وأقاموا يشربون على الزعفران، فقال علىّ بن الجهم يصف ذلك :

وَطِئْنا رياض الزعفران وأمسكتْ * علينا البُزاةُ البيضُ حمرَ الدَّرَارِجِ (١)
ولم تَحْمِها الأدغالُ منا وإنما * أَبَحْنا حِمَاها بالكلاب البَوَارِج
بمستَرْوِحاتٍ سابحاتٍ بطونُها * على الأرض أمثالِ السِّهامِ الزوالجِ (٢)

(١) واحده درّاج (بضم الدال وتشديد الراء) وهو طائر على خلقة القطا إلا أنه ألطف .

(٢) الزالج من السهام : الذى يمشى على وجه الأرض ثم يمضى .

ومستشرفات بالهــوادى كأنهــا * وما عُقِفتْ منها رؤوسُ الصّوَالج
ومن دالعاتٍ ألسُنًا فكأنهــا * لِحًى من رجال خاضــعين كَوَاسج
فَلَيْنا بهــا الغيطانَ قَلْيًــا كأنهــا * أناملُ إحدى الغانيــات الحوَالج
فقل لبُغاةِ الصَّــيْد هل من مُفاخِرٍ * بصيدٍ وهل من واصف أو مخارج
قَرَنّا بُزاةً بالصــــقور وحَوّمتْ * شــواهينُنا من بعد صــيد الرواجِ (١)

لمــا فُلِج آبن أبى دواد شَمِت به علىّ بن الجهم وأظهر ذلك له وقال فيه :

لم يبقَ منك ســوى خَيَالك لامعًا * فوق الفِراش ممهّــدًا بوِسَاد
فرِحَتْ بَمْصَرعك البريّةُ كلّهــا * مَنْ كان منهم مُوقِنًا بمَعَــاد
كم مجلس لله قــد عَطّلتَــه * كى لا يُحَــدث فيــه بالإســناد
ولكم مصابيــح لنــا أطفأتَهــا * حتى نزول عن آلطريق آلهــادى
ولَكم كــريمةِ مَعْشرٍ أرملتهــا * ومحــدّث أوثقتَ فى الأقيــاد
إن الأسارى فى السجون تفرّجوا * لمــا أتتــك مواكــبُ العوّاد
وغَدَا لمصرعك الطبيبُ فلم يجــد * شيئًا لدائك حيــلة آلمرتاد
فذُقِ الهوانَ معجَّلًا ومؤجَّلًا * والله ربّ العرش بالمرصــاد
لا زال فالجُك الذى بك دائبًــا * وفُجِعْتَ قبــل آلموت بآلأولاد

ومن جيد شعره قوله :

نطق الهوىً بجوى هو الحقّ * وملكتنى فليهنِــكَ الرِّقُّ
رِفقًــا بقــلبى يا معــذِّبَه * رِفقًــا وليس لظالم رفــقُ
وإذا رأيتُــك لا تُكلّمُنى * ضاقت علىّ الأرضُ والأُفْق

وله أيضا :

يا رحمــةً للغريب بالبلد النّــا * زِحِ مَا ذَا بنفســـه صَنَعَــا
فَارَقَ أحبابَه فمــا آنتفعــوا * بالعيش من بعده وما آنتفعا

(١) الراجِ : الملواح الذى يصاد به الصقور ونحوها من جوارح الطير .

٢٠ — على بن جَبَلَة (١)

قال المأمونُ يوما لبعض جلسائه : أُقْسِم على مَنْ حضر ممّن يحفظ قصيدة علىّ بن جَبَلَةَ الأعمى فى القاسم بن عيسى إلا أَنْشَدنيها ؛ فقال له بعض الجلساء : قد أقسم أميرُ المؤمنين ولا بدّ من إبرار قسمه ، وما أحفظها ولكنها مكتوبة عندى ؛ قال : قم فجئنى بها ، فمضى وأتاه بها وأنشده إياها ، وهى :

ذاد وِرْدَ الغَيّ عن صَدَرِهْ * وٱرعَوَى واللهوُ من وَطَرِهْ
وأَبَتْ إلا البكاءَ له * ضَحِكَاتُ الشَّيْب فى شَعَرِهْ
ندمِى أن الشبابَ مضَى * لم أُبلِّغْه مَدَى أَشَرِهْ
وٱنقضتْ أيامُه سَلَمًا * لم أَجِدْ حَوْلًا على غِيَرِهْ
حسرتْ عنّى بشاشتُه * وذَوَى المحمودُ من ثَمَرِهْ
ودمٍ أهدرتُ من رَشَإٍ * لم يُرِد عَقْلًا على هَدَرِهْ
فأتت دون الصِّبا هَنَةٌ * قلبتْ فُوقى على وَتَرِهْ
جارتا ليس الشبابُ لمن * راح مَحْنيًّا على كِبَرِهْ
ذهبتْ أشياءُ كنتُ لها * صَارَها (٢) حلمى الى صُورِهْ

---

(١) هو على بن جبلة الأنبارى والعكوّك لقبه ، وهو من الموالى أبناء الشيعة الخراسانية من أهل بغداد ، ولد فى الحربية منها ونشأ فيها ، وكان ضريرا منذ ولادته مثل بشار بن برد ، وهو شاعر مطبوع عذب اللفظ جزله ، لطيف المعانى ، مداح حسن التصرف ، وقد ٱستنفد شعره فى مدح أبى دلف العجلى وأبى غانم حميد بن عبد الحميد الطوسى ، وزاد فى تفضيلهما وتفضيل أبى دلف خاصة حتى فضل ربيعة على مضر ، فاستاء المأمون من ذلك وبلغه أبيات قالها العكوّك فى أبى دلف منها :

كل من فى الأرض من عرب * بين باديه إلى حضره
مستعير منك مكرمة * يكتسيها يوم مفتخره

توفى سنة ٢١٣ هـ . وتجد أكثر أخباره فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٠٠) وابن خلكان طبع بولاق (ج ١ ص ٤٩٥) والشعر والشعراء (ص ٥٥٠)

(٢) صارها : أمالها .

دَعْ جدًا قَحْطان أو مُضَرٍ * فى يمانيه وفى مُضَرِهْ
وامتدِحْ من وائلٍ رجلًا * عُصُرُ الآفاق فى عُصُرِهْ
المنايا في مَنَاقِبِه * والعطايا فى ذَرَا حُجَرِهْ
ملكٌ تَنْدَى أنامله * كانبلاج النَّوْءِ عن مَطَرِه
مُستهلٌّ عن مَوَاهبه * كابتسام الروض عن زَهَرِه
جبلٌ عزّتْ مَنَاكبه * أمنتْ عَدْنانُ فى ثُغَرِه
إنما الدنيا أبو دُلَفٍ * بين مَبْدَاه ومُحْتَضَرِهْ
فإذا ولّى أبو دلفٍ * ولّت الدنيا على أثَرِه
لستُ أدرى ما أقول له * غير أنّ الأرض فى خَفَره
يادواء الأرض إن فسدتْ * ومديلَ اليُسْر من عُسُرِه
كل من فى الأرض من عربٍ * بين باديه الى حَضَره
مستعيرٌ منك مكرمة * يكتسيها يومَ مُفْتَخَره

وفيها يقول :

وزُحُوفٍ فى صَوَاهله * كصِياح الحَشْر فى أثره
قُدْتَه والموت مكتمنٌ * فى مَذَاكيه ومُشْتَجَره
فرمتْ حَقْوَيهِ منه يدٌ * طَوَتِ المنشورَ من نظره
زرته والخيل عابسةٌ * تحمل البُؤْسَى على عُقُره
خارجاتٍ تحت رايتها * كخروج الطير من وُكُره
وعلى النعمان عُجْتَ به * عَوْجةً ذادته عن صَدَره
غَمَط النعمانُ صَفْوتَها * فرددتَ الصفو فى كَدَره
ولقرقور أدرتَ رحًا * لم تكن ترتدّ فى فِكَره

قـــد تأبّيْتَ البقـاءَ له * فأبى المحتومُ من قَـدَره
وطَـــغَى حـتى رفعتَ له * خُطّةً شنعاءَ من ذِكَرِه

فغضب المأمون وٱغتاظ، وقال: لست لأبى إن لم أقطع لسانَه أو أسفِكْ دمه .

وكان يمدح حُمَيد بن عبد الحميد، فلما سمع حميد هـذا فى أبى دلف قال: أى شىء بَقَّيتَ لنا بعد هذا من مدحك؟ فقال:

إنمـا الدنيا حُمَيدٌ * وأياديه الجِسامُ
فاذا ولّى حميـدٌ * فعلى الدنيا السلامْ

وهو القائل فى حميد:

دِجـلةٌ تسـقِى وأبو غانم * يُطعِم مَنْ تَسقِى من الناس
والناسُ جسمٌ وإمامُ الهدى * رأس وأنت العينُ فى الراس

وقال للحسن بن سهل:

أعطيتَنى يا ولىَّ الحقّ مبتـدئًا * عطيّةً كافأتْ مدحى ولم تَرَنِى
ما شِمْتُ برقَك حتى نِلتُ رَيِّقه * كأنما كنتَ بالجَدْوَى تُبادرنى

وهو القائل فى حميد:

إلى أكـرم قَحْطانٍ * وصَلْنا السَّهْبَ بالسَّهْبِ
الى مجتَمع النَّيـــل * ومُلْقَى أرحُـلِ الرَّكب
حُمَيْـــدٌ مَفْـزَع الأمّـ * ـة فى الشرق وفى الغرب
كأنّ الناسَ جسمٌ وَهْـ * ـو منه موضـعَ القلب
اذا سَـالَمَ أرضـا غـ * ـنِيَتْ آمنــةَ السِّرْبِ
وإن حارَبها حلّت * بهـا راغِيَــةُ السَّـقْبِ
اذا لاقَى رَعِيــلَ المو * ت بالشطبَة والشُّطْب
وبالمـاذيّة الخُضْــرِ * وبالهنــديّة القُضْبِ

غـــدا مجتمعَ القلبِ * له جندٌ من الرُّعْبِ
فيــافوزَ الذى وَالَى * ويا بؤسى أخى الذنب
أيا ذا الجود فاســلَمْ ما * جرتْ حُقْبٌ الى حُقْبِ
فأنت الغيثُ فى السِّــلمِ * وأنت الموتُ فى الحرب
وأنت الجــامعُ الفــار * قُ بين البعــد والقرب
بــك الله تلافى النــا * س بعد العثْرِ والنَّكْبِ
وردّ البِيضَ والبِيضَ * الى الأغمــاد والحُجْب
بإقدامك فى الحــرب * وإطعــامك فى اللَّزْب
فكم أمّنتَ من خوفٍ * وكم أشغبتَ من شَغْب
وكم أصلحتَ من خَطْبٍ * وكم أيّمتَ من خِطْبِ
وما تمْهَـــــرها إلا * دِرَاكَ الطَّعْن والضرب
تناهتْ بك قحطانٌ * الى الغــاية والحَسْبِ
ففاتتْ شَرَفَ الأحيــا * ء فَوْتَ الرأس للعَجْبِ(١)

ومما أسرف فيه فكفر أو قاربَ الكفرَ قوله فى أبى دلف :

أنت الذى تُنْزِل الأيّامَ منزِلَهَا * وتنقُلُ الدهرَ من حالٍ الى حال
ومامَدَدتَ مَدَى طَرْفٍ الى أحدٍ * إلا قضيتَ بأرزاق وآجال
تَزْوَرُّ سخطًا فتُمْسِى البِيضُ راضيةً * وتستهِلُّ فتبكى أوجُــهُ المــال

وقال فيهــا :

كأنّ خيلَك فى أثنــاء غَمْرتها * أرسالُ قَطْرٍ تَهَامى فوق أرسال
يخرجن من غمرات الموت سامية * نَشْرَ الأنامل من ذى القِرّة الصالى

(١) العجب : أصل الذنب .

وقال أيضا :

جــلاء مشـــيب نَزَلْ * وأُنْسُ شــباب رَحَــلْ
طـوى صـاحبٌ صاحبًـا * كذاك اختــلافُ الدُّوَلْ
أعاذلــتى أقْصِـــرِى * كفاكِ المشيبُ العَــذَلْ
بــدا بــدلًا بالشــبا * ب ليت الشــبابَ البـدل
جــــلالٌ ولكنه * تحـاماه حُــورُ المُقَــلْ

وقد كان حميــد ركب يوم عيد فى جيش عظيم لم يُرَ مثلُه ، فقال على بن جبلة يصف ذلك :

غــدا بأمــير المؤمنين ويُمْنِــه * أبو غانم غَدْوَ النَّـدَى والسـحائب
وضاقتْ بفِجاجُ الأرض عن كل موكبٍ * أحاطَ به مســتعليًا للمواكب
كأنّ سمــوَ النَّــقْع والبِيضَ فوقهــم * سمــاوةُ ليــل قُرِّنتْ بالكواكب
فكان لأهــل العيد عيــدٌ بنسكهم * وكان حُمَيــدٌ عيــدَهم بالمواهب
ولو لا حميــد لم تبــلَّجْ عن النَّــدَى * يمينٌ ولم يُدرِكْ غِنًى كسبُ كاسب
ولو مَــلَكَ الدنيــا لمــا كان سائــلٌ * ولا اْعتامَ فيها صاحبٌ فضلَ صاحب
له ضحكةٌ تســتغرق المــالَ بالنَّــدَى * على عَبْسةٍ تُشْــجِى القَنَــا بالــترائب
ذهبتَ بأيام العُــلَا فاردًا بهــا * وصَرَّمتَ عن مَسْــعاك شأوَ المطالب
وعدّلت مَيْلَ الأرض حتى تعدّلت * فــلم ينأَ منهــا جانبٌ فــوق جانب
بلغت بأدنى الحــزمِ أبعــدَ قُطْرِهــا * كأنــك منهــا شاهــدٌ كلَّ غائب

شخص على بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر إلى خراسان ، وقد مدحه فأجزل صلته ، واستأذنه فى الرجوع فسأله أن يقيم ، وكان برّه يتصل عنــده ؛ فلما طال مُقامه اْشتاق إلى أهله فدخل إليه فأنشده :

راعه الشَّــيبُ إذ نَزَلْ * وكَفَاه مِن العَــذَلْ
واْنقضتْ مدة الصِّــبَا * وانقضى اللهوُ والغَــزَلْ

قـد لعـمرى دَمَلَتُـه ۞ بخِضَابٍ فما آندمـل
فابك للشَّـيب إذ بَدَا ۞ لا على الرَّبـع والطَّـلَلْ
وصــــل الله للأمـيـ ۞ ـرِ عُرَى الملك فاتّصل
مـلكٌ عَزْمُــه الزما ۞ نُ وأفعـالُه الدول
كِسْروىٌّ، بمجـده ۞ يضربُ الضاربُ المثل
وإلى ظــلّ عــزّه ۞ يلجأ الخـائف الوَجِل
كلّ خَلقٍ سوى الإما ۞ مِ لإنعامـه خَــوَل
ليتـه حين جَادَ لى ۞ بالغِــنى جاد بالقَــفَل

فضحك وقال : أَبَيْتَ إلا أن تُوحشنا ، وأجزل صِلَته وأذن له .

دخل على بن جبلة العَكَوَّك على حُمَيد الطوسىّ فى أول يوم من شهر رمضان ، فأنشده :

جعل الله مَدْخَلَ الصوم فوزًا ۞ لحُمَيْـدٍ ومُتعـةً فى البقـاء
فهـو شهر الربيـع للقُــرّاء ۞ وفِراقُ النَّدْمانِ والصَّهباء
وأنا الضامنُ المَـلِيُّ لمن عا ۞ قَرَهـا مُفطِـرًا بطـول الظّماء
وكأنى أرى النّدامَى على الخسـ ۞ ـفِ يرجُّون صبحَهم بالمساء
قد طَوَى بعضُهم زيارةَ بعض ۞ واستعاضوا مَصَاحفًا بالغنـاء

وفيهـا يقول :

بحُمَيدٍ — وأين مثلُ حميدٍ — ۞ فَخَــرَتْ طيّءٌ على الأحيـاء
جودُه أظهر السماحةَ فى الأر ۞ ض وأغنى المُقْوِى عن الإقواء
مـلكٌ يأمُــلُ العبـادُ نَدَاه ۞ مثـلَ ما يأمُلونَ قَطْـرَ السماء
صاغه الله مُطعِمَ الناس فى الأر ۞ ض وصاغ السحابَ للإسقاء

فأمر له بخمســة آلاف درهم ، وقال : استعن بهذه على نفقة صومك ؛ ثم دخل اليــه ثانى شوّال فأنشده :

عللانى بصفو ما فى الدّنان * واتركا ما يقوله العاذلان
واسبقا فاجعَ المنيّة بالعيـ * ـش فكلٌّ على الجديدين فانى
عللانى بشَربة تُذهب الهـ * ـمّ وتنفى طوارقَ الأحزان
والقيِا فى مَسَامعِ سدّها الصو * مُ رُقَى المَوْصلىّ أو دَحْمان
قد أتانا شوّالُ فاقتبل العيـ * ـشُ وأعدى قَسْرًا على رمضان
نِعْمَ عونُ الفتى على نُوَب الدهـ * ـرِ سماعُ القيانِ والعيدان
وكؤوسٌ تجرى بماء كروم * ومطىُّ الكؤوس أيدى القيان
من عُقارٍ تُميت كلَّ احتشامٍ * وتَسُرّ النُّدمانَ بالندمان
وكأنّ المزاج يقدح منها * شررًا فى سبائك العِقيان
فاشربِ الراحَ واعصِ مَنْ لامَ فيها * إنها نِعْم عُدّة الفتيان
واصحَبِ الدهرَ بارتحالٍ وحِلٍّ * لا تخَفْ ما يجرّه الحادثان
حَسْبُ مستظهرٍ على الدهر ركنًا * بجُنَيد رِدْءًا من الحدثان
ملك يقتنى المكارمَ كنزًا * وتراه من أكرم الفتيان
خُلقتْ راحتاه للجود والبأ * س وأمواله لشكر اللّسان
مَلّكته على العباد مَعَدٌّ * وأقرّت له بنو قحْطان
أريحىٌّ الندَا جميلُ المُحَيّا * يَدُه والسماحُ معتقدان
وجهه مُشْرِقٌ الى مُعتفيه * ويداه بالغيث تنفجران
جعل الدهرَ بين يوميه قسميـ * ـن بعُرْفٍ جَزْلٍ وحرّ طِعان
فاذا سار بالخميس لحربٍ * كَلّ عن نَصّ جَرْيه الخافقان
واذا ما هززتَه لنوالٍ * ضاق عن رحب صدره الأُفُقان
غيثُ جدبٍ إذا أقامَ ربيعٌ * يتغشّى بالسَّيْبِ كلَّ مكان
يا أبا غانمٍ بَقيتَ على الدهـ * ـرِ وخُلّدت ما جَرَى العصران

ما نُبَـالِى إذا عَدَتْك المنـايا * مَنْ أصابتْ بِثُكْلِ وجرَان
قـد جعلنـا اليك بعثَ المطـايا * هَرَبًا من زماننـا الخوّان
وحملنـا الحـاجاتِ فوق عِتـاقٍ * ضامنـاتٍ حوائجَ الركبان
ليس جودٌ وراء جـودك يُنتـا * بُ ولا يَعْتَــفِى لغــيرك عانى

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال: تلك كانت للصوم نخفّفت وخفّفنا، وهذه للفطر فقد زدتنـا وزدناك .

ولمـا مات حُمَيْـد الطوسىّ رثاه بقصيدته العينية المشهورة التى تُعَدّ من نادر الشـعر وبديعه، وهى :

أللدهرِ تبكى أم على الدهر تجـزَعُ * وما صـاحبُ الأيامِ إلا مُفَجَّـعُ
ولو سَهُلت عنك الأسَى كان فى الأسَى * عزاءُ معـزّ للبيب ومَقْنَــعُ
تَعَــزّ بمـا عَزَّيتَ غيرَك إنهـا * سِهـامُ المنـايا حائمـاتٌ ووُقَّـعُ
أُصِبْنـا بيومٍ فى حُمَيْـدٍ لَـوَ آنّه * أصاب عروشَ الدهرِ ظلّتْ تَضَعضعُ
وأدّبنَـا ما أدّب النـاسَ قبلَنـا * ولكنه لم يبق للصــبر موضـعُ
ألم تر للأيام كيف تصرّمت * به، وبه كانت تُذادُ وتُدْفَــعُ
وكيف التقى مثوًى من الأرض ضيِّقٌ * على جبــلٍ كانت به الأرضُ تُمنَـعُ
ولمـا انقضتْ أيامُه انقضت العُـلا * وأضحى به أنفُ النـدَى وهو أجدعُ
وراحَ عدوّ الدِّين جذلانَ يَنتحِى * أمانىّ كانت فى حَشـاه تقطّـعُ
وكان حُميـدٌ مَعْقِـلًا ركعتْ به * قواعدُ ما كانت على الضــيم تركعُ
وكنت أراه كالرزايا رُزِئتُهـا * ولم أدر أن الخلقَ تبكيه أجمـعُ
حِمَـامٌ رَمَاه من مواضع أمْنـه * حِمَامٌ، كذاك الخطب بالخطب يُقْدَعُ
وليس بغَرْوٍ أن تُصيب منيّــةٌ * حِمَى أختهـا أو أن يَذِلّ المُمَنَّـعُ
لقــد أدركتْ فينا المنايا بثأرها * وحلّتْ بخطبٍ وهيُـه ليس يُرقَعُ

نَعَاءِ حُمَيْــدًا للسرايا إذا غــدتْ * تذاد بأطــراف الرماح وتُــوزَعُ
ولُمْرْهَق المكروبِ ضاقتْ بأمره * فلم يدر فى حوماتها كيف يصــنعُ
وللبيض خلّتها البعــولُ ولم يدع * لها غيرَه داعى الصباح المفــزّعُ
كأنّ حميدا لم يقُــدْ جيش عسكرٍ * إلى عسكر أشياعُــه لا تروّعُ
ولم يَبْعثِ الخيــلَ المغيرةَ بالضحى * مِراحًا ولم يرجــعْ بها وهى ظُلَّعُ
رواجعَ يحملن النِّهابَ ولم تكن * كتائبُه إلا عــلى النّهب ترجــعُ
هوى جبــلُ الدنيا المنيعُ وغيثُها ال * ـمَريعُ وحاميها الكمىُّ المشيّعُ
وسيفُ أمير المؤمنين ورمُحُــه * ومفتاحُ باب الخطب والخطبُ أفظعُ
فأقنعــه من مُلْكه ورباعــه * ونائله قَفْــرٌ من الأرض بَلْقَــعُ
على أى شجوٍ تشتكى النفسُ بعــده * إلى شجــوه أو يذخَرُ الدمعَ مَدْمَــعُ
ألم تر أن الشمس حَالَ ضــياؤها * عليــه وأضحى لونُها وهو أسفَعُ
وأوحشتِ الدنيا وأوْدَى بهاؤها * وأجدبَ مَرْعاها الذى كان يُمْــرِعُ
وقــد كانت الدنيا به مطمئّنــةً * فقــد جعلت أوتادُها تتقلّــعُ
بكى فقــدَه روحُ الحياة كما بكى * نَدَاه النــدَى وابنُ السبيل المُــدَفَّعُ
وفارقتِ البيضُ الخــدورَ وأُبْرِزتْ * عواطلَ حَسْرَى بعــده لا تَقَنَّــعُ
وأيقظ أجفانًا وكان لها الكرى * ونامت عيونٌ لم تكن قبــل تَهْجَعُ
ولكنه مقــدارُ يومٍ ثَــوَى به * لكل امرئ منــه نِهالٌ ومَشْرَعُ
وقــد رَأَبَ الله المــلا بمحمــد * وبالأصــل يَنْمى فرعُه المتفــرّعُ
أغرّ ، عــلى أسيافه ورماحــه * تُقَسّم أنفالُ الخميس وتُجمَــعُ
حَوَى عن أبيــه بَذْلَ راحته النّدَى * وطعنَ الكُلَى والزاعبيّــةُ شُرَّعُ

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٢٠٠٠)

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

[الطبعة الثالثة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م



المجلد الثالث من عصر المأمون

ملحق الكتاب الثالث ــ عصر الأمين والمأمون

صفحة

رسائل الجاحظ :

باب الرسائل :



الكتاب الثالث

باب المنثور

(ا) نصوص كتب الأمين والمأمون

١ — نص كتاب الأمين الى المأمون، وهو الكتاب الذى أشرنا اليه فى الجزء الأول.

إذا ورد عليك كتابُ أخيك — أعاذه الله من فقدك — عند حلول ما لا مردّ له ولا مَدْفع، مما قد أخلف وتناسخ الأمم الخالية، والقرون الماضية، بما عزّاك اللهُ به. واعلم أن الله جلّ ثناؤُه، قد اختار لأمير المؤمنين أفضلَ الدارين، وأَجْزَلَ الحظين، فقبَضه الله طاهرا زاكيا، قد شكَر سعيَه، وغفر ذنبه، إن شاء الله. فقُمْ فى أمرك قيامَ ذى الحزم والعزم، والناظرِ لأخيه ونفسه، وسلطانه وعامة المسلمين. وإيّاك أن يَغلِب عليك الجزعُ، فإنه يُحْبِط الأجر، ويُعْقِب الوزر، وصلوات الله على أمير المؤمنين حيًّا وميّتًا، وَإِنّا لله وإنّا إليه راجعون. وخُذِ البيعة على مَنْ قِبلَك، من قُوّادك وجُنْدك، وخاصّتك وعامّتك، لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشَّريطة التى جعلها لك أميرُ المؤمنين: من نسخها له وإثباتها، فإنك مُقلَّد من ذاك، ما قلّدك اللهُ وخليفتُه.

وأَعْلِمْ مَنْ قِبَلك رأيى فى صلاحهم، وسدّ خَلّتهم، والتوسعة عليهم؛ فمن أنكرتَه عند بيعته، أو اتّهمتَه على طاعته، فابعثْ الىّ برأسه مع خبره. وإياك وإقالتَه، فإنّ النارَ أولى

به . وٱكْتُبْ الى عُمّال ثُغورك، وأُمَراءِ أجنادك، بما طَرَقك من المصيبة بأمير المؤمنين؛ وأعْلِمْهم أنّ الله لم يرضَ الدنيـا له ثوابا، حتى قبضه الى رُوحه وراحته وجنّته، مَغْبوطا محمودا، قائدا لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله . ومُرْهم أنْ يأخذوا البيعةَ على أجنادهم، وخواصّهم وعوامّهم، على مثـل ما أمرتك به، مِنْ أخذها على مَنْ قِبَلك؛ وأوعِز إليهم فى ضبط ثُغُورهم، والقوّة على عدوّهم، إنّى متفقّدٌ حالاتِهم، ولامٌّ شَعَثَهم، ومُوَسِّع عليهم، ولا آنٍ فى تقوية أجنادى وأنصارى . ولتكنْ كُتبُك اليهم كُتبًا عامةً لتُقْرأ عليهم، فإنّ ذلك ما يسكِّنهم، ويبسُط أملَهم . وٱعمل بما تَأمُرُ به لمَنْ حضرك، أو نأى عنك من أجنادك على حسب ما ترى وتُشاهد . فإن أخاك يعـرف حسْن ٱختيارك، وصحّة رأيك، وبُعـد نظرك، وهو يستحفظ الله لك، ويسأله أن يَشُدَّ بك عضده، ويجمع بك أمرَه، إنّه لطيف لمـا يشاء . وكتب بكر بن المُعْتَمِر بين يدىّ وإملائى فى شوّال سنة ١٩٢ ﻫ

٢ — وهذا كتاب محمد الأمين الى أخيه صالح .

بسم الله الرحمن الرحيم

اذا ورد عليك كتابى هـذا، عند وقوع ما قد سبَق فى علم الله، ونفَذ مِن قضائه، فى خُلفائه وأوليائه، وجرَت به سنته فى الأنبياء والمرسلين، والملائكةِ المقربين، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. فٱحْمدوا الله على ماصار اليه أمير المؤمنين، من عظيم ثوابه ومُرافقة أنبيائه، صلوات الله عليهم، إنّا إليه راجعون؛ وإيّاه نسأل أنْ يُحسِن الخلافة على أمّة نبيـه محمد صلّى الله عليـه وسلّم . وقد كان لهم عِصْمَةً وكهفا، وبهم رءوفا رحـــيما .

فشـمرّ فى أمرك، وإيّاك أنْ تُلْقِى بيديك، فإن أخاك قد ٱختارك لمـا ٱستنهضك له، وهو مُتفقّد مواقع فقدانك، فحقق ظنـه، ونسأل اللهَ التوفيق . وخذ البيعة على مَنْ قِبَلَك، من ولد أمير المؤمنين، وأهْل بيته ومواليه وخاصـته وعامته لمحمد أمير المؤمنين، ثم لعبـد الله ابن أمير المؤمنين، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشَّريطة التى جعلهـا

أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسخها على القاسم أو إثباتها . فإنّ السعادة واليُمْن فى الأخذ بعهده والمُضِىّ على مناهجه .

وأعلم مَنْ قِبَلَك من الخاصة والعامّة رأيى فى آستصلاحهم، وردّ مَظالِمهم، وتَفَقُّد حالاتهم، وأداء أرزاقهم، وأعْطِياتهم عليهم . فإن شغَب شاغب، أو نَعر ناعر، فاسْطُ به سَطْوةً تجعله نَكَالا لما بين يدَيْها وما خَلْفَها ومَوْعظةً للتقين . وآضْمم إلى الميمون ابن الميمون الفَضْلِ بن الربيع ولدَ أمير المؤمنين وخدَمه وأهله؛ ومُرْه بالمسير معهم فيمن معه، وجنده ورابطته؛ وصَيّر الى عبد الله بن مالك أمرَ العسكر وأحداثه، فإنّه ثِقةٌ على ما يلى، مقبولٌ عند العامّة؛ وآضْمم إليه جميع جند الشُّرَط، من الروابط وغيرهم، الى مَنْ معه من جنده؛ ومُرْه بالجدّ والتيقّظ، وتقديم الحزْم فى أمره كلّه، ليلَه ونهارَه . فإنّ أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يَغْتنِمون مثلَ حلول هذه المصيبة؛ وأقِرّ حاتم بن هرثمة على ما هو عليه، ومره بحراسة ما يحفظ به قصور امير المؤمنين، فإنّه ممن لا يُعْرَف إلّا بالطاعة، ولا يَدين إلا بها، بمعاقَد من الله، مما قدّم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء؛ ومُر الخدم بإحضار روابطهم، مَنْ يُسَدُّ بهم وبأجنادهم مواضعُ الخلل من عسكرك، فإنّهم حدٌّ من حدودك؛ وصيّر مُقَدِّمَتك الى أسَد بن يزيد بن مَزْيد، وساقَتك الى يحيى بن مُعاذ، فيمن معه من الجنود، ومرهما بمناوبتك فى كل ليلة .

وآلزم الطَريقَ الأعظم، ولا تَعْدُوَنَّ المراحل، فإنّ ذلك أرفق بك؛ ومر أسد بن يزيد، أن يَتخيّر رجلا من أهل بيته أو قوّاده، فيَصيرَ الى مقدّمته، ثم يصيرَ أمامَه، لتهيئة المنازل، أو بعض الطريق؛ فإن لم يَحْضُرْك فى عسكرك بعضُ مَنْ سميتُ، فاختَرْ لمواضعهم مَنْ تثِق بطاعته، ونصيحته وهيبته، عند العوامّ؛ فإنّ ذلك لن يُعْوِزَك، من قوادك وأنصارك، إن شاء الله .

وإيّاك أن تُنْفِذَ رأيا، أو تُبْرِم أمرا، إلّا برأى شيخك، وبقية آبائك، الفضل بن الربيع، وأقرِر جميع الخدم على ما فى ايديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك؛

ولا تُخرِجَنّ أحدا منهم، مِن ضمن ما يلي، الى أن تقدم عليّ . وقد أوصيت بكر بن المُعتمِر بما سَيُبلّغكه، واعمَلْ فى ذلك بقدر ما تشاهد وترى . وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو رزق فليكن الفضل بن الربيع المتولى لإعطائهم، على دواوينَ يتّخذها لنفسه، بمَحْضَر مِن أصحاب الدواوين ؛ فإنّ الفضل بن الربيع لم يزَل مثلَ ذلك لمهمات الأمور . وأنفذْ إلىّ عند وصول كتابى هذا إليك إسماعيلَ بن صَبيح ، وبكرَ بن المُعتمِر، على مَرْكَبَيْهما من البريد؛ ولا يكون لك عُرْجَة ولا مُهْلة، بموضعك الذى أنت فيه، حتى تُوَجّه الىّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله . أخوك يَسْتدفع الله عنك، ويسألُه لك حسن التأييد برحمته . وكتب بكر بن المُعتمِر بين يدىّ وإملائى فى شوّال سنة ١٩٢ هـ .

(ب) القول بخلق القرآن

وهاك مثلًا مما كتبه المأمون إلى وُلاته فى الأخذ بمذهبه فى القول بخلق القرآن، وهو ما أرسله إلى عامله إسحاق بن إبراهيم وما يَرويه لنا الطبرى مما حصل .

أما الكتاب فهو :

أما بعد، فإنّ حقّ الله على أئمة المسلمين وخُلفائهم الاجتهادُ فى إقامة دين الله الذى ٱستحفظهم، ومواريث النبوة التى أورثهم، وأَثَرِ العلم الذى استودَعَهم، والعمل بالحق فى رعيتهم، والتشمير لطاعة الله فيهم؛ والله يسأل أميرُ المؤمنين، أنْ يوفّقه لعزيمة الرُّشد وصريمته، والإقساط فيما ولّاه الله من رعيّته، برحمته ومنّته؛ وقد عرَف أمير المؤمنين أنّ الجُمْهور الأعظم، والسوادَ الأكبر، من حشو الرعيّة، وسِفْلَة العامّة، ممن لا نظر له ولا رويّة، ولا ٱستدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا ٱستضاءة بنور العلم وبرهانه، فى جميع الأقطار والآفاق، أهلُ جهالة بالله وعَمًى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونُكوبٍ عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصورٍ أن يقدُروا اللهَ حقّ قَدْره، ويعرفوه كُنْهَ معرفته، ويفرّقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكر والتذكّر؛ وذلك أنّهم ساوَوْا بين الله تبارك وتعالى، وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين، وٱتّفقوا غير متعاجمين، على أنّه قديمٌ أوّل، لم يخلقه الله، ويُحدثه ويَخْترعه، وقد قال الله عز وجل فى مُحْكَم كتابه، الذى جعله لما فى الصدور شفاءً، وللمؤمنين رحمةً وهدى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ . فكلّ ما جعله الله فقد خلقه، وقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ . وقال عز وجل : ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ . فأخبر أنه قَصصٌ لأمور أحدثه بعدها، وتلا به مُتقدِّمها، وقال : ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ . وكلّ مُحْكَم مُفصَّل، فله مُحْكِمٌ مُفصِّل، والله مُحْكم كتابه ومفصّله، فهو خالقُه ومُبْتَدِعه؛

ثم هم الذين جادلوا بالباطل، فدعوْا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنَّة، وفى كلّ فصل من كتاب الله قَصَصٌ من تلاوته، مُبطل قولَهم، ومكذِّب دعواهم، يردّ عليهم قولهم ونِحلتَهم، ثم أظهروا مع ذلك أنّهم أهل الحق والدين والجماعة، وأنّ مَنْ سواهم أهلُ الباطل والكفر والفُرقة؛ فاستطالوا بذلك على الناس، وغرُّوا به الجُهّال، حتى مال قومٌ من أهل السَّمْت الكاذب، والتخشّع لغير الله، والتقشّف لغير الدين الى مُوافقتهم عليه، ومواطأتهم على سَيِّئ آرائهم، تزيُّنًا بذلك عندهم، وتصنُّعًا للرياسة والعدَالة فيهم، فتركوا الحقّ إلى باطلهم، واتّخذوا دون الله وليجةً إلى ضلالتهم، فَقُبِلَتْ بتزكيتهم لهم شهادتُهم، ونفذت أحكام الكتّاب بهم، على دَغَل دينهم، ونَغَل أديمهم، وفساد نيّاتهم ويقينهم؛ وكان ذلك غايتهم التى اليها جَرَوْا، وإيّاها طلبوا فى متابعتهم، والكذِب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتّاب، ألّا يقولوا على الله إلّا الحقّ، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمَّهم الله، وأعمَى أبصارَهم، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة، ورءوس الضلالة، المَنْقوصون من التوحيد حظا، والمَخْسوسون من الإيمان نصيبًا، وأوعية الجَهالة وأعلام الكذب، ولسان إبليسَ الناطق فى أوليائه، والهائل على أعدائه، من أهل دين الله، وأحقّ مَن يُتَّهَمُ فى صدقه، وتُطْرح شهادتُه، ولا يوثَقُ بقوله ولا عمله، فإنّه لا عمَل إلّا بعد يقين، ولا يقينَ إلّا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص التوحيد؛ ومَنْ عمِى عن رشده وحظّه، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده، كان عمّا سوى ذلك من عمله، والقَصْد فى شهادته، أعمَى وأضلّ سبيلا؛ ولعَمْر أمير المؤمنين أنّ أحجَى الناس بالكذب فى قوله، وتخرّص الباطل فى شهادته مَنْ كذَب على الله ووحيه، ولم يَعرِف الله حقيقةَ معرفته، وأنّ أولاهم بردّ شهادته، فى حكم الله ودينه مَن ردّ شهادة الله على كتابه، وبَهتَ حق الله بباطله، فاجمَعْ مَن بحضرتك من القضاة، واقرا عليهم كتابَ أمير المؤمنين هذا إليك، فابْدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون، فى خلق الله القرآن وإحداثه، وأعْلِمْهم أنّ أمير المؤمنين غيرُ مستعين فى عمله، ولا واثِق

فيما قلّده الله، وآستحفظه من أمور رَعيّتــه بمَن لا يوثق بدينه، وخُلوص توحيده ويقينه، فإذا أقرّوا بذلك، ووافقوا أميرَ المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمُرْهم بنصّ مَن يَحضُرهم من الشهود على الناس، ومَسْألتهم عن عِلْمهم فى القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يُقِرّ أنّه مخلوق مُحْدَث ولم يره، والآمتناع من توقيعها عنده؛ وآكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك، عن قُضاة أهل عَملك فى مسألتهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أَشرِف عليهــم، وتفقّدْ آثارهم، حتّى لا تُنْفَــذَ أحكامُ الله، إلّا بشهادة أهل البصائر فى الدين، والإخلاص للتوحيد؛ وآكتب إلى أمير المؤمنين بمــا يكون فى ذلك إن شاء الله . وكتب فى شهر ربيع الأوّل سنة ٢١٨ هـ .

وكتب المأمون، الى إسحاق بن ابراهيم، فى إشخاص سبعة نفَر، منهم : محمد بن سعد كاتب الواقدى، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون، ويحيى بن مُعين، وزُهــير بن حَرْب أبو خَيْثَمَةَ، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبى مسعود، وأحمـد بن الدَّوْرَقِىّ، فأُشخِصوا اليــه، فامتحنهم، وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعا أنّ القرآن مخـلوق، فأَشْخَصهم إلى مدينــة السلام، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم دارَه، فشهّر أمرهم وقولَهم بحضرة الفقهاء، والمشايخ من أهل الحديث، فأقرّوا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلّى سبيلهم، وكان ما فعَلَ إسحاق بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن ابراهيم :

أما بعد، فإن من حق الله على خُلفائه فى أرضه، وأُمنائه على عباده، الذين آرتضاهم لإقامة دينه، وحمّلهم رِعاية خلقه، وإمضاءَ حُكْمه وسُنَنه، والآئتمــامَ بعدله فى بريّته، أن يَجْهَدوا لله أنفسَهم، ويَنْصَحوا له فيما آستحفظَهم وقلدهم، ويَدُلّوا عليــه — تبارك آسمُهُ وتعالى — بفضــل العلم الذى أودعهم، والمعرفةِ التى جعلها فيهــم، ويَهْدوا إليه مَن زاغ عنــه، ويردوا مَن أدبَر عن أمره، ويَنْهجوا لرعاياهم سَمْت نجاتهم، ويَقفوهم على حدود إيمــانهم، وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويَكْشفوا لهم عن مُغَطّيات أمورهم، ومشتبِهاتها

عليهم، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعودُ بالضياء والبينة على كافتهم ؛ وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذ كان جامعا لفنون مصانعهم ، ومنتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويتذكروا أن الله مُرْصدٌ من مساءلتهم عمّا حُمّلوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه ، وقدّموا عنده ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين ، إلا بالله وحده ، وحسبه الله وكفى به . ومما بيّنه أمير المؤمنين بَرويّته ، وطالعه بفكره ، فتبيّن عظيمَ خطره ، وجليلَ مايرجع فى الدين من وَكفه وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله إماما لهم ، وأثرًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم باقيا لهم ، وآشتباهه على كثير منهم ، حتّى حسُن عندهم ، وتزيّن فى عقولهم ، ألّا يكون مخلوقا ، فتعرّضوا بذلك لدفع خلق الله ، الذى بان به عن خلقه ، وتفرد بجلالته من آبتداع الأشياء كلّها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدّم عليها بأوليته ، التى لا يُبْلَغ أُولاها ، ولا يدرك مداها ، وكان كلّ شىء دونَه ، خلقا من خلقه ، وحدَثا هو المُحْدِث له ، وإن كان القرآن ناطقا به ، ودالا عليه ، وقاطعا للآختلاف فيه ، وضاهَوْا به قول النصارى ، فى آدّعائهم فى عيسى بن مريم أنّه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمةَ الله ، والله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ . وتأويل ذلك : إنا خلقناه ، كما قال جل جلاله : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ . وقال : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ . ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ . فسوى عز وجل ، بين القرآن ، وبين هذه الخلائق ، التى ذكرها فى شِيَة الصنعة ، وأخبر أنّه جاعلُه وحده ، فقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ . فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يُحاط إلّا بمخلوق ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ . وقال : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ . وقال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ . وأخبر عن قوم ذمّهم بكذبهم ، أنهم قالوا : ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ . ثم أكذبهم على لسان رسوله ، فقال لرسوله : ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ . فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذكرًا ، وإيمانًا ونورا وهدًى ومباركا وعربيًّا

وقصصا، فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقرآنَ﴾. وقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾. وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾. وقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾. فجعل له أوّلا وآخرا، ودلّ عليه، أنه محدودٌ مخلوق، وقد عظّم هؤلاء الجهلةُ بقولهم فى القرآن، الثّلم فى دينهم، والحَرَجَ فى أمانتهم، وسهّلوا السبيل لعدو الإسلام، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرّفوا، ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التى هى لله وحده وشبّهوه به، والإشباه أولى بخلقه، وليس يرى أميرُ المؤمنين، لمن قال بهذه المقالة حظًّا فى الدين، ولا نصيبًا من الإيمان واليقين، ولا يرى أنْ يُحِلّ أحدا منهم محلّ الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة، ولا صِدْقٍ فى قول ولا حكاية، ولا تولية لشىء من أمر الرعية، وإن ظهرَ قصد بعضهم، وعُرِف بالسداد مُسدّدٌ فيهم، فإنّ الفروع مردودة الى أصولها، ومحمولةٌ فى الحمد والذم عليها، ومَن كان جاهلا بأمر دينه، الذى أمره الله به، من وحدانيته، فهو بما سواه أعظم جَهلا، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا.

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضى كتابَ أمير المؤمنين، بما كتب به إليك، وانصصهما عن علمهما فى القرآن، وأعلمْهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شىءٍ من أمور المسلمين، إلّا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنّه لا توحيد لمن لم يُقِرّ بأن القرآن مخلوق، فإنْ قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك فتقدّم اليهما فى امتحان مَن يحضُر مجالسهما، بالشهادات على الحقوق، ونصّهم عن قولهم فى القرآن، فمَن لم يقل منهم إنّه مخلوق، أبطلا شهادته، ولم يقطعا حكما بقوله، وان ثبت عفافُه بالقصد والسداد فى أمره، وافعل ذلك بمن فى سائر عملك من القضاة، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة فى بصيرته، ويمنع المرتاب من إغفال دينه، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله.

ثم لننظر ما حصل بعد ذلك مما يرويه لنا الطبرىّ قال :

فأحضر إسحاقُ بن إبراهيم لذلك جماعةً من الفقهاء والحُكّام والمحـدّثين ، وأحضر أبا حسّان الزِّيادىّ ، وبشر بن الوليد الكِندىّ ، وعلى بن أبى مُقاتل ، والفضل بن غانم ، والذّيّال بن الهَيْثَم ، وسَجّادة ، والقَوَارِيرىّ ، وأحمد بن حنبل ، وقُتَيْبة ، وسَعْدويه الواسطىّ ، وعلىّ بن الجَعْـد ، وإسحاق بن أبى إسرائيل ، وآبن الهَرْش ، وآبن علَيّـةَ الأكبر ، ويحيى ابن عبد الرحمن العُمَرىّ ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطّاب ، كان قاضى الرقّة وأبا نصر التمّار وأبا مَعْمَر القَطِيعىّ ، ومحمّـد بن حاتم بن ميمون ، ومحمـد بن نوح المَضْروب ، وابن الفَرُّخان ، وجمـاعة منهم النَّضْر بن شُمَيْـل ، وابن علىّ بن عاصم ، وأبو العَوّام البَزّاز ، وابن شُجاع ، وعبدالرحمن بن إسحاق ؛ فأُدخلوا جميعا على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هـذا مرّتين ، حتّى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليـد : ما تقول فى القرآن؟ فقال : قد عرّفت مقالتى لأمير المؤمنين غيرَ مرّة ، قال : فقد تجدّد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال : أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أَسألْكَ عن هذا ، أمخلوقٌ هو؟ قال : الله خالق كلّ شىء ، قال : ما القرآن شىء؟ قال : هو شىء ، قال : فمخلوق؟ قال : ليس بخالق ، قال : ليس أَسْأَلكَ عن هـذا ، أمخلوق هو ؟ قال : ما أُحسن غيرَ ما قلتُ لك ، وقد آستعهدت أميرَ المؤمنين ألّا أتكلّم فيه ، وليس عنـدى غير ما قلتُ لك ، فأخذ إسحاق بن ابراهيم رُقْعَةً كانت بين يديه ، فقرأها عليـه ، ووَقّفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا لم يكن قبله شىءٌ ، ولا بعده شىء ، ولا يشبهه شىء من خلقه ، فى معنًى من المعانى ، ولا وجهٍ من الوجوه ، قال : نعم ، وقد كنتُ أضرِب الناس على دون هـذا ؛ فقال للكاتب : آكتب ما قال .

ثم قال لعلىّ بن أبى مُقاتل : ما تقول يا علىّ ؟ قال : قد سمّعتُ كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غيرَ مرّة ، وما عندى غيرُ ما سمِـع ، فامتحنه بالرقعة ، فأقرّ بما فيها ، ثم قال : القرآن مخلوق؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هـذا ، قال : هو كلام الله وإن أمرَنا أمير المؤمنين بشىء سمعنا وأطعنا ، فقال للكاتب : أكتب مقالته .

ثم قال للذيّال نحوا من مقالته لعليّ بن أبي مُقاتل ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبي حسّان الزِّياديّ : ما عندك ؟ قال : سَلْ عمّا شئت ، فقرأ عليه الرُّقعة، ووقّفه عليها فأقرّ بما فيها . ثم قال : من لم يقل هذا القول فهو كافر، فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله والله خالقُ كلّ شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامُنا وبسببه سمعنا عامةَ العلم، وقد سمع ما لم نسمع، وعلِم ما لم نعلم، وقد قلّده الله أمرنا ، فصار يُقيم حجّنا وصلاتنا ، ونؤدّي اليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا ، قال : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسّان مقالته ، قال : إن هذه مقالةُ أمير المؤمنين ، قال : قد تكون مقالةَ أمير المؤمنين ولا يأمُر بها الناس ، ولا يدعوهم اليها ، وإن أخبرتني أنّ أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلتُ ما أمرتني به ، فإنك الثقة ، المأمون عليه ، فيما أبلغتني عنه من شيء ، فإن أبلغتني عنه بشيء صرتُ اليه ، قال : ما أمرني أن أبلّغك شيئا ، قال علي بن أبي مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا الناس عليها ؛ قال له أبو حسّان : ماعندي إلا السمعُ والطاعة ، فمرني آتمِرْ ، قال : ما أمرني أن آمرك ، وإنما أمرني أن أمتحنك .

ثم عاد الى أحمد بن حنبل ، فقال له : ما تقول في القرآن؟ قال : هو كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها ، فامتحنه بما في الرقعة ، فلما أتى الى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وأمسك عن لا يُشْبِهه شيءٌ من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ؛ فاعترض عليه ابن البكّاء الأصغر ، فقال — أصلحك الله — : إنه يقول : سميع من أذنٍ ، بصير من عيْنٍ ، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى قوله سميع بصير ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال : فما معناه ؟ قال : لا أدري هو كما وصف نفسه ؛ ثم دعا بهم رجلًا رجلًا كلّهم يقول : القرآن كلام الله ، إلّا هؤلاء النفر : قتيبةَ ، وعبيدَ الله بن محمد بن الحسن ، وابن عُلَيّة الأكبر ، وابن البكّاء ، وعبد المُنعم بن إدريس

ابن بنت وَهْب بن مُنَبّه ، والمُظَفَّر ابن مُرَجَّا ، ورجلا ضريرا ليس من أهل الفِقْه ، ولا يُعرَف بشيء منه إلّا أنّه دُسّ فى ذلك الموضع ، ورجلا من ولد عمرَ بن الخطاب قاضى الرقة ، وابنَ الأحمر ، فأما ابن البَكاء الأكبر فإنه قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ، والقرآن مُحْدَثٌ لقوله : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ قال له إسحاق : فالمجعول مخلوق؟ قال : نعم ، قال : فالقرآن مخلوق؟ قال : لا أقول مخلوق ولكنّه مجعول ، فكتب مقالتــه ، فلما فرغ من آمتحان القوم وكتب مقالاتهـم آعترض ابن البَكاء الأصغر فقال — أصلحك الله — : إن هـذين القاضيين أئمة ، فلو أمرتَهما فأعادا الكلام ! قال له إسحاق : همـا مَن يقوم بحجّة أمير المؤمنين ، قال : فلو أمرتهما أن يُسمِعانا مقالتهما لِنَحْكِي ذلك عنهما ! قال له إسحاق : إن شهدتَ عندهما بشهادة فستعلم مقالتهما إن شاء الله ؛ فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ووُجِّهت الى المأمون ، فمكث القوم تسعة أيام ثم دعا بهـم . وقد ورد كتاب المأمون ، جوابُ كتاب إسحاق بن إبراهيم فى أمرهم . وهاك هو مانجعله ختاما لكلمتنا .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك جوابُ كتابه ، كان اليك فيما ذهب اليـه مُتَصَنِّعة أهل القبلة ، وملتمسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة ، من القول فى القرآن ، وأمرِك به أمير المؤمنين ، من آمتحانهم ، وتكشيف أحوالهم ، وإحلالهم محالّهم ، تذكر إحضـارَك جعفرَ بنَ عيسى ، وعبدَ الرحمن بن إسحاق ، عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع من أَحْضَرْتَ ممن كان ينسب الى الفِقْه ، ويُعْرَف بالجلوس للحديث ، ويَنْصِب نفسَه للفُتْيا بمدينة السلام ، وقراءتَك عليهم جميعا كتابَ أمير المؤمنين ، ومسألتَك إياهم عن آعتقادهم فى القرآن ، والدلالة لهم على حظهـم ، وإطباقهـم على نفى التشبيه ، وآختلافهم فى القرآن ، وأمرَك مَن لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى ، فى السرّ والعلانيـة ، وتقدُّمَك الى السِّـنْدى ، وعباس مولى أمير المؤمنين بمـا

تقـدّمتَ به فيهم الى القاضيَيْن بمثل ما مثّل لك أميرُ المؤمنين، من آمتحان مَنْ يَحْضُرُ مجالسَهما من الشهود ، وبثّ الكتب الى القضاة فى النواحى من عملك بالقدوم عليـك، لتَحْمِلَهم وتَمْتَحِنَهم على ما حده أميرُ المؤمنين، وتثبيتك فى آخر الكتاب أسماءَ مَنْ حضر ومقالاتهم ، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت، وأميرُ المؤمنين يحمد الله كثيرا كما هو أهلُه ، ويسأله أن يصلّى على عبـده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويرغب الى الله فى التوفيق لطاعته، وحسن المَعُونة، على صالح نيّته برحمته .

وقد تدبّر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسمـاء من سألتَ عن القـرآن ، وما رجع اليك فيه كلّ آمرئ منهـم ، وما شرحتَ من مقالتهم؛ فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد فى نفى التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق ، وآدّعى من تركه الكلامَ فى ذلك وآستعهاده أميرَ المؤمنين ، فقد كذب بشرٌ فى ذلك وكفر، وقال الزور والمنكر، ولم يكن جَرَى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ، ولا فى غيره، عَهْـدٌ ولا نظر أكثر من إخبـاره أميرَ المؤمنين من آعتقاده كلمة الإخلاص والقولَ بأنّ القرآن مخلوق ، فادعُ به إليك ، وأعلمـه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وانصصه عن قوله فى القرآن، واستَتِبْه منه، فإنّ أمير المؤمنين يرى أن تَسْتَتِيب مَن قال بمقالته إذ كانت تلك المقالة الكفرَ الصُّراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصرّ على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده ، فاضرب عنقه ، وآبعث الى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله، وكذلك إبراهيم بن المهدىّ فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا، فإنّه كان يقول بقوله ، وقد بَلَغَتْ أميرَ المؤمنين عنـه بوالغُ، فإن قال إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره وآكشفه، وإلّا فاضرب عنقه، وآبعث الى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وأما علىّ بن أبى مُقاتل فقـل له : ألستَ القائلَ لأمير المؤمنين إنك تحلّل وتحرّم والمكلِّم له بمثـل ما كلّمته به، ممـا لم يذهب عنه ذكرُه، وأما الذيّال بن الهيثم، فأعلمه أنّه كان فى الطعام الذى كان يَسْرقه فى الأنبار، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين

أبى العباس ما يشغَله ، وأنّه لو كان مقتفيا آثارَ سَلَفه ، وسالكا مناهجَهم ، ومُحْتذيا سبيلَهم ، لمـا خرج إلى الشرك بعد إيمـانه ؛ وأمّا أحمد بن يزيد المعروف بأبى العَــوَّام ، وقوله إنّه لا يُحْسِن الجواب فى القرآن ، فأعلمه أنه صبيٌّ فى عقله ، لا فى سنه ، جاهل ، وأنّه إن كان لا يُحْسِن الجواب فى القرآن فسيُحْسِــنه ، اذا أخذه التأديبُ ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء اللهُ .

وأمّا أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمْه أنّ أمير المؤمنين قد عرَف فَحْوى تلك المقالة ، وسبيلَه فيها ، وآستدلَّ على جهله ، وآفته بها ؛ وأما الفضــل بن غانم ، فأعلمْه أنّه لم يَخْفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما آكتسب من الأموال فى أقلّ من سنة ، وما شَجَر بينه و بين المُطَّلب بن عبد الله فى ذلك ، فإنّه مَن كان شأنُه شأنَه ، وكانت رغبتُه فى الدينار والدرهم رغبتَه ، فليس بمُستَنْكر أنْ يبيع إيمـانَه طمعا فيهما ، و إيثارا لعاجل نفعهما ، و إنّه مع ذلك القائلُ لعلىّ بن هشام ما قال ، والمخالفُ له فيما خالفه فيه ، فما الذى حال به عن ذلك ، ونقــله الى غيره ؛ وأمّا الزِّيادىّ ، فأعلمْــه أنّه كان مُنْتَحِلا لأوّل دعىٍّ كان فى الإسلام خُولِف فيه حكمُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وكان جديرا أن يسلُك مسلكه فأنكر أبو حسّان أن يكون مولًى لزياد ، أو يكونَ مولًى لأحد من الناس ، — وذُكر انّه إنّما نُسب الى زياد لأمر من الأمور — وأمّا المعروف بأبى نصر التّمّار ، فإن أمير المؤمنينَ شبّه خساسةَ عقــله بخساسة مَتْجَره ؛ وأمّا الفضــل بن الفَرُّخان ، فأعلمْه أنّه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذَ الودائع التى أودعها إيّاه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره ، تَرَبّصا بمن استودعه ، وطمعا فى الاستكثار لمـا صار فى يده ، ولا سبيل عليه عن تقادُم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا ، وائتمانك إيّاه ، وهو معتقدٌ للشرك ، منسلخ من التوحيد .

وأمّا محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبى مَعْمَر ، فأعلمهم أنهم مشاغيل بأ كل الربا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأنّ أمير المؤمنين او لم يستحلّ محاربتَهم فى الله ومجاهدتَهم ،

إلّا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم، لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا، وصاروا للنصارى مثلا؛ وأما أحمد بن شجاع، فأعلمْه أنك صاحبُه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذى كان استحلّه من مال علىّ بن هشام، وأنه ممن الدينارُ والدرهم دينُه؛ وأما سَعْدَوَيْه الواسطىّ فقل له : قبّح الله رجلا بلغ به التصنُّع للحديث، والتزين به، والحرصُ على طلب الرياسة فيه، أنْ يتمنّى وقت المحنة فيقولَ بالتقرب بها : متى يُمتحَن فيجلس للحديث؛ وأما المعروف بسَجّادة، وإنكارُه أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث، وأهل الفقه، القولَ بأنّ القران مخلوق، فأعلمْه أنه فى شغله بإعداد النوى، وحكّه لإصلاح سجّادته، وبالودائع التى دفعها إليه على بن يحيى وغيرُه ما أذهله عن التوحيد وألهاه، ثم سلْه عما كان يوسف بن أبى يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما؛ وأما القواريرىّ ففيما تكشّف من أحواله، وقبوله الرُّشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه، وسوء طريقته، وسخافة عقله ودينه، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولّى لجعفر بن عيسى الحَسنىّ مسائله، فتقدّم إلى جعفر بن عيسى فى رفضه، وترك الثقة به، والاستنامة إليه .

وأما يحيى بن عبد الرحمن العُمَرىّ، فإن كان من ولد عمرَ بن الخطاب فجوابه معروف؛ وأما محمد بن الحسن بن على بن عاصم فإنه لوكان مقتديا بمن مضى من سلفه لم ينتحل النِّحلة التى حَكَيْتَ عنه، وإنه بعدُ صبىّ يحتاج الى تَعَلّم، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبى مُسْهِر، بعد أن نصّه أميرُ المؤمنين عن محْنته فى القرآن، فجَمْجَم عنها، وتَلَجْلَج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقرّ ذميما، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيما عليه فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله؛ ومَن لم يرجع عن شركه ممن سمّيتَ لأمير المؤمنين فى كتابك، وذكرَه أميرُ المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدى، فاحملهم أجمعين، مُوثَقين

الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهـم فى طريقهم ، حتّى يؤدّيهم الى عسكر أمير المؤمنين ، ويُسلّمهم الى من يُؤمَر بتسليمهم اليه ، لينُصّهم أميرُ المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوّة إلّا بالله ، وقد أنفـذ أمير المؤمنين كتابَه هـذا فى خريطة بُنْداريّة ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية مُعجّلا به ، تقربا الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما اعتمد ، وإدراك ما أمل ، من جزيل ثواب الله عليه ، فأنفذْ لمـا أتاك من أمر أمير المؤمنين ، وعجّل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بُنْداريّة مفردةٍ عن سائر الخرائط ، لتعرّف أميرَ المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ ﻫ .

(ج) عَهْد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور : ولما عَهِد طاهرُ بن الحسين الى عبدالله ٱبنه هذا العهدَ ، تنازعه الناسُ وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمونَ ، فدعا به وقرئ عليه ، وقال : ما أبقى أبو الطيب شيئا من الدين والدنيا ، والتدبير والرأى ، وإصلاح المُلك والرعية ، وحفظ البَيْعة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه ، وأوصى به ، وتقدّم فيه . وأمر أن يُكتبَ بذلك الى جميع العمال فى نواحى الأعمال . ولما كان هذا العهدُ من الوَثائق التاريخية التى لها قيمتُها العلميةُ والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره على ما فيه من طول رغبة منّا فى ألا يخلو كتابُنا من هذا الأثر العظيم القيمةِ والخطرِ، وهَاكَه :

« عليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخَشيته ومراقبته ومزايلة سَخَطه ، وحفظ رعيّتك ، وٱلْزَم ما ألبسك الله فى العافية بالذكر لمَعادك ، وما أنت صائر اليه ، وموقوف عليه ، ومسئول عنه ، والعمل فى ذلك كله بما يَعصمك الله ويُنجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن اليك ، وأوجب عليك الرأفةَ بمن ٱسترعاك أمرَهم من عباده ، وألزمك العدلَ عليهم ، والقيامَ بحقه وحدوده فيهم ، والذبَّ عنهم ، والدفعَ عن حريمهم وبَيْضتهم ، والحقنَ لدمائهم ، والأمنَ لسبيلهم ، وإدخالَ الراحة عليهم فى معايشهم ، ومُؤاخِذُك بما فرض عليك من ذلك ، ومُوقِفُكَ عليه ، ومُسَائِلُكَ عنه ، ومُثِيبك عليه بما قدّمت وأخّرت ، ففرِّغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويّتك ، ولا يُذهِلكَ عنه ذهل ، ولا يَشغَلُكَ عنه شغل ، فإنه رأس أمرك وملاكُ شأنك ، وأول ما يوفقك الله به لرشدك ، وليكن أوّلَ ما تُلزِم به نفسَك وتُنسبَ اليه فعالُكَ ، المواظبةُ على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس قِبَلك فى مواقيتها على سننها فى إسباغ الوضوء لها وٱفتتاح ذكر الله فيها ، وترتل فى قراءتك ، وتمكّن فى ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولْتَصْدُق فيها لربك نيّتك ، وٱحضض عليها جماعةَ مَنْ معك وتحت يدك ، وٱدأب عليها فإنها كما

قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ثم أتبع ذلك الأخذَ بسنن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ، والمثابرة على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله فى كتابه ، من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وائتمام ماجاءت به الآثار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قُمْ فيه بما يَحِق لله عليك ، ولا تَمِلْ عن العدل فيما أحببت أو كرهت ، لقريبٍ من الناس أو بعيد ، وآثِر الفقهَ وأهله ، والدين وحَمَلَتَه وكتاب الله والعاملين به ، فان أفضلَ ما تزيّنَ به المرء الفقهُ فى دين الله ، والطلب له والحثّ عليه ، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله ، فإنه الدليلُ على الخير كله ، والقائد له ، والآمر به ، والناهى عن المعاصى والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العبادُ معرفةً بالله ، عز وجل ، وإجلالا له ودَرْكا للدرجات العلى فى المعاد ، مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك ، والأَنَسَة بك والثقة بعدلك . وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلّها فليس شيء أبينَ نفعا ولا أحضرَ أمنا ولا أجمعَ فضلا من القصد ، والقصد داعيةٌ الى الرشد ، والرشدُ دليلٌ على التوفيق ، والتوفيق منقادٌ الى السعادة ، وقِوامُ الدين والسنن الهادية بالاقتصاد ، فآثره فى دنياك كلها ، ولا تُقصّر فى طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ومَعَالم الرشد ، فلا غاية للاستكثار من البر والسعى له ، اذا كان يُطلَبُ به وجهُ الله ومرضاته ، ومرافقة أوليائه ، فى دار كرامته .

واعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ، ويحصّن من الذنوب وأنك لن تحوط نفسك ومن يليك ، ولا تستصلح أمورك ، بأفضلَ منه ، فأته ، واهتدِ به تتم أمورك ، وتَزِد مقدرتك ، وتصلح خاصّتك وعامّتك ، وأحسن الظنّ بالله عز وجل ، تستقم لك رعيّتُك ، والتمس الوسيلةَ اليه فى الأمور كلها ، تَسْتدم به النعمةَ عليك ، ولا تُنْهضْ أحدا من الناس ، فيما تولّيه من عملك ، قبل تَكَشُّف أمره بالتهمة ، فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم مأثمٌ ، واجعل من شأنك ، حسنَ الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوءَ الظن بهم ، وارفضه عنهم ، يُعنْكَ ذلك على اصطناعهم ورياضتهم ، ولا يجدنّ عدوُّ الله الشيطانُ فى أمرك مغمزًا ،

فإنه انما يكتفى بالقليل من وَهْنِكَ فيدخلُ عليك من الغمّ، فى سوء الظن ، ما يُنغّص عليك لذاذةَ عيشك ، وٱعلم أنك تجد بحسن الظن ، قوةً وراحةً ، وتَكْفَى به ما أحببتَ كِفايته من أمورك ، وتدعو به الناسَ الى محبّتك ، والاستقامة فى الأمور كلها لك . ولا يمنعك حسنُ الظن بأصحابك ، والرأفة برعيّتك ، أن تستعمِلَ المسئلةَ والبحثَ عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر فيما يُقيمها ويُصلحها ، بل لتكُنِ المباشرةُ لأمور الأولياء ، والحياطةُ للرعية ، والنظر فى حوائجهم ، وحمل مؤوناتهم ، آثرَ عندك مما سوى ذلك ، فإنه أقومُ للدين ، وأحيا للسنة ، وأخلِص نيّتكَ فى جميع هذا ، وتفرّد بتقويم نفسك ، تفرّدَ من يعلم أنه مسئولٌ عما صنع ، ومجزىّ بما أحسن ، فإن الله جعل الدينَ حِرزًا وعزًّا ، ورفع من ٱتبعه وعزّزه ، فاسلُك بمن تسوسه وترعاه ، نهج الدين ، وطريقةَ الهدى ، وأقِمْ حدودَ الله فى أصحاب الجرائم على قدر مَنَازلهم ، وما ٱستحقّوه ، ولا تُعطِّل ذلك ولا تَهاون به ، ولا تؤخّر عقوبةَ أهل العقوبة ، فإن فى تفريطك فى ذلك ، لما يُفسدُ عليك حسنَ ظنك ، وٱعزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب الشُّبَه والبدعات ، يسلَمْ لك دينُك ، وتَقُمْ لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهدا فَفِ به ، وإذا وعدتَ الخيرَ فأنجزه ، وٱقبل الحسنةَ ، وٱدفع بها ، وأَغمِضْ عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، وٱشدُدْ لسانكَ عن قول الكذب والزور ، وأَبغِض أهله ، وأَقصِ أهلَ النميمة ، فإن أول فساد أمرك فى عاجل الأمور وآجلها ، تقريبُ الكذوب ، والجرأةُ على الكذب ، لأن الكذبَ رأسُ المآثم ، والزور والنميمةَ خاتمتُها ، لأن النميمةَ لا يسلمُ صاحبُها ، وقائلُها لا يسلم له صاحبٌ ولا يستقيم لمطيعها أمرٌ ، وأَحِبَّ أهلَ الصدق والصلاح ، وأَعِن الأشرافَ بالحقّ ، وواصل الضعفاءَ ، وصِلِ الرَّحِمَ ، وٱبتغ بذلك وجهَ الله ، وعزّة أمره ، وٱلتمس فيه ثوابه والدارَ الآخرة ، وٱجتنب سوءَ الأهواء والجورَ ، وٱصرِفْ عنهما رأيكَ ، وأظهِر من ذلك لرعيتك ، وأنعِمْ بالعدل سياستَهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التى تنتهى بك الى سبيل الهدى ، وٱملِكْ نفسَك عند الغضب ، وآثِرِ الوقارَ والحلمَ ، وإياك والحِدَّةَ والطيش والغرور فيما أنت بسبيله ، وإياك أن

تقول : إنى مُسَلَّطٌ أفعل ما أشاء فان ذلك سريعٌ فيك إلى نقص الرأى ، وقلّة اليقين بالله وحده لاشريك له ، وأخلِصْ لله وحده النية فيه ، واليقين به ، وآعلم أن الملكَ لله ، يعطيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ولن تجدَ تغيرَ النعمة ، وحلولَ النقمة ، الى أحدٍ أسرعَ منه ، الى حَمَلة النعمة ، من أصحاب السلطان ، والمبسوطِ لهم فى الدولة ، اذا كفروا بنعم الله وإحسانه وآستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدَّخر وتكنِزُ ، البرَّ والتقوَى ، والمعدلةَ ، وآستصلاحَ الرعية وعمارةَ بلادهم ، والتفقّدَ لأمورهم ، والحفـظَ لدمائهم ، والإغاثة للملهوفهم ، وآعلم أن الأموال اذا كثُرت وذُخرت فى الخزائن ، لا تُثمر ، وإذا كانت فى إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم ، وكفّ المؤونة عنهم ، نمت وربَت ، وصلَحت به العامّة ، وتزيّنت به الولاة ، وطاب به الزمان ، وآعتُقد فيه العز والمنفعة ، فليكن كنْزُ خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله ، ووفّر منه على أولياء أمير المؤمنين قبَلك حقوقَهم ، وأوفِ رعيّتك من ذلك حِصَصهم ، وتعهّد بما يصلِح أمورَهم ومعايشهم ، فإنك اذا فعلتَ ذلك قرّت النعمة عليك ، وآستوجبتَ المزيد من الله ، وكنت بذلك على جِباية خَراجك ، وجَمْعِ أموال رعيّتك وعملك أقـدر ، وكان الجميع لـما شملهم من عدلك وإحسانك أسلَس لطاعتك ، وأطيب نفسا بكل ما أردتَ ، فاجهَد نفسَك ، فيما حدّدتُ لك فى هـذا الباب ، وَلْتَعظُمْ حِسْبتُك فيه ، فإنما يبقى من المـال ، ما أُنفق فى سبيل حقه ، وآعرِف للشاكرين شكرَهم ، وأثبهم عليه ، وإياك أن تُنسيك الدنيا وغرورُها هَوْلَ الآخرة ، فتتهاوَن بمـا يحق عليك ، فان التهاون يوجب التفريط والتفريطَ يورِث البوارَ ، وليكن عملُك لله ، وفيه تبارك وتعالى ، وآرْجُ الثواب ، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته فى الدنيا ، وأظهر لديك فضلَه ، فاعتصِم بالشكر ، وعليه فاعتمد ، يَزِدك الله خيرا وإحسانا . فان الله يثيب بقَدْر شكر الشاكرين وسِيرة المحسنين ، وقضاء الحقّ فيما حمل من النِّعم ، وآلبَس من العافية والكرامة ، ولا تحتقرن ذنبًا ، ولا تمـالئن حاسدا ، ولا ترحمن فاجرا ، ولا تصِلَنّ كفورا ، ولا تداهنن عدوا ، ولا تصدّقنّ نمّـاما ، ولا تأمَنَنّ غدّارا ، ولا توالِيَنّ فاسقا ، ولا تتبعنّ غاويًا ، ولا تحمدنّ

مُرائيا ، ولا تحقرن إنسانا ، ولا تردّن سائلا فقيرا ، ولا تجيبن باطلا ، ولا تلاحظن مضحكا ، ولا تُخلفن وعدا ، ولا تذهبن فخرا ، ولا تظهرن غَضَبا ، ولا تأتين بذَخًا ، ولا تمشين مَرَحا ، ولا تركبن سفهًا ، ولا تُفرطن فى طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عِيانا ، ولا تُغْمِضن عن الظالم رهبة منه ، أو مخافةً ، ولا تطلبن ثواب الآخرة فى الدنيا ، وأكْثِر مشاورة الفقهاء ، وٱستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تُدْخِلنّ فى مشورتك أهل الدّقة والبخل ، ولا تسمعن لهم قولا ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شىء أسرع فسادا لما استقبلتَ فى أمر رعيّتك من الشُّحّ ، وٱعلم أنك اذا كنت حريصا ، كنت كثير الأخْذ ، قليلَ العطيّة ، واذا كنت كذلك لم يَستَقِم لك أمرك إلا قليلا ، فان رعيّتك انما تعتقد على محبّتك بالكَفّ عن أموالهم ، وترك الجور عليهم ، ويدوم صفاءُ أوليائك لك ، بالإفضال عليهم ، وحسن العطيّة لهم ، فاجتنب الشحّ ، وٱعلم أنه أوّل ما عَصى به الانسانُ ربّه ، وان العاصى بمنزلة خِزْى ، وهو قول الله عز وجل ، ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فسهّل طريقَ الجود بالحق ، وٱجعل للسلمين كلهم من نيّتك حظا ونصيبا ، وأَيْقِنْ أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فأعدده لنفسك خُلُقا ، وٱرْضَ به عملا ومذهبا ، وتفقّد أمور الجند فى دواوينهم ، ومكاتبهم ، وأدرِر عليهم أرزاقهم ، ووسّع عليهم فى معايشهم ، ليُذهِب بذلك اللهُ فاقتهم ، ويقوّم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم فى طاعتك وأمرك ، خُلُوصا وانشراحا ، وحَسْبُ ذى سلطان من السعادة ، أن يكون على جنده ورعيّته ، رحمة فى عدله وحيطته وإنصافه وعنايته ، وشفقته وبِرّه وتَوْسِعَته ، فزايل مكروه إحدى البَلِيّتين ، باستشعار تكملة الباب الآخر ولزوم العمل به تَلْق ان شاء الله نجاحا وصلاحا وفلاحا .

وٱعلم ان القضاء من الله ، بالمكان الذى ليس مثله شىء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى تعتدل عليه الأحوال فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلُحُ الرعيّة ، وتُؤمَن السبُل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسُن المعيشة ، ويُؤدَّى حقّ

الطاعة، ويرزق اللهُ العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجرى السنن والشرائع، وعلى مجاريها يُنْتَجز الحقّ والعـدل فى القضاء . وآشـتدّ فى أمر الله ونورّع عن النَّطَف وآمض لإقامة الحـدود، وأقْلِل العجلة، وآبعـد من الضجر والقلق، وآقنَع بالقِسم، ولْتَسكُن رِيحُك، ويَقرّ جَدّك،وانتفع بتجربتك، وانتبه فى صمتك، واسْدد فى منطقك،وأنصف الخصم، وقِف عنـد الشبهة، وأبلغ فى الحجّة، ولا يأخذك فى أحد من رعيّتـك مُحاباة ولا مُجاملة، ولا لوم لائم، وتثبّت وتأنّ، وراقِب وآنظر، وتدبّر وتفكّر، وآعتبر وتواضَع لربك، وارْأف بجميع الرعيّة، وسلّط الحقّ على نفسك، ولا تسرِعنّ الى سفك دم، فان الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكًا لها بغير حقها، وآنظر هـذا الخَراج الذى آستقامت عليه الرعيّة، وجعله الله للإسلام عزًا ورِفعة، ولأهله سَـعَة وَمَنَعة، ولعدوّه وعدوّهم كَبْتا وغيظا، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلّا وصَـغارا، فوزّعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية، والعُموم فيـه، ولا تَدفعن منـه شيئا عن شريف لشرفه، وعن غنيّ لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصّتك، فلا تأخذن منـه، فوق الاحتمال له، ولا تكلِّفن أمرا فيه شَطَط، وآحمل الناس كلهم على مُرِّ الحق، فان ذلك أجمع لأُلْفتهم، وألْزَم لِرضى العامة، واعلم أنك جُعلت بولايتك خازنا وحافظا، وراعيا، وانما سمّى أهل عملك رعيّتك، لأنك راعيهم، وقيِّمهم، تأخذ منهم ما أعطوْك، من عفوهم ومقدرتهم، وتُنفقـه فى قِوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أَوَدهم، فاستعمل عليهـم فى كُوَر عملك، ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخـبرة بالعمل، والعـلم بالسياسة والعَفاف، ووسّع عليهم فى الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلّدت، وأُسنِد اليك، ولا يشغلنك عنه شاغل، ولا يصرفنّك عنه صارف، فإنك متى آثرته، وقمت فيه بالواجب، آستدْعَيتَ به زيادة النّعمة من ربك، وحسن الأُحدوثة فى عملك، وآستجررتَ به المحبة من رعيّتك، وأعنت على الصـلاح، فدرّت الخـيرات ببلدك، وفَشَت العمارة بناحيتـك، وظهر الخصب فى كورك، وكثُر خراجك، وتوفّرت أموالك، وقويتَ بذلك على آرتباط جنـدك، وإرضاء العامة، بإفاضـة العطاء فيهم من

نفسك ، وكنتَ محمودَ السياسة ، مَرضِيّ العــدل فى ذلك عند عدوّك ، وكنت فى أمورك كلها ، ذا عدل وقوة ، وآلة وعُدّة ، فنافس فى هذا ، ولا تقدِّم عليه شيئا ، تُحمَد مَغبّة أمرك ، ان شاء الله ، وآجعــل فى كل كورة من عملك أمينا ، يخبرك أخبار عُمالك ، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمــالهم ، حتى كأنك مع كل عامل فى عمله ، مُعَاينٌ لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر فى عواقب ما أردت مــن ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيــه حسن الدفاع ، والنُّصح والصُّنع فأمْضِه ، وإلا فتوقّف عنــه ، وراجِع أهل البصر والعــلم ، ثم خُذ فيه عُدّته ، فإنه ربمــا نظر الرجل فى أمر من أمره ، قد واتاه على ما يهوى ، فقوّاه على ذلك وأعجبــه ، وان لم ينظر فى عواقبه أهلكه ، ونُقِض عليــه أمره ، فاســتعمل الحزم فى كل ما أردت وباشِره بعــد عَوْن الله بالقوّة ، وأكثِر آستخارة ربك ، فى جميع أمورك ، وآفْرَغ من عمــل يومك ، ولا تؤخّره لغــدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغــدٍ أمورا وحوادث تُلهيــك عن عمــل يومك الذى أخّرت ، وآعلم أنــ اليوم اذا مضى ذهب بمــا فيه ، واذا أخّرت عملَه آجتمع عليك أمر يومين ، فشغَلَك ذلك حتى تُعرِض عنــه ، فاذا أمضيتَ لكل يوم عمــله ، أرَحْتَ نفســك وبدنك ، وأحكمت أمور سلطانك ، وانظُر أحرَار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم اســتيقن صَفاء طويّتهم ، وتهذيب مودّتهم لك ، ومُظَاهرتهم بالنّصح والمحافظــة على أمرك ، فاستخلِصهم ، وأحسن اليهم ، وتعاهد أهــل البيوتات ممّن قد دخلتْ عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤونتهم وأصــلح حالهم ، حتى لا يجدوا لخلّتهم مَسًّا ، وأفرد نفسك للنظر فى أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقــدر على رفع مظلمة إليــك ، والمحتقَر الذى لا علم له بطلب حقــه ، فاسأل عنه أخفى مسألة ، ووكّل بأمثاله أهلَ الصــلاح من رعيّتك ، ومُرْهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتَاماهم وأراملهم ، وآجعل لهم أرزاقا من بيت المــال آقتــداءً بأمير المؤمنين أعزه الله فى العطف عليهــم والصِّلة لهم ، ليُصلِح الله بذلك عيشهم ، ويرزقك به بركة وزيادة ، وأجْرِ للأمراء من بيت المــال ، وقدّم حَمَــلة

القرآن منهم، والحافظين لأكثره، فى الجراية على غيرهم، وآنصب لمرضى المسلمين دُورا تؤويهم، وقُوّاما يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم، ما لم يُؤدّ ذلك إلى سَرَف فى بيت المـال، وآعلم أن الناس اذا أُعْطُوا حقوقهم، وأفضلَ أمانيهم لم يُرضهم ذلك، ولم تطب أنفسهم، دون رَفْع حوائجهم إلى وُلاتهم؛ طمعا فى نيل الزيادة، وفضل الرفق منهم، وربما بَرِم المتصفِّح لأمور الناس لكثرة مايَرد عليه، ويشغَل فكره وذهنه، ومنها ما يناله به مؤونة ومشـقة، وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره فى العاجل وفضل ثواب الآجل، كالذى يستقبل ما يقرّبه الى الله، ويلتمس رحمته به، وأكْثِر الإذن للناس عليك، وأبْرِز لهم وجهك، وسكّن لهم أحراسك، وآخْفِض لهم جناحك، وأظهِر لهم بشرك، ولِنْ لهم فى المسألة والمنطق، وآعطِف عليهم بجودك وفضلك، وإذا أعطيتَ فأَعطِ بسماحة وطيب نفس، وآلتمس الصنيعة والأجر، غير مكّدر ولا منّان، فإن العطيّة على ذلك تجارة مُرْبِحة ان شاء الله، وآعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن مضى من قبلك، من أهل السلطان والرياسة، فى القرون الخالية والأمم البائدة، ثم آعتصم فى أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبّته، والعمل بشريعته وسنّته وإقامة دينـه وكتابه، وآجتنب مافارق ذلك وخالفه، ودعا الى سَخَط الله، وآعرف ما تجمع عُمّالُك مـن الأموال، ويُنفقون منهـا، ولا تجمع حَراما، ولا تُنفق إسرافا، وأكْثِر مُجَالسـة العلماء، ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك آتّباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها، وليكن أكرمُ دُخَلائك وخاصّتك عليك مـن اذا رأى عيبا فيك لم تمنعـه هَيبتُك من إنهاء ذلك اليك، فى سرّ، وإعلامك ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومُظاهريك، وآنظر عمالك الذين بحضرتك، وكتّابك فوقّت لكـل رجل منهـم فى كل يوم وقتـا يدخل عليك فيـه بكُتبه ومؤامرته وما عنـده من حوائج عمّالك وأمر كورك ورعيّتك، ثم فرِّغ لمـا يُورده عليـك من ذلك سمعَك وبصَرك، وفهمك وعقلك، وكرِّر النظر اليـه والتدبيرله، فمـا كان موافقا للحزم والحقّ فامضه وآسـتخر الله فيـه، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى التثبّت فيـه والمسألة عنه،

ولا تمُنّن على رعيّتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه اليهم، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعَوْن فى أمور أمير المؤمنين، ولا تَضَعنّ المعروف إلا على ذلك، وتفهّم كتابى اليك، وأكثر النظر فيه، والعمل به، وآستعن بالله على جميع أمورك وآستخره، فإن الله مع الصَّلاح وأهله، وليكن أعظم سيرتك، وأفضل رغبتك، ما كان لله رِضًا، ولدينه نظاما، ولأهله عزّا وتمكينا، وللذمة والملّة عدلا وصلاحا، وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك، ورشدك وكلاءك، وأن ينزل عليك فضلّه ورحمته، بتمام فضله عليك، وكرامته لك، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبا، وأوفرهم حظا، وأسناهم ذكرا وأمرا، وأن يُهلك عدوّك ومن ناوأك وبَغى عليك، ويرزقك من رعيتك العافيةَ، ويحجُز الشيطان عنك ووساوسه، حتى يستعلى أمرك بالعزّ والقوّة والتوفيق، إنه قريب مجيب .

(د) رسـالة الخميس

من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، الى المُبايعين على الحقّ، والناصرين للدّين، من أهل خُراسانَ وغيرهم من أهـل الإسلام : سلام عليكم ، فإن أمير المؤمنين يَحْمَد اليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو، و يسأله أن يُصلّى على محمد عبده ورسوله .

أما بعـد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذى العـزّ والسلطان، والنور والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمُتَقدّم بالمنّ والطَّوْل على أهلهما ، قبل آستحقاقهم لَمثُوبَته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذى جعل ما أَوْدَع عباده من نعمته، دليلا هاديا لهم الى معرفته، بما أفادهم من الألباب، التى يَفْهَمون بها فصلَ الخطاب، حتى آقتنَوْا عِلْمَ موارد الآختبار، وثقفوا مصادر الآعتبار، وحكموا على مابطَن بما ظهَر، وعلى ما غاب بما حضَر،وآستدلّوا بما أراهم من بالغ حكمته،ومُتْقَن صَنْعته، وحاجة متزايل خَلْقه ومُتواصله، إلى القوم(١) بمـا يَلُمّه و يُصْلِحُه، على أن له بارئًا أنشأه وآبتدأه، ويَسّر بعضه لبعض . فكان من أقـرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم فى تَصَرُّف أحوالهم ، وفنون آنتقالهم، وما يَظْهرون عليـه من العجز عن التأتى لمـا تكاملتْ به قُواهم، وتمّت به أدواتُهم؛ مع أثر تدبيرِ الله عن وجل وتقـديره فيهـم، حتّى صاروا إلى الخلقـة المُحْكمَة، والصورة المُعْجِبة، ليس لهم فى شيءٍ منها تَلَطّف يتَمّونه، ولا مقصِـدٌ يَعتمدونه من أنفسهم ؛ فإنه قال تعالى ذكره: ﴿يٰأَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ . ثم ما يَتفكّرون فيه من خلق السموات، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنُّجوم مسخّرات، على مسيرٍ لا يَثْبت العالَم إلّا به من تصاريف الأزمنـة التى بها صلاح الحَرث والنسل، وإحياء الأرض، ولِقاح النبات والأشجار، وتعاوُر الليل والنهار، ومر الأيام والشهور والسـنين التى تُحْصى بها الأوقات ؛ ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طَبَقات السقف المرفوع، والمِهاد الموضوع، باختـلاف أجزائه وآلتئامها، وخرق الأنهار، وإرساء

(١) القوم كالقيام مصدر قام .

الجبال . ومن البيان الشاهد ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق ، وحدوثه بعد أنْ لم يكن مترقيًا فى النماء ، وثباته إلى أجله فى البقاء ، ثم مَحاره مُنقضيا الى غاية الفَناء . ولو لم يكن له مُفتتَح عدد ولا مُنقطَع أمد ، ما ٱزداد بنشوء ، ولا تحيَّفه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان ؛ لأنّ ما لا حدّ له ولا نهاية ، غيرُ ممكن الأحتمال للنقص والزيادة . ثمّ ما يوجد عليه منفعتُه من ثبات بعضه لبعض ، وقوام كلّ شيء منه بما يَسّر له ، فى بدء ٱستمداده إلى منتهى نَفاده ، كما ٱحتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ . وقال عز وجل : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ . وكلّ ما تقدم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته فى سمواته التى بَنَى ، وأطباق الأرض التى دَحا ، وآثار صُنعه فيما برأ وذَرأ ، ثابتٌ فى فِطَر العقول ، حتى يُسَخِّر أولى الزيغ ما يُدْخِلون على أنفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من الأضداد والأنداد . جلّ عما يُشْرِكون . ولولا توحّده بالتدبير ، عن كلّ معين وظهير ، لكان الشركاءُ جُدراءَ أنْ تختلف بهم إرادتُهم فيما يَخلُقون ، ولم يكن التخلفُ فى إثباته و إزالته ليخلو من أحد وَجهَيْه ، وأيّهما كان فيه فالعجز والنقص مما أتاه و بَرَأه . جل البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علوّا كبيرا ؛ كما قال سبحانه : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ . ثمّ من عظيم نعمة الله عز وجل على خَلْقه ٱفتقادُه إياهم ، وأنه يُسدّدهم و يَدُلّهم على منافعهم ، و يُجنّبهم مَضارّهم ، ويَهديهم لِما فيه صلاحُهم ، و يُرغّبهم فى المحافظة على التمسك بدين الله عز وجل ، الذى جعله عِصْمةً لهم وحاجزًا بينهم .

ولولا ما تقدّم به من تلافيهم وٱستدراكهم بفضل رحمته ، لاجتاحهم التلَف ، لقصور معرفتهم عن التأتّى لأقواتهم ومعايشهم ، ولم يكونوا ليَقْتصروا على حظوظهم وأقسامهم عما بنَوْا عليه من الجمع والرغبة ، ولتَمَّ الكوا بيغى بعضهم على بعض ، وعدوان قويّهم على ضعيفهم ، ولكنّه بعد تعريفه إيّاهم مُلْك قدرته وجلالةَ عزّته ، بعث إليهم أنبياءه ورسله مُبشّرين ومُنذرين ،

بالآيات التى لا تنالها أيدى المخلوقين، فرضوا بما قُسط بينهم، وارتدعوا عن التباغى والتظالم، لما وُعِدوا من الثواب الجسيم وخُوِّفوا من العقاب الأليم، ولم يكونوا ليُطيعوا أمرا لآمر ولا نهيا لناه، إلا بحجة يتبين بها الحقُّ على مَن خالفه من المُبطلين، وتخويف يتّقون به مُقارفة ما حُرِّم عليهم، ورجاء يتجشّمون له مؤونة ما تُعُبِّدوا به. فافتتح الله عز وجل بأبيهم آدمَ عليه السلام، فعلّمه الأسماء كلّها، وأمر الملائكة بالسجود له — كما اقتص فى وحيه المنزل — وكرّم ولده وفضّلهم، فقال جل وعز: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. وجعل ما فطرهم عليه من العطف على ذراريهم وأبنائهم سبباً لما أراد من بقائهم وتناسلهم، وما اختصّهم به من العلم والفهم حجّةً عليهم، ليمتحن طاعتهم، ويبلوهم أيهم أحسنُ عملا. ولم تزل رسل الله عز وجل الى خلقه تترى بالنور الساطع، والبرهان القاطع، لا يجدون لما يوردون عليهم من الحق القاهر مَرَدًّا ولا مَدْفَعًا، لقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فلم يجد المكذّبون مَساغا الى دفع ما أُقيم عليهم من لازم الحجة، إلا المعاندة والمجاحدة. وكان أنبياء الله صلوات الله عليهم، يُبعثون فى أعصار الحقب، نُذُرا للامم، حتى ختمهم الله عز وجل بالنبيّ الأمىّ محمد صلى الله عليه وسلم، فبعثه فردا وحيدا لا عاضد له ولا رافد، إلى قوم يعبدون أصناما بُكْمًا، وحجارة صمًّا، فكذّب به القومُ الذين بُعث فيهم أوّل ما دعاهم، ورامه ملوكُ أقطار البلاد بتوجيه الأجناد، ومُرافدة القوة والعتاد وبغى الغوائل، ونصب الحبائل، وهو يدعو إلى سبيل ربه بما أمره به، إذ يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ثم جاهد بمن أطاعه مَن عصاه، وبمن اتبعه مَن خالفه، حتى أعزّ الله كلمته، وأظهر دعوته، وأكمل لعباده دينهم الذى ارتضى لهم. فلما اختار الله له ما لديه، واختصّه بما عنده: من النعيم المُقيم، والجزاء الكريم، بعدَ استقامة الدين

ودخول الناس فيه أفواجا، خلفه، إذ ختم به الأنبياء، بالبررة النجباء من أدانيه ولُحْمته، لإقامة الشرائع المُفْتَرضَة، وإنفاذ حكم الله المنزّل، واقتفاء السنّة المأثورة وحفظا له في قرابته ومجيبي دعوته، وإتماما لما أوجب له من الفضيلة، وقريب الوسيلة، وانجازا لما وعده من إظهار ما بعثه به، من دينه الذي اصطفاه وارتضاه. وكان اختيار أُولي الفضل من لُحْمته وعصبته لإرث خلافته، ومن عظيم الزُّلَف التي رغب الى الله فيها أنبياؤه، وبما اقتصّ في مُنْزل وحيه، واختص تبارك وتعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بما أمره به من مسألة أمته تصيير مودّته في القربى جزاءَه ممن تبعه على الرسالة، وهداه من الضلالة؛ فكانت فضيلتهم عزيمةً من الله عز وجل، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ألزمه تأديته الى خلقه وألزمهم أداءَه، فقال عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. ودل بما أخبر به وأظهره من تطهيره إياهم وإذهابه الرجس عنهم، على اصطفائه لهم؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وكان مما أوجب لهم به حقّ الوراثة في محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. ثم قرن طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وأحلّهم من النباهة والصيت بالمحلّ الذي أعلى به أمرَهم ورفع به ذكرهم، لما أحب من التبيين في الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ولو كان الائمة المُقلَّدون أمرَ عباده خاملةً أنسابُهم، متقطّعة أسبابُهم، غيرَ مخصوصين بفضيلة يَرَوْنهم بها دون غيرهم، لم تعد طَلِبَتُهم عقْدَ الخلافة لهم، وأنْ تكون من المُفْتَرضات على كافّة الأمة، أو على بعض دون بعض؛ فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوي النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم، فليس في اجتماع آرائهم مع تفرّقهم واختلافهم طمعٌ آخرَ أيّامِ الدّهر. وإن كان الى خاصةٍ دون عامةٍ، فستحْتاج العامة من طلب معرفة تلك الحال إلى مثل ما احتاجوا اليه في أئمتهم، إذ لم يكن أهل الارتياب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطئوا على اتفاق،

لنفاد آجالهم قبـلَ بلوغهم غايةَ الاجتهاد في الفحص والتكشيف ، وحاجتهم الى آختبـار البُلدان ، وتمحيص أُولي الفضائل بالامتحان ، وما هو حاق عليهم من الشبَه في آختيارهم ، والاختلاف فيمن عَسَوْا أن يجتبوه ويُقدِّموه ، حتى تتهالك الرَّعيّة بتظالمها بينها ، ويَطْرُق من يليهـا من الأمم إيّاها ؛ إذ لا ذائد عنهـا ولا مُحامىَ . فإذا ألزمت الأمّـةَ الحاجةُ إلى نَصْب الحكّام لإقامـة الدين ، وتقسيط الحقوق من المسلمين ، ومُجاهـدة عدوّهم من المشركين ، لم يكن لهم في الإمام عليهـم مَجازٌ إلى التخلص من حقّـه إليهم ، ولا ريبَ عند المعرفة برأفة الله ورحمته ، ولطفه وحكمه ، في دفعه عن عباده ما لم يجعل في حياتهم له وُسْعا ، ولا في حيلتهم له دَرْكا ، وكفايتـه إيّاهم ما يُعْجِزهم من البحث والتنقيب عن ولاة أمرهم ، بنَصْبه إيّاهم ، وما رفعهم إليه من الدرجة التي أعلاها وأسناها ، إذ وصَل نسبَهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآفترَض مودّتهم على خلقه ، ولم يَشِنهم جهلُهم للغرض الذي لزِمهم له ، ولم يَجِب عليهم فرضٌ في معرفة مَن سواهم . ولم يزل سياقُ أئمة الهـدى مُطَّردا ، ونظامُهم مُتّصـلا ، يتلقاه كابرٌ عن كابر ، ويؤدّيه أوّل الى آخر ، حتّى تنـاهى الى أمير المؤمنين ، وهو حالٌّ دار دعوته ، وبين أنصاره من أهل خُراسان ، فنظر به خيرَهم ، وعرَفوا ما تصرّفت به أحوالُهم ، وظهر لهم من بيان حُجّته على مَن نازعه في الأمر ، وشاهـدوا من إبلاغه في العذر ، وآستظهاره بالتأنّي والصبر ، ما أزاح عنهم الشبهَة وكَشَط الحيرة ، حتّى اسـتزالوا(١) نهوضَه بحقّـه ، وخافوا الزيغ على أديانهم فيما أعطَوْه من صَفقة أيمانهـم ؛ وهو ماضٍ على عادته ، مستديمٌ للوادعة ، مُتَلوِّمٌ على المراجعة ، بالغ غايةَ ما في وُسْعه من الرخصة في دفع الولاية التي نَهْنَهَ بهـا الرَّعيّة ، حتى ضاق عليه في دينه تركُ القيام بمـا أنهضه الله به من ثِقلهـا وقلّده من حَمْلها ، وخاف المخلوعُ فانبعث بالشِّرّة والغِرّة ، فتناول أولياءَ الحق باغيا طاغيا ، لمـا أراد الله من تأييدهم عليـه بالبيان والحُجّة التي يَجِبُ لها قلبُـه ، ويُفَتُّ بهـا في عضـده ، ويقبل الله ما شرّفكم به من النصر والغَلَبة فيه التي جعلها الله للمتقين . فاجتمع

(١) كذا في الأصل .

لكم معشرَ أهل خُراسان فى دولة أمير المؤمنين ثلاث خِلال اختصّكم الله بفضيلتها ، وسنىّ مراتبها ، دون ثلاث شَمِلَتْكم وغيرَكم .

أما الأولى من اللّواتى خصّكم الله بهنّ ، فما تقدّم لأسلافكم من نُصْرة أهل بيت النبىّ ، والقائمين بميراثه من آباء أمير المؤمنين .

وأما الثانية ، فما آثركم الله به من نُصْرته فى دعوته الثانية .

وأما الثالثة ، فما تقدّمتم به من صحة ضمائركم ، ومحض مُناصحتكم .

وأمّا الثلاث اللواتى هنّ لكم ولغيركم :

فمنهنّ ما أكّد الله لأمير المؤمنين فى أعناق المسلمين : من العهد الذى أخذ إصْرَه ، وألهمهمُ الوفاء به والتمسّكَ بوثائق عصمته ، عند محاولة المخلوع ما حاول من الإعلان بالردّة ، والتمس من تبديل معالم الدين وتَعْفية آثاره ، فلم يُلْفِ الرعيّة سُدًى مهَملين ، لا جامع لأمرهم ، ولا ضامٍّ لنشرهم .

ومنهنّ ما أفادكم الله وإيّاهم من العِبر ، عندَ حلول الغِيَر بمَنْ غَدَر وخَتَر ، تذكرةً لأولى النُّهى ، وحجةً بالغةً على من أدبر وتولّى ، ليهتدى متحيّرٌ ويتّعظ مُزْدَجِر ، ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومنهنّ اجتماع أهل الفضل من المسلمين : ممن لم يكن له نَصْر ولا أَزْر فى الدعوة الأولى على المشايعة فى الدعوة الثانية ، فأصبح دُعاة أمير المؤمنين من أهل الحرمين والمِصْرين ومدينة السلام والمشرق والمغرب ممن غارَ أو أنجد من المتمسّكين بذممهم المُوفين بنذورهم ، من إخوانكم ، وإن كان الله قد قدّمكم فى الأمرين جميعا بتفوّق حالكم على غيركم ، يَعْتَدّون من معاضدتكم ومكانفتكم بما جعله الله عز وجل أُلفةً لكم ومَودّة بينكم ، يبيد بها ما كان الشيطان يَنزغ به بين أهل التباعد فى الأنساب ، والتنائى فى الأوطان من إيقاع العداوة والبَغْضاء ، والانطواء على الأحقاد والدِّمن ، وطلب تقديم الإحن ، وصار أهل السموّ الى الدرجة العليا والاعتصام بالعُرْوَة الوُثق من أولياء أمير المؤمنين وشيعته ، منشرحةً صدورُهم بمكانفته ، مُنْبسطةً أيديهم بمُعاونته على حقّه ،

منفسحةً آمالهم فى إذكاء ناره على عدوّه والإثخان فى بلاده وآفتتاح ممتنع حُصونه ، بما جمعهم الله عليه من الأُلفة ، ورفع عنهم من الحميّة والعصبية ، راجين عودتَهم الى أحسن مامضى عليه سلفُهم ، فى عهد نبيّه صلى الله عليه وسلم ، من سلامة الصدور ، وصلاح ذات البين ، وآجتماع القُوَى على مجاهـدة مَن شاقّهم ؛ قد أفرد الله عنهم نُفْرة التحارب والتجاذب ، وجعل ما كان يسعى به بعضُهم من الإعداد لبعض ، زيادة فى ريحهم ، وحدّا فى شوكتهم ، لائتـلافهم فى دولة أمير المؤمنين المجدودة المؤيدة بصـدق الضمائر ، ونفـاذ البصائر . والى الله يرغبَ أميرُ المؤمنين فى إعانتـه على صـالح نيتـه ، وتبليغه منتهى سُؤْله وغايةِ همّته ، فى اعزاز دينه وإذلالِ مَن صدّ عن سبيله ؛ إنه سميع قريب .

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تَذَكّر ما كانتْ عليـه الحال قبلها ، فاستَديموا الإفاضـة فيما رفع الله من خَساستكم وأعلَى من أقداركم ، بنُصْرة أهل بيت نبيّكم صلى الله عليه وسلم ، وما أبلاكم اللهُ فى الدعوة الأولى ممّا لا يؤدّى حقَّه إلا بعون الله وتوفيقه ، فإنه ارتاح لهم بلطفه وتوفيقه ، فأنا لهم رغائب الأقسام وسَنِيَّ الحُظُوات ، ورفع درجهم . ودرج خلوفهم وأعقابهم من بعدهم ، بعدَ إذ هم مُسْتَضْعفون يخافون أن يتخطَّفهم الناس ، مُذْعنون بقهر عدوّهم واستئثاره عليهـم ، ثم لم يَلبَثوا أن صاروا الى الحال التى يَرَوْنهم بها من الغبطة والبَهْجة ، إلّا أنّهم أخذوها بحقِّها ، وكانت فى أيدى الظلمة من أهل بيت اللعْنَة وأتباعهم بحُدُه[1] الباطل ومِحْنة الابتـلاء ، ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُه وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ . وليس أحد منكم بخارج من المحنة بما أُلْبِس من النعمـة ، وإن كنتم أهلَها الآخذين لها بحقّها ، بل الذى يلزمكم آستدامتُها والقيامُ بحفظها ، على حَسَب ما أولاكم الله منها ، فربّما كان الذى يُعْقِب أهلَها من الغفلة والآغترار ويُلْهيهم بها من حبورها وسرورها ، أعظمَ إثما وحُوباً مما يخاف على أهـل البَطالة والصبر من ضـعف العزم وقلّة الصبر ، لما يَستولِى عليهم من آستكانة الذِّلة ، والآغترار بالتقصير ، والفزع الى ربهـم فى تنفيس كُرَبهم ، فإنه

---

(١) كذا فى الأصل .

تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ . فحاجتكم اذا أنجح الله سعيكم وأظفركم بطلبتكم ، الى حياطة ما أودعكم الله من مننه وحراسة ما آتاكم من فضله ، بالشكر المترى للمزيد .

فتعهّدوا معشر شيعة أمير المؤمنين أنفسكم بتذكّر ما سهّل ا . . لكم من الحزونة ، وذلّل لكم من الصعوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مُرّاق الملة ومُخالفى أهل القبلة ، وأباحكم من ديارهم وأموالهم ، فأصبحتم بمنّ الله عليكم حُماةَ الدين ، وأنصارَ الأئمة الراشدين ، وحصونَ كافّة المسلمين ، بعد ما آجتثّ الله بكم قُرونَ النّفاق ، وأباد بكم صناديدَ الضلالة ، وشرّد من لم تستحمله سيوفُكم ، وأضرع اليكم مَن أذْعن وآستسلم ، وقد آستشرفكم معشرَ شيعة أمير المؤمنين أهلُ الشنآن ، ولاحظوكم بأعين الحسد والمنافسة ، فبين ذلك مُجْهِرٌ مُعالِنٌ ، ومُسْتَسِرٌّ مداهن ، وداخلٌ فى عدادكم ، ووالجٌ فى سوادكم ، يرى أمْنَه بين ظهوركم ، فطعنُه عليكم فى دولتكم بريبة التمويه وخُدَع التشبيه ، أيسرُ عليه كُلفةً وأعظمُ فيكم جرحا ونكاية ، فتوقّوْا هذه الطبقةَ أشدّ التوقى ، فإنّ أكثر مَن يلجأ الى استباحة الحيلة ، مَن عجز عن المبْداة والإصحار ، وعند ظهور الحازم وغلبته يحترز من لطيف الخُدع وخفىّ الآستدراج .

وآحذروا معْشرَ شيعة أمير المؤمنين من آستمراء الطراءة ، والركون الى راحة الدّعة ما قد رأيتم وباله عاد على أهله ، وأورثتهم عواقبُه طول الندم والحَسْرة ، فإنّكم قد كنتم فى حال المراقبة لعدوّكم ، والخوف لبائقته مُتيقّظين مُتحفّظين لما كان يرومكم به من خَتْله وحيله ، ثمّ أفضيتم الى الجِدّ وقد جهدكم السعى ومسّكم النصَب ، وسيُلقى الشيطان فى أمانيكم أن قد اكتفيتم بسالف ما قاسيتم ، ويجد من ضَعْف العزائم مُعينا داعيا الى اغتنام الخفض ، والإخلاد الى الأرض ، ما لم تعتصموا بما عاينتم من الاعتبار ، وتمثّلوا مواضىَ الآثار فيمَنْ سلف من القرون الخالية ، وما أفضتْ به اليه العزّةُ من زوال النعم ووقوع الغِيَر ، فإنّ جميع ما خوّلكم الله وأفادكم مُرتَهَنٌ بما ألزمكم من حياطته واستنمائه ، فقد وجبتْ عليكم الحجّة بما حضّكم الله

عليه ، وعظمت عليكم المنّة بما هداكم اليه ، وأراكم من آياته ومُثُلاته فيمن خلا قبلكم مافيه أبلغُ الإعذار والإنذار لكم . ومن ٱجتمع له اقتداءُ صواب من تقدّمه الى ما يَنبعث من نفسه ، فكأنّه قد ٱختبر بالتجربة ، مع استمداده بما يَستفيد ، ويستزيد ما يفتح لُبّه ورأيَه ، وأيْقِنُوا أنّكم لن تصلوا الى مَن سواكم ، ممن هو أعسرُ طاعةً عليكم وأعذرُ بمعصيتكم ، حتّى تبدءوا باستصلاح أنفسكم ، وأنّه لن يرجى لكم القوة على مُجاهدة عدوّكم حتّى تقووْا على مجاهدة أهوائكم ، فإنّ على كل امرئ ريبةً من أمره ، وغطاء من غيبة ، لايكشفه إلّا صحّة المعرفة ، والإذعان بالنَّصفه ، فهناك يُؤمَنُ عليه الجهل والمعانده ، واذا أُمنت هاتان الخَلّتان ٱنسدت بإذن الله ثُلَم الآفات ، وفُتوق المكاره ، فإنّه لا يُخاف الضــلالُ على من ٱهتدى ، ولا ٱعتماد الجَوْر على مَن ٱنتصف من هوى .

وليكن أوّلُ ما تتعهّــدون به أنفسَكم ، وتُتنابرون عليــه من صالح أدبكم تناصُفَ الحقّ بينكم ، بتقــديم أهل الفضائل والآثار المحمودة منكم وتفخيم أمركم ؛ فقــد علمتم أنّ منكم المبرّز الفائت الذى لا يُدرك شأوُه ولا يُوازَى بلاؤُه ، حين كشف الإبلاء ضمائرَ الــقلوب وجلا مُشْتَبِهات الظنون ، فصرّح بالمحاربة بعد التقدّم فى الحُجّة ، وفاءً بمؤكَّد العهد وركوبا منــه لهائل الخطَر ، غيرَ هائب مع صحُبــة الحقّ ما بَرق لديه الناكُس المخلوع ورَعد ، ولا مُستوحِش فيما تفرّد به الى من تولى وأدبَر ، حتّى أتى الغاية التى أجرى اليها فى الله عز وجل وفى خليفته ، ثم لرؤسائكم من أهل المُشايَعة والمُكاتَفة والنُّصرة والحظ الجزيل والأثر المُبين ، ثوابُهــم واجب وحقّهم لازمٌ ، ثم منكم من يُحَفَظُ لسلفــه وأوله من الآباء الذين يحفظون ولايتهم ، فإن الله عز وجل يقول فى ذكر اليتيمَين : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَــةِ ﴾ الآية . وقال على لسان يعقوبَ لٱبنــه يوسفَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ الآية . وأمير المؤمنين يَرى توريثَ الحكمة والذمامَ سنّةً عليــه فى أخلاقه التى يرعاها ويحافظ عليهــا ، كما أنّه يرى وِراثة التركة فريضةً واجبــة ، فيخلف السلَف الصالحَ عنــده من المزّية والفضل ما يتلون به أهــل الغَناء بأنفسهم ، ثم

يتلوهم من آقتدى [بهم] وآهتدى بهديهم . والسابق المتقدّم من آعتد ببلاء نفسه الى بلاء سلفه، ثمّ يتبعه بعـد المبلي بنفسه، ثم يتلوهما المُتَوَسّل بآبائه، ثم الصاعد به هواه ورأيه، طبقـةً فطبقة ؛ فليقصر كلُّ آمرئ منكم على المرتبـة التى أحلّه بها سَعيُه ، وليَسلك الى الآزدياد فيها بالزيادة من نفســه ؛ فإن من الفُتُوق العظيمـة على أهل الدوَل ما ينزِغ به الشيطان بينهم، و يكثر عندهم ما يكون منه، فيوافق من الحَيْف للأنفس ما يجد به مساغا الى ما يروم من إيقاع الشحناء بينهم، وتثبيت الإحَن فى صدورهم، بعد التآزر والتناصر. ومتى يجمع المرءُ لمزيةِ مَن فوقه، واغتباط مَن دونه كُفِىَ ماترك. وان تخلُص نيّاتكم . وتسلم ضمائركم، حتّى تمْحَضوا شكر ما أُوليه إخوانُكم، وتعتدّوا ما نالهم شاملا لكم، وتُجانبوا طريقة من اقتصر بأمْنيّتـه على خاصّته، وتعتّب فيما أوثر به أهلُ الفضـل دونه . وكَفَى عِظةً فيما نهاكم الله عنه من ذلك ؛ يقول الله عز وجل : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية . ولا يَلتمسنّ أحد مودّته عن سوء نيـة بحسن مداراة فى ظاهر، فإن الله مقلّد كلّ امرئ رِبقـة عمله ومُطوقّه طوقَ سريرته . ولا يغدرنّ فيما يلزمه لإمامه ؛ فإنه إنمـا يغدر فى حظّه و يبخَس قِسْمه، ويَبْخس نفسه . ثم لا يقتصرنّ على استصلاحها حتّى يتناولَ مَنْ كانتْ مِنّته عليـه من أقربيه وحسويه[(١)]، فإن يسير ما هو مُعانٍ من تأديتهـم لا ينشَب أن يتجاوز أدنى المراتب الى أقاصيها، وقريبها الى مُتناهيها، حتّى يستفيض شاملا عاما، بعد أن بدا محلّلا خاصا .

واعلموا أنّ أمير المؤمنين متفقد من تثقيفكم وتقويمكم على صالح الأدب ومحمود السيرة، ما لا يتفقّد به مَن سِوَاكم ؛ فإنّه إن كان يُوجب على نفسه استصلاحَ الرعيّـة وحملَهم على ما فيه رُشدُهم وقِوامهم ، لِمـا يلزمه من فضل العنـاية بالأخصّ والأولى فالأولى ، فإنّ فى أخلائكم من التقديم فى التأديب والتعهد ، وجوها من الضرر : منهـا : أنّكم أَوْلى بحسن الطاعة وسرعة الإجابة، للطف محلّكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين .

---

(١) كذا فى الأصل .

ومنهـا : أنكم يأنس بكم المؤتمُّون ويَقتـدِى بكم التابعـون ، فمتى قصّرتم وأخللتم ، ٱقتفى أثركم مَن نُصِبتم له أعلاما ، ثمّ لم يكن لكم أن تَزروا عليه ، ولا أنْ تأخذوا فوق يده ، بل كان قَمِينا أن يكون يَسومكم الرضا بمثْل ما سمعتموه ، ثمّ تَجرِى هذه العادةُ فى الطبقات ، حتّى يطّرِد السياق ، الى أن يستفيض الفساد فى حَشو النـاس وعامتهم ، فلا تُغـنِى قوة ولا حزمٌ ولا شدّة ، إلّا العجزَ والاضاعة ، ثم يجد الأعداء مَساغا الى الطعن والعيب ، فلا يَملِكون أن يُرهِقوكم ويَسـتَوْلِى عليكم الفشلُ ، فإن الأيدى إنّمـا تُبْسَط بنفاذ العزائم ، والعزائم إنّما تَنْفُذ بثبات الحجّة ، والحجّة إنمـا تثبت إذا كانت عن الحـق . وإذا أُضيع أوّل هذه الرسوم ، التى رسم لكم أميرُ المؤمنين ، تَبِعته تواليه وشَفَعته لواحقُه ، ووجد العدوّ الملاحظُ مكان العَوْرة ، مَطْمَعا فى إهمال ما كان يُعِدّ له من الغرّة ، ويَتوقّق به من مناهزة الفُرْصة ، وليكن ما تُفيضون فيه وتعـدّونه ظهيرا على طاعنٍ إن طعَن فى دولتكم ، ما ألهم الله أميرَ المؤمنين : من شُمول رَعيّته بالعدل ، وفرش الأمن فى مضمراتها ومنقلَبها ، ورفع به عنهم من سير الجود ، وبسَط به يده من إثابة أهل البلاء ، وتغمُّد الجرائم لأولى الزَّلَل ، والإبلاغ فى دعاء من عَانَد وشاقّ الى التوبة والإنابة ، وإقالة العثْرة بعدَ القدرة ، والحَقْن لمُباح الدماء ، فلم تعلموه صَبَر محلا ، ولا هَتَـك لأحد ممّن أظفره الله به سِترا ، ولا وَقَفَه على عورة . ثم تولّى الله أميرَ المؤمنين ، فى حروبه شرقا وغربا ، التى أغناه الله عن الإطناب فى وصف صـنع الله لكم فيهـا ، لاسـتفاضة أخبارها فى دَهْمائكم ، مع ما أحبّ من مطالعتـه إيّاكـم ببالغ أدبه وشافى عَطفه ، أن يتنكّب من الإسهاب ، فى غير ما صَمَد له ورأى من تقريع أسماعكم وأذهانكم ، لوعى ما التمس أن تَعُوه من تبصيركم حظّكم ، وتنبيهكم على رشدكم . وحَسْبُ أمير المؤمنين فى نفسه وفيكم الله ، وكفى به مبينا .

وإنّ أمير المؤمنين مع ما تقـدّم به اليكم لعَلَى ثقة من حِياطة الله خلافتَـه التى جعلها عزًّا لدينـه وقِواما لخلقه ، وأنّه ليس بهـا ممن أدبَر عن حقها ٱفتـلالٌ بل من خلع ربقتها وأضاع حظّه منها ، جلب الخلّة والحاجة وخسرانَ الدنيـا والآخرة . وإنمـا أُتِىَ

المُقَصِّرون فى إعظام حقّها من ضعف الروية عن بلوغ ما تُفْضى بهم إليه مصادرُ العواقب ، وتُؤديهم إليه رواجعُ ما قدّموا ، فلا يكونون بعملهم غيرَ متجاوزين بهممهم ، وفيهم الذى هم فيه الى ما يمنعه (١) .

وآستديموا معشرَ المسلمين سابغ النعمة بحمد مُوليها والمُتطوّل بها . وقد تَروْن ما كنتم فيه قبلها وما آلت اليه حالُ مَن سُلبها ؛ ثم يُعْقب الندامةَ حين لا مُسْتعتَبٌ ولا نَظرةٌ يمكن فيها استقالةُ الفارط بتقصيرٍ ولا هَفْوةِ زَلل . وثقوا من رِعاية أمير المؤمنين محمود آثاركُم ، وما مضى من بلاء كلّ آمرئ منكم ، بما تطمئنون اليه وتتوقّعون عادته ، بأسنَى ما ترتفِع اليه آمالُكم وتسمو اليه هممكُم ، الى ما يّدخر الله لمن تمسّك بهداه ، واعتصم بتقواه ، وجاهد عن حقه ، وافيا بأمر عهده من جزيل ثوابه وكريم مآبه ، الى الدار التى هى أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلا .

أحبّ أمير المؤمنين أن يتعهّدكم بعظةٍ تنبّهكم على حظّكم ، وتُثْبت من بصائركم ، وتقطع من طمع الشيطان وحزبه فيكم ، لِما يجب عليه من إرشادكم ، ويرجو من تأدية حقّ الله عز وجل فيكم ، ولِما يرى من آتصالكم بحبله ، وما يشملُه من الصنيع فيما ولّاكم الله به ، وتولّاه لكم .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدعاء تَطوّلا ، وتكفّل بالإجابة حتما ، فقال عز وجل : ﴿ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ، أن يجمع على رضاه أُلفتكم ، وأن يصل على الطاعة حبلكم ، وأن يُمتّعكم بأحسن ما أودعكم من مننه ، ويوزعَكم عليها من شكره ، ما يواصل لكم مزيدَه ، وأن يكفيَكم كيد الكافرين ، وحسد الباغين ، ويَحفظ أميرَ المؤمنين فيكم بأفضل ما حُفِظ به أمام هدى فى أوليائه وشيعته ، ويَحمِل عنه ثقَل ما حمّله منكم . وبالله يستعين أميرُ المؤمنين ، على ما ينوى من جزائكم بالحسنى ، وحملكم على الطريقة المُثلَى ، وبه يرضى ناصرا ووليّا ، وكفى بالله وليّا وكفى بالله نصيرا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) كذا فى الأصل .

وللمأمون — لمّا كتبتْ اليه السـيّدة زُبَيدة بعد مَقْتل ولدها الأمين خطابها الآتى تستعطفه :

كلُّ ذنب يا أميرَ المؤمنين وإن عَظُم صـغير فى جَنْب عَفْوك . وكلُّ زَلَل وإن جلَّ حَقِير عند صَفْحك . وذلك الذى عوّدك الله ؛ فأطال مدّتك ، وتمّم نعمتَك ، وأدام بك الخيرَ ، ورَفَع بك الشرّ .

هذه رُقْعة الوَالِهِ التى ترجوك فى الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذكر . فإنْ رأيتَ أن ترحم ضَعْفى ، وآستكانتى ، وقلّة حيلتى ، وأنْ تَصِلَ رَحِمى ، وتحتسب فيما جعلك الله له طالبا وفيه راغبا فافعل ، وتذكَّرْ مَنْ لو كان حيًّا لكان شَفِيعى اليك .

فكتب اليها المأمون :

وَصَلَتْ رُقْعتُكِ يا أمّاه ، أحاطكِ اللهُ وتوَلّاك بالرِّعاية ، وَقَفْتُ عليها وساءنى — شهد الله — جميعُ ما أوضحتِ فيها ، لكنّ الأقدارَ نافذةٌ ، والأحكامَ جاريةٌ ، والأمورَ متصرِّفةٌ ، والمخلوقون فى قَبْضتها ، لا يَقْدِرُون على دفاعها ، والدنيا كلّها الى شَتَات ، وكلّ حىّ الى ممات ، والغَـدْر والبَغْى حَتْفُ الإنسان ، والمَكْرُ راجعٌ الى صاحبه . وقد أمرتُ بردِّ جميع ما أُخِذَ لك ، ولم تفقدى ممّن مضى إلى رحمة الله إلّا وجهه . وأنا بعد ذلك لك على أكثر مما تختارين ؛ والسلام .

(هـ) أحمد بن يوسف (١)

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور فى اختيار المنظوم والمنثور وهى :

أما بعد فالحمد لله القاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذى أحاط بكل شىء علما، ونطق به خُبْرا، وأتقنه حكمة وعلما، وألّف بين مُختلفه ومُتّفقه، ليدل بقوام بعضه على بعض، على اتصال تدبير مشيئته ومُبْتدعه، وانه أحد صمد، لا ضدّ له ولا ندّ، إذ قدّر له حاجته ثم شدّها ببلاغها الى الغاية التى جعلها، فقال جل وعز ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ وحكى عن نجيّه موسى عليه السلام، ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾، وقال الله تعالى ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ ثم لم يكلّف العباد من شكره كفاء نعمته، بل رضى منهم باليسير، وقبل منهم العفو، وجعل طاعتهم إياه عائدةً عليهم بجزيل الحظّ فى دينهم ودنياهم، لغناه عن عبادتهم، واتّساع قُدرته بالتطوّل عليهم، مُفْتتحا وخاتما، وبادئا وعائدا .

والحمد لله الذى اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم، نبيًا لرسالته، وأتمنه على وَحْيه، وأنزل عليه كتابه العزيز، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فأدّى الى خلقه الرسالة، واستنقذهم من الضّلالة، وصَدَع بأمر ربه وجاهد فى سبيله، ونصح لأمته حتى أتاه اليقين من ربّه، بعد استنارة الحقّ، وظهور الحجّة، فصلّى الله عليه بشيرا ونذيرا، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا قد تلافى من الهَلَكة، وجمع الأُلفة بعد الفُرقة، وأوضح الهدى بعد الدُّروس، ومعالمَ الرشد بعد الطُّموس، وكان بالمؤمنين رحيما .

والحمد لله الذى قفّى على آثار المرسلين، والأئمة الراشدين، الهاديَ التّقى، الطاهر الزكىّ، الإمام المأمون أمير المؤمنين، أعزّ الله نصره، فسدّ ثُلْمتهم، ورأَبَ صَدْعهم وقلّده خلافتهم، وجعله لكافّة المسلمين غياثا ورحمةً، وجعل ما أَلْهَمه من العدل والإحسان

(١) راجع ما كتبناه عنه فى الفصل العاشر من الكتاب الثالث فى المجلد الأول .

اليهم ، مِنّة عليه ورحمةً ذَخَرها له ، دون الخلفاء قَبْلَه ، فيما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة ، وسياسة مَنْ تقدّمه ، ومنح الرعيّة من عطفه ونَظَره ، ما لا يحمل عنهم أو به ولا يؤدّى عنهم شكره ، الا هو لا شريك له ؛ وأحسن الله جَزاء أمير المؤمنين ومثُوبتـه ، على صِلَة رَحِم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التى هى رَحِمه وقرابته ، وآختياره لولاية عهده الأمير الرّضى علىّ بن موسى ، حفظه الله ، حين أحمد سيرته ، ورضى محبته ، وعرف آستقلاله ، بما قلّده فى هَدْيه ، ودينه ووفائه ، بما أكّد الله به عليه ، من عهد أمير المؤمنين أيّده الله ، فى آعْتيامه من ازره وأَسَاه بمـا شَفَع رأيَه ، وأنفذَ تدبيره ، حين همّ لآستصلاح ما آسـترعاه الله ، من أمور عباده ، لمـا آنتق القائم بدعوته ، ورئيس شريعتـه ، الأميرَ ذا الرِّياستين رحمه الله ، فاتّخذه مُكَاتفا ظهيرا ووزيرا دون من سواه ، فاتّبع منهاج أمير المؤمنين أيّده الله ، وسار بسيرته ، شرقا وغربا ، وغَوْرا ونجدا ، مُوفيا بعهده ، قائما بدعوته ، مقتفيا لأثَره وسُنّته ، فحسم الله به الأدواءَ ، وقمعَ به الأعداء ، من عُتاة الأمم ، وطَواغيت الشِّرك ، وأباد على يده ، أهلَ الشِّقاق والنِّفاق ، فى كل أُفُق وطَرَف ، بجِدّ أمير المؤمنين أعزّه الله ، وبركة سياسته ودولته ، ونُجْح سَعْى من قام بنُصرة من قام بحقّه ، وأنار برهانه ، حتى توفّاه الله عز وجل ، حين بلغَ همّته وغايته ، وحُمّ أجلُه ، وآنقطعت مدّته ، سعيدا حميدا ، شهيدا فقيدا ، عند إمامه أكرمه الله ، وعند الخاصّة والعامّة ، وكان من إجلال أمير المؤمنين ، الحادثُ الذى نزل به ، فأحيا آثاره ، بوصف محاسنه ، فى مَشاهده ومَجامعه ، وترحّمه عليـه عند ذكره ، وحفْظه فى لُحْمته ، وأهل حُرمته ، وفيمن كان يحمد الله على طاعته ونصيحته ، ما أتمّ به نعمته ، عندنا وعندكم معشر الشِّيعة ، فقد أصبح أمره بكم متّصلا ، وموْقعـه من جماعتكم متمكّنا ، يقبض كم ماقبَضه ، ويبسطكم ما بَسَطه من اومة المدينة ، وحسن العُقْبى ، وقد علمتم معشر أهل الحجا والنُّهى ، والطاعة لله عز وجل وخليفتـه ، وذوى الغَناء والبَلاء فى دعوته من أهل خراسان وغيرهم ممن حضر ممّن آمتحن اللهُ قلبـه بوفاء العهد والاستبصار فى حقّ أمير المؤمنين أبقاه الله ، والمجاهدة دونه ، والصـبر على مواطن الصِّدق واللأْوَاء ، والذّبّ عن البيْضة والحريم ،

والمتحمّلين للنّصَب، والمصائب التى انجلت، حتى كأن لم تكن، وبقى أجرها على الله عزّ وجل، ومحمودُ ذكرها شائعا فى الناس، إن نِعَم الله، قد جلّت ولَطُفت، وخَصّت وعَمّت، وعلت وسمقت، وتمّت ودامت، حتى قصّرنا عن موازينها، والإحاطة بأدائها، فإذا لم يكن لنا معشر إخواننا سببٌ الى مكافأة بلائه بالعمل، فنحن جُدراء أن نجتهد فى القول، ونُطنب فى الوصف إن شاء الله جَلّ وعزّ، فقد جعل ذكر النِّعَم من أسباب الشكر، وقد جدّد لنا أميرُ المؤمنين أيّده الله من الحياة والكرامة، وجزيل الحيطة، وسَنِيّ الرتبة التى قُرئ بها عليكم كتابُه ما يستغرق جَهْدنا، ويستفرغ وُسْعنا، فنرغب إلى الله عز وجل، وَلِيّ الرغبة، ومؤتى السُّؤْل والطِّلبة، فى إعانتنا على تأدية ما وجب له، فيما منحنا من فوائده ونحله، ثم نسترفدكم ونستعينكم على شكره، وإمدادنا بما بلغته طاقتكم فى السّعى له فقد آدَنا ثِقْلُ ما حمّلنا، وثقل ما طوّقنا، وعظُمت فاقتنا الى استعمال القوى من الأنفُس والحامّة، والخاصّة والعامّة، فى جزاء ما جلّل أمير المؤمنين فينا من سُنَنه، وشملنا من تالد أياديه وطارفها، وقد[illegible] وحديثها، وكيف يُوجد الى موازاة أمير المؤمنين سبيل ببذل جَهْد، أو بلوغ حَشْد، فإنما نقتدى بهُداه، ونَعْشُو بنوره فى ديننا، وليس عَجْزُنا عن أن نجزى حقّه، بواضع عنّا مؤونة الدؤوب فى التّحرّى لتأديته، فإن الله عز وجل، قد أخبر بفضائل الشكر ومناقبه، وجعله من أسمائه، ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، وقد قال تعالى ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. وقال تعالى ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾. ولولا أن الله عزّ وجل رَضيه لنفسه، لأجللناه عن التسمية إذ كان أكثر ما نستعمله، ونعرفه فى مكافأة من منّ وتَطَوّل، ثم ثنّى بذكر فضله فى العباد، فإن الله تبارك وتعالى افتتح أوّل ما علّم خلقه بالحمد، وجعله بَدْء كتابه، وخاتمة دعوة أهل جنّته، فقال عزّ وجل، ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وخلق الله السموات والأرض، ومن برأ وذرأ فى الحياة لِيَبْلُوَ عباده بشكره، وأعدّ الجنة فى الآخرة لمن شكره، والنار لمن كفره، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، بجمل التقوى واقعةً، والشكر مرجُوًا ليَدل على ارتفاع رتبته، وعلو درجته عنده، وقال لنَجيّه موسى عليه السلام: ﴿ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ ﴾ . فلم يكلّفه الا أخذ ما أعطاه، والشكر على ما أتاه، وأخبر بعزّته فى العباد، فقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾، فأيّة نعمة أجلّ قدرا، وأسنى أمرا، معشرَ الشّيعة من نعمة أمير المؤمنين، أيّده الله، عند الأمير ذى الرّياستين، ومراتبه التى رتّبه بهـا، فإنه أعطاه رياســة الحرب، ورياســة التدبير، وعَقد له على رأسهما عَلَما فى راية دعوته ، وقلّده سيفهما وختّمه بخاتم الخلافة، وخاتم الدولة، وجعل صلاته بين صاحب حَرَسه، وصاحب شُرْطته، ومَسيرَه بين أمير المؤمنين وبينهما، أمامه وخلفه، وصيّر له الجلوس على الكرسى بحضرته، فى صدر كل مجلس جلس، الا أن يُؤثر به من أحبّ من أبناء الخلفاء، وقدّمه فى دخول دار الأمير راكبا الى أقصى مكان ينتهى إليه أحد من بنى هاشم، لأنه منهم، وأعظمهم غَناء عنهـم، فسمّاه صـاحب دعوته وسيفه على عدوّه وبابه الذى يدخل اليه منه، وولاه خرِوله فى أقطار الأرض، ومُقدَّمته بحضرته، وقلّده من الثغور ما قد علمت، بما أفرده فى عهده، الى ما أنفذه من أمره، فى جميع سلطانه ومُلكه، من مشارق الأرض ومغاربهـا ، وأين يأتى الوصفُ على ما فضّـله به ، وقدّمه وشرّفه على النـاس كافّة، ولكنّا نُخطِر بذكره، ثم نَكِل السامعين الى ما يرجعون إليــه من المعرفة التى لا تبلغها الصّفة ، ثم لم يكن ما أكرمه به فى حياته بأعلى مما أكرمه به فى وفاته، تولّى غسله وتكفينه، ومباشرته لجهازه، إلى حفرته بيده، وقاسى من الغُصَص، وبرحاء الحزن، وإذراء العَبْرة، وإراقة الدمعة ماحال بينه وبين الكلام، وكاد يمنعه من القول والدعاء فى صلاته عليه، من الحكم، وحفْظ أهل الحُرْمة، به رعايةً له فيهم، ووفاءً بعهده من بعده، وأقرّ حاصّته، وقوّاده وعُمّاله . وكتّابه على مراتبهم، وحمد بحمده، وذّم بذمّه، وجدّد لجنده، وتل كريته[1]، نظرا وعطفا، فلم يبْق عليه فى إحياء ذكره، وبلوغ كل ما يحبه فى حياته غايةٌ الا أتى من ورائها،

(١) كذا فى الأصل .

وأمر بقراءة فُتُوحه ، كما كانت تُقرأ على عهده ، وأضاف كل ما حَدَث من بعده الى ما تقدّم من سَعْيه ، وأخبر أنه كان سبَبَه ، والمفتتحَ به ، وولّى محمد بن الحسن خِلافته ، ونَصّبه مَنْصِبه ، وأقامه مُقامه الى أن جَدّد العهد لى ، فاستخلفتُه على ما وَلِى بحضرته ، ثم تتابعت كتبُ أمير المؤمنين ، أكرمه الله بعد مصاب الأمير ذى الرياستين ، بما لا يقارب التفضيل ، والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم به وبلغكم ، فلم يكن يرى وراءه مجاراة ، ولا فوقه مَصْعَدا ، حتى جدّد لنا من كرامته ، ما قد قُرِئَ عليكم فى كتابه ، فبلّغ بنا ما لم تكن الهمم تبلُغه ، والأمانى لتُحِيط به ، لولا ما منحنا الله عز وجل من الترقّى فى الفضل ، الى ما تنْحَسِر من دونه الأبصار ، وتنقطع دونه الآمال ، وإنما اقتصصناه وذكرنا ما أبلانا واصطنع عندنا من بلائه بدعائنا الى الله عز وجل ، والى طاعته بالعدل والإحسان الى رعيّته والنظر بالصفح ، والأخْذ بالفضل ، والأمر بالمعروف ، وصِلَة المروءة بالوفاء بالعهد ، والشكر للمَنّ ، ورِعاية الأخلاق المحمودة ، وإحْظَاء أهلها ، وإقامة سوقها ، حتى تنافسوها وتَشَاحّوا فيها ، وصارت هى الذّرائع اليه ، والوسائل عنده ، فلو تأمل متأمّلُ أهلِ الزُّلْفة ، والأَثْرة لديه ، لوجد الأَخَصّ فالأخصّ ، والأعلى قدْرا عنده هو الأفضل دِينا ومروءة ، فلو لم يكن فى الحُظْوة عنده إلا إيجابها لصاحبها صحّة المحبة ، والنزاهة عن كل ظِنّة ، لكان فيها أعظمُ الغبطة ، وأعدل الشهادة والدّلالة ؛ وسنقُصّ عليكم بما أخبرناكم عنه مالا سبيل الى جَحْده وإنكاره ، بوضوح مَعَالمه ومَنائره ؛ أوليس المجاهد عن دين الله ، والمحامى عن بَيْضة المسلمين ، والمُوالى لأغلظ عدوّهم شوكة ، وأخوفهم عداوة ، والمُنْجِح فى بلادهم ، بمن كان لا يرام ، ولا يُحاول لاستصعابه وشِدّة مُقَاساته ، حتى أذعن جيغويه بالعُبُوديّة له ، ثم أباح حريمه حين تمرّد عليه ، حتى بلغ السَّبى الى ولَده ، وحاربونا به ، وتغلغلَت خيولُه ، حتى توصّلت الى قُبّته ، ومنتهى عِزّه ، أوليس مُسكّن التهييج بالمشرق ، حتى خَبَت النيران فيه ، وأذعن رؤساؤها وقادتها . أوَليس غازى بلادِ بابل حين طَغى أميرها ، وبدّل ، ونكث ونقض ، حتى اجْتُثَّت أرومتُه ، وأباح حَريمه ، وأراح المسلمين من مَعَرّته ، أوليس سادّ الثغور ، ومُحَصّن

عَوْراتها ، والمباشر لتدبيرها ، والمُسْعِدا لمكايدة المُنْجَح فيمن أرادها ، وفَاكّ العُناة ، من رِقّ الإسار ، وناشر الرحمة على فقراء المسلمين وضُعفائهم وأهل المَسْكَنة ، والخَلّة منهم ، وقاسم الصّـدقات فى أهلها ، وعامر الموسم ومحصّـنه من الآفات حِياطَةً للسلمين فى حجّهم ، وما يتقربون به الى ربهم ؛ وهل اقترن لأحد من الائمة ما اقترن له فى الملك والدّين والعزّ ، والتواضع والسَّعَة ، والبَذْل والقدرة ، والعفو والغلظة ، واللّيان فى مواضعها ، والنّسـك مع الهمّة ، والسطوة مع الاقالة ، وهل ترك معشرَ الأولياء والاخوان فى الدين غايةً لم يَسْمُ بنا الى شرفها ، وعلى مراتبها ، ومستزاد الحظّ فى عاجل وآجل ، لم يبلغناه ونختار لنا خاصّ مكرمته ، ومُدّخَر عاقبته ؛ أرشدنا إلى الدين ، وسَلك بنا سُـبُل الجنة ، حاز لنا الملك ، فلم يبق وراء ما ملكنا غاية ، وَوَرّد بنا الحروبَ وسَاسَها لنـا ، فلم يَدَع غايةً للتعليم والدّراية ، سُـلّط علينا بسلطان الله الذى أتاه فلم يدع غاية فى التقلد والفقه ، فكم علّمنا الفضائل ، ثم فَضّلَنا بهـا ، غلّب لنا الأممَ ، ثم خوّلناها . علّمنا طَرائق الشَّرفْ ، ثم شرَّفنا بها . أَخْبَرنا عن الأنباء فكَفَانا مؤونة التماسها ، وأغنانا بما عنده فيها ، أخذ على أيدينا الخير للرعيّة ، فوهَب لنا شكرَها ، وصدّق مقالتنا عند الشُّبهة ، وأَنْفَذ أمرنا فى التدبير .

فيا أيّهـا الامام المنصور المهدىّ الرشـيد حُزْتَ فضائل الآباء ، واهْتَدَيْت بهَـدى الأنبياء ، أنشكرك عن الاسلام ، فأنت القائم به الداعى له ، والناصر لحقّه ، أم نشكرك عن الأمصار ، فأنت المُفتتِح لممتنعها عَنْوة ، والمتطوّل على أهلها بالرحمـة ، والمنعطف عليهم بحسن الفائدة بعـد ما هيجت منك سَوْرة الغضب ، فأطفأتَ نارها ، وأخمـدتَ لَهَبها ، وعُدت على من سَفِه ، وأضاع حظّه ؛ أم نشـكرك على المساجد ، فأنت الذى أسّسْتَها على التّقوى ، وعَمَرتها بتـلاوة القرآن ، وطهّرت المنابر وركبتها ، تعلُوها صائمـا ، وتنطق عليها صادقا ، وتدعو الى الرشد عليها ناصحا ، وتختم القرآن قبل أن تَبْدَأها محسنا ، وتتلو من قوارعه ، ما تصيخ له الأسمـاعُ وتلين له القلوب ؛ أم نشكرك على البيت العتيق ، والركن والمقام ، والحِجْر وزمزم ، ومَشَاعر الحج ، وأنت ذببتَ عنها ، وأَعَدْت اليها عهدها ، فى مبعث نبيها ،

صلى الله عليه وسلم ، فأمّنتَ النازع اليها ، من كلّ فجّ عميق ، والحالّين بها من الركوع والسجود ، أم نشكرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما حفظت فيه من عِتْرته ، بعفوك عن جُرْمِهم ، ومضاعفتك نوابَ محسنهم ، وإحيائك من أمرهم ، ما كان قد اندرس وانطمس ، بعد اللقاء بنبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقد راعيت منه فى قرابته وقرابتك ، وذوى رحمه و رحمك ، ماضيّع الناس . ووصَلْتَ منهم ما كان وصَلَه ، إذ كان الله عز وجل ، قد فَرض صِلةَ الأرحام ، فكان أطوع خَلْق الله عز وجل فيما فَرَض عليه . أم نشكرك عن العوامّ ، فقد ألبست المسلمين ثوبَ الأمن ، وأذقتهم طعم السَّعة والرَّفاهة ، وعدَلت بينهم بالإنصاف ، وتولّيت دونهم النَّصَب ، وآثرتَهم الراحةَ . أم نشكرك عن الملوك والقوّاد والأجناد ، فأنت الذى رفعتَ منازلهم ، ووفّرت عددهم ، فلم يكن فى دهر أحدٍ من الخلفاء أسعدَ ولا أحظى منهم فى سلطانك ، بما بذلتَ لهم من المَعاون ، ووليّتهم من الثغور والأمصار ، وأدررتَ عليهم من الأرزاق والخَواصّ ، أم نشكرك عن الأحكام والسُّنَن ، فأنت الذى أنهجتَ سبيلَها ، فأوجبتَ فَرْضها ، ونافستَ فى أهلها ؛ أم نشكرك عن الأعداء فأنتَ الذى بدأتَهم بالحُجّة ، ودعوتَهم الى الفَيْئة والإنابة ، ثم ثنّيتَ معقّبا بالعفو ، ونعشْتَهم بعد البؤس ، وآنَسْتهم من الوَحْشة ؛ أم نشكرك على مكارم الأخلاق ، وأنتَ الذى ثبّتَ وطْأتها ، ونفيْتَ عنها أضدَادها ، ولو نَطَقتْ بالفضل ، لنطقت بشكرك ، فى إزالتك إياها عن اللئام ، و إخطائك من اعتزى اليها . أم نشكرك عن الثغور ، فأنتَ الذى تمّمتها ، وحصّنت عوراتها ؛ أم نشكرك عن السلَف ، فأنتَ الذى أشدْتَ بفعالهم ، وحَفَظْتَهم فى أبنائهم ؛ أم نشكرك عن بُرْد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن القضيب الذى شُخِّص به ، حتى جعلتهما زِينتك ، وسموتَ بهما فى أعيادك ، عند حَشْدك ، على الطُّهر والزكاة ، والنّسك والتّقوى ؛ أم نشكرك عن المسلمين فى رِعايتك إياهم ، وما تُرْعِيهم من جَنَابك ، وتنفى عنهم من الآفات ، وتميل عنهم من جبابرة الكفر ، وتفُضّ من جيوش الشِّرك والنَّكْث ، وتفتح من الحصون المُسْتَصْعَبة ، وتسهّل من الطُّرق الوعرة ، أم نشكرك عن تواضعك لله عزّ وجّل وإصلاح

المسلمين طلبا للرفعة عند الله . أم نشكرك عن الدين وقد جعلت السلطان عبدا وقائدا ومنفّذا ، وكان مأدورا بجعلته آمرا ، وآلة للعوة بجعلت القوة له آلة ، فيامن آتصل شكره بشكر الله عز وجل ، ونعمته بنعمة الله تعالى وطاعته ، بطاعة الله فوهب الله لك شرف المنازل ، ورقّاك دَرَج الفضائل ، وجزاك الله عنا وعن غيرنا ، مما شكر من ناطق أو صامت ، جزيلَ الثواب ورفيعَ الدرجات ، وأمتعك ما أتاك وأمتع الأمّة ما آتاهم منك ، والحمـد لله ذى الرّغبات ، ومتمّم الصالحات ، شكرا لرب العالمين ، فإنه مَبْلَغ طاقتنا ، ومُنْتَهى جَهدنا ، وبه نستعين على تأدية فرائضه ، أنه لا يعين على ذلك الا هو ، أحببتُ أن نشكر اليكم أمير المؤمنين أيّده الله ، اذ ورد عليّ من أنعامه وافضاله ، مالا أبلغه بالفعل ، وأن يكون ما آقتصصنا عليكم ، داعيا لكم ، الى أن تشكروه عنّا ، وعن أنفسكم ، وعن الإسلام والمسلمين ، ورجوت بما وفّقنا الله له ، فيما شرحنا وأوضحنا ، من الدّلالة والبيان أن يكون مجتمعا ينتفع به من حضرنا ، ومن عسى أن يُؤَدّى اليه الخبرُ عنا ، أو حدث بعدنا ، وضمنت بهذه المكرمة الرائعة ، والمأثرة البارعة ، التى آدّخرها الله لأمير المؤمنين ، أعزّ الله نصره ، وأفرده بها ، دون الأئمة والخلفاء ، أن تمر بالأسماع صفحا ، وتجتاز على القلوب سهوا ، حتى تؤكّد بالشواهد والبرهان ، ليبقى ذكرُها ونفعُها فى الخُلوف والأعقاب ، ونحن نسأل الله عزّ وجل الذى جمع بأمير المؤمنين — مدّ الله فى عمره — أُلْفتنا ، وعلى طاعته أهوآءنا وضمائرنا ، وأنالنا من الغبطة فى دولتـه وسلطانه ، مالم تحْوِه شيعة إمام ، ولا أنصار خليفة ، أن يُتمّ نورَ أمير المؤمنين ، ويُعلى كعبَه ، ويمتّعنا ببقائه ، حتى يبلّغه سؤله وهمّتـه فى الاستكثار من البرّ وآدّخار الأجر ، وآستيجاب الحمد والشكر ، وأن يلُمّ به الشّعَث ، ويرْأَب به الصَّدْع ، ويُصلح على يديه الفساد ويَرْتُق به فُتوقَ هذه الأمة ، ويُثْخِن بسياسته ونكايته فى عدوها ، ويتابع الفتوحَ فى بُلدانهـم حتى يؤتيه من نُجْح السعى ، ورغائب الحظّ فى الدنيا ، ما يُجـزل عليه ثوابه فى الآخرة ، وأرشد نجبـاءه واصفياءه ، الذين يقول لهم ، ﴿فَآتَاهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَـا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

ومن توقيعاته نقلا عن كتاب الصولى .

وقّع الى عامل ظالم « الحقّ طريق واضح لمن طلبه تهديه محجّته ولا تخاف عثرته وتؤمن فى السرّ مغبّته فلا تستقلنّ منه ولا تعدلنّ عنه فقد بالغتُ فى مُناصحتك فلا تحوجنى الى مُعاودتك فليس بعد التّقدمة اليك إلا سطوةُ الإنكار عليك » .

ووقّع فى عناية بإنسان الى بعض العمّال « أنا بفلان تامّ العناية وله شديدُ الرّعاية وكنتُ أُحبّ أن يكون ما أرعيتَه طرَفك من أمره فى كتابى مستودعًا سَمْعك من خطابى فلا تعدلنّ بعنايتك الى غيره ولا تمتحنّ بعقدك سواه حتى تنيله إرادته وتُجاوز به أُمنيّته إن شاء الله » .

وفى كتاب ابن طيفور من توقيعات أحمد بن يوسف الشيءُ الكثير فارجع اليه إن شئتَ .

(و) رسـائل سهل بن هارون[١]

من كلامه :

حكى الجاحظ قال : — لقى رجل سهل بن هارون فقال : هب لى ما لا ضَرَرَ به عليك ؛ فقال : وما هو يا أخى ؛ قال : درهم ؛ قال : لقـد هوَّنتَ الدرهم وهو طائع الله فى أرضه

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة فى دولتى الرشيد والمأمون ، وقد وضع كتابا حاكى به كتاب كليلة ودمنة وسماه « ثعلة وعفرة » . وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) فى عهد المأمون . ولد سهـل بن هارون فى مدينـة ميسان بين واسط والبصرة ، وفى رواية فى دستميسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، فى أواخر النصف الأوّل من القرن الثانى تقديرا ، ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هرون بن راهيون (راهبون) وكنيته أبوعمرو ، فارسى الجنس ، أهوازى أوخوزى المولد ، عراقىّ المنشأ ، تحوّل الى البصرة ،سنّ لم تعرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم فى الدولة الاسلامية ، بل مدينة العلم فى العالم كله ، أو كما قيل فيها « قبة الإسـلام ، وخزانة العرب » حوت من العلم الانسانى أصوله وفروعه ، ومن القائمين على تنميته مصاقعه وفحوله ، فغذى روحه بلبان مجالسها ومجامعها ، واستنار عقله بما اقتبسه من نور معارفها فتخرج بعلمائها ، ولا شك أنهم كانوا طبقة عالية جدا ، فى كل مطلب من مطالب الآداب . وقيل : أن سهل بن هارون كان شيعيا ، وشيعة العراق فى زمنه كانوا على الاطلاق معتزلة ، ولم يؤثر عنه أنه تنقص أحدا من الصحابة الكرام ، بل عرف بالاعتدال مع الأموات ، إعتداله مع الأحياء ، وما أثر عنه أنه خاض غمار مباحث الكلام التى كانت على أشد حرارتها إذ ذاك ولا سيما فى البصرة ودار السلام بغداد ، واتهموه بأنه كان مع الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العجم فضلا ، وإذا صحت هذه التهمة فمن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعوبية ومن يقول بالتشيع ، على المعنى الذى فسر به بعد قرون .

وصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلا فى نفسه ، عشيق الوجه ، حسن الشارة ، بعيدا من الفدامة (العىّ) معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يقضى له بالحكمة ، قبل الخبرة ، وبرقة الذهن ، قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب ، قبل الامتحان ، وبالنبل ، قبل التكشف (الظهور) » . وكان الجاحظ مازجه وثافنه . وقيل للحرانى ولعله ابراهيم بن ذكوان كاتب الهادى ووزيره : بينك وبين سهل بن هارون صداقة فأنعته لنا كى نعرف ، فقال : « هو كالخير ، وازن العلم ، واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، وإن موزح لم يغصب ، كالغيث أين وقع ، نفع ، وكالشمس حيث أوات ، أحيت ، وكالأرض ما حملتها حملت ، وكالماء طهور للتمسه ، ونافع لعله من أحرّ إليه ، وكالهواء الذى تقطف منه الحياة بالتنسم ؛ وكالنار التى يعيش بها المقرور ، وكالسماء التى قد حسنت بأصناف النور » ا . هـ . صورتان جميلتان فى وصف سهل صوّرهما مصوّران مبدعان عاشا بقربه ، وفتنهما بخلقه وخلقه .

واتهموا سهل بن هارون بالبخل وأوردوا له قصصا ونوادر ، وربما كان اتهامه بالبخل مبالغا فيـه تراد به النكتة والنادرة ا . هـ . من محاضرة للاسـتاذ الباحث السيد محمد كردعلى ألقاها بالمجمع العلمى العربى بدمشق ونشرها بمجلتى المجمع والمقتطف .

لا يعصى ، وهو عُشْر العشرة، والعشرةُ عشر المـائة، والمـائةُ عشر الألف ، والألف دِية المسلم ، ألا ترى الى أين آنتهى الدرهم الذى هوّنتـه ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم! فانصرف الرجل، ولولا آنصرافه لم يسكت .

وحكى دِعْبِل الخزاعىّ الشاعر قال : أقمنا يوما عند سهل بن هارون، وأطلْنا الحديث حتى أضرّ به الجوع ، فدعا بغـذائه فأُتِىَ بصَحْفة فيها مَرَقٌ تحته ديك هَرِم، فأخذ كسرةً وتفقّد ما فى الصحفة فلم يجـد رأس الديك فبـقى مطرقا ، ثم قال للغـلام : أين الرأس؟ قال : رميتُ به ؛ قال : ولِمَ ؟ قال : لم أظنـك تأكله؛ قال : ولِمَ ظننت ذلك ! فوالله إنى لأمقُتُ من يرمى برجله فكيف برأسـه ! ولو لم أكره ما صـنعتَ الا للطِّـيَرة والفأل لكَرِهتُه ، أما علمتَ أن الرأس رئيس يُتَفاءل به ، وفيه الحواسّ الخمس، ومنه يَصيح الديك، ولولا صوتُه ما أُريد، وفيه فرقه الذى يُتَبَرّك به، وعينُه التى يضرب بصفائها المثل فيقال : شرابٌ كعين الديك، ودماغه عجب لوجع الكُلْيـة، ولم أرَ عَظْمًا قطُّ أهشّ تحت الأسنان منـه ، وإن كان بلغ من نُبْلك أنك لا تأكله، فعنـدنا من يأكله، أو ماعلمتَ أنه خيرٌ من طرف الجَناح ومن رأس العُنُق! أنظر أين رميتَه؛ فقال : والله ما أدرى؛ قال : أنا والله أدرى ! إنك رميتَ به، والله فى بطنك، فالله حسيبك .

ومن مؤلّفاته كتابُ البخلاء .

ولمـا صنّف سهلٌ كتابه فى البخل أهداه الى الحسن بن سهل وآستماحه ، فكتب إليه الحسن : قد مدحتَ ما ذمّه الله ، وحسّنت ما قبّحه الله ، وما يقوم بفساد معناك صلاحُ لفظك ، قد جعلنا ثوابَ مدحك فيه قبولَ قولك ، فما نُعطيك شيئا .

وآتّهـم سهلُ بن هارون بالبخل واورد له فى ذلك قِصَصٌ ونوادرُ وعدّه الجاحظ من "مُتعَاقِلى البخلاء وأَشِحّـاء العلماء" قال : ما علمتُ أن أحدا جرّد فى البخل كتابا إلا سهل بن هارون ، وأبا عبد الرحمن الثورى ، والبخل فى الفرس غالب فى الجملة ، غلبة الكرم على

طبائع العرب ، فاقتضى ذلك التفريط الذى رآه سهل فى تبـذير العرب ، أن يُدلى لقومه بآرائه المفرطة فى الاقتصاد والإمساك . وما شُوهد قطّ تفريطٌ الّا وإلى جانبه إفراط .

كتبه وطريقته فى التأليف :

كان سهلُ بن هارون مُنقَطع القرين فى صنوف العلم والآداب، وناهيك بعَـالِم كبير كالجاحظ كان يؤلّف الكتّابَ الكثيرَ المعانى، الحسن النَّظْم، فينسُبُه الى نفســه فلا يرى الأسماع تُصْغِى اليه، ولا القلوب تَيَمَّمُ نحوَه ثم يؤلّف كما قال عن نفسه، ما هو أنقصُ منه مرتبةً وأقلّ منه فائدةً، فينحَلُه عبد الله بن المقفّع، أو سهل بن هارون، فيُقبِل الناس عليها، ويسارعون الى نَسْخها .

ويقال إن طريقة سهل فى كتابته طريقةُ أميرِ المؤمنين علىّ بن أبى طالب لا يتكلّف لكلامه، فلا يُشاهد فيــه الناقدُ أثرَ التعمُّل، بل لا يكلّف بغير إرسال النفس على سجيّتها، فهو وآبنُ المقفّع والجاحظ على غِرَارٍ واحدٍ .

وقيل إن سهلا كاتبُ سلاطين، والجاحظَ مؤلِّفُ دواوين. وكأنّ كلامَه نَغمةٌ موسيقيّةٌ تعرف آنتهاءَ جُمْلته من رَنّتها بعـد أن ملكتْ عليك مشاعرَك، لا يَحْفِلُ بالأسجاع إلّا إذا جاءت عَفْوَ الخاطرِ، شأن بُلغاء الصدرِ الأوّل . وكان يقول الشعر وأكثرُ شعره ممّـا أملاه قلبهُ، فى غرض من أغراض المجتَمع . وعدّه الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطِّوَالَ والقِصَار، والكتب الكِبَار المجلّدة، والسِّيَرَ الحِسَان المولّدة، والأخبار المدوّنة . ولقّبــه مرةً بالكاتب ، ولعلّ لقب الكاتب فى شرفه أكبرُ من عالم . وذكره آبن النديم فى البلغاء وقال: إنّه شاعرٌ مُقِلٌّ، وعدّه فى الشعراء الكُتّاب . وقال: إنه كان ممن يعمل الأسْمَار والخُرافَات على ألسنة الناس والطَّيْر والبهائم هو وعبدُ الله بن المقفّع وعلىّ بن داود كاتب زبَيْده . وشعره نحسون ورقةً . أما الدهشة ففى تآليفه، فله ديوان رسائله، وكتاب النمر والثعلب، وكتاب اسباسيوس (أسانوس) فى آتخاذ الإخوان ، كتاب أسد بن أسد ، كتاب تَحِرَةَ العقل، كتاب تدبير الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن أَبَان

فى القضاء، كتاب الفرس ، كتاب الغـزالين، كتاب ندود و ودود ولدود، كتاب الرِّياض، كتاب ثعلة وعفراء، (وفى رواية ثعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودِمْنة، قلّده فى أبوابه وأمثاله .

وقال المسعوديّ : يَزيد عليه أى على كليلة ودِمْنة فى حسن نَظْمه وقد صنّفه للأمون . ومن تآليفه : كتاب الهزليّة والمخزوميّ، كتاب الوامق والعـذراءالى غيرذلك من المصنّفات التى لم تُبْقِ الأيامُ و ياللأسف على واحد منها فيما علمنا .

دخل سهلٌ على الرشيد وهو يُضاحك المأمون، فقال : اللهم زِدْه من الخيرات، وٱبْسُط له من البركات، حتى يكون فى كلّ يوم من أيّامه مُرْبيًا على أمسه ، مُقصرا عن غَده، فقال الرشيد : يا سهلُ، مَن رَوَى من الشعر أحسنَه وأرصنَه ، ومن الحديث أفصحه وأوضحَه، إذا رام أن يقول لا يُعجزه القولُ؟ فقال سهل : يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن أحدا تقدّمنى الى هذا المعنى، قال بل أعشى هَمْدان حيث يقول :

رأيتُك أمسِ خيرَ بنى لُؤَىٍّ ٭ وأنتَ اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غَدًا تَزيد الخيرَ ضعفًا ٭ كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقد شَهِد مقتلَ البرامكة فى سنة ١٨٧هـ وحدّث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال : إنّ سَجّاعى الخطب، ومُجرى القَريض عِيالٌ على يحيى بن خالد بن بَرْمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلامٌ يتصوّر دُرًّا ، ويُحيله المَنْطِق السَّرىّ جوهرًا ، لكان كلامَهما، والمُنتقَى من لفظهما، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد فى بديهته وتوقيعاته فى كُتُبه، فَدْمين عَيِين، وجاهلين اميين، ولقد عُمّرت معهم، وأدركت طبقة المتكلمين فى أيامهم، وهم يرَوْن أن البلاغة لم تُستكمل الا فيهم، ولم تكن مقصورةً إلا عليهم، ولا ٱنقادت الا لهم، وأنهم مَحْضُ الأنام، ولُبَاب الكِرَام، ومِلْحُ الأيام، عِتْقُ منظرٍ، وجودة مَخْبَر، وجَزَالةُ مَنْطق، وسهولةُ لفظ، ونزاهةُ نفس، وٱكتمالُ خِصال، حتى لو فاخرتَ الدنيا بقليل أيامهم، والمأثور

من خِصَالهم، كثير أيام مِن سواهم من لَدُن آدم أبيهم الى النفخ فى الصور، وآبتعاث أهــل القبور، حاشا أنبياء الله المكرّمين، وأهل وَحْيه المرسَلين، لمـا باهتْ إلّا بهم، ولا عوّلتْ فى الفخر إلا عليهم، ولقــد كانوا مع تهذيب أَخلاقهم، وكريم أعراقهم، وسعةِ آفاقهــم، ورِفْق ميثاقهم، ومعسولِ مذاقهم، وبهاءِ إشراقهم، ونقاوةِ أعرَاضهم، وتَهذيبِ أغراضهم، وآكتمالِ خِلَالِ الخير فيهم، الى ملء الأرض مثلهم فى جنب محاسن المأمون كالنُّفْثَة (التفلة) فى البحر، والخَرْدَلة فى المَهْمَه القفْر .

قيل : وهذا الكلام على ما فيــه من حقيقة فى بيان سجايا البرامكة والرشيد والمأمون لم يختم بالنَّصَفَة الحقّة ، ومال به سهل الى المصــانعة ، وخرّجه على نحو مبالغة الفُرْس ، فى الإطراء والمَلَق لولىّ الأمر .

ورَوى بعضُ الرُّواة أن المأمون كان آستقل سهل بن هارون ؛ وقد دخل عليه يوما والناسُ على مراتبهم، فتكلّم المأمونُ بكلام ذهب فيه كلَّ مَذْهب، فلما فَرَغ مــن كلامه أقبــل سهل بن هارون على الجَمْــع فقال : مالكم تسمعون ولا تعُونـــ ، وتشُاهدون ولا تفْقهون ، وتفهمون ولا تعجبون، وتعجبون ولا تُنْصِفون! والله إنه ليقول ويفعل فى اليوم القصير ما فَعَل بنو مَرْوان فى الدهر الطويل، عَرَبُكم كعَجمكم، وعجمُكم كعبيدكم، ولكن كيف يُعَرَّف بالدواء مَن لا يشــعرُ بالداء . فرجع المأمونُ فيــه الى الرأى الأوّل ؛ وعرف أنه الرجل كلّ الرجل ، فقرّبه وأدناه على النحو الذى كان عليه فى عهد والده .

ومن كلام له فى كتابه ثعلة وعفرة :

"اجعلوا أداءَ ما يجبُ عليكم من الحقوق مُقَــدَّما قبل الذى تجودون به من تفضلكم، فإنـــّ تقديم النافلة مع الإبطاء فى الفريضة شاهدٌ على وَهْن العقيدة ، وتقصيرِ الرَّوِيَّة ، ومُضِرٌّ بالتدبير، ومُخلٌّ بالآختيار، وليس فى نفع تحمــد به عوض من فساد المروءة، ولزوم النقيصة " .

وهذا مأخوذ من قوله فى يحيى بن جعفر :

عَدُوُّ تِلَادِ المالِ فيما يَنُوبُهُ * مَنُوعٌ اذا ما مَنْعُهُ كان أَحْزَمَا

مُذَلِّلُ نفسٍ قد أبَتْ غيرَ أن تَرَى * مكارِهَ ما تَأْتِى من العيش مَغْنَما

وكتب الى صديق له أَبَلَّ من ضعف :

" بلغنى خبر الفَتْرة فى إلمامها وآنحسارها ، والشكاة فى حلولها وآرتحالها ، فكاد يشغل القَلَق بأوله عن السكون لآخره ، وتَذْهَل الحَيْرةَ فى آبتدائه ، عن المَسرَّة فى آنتهائه ، وكان تَغَيُّرى فى الحالين بقدرهما آرتياعًا للأولى ، وآرتياحا للأُخرى " .

***

وكتب فى البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح اللهُ أمْرَكم و جمع شَمْلَكم وعَلَّمكم الخير وجعَلكم من أهله . قال الأحنفُ بن قيس : يا معشرَ بنى تَميم ، لا تُسْرِعوا الى الفتنة فإنّ أسرع الناس الى القتال أقلُّهم حَياء من الفِرار . وقد كانوا يقولون : اذا أردتَ أن تَرَى العيوب جَمَّةً فتأمل عَيَّابًا فإنه إنما يَعيب الناس بفضل ما فيه من العَيْب . ومن أعيب العيب أن تَعيب ماليس بعيب . وقبيحٌ أن تَنْهى مُرْشِدًا وأن تُغْرَى بمُشْفِق . وما أردنا بما قلنا إلا هِدايتَكم وتقويمَكم ، وإصلاحَ فاسدكم ، وإبقاءَ النعمة عليكم . وما أخْطَأنا سبيل حُسْن النية فيما بيننا و بينكم . وقد تَعلَمُون أنا ما أوصيناكم إلا بما آخترناه لكم ، ولأنفسنا قَبْلَكم ، وشُهِرنا به فى الآفاق دونكم ؛ ثم نقول فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : ﴿وَمَا أُرِيد أن أُخَالِفَكم الى ما أنْهَاكم عنه إن أريد إلا الإصلاحَ ما آستطعتُ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أُنيب﴾ فما كان أحَقَّنا منكم فى حُرْمَتِنا بكم أن تَرْعَوْا حَقَّ قَصْدِنا بذلك اليكم على ما رَعَيْناه من واجب حقّكم ؛ فلا العُذْرَ المبسوط بَلَغْتم ولا بواجب الحرمة قُمْتم . ولو كان ذكرُ العيوب يُرادُ به فخرٌ لرأينا فى أنفسنا من ذلك شغلا ،

عِبْتُمونى بقولى لخادمى : أجيدى العَجينَ فهو أطْيَبُ لِطَعْمه وأزْيَدُ فى رَيْعه (١) . وقد قال عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه : أَمْلِكوا العجينَ (٢) فإنّه أحَدُ الرَّيْعين .

وعِبْتُمونى حين خَتَمْتُ على ما فيه شىء ثمين من فاكهةٍ رَطْبةٍ نقيّـة ومن رَطْبةٍ غريبة على عَبْد نَهِم وصَبىّ جَشِع وأَمَةٍ لَكْعاء (٣) وزوجة مُضيعةٍ .

وعبتمونى بالخَتْم وقد خَتَم بعضُ الأئمّة على مِزْود (٤) سَـوِيق وعلى كِيس فارغ . وقال : طِينَةٌ خير من ظَنّةٍ ، فأمسكتم عمّن ختَم على لا شىء وعِبْتم من خَتَم على شىء .

وعبتمونى أن قلتُ للغـلام : اذا زدتَ فى المَرَق فَزِد فى الإنضاج ليجتمع مع التأدّم باللحم طِيبُ المرق .

وعبتمونى بخَصْف (٥) النّعـل وبتَصْدِير (٦) القميص وحين زَعَمْتُ أن المخصُوفة من النّعل أبقى وأقوى وأشْبَه بالشّدّ وأن التّرقيع من الحَزْم والتّفْريط من التضييع . وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ويُرَقِّع ثوبَه ويقول : لو أُهدى الىّ ذِرَاعٌ لقَبِلتُ ، ولو دُعِيتُ الى كُراعٍ لأجَبْتُ . وقالت الحكماءُ : لا جديدَ لمن لم يَلْبَس الخَلَق . وبعَثَ زِيادٌ رجلا يَرتاد له مُحَدِّثا واشترط عليه أن يكون عاقلا فأتاه به موافقا فقال له : أكنتَ به ذا معرفة ؟ قال : لا ، ولكنى رأيته فى يوم قائظ يَلْبَس خَلَقا ويلبس النـاس جديدا ، فتفرّستُ فيه العقلَ والأدبَ . وقد علمت أنّ الخَلَق فى موضعه مثل الجديد فى موضعه . وقد جعل اللهُ لكل شىء قَدْرا وسَمَا به مَوْضعا كما جعل لكل زمانٍ رجالا ولكل مقام مَقالا . وقد أحْيا اللهُ بالسّمّ وأمات بالدواء وأغَصّ بالمـاء . وقد زَعَموا أن الإصلاح أحَدُ الكاسبين كما زعموا أن قِلّة العيال أحد اليَسَارَيْن . وقـد جَبَر الأحنفُ بن قيس يد عَنْز وأمر مالكُ بن أنس

---

(١) الريع : النماء والزيادة . (٢) إملاك العجين : إنعام عجنه . (٣) اللكعاء : الحمقاء .

(٤) المزود : وعاء الزاد . والسويق : طعام يتخذ من الحنطة أو الشعير . (٥) خصف النعل : خرزها .

(٦) تصدير القميص : أن يجعل لصدره بطانة .

بِفَرْك النَّعل . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بَيْضَةً فقد أكل دَجَاجَةً . ولَبِس سالم بن عبد الله جِلْدَ أُضْحِية . وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أهْدِى اليك دجاجةً . فقال : إن كان لا بد فاجعلها بَيُوضًا .

وعبتمونى حين قلتُ : من لم يعرف مواضِعَ السَّرَف فى الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد فى المُمْتَنِع الغالى . ولقد أُتيتُ بماء للوضوء على مبلغ الكِفَاية وأشدّ من الكفاية ، فلما صرت الى تفريق أجزائه على الأعضاء والى التّوفير عليها من وَضِيعة الماء (١) وجدتُ فى الأعضاء فَضْلا عن الماء ، فعلمتُ أن لو كنتُ سلكتُ الاقتصادَ فى أوائله لخرج آخرُه على كفاية أوّله ولكان نصيبُ الأوّل كنصيب الآخر ، فعبتمونى بذاك وشنّعتم علىّ ؛ وقد قال الحسن وذَكَر السّرف : أما إنه ليكونُ فى الماء والكلا فلم يَرْض بذكر الماء حتى أردفه الكلأَ .

وعبتمونى أن قلت : لايَغْتَرَّنّ أحدُكم بطول عمره وتَقوِيس ظهره ورِقّة عَظْمه ووهْن قوّته وأن يرى نحوه أكثر ذُرِّيّته ، فيدعوه ذلك الى إخراج ماله من يده وتحويله الى مِلْك غيره والى تحكيم السّرف فيه وتسليط الشهوات عليه ، فلعله يكون مُعَمرا وهو لا يدرى ، وممدودًا له فى السنّ وهو لايَشْعر، ولعله أن يُرْزَق الولدَ على اليأس ويَحْدُث عليه من آفات الدهر ما لا يَخْطُر على بال ولا يُدْرِكه عقل ، فيستردّه ممن لا يردّه ويُظْهِر الشكوى الى من لا يرحمه أصْعَبَ ما كان عليه الطّلب وأقبح ما كان به أن يَطْلُب ، فعبتمونى بذلك ؛ وقد قال عمرو بن العاص : "اِعْمَل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا" .

وعبتمونى بأن قلت : بأنّ السّرف والتبذير الى مال المواريث وأموال الملوك وأنّ الحفظَ للمال المكتسب والغنى المجتلب والى من لا يُعرِّضُ فيه ذهاب الدِّين واهتضام العرض ونَصَبِ البدن واهتمامِ القلبِ أسرعُ ومن لم يحسبُ نفقته لم يحسب دَخْلَه

(١) الوضيعة هنا : النقص .

ومن لم يحسب الدخل فقــد أضاع الأصل . ومن لم يعرف للغنى قَدْرَه فقد أُوذِن بالفقر وطاب نفسًا بالذل .

وعبتمونى بأن قلت : إن كَسْب الحلال يضمن الإنفاق فى الحلال . وإنّ الخَبيث يَنْزِع الى الخبيث ، وإنّ الطّيّب يدعو الى الطيّب ، وإنّ الإنفاق فى الهوى حِجاب دون الهُدى ؛ فعبتم علىّ هــذا القول ، وقد قال معاويةُ : لم أر تبــذيرا قط إلا والى جنبه حقّ مُضَيَّع . وقد قال الحسن : إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجلُ مالَه فانظروا فيماذا يُنفِقُه فإن الخبيث إنما يُنْفَق فى السّرف . وقلت لكم بالشّفقة عليكم وحسن النظر منى لكم وأنتم فى دار الآفات ، والجوائحُ غير مأمونات : فإن أحاطَتْ بمال أحدكم آفةٌ لم يرجِع إلا الى نفسه . فاْحذروا النِّقَمَ باختلاف الأمكنة فإن البَلِيّة لا تجرى فى الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطــاب رضى الله عنه فى العَبْــد والأَمة والشاة والبعير : فرّقوا بين المنــايا . وقال ابن سِيرين لبعض البَحْريّين : كيف تَصْــنَعون بأموالكم ؟ قالوا : نُفَرّقها فى السُّفُن فإن عَطِب بعضٌ سَلِم بعض . ولولا أن السلامة أكثر ما حَملنا أموالَنا فى البحر . قال ابن سِيرين : " تحْسَبها حَرْقاء وهى صَنَاع "[1] .

وعبتمونى بأن قلت لكم عند إشفاقى عليكم : إن للغِنى لَسُكرًا وللمــال لَنَزْوةً[2] فمن لم يحفَظ الغنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المــال لخوف الفقر فقد أهمَله .

فعبتمونى بذلك وقد قال زيد بن جَبَلَة : ليس أحد أقصرَ عقلا من غنىّ أَمِن الفقرَ ، وسُكْرُ الغِنى أكثر من سكر الخمر . وقد قال الشاعرُ فى يحيى بن خالد بن بَرْمك :

وَهُوبُ تِلادِ المــال فيما يَنُوبه * مَنُــوعٌ اذا ما مَنْعُه كان أحزما

وعبتمونى حين زعمتم أنى أُقدِّم المــال على العلم ، لأن المــال به يُفَاد العــلمُ وبه تقوم النفسُ قبل أن تَعْرِف فضلَ العلم ، فهو أصل والأصل أحقّ بالتفضيل من الفرع ، فقلتم :

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن به الغفلة وهو فطن يقظ . (٢) النزوة : الثورة أو الوثبة .

كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأغنياء أفضل أم العلماء؟ قال : العلماء . قيل له : فما بال العلماء يأتون أبوابَ الأغنياء أكثر ما يأتى الأغنياءُ أبوابَ العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال وجَهْل الأغنياء بحقّ العلم. فقلت : حالُها هى القاضية بينهما . وكيف يستوى شىءٌ حاجةُ العامّة اليه وشىءٌ يَغْنَى فيه بعضُهم عن بعض .

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياءَ باتّخاذ الغَنَم والفقراء باتّخاذ الدّجاج . وقال أبو بكر رضى الله عنه : إنى لأُبْغِضُ أهلَ بيْتٍ يُنفقون نفقةَ الأيامِ فى اليوم الواحد. وكان أبو الأسْود الدُؤلىّ يقول لولَده : اذا بَسَط الله لك الرزقَ فابْسُط واذا قبَض فاقبِض .

وعبتمونى حين قلت : فَضْلُ الغنى على القُوت إنما هو كفضل الآلة تكون فى البيت اذا احْتِيج اليها استُعْمِلت وإن استُغْنِىَ عنها كانت عُدّةً . وقد قال الحُصَيْن بن المنذر : وَدِدْتُ أن لى مثل أُحُدٍ ذَهَبًا لا أنتفع منه بشىء . قيل له : فما كنتَ تَصْنع به ؟ قال : لكثرة من كان يَخْدُمُنى عليه لأن المال مخدوم . وقد قال بعضُ الحكماء : عليك بطلب الغِنىَ فلو لم يكن فيه إلا أنه عِزٌّ فى قلبك وذُلّ فى قلب عدوّك لكان الحظ فيه جسيما والنفع فيه عظيما .

ولسنا نَدَعُ سيرةَ الأنبياء وتعليمَ الخلفاء وتأديبَ الحكماء لأصحاب اللّهو ؛ ولستم علىّ تردّون ولا رأيى تُفَنّدون ، فَقدِّموا النظرَ قبل العزم وأدْركوا مالكم قبل أن تُدْرِكوا مآلكم . والسلام عليكم .

وسَهْلٌ هو القائل :

تَقَسَّمنِى هَمَّانِ قد كَسَفَا بالِى * وقد تَرَكَا قَلْبِى مَحَلّةَ بَلْبَالِ
هما أَذْرَيَا دَمْعِى ولم تُذْرِ عَبْرَتِى * رهينةُ خَدٍّ ذاتُ سِمْطٍ وَخَلْخَالِ
ولا قَهْوة لم يَبْقَ منها سوى الذى * على أن تُحاكِى النورَ فى رأس ذَيّالِ

تحلّل منها جُرْمُها وتماسكتْ * لها نفسُ معـدومٍ على الزّمنِ الخالي
ولكنما أبْكي بعينٍ سَخيَّــةٍ * على حَــدَثٍ تبْكي له عينُ أمثالى
فِراقُ خليــلٍ لا يقــومُ به الأَسَى * وخَــلّةُ حُرٍّ لا يقــومُ بها مالى
فَوَاحسرتى حتّى مَتَى القلبُ مُوجَعٌ * لِفَقْر خليـــلٍ أو تعـــذُّر إفضال
وما الفضــلُ إلّا أن تَجُودَ بنائلٍ * وإلا لِقاء الخِــلِّ ذى الخُلُقِ العَالِي

وهو القائل :

اذا امرؤٌ ضاقَ عنِّى لم يَضِقْ خُلُقِى * من أن يَرانى غَنيًّا عنـــه باليَأس
لا أطلبُ المالَ كى أُغْنَى بفَضْلَته * ما كان مَطْلَبُهُ فَقْـــرًا من الناس

(ز) عمـــرو بن مَسْعدة (١)

كان كاتبا بليغــا ، جَزْل العبارة وجيزَها ، سديدَ المقاصد ، فضـــلُه شائع ، ونُبلُه ذائع ، أشهرُ من أن يُنَبّــه عليه ، أو يُدَلّ بالوصف اليه ، قد وَلِيَ للمأمون الأعمـــالَ الجليلةَ ، وأُلحق بذوِى المراتب النبيلة . وسمّاه بعضُ الشعراء وزيراً لِعظَم منزلته لا لأنه كان وزيرا ، وهو قوله :

لقد أسعدَ اللهُ الوزيرَ بن مَسْعَدَهْ ＊ وبثَّ له فى النـــاس شُكْرٌ ومَحْمَدَهْ

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول بن صول . وصول (بضم الصاد) كان رجلا تركيا وكان ملك وأخوه فيروز على جرجان ومجسا بعد التركية وتشبها بالفرس .

بدأ عمرو بن مسعدة فى خدمة الدولة عاملا من العمال فظهرت كفايته و بلاغته ، و بالبلاغة توصـــل الى الخليفة فعدّ أحد أفراد قلائل فى رجاله ، قال أحمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوما على المأمون و بيـــده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، ويصعد فيه و يصوّب ، فلما مرت على ذلك مدّة من زمانه التفت الىّ وقال : يا أحمد أراك مفكرا فيما تراه منى ، قلت : نعم ، فقال : ان فى هـــذا الكتاب كلاما نظير ما سمعت الرشيد يقول فى البلاغة ، زعم أن البلاغة إنما هى التباعد عن الاطالة ، والتقرب من معـــنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ ، على الكثير من المعنى ، وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على ذلك . وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة الينا ، ففككته فاذا فيه : « كتابى الى أمير المؤمنين ، ومن قبلى من قواده ، ورؤساء أجناده ، فى الانقياد والطاعة ، على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه أمورهم » . فلما قرأته قال : ان استحسانى اياك بعثنى أن أمرت للجند قبله بأعطياتهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله فى صناعته . وفى رواية أن المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أشهر وأنه قال لأحمد بن يوسف : لله در عمرو ما أبلغه ! ألا ترى الى إدماجه المسألة فى الأخبار ، و إعفائه سلطانه من الاكثار .

وكان عمـــرو بن مسعدة وكنيته أبو الفضل أبيض أحمر الوجه ، وكان المأمون يسميه الرومى لبياض وجهه وكان يخضب وتوفى بأذنة سنة سبع عشرة ومائتين . ولم نعـــرف منشأه ومولده وأساتيذه وغاية ما عرفناه أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أبوهم — وكان كاتبا أيضا — تربيتهم كل الإحسان حتى جاءت من أحدهم هذه البلاغة النادرة التى كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون ، وكان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه ويخـــلوان معه و يمازحانه . ولكى يصل الرجل الى هذا المقام مع مثل هـــذا الخليفة العظيم فى كل شؤونه يجب أن ينطوى على صفات عالية يعز مثلها فى الأقران والأتراب .

قال عمرو بن مسعدة : كنت أوقع بين يدى جعفر بن يحيى البرمكى فرفع اليه غلمانه ورقة يستزيدونه فى رواتبهم فرمى بها الى وقال : أجب عنها فكتبت : « قليل دائم خير من كثير منقطع » فضرب بيده على ظهرى وقال : =

فهو كما كتبَ الحسنُ بنُ سهل الى محمد بن سَمَاعة القاضى وقد احتاجَ الى رجلٍ يُوَلِّيه بعضَ الأعمال فقال: إنه يريد رجلا جامعا لخصال الخير، ذا عِفّة ونزاهة طِعمة(١)، قد هذَّبته الآداب، وأحكمته التجارب، ليس بظَنِينٍ فى رأيه، ولا بمطعونٍ فى حَسَبه إن أُؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قُلِّد مُهمًّا من الأمور أجزأ(٢) فيه، له سنٌّ مع أدب ولسان، تُعقده الرزانة، ويُسكته الحلم، قد فُرِّعَ(٣) عن ذكاء وفِطْنة، وعضّ(٤) على قارحة من الكمال، تكفيه اللحظةُ، وتُرشده السكتة، قد أبصر خدمةَ الملوك وأحكمها، وقام فى أمور فحُمِد فيها، له أناةُ الوزراء، وصَوْلةُ الأمراء، وتواضُع العلماء، وفهمُ الفقهاء، وجوابُ الحكماء، لا يَبيع نصيبَ يومه بحرمان غده، يكاد يَستَرِق قلوبَ الرجال بحلاوة لسانه، وحُسْنِ بيانه، دلائلُ الفضل عليه لائحةٌ، وأماراتُ العلم له شاهدةٌ، مُضطلعًا بما استنهض، مستقلًّا بما حمل.

= أى وزير فى جلدك. وقد شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان فى عصره ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه: إنه أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد اذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله فاذا رامه بعد عليه. وهذا كما قيل لأحد البلغاء: ما حد البلاغة؟ فقال: التى اذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فاذا رامها استصعبت عليه.

ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف فى موضوع خاص وأفرد مسألة فى التأليف، وعدّه ابن النديم فى الشعراء الكتاب ولم يذكر إلا أن له ولأخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر وهى من الضائع أيضا. والغالب أن مهام الدولة لم تترك له وقتا يصرفه فى درس خاص، أو وضع كتاب أو رسالة: وما تلقطه العلماء والأدباء من كلامه، فهو مما صدر عنه بالمناسبات، ورواه له المعجبون به، وما أعظم المفقود منه. والمظنون أن لو كانت جمعت له رسائله على إيجازها لكان منها ديوان كبير، لأن من صرف أعواما طويلة وهو قابض على يراعته يعالج بها الموضوعات السياسية والادارية فى ذاك المجتمع العظيم لا شك أنه تجتمع له صفحات كثيرة مهما كان مقلا معروفا بالايجاز. اهـ من محاضرة للاستاذ الباحث محمد كرد على نشرها بمجلة المجمع العلمى العربى. وفى عمرو بن مسعدة قال محمد البيدق وقد اعتل:

قالوا أبو الفضل معتل فقلت لهم * نفسى الفداء له من كل محذور
يا ليت علته بى غير أن له * أجر العليل وإنى غير مأجور

وتجد ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٨٨) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٥) والوافى بالوفيات للصفدى (ج ٥ ص ٢٠٥ قسم ثالث من الأصل الفتوغرافى المحفوظ بدار الكتب المصرية).

(١) فى الأساس: ومن المجاز فلان طيب الطعمة وخبيث الطعمة (بالكسر) وهى الجهة التى منها يرتزق (بوزن الحرفة). (٢) أجزأنى كذا: كفانى. (٣) فرعن ذكاء، وفطنة، أى جرب واختبر فيهما. (٤) وعض على قارحة، كناية عن بلوغه درجة الكمال.

ومن كلام عَمْرو بن مسعدة :

أعظمُ الناس أجرًا، وأنبَهُهم ذِكْرا ، مَنْ لم يَرْضَ بموت العدل فى دولته ، وظهورِ الجَهة فى سلطانه ، وإيصال المنافع الى رعيّته فى حياته، وأسعدُ الرعاة مَن دامتْ سعادةُ الحقّ فى أيامه، وبعد وفاته وانقراضه .

وقال : الخطّ صُوَرُ الكُتُب تُرَدّ اليها أرواحُها .

وقال : الخطّ صورةٌ ضئيلةٌ لهـا معَانٍ جليلة، ورُبّمـا ضاق عن العيون ، وقد ملأ اخطار الفنون .

وقال : لا تستصحبْ مَن يكون استمتاعُه بمالك وجاهك ، أكثرَ من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائد علمه ، ومَن كانت غايتُـه الاحتيالَ على مالك وإطراءَك فى وجهك، فإن هذا لا يكون إلا رديء الغيب، سريعًا الى الذم .

وكتب الى الحسن بن سهل :

أما بعد، فإنّك ممّن اذا غَرَسَ سَقَى، واذا أسّس بَنَى، ليستتمّ تشييدَ أُسُسِه، ويجتنيَ ثِمَارَ غَرْسه، وثناؤُك عندى قد شارفَ الدروسَ ، وغرسُك مُشْفٍ على اليُبوس ، فتداركْ بناء ما أسّستَ، وسقْيَ ما غَرَستَ إن شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه فى شخص يعزُّ عليه :

أما بعد، فموصّل كتابى اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يُديرونَنِى عن سالِمٍ وأُديرُهم * وجِلدَةُ بين العينِ والأنْفِ سالمُ

أى يَحُلّ منى هذا المحل .

وكتب الى المأمون فى رجل من بنى ضبّة يستشفع له بالزيادة فى منزلتـه وجعل كتابه تعـريضا :

أما بعـد، فقد استشفع بى فلانٌ يا أمير المؤمنين لتطوّلك علىّ، فى إلحاقه بنُظَرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمتُه أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المُستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدّى طاعته والسلام .

فكتب اليه المأمون : "قد عرفنا توطئتك له ، وتعريضك لنفسك ، وأجبناك اليهما ، ووافقناك عليهما" . وقوله : "إن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعتــه" : من الكلام السرّى الذى يدلّ على مَبْلغ أدبِ عمرو وبُعْــدِ غَوْره فى السياسة ووقوفه على رُوح عصره ونفسيّة الخلفاء .

قَدِمَ رجل من أبناء دَهَاقِين(١) قريش ، على المأمون لِعِدَة سلفتْ منــه ، فطال على الرجل انتظارُ خروج أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : تُوَصِّلُ منى رُقْعــةً الى أمير المؤمنين تكون أنت الذى تكتُبها تكن لك علىّ نعمتان . فكتب : " إن رأى أميرُ المؤمنين أن يَفُكَّ أَسْرَ عبــده من رِبْقة المُطْل بقضاء حاجته ، أو يَأْذَنَ له بالانصراف الى بلده فعل إن شاء الله " .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عَمْرا فجعل يَعْجَب من حسن لفظها ، وإيجازِ المراد . فقال عمرو : فما نتيجتُها يا أمير المؤمنين؟ قال : الكتاب له فى هذا الوقت بما وعدناه ، لئلا يتأخّر فضــلُ استحساننا كلامَه ، وبجائزة مائة ألف درهم ، صِــلَةً عن دناءة المَطْل . وسَمَاجةِ الإغفــال .

وهــذا ممــا يدلّ على ســعة عقل المأمون وولُوعه بالبلاغة وقدره أهلَها حقّ قَدْرهم ، دع ما هنالك من نفسٍ ما أحبتْ إلا الجُودَ والعطاءَ .

ومن حِكَم عمرو بن مسعدة :

العبوديّة عبوديةُ الإخاء . لا عُبُودية الرِّق . الودّ أعطف من الرَّحِم . إن الكريم لَيَرْعَى من المعرفة ما رعى الوَصْلُ من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زينةٌ فى الرخاء ، وعُدّةٌ للبلاء . مَثَلُ الإخوان مَثَلُ النار ، قليلُها متاعٌ ، وكثيرُها بَوَار . النفس بالصديق ، آنسُ منها بالعشيق ، وغَزَلُ المودة ، أرَقُّ من غَزَل الصبابة . من حقوق المودة ، عفوُ الإخوان ، والإغضاءُ عن تقصيرٍ إن كان . ذكر رجلٌ رجلا فقال : حسبُك أنه خُلِقَ كما تشتهى إخوانُه . المودّةُ قرابةٌ

(١) الدهاقين : الزعماء أرباب الأملاك بالسواد ، وأحدهم دهقان (بكسر الدال معرّب) .

مستفادةٌ . ما تواصل اثنان فدام تواصلُهما ، الا لفضلهما أو فضل أحدهما . أسرعُ الأشياء انقطاعا مودةُ الأشرار . المحروم من حُرِم صالحى الإخوان . لقاءُ الخليل شِفاءُ الغليل . قلّةُ الزيارة ، أمانٌ من المَلَالة . إخوانُ السوء كشَجَر النار يُحرق بعضُه بعضا . علامةُ الصّديق اذا أراد القطيعةَ أن يُؤخِّر الجوابَ ، ولا يبتدئَ بالكتاب . لا يُفسدَنّك الظنُّ على صديق قد أصلحك اليقينُ له . من لم يُقدِّم الامتحانَ قبل الثّقة ، والثقةَ قبل الأُنْس ، أثمرتْ مودتُه نَدَمًا . اذا قدمتَ الحُرمة ، تشبّهتَ بالقرابة . العِتابُ حياةُ المودة . ظاهرُ العتاب خيرٌ من باطن الحقد . ما أكثر مَن يُعاتب لطلب علّة ، ويَبْقَى الوُدُّ ما بَقِى العتابُ . كُمُون الحقد فى الفُؤاد ككُمون النار فى الزِّناد . القريب بعيدٌ بعداوته ، والبعيد قريبٌ بمودّته . لا تأمنَنّ عدوَّك وإن كان مقهورا ، واحذرْه وإن كان مفقودا ، فإن حدَّ السيف فيه وإن كان مغمودا لا تتعرّضْ لعدوّك فى دولته ، فإنها اذا زالت كفتْك مؤونتَه . نُصح الصديق تأديبٌ ، ونصحُ العدو تأنيب .

روَى البَيْهَقِىّ قال : أخبرَنا بعضُ أصحابنا قال : شهدتُ المأمون يوما وقد خرج من باب البُستان ببغداد فصاح به رجل بَصْرِىّ : يا أمير المؤمنين إنى تزوّجتُ بامرأة من آل زياد وإن أبا الرازىّ فرّق بيننا وقال : هى امرأة من قريش ؟ قال : فأمر عمرو بن مسعدة فكتب الى أبى الرازى :

إنه قد بلغ أميرَ المؤمنين ما كان من الزيادية وخَلْعك إيّاها إذ كانت من قريش . فمتى تحاكمت اليك العرب ؟ لا أمّ لك فى أنسابها ، ومتى وكّلتك قريش يا ابن الخناء بأن تُلْصِق بها من ليس منها ؟ خَلِّ بين الرجل وامرأته ، فلئن كان زياد من قريش ، إنه لابن سُمَيّة بَغِىّ عاهرة ، لا يُفتخر بقرابتها ولا يُتطاول بولادتها . ولئن كان ابن عُبَيد ، لقد باء بأمر عظيم ، اذ ادّعى الى غير أبيه ، لحظ تعجّلَه ، ومُلكٍ قهره .

وأمر المأمونُ عمرَو بن مسعدة أن يكتب لرجل به عِناية الى بعض العُمّال فى قضاء حقّه ، وأن يختصر كتابَه ما أمكنه ، حتى يكونَ ما يكتبُ به فى سطر واحد ، لا زيادةَ عليه . فكتب عمرو :

كتابى اليك كتابُ واثقٍ بمَن كتبتُ اليـه ، معْنيٌّ بمن كُتِب له ، ولن يَضيع بين الثِّقة والعناية حاملُه .

وكتب الى بعض الرؤساء، وقد تزوَّجتْ أُمه فساءَه ذلك ، فلما قرأها ذلك الرئيس تَسلَّى بها، وذهب عنه ما كان يَجده . وقيل: إن هذه الرسالةَ من إنشاء ابن العَميد وهى :

الحمد لله الذى كشَفَ عنا سِتْرَ الحَـيْرة ، وهدانا لسَتْرِ العَوْرة . وجَدَعَ بما شَرَعَ من الحَلال أَنْفَ الغَيْرة ، ومَنع مَن عَضَل الأمهات، كما مَنع من وَأْدِ البنات، استنزالا للنفوس الأبيّة، عن الحَمِيّة حَمِيّـة الجاهليّة ، ثم عَرَض بجزيل الأجر، مَن استسلم لواقع قضائه ، وعوّضَ جايلَ الذخر مَن صَبَرَ على نازل بلائه، وهنَأَكَ الذى شرح للتّقوى صـدرك، ووسّع فى البَـلوى صَبْرَكَ ، وألهمَك من التسليم لمشيئته ، والرِّضا بقضيته ، ما وفّقك له من قضاء الواجب فى أحد أَبَوَيْك ، ومَن عَظُم حقّه عليـك، وجعل الله تعـالى جَدُّه ما تجرّعتَه من أَنَف ، وكظمتَه من أَسَف ، معدودا فيما يُعظِّم به أجرك ، ويجزل عليه ذُخْرك ، وقَرَن بالحاضر من امتعاضك بفعلها، المُنتظر من ارتماضك بدفنها، فتستوفى بها المصيبة، وتَستكمل عنها المَثُوبة، فوصل الله لسيدى ما استشعره من الصّبر على عُرْسها، بما يَكتسبُه من الصبر على نفسها، وعوّضه من أَسِرّة فرشها، أعواد نعشها، وجعل تعالى جدُّه ما ينْعِم به عليه بعدها من نعمة، معرًّى من نقمة، وما يولّيه بعد قبضها من منْحة ، مُبرًّأ من مِحْنة، فأحكام الله تعالى جَدُّه، وتقدّستْ أسماؤه، جاريةٌ على غير مُراد المخلوقين، لكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خيرٌ لهم فى العاجلة، وأبقى لهم فى الآجلة ، اختار الله لك فى قبضها اليـه، وقُدومها عليه، ما هو أنفعُ لها، وأولى بها، وجعل القبرَ كُفُوءًا لها والسلام .

وقال عبد العزيز بن يحيى المكىّ الذى ناظر بِشْر بن غِيَاث المَرِّيسِىّ بحضرة أمير المؤمنين فى مسألة خَلْق القرآن :

جاءنى خليفةُ عمرو بن مسعدة ومعه جَمْعٌ من الفرسان والرَّجّالة فحملنى مُكْرَمًا على دابّته حتى صار الى باب أمير المؤمنين فأوقفنى حتى جاء عمرُو بن مَسْعدة فدخل فجلس فى حُجرته

التي كان يَجلس فيها ثم أَذِن لى بالدخول عليه فدخلتُ فلما صرتُ بين يديه أجلسنى ثم قال لى : أنت مقيمٌ على ما كنتَ عليه أَو قد رجعت عنه؟ فقلتُ : بل مقيمٌ على ما كنتُ وقد ازددتُ بتوفيق الله تعالى إياى بصيرةً فى أمرى، فقال لى عمرو بن مسعدة : أيها الرجل، قد حملتَ نفسكَ على أمرٍ عظيم، وبلغتَ الغايةَ فى مكروهها، وتعرّضتَ لما لا قِوَامَ لك به فى مخالفة أمير المؤمنين، وادّعيتَ بما لا يثبتُ لك به حجةٌ على مخالفتك، ولا لأحدٍ غيرِك، وليس وراءك بعد الحُجّة عليك الا السيفُ، فانظرْ لنفسك وبادر أمرَكَ، قبل أن تقعَ المناظرةُ وتَظْهَرَ عليك الحجةُ، فلا تنفعك النّدامةُ ولا يُقْبلُ منك معذرةٌ ولا تُقال لك عَثْرةٌ، فقد رحمتُك وأشفقتُ عليك مما هو نازلٌ بك، وأنا أَستقيلُ لك أميرَ المؤمنين وأسألُه الصفحَ عن جُرْمك، وعظيم ما كان منك اذا أظهرتَ الرجوعَ عنه والندمَ على ما كان، وآخذُ لك الأمانَ منه والجائزةَ، فان كانت لك ظُلَامةٌ أزلتُها عنك وان كانت لك حاجةٌ قضيتُها لك، فانما جلستُ رحمةً لك مما هو نازلٌ بك بعد ساعة إن أقمتَ على ما أنت عليه ورجوتَ أن يخلصك الله تعالى على يدىّ من عظيم ما أوقعتَ نفسَك فيه .

شعره :

نقلْنا أمثلةً قليلةً من نثر عمرو بن مسعدة، أما شعرُه فقليلٌ جدا. ذكَر المترجمون له أنه كان له فَرَسٌ أدهمُ أغَرُّ، لم يكن لأحد مثله فَرَاهَةً وحُسنا . فبلغ المأمونَ خبرُه، وبلغ عمرو ابنَ مسعدةَ ذلك . فخاف أن يأمر بقَوْده اليه فلا يكون له فيه مَحْمَدة، فوجّه به اليه هدية وكتب معه :

يا إماما لا يُـــدا * نيـــه اذا عُدّ إمامُ
فَضلَ الناسَ كما يَفْـ * ـضُل نقصانا تَمامُ
قـد بعثْنا بجَـوادٍ * مثـلُه ليس يُرامُ
فـرَسٌ يَزْهى به لل * ـحُسن سَرْجٌ ولِجَامُ
دُونه الخيـلُ كما دُو * نك فى الفضلِ الأنامُ

وجهُهُ صُبحٌ ولكن * سائرُ الجسم ظـلامُ
والذى يَصْلُح للـو * لى على العبـدِ حَرَامُ

وعمرو هو القائل :

ومستعذِب للهجْرِ والوصل أعذَبُ * أُكاتِمُه حُـبّى فَيَنأَى وأقــربُ
اذا جدتُ منى بالرضا جاد بالجَفَا * ويَزْعُم أنّى مُذْنبٌ وهـــو أذنبُ
تعلّمتُ ألوانَ الرضا خوفَ هَجْـرِه * وعلّمه حُـــبّى له كيف يَغْضَبُ
ولى غيرُ وجه قد عرفتُ طريقَهُ * ولكن بلا قلبٍ الى أين أذهبُ

ووقّع مرّة فى ظهر رُقْعة لرجل :

أعْزِزْ عَلَىَّ بأمرٍ أنت طالِبُـــهُ * لم يُمكِن النُّجْحُ فيه وآنقضى أمَدُهْ

ولعمرو بن مسعدة حكاياتٌ منها ما حكاه القاضى التنوخىّ فى كتاب الفرج بعد الشدّة (1) :
قال عمرو بن مسـعدة : كنتُ مع المأمون عنـد قدومه من بلاد الروم حتى اذا نزلتُ الرَّقّة قال : يا عمرو، ما ترى الرُّجّحىّ قد احتوى على الأهْوَاز، وهى سلّة الخير وجميعُ المـال قِبَلَه وطمع فيها، وكُتُبُهُ متّصـلة بحملها، وهو يتعلّل و يتربّص بى الدوائر؟ فقلتُ : أنا أكفى أمير المؤمنين هذا، وأنفذ مَن يضطره الى حَمْل ما عليه، فقال : ما يقنعنى هذا، فقلت : فيأمر أمير المؤمنين بأمره، فقال : فاخرُج اليه بنفسك حتى تُصَفِّده بالحديد، فتحمله الى بغداد وتَقْبض على جميع ما فى يده من أموالنا، وتنظر فى أعمالنا وترتّب لها عُمّالا، فقلتُ : السمع والطاعة، فلما كان فى غدٍ دخلتُ عليـه فقال : ما فعلتَ فيما أمرتك به ؟ قلتُ : أنا على ذلك، قال : أتريد أن تجىء فى غدٍ مُوَدّعا؟ قلت : السمع والطاعة، فلمـا كان فى غدٍ جئتـه مودّعا، فقال : أريد أن تحلف لى أنك لا تقيم ببغداد إلا يوما واحدا، فاضطربتُ من ذلك الى أن حضّنى وآستحلفنى ألا أقيمَ فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجتُ

(1) راجع (ج ٢ ص ٣٥ طبعة الهلال) . والعقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٢ ص ٢١١ طبعة بولاق) .

حتى قدمتُ بغداد ، فلم أُقِم بها إلا ثلاثة أيام وآنحدرتُ فى زَلالىّ أريد البصرة وجُعل لى فى الزلالى خَيش واستكثرتُ من الثلج لشدّة الحرّ .

فلما صرتُ بين جُرجان[1] وجَبُّل سمعتُ صوتا من الشاطئ يصيح : يا ملّاح ، فرفعتُ سَجف الزّلالىّ واذا بشيخ كبير السنّ جالس حاسِر الرأس حافِي القدمين خَلَقِ القميص ، فقلت للغلام : أجبْه ، فأجابه ، فقال : ياغلام ، أنا شيخ كبير السنّ على هـذه الصورة التى ترى ، وقد أحرقَتْنى الشمسُ وكادتْ تتلفنى ، وأريد جبل ، فاحملونى معكم فانّ الله يحسن أجر صاحبكم ، قال : فشتمه الملّاح وآنتهره ، فأدركَتْنى رقّةٌ عليه وقلتُ : خذوه معنا ، فتقدّمنا الشطّ وصِحْنا به وحَملناه ، فلما صار معنا فى الزلالىّ وآنحدَرْنا نتقدّم فدفعتُ اليه قميصا ومِنْديلا وغَسَلَ وجهه واستراحَ وكأنّه كان ميّتا وعاد الى الدنيا فحضرَ وقتُ الغذاء وتقدّمت وقلتُ للغلام : هاتِه يأكلْ معنا ، فجاء وقَعَد على الطعام ، فأكل أكلَ أديبٍ نظيفٍ غير أنّ الجوع أثّر فيه ، فلما رُفعتْ المائدةُ أردت أن يقوم ويَغْسل يده ناحية كما تفعل العامة فى مجالس الخاصّة فلم يفعل ، فغسلتُ يدى وتذمّمتُ أن آمر بقيامه ، فقلتُ : قدّموا له الطشت فغسل يده ، وأردتُ بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل ، فقلتُ : يا شيخ ، أىّ شىء صناعتك؟ قال : حائك أصلحك الله ، فقلتُ فى نفسى : هذه الحياكة علّمته سوءَ الأدب ، فتناومتُ عليه ومددتُ رجلى فقال : قد سألتنى عن صناعتى وأنت أعزّك الله ما صناعتك؟ فأكبرتُ ذلك وقلت : أنا جنَيتُ على نفسى هذه الجناية ولا بدّ من احتمالها ، أتراه الأحمق لا يرى زَلالىَّ وغلمانى ونعمتى وأنّ مثلى لا يقال له هذا! فقلتُ : كاتب ، فقال : كاتب كامل أم كاتب ناقص فإنّ الكتّاب خمسة ، فأيّهم أنت ؟ فورد علىّ قول لمائك موردا عظيما وسمعتُ كلاما أكبرته وكنت متكئا فجلست ، ثم قلت : فَصِّل الخمسة قال :

نعم ، كاتبُ خَراج يحتاج أن يكون عالما بالشروط والطسوت والحساب والمساحة والبثوق والفتوق والرتوق . وكاتبُ أحكام يحتاج أن يكون عالما بالحلال والحرام

(١) فى العقد الفريد : «بين ديرهرقل ودير العاقول» .

والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع . وكاتبُ مَعُونة يحتاج أن يكون عالمـا بالقصاص والحـدود والجراحات والمواثبات والسياسات . وكاتبُ جَيْش يحتاج ان يكون عالمـا بحُلَى الرجال وشِيَات الدوابّ ومُدَاراة الأولياء وشيئا من العلم بالنسب والحساب . وكاتب رسائل يحتاج أن يكون عالمـا بالصدور والفصول والإطالة والايجاز وحُسْن البلاغة والخط، قال : فقلت : إنى كاتب رسائل، قال : فأسألك عن بعضها، قلت : قل، فقال لى :

أصلحك الله، لو أنّ رجلا من إخوانك تزوّج أمّك فأردت أن تكاتبـه مهنئا فكيف كنتَ تكاتبه ؟ ففكرتُ فى الحـال فلم يخطر ببالى شىء، فقلتُ : ما أرى للتهنئة وجها، قال : فكيف تكتب اليه تعزّيه ففكرت فلم يخطر ببـالى شىء، فقلت : اعفنى ، قال : قد فعلت، ولكنك لست بكاتب رسائل، قلت : أنا كاتب خَرَاج، قال : لا بأس، لو أنّ أمير المؤمنين ولّاك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقضى حاجة السلطان فيتظلم اليك بعضهم من مسّاحيـك وأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك، فحلف المسّاح بالله العظيم لقد أنصفوا وما ظلموا، وحلفتْ الرعيّة بالله إنهم لقد جاروا وظلموا، وقالت الرعيّة : قف معنا على ما مَسَحوه وانظر مَن الصادق مِنَ الكاذب، فخرجتَ لتقف عليه، فوقفوا على براح شَكْلُه قاتل قثا، كيف كنتَ تمسحه؟ قلت : كنت آخذ طوله على انعراجه وعرضـه ثم أضربه فى مثله، قال : إنّ شكل قاتل قثا أن يكون زاويتاه محدودتين وفى تحديده تقويس، قلت : فآخذ الوَسَـط فأضربه فى العَرْض، قال : إذًا ينثنى عليـك العمود، فأسكتنى، فقلت : ولستُ كاتبَ خراج، قال : فإذًا ما أنت؟ قلت : أنا كاتبُ قاضٍ، قال : أرأيتَ لو أنّ رجلا توفى وخَلّف امرأتين حاملتين إحداهما حُرّة والأخرى سَرِيّة، فولدتْ السريّة غلاما والحـرّة جارية، فعَـدَتْ الحرّة الى ولد السريّة فأخـذته، وتركتْ بدله الجارية فاختصما فى ذلك، فكيف الحُكْم بينهـما؟ قلتُ : لا أدرى، قال : فلستَ بكاتب قاض، قلتُ : فأنا كاتبُ جيش، فقـال : لا بأس ، أرأيتَ لو أنّ رجلين جاءا اليك لتُحَلّيهما وكلّ واحد منهما اسمـه واسم أبيـه كاسم الآخر إلا أنّ أحدهما مشقوقُ الشفة العليا، والآخرَ مشقوقُ

الشفة السفلى ؟ كيف كنتَ تحليهما ، قال : قلتُ : فلانٌ الأفلح وفلان الأعلم ، قال : إنّ رزقهما مختلفان وكلّ واحد منهما يجيء فى دعوة الآخر ، قلتُ : لا أدرى ، قال : فلستَ بكاتب جَيْش ، قلتُ : أنا كاتب مَعُونة ، قال : لا تبالى ، لو أنّ رجلين رُفعا اليك قد شَجَّ أحدُهما الآخرَ شجّةً مُوضِحَةً (١) ، وشجّ الآخرُ شجّةً مأمونة ، كيف كنتَ تفصل بينهما ؟ قلت : لا أدرى ، قال : لستَ إذًا كاتب مَعُونة ، اطلب لنفسك أيها الرجل شغلا غير هذا ، قال : فصَغُرَتْ الىّ نفسى وغاظنى ، فقلت : قد سألتُ عن هذه الأمور ويجوز ألا يكون عندك جوابها كما لم يكن عندى ، فإن كنت عالما بالجواب فقل ، فقال .

نعم ، أما الذى تزوّج أمك فتكتب اليه : أما بعد ، فإنّ الأمور تجرى من عند الله بغير محبّة عباده ولا اختيارهم ، بل هو تعالى يختار لهم ما أحبّ ، وقد بلغنى تزويج الوالدة خار الله لك فى قبضها ، وإنّ القبور أكرم الأزواج وأستر العيوب والسلام .

وأما براحُ قاتل قثا فتمسح العمود حتى اذا صار عددا فى يدك ضربته فى مثله ومثل ثلثه فما خرج فهو المساحة .

وأما الجاريةُ والغلامُ فيُوزَن لَبَنُ الاثنين ، فأيّهما كان أخفّ فالجارية له .

وأما الجنديان المتفقا الاسمين ، فإن كان الشقّ فى الشفة العليا قيل فلان الأعلم ، واذا كان فى الشفة السفلى قلتَ فلان الأفلح .

وأما صاحبُ الشجّتين فلصاحب الموضحة ثُلْثُ الدِّيَة ، ولصاحب المأمونة نصف الدية ، فلما أجاب بهذه المسائل تعجبتُ منه وامتحنتُه بأشياء كثيرة غيرها فوجدته ماهرا فى جميعها حاذقا بليغا ، فقلتُ : ألستَ زعمتَ أنك حائك ، فقال : أنا أصلحك الله حائك كلام ولستُ بحائك نَسَّاجة ، وأنشأ يقول :

ما مَرَّ بؤسٌ ولا نعيمٌ * إلا ولى فيهما نصيبُ
فذقتُ حُلْوًا وذقتُ مُرًّا * كذاك عَيْشُ الفتى ضُروبُ
نوائبُ الدهر أدَّبتنى * وإنّما يُوعَظُ الأديبُ

(١) الموضحة : الشجة التى تبدى وضح العظام .

قلتُ : فما الذى بك من سوء الحال؟ قال : أنا رجلٌ كاتبٌ دامتْ عُطْلتى، وكَثُرَتْ عَيْلتى، وتواصلتْ مِحْنتى، وقلّت حِيلتى، فخَرجتُ أطلبُ تَصَرُّفا فقُطِع علىَّ الطريق فصرتُ كما ترى، فمشيت على وجهى، فلمّا لاحَ لى الزّلّالى استغثتُ بك، قلتُ : فإنى قد خرجتُ الى مُتَصَّرف جليل أحتاجُ فيه الى جماعةٍ مثلك، وقد أمرتُ لك بخِلْعة حَسَنَة تصلح لمثلك وخمســةِ آلاف درهم تُصلِح بها أمرَك، وتُنفِذُ منها الى عيالك، وتُقَوِّى نفسَــك بباقيها، وتصــير معى الى عَمَلى فأولِّيك أجلَّه، فقال : أحسنَ الله جزاءك إذًا تجِدُنى بحيث أسرّك، ولا أقومُ مقامَ معذر البــك إن شاء الله، وأمرت بتقبيضه ما رَسَمْتُ له قَبْضه، وانحدر الى الأهواز معى، فجعلته المناظرَ للرجحى والمحاسبَ له بحضرتى، والمستخرجَ لمَـا عليــه، فقام بذلك أحسن قيام وعَظُمت حاله معى، وعادتْ نعمته الى أحسن ما كانت عليه .

وفى عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيُّوب التَّيْمى :

أَعِــنِّى عــلى بارقٍ ناصبٍ * خَــفِىٍّ كوَحْيك بالحاجبِ
كأنّ تألُّقَــه فى السماء * يدا كاتبٍ أو يــدا حاسبِ
فــروَّى منــازلَ تَذْكارُها * يُهيِّــج من شــوقك الغالب
غريبٌ يحِنّ لأوطــانه * ويَبْكى على عصــره الذاهب
كفاك أبو الفضل عمرُو النَّدَى * مطالعــةَ الأمــلِ الكاذبِ
وصــدقُ الرجاء وحُسْنُ الوفاء * لعمــرو بن مَسْــعَدَة الكاتبِ
عريضُ الفِنَــاء طويلُ البِنَــا * ء فى العِــزِّ والشَّرَف الثــاقب
بنى الملك طــودٌ له بيتُــه * وأهــلُ الخــلافة من غالب
هــو المرتَجَى لصرُوف الزمان * ومُعْتَصَــمُ الراغبِ الراهب
جــوادٌ بمــا ملكتْ كفُّه * على الضيف والجار والصاحب
بأدْمِ الرِّكاب ووَشْيِ الثيــا * بِ والطِّرْف والطِّفْلة الكاعب
نؤمِّــلُه لِجســامِ الأمــور * ونرجوه لِلجَلَــلِ الكـارب

خَصِيبُ الجناب مَطِيرُ السحاب * بشـيمته لَيِّنُ الجانب
يُرَوِّى القَنَا من نحور العِـدَا * ويُغْرِقُ فى الجُـود كاللّاعب
اليـك تبـدّت بأكوارها * حراجيجُ فى مَهْمَـهٍ لاحب
كأنّ نعامًا تَبَـارَى بنا * بـوابِلِ من بَرَدٍ عاصب
يَرِدْنَ نَـدَى كفِّك المُرْتجَى * ويَقْضِينَ من حقّـك الواجب
ولله ما أنتَ من خابرٍ * بسَجْلِ القـوم ومن خارب
فتَسْقِى العـدا بكئوس الرَّدَى * وتسـبِقُ مسـئلةَ الطالب
وكم راغبٍ نلتَـه بالعَطَـا * وكم نِلتَ بالعَطْـف من هارب
وتلك الخـلائقُ أعْطِيتَهـا * وفَضْـلٌ من المانح الواجب
كَسَبتَ الثنـاءَ وكسبُ الثنا * ء أفضـلُ مَكْسبة الكاسب
يقينُـك يجلو ستورَ الدُّجَى * وظنُّـك يُخْـبِر بالغـائب

رسـائل الجـاحظ

رسـالتـــه فى بنى أميـــــة

قال أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ (١) : أطال الله بقاءك ، وأتمّ نعمته عليك ، وكرامته لك . اعلم أرشد الله أمرك ، أنّ هذه الأمّة قد صارت بعـد إسلامها ، والخروج من جاهليتها ، الى طبقاتٍ مُتَفاوتة ، ومنازلَ مختلفـةٍ : فالطبقة الأولى عصر النبى صلّى الله عليه وسـلم ، وأبى بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، وستّ سنين من خلافة عثمان رضى الله عنـه ، كانوا على التوحيـد الصحيح ، والإخلاص المحض (٢) ، مع الأُلْفـة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولابِدْعة فاحشة ، ولا نزعُ يد من طاعة ، ولاحسدٌ ولا غِلٌّ ولا تأوُّل ، حتى كان الذى كان : من قتل عثمانَ ، رضى الله عنه ، وما انْتُهِك منه ، ومن خَبْطهم إيّاه بالسلاح ، وبَعْج بطنـه بالحِراب ، وفَرْى أَوْداجه بالمَشاقِص ، وشَـدْخ

---

(١) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجـاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى صاحب التصانيف الممتعـة والرسائل المبدعة . وقد تقدّم الكلام عليه فى المجلد الأوّل من هذا الكتاب (ص ٤٢١) .

ولد حوالى سنة ١٦٠ هـ بمدينـة البصرة ونشأ بها فتناول كل فن ومارس كل علم عرف فى زمانه ممـا وضـع فى الاسلام أو نقل عن الأمم الأوائل فأصبح له مشاركة فى علم كل ما يقع عليه الحس أو يخطر بالبال فهو راوية . متكلم . فيلسوف . كاتب . مصنف . مترسل . شاعر . مؤرخ . عالم بالحيوان والنبات والموات . وصاف لأحوال الناس ووجوه معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم إلا أنه غلب عليه أمران : الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفـة الجاحظية من المعتزلة والأدب الممزوج بالفلسفة والفكاهة فهو أوّل من ألف الكتب الجـامعة لفنونه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرهما .

وكان غاية فى الذكاء ودقة الحسّ وحسن الفراسـة إلى دعابة فاشية ، وقلة اعتداد بمـا يأخذ به الناس انفسهم و ينتحلونه من الرسوم والعادات وأنواع العصبية المذهبية وعدم مبالاة بوقوع المتورّعين فيه . وكان سمحا جوادا كثير المواساة لإخوانه وكان على دمامة خلقه وتناقض خلقه خفيف الروح ، فكه المجلس ، غاية فى الظرف وطيب الفكاهة وحلاوة الكلام وهو على الجملة أحد أفذاذ العالم وأحد حجج اللسان العربى . توفى سـنة ٢٥٥ هـ ببغـداد بمقبرة الخيزران . وتجد ترجمته فى معجم الادباء لياقوت (ج ٦ ص ٥٦ — ٨٠) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٣) .

(٢) فى الأصل : « المخلص » .

هامته بالعُمُد، مع كفّه عن البسط، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبل ذلك : من كم وجهٍ يجوز قتل من شهد الشهادة، وصلّى القبلة، وأكل الذبيحة؛ ومع ضرب نسائه بحضرته، وإقحام الرجال على حرمته، مع اتقاء نائلة بنت القرافصة[1] عنه بيدها، حتى أطَنّوا[2] إصبعين من أصابعها، وقد كشفتْ عن قناعها، ورفعتْ عن ذَيلها ليكون ذلك رادعا لهم، وكاسرا من غَرْبهم؛ مع وطئهم فى أضلاعه بعد موته، وإلقائهم على المَزْبلة جسدَه مُجرّدا بعد سحبه، وهى الجزرةُ التى جعلها رسولالله صلىالله عليه وسلم كُفْئا لبناته وأَيَاماه وعَقائله، بعدَ السبّ والتعطيش والحصْر الشديد، والمنع من القوت، مع احتجاجه عليهم وإفحامه لهم؛ ومع اجتماعهم على أنّ دمَ الفاسق حرام، كدم المؤمن، إلّا مَن ارتد بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قَتل مؤمنا على عَمْد، أو رجلٌ عدا على الناس بسيفه فكان فى امتناعهم منه عطبه؛ ومع اجتماعهم على ألّا يُقتل من هذه الأمّة، ولا يُجْهَز منها على جريح؛ ثم مع ذلك كلّه ذَمَّروا[3] عليه وعلى أزواجه وحُرَمِه وهو جالس فى محرابه ومُصْحفُه يلوح فى حِجْره، لن يُرَى أنّ مُوَحّدا يقْدِم على قتل مَن كان فى مثل صفته وحاله.

لاجَرم لقد احْتَلَبوا به دمًا لاتطير رغوتُه، ولا تَسْكُن فورتُه، ولا يموت ثائرُه، ولا يَكِلّ طالبُه، وكيف يُضيِّع اللهُ دم وَليّه، والمنتقم له، وما سمعنا بدم بعد دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، غلا غليانُه، وقُتِل سافحُه، وأُدْرِكَ بطائلته، وبلغ كلُّ محبته، كدمه رحمة الله عليه.

ولقد كان لهم فى أخذه، وفى إقامته للناس، والاقتصاص منه، وفى بيع ما ظهَر من رِباعه، وحدائقه، وسائرِ أمواله، وفى حَبْسه بما بَقِي عليه، وفى طَمْره حتى لا يُحَسّ، بذكره، ما يُغْنيهم عن قتله إنْ كان قد ركب كلّ ماقذفوه به، وادّعَوْه عليه، وهذا كلّه بحضرة جِلّة المهاجرين والسلَف المقدّمين، والأنصار والتابعين.

---

(١) قال فى شرح القاموس : كل مافى العرب من هذا الاسم «فراقصة» فهو بضم الفاء الا فرافصة أبا نائلة فهو بالفتح لاغير. (٢) أطنوا : قطعوا. (٣) حض بعضهم بعضا عليه متهدّدين.

ولكنّ الناس كانوا على طبقاتٍ مختلفــة ، ومراتبَ متباينــة : من قاتلٍ ومن شادّ على عضده ، ومن خاذل عن نصرته ، والعاجز ناصر بإرادته ، ومطيع بحسن نيته ، وإنّمــا الشك منّا فيــه ، وفى خاذله ، ومن أراد عزله والاســتبدالَ به ؛ فأمّا قاتله ، والمعينُ على دمه ، والمُريدُ لذلك منــه ، فضُلّالٌ لاشــكّ فيهم ، ومُرّاقٌ لا امتراء فى حكمهم ؛ على أنّ هــذا لم يَعْــدُ منهم الفجورَ : إمّا على ســوء تأويلٍ ، وإمّا على تعمّد للشّقاء ، ثم ما زالت الفتن مُتّصلة ، والحروبُ مترادفةً ، كحرب الجمل ، وكوقائع صِفّين ، وكيوم النَّهْرَوان ، وقبل ذلك يوم الزَّابُوقة (١) ، وفيه أُسر ابن حُنَيف ، وقُتل حَكيم بن جَبَلة ، الى أن قَتَل أشقاها علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليه ، فأسعده الله بالشهادة ، وأوجب لقاتله النار واللعنة ؛ الى أن كان من اعتزال الحسن عليه السلام الحروبَ وتَخْليته الأمورَ ، عند انتشار أصحابه ، وما رأى من الخلل فى عسكره ، وما عرَف من اختلافهم على أبيه ، وكثرة تلونهم عليه ؛ فعندها استوى معاويةُ على الملك ، واســتبدّ على بقية الشُّورَى ، وعلى جماعة المسلمين ، من الأنصار والمهاجرين ، فى العام الذى سَمّوْه عامَ الجماعة ، وما كان عامَ جماعةٍ ، بل كان عام فُرقــةٍ وقَهْرٍ وجَبَريّةٍ وغَلَبَةٍ ، والعامَ الذى تحوّلت فيــه الإمامة مُلْكا كِسْرويّاً ، والخلافةُ غصبا قَيْصَريّاً ، ولم يَعْــدُ ذلك أجمعُ الضلالَ والفسقَ . ثم مازالت معاصيه من جنس ماحكيْنا ، وعلى منازلِ مارتّبنا ، حتى رَدّ قضــيةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا مكشوفا ، وجَحَد حكمَه جَحْدا ظاهرا ، فى ولد الفِــرَاش وما يَجب للعَاهِر ، مع اجتماع الأمة انّ سُمَيّــة لم تكن لأبى ســفيان فِراشا ، وأنّه إنمــا كان بها عاهرا . فخرج ذلك من حُكم الفجّار الى حكم الكفار ، وليس قتل حُجْر بن عَدِىّ ، وإطعامُ عمرو بن العاص خراجَ مِصر ، وبيعةُ يزيد الخَليع ، والاستئثارُ بالفىْء ، واختيارُ الوُلاة على الهوى ، وتعطيلُ الحدود بالشفاعة والقرابة ، من جنس جحد الأحكام المنصوصة ، والشرائع المشهورة ، والسُّنَنِ المَنْصوبة ، وسواءٌ فى باب مايستحقّ من الكفار جحدَ الكتاب ، وردُّ الســنة اذا كانت الســنة فى شُهْرة الكتاب وظهوره ، إلا أنّ أحدَهما

---

(١) الزابوقة : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل أوّل النهار .

أعظم ، وعقابَ الاخرة عليه اشدّ ، فهذه أوّل كَفْرَة ، كانت من الأمّة ، ثم لم تكن إلّا فيمن يَدّعى إمامتها ، والخلافة عليها ؛ على أنّ كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره ، وقد أرْبَتْ عليهم نابتةُ عصرنا ، ومُبْتَدِعةُ دهرنا ، فقالت : لا تَسبّوه ، فإنّ له صحبة ، وسبّ معاوية بدعة ، ومَن يُبْغضه فقد خالف السنة ، فزعمتْ أنّ من السنة تركَ البَرَاءة ، ممن جحَد السنة ؛ ثم الذى كان مِن يزيدَ ابنه ، ومن عمّاله ، وأهل نُصْرته ، ثم غزو مكةَ ، ورمى الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام ، فى أكثر أهل بيته ، مصابيح الظلام ، وأوتاد الإسلام ، بعد الذى أعطى من نفسه ، من تفريق أتباعه ، والرجوع الى داره وحَرَمه ، أو الذّهاب فى الأرض ، حتّى لا يُحسّ به أو المُقام حيث أُمِرَ به ، فأبوْا إلّا قتله ، والنزولَ على حكمهم ، وسواءٌ قتل نفسَه بيده ، أو أسْلَمها الى عدوّه ، وخُيِّر فيها مَن لا يبرُد غليله إلّا بشُرْب دمه ، فاحسُبوا قتلَه ليس بكفر ، وإباحةَ المدينة ، وهتْكَ الحُرمة ، ليس بحجة ؛ كيف تقولون فى رمْى الكعبة ، وهدمِ البيت الحرام ، وقِبلة المسلمين ؟ فإن قُلتم ليس ذلك أرادوا بل إنّما أرادوا المتحرّز به ، والمتحصّن بحيطانه ، أفما كان فى حق البيت وحريمه أن يَحصُروه فيه ، الى أنْ يُعْطى بيده ! وأىّ شىءٍ بَقِى من رجُل ، قد أخذَتْ عليه الأرض إلا موضعَ قدمه ! واحسُبوا ماروَوا عليه من الأشعار ، التى قَوْلها شِرْك ، والتمثّل بها كفرٌ ، شيئا مصنوعا ؛ كيف تصنع بنَقْر القضيب بين ثَنِيَّتَى الحسين عليه السلام ، وحمل بنات رسول الله صلّى الله عليه وسلم حواسرَ على الأقتاب العارية ، والإبل الصِّعاب ، والكشف عن عورة على بن الحسين عند الشك فى بلوغه ! على أنّهم إنْ وجدوه ، وقد أنبت قتلوه وإنْ لم يكن أنبت حملوه ، كما يصنع أميرُ جيش المسلمين ، بذرارى المشركين ؛ وكيف تقول فى قول عُبَيْد الله بن زياد لإخوته وخاصّته ، دعونى أَقتلْه ، فإنّه بقيّةُ هذا النسل ، فأَحسِم به هذا القرنَ ، وأُميت به هذا الداءَ ، وأقطع به هذه المادة !

خبّرونا علام تُدل هذه القسوةُ ، وهذه الغلظة ! بعد أنْ شفوْا أنفسهم بقتلهم ، ونالوا ما أحبّوا فيهم ، أتدلّ على نَصْب ، وسوء رأي وحقْد ، وبغضاءَ ونفاق ، وعلى يقين مدخول

وإيمانٍ مخروج ! أمْ تدلّ على الإخلاص ، وعلى حبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والحِفْظ له ، وعلى براءة الساحة وصحـة السريرة ! فإنْ كان على ما وصفنا لا يَعْـدو الفسقَ والضلال ، وذلك أدنى منازله ، فالفاسق ملعون ، ومَن نَهى عن نَهى الملعون فملعون .

وزعمتْ نابتة عصرنا ، ومبتدعةُ دهرنا ، أنّ سبّ وُلاة السوء فِتنـةٌ ، ولعنَ الجوَرَة بِدْعَة ، وإنْ كانوا يأخذون السّميّ بالسّميّ ، والوليّ بالوليّ ، والقريبَ بالقـريب ، وأخافوا الأولياءَ ، وأمّنوا الأعداء ، وحكموا بالشفاعة والهوَى ، وإظهارِ الغدرة والتهاون بالأمّة ، والقَمْع للرّعيّة ، وأنّهم في غير مُداراة ولا تقيّة ، وإنْ عدا ذلك الى الكفر ، وجاوز الضلال الى الجحْد ، فذاك أضلّ ممّن كفّ عن شَتْمهم ، والبراءة منهـم ، على أنّه ليس مَن استحقّ اسمَ الكفر بالقتـل كمَن استحقّه بردّ السـنة وهدم الكعبة ، وليس مَن استحقّ اسم الكفر بذلك كمَن شبّه الله بخلقه ، وليس مَن استحقّ الكفر بالتشبيه كمن استحقّه بالتجْوِير(1) ، والنابتة فى هذا الوجه أكفرُ من يزيدَ وأبيه ، وابن زِياد وأبيه ، ولو ثبت أيضا على يزيدَ أنّه تمثل بقول بن الزِّبَعْـرَى :

ليتَ اشْياخى ببدْرٍ شهدوا ‏*‏ جزعَ الخزْرَج من وَقْع الأَسَلْ
لاسـتطاروا واستهلّوا فَرَحًا ‏*‏ ثم قالوا يا يزيدُ لا تَسَـل
قد قتلنا الغُرّ من ساداتهم ‏*‏ وعدَلْنـاهُ ببـدرٍ فاعتـدَل

كان تجويرُ النابتى لربّه ، وتشبيهه بخلقه ، أعظمَ من ذلك وأقطع ، على أنهـم مُجْمِعون على أنّه ملعون من قتـل مؤمنا ، متعمدا أو متأولا ؛ فاذا كان القاتل سلطانا جائرا ، أو أميرا عاصيا ، لم يستحلوا سـبّه ، ولا خلعه ، ولا نفيه ، ولا عيبه ، وإنْ أخاف الصلحاء ، وقتل الفقهاء ، وأجاع الفقير ، وظلم الضعيف ، وعطّل الحدود والثغور ، وشرب الخمور ، وأظهر الفجور ؛ ثم ما زال الناس يتسكعون مرّة ، ويداهنونهم مرّة ، ويقاربونهم مرّة ، ويشاركونهم مرّة إلّا بقيّةً ممن عصمَه الله تعالى ذكْره ، حتى قام عبد الملك بن مرْوان ، وابنه الوليد ،

(1) نسبه الله الى الجور .

وعاملهما الحجاج بن يوسف، ومولاه يزيد بن أبى مُسْلِم، فأعادوا على البيت بالهدم، وعلى حَرَم المدينــة بالغَزْو، فهدموا الكعبة، واستباحوا الحُرْمة، وحوّلوا قبــلة واسطَ، وأخّروا صلاة الجمعة، الى مُغَيْربانِ الشمس، فإن قال رجل لأحدهم : اتق الله فقد أخّرت الصلاة عن وقتها، قتله على هــذا القول جهارا غيرَ ختْلٍ، وعَلانيةً غيرسرّ، ولا يُعْــلَم القتل على ذلك إلّا أقبحَ من إنكاره، فكيف يكفّر العبد بشىء ولا يكفّر بأعظم منه !

وقدكان بعض الصالحين ربّما وعظ الجبابرة، وخوّفهم العواقبَ، وأراهم أنّ فى الناس بَقيّةً يَنْهَوْن عن الفساد فى الأرض، حتى قام عبد الملك بن مَرْوان، والحجاجُ بن يوسف، فزجرا عن ذلك، وعاقبا عليه، وقتلا فيه، فصاروا لا يَتَناهَوْن عن منكر فعلوه؛ فاحسبْ تحويل القبلة كان غلطا، وهدم البيت كان تأويلا، واحسبْ ما رووْا من كلّ وجه، أنّهم كانوا يزعمون أنّ خليفة المرء فى أهله أرفعُ[1] عنده من رسوله اليهم، باطلا ومسموعا مولّدا، واحسب وَسْمَ أيدى المسلمين ونقشَ أيدى المسلمات، وردَّهم بعد الهجرة الى قُراهم، وقتلَ الفقهاء، وسبَّ أئمة الهُدَى، والنّصْب لعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يكون كفرا؛ كيف تقول فى جمع ثلاث صلوات فيهنّ الجمعة، ولا يُصَلّون أُولاهنّ، حتى تصير الشمسُ على أعالى الجُدران، كالمُلاَءِ المُعَصْفَر، فإن نطق مسلمٌ، خُبِطَ بالسيف، وأخذتْه العُمُد، وشُكّ بالرّماح، وإن قال قائل : اتّق الله أخذتْه العِزّة بالإثم، ثم لم يَرْضَ إلا بنثر دِماغِه على صدره، وبصلْبِه حيث تراه عِيــالُه، وممــا يَدُلّ على أنّ القومَ لم يكونوا إلا فى طريق التمــرُّد على الله عزّ وجلّ، والاستخفاف بالدين، والتهاونِ بالمسلمين، والابتذالِ لأهل الحق، أكلُ أُمرائهم الطعامَ، وشرْبُهم الشرابَ على منابرهم أيّام جُمَعِهم وجُموعهم، فَعلَ ذلك حُبَيْش[2] بن دُلَجَة، وطارق مولى عثمان، والحجّاج بن يوسف، وغيرُهم، وذلك إنْ كان كفرا كلّه فلم يبــلغ كفرَ نابتة

(١) يشير بذلك الى ماورد عن الحجاج انه قال فى كلام له : ويحكم أخليفة أحدكم فى أهله أكرم عليه أم رسوله اليهم، يريد بذلك تفضيل مقام الخلافة على مقام الرسالة. وبمثل هــذا رمى الحجاج بالكفر وقد عقــد ابن عبد ربه فى العقد الفريد فصلا فيمن زعم ان الحجاج كان كافرا راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣

(٢) فى الأصل : «حسن» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه كما فى شرح القاموس والطبرى .

عصرنا، وروافض دهرنا ، لأنّ جنس كفر هؤلاء غيرُ كفر أولئك . كان اختلاف الناس في القَدَر على أنّ طـائفة تقول كلّ شيء بقضاء وقدر، وتقول طائفة أخرى كل شيء بقضاء وقَدَر إلا المعـاصيَ ، ولم يكن أحد يقول إنّ الله يعذّب الأبناء ليَغيظَ الآباء، وإنّ الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان، مثلَ العمى والبصر، وكانت طائفة منهم تقول إنّ الله يرى ، لا تزيد على ذلك، فإن خافتْ أن يُظَن بها التشبيهُ قالت يُرَى بلا كيف تَقَزّزًا من التجسيم والتصوير، حتى نبتت هذه النابتة، وتكلّمت هـذه الرافضة، فقالت جسيا، وجعلتْ له صورة وحدّا، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير، ثم زعم أكثرهم أنّ كلام الله حَسَن وبين وحجةٌ وبرهان، وأنّ التوراة غير الزبور، والزبورَ غيرُ الانجيـل، والانجيلَ غيرُ القرآن، والبقرةَ غيرُ آل عمران، وأن الله تولّى تأليفه، وجعلَه برهانَه على صدق رسوله، وأنّه لو شاء أن يَزيد فيه زاد، ولو شاء أن يَنْقُص منـه نَقَص ، ولو شاء أن يبدّله بدّله ، ولو شاء أنْ يَنْسَخَه كلّه بغيره نسخَه، وأنه أنزله تنزيلا، وأنّه فصله تفصيلا، وأنّه بالله كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلّا هو ، غيرَ أن الله مع ذلك كله لم يخلقـه ، فأَعْطَوْا جميع صفات الخلق، ومنعوا اسم الخلق .

والعجبُ أنّ الخلْقَ عند العرب إنّمـا هو التقدير نفسُه، فَلِذا قالوا : خَلَقَ كذا وكذا، ولذلك قال : ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ . وقال : ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وقال : ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ فقالوا : صنَعه وجعلَه وقدّره، وأنزلَه وفصّله وأحدثه، ومنعوا خلقَه، وليس تأويلُ خلقَـه أكثرَ من قَـدّره ، ولو قالوا بدلَ قولهـم : قدّرَه ولم يخلُقْه خلقَـه ولم يقَـدّره ما كانت المسألة عليهم إلّا من وجهٍ واحد ؛ والعجب أن الذى منعه بزعمه أن يَزْعُم أنّه مخلوق، أنه لم يسـمع ذلك من سَلَفه ، وهو يعـلم أنه لم يسمع أيضا من سلفه أنه ليس بمخلوق ، وليس ذلك بِهِمُّ، ولكنْ لمّـا كان الكلام من الله تعالى عندَهم على مثل خروج الصوت من الجوف ، وعلى جهةِ تقطيع الحروف ، وإعمـال اللّسان والشفتين ، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام، ولمّـا كنّا عندهم على غيرهذه الصفة،

وكنا لكلامنا غيرَ خالقين ، وجب أنّ الله عز وجل لكلامه غيرُ خالق ؛ اذ كنا غيرَ خالقين لكلامنا ، فإنّما قالوا ذلك ، لأنّهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فَرْقا ، وإنْ لم يُقرُّوا بذلك بألسنتهم فذلك معناهم وقصدُهم .

وقد كانتْ هذه الأمّةُ لاتجاوز معاصيها الإثمَ والضلالَ ، إلّا ماحكيتُ لك عن بنى أمية ، وبنى مرْوان ، وعمّالهم ، ومن لم يَدِن بإكفارهم حتّى نجَمَت النوابت ، وتابعتْها هذه العوام ، فصار الغالبُ على هذا القرن الكفرَ ، وهو التشبيهُ والجبْر ، فصار كفرهُم أعظمَ مِن كفر مَن مضى فى الأعمال التى هى الفسقُ ، وشركاءَ(١) مَن كفر منهم بتَوليِّهم ، وترك إكفارِهم ، قال الله عز وجل مِن قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وأرجو أن يكونَ اللهُ قد أغاث المُحِقِّين ، ورحِمهم وقوّى ضَعفهم ، وكثّر قِلّتهم ، حتّى صار وُلاة أمرنا فى هذا الدهرِ الصعبِ والزمن الفاسد أشدَّ استبصارا فى التشبيه من عِلْيَتنا ، وأعْلَم بما يلزم فيه منّا ، وأكشفَ للقناع من رؤسائنا ؛ وصارفوا الناس وقد انتظموا معان(٢) الفساد أجمع ، وبلغوا غاياتِ البدع ، ثم قرنوا بذلك العصبيّةَ التى هلك بها عالَمٌ بعد عالم ، والحميّةَ التى لا تُبْقِى دينا إلّا أفسدتْه ، ولا دنيا إلّا أهلكتها ، وهو ماصارت اليه العجم من مذهب الشُّعُوبية ، وما قد صار اليه الموالى من الفَخْر على العجم والعرب ، وقد نجَمت من الموالى ناجمةٌ ، ونبتتْ منهم نابتةٌ ، تزعم أن المولى بوَلائه قد صار عربيا ، لقول النبىّ صلّى الله عليه وسلم : «مَوْلَى القومِ منهم» ولقوله : « الوَلاء لُحْمَة كلُحْمَة النسبِ لا يُباع ولا يُوهب » .

قال : فقد علمنا أنّ العجم حين كان فيهم المُلْك والنبوّة كانوا أشرفَ من العرب ، ولمّا حُوِّل ذلك الى العرب صارتِ العربُ أشرفَ منهم ، قالوا : فنحن معاشرَ الموالى بقديمنا فى العجم أشرفُ من العرب ، وبالحديث الذى صار لنا فى العرب أشرفُ من العجم ، وللعرب القديمُ دون الحديث ؛ ولنا خَصْلتان جميعا وافرتان فينا ، وصاحب الخَصْلتَين

(١) كذا فى الأصل ، ولعله : وصاروا شركاء الخ . (٢) معان بفتح الميم والعين : المباءة والمنزل .

أفضلُ مِن صاحب الخصْلة ، وقد جعل الله المولى بعـد أن كان عجميا عربيا بولائه ، كما جعل حليفَ قُريش من العرب قرشيا بحِلفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجميا عربيا ولولا قول النبيّ صلّى الله عليه وسلم : « إنّ اسماعيل كان عربيّا » ما كان عندنا الّا أعجميا لأنّ الأعجميّ لا يَصير عربيّا ، كما أنّ العربيّ لا يصير أعجميّا ، فإنما علمنا أنّ اسماعيل صيّره الله عربيا بعد أن كان أعجميا ، بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حكم قوله «مولى القوم منهم» وقوله : « والوَلاء لُحْمة » . قالوا : وقد جعل الله إبراهيمَ عليه السـلام أبًا لمَن لم يلِد ، كما جعله أبا لمن وَلَد ، وجعل أزواجَ النبيّ أُمّهات المؤمنين ، ولم يَلِدْن منهم أحدا ، وجعل الجار والد مَن لم يَلِد فى قولٍ غير هذا كثير قد أتينا عليه فى موضعه ، وليس أدعى الى الفساد ، ولا أجلَبَ للشرّ من المفاخرة ، وليس على ظهرها إلّا فَخور (الّا قليل) وأىّ شىءٍ أغيظُ من أنْ يكونَ عبدُك يزعم أنّه أشرفُ منك ، وهو مُقرّ أنّه صار شريفا بعِتْقك إيّاه .

وقد كتبتُ — مدّ الله فى عمرك — كُتبا فى مُفاخرة قَحطان ، وفى تفضـيل عَدْنان ، وفى ردّ الموالى الى مكانهم من الفضل والنقص ، والى قدر ما جعـل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ؛ وأرجو أنْ يكون عدلًا بينهم ، وداعيـةً الى صلاحهم ، ومَنْبَهةً عليهم ولهم ؛ وقد أردتُ أن أُرسل بالجزء الأوّل اليك ثم رأيتُ ألّا يكونَ إلّا بعد استئذانك ، واستئمارك ، والانتهاء فى ذلك الى رَغبتك ، فرأْيُك فيه موفّق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة .

وكتب الى بعض إخوانه فى ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله حفظ من وفّقه للقناعة ، واستعمله بالطّاعة ؛ كتبتُ اليك وحالى حالُ من كثُفت غمومه ، وأَشكلت عليه أموره ، واشـتبه عليه حالُ دهره ، ومَخْرج أمره ، وقلّ عنده من يثق بوفائه ، أو يحمَد مغبّة إخائه ، لاستحالة زماننا ، وفساد أيامنا ، ودولة أنذالنا ؛ وقِدْما كان مَنْ قدّم الحيـاءَ على نفسه ، وحكّم الصدق فى قوله ، وآثر الحق فى أموره ، ونبذ المُشتبهات عليه من شؤونه ، تمّتْ له السلامة ، وفاز بوُفور حظّ العافية ، وحمد مغبّة مكروه

العاقبة ؛ فنظرنا إذ حال عندنا حكمه، وتحولت دولته ؛ فوجدنا الحياء متّصلا بالحرمان والصدق آفة على المال، والقصد فى الطلب بترك آستعمال القحة، وإخلاق العرض من طريق التوكّل دليلا على سخافة الرأى، إذ صارت الحظوة البالغة، والنعمة السابغة، فى لؤم المشيئة، وسناء الرزق من جهة محاشاة الرخاء، وملابسة معرّة العار؛ ثم نظرنا فى تعقب المتعقّب لقولنا، والكاشر لحجّتنا ؛ فأقمنا له علما واضحا، وشاهدا قائما، ومنارا بيّنا ؛ إذ وجدنا من فيه السُّفوليّة الواضحة، والمثالب الفاضحة، والكذب المبرّح، والخلف المصرح، والجهالة المفرطة، والركاكة المستخفّة، وضعف اليقين والاستثبات، وسرعة الغضب والجراءة، قد آستكمل سروره، وآعتدلت أموره، وفاز بالسهم الأغلب، والحظ الأوفر، والقدر الرفيع، والجواز الطائع، والأمر النافذ ؛ إن زلّ قيل حكم، وإن أخطأ قيل أصاب، وإن هذى فى كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة من نسمة مباركة ؛ فهذه حجّتنا والله على من زعم أنّ الجهل يخفض، وأنّ النوك يردى، وأنّ الكذب يضرّ، وأنّ الخلف يزرى ؛ ثم نظرنا فى الوفاء والأمانة والنبل والبلاغة وحسن المذهب وكمال المروءة وسعة الصدر وقلّة الغضب وكرم الطبيعة، والفائق فى سعة علمه، والحاكم على نفسه، والغالب لهواه، فوجدنا فلان بن فلان ؛ ثم وجدنا الزمان لم ينصفه من حقه، ولا قام له بوظائف فرضه، ووجدنا فضائله القائمة له قاعدة به ؛ فهذا دليل أنّ الطلاح أجدى من الصلاح، وأن الفضل قد مضى زمانه، وعفت آثاره، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضدّه ؛ ووجدنا العقل يشقى به قرينه، كما أنّ الجهل والحمق يحظى به خدينه ؛ ووجدنا الشعر ناطقا على الزمان، ومعربا عن الأيام حيث يقول :

تحامق مع الحمقى اذا ما لقيتهم * ولاقهم بالجهل فعل أخى الجهل
وخلّط اذا لاقيت يوما مخلّطا * يخلّط فى قول صحيح وفى هزل
فإنى رأيت المرء يشقى بعقله * كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

فبقيتُ — أبقاك الله — مثلَ من أصبح على أوفاز[1]، ومن النُّقلة على جهاز، لا يسوغ له نعمة، ولا تَطْعَم عينهُ غَمْضة، فى أهاويلَ يبا كِره مكروهُها، ويُراوحه عَقابُها؛ فلو أنّ الدعاء أُجيب، والتضرّع سُمِع، لكانت العِدّة العظمى، والرَّجْفة الكبرى؛ فليتَ أىْ أنحى ما أستبطئه من النَّفخة، ومن فَجْأة الصَّيحة، قُضِى فكانَ، وأُذِن به فكان؛ فوالله ما عُذّبتْ أمة برَجْفة، ولا ريح ولا سَخْطة، عذابَ عينى برؤية المُغايظة المُدْمنة، والأخبار المهلكة، كأنّ الزمان يُوكَّل بعذابى، أو يُنْصَب بأيامى، فما عيشُ من لا يُسَرّ بأخ شفيق، ولا يَصْطبح فى أوّل نهاره، إلا برؤية من يكرهه، ويَغُمّه بطلعته؛ فقد طالت الغُمّة، وواظبت الكُربة، وآدلهمّت الظُّلمة، وخمَد السراج، وتَبَاطأ الآنفراج .

وصف الجاحظ لقريش وبنى هاشم

قد علِم النــاسُ كيف كرمُ قريش وسَخــاؤها، وكيف عقولها ودَهاؤها؛ وكيف رأيُها وذكاؤها، وكيف سياستُها وتدبيرها؛ وكيف إيجازها وتحسـيرها، وكيف رجاحة أحلامها اذا خَفّ الحليم، وحِدّة أذهانها اذا كلّ الحديد؛ وكيف صَبْرها عند اللقاء، وثباتها فى اللّأْواء؛ وكيف وفاؤها اذا آستُحْسن الغــدر؛ وكيف جــودها اذا حُبّ المــال؛ وكيف ذكرها لأحاديث غدٍ، وقلّة صــدودها عن جهة القصد؛ وكيف إقرارها بالحقّ وصــبرها عليه؛ وكيف وصفها له ودُعاؤها اليه؛ وكيف سماحة أخلاقها، وصونُها لأعْراقها؛ وكيف وصلوا قديمَهم بحديثهم، وطريفَهم بتليدهم؛ وكيف أشــبه عَلانِيَتُهم سرَّهم، وقولُهم فعلَهم، وهل سلامة صــدر أحدهم إلا على قدر بُعد غديره، وهل غفلته إلا فى وزن صِدق ظنّه، وهل ظنه إلا كيقين غيره .

---

(١) أى على سفر .

وكتب فى الاعتذار :

أما بعد فنعم البَديلُ مِنَ الزَّلّة الاعتذار، و بئس العِوَضُ من التوبة الإصرار، وإن أحقّ من عطَفتَ عليه بحلمك من لم يَسْتَشفع إليك بغيرك، وإنى بمعرفتى بمَبْلغ حِلْمك وغايةِ عفوك، ضمنت لنفسى العفو من زَلّتها عندك، وقد مسّنى من الألم ما لم يَنْفِه غير مُواصلتك .

وله فى الاستعطاف :

ليس عندى أعزّك اللهُ سببٌ ولا أقدُر على شفيع إلا ما طَبَعَك الله عليــه من الكرم والرحمــة والتأميل الذى لا يكون إلا من نتاج حسن الظن و إثبات الفضــل بحال المأمول وأرجو أن تكون من الشاكرين فتكون خير مُعْتِب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعــام سببا للانقطاع إليكم والكون تحت أجنحتكم، فيكون لا أعظم بركة، ولا أَنْمَى بقيّة من ذنب أصبحت فيه، و بمثلك — جعلتُ فداك — عاد الذنبُ وسيلةً، والسيئة حسنة، ومثلك من انقلب به الشرّ خيرا والغُرْم غُنْمًا .

من عاقَب فقد أخذ حظّه، و إنمــا الأجر فى الآخرة، وطيب الذكر فى الدنيا، على قَدْر الاحتمال وتَجَرُّع المرائر وأرجو، ألا أَضيع وأَهْلَك فيما بين كرمك وعقلك، وما أكثر من يعفو عمّن صَغُر ذنبُه وعظُم حقّه، و إنمــا الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحُرْمة، و إن كان العفو عظيما مُسْتَطْرَفا من غيركم فهو تِلادٌ فيكم، حتى ر بما دعا ذلك كثيرا من الناس إلى مخالفة أمركم، فلا أنتم عن ذلك تَنْكُلون، ولا على سالف إحسانكم تندَمون، وما مثلكم إلا كمثــل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يمرّ بَمَلإٍ من بنى اسرائيل إلا أسمعوه شرًّا وأسمعهم خيرا، فقال له شَمْعُون الصفا : ما رأيتُ كاليوم كلّمــا أسمعوك شرّا أسمعتهم خيرا فقــال : كلّ آمرئ يُنفِق ممّــا عنده وليس عنــدكم إلا الخير ولا فى أَوعِيَتكم إلّا الرحمــة "وكلُّ إناءٍ بالذى فيه ينضح" .

ولە فى ذَمّ الحسد :

الحسد — أبقاك الله — داءٌ يَنْهَك الجسد، علاجُه عسير وصاحبه ضَجِر وهو باب غامض، وما ظَهَر منه فلا يُداوَى وما بَطَن منه فمُداوِيه فى عَناء، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « دَبّ اليكم داءُ الأمم من قبلكم : الحسدُ والبغضاء » . الحسد عَقِيد الكفر، وحليف الباطل، وضدّ الحقّ منه تَتولّد العداوةُ وهو سبب كلّ قطيعة ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رَحِم من الأقرباء ومُحْدِث التفرّق بين القرناء، وملَقِّح الشرّ بين الحلفاء .

دفاع الجاحظ عن مؤلفـاته :

وقد ذكر الجاحظ جلَّ مؤلَّفاته فى كتاب "الحيوان" (1) ودافع عنها بعد أن وصفها فقال : جنّبك الله الشبهة، وعصَمك من الحَيْرة وجعل بينك وبين المعرفة نَسَبا، وبين الصدق سَبَبا، وحَبَّب اليك التثبّت، وزيّن فى عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عِزّ الحقّ، وأودع صدرَكَ بَرْدَ اليقين، وطرد عنك ذُلّ الطمع، وعرّفك ما فى الباطل من الذّلّة، وما فى الجهل من القِلّة، ولَعَمْرى لقد كان غيرُ هذا الدعاء أصوبَ فى أمرك، وأدلّ على مِقدار وَزْنك، وعلى الحال التى وَضعْت نفسك فيها، ووسمْت عِرْضك بها، ورَضِيتها لدينك حظّا، ولمُروءتك شكْلا ؛ فقد انتهى الىّ ميلُك على أبى إسحاق، وحَمْلُك علىّ، وطعنُك على مَعْبَــد، وتنقّصُك له فى الذى كان جرى بينهما فى مَساوى الديك ومحاسنه، وفى ذكر منافع الكلب ومَضارّه، والذى خرجا اليه من ٱستقصاء ذلك وجمعه، ومِنْ تَتبّعه ونظمه، ومِن الموازنة بينهما، والحكم فيهما .

ثم عِبْتَنى بكتاب حِيَــل اللصوص ، وكتاب غِشّ الصــناعات، وعِبْتَنى بكتاب المُلَح والطُّــرَف، وما حَرّ من النوادر وبَرُد، وعاد باردُها حارّا بفرط بَرْده، حتّى أَمْتَع بأكثر من آمتاع الحارّ، وعِبْتَنى بكتاب آحتجاجات البُخَلاء، ومناقضتهم للسُّمحاء، والقوى فى الفَرْق بين

---

(1) اعتمدنا فى تصحيح هذه الفصول على الأصل الفتوغرافى المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥ آداب، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بمطبعة السعادة بمصر فى غاية التحريف وملأى بالأخطاء .

الصدق اذا كان ضارا فى العاجل، والكذب اذا كان نافعا فى الآجل، ولم جعلنا الصدق أبدا محمودا، والكذب أبدا مذموما، والفرق بين الغَيْرة وإضاعة الحُرْمة، وبين الإفراط فى الحَمِيّة والأَنَفَة، وبين التقصير فى حِفْظ حقّ الحُرْمة، وقلّة الاكتراث بسوء القالَة؛ وهل الغَيْرة اكتساب وعادة، وبعضُ ما يَعْرِض من جهة الديانة ولبعض التزيّد فيه والتحسن به، أو يكون ذلك شيئا فى طبع الحرية وحقيقة الجوهريّة، ما كانت العقول سليمةً، والافات مَنْفيّة، والأخلاطُ مُعْتدِلة؛ وعبتنى بكتاب الصُّرحاء والهُجَناء، ومُفاخرةِ السودان والحُمْران، والموازنة بين حقّ الخُؤُولة والعُمُومة؛ وعبتنى بكتاب الزرع والنخل، والزيتون والأعناب، وأقسام فضولِ الصناعات، ومراتبِ التجارات؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفَـرْق ما بين الذكور والإناث، وفى أىّ موضع يَغْلِبن ويَفْضُلن، وفى أىّ موضع يكنّ المغلوبات والمَفْضولات، ونصيبُ أيّهما فى الولد أوفر، وفى أىّ موضع يكون حقّهن أوجبَ، وأىّ عمل هو بهنّ أليقُ، وأىّ صناعة هنّ فيها أبلغُ، وعبتنى بكتاب القَحْطانيّة وكتاب العَدْنانيّة فى الرد على القحْطانيّة، وزعمت أنّى تجاوزتُ فيه حدّ الحَمِيّة، الى حدّ العصبية، وأنّى لم أصل الى تفضيل العَدْنانيّة إلا بتنقّص القَحْطانيّة؛ وعبتنى بكتاب العرب والمَوَالى، وزعمتَ أنّى بَخَسْت الموالىَ حقوقهم، كما أنّى أَعْطيت العرب ماليس لهم؛ وعبتنى بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول فى فَرْق ما بين العرب والعجم هو القولُ فى فرق ما بين الموالى والعرب، ونسبتنى الى التَّكرار والتَّرْداد، والى التكثير والجهل بما فى المَعاد من الخَطَل، وحمْل الناس المُؤَن؛ وعبتنى بكتاب الأصنام، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إيّاها، وكيف اختلفا فى جهة العِلّة مع اتفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عُبّاد البِـدَدَة[1] والمتمسّكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصنام المنجورة، أشدَّ الناس إلفا لما دانوا به، وشعفا بما تعبّدوا له، وأظهرهم جِدّا، وأشدّهم على مَن خالفهم ضِغْنا، وبما دانوا صبابة وعُجْبا، وما الفرق بين البُدّ والوثَن، وما الفرق بين الوثن والصنم، وما الفرق

(١) البددة جمع بدّ، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم نفسه كما قال ابن دريد .

بين الدُّمْية والجُثّة ، ولِم صوّروا فى محاريبهم وبيوت عِبـاداتهم صُوَر عظمائهم ورجال دعوتهم ، ولِم تأنّقوا فى التصوير ، وتجرّدوا فى إقامة التركيب ، وبالغوا فى التحسين والتفخيم ، وكيف كانت أوّلية تلك العبادات ، وكيف افترقت تلك النِّحَل ، ومن أىّ شىء كانت خُدَعُ تلك السَّدَنة ، وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عددا ، وكيف شمِل ذلك المذهبُ الأجناس المختلفـــة !

وعبتنى بكتاب المعـادن ، والقول فى جواهر الأرض ، وفى اختلاف أجناس الفِلِزّ ، والإخبار عن ذائبها وجامدها ، ومخلوقها ومصنوعها ، وكيف يُسْرِع الآنقلابُ الى بعضها ويُبْطئ عن بعضها ، وكيف صار بعض الألوان يَصْبغ ولا ينصبغ ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ ، وبعضها يصبغ وينصبغ ، وما القول فى الإكسير والتلطيف ؛ وعبتنى بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس ، وبكتاب فرق ما بين الجنّ والإنس ، وفرق ما بين الملائكة والجنّ ، وكيف القول فى معرفة الهُدْهُد وآستطاعة العفريت ، وفى الذى كان عنده علم من الكتاب ، وما ذلك العـلم ، وما تأويل قولهم : كان عنده اسم الله الأعظم ؛ وعبتنى بكتاب الأوفاق والرياضات ، وما القول فى الأرزاق والإنفاقات ، وكيف أسباب التثمير[1] والترقيح وكيف تجتلب التجّارُ الحُرَفاء ، وكيف الاَحتيالُ للودائع ، وكيف التَّسَبُّبُ إلى الوصايا ، وما الذى يوجب لهم التعـديل ، ويَصْرِف اليهم بابَ حُســن الظنّ ، وكيف ذكرنا غشّ الصناعات والتجارات ، وكيف التَّسَبُّب الى تَعَـرّف ما قد سَتَرُوا ، وكشف ما مَوّهُوا ، وكيف باب الاحتراس منه والسلامة من أهله ! . وعبتنى برسائلى ، وبكلّ ما كتبتُ به الى إخوانى وخُلَطائى من مَزْح وجِدّ ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تَغَافُل وتوقيف ، ومن هِجاء لا يزال وسْمُهُ باقيـا ، ومديح لا يزال أثرُهناميا ، ومن مُلَح تُضْحِك ، ومواعظَ تبكى ؛ وعبتنى برسائلى الهاشميّات ، وآحتجاجى فيهـا ، وآستقصائى معانيها ، وتصويرى لهـا فى أحسن صورة ، وإظهارى لها فى أتمّ حِلْيَة ، وزعمتَ أنّى قد خرجتُ بذلك من حد المُعْتَزِلة الى حدّ الزَّيْدِيّة ،

(١) التثمير والترقيح : نموّ المال وإصلاحه .

ومن حدّ الاعتدال فى التشيّع والاقتصاد فيه الى حدّ السَّرَف والإفراط فيه، وزعمت أن مقالة الزيْدِيّة خطبة مقالة الرافضة ، ومقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية ، وزعمت أن فى أصل القضيّة ، والذى جرت عليه العادة أنّ كلّ كبير فأوّله صغير ، وأن كلّ كثير فإنما هو قليل جُمِع الى قليل ، وأنشدتَ قول الراجز :

قد يَلْحَق الصغيرُ بالجليل * وإنّما القَرْمُ من الأَفِيل (١)

* وسُحُقُ النَّخْلِ من الفَسِيل *

وأنشدتَ قول الشاعر :

رُبّ كبيرٍ هاجَه صغيرُ * وفى البحور تَغْرق البُحورُ

وقلتَ وقال يزيد بن الحكم :

واعلم بُنَىّ فإنّه * بالعلم يَنْتَفِع العليم

إنّ الأمور دَقيقُها * ممّا يَهِيج له العظيم

وقلت وقال الاخر :

صار جِدًّا ماَمزَحتُ به * رُبَّ جِدٍّ ساقه اللَّعِبُ

وأنشدت قول الاخر وهو عنترة (٢) :

ما تَنْظرون بحقّ وَرْدَةَ فيكُمُ * تُقْضى الأمور ورَهْط وردة غُيَّبُ

قد يَبْعَثُ الأمرَ الكبيرَ صغيرُه * حتّى تَظَلّ له الدّماء تَصَبَّبُ

وقالت كَبْشَةُ بنت مَعْديكرب :

جَدَعْتُم بِعَبْد الله آنُفَ قَوْمِه * بَنِى مازِنٍ أَنْ سُبّ راعِى المُخَزَّمِ

وقال الآخر :

أَيَّةُ نارٍ قدَح القادح * وأىّ جِدٍّ بلغ المازِحُ

(١) الأفيل : صغر الإبل .

(٢) والصواب أن البيتين لطرفه وهما من جملة أبيات فى ديوانه .

وتقول العرب : «العَصَى من العُصَيَّة ولا تلد الحيّة إلا حُيَيّة» ؛ وعبت كتابى فى خَلْق القــرآن ، كما عبت كتابى فى الردّ على المُشَــبِّهة ؛ وعبت كتابى فى أصول الفُتْيا والأحكام ، كما عبت كتابى فى الاحتجاج لنظم القرآن ، وغَريب تأليفه ، وبديع تركيبه ؛ وعبت مُعارَضَتى الزَّيْدِيّة ، وتفضيلى الاعتزالَ على كلّ نِحْلة ، كما عبت كتابى فى الوعد والوعيد ، وكتابى على النصارى واليهود ، ثم عبت جُمْلة كتبى فى المعرفة ، والتمست تهجينها بكلّ حِيلة ، وصغّرت من شأنها ، وحطَطْت من قدرها ، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها .

وعبت كتاب الجوابات وكتاب الرسائل ، وكتاب الردّ على أصحاب الإلهام ، وكتاب الحُجّة فى تثبيت نُبُوّة النبيّ صـلى الله عليه وسـلم ، وكتاب الأخبـار ؛ ثم عبت كتابى إنكارى بَصيرةَ غَنّامٍ المُرتدّ ، وبصيرة كلّ جاحد ومُلْحد ، وتفريق بين اعتزام الغُمْر(١) وبين استبصار المُحِقّ ؛ وعبت كتاب الرد على الجَهْمِيّة فى الإدراك ، وفى قولهم فى الجهالات ، وكتاب الفرق ما بين النبيّ والمُتَنَبّى ، والفرق بين الحيل والمَخاريق ، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام القاهرة ؛ ثم قصدت الى كتابى هــذا بالتصغير لقدره ، والتهجين لنَظْمـه ، والاعتراض على لفظه ، والتحقير لمعانيه فزَرَيْت على نحتــه وسبكه ، كما زَرَيْت على معناه ولفظه ، ثم طعنت فى الغرض الذى اليه نَزَعنا ، والغاية التى اليها أجرينا(٢) ، وهنا كتاب معناه أنبه من اسمه ، وحقيقته آنَقُ من لفظه ، هو كتاب يحتاج اليه المتوسِّط العاميّ ، كما يحتاج اليه العالم الخاصيّ ، ويحتاج اليــه الرِّيض ، كما يحتاج اليه الحاذق .

أما الرِّيض فللتّعَلُّم والدُّرْبة ، وللترتيب والرياضــة ، وللتمرين وتمكين العادة ، اذ كان جليله يتقدّم دقيقه ، واذ كانت مُقَدّماته مُرَتّبة ، وطبقات معانيه مُنَزّلة ؛ وأما الحاذق فلكفاية المَؤُونة ، ولأنّ كلّ مَن التقط كتابا جامعا ، وبابا من أمهات العلم مجموعا كان له غُنْمه ، وعلى مُؤلِّفه غُرْمُه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كَدّه ، مع تَعَرُّضــه لمطاعن البُغاة ، ولاعتراض

(١) الغمر مثلثة الغين : من لم يجرب الأمور ، والجاهل الأبله .

(٢) أجرينا : قصدنا .

المنافسين، ومع عَرْضه عقله المكدودَ على العقول الفارغة، ومعانيَه على الجهابذة، وتحكيمه فيه المتأولين والحَسَدة، ومتى ظفر بهذه صاحب علم، أو هجَم عليه طالب فِقْه، وهو وادع رَافه، ونشيط جام، ومُؤَلِّفه مُتْعب مكدود، فقد كُفِيَ مَؤونة جمعه، وخزنه وتتبعه، وطلبه، وأغناه ذلك عن طُول التفكير، واستنفاد العمر، وفَلّ الحَدّ، وأدرك أقصى حاجته، وهو مُجْتمع القوة، وعلى أنّ له عند ذلك أن يجعل هُجُومَه عليه ضربا من التوفيق، وظفَره به بابا من التسديد .

(وهذا كتاب) تستوى فيه رَغْبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا، وإسلاميا جماعيّاً، فقد أخذ من طُرَف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتّاب والسنّة، وبين وِجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفِتيان كما يشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه الجِدّىّ ذو الحزم، ويشتهيه الغُفْل كما يشتهيه الاديب، ويشتهيه الغبيّ كما يشتهيه الفَطِن ؛ وعبتنى بحكاية قول العثمانية والضِّرارية وأنت تسمعنى أقول فى أول كتابى : وقالت العثمانية والضِّرارية، وكما سمعتنى أقول : وقالت الرافضة والزَّيْدية، فحكمت على بالنّصْب لحكايتى قول العثمانية، فهلّا حكمت على بالتشيّع لحكايتى قول الرافضة، وهلّا كنتُ عندك من الغالية لحكايتى حُجَج الغالية، كما كنتُ عندك من الناصبة لحكايتى قول الناصبة ، وقد حكينا فى كتابنا قول الإباضيّة والصُّفْريّة ، كما حكينا أقاويل الأزارقة والنجديّة ، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنِيت الخارجيّة ، وكل آسم سواها فإنما هو فرع ونتيجة وآشتقاق منها ، ومحمول عليها ، فهلّا كنّا عندك من المحكّمة الخارجة ، كما صرنا عندك من الضراريّة ، والناصبة ! وكيف رضيت بأن تكون الشيعة الى أعراض الناس أسرع من المارقة ! اللهم إلّا أن تكون وجدت حكايتى عن العثمانية والضِّرارية أشبع وأجمع، وأتمّ وأحكم وأجود صَنْعةً، وأبعد غايةً، ورأيتنى قد وَهّنتُ حقّ أوليائك بقدر ما قوّيتُ باطل أعدائك ، ولو كان ذلك كذلك لكان شاهدُك من الكتّاب حاضرا، وبرهانُك على ما آدّعيت واضحا .

وعبتنى بكتّاب العبّاسيّة فهلّا عبتنى بحكاية مقالة من ادّعى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمـة الذين زعموا أن ترك الناس سُدًى بلا قيّم أردّ عليهم ، وهَمَلا بلا راعٍ أربح لهم ، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل ، وغنيمة الآجل ، وأنّ تَرْكهم نَشَرا لا نظام لهم أبعد لهم من المفاسد ، وأجمع لهم على المراشد! بل ليس ذلك بك ، ولكنّه لمـا بهرك ما سمِعت ، وملأ صـدرك الذى قرأت ، وأبعلك وأبطرك فلم تتجه للحُجّة وهى لك مُعرّضـة ، ولم تعرف المَقاتل وهى لك بادية ، ولم تعرف باب المَخْرج إذ جهلتَ باب المَدْخل ، ولم تعرف المصادر اذ جهلت الموارد ، ورأيت أن سَبّ الأوليـاء أشفَى لدائك ، وأبلغَ فى شفاء سُقْمك ، ورأيت أنّ إرسال اللسان أحضرُ لذّة ، وأبعـدُ من النَّصَب ، ومن إطالة الفِكْرة ، ومن الاختلاف الى أرباب هـذه الصناعة ، ولو كنتَ حين فطّنت لعجزك وصَلْت نقصك بتمـام غيرك ، وٱستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك ، وحبيسٌ على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزينَ فى العـاجل ، وأحقّ بالمَثُـوبة فى الآجل ، وكنتَ إن أخطأتك الغنيمة لم تُخْطِئك السـلامة ، ولقد سلِم عليك المخالف ، بقـدر ما ٱبْتُلى به منك الموافق ، وعلى أنه لم يُبْتل منك إلّا بقدر ما ألزمته من مَؤونة تَثْقيفك ، والتشاغل بتقويمك ، وهل كنت فى ذلك إلّا كما قال العربى : * وهل يضرّ السحابَ نبح الكلاب * ؟ وإلّا كما قال الشاعر :

هل يضرّ البحـرَ أمسَى زاخرا * أنْ رَمَى فيـه غلامٌ بحجر

وهل حالنا فى ذلك إلّا كما قال الأوّل :

ما ضر تَغْلِبَ وائلٍ أَهَجَـوْتَها * أمْ بُلْتَ حيث تَنَاطَحَ البَحْرانِ

وقال حسان :

ما أُبالى أَنَبّ بالحـزن تَيْسٌ * أم لحَانى بظهـر غَيْبٍ لئـيمُ

وما أشك أنّك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطيّة لك ، ووجّهتَ حِلْمنا عنك الى الخوف منـك ، وقد قال زُفَر بن الحارث لبعض مَن لم يرحقّ الصفح بجعـل العفو سببا الى سوء القول :

فإنْ عُدْت والله الذى فوقَ عرشِه * مَنَحْتُك مَسْنُونَ الغِرَارَين أزرقا
فإنّ دواء الجهل أن تُضْرَبَ الطُّلَى(١) * وأن يُغْمَسَ العِرِّيضُ(٢) حتى يُغَرّقا

وقال الأوّل :

وما نفى عنك قوما أنت خائفُهُمْ * كمثل وقْمِك جُهّالا بجهّالِ
فاقعس إذا حدبوا واحْدَبْ إذا قَعِسوا * ووازِن الشرّ مِثْقالا بمثقالِ

وقال الآخر :

وضغائنٍ داويتها بضغائنٍ * حتّى يَمُتْنَ وبالحُقُود حُقُودا

وإنى وإن لم يكن عندى سنان زُفَرَ بن الحارث، ولا مُعارضةُ هؤلاء : الشرّ بالشرّ، والجهلَ بالجهل، والحِقْدَ بالحقد، فإن عندى ما قال المسعودىُّ :

فَمَسّا ترابَ الأرض منها خُلِقْتُما * وفيها المَعادُ والمَصيرِ الى الحشْر
ولا تَعْجَبَا أنْ تَرْجِعا فتُسَلّما * فما حُشِى الأقوامُ شرًّا من الكِبْر
فلو شِئْتُ أَدْلى فيكما غيرُ واحدٍ * علانيةً أو قال عندِىَ فى سِتْر
فإنْ أنا لمْ آمر ولم أَنْهَ عنكما * ضحِكْتُ(٣) له حتّى يَلِجّ ويَسْتَشْرِى

وقال النَّمِرُ بن تَوْلَبْ :

جزَى الله عنِّى جَمْرَةَ بنْةَ نَوْفَلٍ * جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانة كاذبِ
بما خبّرت عنِّى الْوُشاةَ لِيكذبوا * علىّ وقد أوليتُها فى النوائبِ

يقول : أخرجت خبرى الى من يشتهى أن أُعاب عندها .

ولو شئنا لعارضناك من القول بما هو أقبح أثرا، وأبقَى وسْما، وأصدق قيلا، وأعدل شاهدا، وليس كل من ترك المعارضة فقد صفح، كما أنّه ليس كل مَن عارض فقد انتصر،

---

(١) الطلى : الأعناق .

(٢) العريض : الذى يتعرّض للناس بالشر .

(٣) كذا فى الأصل، وفى اللسان فى مادة لجج : تضاحكت حتى يلج ويستشرى .

وقد قال الشاعر قولا إنْ فهمتَه كَفَيْتنا مَؤُونة المعارضـة ، وكفيت نفسـك لُزوم العار ، وهو قوله :

إنْ كُنتَ لا تَرْهَبُ ذمِّي لِما * تَعرِف من صفْحِي عن الجاهلِ
فاخْشَ سكوتى آذِنًا مُنْصِتًا * فيـك لمَسْمُوعِ خَنا القائلِ
فالسامـعُ الذمَّ شَريكٌ له * كالمُطعِم المأكولَ للآكلِ
مَقالةُ السوء الى أهلها * أسرعُ من مُنْحدِرٍ سائلِ
ومَن دعَى الناسَ الى ذَمّه * ذمّـوه بالحـقّ و بالباطـلِ
فـلا تَهِجْ إنْ كنتَ ذا إرْبةٍ * حَرْبَ أخى التَّجْـرِبة العاقلِ
فإنّ ذا العقـل إذا هِجْتَـه * هِجْتَ بِه ذا خَبَـلٍ خابـلِ
تُبْصِـر فى عاجلِ شَدّاته * عليـك غِبَّ الضررِ الاجلِ

وقد يقال : إنّ العفوَ يُفسدُ من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم ؛ وقد قال الشاعر :

والعفوُ عند لَبيب القـومِ مَوْعِظةٌ * وبعضُه لَسفيه القومِ تَدْريبُ

فإن كنّا قد أسأنا فى هذا التقريع والتوقيف ، فالذى لم يأخذ فينا بحُكْم القرآن ، ولا بأدب الرسول عليـه الصلاة والسلام ، ولم يفزع الى ما فى الفِطَن الصحيحة ، أو الى ما توجبـه المقاييسُ المُطّردة ، والأمثال المضروبةُ ، والأشعارُ السائرة ، أوْلَى بالإساءة ، وأحقّ باللائمة ، قال الله جَلّ ثناؤه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ وقد قال النبيّ عليه الصلاة والسلام : "لا تَجْنِ يَمينُك على شِمَالك" وهذا حُكْم الله جَلّ وعزّ ، وآدابُ رسوله ، والذى أُنْزِل به الكتاب ، ودُلّ عليه فى حُجَجِ العقول .

أَخْذ البرىء بذنب المذنب

ثم قال فى أخذ البَرِىء بذَنْب المذنب : فأمّا ما قالوا فى المثل المضروب ، "رَمَتْنِى بدائِها وانْسَلّت" . وأمّا قولُ الشعراء وذمُّ الخطباء لمن أخذ إنسانا بذَنْب غيره ، وما ضربوا فى ذلك من الأمثال ، كقول النابغة حيث يقول فى شعره :

وكَلَّفْتَنِي ذنبَ امرئٍ وتركتَه * كَذِى العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهو راتع

وكانوا إذا أصاب إبلَهم العُرّ كووْا السليم ليذهب العُرّ عن السقيم فأسقموا الصحيحَ من غير أن يُبْرِئوا السقيم، وكانوا إذا كثُرتْ إبلُ أحدهم فبلغت الألفَ فقئوا عينَ الفحل، فإن زادت الإبلُ على الألف فقئوا عينه الأخرى، فذلك المُفقَّأ والمُعمَّى اللذان سمعتَ بهما قال الفرزدق :

غلبتُك بالمفقّأ والمعمَّى (١) * وبيتِ المحتبِي (٢) والخافقاتِ

وكانوا يزعمون أن المفقّأ يَطْرُد عنها العينَ والسُّواف (٣) والغارة فقال الأول :

فَقَأْتُ لها عَينَ الفَحيل تَعَيُّفًا * وفيهنّ رَعْلاءُ المسامِع والحَامِ

الرّعْلاءُ : التي تُشَقّ أُذنها وتترك مُدَلّاةً لكَرَمِها .

وكانوا يقولون فى موضع الكفّارة والأُمنيّة، كقول الرجل إذا بلغتْ إبلي كذا وكذا، وكذلك غَنمي ذبحتُ عند الأوثان كذا وكذا عَتيرةً، والعَتيرةُ : من نُسك الرَّجَبيَّة، والجمع عتائر، والعتائر من الشاء، فإذا بلغت إبلُ أحدهم أو غنمُه ذلك العددَ استعمل التأويلَ وقال : إنما قلتُ : إنّى أذبح كذا وكذا شاةً، والظباء : شاء، كما أنّ الغنمَ شاءٌ، فجعل ذلك القُرْبان كلَّه مما يَصيد من الظباء، فلذلك يقول الحارث بن حِلِّزةَ اليَشكُرىّ :

عَنَتًا باطلا وظُلمًا (٤) كما تُعْـ * ـتَرُ عن حُجرة الرَّبِيض الظباءُ

بعد أن قال :

أم علينا جُناحُ كِندةَ أن يَغْـ * ـنم غازيهم ومنّا الجـزاءُ

وكانوا إذا أوردوا البقرَ فلم تشرب، إمّا لكَدَرِ الماء وإما لقلّة العطش، ضربوا الثّوْرَ ليقتحم الماءَ لأنّ البقَر تتبعه كما تتبع الشَّوْلُ الفحلَ، وكما تتبع أُتُنُ الوحش الحمارَ، فقال فى ذلك عوف بن الخرِع :

تمنَّتْ طيِّئٌ جهلا وجُبنا * وقد خاليتُهم فأبوْا خلائى

هجَوْنى أن هجوتُ جبالَ سَلْمَى * كضربِ الثوْرِ للبقرِ الظِّماءِ

(١) فى اللسان مادة «فقأ» «المعنى» . (٢) كذا فى الأصل وفى اللسان «المحتبى» بالحاء المهملة . (٣) السواف : مرض الابل . (٤) كذا فى الأصل وفى اللسان مادة عتر «وظلما» .

وقال فى ذلك أنس بن مُدْرِكة فى قتله سُليكَ بن السُّلَكة :

إنّى وقتلى سُليكا ثمّ أعقله * كالثور يُضرَبُ لما عافتِ البقرُ
أنفت للمرء إذ تُغشَى حليلتُه (١) * وإذ يُشدُّ (٢) على وجْعائها الثَّفَرُ (٣)

وقال الهيّبان الفهمىّ :

كما ضُرِبَ اليعسوبُ أنْ عاف باقرٌ * وما ذنبه أن عافت الماءَ باقرُ

ولما كانَ الثور أمير البقر، وهى تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب سماه بآسم أمير النحل .

وكانوا يزعمون أن الجنّ هى التى تصدّ الثيرانَ عن الماء حتى تُمْسِك البقرُ عن الشرب حتّى تَهْلك، وقال فى ذلك الأعشى :

وإنّى وإن كلفتمونى وربّكم * لأعلمُ مَن أمسَى أحقّ وأحوَبا
لكالثّور والجنىُّ يضرِبُ ظهرَه * وما ذنبه أنْ عافت الماء مَشْربا
وما ذنبُه أن عافت الماءَ باقرٌ * وما إن تعافُ الماء إلّا لتُضرَبا

كأنه قال : إذ كان يُضرَبُ أبدا لأنها عافت الماء، فكأنها إنّما عافت الماءَ ليضربَ؛

وقال يحيى بن منصور الذّهْلىّ فى ذلك :

لكالثور والجنىُّ يضرب وجهَهُ * وما ذنبُه إن كانت الجنُّ ظالمهْ

وقال نهشل بن حَرِّىّ :

أَتُتْرَكُ عارضٌ وبنو عدىٍّ * وتَغْرَمُ دارمٌ وهُمُ بُراءُ
كدأب الثور يُضربُ بالهَرَاوى * اذا ما عافت البقرُ الظِّماءُ
وكيف تكلّفُ الشِّعرَى سُهَيْلا * وبينهما الكواكبُ والسماءُ

---

(١) فى اللسان : « غضبت » . (٢) فى الأصل "وإن" والتصويب عن اللسان .
(٣) الثفر : السير الذى فى مؤخر السرج .

وقال أبو نُوَيْرة بن حُصَيْن حين أخذه الحَكَمُ بنُ أيّوبَ بذنب العَطَرّق :

أبا يوسفٍ لو كنتَ تعلم طاعتى * ونُصحى إذا ما بعتَــنى بالمُحَلَّق
ولا ساق سرّاق العُـرافة صالحٌ * بَنِيَّ ولا كُلّفتُ ذنبَ العَطَرّقِ

وقال خَداش بن زُهَير حين أُخذ بدماء بنى محارب :

أُكَلَّفُ قَتْـلَى معشرٍ لستُ منهــمُ * ولا دارهم دارى ولا نصرهُمْ نَصْرى
أُكَلَّفُ قتْلَى العِيصِ عِيصِ شُواحِطٍ * وذلك أمرٌ لم تُثَقَّفْ له قِــدْرى

وقال الآخر :

اذا عَرَكتْ عِجْـلٌ بنا ذنبَ طَيِّئٍ * عَرَكْنا بتَيْم اللّاتِ ذنبَ بنى عِجْلِ

ولما وجد اليهوديُّ أخا حِنْبِص الضِّبابىّ فى منزله فخَصاه فمات، وأخذ حِنْبِص بنى عبس بجناية اليهودىّ قال قيس بن زهير : أتأخذُنا بذنْب غيرنا، وتسألنا العَقْل، والقاتلُ يهودىّ من أهل تَيْمــاء؟ قال : والله لو قتَلَهُ هُيُفُ الريح لودَيْتُمُوه، فقال قيس لبنى عبس : الموتُ فى بنى ذُبيان خيرٌ لكم من الحياة فى بنى عامر، ثم أنشأ يقول :

أُكَلَّفُ ذا الخُصْيَيْن إنْ كان ظالمًا * وإن كنتُ مظلوما وإن كنتُ شاطِنًا
خَصَاه امْرُؤٌ من أهل تَيْماءَ طابِنٌ * ولا يَعْــدَم الإنسىُّ والجِنُّ طابنًا
فهــلّا بنى ذُبيــان أُمُّك هــابلٌ * رَهَنْتَ بهَيْف الريح إنْ كنتَ راهنــا
اذا قلتُ قــد أفلتُّ من شرّ حِنْبِص * أتانى بأخرى شــرُّه مُتَباطنا
فقــد جَعَلتْ أكبادُنا تَجْتَــوِيكم * كما تَجْتَــوِى سُــوقُ العضاه الكَرازِنا

ولمّـا قَتَــل لقمان بن عاد ٱبنته وهى صُحْرُ بنت لقمان قال حين قتلها : ألستِ ٱمرأة؟ وذلك أنّه تزوج عِدّة نساء وكُلُّهنّ خُنّهُ فى أنفسهنّ، فلمّا قَتَل أُخراهنّ ونزل من الجبل كان أوّلَ من تلقّاه صُحْر ابنتُه، فوثب عليها فقتلها، وقال وأنتِ أيضا ٱمرأة؛ وكان قد ابتُلى أيضا بأنّ أختَه كانت مُحْمَقة، وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان : هذه ليلةُ طُهْرى

وهى ليلتك، فدعينى أنمَ فى مضجعك، فإن لقمانَ رجلٌ مُنْجِبٌ، فعسى أن يقع علىّ فأُنْجِبَ، فوقع على أخته فحملت بلُقَيم وفى ذلك قول النمَّر بن تَوْلَب :

لقيمُ بنُ لقمانَ مِن أختِـهِ * فكان ٱبنَ أختٍ له وابنَما

ليالىَ حُمِّقَ فاستحصَنتْ * عليـه فغُـرَّ بها مُظْلِما

فأحبلها رجلٌ محـكَمٌ(١) * فجاءت به رجلا مُحْـكما

فضربت العربُ فى ذلك المثلَ بقتل لقمانَ بنتَه صُحْرا فقال خُفَاف بن نَدْبة فى ذلك :

وعبّاسٌ يُدِبّ لى المنـايا * وما أذنبتُ إلا ذنبَ صُحْرِ

وقال فى ذلك ٱبن أُذَيْنَةَ :

أتجمَـعُ تَهْيـاما بليـلَى اذا نأتْ * وهِجْرانها ظُلْمًا كما ظُلِمَتْ صُحْرُ

وقال الحارث بن عُبَاد :

قـرِّبا مرْبَط النعـامةِ منّى * لقِحتْ حَرْبُ وائلٍ عن حِيالِ

لم أكن من جُنَاتِها علم اللـه وإنى بحرِّها اليـومَ صالى

وقال الشاعر وأظنّه ٱبن المقفّع :

فلا تلِم المـرءَ فى شأنهِ * فربّ ملومٍ ولم يُذْنِبِ

وقال آخر :

لعلّ له عذرا وأنتَ تلومُ * وكم لائم قد لام وهو مُليمُ

وقال بعض العرب فى قتل بعض الملوك سِنِمّار الرومىّ : فإنّه لمـا علا الخورنَق، ورأى بُنْيانا لم ير مثلَه، ورأى ذلك المستشرَف، وخاف إنْ هو ٱستبقاه أن يموت فيبنىَ مثل ذلك البُنْيانِ لمَلِك آخر، فأمر به فرُمِىَ من فوق القصر، فقال فى ذلك الكلبى فى شئ كان بينه وبين بعض الملوك :

(١) وروى : تائه .

جزاني جزاه اللهُ شرَّ جزائه * جزاءَ سِنِمّار وما كان ذا ذنب
سوى رَصّه البُنْيانَ سبعين حِجّةً * يُعَلّي عليه بالقراميد والسَّكْب
فلما رأى البُنْيان تمَّ سُحُوقُه * وآضَ كمثل الطود ذى الباذخ الصعْب
فَظَنَّ سنمّارٌ به كُلَّ حَبْوةٍ * وفاز لديه بالمَوَدّة والقُرب
فقال اقذفوا بالعِلْج من رأس شاهقٍ * فذاك لعَمْرُ اللهِ من أعظم الخَطْب

وجاء المسلمون يَرْوِى خَلَفٌ عن سلَف، وتابعٌ عن سابق، وآخرٌ عن أول، أنهم لم يختلفوا فى عيب قول الحجّاج : لآخُذنّ، السميَّ بالسميِّ والوليّ بالولى، والجارَ بالجار، ولم يختلفوا عن لعن شاعرهم حيث يقول :

اذا أُخذَ البرىء بغير جُرْمٍ * تجنَّب ما يُحاذِره السقيمُ

قال : وقيل لعمرو بن عُبَيد إنّ فلانا لما قدّم رجُلا ليضرب عُنُقَه فقيل له : إنّه مجنون، قال : لولا أنّ المجنون يلد عاقلا لخلّيتُ سبيله، قال فقال عمرو : وما خلق الله النار إلّا بالحقّ .

ولما قالت التَّغْلَبِيّة للجحّاف بن حكيم فى وقعة البِشْر: فَضّ الله عِمادكَ، وأطال سُهادكَ، وأقلّ رمادَك، فوالله إن قتلت إلّا نساء أسافلهن دُمًى، وأعاليهن ثدًى، فقال لمن حوله : لولا أن تلد هذه مثلَها لخلّيت سبيلَها، فبلَغ ذلك الحسنَ فقال : إنّ الجحّاف جُذْوة من نارجهنم . قال وذَم رجلٌ عند الأحْنَف بن قيس الكَمْأةَ بالسَّمَن، فقال عند ذلك الأحنف : رُبَّ مَلومٍ لا ذنب له ؛ فبهذه السيرة سرتَ فينا ؛ وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن ابن حسّان :

وإنّ آمرأً يمسى ويصبح سالما * من الناس إلّا ما جَنَى لَسَعيدُ

وقلتَ : وما بالُ أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعِبَر، وأرباب النِّحَل، والعلماء بمخارج المِلَل، وورثة الأنبياء، وأعوان الخُلفاء، يكتبون كتب الظُّرفاء والمُلَحاء، وكُتُبَ الفُرّاغ والخُلعاء، وكُتُبَ الملاهى والفُكاهات، وكتُبَ أصحاب الخصومات والمِراء، وكُتُبَ

أصحاب العصبيّة، وحَميّة الجاهليّة، حتّى كأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يُوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفُّحَ العلماء، ولا لائمة الأدباء وشَنَف الأكفاء، ومَساءة الجُلَساء؛ فهلّا أمسكتَ رحمك الله عن عيبنا، والطعن علينا، وعن المَشُورة والموْعظة، وعن تخويف ما فيه سوء العاقبة الى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء.

أقسام البيان

وبعد أن تكلم فى تقسيم العالَم الى ثلاثة أقسام، وذكر أقسام الحيوان، قال فى أقسام البَيان:

ووجَدْنا الحكمة على ضربين: شيءٌ جُعِلَ حِكمةً وهو لا يعقِل الحِكْمةَ ولا عاقبةَ الحِكمة، وشيءٌ جُعِلَ حِكمةً وهو يعقل الحكمةَ وعاقبةَ الحكمة، فاستوَى بَدَن الشيء العاقل وغير العاقل فى جهة الدِّلالة على أنّه حِكمة، وآختلفا من جهة أنّ أحدَهما دليلٌ لا يَسْتدِلُّ، والآخَر دليلٌ يَسْتدِلّ، فكلُّ مُسْتدِلّ دليلٌ، وليس كلُّ دليل مستَدِلّا، فشارك كلّ الحيوان سوَى الإنسان جميعَ الجماد فى الدِّلالة وفى عدم الاستدلال. واجتمع للانسان بأن كان دليلا مُستَدِلّا، ثم جُعِلَ للمستَدِلّ سبَبٌ يَدُلّ به على وجوه آستدلاله، ووجوهِ ما نتج له الاستدلالُ، وسَمّوْا ذلك بيانا؛ وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام: لفظ وخطّ وعقد وإشارة، وجُعِل بيان الدليل الذى لا يَستدِلّ تمكينَه المُستدِلّ من نفسه واقتياده كلّ مَن فكّر فيه الى معرفة ما استُخْزِن من البرهان، وحُشِى من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة؛ فالأجسامُ الخُرُس الصامتةُ ناطقة من جهة الدلالة، ومُعْرِبةٌ من جهة صحة الشهادة، على أنّ الذى فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن آستخبرهما، وينطقان لمن آستنطقهما كما يخبر الهُزال وكمود اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السِّمَنُ والنّضْرةَ عن حسن الحال، وقد قال الشاعر:

فعاجُوا فأثنَوْا بالذى أنت أهلُه * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ

وقال آخر:

متَى تكُ فى عدوٍّ أو صديقٍ * تخبِّرك العيونُ عن القلوب

وقد قال الُعكلىّ فى صدق شمه الذئب، وفى شدة حسه وٱستزواحه :

يستخبر الريحُ اذا لَم يَسْمع * بمثل مِقراع الصفا الموَقَّع

وقال عنترة وهو يصف نعيبَ غرابَ :

حَرِق الجَناح كأن لَحْيَيْ رأسِهِ * جَلَمان بالأخبـار هَشٌّ مُولَعُ

وقال الفضل بن عيسى بن أبان فى قَصَصِه : سل الأرض فقلْ : مَن شقَّ أنهارَكِ، وغَرَس أشجارَكِ، وجَنَى ثِمَـارَكِ ؛ فإن لم تجبْك حِوارا، أجابتْك اعتبارا، فموضوع الجسم ونِصْبتُه دليلٌ على ما فيه، وداعيةٌ اليـه ومَنْبَهة عليه، فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه قد شارك فى البيان الإنسانَ الحىَّ الناطقَ ؛ فمن جعل أقسامَ البيان خمسةً فقد ذهب أيضا مذهبا له جوازٌ فى اللغـة، وشاهدٌ فى العقـل، فهذا أحدُ قِسمَى الحكمـة، وأحدُ معنَيَىْ ما ٱستخزنها الله تعالى من الوديعة .

القسمة الأخرى ما أُودع صدورَ صُنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف، وفطَرها على غريب الهِـدايات، وسخّر حناجرَها له بضرب النغم الموزونة، والأصوات الملحَّنة، والمخارج الشجيّة، والأغانى المُطْرِبة، فقد يقال : إن جميعَ أصواتهـا معدَّلة، وموزونة موقَّعة، ثم الذى سهَّل لها من الرفق العجيب فى الصنعة مما ذلله الله تعالى لمناقيرها وأَكُفِّها، وكيف فتح لهـا من باب المعرفة على قدر ماهيّأ لها من الآلة، وكيف أعطى كثيرا منها من الحِسّ اللطيفَ، والصنعة البديعة عن غير تأديب وتثقيف، وعن غير تقويم وتلقين، وعن غير تدريج وتمرين، فبلغت بعفوها ومقدارِ قُوَى فِطْرتها من البديه والآرتجال، ومن الآبتـداء والآقتضاب، ما لا يقدر عليه حُذَّاقُ رجال الرأى، وفلاسـفةُ علماء البشر بيـدٍ ولا آلة، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملُهـم خِصالا، وأتمُّهم خِلالا، من جهة الارتجال والاقتضاب ولا من جهة التعسف والآقتـدار، ولا من جهة التقديم فيه، والتأتى له، والترتيب لمُقَـدِماته، وتمكين الأسباب المُعينة عليه فصار جهد الإنسان الثاقب الحِسّ، الجامعِ القُوَى، المُتصرِّف فى الوجوه المتقدم فى الأمور يعجِز عن عفو كثير منها، وينظر اذ نظر

الى ضروب ما يجيء منها كما أعطيت العنكبوت ، وكما أعطيت السُّرْفَةُ ، وكما عُلِّم النحلُ ، بل عرّف التَّنَوّطُ من بديع المعرفة ، ومن غريب الصنعة فى غير ذلك من أصناف الخلق ثم لم يوجدهم العجزَ فى أنفسهم فى أكثر ذلك إلا عما قوى عليه الهَمَجُ والخَشَاش وصغارَ الحشرات ، ثُمَّ جعل الإنسانَ ذا العقلِ والتمكين، والاستطاعة والتصريف، وذا التكلف والتجربة ، وذا التأتى والمُنافسة، وصاحبَ الادخار والمتفقد لشأن العاقبة متى أحسن شيئا كان كلُّ شيء دونه فى الغموض عليه أسهلَ، وجَعَل سائر الحيوان وإن كان يُحسِن أحدُها ما لا يُحسن أحذقُ الناس متى أحسن شيئا عجيبا لم يمكنه أن يُحسن ماهو أقربُ منه فى الظنّ ، وأسهلُ منه فى الرأى، بل لايحسن ما هو أقرب منه فى الحقيقة ؛ فلا الإنسان جَعَلَ نفسَه كذلك ، ولا شيءٌ من الحيوان اختار ذلك ، فأحْسَنَت هذه الأجناس بلا تعلّم ما يمتنع على الإنسانِ وإن تعلم فصار لا يحاوله اذ كان لا يطمَع فيه، ولا يحسُدها اذ كان لا يأملُ اللَّحاق بها، ثم جعل تعالى وعزّ هاتين الحِكْمتين إزاءَ عيون الناظرين، وتُجاه أسماع المعتبرين، ثم حثّ على التفكير والاعتبار، وعلى الاتعاظ والازدجار، وعلى التعرّف والتبيّن، وعلى التوقّف والتذكّر، فجعلها مُذكّرةً منبهّةً، وجعلَ الفطر تنشىء الخواطر، وتجول بأهلها فى المذاهب، ذلك ربّ العالمين، سبحان الله ربّ العالمين .

وهـذا كتاب موعظة وتعريف ، وتفقُّه وتنبيه، وأراك قد عِبْتَه قبل أن تقف على حدوده ، وتتفكّرَ فى فصوله ، وتتذكّرَ آخرَه بأوّله ، ومصادرَه بموارده، وقـد غلّطك فيـه بعضُ ما رأيتَ فى أثنائه من مزْحٍ لم تعرف معانيـه، ومن بَطالةٍ لم تدرك غَوْرها، ولم تدر لمَ اجتُلِبتْ ولأىّ علة تُكلِّفَتْ، وأىّ معنًى أريغ بهـا ، ولأى جِدٍّ احتُمِلَ ذلك الهَزْلُ ، ولأيّة رياضة تُجشِّمَتْ تلك البَطَالةُ، ولم تدر أن المُزاح جِد اذا اجتُلب لأن يكون عِلّةً للجِدّ، وأن البَطالةَ وقارٌ وزمانةٌ اذا تُكلِّفَتْ لتلك العاقبة ، ولمـا قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحدٌ من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلّم ما لا يحتاج اليـه ؛ قال أبو شِمْر : اذا كان لا يصل الى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج اليه فقد صار ما لا يحتاج اليه يَحتاج اليه ، وذلك

مثل كتابنا هذا، لأنّا إن حملنا جميع مَن يتكلّف قراءة هذا الكتاب على مُرّ الحقّ، وصعوبة الجد، وثقل المؤونة وحقيقة الوفار، لم يصبر عليه مع طوله إلّا من قد تجرّد للعلم وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر من عزّه، ونال من سروره على حسب ما يورث الطول من الكدّ، والكثرة من السآمة، وما أكثر مَن يُقاد الى حظّه بالسواجير، وبالسَّوق العنيف، وبالإخافة الشديدة .

مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حِساناً فى مدح الكتب فقال :

ثم لم أرك رضيتَ بالطعن على كلّ كتاب لى بعينه، حتى تجاوزت ذلك، الى أن عِبْت وضع الكتب كيفما دارت بها الحال، وكيف تصرّفت بها الوجوه؛ وقد كنت أعجب من عيبك البعضَ بلا عِلم، حتّى عِبت الكلّ بلا علم؛ ثمّ جاوزتَ ذلك الى التشنيع، ثم تجاوزتَ التشنيع الى نُصْب الحرب، فعبت الكتاب ونعم الذُخرُ والعُدة، ونعم الجليس والعُمدة، ونعم النَّشْوة والنزهة، ونعم المشتغَل والحِرْفة، ونعم الأنيس ساعة الوَحْدة، ونعم المعرفةُ ببلاد الغُرْبة، ونعم القرين والدخيلُ، ونعم الوزير والنزيلُ؛ والكتاب وِعاءٌ ملئَ علماً، وظَرْفٌ حُشِيَ ظَرْفا، وإناءٌ شُحِنَ مُزاحا وجِدّا؛ إن شئتَ كان أبينَ من سَحبانِ وائلٍ، وإن شئت كان أعيا مِن باقل، وإن شئت ضَحِكتَ من بوادره، وإن شئت عجِبتَ من غرائب فوائده، وإن شئت ألهتك نوادره، وإن شئت شجتك مواعظه، ومَن لك بواعظٍ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغْرٍ، وبناسكٍ فاتكٍ، وبناطقٍ أخرسَ، وببارِدٍ حارٍّ؛ وفى البارد الحارّ يقول الحسن بن هانئٍ :

قُلْ لزهيرٍ اذا انْتحَى وشَدا * أقلِل أو أكْثِرْ فأنتَ مِهْذارُ
سخُنتَ من شدّة البرُودة حتّى * صرتَ عندى كأنّك النارُ
لا يعجبِ السامعونَ من صفتي * كذلك الثلجُ باردٌ حارُّ

ومَن لك بطبيب أعرابىّ[1] ، وبرومىّ هندىّ ، وبفارسىّ يونانىّ ، وبقديم مولّد ، وبميت مُمْتِع ،ومن لك بشىء يجمع لك الأوّلَ والآخر، والناقصَ والوافر، والخفىَّ والظاهر ، والشاهدَ والغائب ، والرفيعَ والوضيعَ ،والغثَّ والسمينَ ،والشكلَ وخلافه ، والجنسَ وضدّه .

وبعد ، فمتى رأيت بستانا يُحْمَلُ فى رُدْن ، أوروضةً تتقلّبُ فى حِجْر ، وناطقا ينطق عن الموتَى ، ويُترجِم كلام الأحياء ، ومَن لك بمؤنِس لاينام إلّا بنَوْمك ، ولا ينطِق إلا بما تهوى ، آمن من الأرض ، وأكتم للسرّ من صاحب السرّ ، وأضبط للوَديعة من أرباب الوَديعة ، واحفظَ لما آستُحْفظ من الأُمّيّين ، ومن الأعراب المعْرَبين ، بل من الصّبيان قبل اعتراض الأشغال ، ومن العُميان قبل التمتّع بتمييز الأشخاص ، حين العنايةُ تامّة لم تنقص ، والاذهانُ فارغة لم تُقْتَسم ، والإرادةُ وافرة لم تستعب ، والطينةُ ليّنة فهى أقبل ماتكون للطابع ، والقضيب رطبٌ فهو أقرب ما يكون من العُلوق ، حين هذه الخصالُ لم يَبْلَ جديدُها ، ولم يُفَلّ غَرْبُهَا ، ولم تتفرّق قُواها ، وكانت كما قال الشاعر :

أتانى هواها قبلَ أنْ أعرفَ الهوَى * فصادف قلبا فارغا فتمكّنا

وقال عَبْدَة[2] بن الطبيب :

لا تأمَنُوا قوما يشِبّ صبيُّهم * بين القوابل بالعَدَاوةِ يُنْشَعُ

هذا مع قولهم : التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر ، وقال جِران العَوْد :

تُركن بِرِحْلَةِ الرَوْحاء حتّى * تنكّرتْ الديارُ علَى البصير

كوحيٍ فى الحجارة أو وُشُومٍ * بأيدى الرّوم باقيةِ النؤور

النُّؤور : شىء كان يُعمل فى الجاهلية مثل الخضرة اليوم .

وقال آخر وهو صالح بن عبد القدوس :

وإنّ مَن أدّبته فى الصبا * كالعُود يُسقَى الماءَ فى غَرسه

حتى تراه مُورِقا أخضرا * بعد الذى أبصرتَ مِن يُبسه

(١) كذا فى الاصل ، ولعلها : «بنبطىّ» .

(٢) فى الأصل : «تميرة» وهو خطأ صوابه ما أثبتناه عن الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وقال آخر :

يقوِّم من مَيل الغلام المؤدبُ * ولا ينفع التأديبُ والرأس أشيبُ

وقال آخر :

أدّبتُ عِرسى بعد ما هرِمتْ * ومن العناء رِياضةُ الهرِمِ

وقد قال ذو الرمّة لعيسى بن عمر : اكتُبْ شِعرى فالكتّابُ أعجب الىّ من الحفظ ، إن الأعرابىّ ينسى الكلمةَ قد سهرت فى طلبها ليلةً ، فيضع فى موضعها كلمةً فى وزنها ثم يُنشدها الناسَ ، والكتّابُ لا يَنسَى ، ولا يُبْدِل كلاما بكلام ؛

وعبت الكتّابَ ولا أعلم جارا أبرّ ، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلّما أخضع ، ولا صاحبا أظهر كفايةً ، ولا أقلّ جِناية ، ولا أقل إملالا وإبراما ، ولا أقلّ خلافا وإجراما ، ولا أقلّ غِيبَةً ، ولا أبعدَ من عَضِيهَةٍ ، ولا أكثر أعجوبةً وتصرّفا ، ولا أقلّ صلَفا وتكلُّفا ، ولا أبعدَ من مِراء ، ولا أتركَ شَغَبٍ ، ولا أزهدَ فى جدالٍ ، ولا أكفَّ عن قتالٍ ، من كتّاب ؛ ولا أعلم قرينا أحسنَ مواتاة ، ولا أعجَل مكافأة ، ولا أحضرَ مَعُونة ، ولا أخفَّ مَؤونة ، ولا شجرة أطولَ عُمْرا ، ولا أجمعَ أمرا ، ولا أطيبَ ثمرة ، ولا أقربَ مُجْتَى ، ولا أسرعَ إدراكا ، ولا أوجدَ فى كلِّ إبّانٍ من كتّاب ؛ ولا أعلم نِتاجا فى حَدَاثةِ سنّه ، وقُرب مِيلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكانِ مَوْجودِه ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحِكَم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتراخية ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ما يجمع لك الكتّاب .

وقد قال الله عز وجل لنبيّه عليه الصلاة والسلام : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ وصف نفسَه تبارك وتعالى جده بأن علّم بالقلم ، كما وصفَ نفسَه بالكَرم ، واعتدّ ذلك فى نِعَمِه العِظَام ، وفى أياديه الجِسام ، وقد قالت : القلم أحدُ اللسانين ، وقالوا : كل مَنْ عرَف فَضْل النعمة فى بيان اللسان كان بفضل النعمة فى بيان القلم

أعرف ؛ ثم جَعَـل هذا الأمر قرآنا ، ثمّ جعـله فى أوّل التنزيل ، ومُسْتفتِح الكتاب ، ثم آعلم — يرحمك الله تعالى — انّ حاجة بعض النـاس الى بعضٍ صـفةٌ لازمة لطَبائعهم ، وخلقةٌ قائمة فى جواهرهم ، وثابتـة لا تزايلُهم ، ومحيطة بجماعتهـم ، مشتملة على أدانيهم وأقاصيهم ، وحاجتهم الى ما غاب عنهم ، مما يُعيشهم ويُحْييهم ، و يأخذ بأَرْماقهم ، ويُصْلح بالهم ، ويجمع شملهـم ، والى التعاون على دَرَك ذلك ، والتوازر عليـه كحاجتهم الى التعاون على معـرفة ما بحضرتهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق فى أمورهم التى لم تغب عنهم ، فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد ، لاحتياج الأدنَى الى معرفة الأقصَى ، وآختلال الأدنَى الى معونة الأقصى ؛ معانٍ متضمّنة ، وأسبابٌ متّصلة ، وحبالٌ مُتقيدة ، وجعـل حاجتنا الى معرفة أخبار من كان قبلَنا كحاجة من كان قبلنا الى أخبار مَن كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعـدنا الى أخبارنا ، ولذلك تقـدّمت فى الكتب البشارات بالرسل ، ولم يُسخّر لهم جميع خلقـه إلّا وهم يحتاجون الى الأرتفاق بجميع خلقـه ، وجعل الحاجة حاجتَـيْن : إحداهمـا قوَام وقوت ، والأخرى لذّة وإمتاع ، وآزدياد فى الآلة ، وفى كل ما أجذَل النفوس ، وجمع لهم العتاد ، وذلك المقدار من جميع الصنْفَين وَفْق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم ، وعلى قدر آتساع مَعْرفتهـم ، وبعدِ غَوْرِهم ، وعلى قدر آحتمال طبع البشريّة ، وفطـرة الإنسانية ، ثم لم يَقْطع الزيادةَ عنهم الّا لعجز خَلْقهم عن احتمالهـا ، ولم يَجُز أن يفرّق بينهم وبين العجز إلّا بعـدم الأعيان ، اذا كان العجز صفةً من صفات الخلق ، ونَعْتا من نُعوت العبيد ، ولم يَخْلق الله تعـالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض مَن سُخّرله ، فأدناهم مُسخّر لأقصاهم ، وأجلّهـم مُيسّر لأدقّهم ، وعلى ذلك أحوَجَ الملوكَ الى السوقة فى باب ، وأحوج السوقة الى الملوك فى باب ، وكذلك الغنيّ والفقيرُ ، والعبد وسيّده .

ثمّ جعل الله تعالى كلّ شيء للانسان خَوَلا وفى يده مُذالّا مُيسّرا ، إما بالآحتيال له ، والتلطف فى إراغته وآستمالته ، إمّا بالصولة عليه والفَتْك به ، وامّا أن يأتيه سَهْوا ورهْوَا ، وعلى أن الإنسان لولا حاجته اليها لمـا احتال لها ، ولمّـا صال عليها ، إلّا أنّ الحاجة تفْترق

فى الجنس والجهة، وفى الحظّ والتقدير، ثم تعبّد الإنسانَ بالفكر فيها، والنظر فى أمورها، وبالاعتبار بما يَرَى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحِكَم الشريفة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، والتنقيب والتنقير، والتثبت، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم إليها، وتشاعرهم بمواضع الحِكَم فيها بالبيان عنها، وهو البيان الذى جعله الله تعالى سببا فيما بينهم، ومُعبّرا عن حقائق حاجاتهم، ومُعرِّفا لمواضع سدّ الخلّة، ودفع الشبهة، ومُداواة الحَيْرة؛ ولأنّ أكثر الناس عن الناس أفهمُ منهم عن الأشباح الماثلة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة التى لا يُتعرّف ما فيها من دفائن الحِكَم وكنوز الأدب، وينابيع العلم، إلا بالعقل اللطيف الثاقب، وبالنظر التام النافذ، وبالأداة الكاملة، وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفِكْر، والاحتراس من وجوه الخُدَع، والتحفظ من دواعى الهوينى، ولأنّ الشكل أفهم عن شكله وأسكن إليه وأصب به، وذلك موجود فى أجناس البهائم وضروب السِّباع، والصبىّ عن الصبىّ أفهم وله آلف، وإليه أنزع، وكذلك العالِم والعالِم، والجاهل والجاهل، وقال الله عزّ وجلّ لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأنّ الإنسان عن الإنسان أفهمُ، وطباعَه بطباعه آنَس، وعلى قدر ذلك يكون مَوْقع ما يسمع منه؛ ثم لم يرض من البيان لهم بصنف واحد، بل جمع ذلك ولم يفرّق، وكثّر ولم يُقلّل، وأظهر ولم يُخْفِ، فجعل أصناف البيان التى بها يتعارفون معانيَهم، والتَّرْجُمانَ الذى إليه يرجعون عند اختلافهم فى أربعة أشياء وفى خَصْلة خامسة، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة فى جهاتها، فقد تكمل بجنسه الذى وضع له، وصرف إليه.

وهذه الخصال الأربع: هى اللفظ والخط والإشارة والعَقْد، والخَصْلة الخامسة: ما أوجد من صحّة الدِّلالة، وصدق الشّهادة، ووضوح البرهان فى الأجرام الجامدة الصامتة، والساكنة الثّابتة، التى لا تبِين ولا تفهم، ولا تحِس ولا تتحرك إلّا بداخل دخل عليها، أو عند ممسك خلّى عنها بعد تقييده كان لها؛ ثم قسم الأقسام، ورتّب المحسوسات، وحصّل

الموجودات ، بجعل اللفظ للسامع ، وجعل الإشارة للناظر ، وأشرك بين الناظر واللامس ، فى معرفة العَقْد إلّا بمـا فضّل الله به نصيب الناظر فى ذلك على نصيب اللامس ، وجعـل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه ، وسببا موصولا بينه وبين أعوانه ، وجعله خازنا لمـا لا يأمن نسيانه ممّـا قد أحصاه وحفظه ، وأتقنه وجمعـه ، وتكلف الإحاطة به ، ولم يجعل للشام والذائق فى ذلك نصيبا .

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثيرُ البسيط ، ولبَطَلت معرفة التضاعيف ، ولَعدِموا الإحاطة بالباورات ، وباورات الباورات ، ولو أدركوا ذلك لمـا أدركوه إلّا بعـد أن تغلُظ المَؤونة ، وتنتقص المُنّة ، ولصاروا الى حال مَعْجَـزة وحُسور ، والى حال مضيعة وكلال حدّ ، مع التشاغل بأمور لولا فَقْد هـذه الآلة لكان أربحَ لهم ، وأردّ عليهم أن يصرفوا ذلك الشغل فى أبواب منافع الدِّين والدنيا ؛ ونفع الحساب معلوم ، والخَلّة فى موضع فَقْده معروفة ، قال الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ وبالبيان عرَف النـاس القرآن ، قال الله تبارك وتعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فأجرَى الحسابَ مَجرى البيانِ وألحق البيان بالقرآن ، وبحُسْبان منازل القمر عرَفنا حالاتِ المَدّ والجَزْر ، وكيف تكون الزيادة فى الأهلّة وأنصاف الشهور ، وكيف يكون النُّقصان فى خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار .

ولولا الكُتُب المدوّنة ، والاخبار المُخلّدة ، والحِكَم المخطوطة التى تحصُر الحسابَ وغير الحساب ، لَبطَل أكثر العـلم ، ولغلب سلطانُ النِّسيان سلطانُ الذكر ، ولمـا كان للناس مَفْزَع الى موضع استـذكار ، ولو تم ذلك لحُرِمْنا أكثر النفع ، اذ كنّا قد علمنا ان مقدار حِفْظ الناس لعواجل حاجاتهم وأواجلها لا يبلغ من ذلك مبلغا مذكورا ، ولا يغنى فيه غَناء محمودا ، ولو كُلِّف عامّة مَن يطلب العـلم ، ويَصْطنِـع الكتب ، ألّا يزالَ حافظا لفِهْرِس كُتُبه لأعجزه ذلك ، ولَكُلّف شـطَطا ، ولَشَغَله ذلك عن كثير ممـا هو أوْلَى به ؛ ففهمك

لمعانى كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجردا ، وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك ، والمعاون لك ما كان صياحا صرفا ، وصوتا مصمتا ، ونداء خالصا ، ولا يكون مع ذلك الا وهو بعيد من المفاهمة ، وعطل من الدلالة ، بجعل الله جل وعز اللفظ لأقرب الحاجات ، والصوت لأنفس من ذلك قليلا ، والكتاب للنازح من الحاجات .

فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب ، وكسر الأجفان ، وليّ الشفاه ، وتحريك الأعناق ، وقبض جلدة الوجه ، وأبعدها أن تلوى بثوب على مقطع جبل تجاه عين الناظر ، ثم ينقطع عملها ، ويندرس أثرها ، ويموت ذكرها ، وتصير بعد كل شىء فضل عن انتهاء مدة الصوت ، ومنتهى الطرف فى الحاجة ، الى التفاهم بالخطوط والكتب ؛ فأى نفع أعظم ، وأى مرفق أعون من الخط ، والحال فيه كما ذكرنا !

وليس للعقد حظ الإشارة فى بعد الغاية ، ولا للاشارة حظ الخط فى بعد الغاية ، فلذلك وضع الله عز وجل القلم فى المكان الرفيع ، ونوه بذكره فى المنصب الشريف حين قال : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم بالقلم كما أقسم بما يخط بالقلم إذ كان اللسان لا يتعاطى شأوه ، ولا يشق غباره ، ولا يجرى فى حلبته ، ولا يتكلف بعد غايته ، ولكن لما كانت حاجات الناس بالحضرة أكثر من حاجاتهم فى سائر الأماكن ، وكانت الحاجة الى بيان اللسان حاجة دائمة راكدة ، وراهنة ثابتة ، وكانت الحاجة الى بيان القلم أمرا يكون فى الغيبة وعند النائبة ، الا ما خصت به الدواوين ، فإن لسان القلم هناك أبسط ، وأثره أعم ، فلذلك قدموا اللسان على القلم ، فاللسان الآن انما هو فى منافع اليد والمرافق التى فيها ، والحاجات التى تبلغها ؛ فمن ذلك حظها وقسطها من منافع الإشارة ، ثم نصيبها فى تقويم القلم ، ثم حظها فى التصوير ، ثم حظها فى الصناعات ، ثم حظها فى العقد ، ثم حظها فى الدفع عن النفس ، ثم حظها فى إيصال الطعام والشراب الى الفم ، ثم التوضؤ والامتساح ، ثم انتقاد الدنانير والدراهم ، ثم لبس الثياب ؛ وفى الدفع عن النفس أصناف الرمى ، وأصناف الضرب ، وأصناف الطعن ، ثم الضرب التقن بالعود وتحريك الوتر ، ولولا ذلك لبطل الطرب كله أو عامته ؛ وكيف

لا تكون كذلك ولمـا ضرب الطـبل والدُّفّ وتحريك الصفاقتين ، وتحريكُ مخارق خروق المزامير ، وما فى ذلك من الإطلاق والحبس ؛ ولو لم يكن فى اليد الّا إمساك العِنان والزمام والخطام ، لكان ذلك من أعظم الحظوظ .

وقد ٱضطربوا فى الحكم بين العَقْـد والإشارة ، ولولا انّ مَغزانا فى هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أُحبّ أن يَعرفه إخواننا وخلطاؤنا ، ولا ينبغى لنا أيضا أن نأخذ فى هـذا الباب من الكلام ٱلا بعـد الفراغ ممـا هو أَوْلَى بنا منـه ، إذ كنتَ لم تنازعنى ، ولم تعب كُتُبى من طريق فضل ما بين العَقْد والإشارة ، ولا فى تمييز ما بين اللفظ و بينهما ؛ وانّمـا قَصَدْنا بكلامنا الى الإخبار عن فضل الكتب .

والكتاب هو الذى قيّد على الناس كُتُبَ عِلْم الدين ، وحسابَ الدواوين ، مع خِفّـة ثقله ، وصِغر حجمه ، صامت ما أسْكَتّه ، و بليغٌ إذا ٱستنطقته ، ومَن لك بمُسامر لا يبتدئُك فى حال شُغْلك ، ويدعوك فى أوقات نشاطك ، ولا يحوجُك الى التجمل له ، والتذمم منه ؛ ومَن لك بزائرانْ شئتَ جعل زيارته غِبًّا ، ووُروده خِمْسا ؛ وإنْ شئت لزمك لزوم ظِلّك ، فكان منك مكان بعضك .

والقلم مُكْتَفٍ بنفسه ولا يحتاج الى ماعند غيره ، ولا بد لبيان اللسان من أمور ، منها : إشارة اليد ، ولولا الاشارة لمـا فهموا عنك خاصّ الخاصّ ، اذا كان أخصّ الخاصّ قـد يدخل فى باب العامّ ، إلّا أنّه أدنَى طبقاته ، وليس يَكتفِى خاصّ الخاصّ باللفظ عمّا أدّاه ، كاكتفاء عامّ العامّ ، والطبَقاتِ التى بينه و بين أخصّ الخاصّ .

والكتاب هو الجليس الذى لا يُطْرِيك ، والصـديقُ الذى لا يُغْرِيك ، والرفيقُ الذى لا يُملّك ، والمَسْتميح الذى لا يَسْـتَزيدك ، والجار الذى لا يَسْتبطئك ، والصاحب الذى لا يريد ٱستخراج ما عندك بالمَلَق ، ولا يعاملك بالمَكْر ، ولا يخدعُك بالنِّفاق ، ولا يحتال لك بالكذب ..

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوّد بيانك، وفخّم ألفاظك، وبجّح نفسك، وعمّر صدرك، ومنحك تعظيم العوامّ، وصداقة الملوك؛ وعرفت به فى شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال فى دهر، مع السلامة من الغُرْم، ومن كدّ الطلب، ومن الوقوف بباب المُتكسّب بالتعليم، وبالجلوس بين يدى من أنت أفضلُ منه خُلُقا، وأكرمُ عِرْقا، ومع السلامة من مجالسة البُغضاء، ومُقارنة الأغبياء.

والكتاب هو الذى يُطيعك بالليل كطاعته بالنهار، ويُطيعك فى السفر كطاعته فى الحضر، ولا يعتلّ بنوم، ولا يعتريه كلال السهر، وهو المُعلّم الذى إن افتقرت لم يحقرك، وان قطعت عنه المادّة لم يقطع عنك الفائدة، وان عُزلت لم يدع طاعتك، وان هبّت ريح أعاديك لم ينقلب عليك؛ ومتى كنت منه متعلّقا بسبب، أو معتصما بأدنى حبل، لم تضطرّك معه وحشة الوحدة الى جليس السّوء؛ ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه اليك، إلّا منعُه لك من الجلوس على بابك، والنظر الى المارّة بك، مع ما فى ذلك من التعرّض للحقوق التى تلزم، ومن فضول النظر، ومن عادة الخوض فيما لا يعنيك، ومن ملابسة صغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الرديّة، وجهالاتهم المذمومة، لكان فى ذلك السلامة ثم الغنيمة، وإحرازُ الأصل مع استفادة الفرْع؛ ولو لم يكن فى ذلك إلّا أن يشغلك عن سُخف المُنَى، وعن اعتياد الراحة، وعن اللّعب، وكلّ ما أشبه اللعب، لقد كان فى ذلك على صاحبه أسبغُ النعمة، وأعظمُ المِنّة؛ وقد علمنا أنّ أمثل ما يقطع به الفُرّاغ نهارهم، وأصحابُ الفُكاهات ساعاتِ ليلهم، هو الشىء الذى لا ترى له فيهم مع النّيل أثرًا فى ازدياد فى تجربة ولا فى عقل، ولا فى مروءة ولا فى صون عِرْض، ولا فى إصلاح دين، ولا فى تثمير مال، ولا فى تربية صنيعة، ولا فى ابتداء بإنعام.

قال أبو عُبيدة قال المُهلّب لبنيه فى وصيّته : يا بَنِىّ لا تقفوا فى الأسواق إلّا على زرّادٍ أو ورّاق.

وحدّثني صديق لى قال : قرأت على شيخ شامىّ كتابا فيه مآثرُ غطفان، فقـال لى : ذهبت المكارم إلا من الكتب ، وسمعت الحسن اللؤلؤى يقـول : غبرت أربعين عاما ما قِلْت ولا بِت التكأت إلّا والكتاب موضوع على صدرى، وقال ابن الجَهْم : اذا غشيَنى النعاس فى غير وقت نوم و بئس الشئ النوْم الفاضل عن الحاجة ، تناولت كتابا من كتب الحِكَم فأجد اهتزازى للفوائد ، والأَرْيَحِيّـة التى تعترينى عنـد الظفر ببعض الحـاجة ، والذى يَغْشَى قلبى من سرور الاستبانة ، وعِزّ التبيّن ، أشـدَّ إيقاظا من نَهيق الحمير، وهَدّة الهَــدْم .

وقال ابن الجَهْم : اذا استحسنتُ الكتاب واستجدْته ، ورجَوْت منه الفائدة ، ورأيت ذلك فيه ، فلو تَروْننى وأنا ساعةً بعْد ساعةٍ أبصُرُكَمْ بَقِى مِن ورقه مخافةَ استنفاده ، وانقطاع المـادّة من قِبله ، وإن كان المُصْحف فى عظيم الحَجْم ، وكان الورق كثير العدد ، لرأيتم كيف تمّ عَيْشى ، وكَمُل سُرورى .

وذكر القَيْنِىّ كتابا لبعض القـدماء فقال : لولا طوله ، وكثرة ورقه ، لنسخته ؛ قال ابن الجَهْم : لكنّنى ما رغّبنى فيه إلّا الشىء الذى زهّدك فيـه ، وما قرأت كتابا قطّ كبيرا فأخلانى من فائدة ، وما أُحْصِى كم قرأتُ من صِغار الكُتُب فخرجت منها كما دخلت .

وقال القَيْنِىّ ذاتَ يوم لابن الجَهْـم : ألَا تتَعجّب مِن فُلانٍ ! نظر فى كتاب الإقْليدِس مع جاريةِ سَلْمُوَيْهْ فى يوم واحدٍ وساعةٍ واحدة ، فقـد فرغَت الجارية من الكتاب وهو بعدُ لم يُحكِم مَقالةً واحدة ، على أنه حرّ مُخـيّر وتلك أمَة مَقْصورة ، وهو أحرص على قراءة الكتُب مِن سَلْمُوَيْهْ على تعليم جاريته ؛ قال ابن الجَهْم : قد كنتُ أظنّ أنه لا يفهم منه شكلًا واحدا ، وأراك تزعُم أنه قد فرغ من مَقالة ؛ قال القَيْنِىّ : وكيف ظنَنت به هذا الظن كُلّه وهو رجل ذو لسان وأدب ؟ قال : لأنّى سمعتُه يقول لابنه : كم أنفقت على كتاب كذا وكذا ؟ قال : أنفقت كذا وكذا ؛ قال : انّمـا رغّبنى فى العلم أنّى ظننت أنّى أُنفِق قليـلا وأكتسب كثيرا ، فأما اذ صِرْتُ أُنفِق الكثير وليس فى يدى منه إلّا المواعيدُ فانّى لا أريد

العلم بشيء . والإنسان لا يعلم حتى يَكْثُر سماعُه ، ولا بُدّ من أن تصير كتبُهُ أكثرَ من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألَذّ عنده من الإنفاق من مال عدوّه ، ومَن لم تكن نفقته التي تخرج في الكُتُب ألَذّ عنده من عشاق القِيان ، والمستهتَرين بالبُنْيان ، لم يبلغ في العلم مَبلغا رَضيّا . وليس ينتفع بإنفاقه حتّى يؤثر لَذّة اتّخاذ الكتب إيثار الأعرابيّ فرَسه باللّبن على عياله ، وحتّى يُؤمِّل في العلم مالا يُؤمّل الأعرابيّ في فرسه .

وقال إبراهيم بن السِّنْديّ مرّةً : ودِدْت أنّ الزنادقة لم يكونوا حُرَصاء على المغالاة بالورق النقيّ الأبيض ، ولا على تخيّر الحبر الأسود البرّاق ، ولا على استجادة الخطّ والإرغاب لمن يخطّ ، فإني لم أرَ كورق كتبهم ورقا ، ولا كالخطوط التي فيها خطّا . وإنّي غرمت مالا عظيما مع حبّي للمال وبغضي للغرم ، لأنّ سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليلٌ على شرَف النفس وعلى السلامة من سُكْر الآفات . وقلت لإبراهيم : إنّ إنفاق الزنادقة على الكتب كإنفاق النصارَى على البِيَع ، ولو كانت كتب الزنادقة كُتُبَ حِكْمة ، وكتبَ فلسفة ، وكانت مقاييسَ تبيينَ ، أو لو كانت كتبهم كتبا تعرّف الناس أبواب الصناعات ، أو سُبُلَ التكسب والتجارات ، أو كتب إرفاق ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفِطَن والأدب ، أو كان ذلك لا يُقرّب من غنًى ، ولا يباعد من مأثم ، لكانوا ممّن قد يجوز أن يُظَنّ بهم تعظيم البيان والرغبةُ في التبيين ، ولكنّهم ذهبوا فيها مذهبَ الديانة على طريق تعظيم المِلّة ، فإنّما إنفاقهم في ذلك كإنفاق المجوس على بيت النار ، وكإنفاق النصارَى على صُلْبان الذهب ، أو كإنفاق الهند على سَدَنة البُدّ ، ولو كانوا العلمَ أرادوا لكان العلمُ لهم معرضا ، وكتبُ الحكمة لهم مَبْذولة ، والطُرُق اليها سهلة معروفة ، فما بالُهم لا يصنعون ذلك إلّا بكتب دياناتهم كما يُزخرِف النصارَى بيوت عباداتهم ، ولو كان هذا المعنى مُستحسنا عند المسلمين ، وكانوا يرَوْن أنّ ذلك داعيةٌ الى العبادة وباعثةٌ على الخشوع ، لَبَلَغوا في ذلك بعَفْوهم ما لا يبلغه النصارى بغاية الجُهْد .

وقد رأيتم مَسْجد دِمشق حين استجاز هذه السبيلَ ملكٌ من ملوكنا ، ومن رآه فقد علِم أنّ أحدا لا يرومه ، وأنّ الروم لا تسخو أنفسُهم به ؛ فلما قام عمر بنُ عبــد العزيز جلّله بالجــلال ، وغطّاه بالكرابيس (١) ، وطبّخ سلاســل القناديل حتى ذهَب عنها ذلك التلألؤ والبَريق ، وذهب الى أنّ ذلك الصنيعَ مجانب لسُنّة الاســلام ، وأنّ ذلك الحُسْن الرائع والمحاسن الدِّقاقَ مَذْهَلة للقلوب ، مشغلة دون الخشوع ، وأنّ البالَ لا يكون مُجتمعا وهناك شيء يُفرّقه ويَعترض عليه .

والذى يدلّنا على ما قلنا أنّه ليس فى كتبهم مثلٌ سائر ، ولا خبر طَريف ، ولا صــنعةُ أدب ، ولا حِكْمة غريزية ولا فلســفية ، ولا مسئلة كلاميــة ، ولا تَعْريفُ صِــناعة ، ولا استخراجُ آلة ، ولا تعليم فِلاحة ، ولا تدبير حَرْب ، ولا مُقارَعة عن دِين ، ولا مُناضلة عن نِحْلة ؛ وجُلّه ذكر النور والظُّلْمَة ، وتناكُح الشياطين ، وتسافُدالعفاريت ، وذكرُ الصِّنْديد والتهويلُ بعمود السنخ ، والاخبار عن شقلون وعن الهــامَة والهامة ، وهَذَرٌ وعِيٌّ ودعوَى وخُرَافة وسخف وتَكَذُّبٌ ، لا ترى فيه موعظة حَسَنة ، ولا حديثا مُونقًا ، ولا تدبيرَ معاشٍ ولا سياســةَ عامّة ، ولا ترتيب خاصّة ؛ فأىّ كتاب أَجهَــلُ ، وأى تدبير أفسد من كتاب يُوجب على النــاس الطاعة والبُخُوع بالديانة على جهــة الاستبصار والمحبّــة ، وليس فيــه صلاح معاشٍ ، ولا تصحيح دِين ، والناس لا يحبّون إلّا دينا أو دُنيا .

فأمّا الدنيــا فاقامة سُــوقها وإحضارُ نفعها . وأما الدِّين فأقلّ ما يُطمع فى استجابة العامة واستمالة الخاصّــة ، أن يصوّر فى صورة مُغلّطة ، ويُموّه تمويه الدينار البهرج والدرهم الزائف الذى يَغلَط فيــه الكثير ويعرف حقيقته القليــل . فليس اتفاقُهم عليها من حيث ظننت . وكل دِين يكون أظهر اختــلافا وأكثر فسادا يحتاج من الترقيع والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه الى أكثر من غيره .

(١) الكرابيس جمع كرباس : ثوب من القطن الأبيض وقيل : الثوب الخشن ، فارسى معرّب .

وقد علمت أن النصرانية أشدُّ انتشارا من اليهودية تعبُّدا، فعلىَ حسب ذلك يكون تزيُّدهم فى توكيده، واحتفالهم فى إظهار تعظيمه .

وقال بعضهم : كنتُ عند بعض العلماء فكنتُ أكتبُ عنه بعضًا وأدع بعضًا، فقال لى : اكتبْ كلّ ما تسمع ، فانّ أخس ما تسمع خير من مكانه أبيض . وقال الخليل بنُ أحمد : تكثّر من العلم لِتعرِف، وتَقلّل منه لِتحفَظ . وقال أبو إسحاق : القليلُ والكثير للكُتُب، والقليلُ وحْدَه للصدر، وأنشد قول ابن يَسِير :

أَمَا لو أَعِى كلّ ما أَسمَعُ * وأَحْفَظ مِن ذاكَ ما أَجْمَعُ
ولم أَستَفِد غيْر ما قدْ جمعْـتُ لقيلَ هو العالِمُ المُقْنِعُ
ولكنّ نَفْسِى الى كُلِّ نو * عٍ من العِـلْم تَسْمَعُه تَنْزِع
أشَاهدُ بالعىّ فى مَجْلِسِى * وعِلْمِىَ فى البيت مُسْتَوْدَع
فلا أَنَا أَحْفَـظُ ما قد جمعْـتُ ولا أنا مِنْ جَمْعِه أشبَع
ومَنْ يَكُ فى عِلْمِه هكذَا * يَكُنْ دهرَه القَهْقَرى يَرْجِعُ
اذا لَمْ تَكُنْ حافِظا واعِيًا * فجَمْعُك لِلعِـلْمِ لا يَنْفَـع

قال أبو اسحاق : كلف ابن يَسير الكتبَ ما ليس عليها، إنّ الكتب لا تُحْيى الموتى، ولا تُحَوِّل الأحمق عاقلا، ولا البليدَ ذكيا، وذلك أنّ الطبيعة اذا كان فيها أدنَى قبول فالكتبُ تَشْحَذ وتَفْتُق وتُرْهِف وتَشْفِى؛ ومن أراد أن يعلم كلّ شىء فينْبغِى لأهله أن يداووه، فان ذلك انّما تصوّر له لشىء اعتراه . فمَن كان عاقلا ذكيًّا حافظًا فليَقْصِد الى شيئين أو ثلاثة أشياء : فلا يَنْزِع عن الدرس والمطارحة، ولا يَدَع أن يمرّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف فيكون عالما بخواصّ ويكون غيرَ غُفْل من سائر ما يجرى فيه الناس ويَخوضون فيه ؛ ومَن كان مع الدرس لا يحفَظ شيئا إلّا نسِى أكثر منه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعدُ .

وحدثنى موسى بنُ يحيى قال : ما كان فى خزانة كتب يحيى وفى بيت مدرسه كتاب إلّا وله فيه ثلاثُ نُسَخ .

وقال أبو عمرو بنُ العــلاء : ما دخلت على رجل قطُّ ولا مررت ببابه فرأيتــه ينظر فى دفتر وجليسُه فارغ اليد إلّا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل .

قال أبوعمرو وقيل لنا يومًا : إنّ فى دار فلانٍ ناسا قد اشتملوا على سوءة، وهم جلوسٌ على نُمَيْرة لهم وعندهم طُنْبور، قال: فَذَمَرْنا عليهم فى جماعة من رجال الحىّ، فاذا فتًى جالسٌ فى وَسط الدار وإذا أصحابه حوْلَه، واذا هم بيضُ اللّحى، واذا هو يقرأ عليهم كتاب شـعر، فقال الذى كان سعى بهم : السَّوْءة فى ذلك البيت، وإن دخلتموه عثرْتم بها ؛ قال قلتُ : والله لا أكشِف فتًى أصحابُه شيوخ وفى يده دفترعِلْم ولو كان فى ثوبه دَمُ يحيَى بنِ زكرياء .

قال وأنشد رجل يونُس النَّحوىّ قوله :

أَسْتودِعَ العِــلْمُ قِرْطاسا فَضَيّعه * فبِئْس مُسْتَوْدَعُ العِلْمِ القراطيسُ

قال فقــال يونس : قاتله الله، ما أشــدّ صبابته بالعلم وأحسنَ صِيانَته له ! إنّ عِلْمك من رُوحِك، ومالك مِن بدنك، فضعْه منك بمكانِ الرُّوح، وضَعْ مالك بمكانِ البدن .

وقيــل لابن دَاحَة وأخرج كتاب أبِى الشَّـمَقْمَق واذا هو فى جُلود كوفيّة ودفّتين طائفيتين وبخطّ عجيب، فقيل له (١) : لقد ضيّع دِرهمه مَن تجوّد لشعر أبى الشمقمق؛ قال : لا جَرَمَ والله إنّ العــلم ليُعْطِيكم على حساب ما تُعْطُونَه، ولو استطعتُ أنْ أودِعَه سُــوَيداء قلبى وأجعله مخطوطا على ناظرىّ لفعلت .

ولقد دخلت على إسحاق بنِ سليمان فى إمْرته، فرأيت السماطين بين يديه والرجال مُثُولًا كأنّ على رءوسهم الطير، ورأيت فِرْشَته (٢) وبِزّته، ثم دخلت عليــه وهو معزول، واذا هو فى بيت كتبه وحوالَيْه الأسْــفاط والرفوف والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر، فمــا رأيتــه قطُّ أفخمَ ولا أنْبَــل ولا أهْيَب ولا أجزل منــه فى ذلك اليوم، إلا أنّه جمــع مع المَهابة المَحبة، ومع الفَخامة الحلاوة، ومع السُّودَد الحِكْمة .

(١) كذا فى الأصل، ولعلها زائدة . (٢) الفرشة : الهيئة .

وقال ابن داحة : كان عبد الله بنُ عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يُجالس الناس ، ونزل مَقْبرة من المقابر ، وكان لايكاد يُرَى إلّا وفى يده كتاب يَقْرؤه ، فسُئل عن ذلك وعن نزوله المَقْبُرَة ، فقال : لم أرَ أوْعظَ من قبْر ، ولا أمتعَ من كتاب ، ولا أسْلَمَ من الوَحْدة ؛ فقيل له : فقد جاء فى الوَحْدة ما قد جاء ، قال : ما أفسدَها للجاهل وأصلحها للعاقل !

وضروب من الخُطوط بعد ذلك تَدُلّ على قدر مَنْفَعة الخطّ ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وقال الله عز وجل : ﴿فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ وقال : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وقال : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ وقال : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ .

الترغيب فى اصطناع الكتب

(وبعد أنْ تكلّم عن الخطّ فى الأرض عند التفكّر وما قيل فى ذلك من الأشعار، وذكَر الخطّ ومقْدار الحاجة اليه ، وتاريخَ الشعر قبل الإسلام، وبيان أنّ فضيلته مقصورة على العرب، استطرد القول بالترغيب فى اصطناع الكُتُب) فقال :

« إنّ على مَن شكر المعرفة بمَغاوِى الناس ومَراشدِهم ومَضارِّهم ومَنافعِهم ، أنْ يحتمل ثِقَل مَؤونتهم فى معرفتهم ، وأنْ يتوخّى إرشادهم وانْ جهلوا فضل ما يُسْدَى اليهم . ولن يُصان العِلْم بمثل بذله ، ولن تُستَبْقَ النعمة فيه بمثل نشره . على أنّ قراءة الكتب أبلغُ فى إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاقى يشتدّ التصنع ، ويكْثر التظالُم ، وتُفرِط العَصَبيّة ، وتقْوَى الحميّة ؛ وعند المُواجهة والمُقابلة يشتدّ حُبّ الغَلَبة ، وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع ، والأنفة من الخُضوع ؛ وعن جميع ذلك تحدُث الضغائن ويظهر التبايُن ؛ فاذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة ، امتنعت من التعرف ، وعَمِيت عن موضع الدّلالة ؛ وليست للكتب عِلّة تمنع من دَرْك البُغْيَة ، واصابة الحُجّة ؛ لأن المُتوحِّد بدرسها والمُنْفرِدَ

بفَهْم معانيها ، لا يُباهِى نفســه ، ولا يُغالبُ عقــلَه ، وقد عدم من له يباهى، ومن أجله يغالب ؛ والكتاب قد يفضــل صاحبَه و يتقدّم مؤلِّفه، و يرجح قلمُه على لسانه بأمور :

منها ، أنّ الكتّاب يُقرأ بكلّ مكان ، و يَظْهر ما فيه على كلّ لسان ، و يوجد مع كلّ زمان على تفاوت ما بين الأعصار ، وتَبَاعُد ما بين الأمصار ؛ وذلك أمر يستحيل فى واضع الكتّاب ، والمنازع بالمسألة والجواب ؛ ومُناقلة اللسان وهدايتــه لا تجوزان مَجْلِسَ صاحبــه ، ومَبلَغَ صــوته ؛ وقد يذهب الحكيم وتبقَى كُتبُه ، ويفنَى العقلُ ويبقَى أثرُه . ولولا ما تَسَمّت لنــا الأوائلُ فى كتبها ، وخلّدت من عجيب حِكْمتها ، ودوّنت من أنواع سِــيَرها ، حتّى شاهَدْنا بها ما غاب عنّا ، وفتحنا بها كلّ مُسْتغلَقٍ كان علينا ، فجمعنا الى قليلنا كثيرَهم ، وأدركنا مالم نكن نُدْرِكُه إلّا بهــم ، لقد خسّ حظّنا من الحكمة ، وضعف سببُنا الى المعرفة ؛ ولو أُلجئنا الى قــدر قوّتنا ، ومبلغ خواطرنا ، ومنتهى تَجْرِبتنا لمــا تُدْرِكه حواسُّــنا وتشاهده نفوسُنا ، لقد قلّت المعرفة ، وقصُرت الهِمّة ، وانتَقَضت المُنّة ، وعاد الرأى عقيما ، والخاطر فاسدا ، ولَكَلّ الحدُّ ، وتبلّد العقلُ . وأكثرُ من كتبهم نفعًا ، وأشرفُ منها خَطَرا ، وأحسنُ مَوْقعا ، كُتُب الله تعالى التى فيها الهُدَى والرحمة ، والإخبار عن كل عِبرة ، وتعريفُ كلّ سيّئة وحَسنة . وما زالت كتب الله تعــالى فى الألواح والصحف والمَهارِق[1] والمصاحف ، فقــد قال الله عزّ وجلّ : ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيــهِ ﴾ وقال : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِنْ شَىْءٍ ﴾ . ويقال لأهل التوراة والإنجيل : أهل الكتّاب . وينبغى أن يكون سبيلُنا لمن بعدَنا كسبيل مَن كان قَبلَنا فينا . على أنّا قد وجدْنا من العِبْرة أكثرَ مما وجدوا ، كما أنّ مَن بعدَنا يجد من العِــبْرة أكثرَ ممــا وجدْنا ، فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده ، وما يمنع الناصرَ للحق من القيام بمــا يَلزمُه ، وقد أمكن القولُ ، وصلُح الدهر ، وهَوَى نجمُ التقيّــة ، وهبت ريحُ العلماء ، وكسَد العِىّ والجهــل ، وقامت سوق البيان والعِلْم . والإنسان ليس يجد فى كلّ حالٍ إنسانا

---

(١) المهارق جمع مهراق ، وهو ثوب حرير أبيض يسقى بالصمغ و يصقل ثم يكتب فيه ، فارسىّ معرّب .

يُدرِّسُه ومُقوِّما يُثقِّفه، والصبر على إفهام الرَّيِّض شديدٌ، وصرف النفس عن مُغالبة العالِم أشدُّ منه همّا .

والمتعلم يجد فى كلّ مكان الكتّاب عتيدًا، وبما يحتاج اليه قائما . وما أكثر من فرّط فى التعلّم أيّامَ خمول ذكره وأيّام حداثة سنّه . ولولا جياد الكتب وحسَنُها ، ومُبيّنُها ومختصرُها ، ثم تحرّكت هِمَم هؤلاء لطلب العلم، ونازعت الى حب الأدب، وأنفت من حال الجهل وأنْ تكون فى غمار الحَشْو لَدَخل على هؤلاء من الضرر والمَضَرّة والجهل وسوء الحال ما عسى ألّا يمكن الإخبار عن مِقداره إلّا بالكلام الكثير .

ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : تفقّهوا قبل أنْ تُسَوَّدوا . وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين سَنَة ، ولا يعدّ فقيها ولا يجعل قاضيا؛ وما هو إلّا أن ينْظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة، ويحفَظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتّى تمرّ ببابه فتظُنّ أنّه باب بعض العمال؛ وبالحَرَى ألّا يمرّ عليه من الأيّام إلّا اليسيرُ حتّى يصيرَ حاكما على مصر من الأمصار، أو بَلْدة من البُلْدان .

وينبغى لمن كتب كتابا ألّا يكتبه إلّا على أنّ الناس كلَّهم له أعداء ، وكلَّهم عالِم بالأمور ، وكلّهم مُتفرِّغ له؛ ثم لا يرضَى بذلك حتّى يدَعَ كتابه يغبّ ويَخْتَمِر، ولا يَثِق بالرأى الفطير؛ فإن لابتداء الكتاب فِتْنةً وعُجْبا ، فإذا سكَنت الطبيعة وهدأَت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرةً، أعاد النظر فيه وتوقّف عند فُصوله توقُّف مَن يكون وَزْنُ طمعه فى السلامة أنقصَ من وزن خَوْفه من العيب، ويفهّم معنى قول الشاعر :

إنّ الحديثَ تَغُرُّ القومَ خَلْوتُه * حتّى يكونَ لهم عِيٌّ وإكْثارُ

ويقف عند قولهم فى المثل : "كُلُّ مُجْرٍ فى الخَلاء يُسَرّ"، فيخاف أن يعتريَه ما يعترى من أجرَى فرسَه وحْدَه، أو خلا بقلمه عند فقد خصومه وأهل المزية من أهل صِناعته . وليَعلم أنّ صاحبَ القلم يعْتريه ما يعترى المُؤدِّب عند ضربه وعِقابه؛ فما أكثرَ مَن يعزم على

عشرة أسواط فيَضْرِبُ مائة، لانه ابتـدأ الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السكونُ أنّ الصواب فى الإقلال، فلمّا ضرب تحرّك دمُه فأشاع فيـه الحرارةَ وزاد فى غضبه، فأراه الغضب أنّ الرأى فى الإكثار، وكذلك صاحب القلم، فما أكثرَ مَن يبتدئ الكتّاب وهو يُريد مِقْـدار سَطرين فيكتب عشرة . والحفظ مع الإقلال أمكنُ، وهو مع الإكثار أبعــد .

واعلم أنّ العاقل إنْ لم يكن بالمشبع فكثيرًا ما يُغَرّ من ولده ويَحْسُن فى عينه منـه القبيح فى عين غيره، فليعلم أنّ لفظه أقرب اليه نسبا من ابنه، وحَرَكَته أمسُّ به رَحِما من ولده، لأنّ حركته شيءٌ أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصلت، ومن نفسه كانت، وانمّا الولد كالمَخْطَة يَتَمَخّطها، وكالنُّخامة يقذفها، ولا سواءٌ إخراجك من نفسك شيئا لم يكن منـك، واظهارُك حركةً لم تكن حتى كانت منك؛ ولذلك نجـد فِتْنَة الرجل بشِعره وفِتْنَته بكلامه وكتبه، فوق فِتْنته بجميع نِعْمَته .

وليس الكتّاب الى شيء أحْوَجَ منـه الى إفهام معانيه حتّى لا يحتاجَ السامع بما فيه الى الروية فيه . ويحتاجُ من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السِّفلة والحَشْو، ويَحُطّه عن غريب الأعراب، وَوَحْشِيّ الكلام . وليس له أن يُهـذّبه جدّا ويُنقّحه ويصفّيه ويُرَوّقه حتّى لا ينطقَ إلّا باللبّ وبالسِّرّ، وباللفظ الذى قد حذف فُضُوله وتعرّقَ زوائده، حتّى عاد خالصا لا شَوْب فيه؛ فإنه إن فعل ذلك لم يُفْهَم عنه إلّا بأن يُجَدّد لهم إفهاما وتكْرارا، لأنّ الناس كلّهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارتْ أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلّا بأنْ تُعْطَس عليها وتُؤْخَذَ بها؛ ألَا تَرَى أنّ كتّاب المَنْطق الذى قد وُسِم بهذا الاسم لو قرأتَه على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأَعْراب لما فهموا أكثره؛ وفى كتّاب إقْليدس، كلام يدور وهو عربى وقد صُفّيَ، ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه، إلا بأن يُفَهّمه مَن يريد تعليمه؛ لأنه يحتاج الى أن يكون قد عَرَف جِهَة الأمر، وتعوّد اللفـظ المَنْطِق الذى استُخْرِج من جميع الكلام .

وقد قال معاوية بن أبي سُفيان رضى الله تعالى عنهما لصُحَار العَبْدى : ما الإيجاز؟ قال أنْ تجيب فلا تُبْطِئ ، وتقولَ فلا تُخْطِئ؛ قال معاوية : أوكذاك تقول . قال صُحَارٌ : أقلني يا أمير المؤمنين، لا تُخْطِئ ولا تُبْطِئ . فلو أنّ سائلا سألك عن الإيجاز فقلتَ: لا تُخْطِئ ولا تُبْطِئ وبحضرتك خالد ابنُ صفوان لما عرَف بالبديهة وعند أوّل وَهْلة أنّ قولك لا تُخْطِئ مُضمّن بالقول، وقولَك لا تُبْطِئُ مضمّن بالجواب . وهذا حديث — كما ترى — قد ارتضَوْه ورووْه ؛ ولو أنّ قائلا قال لبعضنا : ما الإيجاز؟ لظننت أنه كان سيقول الاختصار والإيجاز، ليس يعني به قلّة عدد الحروف واللفظ . وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يَسَعُ بطن طُومار(١) فقد أوجز، وكذلك الإطالة . وإنما ينبغي أن يحذف بقدر مالا يكون سببا لإغلاقه ولا يُرَدّد وهو يُكْتفَى في الإفهام بشطره، فما فَضَل عن المقدار فهو الخطَل .

وقلت لأبي الحسن الأَخْفَش : أنت أعلم الناس بالنحو، فلِمَ لا تجعل كتبَك مَفْهومةً كلّها؟ وما بالنا نفهم بعضَها ولا نفهم أكثرَها، وما بالك تُقَدِّم بعض العويص وتُؤخّر بعض المفهوم؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدِّين، ولو وضعتُها هذا الوضع الذى تدعوني اليه قلّت حاجاتُهم إليّ فيه ، وإنّما غايتي المَنالة ، فإذاً أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعُوَهُم حلاوةُ ما فهِموا الى التماس فهم ما لم يَفْهموا ، وأنا قد كسَبتُ في هذا التدبير إذ كنتُ الى التكسُّب ذهبتُ، ولكن ما بالُ ابراهيم النظّام وفلان وفلانٍ يكتبون الكتب لله بزعمهم، ثمّ يأخذُها مِثلى في موافقته وحسن نظره وشِدّة عِنايته، فلا يفهم أكثرَها ؟

وأقول لو أنّ يوسف السَّمْتيّ كتب هذه الشروطَ أيّام جَلَس سَلْمان بن ربيعةَ شهرَيْن للقضاء فلم يتقدّم اليه رجُلان والقلوبُ سليمةٌ والحقوق على أهلها مُوَفّرة ، لكان ذلك خَطَلا ولَغْوا ، ولو كتب في دهرنا شروطَ دهر سَلْمان لكان ذلك غَرارَة ونَقْصا ،

(١) الطومار : الصحيفة .

وجَهْلا بالسياسة وما يَصْلُح لكلّ دهر؛ ووجدنا النـاس اذا خَطَبُوا فى صُلْح بين العشائر أطالوا ، واذا أَنْشَدوا الشـعر بين السِّماطَيْن فى مدح الملوك أطالوا؛ فللإطالة مَوْضِعٌ وليس ذلك بخَطَل، وللإقلال موضعٌ وليس ذلك مِن عجز .

ولو لا أنّى أتّكل على أنّك لا تَمَلّ باب القول فى البعير حتّى تخرُج الى الفيل،وفى الذّرّة حتّى تخرُج الى البَعُوضة ، وفى العقرب حتّى تخرُج الى الحيّـة ، وفى الرجُل حتّى تخرُج الى المرأة، وفى الذِّبّان والنَّحْل حتّى تخرُج الى الغِرْبان والعِقْبان ، وفى الكَلْب حتى تخرُج الى الديك ، وفى الذّئب حتّى تخرُج الى الضَّبُع ، وفى الظِّلْف حتّى تخرُج الى الحافر، وفى الحافر حتّى تخـرُج الى الخُفّ ، وفى الخُفّ حتّى تخرُج الى البُرْثُن ، وفى البُرْثُن حتّى تخرُج الى المِخْلب؛ وكذلك القولُ فى الطـير وعامّة الأصـناف ، لَرأيتَ أنّ ذلك يُوجب المَلال، ويُعْقِب الفَتْرة المـانعة من البلوغ فى الفهم، وتَعَرُّف ما يُحْتاج منه الى التعرُّف، فرأيتُ أن جُمْلة الكتاب وإنْ كثُر عدد ورقه،أنّ ذلك ليس ممّـا تَمَلّ من كثرة قراءته أبدا وتَعتدّ علىّ فيـه بالإطالة ، لأنّه وإنْ كان كتابا واحدا فانّه كُتُب كثيرة، وكلّ مصحف منهـا أمّ علىَ حِدَة . فانْ أراد قراءة الجميع لم يطُل عليه الباب الأوّلُ حتّى يهجُم على الثـانى ، ولا الثانى حتّى يهجُم على الثالث ، فهو أبدا مُسْتفيد ومُسْتَطْرِف ، وبعضه يكونُ جَماما لبعض ، ولا يزال نشاطُه زائدا ، ومتَى خرَج من آى القـرآن صار الى أثَر ، ومتى خرَج من أثَر صار الى خبر، ثم يخرُج من الخبر الى شـعر، ومِن الشعر الى نوادِرَ، ومن النوادِر الى حِكَم عقليّة ومقاييس سِدادٍ ، ثمّ لا يترك هذا الباب فلعله أن يكون أثقل، والملالُ اليه أسرعَ، حتّى يُفْضَى به الى مَزْح وفُكاهـة والى سُخْف وخُرَافة . ولست أراه سخفًا إذ كنت إنّمـا استعملت سِـيرَة الحكماء ومأدُبَة العلمـاء ، ورأينا الله تبارك وتعـالى اذا خاطب العرب والأعـراب أخرج الكلام مُخْرج الإشارة والوَحْى والحـذْف ، واذا خاطب بنى إسرائيـل أو حَكَى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلم . فأصوب العمل اتّباع آثار العلماء والاحتذاءُ

مثال القدماء ، والأخذُ بما عليه الجماعة . وقال ٱبن يَسِير فى صفة الكُتُب كلمة له :

أَقبلْتُ أهرُب لا آلُو مُباعَدَةً * فى الأرض منهم فلم يُحْصِنِّىَ الهَرَبُ
بِقَصْر أَوْسٍ فما والَتْ خَنادِقُهُ * الى النّواوِيس فالماخُورُ فالخَرِبُ
فأيّما مَوْئِلٍ منها ٱعتصمتُ به * فمِنْ ورائِى حَثِيثًا منْهُمُ الطَّلَبُ
لمّا رأيتُ بأنّى غَيْرُ مُعْجِزِهِمْ * فَوْتًا ولا هَرَبًا قَرّبت أَحْتَجِبُ
وصِرْتُ فى البيت مَسْرورًا به جَذِلًا * جارًا لِبَرّة لا شَكْوَى ولا شَغَبُ
فَرْدًا تُحَدّثنِى المَوْتَى وتَنْطِق لِى * عن علم ما غاب عنّى منْهُمُ الكُتُبُ
هُمْ مُؤْنِسُونَ وأُلّافٌ غَنِيتُ بِهِمْ * فليس لى فى أنيسٍ غَيْرِهم أَرَبُ
لله من جُلَسَاءٍ لا جَلِيسُهُمُو * ولا عشيرُهُمُو للسُّوءِ مُرْتَقِبُ
لا بادراتِ الأَذَى يَخْشَى رفيقُهُمُ * ولا يُلاقِيهِ منْهُمْ مَنْطِقٌ ذَرِبُ
أبْقَوْا لنا حِكَمًا تَبْقَى منافِعُها * أُخْرَى اللّيالِى على الأيّام وٱنْشَعَبوا
فأيّما أَدَبٍ منْهُمْ مَدَدْتُ يَدِى * يَوْمًا إليه فَدَانٍ مِنْ يدى كَثَبُ
إنْ شِئْتُ مِن مُحْكَمِ الآثارِ يَرْفَعُها * الى النّبىّ ثِقاتٌ بَرَرَةٌ نُجُبُ
أو شِئْتُ مِن عَرَبٍ عِلْمًا بأوّلِها * فى الجاهليّة أَنْبَتْنِى به العَرَبُ
أو شئتُ من سِيَرِ الأَمْلاك مِنْ عَجَمٍ * تُنْبِى وتُخْبِر كيفَ الرَّأْىُ وٱلأَدَبُ
حتّى كأنّى قد شاهَدْتُ عَصْرَهُمُو * وقد مضَتْ دونَهُ مِن دَهْرِهم حِقَبُ
يا قائلًا قَصُرَتْ فى العِلْمِ نُهْيَتُهُ * أَمْسَى الى الجَهْل فيما قال يَنْتَسِبُ
إنّ الأوائلَ قد بانوا بعلْمِهِمُ * خلافَ قولِك قد ماتوا وقد ذهبوا
ما مات منّا امْرُؤٌ أبقَى لنا أدَبًا * يكونُ منه اذا ما مات يُكْتَسَبُ

وقال أبو وجْزَة وهو يصف صحيفة كُتِبَ له فيها بستّين وَسْقا :

راحتْ بستّينَ وَسْـقا فى حَقيبَتِها * ماحُمِّلتْ حِمْلَها الأدنى ولا السَّدَدَا
ولا رأيتُ قَلوصًـا قبلَها حَمَلَتْ * سِـتّين وَسْـقًا ولا جابتْ بها بَلَدَا

وقال الراجز :

تَعَلَّمَنْ أنّ الدواةَ والقَلَمْ * تَبْقَى ويُفْنِى حادثُ الدَّهْرِ الغَنَمْ

يقول كتابُك الذى تَكْتبُه علىّ يبقَى فتأخُذُنِى به وتذهب غَنَمِى فيما يذْهَب . ومما يَدُلّ على نفع الكتاب أنّه لولا الكتاب لم يَجُزْ أنْ يعلم أهل الرَّقّة والمَوْصِل وبَغْدادَ وواسطَ ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة فى بياض يوم ، فتكون الحادثة بالكوفة غُدْوَةً فيعلمُها أهل البصرة قبل المَساء .

وذلك مشهور فى الحَمَـام الهُدَّى : اذا جُعلت بُرُدا قال الله جلّ وعزّ ، وذكر سُلَيمانَ ومُلْكَه الذى لم يُؤْتِ أحدًا مثلَه ، فقال : ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُـدْهُدَ﴾ إلى قوله : ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ . فلم يلبَث أن قال الهُدهد : ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَـا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ . قال سليمان : ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ وقد كان عنده من يُبَلِّغ الرسالة على تمامها من عِفْريت ومن بعض مَن عنـده عِلْم من الكتاب فرأى أنّ الكتاب أبهَى وأنبَلُ وأكرم وأفخم من الرسالة عن ظهر لسان وإنْ أحاط بجميع ما فى الكتاب . وقالت ملِكة سبأ : ﴿يَاأَيُّهَـا الْمَـلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ فهذا ممّـا يدُل على قدر اختيار الكُتُب وقد يريد بعض الجلّة الكبار وبعضُ الأدباء والحكماء أن يدعو بعضَ مَن يجرى مجراه فى سلطان أو أدب الى مأْدَبة أو نِدام أو خروج الى مُتَنَزَّه أو بعض ما يُشبه ذلك ، فلو شاء أنْ يُبَلِّغه الرسول إرادته ومعنـاه لأصاب مَن يحسن الأداء ويَصْدُق فى الإبلاغ فيَرَى أنّ الكتاب فى ذلك أسرَى وأنبه وأبلغ ولو شاء النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ألّا يكتب الكُتُب الى كِسرَى وقَيْصر والنجاشىّ

والمُقَوقِس وإلى بنى الجَلَنْدَى وإلى العَباهِلَة من حِمْيَر وإلى هَوْذَة بن على وإلى الملوك العظماء والسادة النُّجباء لفعل ولوجَد المُبَلِّغ المعصومَ من الخطإ والتبديل، ولكنّه عليه السلام علم أنّ الكتاب أشبه بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأبْلَغ فى تعظيم ما حواه الكتاب، ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الألسنة بالمرسلين ولم يودعْها الكتب لفعل ولكنّه تعالى وعزّ علِمَ أنّ ذلك أتمّ وأكمل، وأجمع وأنبل؛ وقد يكتُب بعض من له مرتبة فى سلطان أو ديانة الى بعض مَن يشاكله أو يَجْرى مجراه فلا يرضَى بالكتاب حتّى يَخْزِمه ويَخْتِمه، وربّما لم يرضَ بذلك حتّى يُعَنونه ويُعظِّمه.

قال الله جل وعز: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ فذكر صُحُف موسى الموجودة وصُحُف إبراهيم البائدة المعدومة ليُعرِّف الناس مِقدار النفع والمصلحة فى الكتب. قالوا: وكانت فلاسفة اليونانيّة تُوَرِّث البناتِ العينَ وتورّث البنين الدَّيْن؛ وكانت تصل العجز بالكفاية والمؤونة بالكُلفة وكانت تقول: لا تورّثوا الابن من المال إلّا مايكون عَوْنا له على طلب المال، واغذوه بحلاوة العِلْم واطبعوه على تعظيم الحِكْمة ليصير جمعُ العِلْم أغلبَ عليه من جمع المال، وليَرَى أنّه العدّة والعتاد، وأنّه أكرم مُسْتَفاد، وكانوا يقولون: لا تُوَرِّثوا الابن من المال إلّا ما يَسُد الخَلّة، ويكون له عونا على دَرَك الفضول إنْ كان لا بدّ من الفضول، فإنّه إنْ كان فاسدا زادت تلك الفضولُ فى فساده، وإنْ كان صالحا كان فيما أورثتموه من العِلْم، وبقّيتم له من الكفاية ما يَكْسِبه الحال، فإنّ الحال أفضل من المال، ولأنّ المال لم يزل تابعا للحال، وقد لا يَتْبَع الحالُ المال، وصاحب الفضول بعَرَض فسادٍ وعلى شَفا إضاعة مع تمام الحُنْكة واجتماع القوة؛ فما ظنّكم بها مع غَرارة الحداثة وسوء الاعتبار وقِلّة التَّجرِبة! وكانوا يقولون: خير ميراث ما كسبك الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المَنْفعة وعجّل لك حلاوة المحبّة، وبقّ لك الأُحدوثة الحَسَنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره وباطنه؛ وليس يجمع ذلك إلّا كرام الكتب النفيسة المُشْتملة على ينابيع العِلْم، والجامعة لكنوز الأدب ومعرفة الصناعات وفوائد الإرْفَاق؛

وحجج الدِّين الذى بصحّته وعنـد وضوح برهانه تسكن النفوس وتثلج الصـدور، ويعود القلب معمـورا، والعزّ راسخا، والأصـل فسيحا؛ وهذه الكتب هى التى تزيد فى العقل وتَشحَذه، وتُداويه وتُصلِحه، وتُهذِّبه وتنفى الخبَث عنـه، وتُفيدك العلم وتُصادق بينـك وبين الحجّة، وتُعوّدك الأخذ بالثقة وتجلُب الحال وتكسب المـال. ووراثة الكتب الشريفة والأبواب الرفيعة مَنبَهة للمُورِّث وكنز عند الوارث، إلّا أنّه كنز لا تجب فيه الزكاة ولا حقّ السلطان، وإذا كانت الكنوز جامدة ينْقصها ما أُخذ منهـا كان ذلك الكنز مائعا يزيده ما أخذ منـه، ولا يزال بها المُورَّث مذكورا فى الحكماء ومُنَوّها باسمه فى الأسمـاء، وإماما متْبوعا، وعَلَما منْصوبا، ولا يزال الوارث محفوظا، ومن أجله محبوبا ممنوعا؛ ولا تزال تلك المحبّة ناميةً ما كانت تلك الفوائد قائمة ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة، ولن يزال من تعظيمها فى القلوب أثرُ ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: متى وَرّثتَه كتابا وأودعتَه عِلْما فقد ورّثتَه ما يُغِلّ ولا يَسْتَغِلّ، وقد ورّثتَه الضيْعة التى لا تحتاج الى إثارة، ولا الى سقى، ولا الى إسجال بإيغار، ولا الى شرط ولا تحتاج الى أكّار ولا الى أن يثار، وليس عليهـا عُشْر ولا للسلطان عليها خَرْج، وسواء أفدته عِلْمـا أو ورّثتَه آلة علم، وسواء دفَعْتَ اليه الكفاية أو ما يجلب الكفاية، وانّمـا تجرى الأمورَ وتتصرّف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدِر إلا على دفع السبب لم يجب عليه إحضار لمُسبِّب، فكتب الآباء تحبيب للأحياء، ومحْيا لذكر الموْتى.

وقالوا: ومتى كان الأب جامعا بارعا وكانت مواريثه كتبا بارعة، وآدابا جامعة، كان الولد أجدر أن يَرَى التعلُّم حظّا وأجدرَ أن يُسرِع التعليم إليه ويرى تركه خطأ، وأجدرَ أن يجرى من الأدب على طريق قد أُنْهِج له، ومِنْهاج قد وُطِّئ له، وأجدرَ أن يَسْرِى اليه عِرْق مَن نَجَله وسَقْى من غرسه، وأجدرَ أن يجعل بدل الطلب للكتب النظرَ فى الكتب، فلا يأتى عليـه من الأيام مِقْدار الشغل بجمع الكتب، والاختلاف فى سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية غايةَ الحاجة وإنّمـا تُفسد الكفاية مَن تمت آدابه، وتوافت اليه أسـبابه، فأمّا

الحَدَث الغَرير، والمَنْقوص الفقير. فخير مواريثه الكفاية الى أنْ يبلَغ التمام، ويكمل للطّلب. فخير ميراث وُرِّث كتبٌ وعلم، وخير المُورِّثين من أَوْرث ما يجمَع ولا يُفرِّق، ويُبصِّر ولا يُعمِى، ويُعْطِى ولا يأخذ، ويجود بالكلّ دون البعض، ويدَع لك الكنز الذى ليس للسلطان فيه حقّ، والرِّكازَ الذى ليس للفقراء فيه نصيب، والنِّعمة التى ليس للحاسد فيها حيلة، ولا للصوص فيها رغبة، وليس للخَصْم عليك فيه حجّة، ولا على الجار فيه مَؤُونة .

وأمّا ديمقراط فإنّه قال: ينبغى أن يَعرِف أنّه لا بدّ من أنْ يكون لكلّ كتاب علم وضعه أحدٌ من الحكماء ثمانيةُ أوجه، منها الهِمّة والمَنْفعة، والنِّسبة والصحّة، والصِّنْف والتأليف، والإسناد والتدبير، فأوّلها أن تكون لصاحبه هِمّة، وأن يكون فيما وضع مَنْفعةٌ، وأن يكون له نِسبة ينسب اليها، وأن يكون صحيحا، وأن يكون على صِنْف من أصناف الكتب معروفا به، وأن يكون مُؤْتلفا من أجزاء خَمْسة، وأن يكون مُسندا الى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف . فذكر أن أبقْراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه فى هذا الكتاب وهو كتابه الذى يُسمّى «أفُور يسْمُوا» تفسيره: كتاب الفصول. وقولك وما بلغ من قدر الكلب مع لؤْم أصله، وخُبْث طَبعه، وسُقوط قدره، ومَهانة نفسه، ومع قِلّة خيره وكثرة شرّه، وآجتماع الأمم كلّها على آستسقاطه وآستسفاله، ومع ضربهم المَثَل فى ذلك كلّه به، ومع حاله التى يُعْرَف بها من العَجْز عن صَوْلة السباع، وآقتدارها، ومن تمنّعها وتشرّفها وتوحّشها، وقِلّة إسماحها، وعن مسالمة البهائم ومُوادعتها، والتمكين من إقامة مصلحتها، والانتفاع بها، إذ لم يكن فى طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الآحتيال لمعاشها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المَخُوفة . ولأنّ الكلب ليس بسَبُعٍ تامّ ولا بهيمة تامّة حتى كأنه من الخَلْق المُركّب، والطبائع المُلفّقة، والأخلاط المُجْتلبة، كالبغل المتلون فى أخلاقه الكثير العيوب المتولدة عن مزاجه؛ وشرّ الطبائع ما تجاذبته الأعراق المُتضادّة والأخلاق المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالراعبىّ من الحَمَام الذى ذهبت عنه هِداية الحَمَام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطَل عنه عُمْر الوَرَشان، وقوة جُناحه، وشِدّة عصبه، وحسن

صوته، وشجا حلقه، وشكل لحونه وشدّة إطرابه، وٱحتماله لوقع البنادق، وجرح المخالب. وفى الراعبيّ أنّه مُسَرْوِل مُثقّل، وحدث له عِظَم بدن وثِقل وزن لم يكن لأبيـه ولا لأمّه.

وكذلك البغل خرج من بين حيوانَيْن يلدان حيوانا مثلهما ويعيش نتاجُهما ويبقى بقاءَهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقر؛ فلو كان البغل عقيما والبغلة عاقرا لكان ذلك أزيدَ فى قوّتهما وأتمّ لشدّتهما، فمع البغل من الشبق والنعْظ ما ليس مع أبيه، ومع البغلة من الشوَس وطلب السِّفاد ما ليس مع أمّها؛ وذلك كله قدح فى القوّة ونقص فى البِنْية، وخرج غُرْمولُه أعظمَ من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبههما ونزع الى شيء ليس له فى الأرض أصـل، وخرج أطولَ عُمْرا من أبويه وٱصبرَ على الأثقال من أبويه؛ أو كابن المذكّرة من النساء، والمؤنّث من الرجال، فإنّه يكون أخبث نتاجا من البغل وأفسدَ أعراقا من السِّمْع(١)، وأكثر عيوبا من العِسْبار(٢)، ومن كلّ خَلْق خُلِق اذا تركب من ضد، ومن كلّ شجرة مُطْعمة بخلاف؛ وليس يَعترى مثل ذلك الخلاسيّ(٣) من الدَّجاج، ولا الوَرْدانيّ(٤) من الحَمام؛ وكلّ ضَعْف دخل على الخِلْقة، وكلّ رِقة عرضت للحيوان، فعلى قدر جنسه وعلى وزن مِقداره وتمكّنه يظهر العَجْز والعيب. وزعم الأصمعيّ أنه لم يسـبِق الحَلْبة فرس أهضم قطّ. وقال محمد بن سلّام لم يسبق الحَلْبة أبلقُ قطّ ولا بَلْقاء.

والهداية فى الحَمَـام والقوّة على بعد الغاية إنّمـا هى للمُصْمَتة من الخُضْر. وزعمـوا أنّ الشِّيات كلّها ضعْف ونقْص، والشِّية: كلّ لون دخل على لون. وقال الله جلّ وعزّ: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْـقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾. وزعم عثمان ٱبن الحكم أنّ ٱبن المذكّرة من المؤنّث يأخذ أسوأ خِصال أبيـه وأردأ خِصال أمّه فتجتمع

(١) السمع بكسر السين وإسكان الميم وبالعين المهملة: ولد الذئب من الضبع وهو سبع مركب فيه شدّة الضبع وقوّتها وجراءة الذئب وخفته (راجع حياة الحيوان للدّميرى ح ٢ ص ٣٢). (٢) العسبار بكسر العين وبالسين الساكنة والأنثى عسبارة: ولد الضبع من الذئب وجمعه عسابر (راجع حياة الحيوان للدّميرى ج ٢ ص ١٣٩).
(٣) الخلاسى: الولد بين أبوين أبيض وأسود، والديك بين دجاجتين هندية وفارسية. (٤) الوردانى بالراء المهملة طائر متولد بين الورشان والحمام وله غرابة لون وظرافة قدّ.

فيه عِظام الدواهى وأعيان المساوى، وأنّه اذا خرج كذلك لم يُنجِع فيه أدب ولا يَطمَع فى علاجه طبيب، وأنّه رأى فى دور ثقيف فتًى اجتمعت فيه هذه الخصال، فما كان فى الأرض يوم إلّا وهم يتحدّثون عنه بشىء يَصغُر فى جنْبه أكبرُ ذنب كان ينسب اليه .

وزعمت أنّ الكلب فى ذلك كالخُنْثَى الذى هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخَصىّ الذى لمّا قُطِع منه ما صار به الذكر فَحْلاً خرج من حدّ كمال الذكر بفقْدان الذكر، ولم يكمُلْ لأنْ يصير أنثى للغَريزة الأصليّة وبقيّة الجَوْهريّة؛ وزعمتَ أنّه يصير كالنبيذ الذى يُفْسده إفراط الحرّ، فيُخرِجه من حدّ الخل، ولا يُدخِله فى حدّ النبيذ . وقال مِرْداس بن خِذام :

سَقَيْنا عِقالًا بالثَّوِية شَرْبةً * فمالتْ بلُبّ الكاهِلىّ عِقالِ
فقلتُ اصْطَبِحْها يا عِقالُ فإنّما * هى الخمرُ خَيّلْنا لها بخَيالِ
رَمَيْتُ بأمّ الخَلّ حبّةَ قلبِه * فلم يَنتعِش منها ثلاثَ ليالِ

فجعل الخمر أمّ الخلّ قد يتولّد عنها، وقد يتولّد عن الخلّ اذا كان خمرًا مَرّةً الخمرُ .

وقال سَعيد بن وَهْب

هلّا وأنتَ بماء وجهك تُشتهَى * رُودُ الشباب قليلُ شَعْر العارِض
فالآن حين بَدَتْ بخدّك لِحيةٌ * ذهبَت بمِلْحك ملءَ كفّ القابِض
مثلَ السُّلافة عاد خمْر عصيرها * بعدَ اللّذاذة خَلَّ خمرٍ حامِض

ويصير أيضا كالشّعر الوسَط والغناء الوسط، والنادرة الفاترة التى لم تخرج من الحرّ الى البَرْد فتُضحِكَ السنّ ولم تخرج من البَرْد الى الحرّ فتُضْحِك السنَّ .

باب الرسـائل

١ — الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة فى كل فن[1]

كتب رجل الى صديق له :

إن آباءك شادوا أكارمهم بالفضائل التى كانت فيهـم ، وإنك قد كنت أخذت فى مَدْرجَتهـم فأوفيتَ على غايتهم ، ثم آختلجك الهوى ببعض جَديلتك[2] وجودك ، من لباس فضلك الذى كنتَ تطُول به على أكفائك ، وتملك به أعنّـة كافّة جندك ، وألقيت مالك على شرّ عواقبه عليـك لا لك إن زلت مكاره بوادِره عنك .

فصـــل — قيل : إن مروءة الرجل فى نفسه نَسَبٌ لقوم آخرين ، فإنه اذا فعل الخير عُرِف له ، وبَقِى فى الأعقاب والأصحاب ، ولَقِيَه يوم الحساب .

فصـــل — إن حقّ الله على المسلمين أن ينظروا فى دينهم بالنصيحة لأئمتهـم ، فإن الأئمة اذا صلَحوا بُدّل الهـوى بالتقوى فى قلوبهم ، وماتت سَوْرة الغضب فيهـم لأحلامهم ، وسكنت العـامّة الى عدلهم وذلّت لإنصافهم . واذا كان للحسن من الحـقّ ما يُقنعه ، وللظالم من النّكير ما يَقْمَعه ، بذَل المحسنُ الحقّ عليه رغبةً ، وذَلّ المسيء بالحق عليـه رهبةً . فأوّل ما آمرك به رَجاء الله وتقـواه . فأما رجاؤه فأن تُحْسِن به فى الصُّـنع اذا آطلعتَـه ، ويكون لك وِقاية اذا آثرته مطمئنا . وأما تقـواه فأن تكون له فيما أَمَرك به ونَهاك عنـه مُراقِبا ؛ فإن تَقِيّة المؤمن تزيد فى آنشراح صدره ، وإن شـدّة خوفه تَرُدّ هواه على عقـــله .

---

(١) نقلا عن اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور .

(٢) الجديلة : الناصية والحالة والطريقة .

فصـــل — تنّبه اذا نُبّهت، واذّكر اذا ذُكّرت، وانتفع فقد وُعظت، واسمع فقد نُوديت، نبّهك الوعيـدُ، وحذّرك الزاجر، وأمرك ونهـاك الكتّاب، ونعَتْك آثارُ الموت، ودعاك الى الجنة مَلِيء جواد، فالجِدّ الجِدّ، فقبل المهجرة يُريح المُدْلِج .

فصـــل — ما نظرتُ فى معروفى عنـد أحَدٍ، فوجدتُه قصُر عن أمله وكان يمكننى أن يكون أكثر منه، إلا عددتُه سيئةً لى عنده ، لأنى ذوّقتُه ما أَحَبَّ ، ثم منعتُـه إياه ، وكأنى قصدتُ لإشخاص قلبه . ولا نظرت فى معروفى عند أحد فوجدته قد تَنَاهى عند تناهى أمله وكان يمكننى أن يكون أكثر منه، إلا رأيتُنى فى ذلك واترًا لنفسى، لأنه كفى عَيبا لهـا وإزْراء بها ، أن أقنع ...(١) فضل نتخذه بمثل ما أقنع رجلا من فضل يتخذه عليـــه .

فصـــل — ما أنتَ ممّن يعلّم مِن جهْل به ، ولا تُحَسّ منه بادرة زَلّة، ولا يقابل بين أمرين إلا عرَف خيرَهما فآثَره، وشرهما فاجتنبه . وقد رأيتَ ما ساقت اليـك الطاعةُ من حظّ العاجلة ، فلا نتعرّض لزوال ما أنت فيه ، فتخسر الحظّين ، وتندم فى الدارين؛ فقـد رأيت من عانَد الحقَّ كيف صَرعه الله وبسـط يدَ وَليّـه على سـفك دمه، وإحلال النّقمة به، فصار بعد أن كان فى الأُمنيّة مثلا، ولجميع الخلق غاية وأملا، فكرةً فى الاعتبار، وعظـةً للأبصار . فلا يُبعـد الله إلا من ظَلَم وخَتَر، وذهب عن الحقّ وأدْبَر . وأنت اليوم مُحكَّم فى أمرك، مخـيّر فى رأيك، تُدْعى الى حظّك بالحظ الجزيل بتدلّل . فاهْتبِل ما قـد هَدَف لك وهو مُمْكن ليـدك، فإنك إن أهملْت وتراخيت، لم يكن بالحقّ ووليّـه وحشة اليك ، ومضتْ أحكام الله فى نصرها وتأبيدها على أذْلَالها(٢) ، وصَفِرت يُدك بمـا لا يُشْرف لك بمثله ، وأخطرتَ بدمك وأسَـلْتَه أخبث مَسـيل وأضَلّ سبيل، حيث لا تبكى عليك السماءُ والأرض .

(١) بياض فى الأصل . ولعله : أن أقنع نفسى بفضل أتخذه بمثل ماأقنع رجلا الخ .

(٢) على أذلالها : على وجوهها وطرقها .

فصـــل — الناس رجلان : عالمٌ لا غِنًى به عن الازدياد، وجاهلٌ به أعظم الحاجة الى التعلم ، وليس فى كل حال يكون العالم لما يَبْدَهُه من الأمور مُعِدّا ، ولا المتعلّم على ما يستفيد منه قادرا وفيّا .

فصـــل — إن أنت عطّلتنا من أمورك ، وأعفَيْت ظهورنا من أثقالك ومؤونتك ، وتركتنا أَغْفَالا فى وِلايتك من تنبيهك وتحريكك ، فقد أنزلتنا منزلةَ من لا خير عنده، وجعلت نفسك أُسْوةَ من لا مُعين له ، وكفى بذلك ظلما .

فصـــل — إن إعلامى إياك ... غير محـدِّد[1] شيئا ، ولكنه أقرب من الجميل فى معرفة عذر المعتذر، وأحمل للائمة على المسيء المقصّر .

فصـــل — الذى آعتمدنا عليه من رأيك، ونثق به من جميل نظرك، قد خلّطنى بأهل صنائعك، والخاصّة من ثِقاتك، وبَسَط أملى فيك الى غاية خير يُرتجى، أو جزيل حظّ يُؤمَّـــل .

فصـــل — ليس يَسُوغ لأحد فى الأمير أمَل، ولا يتوجّه اليه منه رغبة، ولا يلزمه فى قضاء حقه، ودنانة[2] مؤونته إلّا وفضلُه مستغرِق لها .

فصـــل — من أحمـد الأمور وأجمل المذاهب، ما كان آخره موصولا بأوله ، ومؤدِّياً بَدْؤه الى حَمْد عاقبته ؛ فحافظ على الأمور التى حَسُن فيها عنـد أمير المؤمنين أثرُك ، مستقِلّا فيها لكثير ما يكون منك ، مُعْتَدّا بها فى النعم عندك ، والإحسان الواصل اليـك ، فيما يوفقك الله له منها ويخصّك به من الفضل فى آختيارها ، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك، ويستمتعه فى النعمة فيك .

فصـــل — قد كان يجب أنْ تجعلنا بمتابَعة النّعم علينا فى خاصّـة الشاكرين لفضلك، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات الينا فى عامّة الشاكين لك .

(١) بياض فى الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «بحاجتى» . والظاهر أن كلمة «محدّد» محرّفة عن كلمة «مجد» .
(٢) كذا بالأصل .

فصـــل — عِلمى بما بنى اللهُ عليه أخلاقَ الأمير أكرمه الله، وجعل عليـه رأيه فى بسط العدل على رَعيّته، وبثّ الفضل على مُلْتَمِسى فضله، يبعثنى على الكتّاب فى مثل ما كتبتُ اليـه فيه، من ظُلامة مظلوم يستعيذ فيها بعدله، وحاجةِ ملهوف يرجع فيها الى فضـله؛ فأجمْعُ الى ما ألتمس من الثواب فى ذلك مُوافقةَ رأى الأمير، وإذكارَه ما يجب أن يذكّر به؛ فزاد الله الأمير من نعمه، وأوزعه من الشكر عليها ما يُوجب له تتابُعَها عنده، وترادفَها له .

فصـــل — أنت والحمد لله ممن آحتمل الصنيعة، وقبِل الأدب، وصدَق المَخيلَة وَخلَص علَى المِحنة وحسّن الظن؛ فاستقامت طريقتُه وقدّمه جميلُ مذهبه وآثاره، وجَرَتْ على قصد السبيل طاعتُه، وآشتدّت على السريرة والعلانية مُنَاصحتُه؛ فأصبح أمير المؤمنين لا يتناهَى فى برّك وتكرِمتك، إلّا رآك مُستحقّا لهـا ولِمَـا فَوْقها، ولا يرفَعك الى درجة إلّا رآك أهلا لأشرفَ منها، صُنْعا من الله لكَ بما وفّقك له من طاعته، ووهب لك من جميل مَراتبه، والمكانِ منه والأُثْرة عنده .

فصـــل — فضـلُ مشاركتنا إيّاك فى محبوب الأمور ومكروهها يحملنا فى السرور بالنّعمة عندك — لجدّدها اللهُ لك — ويوجب الشكر بمـا يكون لحقّها قاضيا، وللمزيد فيها موجبـا .

سَعيد بن حُمَيد — شُغْلك يقطعنا عن مطالبتك بالحقّ فى جوابات كُتُبنا اليك، وصدقُ مودّتنا لك يمنعنا من التقصّى فى الحُجّة عليك، ومن يَكلُك الى رأيك فإنّه لا يفى بك إلّا لك، صلةَ إخوانك والتعاهد لهم من برّك، بما يُشبه فضلك والنعمةَ عليهم فيك .

وفلان بينى وبينـه مَودّة أقدّمه بها على الأُخوّة؛ لأنّك تعـلَم قربَ ما بين المودّة والقرابة، وقد بَلْوته علَى الحالات كلّها، فلم يزدنى آختبارُه إلّا آختيارا له؛ ولا أعلم بالعسكر جليلا إلا وهو لى صديق، يَشْكُر بشكره ويُوجب على نفسه المِنّة فيما آتى اليه؛ فأمّا من بين إخوانه فلست أعدل عن قضاء حَقّه، ولا أتأخّر عن معروف أُسْـدى اليه؛ فإن رأيتَ أن

تُحِلّه بالمحل الذى يستحقه بنفسه وسَلَفه، فوالله ما رأيتُ سُوق الاحرار أنْفَق منها عندكم أهلَ البيت؛ أبقى الله تبارك وتعالى باقيَكم ورحِم ماضيَكم .

فصـــل — إنّ أحدا ليس بمستخلِص شيئا من غَضَارة عيش إلّا من بين خِلال مَكارِه، فمن ٱنتظر بعاجل الدَّرك آجِلَ الٱستقصاء سَلَبته الأيام فُرْصته ، لأنّ مِن صِناعتها السَّلْبَ، ومن شَرْط الزمان الإفاتة .

فصـــل — إنّ الأمير قد جَلّ فضلُه عن أن يُحيط به وصف، أو يأتى على تَعْداده اجتهاد، فلو كان شىء أكثر من الشكر لكان الأميرُ يستحقّه علينا، ويَستوجِبه منّا .

فصـــل — قد أصبح المختلفون مجتمعين على تقريظه ومدْحه، حتى إنّ العدوّ يقول ٱضطرارا ما يقوله الوَلِىّ ٱختيارا؛ والبعيد يثق من إنعامه علينا بما يثق به القريبُ خاصّا .

فصـــل — المـائلون اليه بين نِعَم مُكْتنِفة من تالدٍ به يَستدِيمونه، وطارفٍ منه يَستعيدونه، ومواهبَ متجدّدة، وفوائد مُتُرادِفة؛ هى مبسوطة به الى بركة أيّامه، وعُلوّ حظّ(١) مَن ٱتصل به، فزاده الله من فضله، وزاد أولياءَه به وببركة دولته .

فصـــل — ٱعتمدتُ أخًا لايُذَمّ إخاؤه، ولاتُنكر أحواله، على بعد الدار وقُربها، وٱتصال المكاتبة وٱنقطاعها؛ تجده مُتصرّفا معك فى الخطوب التى يَطْرُق بها الزمانُ، ويَدًا لك فى الأمور التى يُمْتَحن فيها الإخوان .

فصـــل — أسأل الله أن يجعل ما تَطَول به فيه من الجلالة فى القلوب والعيون عند الوَلِىّ والعدو موصولا بالإنساء فى مُدّته، والإدامة لعزّه وسلامته، والأعلاء ليده وكلمته .

أحمد بن يوسف — عندى فلان وفلان، فإن كنّا من شأنك فقد آذنّاك .

فى صفة حَرْب — كانت لكم الكَرّة، وعليهم الدَّبْرة؛ فحملوا حَمْلةً كاذبة، أتبعْناها بأخرى صادقةً .

(١) فى الأصل : «حظة» والسياق يقتضى ما أثبتناه .

فصل في هَدِيّة — قد أهديتُ اليك من فنون كلامي وعيونِ مَقالي، دفترا ظريف المعاني، شريفَ المباني، صحيحَ الألفاظ، يَلَذّ بأفواه الناطقين، ويَلِين على أسماع الصّامتين.

فصل في شَفَاعة — لفلان قِبَلك حاجة، ليس يحتاج فيها الى مَعْدلَتك ونَصَفَتك المبسوطتين لمن لا يتوسّل بخُلْطتك ومعرفتك، ولكنّه يريد ما في ذلك العـدل والإنصاف من الرفق والإحسان المَذْخورَيْن للخاصّة والإخوان.

فصل لرجل تميميّ — ضَعْفُ حالي يدعوني الى كثرة الطلب، ومَعْرفتي بجميل رأيك تحجُزُني عن الإلحاح عليك، خوفًا أن أكون جاهلا بعنايتك، وحسن نظرك، والكرم يستحيي بعضُه لبعض، ويبعَثُ بعضُـه بعضًا، ودين حيلته الغير على العقود، فبعثه كرمه للنهوض، أو دعاه هواه الى المنع، فجاءه عقله على البذل، وحالي جائحة لدَى فضلك ونعمة الله عليك من سدّ خَلَّتها، ومداواةِ عِلّتها بجاهك الواسع، ورِفْدِكَ النافع.

أحمد بن يوسف — قد بَذَلتَ لنـا من نفسك أعزَّ مَبْذول وأنفسَه، والمودّةَ التي كلما يُحْمد من صاحبها، فهو لهـا نافع. وثقتُنا بك واستنامتُنا الى ناحيتك، على أحسن ما أكّد الله بيننا وبينك. وإن كان مدى اللقاء بيننا لم يَطُلْ فأَمِّلْ منه ما يرعاه أهلُ الوفاء والمُخالصة، ويقصِّر في المحافظة عليه وعلى أكثرَ منه، من دُخِلَتْ نِيّته، وضَعُفت خُلّتُه.

فصـــل — قد أصبحتَ للخاصّة عُدّة، وللعامّة عِصْمة، وللأنام ثقة في مناصحتك.

فصل في الصفح لأبي علي — إنّ الذي فَرَط منك، وإن تجاوزَ مني ما أرضاه لك، لم يبلُغْ ما يُغْضبني عليك، وحيث انتهى ما يخالفني من قولك وفعلك، فإنّ وراءه تغمُّدًا منّي لإساءتك وصَفْحًا عن زَلّتك؛ فإن تأمَنّا لا نَخُنْك، وإن يسؤْ ظنُّك فإنمـا نحتاج الى إصلاحه منك.

أحمد بن يوسف — الى ابراهيم بن المهديّ في هَدِيّة استقلّها:

بلغني استقلالُك لِمـا ألطفتُك، والذي نحن عليه من الأنس سهّل علينا قلّةَ الحشد لك في البر، فأهدينا هَدِيّةَ مَنْ لا يَحْتشِم الى مَنْ لا يَغْتنِم.

كتب عَقَّال بن شَبَّة — الى خالد بن عبد الله فى شفاعة :

إنّ الله انتجبك من جوهرة كرم ومَنْبِت شرف، وقَسَم لك خَطَرًا شَهَرته العرب وتحدّثت به الحاضرةُ والبادية، وأعان خَطَرك بقُـدرة مبسوطة، ومَنْزلة ملحوظة، بجميع أكفائك من جماهير العرب، يعرف فضلك، ويسرّه ما خارَ الله لك، وليس كلّهم أداله الزمان ولا ساعده الحظّ، وأنت أحقّ من تَعَطّف على أهل البيوتات، وعادَ لهم بما يُبقى له ذِكرَه ويُحسن به نشرَه، مثلُك . وقد وَجَّهتُ اليك فلانا، وهو من دِنية قرابتى، وذوى الهيئة من أسرتى، وعرف معروفك، وأحببتُ أن تُلبسه نِعمتك وتصرفَه الىّ وقد أودعتنى وإيّاه ما تجده باقيًا على النّشر، جميلا فى الغِبّ .

فصـــل فى التـــوديع

أســتودعُ اللهَ الأميرَ بأحسنِ وَدَاعه، وأساله أن يجعـلَه فى كَنَفه وحِرْزه، فقد أكرم المثوَى ، وأحسنَ الابتغاء، فأطال الله له البقاء، وأدام عليه النَّعماء .

فى الصـــفح

بلغنى كتابك، تذكر كتابى اليــك بوضعى عنك مَوْجِدتى ، وردّى لك الى أحسنِ ما عَهِدتَ من منزلتك عِندى؛ وقد حَلَلتَ منّا المَحَلّ الذى خلطناك فيه بأنفسنا، وأدخلناك منــه مداخلَ أهل ثِقتنا ؛ ولستَ تؤتى من جهالة بما أنت فيه ، ولبعض ما أنت عليه من التجارِب تُسْتفاد بمثلها العِبرَ، ويُنْتفع بها فى عطف الأمور .

جواب فى فتح

كتب سالم بن هشام الى يوسف بن عمر حين قَتَل زيد بن علىّ رحمة الله عليه :

قد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك بما أبلَى الله فى مِذْره الســوء، وأنّه لمـا عضّتهم الحــرب، وآلمهم الحديد، عادوا بالمسجد الجامع، قد أكذَب الله ظنونهم، وخَذَل مَخْرجهم، وقتل إمام ضلالتهم؛ وحفظ لأمير المؤمنين ما ضيّعوا من حقّه، وحاط له ما أباحوا من الغــدر فيه ؛ وقد رأى أمير المؤمنين أن يجعل من شكر الله على نِعَمه، الصفح عنهم، وتغمّد حَرَمهم

وأن يعمّهم من عدله، بما يردّ به الجاهلَ عن جهله، والغوِيّ عن غَوايته، ويعلمون مكانه من الله، واستجابتَه لعزّه ونَصْره، وأنه الخليفة المُتّقى، والإمامُ المُتألف، وأنه يُقـدّم العفو فى الطاعة، على الحُجّة فى العُقوبة، والحِسْبَة فى الاستصلاح، على القوّة فى التأبيد، فأمسك عنهم بيدك، فإنّ أمير المؤمنين قد وهب ذلك كلّه لله، ورجا به ما ليس ضائعا عنده* من ثوابـــه .

فى الصفح عن الجفاء

لو كان من نازع الى الغدر، قلّدناه عِنان الهجر، لم يكن أقرب منا الى الذنْب، ونحن نردّ عليك مِن نفسك، ونأخذ لنفسك منك، حتى يكون تركنا إياك، وعذرُنا فيه وافرا .

فصـــل — الحمد لله على البليّة التى طال أمدها، وبعُد ما بين طَرَفَيها .

آخـــر — اقتفرتَ فى التثبّت أناة ذوى الحِجَى، وقدّمتَ المقـدّم من الأناة على العجلة، وأطعتَ فى أمرِك النظرةَ، وانتهيتَ الى العُـذْرة والمعرفة، فملكتَ ما ملّكك، وحكمت على الذى حكم عليك، فأخذتَ مثل الذى أعطيت .

فصـــل — بدءُ أســباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها، والخيرة بعـد الله عزّ وجـــلّ .

فصـــل اعتـــذار

لو كان الناس يَقضون الحقوق التى تجب عليهم، ويحافظون على الأمور التى تَلزمهم، لقلّت اللائمـة، وخلصت المودّة، وارتفعت أسباب العتاب، ولكنّهم عجزة مَنْقوصون، يضعُفون عن العلم، بأكثرَ ما تدركه عقولهم، وتعوقهم عن ذلك أشغال لا يجب بها العذر، ولا تسـتحقّ الإيثار، ولم أزل عاتبـا على نفسى فيما ضيّعت من مكاتبتك، مع معرفتى بفضلك، وموقع ذلك عنـدك، وما اعتذارى اليك، سوءُ ظنّ بك، ولا مخافةٌ للائمتك، ولئن فعلتُ ما ظلمتُ، غيرأنّى أحببتُ أن أكفيَك المؤونة، فيما عسيْتَ أن تنقبض عنـه من مقايستى ومعاتبتى، وأنا أحب أن تقبل العذر، وتعينَ على مستقبل البرّ .

فصـــل — أنت فى زمان إن لم تغالط أهله، وتختلهم على ما فى أيديهم، وتصبرْ على مكاره الأمور بعد المطالبة، لم تصل الى شىء، ولم تجد أحدا ما على فضل منك وإن عرَفه فيك، ولم يفتـه من محاسنك شىء، إلّا رأى فى مساوئ غيرك عوَضا منـه؛ فكان بذلك أثلج، واليه أسكن؛ فعليك بالصبر، فإنّ غايتـه الى خير، وأقل ما فيه أنّ صاحبه لا يلوم نفسه، ولا يلومه أحد، ولعاّ يظفَر أو يدلّل .

الى المأمون من عامل

قلّ مَن يسارع إلى بذل الحق من نفسه، إذا كان الحق مُضرّا به، وقلّ من يدع الاستعانة بالباطل، إذا كان فيه صلاح معاشه، وسببُ مكتسبه؛ واذا تفرّق الحقّ فى أيدى جماعة فطولبتْ به، تشابهت فى الكُرْه لبذله، وتعاونتْ على دفعه ومنعه، بالحيـل وبالشُّبَه قولا وفعـلا؛ واحتاج المُبْتلَى باستخراج ذلك الحق من أيديها، الى استعمال مجاهدتها ومصابرتها على الحيلة فى مدافعتها .

ابن الكلبىّ

كان خبر ما أبلاك الله فى فلان بعـد أمانه ما عزمتَ عليـه من الأمان، خَبَرا عظم مكانُه من أمير المؤمنين، وحسُن موقعُه من الدّين؛ ثم ردَف خبرَك بإذعانه عنـد ما عضَّه من بأسك، ومسّه من مُؤْلم إيقاعك للاستسلام، وطلبِ عقـد الأمان؛ وإنّك بذلتَ له ما طلب لا لِرهبـة بقِيت فى ناحيتك، إلّا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه؛ فكان إباؤه ما عرضتَ عليـه فى أوّل أمره ذخيرة حظّ فيما كشفتَ عنه البلوى من محمود أثرك، واجتمع لك فى ذلك حظان : الظفَر آخرا، والدرْك لما حاولتَه أوّلا، فلا زلت على نصيبك من الحظ، مؤيّدا بالنصر والمَعُونة، والحمد لله على ما حقّق من الظن ...(1) من هذه النعمة على يديك وبسعيك .

(١) بياض فى الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «وآتى» .

ابراهيم بن اسماعيل بن داود الى ذى الرياستين

وصل الىّ كتابك بخطّ يدك المباركة، فلم أر قليلا أجمع، ولا إيجازا أكفأ من إطناب، ولا اختصارا أبلَغ فى معرفة وفهمٍ منـه؛ وما رأيت كتابا على وَجازته، أحاط بمـا أحاط، وضربتُ ظنّى فى فلان فعظّم ذلك سرورى، وقد يُستعطَف الظالم، ويُستعتب المُتَجَنّى؛ وفى رفقك وعِلْمك بالأمور ما يُصْلح الفاسد، ويُذلّل الصعب، ويُقْبِل المدبِر؛ ولا يمنعنّك جور من جار عليـك، من الاعتقاد فى الحُجّة عليه، والأخذ بالثقة فى أمره، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل عليك فى ذلك مَنْقَصة ولا غَضاضة، بل فيه الإعذار والإنذارُ والاستبصار، وقضاءُ حاجة النفس، مع التأدية الى السلامة، والأمنِ من الندامة.

فصـــل — أنا فى حال عافية، تتجاوز الى حال نِعْمة، والحمدلله حتّى يرضى، فقد أرضى؛ فامّا ما أشرتَ به، وخَبّرتَ من إمضاء رأيكَ فيه، والإمساك عنه، فمثلك جعـل لمن نصحه شركاء فى كلّ أمره، ولم يجعل رأيَه فَرْضا[(١)] لبعضـه أن يتعدى، وذكرت أدب فلانة، وعنـدنا لفلانة الطمع المستقبَل معَ الإنعام المتقـدّم، مع أنّه لا شىء لهـا عندنا قلّ ولا جلّ، ولو كان ما استحللنا حبسه صَفْقةَ كفّ، ولا تغميضَ طرْف؛ وذكرتَ أنّه لا يستغنِى مثلنا عن مثلها، وأبدال الله كثيرة عتيدة، وما بان علينا فَقْد أحد ممّن كان قبلها فى دارنا، فحال بيننا وبينه حائل، ولا اختللنا له مع نظر الله تبارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد هذا فأحسن الله جزاءك، وحاط لى فيك ما أُحبّ منك، وكفاك المُهِمّ وكفانيه بك، فمـا تقوم نفس لو كانتْ لى أخرى مقامَك فى نصيحتى وبِرّى، والاهتمامِ لى، بما أنا عنه ساهية لاهية من أمرى، لا أعْدمنيك الله ولا النصيحةَ منك.

فصـــل — قال أبو جعفر الكِرْمانى للحسن بن سَهْل ووعَده شيئا فأبطأ عليه:

أنا أعرف تكامل الثقة فيك، ورجاحة الفضل بك، وأعلم أنّ فعلك يُربِى على قولك، وأنّ إنجازك أكثر من وعدك؛ فقدّم لى من كرمك، ما أثمره الىّ[(١)] أنْ يلحقه المتأخّر

(١) بياض فى الأصل. وما وضعناه يناسب المقام.

عنه، وإلّا فَدُلّني على ما أقول اذا سألني مَن بعثته على شكرك، عما بلغه من الحظ على نيتك. فقال الحسن: تقول ما يَنْبغي، فقال: فافعل ما يَنْبغي أقلْه.

عمـــرو بن مَسْعَدة

وصل الى كتابك، على ظمإ منّى اليه، وتَطلّع شديد، وبُعْدَ عهد بعيد، ولوم منّى على ما مسستنى به، من جفائك، على كثرة ما تابعتُ من الكتب، وعدمتُ من الجواب، فكان أوّل ما سبق الىّ من كتابك السرور بالنظر اليه أُنْسا بما تجدّد لى من رأيك، فى المُواصلة بالمكاتبة، ثمّ تضاعُف المَسرّة، بخبر السلامة، وعلم الحال فى الهيئة؛ ورأيتك بما تظاهرتَ من الاحتجاج، فى ترك الكتاب، سالكا سبيل التخلّص مما أنا مُخلِّصك منه، بالإغضاء عن إلزامك الحجة، فى ترك الابتداء والإجابة؛ وذكرتَ شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكنة، لا أُجشِّمك متابعة الكتب، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب؛ ويُقْنعنى منك فى كل شهر كتاب، ولن [تُلْزِم](١) من نفسك فى البرّ قليلا، إلّا ألزمتُ نفسى عنه كثيرا، وإن كنتُ لا أستكثر شيئا منك؛ أدام الله مَوَدّتك وثبّت إخاءك، وآستماح لى منك؛ فرأيك فى مُتابعة الكتب ومحادثتى فيها بخبرك مُوَفّقا إن شاء الله.

عيسى بن واضح الى الفضل بن الربيع

قد أكّد الله من حُرْمتى بك، ووصل من الشُّعَب بينى و بينك ماجعله ذخيرة ليوم الحاجة، وعُدّةً عند ملِمّ النازلة.

جبل بن يزيد

أما بعد فإن مَن صحب الدنيا لم يخلُ مِن تصرّف أحوالها، وكثرة مَعاريض فجائعها، فى اخترام الأنفس فى خواصّها، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يَهُدّها، ويفر من الأشياء عليها؛ وكان ذلك لا سبيل الى دفعه، ولا حيلةَ يُسْتعان بها عند نزوله، إلّا الرضا عن الله عزّ وجلّ فيما قضى، والتسليم لأمره فى كلّ ما أَتى، والسكون الى الأُسْـوة التى نَهَج الله سُبُلها، وخفّف

(١) السياق يقتضى وضع هذه الكلمة، وهى متروكة فى الاصل.

بها مواقعَ المصيبات على أهلها ، ثم الرجاء بعد ذلك لحُسْن ثواب الله ، [وقد] جعله الله لمن لزِم أمره وأجشمَ نفسه مكروهها فى مواطن الصبر على المصيبة ، والشكر فى حال العافية .

وله فى المطـــر

قد كنتُ كتبتُ الى أمير المؤمنين أعلمُه المَطْرَةَ التى أصابتنا ، وما أنزل الله بها من رحمته ثم عادتْ لنا بعدها من الله عائدةُ رحمةٍ ، بوَلِيّ مَطَرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر وابلا جَوْدا ، لا يفتر غزيره ولا يَرْعوِى جَوْدُه ، إلّا الى دِيمة عن دِيمة ، يتراخى اليها يسيرا ريثمـا تعود ، فأقامت علينا سمـاؤه مُستهِلة بذلك وكذلك الى غروب الشمس ، ثم ٱنقطع مطرها بسكون من الريح ، وفُتور من القُرّ ، وفضل من الله عظيم ، يَنْشُر به رحمته ، ويَبْسُط به رزقه ، فأسبغ النعمة ، وأوسع البركة ، وأوبَق بحمد الله معارف الخِصْب والحمى . والله محمود على آلآئه ومشكورٌ على بَلائه ، وما أنزل الله من سُـقياه ورحمته ، بعـد الذى أقبلتْ به السنة البرية والقَحط وعدم الإمطار ، وشدّة ما بلغ الناس من القنوط وسوء الظنون .

وله الى بعض إخوانه

أما بعد ، فإنّ أعظم الأمور فيما بين الناس حقا أمران : منهما الإخاء فى الدين ، فهو سبب وصيّة الله بين عباده بالأُلْفة والمحبّة التى ٱنقطعت بها قرائنُ القلوب من بعضهم الى بعض ، فاتّصلت بحبائلهم مَرائِرُ حبلها ، وتقطّعت فيما بينهم عاطفاتُ وصلها ؛ ومنهما مجاملة جميل الأعداء ، وحفظُ ما يحِقّ لأهل حسن البلاء ، ثم الصَّنائع بعد ذلك فى مواقعها فضائل بقدر ما جرتْ به أسبابُها ولطُفت مداخلها .

فصـــل — الصناعة ليست يزيدها الأخلاقُ الجميـلة ، ويزيد فى أسبابها أَواصر المودّة ، وقد جعلك الله فى صناعتك مُقدّما ، وفى مودّتك مُتفضّلا ، فلا زالت عنك نعم الله ، ولا برِحتَ سكنًا لإخوانك ، وأُنْسا وموضعا لمـا تَسْتميحون من معروفك ، ويَسْتَميرون من يدبـّــرك .

فصـــل — إنّ لك من قلبي لموضعا معمورا بالمودّة والثّقـة ، والاسترسال والأُنسة ، فلا تُخرج فلانا من سعة جميل برّك ، الى عُقْبي استحقاقه .

آخـــر

قد طالت الصبابة اليك ، وللدهر عُقَبٌ عائدة بالنفع والصنع ، ولا سيّما لمن كان على مثـل شاكلتك فى أدبك وفضـلك وإنصافك إخوانَك وبِرّك بهم ، وما توجبه على نفسك لهم ممـا يُقصّرون عن شأوك فيه .

الكلبيّ

كان أسلافنا تقارضوا دُيونا من الصفاء يَستأديها كلّ عَقِب من صاحبه ؛ وقد أورثونا مودّة لا نَعجِزُ عن اكتساب مثلها .

ابن أَعْيَن كاتب الخَيْزُران

ليس يكون منك شيء وإن حسُن ، إلا وحُسْن ظنى بك يَبلغُه ، فاستتمّ أحسنَ ما كان منكَ ، يتمّ لك أحسَنُ ماتُحب منّى . ولا يَمنعنك الاكتفاءُ بحالك اليومَ من طلب الزيادة فى غد ؛ فأنّه لقلّ شيءٌ لا يزيد إلّا نقص ، والزمان يمحَق الكثير، كما يربو على الزيادة القليلُ .

ابن الكلبيّ

أنت مَن أُطول بمكانه وأثق بجميل رأيه ، وأعتمد على رِفده ، وأرجو دَرْك كلّ فضيلة به ؛ وممـا أُحب علمَه مَقَرّ نعم الله عز وجل لديك .

علىّ بن عبيدة الى ابن الكلبيّ

وصل الله أيّام عُمْرى باتباع موافقتك ؛ ولولا موعد أخذ علىّ ، لأطعتُك فيما أمرتَ به ، مُتْبعا مع إجابتك سرورَ نفسى برؤيتك فى السلامة .

أما بعـد ، فإنى أصبحتُ وقد استفرغ الأميرُ منّى كل مودّة ونصيحةٍ ، ومبلغ جهـد وطاقةٍ فيما عرفتُ له فيه موافقةً .

فصـــل — فإنّ الذى شعّب الله بيننا من التواصل والتكاتب، يدعونى الى متابعة الكتب اليـك فى تعهّد حقك ، وإن كان الخبر عن ظاهر الحال قلّما يُغْنى، فإنّ له من الأُنْس والموقع فى الكتب ما ليس لمُسْتَعرِضات الأخبار .

فصـــل — قد كنتُ أعلمت الأمير انقطاع بنى فلان الى فلان ، بأهوائهم وبصائرهم وشراء ما قِبَـله بغيره(١)، وما كان وصل الينا فى ذلك من الأمور التى حملوا إصْرها، وبَقِى لنـا أجرُها وذكرها ونافلتها وسابقتُها؛ فنحن عند الأمير وخَبايَاه وذخائرُه، ومَن يأمل يومَه وغده، ولا مُتَخطِّى له عنه ولا مقتصر دونه .

عُمـارة

بلغنى كتابُك يصف كذا . فإن رأيتَ ألّا تعتمـد على ما لصقت [به] من عذرك، وأطعتَ فيه الهوى من قبول عفوك، وتجعلنى أحدَ مَن يُسرّ بسرورك، وتُشركه فى مُهمّات أمورك، فإنى أحدُهم وأوسطهم عِناية بمـا عَناك وتوسّطا لمـا عراك، فعلتَ .

فصـــل — والدنو من دارك إذ الدار جامعةٌ والحبل مُتّصِلٌ، إذ نحن فى الاستيفاء بالخبر والعـلم بِدخْلَة الحال، بمنزلة من كأنّه يُعانى مَن يشتاق اليـه ويَصْبو به فى كل يوم، حتى نأتْ النوى، وأنتَ فى اللقاء والإنظار فى كلّ أمر وعلى كلّ حال مَن لا يُشَكّ فى صفاء غيبه، وصدق إخائه .

فصـــل — مُشاركتنا إيّاك فى محبوب الأمور ومكروهها يحلّنـا محلَّك فى السرور بالنعمة يجـدِّدها الله لك ، ويُوجب من الشكر علينا(٢) مثل الذى يوجب عليك . فوَصَلَ اللهُ كل نعمة يَهَبُها لك من الشكر بما يكون لحقِّها قاضيا، وللمزيد فيها موجباً .

سعيدُ بن عبد الملك

كتبت على شُغْل فى قِطَع من القِرطاس، ولم يقطع بى حسنُ الظنّ بك فى قبولك العذر، وتحسينك ما أنت أهلٌ لتحسينه؛ فإنك تقبل دون حقك، وتَهَب الذنب فيه، فيكون شكرُك

(١) فى الأصل : « ... وسراه ماقبله ... » ؛ (٢) فى الأصل «عليها ... » وهو لا يؤدّى الغرض المراد .

جاريا على سبيلين، كلاهما يُبين لك عن فضلك، ويوجب لك مالا يَقْصُر معه إلّا مغبونُ الحظ خسيسُ النصيب .

فصـــل — وقد ظهر من أمير المؤمنين فى فلان بعد وفاته، ماهو أعدلُ شاهدٍ على حسن مُنْقَلَبِه ، وردّ اليك من رأيه وتفقّده ما أرجو أن يكون فيـه أعظمُ العِوَض . والله أسأل أن يتولّى لك أمورك فى السرّاء والضرّاء، والشدّة والرخاء، والشكر وحسن العزاء .

جبل بن يزيد الى بعض إخوانه

تمّم الله علينا وعليك النعم ، وأجْزَل لنا(١) ولك محاسن صالح القِسَم . إن الله تبارك وتعالى أجرى بيننا وبينـك لطيف مَوَدّة، وخاصّ أخوّة ، غيرَ أنّ المعرفة قد تُحمد بعـد الخبرة ، والثقةَ إنمـا تعرف بعد التجربة ، وقد أحببتُ أن يعلم مَن قِبَلَك(٢) الذى أحدث الله لك من حال دولتك ، وأنْ يُعْلَم هلْ أبقتْ لنا منك النعمةُ سَعةً، أم تركتْ لنا منك صَفْحةً نعرف بها عهـدك ونأمُل بها وصلك؟ فإنّ أصحاب السلطان ، بحال بَلْوَى فى التغيّر والانتقـال ، إلا من نالته من الله تبـارك وتعالى عصمة . فإنْ كنتَ على ما رجَوْنا من الوفاء، وحسنِ الحفظ للودّة والإخاء ، فمثلُك لم يرض لنفسه إلّا بأجمل الأخلاق وأوفقها للسـداد . وإن حجزك عن ذلك ما تأتى به الأقدارُ فى مُتَصرَّف الليـل والنهار ، نَعذرْك بمـا نَعذر به أهلَ السلطان، اذا غيّرتهم الحالُ، وتنكّرت شمائلُهم بين الإخوان .

وله الى بعض إخوانه أيضا :

اِعلم أنى اليك مشوق، وأنّ صِـلةَ الإخوان كرَمٌ ، وخيرَ الصِّلات ما لم يكن لها وجه إلّا الرجاءُ والحفظُ وتجـديدُ المودةِ وتصحيحُ الإخاء ؛ فإنّ الذى يكاتب إخوانه على حال الرغبـة يكفى القائلَ كتابه حيث شاء ، إن أحب مال به الى الصحة ، وإن شاء وضعه للرغبة، والرغبة أملكهما(٣) به . والذى يكاتب إخوانه على حال الضرورة، فقد يستقطع الصِّلَةَ

(١) فى الأصل : وأجزلنا ... » . (٢) فى الأصل : «ما قبلك» .

(٣) فى الاصل : « رأملكها ... » .

عنـد الحَدَث مخافةَ الملامة[(١)] من الناس على القطيعة الشنعاء المشهورة لإخوانه ؛ فإنّ الذى لا مَودّة له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء .

والكِتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهدٌ على أن ذلك ليس إلا صحّةَ الإخاء والشوْق الى المحادثة بالكِتاب ، حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمةَ على التقصير ، ولا يُوضع منك الرغبة فى الإطماع . إيّاك أن تعتلّ بالأشغال أن كنت فى خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصلةَ الإخوان أعظم الخاصّة بك خاصة . وإنما أمرنا فى كل هذا كأمرك فى الذى يَستغنى من خاصّتك تلك التى لنا ، فإن لنا ما لك ، وهذه التى لنا لك ؛ أليس ماسرّنا سَرّك وما سلبناه حظا لك ، فهذه كذلك وذلك كهذى . والله يوفّقنا وإيّاك . وأنت أبا يوسف . هكذا حال ما بيننا وبينك ما وصفتُ لأبى سعيد ، غير أنّه سألنا أمرا لم يسألناه قطُّ ، فله فضل السبق علينا فى المسألة ، ولنا فضلُ المنزلة عليك فى اللائمة . ولن أَدَعَك والفعلَ ، دون أن تَشْفَعه بالعمل الذى هو صلة القول . وسلام عليك ورحمة الله ، وقضى الله عز وجل بالحُسنَى لنا ولك .

فصــل — أتانى كتابُك ، فأنعمتُ أن يَسرّنى بسلامتك ، وما حاق فيه كرمُ برّك ، ولطيفُ عنايتك ، مالم أفقد فى حالة من حالاتك ، فكان الكِتاب مُصدّقا لما سلف ، مُبشّرا بما يستأنف ، مُذكّرا منك عهدا موصو[(٢)] مثاله طرفى وقلبى ، مُلْصَقا ذكرُه بلسانى وقلبى . فلا عدِمتُك ، بل أمتعنى الله بك فأطال ، وكثرنى ببقائك .

فصــل — أتانى كتابك فطامن قلبى وطرفى ، بعد ما كان شاخصا اليه ، مُتشوّقا الى رؤيته ، ثم ملأنى سرورا ما رأيتُ فيه من آثار برّك وكريم تفقّدك . وأفضل ما عندى منك قبَله ، مما إنْ ذكرتُه ، فللاستراحة[(٣)] الى الذكر ، وإن أمسكتُ ، فللعجز عن الشكر . فأمّا الضمير فمبنىّ على الإقرار بفضلك ، والنيّةُ خالصة بشكرك . وقليل ذلك لك ، فأعطاك الله فأطاب ، ووهب فأجزل .

(١) فى الاصل : «مخافة السلامة من الناس ...» . (٢) فى الاصل بياض . (٣) فى الأصل : "فالاستراحة" . ...

. فصـــل — وصل الىّ كتابُك نخُيِّل لى حين نظرت الى أثر يدك تَجْرى قلمك فى بطن صحيفتك ، أنّك ماثل بين عينىّ : أنظُر الى شخصك وأسمَع من لفظك ، فابتعث ذلك منى طربا شائقا ، وصبابةً هيّجت الأحزان وذكّرت الإخوان . وكنتَ من إخوانى الذين أفخرَ بسلامتهم للوُدّ الذى أجرَى الله بيننا وبينك ، فتواصلنا بحرمته ، وتعاطفنا بوصله .

فصـــل — إنّ الله جعل عاقبة كلّ نعمة وإن عظُمت ، تبعا لأوّلها ، وجعل الشكر عليها سببا لتمــامها ومُوجبا لأحسن الزيادة منها .

فصل فى شكر — فإنّ الله جعلك للخير مَعْدِنا ، وللفضل موضعا ، فيما حمّلته نفسك من ثقل أعباء المُرُوءة ، وحَمَلتها عليه من عِظام المكارم ، حتى صِرْت بما أنعم الله به عليك ، مُنتهَى كلّ أمل وغايةَ كلّ رغبــة . ثم أَلْبَسْتَ النعمةَ لباسَ التواضع ، وناسبت فى الأخلاق مَنْ سبقت به عليك الأمور ، حتى كأنّهم فى النعمة لك شركاءُ . وتحنّنت على الأقربين والمُتقرّبين من الاخوان والأكفاء ، حتى كأنهم لك ولدٌ ، وأجبرت نفســك حين ساعدك الدهر ، على طبيعة التقرب الى العامة ؛ فكلّهم يُدْلِى اليك بدَلْو رغبته ، ويَمتاح منك مَتّاحة فضــل ؛ فلا عَدِمتُ ألّا تزالَ تُنْعِش سَقْطة ، وتُقيل عَثْرة ، وتَسُدّ خللا ، وتُنيل أملا ؛ ولا عدِم مَن شهِد ذلك منك ، أن يَسْتَتِمّ هذه النعمةَ عليك وعلى نفسه ؛ فإنّ من سعادة العامة أن يجعَل سارّها عنــد خِيارها . ومن البلاء العظيم عليها المُوجِــع لهــا ، أنْ يخُصّ شرارُها بموضع رغباتها .

فاســلَم كلأكَ اللهُ بهذه النعمة ، غيرَ مُنَغّص بهــا ، ولا مُكدّر عليــك[1] صفوُها ، حتّى تُسلِمك النعمةُ العاجلةُ الى النعمة الباقية ؛ فإنّا وإن علمنا أنّ من شأن الدهر الغَدْران فى العواقب فقد علمنا أنّك فيما أهدى الله اليــك من النعمة ، قد أَدّيتَ حق الله عز وجل ثمّ حقّ إخوانك فيهــا ، فكنتُ أحرَمَن نال فضلك ، كرما فى السناء ، ورضا فى الأثَرة ، غيرَ مُتَطاوِل لِمــا نأمل ، ولا مُتَضَعضِع لمــا تحْذر ؛ فإنّا نَجْزى شكر المــاضى منك ، ورجاءَ الباقى ،

(١) فى الأصل : " ولا مكدر عليها صفوها ... " .

فنرى تضييعا منا فى عَقْد الرأى، وإزرَاء بنا فى وثائق الأمور، ألّا تَمنحك من أنفسنا مَودّة الولد ورقّة الوالد . وإذا أعطاك آمرؤ ثمرة فؤاده، فقد فرّغ اليك من جميع حقّك، لأن ذات يد امرئ فى البذل أهون عليه من ذات نفسه فى الشكر. وكفى لآمرئ من آمرئ أن يستولِى عليه حتى لا يَدَعَ لغيره فيه فضلا . وكفى بك لنا من غيرك . وكثير منّا أن نقوى على أداء أدنَى صنوف حقّك، غير أن أوثق أمورنا فيك عند أنفسنا ألّا نسأمَ النظر الى فنائك بَهِجين بك إن بَرزتَ، وعاذرين لك إن شُغِلت .

فصــل — إنّ الهدى والضلالة يقتسمان دُول الأزمنة، لغير كرامة للباطل، ولا هوان للحق . وأهل الحقّ كيف تصرّفت أحوالهم فى كرامة من الله عز وجل، ونعمة بين دولة تكون لهم، يَقومون لله فيها بحقّه ويُظْهِرون هداه ودينه، ودولة تكون للباطل، يكونون فيها كُهُوفا للخيرات، ومَعْدِنا للحسنات، يستكنّ الحق فى صدورهم، ويأوِى البرّ والصدق اليهم؛ فهم بين يومَىْ صبر وشكر، ليس أحدهما دون صاحبه فى الفضل .

وأهل الباطل كيف تصرّفت أمورهم بين سُخْط الله وعقوبته، لأنّ الله تعالى لم يجعل فى الباطل فَرجا لأهله، وإن كانت لهم دولة كانتْ إملاءً واستدراجا، وكانوا فيها على مَدْرَجة هَلَكة وسبيل نِقمة؛ وإن كانت الدولة لأهل الحق، كانوا فيها بين ذل وضيم، وخوف وجزع، وقد سدّت عليهم المطالع، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَت . ففى أىّ يومَيْهم مستراحهم : أيوم دولتهم، وهم لايشكرون النعمة ولا يقطعون أسباب النقمة؟ أم يوم علو الحق عليهم، وهم لا يَصبِرون على المحنة ولا يُبْصرون من العمى ؟ وأهل الحق بين حالَىْ غِبْطة وحسبة، وأهل الباطل بين حالَى إمْلاء ونِقمة .

فصل فى صفة الجند — إنّ الغالب على أهواء جماعة من فِئام أولياء الأمير وجنده إعظام الأمير ومعرفة فضله، والتقرب الى الله بمَحبّته ومُناصحته وطاعته، ومُعاداة عدوّه؛ وتلك نعمة يَعْتَدّونها ويتقرّبون الى الله بها، ويتوسّلون الى الأمير بخِزْى قوم خالفوا.

فصـــل — حل بين فلان وبين التشريد بهـم والاجتياح لهم ، فإنّ ذلك أرضى لربك ، وأجمع للأُلفة ، وأقومُ لعمود الخلافة الذى سدّد الله دعائم الإسلام وأسّ الدين به . وٱعلم أنّ مَنْ حاط الله دينَه ، ورمتْ عن فُوقه الجماعة ، وعادى أهلَ النقض لها ، ابتعثه الله آمنـا من هول الحساب وضيقِ المَحْشر ، والله بنصره أحقُّ وأولى . وكن لله بحيث افترض عليك ، فإنّه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ .

كتب جعفر بن محمد بن الأشْعَث الى رجل لم يكاتبه

لست بما صَرَفتَ الىّ مِن معروفك بأسرّ منى ، بما أهديتَ الىّ من قضاء الحق عنك ، وقلّة ذوى الحُرْمة بك ، لأنكَ قد تصِل مَنْ لا يثِق ولا يأنس الّا بمن يَعْتمِد عليه .

كتب الفضل بن يحيى الى رجل يُشاوره فى أمر حَدَث

ليس كلّ امرئ وإن كان ذا عَزِيمةٍ فى رأيه ، وأَصالة فى عقله ، بمستغنٍ عن مُكاشَفة أهل الرأى ، لتوزيع الله عزّ وجلّ ، أقسامَ الفضل فى خلقه ، وإشراكه إياهم ، فى عطاياه ، فرأيَك فى كذا .

رِكب ابراهيم بن المهدىّ الى أحمد بن يوسف ، فكتب أحمد الى إسحاق بن ابراهيم الموصلىّ

عندى مَن أنا عبدُه ، وحُجّتنا عليك ، إعلامُنا إيّاك .

توسّـــل

توسّل رجل الى رجل بمحمّد بن عبد الملك وادّعى قرابتَه منه ، وبلغ ذلك محمّدا فكتب الى المُتوسّل اليه :

بلغنى أنّ رجلا ادّعى قرابتى ، وأورد عليك كتابا ذكر أنّه منّى ، وما أُنْكر أن ينتفِـع بى مَن توَسّل بنسبى ، إلّا أنّه مَن ادّعى قرابةً ، ولا قرابةَ له ، كان استعمال الشفاعة فى أمره أَوْلَى .

كتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سَهل

أسعدك الله بمحاربتك، التى بذَلتَ فيها مُهجتَك، ومُهجَ مَن هو موصولٌ بك منّا .

محمد بن الجَهْم

وليس فى جميع الناس أعدى لك : مِن صديق مؤمِّل، أوحميم راجٍ، إن منعتَهما شتماك وبَهتاك، وإنْ أعنتَهما الناهمه اغتالاك (١) .

محمد بن مُسْعَر

قال : كنتُ أنا ويحيى بنُ أَكْثم عند سُفْيان، فبكى سُفيان، فقال له يحيى: ما يُبكيك يا أبا محّمد؟ قال :

بعد مُجالستى مَن جالس أصحابَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ٱبتُليتُ بمجالستكم ؛ فقال له يحيى : فمُصيبةُ مَن جالستَ منهم بمجالستهم إيّاك بعـدَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ من مُصيبتك بنا ؛ فقال : ياغلامُ، أظنّ السلطانَ سيحتاج اليك .

دخل ميمون بن مِهْران على بعض خلفاء بنى أُميّه — وأَحسَبه عمرَ بنَ عبد العزيز — فقال له وقد قعد فى أُخريات مجلسه : عِظنى، فقال له : إنّك لمن خير أهلك إنْ وقيتَ ثلاثا، قال: ماهنّ؟ قال : السلطانُ وقدرته، والشباب وغِرّته، والمـال وفتنته، فقال : أنت أولى بمكانى منّى فارتفع الىّ؛ فأجلسه معه على سريره .

ابن وَهْب فى الاعتذار

لو لم نَعذرك لم نعذر أنفسنا بقطيعتك، فكن لنا فى لائمة نفسك، كما كنّا لك فى عذرك .

وفى مثله

ليس فى الإساءة فضلٌ عن الاعتذار، وفى عائدتك فضل عن إساءتنا، فمن أين يسقط بين فضلك والاعتذار !

(١) هكذا وردت فى الأصل .

آخـــر

فلان من حملة المعروف، يكثر عندهم قليله فى شكرهم، ويقلّ لهم كثيره فى عظيم حقوقهم .

فصـــل — لئن عميتُ عن الرأى فيك، لقد أبصرته بك .

فصـــل — تغيب فأشتاق، ونلتقى فلا أَشتفى .

٢ — فصول من رَسائل مختارةٍ فى كل فنّ

وهى مُثُل ممـا كتب به الكتّاب فى أبواب لا نظير لها

فمن ذلك ما كُتِب به فى التحميـد لله عزّ وجلّ فى أوائل الفتـوح وأواخرها وأوائل الكُتُب التي فيها تحميد الله عزّ وجلّ .

التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحِّد بالسلطان والربوبيّة، والمتفرّد بالبقاء والقدرة، والمتجبِّر بالكبرياء والعظمة، ذى الجلال والإكرام، والإفضال والإنعام، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والمَثَـل الأعلى، الأول بلا غاية، والآخر بلا نهـاية، الذى لا يحيـط به وصف الواصفين، ولا تبلغ مَدَى عظمته أوهامُ المتوهِّمين، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، لايؤودُه حفظ كبير، ولا يَعزُب عنه علم صغير، يعلم خائنة الأعين وما تُخفِى الصدور، وما تَسْقُط من ورقة إلّا يَعلمها، ولا حبّةٍ فى ظُلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ إلّا فى كتاب مُبين .

التحميد الثانى

الحمد لله الذى خلَق الأشياء على غير مِثال ولا رُسوم، وأنشأها على غير حُدود، ودبّر الأمور بلا مُشير، وقضى فى الدهور بلا ظَهير، وسمك السماء بقدرته، وبناها على إرادته، وأسكنها ملائكتَه الذين اصطفاهم لمُجاورته، وجبلَهم على طاعته، ونزّههم عن مَعْصيته،

وجعلهم حملة عرشه، وسكّان سماواته، ورسله الى أنبيائه، يُسبّحون الليل والنهارَ لا يَفْتُرون؛ ودحا الأرض وبسطها لكافّة خلقه، وقسّم بينهم الأرزاق، وقدر لهم الأقوات، فهم فى قبضته يتقلّبون وعلى أقضيته يجْرون، حتّى يرثَ اللهُ الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وصدر تحميد مفرد

الحمد لله العلىّ مكانُه، المنير برهانُه، التامّة كلماتُه، الشافية آياتُه؛ والحمد لله ولىِّ أوليائه وعدوِّ أعدائه.

وصــــدر تحميــــد

الحمد لله الغالب الذى لا يُغْلَب، والمُقْتدر الذى لا يُعان، والمُنْجز وعدَه، والمؤيِّد أولياءَه، والخاتم بالفَلَج[1] والظهور لهم، والمُديل من أعدائه، ومُحيط دائرة السَّوْء بهم.

ولكاتب خُزَيْمة بن خازم فى فتح الصَّنّاريّة تحميد مختار

أما بعد، فالحمد لله ذى المَلَكُوت والقُدْرة، والجَبَرُوت والعزّة، والسلطان والقوة؛ أهلِ المحامد كلِّها، ومدبِّر الأمور ووليِّها، وخالق الخلائق وبارئها، ومميتها ومحييها، وباعثها ووارثها؛ الذى أوْجَب على نفسه بما نفَذ من مشيئته، وسبق من علمه، وثبت فى اللّوح المحفوظ عنده إعزاز دينه، وإظهار حقه، وإعلاء كلمته، وإبلاج حجّته، وإزهاق باطل أعدائه؛ الصارفين عن طاعته، والجاحدين لربوبيّته، المكذِّبين بكتبه ورُسُله؛ بلَغ بذلك أمرَه، ونطق به كتابُه؛ فإنّه يقول تبارك اسمه فى المُنْزَل من فرقانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

وتحميد لأحمد بن يوسف الى الوُلاة عن الخليفة

أما بعد، فالحمد لله ذى المِنَن الظاهرة، والحُجج القاهرة؛ الذى قطَع بينه وبين عباده المَعْذرة، ورادف عليهم البيّنة، ومُهْلَة النَّظِرَة؛ وجعل ما أتاهم من حظوظ الدنيا بالقَسم

(١) الفلج: الغلب والظفر، يقال فلج فلانٌ على خصمه، أى غلب وظفر.

المكتوب ، وما ذَخَر لهم من ثواب الآخرة بالنُّجْح المطلوب ؛ فهم فى العاجلة شركاءُ فى النعمة ، وفى الآجلة شتّى فى الرحمة ؛ يختص بها أهلها المنتفعين بما ضرب لهم من الأمثال ، وتصريف الحالِ بعـد الحال ؛ المبادِرين بأعمالهم الى انقضاء مَدَدِ آجالهم ، قبل حلول ما يُتَوقّع ، وفوت ما لا يُرْتَجع .

وتحميد لابراهيم بن العباس فى فتح اسحاق بن اسماعيل

الحمد لله مُعزّ الحقّ ومُديله ، وقامِـع الباطل ومُزيله ، الطالبِ فلا يفوته مَن طلب ، والغالب فلا يُعْجِزه مَن غلب ؛ مُؤيّد خليفته وعبده ، وناصر أوليائه وحزبه ؛ الذين أقام بهم دعوتَه ، وأعلى بهم كلمتَه ، وأظهر بهم دِينه ، وأدال بهم حقَّه ، وجاهد بهم أعداءَه ، وأنار بهم سبيلَه ؛ حمدًا يتقبّله ويرضاه ، ويُوجِب أفضلَ عواقب نصره ، وسوابغَ نَعْمائه .

التحميد الثـانى

الحمد لله الغالبِ ذى القُدْرة ، والقاهرِ ذى العِزّة ؛ الذى لم يقابل بالحقّ باطلا فى مَوْطِن من مَواطن التحاكم بين عباده ، إلّا جعل أولياءَ الحق منهم حِزْبه وجُندَه ، وجعل الباطل بهم فلًّا منكوبا ، ودَحيضا زَهُوقا ؛ إن نهَض به أولياؤُه كانتْ مراصدُ عواقبه مُفرِّقةً ما جُمِـع ، ومُبْتِرةً ما أُعِدّ ، وقائدة بأشياعه الى مَصْرع الظالمين ، حتّى يكون الحقُّ الطالبَ الأعزّ ، والباطلُ المطلوبَ الأذلّ ؛ وأولياءُ الحقّ الأعْلَيْن يدا وأيدا ، وأشياعُ الضلال الأخْسرين أعمالا وكيدا ؛ قضاءُ الله وسُنّته ، وعادة الله وإرادتُه ، فى الفِئة المنصورة أن تعزّ فلا تُرام ، وأن يُمَكِّن لهـا فى الأرض كما مكّن للذين من قبلها ؛ وفى الفِئة الناكبين عنه ، أن تَزِلّ فتكونَ كلمتُها السُّفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيمٌ .

وتحميد له مبتدأ مقام بين يدَى خليفة

أما بعدُ ، فالحمد لله الأول بلا أَبَدٍ يُحْصَى ، والآخر بلا أَمَدٍ يَفْنَى ؛ الظاهرِ لخلقه بعزّته ، العزيزِ فى سلطانه بعظمته ، الفَرْد فى وَحدانيّته بقدرته ، المدبِّر فى ملكه بجبَروته ؛ الذى نأى عن الأشياء أن يكون فيها مَحْويّا ، واتصل بها فلم يكُ من علمها خَليّا ، وهو فيها غيرُ مُسْتَكِنّ ،

ومعها غير مُماسّ فى لجج البحار، ومفاوز القفار، وشَوامخ الجبال، وكُثبان الرمال؛ مع كلّ خَلْق، وفى كلّ أُفُق، وعلى كلّ شَرَف ومكان، وفى كلّ وقت وأوان؛ موجود إذا طُلِب، وقريبٌ حيث نُدِب؛ عالمُ خَفيّات الغيوب، وخَطَرات القلوب، وما فى السموات وما فى الأرض، ما يكون من نجْوى ثلاثةٍ الاهو رابعُهم، ولا خمسةٍ الاهو سادسُهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ الّا هو معهم؛ وما تسقط من ورقة الّا يعلمها ولا حبّة فى ظُلُمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابس الّا فى كتاب مبين .

وتحميد ثانٍ يتلو الأوّل

الحمد لله المُتَعالى عن تشبيه الجاهلين، وتحديدِ الواصفين، وتكييف الناعتين؛ يُوصفُ لا بالعَرْض والطول، ويُنْعَت بغير الشبح المَمْثُول، ويُحَدّ لا بالخلْق المعدود، والجسم الموجود؛ بل يُتناهَى من وصفه، الى ما دلّ عليه من صُنعه، ويُوقَفُ عليه من نعته، على ما أَخْبَر به عن نفسه؛ وكيف يُوصف مَن لم يَرَه أحد، ويُحدّ من لم يحدّه بلد؛ أو يُشْبه غيرَ ذى أعضاء، أو يُكيّف غيرُ ذى أجزاء، أو رُئِىَ لَوُصف، ولو وُصف لَمُثّل، ولو مُثِّل لكان له نظيرٌ؛ سبحانه وتعالى عن ذلك عُلوّا كبيرا، لا تُجِنّه الأقطار، ولا يحويه قرار؛ ولا تُدرِكُه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير؛ لا يوصف أُولاه، ولا يُدْرك أُخْراه، ولا يُعرَف مُنتهاه؛ عَظُم أن يَحْصره وَهْم، وجلّ أن يُدرِكه فَهْم، وامتنع من أن يخاله عِلم، ولا يُغيّره ليل ولا يومٌ؛ ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلّا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفَهم ولا يُحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسِع كرسيّه السمواتِ والأرضَ ولا يؤوده حفظُهما، وهُوَ العلّى العظيم .

وتحميد ثالث

الحمد لله الذى ألهمَنا من الإقرار برُبوبيّته، والإيمان بوَحْدانيّته، وأنّه غيرُ ذى صاحبة يسكُنُ اليها من وَحْشَة، ولا ولدٍ يتكثّر به من ضعف قِلّة، ولا شريكٍ يعاونه من عجز قُدْرة، ولا ظهيرٍ يكانفه لملال فَتْرَةٍ؛ ما جعل لنا به أوثَق الأسباب لَدَيْه، وأرجى الوسائل

اليــه ، إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به يصــير بجحْد ما أخذنا الاعترافُ فيه ، الى أليم عقوبته بالمعصية التى استحكمت السُّخطة على أهلها ، وحلّت النِّقمة بمن فارقها ؛ ثمّ جعلنا تبعَ إشراف كثير على أنفسنا فى مشيئة منه ، بَسط اليها آمالنا وأحسن عليها أطماعنا بكرم عفوه ، وعظيم حِلمه ، وسعة رحمته ، التى وعد أهل الإيمــان بها ؛ إذ صار من فارقهم فى ذلك بمــا استهوت عليهم ، بتزيينــه لهم شياطينُهم ، ورانت على أفئدتهم ...[1] وما ظلَمتْــه قُرباؤهم الى النــاس من كل طمع يُجْدى وخبر يُنْجى ؛ جزاءً بمــا أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا ، إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دونَ ذلك لمن يشاء ، ومَنْ يُشرِك بالله فقد حبط عملُه ، وهُوَ فى الآخرة من الخاسرين .

وتحميــد يتلو الثالث فى هــذا المقام

الحمد لله الذى ابتدع لا مِن شىءٍ ما أنشأ ، وابتدأ على غير مثال ما ابتدأ ؛ فجعل كثيرا من لطائف تقــديره ، وصُنوف تدبيره ، وتصاريف أُموره ؛ حُججا واضحة ، وآياتٍ بيّنــة ، وعبرًا شافيــة ؛ تَشهَد له بعزّة القــدرة ، ونفاذ الحول والقُوّة ؛ فخلق مدبّرا بلا مَشُورة أحد ، ســبعًا دحاهنّ على المــاء على غير سَــنَد ؛ مبسوطات فى تكاثف أجزائهنّ ، على معــين ماء مسخر من تحتهن ، فجّر خلالهنّ أنهــارا ، وقدّر فيهنّ من المعاش أقواتا ، وجعــل لهنّ من الجبــال أوتادا ، ثم آستوى الى السماء وهى دُخَانٌ ، فقال لها وللأرض آئتيا طوعا أو كَرْها قالتا آتينا طائعين . ففطَر من الدُّخان فى خِفته على الهواء سَبعا ، جعل بينهنّ من الجو مُتّسعا ، ســبعَ سمواتٍ طِباقا مُرْتفعات ، بلا دعائمَ قِبَلها ولا عِلاقات ، يُمْسكهنّ بقدرة أن يَرْتفعنَ فوق ما حبسهنّ عليــه ، وأن يَهْوِين الى قرار دون ما رفعهنّ اليــه ؛ فأتقن صنعَها ، وأوحى فى كلّ سماء أمرَها ؛ وزيّن السماء الدنيا بالمصابيح النيّرة ، والشُّهُب الثاقبة ، والنجوم الواضحة ؛ وسخّر الشمس والقمر علَمــا للهتدين ، وسراجا للبصِرين ، ورُجوما للشياطيـــن ، وأوقاتا لاختلاف السنين ، ومعــرفة لكل حين ؛ لا الشمسُ يَنبغى لهــا أن تدرك القمر ولا الليل

---

(١) فى الاصل بياض . وفى العبارة أضطراب ظاهر .

سابق النهار وكلٌّ فى فَلك يَسبحون ؛ فقضاهنّ سبع سموات فى يومَين ، ولو شاء خلقها فى أسرعَ من طَرْف العين ؛ إنّما أمرُه إذا أراد شيئا أن يقولَ له كُنْ فيكون ؛ بلا مُعاناة لقول ، ولا ضَعْف من حَوْل ؛ ثم أسكنهنّ من خلقه ملائكةً اصطفاهم لعبادته ، واجتباهم لتبليغ رسالته ، معصومين من أن يُشْركوا بالله ، ما لم يُنزّل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله إفكا وبُهْتانا ؛ يُسَبّحونه بالليل والنهار لا يفتُرون ولا يَسأمون من عبادته ، ولا يَستحسرون عن طاعته ؛ يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون ما يُؤْمرون .

وتحميد فى فتح لابن العباس

أما بعد ، فالحمد لله الذى حمد نفسَه ، وفرَض حمدَه على خلقه ، وأعزّ دينَه وأكرم بطاعته أولياءه ، وأكرم طاعته بأوليائه ، فجعل جندَه منهم المنصورين ، وحزبه منهم الغالبين ؛ نهجَ بهم سبيله ، واقام بهم حُجّته ، وجاهد بهم أعداءه ، وأظهرَ بهم حقّه ، وقمَع بهمُ الباطل وأهلَه ؛ وأعلَى كلمتهم ، وأيّد نصرَهم ، وألّف لهم وبهم ، ومكّن لهم فى الأرض ، فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

والحمد لله المُعزّ لدينه ، المُظهِر لحقه ، الناصر لخلفائه ، المُمكّن لحزبه ؛ المُنتقم بهم ممّن صدف عنه ، مؤيّدا دينَه بالنصر ، ليُظهرَه على الأديان ، وحَقّه بالعزّ ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه ؛ وجنودَه بالفَلَج فهم الأعلون إن استُنْصر بهم ، والأعزُّون إن كادبهم ؛ والأقربون منه إخلاصا وعملا ؛ حمدا يُوازى نعمه ، ويَمْترى بمثله فواضله ومزيده .

وله فى فتح ابن البَعيث لمّا ظفر به

أما بعد ، فالحمدُ لله ناصرِ أنبيائه وخلفائه ، وهادى أوليائه ، أولياءِ الحق وحزب الهُدى ؛ الذين أقام بهم سُبلَ الرشاد ، ونصَب بهم مناهجَ الدين ، فأظهره على الدين كُلِّه ولو كره المُشركون .

وله صدر كتاب الخميس فى تحميد الله وتمجيده

أما بعــد ، فالحمــدُ لله الذى جلّت نِعمه ، وتظاهرتْ مِنَنُه ، وتتابعتْ أياديه ، وعمّ إحسانُه ؛ إلهِ كلّ شيء وخالقه ، وبارئه ومصوّره ؛ والكائن قَبْــلَه ، والباقى بعدَه ، كما قال فى كتابه : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . العالى فى مشيئته والقاهر فَوْق عباده ، المُتعالِى عن شَــبَه خلقِه ، ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصيرُ ، خلق العباد بقُدرته ، وهداهم برحمته ، وأوْضحَ لهم السبيلَ الى معرفته بمــا نصَب لهم من دلائله ، وأراهم من عِبره ، وصرّفهم فيه من صُنْعه ، كما قال جلّ جلاله : ﴿ٱلَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ .

وذلك كلّه مِن خَلْقــه إيّاهم بتمثيله ما مَثّــل لهم من الدلائل التى نصبها لهم ، والأعلامِ التى جعلها إزاءَ قلوبهــم ، وأسماعِهــم وأبصارهم ، ويَسّرلهم خواطرهم وفِكَرَهم ، والهيئةِ التى هيأهم لها ليقع الأمرُ والنهى عليهم ؛ فلا يُكلّفهم فوق طاقتهم ، ولا يُجشّمهم ما يَقْصُر عنه وسُعْهم ، نظرا منه تبارك وتعالى اليهم ورحمةً بهم ؛ ليؤمنوا به ويعبــدوه ، فيَستحقُّوا به ر حمتــه ورِضوانه ، والخلودَ فى النعيم المُقيم ، والظلّ المَديد ، والعيش الدائم ؛ كما قال تعــالى ذكره : ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ . وكان من نظره ورأفتــه بهم أن بَعَث فيهم أنبياءه ورُسُلَه ، يدعُونهم الى طاعته ، ويبيّنونَ لهم هُداه ، ويُوضّحون لهمْ سَبِيله ؛ ويَنْهَدُونهــم الى رحمتــه ، ويَعِدُونهم ثوابَه ، ويُنذرونهم عِقابه ، ويَبْسطُونــ لهم توبته ، ويُحذّرونهــم سُخْطه ، ويبيّنون لهم سنّته وشرائعــه ، ويَكشفون لهم مَواعظه ، ويعلّمونهم كتابَه وحِكمتَه ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. وكان من رأفته بهم ، ونظره لهم ، أن بعثهم اليهم بالحُجج الظاهرة ، والأعلامِ البيّنة ، والشواهد الناطقــة ، التى أظهَر بهــا صِدْقهم ، وأقام بها برهانَهم ، وأوضح

بها دليلَهم ، وأثابهم عَمَل سواهم ، ليكون أدعَى لهم الى تصديقهم ، والقبول عنهم ، وأوْكَدَ للحجّة على مَن أبَى ذلك منهم .

وتحميد أحمد بن يوسف فى صدر رسالة الخميس التى كانت تقرا بخُراسان

أما بعد ، فالحمد لله القادرِ القاهرِ ، الباعث الوارث ، ذى العز والسلطان ، والنورِ والبُرهان ؛ فاطر السماء والأرض وما بينهما ، والمتقدّمِ بالمَنّ والطَّوْل على أهلهما ؛ قبل استحقاقهم لمَثُوبته ، بالمحافظة على شرائع طاعته ، الذى جعل ما أوْدَعَ عباده من نِعمته ، دليلا هاديا لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب ، التى يَفْهمون بها فصل الخطاب ؛ حتّى آقتنوا علم مواردِ الاختبار ، وثقفوا مصادر الاعتبار ، وحكموا على ما بطَن بما ظهرَ ، وعلى ما غاب بما حضر ؛ واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومُتْقَن صنعته ، وحاجة مُتزايِل خلقه ومُتَواصله ، الى القِوام بما يَلُمُّه ويُصْلحه ، على أنّ له بارئا هو أنشأه وابتدأه ، ويَسّر بعضه لبعض ، فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم ؛ فى تَصرّف أحوالهم ، وفنونِ انتقالها ، وما يُظْهِرون عليه من العجز عن التأتّى لِما تكاملت به قُواهم ، وتمّت به أدواتُهم ، مع أثَرِ التدبير والتقدير فيهم ، حتى صاروا الى الخلقة المُحْكَمة ، والصورة المُعْجِبة ، ليس لهم فى شيء منها تلطُّفٌ يَتيمّمونه ، ولا مَقْصِدٌ يَتَعمّدونه من أنفسهم ؛ فإنّه قال تعالى ذكرُه : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ . وما يتفكّرون فيه من خَلْق السماء ، وما يجرِى فيها من الشمس والقمر ، والنجومِ مُسَخّراتٍ على مَسيرٍ لا يثبت العالَم إلّا به ، من تصاريف الأزمنة ، التى بها صلاحُ الحَرْث والنَّسْل ، وإحياءِ الأرض ، ولِقاح النبات والأشجار ، وتعاورِ الليل والنهار ، ومَمَرّ الشهور والأيام ، والسنين التى تُحصى بها الأوقات ؛ ثم ما يوجد من دليل التركيب ، فى طبقات السقْف المرفوع ، والمِهاد الموضوع ، باختلاف أجزائه والتئامها ، وتَخَرّق الانهار ، وإرساء الجبال ، ومن التئام الشاهد على ما أخبر الله به من إنشائه الخلق وحدوثِه بعد أن لم يكن ، مُترقيّا فى النَّماء ، وثباته الى أجله فى البقاء ، ثم مَحاره مُنْقضيا الى آخر الفناء ؛ ولم يكن له

مُفْتتحُ عدد ، ولا مُنْقطعُ أمد ، وما ازداد بنشوء ، ولا تَحَيَّفه نُقصان ، ولا تفاوت على الأزمان ؛ لأنّ مالا حد له ولا نهاية ، غير ممُكْن الاحتمال للنقص والزيادة ؛ ثمّ أجرَى فيما ذكر من خلق الله وخلق الإنسان الى ذكر ماتفضّل الله به على عباده الأنبياء ، وما اختصهم به من مَبْعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، الى ذكر الخُلَفاء أوّلا ، ثم الى ذكر المأمون ودولته .

وتحميد للعبّاس فى مقام له بين يَدَىْ المأمون

الحمــد لله على نعمه علينا ، وإحســانه إلينا ، بالأرض المَبْســوطة ، والسماء المَرْفوعة ، والرِّياح المُســخّرة ، والأمطار النازلة ، والأوقات القائمة ، والمَنافع الدائمة ، والدين المبين ، والأدب القويم ؛ حمدًا يكون اليه صاعدا ، ولَدَيه ناميا ، ولملَكوته مالئا ؛ والحمــد لله حمدا يُثْبِت رضوانَه ، ويورث إحسانَه ، ويُوجِب مزيدَه ؛ فهو المنعم المحمود ، والمُتَطَوِّل المشكور ؛ لا إله إلّا هو لا شريك له ، كما شهد الله وملائكتُه قائما بالقسْــط لا إله إلّا هو العزيزُ الحكيمُ .

وتحميد لعبد الحميد فى أبي العلاء الحَرُورىّ

الحمد لله الناصر لدينه ، وأوليائه وخُلفائه ، المُظْهِر للحق وأهله ، والمُذِلّ لأعدائه وأهــل البِدْعة والضلالة ؛ الذى لم يجمع بين حقّ وباطل ، وأهلِ طاعةٍ ومَعْصيةٍ ، إلّا جعل النُّصْرة والفَلَج والعاقبــةَ لأهل حقّه وطاعته ، وجعــل الخزْىَ والذِّلّة والصَّغار ، على أهل الباطل والخلاف والمَعْصية ؛ حمــدا يتقبّله ويرضاه ، ويوجِب به لأمير المؤمنين وأهلِ طاعتــه الزيادةَ التى وعد مَن شكَرَه ؛ والحمــد لله على ما يَتَــوَلّى من إعزاز أمير المؤمنين ونَصْره وإفلاجِه وإظهارِ حقّــه ، على ما وقع بأعدائه وأهلِ مَعْصيته والخلاف عليه من سَطَوَاته ونَقِماته وبأسه ، فيما وَلِيَ أميرُ المؤمنين مِن مُوالاة مَن والاه ، وعداوة مَن بَغَى عليه وعاداه ؛ لا يَكِلُه فى شيء من الأمور الى نفسه ، ولا الى حوْله وقوّته ومكيدته ، فإنّه لا حولَ ولا قوّةَ لأمير المؤمنين إلا به .

وتحميد فى آخر فتح

الحمد لله المُعزّ لدينه ، المُظْهِر لحقّه ، الناصرِ لأوليائه ، المنتقم من أعدائه أهلِ الكفر ، المُنْزِل بهم من بأسه ، ونَقْمته وجَوائحه ، الذى لم يجمع بين أهل حقّه ، و باطل عدوّه ، فى مَوْطنٍ من مواطنِ التحاكم ، إلّا جعل فيه لأوليائه الظفَر ، وأفرَغ عليهم الصبر ، ومنحهم النصر ، وجعــل الدائرة وسوء العاقبةَ على عدوه ، وأهل الكفر ، حمــدا كثيرا يرضاه من الشكر ، ويَحْسُن به المزيدُ .

وتحميد فى فتح الى أمير لقمامة

الحمد لله الفتّاح العليم ، الذى خَصّ الأمير بأفضل الكرامة وأتمّ النعمة ، وأَحْسَنِ الولاية ، وأعظم الكفاية ، وحفظ ما استرعاه ، وأعزّ أولياءَه ، وقمعَ بالمَذَلّة أعداءه ، وجعل حسن العــاقبة له ولأهل طاعتــه ، ودائرة السوء على أهْل معاندته ، حمــدا يحسُن به القضاءُ ، وتزيد به النَّعماءُ .

وصدر تحميد لغســان بن عبد الحميد فى خطبة موجزة

الحمد لله الذى لا يُدْرَك خيرٌ إلّا برحمته ، ولا يُنــال الفضلُ إلّا بنعمته ، ولىّ التسديد للحسناتِ ، والعصمة مِن السيئات .

تحميد لعبد الحميــد فى فتــح

الحمد لله العلىّ مكانُه ، المنيرِ برهانُه ، العزيزِ سلطانُه ، الثابتةِ كلماتُه ، الشافيةِ آياتُه ، النافذِ قضاؤُه ، الصادقِ وعدُه ، الذى قدر على خلقه بمُلْكه ، وعزّ فى سماواته بعظمته ، ودبّر الأمور بعلمه ، وقدّرها بحلمه ، على ما يشاء مِن عَزْمه ، مُبتدِعا لها بإنشائه إيّاها ، وقدرته عليهــا ، واستصغاره عظيمَها ، نافذة إرادتُه فيها ، لا تَجْرِى إلّا على تقديره ، ولا تنتهى إلّا الى تأجيله ، ولا تقع إلّا على سبق مِن حَتْمه ، على كلّ ذلك بلطفه وقُدْرته ، وتصريف وَحْيه ، لا مَعْدل لهــا عنــه ، ولا سبيل لها غيرُه ، ولا علمِ أحدٌ بخفاياها ومعادِها إلّا هو ، فإنّه يقول فى كتابه الصادق : ﴿وعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ... ...﴾ الى آخر الآية .

وتحميـــد ثانـ

الحمد لله الذى علا بالحُجُب التى آستتر بها عن جميع خَلْقه، وآستغنى بها عنهم لما توحّد به دونهم من عبادة الذين فطرهم على المعرفة، رءوفا عليهم بمَنّه ومُتطوّلا وهو فيما يُمْضى من أقداره، مفضلا لهم بابتدائه خَلْقهم فى أحسن تقويم، وإعطائه إيّاهم عاجل كل خير مقسوم، وتسخيره لهم جميـع ما فى السموات والأرض، وبَسْـطه لهم فى معايشهم أوسعَ الرزق، وإسباغه عليهم فيها أفضلَ النعم التى لطُفت فبطنت، وعظُمت فظهرت، ولبِستَ فعمّت، وانتشرت فجلّت، وكثُرت فلا يحصيها عاد، وجزُلت فلا يؤدّى حق ما آفترض منها شاكر، فإنّه يقول: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمد لله الذى لم يَقْتَصِر بهم فى إكرامه وتفضيله إيّاهم على عاجل، فإنّه مُضْمَحِلّ زائل مما أعطاهم إيّاه ولم يَكلْهم فى معرفة خالقهم تبارك وتعالى، ومُتَوَلّى النعم عليهم، والاحسان اليهمْ، والارتياش لهم، ولا فى مُبتَغَى سبيلِ طاعته، وأداءِ حقه، وشكرِ نعمته، واستيجاب غِبْطة المعاد اليه الى أن يَعُوا ذلك بعقولهم، والنظر فيه بألبابهم، والتصريف له على أهوائهم؛ فإنّه لو ألجأ ذلك اليهم، وأفردهم فيه الى أنفسهم، ووكلهم فيما أمرهم به الى مقدرتهم، لحارت عنه منهم الأبصار، ولتاهت فيه منهم العقول، ولأضلّهم عن قصده العمَى، ولمـال بهم الى غيره الهوى، ولاستحكم عليهم شرك الردى؛ ولكنّه بعث فيها أنبياءه الهـادين، يدعونهـم الى الصراط المستقيم، بنوره المُضىء، ودينه القويم، وآياته البيّنة، وكُتُبه الفارقة التى بيّن فيها مَحابّه ومَكْروهه، وطاعته ومعصيَته، وثوابَ الفريقَين فى ذلك من عباده ليحذروا ما حذّرهم فيه من سُخْطه، ونزل بهم فيه من نِقمته؛ وليسارعوا فيما جعل لأهله به الى أفضل المثوبة، وأحسنِ العاقبة فى الدنيا والآخرة، وكَشَف لهم الجَهَالةَ، وهدَى من الضـلالة، وبصّرهم سبيلَ الحق، وبيّن لهم معالمَ الإسـلام، ليرجعَ جائرٌ، ويَقْصِـدَ زائغٌ، ويعرفَ جاهل، وليعبدَ الربَّ بما وحّد به نفسَه، وليستبين العلمَ، ويستضىءَ الحق، وليبتغىَ من الله الثواب بلزوم دينه الذى شرع، وأداءِ فرائضه التى فَرَض، وإيثار طاعته التى أوجب، وليكون لله

الحجة البالغة على عباده فيما تركوا من ذلك وسفهوا بعد استبانته لهم، واستفاضته فيهم وإعذاره اليهم، فانه يقول : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ويقول ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ .

لأنس بن أبي شيخ

الحمد لله الذى بالقلوب معرفتُه ، وبالعقول حُجّته، الذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أمينا فوفّى له ، ومُبلّغا فأدّى عنه فحجّ به المُنكِر، وتألّف به المُدْبِر، وثبّت به المستبصرَ، الى أن توفّاه على منهاج طاعته ، وشريعة دينه، ثم أورثكم عهده وخصّكم بكلمة التقوى، وجعلكم الأمةَ الوُسْطى .

ولعبد الحميد فى فتح

يُعَظّم فيه أمرَ الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم

أما بعد، فالحمد لله الذى اصطفى الإسلام دينًا رَضِى شرائعه، وبيّن أحكامه ونوّر هُداه، ثم كَنفَه بالعزّ المؤيّد، وأيّده بالظفر القاهر، وآزره بالسعادة المُنْتَجبة، وجعل مَن قام به داعيا اليه من جُنْده الغالبين، وأنصاره المسلّطين، كلّما قهرَ بهم مناوئا اورثهم رِباعَتهم المأمولة ، وأموالهم المُثْرِية، ودارَهم الفسيحة، ودولتهم المطولة ، امرا حتمه على نفسه ؛ ثم جعل مَن عاندهم وآبتغى غيرَ سبيلهم مُسلمًا قد آستهوته ذِلّةُ الكُفر بظُلَمها ، وحَيْرة الجَهالة بجوّارِها، وتيه الشقاء بمغاويه، وكُلّما ازدادُوا لدعوة الحق إباءً، ازداد الحقُّ اليهم آزْلافا ، وعليهم عُكُوفًا، وفيهم إقامة، الى أن يَحِلّ بهم عِزُّ الغلبة، ونجاةُ المتجاوز، راغبين فيما شوّقهم اليه ، مُحافظين على مَاندبهم له، قد بَذَلُوا فى طاعة الله دماءهم، وقبلوا المَعرضَ عليهم فى مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجَنّة . محمودٌ صبرُهم ، مسّهل بهم عزمُهم ، الى خير الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذى أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بما حَفظ له من أمور أُمّته، أن اختار لمواريث نبوّته ما أصار الى أمير المؤمنين من تطويقه ما حَمل بحسن نُهوض به وشُحّ عليه ، ومُنافسةٍ فيه، أن فعل وفعل . والحمد لله الذى تمّم وعده لرسوله وخليفته فى أمة نبيّه مسدّدا

له فيما آعتزم عليه . والحمد لله المعزّ لدينه ، المتولّى نصرَ أمته بنبيّه المتخلّى ممن عاداهم وناوأهم ، حمدا يَزيد به من رضى شُكْره ، وحمدا يعلو حمدَ الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نِعَمُه فلا توصف ، وجلّت أياديه فلا تُحْصَى ، الذى حمَّلَنا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه ، وبالله يستعينُ أمير المؤمنين على ذلك ، واليه يرغب ، إنه على كل شيء قدير .

ولعبـــد الحميـــد أيضـا

أما بعد ، فالحمد لله الذى آصطفى الإسلام لنفسه ، وآرتضاه دينًا لملائكته ، وأهلِ طاعته من عباده ، وجعله رحمةً وكرامةً ونجاةً وسعادةً لمن هدَى به من خلقه ، وأكرمهم وفضّلهم وجعلهم بما أنعم عليهم منه أولياءَه المقرّبين ، وحزبَه الغالبين ، وجندَه المنصورين ، وتوكّل لهم بالظهور والفَلَج ، وقضى لهم بالعلو والتمكين ، وجعــل مَن خالفه وعزَبَ عنــه وابتغى سبيلَ غيره أعداءَه الأقلين ، وأولياءَ الشـيطان الأخسرين ، وأهل الضَّلالة الأسفلين ، مع ما عليهم في دنياهم من الذُّل والصَّغار ، وما عجّل لهم فيها من الخذلان والانتقام ، إلى ما أعَدّ لهم فى آخرتهم من الخزْى والهوانِ المُقيم ، والعذابِ الأليم ، إنه عزيزٌ ذُو انتقام .

وفى ذكر الإسلام وأهله وما فضّلهم الله تعـالى به

أما بعد ، فالحمد لله الذى عظّم الإسلام تعظيما ، وفضّله تفضيلا ، فلم يَبقَ مَلَك مقرّب ، ولا نبيٌّ مُرْسل ، ولا إمامٌ لأهل حقّ مهتدٍ إلا دَانَ به ، واتّصل الى ولاية الله بما هداه له منــه ، وليس فى دين الله الذى ارتضى ، وخيرته من أهلِ الإسلام الذين اصطفى ، تغاشُمٌ ولا تَظَالُمٌ ، ولا تحاسُـدٌ ، ولا تقاطعٌ ولا تدابُرٌ ، ولكنهم كما وصفهـم اللهُ عزّ وجلّ بالتبارّ والتراحم ، والتوادّ والتناصُف ، قلوبهم متفقةٌ ، وأهواؤُهم مؤتلفة ، وأيديهم على أهل معصيته مبسوطةٌ ، أعوانا على الحق ، وإخوانا فى الدّين ، ألّف الله بينهم ، وجعل الإسلام نسبَهم ، فقال فى كتابه : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ...﴾ الى آخر الآية . فهذه صفة الله أهلَ دينه فيما بينهم ، وكذلك كان أســلافُ الحقّ قبلَهم ، فى توادّ وتبـارّهم ، وتواصُلهم وتعاونُهم ، وبذلك دَانَ أهلُ السماء ، فلم يختلفوا فيه ، ولم يرغَبُوا عنه ، ولم يحتذوا مثالا غيرَه ، وبه يَدِينُ

لله الباقون من خَلْقه، المتمسّكون بحقّه الى يوم القيامة، سنّةٌ مسنونةٌ، وشريعةٌ متبوعةٌ، لا يبتغون بها بَدَلا، ولا يُريدون عنها حِوَلا، فأهلُ طاعة الله أهلُ سلامةٍ فى دنياهم، وإخوان كما قال الله عزّ وجل فى آخرتهم، لم تنقطع الولايةُ فيما بينهم، لانقطاع الدنيا عنهم، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم، بجمعهم فى داره وجِوَاره، كما ألّف فى الدنيا بين قلوبهم، وعَصَم بالإسلام أُلْفتهم .

تحميـــد

الحمد لله المُثيب على حمده وهو ابتداؤُه، والمنعِم بشكره وعليه جزاؤُه، والمثنى بالإيمان وهو عطاؤُه .

ولُقَما مـــه

الحمـد لله الذى أكرم الإسلام وفضّله، وشرّفه وعظّمه، وأعلى منزلتَه، وجعل أهلَه القائمين به، والحامدين عليه، أولياءَه وحزبَه الذين قضى لهم بالتمكين، والظهور على الدّين كله ولو كَرِهَ المشركون .

ولزيد بن على رحمةُ الله عليه خطبة.

الحمد لله الواصل النِّعَم بالشكر، والشكر بالمزيد، حمدَ مَنْ يعلم أن الحمد فريضةٌ واجبةٌ، وأنّ تركَه خطيئةٌ مُهْلِكةٌ، وأُومن بالله إيمانًا نفَى إخلاصُه الشِّرْكَ، ويقينُه الشَّكَّ، وأتوكّل عليه توكُّلَ الواثق به ثقةَ أهلِ الرجاء، ومَفْزَع أهل التوكّل .

تحميـــد فى الإسلام

الحمد لله الذى آختار الاسلامَ دينًا لنفسه، وأنبيائه ورُسُله، وشرّفه وعظّمه، وأناره، وأظهره، ونزّهه وأعزّه ومنَعَهُ، ولم يَقْبَل غيرَه، ولم يجعل حُسْنَ الجزاء إلا لأهـله، الذين كتَبَ لمن أسعده بالوَليجة فيه منهم الرِّضْوان والمَغفرة والرأفة، وعلى مَن خالفه وابتغى غيرَ سبيله الحَسْرَةَ والندامةَ، والذِّلة والصَّغار فى الآخرة والأولى، والممات والمَحْيا، إذ يقول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

والحمد لله الذى اجتبى محمدا صلى الله عليه وسلم بما اصطفاه من نبوّته، واختاره له من رسالته، وحبّاه بفضيلته، واجتباه من أفضل عمائر العرب، وأشرفها مَنْصبًا، وأعرقها حَسَبًا، وأكرمها نَسَبًا، وأوراها زِنادًا، وأرفعها عِمَادًا، فبعثه بالنور ساطعا، وبالحق صادعا، وبالهدى آمرا، وعن الكفر زاجرا، وعلى النبيين مُهَيمنا، وإلى سبيل ربّه داعيا، وبالكتاب عاملا، فبلّغ عن الله الرسالة، وهَدى من الضَّلالة، وانتاش من الهَلَكة، وأنهج معالمَ الدّين وأدّى فرائضَه، وبيّن شرائعَه، وأوضح سُنَنَه، ونَصح لأمته، وجاهد فى سبيل الله حقّ جِهاده حتى أتاه اليقين، صلى الله عليه وسلم.

تحميد لأبى عُبَيْد الله

الحمد لله الذى شرع لاظهار حقّه وإنفاذِ سابِق قضائه فيمن ذَرَأ وبَرَأ من عباده، بإدخال من أراد أن يُدخلَ فى رحمته، وانجازِ ما حقّ له من العبادة على خَلْقه، بابتدائه خلقَهم، ومظاهرته الآلاءَ عليهم، وإحسانه البلاءَ عندهم، وإبلاغِه فى الحجج إلى عامتهم، دينا رَضيه لنفسه وملائكته الذين أسكنَ سماواته ورسُله، فأتمن على وجه من لم يَرْضَ إلا به، ولم يقبل إلّا إياه، ثم كان ما أعزّ به نفسَه، وأظهر به نورَه، وأراد أن يبلو به عبادَه، تحقيقا لما سَبق به عِلْمُه، وإنفاذًا لما جَرت به مقاديرُه، أن بعثَ لِمَا شرَعَ من دينه، واصطفى لتسبيحه وتقديسه من ملائكته المقرّبين، مَنْ ارتضَى واختار من أنبيائه ورُسله المُجتبين، لتبليغ رسالته وإظهارِ حقّه، واستِشلاءِ(١) من أراد سعادته من خلقه بالرحمة التى اطلعتْ عليهم وعمّتْهم، ليعبَدَ مُخلصا له، محمودا بما استحمد به إلى خَلْقه، مشهودا له بما أشهد به من كلمة الحقّ، فكان منهم التبليغُ لِما أُرْسِلوا به، والنصيحة لمن أُرْسِلوا إليه، غيرَ مختلفين فيما بُعثوا له، ولا متفرّقين فيما استعملوا فيه، يدعوهم آخر إلى ما دعاهم إليه أوّل، فيصدّق بذلك بعضهم بعضا، ويَهدُون إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فمضت رسل الله وأنبياؤه على ذلك سالكين منهاجَ الحق وسبيله، والدُّعاةَ إلى الله عز وجل وإلى

(١) الاستشلاء: الانقاذ.

طاعته، هادين مَهْديين غيرَ مبخوسين شيئا مما كانوا أهلَه فى المنزلة عند الله، والقُرْبة منه، والوسيلة إليه، هم وَمن آمن بهم وعزّزهم، واتّبع النورَ الذى أُنزل معهم، حتى تقضت بهم الأعمارُ، وتقطعتْ بهم الآثارُ، وتخرمتهم الاجال .

وكذا لأبى عُبَيد الله

الحمد لله الذى جعل الإسلام رحمةً قدّمها لعباده قبل خلقه إياهم، واستيجابهم إياها منه، فاصطفاه لنفسه وشرّعه لهم دينا يَدينون به، ثم جعل تحديدَ وحيه ومتابعةَ رُسله رحمةً تلافاهم بها بعدَ تقديمها، ومِنّةً ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها، تطوُّلا على العباد بالنّعماء، وإعذارا اليهم بالحجج، وتَقْدِمَةً بالوعد، وإنذارًا إليهم عواقبَ سخطه فى المَعَاد .

والحمد لله الذى ابتعث محمدا صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقّه على فَتْرة من الرسل، وطُموس من معالم الحق، ودروسٍ من سبُل الهُدَى، عند الوقت الذى بلغ فى سابق علمه ومقاديره، أن يجتبِىَ لدينه الأصفياءَ، ويختارَ له الأولياءَ، الظاهرين بحقه، القاهرين لمن ابتغى سبيلا غير سبيله، فعظّم حرمته، ووسّع حَوْزتَه، وصدَع بأمره، وجاهدَ عن حقه فى حَوْمات الضّلالة وظُلُمات الكفر، بالحق المبين، والسراج المُنير، ثم جعلَه مصدّقا لمن سبَقه من الرُّسل ومُجدِّدا لما بُعثوا له وهدًى ورحمةً؛ ثم جعل لدينه وظائف وظفها على أهله، وشرائعَ شَرَعها لهم لا يَكْمُلُ دينُهم إلا بها، وجعل أداءها إليه، واعتصامهم بها إماما لدينه، ونظاما لنوره، وقواما لحقه، واستيجابا لما وَعَد عليه من ثوابه، وأَمْنا لما أوعدَ مَن خالفه من عقابه؛ فليس يسع أهلَ الإيمان بالله الذين أكرمهم به وأجزل لهم فضلَه وأجرَه، وجعل لهم عِزّه وعُلُوّه، واختار لهم الغلبة والعاقبة على من فارقهم فيه إلا معرفتُها، وأداؤها بما يُستكمل به حدودُها، ومما لها من كذا وكذا .

إبراهيم بن المهدى — صدر رسالة له فى الخميس

الحمد لله الذى اختار الإسلام دينا لنفسه، ورَضِى أن يَعبُدَه مَن فى سمواته من الملائكة المقرّبين، ومَنْ فى أرضه من النبيين والمُرْسَلين، ومَن آمن بالنور الذى هداهم له من الثَّقَلَيْن،

واختار لرسالته فى سابق علمـه ، والذكر الحكيم عنده ، محمـدًا صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه كتابه وجعل طاعته وطاعة نبيه صلى الله عليه وسـلم موصولةً بكذا فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

تحميـــد

الحمد لله المتكبر فى جبروته المتعزِّز بسلطانه ، المتعالى فى سمواته ، المحتجب عن خَلْقه ، فلا تُدْركه فى الدنيا أبصارُ الناظريـــن ، ولا تُحيط به أوهامُ المتوهِّمين ، ولا تبلُغه صفاتُ الواصفين ، الذى لا يؤوده عظيم ، ولا يفوته مطلوب ، ولا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم .

تحميـــد آخر

الحمد لله الحكيم العدلِ ، الذى فَصَلَ بين الحقِّ والباطل ، فنفذ قضاؤُه فى خَلْقه ، وحكم فيهم بمجرى حكمه على إرادته ، يَقْضى بالنصر والتأييـد ، والعزِّ والفَلَج ، والتمكين للحق وأهله ، وبالذل والوَقْم والخزْى والصَّغَار للباطل وأهله ، وجعل ذلك من فضله وحُكْمه عادةً جاريةً باقيةً ، وسُنَّةً ماضيةً ، لا رادَّ فيما قضى منه لقضائه .

والحمد لله الذى اختص محمدا صلى الله عليه بكراماته ، واصطنعه لرسالاته ، وأنزل عليه كتابه العـزيز الَّذى لا يَأْتيــه الباطلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه وَلَا مِنْ خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيـدٍ ، بما أحلّ وحرّم ، ورَضِى وسخط ، وأَمَرَ به ونَهَى عنه ، وجعله خَاتَمَ النبيين والمُهَيْمِنَ عليهم ، وكتابه الذى أنزل ، آخرَ الكُتب المصدّق بها النبي صلى الله عليه وسلم .

تحميد فى الإسلام وما آمتن به على أهله من مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى صدر الجهاد

أما بعد ، فإنّ لدين الله الذى ارتضاه لنفسه ، ولِمَن اصطفاه من خَلْقه ، واجتباه من عباده وجعلَه مَعْلَما بين الهُدَى والضلالة ، وفُرْقانا بين الحقّ والباطل ، وحاجزا بين الكُفْر والإيمان ، وظائفَ وَظفَها على أهلها ، وشرائع شَرَعها لهم ؛ فجعل أداءها إليه ومَعْرفتَها له ، ومحافظتَهم عليها ،

واعتصامَهم بها قِواما لدينه، ونظاما لنوره وثَباتا لحقّه، واسْتيجابا لما وعَد من ثوابه، وأَمْنا لما أَوْعَد من عقابه . فليس يَسَعُ أهل الإيمـان بالله و الإقامة على حقّه من المسلمين الذين سمّاهم المسلمين بالإسلام، وأحرز لهم فضلَه وعزّه، وأصار لهم الغَلَبة على مَن خالفهم وفارقهم بما رَكَنوا إليه من الصدود عن سبيله، والتكذيب بكتبه ورسـله، ودلّتهم فيه قُرَباؤهم، وقادتْهم إليه أهواؤهم، من المِلَل الضالة، والأديان المجموعة، التي لم يَنْزِل بها من الله سُلطانٌ، ولا كتابٌ ولا برهان، إلّا معرفتُها وأداؤُها بمـا يُستكمَل من حُدودها ومَعالمها .

تحميد في الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم

أما بعد، فإنّ الله خالق الخلائق بقدرته، وقدّر الأمورَ بعلمه، وأنفذ على ما مضَى من مشيئته، من غير أنْ يكون له ظهيرٌ في ملكه، أو مُعينٌ على ما يُرَى من عجائب خلقه، واحتذاء منه على سابقٍ من صنعة غيره، فوحّد نفسَه بما تفرّد به دون غيره من خَلْقه، ليُعْبد مُخْلصا مُبرّأ من الأنداد، إتماما لنوره، وتعزيزا لتوحيده، وتأييدا لدينه، وإعلاءً لمن اعتصم به، وإقلالا لمن خالفـه وعَنَد عنه وعبَد غيرَه، وإحقاقا لكلمتـه، فإنه يقول : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ الآية ؛ بذلك أنزل كُتُبه، وأرسل رُسُلَه، واحتجّ بهم وبما أنزل إليهم على مَن مضى من القرون السالفة، والأُمم الخالية، يدعو آخرهم إلى ما سبق إليه أوّلُهم، من عبادته وتوحيده، لا يستوحشون من قِلّة، ولا يؤتون من كثرة ؛ يُعزّهم الله بقوّته، ويُؤيّدهم بجنده، وينصُرهم وينْصُر بهم إلى أن بَعث الله محمّدا صلّى الله عليه وسلّم بما خصّهم به، وجعله مُصَدِّقا لهم، ومُهيمنا عليهم، وخاتمَ النبيين بعدهم ؛ يمضى لأمر الله، ويجاهـد مَن لم يُجبه إلى الدخول في دين الله، فأظهره الله وأنار حقّه، وأرهق عدوّه، وأنجز له ما وعده وأتمّ بذلك النّعمة عليه وعلى من اتّبعه، فإنّه يقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ ﴾ .

تحميـــد في فتح

الحمد لله الفتّاح العليم، الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم، الذي أعزّ الإسـلام بقُدْرته، وأيّده بنصره ؛ فلم يُلْحِد فيـه مُلْحدٌ، ويَسْعَ في تشتيت الكلمة وشَقّ العصا ساع، ويُوضِع

فى الكفر والمعصية مُوضعٌ ، ويمتنعْ من قضائه وإرادته مُمْتنعٌ إلّا أذلّه الله وقصَمه ، وأضرَع خَدّه ، وأتعس جَدّه ، وضلّل سعيَه ، وعجّل بَوارَه واستئصالَه ؛ حمدا دائمـا لا انقطاع له ، ولا نفاد لمدّته .

تحميـــد ثانـ

والحمد لله الذى اختار الإسلام وشرّفه ، وكرّمه وطهّره ، وأظهّره وأعزّه ، وفطر عليــه ملائكتَه ، وبَعث به أنبياءه ورُسُــلَه ، واختار له خِيرتَه من خلقه محمّدا صلّى الله عليه ، فبعثه برسالته ، وأكرَمه بوَحْيه ، واصطفاه على خَلْقه ؛ يُبشّر بالجنّة مَن أطاعه ، ويُنْذر بالنـار مَن عصاه ؛ وجعله دينه القيّم الذى لا يَقْبل دينا غيرَه ولا يُثيب أحدا إلّا عليه .

تحميـــد فى فتح

الحمد لله العزيز فى مَلَكوته القاهرِ فوق بَرِيّته ، الذى خلَق الخَلق بقُدْرته ، وأنفَذ فيهم إرادته ومَشيئته ، وقــدّر كلّ شىء وأتقنه وأحكمه ، وأحاط عِلْما به ؛ فلا يعزب عنه مثقال ذَرّة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبينٍ .

صــدر تحميـــد فى فتح

الحمد لله الذى ابتدع الخــلْق لا من شىء ، وجعل الليل والنهار كَهْفا ومُستَجَمّا لكل حىّ ؛ بقُدْرته تَبحّرت البِحار ، وجرتْ لمواقيتها الأنهارُ ؛ فدار وتطارد الليــلُ والنهار ، لا إله إلّا هو ربُّ العرش العظيم .

والحمــد لله الذى فات بعظمته أبصارَ المرتئين ، وعلا بمجــده عن خَطَرات الحاسبين ، واحتجب بأســتار جَبَروته عن مواقع فكر المحصلين المُتعمّقين ؛ فـلم تَحْوه الكَمِّيَّة ، ولم يقع علــيه أدوات التحصيل والكَيْفيَّة ، ولا أدركه هاجس تبعيض ولا كُلِّية ، ولم يُنْسَب إلى زيادة فى حين ، ولا إلى تقصير فى شهور ولا سنين ، فكلّ أمره — عزّ جلاله — تمــامٌ ودوام ، وكلّ صفات صنعه اعتدال وكمالٌ ؛ وكلّ ما دونه يحتكم فيه الفَناء والزوالُ ، ليس كمثله شىءٌ وهو السميعُ البصير .

والحمد لله الذى عرّفنا ربوبيّته إلهاما، ونهج لنا سُبُلَ طاعته منًّا وإكراما، وتعبّدنا بفرضه تقويما وتعليما وآمتنانا؛ فقامت علينا وعلى الخَلْق حُجّتُه، بالصادع بأمره، والمُبَلِّغ لرسالته، والمجاهد فيه حقّ جهاده، محمد صلى الله عليه وسلم. والحمد لله الذى أعزّ دينه، وأظهر تمكينه، ونصر وليّه، وخذّل عدوّه، وأوقع بأسه ونقمته بمحلّ الفرية، وجُرْثومة الضلالة، ومَناخ الشرك، ومَرْكز الكفر؛ بعد طول الإملاء، والآعتداء فى سَفْك الدماء، والمُثْلة بالأَسرَى، وقلّة المُراقبة والآرعواء .

تحميـــــد

الحمد لله حمدا يكون رضاه منتهاه، والمَزِيدُ من فضله جزاءَه. والحمد لله حمدا اليه يتناهى حمد الحامدين، وشكرُ الشاكرين . والحمد لله الذى لا تُحْصَى نَعماؤُه، ولا تُجْزَى آلاؤه، ولا يُكافأ بلاؤه، ولا يُبْلَغ شكرُه إلّا بمَنّه وتوفيقه؛ حمدا يرضاه ويتقبّله، ويزكو لَدَيْه، ويوجب ما تأذّن للشاكرين مِن يَده .

تحميد على فتح

أمّا بعد، فالحمد لله الواحد القهّار، العزيز الجبّار، ذى المَنّ والإنعام، والجلال والاكرام؛ الذى آصطفَى الإسلام دِينا، وآصطفَى له مِن عباده أهْلا هداهم له، وأكرمهم به وبيّن لهم ما يأتون، ولم يتركهم فى رَيْب من أمرهم، ولا شُبْهةٍ من دينهم؛ فله الحُجّة البالغة ليَهْلِك مَن هلَك عن بينة، ويحيا مَن حيّ عن بينة، وإنّ الله لَسميع عليمٌ .

والحمد لله الذى ختم بمحمّد صلى الله عليه وسلم النبوّة، وآنتجبه لتبليغ الرسالة، وبعثه إلى خَلْقه كافة، فبلّغ رسالته، وصدع بأمره، وقام فيما بعثه له بحقّه، ثم أنجز له وعده، وأتمّ له كَلمته، وأظهر دين الإسلام به على الدّين كُلّه ولو كَرِه المُشْركون .

تحميد فى فتح

أمّا بعـدُ، فالحمـد لله الأوّل الآخر، الظاهر الباطِن، الولِى الحميد، القوىّ العزيز؛ الذى لا يقدُر العبادُ قدرَه، ولا يُحْصون نِعمه، ولا يبلغون شكرَه؛ المحيط بكلّ شىء علما،

والمُحْصى كلّ شيء عـددا؛ فلا يُعْجزه كبير، ولا يعزب عنه صغير، والأرضُ جميعا قَبْضَتُه يوم القيامة، والسموات مطويّات بيمينه، سبحانه وتعالى عمّا يشركون .

تحميـــد

الحمد لله المتوَحِّد بالخلق والأمر، قادرا قاهرا أحاط بكلّ شيء علما، وأحصَى كلّ شيء عددا، وملأه عَظمةً، ووسعه عَدْلا، وأتقنه صُنْعا . والحمد لله الذى أعزّ بالحق مَن أطاعه، وأذلّ بالباطل مَن عصاه، وجعل الطاعة والجماعة حِرْزا حَرِيزا، وموئلا مُنِيفا؛ فلم يجمع بين أهل كفرٍ وإيمانٍ، وطاعةٍ وعِصْيان، إلّا توحّد بالصنع لأهل طاعته، وأنجح سَعْيهم، وأعلَى كلمتهم، وأفلَج حُجّتهم، وأنزل بأهل الكفر المُعاندين عنه، الرادّين لأمره الذِّلَّة والصَّغار فى عاجلهم وآجلهم؛ حمدا يكون لمَزيده موجِبا، ولحقّه مؤدّيا .

تحميد فى فتح لسعيد بن حُمَيْد عن وصيف

أمّا بعد، فالحمـد لله الحميد المجيـد، الفعّال لما يريد؛ الذى خلق الخلق بقدرته، وأمضاه على مشيئته، ودبّره بعلمه، وأظهر فيه آثار حكمته التى تدعو العقولَ إلى معرفته، وتشهَد لذوى الألباب بربوبيّته، وتَدُلّ على وحدانيته؛ لم يكن له شريكٌ فى ملكه فينازعَه، ولا معينٌ على ماخلق فتلزمَه الحاجة إليه؛ فليس يتصرّف عباده فى حال إلّا كانت دليلا عليه، ولا تقَع الأبصار على شيء إلّا كان شاهدا له، بما رسم فيه من آثار صُنْعه، وأبان فيه من دلائلِ تدبيره، إعذارا بحجته، وتطوّلا بنعمته، وهداية إلى حقّه، وإرشادا إلى سبيل طاعته، وهو الذى يَبْدأ الخلق ثم يُعيده، وهو أهون عليه؛ وله المَثَلُ الأعلى فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم .

والحمـد لله العزيز القهّار، الملك الجبّار، الذى آصطفى الإسـلام وآختاره، وآرتضاه وطهّره، وأعلاه وأظهره؛ فجعله حُجّة أهله على مَن شاقّهم، ووسيلتهم إلى النصر على [مَن] عَنَد فى حقهم، وآبتغى غير سبيلهم؛ وبعث به رُسُلَه يدعون إلى حقّه، ويهدون إلى سبيله،

بالآيات التى يبيّنون بها عن المخلوقين، ويوجبون بها الحجّة على المخالفين؛ حتى انتهتْ كرامة الله إلى خاتم أنبيائه، وحامل كتابه، ومفتاح رحمته صلى الله عليه وسلم؛ على حين فَتْرة من الرسل، واختلاف من الملل، ودُثور من اعلام الحقّ، واستعلاء من الباطل؛ والناس عاندون عن سبيل ربّهم، يتسافكون دماءهم، ويحلّون ما حرّم الله عليهم، ويعبدون من دون الله مالا يَضرّهم ولا ينفعهم؛ وأيّده بالبرهان الواضح، والحُجج القواطع، والآيات الشواهد؛ وأنزل عليه كتابَه العزيزَ الذى لا يأتيه الباطل من بين يَدَيْه ولا مِن خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد؛ وجعل فيه أوضح الدليل على رسالته، وأعدلَ الشواهد على نُبوّته؛ إذ عجز المخلوقون عن أن يأتوا بمثله على مَرّ الأيام، وكثرة الأعداء والمنازعين؛ يتحدّاهم به فى المواسم، ويقصدهم بحُجّته فى المحافل؛ ولا يزدادون عنه إلّا حُسورا وعجزا، ولا تزداد حُجّة الله عليهم إلّا تظاهرا وعلوّا؛ ثمّ أيّده بالنصر بأنصارٍ ألّف بينهم بطاعته، وجمعهم على حقّه، ولَمّ شَعَثَهم بنُصْرة دينه، بعد الشّقاق المُتّصل بينهم، والحرب المُفَرِّقة لجماعتهم؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. وقدّم اليه وعْدَه بالنّصرة والتمكين؛ لجعله بُشْرى للمؤمنين، وحُجّة على الكافرين، ودليلا على ما بعثه به من الدّين؛ فهزم بالقليل من عددهم الكثيرَ من عدد أعدائهم، وغلب بضُعَفائهم أهلَ القوّة ممّن ناوأهم؛ ففَلّ به حدّهم، وفضّ جموعهم، وافتتح حصونَهم، وحَريزَ معاقلهم؛ وأظهر بحجّته ونَصْره عليهم، وأنجز سابق وعده لهم وفيهم؛ والله لا يُخْلِف الميعاد.

تحميد لابن المقفع

الحمد لله ذى العَظَمة القاهرة، والآلاءِ الظاهرة؛ الذى لا يُعْجِزُه شىء ولا يَمْتنع منه، ولا يُدْفع قضاؤه ولا أمرُه؛ ﴿وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. والحمد لله الذى خلق الخلق بعِلْمه، ودبّر الأمور بحُكْمه، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمَه؛ بقدرة منه عليها، ومَلَكَة منه لها، لا مُعَقّب لحُكْمه، ولا شريك له فى شىء من الأمور، يخلق ما يشاء ويَختار، ما كان للناس الخِيَرة فى شىء من أمورهم، سبحان الله وتعالى عمّا يشركون.

والحمد لله الذى جعل صَفْوَة ما آختار من الأمور دينَه الذى آرتضىَ لنفسه ولمن أراد كرامتـه من عباده، فقام به ملائكتُه المقربون، يُعظّمون جلاله، ويُقدّسون أسمـاءه، ويذكرون آلاءَه، لا يَستحسرون عن عبادته ولا يسـتكبرون، يُسبّحون الليـلَ والنهارَ لا يَفْترون؛ وقام به مَن آختار من أنبيائه وخُلَفائه وأوليائه فى أرضه، يُطيعون أمرَه، ويَذُبّون عن محارمه، ويُصدّقون بوَعْده، ويُوفون بعهده، ويأخذون بحقّه، ويُجاهدون عدوَّه؛ وكان لهم عند ما وعدَهم من تصديقه قولَهم وإفلاجه حجّتهم، وإعزازه دينَهم، وإظهاره حقّهم، وتمْكينه لهم؛ وكان لعدوّه وعدوّهم عنـد ما أوْعدهم من خِزْيه، وإحلاله بأسَهم، وآنتقامه منهـم، وغضبه عليهم، مضَى على ذلك أمرُه، ونفذ فيـه قضاؤه فيما مضَى، وهو مُمضيه ومنفّذُه على ذلك فيما بَقِىَ، ليتم نورَه ولو كَرِه الكافرون؛ وليُحقّ الحق ويُبْطلَ الباطل ولو كَرِه المجرمون .

والحمد لله الذى لا يَقْضِى فى الأمور ولا يُدَبّرها غيرُه، ابتدأها بعلمه؛ وأمضاها بقُدْرته، وهو وليّها ومنتهاها، وولىّ الخيرَة فيها، والإمضاء لمـا أحبّ أن يُمْضىَ منها، يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخِيرَة سبحان الله وتعالى عمّا يُشْركون .

والحمد لله الفتاح العليم، العزيز الحكيم، ذى المَنّ والطوْل، والقدرة والحَوْل، الذى لا مُمْسك لمـا فتح لأوليائه من رحمته، ولا دافع لمـا أنزل بأعدائه من نقْمته، ولا راد لأمره فى ذلك وقضائه يفعلُ ما يشاء، ويَحْكم ما يُرِيد .

والحمـد لله المُثيب بحمده ومنه ابتـداؤه، والمُنْعِم بشكره وعليه جزاؤه، والمُثْنى بالإيمـان وهو عطاؤه .

لا خـــــر

الحمد لله الذى يَتَطوّل بالنعم مُبْتدئا، ويُعْطى الخير مَنْ يشاء ويُثِيبُ عليه .

تحميد لغسّان بن عبد الحميد

كاتب جعفر بن سليمان فى المطر :

الحمد لله الذى نشر رحمته فى بلاده، وبسط سعته على عباده، الذى لا يزال العبادُ منه فى رزق يقتسمونه، وفضلٍ ينتظرونه، لا ينقُصُه ما قبْله، ولا ينقضى ما بعدَه .

لأحمد بن يوسف فى فتح السّند

الحمد لله وَلِيّ الحمد، وأهلِ الثناء والمجد، خالقِ الخَلْق، ومُدَبِّر الأمر؛ المسبغ على عباده والمُوجِب عليهم حُجّته؛ فليسوا يرجون إلّا سِعَة فَضْله، ولا يَحْذرون إلّا ما اجترحوا من مَعْصيته؛ لما سبق من جَزيل إحسانه، وتظاهر من امتنانه، وتَقدّم به الإعذارُ والإنذارُ اللذان لا يَستخِفّ بما عظُم منهما إلّا مَن استحوذ عليه الشيطان، واستولَى عليه الخذْلان، وقاده الحَيْن الى موارد الهَلَكة .

التحميد الثانى

الحمد لله الذى اصطفى الإسلام دينا فطهّره وأسْناه، وأظهره وأعلاه؛ وزيّنه بكلّ حَسَنة، ونَفى عنه كلّ سيئة، وجعله الى مَذْخور كرامته سببا واصلا، وسبيلا نَهْجًا، وبعث به محمدا صلى الله عليه وسلم لِيُنْذِرَ مَن كان حيّا، ويَحِقّ القولُ على الكافرين .

تقريظه فى الخليفة

الحمد لله الذى اصطفى أمير المؤمنين لخلافته، وتلافَى الأمة بسُلْطانه، بجعله القائم فيهم بقسطه، والمُسْتفرِغَ فى التماس مصلحتهم هَمَّه .

لأحمد بن يوسف

عن ذى الرياستين الى ابراهيم بن إسماعيل بن داود صدر فتح :

أما بعد ، فالحمد لله الذى حفظ من دينه ما ضَيّع الملحدون، ورَأَب منه ما [فرقته] (١) الصدْعة؛ وأعاد من حبله ما حاولوا نقضه، حتّى أعاد لعباده أحسن أُلْفتهم، وردّ اليهم أجمل

(١) بياض فى الأصل . وما أثبتناه يناسب المقام .

عَوْدِهم، من الاستشلاء بعد التردّى فى قُحَم المعاطب، والاستنقاذ بعد التوريط فى المهالك؛ وبلّغ خليفته القائم بحقّـه، المُؤْتمّ بكتابه، الذائد عن حَريم الدِّين، ووِيراث النبيين، أجزلَ ما بلّغ للخُلفاء الراشدين المهديّين، من إعلاء الكلمة، وغَلَبة الأعداء، والفوز بالعاقبة التى وعَدَها المتقين؛ وفرغه لمـا أشعَر قلبه، وشرَح له صدرَه، من إمضاء حُكْم الفرائض المُوجَبَة، واقتفاء السنن الهادية، حيث سلك به مِن المناهج؛ حمدا يوازى نِعمه، ويبلغ أداء شكره، ويوجب مزيده .

والحمد لله على ما خصّنا به من إعلاء الدرجة، وإسناء الرتبة، فى مشايعة أمير المؤمنين — أيّده الله — والمُجاهدةِ عن حقّه، والوفاءِ لله بما عقَده له؛ لا نريد بما كان منّا إلّا وجهَه، ولا نسعَى فيه إلّا لرضاه؛ حمدا لايُحصَى عدده، ولا يَنْقطع أمدُه .

تحميد لأبى عبيد الله

أمّا بعد، فالحمد لله ذى الآلاء والقُدْرة، والطوْل والعزّة؛ الذى اصطفَى الإسلام دِينا لنفسه، وملائكته وأنبيائه ومن كَرُم عليه مِن خلقه؛ فبعَث به محمدا صلّى الله عليه وسلم اختصاصا له فى ذلك بكراماته، واصطفاءً له به على عباده؛ فأعزّه ومنعه، وكفاه وحاطه، وتوكّل لأهله بالعلم والتمكين، والظهور والتأييد؛ فلم يُلْحد فيه ملحِد، ولم يَزِغ عن قبول حقّه زائغ، بعد إعذار الله إليه، وإعادةِ الحُجّة لله عليه، إلّا أُنْزِل به من الذلّ والصَّغار والاجتياح والاستئصال ما يجعل له فيه قمعا؛ حمدا كثيرا دائما مُرْضِيا له، مؤمّنا من غيره، موجبا لأفضل مزيد ثوابه .

تحميد لسعيد بن حُمَيد فى فتح

أما بعـد، فالحمد لله المُنْعم فلا يبلغ أحد شُكرَ نعمته، والقادرِ فلا يُعارَض فى قدرته، والعزيزِ فلا يُغالب فى أمره، والحكم العدْل فلا يُرَدّ حكمُه، والناصر فلا يكون نصره إلا للحقّ وأهله، والمـالكِ لكل شىء فلا يَخرج أحد عن سلطانه، والهادى إلى سـبيل رحمته فلا يَضلّ من انقاد لطاعته، والمُقدِّمِ إعذارَه ليُظاهِر به حُجّته؛ الذى جعل دِينه لعباده رحمة، وخلافته عصمة، وطاعةَ خُلفائه فرضا واجبا على كافّة الأمم؛ فهم المُسْتحفَظون فى أرضه

على ما بعث به رُسله ، وأُمناؤه على خلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والحاملون لهم على مناهج حقّه ، لئلا تُشْعَب بهم الطرق المخالفةُ لسبيله ، والهادون لهم إلى صراطه ليجمعهم على الجادّة التى ندب إليها عباده ؛ بهم حُمِى الدين من البُغاة الطاغين ، وحُفِظت معالم الحق من الغواة المخالفين ، مُحتجِّين على الأمم بكتاب الله عزّ وجل الذى آستعملهم به ، ورُعاةً للأمر بحق الله الذى آختارهم له ؛ إنْ جادلوا كانت حُجّة الله معهم ، وإنْ حاربوا فالنصر لهم ، وإنْ جاهدوا كان فى طاعة الله نصرُهم ، وإنْ بغاهم عدُوّ كانت نِكاية الله حائلةً دونهم ، ومَعْقِلا لهم ، وإن كادهم كائد فالله فى عونهم ؛ نصبهم الله لإعزاز دينه ، فمن عاداهم فإنّما عادَى الذين عزّ بهم وحُرِس بهم حقّه ، ومَن ناوأهم فإنّما طعن على الحقّ الذى تكاؤه حراستُهم ، جيوشُهم بالرعْب منصورة ، وكتائبُهم بسلطان الله من عدوّهم محوطة ، وأيديهم بذَبِّها عن دين الله عالية ، وأشياعُهم بتَناصرهم غالبةٌ ، وأحزابُ أعدائهم ببغيهم مَقْموعةٌ ، وحُجّتهم عند الله وخَلْقه داحضةٌ ، ووسائلهم إلى النصر مردودةٌ ، وأحكامُ الله بخذلانهم واقعةٌ ، وأقدارُه بإسلامهم إلى أوليائه جارية ، وعادتُه فيهم وفى الأمم السالفة والقُرون الخالية ماضيةٌ ، ليكون أهلُ الحق على ثِقة من إنجاز سابق الوعد ، وأعداؤه محجوجين بما قدّم إليهم من الإنذار ، مُعَجّلة لهم نِقْمة الله بأيدى أوليائه ، مُعدّا لهم العذاب عند ردِّهم إليه خِزْيا موصولا بنواصيهم فى دُنْياهم ، وعذابُ الآخرة من ورائهم وما الله بظلام للعبيد . وصلّى الله على محمد أمينه المصطفَى ، ورسولِه المرتضَى ، والمنقذ من الضلالة والعمى ، صلاةً نامية بركاتُها ، دائما آتصالُها ، وسلّم تسليما .

والحمد لله تواضعًا لعظمته ، والحمد لله إقرارًا بربوبيته ، والحمد لله اعترافًا بقصور أقصى منازل الشكر عن أدنى منزلة مِن منازل كرامته .

فيما يُقَرَّظ به الخليفة

والحمد لله الذى حاز لأمير المؤمنين وِراثته ، وساق اليه خِلافتَه ، بالحاجة منها إليه ، والرغبةِ منه عنها ، وآستخلص مِن خَلْقه مَن جعله ظَهيرا للحوادث ، وعُدّة للنوازل ؛ فلما

أفضتْ الخلافة إليه حسر أمامه أحاجلته(١)، وكشف قناعه لمحاربته؛ فالحمد لله الذى اختص أمير المؤمنين بخلافته، وآرتضاه لولاية أمر أمّة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والقيام بحقّه، والذبّ عن حُرُماته؛ وحاط له ما آسترعاه من ذلك، وقلّده بحسن الولاية والكفاية، وتوكّل له بالحفظ والتأييد، والنصر والغلبة والظهور على مَن عَنَد عن طاعته، وصدَف عن حقّه، وآبتغى غيرَ سبيله؛ كرامة من الله تطوّل بها عليه، ومنّة منه توحّد بها له .

والحمـد لله الذى جعل نيّة أمير المؤمنين عَزيمته، وفِكْره ورَويّته، منـذ أفضى الله بالخلافة إليه، وجعله القائم بإرث نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم وآستحفظه من عباده وبلاده فيما فيه عِز الدين، ونِظام أمر المسلمين وترهينُ الشـكر، وإذلالُ الأعداء، وإشجاؤهم ووقْمُهم، وتحصين البَيْضة، وإشحانُ الثغور، ولمُّ المُنْتشر، وضمّ الأطراف؛ لا يَفْثأه عن ذلك فاثئ، ولا يَذْهَـله عن تفقّد كبير أمره وصغيره ومقابلته ذاهلٌ؛ يستقِل كثيرَ ما يُنْفِق من الأموال فى سَدّ الثغور، وتحصينها وحراستها، لمـا يرجو فيه من جسيم الحظّ، وجَزيل الذُّخر، وكثير الأجر؛ تقرّبا الى الله وآحتسابا له فى جنْب ثوابه، وكريم مآبه؛ حتى رأب به الصدْع، ورَتق به الفتْق، وأمّن به السبُل، وأقام به العِوَج، وأفلج به الحُجَج، وأعلى به الدرَج، وأزهق به الباطل، وأحيا به الحق، وأشام به سيوف أهـل الضلالة والفتْنة؛ لا تأخذه فى القيام بحقّ الله والانتصار لدينـه، والانتصاح لأمة نبيّـه محمد صلى الله عليـه وسـلم، والذّبّ عن حوزتهم، والرمى من ورائهم، ودفع بائقة أهـل الشّقاق والنفاق والخلاف والمَعْصية عنهم فترةٌ ولا سآمةٌ؛ توفيقا من الله، وتَسديدا لحُرْمته، وتأييدا لعزْمه، إذ كان لله شاكرا، ولدينه ناصرا، وبحقّه قائمـا؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلّا بالله وحدَه، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون .

والحمد لله الذى لم يزل منذ أفضى الى أمير المؤمنين بخلافته، وحيّاه بكرامته، يَختصّه بالخيَرة فى كل ما أمض َ من أمره، ويتولّاه بالتوفيق فى كلّ ما أبرَم من تدبيره، ويَحمل عنه

(١) هكذا وردت فى الأصل . ولم نوفق الى تحقيقها .

أعباء ما حمّله، ويُعينه بتأييده على ما قلّده، ويحوطُه بجميل الصنع فيما ولاه وآستحفظه، ويُلْهمه جهاد عدوه، ويحبوه بنصره؛ حمدا قاضيا لحقّ نعمته، مُوجبا أفضل مزيده .

والحمد لله الذى أورث أمير المؤمنين مواريث نُبوّته، وصيّر اليه مقاليد خلافته، وأوجب ذلك له بالقرابة برسوله صلى الله عليه وسلم، والوراثة لوراثته من عُصْبته وأَوْلى الناس به؛ ثم أعزّ نصره، وأعلى كلمته، وأفلج حُجّته، وأظهر على المشركين والمنافقين، ومن حادّه وعانده من الناكثين والمارقين، والباغين والملحدين، فأتعس جدودهم وفعل وفعل .

والحمد لله الذى عرّف أميرَ المؤمنين منذ استخلفه فى أرضه، وآئتمنه على خَلْقه، من عظيم نعمه، ولطيف صُنْعه، وجميل بلائه، واعزاز نصره، واعلاء يده وكلمته، وإفلاج حُجّته على مَن ضاده وحادّه، إنّ الله بعظيم طَوْله ومَنّه آرتضى أميرَ المؤمنين لدينه، وآصطنعه لخلافته؛ فبلّاه سِرْبالها، ورَدّاه بهاءها وجمالها، فاستعمله بالكتاب والسنة والحقّ والعدل فيها؛ فأيّده بقوّته، وأعزّه بنَصْره، وحاطه بكفايته، وتولّى الصُّنع له فى جميع أموره؛ فلم يَكِده كائد، ويُعانده مُعاند، ويَمْرُق عن طاعته الواجبة مارق، ويُلْحد فى إمامته مُلحد، ممّن يُعالِن بمعصية وشِقاق، أو يَنْطوى على غِلّ ونفاق، إلّا أوهَن الله كيده، وأتعس جَدّه، وعاجل المُبادئَ بعداوته، الشاهرَ على الدّين والمسلمين سيفه، باصطلام وبوار، وأمكن منه بذلّة وصَغار، وقتل المسرّ غيره، المُنْطوى على غِلّه بغَيْظه وغَمّه، وأماته بدائه وحَسْرته؛ إنجازا منه جلّ ثناؤه لوعده، وإتماما لكلمته فيما وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من آستخلافهم فى أرضه، والتّمكين فى دينه؛ وله الحمد دائما، والشكرُ خالصا، كما هو أهلُه وكما يَنبغى أن يُحْمد ويُشْكر، لا إله إلّا هو الواحد القهار .

والحمد لله الذى لم يُبْق لأمير المؤمنين عدوّا من الناكثين والجاحدين، والمشركين والمنافقين، حاولَ نقضا لإمامته التى صيّرها الله اليه، وقلّده إيّاها؛ أو صاول جيشا من جيوشه التى أعدّها للمحاماة عن دين الله ومحارمه، وإقامة سننه ومَعالمه، إلّا أحلّ به النّقمة، وأصاره الى الصَّغار والذِّلة، والبوار والهَلَكة، وعجّله الى ناره وعذابه .

والحمـد لله الذى لم يزل يتولّى أمير المؤمنين بحياطتـه ، ويتوحّد له من إعزاز نصره وإعلاء كلمته ، وإفلاج حُجّته ، وتأييد أوليائه وأنصار حقّه ، وأنزل البأس والنّقمة والمُثلات والسطوة بمن عانده ، والذّبّ عن حريم المسلمين وأهله ؛ بما يُبيّن به عن مكانه منه ، ومنزلته عنـده ؛ حميدا ربّنا بذلك كما هو أهلُه ومستحقُّه ، مشكورا بعظيم منّه فيه وطَوْله ، مسؤولا لتمـام أحسن عائدته وماضى سـنّته ؛ فإنّ الله المحمودَ على نعمه ، المشكورَ بآلائه ، لم يزل مايتوحّد به لأمير المؤمنين بسلطانه من التعزيز ، وفى أوليائه من التأييد بنصره ، عادة يَتَبيّن بها برهانه ، ويُفْلِج بها حُجّته ، ويَدُلّ بها على كرامته عليه ، ويُخبر بها عن منزلته عنده ؛ ويجعل ما نزل بأعدائه المتولّين عنـه ، الراغبين إلى غيره ، المُلْحدين فى حقّه ، عظَة لمن قسا قلبُـه ، وران عليه سوءُ عمله ، ليكون مايُعطيه من البسط فى مُلْكه ، والتمهيد فيما خوّلَه له ، ويُوفّقه من السطوة بعدوّه ، والتنكيل بمن خالفه (١) ، حُجّتين متظاهرتين ، وعبرتين بعمن ؛ فيعتصم مُعْتصم ، وينجو ناجٍ ، وليشْجُبَ [شاجب] (٢) ويَهْلك هالك ، وقد مضتْ من الله المشيئة ، ووضح منه الإعذارُ ، وكان الله بعباده عليما ، وبأعمالهم خبيرا .

والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بخلافته : وجعله وارث وَحْيه ، وقيِّمَه بكتابه فى عباده ، وأكرم هذه الأمة التى جعلها خير أمة أُخْرجت للنـاس به ؛ فهو الميمون فى تدبيره المنجح حَوِيلُه ، الميمونُ النقيبة ، المُوَفّق الرأى والسياسة ؛ فإنّ الله عز وجل خلق الخـلائق بقدرته ، واختارهم بعلْمه ، فاختار أمير المؤمنين لخلافته ، واصطنعه للقيام فى العباد والبلاد بأمره وقِسْطه ، وألهمه إقامة أحكامه وفرائضه ، والعملَ بحقّه وعدله ، وأبلَى أهل الشرك به ، وأخّرها الى أيام دولته ، وحظَرها عمّن كان قَبْله ؛ حتّى حاز له أجرها ، وأبقَى له سَناءها وذِكرها ، ونشر عنه أُحْدوثَتَها وسماعها ؛ وفتح عليه البُلدان القاصية ، والمدائن المُتنائية ، التى لم تكن تُرام من أهلها ، ولا يُطمَع فى زوالها ؛ وذلّت له الملوك القديم عُتُوُّها وعنادُها ، والأممُ المُسْتصعبُ مراسها وجهادها ، الحاميةُ فى آباد الدهر رِحامها ؛ فأنفذ فيهم مَكيدتَه ، وأنجح

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها بالعين . (٢) كذا فى الأصل ، ولعلها وليشجب .

سَعيَه، ورماهم بالتخويف، وملأ قلوبهم رُعْبا منه ؛ فأذعن مُدْعِنوهم بطاعته، وآنقادوا لأمره، وصاروا يدا وأعوانا لأوليائه على أعدائه .

أما بعـد، فإنّ أعظم النعم قَدْرا، وأجلّها أمرا، وأسرّها مَوْقعا، وأوجبها شُكْرا، ما عمّ الإسلامَ والمسلمين نَفْعُها، وعادتْ عليهم عائدتُها، وجعل الله فيـه عزّ الدين، وذُلّ المشركين ؛ وقد جعـل الله ذلك فى خلافة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بيمنـه وبركاته، وما أخلص الله من نِيّته وطاعته، وتأدية حقّه فيما استحفظه من أمر دينه وعباده، وفرغ له نفسَه، وأنصب فيه بدنَه، وأسهر فيه ليلَه، من حياطة حريم الإسلام، والزيادة فى حدودها مُتّصلا مُتَتابعا، والنعم متظاهرة ومُتوافرة، فسهّل الصعب، وذلّل له العـزيز، وقصَم عُتاة الأعداء ومتكبريهم، والمستعصين والمستصعبين منهـم، فى آباد الدهور على من رامهم، وفتح عليهم حصون مدائنهم ؛ وممتنع قلاعهم، وأنفذ مكيدته فيهم ؛ فبيْن مقتول ومأسور، وشريد طريد عن مَحلّته، وموضع عزّه ومَنْعته، مُستسلِم مُعْطٍ قيادَه باخع بطاعته ؛ وكذا فإنّ الله بمنّه وطَوْله قد أوصل لأمير المؤمنين من صُنْعه له فيما قلّده من خلافته، وحِياطته إياها فيما يحوطه من دِينه، وعرّفه من كفايتـه فيما قام به من حقّه، وأيّده من نَصْره فيما جاهد عنه فى سبيله، ما قد جعـل النِّعمة به عامة، والشكرَ به لازما، والمِنّة به واجبة، والصُّنعَ عظيما ؛ فالحمد لله على نعمه فى ذلك كثيرا .

والحمد لله الذى جعل آجتهاد أمير المؤمنين ومُقامَ أمره وتدبيره، فى آناء الليل ونهاره، فيما فيه صلاحُ عباده، وإعزازُ دينه وإقامةُ حقّه .

تحميـــــد

الحمد لله الذى لمّـا آفترض من الطاعة لِوُلاة الأمر من خُلفائه جعل أوائلها ناطقةً عن فضل أواخرها، وبوادئها مُخْبِرةً عن حميد عواقبها، ومواردَها مُبَشِّرةً بالعلوّ فى مصادرها، بما يَعْقُبه أهلُها من السعادة فى الماضين من أوليائها القائمين بحقّها ؛ وعاد من الشّقوة على مُقارِفِ المَعْصية المُلْحدين اليها ؛ حين أقبلت بهـم هوادِى الفِتن، وكشفت لهم تواليها عن البَوار

والهلكة ؛ مُعْتذرين حين لا عذر ولا حُجّة ، طالبين للهارب بعد أن كانت منازلُ السلامة بهم مُطمَئِنّة ، وخائفين وقد كانت سُبُل الأمن لهم واضحةً ؛ قد جعلتهم النِّقمة الواقعةُ بهم أمثالا سائرةً ، وفرّقت بينهم وبين النِّعم الشاملة ، وحصّلت السعادة لمن آتعظ بهم باقيةً ، سنّة من الله فيهم ماضيةً ، وعادة جاريةً ، ولن تجد لسنّة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

والحمـد لله الذى آختار أمير المؤمنين لخلافته فحرس به دينه من البُغاة الناكثين عنه ، وآختصّه بأعلاء رُتب كرامتـه ، وآفترض طاعته على عباده ، وجعلها بمواقعها فى دينه نظاما لسائر فرائضه ، فتاركها مُفارق لعصْمة حقّه ، خارجٌ من جملة الأمّة التى سبقت لها رحمتُه ؛ يستنصر أشياعَ الباطل والله خاذلُه ، ويُغالب الحقّ والله غالبُه ، ويَطلب مالا سبيل له اليه والله طالبُه ، حتّى يَخلِجه أجلُه عن أمله ، وأقدارُ الله فيه عن تقديره ، ونفوذُ قضاء الله فيه عن نفوذ حيَله ؛ فضلًا من الله على أوليائه وقضاءً منه عدْلا فى أعدائه ، والله ذو الفضل العظيم .

والحمـد لله الذى آختار أمير المؤمنين لرعاية عباده ، وحفْظ بلاده ، وتنفيذ أحكامه ، وإقامة حدوده ؛ فجمع به الأُلْفة ، وكفّ به بَوائق الفتْنة ، وأصلح به أمور الأمّة ، وسكّن به الدهماء ، ودفع به عظيم البلاء ، وأنقذ به من الجُهْد واللّأْواء ؛ وجدّد لرَعيّتـه العبرَ الشافية ، والعِظَة الناهية ، وجعل همّه السعىَ لربّه ، وطلبَ الحق الذى أوجبه له من خلافته ، ليؤدّىَ فرضه فى الأمانة التى حمَلَها ؛ فيُوجب له بذلك مالا يَزول ولا ينْقطع من ثوابه ، فأَعمَل رأيه فى الرأفة بمن ولّاه أمره ، والحياطة له ، والعناية بصلاحهم ؛ فأعطاه لين الموعظة فى وقت التأنى ، والنفوذَ لإقامة الحُجّة والبيّنة ، وشدّةَ السطْوة على مَن غمَط النعمة وعَنَد به الإصرار عن النُّزوع والفَيْئة ؛ مَنّا من الله وتفضلا ، وإحسانًا وتَطَوُّلا ، والله ذو فضل عظيم .

ويسأل الله أميرُ المؤمنين مُبتدئا ومُعَقِّبا ، وأوّلا وآخرا ، وقبـل كلّ مسئلة ، وأمام كلّ رغبة ، ومُقدّمةَ كلّ طَلِبة ؛ أن يُصلِّ على صفوته من عباده ، وخيرته وخاتم أنبيائه ورُسله ، محمد عبـده ورسوله ، أفضلَ صلواته ، ويُبارِكَ أكثرَ بركاته ، وأن يُديم له كرامته ، ويُجرىَ عنده أجمل عاداته ، ويُتمّم له ما آختص به من إحسانه ؛ حتّى يملأ الأرض عَدْلا وقسطًا ،

والإسلامَ تأبيدا وعِزّا ، والشِّرْكَ ذُلّا وقَمْعا ؛ إنّه ولىّ كلّ نِعمة ، ومنتهَى كلّ رَغبة ، وغايةُ كلّ حاجة .

ولم يزل أميرالمؤمنين منذ الوقت الذى أفضَى الله اليه بخلافته ، وأكرمَه بردّ حقّه من إرث نُبُوّته ، يتلقّ عظيم النعمة فى ذلك بالإخلاص للنيّة والطّويّة فى الصفح عن كلّ زَلّة ، والإقالة لكلّ عَثْرة ، والتعمد للهَفْوة وقبول الفَيْئة ، والإنابة ممن عظُم جرمُه ، وجلّ ذنبُه ، وظنّ أن لا توبةَ له ؛ وكلما جدّد الله له نعمة ، جدّد له فى ذلك نيّة حَسَنة ، شكرا لله عزّ وجل على ما ابتدأه به ، وارتهانا لنِعَمه عنده ، واستزادةً من جميل مَواهبه ، وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رَعيّته ، وآستقامةُ أمورها ، وحِياطتُها والذَّبُّ عنها ، وكَفُّ الأذى والمكروه عن الدانى والقاصى منها ؛ ويتخلّص إلى ذلك بكلّ ما يَجِد اليه السبيلَ ويجتهدُ فيه ، ويعمَلُ لكثرة أوقات دهره فى كلّ مابلّغه مَحبّته نظرا لها ، وحَدَبا على كافّتها ، وإشفاقا من سوء حالها ؛ إذ كان لها والدا بَرّا ، وراعيا كالئا ، وناظرا لطيفا ؛ ويستعمل كلّ ما يرجو ائتلافَها ، والإبقاءَ على أحوالها ، والسلامةَ لها فى دِينها ودُنياها ؛ وينصَب لذلك ليله ونهارَه ، ويُذيبُ فيه نفسه ، ويجعله شُغلَه دون غيره .

والحمد لله الذى آصطفَى أميرالمؤمنين بخلافته ، وأكرمه بإرث نُبُوّته ، وجعل خلافتَه خلافة يُمْن وبركة ، ولطف وسعادة ؛ انتاش بها أولياءَه من موارد الهَلَكة فرفع منزلتهم ، وشرّف درجتهم ، وأعلى كَلِمتهم ، وأذلّ بها أعداءَهم ، وجذّ دوابرهم ، وردّ دائرة السوء عليهم ؛ وحباه مَزيّة نَصْره وتمكينه ، وإعزازه وتأبيده ، وإظهارِه على من ناوأه وعَنَد عن حقّه ، وصدَف عن طاعته ؛ فإنّ الله لمّا اختار أميرالمؤمنين لخلافته فأيّده بها ، جعل الحقّ نِيّته ، وإعزازَ الدِّين بُغْيته ، ومجاهدَة أعداء الله شرقا وغربا وبرا وبحرا نَهْمَته وإرادته ؛ ثم يسره فى ذلك لما أحسن به عونه ، على من آستحفظه وقلده ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

والحمد لله الذى كان لسابق علمه وسالف قضائه ، الذى لا يستطيع الناسُ ردّه ، ولا مَنْعه ولا صَرْفه ، مَا وَلّى أميرَ المؤمنين من خِلافته ، وما ٱبتعثه له من النصر لدينه ، والطلب لحقّه ، والجهادِ لأعدائه ؛ وأحسن فى ذلك عَوْنَه فيـه وبلاءَه ، وأيّده فى نفسه ، لم ينقُصه خِذْلان خاذل ، ولا مخالفة مَن خالف ، ولم يزد أمرُه فى شىء من ذلك إلّا تماما وإحكاما ؛ حتّى أظهر حقّه ، وأفلج حُجّتـه ، ومحَق باطل أعدائه ، وأدحض حججهم ؛ وجعـل أهل طاعته حزبه الغالبين ، وجُنْده المنصورين ؛ وجعل عدوّه وعدوّكم حزب الشيطان الخاسرين ، وأولياءَه الأذلّين ؛ بغير حـول من أمير المؤمنين فى شىء ممـا ولّاه وأبلاه ، ولا قوّة إلّا بالله العلىّ العظيم .

لأبى عبيــد الله

والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بما أصار اليـه من الخلافة وإرثِ النُّبُوّة ، وجعله القائم بأمر عباده وبلاده ، والمُحْيِىَ لسننه ، والذّابَّ عن دينه وحقّه ، والمُناصبَ لأهل الشرك والجُحود به ؛ ثم نصره وأظهر فضـل أيامه ودَوْلَته ، ومكّن له فى بلاد عدوّه ، وجعل كلمته العُليا وأنصارَه الغالبين ، ومَن ناوأه من أهل الخلاف الأذلّين المقهورين ؛ وعرّفه من نعمته فى ذلك ومِنّته وجميلِ صُنْعه وعاداته ، أحسنَ ما عوّد أحدا من أوليائه الذابّين عن الإسلام وأهلِه ؛ حمدا مُتتابعا لا ٱنقطاع له ولا ٱنصرام ، دون بلوغ حقّه ، وقد كان كذا وكذا .

ما يكتب به فى المخالفين فى وقت الهزيمة

نَكصوا على أدبارهم مَنكوبين مَهزومين ، قد ضرب الله وجوهَهم ، وفَتّ فى أعضادهم ، ومنح الأولياء أ كتافَهم ؛ فقتلوهم فى كلّ فجّ ، وعلى رأس كلّ تَلْعة ومَهْرب ومَسْلك ؛ أباد الله خَضْراءَهم وغَضْراءَهم ، وحصَـد شوكتهم ، وفلّ حدّهم ، وأباخ نيران(١) ضلالتهـم وكفرهم ، وشفَى منهم الصدور ، وأدرك منهم الإحَن ؛ ونَفّل المسلمين أموالَهم وذراريهم ، وجعلهم لهم خَوَلا وعبيدا ، وأورثهم أرضهم وديارهم ، وأحلّ الله بهم من البأس والنقمة والجائحة

(١) أباخ النار : أطفأها .

والظهور والغَلَبة جزاءً من الله لمن أخلد إلى المعصـية وآبتغى غيرَ سبيله المسلوكة . وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، إن الله لا يخلف الميعاد . ثم أنزل الله عزّ وجلّ من صار إلى الأمصار منهم هَرَبا، وآعتصم بالحصون، وتعوّذ بالجبال، ولاذ بالقِلَاع، ولجأ إلى الأودية، من صَيَاصِيهم، وأمكن من نواصيهم، وآستخرجهم من أوزارهم ومعاقلهـم ومتعوّذهم، وأُخذ أسيرا ذليلا منكوبا خائفا قد نخب الوجلُ قلبـه وملأ الرُّعب صدره، متوقّعا أن يُنزل الله به من النّقمات والمُثُلات مالا مردّ له عن مثله من القوم الظالمين، وفشَتْ فى الكَفَرة الجِراحات، وعضّتهم السيوف، وشُرعت فيهم القَنَا، وهرّتهم نار الحرب، وغالهم النّزال، ومارسهم الأبطال، وآستحرّ فيهم القتل، فصبر لهم الأولياء أحسن صبر، فلم يُطيقوا بالموت مَرَاما ولا على الحرب مُقاما .

فى صفة الخالعين

الناصبين لدين الله، المكذّبين بآياته، الجاحدين رسلَه، الجاعلين معه إلها، لا إله إلا هو، لطول مدّتهم، وشـدة شوكتهم، وصعوبة مرامهم، وقطعهم السُّبُل وآنتهاكهم المحارم وسفكهم الدماء التى أوجب الله على مَنْ سفكها بغـير حِلّها وآقترف وآحتمل وِزْرها، أليمَ العـذاب وشـديد العقاب، فأبَوْا إلا تماديًا فى ضَلَالتهم، وعُتُوّا فى طُغيانهـم، وثبوتًا على عصيانهم، ومُقاما على كفرهم، لأحداثه السالفة، وغوائله المتقدمة، وبوائقه المُشْجِية، فوقف مميلا بين ثكل التقـدّم وحقيقة الآصـطلام فى التأخّر، دعاهم إلى الفَيْئة والمراجعة والإنابة وقبول الأمان والدخول فى الطاعة، آسـتظهارا بالحجة عليهـم، ورجاءً لصنع الله فيهم . فلما بلغهم نزولى فيمن معى، جمع أصحابه، وضمّ جنده، وتحرز فى معسكره، وخندق على منزله، وآحترس بجُهده، فأقمت مُعَسْكَرى، وأنا مع ذلك فى كل يوم أوجّه رُسُلى وأدعوه إلى حظّه، من طاعة أمير المؤمنين والدخول فى أمانه، وأُعلمه أن له نظراءَ ممن غَمَط الطاعة، وسـفِه الجمـاعة، وقد ركضوا فى الفتنة عمـرَهم وسَـعَوْا فيه دهرَهم، فانتشر خبرهم، وكثر تبعهم، وكَبُر وِزْرهم، وثقـل وَقْرهم، ثم أذعنوا لطاعتهم، وآستقلوا

ناهضين من عَثْرتهم، ومنتعشين من زَلّتهم، فغُفِرتْ ذنوبهم، وقُبلت توبتهــم، وفُسِح لهم في أمانهم، وشَرُفت منزلتهــم، واستبدلوا بالخوف أمنا وبالذل عزّا؛ فأبى به ميل الهوى، وغَلَبة الشِّقْوة، ومستعلى الغَواية، والقدر المحارب، والقضاء المحتوم. وتقدّمتُ في موافقتهم وترغيبهم، والأخذ بالمخنق منهم، من غير قتال، ولا تناول سلاح، ولا تناوش صِيَال(١)، وعرضتُ عليهم التوبة، ودعوتهم إلى الإنابة، وأعطيتهم الأمان، وأعلمتهم أنهم إن قبلوا حمِدتهــم وأخمدتُ نار الحــرب بيني وبينهم، وإن أبَوْا إلا تماديا في غيّهــم ونكوصا على شقائهم، وَلِيتُ مناجزتهم وعرفتُ من الله الخيرة في محاربتهم، وآستعنته عليهم وآستكفيتُه أمرهم، ورجوت حسن عادته عند أمير المؤمنيــن في أمثالهم. ثم وجّهت الأولياء فنفذوا نحو عسكرهم ليلا وهم متفرّقون في رحالهم، مغترّون في أوطانهم، قد أَمِنوا خدعَ الحــروب ومكرَها ومكيدتها، ووقعــةَ البَيَات وهَوْلهــا، إلا طائفة منهــم أهل عدد وعُدّة، وبأس في أنفسهم وقوة، اتخذوا الليــل جملا، وسَرَوْا نحوَنا يرجون غِرّتنا ويأمُلون غفلتنا، فوقف جندنا بمكانهم آخذين أُهْبتهم، متمسكين بالطاعة فيما به أُمِرتهم، فأسرعتْ إليهم من أعدائهم طائفةٌ فدفعوهم عن أنفسهم، ونالوهم بجِرَاحات مع قتلى منهم عند تناوشهم، ثم نكصوا على أدبارهم، ورجعوا القهقرى على أعقابهــم إلى الباقين من سريّتهم، فاســتجاشوهم فاجاهم بالمكانفة والمؤازرة، وأقبــلوا بجمّيتهم وحَنَقهم حتى حملوا حملةَ رجلٍ واحد، وضاق الفضاء وطارت أفئدة جندنا رُعبا من حَمْلتهم، وبلغت القلوبُ الحناجرَ منهم، إلا طائفة قليلة من لواقح الحــرب ومواضي رواسخها وأشبال لِبْدتهــا، تزيّنوا بالطاعة فأمّوا حسن العاقبــة، ونصروا الدين، فوثقوا بالتمكين، آنتدبوا إليهم، ووقفوا لهم، وآزدادوا بصيرة في أمرهم، ونفاذا وجِدّا في آجتهادهم ومجاهدتهم، فثبتوا قائمين بالقسط في أحوالهم، قائلين بالعدل في أملائهم، يسألونهم الكرّة بعد الكرّة، ويَعِدونهم الغَلَبة، ويُمنّونهم السلامةَ، ويضمنون لهم الغنيمة؛ ففاءوا إليهــم، ورجعوا إلى الحق لله عز وجل عليهم، فشانعوا ساعة بالقنى

(١) الصيال مصدر صال على قرنه: سطا عليه.

بعد تراميهم إرشاقا . بالسهام فلما راى أعداء الله جِدّهم ، وعرفوا صدقهم ، وخافوا حدّهم ، نكصوا على أعقابهم ، يريدون اللَّحاق بمعسكرهم ، وتحرّك أصحابنا فى طلبهم ، ورَجَوْا سوء الصباح لهم ، فأمعنوا فى أثرهم ؛ فلما أحسوا الفساق أعطوهم الضمة وولّوا إلى ديارهم لا يلوى قريب على قريب ، ولا ذو رحم على حبيب ؛ ونالتهم القُنِىّ فدسرتهم ، وعضّت هامَهم السيوف فكَلَمَتْهم ، وحِيلَ بينهم وبين الدخول من باب عسكرهم ، فأخذوا فى غير طريقه منهزمين ، قد فل الله حَدّهم ، وقلّل كثرتهم ، وقتل عامّتهم ؛ ورجع أصحابنا إلى معسكر أعدائهم بعد التشريد والتفريق بجماعتهم ، فأحاطوا بهم فى آخر ليلتهم ، فلما رَأَوْا غفلتهم ، وأَمِنوا غِرّتهم ، وانتهزوا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون ، قارّون غافلون متفرقون ، فوضعوا السلاح فيهم ، ضرباً بالسيوف ، وطعنا بالرماح ، وضربا بالأعمدة ، وذبحا بالشِّفار ، لا يشوون من جرحوا ، ولا يُبقون من كلموا ، غير مدفوعين ولا ممنوعين ، حتى انثنت السيوف ، وتحطمت القُنِىّ وآندقّت الأعمدة ، وكَلّت الشِّفار ، وبقيت منهم عدّة يسيرة وشِرذِمة قليلة ممن لم ينله القتل ، فأخذوا أسرى ، وأُوثِقوا حديدا ، وكُبِّلوا قيودا ، وكان أوّل رأس أتانى بخبره[1] بشيرهم وأسرع به إلىّ ذو المعرفة منهم رأس[2] عدوّ الله المارق الباغى ، الشاقّ لعصا المسلمين ، ملأنى رئيس ضلالتهم ، وقائد جهالتهم ، ومستغوى جماعتهم ، فعرفته بحليته ونعته وصفته فى عدد كثير من رءوس قوّاده وأهل الفتنة وأئمة البِدْعة ، فلم يلبثوا إلا ريثما تصدّعوا فى كل جبل ونَحْر ، منهزمين هاربين ، لا يستطيعون لما أتاهم من عذاب الله دفعا ولا منعا بأيد ولا قوة ؛ ولا يلجئون إلى ركن وعصمة ، قد تشتت بهم نظامهم ، وفارقهم وجوهُهم وأعلامُهم ، فأخذهم أسرا قَسْرا قد منهم النصب ، وملأ قلوبَهم الرعب وتخرمتهم الوقائع ، ونخبتهم الهزائم ، وتحيفهم القتل ، وغلب الله عزّ وجلّ لأمير المؤمنين على حصنه الذى كان مُناف عزّه ، وموضع مَنَعته فى نفسه ، ومجتمع عدّته ، ومادّة قوّته ، فقوّضوا عساكرهم ، وأُقشِعوا عن حصنهم يَتْبَع آخرهم أوّلهم ، متحيرين متلدّدين ،

(١) فى الأصل : «بخبرهم» . (٢) فى الأصل «برأس عدوّ الله» .

أذلة خاسرين، فتفرّقوا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم . فلمـا آستحرّ القتل فيهم، وفشت الجراحات فى عامتهـم، وطحنتهم الحرب بكلاكلها، وألموا وقع حديد أنيابها ومساعرها، قذف الله الرّعب فى قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم، فولّوا منهزمين مغلولين، وركب المسلمون أكتافهم، يقتلونهم فى رءوس جبالهم، وخلال غياضهم، وبطون أوديتهم، ومقاصى تلاعهم، وفى كل ناحية من نواحيهم، حتى عجز الليل دونهم، وأعجزوهم هربا فى معاقلهم .

وفى العصاة

حتى إذا ظن أن قد عزّ بضلاله، وتحصن بمعاقله، وآستكمل قُواه، وكَثُف تدبيره، ولجأ إلى مانع منـه ودافع عنه، عطفت عليـه عواطفُ الحق بأولياء الحق وأنصـاره، ناقضين ما أبرم، ومتداولين ما سدّ، ومتوغّلين إلى غيّه ببصائرهم، وإلى باطله بحقهم، فاستُنزِل عن موضع عزّه قسرا، وأمكن الله أولياءه أسرا؛ سنة الله فيمن عَنَـدَ عن سبيله، وألحد فى دينه، ومَرَق عن الطاعة ووثائقها، وآستبدل بالحق ومنهاجه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا، ولن تجد من دونه مُلْتَحَدا ولا نصيرا؛ حتى إذا تراءى الجمعان تبرأ الشيطان من حزبه، وأرهق الله باطلهم بحقه، وجعل الفلَج والظفرَ لأوْلى الحزبين به، بذلك جرت سنة الله فى الماضين من خلقه، وذلك ما وَعَد من تمسّك بأمره وطاعته .

وفى مدح قوّاد الجيوش وصفة الأولياء فى أحوالهم

لمـا بَلا من طاعتـه، وآختبر من نصيحته، ويُمْن نقيبته، وشـدّة شكيمته، وصحـة عزيمته، وصدق نيته، وثِقَل وطأته على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين، وعلمه بمراوضة الحرب وممارستها، ومكايدة الأعداء ومواقفتهم فيها، فشمّر تشمير أهل الحِسْبة وحسن الظن بالله من غير ونْيـة ولا فترة ولا بقاء جدّ ولا آجتهاد، راجيا أن يُنْجِح الله سـعيه، ويفْلِج حجته، ويظهره على عدوّه من الآستقلال الذى حمله، والاضطلاع بما أسند إليه، والآمتثال لسيرته، والآنتهاء إلى أمره، والقبول لأدبه، والخفوف بما يستنهضه له من حروبه وأموره مثل الذى جعل عند فلان : يفضُلهم بطوله، ويطولُهم بمحاسنه، ويتقدّمهم بحسن بلائه وغَنائه،

ومواقفه ومساعيه، لم يختبره أمير المؤمنين فى جميع خصاله إلا وجده عند الاختبار والتحصيل سالكا لمناهجه، قابلا لأمره، متبعا لأثره، ساميا بهمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عند أمير المؤمنين مقدّما فى القَدْر والرتبة، مخصوصا بالمنزلة والرفعة، يرى ذلك قليلا فى كثير ما وجب بطاعته ونصيحته، فبارك الله عليه وليا ظهيرا . فأقدموا متوكّلين على الله مسلّمين لأمره صابرين على ما نالهم من اللأواء والجَهْد والتعب وكَلَب الشتاء وحمَارّة القيظ، وصعوبة المَرام من أعداء الله الكَفَرة، يرجون نصر الله وتَنَجُّز ماوعد الصابرين والمجاهدين فى سبيله من الظَّفَر والنصر والغلبة على عدوّهم، توحّد به من نصرهم وإعزازهم أن كان الله عز وجل تكفّل لأوليائه بالنصر والعزّ والحَيطة، وجعل حسن العاقبة لهم، وكَبَت من حادّهم وأخلد الى المعصية والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظَة ونَكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هى العليا وكلمةُ الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم؛ أعظمهم غَنَاءً، وأحسنهم بلاء، وأشدّهم صولة، وأقساهم نِكاية، وآمنهم سريرة، وأمضاهم عزيمة، وأربطهم جأشا، وأصدقهم بأسا، وأملأهم للأقران، وأرعاهم لوثائق الإيمان، وأشدّهم تحدّبا على السلطان، فآزره بهم، وحصّن أطراف خلافته بأيديهم، فكَفَوْه المهم وقاموا دونه بالمُلِمّ، غير مستطيلين بغَناء، ولا متعرّضين لطلب جزاء، قد تعبّدهم الوفاء، وغُذُوا بقربة الولاء؛ فإن الله جعل آباءه أعلاما فى الطاعة يَهدون اليها وأوَّليّته قادة الى سبيل النصيحة يتمسك المناصحون بآثارهم فيها، باقيا على كرّ الأيام ذكر مساعيهم، وزائدة على تصرّف الأيام حقوقهم، وباديا للعيون حميد أفعالهم، لا تتصرم الأخبار عن سالف لهم إلا وَصَلوه بحادث، ولا يتقادم لهم من بلائهم أول إلا أتبعه آخر. ففلان يجرى فى أمره على منهاج قد أوضحوه له، ويسلك فى الطاعة طريقا قد سهّلوا له مذاهبه، ويتمسك بعُرًا وثيقة قد رأى آثارها على من تقدّمه، والله محمود. ولم يزل الله يعرّف أمير المؤمنين فى كل ما أسنده الى فلان من أعماله وقلّده من أموره، المبالغة فى قضاء الحق عليه ويُمْن النقيبة فيما يتولّاه، والاجتهاد فى كل ما قرّبه من الله وخليفته . وأمير المؤمنين يحمد الله على ما يخصّه

به من نعمتـه ، وإياه يستعين على قضاء حقّه ، إنه سميع قريب . فإن كتابك ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلّع اليه منك ويؤمّله عندك ، ويرجو أن يوفّقك الله فيه لرشدك ، ويُؤْثِرك منـه بحظّك ، للذى كان يبلغـه وينتهى اليـه من خبرك ، فى أحوالك وتصرّفك فى خصال الخير ، وتنقّلك فى درجتها ، مساميا لاهـل الفضل فى مراتبهم ، متزيّنا بصالح أفعال الملوك فى قصد سيرتهم ، وحسـن طريقتهم ، ولين أكنافهم . فحقّق الله ظنه بك ، وأجاب دعاءه لك ، وبلّغ بك أمنيته ، وأعطاه فيك رغبته . وكنت فيما هُديتَ له بانقيادك إليه راغبا ، ودخولك فيه محتسبا ، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة ، وأفضلها ذخيرة ، وأعلاها درجة ، وخيرها عاقبـة ، وأعمّها سلامة ، وأمنعها كهفا ، وأبقاها شرفا ، وأعدلها حكما ، وأطولها سلما ، مستحقا بذلك على الله عز وجل زيادة المُلك فيها ، وبهاء الثروة ، وآنبساط القدرة ، وآتساع المملكة ، وظهور الغَلَبـة وعزّ التمكين ، والنُصْرة فى الدار التى حُبيت فيها بقليل ما ترجو أن تصير اليـه من ثواب الله عز وجل وحسن مجازاته بالنعيم المقيم فى دار الأَمَد ، ومحلّ الأبد ، بمـا لا يَبلغه إحصاء ، ولا يكون له آنتهـاء ، وملأه فرحا وآبتهاجا ، وسرورا وجذلا ، ورجاء لك من الله عز وجل حسن عونه وتوفيقـه أن يغلب لك على حظّك ، وأن يأخذ إلى تقواه بقلبك ويجعل فيما عنده رغبتك ، والى ذلك سموّك وهمّتك . وليس ينفكّ أمير المؤمنين مقتفرا فيك أثرا يَحمَده ، ومتصفّحا بخبر يَبْهجه ، ومستحدثا نعمةً من الله عز وجل يرجو آتصالها وآتساقها لديه بك ، حتى يتناهى الى الدرجة العليا ، والغاية القصوى ، فيما [يبتغيه](١) من آجتثاث أُرومة الفَسَقة وقطع دابرهم . وبالله الثقة والحول والقوّة ، متعرّفا من الله فيما فارقه من جهاد عدوّه أتمّ مصادق وعد القائمين بحقه ، الصابرين فى جنبه ، وأحسن ما أبلى ، ذائدا عن حريم ، ومحصّنا لبيضـة ، ومدافعا عن ملة ، فشـمر شاريا لله نفسه ، طارحا عنه لباس الغفلة ، متجافيا عن مِهاد الوطْأة ، وليس تدخله الخلّة والوحشة على من كنت قريبا منه ، ولا يمتنع لأمير المؤمنين طَرَف أنت فيـه ، ولا أمر يُعين عليـه ويتمسك بسبب من اسبابه .

(١) بياض فى الأصل والسياق يقتضى ما أثبتناه .

وصف الأولياء فى الكتب

وصار أهل السُّمُوّ الى الدرجة العليا، والاعتصام بالعروة الوُثْقى، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، مُنْشرحةً صدورُهم بمكانفته، مُنْبسطةً أيديهم بمعاونته؛ وقسم لأمير المؤمنين من أولياء دينه وأنصاره، قومٌ آزرهم بالنصر، وكَنَفهم باليقين، وألّف بصائرهم على الحق، وأيّدهم بمؤيّدات التقوى؛ فلمّا أمرَهم أطاعوا أمرَه، ولمّا فرَضوا فى ذات الله طاعتَه، فرض الله نصرهم وتمكينَهم، فجاهد مُجاهدُهم مُسْتَبْصِرًا مُحْتَسِبا، وقام قائمُهم بالحق عليه مُخْلِصا مُجْتَهِدا؛ وقادتْهم طلائعُ الدين ودواعيه أرسالا قُدُما، فاتَّبعوا سبيله لا ناكلين عن إقدام، ولا مُتَوَقّفين عن آرتياب، ولا مُتَهَيّبين، مع دخائلهم وبصائرهم، عدوا ولا عنادا؛ طالبين بثأر الدين بُغاتَه، وبطوائل الإسلام عداتَه: من صنوف أمم الكفر ومَرَدة النفاق وأئمّة المُلْحدين؛ متقلّدين للحق ونُصرته، ولئن تُمِّم الحقّ بهم ومضى، ولإن مع الحق مَن نَكَث عنه بألسنتهم وأيديهم، حتّى فتح الله عزّ وجلّ لأمير المؤمنين معاقلَ الشِّرْك وأُمَمَه، وأناخ الباطل وأركانَه، وأعلامَ البِدَع وأتباعها، فَضْلًا من الله ونِعْمةً، والله عليمٌ حكيم؛ إن هزَزْتَهم قطعوا قَطع الحُسام، وإن أجريتهم فى عظيمةٍ وقعوا وقعَ الجياد، وإن استغنيت ودام الغناء لك عن جميع العاملين، كانوا رصدًا لك فوق أعناق الحاسدين.

ما يُقرّظ به أميرُ المؤمنين فى أواخر الكتب

لِيعرِفوا موقعَ نعم الله عند أمير المؤمنين، يَحوطه به فى أوليائه، من النصر والتمكين، وعلى أعدائه من الوَقْم(١) والتوْهين؛ ويشكر الله على النعمة فى ذلك، إن الشكر مُحَصِّن للنعم، وأمان من الغِيَر، لِتحْلُوَ مواقعُ النعمة عليهم، فيما يجمع الله بأمير المؤمنين من كلمتهم، ويَحُوط من حَريمهم، ويُحِلّ من بأسه ونقمته بمن صدف عن سبيله وحاول تشتيت جماعتهم وتوهين حقّهم، ويقابلون ذلك بما تُرْتبط به نعمُه، ويُسْتدرّ مَزيدُه.

(١) الوقم: القهر والذلة.

سعيد بن حُمَيْد

ليشكروا الله على ما منح خليفته من هؤلاء المُرّاق الخارجين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للمَزيد .

٣ — التحاميد فى أواخر الكتب

تحميد لسعيد بن نصر فى آخر كتاب فتح له

الحمد لله المعز لدينه، المُظهر لحقه، المؤيد لأوليائه، الصانع للإسلام وأهله، الناصر لخليفته، الحافظ لما آستحفظه، المتوحد بالنعمة عليه فيما حمله .

تحميد لإبراهيم بن العباس فى آخر كتاب فتح

فالحمد لله المُزيل لما يمهّد المبطلون، ويمكر به الماكرون، ويكيد به الملحدون، تمكينا لعبده وخليفته، وذَبًّا عن دينه وحقه، وإظهارا لأوليائه وحزبه، وإمضاءً لعزائمه وقدرته، منعما قادرا، ومُمْليا ممهلا، عدلا اذا آستدرج، متفضّلا اذا أنعم، حمدا يُستنزَلُ به نصرُه، ويُبْلَغ به رضوانه، ويُمتَرَى بمثله فواضل مَزيده .

تحميد فى فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع محامده التى حُمد بها، على جميع آلائه وجميل بلائه، فيما ولى به خليفته، ونصر به دينه، وأقام به حقه، وأعزّ به وليّه، وقمع به من ألْحدَ عن سبيله، حمدا يؤدّى حق نعمته، ويوجب به أفضل مزيده بمنه وطَوْله .

تحميد لأبى عبيد الله فى آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأمير المؤمنين فى دولته وسلطانه، ولعامة المسلمين من صنعه وكراماته، فى جسيم الأمور ولطيفها، وخاصها وعامها، بما يجعله للنعمة تماما، وعلى ما يحل بعدوّه من بأسه وقوارعه، ويوقع بهم من جوائحه وآستئصاله، ما يكون لموعوده إنجازا، حمدا يبلغ رضاه ويستوجب مزيده .

تحميد آخر

الحمد لله الذى تمّم لأمير المؤمنين نعمته، وأكمل دعوته، وجعل العاقبة فيه لمن آختاره لخلافته، وردّ اليه من شذّ عنه من رعيته، وأتى أمير المؤمنين بصنعه على حدّ نيّته وقدر أمنيته، ولم يفل رأيه ولم يخلف ظنه، حمدا كثيرا دائما بما يزكو عنده فيتقبله، ويرفع اليه فيبلغ رضاه، حمدا يكون لأسبغ نعمه جزاء، ولأفضل إحسانه كفاء، وللمزيد من فضله وإحسانه موجبا، والى أعلى الدرجات عنده مؤدّيا، وللخلود فى جنته وسيلة وسببا .

آخر :

الحمد لله الذى جمع لأمير المؤمنين ما حبّاه بمزية نصره وتمكينه وإعزازه وتأييده، وإظهاره على من ناوأه وصدّ عن حقه، وصدف عن طاعته، ووفّقه لآختصاص فلان بما وكّله اليه وعصبه به من أعباء أموره وجلائل أعماله، وأجرى بفلان وعلى يديه وبركته وسعادة جدّه ويمن طائره، من تتابع الفتوح، وتواتر النصر، وإقبال الصنع، وإعلاء الحق وإنارته، وإزالة الباطل وإبادته، حمدا يؤدّى حقه، ويرى عزه[1]، ويمير من أحسن مزيده، بكرمه وجوده .

آخر :

الحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بالخلافة، وخصّه بالإمامة، وقلّده من أمور عباده وبلاده ما تولاه بكفايته وكلاءته وتأييده وحياطته، حمدا يوجب المزيد من فضله .

ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذى أنجز وعده، ونصر عبده، وأيّد جنده، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا وغربا مشفوعة بين اقامة حق وإدالة باطل وإزالة عائد وإبادة عائد وإقالة[1] مستقيل . ويسأل الله أمير المؤمنين، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة اليه متذللا له أن يصلّى أفضل صلواته عنده على أكرم أنبيائه .

(١) سقطت فى الأصل كلمات فاثبتنا ما يقوم مقامها .

دعاء أمير المؤمنين فى الكتب والدعاء له

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه ، أن يكنفه فيما حبَاه وآستحفظه عليـه بأفضـل تأييـده وأعزّ نصره، وأن يهب له مع كل نعمة يجدّدها له حارسا من شكرها، يتابع به أفضل مزيده، فإن النعمة منه، والشكر بتوفيقه، والمزيد لمن شكره .

وأمير المؤمنـين يسأل الله ربه وربكم وولىّ النعم عليه وعليكم، أن يُلهمه وإياكم أداء حقّه وشكر نعمته وحمده عليها، ويطوّقه وإياكم أفضـل الأعمال وأرضاها عنـده وأشدّها استيجابا لمـا وعد الشاكرين من مزيده؛ إنه سميع قريب .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى ولّاه خلافته وأعلاه بهـا، أن يطوّقه ما حمله، ويلهمه العـدل بين رعيته ، ويلهمهم نصيحته وطاعته ، ويُصلح أمرهم به فى ولايته وخلافته . ويرغب الى الله الذى أيّده بنصره ومكن له بغير حول منه ولا قوّة ، أن يلهمه وإياكم شكره وذكره وخشيته، ويشـمله وإياكم بطاعتـه ومَرْضاته ومحبته، وأن يعرّفه وإياكم الزيادة فى نعمه والنصر على عدوّه والتمكين فى بلاده؛ إنه ذو فضل عظيم .

والى الله يرغب أمير المؤمنين فى إعانته على نيته وتبليغه منتهى سؤله وغاية همته وإعزاز دينه وإذلال من صدّ عن سبيله؛ إنه سميع قريب . وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدعاء تطوّلا وتكفّل بالإجابة حتما، فقال : ﴿أُدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أن يجمع على رضاه أُلفتكم وأن يصل على الطاعة حبلكم ، وأن يمتعكم بأحسن ما عوّدكم من مِنّنه ، ويُوزعكم عليها من شكره ما يواصـل لكم به مزيده ، وأنْ يكفيكم كيـد الكائدين، وحسد الباغين؛ ويحفَظ أمير المؤمنين فيكم، أفضلَ ما حفِظ به إمام هـدًى فى أوليائه وشيعته؛ ويحمل عنـه ثِقلَ ما حمّله من أمركم؛ وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوى من جزائكم بالحسنى، وحَمْلِكم على الطريقة المُثْلَى، وبه يرضى لكم ناصرا ووليّا، وكفَى بالله وليّا وكفى بالله نصيرا .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين، أن يُحْسِن على صلاح نيته عوْنه، وأنْ يتولّاه فيما آسترعاه، ولايةً جامعة، لصلاح ما قلّده، إنّه سميع قريب .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين الذى بيده مفاتيح مقاديره وفواضله ، أن يُصلّى أفضل صلواته على أفضل أنبيائه ، وأنْ يجعل ما ادّخر لأمير المؤمنين الى دولته وخلافته ، وحباه به من وسائل الخير عنده ، أن يجمع الى أحسن توفيقه لما يرضَى من شكره وحسن معونته على ما أصلح له ربه ، فإنّه شاكر يحبّ من شكره ويوجب لمن وُفّق لشكره مزيدا بمنه وطَوْله وفضله وإنعامه ، إنّه جواد كريم .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين مُبْتدئا ومُعَقّبا وأوّلا وآخرا ، وقبل كلّ مسألة ، وأمام كلّ رغبة ومُقدّمةً كلّ طِلْبة ، أن يصلّى على صفوته من عباده وخير خلقه وخاتم أنبيائه ورسله ، محمد عبده ورسوله ، أفضلَ صلواته ، ويباركَ عليه أكثرَ بركاته ، وأن يديم له كرامته ، ويُجْرِىَ عنده على أجمل عاداته ، وأن يتمّ له ما آختصّه به من إحسانه ، حتّى يملأ الأرض عَدْلا وقِسْطا ، والإسلام تأبيدا وعزّا ، والشرك ذُلّا وقَمْعا ، إنّه ولىّ نِعْمته ومُنْتهى كلّ رغبة ، وغايةُ كلّ حاجة ، وهو على كلّ شىء قدير .

وأمير المؤمنين يقول : الحمد لله طاعةً لأمره ، وآعتصاما من الفتنة بشكره ، وآستدامةً لنِعَمه المتزايدة عنده (١) ، إنّه سميع قريب .

وأمير المؤمنين ، يسأل الله السامعَ كلام مَن جهرَ ، والعالم بغيب من أسرّ ، المطّلع على ضمائر العباد ووسوستهم ، والمُسْتَنْقِذَ مَن يشاء برحمته ، والمُمْتنّ على من يشاء بقدرته ، أن يجمع على الحقّ أهواءكم وينصركم على أعدائكم ويُصْلِحَ ذاتَ بينكم ولا يَكِلَكم فى مَوْطن من مواطن اللقاء ، والتحاكم والتناجز ، إلى أنفسكم ، ويكفيَكم ويكفىَ بكم إنّه سميع قريب .

الدعاء لأمير المؤمنين فى أواخر الكتب

ونسأل الله أن يَهْنأ أميرَ المؤمنين ما صنع له ، ويُعينَه على شكر ما أولاه ، إنّه ولىّ ذلك وإنّا اليه فيه راغبون والسلام .

---

(١) فى الأصل المنازل ، وما أثبتناه صحيح .

ولـــه :

ونسأل الله أن يَهْنأ أمير المؤمنين الكرامات التى يُتابعها ، والنعمُ التى يظاهرها عليــه ، والفتوحَ التى جعلها فى خلافته ، وولايته ودولته ،ويهَب له من المعرفة بحقّه فى ذلك والشكر له بحسن بلائه فيــه ، ما يبلغ أعظم رغبة وأقصَى أمنية ، من ذخائر الخير وفضيلة الأجر وحسن الثواب فى الدنيا والآخرة .

أسأل الله لأمير المؤمنين فى غابر أموره ، أحسنَ ما عوّده فى سالفها ، من السلامة التى حرسه بهـا من المكاره ، والعزّ الذى قهر له به الأعداء ، والنصر الذى مكّن له فى البــلاد ، والهــدى الذى وهب له به المحبّــة ، والرفقِ الذى أدرّ له به الحَلَب ، والاستصلاح الذى آتسقت له به الرغبة ، حتّى يكونَ بمـا أعطاه من ذلك ، وما هو مُستقبَل به ، أبعدَ خلفائه ذكرا ، وأبقاهم فى العدل أثرا ، وأطولَهم فى العمر مُدّة ، وأحسنَهم فى المَعاد مُنْقلَبا .

أسأل الله لأمير المؤمنين نِعْمة لا تزول ، وكرامةً لا تنفَد ، وعزّا لا يضام ، ونصرا لا يغلب ، وكفايةً ينتظم بها جميع الصلاح ، حتّى لا يكون بأوّل من ذلك أسعدَ منه بآخر ، ولا بماض أسرَّ منه بمستقبَل .

أسأل الله لأمير المؤمنين فى عاقبة كلّ نِعمة أفضلَ ما وهب له فى عاجلها ، حتّى يجعل كلّ نعمة أنعم بها عليه ، وكرامة حازها له ، موصولةً بالتمام ، محوطةً بالحفظ ، مكلوءةً من الغِيَر ، ممــدودةً الى طول غايات البقاء ؛ لا يشوب صفوَها كدر ، ولا سلامتَها غِيَر ، ولا سرورها تنغيص ؛ وهَنأ الله أميرَ المؤمنيــن الظفَر ، وأدام له عادةَ النصر والتمكين الموضحَ ، وحُجّتــه المُدْحِضَة لحجــة أعدائه ، والغَلَبة المُظْهِرة لحقّه ، المُجتاحةَ لمن خالفه ؛ ثم لا برِحت نعمة الله راهنة بمثله فى الأولياء نَصْرا ، و فى الأعداء إباحة ، وفى الناكثين تنكيلا .

سر الله أميرَ المؤمنين بمـا أهدَى له من كِفايته ، وحاطه به من منَعته ، وأيده به من نصره ، وجعله وما استرعاه من دِينه وسُلطانه ، فى كَنَفه الذى لا يُسْتباح وتحت يده المـانعة وجَناحه المحفوظ .

أدام الله لأمير المؤمنين السرور بما يُقْذِى به عيون أعدائه فى تمكينه وتوهينهم، ونَصْره وخِذْلانهم، وإعزازه والمجاهدة لهم؛ ولا زالت نِعمَة الله تَزيده فى قوة الظفَر، وعزّة النصر، وتَفِد من آفاق الأرض بالبشارات والفتوح، حتّى تملأ له ما بين طرفَىْ مُلْكه أمْنا وعزا، ويملأ به قلوب أعدائه خوْفا ورعبا، ويَعِدَهم على خلافه سطوة وتنكيلا .

أحمد بن يوسف

وهَنّأ الله أمير المؤمنين نِعَمه، ومَلاَّه كرامته، وأوْلى له فُتوحه، وأدام إعزازه، وتولّى حياطته وكِفايته، فيما دَنا منه وما غاب عنه، وأطال بقاءه والامتناع به .

مختار ما كتب من باب التهانى فى كلّ فن

تهنئة خليفة بظفَر

الحمد لله الذى جمع لأمير المؤمنين مع الغَلَبة الحُجّة، ومع الظفَر المعذرَة، وجمع لعدوّه مع الذل السطْوَة، ومع دُحوض الحُجّة النَّكال؛ فلم يجمعه والناكثين مَوْطِنٌ من مواطن الصبر، إلّا جعل الحُجّة عليهم فيه، ولسانَ العذر فيه معه، ويَدَ الظهور فيه له؛ ثم وهب له عند الظفَر من الشكر، وعند الفلَج من التواضع، وعند القدرة من العفو، ما جعله مُسْتَوْجِبا لما أَصْفاه به، مُعترفا بأنّ العذر مُنْقطع ممن نكبه، وأنّ مُسْتَراد الحُجّة ومَطْلب السلامة، فى التمسك بطاعته ومناصحته، والمُجاهدة دُونه .

وفى مثله :

أدام الله لأمير المؤمنين السرور بما يُقْذِى به عيون أعدائه .

وكتب ابراهيم بن المهدىّ الى المعتصم يهنّئه بخروجه عن أرض الروم بعد فتح عَمُّوريّه

الحمد لله الذى تمّم لأمير المؤمنين غَزْوته، فأذلّ بها رقاب المشركين، وشفَى بها صدور قوم مؤمنين؛ ثمّ سهّل الله له الأَوْبة سالما غانما، وكذا وكذا؛ وليَهْنئه ما كتب الله له، مما

أحصاه فلا ينساه، ليقفه به موقفا يرضاه، فإنّه عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية ، فطوى الله لأمير المؤمنين نازح البُعْـد برّا وبحرا، ووقاه وَصَب السفر سهلا ووَعْرا، وحاطه بحراسته كالئا، ودافع عنه بحفْظه راعيا؛ حتّى يُؤدّيه الى المحلّ من داره، والوطن من قَراره، وجزاه عن الإسلام خاصّة، وعن رَعيّته كافّة، بتخيّره مُستخلفا عليهم، وقائما مُقامه فيهم هرونُ ابنُ أمير المؤمنين؛ فقد آستخلفه رَفيقا شَفيقا، حليما وَقُورا، يقظانَ ساكنا؛ لم يُشَذَّب عليه أمر، ولم ينْتشر عليه طرْف، ولم يَضِع معه سبيل، ولم يُسْخط وليّا مُكانفا، ولا عدوّا مخالفا، بلا سيف أشرعه، ولاسور أقرع به؛ فمثّل جزاء أمير المؤمنين فى تَخيُّره إيّاه، بجزاه الله على ما حفظ من وَصاته، على محمود مُقامه، إنّه مجيب الداعى .

وكتب أحمـــد بن يوسف الى عبد الله بن طـاهر يهنّئـه بظفر

بلغنى — فتح الله عليك — خروجُ ٱبن السرىّ اليك، فالحمد لله الناصر لدينه المُعزّ لوليّه وخليفته على عباده، المُذلّ لمن صد عن حقّه ورَغب عن طاعته؛ ونسأل اللهَ أن يُظاهر النِّعمَ ويفتحَ بُلدان الشِّرْك به؛ والحمـد لله على ما وَالاك منـذ ظعنتَ لوجهك، فإنّا نتذاكر سيرَتك فى حَرْبك وَسِلْمك، ونُكثِرُ التعجُّبَ لما وُفِّقتَ له، من وَضْع الشـدة واللّيان بموضعهما، ولا نعلم سائر جُنْد ولا رَعيّة عُدل بينهم عدلك، ولا عفا بعد القدرة عمّن آسفه وأضغنه عفوك .

تهنئة خليفة بحجّ

أصـلح الله أميرَ المؤمنين وأراه من الزّيادة فى نِعَمه، ما يكون تماما لما ابتدأه به من فضله؛ والحمـد لله على ما خَصّ به أميرَ المؤمنين من كرامته، وأعطاه من الفضل فى نيّته، وجعله يستعين على دِينه، بما بَسَط له فى دنيـاه، ويَحْمل على بدنه النَّصبَ فيما يتقرّب به اليه؛ فيجْفُو عن دَعَته على لِينها، ويشخَص عن طُمأنينته على فضلها، إيثارا لآخرته، وأداء لحقّ ربّه؛ بادر له بذلك ليُكْرمه به ، ثم يستعمل فيه نفســه، تقرّبا اليه، فيسعْده بالإذن

فى ذلك حين كان منّ الله له ، وبالعمل فيــه حين كان لله منــه ؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له ، دليــلا على قبوله الخير عنه حين يعمَــل لربّه ؛ وكان من ذلك ما أذن الله لأمير المؤمنين فى زيارة نبيّه صــلى الله عليه وسلم العامَ ، وموافاةِ مَشاعره العظام ، فى وقتها من الأيام ، التى لا تواتى إلّا معها ، ولا تكون مناسكة إلّا فيها ؛ فكتب الله له فى ذلك الآثار الصالحة والأعمال المبرورة ، فدخل فى الإحرام له بتعظيم حقّه ، وخرج منه بقضاء نُسُكه ، أجرا عَقَدَه الله عليه فى ٱبتدائه ، ثم أتمّه له باستيفائه .

ولمحمد بن مكرم تهنئةٌ لحاجّ

بَلَّغَكَ الله الرِّضا فى أَمَلك من نُجْح كلّ حاجــة وإبلاغ كلّ أُمْنِيَة ، وتَقَبُّــل كلّ دعوة خَصَصْتَ بها نفســك أو عَمَمت بها أحدا من أهلك ، فى مجامع وفوده ، ومُعْتَرَل قراره ، فكنت شافعَ مَنْ شاهدك ، ووافدَ مَنْ غاب عنك ، يَسْتفتح بدعائك ، ويُرَجّى بركةَ مَحْضَرِك ، والقُرْبة الى الله عزّ وجلّ بفضل جاهك .

تهنئــــة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية ، لنا خاصا وإلينا واصلا .

آخــــر :

ولم تَتَخَطّنى النعمةُ إذ أصابتك ، ولم تَتَعدّنى إذ دَخَلتْ بك ، ولم أخلُ من لازم شُكْرها ، وما يُنَفِّلُك الله منها ، إذ قُلِّدتها ، اعتــدادا بكل ما طُوِّقتُ من المِنَن ، وإيجــابا على نفسى ما حملت من الشكر .

ولسعيد بن حُمَيد الى بعض إخوانه

سرَّك الله بتتابُع نِعَمه ، وترادُف إحسانه ، وزادَكَ من فواضل أقسامه . بلغنى ـــ أكرمك الله ـــ ما وهب الله لك من سُلطانك ، فقوّاك الله على ما اســترعاك . ورزقك الشكر على ما أولاك .

وفى مثل ذلك :

أكمل الله لك السعادة ، وزادك فى الكرامة ، وخصَّك بدوام النعمة . بلغنى ما وهب الله لك من سلطانك ، فسُررت به ، وسألتُ الله إتمام نِعَمه عليك فيه بتأييدك ، وتوفيقك للعدل فى سِيرتك ، وغَرْس المحبّة لك فى قلوب رعيتك ، وأن يُعينك عليه ، ويرزقك السلامة فى الدين والدنيا .

وله فى مثله :

أنَا أُهنِّئُ بك العمل الذى وُلِّيته ، ولا أهنِّئك به ، لأنّ الله أصاره الى مَن يُورده موارد الصواب ، ويصـدره مصادر الحجة ، ويَصُونه من كل خَلَل وتقصير ، ويُمضيه بالرأى الأصيل ، والمعرفة الكاملة ، قرن الله لك كل نعمة بشكرها ، وأَوْجب لك بطَوْله المَزِيدَ منها ، وأوزعك من المعرفة بها ما يَصُونها من الفِتَن ، ويَحُوطها من النقص .

آخــر :

قد وُلِّيتَ من العمل ما أسأل اللهَ عزّ وجل أن يرزقك بركةَ بدئه وعاقبتـه ، ويُعطيك الرضا ممن وَليت له وعليه .

آخــر :

هَنَأَكَ اللهُ هذه النعمةَ المقبلة ، الدالّ أوّلها على تمامها ، واوزعك شكرها .

آخــر :

أسـعدكَ اللهُ بهذه الولاية وجعلها مباركة ، تنتقل بظلّ السلامة منها ، ونَيْل الكفاية فيها الى أَمَلك بنهايته ورجائك بغايته ، ورزقك السلامة ممن وَليتَ له وعليه .

آخــر :

سرَّك الله بما جدَّد لك من هذه المنزلة ، ونَفَعك بهذه الولاية ، وأرضى عنك من وَليتَ له ومن وَليتَ عليه .

وكتب محمد بن مكرم الى أحمد بن دينَار :

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاضَ من جميل أَثَرك فيما تَلِي من أعمالك، وزَمِّك إياها بحَزْمك وعَزْمك، وآنتياشك(١) أهلَها من جَوْر مَنْ وليهم قَبْلك، وسرورهم بتطاوُل أيّامك والكَوْن فى ظلّ يدك وجَناحك، فى إعانة مَنْ تَخُصّه وتعمه نعمتك، وتحول به الحِوَلُ حيث حالت بك؛ فالحمد لله الذى جعل العاقبة لك، ولم يردُد علينا آمالنا فيك منكوسة، كما ردّها على غيرنا فى غيرك . ولَوَدِدْتُ أنّ أباك كان عاين آثارك هذه ومناقبك، وإن كان الآفتراق لم يقع بينكما حتى علم أنك خَلَفُه، وألقى اليك بأمره ومعاقد ثقته، وجعلك مَوْضع آختصاصه وأَثَرَته، وصَرَف ذلك عمّن كان لا يستحقّه، وذمّ سالف رأيه فيك وفيه وحَمِدَ آخره، ثم نعمة آتصلت لك بما قَبْلها، انتظمت بها أمورُك فاعتدلت، وتلاحمتْ عليها وآتّسقت، ما منحت فى كاتبك، ومُستقرّ ثقتك، وحامل أعبائك، من الكفاية والنصيحة، ووضعه عن قلبك مؤونة التهمة والقصّ لأَثَره، وإدخاله راحة الطُّمأنينة اليه وروح الثقة به، لا كما ابتُلِيَ أخوك، فإنّه صحبه نخلط عليه أمرَه، وأفشى أسراره الى صاحب بَريده، فأنغل ذلك بينهم، وقَطّع حِبالهم، حتى هَجّنت آثاره مع حُسْنها ووضوحها، وصَفِرتْ يده من حظّ عمله، ولَزِمه الذمّ من أهله؛ فهذه كُتُبه إلىّ، فى آطّراح نصيحة له كانت فيه، ويسألنى أن أُشْخِص اليه كاتبا يَحْمل ثِقَلَه، ويفتح له ما أرتجه من أمره . وهذا من سعادة جَدِّك، ويُمْن طائرك، وإقبال الأمور اليك، وسَعْيها على طريق مُوافقتك، وهنيئا هَنَاكَ الله نِعَمَه خاصّها وعامّها، وأوْزَعك شكرها، وأوجب لك بالشكر أحسنَ المَزِيد فيها .

تهنئة بعزل

كَتَب رجلٌ الى مالك بن طوق لمّا عُزِل عن عمله :

أصبحتَ والله فاضحا مُتْعِبا : أما فاضحا فلكلّ والٍ قَبْلَك بحسن سيرتك، وأما مُتْعِبا فلكلّ والٍ بعدَك أن يلحقك .

(١) انتياشك أهلها : استنقاذهم .

فصـــــل

سواء علينا أُوليت أم صُرفت، إنّا لنشهد بك الولاية ، بمـا بَسَط الله من يدك ببذْل العُرْف ، ونهنّئك بالعَرْف بما يلحقك من ثناء ما أسلفت من الجميـل ؛ ولا نخاف عليك أن تفارق عمـلا وأنت محلٌّ له ، ولا أن تَصْحبه وليس به فاقةٌ اليـك . فهنّأك الله النعمة ، وأعانك على الشكر، وأيّدك بالمزيد .

تهنئة بعـــزل عامل عن عمـله

بلغنى صَرْفُك، فخارَ الله لك، وهَنَأك لطيفَ نظره وجليـلَ إحسانه، فإنى أرى الرجلَ عند خروجه من العمل سالمـا نقيّا من مأثمه ودَنَسـه، أَوْلَى بالتهنئة منه عند دخوله فيه ، وأرى الدعاء له عند بدء تَلَبُّســه به بالخلاص منه مَعْصوما بَريئا من تَبِعَاته.ورواجع آثامه، أولى بمن عُنِيَ به وأحبّ صلاحه، ولذلك قدّمتُ تهنئتك .

ولسَعيد بن حُمَيد فى مثله الى بعض إخوانه :

حَفِظك الله بحفظه، وأسبغَ عليك كرامته، وأدامَ اليك إحسانه . إنّ سرورى بصرفك، أكثرُ من سرور أهلِ عَمَلك بما خُصّوا به من ولايتـك . وقد كنتَ — أعزّك الله — فيما يُرْبأ بك عنه ، بما أنت عليه فى قَدْرك وٱستئهالك؛ ولكنّا رَجَوْنا أن يكون سببا لك الى ما تستحق، فطِبْنا نفسا بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سلّمك منه، ونسأله تمامَ نِعَمه عليك وعلينا فيـك، بتبليغك أمَلَك وآمالَنا فيـك، وشـفاء ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب؛ ثم خصّك الله بجميل الصنع، وبلّغك غاية المؤمّلين . إنّ من سعادة الوالى — حفظك الله — وأعظم ما يُخَصّ به فى عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم، ونوائب الدنيا وشرها، والعاقبة ممـا يُخَاف منهـا؛ وقد خصّـك الله منهـا بمّنه وطَوْله ما نرجو أن يكون سـببا لك الى نَيْل ما تستحِقّ من المراتب . والله نسأل إيزاعك شُكرَ ما منّ به عليك، وتبليغَك غايةَ أملك فى جميع أمورك، برحمته وفضله .

آخـــر :

ما أحسنَ ما كَشَفَتْ عنك الولاية ، وأجمَل ما أبرز منك العمل ، قد كسبك الله حَمْد ولايتك وعَزَل عنك لائمتها ، بما آنتشر عنك من عَدْلك ، وظَهَر من معروفك ، فاذا ساءك هذا فَلْيَسْرُرْك .

وكتب محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر :

الحمــد لله رب العالمين حَمْدا يَحُوز حمدَ الحامدين ، الذى جعل قضاءه خِيْرة لك ، فإن زادك نعمة وفّقك لشكرها ، وإن آمتحنك ببلْوَى من نَفْث حاســد أو كَيْــد كائد ، أنار برهانك وأفلج حُجَّتــك وجمع بين وليّك وعدوّك فى الشهادة لك ، وإن نَقَل أمرا عن يدك ، فربّما يَرْجعه اليك مختلّا لفقدك . هذا الى ما جعل عندك من خواصّ النعم التى إن ذكرناها فأطنبنــا أو تجوّزنا فقصّرنا ، كان غايتنا الى الحُسُور دون مَدَى غايتك . وقد زادك الله بهذا الحادث فضــلا عظيما ، لمــا ظهر من وَلَه العامة اليــك وتطلّعها الى ما كانت فيه : من لِين إنصافك وكريم أخلاقك ، ووَحْشــة الخاصّة لمــا فَقَدَتْ من حُسن مُعاملتك وكثير تفضّــلك . وأيقنَ أهلُ الرأى والتأمّل لصفّحات الأمور ، أنّ كلّ ما خَرَج عنــك فعــائد اليــك ومتصل به غيرُه ، حتى تستقرّ فى يدك عُرَا الأمور ومعاقدها ، وتُفتح برأيك وتدبيرك أبوابُها ومغالقُها ، فَلْيَهْنِكَ أنّ كلّ ما زاد غيرك نقصا زادك فضلا ، وكلّ ما نقص من الرجال وحطّها ألحقَ بك شرفا . فزادك الله وزادنا منــك ، وجعلنا ممن يَقْبَلُه رأيك ، ويقدّمه آختيارُك ، ويَقَعُ من الأمور بموافقتك ، ويجرى منها على سبيل طاعتك .

وكتب سعيد بن حميد الى بعض إخوانه :

جعلنى الله من السوء والمكروه فِداءك ، وأطال فى الخــير والسرور بقاءك ، وأتم نِعَمه عليك ، وأحسنَ منها مَزِيدَك ، وبلّغك أقصى أُمنيتُك ، وقدّمنى أمامك ، وقد بلغنى ما آختار الله لك ، فسُررتُ من حيث يغتمّ لك مَنْ لا يعرف قدرَ النعمة عليك ، ولا يراك بعين آستحقاقك .

ولئن ساءنى ما ساء إخوانَكَ من عَزْلك، لقد سرّنى ما يَسَّر الله لك . والحمد لله الذى جعل انصرافك محمودا، وقضى لك فى عاقبتك الحُسْنى، وأقول :

لِيَهْنِك أَنْ أَصْبحتَ مُجْتَمعَ الحمد * ورَاعِى المعالى والمُحَامى عن المجدِ
وأنّك صُنتَ الأمرَ فيما وَلِيتَــه * ففرّقتَ ما بين الغَوَاية والرُّشْــد
فلا يَحْسَبِ الباغونَ عَزْلك مَغْنما * فإنّ الى الإصـــدار عاقبةَ الوِرْد
وما كنتَ إلّا السيفَ جُرِّد للوَغَى * فأُحْمِدَ فيهــا ثم رُدّ الى الغمْــد

وقد قال الأوّل :

فمن يكنْ بورود العَزْل مُكتئبا * فإننى بورود العـــزْلِ مسرورُ
بعدَ الولاية عَزْلٌ يســتبين به * طَوْلُ الوُلاة وبعدَ العَزْل تأمير

أما ما عنــدى مع تصوّر العاقبــة لك فى نفسى ، فيَمَسّنى فى أمرك فى حال المحنــة ما يخصُّنى منه فى وقت تجدّد النعمة . وبحسب ضميرك الشاهد على ما عندى ما أجده لك فى نفسى . فلا زلتَ فى نعَمٍ متتابعة متجدّدة، ولا عَدِمتَ الثروة والزيادة، وبلّغك الله أقصى أملك ، وأمل أخيــك لك ، وكَبَتَ أعداءك ، وجعلنى وِقاءك المقدّم عنــك . أحبّ أن تشرح لى صــورة الأمر إلامَ تأدّتْ ، وكيف كان الابتــداء، فإنى لا أشــكّ أنها حيلةٌ ونيّة من عزّ الصاحب الجليل القدر، ولها عاقبةٌ منه إن شاء الله محمودة، وتُفضى من ذلك الى ما تسكن اليه نفسى، إن شاء الله .

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

بطائر اليُمْن فليكُنْ هذا البِنآء، وبأسباب السعادة فليتصّل عِقدُ هذا الاجتماع، وبكلّ ذكاء الولد، وثَرْوة العدد، فلْتَجْرِلك الأقدار، وفى أطول غايات البقاء فلتدُمْ هذه الغِبْطة والسرور.

تهنئــة بتزويج

بلغنى تزوُّجُك من فلانة ، فبالرفاء والبنين، تهنئةَ السَّلَف الصالحين، ومبلغ سُنّة المجتهدين المتبحرين، وتقولُ على يُمْن الطائر، وسعادة الجَدّ، ونَمَــاء العَدَد، وآتفاق الهوى، وطِيبِ

المناسمة، وٱجتماع الشَّمْل، وثبات الرَّبع، وتَمَلِّى النِّعَم . أسأل الله الذى قضاها أن يجعلها لك سَكَنًا ويجعلك لها شَجَنًا ، وأن يُؤَخِّر حمامها الى ٱنتهاء نَفْسك عنها ، وجعلك جائزا تُرْبها، وَوَلِيتَ المال وهناءة العيش وملاهاة الغوانى بعدها .

تهنئة لغسّان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغنى جَمْعُ الأمير أهله على الحال التى جمعهم عليها من نعمة الله عليه . فالحمدُ لله على كل ما يرى الأمير فيما له فيه نعمة . فأسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك مَيْمونا، والشَّمْلَ مجتمعا ، والبركةَ عظيمة ، والأُمورَ سليمة ؛ وكذلك فقد عَظَّم الله القَسْم منه لزَوْجه ، جَعَلَ الأمير سَكَنًا لها ، وأجرى المودّة والرحمة بينهما ، فإنه يقول عزّ وجلّ : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ . فلما كان الأميرُ هو المنظور اليه ، وهى المنظور اليها ، ٱختارها الأمير لنفسه وٱختار نفسه لها ، وأراد الله عز وجل أن يزيدها مع فَضْلها فى نفسها فَضْلا باختيار الأمير إيّاها ، وباختصاص الله لها بالأمير دون غيرها ؛ فكان ذلك فضلا من الله زَيّنه بفضل، وكرامةً من الله وَصَلَ بَعْضَها ببعض. فنرغب الى الله عزّ وجل فى أن يزيد الأمير فى كلّ سَعَة مبسوطة، ونعمة مقسومة، ويعطيه فى ذلك شكرا يكون لرضاه مُوجِبا، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبا؛ ثم يُمَلِّى الأميرَ ذلك بأحسن ما مَلَّى أحدًا من خَلْقه كرامةً اصطنعها عنده .

تهنئة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبى الى المأمون يهنئه بمولود له :

قد كان أجذلنى ما أحدث الله لأمير المؤمنين من المَوْهَبَة التى ليس، وإن كان أولى بها من غيره ، بأعظم فيها حظًا من رَعِيّته . فعمّر الله لك ياأمير المؤمنين قلوبهم بنور الحكمة وأبصارهم حتى يَشُدّ بهم عَضُدك ، ويَسُدّ بهم ثُلْمَتك، ويُبَلِّغهم الغاية المأمول لهم بلوغُها بعدك، غير مُقْعَد بك مَهَل ، ولا مُحَل بك أَجَل، ولا مُكَذِّبك أَمَل، ولا مُنْقَطعة أيامك، حتى تُخْتَرم أنفسُنا قبلك .

وكتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود له :

بارك الله فى مولودك الذى أتاك، وهَنَّاك نعمته بعطيتـه، وملَّاك كرامتـه بفائدته، وأدام سرورك بزيادته، وجعله بارًّا تقيّا، ميمونا مباركا زكيا، ممدودا له فى البقاء، مُبَلَّغا غاية الأمل، مشدودا به عَضُدُك، مُكَثَّرا به ولَدُك، مُداما به سرورك، مدفوعا به الآفات عنك، مشفوعا بأكثر العدد، من طَيِّب الولد .

وله فى مثل ذلك :

هَنَأَك الله هذه الفائدة التى أفادكها، وبارك الله فى الهبة التى رزقكها، وشفعها بإخوة متواترين، يَسُرّونك فى حياتك ويَخْلُفونك فى عَقبك .

تهنئـــة بمولود

كتب رجل الى رجل يهنئه بمولود :

جُعِلْتُ فداءك. للبقاء مولودك، فى السناء نباته، وفى اليُمْن شبابه، وعلى البركة ميلاده .

تهنئـــة بمولود

كتب الحسن بن سهل الى ذى الرياستين :

إنه ليس من نعم الله، وفوائد قِسَمه — وإن خُصّ موقعها ووجب شكرها — نعمةٌ تعدل النعمة فى الولد، لنمائها فى العدد، وزيادتها فى قوة العضد، وما يُتَعَجّل به من عظيم بهجتها، ويُرجى من باقى ذكرها فى الخُـلُوف والأعقاب، ولاحق بركتها فى الدعاء والاستغفار. وإنّ الله قد أفادك وأنالك غلاما سَرِيّا، سَمَّيته فلانا، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين. فرجوتَ أن تكون موافاته بالنصر الذى أظهرنا الله به على عدوّ الدين والمسلمين من دلائل بركته ويُمْنه، وشواهد سعادته والسعادة به . فبارك الله لأمير المؤمنيـــن فى طارف نعمه وتالدها، وشَفَع له قديم مننه بحادثها، ورزقه ذكورا طيِّبين مهذّبين، يأنس بهـم ربعُه، ويتصل بهم نجاحه، ويجعلهم ذرّية زاكية، وبقية صالحة .

آخــــر :

بلغنى الذى وهب الله لك، فجعله الله ذُخرا سنيّا، وعَقْبا كريما .

عَمْرو بن مَسْعَدَة الى الحسن بن سهل

أما بعد، فانّ هبةَ الله لك هبةٌ لأمير المؤمنين، وزيادته إياك فى عدده لمحلّك عنده ومكانك فى دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سَرِيّا، فبارك الله لك فيه، وجعله بارّا تقيّا، مباركا سعيدا زكيّا .

تهنئــــة بمولود

الحمد لله الذى رضى منّا بيسير القول عنــد عظيم النعمة، حمدًا نستوجب به بقاء هذه المَوْهَبَــة للنَّماء والفائدة؛ فإنّ نعمة الله وإن كانت لم تزل متتابعة، فقد كان ما يَقْبض الأمل منا ذكر ٱنفراد الأمير بنفســه وقلّة نَسْله، وما لا يؤمن من ٱنقطاع الذكر بفوات الأجل، ومن دُثُور الأنام، بواقع الحِمَام، وقد أصبحنا من الله من يدين فى فُسْحَة المهــل، ومدّه مواقع الأجل، لمن أراد فيه مَوْضع أملنا فى حسن الخلافة من الأمير وإحياء ذكره .

تهنئــــة بمولود

سرورُك سرورٌ يَخُصُّنى منه ما يَخُصُّك، وتَلْبَسنى فيه النعمة ما تَلْبَسك، والحمدُ لله على النعمة فيك وعندك .

كتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعــد، فقد بلغنى من متجدّد نعم الله عزّ وجلّ عليك، وإحسانه اليك فيما رَزَقَك من الهِبة ما ٱشتدّ جذلى به، وسألت الله أن يشفعه بأمثاله؛ ولذلك أقول :

قد شُفِــع الواحد بالوافد * وأُرْغِمَ الأنفُ من الحاسدِ
أبا حُسَــين قَرَّ عينًا بما * أُعْطِيته من هِبَةِ الماجدِ

قد قلتُ لمـّا بشّرونى به * بُورك فى المـولود للوالدِ
إنّا لنرجـو وافدا مثـلَه * والطائرُ الميـمون للوافدِ

وله الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا وفرحا، إلاّ كنتُ به بَهِجًا، أعتدّ فيه بالنعمة من الله الذى أوجب علىّ من حقّـك وعرّفنى من جميـل رأيك . فزادك الله خيرا، وأدام إحسانه اليك . وقد بلغنى أنّ الله وَهَبَ لك غلاما سَرِيًّا، أكمل لك صُورته، وأتمّ خلقه، وأحسن البلاء فيه عندك، فاشتدّ سرورى بذلك، وأكثرت حمد الله عليـه . فبارك الله فيه، وجعله بارًّا تقيًّا، يَشُدّ عَضُدَك، ويُكثر عَدَدَك، ويُقِرُّ عينك .

وكتب إسحاق بن يحيي الى بعض إخوانه يهنئه بابنة له :

رُبَّ مكروهٍ أعقب مَسَرّة، ومحبوب أعقب مَعَرّة . وخالقُ المنفعة والمضرّة، أعلمُ بمواضع الخِيَرَة .

كتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية :

بارك الله لك فى الأبنـة المستفادة ، وجعلها لكم زينـا ، واجرى لكم بها خيرا ، فلا تكرهها؛ فإنهنّ الأمّهات والأخوات، والعمّات والخالات، ومنهنّ الباقيـات الصالحات؛ وربّ غلام ساء أهلَه بعد مَسَرّتهم، وربّ جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم .

وكتب عبد الحميد بن يحيي الى أخ له فى مولود ولد له وهو أول مولود كان :

أمّا بعـد، فإن ممـا أتعرّف من مواهب الله، نعمةً خُصِصتُ بزيّتهـا، واصطفيتُ بخصّيصتها، كانت أسرّلى من هبة الله ولدا سميتُه فلانا، وأمّلتُ ببقائه بعدى حياةً وذكرى، وحُسن خلافتى فى حُرْمتى، وإشراكه إيّاى فى دعائه، شافعا الى ربه عند خلواته فى صلاته وحجّه، وكلّ مَوْطن من مواطن طاعته، فاذا نظرتُ الى شخصه تحرّك به وجدى وظهر به

سروری، وتعطّفت عليه منه أنه الولد، وتولّت عنى به وحشة الوحدة، فأنا به جذل فى مغيبى ومشهدى، أحاول مسّ جسده بيدى فى الظُّلَم، وتارة أُعانقه وأرشفُه، ليس يعدله عندى عظيمات الفوائد، ولا منفسات الرغائب. سرّنى به واهبه لى على حين حاجتى، فشدّ به أزرى، وحمّلنى من شكره فيه ما قد آدنى بثقل حمل النعم السالفة الىّ به، المقرونة سرّاؤها فى العجب بقدر ما يدركنى به من رقة الشفقة عليه، مخافة مجاذبة المنايا إياه، ووجلا من عواطف الأيام عليه. فأسأل الله الذى آمتنّ علينا بحسن صُنْعه فى الأرحام، وتأديته بالزكاء، وحرْسه بالعافية، أن يرزقنا شكر ما حمّلنا فيه وفى غيره، وأن يجعل ما يهب لنا من سلامته والمُدّة فى عمره موصولا بالزيادة، معروفا بالعافية، محوطا من المكروه، فإنّه المنّان بالمواهب والواهب بالمنى، لا شريك له. حمّلنى على الكتاب اليك لعلم ما سُررتُ به علمى بحالك فيه وشرْكك إياى فى كل نعمة أسداها الىّ ولىّ النعم. وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جلّ ذكره. والسلام عليك.

تهنئة بنقلة الى دار جديدة

تناهى الىّ نُقْلتك الى الدار التى أرجو أن يجعلها الله نُقْلة المكروه عنك، ونُقْلة السرور اليك، ودوامَ نعمة الله عليك. جعلها الله لك أيمن دار وأعظمها بركة، ووصل نعمه فينا عندك ونعمه عندنا فيك.

تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصرانى أسلم

أنا أقول الحمد لله الذى وفّقك لشكره، وعرّفك هدايته، فطهّر من الارتياب قلبك، ومن الافتراء عليه لسانك. وما زالت مخايلك مُمَثِّلة لنا جميل ما وَهَب الله لك، حتى كأنك لم تزل بالإسلام مَوْسوما، وإن كنت على غيره مقيما، وكنّا مؤمّلين لما صِرتَ اليه، مشفقين لك مما كنتَ عليه، واذ كاد إشفاقنا يستعلى رجاءنا، أتت السعادة بما لم تزل الأنفس تعِد منك. فأسأل الله الذى نوّر لك فى رأيك وأضاء لك سبيل رُشْدك، أن يوفّقك لصالح العمل، وأن يؤتيك فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار.

باب المنظـــــوم

١ — أبو نواس[(١)]

كان أبو نُوَاس ينادم ولدَ المهدىّ ويلازمهم فلم يُلْفَ مع أحدٍ من النـاس غيرِهم ، ثم نادم القاسمَ بن الرشيد ولقِى منه أشياءَ كرهها وكُرِهتْ له ، ففارقه .

(١) هو أبو على الحسن بن هانئ ، الشاعر المتفنن ، الجادّ الماجن ، صاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ، ورأس المحدثين بعد بشار . وهو فارسى الأصــل . ولد بقرية من كورة خوزستان سنة ١٤٥ ه ونشأ يتيما فقدمت به أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، فتعلم العربية ورغب فى الأدب ، فلم تعبأ أمه بحاله وأسلمته الى عطار بالبصرة ، فمكث عنده لا يفتر عن معاناة الشعر والاختــلاف الى الأدباء والمجان ، الى أن صادفه عند العطار والبة بن الحباب الشاعر الماجن الكوفى فى إحدى قدماته الى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأخرجه والبــة معه الى الكوفة ، فبقى معه ومع ندمائه من خلعاء الكوفة وتخرج عليهم فى الشعر وفاقهم جميعا . وقدم بغداد وقد أربت ســنه على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم ، وبلغ خبره الرشيد فأذن له فى مدحه ، فمدحه بقصائد طنانة وحبسه مرة على هجوه مضر .

وكان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحهم ومنهم الخصيب عامل مصر ، ثم انقطع الى مدح محمــد الأمين ، وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد .

وكان أبو نواس جميل الصورة ، فكه المحضر ، كثير الدعابة ، حاضر البديهة ، متينا فى اللغة والشعر والأدب ، متعصبا لليمانية على المضرية . وأجمع أكثر علماء الشعر ونقدته وفحول الشعراء على أن أبا نواس أشعر المحدثين بعد بشار وأكثرهم تفننا وأرصنهــم قولا وأبدعهم خيالا مع دقة لفظ وبديع معنى ، وأنه شاعر مطبوع برّز فى كل فن من فنون الشعر .

وامتاز عن كل الشعراء بقصائده الخمريات ومقطعاته المجونيات ، وكان شعره لقاح الفساد والقدوة السيئة ، لنقله الغزل من أوصاف المؤنث الى المذكر والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم إذ لم يكن ذلك معروفا قبــله وقبل شيطانه والبه . وزاد على ذلك انفراده بالإبداع فى وصف الخمر ، فكان نموذج سوء لمن تأخر ، فافتتن بشعره الشبان فى زمانه وبعــده وحاكوه وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعــد ظريفا إلا اذا مزج شعره بشىء من ذلك وإن لم يقع فى محظوراته .

ووصفه عبــد الله الجماز فقال : كان أظرف الناس منطقا ، وأغزرهم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم جوابا ، وأكثرهم حياء ، وكان أبيض اللون ، جميــل الوجه ، مليح النغمة والاشارة ، ملتف الأعضاء بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف ، وكان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشمائل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، =

ثم جلس أبو نواس الى الناشئ الراوية فقرأ عليه شعرَ ذى الرُّمة، فأقبل الناشئ على أبيه هانئ وقال له : إن عاش ابنُك هذا وقال الشعرَ ليَقولنَّه بلسانٍ شَتُوم .

ثم اتصل بوَالِبَةَ بن الحُبَاب الأسدىّ، لقيه بدار النَّجَاشىّ الأسدىّ والى الأهواز للمنصور، فقال له والبة: إنى أرى فيك مخايلَ فلاح، وأرى أنك لا تضيعها، وستقول الشعر وتعلو فيه، فاصحَبْنى حتى أُخَرِّجك؛ فقال : ومن أنت؟ قال : أبو أُسَامَةَ؛ قال: والبة؟ قال: نعم؛ قال : أنا والله جُعِلتُ فِدَاكَ فى طلبك، وقد أردتُ الخروجَ الى الكوفة والى بغدادَ من أجلك؛ قال : ولماذا ؟ قال؛ شهوةً للقائك ولأبياتٍ سمعتُها لك؛ قال : وما هى؟ فأنشده :

ولها ولا ذنبٌ لها * حبٌّ كأطرافِ الرماحِ
جرحتْ فؤادى بالهوى * فالقلبُ مجروح النواحى
سلَّ الخليفةُ صارمًا * هو للفساد وللصلاح
أجداه كفُّ أبى الوليـ * ـد يداً مُبَارِيةَ الرياح
ألـق بجانب خَصْره * أمضَى من الأجل المُتَاحِ
وكأنما ذَرّ الهبا * ءَ عليه أنفاسُ الرياح

فمضى معه، ثم سأله أن يخرج الى البادية مع وفد بنى أسد ليتعلم العربية والغريب، فأخرجه مع قوم منهم، فأقام بالبادية سنةً؛ ثم قدم ففارق والبةَ ورجع الى بغداد .

وكان أبونواس متكلما جَدِلًا راوية فحلا، رقيقَ الطبع ثابت الفهم فى الكلام اللطيف. ويدل على معرفته بالكلام أشياءُ من شعره، منها قوله :

وذاتِ خدٍّ مورَّدْ * قُوهِيَّة المتجرَّدْ
تأمّل العينُ منها * محاسنًا ليس تنفَدْ

= راوية للأشعار، علامة بالأخبار، كأن كلامه شعر موزون . توفى سنه ١٩٩ هـ . وتجد ترجمته وأخباره وأشعاره فى كتاب خاص باسم «أخبار أبى نواس» لابن منظور طبع مصر سنة ١٩٢٤ والأغانى (ج ١٨ ص ٢) و(ج ٦ ص ١١٠، ١٧٠، ١٨٦) و(ج ١٦ ص ١٤٨) وابن خلكان (ج ١ ص ١٣٥) وطبقات الادباء (ص ٩٦) والشعر والشعراء (ص ٥٠١) والفهرست (ص ١٦٠) والعقد الفريد (ج ٣ ص ٣٣٧) .

فبعضـــه قد تنـاهى * وبعضـــه يتـــولد
والحسن فى كل شىء * منهـا مُعـاد مردّد

ومنها قـــوله :

يا عاقدَ القلب عـــنّى * هـــلا تذكرتَ حلَّا
تركتَ غيّى قليـــلًا * من القليـــل أقلّا
يكاد لا يتجـــزّى * أقـــلّ فى اللفظ مِنْ لا

ومنها قوله فى امرأة اسمها حُسْن :

ان اسم حُسْن لوجهها صفـــةٌ * ولا أَرَى ذا فى غيرها جُمِعَـا
فهى اذا سُمِّيت فقد وُصِفتْ * فيجمعُ الإسم معنيين معَا

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة :

قـــل لزُهَير اذا حدَا رشَـــدًا * أقلِلْ أَو اكثِرْ فأنت مِهْـــذارُ
سُخُنْتَ من شـــدّة البرودة حـــتّى صرتَ عنـــدى كأنّك النارُ
لا يعجَبِ السامعون من صفتى * كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

هذا شىء أخذه أبو نواس من مذهب حكماء الهند، فانهم يقولون: إن الشىء اذا أفرط فى البرودة انقلب حارًّا، وقالوا: إن الصَّنْدل يحكّ منه اليسير فيبرد، فاذا أكثر منه سخن .

قالوا : كان أبو نواس دعيًّا يخلط فى دعوته . فمن ذلك قوله يهجو عربَ البَصْرة :

ألا كل بصرىّ يرى أنمـا العُلا * مُكَمَّهَة سُحْـــقٌ لهن جرينُ[1]
فان تغرسُـــوا نخلًا فان غِرَاسَنا * ضِرابٌ وطعنٌ فى النحور سَخِينُ
فان أك بصريًّا فإن مُهـاجَرى * دِمَشْقُ ولكنّ الحـــديثَ فنونُ
مجاورَ قوم ليس بيـــنى وبينهم * أواصرُ إلا دعـــوةٌ وظنـــونُ
اذا مادعا باسمى العريف أجبتُه * الى دعـوة ممـا علىّ تَهُون

(١) المكمهة : الغراس الكثيرة . والسحق : الطويلة ، يريد النخل . والجرين هنا : موضع تجفيف التمر .

ثم هجا اليمن فى هذه القصيدة بقوله :

لأزْد عُمَانٍ بالمهلّب نَزوةٌ * اذا آفتخر الأقوام ثم تلينُ
وبكر ترى أن النبوّةَ أُنزلت * على مِسْمَعٍ فى الرَّحْم وهو جنينُ
وقالت تميمٌ لا نرى أن واحدا * كأحنفنا حتّى المماتِ يكونُ
فما لُمْتُ قيسًا بعدها فى قُتيبة * وفخرٍ به إن الفخار فنونُ

وإنما نشأ أبو نواس بالبصرة وليس له بدمشق قبلٌ ولا بعدٌ .

ومما هجا به اليمنَ أيضا قوله لهاشم بن حُديج :

وردنا على هاشم مصرَهُ * فبارت تجارتنا عنده

يقول فيها :

رأيتك عند حضور الخوا * ن شديدا على العبد والعبده
وتحتدُّ حتى يخافَ الجليـ * ـس شَذاك عليه من الحدّه
وتختم ذاك بفخرٍ عليـه * بكِنْدةَ فاسلَخْ على كنده
فإن حُديجا له هجرةٌ * ولكنّها زمنَ الردّه
وما كان إيمانكم بالرسول * سوى قتلكم صهرَه بعده
تعُدّونها فى مساعيكمُ * كعدّ الأهلّة معتدّه
وما كان قاتلُه فى الرجال * بجمل لطهر ولا رِشده
فلو شهِدتْه قريشُ البطا * ح لما مَحشت نارُكم جلده (١)

وقوله أيضا :

ما منك سلمى ولا أطلالها الدّرُسُ * ولا نواطقُ من طير ولا خُرُسُ
يا هاشمُ بنَ حديج لو عددتَ أبا * مثلَ القَلَمّس لم يعلَق بك الدّنَس
إذ أصبح الملكُ النعمانُ وافدَه * ومن قُضاعَة أَسْرى عنده حُبُس

(١) المحش : قشر الجلد عن اللحم .

فابتاعهم بإخاءِ الدهـــر ما عَمِــروا * فلم ينل مثلَها من مثلهـــم أنَسُ
أو رحت مثـــلَ حُوَىٍّ فى مكارمه * هيهات منـــك حُوَىٌّ حين يلتمس
أو كالسَّـــمَوءل اذ طاف الهمامُ به * فى جَحفل لجَبِ الأصـوات يرتجس
فاختار ثُكْلًا ولم يَغْـــدِرْ بذمتـــه * إذ قيل أَشْرِفْ تَرَ الأوداجَ تنبجسُ
ما زاد ذاك على تيـــهٍ خُصِصتَ به * وكيف بَعْـــدِل غيرَ السوءة الفَرَسُ

وقـــوله :

يا هاشمُ بنَ حُدَيج ليس فخـــركُمُ * بقتل صهرِ رسول الله بالسَّـــدَدِ
أدرجتمُ فى إهاب العَـــيْرِ جثتَـــه * فبئسَ ما قدَّمتْ أيديكُمُ لغـــدِ
إن تقتلوا ابنَ أبى بكر فقـــد قتلتْ * حُجْرًا بدارةِ مَلْحوبٍ بنو أســـدِ
وطـــرَّدُوكم الى الأجبال من أجَأٍ * طردَ النَّعام اذا ما تاه فى البـــلدِ
وقد أصـــاب شَراحيلا أبو حَنَشٍ * يومَ الكُلاب فما دافعـــتمُ بيدِ
ويوم قلـــتم لزيدٍ وهو يقتلكـــم * قتل الكلاب لقد أبرحتَ من ولدِ
وكلّ كِنْديّةٍ قالت لجـــارتها * والدمعُ ينهلّ من مَثْنى ومنفـــردِ
ألْهَى امرأَ القيس تشبيبٌ بغانية * عن ثأره وصـــفاتُ النَّوْء والوتدِ

وقد رثى أبو نواس خَلَفًا الأحمرَ بعد موته بقصائدَ من شعره، منها قصيدتُه التى أوّلهـــا قـــوله :

لو كان حىٌّ وائلًا(1) من التَّلَفْ * لو ألتْ شَـــغْواءُ فى أعلى شَعَفْ
أمّ فُـــرَيخ أحرزتْه فى جَخَفْ(2) * مُزَغَّبَ الألْغادِ لم يأكلْ بكفّ
كأنه مستقعَدٌ من الحَـــرَفْ * هاتيـــك أو عَصْماء فى أعلى شرفْ
تَرُوغ فى الطُّبَّاقِ(3) والتَّزْعِ الألفّ * أوْدَى جِماعُ العلم مُذْ أودَى خَلَفْ

(1) وائلا : ناجيا . ووألت : لجأت . والشغواء : العقاب . والشعف : رءوس الجبال .

(2) الجخف : الغار فى الجبل . ومزغب : صار ذا زغب، والزغب صـغار الريش . والألغاد جمع لغد بالضم وهو لحمة فى الحلق . (3) الطباق والتزع : نوعان من الشجر .

من لا يَعُدّ العــلْمَ إلا ما عرَفْ * قَلَيْذَمٌ (١) من العَيَالِيم الخُسُــفْ
كَأَّا متى نشــاءُ منـــه نغـــترِفْ * روايةً لا تُجتنَى من الصحفْ

ومنهــا قوله يرثيه :

لا تَئِلُ العُصْمُ فى الهضــاب ولا * شَغْواء تَغْذُو فرخَيْن فى لَجَفِ
يُكنُّهــا الجــوُّ فى النهــار ويُــؤ * ويهــا ســوادُ الدُّجى الى شَرَفِ
تحنـــو بجُؤْشُــوشِها (٢) على ضَرِم * كقِعْدة المنحنِى من الحَـرَفِ
ولا شَــبُوب (٣) باتتْ تؤرّقــه النَّــ * ــثْرةُ منهــا بوابِــلٍ قَصِــفِ
دانٍ على الأرضِ والوَصِــيد وفى * بَهْوِ أمينِ الإيادِ ذى هَــدَفِ (٤)
ديدنُه ذاك طــولَ ليلتِــه * حتى اذا انجاب حاجبُ السَّدَفِ
غدا كوَقْف الهَــلُوك ينهفتُ الــ * ــقِطْقِط (٥) من مَنْبِتَيه والكَتِفِ
كأن شَــذْرًا وهتْ معاقدُه * بين صَلاه فملعَب الشَّــنَفِ
وأخدرىٌّ صُلْب النَّــوَاهق صَلْــ * ــصالٍ أمينِ الفُصُوص والوُظُفِ
منفــرد فى الفَــلاَة تُوســعه * رِيًّا وما يَختليــه من عَلَفِ
ما ترك المــوت من أولى شَبَحًا * بادتْ بتلك القِلاَل و الشَّــعَفِ
لمــا رأيتُ المنـــونَ آخــذةً * كلَّ شــديدٍ وكلَّ ذى ضَــعَفِ
بتُّ أُعَزِّى الفــؤادَ عن خَلَفٍ * وبات دمــعى إلاّ يَفِضْ يَكِفِ
أنسى الرَّزايا مَيِّتٌ فُجِعْتُ به * أمسى رهينَ الــتُّراب فى جَدَفِ

(١) القليذم : البئر الغزيرة . والعيالم : جمع عيلم وهو البئر الكثيرة الماء . والخسف جمع خسيفة وهى البئر التى حفرت فى حجارة فنبع منها ماء غزير لا ينقطع . (٢) الجؤشوش : الصدر . والضرم : فرخ العقاب . (٣) الشبوب : الشاب من الثيران والغنم . والنثرة : منزلة من منازل القمر .

(٤) الوصيد : بيت كالحظيرة يتخذ من الحجارة للمال أى الغنم وغيرها فى الجبال . والإياد : التراب يجعل حول الحوض أو الخباء يقوى به أو يمنع ماء المطر . والهدف : كل مرتفع من بناء أو كثيب رمل أو جبل .

(٥) ينهفت : يتساقط ويتخفض . والقطقط : المطر الصغير أو المتتابع العظيم القطر وقيل هو دون الرذاذ وقيل البرد أو صغاره .

كانـ يُسَـــنِّى(١) برفقـــه غُلُقاً * فى غـــير عِىّ منـــه ولا عُنُف
يجوبُ عنـــك التى غُشيتَ بهـا * من قبـلُ حتى يَشفيك فى لَطَف
لا يبهـــم الحاءَ فى القـــراءة بالخا * ء ولا لامَها مـــع الألـــف
ولا يُعَـــمِّى معـــنى الكلام ولا * يكون إنشادُه عن الصُّحُف
وكانـ ممن مضى لنا خَلَفًا * فليس منه إذ بانـ من خَلَف

واختلف أبو نواس الى أبى زيد فكتب الغريب من الألفاظ، ثم نَظَر فى نحو سيبويه، ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السَّمّان وغيرهم، فلم يتخلّف عن أحد منهم، وأدرك الناس فعلم، ثم قدِم بغداد بعد ذلك .

وكان أيضا يَتَنَزَّر ويُدعى للفرزدق . ثم وقع بينه وبين الحكم بن قَنْبَر المـازنىّ، فهجاه الحكم وذكر بَرْيَه العودَ وبَغى عليـــه ونكّبه . ولمـا قال أبو نواس قصيدته التى يهجو بهـا خِنْدِف، وهى :

ألم تَرْبَعْ عـــلى الطَّلَل الطَّاَس(٢) * عفَـاه كل أسحم ذى ارتجاس
وذارِى التُّرَب مُرْتكِمٌ حَصَـاه(٣) * نسيج الميث مِعْنَقَـة الدَّهَاس
ســوى سُفْع أعارتها الليـالى(٤) * سوادَ الليل من بعد اغبساس
وأورق حالف المَثْـواة هابٍ(٥) * كضاوىّ الفراخ من الهُلَاس
منازلُ من عُقَـيْرة أو سُلَيْمى * أو الدهماء أخت بنى الحِمَاس
كأنّ معاقـدَ الأوضاح منهـا * بجِيـــد أغنَّ نُوم فى الكِنَاس
وتَبْسِمُ عن أغرّ كأنّ فيـــه * مُجَاجَ سُـلافة من بيت راس(٦)
فمَنْ ذا مبلغٌ عمـــرًا رســـولًا * فقـــد ذَكَّرْتَ وُدَّكَ غيرَ ناس

(١) سناه تسنية : سهله وفتحه . (٢) طاس بالكسر : دارس . والأسحم : السحاب . والارتجاس : الرعد . (٣) المعنقة : حبل فى الرمل .
(٤) الاغبساس : بياض فيه كدرة . والسفع : يريد بها الأثافى . (٥) الهلاس : الضمور وهاب : لونه لون الهباء . (٦) بلدة بالشأم تنسب اليها الخمر .

فلم أهْجُرْكِ هجـــر قِلًى ولكن * نوائبُ لا تزالُ لها تُقاسى
نوائبُ تعجِــزُ الأدباءُ عنهـا * ويَعْيَا دونَها اللقِن النِّطاسى
وقد نالحَتْ عن أحسابِ قومٍ * هُمُ وَرَثوا مكارمَ ذِى نُوَاس
فإن تكُ أوقدتْ للحـــرب نارٌ * فما غَطَّيتُ خوفَ الحرب راسى
سأبْلِى خـــيرَ ما أبلَى مُحَامٍ * اذا ما النَّبْـــل أُلْحِمَ بالقِياس (١)
وسَمتُ الوائلين بفاقراتٍ * بهنّ وسَمْتُ رهطَ أبى فِرَاس
وقالت كاهـــلٌ وبنـــو قُعَيْنٍ * حَنَـانَكَ إننـا لسنا بنـاس
فما بالُ النِّعاج ثَغَتْ بشَتْمِى * وفى زَمَعَاتِهن دمُ الفـــراس
وما حامتْ عن الأحساب إلا * لــترفع ذكرَها بأبى نواس

عارضه الحكم وهجاه ، فانقلب على النِّزارية وادّعى أنه من حاء وحكم ؛ فزجره يزيد بن منصور الحميرىّ خال المهدى وقال له : أنت خوزى ، فمالك ولحاء وحكم ! فقال له : أنا مولًى لهم ، فتركوه ، وقال بعضهم لبعض : إنه لظريف اللسان غزير العلوم فدعوه ، وبهذا الولاء يتعصّب لنا ويكايد عنا ويهجو النزاريّة ؛ فكان كما قالوا وكما ظنوا ، فانقلب الى اليمن وعَدَل عن كنيته بأبى فراس واكتنى بأبى نواس ، تشبُّها بكنية ذى نُوَاس كما كانت اليمن تكتنى ، وندم على هجاء اليمن ، ووجدهم له أنصرَ ولدعوته أقبلَ ، فاعتذر الى هاشم بن حُديج الكندى من هجائه ، ومَدَحَ اليمن فقال :

أهاشمُ خذْ منّى رضاك وإن أَتَى * رضاك على نفسى فغـــيرُ ملُوم
فأُقسمُ ما جاوزتُ بالشتم والدِى * وعِرضى وما مزّقتُ غيرَ أديمى
فعُــــذتُ بحَقْوَىْ هاشمٍ فأعاذنى * كريمٌ أراه فـــوقَ كلّ كريم
وإنّ امرأً أَغْضَى على مثلِ زَلّتِى * وإن جَرَحتْ فيـه لجَـــدُّ حليم
تطاولَ فوقَ النـاس حتّى كأنّما * يَرونَ به نجمـا أمامَ نجـــوم

(١) جمع قوس .

اذا آمتازت الأحسابُ يوما بأهلها * أناخَ الى عاديّـــةٍ وصَمـــيم

الى كلّ معصُوبٍ به التّاجُ مِقوَلٍ * اليـــه أيادى عامرٍ وتمـــيم

وكان قبل أن ينتمى لليمن ويدعى لنزار يتعاجم فى شعره، فمن ذلك قوله :

فاسقنيها وغنّـــِ صَوْ * تًا، لك الخـــيرُ، أعجما

ليس فى نعتِ دِمْنــةٍ * لا ولا زَجْـــر أشأَما

وكان الجاحظ يقول : ما أعرف لأبى نواس شعرا يفضُل هذه القصيدة وهى :

ودارِ نَدامَى عطّلوها وأدلجُـــوا * بهـا أثرٌ منهـــم جديدٌ ودارسُ

مَساحِبُ من جرّ الزِّقاق على الثّرى * وأضغاثُ ريحانٍ جنىٌّ ويابسُ

حبستُ بها صَحبى فجدّدتُ عهدَهم * وإنّى عـــلَى أمثال تلك لحابسُ

ولم أدرِ منهم غيرَ ما شهِـــدتْ به * بشَرقىّ ساباطَ الديارُ البسابسُ

أقمنـا بهـا يومًا ويوما وثالثـا * ويوما له يومُ الـــترحّل خامسُ

تُـــدار علينـا الراحُ فى عَسجديّة * حبَتهـا بأنواع التّصـاوير فارس

قَرارتُهـا كسرى وفى جَنباتها * مَهًا تدّريها بالقِسىّ الفـــوارسُ

فللخمر ما زُرّت عليـــه جُيوبُها (١) * وللمـاء ما دارتْ عليـــه القَلانسُ

وقوله يصف كَرمة وعبّر عنها بالهَجْمة وهو يريد الدِّنان :

لنـا هَجمةٌ لا يُدرِك الذئبُ سَخلَها * ولا راعَها نَزوُ الفِحالة والخطـــر

اذا امتُحنت ألوانُها مالَ صفوُها * الى الكُمْت إلا أن أوبارَها خُضرُ

وإن قام فيها الحالبون آتّقتهمُ * بنَجـلاءَ ثقب الجوف دِرّتُها الخمرُ

مَسارحها الغربىُّ من نهر صَرصَر * فقُطْـرَبُّلٌ فالصّالحيّـــةُ فالعَقْـرُ

---

(١) يعنى أن الخمر مصبوب فيها الى حلوق الصور صرفا . وقوله : وللماء، يعنى انهم صبوا الماء فى مزجها حتى علا رءوسها .

تُراثُ أبى ساسانَ كسرى ولم تكن * مواريثَ ما أبقت تميمٌ ولا بكر
قَصرتُ بها ليلى وليلَ ابنِ حُرّة * له حسبٌ زاكٍ وليس له وَفرُ

وفى تَعاجُم أبى نواس فى شعره يقول الرقاشيّ يهجوه :

نَبَطىّ فاذا قيل له * أنت مولى حَكَمٍ قال أجْل
هو مولى الله اذ كان به * لاحقًا فاللهُ أعلى وأجلّ
واضعا نسبتَه حيثُ اشتهى * فاذا ما رابَه ريبٌ رَحَل

فقال أبو نواس يهجوه :

هجوتُ الفضلَ دهرى وهو عندى * رَقاشىٌّ كما زعم المسولُ
فلما سُوئلتْ عنه رقاشٌ * لنعلم ما تقول وما يقول
ولمّا أن نصَصناه اليها * لتعلم ما يُقال وما نقولُ
وجدنا الفضلَ أبعدَ من رقاش * من الأُتُن ادّعت فيها الفُيول
وجدنا الفضلَ أكرمَ من رقاش * لأنّ الفضلَ مولاه الرسولُ

يريد بذلك قولَه صلّى الله عليه وسلّم : «أنا مولَى من لا مولَى له» .

وقال أيضا يهجوه :

قل للرّقاشىّ اذا جئته * لو متَّ يا أحمقُ لم اهجُكا
لأنّنى أكْرِم عِرْضى ولا * أقرُنه يومًا الى عِرْضكا
إن تهجُنى تَهْجُ فتى ماجدا * لا يرفع الطَّرْفَ الى مثلكا
دونَك عِرضى فاهْجُه راشدًا * لا تَدْنَس الأعراضُ من هجوكَا
والله لو كنتُ جريرًا لما * كنتُ بأهجى لك من أصلكا

وقال أيضا يهجوه :

يا عربيًّا من صَنْعة السُّوقِ * وصنعةُ السُّوق ذاتُ تَشْقيق
ما رأيكم يانزارُ فى رجل * يدخُل فيكم من خَلْق مخلوق

ويحمــل الوَطْبَ والعِــلَابَ ولا * يصـــلُح إلّا لحمـــلِ إبريق
لقد ضربنـا بالطبــل أنك فى الـــ * ـــقوم صحيـحٌ وصِيحَ فى البُــوق
قــد أخذ اللهُ مِن رَقَاشَ على * تركِهمُ المجـــدَ بالمواثيـــق
فالناس يســعَوْن للعلا قُــدُمًا * وهم وراءَ مكسّرو السُّـــوق
هـــذا كذا كم وفى الهَيَــاج اذا * هِيجَ فما شئتَ من بَوَاشِيق (١)

وقال أيضا يهجوه :

أصبح الفضـــلُ ظاهرَ التِّيهِ * وذاك مذ صِرتُ أُهاجيـــهِ
لله شـعرى، أىّ مَفْـــوَاهةٍ * لكلّ من دونى قوافيـــهِ
كم بين فضلٍ منذ هاجيتُه * وبينَـــه قبــلَ أُهاجيـــهِ
فالحمــد لله وإن كنتُ لم * أحفِـلْ بقومٍ نَصَحوا فيـــه
رَضِيتُ أن يشـتمنى ساقطٌ * شِسْعِىَ خيرٌ من مَوَاليـــه

وكان أبو نواس فى دعاويه يتماجَنُ و يعبَث ويُخفى نسبه واسمَ أمّه لئلا يُهْجَى ، وذلك مشهور عنه . ولو غضب هو نفسه على أبيه لهجاه ولم يَحْتَشِم . والمذكور من أمره أنه كان مولى الحَكَميّين ، يفتخر باليمن و يمدحهم لذلك ، و يمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم ، فلذلك قال فى العجم ما قال .

قال ابو الفرج الأصفهانى : كان أبو عُبَيدة يقول : ذهبتِ اليمنُ بجِدِّ الشعر وهزله : امرؤ القيس بجِدّه ، وأبو نواس بهَزْله . وكان يقول : ذهبت اليمنُ بجيـد الشعر فى قديمه وحديثـه : امرؤ القيس فى الأوائل ، وأبو نواس فى المحدثين . وكان يقول : شعراء اليمن ثلاثة : امرؤ القيس وحَسّان بن ثابت وأبو نُوَاس . وقال أيضـا : أبو نواس فى المحدثين مثل امرئ القيس فى المتقدمين ، فتحَ لهم هـذه الفِطَنَ ودلّهم على المعـانى وأرشدهم الى طريق الأدب والتصرف فى فنونه . وكان يقول : يعجبنى من شعر أبى نواس قوله :

(١) جمع باشق وهو اسم طائر، أعجمى معرّب .

بَنَينا على كسرى سماءَ مُدامةٍ * مكللة حافاتُها بنجوم
فلو رُدّ فى كسرى بن ساسان روحُه * إذًا لاصطفانى دونَ كل نديم

وسئل يعقوب بن السِّكِّيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء، فقال: اذا أردت من الجاهليين فلامرئ القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فلجرير والفرزدق، ومن المحدَثين فلأبى نواس فحَسْبُ. وقيل: للعُتْبى من أشْعَرُ الناس؟ قال: عند الناس أم عندى؟ قيل عند الناس؟ قال: امرؤ القيس؛ قيل: فعندك؟ قال: أبو نواس.

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة: من طلب الأدب فلم يَرْوِ شعرَ أبى نواس فليس بتامّ الأدب. وسئل: من أشعرُ المحدَثين؟ فقال: الذى يقول:

كأنّ ثيابَه أطلعـ * ـن من أزراره قمرا
يزيدك وجهُه حسنًا * اذا ما زدتَه نظرا
بعينٍ خالط التفتيـ * ـرُ من أجفانها الحَوَرا
ووجهٍ سابِرِىٍّ لـو * تصوّب ماؤه قطرا
وقد خطَّت حواضنُه * له من عنبرٍ طُرَرَا

وقال ابراهيم بن العباس الطويل: اذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبى نواس علمت أن ذلك عنوانُ أدبه ورائدُ ظَرْفه.

وكان أبو نواس يقول عن نفسه: سفُلْتُ عن طبقة من تقدّمنى من الشعراء وعلوت عن طبقة مَنْ معى ومن يجىء بعدى، فأنا نسيجُ وَحْدِى.

وحدّث جماعة من الرواة ممن شاهد أبا نواس قالوا: كان أقلُّ ما فى أبى نواس قولَ الشعر، وكان فحلا راويةً عالما.

وقال أبو عبيدة: بلغنى أن أبا نواس يتعاطى قَرْضَ الشعر فتلقّانى وهو سكرانُ ماطَرَّ شاربُه بعدُ، فقلت له: كيف فلان عندك؟ فقال: ثقيلُ الظل، جامد النسيم؛ فقلت: زِدْ؛ فقال: مظلم الهواء، منتنُ الفنَاء، فقلت: زد، فقال: غليظ الطبع، بارد الشكل،

قلت : زد ؛ فقال : وَخْم الطَّلْعة ، عَسِر القَلْعة ؛ قلت : زد ، قال : نائىُ الجَنَبات ، بارد الحركات ؛ قال : خفّفْتُ عنـه ؛ فقال : زدنى سؤالا ، أزدْك جوابا ، فقلت : «كفى من القلادة ما أحاط بالعنق» .

وقال سليمان بن أبى سَهْل لأبى نواس : ما الذى استُجيد من أجناس شعرك ؟ فقال : أشعارى فى الخمر لم يُقَل مثلُها ، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس ، وهما أجود شعرى إن لم يزاحم غزلى ما قلته فى الطَّرْد .

وكان يقول : ما قلت الشعر حتى رَوَيتُ لستين امرأة من العرب منهن الخَنْساء وليلى ، فما ظنك بالرجال ؟ وانى لأروى سبعمائة أُرْجوزة ما تُعرف .

وكان قد استأذن خَلَفًا فى نظم الشعر ، فقال : لا آذَنُ لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظَ ألفَ مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومَقْطوعة ، فغاب عنه مدةً وحضر اليه فقال له : قد حفظتُها ، فقال : أنشِدْها ، فأنشده أكثرها فى عدة أيام ، ثم سأله أن يأذن له فى نَظْم الشعر ، فقال له : لا آذنُ لك إلا أن تنسى هذه الألفَ أرجوزة كأنك لم تحفظْها ، فقال له : هذا أمر يصعُب علىّ فإنى قد أتقنت حفظَها ، فقال له : لا آذن لكَ إلا أن تنساها ، فذهب الى بعض الدِّيَرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتُها حتى كأنْ لم أكن قد حفظتُها قطّ ، فقال له : الان فانظم الشعر .

وكان أبو نواس يقول : لا أكاد أقول شعرًا جيِّدا حتى تكون نفسى طيبة ، وأكونَ فى بستان مونق ، وعلى حال أرتضيها من صلةٍ أُوصَل بها أو وعدٍ بصلة ، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعارًا لا أرضاها . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياما ، ثم يَعرضها على نفسه فيُسْقِط كثيرًا منها و يترك صافيَها ، ولا يسرُّه كلُّ ما يَقْذِف به خاطرُه . وكان يهمُّه الشعرُ فى الخمر فلا يعمله إلا فى وقت نشاطه . ولم يكن فى الشـعر بالبطىء ولا بالسريع بل كان فى منزلة وُسْطَى .

وكان الأصمعي يقول : يعجبني من شعر الشاعر بيتٌ واحد قد أجاد قائلُه وهو :

ضعيفَةُ كَرِّ الطَّرْف تحسَب أنها * قريبةُ عهدٍ بالإفاقة من سُقْمِ

وإنّى لآتِى الأمرَ من حيث يُتَّقَى * ويعلَم سَهْمِى حين أَنْزِع مَنْ أَرْمِى

قال العَتَّابِىّ لرجلين تناظرا فى شعر أبى نواس : والله لو أدرك الخبيثُ الجاهليةَ ما فُضِّل عليه أحد .

وقال أبو عمرو الشَّيْبانى : أشعرُ الناس فى وصف الخمر ثلاثة : الأَعْشى والأَخْطل وأبو نُوَاس .

قال محمد بن عمر : لم يكن شاعرٌ فى عصر أبى نواس إلا وهو يحسُده لميل الناس اليه وشهوتهم لمعاشرته، وبُعْد صِيته وظَرْف لسانه .

وقال أبو حاتم : سئل أبو نواس عن شعره فقال : اذا أردتُ أن أَجِدّ، قلتُ مثل قصيدى « أيُّها المنتابُ عن عُفُرِهْ » ، واذا أردت العبثَ قلت مثل قصيدى : « طاب الهوى لعميده » ، فأما الذى أنا فيه وحدى وكلُّه جيدٌ فاذا وصفت الخمر .

وقال أبو ذَكْوانَ : كنا عند التَّوَّزِىّ فذكرتُ عنده أبا نواس ، فوضع منه بعضُ الحاضرين ؛ فقال له التوزى : أتقول هذا لرجل يقول :

يخافُه الناسُ ويرجُونه * كأنه الجنةُ والنارُ

ويقول :

فما جازه جودٌ ولا حلّ دونَه * ولكن يصير الجودُ حيث يصيرُ

ويقول :

فتَمَشَّتْ فى مَفَاصلهمْ * كتَمَشِّى البُرْءِ فى السَّقَمِ

قال ابن الأعرابى يوما لجلسائه : ما أشعرُ ما قال أبو نواس فى الخمر؟ فقال بعضهم :

اذا عَبّ فيها شاربُ القومِ خلتَه * يُقَبِّل فى داجٍ من الليل كوكبا

وقال آخر :

كأن كُبْرَى وصُغْرَى من فَقَاقعها * حصباءُ دُرٍّ على أرض من الذَّهَبِ

وقال آخر :

تَرَى حيث ما كانتْ من البيت مَشْرِقاً * وما لم تكن فيـــه من البيت مَغرِبا

وقال آخر :

فكأنّ الكئوسَ فينا نجومٌ * دائراتٌ بروجُها أيدينـا

وقال آخر :

صفراءُ لا تنزلُ الاحزانُ ساحتَهـا * لـــو مَسّها حجَـــرٌ مسته سَرّاءُ

فقال ابن الأعرابى : إن هـــذا كله لشاعر انفرد بالإحسان فيه ، وتقدّم من سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله فى قوله :

لا ينزلُ الليـــلُ حيث حَلّتْ * فـــدهرُ شُـــرّابِهـا نهـارُ

قال مسلم بن بهرام : لَقِيتُ أبا العَتَاهِيَة فقلت له : من أشعرُ النــاس ؟ قال : تريد جاهليّا أو إسلاميّا أو مولّدها ؟ قال : كُلّا أُريد ، قال : الذى يقول فى المديح :

اذا نحن أثنينـا عليـك بصـالح * فأنت كما نُثنى وفـوق الذى نُثنى

وإن جَرَتِ الألفاظُ يومًا بمدحةٍ * لغـــيرك إنسانًا فأنت الذى نَعنِى

والذى يقول فى الزهد :

ألا ربّ وجهٍ فى التُّراب عَتِيـــقِ * ويارُبّ حُسْنٍ فى التراب رقيـــقِ

ويارُبّ حزمٍ فى التراب ونَجْـــدةٍ * ويارُبّ رأيٍ فى التراب وَثِيـــقِ

فقـــل لقريب الدار إنك راحلٌ * الى منزِلٍ نائى المَحَـــلِّ سَحيـــقِ

وما النـــاسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ * وذُو نَسَبٍ فى الهـالكين عريقِ

اذا امتحن الدنيا لَبِيبٌ تَكَشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثيـاب صـــديقِ

وكان يقول : سبقنى أبو نواس الى ثلاثة أبيات وَدِدتُ انى سبقته اليها بكل ما قلتـه فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبيرَ الذّنب عفوُ اللّـ * ـه من ذنبـك أكبرْ

وقـوله :

مَنْ لم يكن لله متّهما * لم يُمْسِ محتـاجًا الى أَحَدِ

وقـوله :

اذا آمتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثيـاب صـديقِ

ثم قال : قلت فى الزهد ستة عشر ألف بيت وَدِدتُ أن أبا نواس له ثلثُها بهذه الأبيات .

وقال الجاحظ : سمعت النّظّام يقول ، وقد أنشد شعراً لأبى نواس : كأن هذا الفتى جُمِع له الكلامُ فاختار أحسنَه . وقال بعضهم : كأن المعانى حُبِستْ عليه ، فأخذ حاجتَه وفرّق الباقى على النـاس . وقال أبو حاتم : كانت المعانى مدفونة حتى أثارها أبو نواس .

حدّث الحسين بن الخصيب الكاتب ، قال : قال أحمد بن يوسف الكاتب : كنتُ أنا وعبـدُ الله بن طاهر عند المأمون ، وهو مستلقٍ على قفاه ، فقال لعبـد الله بن طاهر : يا أبا العباس ، مَنْ أشعرُ مَنْ قال الشعر فى خلافة بنى هاشم ؟ فقال : أميرُ المؤمنين أعرفُ بهـذا وأعلى عينا ، فقال له المأمون : على ذلك فَقُّـلْ ، تكلم أنت يا أحمـد بن يوسف ، فقال عبد الله بن طاهر : أشعرُهم الذى يقول :

ويا قبرَ معنٍ كنت أوّلَ حُفْرة * من الأرض خُطّت للسّماحة منزلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب : فقلت : بل أشعرُهم الذى يقول :

أَشْبهتِ أعدائى فصرتُ أُحِبُّـهمْ * إذ كان حَظّى منـك حَظّى منهُمُ

فقال المأمون : يا أحمد أبيتَ إلا غَزَلا ! أين أنتم عن الذى يقول :

يا شقيقَ النّفْس من حَكَمٍ * نِمْتَ عن لَيْـلِى ولم أَنَمِ

فقلنا : صدقتَ يا أميرَ المؤمنين .

وكان المأمون يقول : لو سُئلت الدنيا عن نفسها فنطقت ، لما وصفتْ نفسَها كما وصفها أبو نواس فى قوله :

اذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكَشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثياب صـــديق

وَرَد على العتابى بحَلَب عِدّةٌ من الكِبار من أهل قِنَّسْرين ، فدخلوا وسلّموا ، وكان فى يده رُقعــة ينظر اليها ، فقال لهم : لقد سَلَك صاحبُ هــذه الرُّقعة وادياً ما سلكه أحدٌ قبله ؛ فنظروا فاذا هو شعر أبى نواس فى جِنان جارية آل عبد الوهّاب الثقفىّ ، وهو قوله :

رَبْعُ الكَرَى بين الجفــون مُحِيــلُ * عَفَّى عليــه بُكًى عليــك طويلُ
يا ناظــرًا ما أقلعتْ لحظــاتُه * حـــتى تشحَّط بينهن قتيـــلُ
أحللتُ قلبى من هـــواكَ محِــلَّةً * ما حلّهــا المشروبُ والمأكــولُ
بكمال صـــورتك التى من دونهــا * يتحـــيّر التشبيــهُ والتمثيـــلُ
فـــوقَ القصيرةِ والقصيرةُ فوقَها * دون السَّمين ودونَها المهــزولُ

ومما أنشده العتابى لأبى نواس فقال أحسن وأجاد :

متتــايهٌ بجمــاله صَـــلِفٌ * لا يســتطاع كلامُـــه تيهــا
للحسن فى وَجَنــاته بِدَعٌ * ما إن يَمَــلُّ الدرسَ قاريهــا
لو كانت الأشـــياءُ تعقــله * أجْللنَــه إجـــلالَ باريهــا
لو تستطيع الأرض لانقبضت * حـــتى يصـــير جميعه فيهــا

وقـــوله :

إن السحابَ لتستحيى اذا نظــرتْ * الى نـــداك فقاســـتْه بمــا فيهــا
حـــتى تَهُـــمّ بإقـــلاعٍ فيمنعُها * خوفٌ من السُّخْط من إجلال منشيها

قال محمد بن صالح بن بَيْهَس الكِلابى : لمــا دخلتُ العراقَ صرتُ الى مدينة السلام فسألت عمّن بها من الشــعراء المحسنين ، وذلك فى أيام خلافة الأمين أو عنــد موته قبل دخول المأمون بيسير، فقيل لى : قد غلب عليهم فتًى مــن أهل البصرة يقال له الحسن

ابن هانئ ويعرف بأبى نواس ، وقد كنت سمعتُ شيئا من شعره ، فأتانى فتى كان من أهل الأدب ، فقلت له : هل تروى لأبى نواسكم هذا شيئا؟ قال : أروى له أبياتا فى الزهد وليس هو من طريقته ، فقلت أنشدنيها ، فأنشدنى :

أخى ما بالُ قلبك ليس يَنْقَى * كأنك لا تظُنّ الموتَ حقّا
ألا يا بنَ الذين فَنُوا وبادوا * أما والله ما ذهبُوا لتَبْقَى
وما للنفس عندكَ من مُقَام * اذا ما استكملتْ أَجَلًا ورِزْقا
وما أحدٌ بزادك منك أَحْظَى * ولا أحدٌ بذنبك منك أَشْقَى
ولا لكَ غيرَ تقوى الله زادٌ * اذا جعلتْ الى اللَّهَوات تَرْقَى

فقلت له : أحسن والله ! قال : أفلا أنشدك أحسنَ من هذا؟ قلت بلى ، فأنشدنى فى رثاء محمد الأمين :

طوى الموتُ ما بينى وبين محمد * وليس لما تَطْوِى المنيةُ ناشرُ
فلا وصلَ إلا عَبْرةٌ تستديمُها * أحاديثُ نفسٍ مالها الدهرَ ذاكرُ
لئن عَمَرتْ دور بمن لا أودّه * لقد عَمَرتْ ممن أحبُّ المقابرُ
وكنتُ عليه أحذرُ الموتَ وحدَه * فلم يَبْقَ لى شىءٌ عليه أُحاذِرُ

فقال : بحقٍّ ما غلب هذا على أهل الأدب وقدّموه على غيره .

قال محمد بن جعفر الأَصَمّ : كنّا عند أبى نُعَيم ، فتذاكرنا قول عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها حين ذكرتْ شعرَ لَبِيد يَرثِى أخاه أربد :

ذَهَبَ الذين يُعاشُ فى أكنافهم * وبَقِيتُ فى خَلَفٍ كجلد الأجرب

ولقد أنشدنى أبو نعيم أبياتا ، قلنا : أنشدْناها ، فقال :

ذهبَ الناسُ فاستقلّوا وصِرْنا * خَلَفًا فى أراذل النسناسِ
فى أُناسٍ نَعُدُّهم من عديدٍ * فاذا فُتّشُوا فليسوا بناسِ

كلما جئتُ أبتغي الفضلَ منهم * بَدَرُوني قبـــل السؤالِ بيـاس
وبَكَوْا لي حتى تمنّيتُ أنّي * مُفْلتٌ عنـــد ذاك رأسًا براس

ثم قال : أتدرون لمن الشعر؟ قلنا : لا، قال : للحسن بن هانىء .

قال أبو عبد الرحمن الضّرير : رأيتُ مسلم بن الوليد بجُرجان وهو يتولّاها، فسألني عمن خَلّفتُ من الشعراء، فقلت له : أما من الكوفيّين فأبو نواس، وهو مقدّم عندهم؛ فقال : ويحك ! كيف يتقدّم وهو يقول : رُوَيْدَكَ يا إنسانُ لا أنت تَقْفِزُ أرأيتَ قوله : « تقفز » خرجتْ من بين فَكَّيْ شاعرٍ قط ! ثم قال : ويلك ! وكيف يكون كذلك وهو يُحيل ويتخطّى من صفة المخلوق الى صفة الخالق؟ فقلت : مثل ماذا من قوله؟ قال : أما فيما أحال فكقوله :

وأخفتَ أهـلَ الشِّرْكِ حتى إنه * لَتَخافُكَ النُّطَفُ التي لم تُخْــلَقِ

وهـذا من الإغراق المستحيل في العقول ومما ليس على مذهب القوم ؛ وأما في تخطّيه بصفة المخلوق الى صفة الخالق فكقوله :

يَجِــلّ أن تلحَقَ الصفاتُ به * فكلّ خُلْقٍ لخُلْقــه مثـــلُ

وكقـــوله :

* بريءٌ من الأشباه ليس له مثل *

ومما قيل عن أبي نواس إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يُحسنهما، وأجودُ شعره في الخمر والطَّرْد ، وأحسنُ ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سَرَقه، وحَسْبُك من رجل يرد المعنى ليأخذه فلا يُحسن أن يَبْني عليه حتى يجيءَ به قبيحا، مثل قوله : « وداوِني بالتي كانت هي الداءُ» أخذه من قول الأعشى : «وأخرى تداويتُ منها بها» والذي أخذه منه أحسن . ومنها أيضا قولُه : « إن الشَّبابَ مطيّةُ الجهلِ » أخذه من قول النابغة الجَعْديّ : «فإنّ مطيّةَ الجهلِ الشّبابُ» . وقوله : «كطلعة الأشمط من إهابه» أخذه من قول أبي النجم : « كطلعة الأشمط من كسائه» . ولكن رُزِق أبو نواس في شعره أن سار وحَمَله الناسُ وقدّمه أهلُ عصره، وإن له على ذلك لأشياءَ حِسانًا لا يدفعها ولا يطرَحها إلا جاهلٌ بالكلام أو حاســـد .

ومن أحسن مدائح أبي نواس قوله من أرجوزته التي يمدح بها الفضل بن الربيع وهي :

وبلدة فيها زَوَرْ * صَعْراءَ تخطَى في صَعَرْ
مَرْتٍ(١) اذا الذئبُ اقتفرْ * بها من القوم الأثرْ
كان له من الجَزَرْ * كلُّ جَنِينٍ ما اشتكرْ(٢)
ولا تَعَلَّاه شَعَرْ * مَيتُ النَّسا حَيُّ الثَّغَرْ
عَسَفْتُها(٣) على خَطَرْ * وغَرَرٍ من الغَرَرْ
ببازِلٍ حين فَطَرْ * يَهُزُّه جِنُّ الأَشَرْ
لا مُتَشَكٍّ من سَدَرْ(٤) * ولا قريبٍ من خَوَرْ
كأنّه بعدَ الضُّمُرْ * وبعدَ ما جال الضُّفُرْ(٥)
وأَنْمَحَّ في حَسَرْ : * جَأْبٌ(٦) رَبَاعُ المُثْغَرْ
يَحْدُو بُحقْب كالأُكَرْ * ترى بأَثْباجِ القَصَرْ(٧)
منهنّ تَوْشيمَ الجَدَرْ * رَعَيْنَ أبكارَ الخُضَرْ
شَهْرَيْ رَبيع وصَفَرْ * حتى اذا الفحلُ جَفَرْ(٨)
وأشبه السَّفَى الإبَرْ * ونَشَّ أَنْدَاءُ النُّقَرْ(٩)
قُلْنَ له : ما تأتمِرْ ؟ * وهنَّ إذ قُلْنَ : أَشِرْ
غيرُ عَوَاصٍ ما أمَرْ * كأنّها لمن نَظَرْ
رَكْبٌ يَشِيمُونَ مَطَرْ * حتى اذا الظِّلُّ قَصَرْ

(١) المرت : الأرض لا نبات فيها ، واقتفر الأثر : اقتفاه وتبعه . (٢) الجزر (بفتحتين) : ما يذبح من الشاء ذكرا كان أو أنثى . واحدته : جزرة . وما اشتكر : لم ينبت له الشكر وهو الضعيف من الشعر الذى لا يكاد يظهر . (٣) عسفها : سلكها متخبطا ، والغرر : الخطر . (٤) السدر : التحير . (٥) الضمر (بالضم وبضمتين) : الهزال . والضفر : جمع ضفار (بالفتح) وهو ما يشدّ به البعير من شعر مضفور . (٦) الجأب : الحمار الغليظ من حمر الوحش . (٧) الأثباج جمع ثبج وهو وسط الشيء ، والقصر جمع قصرة وهي أصل العنق . (٨) جفر : امتنع عن الضراب . (٩) السفى : كل شجر له شوك ، ونش : نضب ، والنقر : جمع نقرة وهي الوهدة المستديرة من الأرض .

يَمَّمْنَ من جَنْبِي هَجَرْ * أخضرَ طَامَ العَكَرْ
وبين أَحْقافِ القَتَرْ * سارٍ وليس للسَّمَرْ
ولا تِلاواتِ السُّوَرْ * يمسح مِرْنَانًا يُسِرّ [(١)]
زُمَّتْ بمَشْزُورِ المِرَرْ * لأْمٍ كحُلْقُومِ النُّغَرْ [(٢)]
حتى إذا اصْطَفَّ السَّطَرْ * أهدَى لهـا لو لم تُجَرْ
دَهْياءَ يَحْدُوها القَدَرْ * فتلك عَنْسٌ لم تُدَرّ
شَهْبًا إذا الآلُ ظَهَرْ * إليكَ كلَّفْنا السَّفَرْ
خُوصًا يُجاذِبْنَ النَّظَرْ * قد انطوتْ منها السُّرَرْ
طَيَّ القَرارِيِّ الحِبَرْ [(٣)] * لم تتقعَّدْها الطِّيَرْ
ولا السَّنِيحُ المزدَجَرْ * يا أفضَلَ للقوم البَطَرْ
إذ ليس فى الناس عَصَرْ * ولا من الخوف وَزَرْ
ونزلتْ إحدى الكُبَرْ * وقيل صَمَّاءُ الغِيَرْ
فالناسُ أبناءُ الحَذَرْ : * فرَّجْتَ هاتيكَ الغُمَرْ
عنَّا « وقد صابَتْ بقُرّ » [(٤)] * كالشمس فى شخص بشرْ
أعيا مُجارِيكَ الخَطَرْ * أبوكَ جَلِيٌّ عن مُضَرْ
يومَ الرِّواقِ المحتضَرْ * والخوفُ يَفْرِي ويَذَرْ
لما رأى الأمرَ اقمطَرّ [(٥)] * قام كريمًا فانتصَرْ
كهَزَّةِ العَضْبِ الذَّكَرْ * ما مسَّ من شيء هَبَرْ [(٦)]

---

(١) المرنان : القوس . (٢) زمت : شدّت ، ومشزور مفتول ، والمرر : جمع مرة وهى قوة الفتل ، واللأم : الشديد ، والنغر : كصرد البلبل . والعرب تشبه الدقيق بالأوتار وحلاقيم النغران . (٣) القرارى : الخياط
(٤) القر : القرار ، يقال اذا وقع الأمر موقعه : صابت بقر ووقعت بقر . قال طرفة بن العبد البكرى :

كنت منهم كالمغطى رأسه * فانجلى اليوم غطائى وخمر
سادرا أحسب غيي رشدا * فتناهيت وقد صابت بقر

(٥) اشتد . (٦) هبر : قطع .

وأنت تقتاف الأثر * من ذى حجول وغرر
معيد ورد وصدر * وإن علا الأمر اقتدر
فأين أصحاب الغمر * اذ شربوا كأس المقر (١)
وقصروا فيمن قصر * هيهات لا يخفى القمر
أصحرت اذ دبوا الخمر (٢) * شكرا ، وحر من شكر
فالله يعطيك الشبر (٣) * وفى أعاديك الظفر
والله من شاء نصر * وأنت إن خفنا الحصر (٤)
وهر دهر وكشر * عن ناجذيه وبسر (٥)
أغنيت ما أغنى المطر * وفيك أخلاق اليسر
فان أبوا إلا العسر * أمررت (٦) حبلا فاستمر
حتى ترى تلك الزمر * تهوى لأذقان الثغر (٧)
من جذب ألوى (٨) لو نتر * اليه طودا لانأطر (٩)
صعب اذا لاقى أبر * وإن هفا القوم وقر
أو رهبوا الأمر جسر * ثم تسامى فقفر
عن شقشق ثم هدر * ثم تناجى فخطر
بذى سبيب (١٠) وعذر * يمضع أطراف الوبر
هل لك والهل (١١) خير * فيمن اذا غبت حضر
أو نالك القوم ثأر * وإن رأى خيرا شكر
* أو كان تقصير عذر *

(١) المقر : المر . (٢) أصحرت : برزت الى الصحراء ، ودبوا الخمر : مشوا مختفين . والخمر : ما سترك من شجر أو بناء أو نحوه . (٣) الخير والقوة . (٤) الضيق . (٥) كشر أبدى عن ناجذيه ، وبسر : عبس . (٦) أى أحكمت فتله . (٧) جمع ثغرة وهى نقرة النحر . (٨) الألوى : الشديد الخصومة . (٩) اعوج وانثنى . (١٠) السبيب : شعر الذنب والعرف والناصية ، والعذر جمع عذار . (١١) قصد لفظ هل الاستفهامية فأدخل عليها الألف واللام .

ولما عمل أبو نواس القصـيدة التى أولها : * ومستعبِد إخوانَه بثرائه * بلغت الأمينَ، فبعث اليه، وعنده سليمان بن جعفر . فلما دخل عليه قال له : يا عاضّ بَظْرِ أمّه العاهرة ، ويامدّعىَ ولاءِ حاءَ وحَكَمٍ ! أتدرى يابنَ اللَّخْناء من توليت والى من ادّعيت ؟ الى ألأمِ قبيلتين فى اليمن ، عُلُوجٍ باغين . أنت تكتسب بشعرك أوساخَ أيدى الناس اللئام ، وتقول : * ولا صاحب التاج المحجَّب فى القَصْر * أما والله ما نلتَ منّى شيئًا بعد ذلك أبدا ! فقال له سليمان بن أبى جعفر : إى والله ! نعم هو مع هذا من كبار الثنوية (1) (وكان يرمى بذلك) ؛ فقال له محمد الأمين : وهل يشهد عليه شاهد بشىء من ذلك؟ فأتاه سليمان بعدّة نَفَرٍ ، فشهدوا عليه أنه شرب فى يوم مَطِير فوضـع قدحه تحت السماء فى المطر فوقع فيـه المطر ؛ فقالوا له : ما تصنع بذلك وَيْحَك ؟ قال : أنتم تزعُمون أنه ينزل مع كل قطـرة ملكٌ ، فكم ترانى أشرب من الملائكة ! ثم شرب ما فى القـدح ؛ فغضب محمد ، وأمر به الى السجن . فذلك قول أبى نوّاس :

يا ربِّ إنّ القومَ قد ظلَمُونى * وبلا اقترافِ معطِّلٍ حبَسُونى
وإلى الجحود بمـا عرفت خلافَه * ربِّى إليـك بكذْبهم نَسَبُونى
ما كان إلّا الجَرْىُ فى مَيْـدانهم * فى كلِّ خزْىٍ والمجَانَةُ دِينِى
لا العذرُ يُقبَل لى ويَفْرَق شاهدى * منهم ، ولا يرضَوْن حَلْفَ يمينِى
ما كان ـــ لو يدرون ـــ أولَ مَخْبأ * فى دار مَنْقَصة ومنزل هُونِ
أما الأمـينُ فلستُ أرجو دفعَـه * عنّى ، فمن لى اليـوم بالمأمون

فبلغت أبيـاتُه المأمونَ ، فقال : واللهِ لئن لحقتُه لأُغْنِيَنّه غِنًى لا يؤمّله . فمات قبل دخول المأمون بغداد .

لما وصلت الخلافةُ الى محمـد الأمين وولّى الفضـلَ بن الربيع الوزارة ، تفرّغ محمدٌ للّهو والصيد والنزهة ، وكان لا يخرج إلا لصيد أو لنزهة . فخرج ذات يوم وقد أمر الجندَ

(1) الثنوية أصحاب الاثنين الأزليين وهم الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان ، بخلاف المجوس فانهم قالوا بحدوث الظلام .

والقوادَ فركبوا ، ولبس ثيـابَه وتقلد سـيفه ، وأُعدّت الحَـرّاقات[1] والزّلّاجاتُ فى دِجْلة ؛ فقال له اسماعيلُ بن صُبَيْح — وكان كاتبَ سِرّه — : يا أميرالمؤمنين ان قوادَك وجندَك وعامّةَ رعيتك قد خُبثَتْ نفوسُهم ، وساءت ظنونُهم ، وكبُر عنـدهم مايرَوْن من احتجابك عنهم ، فلو جلستَ لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ! فإن فى ذلك تسكينا لهم ومراجعـة لآمالهم ! فجلس فى مجالسه وأذن للناس عامةً فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبـوا ، والشعراء فأنشدوا ، فلم يكن أحد منهم يتعدّى الى الاطناب والتطويل ، الا أُمر بالسكوت ومُنِـع من القول .

وقام فيمن قام أبو نواس ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء الشعراء أهل حَجَر ومَدَر ، وإبل ووصـف للبقر وبيوت الشَّـعَر ، قد جَفَتْ ألفاظُهم ، وغلُظتْ معانيهم ، ليس لهم بَصَر بمدح الخلفاء ونَشْر مكارمهم ، فان رأى أميرُ المؤمنين أن يأذن لى فى إنشاده فليفعل ، فأذن له فأنشده :

أيا دارها بالمـاء حتى تُلينَها * فلن تُـكرم الصَّهْباءَ حتى تُهينَها
أُغالى بها حتى اذا ما ملكتُها * أهنتُ لإكرام الخليل مَصُونَها
وصفراءَ قبل المَزْج بيضاءَ بعده * كأنّ شعاع الشمس يلقاك دونَها
ترى العينَ تستعفيك من لَمَعَانها * وتحسُرُ حتى ما تُقِـلّ جفونَهـا
نَزُوعٌ بنفس المـرء عما يَسُوءه * ويُخْـذِلُه ألّا يزالَ قرينَهـا
كأنّ يواقيتا رواكدُ حولَهـا * وزُرْق سَـنَانير تدير عُيونَهـا
وشَمْطاءَ حلّ الدهرُ منها بنَجْوة * دلفتُ اليهـا فاستللتُ جَنينَها
كأنا حُلُولٌ بين أكْناف روضة * إذا ما سلَبْناها مع الليل طِينَهَا

الى أن أكمل القصـيدةَ . فقال له محمـد : ألم أَنْهَـكَ عن شرب الخمر ! قال : بلى يا أمير المؤمنين ، والله ما شربتُها منذ نهيتَنى عنها ومنعتنى من شُرْبها ، وأنا الذى أقول :

(١) الحراقات : ضرب من السفن فيها مرامى نيران يرمى بها العدوّ فى البحر .

أيها الرائحان باللوم لُوما * لا أذوق المدامَ الا شَميما
نالنى بالمَــلامِ فيهـا إمامٌ * لا أرَى لى خِلَافَه مستقيما
فاصرفاها الى سِـواىَ فإنّى * لستُ الا على الحديث نديما
كبرُحظّى منها إذا هى دارتْ * أن أَرَاها وأن أشمَّ النسيما
فكأنّى وما ازيّن منهـا * قعَـدِىٌّ (١) يُحَسِّن التحكيما
كلّ عن حمله السلاحَ الى الحر * ب فأَوصَى المُطيقَ ألّا يقيما

فتبسّم محمد، وقال له : أحسنتَ ! وقام بعضُ الشعراء فأنشد :

ترقَّ فى فضـائله الامينُ * وزايلَه المُشَاكِلُ والقَـرينُ
وأورق زَهْرةُ التقوى وعَزّتْ * خلافتُـه وصُـدّقت الظُّنُونُ
تَمَسُّ منـابرَ الخلفاء منـه * يَدٌ بخلاف طاعتها المَنُونُ
يخاف الخوفُ صولتَه و يرجو * نداه الجـودُ فهو له خَدين

فقال عِدّة ممّن حضر : قد أوجز وأجاد، أكرم الله أميرَ المؤمنين! فقال أبو نواس : أشعر منه يا أمير المؤمنين الذى يقول :

ألا يا خيرَ من رأتِ العيـونُ * نَظـيرُك لا يُحَسُّ ولا يَكُونُ
وفضلُك لا يُحَـدّ ولا يُجَارَى * ولا تَحْوِى حيازتَه الظنونُ
فأنت نَسِيجُ وحْدِك لا شَـبيهٌ * نُحَاشِيه عليـك ولا خَدِينُ
خُلقتَ بـلا مشاكلة لشىء * فأنت الفـوقُ والثقـلان دُونُ
كأن الملكَ لم يَكُ قبـلُ شيئًا * الى أن قام بالملكِ الامينُ

قال : ففضّله محمد وأحسن جائزتَه . و يقال : إنه قالها بديهًا .

(١) القعدى من الخوارج : الذى يرى رأى القعدة الذين يرون التحكيم حقا، غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس .

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحَـرَّاقةَ الى الشَّماسيَّة، واصطفَّتْ له الخيـل وعليهـا الرجال على شاطئ دجلة، وحُملتْ معه المطابخُ والخزائن . وكان ركوبه حَرَّاقةً[١] على مثال الأسد . فما رأى الناس منظرًا كان أبهى ولا مسيرًا كان أحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه، فقال :

سخَّـر اللهُ للأمين مطايا * لم تسـخَّر لصاحب المحـراب[٢]
فاذا ما ركابُه سِرْنَ بحرًا * سار فى المـاء راكبًا ليثَ غابِ
أسـدًا باسطا ذراعيه يعدو * أَهْرَتَ الشِّدْقِ[٣] كالحَ الأنيابِ
لا يعانيه باللِّجـام ولا السَّو * طِ ولا غَمْزِ رجلِه فى الرِّكابِ
عَجِب الناسُ إذ رأوْكَ على صو * رة ليثٍ تمـرُّ مَرَّ السحابِ
سبَّحوا اذ رأوك سرتَ عليه * كيف لو أبصروك فوقَ العُقَابِ
ذات زَوْر ومِنْسَرٍ وجناحـ * ـين تشُقُّ العُبَاب بعـد العُبَابِ
تسبِق الطيرَ فى السماء اذا ما اسـ * ـتعجلوها بجَيْئـةٍ وذهـابِ
باركَ الله للأمين وأبقا * ه وأبقى له رداءَ الشـبابِ
ملك تَقْصُر المدائحُ عنـه * هاشِمِيٌّ موفَّق للصـوابِ

ويقال : ان هـذا الشعر قاله أبو نواس فى محمد، وقد ركب حراقتَـه الدُّلْفينَ؛ فقـال له شيخٌ الى جانبه : إتّقِ الله يا هذا ! فقال له أبو نواس : يا شيخ، إن الله لم يسخِّر لصاحب المحراب الدُّلفين، وقد سخر له ما هو خير من الدلفين، فأى شئ تنكر من هذا ؟

قال ٱبن حبيبَ : كنت مع مؤنس بن عِمْران، ونحن نريد الفضلَ بن الربيع ببغداد، فقال مؤنس : لو دخلنا على أبى نواس فى السجن فسلّمنا عليـه ! ففعلنا؛ فقال أبو نواس

---

(١) وذلك أنه كان للامين ثلاث من السفن المعـروفة بالحراقات لركوبه خاصـة، وهى الليث والعقاب والدلفين . (٢) صاحب المحراب هو سليمان بن داود عليه السلام لأنه بنى بيت المقدس .
(٣) أهرت الشدق : واسعه . وكالح الأنياب : كاشرها .

لمؤنس: أين تريد ؟ فقال : أريد أبا العباس الفضلَ بن الربيع، قال فبلّغه رقعةً أعطيكها، قال : نعم، فأعطاه رقعة فيها :

ما من يدٍ فى الناس واحدةٍ * كيدٍ أبو العباس مَوْلاها
نام البُغَـاةُ على مضاجعهم * وسَرَى الى نفسى فأحياها
قد كنتُ خِفْتُكَ ثم أمّننى * من أن أخافك خوفُكَ الله
فعفوتَ عنّى عفوَ مقـتدر * وَجَبَتْ له نِقَــمٌ فألغاها

فكانت هذه الأبيات سبب خروجه من السجن .

اِنصرف أبو نواس من بعض المواخير سكرانَ، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصـلاة، فدخل فقام فى الصف الأوّل ؛ فقرأ الأمام : ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فقال أبو نواس من خلفه : لبَّيكَ ؛ فلمـا قضيت الصـلاة لَبَّبُوه(١) وقالوا له : يا كافر نشهد عليك بالكفر ودفعوه . فبلغ خبره الرشيد، فدعا لَه حَمْدُويه صاحب الزندقة ، وأحضر أبا نواس فقال له حمـدويه : يا أمير المؤمنين، إن هـذا ماجن، وليس هو بحيث يُظَنّ ؛ فقال له الرشيد : وَيْحَك ! إنه وقع فى نفسى منه شىء ، فامتحنْه . قال : فخَطَّ له صورة مانى(٢)، وقال له : أُبصُق عليها ؛ فأهوى أبو نواس بفيه ليتفل عليها ؛ فقال له حمدويه : قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ماجن . قال : ودعا برجل من الزنادقة مشهور، وقال له : ابصق عليها؛ فقال : وما معنى البُصَاق ! إنه من أخلاق الشِّرْك ولا أفعـله ، وأبى أن يفعل . فقال الرشـيد لبعض خدم القصر : اِمض بهذا (يعنى أبا نواس) الى السِّنْدى، فقل له : أدِّبْه وأطلقْه ،

---

(١) لببوه : أخذوا بلبيه ، وهو موضع القلادة فى الصدر . (٢) هو مانى بن فاتك الحكيم ، الذى ظهر فى زمن سابور ذى الاكتاف بن أزدشير ، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى عليه السـلام . اتخذ له دينا بين المجوسية والنصرانية . وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام . حكى محمد بن هارون المعروف بأبى عيسى الوراق، وكان فى الأصل مجوسيا عارفا بمذاهب القوم ، أن الحكيم مانى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا ، وأنكر وجود شىء الا من أصل قديم ، وأنهما لا يزالان قوتين حساستين سميعتين بصيرتين ، وهما مع ذلك فى النفس والصورة والفعل والتدبير متضادتان ، وفى الحيز متحاذيتان تحاذى الشخص والظل .

(انظر الملل والنحل للشهرستانى)

وبهـذا (يعنى الزنديق) فقل له : احبسه قِبَلك الى أن تستتيبه، فان تاب وإلا قتلناه . قال : فمضى بهما الخادم ، فلما صار فى آخر الصحن ، قال أبو نواس للخادم : الى أين تذهب بنا ؟ قال : الى السندى ؛ قال : فما تقول له ؟ قال : أقول له : يحبسك قِبَلَه حتى تُستتاب أو تُقتل، ويؤدّب هذا ويطلقه . قال : فرفع أبو نواس يدَه ولطَمه، وقال له : يابن الزانية، من الساعة نسيتَ ! . وبَصُر بهم الرشيدُ، فقال : رُدّوهم ؛ فقال لأبى نواس : ما هـذا الذى رأيتُ منك ؟ قال : أراد والله أن يُهْلِكَنى ويطرحنى بحيثُ أُنْسَى أبدا أو أبقى مخلَّدا ، سَلْه يا أمير المؤمنين عن الرسالة، فاذا هو قد غيّرها ؛ فضحك من أبى نواس وأطلقه .

قال رُزَين الكاتب : اجتمعنا يوما أنا وأبو نواس وعلىّ بن الخليل فى سوق الكَرْخ، وكنا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار ونتحـدّث بها . فقال أبو نواس : أَدْبَرَ مَنْ كان فى نفسى وكان أسرعَ الخلق فى طاعتى، فما أدرى ما أحتال له ؟ فقال على بن الخليل يمازحه : يا أبا على، سَلْ شيخَك وأستاذَك يُعَطِّفْهُ عليك؛ فقال له أبو نواس : من تَعْنِى ؟ قال : من أنت فى طاعته ليلَك ونهارَك (يعنى ابليس) فان لم يقض لك هذه الحاجة ، فما ينبغى لك أن تسأله مسألة ولا أن تُقِرّ عينه بمعصية؛ فقال: هو أسَدُّ لرأيه من أن يُخِلّ بى أو يَخْذُلنى؛ وانقضى مجلسنا ذلك . فلما كان بعدَ أيام اجتمعْنا فى ذلك الموضع، وأخذنا فى أحاديثنا ، فضحك أبو نواس؛ فقلنا له : ما أضحكك؟ فقال : ذكرتُ قول على بن الخليل يومئذ : سَلْ شيخَك يعطفه عليك . حينئذ قد سألتُه يا أبا الحسن فقضى الحاجة، وما مضت والله ثالثةٌ حتى أتانى من غير أن أبعث اليه ومن غير أن أستزيره ، فعاتبنى واسترضانى، وكان الغضب منه والتجنّى، وأحسب الشيخَ (يعنى ابليس) كان يتسمّع علينا فى وقت كلامنا؛ وقد قلت أبياتا فى ذلك ؛ فقلنا : هاتها، فأنشد :

لما جفانى الحبيبُ وامتنعتْ * عنّى الرسالاتُ منه والخبرُ
واشتدّ شوقى فكاد يقتلُنى * ذكرُ حبيبى والهمُّ والفِكَرُ

دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له * فى خَلْوة والدموع تنحــدر:
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد * أقرح جَفْنى البكاءُ والســهرُ؟
إن أنت لم تُلْقِ لى المودةَ فى * صــدر حبيبى وأنت مقتدر
لا قلتُ شـعرا ولا سمعتُ غِنًا * ولا جرى فى مفاصِـلى السَّكَرُ
ولا آزالُ القرآنَ أدرُسُه * أروح فى درسـه وأبتكِرُ
وألزم الصـومَ والصـلاةَ ولا * أزال دهرى بالخـير آتمـرُ
فما مضتْ بعـد ذاك ثالثةٌ * حتى أتانى الحبيبُ يعتـذرُ
ويطلب الودَّ والوِصَالَ على * أفضلِ ما كان قبلَ يهتجرُ
فيالها مِنّةً لقــد عظُمتْ * عنـدى لإبليس ما لها خَطَرُ

لما قَدِم أبو نواس على الخَصيب[1] بمصر أذن له وعنده جماعة من الشعراء فاستنشده ، فقال له : هنا جماعة من الشعراء هم أقدم منّى وأسنّ ، فأْذَنْ لهم فى الإنشاد ، فان كان شعرى نظيرَ أشعارهم أنشدتُ وإلا أمسكتُ ؛ فاستنشدهم الخصيبُ ، فأنشدوا مديحا فى الخصيب ، فلم تكن أشعارهم مقاربةً لشعر أبى نوّاس ؛ فتبسّم أبو نواس ثم قال : أُنْشِدُك أيها الأمير قصيدةً هى بمنزلة عصا موسى تتلقَّفُ ما يأفِكُون؟ قال هات ، فأنشده قصيدته التى أولها :

أجارةَ بيتَيْنا أبوكِ غَيُــورُ * ومَيسورُ ما يُرْجَى لديكِ عَسِيرُ

حتى أتى على آخرها ، فانفضّ الشعراءُ من حوله .

ويقال : إن أبا نواس كان خرج الى مصر فى زِىّ الشُّطَّار[2] وتقطيعهم بطُرّة قد صَفَّفها وكُمَّين واسعين وذيل مجرور ونعـل مطبق ، وكان خروجه مع سليمان بن أبى سهل ؛ فلما دخل على الخَصيب بهذه الصورة ازدراه واستخفّ به ، وكان تَرِد عليه كتبُ الجِلّة من

(١) هو الخصيب بن عبد الحميد العجمى أمير مصر على الخراج . واليه تنسب منية الخصيب بالوجه القبلى وليس بابن صاحب نهر أبى الخصيب ، ذاك عبد للنصور يقال له مرزوق . وكان هـذا رئيسا فى أراضيه . فانتقل الى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازى ، ثم انتقل الى الامارة .

(٢) الشطار : جمع شاطر وهو من أعيا أهله خبثا .

بباب السلطان، ووردت كتب أبى نواس فيها فقرأها ولم يستنشده، فانصرف مهموما .
وجاءه أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه للخصيب، فاستحضره فأنشده :

أجارةَ بَيْتَيْنا أبوكِ غيورُ * وميسورُ ما يُرجَى لديك عسيرُ
فان كنتِ لا خِلْما(١) ولا أنت زوجةٌ * فلا برحَتْ دونى عليك ستُورُ
وجاورتُ قوما لا تزاوُرَ بينهم * ولا وصلَ الّا أن يكون نُشُورُ
فما أنا بالمشغوفِ ضربةَ لازبٍ * ولا كلُّ سلطانٍ علىّ قديرُ
وانّى لطَرْفِ العين بالعين زاجرٌ * فقد كدتُ لا يَخْفَى علىّ ضميرُ
كما نظرتْ والريحُ ساكنةٌ لها * عُقَابٌ بأرساغ اليدين نُدُورُ(٢)
طوتْ ليلتين القوتَ عن ذى ضرورةٍ * أُزَيْغِبَ(٣) لم ينبُتْ عليه شكيرُ
فأوفتْ على علياءَ حين بدا لها * من الشمس قرنٌ والضَّريبُ(٤) يمورُ
تقلِّبُ طرفًا فى حجَاجَىْ(٥) مغارةٍ * من الرأسِ لم يدخُل عليه ذُرُورُ

ولما قال أبو نواس :

تقول التى من بيتها خَفَّ مركبى : * عزيزٌ علينا أن نراك تسيرُ
أما دون مصر للغنى متطلَّبٌ ؟ * بَلَى إن أسباب الغنى لكثيرُ
فقلتُ لها واستعجلتها بوادرٌ * جرتْ فجَرى فى جَريهن عَبيرُ
ذَرِينى أُكثِّر حاسديك برِحْلةٍ * الى بلدٍ فيه الخصيبُ أميرُ

قال له الخصيب : اذًا يكثُر حسادها وتبلغ أملَها، وأمر له بألف دينار .

---

(١) الخلم : الصديق . (٢) الندور : خروج العظم من موضعه أو زواله وفى البيت من سوء التركيب ما فيه ، والتقدير فيه كما نظرت عقاب لها بأرساغ اليدين ندور والريح ساكنة . (٣) أزيغب تصغير أزغب وهو الفرخ ذو الزغب أى الريش الدقيق اللين . والشكير : الريش أوّل ما ينبت . (٤) الضريب : الثلج أو الجليد . ويمور : يتحرك أو يجيء ويذهب أو يسيل على وجه الأرض . (٥) الحجاجان مثنى حجاج وهو العظم الذى ينبت عليه شعر الحاجب . والذرور : ما يذر فى العين من الدواء .

وتمامها :

اذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيب ركابُنا * فأىّ فتًى بعــدَ الخصيب تزور !
فما جازه جـودٌ ولا حَلَّ دونَه * ولكن يصير الجودُ حيث يصير
فتًى يشترى حسنَ الثناء بماله * ويعـلم أن الدائرات تَدُورُ
ولم تَرَعيني سُودَدًا مثـلَ سُودَدٍ * يحـلُّ أبو نصـرٍ به ويسير
وأطـرق حَيَّات البلاد لحيّـةٍ * خَصِيبيّةِ التصميم حين تَسُورُ (١)
سموْت لأهل الجور فى حال أمنهم * فأضحَوْا وكـلٌّ فى الوَثاق أسـيرُ
اذا قام غنّته على الساق حِلْيـةٌ * لهـا خَطْوُه عنـد القيام قصيرُ
فمن يَكُ أمسى جاهلًا بمقـالتى * فان أمـيرَ المؤمنين خَبِـيرُ
فما زلتَ تُوليه النصيحةَ يافعًا * الى أن بدا فى العارضَيْن قَتِـيرُ (٢)
إذا غاله أمرٌ فإمّا كفَيْتَه * وإما عليــه بالكفاء تُشـيرُ
إليك رمت بالقوم هُوجٌ كأنما * جماجمها تحت الرِّحال قبـور
رحلْنَ بنا من عَقْرَقُوفَ (٣) وقد بدا * من الصبح مفتوقُ الأديم شَهِيرُ
فما نَجِدتْ (٤) بالمـاء حتى رأيتُها * مع الشمس فى عينَىْ أُبَاغَ تَغُورُ
وغُمِّـرْن من ماء النقيب بشَرْبةٍ * وقد حان من ديك الصباح زَميرُ
ووافَيْنَ إشراقا كنائسَ تَدْمُرٍ * وهنّ الى رُعْن المدخّن صُورُ (٥)
يؤمّمْنَ أهلَ الغُوطتين كأنما * لهـا عنـد أهل الغُوطتَيْن ثُؤُورُ
وأصبحْنَ بالجولان يَرْضَخْنَ (٦) صخرَها * ولم يبق من أجراحهن شُـطُورُ
وقاسـيْنَ ليلا دون بَيْسانَ لم يكد * سَـنَا صبحه للناظرين يُنيرُ
وأصبحن قد فوَّزْنَ من نهر فطرسٍ * وهنّ عن البيت المقـدّس زُورُ (٧)

(١) تسور : تثب . (٢) القتير : الشيب . (٣) عقرقوف : اسم موضع .
(٤) نجدت : عرقت .
(٥) صور : مائلات . (٦) يرضخن : يكسرن . (٧) زور : جمع زوراء بمعنى مائلة .

طوالب بالرُّكبان غرة هاشم * وفى القَرَما من حاجهن شُقُور(١)
ولما أتت فسطاطَ مصر أجارها * على ركبها أن لا تزال مجيرُ
من القوم بَسَّامٌ كأن جبينَه * سَنَا الفجر يَسْرى ضوءُه وينيرُ
زها بالخصيب السيفُ والرمح فى الوَغَى * وفى السّلم يزهو منبرٌ وسريرُ
جوادٌ اذا الأيدى كففْنَ عن الندى * ومن دون عورات النساء غَيُورُ
له سَلَفٌ فى الأعجمين كأنهم * إذا استُؤذنُوا يومَ السلام بدورُ
وإنِّى جدير اذ بلغتُك بالمنى * وأنت بما أمّلتُ منك جديرُ
فان تُولِنِى منك الجميلَ فأهلُه * وإلا فإنّى عاذرٌ وشَكُورُ

وقال يمدح العباس بن الفضل بن الربيع وأجاد :

ساد الملوكَ ثلاثةٌ ما منهمُ * إن حُصِّلُوا إلا أغرُّ قَرِيعُ
ساد الربيعُ وساد فضلٌ بعدَه * وعَلَتْ بعباس الكريم فُرُوعُ
عباسُ عباسٌ اذا احتدم الوَغَى * والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعُ

وقال يعاتب عُمَر الورَّاق :

يا من جَفَانِى وَمَلَّا * نسيتَ أهلًا وسَهْلَا
ومات مرحبُ لما * رأيتَ مالىَ قَلَّا
انى أظنك تَحْكِى * فيما فعلتَ القِرلّى(٢)
تلقاه فى الشرّ يَنْأَى * وفى الرخا يتدلَّى

وله فى عزة النفس :

ومستعبدٍ إخوانَه بثرائه * لبستُ له كِبرًا أبرّ على الكِبْرِ
اذا ضَمَّنِى يومًا وإياه مَحْفِلٌ * يرى جانبى وَعْرًا يزيد على الوَعْرِ

---

(١) جمع شقر وهو الأمر الملتصق بالقلب المهم له .

(٢) القرلى : كان طير وكان لا يسمع لأحد شيئا إلا جاء اليه وداخله ولا يخلف عن طعام لأحد ، واذا سمع بخصومة لم يقرب ذلك ، فضرب به المثل حتى قيل لطير من طيور الماء يوفى عليه : القرلى .

أُخالفـــه في شكله وأجرّه * عليا لمنطق المبرور والنظر الشزْر
وقـــد زادني تيهًا على النـاس أنني * أراني أَغناهم وإن كنتُ ذا فَقْرِ
فوالله لا يُبْـــدِى لساني لِحَاجَةٍ * الى أحد حتى أُغَيَّب في قـــبرى
فلا يطمعَنْ في ذاك منّىَ طامعٌ * ولا صاحبُ التاج المحجَّبُ في القصر
فلو لم أَرِثْ فخـــرًا لكانت صيانتي * عن الناس حَسْبِي من سؤالي من الفَخْر

دخل أبو نواس بعد ما نسك على قوم من إخوانه عندهم شرابٌ ومغَن، فعرضوا عليه الجلوس فأبى، وأخذ الدواةَ والقرطاس وكتب :

اذا لم تَنْـهَ نفسَك عن هواها * وتُحْسِن صونَهـا فاليـكَ عَنِّي
فاني قـد شبعْتُ من المعاصي * ومن إدمانهـا وشبِعْنَ مـنِّي
ومن أسـوا وأقبح من لبيبٍ * يرى متطنزا في مثـل سنِّي

ومن شعر أبي نواس :

عفَى المصـلَّى وأقوت الكُثُبُ * مِـنِّي فالمِرْبدانِ فاللَّبَبُ
منـازلٌ قـد عَمَـرْتُهـا يَفَعًا * حـتى بدا في عِذارىَ الشُّهُبُ
في فتيـةٍ كالسيوف هَزَّهمُ * شَرْخُ شـبابٍ وزانَهـم أدب
ثم أراب الزمانُ فاقتسموا * أيدى سَبَا في البـلاد فانشعبُوا
لن يُخْلِفَ الدهْرُ مثلَهـم أبدا * عليّ هيهـاتَ شأنُهـم عجبُ
لمـا تيقَّنْتُ أن رَوْحتَهـم * ليس لهـا ما حييتُ منقـلَبُ
أَبْليتُ صـبرا لم يُبْـلِه أحد * واقتسـمتْني مآربٌ شُـعَبُ
لذاك أنّي اذا رُزِئتُ أخًا * فليس بيـني وبينَـه نَسَبُ
قُطْرَبُّل مَرْبَعِي ولى بقُـرَى الـ * ـكَرخِ مَصيفٌ وأُمِّىَ العِنَبُ
تُرْضِـعُني دَرَّها وتُلْحِفُـنى * بظلِّهـا والهجـيرُ يلتهبُ
اذا تَنَتْـه الغصونُ جلَّلَني * فَيْنـانُ[(١)] ما في أَديمِـه جَرَبُ

(١) الفينان : الظل الكثيف ، والجرب ، أى لا خال فيه .

تبيت في مأتم حمائمه * كما ترآءى الفواقد السلب
يهب شوقي وشوقهن معا * كأنما يستخفنا الطرب
فقمت أحبو الى الرضاع كما * تحامل الطفل مسه السغب
حتى تخيرت بنت دسكرة * قد عجمتها السنون والحقب
هتكت عنها والليل معتكر * مهلهل النسج ماله هدب
من نسج خرقاء لا تشد لها * أخية في الثرى ولا طنب
ثم توجأت خصرها بشبا الـ * إشفى فجاءت كأنها لهب
فاستوسق الشرب للندام وأجـ * ـراها علينا اللجين والغرب (١)
أقول لما تحاكيا شبها * أيهما للتشابه الذهب
هما سواء وفرق بينهما * أنهما جامد ومنسكب
ملس وأمثالها محفرة * صور فيها القسوس والصلب
يتلون إنجيلهم وفوقهم * سماء خمر نجومها حبب
كأنها لؤلؤ تبدده * أيدي عذارى أفضى بها اللعب

ومن جيد شعره قوله لما منعه الأمين من شرب الخمر، وذلك أن المأمون أمر الخطباء بخراسان أن يعيبوا الأمين بشعر أبي نواس ويقولوا هو جليسه ونديمه وينشدوا على المنابر شعره، فمنعه الأمين فقال :

غننا بالطلول كيف بلينا * واسقنا نعطك الثناء الثمينا
من سلاف كأنه كل طيب * يتمنى مخبر أن يكونا
أكل الدهر ما تجسم منها * وتبقى لبابها المكنونا
ثم شجت فاستضحكت عن لآل * لو تجمعن في يد لاقتنينا
واذا ما لمستها فهباء * تمنع الكف ما تبيح العيونا

(١) الغرب : الذهب .

في كؤوسٍ كأنهنّ نجومٌ * جارياتٌ بروجُها أيدينا
طالعاتٌ من السُّقاة علينا * فاذا ما غربْنَ يغْربْنَ فينا
لو ترى الشَّرْبَ حولها من بعيدٍ * قلتَ قومٌ من قِرَّةٍ يصْطَلُونا
وغزالٍ يُديرُها ببنانٍ * ناعماتٍ يزيدُها الغَمْرُ لِينَا
ذاكَ عيشٌ لو دام لى غيرَ أنِّى * عفتُه مكرهًا وخفتُ الأمينَا
أدِرِ الكأسَ حان أن تسقينا * وانقُرِ العُودَ إنه يُلْهينَا
ودَعِ الذكرَ للطُّلولِ اذا ما * دارتِ الكأسُ يَسْرةً ويمينَا

ومن قول أبي نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر:

غرَّد الديكُ الصَّدُوح * فاسقِنى طاب الصَّبُوحُ
اسقِنى حتى ترانى * حَسَنًا عندى القبيحُ
قهوةً تذكر نوحًا * حين شاد الفلكَ نوحُ
نحن نُخفيها ويأبَى * طيبُ عَرْفٍ فيفُوحُ
فكأن القومَ نُهْبَى * بينهم مسكٌ ذَبِيحُ
أنا فى دنيا من العبـ * ـاس أغْدو وأروحُ
هاشمىٌّ عَبْدُ لى * عنده يغلو المديحُ
علَم الجودِ كتابٌ * بين عينيه يلوحُ
كلّ جو يا أميرى * ما خلا جودَك رِيحُ
إنما أنتَ عطايا * أبدا ما تستريحُ
بَحَّ صوتُ المالِ ممّا * منك يَشْكو ويَصيحُ
ما لهذا أحدٌ فو * قَ يديه أو نَصِيحُ
جُدْتَ بالأموالِ حتَّى * قيل ما هذا صحيحُ
فهْو بالمال جوادٌ * وهو بالعِرْضِ شحيحُ
صُوِّرَ الجودُ مثالًا * وله العباسُ رُوحُ

قال محمد بن عُيَينة : لقيت أبا نُوَاسٍ بعسكرِ مُكْرَم فقلت له : أحبّ أن تنشدنى من شعرك شيئًا تَضَنّ به على غيرى، فأنشدنى :

يَكْفِى الكريمَ من الكلا * م لمن يحادثه أَقَلُّه
والشىءُ شىءٌ لم يَزَلْ * بأدقِّه يأتى أجَلُّه
إن لم يُصِبْكَ من الكريـ * ـم الحُرِّ وابلُه فطَلُّهْ
يُبْدِى مكارمَه كما * يُبْدِى فِرِنْدَ السيف سَلُّهْ
والنذلُ يُوقِع نفسَه * متعمِّدًا فيما يُذِلُّهْ
والحُرُّ يكرِم نفسَه * بالصفح عمّن لا يُجِلُّهْ

وقال أبو نواس يمدح الأمين :

صببتُ على الأمين ثيابَ مدحى * فكلُّ الناس حسَّن وٱستجادَا
ولولا فضلُه ما جاد شعرى * ولا أعطتْنِىَ الفِطَنُ القِيَادَا
وقالوا قد أجدتَ فقلتُ إنّى * وجدتُ القولَ يمكنُنى فجادا

ومن خمرياته :

ذكر الصَّبُوحَ بسُحْرةٍ فارتاحا * وأمـلَّه ديكُ الصباح صِيَاحَا
أَوْفَى على شَرَفِ الجدار بسُدْفَةٍ * غَرِدًا يصفِّق بالجناح جَنَاحَا
فأدِرْ صباحَك بالصَّبُوحِ ولا تكن * كَمُسَوِّفِين غَدَوْا عليك شِحَاحَا
إن الصَّبُوحَ جِلَاءُ كل مُخَمَّر * بدرتْ يَدَاه بكأسه الإصْبَاحَا
وخَدِينِ لَذَّاتٍ معلّل صاحبٍ * تقتاتُ منه فكاهةً ومزاحَا
نبّهتُه والليلُ ملتبسٌ به * وأزحتُ عنه نُعَاسَه فانزاحَا
قال ابْغِنِى المصباحَ، قلت له ٱتّئِدْ * حَسْبِى وحَسْبُك ضوؤُها مصباحَا
فسكبتُ منها فى الزجاجة شَرْبَةً * كانت له حتى الصباح صَبَاحَا

مِن قهوةٍ جاءتْك قبـــل مِزاجِها * عُطُـــلًا فألبسها المـــزاج وِشَاحَا
شَـــكَّ البِزَالُ فـؤادَها فكأنهـا * أهـــدتْ اليك بريحهـا تُفَّاحَا
صفراء تفترسُ النفوسَ فلا ترى * منها بهنّ ســوى السُّبات جِرَاحَا

ومنهـا :

لا تَبْـكِ لَيْـلَى ولا تطربْ الى هنـد * وآشربْ على الورد من حمراءَ كالوردِ
كأسًا اذا انحدرتْ فى حلقِ شاربهـا * أجدَتْه حمرتَهـا فى العينِ والخـدِّ
فالخمـــر ياقـــوتةٌ والكأس لؤلؤةٌ * من كفِّ لؤلؤة ممشوقة القـــدِّ
تسقيك من طَرْفِها خمـــرا ومن يدها * خمرا فمـا لك من سكرَيْنِ مـن بُدِّ
لى نشـــوتانِ وللنّـــدْما ن واحدةٌ * شىءٌ خُصِصْتُ به من دونهم وَحْدِى

كان الأصمعى يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة :

أما ترى الشمسَ حَلَّتِ الحَمَلَا * وطاب وقتُ الزمان واعتدلا
وغَنَّتِ الطـــيرُ بعد عُجْمَتِهـا * واستوفتِ الخمرُ حَوْلَهـا كَمَلَا
واكتستِ الأرضُ من زخارفها * وَشْىَ ثيـابٍ تخـالُه حُلَلَا
فاشربْ على جِدّة الزمان فقد * أصبح وجهُ الزمانِ مقتبلا
من قهـوةٍ تُذهِب الهمومَ فلا * أَرْهَبُ فيهـا المـلامَ والعَذَلَا
كَرْخِيَّةٍ تترك الطويلَ من العيـ * ـش قصـــيرًا وتبسُط الأملا
تَلْمَعُ لمعَ السرابِ فى قَدَحِ الـ * ـقوم اذا ما حَبَابُهـا اتصـلا
يقول صِرْفٌ اذا مزجتُ له * من لم يكن للكثير محتملا
فسَـــقِّ هـــذا بقدر طاقته * وآحمِلْ على ذا بقدر ما آحتملا
مُجَّنَا بشيئين من طبائعها * حسن وطيبٍ ترى به المَثَلَا

كان أبو نواس لا يُستنشَد شيئا من شعره إلا أنشد هذه القصيدةَ :

وخَيْمــةِ نَاطُــورٍ[1] برأس مُنِيفــةٍ * تَهُمُّ يدًا مَنْ رامها بَزَلِيــلِ[2]
اذا عارضَتْها الشمسُ فَاءَ ظلالُهــا * وإن واجهتْها آذنتْ بدُخُــولِ
حَطَطْنا بهــا الأثقــالَ فَلَّ هَجِيرةٍ[3] * عَبُــوريةٍ تُذْكَى بغــير فَتِيــلِ
تأَتَّتْ[4] قليــلًا ثم فاءتْ بَمــذْقةٍ * من الظلِّ فى رَثِّ الأَبَاءِ ضَئِيــلِ
كأنّا لديْها بين عِطْفَىْ نعــامةٍ * جَفَــا زورُها عن مَبْرِكٍ ومَقِيــلِ
حلبتُ لأصحــابى بهــا دِرَّةَ الصِّبَا * بصَهْبــاءَ من ماء الكروم شَمُــولِ
اذا ما أَتَتْ دون اللَّهــاةِ من الفتى * دعا همَّــه من صدره برَحِيــلِ
فلما توقَّ الشمسَ جِنْحٌ من الدُّجى * تصابيتُ وٱستجملتُ غيرَ جميلِ
وعاطيتُ من أَهْوَى الحديثَ كما بدا * وذلَّلْتُ صعبًا كان غيرَ ذَلِيلِ
فغنَّى وقــد وسَّدْتُ يُسْرَاىَ خدَّه * ألا ربمــا طالبتُ غيرَ مُنِيــلِ
وأنزلتُ حاجاتى بحَقْوَىْ مساعدٍ * وإن كان أدنى صاحب وخليــلِ
وأصبحتُ أَلْحَى السكرَ والسكرُ محسنٌ * ألا رُبَّ إحسانٍ عليــكَ ثقيــلِ
كفى حَزَنًا أن الجــوادَ مقــتَّرٌ * عليــه ولا معروفَ عنــد بخيــلِ
سأَبْغِى الغنى إما جليسَ خليفــةٍ * يقــوم ســواء أو مخيفَ ســبيلِ
بكلِّ فــتًى لا يُسْــتطارُ جَنَــانُه * اذا نوَّه الزَّحْفانِ باسم قتيــلِ
لنَخْمِسَ مالَ الله من كلِّ فاجرٍ * أخى بِطْنــةٍ للطيِّبات أَكُولِ
ألم ترَ أن المــالَ عَوْنٌ على النَّدَى * وليس جــوادٌ مقــترٌ كبخيــلِ

---

(١) الناطور : حافظ النخل والكرم والزرع وفى البارع : الناطر والناطور بالطاء المهملة حافظ الزرع ، من كلام أهل السواد وليس بعربى محض . (٢) الزليل مصدر كالزلل . (٣) أى منهزمى هاجرة ، وعبورية نسبها الى الشعرى العبور وأيام طلوعها أيام الحر الشديد . (٤) يعنى الشمس ، أى توقفت فى الجو عند زوالها . وفاءت بمذقة ، أى دخلت عليهم من تلك الخيمة الخلقة التى ثبتت على الأباء الضعيف من القصب الرث فلم تقو الشمس وعليهم لم تمنعهم الخيمة بستر قوى فيصير ظلا ولكنه شمس وظل ، فشبهت بالمذوق من اللبن ، أى الممزوج .

فإن استُزيد أنشدَ هذه القصيدةَ الأخرى :

كان الشبابُ مطيـةَ الجهـل * ومحسِّن الضحكاتِ والهَزْلِ
كان الجمـالَ اذا ٱرتديتُ به * ومشيتُ أخْطِر صَيِّتَ النعـلِ
كان البليـغَ اذا نطقتُ به * وأصاختِ الآذانُ لِلْمُمْـلِي
كان المشـفَّع في مآربه * عنـد الفتـاةِ ومدرِكَ التَّبْـلِ
والآمِرِي حـتى اذا عزمتْ * نَفْسِي أعان يدىَّ بالفِعْـلِ
فالآنَ صِرتُ الى مقـاربة * وحططتُ عن ظهرالصِّبَا رَحْلِي
والراحِ أَهْـواها وإن رَزَأتْ * بُلَغَ المعـاشِ وقلَّلَتْ فَضْـلِي
صـفراء مجَّـدها مَرَازِبُهـا * جَلَّتْ عن النُّظَـراءِ والمِثْـلِ
ذُخرتْ لآدمَ قبـل خِلْقتِـه * فتقـدَّمتْه بخُطْـوة القَبْـلِ
فأتاك شيءٌ لا تلامِسُـه * إلا بحسنِ غَرِيزة العقـلِ
فتَرود منهـا العينُ في بَشَرٍ * حُرِّ الصفيحة ناصعٍ سَهْـلِ
فاذا عـلاها المـاءُ ألبسَهـا * حَبَبًا شبيـهَ جَلاجلِ الحَجْلِ
حـتى اذا سكنتْ جَوَامحُها * خطَّت بمثـل أكارع النَّمْـلِ
خطَّيْن من شـتَّى ومجتمعٍ * غُفْـلٍ من الإعجـام والشَّكْلِ
فاعـذِر أخاك فإنه رجـلٌ * مَرَنتْ مسامعُـه على العَذْلِ

ومن طيب شعره، والشطر الأول من القصيدة لفظ ابن الدُّمَينة :

أعاذلَ ما على وجهى قُتُـومُ * ولا عِرْضِي لأوبِ مَنْ يَسُـومُ
يفضِّلنى على الفتيانِ أنّى * أبيتُ فـلا أُلام ولا أَلُوم
أعاذل إن يكـن بُرْدَايَ رَثًّا * فـلا يَعْـدَمْك بينهما كريمُ
شُقِقْتُ من الصبا واشْتُقّ منّى * كما اشْتُقَّتْ من الكَرَم الكُرُومُ
فلستُ أَسُـومُ للذات نفسِى * مسـاومـةً كما دفع الغـريمُ

ومتصلٍ بأسباب المعالى * له فى كل مكرمةٍ قديمُ
رفعتُ له النداءَ بقُمْ نخُذْها * وقد أخذتْ مطالعها النجومُ
بتفديةٍ تزال النفسُ فيها * وتُمْتهن الخؤولةُ والعمومُ
فقام وقمتُ من أخوينْ هاجا * على طربٍ وليلُهما بهيمُ
أجرّ الزِّقّ وهو يجرّ رجلا * يجور به النعاسُ ويستقيمُ
سَلِ النّدْمان ما أولتْه منها * وسَلْها ما احتوى منها الكريمُ
كلا الشخصينْ منتصفٌ ولكن * قضتْ وَطَرًا وذا منها سَقيمُ

وقال :

إنِّى صرفتُ الهوى الى قَمَرٍ * لم تبتذله العيونُ بالنظرِ
اذا تأملتَه تعاظمك آلـ * إقرارُ أنه من البشرِ

ومن قوله :

يا شقيقَ النفسِ من حَكَمِ * نمتَ عن ليلى ولم أنَمِ
فاسْقِنِى البكرَ التى آختمرتْ * بخمارِ الشيبِ فى الرَّحِمِ
ثُمّتَ آنصاتَ الشبابُ لها * بعد ما جازتْ مَدَى الهَرَمِ
فهى لليومِ التى بُزِلتْ * وهى تِرْبُ الدهرِ فى القِدَمِ
عَتُقتْ حتّى لو آتصلتْ * بلسانٍ ناطقٍ وفَمِ
لاحتبتْ فى القوم ماثلةً * ثم قصّتْ قصّةَ الأممِ
فرعتْها بالمزاجِ يدٌ * خُلِقتْ للسيفِ والقلمِ
فى نَدَامَى سادةٍ زُهُرٍ * أخذوا اللذاتِ من أَمَمِ
فتمشّتْ فى مفاصلهم * كتمشِّى البُرْءِ فى السَّقَمِ
فعلتْ فى البيتِ اذ مُزِجَتْ * مثلَ فعلِ الصبحِ فى الظُّلَمِ
فاهتدى سارى الظلام بها * كاهتداء السَّفْرِ بالعَلَمِ

ومن طَرْدِيّاتِ أبي نواس في صفة الكلب :

أنعتُ كلباً أهــلُه من كَدِّهْ * قد سـعِدتْ جُدودُهم بجَـدِّهْ
فكلّ خيرٍ عندَهم من عِنْـدِه * وكل رِفْـد نالهم من رِفْدِهْ
يظَلّ مـــولاه له كعبــدِهْ * يبيتُ أدنى صاحبٍ من مَهْدِهْ
وإن عرى جلّله ببــبُرْدِهْ * ذا غُـــرّة محجّــلا بزَنْدِهْ
تلَذُّ منـه العينُ حسنَ قدِّه * يا حُسْنَ شِدْقيْـه وطولَ قدِّه
تلْقَ الظبـاءُ عنتَــا من طَرْدِهْ * يشربُ كأسًا شدُّها من شَدِّهْ
* يا لك من كلبٍ نسيجِ وَحْدِهْ *

أبو نواس وجَنَــان

قال أبوالفرج : كانت جَنَانُ هذه جارية آلِ عبد الوهاب بن عبد المجيد الثَّقَفي، وكانت حلوةً جميلةَ المنظر أديبةً، ويقال : إن أبا نواس لم يَصْدُق في حبِّ امرأةٍ غيرها، وقيل له يوما إن جنانَ قد عزمتْ على الحج، فكان هذا سببَ حجه وقال : أما والله لا يفوتني المسيرُ معها والحجُّ عامي هذا إن أقامت على عزيمتها، وقال وقد حج وعاد :

ألم تر أنني أفنيتُ عمري * بمطلبها ومطلبُهـا عســـيرُ
فلمـا لم أجــدْ سببًا اليهـا * يقرّبني وأعيتْني الأمـــورُ
حَجَجْتُ وقلتُ قد حَجَّتْ جنانٌ * فيجمَعُني وإياها المَســيرُ

قال مَنْ شهده حين حجّ مع جنان وقد أحرم : لمـا جَنَّه الليلُ جعل يلبِّي بشعر ويحْدُو به ويطرَب، فغنَّى به كلُّ من سمعه وهو قوله :

إلهنـا ما أعـــدَلَكْ * مَليـــكَ كلِّ من مَلَكْ
لبَّيْـكَ قـد لبَّيْتُ لكْ * لبيــكَ إن الحمـدَ لكْ
والملكَ لا شريكَ لكْ * والليـلَ لمـا أن حَلَكْ

والسابحات فى الفَلَكْ * على مجَارِى المُنْسلَكْ
ما خاب عبدٌ أمَّلَكْ * أنت له حيثُ سَلَكْ
لولاك يا ربِّ هلَكْ * كلُّ نبيٍّ ومَلَكْ
وكل مَنْ أهلَّ لكْ * سبَّح أو لبَّ فلَكْ
يا مخطئًا ما أغفلكْ * عجِّل وبادرْ أجلَكْ
واختمْ بخيرٍ عملَكْ * لبَّيك ان الملكَ لَكْ
والحمدُ والنعمةُ لكْ * والعزُّ لا شريكَ لكْ

وفيها يقول :

جَفْنُ عينِي قد كاد يسـ * ـقطُ من طولِ ما اختلجْ
وفؤادى من حرّ حبـ * ـك والهجرِ قد نَضَجْ
خبِّرينى فدتكِ نفـ * ـسى وأهلى متى الفرجْ
كان ميعادُنا خرو * جَ زيادٍ فقد خرجْ
أنت من قتلِ عاشقٍ * بكِ فى أضيقِ الحَرَجْ

قال الأصفهانى : قال محمد بن ابراهيم بن كثير الصُّوفى : دخلنا على أبى نواس نَعُوده فى علته التى مات فيها ، فقال له على بن صالح الهاشمى : يا أبا على ، أنت فى أول يوم من أيام الاخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، و بينك و بين الله عزوجل هَنَاتٌ ، فتُبْ الى الله عز وجل ، فبكى ساعةً ثم قال : سانِدُونى سانِدُونى ، ثم قال : أَأُخَوَّفُ بالله عز وجل وقد حدثنى حماد ابن مسلم عن زيد الرَّقَاشِى عن أَنَس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل نبيٍّ شفاعةٌ وانى اختبأتُ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى يومَ القيامة » أفترانى لا أكونُ منهم ؟

ومن قوله في مرض موته :

دبَّ فيَّ السقامُ عُلْوًا وسُـفْلا ۞ وأراني أموتُ عُضْوا فعُضْوًا

ليس تمضي من لحظةٍ بيَ إلّا ۞ نقصـتني بمـرِّها فيّ جُزْوَا

ذهبتْ جِدّتي بطـاعة نفسي ۞ وتطلبتُ طاعةَ الله نِضْـوا

لهفَ نفسي على ليـالٍ وأيا ۞ مٍ تجاوزتُهن لِعْبًا ولَهْـوًا

قـد أسأنا كلَّ الإساءة فاللـ ۞ ـهمّ صفحًا عنـا وغَفْرا وعَفْوًا

ثم قال :

شعْر حيٍّ أتاكَ من لفظ مَيْتٍ ۞ صار بين الحياة والموت وَقْفـا

قد برتْ جسمَه الحوادثُ حتى ۞ كاد عن عين الخـلائق يَخْفَى

لـو تأملتَني لتُبْصرَ وجهي ۞ لم تبنْ من كتاب وجهيَ حَرْفَا

ولكرَّرْتَ طَرْفَ عينيكَ فيمن ۞ قـد براه السقام حتى تعَـفَّى

وكان عمر أبي نواس تسعا وخمسين سـنة ، وكانت وفاته قبل دخول المأمون مدينـة السلام بست سنين (سنة ١٩٨) .

٢ — العَتّابي (١)

قال أحمد بن سَهْل : تذاكرنا شعرَ العَتّابي فقال بعضُنا : فيـه تكلّف ، ونَصَره بعضُنـا ، فقال : شيخ حاضر ، ويحكم ! أيقال إن فى شعره تكلّفا وهو القائل :

رُسُلُ الضَّمير اليك تَتْرَى * بالشوق ظالعةً وحَسْرى
متزجِّيَـات (٢) ما يَنِيـ * ـنَ على الوَجَامن بعد مَسْرى
ما جَفَّ للعينين بعـ * ـدك ياقرير العين مَجْرى
فاسْـلَمْ سَـلِمتَ مُبَرّأً * من صَبْوتى أبداً مُعَرّى

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابى التغلبى من ولد عتاب بن أسيد ثم من بنى تغلب بن وائل ، شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف فى فنون الشعر مقدّم ، من شعراء الدولة العباسية ، وكان منقطعا الى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به ، فبلغ عنده كل مبلغ وعظمت فوائده منه .

وكان حسن الاعتذار فى شعره ورسائله وله مصنفات فى المنطق والأدب واللغة وكان يقيم فى رأس عين بعيـدا عن دور الخلفاء والأمراء . وبلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إشخاصه اليه فجاء وعليه قميص غليظ وفروة وخف ، وعلى كتفه ملحفة حاوية بغير سراويل ، فلما رفع الخبر بقدومه إلى الرشيد أمر بأن تفرش له حجرة وتقام له وظيفة ففعلوا ، فكانت المائدة إذا قدّمت اليه أخذ منها رقاقة وملحا وخلط الملح بالتراب فأكلهما ، فاذا كان وقت النوم نام على الأرض ، والخدم يتفقدونه ويتعجبون من فعله . وسأل الرشيد عنه فأخبروه فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلى وهو فى منزله فسلم عليه وانتسب له فرحب به وقال له « ارتفع » فقال « لم آتك للجلوس » قال « فما حاجتك » قال « دابة أبلغ عليها إلى رأس عين » فقال : يا غلام ، أعطه الفرس الفلانى : فقال : لا حاجة لى فى ذلك ولكن تأمر أن تشترى لى دابة أتبلغ عليها : فقال لغلامه « امض معه فابتع له ما يريد » فمضى معه فعدل به العتابى إلى سوق الحمير فقال الغلام : إنما أمرنى أن ابتاع لك دابة : فقال له : انه أرسلك معى ولم يرسلنى معك فان عملت ما أريد والا انصرف : فمضى معه فاشترى حمارا بمائة وخمسين درهما وقال : ادفع اليه ثمنه : فدفعه اليه فركب الحمار عريا بمرشحة عليه وبرذعة وساقاه مكشوفتان ، فقال له يحيى بن سـعيد « فضحتنى ! أمثلى يحمل مثلك على هـذا ! » فضحك وقال « ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك » ومضى إلى رأس عين .

توفى سـنة ٢٢٠ هـ وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٢ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ٢ ص ١٣٧) .

(٢) أى متبلغات بالقليل حتى يصلن اليك .

إن الصبابةَ لم تَدَعْ * منّى سوى عَظْمٍ مُبَرَّى
ومدامعٍ عَـبْرَى على * كبدٍ عليك الدهرَ حَرَّى

أو يقال إنه متكلّف وهو الذى يقول :

فلو كان للشكر شخصٌ يَبين * اذا ما تأمّــله الناظرُ
لمثّلتُــه لك حتى تراه * لتعلم أنّى آمرؤ شاكر

وَجِدَ الرشيدُ على العتّابىّ فدخل سِرّا مع المتظلّمين بغير إذن ، فمثَل بين يدى الرشيد وقال له : ياأمير المؤمنين ، قد آذتْنى الناس لك ولنفسى فيك ، وردّنى آبتلاؤهم الى شكرك ، وما مع تذكّرك قناعة بغيرك ، ولنِعْمَ الصائنُ لنفسى كنت لو أعاننى عليك الصبر ، وفى ذلك أقول :

أَخضْنِى المقامَ الغَمْرَ إن كان غَرّنى * سَـنَا خُلّبٍ أو زَلّت القَدَمانِ
أتتركنى جَـدْبَ المعيشــة مُقْتِرًا * وكفّاك من ماء النــدى تَكِفَانِ
وتجعلنى سهمَ المطامع بعــد ما * بَلَلْتَ يمينى بالنــدى ولسـانى

فأعجب الرشيدَ قولُه ، وخرج وعليه الخِلَع ، وقد أمر له بجائزة .

كلّم العتّابى يحيى بن خالد فى حاجة بكلمات قليلة ، فقال له يحيى : لقد نَزُر كلامُك اليوم وقَلّ ، فقال له : وكيف لا يقلّ وقد تكنفنى ذلّ المسألة وحَيْرة الطلب وخوف الرّدّ؟ فقال : والله لئن قلّ كلامك لقد كثرت فوائدُه ، وقضَى حاجتَه .

قال يحيى بن خالد البرمكى لولده : إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتّابى فضلا عن رسائله وشعره ، فلن تَرَوْا أبدا مثلَه .

وقف العتّابى بباب المأمون يلتمس الوصولَ اليه ، فصادف يحيى بن أكثم جالسا ينتظر الإذن ، فقال له : إن رأيتَ أعزّك الله أن تذكر أمرى لأمير المؤمنين اذا دخلتَ فافعل ، قال له : لستُ أعزّك الله بحاجبه ، قال : فإن لم تكن حاجبا فقد يفعل مثلُك ماسألتُ ، واعلم أن الله عز وجل جعل فى كل شى زكاة ، وجعل زكاة المـال رِفْدَ المستعين ، وزكاةَ الجاه إغاثة الملهوف ، واعلم أن الله عز وجل مقبِلٌ عليك بالزيادة إن شكرتَ ، أو التغيير إن كفرتَ .

و إنى لك اليومَ أصلحُ منك لنفسك، لأنى أدعوك الى آزدياد نعمتك وأنت تأبَى، فقال له يحيى: أفْعَلُ وكرامة، وخرج الإذن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ بشىء بعد السلام إلا أن آستأذن المأمونَ للعتّابى، فأذن له .

وقيل له : لو تزوّجتَ، فقال: إنى وجدت مكابدة العفّة أيسرَ علىّ من الآحتيال لمصلحة العيال .

قال دِعْبِل : ما حسدتُ أحدا قطّ على شعر كما حسدتُ العتّابىَّ على قوله :

هَيْبَةُ الإخوانِ قاطعـــةٌ * لأخى الحاجات عن طَلَبِهْ
فإذا ما هِبتَ ذا أمل * مات ما أمّلتَ من سببِهْ

كان العتّابى جالسا ذات يوم ينظر فى كتاب، فمرّ به بعضُ جيرانه، فقال : أيش ينفع العلمُ والأدبُ من لا مالَ له؟ فأنشد العتّابى قوله :

يا قاتَـــلَ اللهُ أقواماً اذا ثقِفُـــوا * ذا اللّب ينظر فى الآداب والحِكَمِ
قالوا وليس بهـــم إلا نَفَاسَـــتُه(١) * أنافعٌ ذا مِن الإقتار والعُـــدُمِ
وليس يدرون ما الحظّ الذى حُرِمُوا * ـــ لحاهم الله ـــ من عِلْمٍ ومن فَهَمِ

ومن قوله أيضا :

لئن كانت الدنيـــا أنالتْـــك ثروةً * فأصبحتَ ذا يُسرٍ وقد كنت ذا عُسْرِ
لقـــد كشّف الإثراءُ منـــك مَخازِيًا * من اللؤم كانت تحت سِتْرٍ من الفقر

وقال أيضـــا :

رحَل الرجاءُ اليـــك مغترِبا * حُشِدَتْ عليـــه نوائبُ الدهرِ
ردّتْ اليـــك نَدامتى أمـــلى * وثنـــا اليك عِنانه شكرى
وجعلتُ عَتْبَك عَتْبَ موعظة * ورجاءَ عفوك منتهى أملى

لمـــا سعَى منصورٌ النَّمَرى بالعتّابى الى الرشيد آغتاظ عليـــه فطلبه، فستَره جعفر بن يحيى عنه مدّة وجعل يستعطفه عليه حتى آستلّ ما فى نفسه وأمّنه، فقال يمدح جعفر بن يحيى :

(١) حسده .

ما زلتُ فى غَمَرات المــوت مُطَّرِحًا * قد ضاق عنى فسيحُ الأرض من حِيلى
ولم تَزَل دائبـا تسعى بلطفـــك لى * حتى آختلستَ حياتى من يَدَىْ أَجَلى

عاد عبد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم بن مُصْعَب كلثوم بن عمرو العتّابى فى علّة آعتلّها، فقال الناس : هذه خَطْرة خطرَتْ ، فبلغ ذلك العتّابى ، فكتب الى عبـد الله بن طاهر :

قالوا الزيارةُ خَطْرَةٌ خَطَرتْ * وبِحارُ بِرّك ليس بالخَطْر
أَبْطِلْ مقالتهـم بثانيـــة * تستنفِد المعروفَ مِنْ شكرى

فلما بلغت أبياتُه عبــدَ الله بن طاهر ضحك من قوله وركب هو وإسحاق فعاداه مرة ثانيـــة .

كانت له آمرأة من باهلة، فلما مضى الى رأس عَيْن قالت له : هذا منصور النّمرى : قد أخذ الأموال فحلّى نساءه وبنى داره وآشترى ضِيَاعا وأنت ههنا كما ترى، فأنشأ يقول :

تلوم عـــلى تَرْك الغِنى باهليّـــةٌ * ذوى الفقر عنها كلَّ طِرْف وتالد
رأت حولها النّسوان يرفُلْن فى الثرى * مقـــلَّدة أعناقُهـا بالقـــلائد
أسَرّك أنى نلتُ ما نال جعفــر * من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأنّ أميرَ المؤمنين أغصّنى * مغصهما بالمُــرْهَفات البَـوارد
رأيتُ رفيعا تِ الامور مَشُـــوبةً * بمستودَعات فى بطون الأســاود
دعينى تَجِئْنى ميتتِى مطمئنــةً * ولم أتجشّم هولَ تلك الموارد

لـما قدم العتّابى مدينة السلام على المأمون أذِن له، فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصلى، وكان العتابى شيخا جليلا نبيلا ، فسلم فردّ عليه وأدناه وقرّبه حتى قرُب منه ، فقبّل يَده، ثم أمره بالجلوس فجلس، وأقبل عليه يسائله عن حاله وهو يجيبه بلسان ذُلَق طُلَق، فاستظرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداعبة والمزاح، فظن الشيخ أنه آستخفّ به، فقال : ياأميرالمؤمنين، الإيناس قبل الإبْسَاس (١) ، فاشتبه على المأمون قولُه ، فنظر الى إسحاق مستفهما،

(١) الابساس : دعوة الناقة الى الحلب .

فأوما اليه وغمزه على معناه حتى فهم، فقال: ياغلام، ألفَ دينار، فأُتى بذلك، فوضع بين يدى العتابى وأخذوا فى الحديث، وغمز المأمونُ إسحاقَ بن إبراهيم عليه، فجعل العتّابى لا يأخذ فى شىء إلا عارضه إسحاق، فبقى العتابى متعجبا، ثمّ قال: يا أمير المؤمنين، أتأذن لى فى سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سَلْ، فقال لإسحاق ياشيخ، من أنت وما آسمك؟ قال: أنا من الناس وآسمى كُلْ بَصَل، فتبسّم العتّابى وقال: أما أنتَ فمعروف وأما الاسم فمُنكَر، فقال إسحاق: ما أقلّ إنصافك! أتنكر أن يكون آسمى كل بصل، وآسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتّابى: لله درّك! فما أحجّك، أتأذن لى يا أمير المؤمنين فى أن أصله بما وصلتَنى به؟ فقال المأمون: بل ذلك موفّر عليك ونأمر له بمثله: فقال له إسحاق: أما إذ أقررتَ بهذه فتوهّمنى تجدْنى، فقال: ما أظنك إلا إسحاق الموصلىّ الذى يَتناهى الينا خبرُه، قال: أنا حيثُ ظننتَ، وأقبل عليه بالتحيّة والسلام، فقال المأمون — وقد طال الحديث بينهما —: أما إذ قد آتفقتما على المودّة فانصرفا متنادمين، فانصرف العتّابى الى منزل إسحاق فأقام عنده.

قال عثمان الورّاق: رأيت العتّابى يأكل خبزا على الطريق بباب الشام، فقلت له: وَيْحك! اما تستحيى؟ فقال لى: أرأيتَ لو كنّا فى دار بها بَقَر كنت تستحيى وتحتشم أن تأكل وهى تراك؟ فقال: لا، قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام فوَعَظ وقصّ ودعا حتى كثر الزّحام عليه ثم قال لهم: روى لنا غير واحد أنه من بلَغ لسانُه أرْنبةَ أنفه لم يدخل النار، فما بقى أحد إلا أخرج لسانه يومىء به نحو أرنبة أنفه ويقدّره حتى يبلغها أم لا، فلما تفرقوا قال لى العتّابى: ألم أخبرك أنهم بقر؟

قال الفضل: رأيت العتّابى بين يدى المأمون وقد أسَنّ، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فمازال المأمون يُنهضه رويدا رويدا حتى أقلّه فنهض.

وكتب كلثوم بن عمرو العتّابى الى صديق له يستجديه :

أما بعد — أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك الى رضوانه والجنّة — فإنك كنتَ عندنا روضة من رياض الكَرَم، تبتهج النفوسُ بها، وتستريحُ القلوب اليها، وكنا نعفيها من النُّجْعة(١) آستتماما لزهرتها، وشفقةً على خضرتها، وآدّخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سَنَةٌ كانت عندى قطعة من سِنِي يوسف آشتدّ علينا كَلَبها(٢)، وغابت قِطّتها، وكذّبتنا غيومُها، وأخلفتنا بروقُها، وفقدنا صالحَ الإخوان فيها، فانتجعتُك . وأنا بانتجاعى إياك شديدُ الشفقة عليك، مع علمى بأنك موضع الرائد(٣)، وأنك تغطّى عينَ الحاسد . والله يعلم أنى ما أعدك إلا فى حَوْمَة(٤) الأهل . وآعلم أن الكريم اذا آستحيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير، لم يُعرف جوده ولم تَظهر همّته . وأنا أقول فى ذلك :

اذا تكرمت عن بذل القليل ولم * تقدر على سَعَة لم يظهر الجُود
بث النوالَ ولا تمنعك قِلّته * فكل ما سَدّ فقرا فهو محمود .

قيل فَشَاطَره جميعَ ماله .

---

(١) النجعة : طلب الكلا فى موضعه . (٢) الكلب : القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة هنا : الجماعة والطائفة .

٣ — دِعبِــــل (١)

شاعر متقدّم مطبوع هجّاء خبيث اللسان، لم يسلَم منه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نَباهة أحسن اليه أم لم يُحسن، ولا أفلت منه كبيرٌ أو صغير .

وكان دعبل من الشّيعة المشهورين بالميل الى علىّ صلوات الله عليه . وقصيدته : «مدارس آيات خَلَت من تِلاوة» من أحسن الشعر وفاخر المدائح المَقُولة فى أهل البيت عليهم السلام، وقصد بها أبا على بن موسى الرِّضا بخراسان، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه وخلع عليــه خلْعة من ثيابه، فأعطاه بها أهل قُمّ ثلاثين الف درهم، فلم يَبعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها ؛ فقال لهم : إنها إنما تُراد لله عز وجل وهى محرّمة عليكم، فدفعوا اليه ثلاثين الف درهم، فحلَف ألّا يبيعها أو يعطوه بعضَها ليكون فى كفنه، فأعطـوْه فردَ كُمٍّ، فكان من أكفانه .

قال ابراهيم بن المهدى للمأمون قولا فى دعبل يحرّضــه عليه ؛ فضحك المأمون وقال : إنمــا تحرّضنى عليه لقوله فيك :

يا معشَرَ الأجنــاد لا تَقْنَطوا * وٱرضَوْا بما كان ولا تَسخَطوا
فسوف تُعطَوْن حُنَينِيّـةً (٢) * يَلتَذّها الأَمْرَدُ والأَشْمَـط
والمَعْبَـدِيّات (٣) لقُـوّادكـم * لا تدخل الكيسَ ولا تُرْبَط
وهـكـذا يَرزق قـوّادَه * خليفـةٌ مُصْحفـه البَرْبَط

(١) هو دعبل بن على بن رزين من خزاعة ؛ أصله من الكوفة وجاء بغداد بطلب من الرشيد . وهو شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أو لم يحسن، ولا أفلت منه كبير أو صغير ؛ فكان الناس يخافونه و يتقونه حتى المأمون فإنه هجاه هجاء شديدا واحتمل ذلك منه . توفى ســنة ٢٤٦ هـ . وتجد أخباره فى الاغانى ج ١٨ ص ٢٩ وابن خلكان ج ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء ص ٥٣٩ والفهرست (ص ١٦١) . (٢) يريد أصــواتا منسوبة الى حنين الحيرى المغنى .

(٣) يريد أصواتا منسوبة الى معبد المغنى .

قــد ختمَ الصَّــكُّ بأرزاقكم * وصحّح العزمَ فــلا تسخَطوا
بَيْعــةُ ابراهــيم مشــئومةٌ * يُقتَل فيها الخَلق أو يَقْحَطوا

فقال له ابراهيم : فقد والله هجاك أنت يا أمير المؤمنين؛ فقال : دع هذا عنك فقد عفوت عنه فى هجائه إيّاى لقوله هذا، وضحك . ثم دخل أبو عبّاد، فلما رآه المأمون من بُعْــد قال لإبراهيم : دعبل يجسر على أبى عبّاد فى الهجاء ويُحجم عن أحد! فقال له : وكأن أبا عبّاد أبسط يدا منك يا أمير المؤمنين ؛ قال : لا ! ولكنّه حديد جاهل لا يؤمَن، وأنا أحْلُم وأصفح، والله ما رأيتُ أبا عباد مقبلا إلا أضحكنى قولُ دعبل فيه :

أولى الأمور بضَيْعةٍ وفساد * أمرٌ يدبِّره أبــو عبّــاد
خَرِقٌ على جلسائه فكأنهم * حضَروا لمَلْحَمة ويوم جِلاد
يَســطو على كُتّابه بِدَواته * فمُضَمَّخ بدم ونَضْح مِداد
وكأنه من دَيْرِ هِرْقِل مُفْلتٌ * حَرِد يجرّ سلاســل الأقياد
فاشدُدْ أميرَ المؤمنين وَثاقه * فأصحُّ منــه بقيّــة الحــدّاد

وكان «بقيّة» هذا مجنونا فى البيمارستان .

قال أبو خالد الخُزَاعى لدعبل : ويحك ! قد هجوتَ الخلفاءَ والوزراء والقوّاد ووَتَرْتَ الناس جميعا، فأنت دهرَك كلّه شريدٌ طريد هارب خائف، فلو كففتَ عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك! فقال : ويحك ! انى تأملتُ ما تقول فوجدت أكثر الناس لا يُنتَفع بهم إلا على الرهبة، ولا يبالَى الشاعر وإن كان مُجيدا اذا لم يُخَف شرّه، ولَمَنْ يتّقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك فى تشريفه، وعيوبُ الناس أكثر من محاسنهم، وليس كل من شرّفته شَرُف، ولا كل من وصفته بالجود والمجــد والشجاعة ولم يكن ذلك فيــه آنتفع بقولك، فاذا رآك أوجعتَ عِرْض غيره وفضحتَه آتّقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر، ويحك يا أباخالد! إن الهجاء المقذع آخَذُ بضَبْع الشاعر من المديح المضرع؛ فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حَتْفَ أنفه .

كان سببُ خروج دعبل من الكوفــة أنه كان يتشطّر ويصحب الشُّطار، فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعَتَمَة، فجلسا على طريق رجل من الصّيارفة، وكان يروح كل ليلة بكيسه الى منزله ، فلما طلع مقبلا اليهما وثبا اليه فجَرحاه وأخذا ما فى كُمّه، فاذا هى ثلاث رُمّانات فى خرْقة، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه ، ومات الرجل مكانه ، وآســتتر دعبل وصاحبــه وجدّ أولياء الرجل فى طلبهما وجدّ السلطانُ فى ذلك ، فطال على دعبــل الأستتار فاضطر الى أن هرب من الكوفة ، فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد .

قال أحمــد بن خالد : كنا يوما بدار صالح بن على من عبد القَيْس ببغداد ومعنا جماعة من أصحابنا ، فسقط على سطح البيت دِيك طار من دار دعبل ، فلما رأيناه قلنا : هذا صَــيْدنا ، فأخذناه ، فقال صالح : ما نصنع به ؟ قلنا : نذبحــه ، فذبحناه وشويناه . وخرج دعبــل فسأل عن الديك فعرَف أنه سقط فى دار صالح ، فطلبه منّا فجحدناه وشربنا يومنا ، فلمّا كان من الغد خرج دعبل فصلّى الغداة ثم جلس على باب المسجد — وكان ذلك المسجد مَجْمَع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ويَنتابهم الناس — فجلس دعبل على باب المسجد وقال :

أَسَرَ المؤذّنَ صالحٌ وضيوفُه * أَسْرَ الكَمِىّ هَفَا خِلال المأقِط
بَعَثُــوا عليه بَنِيهِــمُ وبَناتِهم * من بين ناتِفــةٍ وآخر سامط
يتنازعون كأنهم قــد أوثقوا * خَاقان أو هَزموا قبائلَ ناعط (١)
نَهَشُوه فانتُزِعت له أسنانُهم * وتهشّمت أقفاؤُهم بالحــائط

فكتبها الناس عنه ومَضوا ؛ فقال لى أبى ، وقد رجع الى البيت : ويحكم ! ضاقت عليكم المآكل فلم تجدوا شيئا تأكلونه سوى ديك دعبل ! ثم أنشدنا الشعر، وقال : لا تدع ديكا ولا دَجاجة تقدر عليه إلا آشتريته وبعثتَ به الى دعبل وإلا وقَعْنا فى لسانه ؛ ففعلتُ ذلك .

قال أحمد بن أبى كامل : كان دعبل ينشدنى كثيرا هجاءً له ، فأقول له فيمن هــذا ؟ فيقول ما آستحقّه أحدٌ بعينه بعــد ، وليس له صاحب ، فاذا وجَد على رجل جعــل ذلك الشعر فيه وذكر آسمه فى الشعر .

(١) قبيلة من همدان ، وأصله جبل نزلوا به فنسبوا اليه .

كان دعبل يختلف الى الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو خرّجه وفهّمه وأدّبه، فظهر له منه جَفاء و بلغه أنه يَعيبه و يذكره و ينال منه، فقال يهجوه :

يا بُؤْس للفضل لو لم يأت ما عَابَهْ * يستفرغ السّمّ من صَماء قِرضَابَهْ
ما إن يزال وفيـــه العيبُ يجمعه * جهلا لأعراض أهلِ المجد عيّابهْ
إن عابنى لم يَعبْ إلا مؤدِّبه * ونفسَـــه عاب لما عاب أدّابهْ
فكان كالكلب ضَرّاه مكلِّبه * لغــيره فعــدا فاصطاد كلّابهْ

كان دعبل يقول : ما كانت لأحد قط عندى مِنّة إلا تمنّيتُ موته .

كتب دعبل الى أبى نَهْشَل بن حُمَيد الطُّوسى قوله :

إنما العيشُ فى مُنادمة الإخوا * ن لا فى الجلوس عند الكَعاب
وبصرفٍ كأنها ألسُنـ البر * قِ اذا آستعرضَتْ رقيقَ السّحاب
إن تكونوا تركتُمُ لذّةَ العيـ * ـش حِذارَ العِقاب يومَ العقاب
فدعونى وما ألذّ وأهـــوى * وآدفعوا بى فى صدر يوم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرغانى : سمعت دعبلا يقول فى كلام جرى «لَيْسَك» فأنكرته عليه؛ فقال : دخل زيد الخَيْــل على النبى صلى الله عليه وسـلم فقال له : «يا زيد ما وُصِف لى رجل إلا رأيتُه دون وصفه لَيْسَك» يريد غيرك .

قال عمرو بن مَسْعَدة : حضرتُ أبا دُلَف عند المأمون وقد قال له المأمون : أى شىء تروى لأخى خُزَاعة يا قاسم؟ فقال : وأىّ أخى خزاعة يا أمير المؤمنين؟ قال : ومَنْ تعرِف فيهم شاعرا؟ فقال : أمّا من أنفُسِهم فأبو الشِّيص ودعبل وابن أبى الشِّيص وداود بن أبى رزين، وأما من مواليهم فطاهر وآبنه عبد الله ، فقال : ومن عسى من هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبل ! هات أىّ شىء عندك فيه؛ فقال : وأىّ شىء أقول فى رجل لم يسلَم عليه أهلُ بيتــه حتى هجاهم، فقرَن إحسانَهم بالإساءة وبذْلَهم بالمنع وجودهم بالبخل، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة منه؛ قال : حين يقول ماذا؟ قال : حين يقول فى المطّلب بن عبد الله

آبن مالك، وهو أصدق الناس له وأقربهم منه، وقد وفد اليه الى مصر فأعطاه الجزيل وولّاه، ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

اِضرِبْ نَدَى طَلْحَةِ الطَّلْحات متئدا * بلؤم مطَّلبٍ فينا وكن حَكَما
تُخْرِج خُزَاعةَ من لؤم ومن كَرَم * فلا تحسّ لها لؤما ولا كرما

فقال المأمون : قاتله الله ! ما أغوَصه وألطفه وأدهاه، وجعل يضحك، ثم دخل عبد الله آبن طاهر فقال : أى شىء تحفظ يا عبد الله لدعبل؟ فقال : أحفظ أبياتا له فى أهل بيت أمير المؤمنين، قال : هاتها ويحك ! فأنشده :

سَقْيًا ورَعيًا لأيام الصَّبابات * أيام أرفُل فى أثواب لذّاتى
أيام غصنى رطيبٌ من لَيانته * أصبو الى غير جاراتٍ وكُنّات
دع عنك ذكر زمان فات مَطلبُه * وآقذف برحلك عن مَتْن الجَهَالات
وآقصِد بكل مديح أنت قائلُه * نحو الهُداة بَنى بيت الكَرَامات

فقال المأمون : إنه قد وجد والله مقالا فقال، ونال ببعيد ذكرهم ما لا يناله فى وصف غيرهم.

ومن قول دعبل وفيه غناء :

أيْنَ الشباب وأيّةً سلكا * لا أين يُطلب ضَلّ من هَلَكا
لا تعجبى يا سَلْمَ من رجل * ضحِك المشيبُ برأسه فبَكى
يا ليت شعرى كيف يومُكما * يا صاحبىّ اذا دَمِى سُفِكا
لا تأخذوا بظُلامتى أحدًا * قلبى وطَرْفى فى دمى آشتركا

قال إبراهيم بن المدبّر : لقيت دعبل بن على فقلت له : أنت أجْسَرُ الناس عندى وأقدمهم حيث تقول :

إنى من القوم الذين سيوفُهم * قتلَتْ أخاك وشرّفتك بمَقْعَد
رفعوا محلّك بعد طول خموله * وآستنقذوك من الحضيض الأوْهَد

وأولها :

أخذ المشيبُ من الشباب الأغيدِ * والنائباتُ من الأنام بمَرْصد

فقال : يا أبا اسحاق، أنا أحمل خَشَبتى منذ أربعين سنة، فلا أجد من يصلبنى عليها .

كان دعبل يخرج فيغيب سنين يدُور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى، وكانت الشُّراة والصّعاليك يلقَوْنه فلا يؤذونه و يؤاكلونه ويشاربونه ويبرّون به، وكان اذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم اليه ودعا بغلاميه : نفنف وشعف ، وكانا مغنيين ، فأقعدهما يغنِّيان وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم، فكانوا قد عرفوه وألِفوه لكثرة أسفاره، وكانوا يواصلونه و يصلونه . وأنشد دعبل لنفسه فى بعد أسفاره :

حلّتْ مَحَلّا يقصُر البرقُ دونه * ويعجز عنه الطيفُ أن يتجشّما

قال البحترى : دعبل بن على أشعر عندى من مسلم بن الوليد، لأن كلام دعبل أدخل فى كلام العرب من كلام مسلم، ومذهبه أشبه بمذاهبهم؛ وكان يتعصّب له .

كان المعتصم يُبْغض دعبلا لطول لسانه . و بلغ دعبلا أنه يريد اغتياله وقتله ، فهرب الى الجبل؛ وقال يهجوه :

بَكى لِشَتات الدين مكتئبٌ صبٌّ * وفاض بفَرْط الدمع من عينه غَرْبُ
وقام إمام لم يكن ذا هِـدَاية * فليس لـه دِين وليس له لُبّ
وما كانت الأنبـاءُ تأتى بمثـله * يُمَلَّك يـوما أو تدِين له العُـرْب
ولكن كما قال الذين تتابعـوا * من السّلَف الماضين اذ عَظُم الخطب
ملوك بنى العباس فى الكُتْب سـبعةٌ * ولم تأتنـا عن ثامن لهمُ كُتْب
كذلك أهلُ الكهف فى الكهف سبعةٌ * خِيـارٌ اذا عُدّوا وثامنهـم كَلْب
وإنى لأُعلِي كلبَهـم عنـك رفعـةً * لأنـك ذو ذَنْب وليس لـه ذنب
لقد ضاع مُلك الناس اذ ساس مُلكَهم * وصَـيفٌ وأَشنَاس وقد عَظُمَ الكرب
وفَضْل بن مروان يُثَـلّم ثُـلمةً * يظل لهـا الإسـلام ليس له شَعْب

لما مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيّات يرثيه :

قد قلتُ إذ غيّبوه وآنصرفوا * فى خير قبر لخير مدفون
لن يجبر اللهُ أمّةً فقدتْ * مثلك إلا بمثل هارون

فقال دعبل يعارضه :

قد قلتُ إذ غيّبوه وآنصرفوا * فى شرّ قبر لشر مدفون
إذهب الى النار والعذاب فما * خَلْقُك إلا من الشياطين
ما زلت حتى عقدتَ بَيْعةَ مَنْ * أضرّ بالمسلمين والدين

وقال فى ذلك وفى قيام الواثق :

الحمدُ لله لا صَبْرٌ ولا جَلَدٌ * ولا عزاءٌ اذا أهلُ البَلَا رقدوا
خليفةٌ مات لم يحزَن له أحد * وآخَرٌ قام لم يفرح به أحد

ولقد أحسن فى وصف سفر سافره، فطال ذلك السفر عليه، فقال فيه :

ألم يَأْنِ للسَّفْر الذين تحمّلوا * الى وطنٍ قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملك سوابِقَ عَبْرة * نَطَقْن بما ضُمّت عليه ضلوع
تبيّنْ فكم دارٍ تفرّق شملُها * وشَمْلٍ شتيتٍ عاد وهو جميع
كذاك الليالى صَرْفُهنّ كما ترى * لكل أناس جَدْبةٌ ورَبيع

ثم قال : ما سافرتُ قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عينى فى سفرى وهِجّيراى ومسليتى حتى أعود .

ومن قول دعبل وفيه غناء :

سَرَى طيفُ ليلى حين آن هُبُوبُ * وقضّيت شوقا حين كاد يذوب
فلم أرَ مطروقًا يحلّ برحلة * ولا طارقا يَقْرِى المُنَى ويُثيب

ومن قوله :

لقد عجبتْ سَلْمى وذاك عجيبُ * رأت بى شيبا عجّلته خُطوبُ
وما شيّبتنى كَبْرةٌ غيرأننى * بدهرٍ به رأسُ الفطيم يَشيب

وقال فى صالح بن عطيّة الأضجم وكان من أقبح الناس وجها، وخاطب فيها المعتصم :

قل للإمام إمامِ آل محمـــد * قول امرئ حدِبٍ عليك مُحَام
أنكرت أن تفترّ عنـك صنيعةٌ * فى صالح بن عطيّة الحجّام
ليس الصنائع عنده بصنائع * لكنهن طَوائلُ الإســلام
اِضربْ به جيشَ العـدوّ فإنه * جيشٌ من الطاعـون والبِرْسام

قال أبو تمّـام : ما زال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقرّا بأُسْتَاذِيتّه، حتى ورد عليه بجُرجان فجفاه مسلم، وكان فيه بخل، فهجره دعبل وكتب اليه :

أبا مَخْـلَدٍ كنا عَقيــدَى مودّة * هـوَانا وقَلْبانا جميعا مَعًا معا
أحوطك بالغيب الذى أنتَ حائطى * وأجزع إشـفاقا مِنَ آنْ تتوجّعـا
فصـيّرتنى بعـد انتكاثك مُتْهما * لنفسى عليها أرْهَبُ الخلق أجمعـا
غششتَ الهوى حتى تداعت أصولُه * بنا وٱبتذلتَ الوصـلَ حتى تقطّعا
وأنزلتَ من بين الجوانح والحَشى * ذخـيرةَ وُدٍّ طالما قـد تمنّعـا
فلا تَلْحَيَنِّى ليس لى فيـك مطْمَعٌ * تخرّقتَ حـتى لم أجـد لك مرقعا
فَهَبْك يمينى استأكلتْ فقطعتُهـا * وجشّمتُ قلبى صـبرَه فتشجّعـا

ثم تهاجرا فمـا ٱلتقيا بعد ذلك .

اجرى الرشيد على دعبل رزقا سنّيا ، فكان أوّل من حرّضه على قول الشعر . فوالله ما بلغه أن الرشيد مات حتى كافأه على فعله من العطاء السنىِّ والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمـول بأقبح مكافأة ، وقال فيه يهجوه من قصيدة مدح بها أهلَ البيت عليهم السلام :

وليس حَىٌّ من الأحياء نعلمه * من ذى يمَانٍ ومن بَكْرٍومن مُضَرِ
إلا وهم شركـاءُ فى دمائهــمُ * كما تَشَارك أيْسَارٌ عــلى جُزُر
قتــلٌ وأسْرٌ وتحــريقٌ ومَنْهَبةٌ * فِعلَ الغُـزاةِ بأرض الروم والخزَر
أرى أميّةَ معذورين إن قتلوا * ولا أرى لبـنى العباس من عُذُر

أرْبَعْ بِطُوس على القبر الزكىّ اذا * ما كنت تَرْبَع من دِين على وطر
قَبْران فى طوسَ خيرُ الناس كلهم * وقــبرُ شرّهمُ هــذا من العِـبَر
ماينفع الرّجسَ من قرب الزكىّ ولا * على الزكىّ بقرب الرّجس من ضرر
هيهات، كلّ آمرئ رَهْنٌ بما كسبتْ * له يداه فخُــذْ ماشئتَ أو فَذَر

استدعى بعض بنى هاشم دعبلا وهو يتــولى للمعتصم ناحية من نواحى الشام، فقصده اليها فلم يقع منه بحسن ظن وجفاه، فكتب اليه دعبل :

دَلّيتنى بغــرورِ وعدك فى * مُتَلاطم من حَوْمة الغَـرَق
حتى إذا شمت العدوّ وقد * شُهِرَ آنتقاصك شُهْرة البَلَق
أنشأت تحلف أن ودّك لى * صافٍ وحبلك غير منحذق
وحسبتنى فَقْعًا بقَــرْقَرة * فوطئتنى وَطْئًا على حَنَق
ونصبتَنى علَمًا على غَرَض * ترمِينى الأعداءُ بالحَـدَق
وظننتَ أرضَ الله ضَيّقةً * عنّى وأرضُ الله لم تَضِـق
من غير ما جُرمِ سوى ثِقةٍ * منّى بوعدك حين قلتَ ثِق
ومــودّةٍ تحنو عليــك بهــا * نفسى بلا مَنٍّ ولا مَلَق
فمــتى سألتُك حاجةً أبدا * فاشــددْ بها قُفْلا على غَلَق
وقَفَ الإخاءُ على شَفَا جُرُف * هارٍ فبعْــه بَيْعــة الخَلَق
وأعِدّ لى قُفْـــلا وجامعةً * فاشدد يدىّ بهــا إلى عنق
أعفيك ممــا لا تحبّ بها * وآسدُدْ على مذاهب الأُفُق
ما أطولَ الدنيا وأعرضَها * وأدَلّنى بمســالك الطُرُق

دخل دعبل على عبد الله بن طاهر فأنشده وهو ببغداد :

جئتُ بلا حُرْمة ولا سبب * إليـــك إلّا بحرمة الأدَب
فاقضِ ذِمامى فإننى رجــلٌ * غــيرُ مُلِحٍّ عليك فى الطَّلب

فانتقل عبد الله ودخل الحَرَم ووجّه اليه بصُرّة فيها ألف درهم ، وكتب اليه :

أعجلتنا فأتاك عاجـــلُ بِرِّنا * ولو انتظرت كثيرَه لم يقلل

فخذ القليلَ وكن كأنك لم تَقُل * ونكون نحن كأننـا لم نفعل

مات دعبل بقرية من قُرَى السُّوس ، بعث اليه مالك بن طَوْق من ضرب ظهره بعكّاز لها زُجٌّ مسموم فمات من غد .

٤ — حسين بن الضّحّاك (١)

« شاعر (٢) ظريف شديد الظّرف، ربما انقطع نظيرهُ فى شعراء العصر العبّاسى كلّه ، وهو مع ظرفه وإسرافه فى المجون ، قليـلُ الفحش فى اللفظ . غير مُتهالك على القول الآثم والألفاظ المنكرة، لا يتخيّرها ولا يقصـد اليها، وإنمـا يَعرِض لها اذا اضطُرّ اليها اضطرارا وهو على ظرفه ورقّة حاشيته وحِرْصه على نَقَاء اللفظ وطُهره شاعر بالمعنى الصحيح لهـذه الكلمة، مجوِّد اذا فكّر، مظفّر اذا بحث، موفّق الى اللفظ المتين، والأسلوب الرّصين فى غير جفوة ولا غِلظة ، لا يعرف التكلّف فى لفظ ولا معنى، وإنمـا ينطلق لسانه مع سجيته ، وسجيّته سهلة مرسَلة غنيّـة غزيرة المـادة، لا تكاد تنضُب، ولا ينالهـا إعياء أو كَلَال، وحياته كلها عِبَر وعظات ولكنها عبر وعظات مبتسمة ليست بالمظلمة ولا العابسة ولا بالتى تردّك وتنفّرك، وتجعل للحزن والأسى الى قلبك سبيلا ، ولعلك لا تجد من شعراء هذا العصر رجلا مثله ، تقرأ أخباره فتظلّ مبتسما منذ تبتدئ الى أن تنتهى دون أن تَعبِس أو تقطب . وربمـا تجاوزتَ الابتسـام الى الإغراق فى الضحك من حين الى حين، ولكنك لن تترك الابتسام الى الحزن الشديد. وربمـا اعترضتك فى طريقك سحابة محزنة ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هيّنة ، فهى أضعف من أن تزيل ابتسامتك. وكان هذا الشاعر من المعمّرين، بلغ المـائة أو كاد ، وعاصر طبقاتٍ من الشعراء، وألوانا من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظلّ محتفظا بشخصيّته الوادعة المبتسمة ، تغيّر النـاسُ واختلفت الظروف ، وظلّ هو واحدا

(١) هو مولى باهلة ، ولد فى البصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بنى العباس ، وكان خليعا فاسدا وكان مع ذلك حسن التصرف فى النظم ولشعره قبول ورونق ، فهو من المتفننين وله معان جديدة فى الخمر كان أبو نواس يأخذها عنه ، ومع أن أبا نواس مات سنة ١٦٨ هـ ، والضحاك مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تعاصرا لأن مولدهما متقارب لأن ابن الضحاك عمر كثيرا . وهو أوّل من نادم الأمين وله فيـه مدائح كثيرة ، وعمر عمرا طويلا حتى قارب مائة السـنة ومات فى خلافة المستعين أو المنتصر . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٦ ص ١٧٠) وابن خلكان (ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لم يتغيّر. كان خليعا ، بل كان يُعرف بالخليع ، وكان كثيرَ المجون مُسْرفا فيه ، وما أحسب أن أبا نواس سبقه الى لذّة أو برز عليـه فى مأثم ، ولكنه على خلاعتـه و إسرافه فى المجون وتهالُكه على اللذات ، احتفظ طول حيـاته بشىء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجَوْدة الأصل ، كأنما كانت هذه اللّذات والآثام تنزلق على نفسه وأخلاقه انزلاقا دون أن تترك فيها أثرا باقيا ، وإنمـا كانت الآثار التى تتركها لياليه الساهرة ، وأيامه المملوءة بالعَبَث ، هذه الأشعار الجميلة الحلوة التى سأظهرك على طرف منها .

فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين إنمـا كانوا يَصلون الى الخلفاء بعد الجهد والكدّ ، وبعد التلطّف وحسن الحيلة ؛ وإنما كان متصلا بالخلفاء اتّصالا شديدا ، يعاشرهم ويرافقهم ويتدخّل فى حياتهم الخاصة ، وربمـا تدخّل الى أكثر ممـا ينبغى . وكان الخلفاء يحبّون عنه ، ويَحْرِصون على عشرته ويبذلون فى ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء ، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر فى أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء » .

فترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب ظريف مطبوع ، حسن التصرّف فى الشعر حلو المذهب ، لشعره قَبُول ورونق صاف ، وكان أبو نواس يأخذ معانيـه فى الخمر فيُغيـر عليها ، واذا شاع له شعر نادر فى هذا المعنى نسبه الناس الى أبى نواس ، وله معان فى صفتها أبدع فيها ، وهاجَى مسلمَ بن الوليد فانتصف منه ، وله غزل كثير جيّد ، وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارهم ومذاهبهم جملة من التكلّف .

قال : أنشدت أبا نواس قصيدتى التى قلتها فى الخمر وهى :

بُدّلتَ من نَفَحات الورد بالآء(1) * ومن صَبُوحك درَّ الإبْل والشّاء

فلما انتهيتُ منها الى قولى

حتى اذا أُسْنِدت فى البيت وٱحْتُضِرت * عنـد الصّبوح بَبسّامين أكْفاء

فُضَّت خواتمهـا فى نَعْت واصـفها * عن مثـل رَقراقـة فى جفن مَرْهاء(2)

(1) الآء : ثمر شجر واحدته آءة . (2) المرهاء : التى لا تكتحل .

فصُعق صعقة أفزعتْنى وقال : أحسنتَ والله يا أشقر، فقلت : ويلك يا حسن ، إنك أفزعتَنى والله ، فقال : بلى والله أنت أفزعتَنى ورُعتنى ، هذا معنى من المعانى التى كان فكرى لابد أن ينتهى اليها أو أغوص عليها وأقولها ، فسبقتَنى اليه واختلستَه منّى ، وستعلم لمن يُروى ألِى أم لك؟ فكان والله كما قال ، سمعت من لا يَعْلَم يَرويها له :

لما قدم المأمون من خراسان أمر بأن يُسَمّى له قوم من أهل الأدب ليجالسوه ويسامروه ، فذُكر له جماعة فيهم الحسين بن الضّحّاك ، وكان من جلساء محمد المخلوع ، فلما رأى اسمَه قال : أليس هو الذى يقول فى محمد :

هلا بقيتَ لسدّ فاقتنا * أبدا وكان لغيرك التّلَفُ

فلقد خَلَفْتَ خلائفا سَلَفوا * ولسوف يُعْوِز بعدك الخَلَف

لا حاجة لى فيه ، والله ولا يرانى أبدا إلا فى الطريق ، ولم يعاقب الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به ، وانحدر حسين الى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون .

قال أبو صالح بن الرشيد : دخلت يوما على المأمون ومعى بيتان للحسين بن الضحاك ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أُحب أن تسمع منى بيتين ، فقال : أنشدْهما ، فأنشدتهما :

حمدنا الله شكرًا إذ حَبَانا * بنصرك يا أمير المؤمنينا

فأنت خليفة الرحمن حقّا * جمعت سماحة وجمعتَ دِينا

فقال : لمن هذان البيتان ؟ فقلت : لعبدك يا أمير المؤمنين حسين بن الضحاك ، قال : قد أحسن ، فقلت : وله يا أمير المؤمنين أجود من هذا ، فقال : وما هو؟ فأنشدته قولَه :

أَجِرْنى فإنى قد ظَمِئتُ الى الوعد * متى تُنجِز الوعدَ المؤكد بالعَهْد

أُعيذُك من خُلف الملوك وقد بدا * تَقطّع أنفاسٌ عليك من الوَجْد

أيبخل فَرْدُ الحسن عنى بنائل * قليل وقد أفردتُه بهوًى فَرْد

رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عباده * فملّكه والله أعلم بالعبد

ألا إنما المأمون للناس عصمة * مميِّزة بين الضّلالة والرشد

فأطرق ساعة ثم قال : ما تطيب نفسى له بخير بعد ما قال فى أخى محمد ما قال .

ومن قوله يرثى محمدا الأمين :

أطِلْ حَزَنا وابكِ الإمام محمـدا * بحزن وإن خفتَ الحسام المهندا
فــلا تمّتِ الأشياءُ بعد محمـــد * ولا زال شَمْل الملك منها مُبَـدّدا
ولا فرِح المأمونُ بالملك بعـــده * ولا زال فى الدنيا طريدا مشرَّدا

وللحسين فى محمد الأمين مَرَاثٍ كثيرة جيادٌ، وكان كثير التحقّق به والموالاة له لكثرة إفضاله عليه، وميله اليــه، وتقديمه إياه، وبلغ من جزعه عليه أنه خُولِط فكان يُنكر قتــله لمــا بلغه ويدفعه ويقول: إنه مستتر وأنه قد وقف على دُعاته فى الأمصار يدعون الى مراجعة أمره والوفاء ببيعته ضَنّا به وشفقة عليه .

ومن جيّد مراثيه إياه قوله :

سألونا أنْ كيف نحن ؟ فقلنا * من هَوَى نجمُــه فكيف يكون؟
نحن قوم أصابنا حَدَثُ الدهـ * ـر فظَلْنا لريبــه نستكين
نتمـــنى من الأمين إيابا * لهْفَ نفسى وأين منّى الأمين

ومن جيّد قوله فى مراثيه إياه .

أعَزّى يا محمـــدُ عنك نفسى * معاذ الله والأيدى الجِســام
فهـــلّا مات قومٌ لم يمـــوتوا * ودُوفع عنـــك لى يومَ الحِمـام
كأن الموت صادَف منك غُنْمًا * أو آستشفى بقربك من سَقَام

وقال أيضا يرثيه :

يا خير اسْرته وإن زَعمــوا * إنّى عليــك لمُثْبَتٌ أَسِفُ
الله يعــلم أن لى كبدا * حَرّى عليك ومقلةً تكِف
ولئن شَجِيتُ بما رُزِئتُ به * إنى لأُضْمر فوق ما أَصِف
هلّا بَقِيتَ لسَـــدّ فاقتنــا * أبدا وكان لغــيرك التَّلَف
فلقد خَلَفتَ خلائفا سَلَفوا * ولسوف يُعْوِز بعدك الخلف

لا بات رَهْطُك بعد هفوتهم * إنى لرهطك بعدها شَنِف (١)
هَتكوا بحرمتك التى هُتِكت * حُرَمَ الرسول ودونها السُّجُف
وتَبَتْ أقاربُك التى خَذَلَتْ * وجميعُها بالذّل معترف
لم يفعلوا بالشّط إذ حضروا * ما تفعل الغَيْرانَةُ الأنُفُ
تركوا حريمَ أبيهم نَفَلا * والمُحْصَناتُ صوارِخٌ هُتُفُ
أبدت مُخَلْخَلَها على دَهَش * أبكارُهنّ ورَبّت النَّصَفُ
سُلِبَت مَعاجِرُهنّ (٢) واجْتُلِيت * ذاتُ النِّقاب ونُوزِع الشَّنَف
فكأنهنّ خلالَ مُنْتَهَب * دُرٌّ تكشَّف دونَه الصَّدَف
مَلِكٌ تخوّن مُلْكَه قَدَرٌ * فَوَهَى وصرفُ الدهر مختلف
هيهاتَ بعدك أن يدوم لنا * عِزٌّ وأن يبقى لنا شَرَف
لا هَيَّبُوا صُحُفًا مشرَّفة * للغادرين تحتها الجَدَف
أفَبَعْد عهد الله تقتُلُه * والقتل بعد أمانةٍ سَرَف
فستعرفون غدا بعاقبة * عِزَّ الإله فأَوْرِدُوا وقِفُوا
يا من يُخَوِّن نومَه أرَقٌ * هَدَت الشجونُ وقلبُه لَهِف
قد كنتَ لى أملا غَنِيتُ به * فمضى وحلّ محلَّه الأَسَف
مَرِجَ النِّظام وعاد مُنْكَرُنا * عُرْفا وأُنْكِر بعدك العُرُف
فالشملُ منتشر لفقدك وال * دُّنيا سُدًى والبال منكسف

وقال أيضا يرثيه :

اذا ذُكِر الأمينُ نَعَى الأمينا * وإن رقَد الخَلِيّ حَمَى الجُفُونا
وما بَرِحتْ منازلُ بين بُصرى * وكَلْوَاذَى تُهَيِّج لى شجونا
عِراصُ الملك خاويةٌ تَهادى * بها الأرواح تَنْسِجها فنونا

(١) مبغض متنكر . (٢) جمع معجر بالكسر وهو ثوب تعتجر به المرأة أى تشدّه على رأسها .

تخـوّن عزّ ساكنها زمانٌ * تلعّب بالقرون الأوّلينا
فشتّت شملَهـم بعد اجتماع * وكنتُ بحسن أُلفتهم ضنينا
فلم أر بعـدهم حُسْنا سِـواهم * ولم ترهُـم عيونُ الناظرينا
فوا أسَفَا وإن شمت الأعادى * وآهِ على أمـير المؤمنينا
أضَلّ العُرفَ بعـدك مُتْبِعوه * ورُفّـه عن مطايا الراغبينا
وكنّ الى جنابك كلّ يـوم * يَرُحْنَ على السّعود ويغتدينا
هو الجبلُ الذى هوت المعالى * لهَدّته وريع الصّالحونا
ستندُب بعدك الدنيا جوارا * وتنـدب بعدك الدينَ المصونا
فقد ذهبت بشاشةُ كلِّ شىء * وعاد الدين مطروحا مَهينا
تعقّـد عزُّ مُتّصِلٍ بكسرى[1] * وملّتـه وذلّ المسلمونا

وقال أيضا يرثيه :

أسَفًا عليك سَلاك أقربُ قُرْبَةٌ * منّى وأحزانى عليـك تزيد

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزْدى: حسين بن الضحاك أشعر المحدَثين حيث يقول:

أىُّ ديباجـة حُسْنِ * هيّجتْ لوعةَ حزنى
إذ رمانى القمـرُ الزا * هر عن فَـتْرة جفن
بأبى شمسُ نهـار * برزتْ فى يوم دَجْن
قرّبتنى بالمـنى حتـ * ـى اذا ما أخلفتـنى
تركتنى بين ميعـا * د وخُلْف وتجنّ
ما أرى فىّ من الصَّبْـ * ـوة إلّا حسنَ ظنى
إنما دامت على الغد * ر لما تعرف منّى
أستعيذ اللهَ من إعرا * ض من أعرض عنّى

---

(١) استحكم .

لما ولّى المعتصم أمر بمكاتبته بالقدوم عليه ، فلما دخل وسلّم آستأذنه فى الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده قولَه :

هـلّا سألتَ تـلذّذ المشتاق * ومننْتَ قبـل فراقه بتـلاق
إن الرقيب ليستريب تنفّسـا * صُـعُدا إليك وظاهر الإقلاق
ولئن أَربْتُ لقد نظرتُ بمقلة * عبْرى عليك سخينـة الآماق
نفسى الفـداءُ لخائف مترقّب * جعـل الوداع إشارةً بعنـاق
إذ لا جوابَ لمُفْحَم متحـيّر * إلا الدموع تُصان بالإطراق

حتى آنتهى الى قوله :

خيرُ الوفود مبشّر بخلافـة * خصّتْ ببهجتهـا أبا إسحاق
وافته فى الشهر الحرام سليمةً * من كل مشكلة وكل شِقاق
أعطته صفْقتَها الضمائرُ طاعةً * قبل الأكُفّ بأوكد الميثاق
سكنَ الأنامُ الى إمام سلامةٍ * عفّ الضمير مهذّب الأخلاق
فحمى رعيّتـه ودافع دونَهـا * وأجار مُمْلِقَهـا من الإملاق

حتى أتمّها ، فقال له المعتصم : آدْنُ منى ، فدنا منه ، فملأ فمه جوهرا من جوهر كان بين يديه ، ثم أمره بأن يخرجه من فمه ، فأخرجه وأمر بأن يُنْظَم ويدفع اليه ويخرج الى النـاس وهو فى يده ، ليعلموا موقعه من رأيه ، ويعرفوا فضله ، فكان أحسن ما مُدِح به يومئذ .

ومن شعره قوله :

أمينَ الله ثِقْ بالـلـ * ـه تُعْطَ الصبر والنُّصْرَهْ
كِلِ الأمرَ الى الله * كلاك الله ذو القُـدره
لنـا النصر بعـون الله * والكَرّة لا الفـرّه
وللمُـرّاق أعـدا * ئك يومُ السوء والدَّبْره
وكأس تلفِظ المـوت * كريهٍ طعمُهـا مُرّه

سَقَوْنا وســقيناهم * ولكن بهــم الحرَّه
كذاك الحرب أحيـانا * علينـا ولنـا مَرّه

ومن قوله فى غضب حظيّة للواثق من زيارته أخرى فى نوبتها :

غَضِبتْ أنْ زرتُ أخرى خِلْسةً * فلها العُتْبى لَدَيْنا والرِّضا
يا فَدَتْك النفس كانت هَفْوةً * فاغفريها وٱصفحى عما مضى
وٱتركى العَذْل على من قاله * وٱنسُبى جَوْرى الى حكم القضا
فلقد نبهتِنى من رَقْدتى * وعلى قلبى كنيران الغَضا

كان الواثق يتحظّى جارية له فماتت، فجزِع عليها وترك الشراب أياما، ثم سلاها وعاد الى حاله ، فدعا الحسين ليلة وقال له : رأيت فلانة فى النوم فليت نومى كان طال قليلا لأتمتع بلقائها، فقل فى هذا شيئا، فقال :

ليت عينَ الدهر عنا غَفَلت * ورقيبَ الليل عنا رَقَدا
وأقام النوم فى مدّته * كالذى كان وكنّا أبدا
بأبى زَوْرٌ تلفّتُّ له * فتنفّستُ اليه الصُّعَدا
بينما أضحك مسرورا به * إذ تقطّعتُ عليه كَبِدا

لما أعيته الحيلةُ فى رضا المأمون عنه رمى بأمره الى عمرو بن مَسْعَدَة وكتب اليه :

أنت طَوْدى من بين هذى الهضاب * وشهابى من دون كل شهاب
أنت يا عمرو قُوّتى وحياتى * ولسانى وأنت ظُفْرى ونابى
أتُرانى أنسى أياديَك البيـ * ـض اذا ٱسودّ نائل الأصحاب
أين أخـلاقك الرضيّة حالت * فىّ أم أين رِقّة الكُتّاب؟
أنا فى ذِمّة السحاب وأظمَا؟ * إن هذا لَوَصمةٌ فى السحاب
قم الى سيّد البريّة عنى * قومةً تَسْتَجِرّ حُسْنَ الخطاب
فلعل الاله يُطفئُ عنّى * بك نارا علىّ ذات ٱلتهاب

فلم يزل عمرو يُلْطِف للمأمون حتى أوصله اليه وأدرّ أرزاقه .

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحضاره، فلما حضر سلّم ، فرد عليه السلام ردّا جافيا، ثم أقبل عليه فقال : أخبرني عنك، هل عرفتَ يوم قُتِل أخي محمد هاشمّية قُتلت أو هُتكت ؟ قال : لا، قال : فما معنى قولك :

وسِرْب ظِباء من ذؤابة هاشم * هتَفْن بدعوى خيرِ حي وميّت

أَرُدّ يدًا منّي اذا ما ذكرتُه * على كبد حَرّى وقلبٍ مُفَتّت

فلا بات ليلُ الشامتين بغِبطةٍ * ولا بلَغت آمالُهم ما تمنّت

فقال : يا أمير المؤمنين ، لوعة غلَبتنى، وروعة فاجأتنى، ونعمة فقدتُها بعد أن غمرتنى ، وإحسان شكرته فأنطقنى ، وسيّد فقدته فأقلقنى، فإن عاقبتَ فبحقّك ، وإن عطفت فبفضلك ؛ فدمَعت عينا المأمون وقال : قد عفوتُ عنك ، وأمرتُ بإدرار رِزْقك ، وإعطائك ما فات منه، وجعلت عقوبتك آمتناعى من آستخدامك .

ومن قوله :

وكالوردة الحمراء حَيا بأحْمَر * من الورد يمشى فى قراطِق كالورد

له عَبَثاتٌ عند كل تحيّة * بعينيه تَستدعى الحليمَ الى الوجد

تمنّيت أن أُسقَى بكفّيه شَرْبة * تذكّرنى ما قد نَسيتُ من العهد

سقى الله دهرا لم أَبِتْ فيه ليلةً * خَليّا ولكن من حبيبٍ على وعد

ومن قوله :

وا بأبى مُفْحَم لعزّته * قلتُ له اذ خلوتُ مكتَتِما

تُحِبّ بالله من يخصّك بال * ود فما قال لا ولا نَعَما

ثم تولّى بمُقْلَتَىْ خَجِل * أراد رَجْع الجواب فاحتشما

فكنت كالمُبتغى بحيلته * بُرءًا من السُّقْم فابتدا سَقَما

وقال فى هوًى له :

عالِمٌ بحبّيه * مطرِق من التّيه

يوسفُ الجمالِ وفر * عونُ فى تَعَدّيه

لا وحـقِّ ما انا فيـ * ـه من عطفٍ أرَجّيه
ما الحيـاةُ نافعــة * لى عــلى تأبّيــه
النعـيم يَشْـــغَلُهُ * والجمـال يُطغيــه
فهـو غيرُ مكترث * للذى ألاقيــه
تائهٌ تُزهّـــده * فىّ رغبتى فيــه

ومن قوله فى هوى له :

إن من لا أرى وليس يَرانى * نُصْب عينى مُمَثَّـل بالأمانى
بأبى مَنْ ضميره وضميرى * أبدا بالمَغيب ينتجيان
نحن شخصان إن نظرت ورو * حان اذا ما اختبرت يمـتزجان
فاذا ما همَمتُ بالأمر أو هَمَّ * بشيء بدأتُه وبدانى
كان وَفْقا ما كان منـه ومنّى * فكأنى حَكَيتُهُ وحكانى
خَطَرات الجفون منّا ســواءٌ * وســواء تحـرّكُ الأبدان

ومن قوله :

فَدّيتُ من قال لى على خَفَـره * وغَضّ من جفنه على حَوَره
سمّـع بأشـعارك المليحَ فما * يَنْفَــكُّ شَادٍ بها على وَتَرِه
حسبك بعضُ الذى أذعتَ ولا * حَسْبُ لِصَبٍّ لم يَقْضِ من وَطَرِه
وقلتُ يا مسـتعيرَ سالفـــة الـ * ـخِشْفِ وحُسْنِ الفُتور من نَظَره
لا تنكِرنّ الحبيبَ من طَرَب * عَاوَد فيـك الصِّبا على كِبَره

ومن قوله :

سائل بطيفك عن لَيْلى وعن سهرى * وعن تتـابع أنفاسى وعن فِكَرى
لم يَخْـلُ قلبىَ من ذكراك إذ نظرت * عينى اليـك على صَحْوى ولا سكرى
سَقْياً ليـومِ سرورى إذ تُنَــازِعنى * صفوَ المُدامة بين الأُنس والخَفَر

وفضلُ كأسك يأتيني فأشربه * جَهْرا وتشرب كأسي غير مُستتر
وكيف أشمله لثمي وألزمه * نحري وترفعه كفّي الى بصري
فليت مُدّة يومي إذ مضى سلَفا * كانت ومدّة أيامي على قَدَر
حتى اذا ما انطوت عنّا بشاشته * صرنا جميعا كذا جارَيْن في الحُفَر

ومن قوله لهوًى كان له :

تَعَزَّ بيأسٍ عن هواكَ فإنني * اذا انصرفت نفسي فهيهات عن رَدّي
إذا خُنتُمُ بالغيب ودّي فمالكم * تُدِلّون إدلال المقيم على العهد
ولي منك بد فاجتنبني مُذَمَّما * وان خلتَ أني ليس لي منك مِنْ بدّ

لما ولي الواثق الخلافة أنشده حسين :

أُكاتم وجدي فما يَنكتمْ * بمن لو شكوتُ اليه رَحِمْ
وإني على حسن ظنّي به * لأَحْذَر إن بُحتُ أن يحتشم
ولي عند لحظته رَوْعة * تحقّق ما ظنّه المتّهم
وقد علم الناس أنّي له * محبّ وأحسبه قد علِم
وإني لمُغْضٍ على لوعة * من الشوق في كبدي تَضْطَرِم
عَشيّة ودّعت عن مقلة * سَفُوحٍ وزفرةِ قلبٍ سَدِم
فما كان عند النّوى مُسْعِد * سوى العين تمزج دمْعًا بِدَم
سيذكر من بان أوطانَه * ويبكي المقيمين من لم يُقِم

كتب إلى الحسن بن رجاء في يومِ شَك، وقد أمر الواثق بالإفطار، فقال :

هَزَزْتُك للصَّبوح وقد نهاني * أميرُ المؤمنين عن الصّيام
وعندي من قِيان المِصر عَشْرٌ * تَطيب بهنّ عاتقة المدام
ومن أمثالهن اذا انتشينا * ترانا نجتني ثَمَر الغرام
فكن أنتَ الجواب فليس شيء * أحبّ إليّ من حَذْف الكلام

فوردت رقعته، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بُسْخُنّر ووجّه اليه بغلامٍ نظيف الوجه ومعــه ثلاثة غِلمة أقران حِسان الوجه، ومعهم رُقعة كتبها كما تكتب المناشير، وختمها فى أسفلها وكتب فيها يقول :

سِرْ على ٱسم الله يا أشـ * ـكل من غصنٍ لُجَيْنِ
فى ثلاثٍ من بَنى الرو * م إلى دار حسيــن
أَشْخِص الكهل الى مو * لاك يا قُـــرّة عينى
أَرِه العُنْف اذا ٱســتعـ * ـصى وطالبـــه بدَيْنِ
ودَعِ اللفـــظ وخاطبـ * ـه بغمز الحاجبَيْنِ
وٱحذر الرَّجعة من وجـ * ـهك فى خُفَّىْ حُنَيْنِ

فمضى معهم .

ومن قوله لمن أعرض عنه :

تَتِيــه علينا أَنْ رُزِقْتَ ملاحةً * فمهلًا علينا بعضَ تيهك يا بَدرُ
لقد طال ما كنّا مِلاحا وربمـا * صـدَدنا وتهنا ثم غيّرنا الدهرُ

وله فى هوى حُجِب عنه :

ظَنّ من لا كان ظنـ * ـا بحـــبيبى فحَـــمَاه
أَرْصَـــد البابَ رقيبـ * ـن له فاكتَنَفَاه
فإذا ما ٱشـــتاق قربى * ولقـائى منَـــعَـاه
جعـــل اللهُ رقيبيـ * ـه من السُّوء فِـــداه
والذى أفْرِح فى الشـا * دن قلبى ولوَاه
كلّ مشتاق اليــه * فمن السُّــوء فِـداه
سِيّما من حالت الأحـ * ـراس من دون مُنـاه

أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه، فلم يطق ذلك لكبر سنه، فقال للمتوكّل بعض من حضر عنده : هو يُطيق الذهاب الى القُرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك؛ فبلّغه ذلك، فدفع الى أحمد بن حَمْدون أبياتا قالها وسأله إيصالها، فأوصلها الى المتوكّل، وهى :

أما فى ثمانين وُفِّيتَها * عذيرٌ وإن أنا لم اعْتَذِرْ
فكيف وقد جزتُها صاعدا * مع الصاعدين بتِسْع أُخَرْ
وقد رفع الله أقلامه * عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصَرّ على فتنة * وألْحَد فى دينه أو كفر
وإنى لمن أُسَراء الإله * فى الأرض نُصْبَ صُروف القَدَر
فإن يَقْضِ لى عملا صالحا * أثاب وإن يقض شرًّا غفر
فلا تَلْحَ فى كِبرٍ هَدّنى * فلا ذنب لى أن بلغت الكبر
هو الشيب حَلّ بعَقْب الشباب * فمن ذا يلوم اذا ما عذر
وإنى لَفى كَنَف مُغْدِق * وعِزٍّ بنصر أبى المُنْتَصِر
يُبارى الرياح بفضل السما * ح حتى تَبَلَّد أو تَحْسِر
له أكّد الوحىُ ميراثَه * ومن ذا يخالف وحى السُّوَر
وما للحسود وأشباهه * ومن كَذَّب الحقّ إلا الحجر

فلما أوصلها شيّعها بكلام يعذره وقال : لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها؛ فقال المتوكل : صدقت، وأمر له بعشرين ألف درهم .

٥ — محمد بن عبد الملك الزيّات (١)

كان محمد شاعرا مُجيدا لا يُقاس به أحد من الكتّاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثـله فى ذلك ، فإن إبراهيم مُقلّ وصاحب قِصار ومقطّعات . وكان محمد شاعرا يُطيل فيُجيد ، ويأتى بالقِصار فيجيد ، وكان بليغا حسن اللفظ اذا تكلّم واذا كتب .

ولمـا تولى محمد الوزارة آشترط ألا يلبس القَبَاء ، وأن يلبس الدُّرَّاعة ويتقلّد عليها سيفا بحمائل ، فأجيب الى ذلك .

وكان يقول : الرحمةُ خَوَرٌ فى الطبيعة ، وضَعْف فى المُنّة ، ما رحِمتُ شيئا قط ، فكانوا يطعنون عليه فى دينه بهـذا القول ، فلما وُضِـع فى الثّقل والحديد قال : آرحمونى ، فقالوا له : وهل رحمت شيئا قط فتُرْحم؟ هذه شهادتك على نفسك وحُكْمك عليها .

لمـا ماتت أمّ آبنه عمرو رثاها بقصيدة منها :

يقول لى الخلّان لو زُرْتَ قبرَها * فقلتُ وهل غير الفؤاد لها قـبرُ
على حين لم أحدُث فأجهل قبرها * ولم أبلُغ السِّنّ التى معها الصـبر

ومن شعره قوله :

ما أعجب الشيءَ ترجـوه فتُحرَمـه * قد كنتُ أحسب أنى قد ملات يدى
مالى اذا غِبتُ لم أُذْكـر بصالحـة * وإن مَرِضتُ فطال السُّقمُ لم أُعَد

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة واشتهر بابن الزيات لأن جده (أبان) كان يجلب الزيت من مواضعه الى بغداد ، وكان أديبا شاعرا عالما بالنحو واللغة ، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل جيدة ، وكان فى أوّل أمره من جملة الكتّاب ثم صار وزيرا للمعتصم ولابنه الواثق . ولما تولى المتوكل قبض عليـه وأمر بادخاله فى تنور من حديد كان ابن الزيات أعدّه لتعذيب المصادرين وأرباب الدواوين المطالبين بالاموال وقيده بخمسة عشر رطلا من حديد ، ثم أمر باخراجه بعد أن مكث فيه أربعين يوما ، فوجدوه ميتا وذلك سنة ٢٣٣ هـ . ويجد ترجمته فى الأغانى (ج ٢٠ ص ٤٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ٧٨) .

ومن شعره قوله :

ألم تعجب لمكتئبٍ حزينٍ * خدين صبابةٍ وحليف صبرِ
يقول اذا سألت به بخيرٍ * وكيف يكون مهجورٌ بخيرِ

وكان لمحمد بِرْذَون أشهب لم يُرَ مثلُه فَرَاهة وحُسْنا ، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم ووصف له فراهته ، فبعث اليه المعتصم فأخذه منه ، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه :

كيف العزاءُ وقد مضى لسبيله * عنا فودّعنا الأَحَمُّ الأَشهبُ
دَبَّ الوُشاةُ فأبعدوك وربما * بَعُدَ الفتى وهو الأحَبّ الأقرب
لله يومَ نأيت عنّيَ ظاعنا * وسُلِبتُ قربك أىّ عِلْقٍ أُسْلَب
نَفسٌ مفرَّقةٌ أقام فريقُها * ومضى لطيّته فريقٌ يُجْنَب
فالآن اذ كَمُلت أداتك كلّها * ودعا العيونَ اليك لونٌ مُعْجِب
وٱخْتِير من سِرّ الحدائد خيرُها * لك خالصا ومن الحلىّ الأغرب
وغدوتَ طَنّان اللجام كأنما * فى كل عُضو منك صَنْج يضرب
وكأن سَرْجك إذ علاك غمامةٌ * وكأنما تحت الغمامة كوكب
ورأى عَلَىَّ بك الصديقُ جَلالةً * وغدا العدو وصدرُه يتلهّب
أنساك لا زالت اذا منيتُه * نفسى ولا زالت يمينى تنكب
أضمرتُ منك اليأس حين رأيتنى * وقُوى حبالى من قُواك تُقَضّب
ورَجعتُ حين رجعتُ منك بحسرة * لله ما فعل الأحَمّ الأشهب

ولما وثب إبراهيم بن المهدىّ على الخلافة ٱقترض من مياسير التّجار مالا ، فأخذ من عبد الملك أبى محمد عشرة آلاف درهم وقال له : أنا أردّها اذا جاءنى مال ، ولم يتمّ أمره ، فٱستخفى ثم ظهر ورضى عنه المأمون ، فطالبه الناس بأموالهم ، فقال : إنما أخذتها للسلمين وأردت قضاءها من فَيْئهم ، والأمْرُ الآن الى غيرى ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة خاطب فيها المأمون ومضى الى إبراهيم بن المهدى فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطنى

المـال الذى اقترضته من أبى لأوصلنّ هذه القصيدة الى المأمون، نخاف أن يقرأها المأمون فيتـدبّر ما قاله ، فيُوقع به، فقال له : خذ منى بعض المـال ونجّم علىّ بعضـه ، ففعل؛ والقصيدة قوله :

ألم تَرَ أنّ الشيءَ للشيءِ عِلّةٌ * تكون له كالنار تُقـدَح بالزَّنْد
كذلك جَرَّبت الأمور وإنمـا * يدُلُّك ما قد كان قَبْـلُ على البَعْد
وظَنّى بابراهـيم أنّ مكانه * سَيَبْعَث يوما مِثْـلَ أيامه النُّكْد
رأيت حُسَينا حين صارَ محمـدٌ * بغير أمانٍ فى يَدَيْه ولا عَقْـد
فلو كان أمضى السيفَ فيه بضربة * فصـيّره بالقاع مُنْعفِرَ الخَـدّ
اذا لم تكن للجُنْـد فيـه بقيـةٌ * فقد كان ما بُلِّغْتُ من خبر الجند
هُمُ قتـلوه بعد أن قتلوا له * ثلاثين ألفا من كُهُول ومن مُرْد
وما نصروه عن يدٍ سَلفت له * ولا قتلوه يوم ذلك عن حِقد
ولكنّه الغَدْر الصُّراحُ وخِفّة الـ * ـحلوم وبُعد الرأى عن سُنَن القَصْد
فذلك يومٌ كان للنـاس عِبرةً * سيبقى بقاءَ الوَحْى فى الحجر الصَّلْد
وما يوم إبراهيم إن طال عمـرُه * بأبعَد فى المكروه من يومه عندى
تذكّر أميرَ المؤمنين مَقامَه * وأيْمانه فى الهزل منـه وفى الجِدّ
أما والذى أمسيتَ عبـدًا خليفةً * له شرّ إيمَـان الخليفة والعبـد
اذا هزّ أعوادَ المنابر باسْـتِه * تَغَنّى بليـلَى أو بميّـة أو هند
فوالله ما من تَوْبةٍ نزعتْ به * اليك ولا مَيْـلٍ اليك ولا وُدّ
ولكنّ إخلاصَ الضمير مقـرّبٌ * إلى الله زُلْفى لا تَبِيـدُ ولا تُكْدى
أتاك بها كَرْها اليـك بأنفـه * على رَغْمـه واستأثرَ اللهَ بالحمـد
فلا تتركَنْ للناس موضـع شُبهْة * فإنك مجزىّ بحَسْب الذى تُسْدى
فقد غلطوا للناس فى نَصْب مِثْله * ومن ليس للمنصور بابن ولا المهدى

فكيف بمن قد بايع الناسُ والتقت * ببيعته الرُّكبانُ غَوْرا الى نجد
ومن سَاكَ تسليمُ الخلافة سمعَه * يُنادَى به بين السماطين من بُعْد
واىّ امرئ سَمَّى بها قط نفسَه * ففارقها حتى يُغيَّب فى اللحد
وتزعُم هذى النابتيّة أنه * إمام لها فيما تُسِرّ وما تُبدى
يقولون سُنّى وأيّةُ سُنّة * تَنِمّ بصَعْل الرأس جَوْن القفا جَعْد
وقد جعلوا رُخْص الطعام بعهده * زعيما له باليُمن والكوكب السعد
اذا ما رأوْا يوما غلاءً رأيتَهم * يحنّون تحنانا الى ذلك العهد
و إقبالُه فى العيد يُوجِفُ حَوْله * وَجيفَ الجياد واصطكاك القنا الجُرْد
ورَجّالةٌ يمشون بالبيض قبْلَه * وقد تبعوه بالقضيب وبالبُرْد
فإن قالتَ قد رام الخلافةَ قبْلَه * فلم يُؤْتَ فيما كان حاول من جِدّ
فلم أجْزِه إذ خيّبَ اللهُ سَعْيه * على خطأ إذ كان منه على عَمْد
ولم أرْضَ بعد العفو حتى رفعتُه * وللعمّ أولى بالتغمّد والرِّفد
فليس سَواءً خارجىٌّ رَمَى به * اليك سَفَاه الراى والرأى قد يُردى
تَعَادَتْ له من كل أَوْب عصابة * متى يُوردوا لا يُصدروه عن الوِرْد
ومن هو فى بيتِ الخلافة تلْتَقِى * به وبك الآباء فى ذِرْوة المجد
فمولاك مولاهُ وجُنْدُكَ جُنْدُه * وهل يجمع القَيْنُ الحُسامين فى غِمْد
وقد رابَنِى من أهل بيتك أننى * رأيتُ لهم وَجْدا به أيّما وَجْد
يقولون لا تَبْعَد من ابن مُلِمّة * صبورٍ على اللأواء ذى مِرّة جَلْد
فداءا وهانت نفسُه دون مُلْكنا * عليه لدى الحال التى قلّ مَنْ يفْدى
على حين أعطَى الناسُ صَفْقَ أكفّهم * علىَّ بن موسى بالولاية والعَهْد
فما كان فينا من أبَى الضيمَ غيرُه * كريمٌ كَفَى ما فى القبول وفى الرَّدّ
وجرّد إبراهيم للموت نفسَه * وأبدى سلاحا فوق ذى مَيْعة نَهْد

وأبلى ومن يبلُغ من الأمر جَهْدَه * فليس بمذموم وإن كان لم يُحْـمَدِ
فهذى أمور قد يَخاف ذوو النُّهى * مَغَبّتها والله يَهـــديك للرّشـــد

وكانت الخلافة فى أيام الواثق تدور على إيتاخ وكاتبه سليمان بن وهب، وعلى أَشناس وكاتبه أحمد بن الخَصيب ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها الى الواثق على أنها لبعض أهل العسكر، وهى :

يابن الخلائف والأملاك إن نُسِبوا * حُزْت الخـلافةَ عن آبائك الأُوَل
أَجُرْت أم رقدت عيناك عن عَجَب * فيـه البريّة من خوف ومن وَهَل
ولّيتَ أربعـــةً أمرَ العباد معـا * وكلُّهم حاطِبٌ فى حبل مُحْتَبِـــل
هـــذا سليمانُ قد ملّكت راحتَه * مشارقَ الارض من سَهْل ومن جبل
ملّكته السِّند فالشِّحْرَيْن من عَدَن * الى الجزيرة فالأطراف من مَلَل
خلافةٌ قد حواها وحده فمَضَتْ * أحكامُه فى دماء القوم والنُّفَــل
وابن الخصيب الذى ملّكت راحته * خلافةَ الشأم والغازين والقفــل
فنيلُ مِصرَ فبحرُ الشأم قــد جَرَيَا * بما أراد من الاموال والحُلَل
كأنهــم فى الذى قَسَّمتَ بينهــم * بَنُو الرشـــيد زمانَ القَسْم للدُّوَل
حَوَى سليمانُ ما كان الأمينُ حوى * من الخلافة والتبليغ للأمــل
وأحمـــدُ بن خصيب فى إمارته * كالقاسم بن الرشيد الجامع السُّبل
أصبحتَ لا ناصحٌ يأتيك مســتترا * ولا علانيـــةً خوفا من الحِيَــل
سل بيتَ مالك أين المـال تعرفه * وسل خَراجك عن أموالك الجُمَل
كم فى حُبُوسك ممن لا ذنوب لهم * أسْرَى التَّكذّب فى الأقياد والكُبَل
سمِّيت باسم الرشيد المُرتضى فيـه * تُسْمى الأمور التى تُنْجى من الزَّلل
عِشْ فيهم مثل ما عاشت يداه معا * على البرامك بالتهـــديم للقُـــلَل

فلما قرأ الواثق هـذا الشعر غاظَه ، ونكب سليمانَ بن وهب وأحمـد بن الخصيب ، وأخذ منهما ومن أسبابهما ألفى ألف دينار فجعلها فى بيت المـال .

٦ — ٱبنُ البَوّاب (١)

لما أُتِى المأمونُ بشعر ٱبن البوّاب الذى يقول فيه :

أيبخَل فَرْدُ الحسنِ فَرْدُ صِفَاته * علىّ وقــد أفردتُه بهوًى فَرْدِ
رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عبـاده * فملّكه واللهُ أعلم بالعبــد
ألا إنما المأمون للناس عِصمة * مميِّزة بين الضّلالة والرّشد

فقال المأمون : أليس هو القائل :

أعَيْنىّ جُودَا وٱبكيا لِى محمـدا * ولا تَذْخَرا دمعا عليه وأَسْعِدا
فلا فرِح المأمون بالمُلك بعـده * ولا زال فى الدنيا شريدا مُطَرّدا

واحدة بواحدة، ولم يَصِـلْه بشىء . ولما سخِط عليه قال قصيدة يمدحه بها، ودسّ مَنْ غنّاه فى بعضها لما وجد منه نشاطا، فسأل: مَنْ قائلُها، فأُخبر به، فرضِى عنه وردّه إلى رسمه من الخدمة، وهى :

هــل للمحبِّ مُعِينُ * إذ شَطّ عنــه القرينُ
فليس يبـكى لشجو الـ * ـحــزينِ إلّا الحـزينُ
يا ظاعِنا غاب عنا * غداةَ بانَ القَطِـينُ
أبكَى العيــونَ وكانت * به تَقَــرّ العيون
يا أيها المأمون الـ * ـمبـاركُ الميمــونُ
لقد صَفَتْ بك دنيا * للمســلمين ودين
عليك نورُ جــلال * ونــور مُلْك مُبِــين

---

(١) هو عبد الله بن عتاب من أهل بخارى، وجىء بجدّه وجماعة معـه رهينة الى الحجاج بن يوسف، فنزلوا عنده بواسط، فأقطعهم سكة بها، فاختطوها ونزلوها طول أيام بنى أمية، ثم انقطعوا من الدولة العباسية الى الربيع نخدموه، وكان عبدالله بن محمد هذا يخلف الفضل بن الربيع على حجبة الخلفاء، وكان صالح الشعر قليله وراوية لاخبار الخلفاء عالما بأمورهم .

القولُ منـــك فَعـال * والظن منك يقـين
ما من يديـــكَ شِمال * كلتا يديك يمـــين
كأنما أنت فى الجـو * د والتّـــقى هارون
مَنْ نال من كل فضل * ما نالَه المأمون
تألّف النـاسَ منـــه * فضـــلٌ وجـود ولين
كالبـــدر يبدو عليه * ســكينةٌ وسكون
فالرزق من راحتيـــه * مقسّـــم مضمون
وكل خَصْلة فضل * كانت فمنـه تكون

ومما يغنَّى فيه قوله :

أَفِقْ أيها القلب المعـذّب كم تَصْبو؟ * فلا النَّأْى عن سَلْماك يُسلى ولا القربُ
أقول غَـــدَاةَ آستخبرتْ مِمَّ علّتِى ؟ * من الحب كربٌ ليس يُشبـــهه كرب
اذا أبصرتْك العـينُ من بُعْـد غاية * فأدخلت شكا فيـك أثبتـك القلب
ولو أن ركْبا يمّمُـوك لَقَادهم * نسيمُك حتى يَســتدلّ بك الركب

أملق ابن البواب حين جَفَـاه الخليفة وعَلَت سِنّه عن الخدمة، فرحَل الى أبى دُلَف القاسِم بن عيسى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها الى بغداد، فما نفدت حتى مات؛ وهى قوله :

طرقَتْك صائدةُ القـلوب رَبابُ * ونأَتْ فليس لهـا اليـــك مآب
وتصرّمتْ منهـا العهود وغُلّقتْ * من دون نَيـل طِلابها الأبواب
فلأَصْدِفنّ عن الهـوى وطِلابه * فالحبّ فيـه بَليّـــة وعـــذاب
وأخصّ بالمدح المهذّب سـيّدا * نَفَحاتُـــه للمُجْتدِين رِغاب
والى أبى دُلَف رحلتُ مطيّـتى * قـــد شفّها الإرقال(١) والإتعاب

(١) الارقال : ضرب من الخبب .

تعـــلو بنا قُلَلَ الجبال ودونهـا * ممـا هَـوَتْ أهْـــويّة وشِعَاب
فاذا حللتُ لدى الأمير بأرضـــه * نلتُ المـنى وتقضّت الآرابُ
مَلِكٌ تأثّل عن أبيه وجـده * مَجْـــدًا يقصّر دونه الطُّـــلّاب
وإذا وَزَنْت قديمَ ذى حَسَبٍ به * خَضَعتْ لفضل قديمه الأحساب
قــوم عَلَوْا أملاكَ كلّ قبيلة * فالنــاسُ كلّهـــم له أذناب
ضَربتْ عليــه المكرماتُ قِبابهـا * فعـلا العمودُ وطالت الأطناب
عَقِمَ النســاءُ بمثـــله وتعطّلت * من أن تُضَمَّن مثلَه الأصـلابُ

٧ — الخُـــرَيْمِىّ (١)

كان متّصلا بمحمد بن منصور بن زِيَاد كاتب البرامكة، وله فيه مدائحُ جِيَاد، ثم رثاه بعد موته، فقيل له : يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مراثيك وأجود؛ فقال : كنّا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، و بينهما بون بعيد .

وهو القائل فى عينيه :

أُصْـغِى الى قائدى ليُخبرنى * إذا ٱلتقينـا عمّن يُحيّينى
أريد أن أعْدِل السـلام وأن * أَفْصِل بين الشريف والدُّون
أسمع ما لا أرى فأَكْرَهُ أن * أُخْطِئ والسـمعُ غير مأمون
لله عيـنى التى فُجِعتُ بهـا * لو أن دهرا بهـا يُواتيـنى
لو كنتُ خُيّرت ما أخذتُ بها * تَعْـميرَ نوح فى مُلك قارون
حتّى أخِلّائى أن يَعـودونى * وأن يُعزّوا عنّى و يبكونى

وهو القائل :

اذا ما مات بعضُك فابك بعضًا * فإن البعض عن بعض قريبُ
يُمنّينى الطبيبُ شـفاء عينى * وهـل غير الإله لهـا طبيب

---

(١) هو إسحاق بن حسان و يكنى أبا يعقوب، من العجم، وهو القائل :

إنى آمرؤ من سراة الصغد ألبسنى * عرق الأعاجم جلدا طيب الخبر

وكان مولى آبن خريم الذى يقال لأبيه : خريم الناعم . وهو خريم بن عمرو من بنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . وعمى أبو يعقوب الخريمى بعد ما أسنّ، وكان يقول فى ذلك شعرا، فمنه قوله :

فإن تك عينى خبا نورها * فكم قبلها نور عين خبا
فلم يعـم قلبى ولكنما * أرى نور عينى إليـه سرى
فأسرج فيـه إلى نوره * سراجا من العلم يشفى العمى

وقال يذكر بغداد والفتنة التى كانت بها :

قالوا ولم يَلْعبِ الزمانُ ببغـ * ـداد وتَعْثُرْ بها عواثرُها
إذ هى مثلُ العروس باديُها * مُهَوَّل للفتى وحاضرها
جَنَّةُ دنيا ودارُ مَغْبَطَة * قَلَّ من النائبات واترُها (١)
دَرَّت خُلوفُ الدنيا لساكنها * وقَلَّ معسورُها وعاسرُها
وآنفرجَتْ بالنعيم وآنْتَجعت * فيها بلذّاتها حواضرها
فالقومُ منها فى روضة أُنُف * أشرق غِبَّ القِطار زاهرها
من غَرَّه العيش فى بُلَهْنِية * لو أن دنيا يدوم عامرها
دارُ ملوك رَسَت قواعدها * فيها وقرّت بها منابرها
أهلُ العلا والثَّرى وأنْدِيَة الـ * ـفخر إذا عُدِّدَتْ مفاخرها
أفراخُ نُعْمَى فى إرث مملكة * شَدّ عُراها لها أكابرها
فلم يزل والزمانُ ذو غِيَر * يَقدَح فى مُلكها أصاغرها
حتى تَساقتْ كأسا مُثَمَّلة * من فتنة لا يُقال عاثرها
وآفترقتْ بعد أُلْفة شِيَعًا * مقطوعةً بينَها أواصرها
ياهَلْ رأيتَ الأملاكَ ما صَنَعَت * إذ لم يَزَعها بالنّصح زاجرها
أورد أملاكُنا نفوسَهم * هُوّةَ غَىّ أعْيَت مصادرها
ما ضَرّها لو وَفَتْ بمَوْثِقها * وآستحكمتْ فى التُّقى بصائرها
ولَم تُسافك دماءَ شيعتها * وتَبْتعِل فتيةً تُكابرها
وأقنعَتْها الدنيا التى جُمِعت * لها ورَغْبُ النفوس ضائرها
مازال حَوْضُ الأملاك [... ...] * مسجورها بالهوى وساجرها
تُبْقِ فُضولَ الدنيا مُكاثَرةً * حتى أُبيحت كَرْها ذخائرها

(١) مفزعها وذاعرها .

تبيع ما جمّع الأبوّة لل * أبناء لا أربحت متاجرها
يا هل رأيتَ الجنان زاهرةً * يروق عين البصير زاهرها
وهل رأيت القصورَ شارعة * تكنّ مثل الدُّمى مقاصرها
وهل رأيتَ القُرى التى غرس ال * أملاكُ مُخضرّةً دساكرُها
محفوفةً بالكروم والنّخل وال * رّيحان قد دَميت محاجرها (١)
فإنها أصبحت خلايا من ال * إنسان قد دَميت محاجرها (١)
قفْرًا خلاء تعْوِى الكلابُ بها * يُنكر منها الرسومَ داثرها
وأصبح البؤسُ ما يفارقها * إلْفًا لها والسرورُ هاجرها
بزَنْدَوَرْد والياسريّة وال * شّطّيْن حيث انتهت معابرها
وبالرحى والخَيْزُرانية ال * عُليا التى أشرفت قناطرها
وقَصْر عَبْدويه عِبرةٌ وهُدًى * لكل نفس زكت سرائرها
فأين حرّاسها وحارسُها * وأين مجبورها وجابرها
وأين خصيانُها وحشوتها * وأين سكّانها وعامرها
أين الجَرادية الصّقالبُ وال * أحْبُش تعدو هُدْلا مَشافرها
ينصدع الجندُ عن مواكبها * تعدو بها سُرّبًا ضوامرها
بالسّند والهند والصّقالب وال * نوبة شيبت بها برابرها
طيرًا أبابيل أُرسلت عبثا * يقدُم سُودانَها أحامرها
أين الظباء الأبكار فى روضة ال * ـمُلك تهادى بها غرائرها
أين غضاراتها ولذّتها * وأين مَحبورُها وحابرها
بالمسك والعنبر اليمانىّ وال * يلنجوج مشبوبةٌ مجامرها
يرفُلن فى الخزّ والمجاسد وال * مَوْشىّ مخطومةً مَزامرها

(١) كذا فى الطبرى فى حوادث سنة ١٩٧ هـ، طبع بلاق وطبع أوربا .

فأين رقّاصها وزامرها * يجبن حيث انتهت حناجرها
تكاد أسماعهم تسل اذا * عارض عيدانها مزاهرها
أمست كجوف الحمار خالية * يسعرها بالجحيم ساعرها
كأنما أصبحت بساحتهم * عاد ومسّتهم صراصرها
لا تعلم النفس ما يبايتها * من حادث الدهر أو يباكرها
تضحى وتمسى دريّة غرضا * حيث استقرت بها شراشرها
لأسهم الدهر وهو يرشقها * مخنطها مرة وباقرها
يابؤس بغداد دار مملكة * دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها * لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبالـ * ـحرب التى أصبحت تساورها
كم قد رأينا من المعاصى بها * كالعاهر السوء ... ...
حلّت ببغداد وهى آمنة * داهية لم تكن تحاذرها
طالعها السوء من مطالعه * وأدركت أهلها جرائرها
رقّ بها الدين واستخفّ بذى الـ * ـفضل وعزّ النسّاك فاجرها
وخطّم العبد أنف سيّده * بالرغم واستعبدت مخادرها
وصار ربّ الجيران فاسقهم * وابتزّ أمر الدروب ذاعرها
من ير بغداد والجنود بها * قد ربّقت حولها عساكرها
كلّ طحون شهباء باسلة * تسقط أحبالها زماجرها
تلقى بغىّ الردى أوانسها * يرهقها للقاء طاهرها
والشيخ يعدو حزما كتائبه * يقدم أعجازها يعاورها
ولزهير بالقول مأسدة * مرقومة صلبة مكاسرها
كتائب الموت تحت ألوية * أبرح منصورها وناصرها

يعـلم أنَّ الأقدارَ واقعـةٌ * وقعا على ما أحبَّ قادرها
فتلك بغداد ما يَبِنُّ من الـ * ـدَّلَه فى دُورها عصافرها
محفوفةٌ بالردى منطَّقـةٌ * بالصَّقر محصورةٌ جبابرها
وبين شَطِّ الفُرات منه الى * دِجلة حيث انتهت مَعابرها
كهادى السَّفراء نافرَه * تركُضُ من حولها أشاقِرها
يُحـرقها ذا وذاك يَهـدمها * ويَشتفى بالنِّهاب شاطرها
والكَرْخُ أسواقُها معطَّلة * يَستَنُّ عَيّارها وعائرها
أخرجتِ الحربُ من سواقِطها * آسادَ غِيلٍ غُلْبا تُساورها
من البَوارى تِرَاسُها ومن الـ * ـخُوص اذا استلأمتْ مَغافرها
تغدو الى الحرب فى جواشِنها الـ * ـصّوف اذا ما عَدَت أساورها
كتائب الهِرْش تحت رايتـه * سَاعَد طَرَّارَها مُقامرها
لا الرِّزق تبغى ولا العطاءَ ولا * يحشُرها للقاء حاشرها
فى كل دَرْب وكل ناحيـة * خَطّارة يَستهِلّ خاطرها
بمثل هام الرجال من فِلَق الـ * ـصخر يَزود المقلاعَ بائرها
كأنما فوق هامها عِدَف * من القطا الكُدْر هاج نافرها
والقومُ من تحتها لهم زَجَل * وهى تَرامَى بها خواطرها
بل هل رأيتَ السيوفَ مُصْلتة * أشهَرَها فى الأسواق شاهرها
والخيلَ تستَنُّ فى أزِقّتها * بالتُّرك مسنونة خناجرها
والنِّفط والنار فى طرائقها * وهابيًا للدخان عامرها
والنِّهب تعدو به الرجالُ وقد * أبدت خلاخيلَها حرائرها
مُعْصَوْصِبات وسط الأزِقَّة قد * أبرزها للعيون ساترها
كلُّ رَقُود الضّحى مخبّأةٌ * لم تَبْدُ فى أهلها محاجرها

بَيْضَـةُ خِدْرٍ مكنونةٌ بَرَزَتْ * للناس منشـورةً غدائرها
تعـثُرُ فى ثوبهـا وتُعْـجِلها * كَبَّةُ خيـلٍ زِيعَت حوافرها
تسأل أين الطّريق والهـةً * والنـارُ من خلفها تبـادرها
لم تجتـلِ الشمسُ حسنَ بهجتها * حتى اجتلتها حَرْبٌ تُبـاشرها
ياهْـل رأيت الثّـكلى مُوَلوَلةً * فى الطُّرق تسعى والجَهْد باهرها
فى إثْرِ نعشٍ عليـه واحدها * فى صـدره طعنة يُسـاوِرها
فرغاء تُلْقِى النّشّـار من يدها[1] * يَهـزّها بالسّنان شاجرها
تنظُر فى وجهـه وتهـتِف بالـ * ـثّكل وعِزّ الدمـوع خامرها
غَرْغر بالنّفس ثم أسـلَمَها * مَطـلولةً لا يُخـاف ثائرها
وقد رأيتُ الفتيان فى عَرْصَة الـ * ـمَعْرك معفـورةً مَنـاخرها
كلّ فـتى منّـاعٌ حقيقتَـه * تَشـقَى به فى الوغى مسـاعرها
باتت عليه الكلاب تنهشُـه * مخضوبةً من دمٍ أظافرها
أما رأيتَ الخيـولَ جائلةً * بالقـوم منكوبةً دوائرها
تعثُر بالأوجه الحسان من الـ * ـقتْـلَى وغُلّتْ دماً أشـاعرها
يَطأْنَ أكبادَ فتيـةٍ نُجُـدٍ * يَفْـلِق هاماتهـم حـوافرها
أما رأيتَ النّسـاء تحت المجـا * نيق تَعـادَى شُـعْثاً ضفـائرها
عقـائلَ القـوم والعجائزَ والـ * ـعُنّس لم تُخـتبر مَعـاصرها
يحمِلن قوتا من الطّحين على الـ * أكتاف معصوبةً مَعـاجرها
وذات عيشٍ ضَـنْك ومُقْعسة * تَشْـدَخُها صَخْـرةٌ تُعـاوِرها
تسأل عن أهلهـا وقد سُلِبت * وابْتُزّ عن رأسها غَفَـائرها
يا ليت ما والدهر ذو دُوَلٍ * تُرجى وأخرى تُخشى بوادرها

(١) كذا فى هامش النسخة الأوربية من الطبرى . وفى نسخة بولاق وأوربا (فى صلبها) :
* فرغاء يتق الشنار مريدها * وهى رواية ظاهر عليها التحريف وفساد المعنى .

هل ترجعن أرضُنا كما غَنِيَت * وقد تناهَتْ بنا مَصايرها
مَنْ مُبلغٌ ذا الرياستين رِسا * لاتٍ تأتّى للنّصح شاعِرها
بأن خير الوُلاة قد علم النـ * ـاسُ اذا عُدّدتْ مآثرها
خليفةُ الله من بريّته الـ * ـمأمون سائسُها وجابرها
سَمَتْ اليه آمال أمته * منقادةً بَرّها وفاجرها
شَامُوا حيا العدل من مَخايله * وأصحَرت بالتّقى بصائرها
وأحمدوا منك سِيرةً جَلَت الـ * ـشّك وأخرى صحّت معاذرها
واستجمعتْ طاعة برفقك للـ * ـمأمون نَجديّها وغائرها
وأنت سَمْع فى العالمين له * ومقلَةٌ ما يَكلّ ناظرها
فاشكر لذى العرش فضلَ نعمته * أوجَبَ فضلَ المزيد شاكرها
واحذر فداء لك الرعيّةُ والـ * أجنادُ مأمورُها وآمرها
لا تَردَنْ غَمرةً بنفسك لا * يصدر عنها بالرأى صادرَها
عليك ضَحْضاحَها فلا تَلِج الـ * غَمْرَ مُلتَجّةً زواخرها
والقصدَ إن الطريق ذو شُعَبٍ * أشأمُها وَعْثُها وجائرها
أصبحتَ فى أمة أوائلُها * قد فارقت هَدْيَها أواخرها
وأنت سُرْسُورُها وسائسها * فهل على الحقّ أنت قاسرها
أدّبْ رجالا رأيتَ سيرتهم * خالف حكمَ الكتّاب سائرها
وامدُد الى الناس كف مرحمة * تُسَدّ منهم بها مفاقرها
أمكنك العدلُ إذ هممتَ به * ووافقت مدّه مقادرها
وأبصر الناسُ قصدَ وَجْههمُ * وملَكت أمةً أخايرها
تُشْرَع أعناقنا اليك اذا الـ * ـسّادات يوما جَمّت عشائرها
كم عندنا من نصيحةٍ لك فى اللـ * ـه وقُربى عزّت زوافرها

وحرمـــةٍ قرُبت أواصـــرُها * منك وأخرى هل أنتَ ذاكرها
سَـعْىُ رجالٍ فى العـلم مطلبُهم * رائحُـــها باكــر وباكرها
دونك غـــراءَ كالوَذيلة لا * تفقـــد فى بلدة ســـوائرها
لا طَمَعًا قلتُهـا ولا بَطَـرا * لكل نفس نفسٌ تُؤَامرهـا
ســـيّرها الله بالنصـــيحة وال * خَشـــية فاستدمجتْ مرائرها
جاءتك تحـكى لك الأمـور كما * ينشُر بَزَّ التِّـجار ناشـــرها
حمّلتُهـا صاحبا أخا ثِقَـــةٍ * يظـــلّ عُجْبًا بهـا يحاضرها

ومن جيّد شعره قوله :

النـاسُ أخلاقُهم شـتّى وإن جُبِلوا * على تَشَـابُه أرواحٍ وأجسـاد
للخـير والشرّ أهلٌ وُكـّلوا بهمـا * كلٌّ له من دواعى نفســـه هاد
منهـــم خليلُ صَـفاء ذو محافظـةٍ * أرسى الوفاءُ أواخيـــه بأوتاد
ومُشْـــعَر الغـــدر مَحْنىٌّ أضـالُعه * على سريرة غِمْـــر غِلّهـا باد
مُشَاكِسٌ خَدِع جَـــمّ غوائلُه * يُبدى الصفاءَ ويخفى ضَربة الهـادى
يأتيـك بالبغى فى أهل الصـفاء ولا * ينـفَكّ يســـعى بإصـلاحٍ لإفساد

ومن جيّد شعر الخريمى قوله :

أُضاحك ضَـيفى قبـل إنزال رَحْله * ويُخصب عنـدى والمحـل جَديب
وما الخصب للأضياف أن يكثُر القرى * ولكنما وجه الكريم خَصيب

ومن جيّد شعره قوله :

زاد معـروفَك عنـدى عِظَمًا * أنّه عنـدك مَحقـورٌ صـغير
وتناســـيه كأن لم تأته * وهو عنـد الناس مشهور كبير

وهو القائل :

وإن أشَدّ الناس فى الحَشْر حَسْرَةً * لَمُورِثُ مالٍ غيرَه وهو كاسِـبه
كفى سَفَهًا بالكهل أن يتبَعَ الصِّبا * وأن يأتِىَ الأمرَ الذى هو عائبـه .

ويُستجاد له قوله :

ودون النّـدى فى كل قلب ثَنيّـة * لهـا مَصْعَدٌ وعر ومُنْحَدر سَهْل
وَوَدّ الفتى فى كل نيـل يُنيله * اذا ما انقضى لو أن نائلَه جَزْل
وأعلم علمـا ليس بالظنّ أنه * لكل أناس من ضَرائبهم شَـكْل
وأنّ أَخِلاّءَ الزمان غَنـاؤهـــم * قليل اذا الإنسانُ زَلّت به النّعل
تزوّدْ من الدنيـا متاعاً لغـيرها * فقـد شَمّرتْ حَذّاء وانصرم الحبل
وهل أنتَ إلا هامَةُ اليومِ أو غَدِ * لكل أناس من طوارقها الثّكل

وفى هذا الشعر يقول :

أبا لصُّغْد بأسٌ إذ تعيّرنى جُمْـلُ * سَفاهاً ومن أخلاق جارَتِىَ الجهل
فإن تفخرى يا جمـل أو تتجمّلى * فلا فخرَ إلا فوقه الدّين والعقـل
أرى الناس شَرْعا فى الحياة ولا يُرى * القـبر على قـبر عَلاء ولا فَضْـل
وما ضَرّنى أن لم تلِدْنى يُحابِر * ولم تَشْـتمل جَرْمٌ علىّ ولا عُكْل

وهو القائل :

ما أحسنَ الغَـيْرةَ فى حينهـا * وأقبـحَ الغيرة فى كل حين
من لم يزل متّهما عِرْسَـــه * مُناصِـبا فيهـا لرَيْب الظنون
أوشـك أن يُغْريَهـا بالذى * يَخاف أن يُبرزها للعيون
حسـبك من تحصينها وَضْعُها * منك إلى عِرضٍ صحيح ودين
لا تطّلع منـــك على رِيبـــةٍ * فيتبع المقرونُ حبـل القرين

٨ — عبد الله بن طاهر(١)

كان بمحلّ من علوّ المنزلة وعِظَم القَدْر ولُطْف مكان من الخلفاء، يُستغنَى به عن التقريظ له والدّلالة عليه، وأمرُه فى ذلك مشهورٌ عند الخاصّة والعامّة، وله فى الأدب مع ذلك المحلّ الذى لا يُدْفع، وفى السماحة والشجاعة ما لا يقاربُهُ فيه أحدٌ.

وكان أديبا ظريفا جيّد الغناء، نسب اليه صاحب الأغانى أصواتا كثيرة أحسن فيها ونَقَلها أهلُ الصنعة عنه، وله شعر رائع ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله :

نحن قومٌ تُلِينُنا الحَدَقُ النُّجْـ * ـلُ على أنّنا نُلين الحديدا
طَوْعُ أيدى الظِّباء تقتادنا العِيـ * ـن ونقتاد بالطِّعان الأُسودا
نَمْلِك الصِّيد ثم تملكنا البِيـ * ـضُ المصوناتُ أَعْيُنًا وخدودا
نَتَّقى سخطنا الأسود ونخشى * سَخَط الخِشْف حين يُبدى الصدودا
فترانا يوم الكريهة أحرا * را وفى السِّلم للغوانى عبيدا

أعطاه المأمونُ مالَ مصر لسَنَة، خَراجَها وضِياعَها، فوهبه كلّه وفرّقه فى الناس ورجع صِفْرا من ذلك، فغاظَ المأمونَ فعلُه، فدخل اليه يوم مَقْدَمه، فأنشده أبياتا قالها فى هذا المعنى، وهى :

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق كان سيدا نبيلا عالى الهمة شهما، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، حسن الالتفات اليه لذاته ورعاية لحق والده وما أسلفه من الطاعة فى خدمته، وكان واليا على الدينور فلما خرج بابك الخرّمى على خراسان وأوقع الخوارج بأهل قرية الحمراء من أعمال نيسابور وأكثروا فيها الفساد واتصل الخبر بالمأمون بعث الى عبد الله وهو بالدينور يأمره بالخروج الى خراسان، فخرج اليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور فى رجب سنة ٢١٥ هـ. وكان المطر قد انقطع عنها تلك السنة، فلما دخلها مطرت مطرا كثيرا، فقام اليه رجل بزاز من حانوته وأنشده :

قد قحط الناس فى زمانهم * حتى اذا جئت جئت بالدرر
غيثان فى ساعة لنا قدما * فمرحبا بالأمير والمطر

تولى الشام والعراق ومصر. وتوفى سنة ٢٣٠ هـ. وتجد ترجمته فى ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٩) والأغانى (ج ١١ ص ١١).

نَفسى فداؤُكَ والأعناقُ خاضعةٌ * للنائبات أبيًّا غيرَ مُهتَضَم
اليك أقبلتُ من أرضٍ أقمتُ بها * حَوْلَين بعدَك فى شَوْقٍ وفى أَلَم
أَقْفُو مساعيَك اللائى خُصِصتَ بها * حَذْوَ الشِّراك على مِثْل من الأَدَم
فكان فَضْلِىَ فيها أَنّنى تَبَعٌ * لِمَا سَنَنْتَ من الإنعام والنِّعم
ولو وُكِلْتُ الى نفسى عَنِيتُ بها * لكن بدأتَ فلم أعجِزْ ولم أُلَم

فضحك المأمون وقال : والله ما نَفِسْتُ عليك مَكْرُمة نلتَها ، ولا أُحْدُوثةً حَسُنَ عندك ذكرها ، ولكن هذا شىء اذا عَوَّدته نفسَك افتقرت ، ولم تقدر على لَمِّ شَعَثك وإصلاح حالك . وزال ما كان فى نفسه .

لمّا فتح عبدُ الله مصرَ سَوَّغه المأمونُ خَراجها ، فصَعِدَ المِنْبَرَ فلم يزل حتى أجازَ بها كلّها ثلاثة آلاف ألف دينار أو نحوها ، فأتاه مُعَلًّى الطائى وقد أعلموه ما صنع بالناس فى الجوائز وكان عليه واجدا ، فوقف بين يديه تحت المنبر فقال : أصلح الله الأمير ، أنا معلًّى الطائى وقد بلغ منّى ما كان منك من جفاء وغِلَظ ، فلا يَغْلُظَنَّ علىّ قلبُك ، ولا يستخفنّك الذى بلغك ، أنا الذى أقول :

يا أعظمَ الناس عفوًا عند مَقْدِرَةٍ * وأظلمَ الناس عندَ الجود للمال
لو أصبحَ النيلُ يَجْرِى ماؤه ذهبًا * لَمَا أشرتَ الى خَزْنٍ بمِثقال
تُغْلِى بما فيه رِقّ الحمد تملكه * وليس شىءٌ أعاضَ الحمدَ بالغالى
تَفُكّ باليُسْر كَفَّ العُسْر من زَمَنٍ * اذا آستطالَ على قومٍ بإقلال
لم تخلُ كفُّك من جُودٍ لمُختَبِطٍ * ومُرْهَفٍ قاتلٍ فى رأسِ قتّال
وما بَثَثْتَ رَعِيلَ الخيل فى بَلَدٍ * إلا عَصَفْنَ بأرزاقٍ وآجال
إن كنتُ منك على بابٍ مَنَنْتَ به * فإنّ شكرَك من قلبى على بال
ما زلتُ مُقْتَضَبًا لولا مجاهرةٌ * من ألسنٍ خُضْنَ فى صَدْرى بأقوال

فضحك عبد الله وسُرَّ بما كان منه وقال : يا أبا السَّمْراء، أقْرِضْنِي عشرةَ آلافِ دينار فما أمسيتُ أملكها، فأقرضَه فدفعها اليه .

كان موسى بن خاقان مع عبد الله بن طاهر بمصر، وكان نديمَه وجليسَه، وكان له مُؤْثِرا مقدِّما، فأصاب منه معروفا كثيرا وأجازه بجوائز سنيّة هناك وقبل ذلك، ثم إنه وَجَد عليه فى بعض الأمر بجفاه وظهر له منه بعض ما لم يحبّه، فرجع حينئذ الى بغداد وقال :

إنْ كان عبــدُ الله خلّانا * لا مُبْدئا عُرْفا وإحسانا

لحَسْبُنا اللهُ رَضِينـا به * ثم بعبـــد الله مَـــولانا

يعنى به المأمونَ، وغنّت فيه جاريته وسمعه المأمون، فاستحسنه ووصله وإياها، فبلغ ذلك عبدَ الله بن طاهر، فغاظه ذلك وقال : أَجَلْ! صنعنا المعروفَ الى غير أهله فضاع .

ولعبد الله ألحانٌ صاغها، فمنها ومن مختارها وصـدورها ومقدّمها لحنه فى شعر أخت عاصية فإنه صوتٌ نادرٌ جيِّد صحيحُ العمل مُزْدَوج النغم، بينَ لِينٍ وشِدّةٍ على رسم الحُذّاق من القُدَماء، وهو :

هلّا سَــقَيْتُمْ بنى سَهْم أسـيرَكُمُ * نَفْسى فداؤك من ذى غُلَّة صادى

الطاعنُ الطعنةَ النجلاءَ يتبعهـا * مُضَرَّجٌ بعـد ما جادتْ بإزْبَاد

ومن غنائه أيضا :

راحَ صَحْبِى وعاودَ القلبَ داءُ * من حبيب طِلَابُهُ لى عَنَـاءُ

حَسَنُ الرأى والمواعيد لا يُلْـ * ـفى لشىء ممـا يقول وفاءُ

مَنْ تعزَّى عمن يحب فإنى * ليس لى ما حييتُ عنه عَزَاءُ

ما قيل فى هجاء الأمين ورثائه

قيل فى هجائه :

لم نُبَكّيك لماذا للطّــرَبْ * يا أبا موسى وتَرْوِيح اللّعبْ
ولِــتَرْك الخَمْس فى أوقاتها * حَرَصًا منها على ماء العنب
وَشَنِيفٍ أنا لا أبكى له * وعلى كَوْثَر لا أخشى العَطَب
لم تكن تعــرف ما حدّ الرضا * لا ولا تعرف ما حَدّ الغضب
لم تكن تَصــلُح للملك ولم * تُعْطِك الطاعةَ بالملك العــرب
أيها الباكى عليــه لا بَكَتْ * عين من أبكاك إلّا للعَجَب
لم نبكّيك لما عَرّضتنــا * للمَجانيق وطَــوْرا للسَّــلَب
ولقـومٍ صــيّرونا أعْبُــدًا * لهم يبــدو على الرأس الذّنَب
فى عذابٍ وحِصارٍ مُجْهِــدٍ * سَــدّد الطُّرقَ فلا وَجْهَ طالب
زعمــوا أنك حىٌّ حاشــر * كلّ من قَدْ قال هذا قد كَذَب
ليت من قــد قاله فى وَحْدَة * من جميع ذاهبٍ حيث ذهب
أوجب اللهُ علينــا قتــلَه * فاذا ما أوجب الأمرَ وجَب
كان واللهِ علينــا فِتنــةً * غَضِبَ الله عليـــه وكَتَب

وقال عبد الرحمن بن أبى الهُداهد يرثيه :

ياغَرْبُ جُودى قد بُتّ من وذَمه * فقــد فقدنا الغَــزير من دِيَمِه
ألوت بدنيــاك كفُّ نائبــة * وصِرتَ مُغْضًى لنــا على نِقَمه
أصــبح للمــوت عنــدنا عَــلَم * يضحك سِنّ المنون من عَلَمه
ما آســتنزلَتْ دَرّةُ المنون على * أكرم من حَلّ فى ثرى رَحِمــه
خليفــةُ الله فى بريّتـــه * تقصُر أيدى الملوك عن شِيَمه

يفترّ عن وجهه سنا قمر * ينشقّ عن نوره دُجى ظُلَمه
زُلزلت الأرضُ من جوانبها * اذ أُولغَ السيفُ مِن نجيع دَمه
مَنْ سكتت نفسُه لِمَصْرعهِ * من عُمُمِ الناس أو ذَوى رَحِمه
رأيتُه مثلَ ما رآه به * حتى تذوّق الأمرَّ من سَقَمه
كم قد رأينا عزيزَ مملكةٍ * يُنقَل عن أهله وعن خَدَمه
يا مَلِكا ليس بعده مَلِك * لخاتم الأنبياء فى أُمَمه
جادَ وحَىَّ الذى أقمتَ به * سَحٌّ غزير الوكيف من دِيَمه
او أحجم الموتُ عن أخى ثقةٍ * أُسْوىَ فى العزّ مُسْتَوى قَدَمه
أو مالكٍ لا ترام سطوتُه * إلا مَرامَ الشَّتيم فى أجَمه
خَلّدك العزّ ما سَرَى سَدَف * أو قام طِفل العشىّ فى قَدَمه
أصبح مُلكٌ اذا آتزرتَ به * يَقْرع سنَّ الشَّقاةِ من نَدَمه
أثَّر ذُو العرش فى عِداك كما * أثّر فى عاده وفى إرَمه
لا يُبعد الله صَيّورةً تَليت * لخيرِ داعٍ دعاه فى حَرَمه
ما كنتُ إلا كحُلم ذى حُلُم * أُولِجَ بابَ السرور فى حُلُمه
حتى اذا أطلقتْه رَقْدتُه * عاد الى ما آعتراه من عَدَمه

وقال أيضا يرثيه :

أقول وقد دنوت من الفِرار * سُقيتَ الغيثَ ياقصرَ القَرارِ
رمتك يدُ الزمان بسهم عَيْن * فصرتَ مُلَوَّحا بدُخان نار
أبِن لى عن جميعك أين حَلّوا * وأين مزارهم بعد المَزار
وأين محمدٌ وآبناه مالى * أرى أطلالهم سُود الدِّيار
كأن لم يُؤْنَسوا بأنيس مُلْك * يطول على الملوك بخير جار
إمامٌ كان فى الحَدَثان عونا * لنا والغيثُ يمنحُ بالقِطار

لقـد ترك الزمانُ بَنِى أبيه * وقـد غمرتهم سُـود البحار
أضاعوا شمسهم لجرت بنحس * فصاروا فى الظلام بلا نهـار
وأجلَوْا عنهـم قمـرا منـيرا * ودَاسَـتْهُمْ خيولُ بنى الشّرار
ولوكانوا لهـم كفؤًا ومثـلا * اذا ما تُوجوا تيجانَ عَار
ألا بَانَ الأمامُ وَوَارِثاه * لقد ضَرِم الحشى منّا بنـار
وقالوا الخُـلْد بيـع فقلتُ ذُلًّا * يصـيربِبائعيـه الى صَغَار
كذاك الملك يُتْبِـع أَوَّلِيـه * إذا قُطِع القَرار من القَرار

وقال مُقَدِّس بن صَيْفىّ يرثيه :

خليلى ما أتتك به الخطوبُ * فقد أعطاك طاعتَـه النَّحيب
تدلّت من شماريخ المنـايا * مَنَايا ما تقوم لهـا القـلوبُ
خِلالَ مقـابِر البستان قـبر * يُجَاور قـبرَه أسَـدٌ غريب
لقد عَظُمت مُصيبته على من * له فى كل مَكْرُمة نصيب
على أمثـاله العَـبَراتُ تُذْرى * وتُهْتَـك فى مآتِمِـه الجُيوب
وما آدّخَرتْ زُبيدة عنه دمعا * تُخَصّ به النسـيبةُ والنّسيب
دعَوا موسى آبنـه لبُكاء دَهر * على موسى آبنه دخَل الحَزِيب
رأيتُ مَشَاهدَ الخلفـاء منـه * خَـلاءً ما بساحتهـا مُجيب
لَيَهْنِـك أننى كهلٌ عليـه * أذوبُ وفى الحشى كَبِد تذوب
أُصِيبَ به البعيـد فخَـرّ حزنا * وعاين يومَه فيـه المُرِيب
أُنادى من بطون الأرض شخصًا * يحـرّكه النِّـداء فمـا يُجيب
لئن نَعَت الحروبُ اليـه نفسًا * لقـد نُعِيت بمصرعه الحروب

وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخير أمامٍ قام من خير عُنْصُر * وأفضل سامٍ فوق أعواد منبر
لوارث علم الأولين وفهمهم * وللملك المأمون من أم جعفر
كتبتُ وعيني مُسْتهِلٌّ دموعُها * اليك ابن عمى من جفونى ومحجرى
وقد مسّنى ضُرٌّ وذلٌّ كآبةٍ * وأرّق عينى يا ابن عمى تفكّرى
وهمتُ لما لاقيتُ بعد مصابه * فأمرى عظيم مُنْكرٌ جدّ مُنْكَر
سأشكو الذى لاقيتُه بعد فقده * اليك شكاة المستهام المُقَهَّر
وأرجو لما قد مَرّ بى مذ فقدتُه * فأنت لبَثّى خير رَبّ مُغَيِّر
أتى طاهر لاطهّر اللهُ طاهرا * فما طاهر فيما أتى بمُطَهَّر
فأخرجنى مكشوفة الوجه حاسرا * وأنْهَبَ أموالى وأحْرَق آدُرى
يَعِزّ على هارون ما قد لقيتُه * وما مَرّ بى من ناقص الخَلْق أعور
فان كان ما أسدى بأمر أمرتَه * صبَرتُ لأمرٍ من قدير مُقَدِّر
تذكّر أميرَ المؤمنين قرابتى * فديتُك من ذى حرمة مُتَذَكّر

وقال أيضا يرثيه :

سبحان ربّك ربّ العزّة الصَّمَد * ماذا أُصِبْنا به فى صُبْحة الأَحَد
وما أُصيب به الإسلامُ قاطبةً * من التَّضَعضُع فى رُكْنَيه والأَوَد
مَنْ لم يُصَب بأمير المؤمنين ولم * يُصبح بمَهْلَكة والهمُّ فى صُعُد
فقد أصبتُ به حتى تبيّن فى * عقلى ودينى ودنياى وفى جسدى
يا ليلةً يشتكى الإسلامُ مُدّتَها * والعالَمون جميعا آخرَ الأَبَد
غَدرت بالَملِك الميمون طائرُه * وبالإمام وبالضّرغامة الأَسَد
سارتْ اليه المنايا وهى تُرهِبُه * فواجَهتْه بأوغادٍ ذوى عَدَد
بشُورَجِينَ وأغْتامٍ يقودهم * قُرَيْش بالبيض فى قُمْص من الزَّرَد

فصادفوه وحيدًا لا مُعين له * عليهم غائبَ الأنصار بالمَـدَد
يجزعوه المنايا غير مُمْتَنِع * فَرْدا فيالك من مُسْتَسلِم فَرَد
يَلقى الوجوهَ بوجه غير مُبْتَذَل * أبهى وأنقى من القُوهِيّة الجُدُد
واحَسْرَتا وقريشٌ قد أحاط به * والسيفُ مُرْتَعِد فى كَفّ مُرْتَعِد
فما تحرّك بل ما زال منتصبا * منكّسَ الرأس لم يُبدئْ ولم يُعِد
حتى اذا السيفُ وافى وسْطَ مَفْرِقه * أذْرَتْه عنه يداه فعلَ مُتّئِد
وقام فاعتلقتْ كفّاه لَبّته * كضيغَم شَرِس مستبسِل لَبِد
فاجترّه ثم أهوى فاستقلّ به * للأرض من كَفّ ليث مُحْرَج حَرِد
فكاد يقتله لو لم يُكاثره * وقام منفَلِتا منه ولم يَكد
هذا حديثُ أمير المؤمنين وما * نَقَصتُ من أمره حرفا ولم أَزِد
لا زلت أندُبه حتى المماتِ وإنْ * أخنى عليه الذى أخْنَى على لُبَد

وذكر عمر بن شَبّة أن محمد بن أحمد الهاشمى حدّثه أن لُبَابة ٱبنة علىّ بن المهدى قالت البيتين الآتيين وقيل أنهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مُمْلَكة بمحمد :

أبكيك لا للنّعيم والأُنْس * بل للمعالى والرّمح والتُّرْس
أبكى على هالكٍ فُجِعتُ به * أَرْمَلَنى قبل ليلة العُرس

هجاء يحيى[1] بن أكثم

وعدناك فى المجلد الأول أن نذكر مثلا من الهجاء قاله بعض الشعراء فى يحيى بن أكثم، وها هو ذا :

أرّقه بَرْحُ الهوى وسَدِمُهْ * ومَلّه الحبُّ فبات يألَمُهْ
طورا يُعانيه وطورا يَشْتُمُه * مثل الحريق فى الحشا يُضَرِّمُه
ففاضتِ العينُ بدمع تَسجُمُه * نمّت عليه كلّ شوقٍ يكتُمُه
وباح بالحب الذى يُجَمجِمُه * وبات والقلبُ يُسامِى هِمَمَه
من لمحبٍ قد تراه يرحمُه * أصبح بالبأساء عارٍ أنعُمُه
طال تَصابيه وطال سَقَمه * وبَلِى الجسم ورقّت أعظُمُه
يَشهدنى الله على من يَظلِمُه * يمنعه طعمَ الكرى ويحرِمُه
واهًا له يصرِم من لا يصرِمُه * أصبح هذا الدين رثًّا رِمَمُه
عطّله الجور وطال قِدَمُه * سَحّت من الجَوْر عليه دِيَمُه
فَبادَ مغنى رَبْعه وأرسُمُه * إلا بقايا قومه وحُمَمُه
أوطَنَه الجور فأضحى مَعْلَمُه * يَرود فيه شاؤه ونَعَمُه
من يَشْهَد الجور فنحن نَعْلَمُه * أنوك قاضٍ فى البلاد نعلمُه
يقول حقا لا تُعَيّث ترجمُه * مذ وَلِىَ الحكمَ أُبيح حَرَمُه
وانتُهكتْ من القضاء حُرَمُه * واضطربت أركانُه ودِعَمُه
والله يَبْنِيه ونحن نهدِمُه * يا ليت يحيى لم يَلِده أكثمُه
ولم تطأْ أرضَ العراق قَدَمُه * ملعونةٌ أخلاقه وشيَمُه[2]

---

(١) أنظر ما كتبناه عن يحيى بن أكثم فى المجلد الأوّل (ص ٤٤٠) .

(٢) حذفنا بعد هذا البيت أربعة أبيات رأينا أنها تنافى الآداب العامة .

والله والله لقد حلّ دمُه * لو أن للدّين عمادا يدعَمُه
يعدل عنه الميل أو يقوِّمُه * لكان قد رنّ عليه مأتمُه
أرجو ويقضي اللهُ لا يُسَلِّمه * من وجهه هذا ولكن يقصِمُه
* بالسيف اذ حلت عليه نقمه *

وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سَلْب ونهب وتحريق وتخريب وفتنة شعواء وقتل ودماء، فانا نترك الكلمة فى ذلك لشعراء ذلك العصر .

قال الأعمى يصف دمار الحرب :

تقطّعتِ الأرحامُ بين العشائر * وأسْلَمهم أهلُ التقى والبصائر
فذاك آنتقامُ الله من خَلْقه بهم * لما آجترَموه من ركوبِ الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبةً * ولا نحن أصلحنا فسادَ السرائر
ولم نستمع من واعظٍ ومذكّر * فينجعَ فينا وعْظُ ناهٍ وآمر
فابكِ على الإسلام لما تقطّعت * عراه ورجّى ضرَّه كلّ كافر
فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم * فمن بين مقهورٍ عزيزٍ وقاهر
وصار رئيسُ القوم يحمل نفسه * وصار رئيسا فيهم كلُّ شاطر
فلا فاجر للبرّ يحفظ حرمة * ولا يستطيع البرّ دَفْعًا لفاجر
تراهم كأمثال الذئابِ رأتْ دمًا * فأمّته لا تَلْوِى على زَجْرِ زاجر
وأصبح فُسّاقُ القبائل بينهم * تسلّ على أقرانها بالخناجر
فابك لِقتلَى من صديقٍ ومن أخ * كريم ومن جار شفيقٍ مُجَاور
ووالدةٍ تبكى بحزنٍ على آبنها * فيبكى لها من رحمةٍ كلُّ طائر
وذاتِ حليلٍ أصبحت وهى أيِّمٌ * وتبكى عليه بالدموع البوادر
تقول له قد كنتَ عِزًّا وناصرا * فَغُيِّب عنى اليوم عزّى وناصرى
وآبك لإحراقٍ وهدمِ منازل * وقتلٍ وإنهابِ اللهى والذخائر

وإبراز ربّات الخـدور حواسرا * خرجن بلا خُمْــرٍ ولا بمآزر
تَراها حَيارى ليس تعرف مَذْهَبًا * نوافرَ أمثالَ الظبـاء النوافـــر
كأن لم تكن بغدادُ أحسنَ مَنْظَرا * ومَلْهًى رأته عينُ لاهٍ وناظـر
بلى هكذا كانت فأذْهَب حسنَهـا * وبدّد منها الشَمْلَ حكمُ المَقـادر
وحلّ بهم ماحلّ بالنـاس قبلهـم * فأضحَوْا أحاديثا لبَـادٍ وحاضـــر
أبغـــدادُ يا دارَ المـلوك ومُجْتَنَى * صروف المنـايا مسـتقرّ المنـابر
ويا جَنّـةَ الدنيـا ومطَّلَبَ الغنى * ومستنبطَ الأموال عنـــد الضرائر
أبيني لنـا ايـن الذين عَهِدتُهم * يحلّون فى روضٍ من العيش زاهر
وأين ملوك فى المواكب تَغْتَـدى * تُشَـبَّه حسـنا بالنجوم الزواهر
وأين القضـاة الحاكمون برأيهـم * لوُرْد أمور مشـكلاتِ الأوامر
أو القـائلون النـاطقون بحكمـة * ورَصْفِ كلامٍ من خطيبٍ وشاعر
وأيـن مراح[(١)] للـملوك عهدتُهـا * مزخرفةً فيهـا صنوفُ الجواهر
تُرَشّ بمـاء المسك والورد أرضُها * يَفُوحُ بهـا من بعد رِيحِ المَجامر
ورَوْح النَّدامى فيـــه كلّ عَشِيّة * الى كل فَيّـاض كريم العنـاصر
وأين قِيانٌ تستجيب لنغمـــها * اذا هـــو لبّـاها حَنينُ المزامر
وأين الملوك الغُــرُّ من آل هاشم * وأشياعهم فيها اكتفوا بالمعـاذر
يروحون فى سلطانهم وكأنهم * يروحون فى سلطان بعض العشائر
يجـادل عمـا نالهم كبراؤهم * فنـالتهمو بالكُرْه أيدى الأصاغر
فأقسم لو أن الملوك تناصروا * لَزَلّتْ لهـا خوفًا رقابُ الجبـابر

(١) كذا فى الأصل ولعلها صروح .

وقال عمرو بن عبد الملك الورّاق يبكى بغداد ويهجو طاهرا و يعرّض به :

من ذا أصابك يا بغدادُ بالعيْنِ * ألم تكونى زمانا قُرّة العيْن
ألم يكن فيك أقوامٌ لهم شرف * بالصّالحات و بالمعروف يَلْقَوْنى
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنُهم * وكان قربُهُم زينا من الزّيْن
صاح الزمانُ بهم بالبيْن فانقرضوا * ما ذا الذى فجّعتْنى لوعة البيْن
أستودِعُ اللهَ قوماً ما ذكرتُهمو * ألّا تحدّر ماءُ العين من عينى
كانوا ففرّقهم دَهرٌ وصدّعهم * والدّهر يَصْدَع ما بين الفريقيْن
كم كان لى مُسْعِد منهم على زَمَنى * كم كان منهم على المعروف من عَوْن
لله دَرُّ زمان كان يجمعنا * أيْن الزمانُ الذى ولّى ومن أيْن
يا من يُخَرّب بغدادًا ليعمُرها * أهلكتَ نفسك ما بين الطريقيْن
كانت قلوبُ جميع الناس واحدةً * عينا وليس يكون العيْن كالدّيْن
لما استبيتهُم فرّقتهم فرقًا * والناس طُرًّا جميعا بين قلبيْن

ولبعض فتيان بغداد :

بكيتُ دَمًا على بغداد لما * فقدتُ غَضارةَ العيش الأنيق
تَبَدّلْنا همومًا من سرور * ومن سَعَةٍ تبدلْنا بضِيق
أصابتها من الحُسّاد عينٌ * فأفنت أهلَها بالمَنْجَنيق
فقومٌ أُحْرِقوا بالنار قَسْرًا * ونائحةٌ تنوح على غَريق
وصائحةٌ تُنادى وَاصَباحا * و باكيةٌ لفقْدان الشّفيق
وحوراءُ المدامع ذاتُ دَلّ * مضمّخَة المَجاسد بالخَلُوق
تَفِرّ من الحريق الى انتهاب * ووالدُها يفرّ الى الحريق

وسَالِبــةُ الغـــزالة مُقْلتيْها * مَضـاحِكَها كَلَألأة البُروق
حَيَارَى كالهدايا مُبْكِرات * عليهن القـلائدُ فى الحُلوق
يُنـادِين الشفيقَ ولا شـفيقٌ * وقد فُقِد الشفيقُ من الشفيق
وقومٌ أُخرِجوا من ظِلّ دُنيَـا * متاعُهـمُ يُبـاع بكل سُـوق
ومُغْـتَرِبٌ قـريبُ الدار مُلْقىً * بلا رأسٍ بقـارعةِ الطـريق
توسّط من قِتالهمُ جميعـا * فما يدرون من أى الفَريق
فـلا ولد يُقيـم على أبيـه * وقد هَرَب الصّديق من صديق
ومهما أَنْسَ من شىء تولّى * فإنى ذاكـر دار الرّقيـق

بيان المصادر العربية والافرنجية الهامّة

التى عوّلنا عليها فى المراجعة لكتاب عصر المأمون

نثبت لك هنا الهامّ من مراجع الكتاب عدا دواوين الشعراء ومعجمات اللغة التى أشرنا اليها فى مواضعها من الكتاب وهوامشه . وهى :

المصادر باللغة العربية :

تاريخ الطبرى ، طبعة مصر وليدن .

تاريخ الكامل لابن الأثير ، طبعة مصر .

تاريخ مروج الذهب للمسعودى ، طبعة مصر وباريس .

تاريخ اليعقوبى ، طبعة ليدن باشراف المسيو هتسما .

تاريخ أبى الفدا للملك المؤيد ، طبعة الأستانة .

تاريخ علماء الأندلس لأبى الوليد عبدالله محمد بن يوسف ، طبعة أوربا .

تجارب الأمم لابن مسكويه ، طبعة مصر .

تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون ، طبعة مصر .

الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ، طبعة ليدن .

نظم الجوهر لابن البطريق ، طبعة أكسفورد سنة ١٦٥٩ للمستشرق ادوار بوكوك .

تاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوط .

تاريخ المشارقة لصليبا بن يوحنا ، مخطوط .

تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، مخطوط .

تاريخ بغداد لابن طيفور (الجزء السادس طبعة أوربا) .

تاريخ التشريع الاسلامى للمرحوم الخضرى بك ، طبعة مصر .

تاريخ الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا ، طبعة أوربا .

تاريخ النجوم الزاهرة لابن تغريبردى ، طبعة أوربا .

البدء والتاريخ لأبى زيد البلخى ، طبعة باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو» .

الآثار الباقية للبيرونى ، طبعة ليبسك .

مختصر تاريخ الدول لأبي الفرج الملطي ، طبعة بيروت .
تاريخ الاسحاق ، طبعة أوربا .
فتوح الشام للواقدي ، طبعة مصر .
نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، طبعة مصر .
ولاة مصر وقضاتها للكندي ، طبعة بيروت .
مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي ، طبعة مصر .
كشف الظنون لحاجي خليفة ، طبعة الأستانة وليبسك ومصر .
المستطرف للابشيهي ، طبعة بولاق .
معجم البلدان لياقوت الحموي ، طبعة ليبسك ومصر .
المزهر للسيوطي ، طبعة بولاق .
الأحكام السلطانية للماوردي ، طبعة أوربا .
أعلام الناس للاتليدي ، طبعة مصر .
كتاب المعارف لابن قتيبة ، طبعة أوربا .
معجم الأدباء لياقوت الرومي ، طبعة مصر واشراف مرجليوث .
الفهرست لابن النديم ، طبعة ليبسك .
طبقات الأمم لابن صاعد ، طبعة بيروت .
طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، طبعة مصر .
تراجم الحكماء للقفطي ، طبعة مصر .
طبقات الأدباء لعبد الرحمن الأنباري ، طبعة مصر .
وفيات الأعيان لابن خلكان ، طبعة مصر .
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، طبعة مصر .
الملل والنحل للشهرستاني ، طبعة مصر .
ألف باء ليوسف البلوي ، طبعة مصر .
مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ، طبعة دار الكتب .
فتوح البلدان للبلاذري ، طبعة ليدن .
كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني ، طبعة ليدن .
كتاب البلدان لليعقوبي ، طبعة ليدن .
مسالك الممالك للاصطخري ، طبعة ليدن .
المسالك والممالك لابن حوقل ، طبعة ليدن .
أحسن التقاسيم للمقدسي ، طبعة ليدن .
المسالك والممالك لابن خرداذبه ، طبعة ليدن .
الأعلاق النفيسة لابن رستة ، طبعة ليدن .
حسن المحاضرة للسيوطي ، طبعة مصر .
بلوغ الأرب في أحوال العرب للألوسي طبعة بغداد .
مقدمة الياذة هوميروس تعريب البستاني طبعة مصر .

حضارة الاسلام فى دار السلام لجميل مدوّر، طبعة مصر .
كتاب الأغانى للاصبهانى، طبعة بولاق والساسى .
الجـزء الأول من كتاب الأغانى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
نهاية الأرب، طبع مطبعة دار الكتب المصرية والنسخة الفتوغرافيـة بالدار .
صبح الأعشى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب التـاج المنسوب للجاحظ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب الأمالى لأبى على القـالى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب الكامل للمبرد، طبعة مصر .
كتاب البيان والتبيين للجاحظ، طبعـة مصر .
العمدة لابن رشيق، طبعة مصر .
كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى، طبعة فردرك شوالى .
كتاب المحاسن والاضداد للجاحظ، طبعة ليـــدن .
كتاب البخلاء للجاحظ، طبعة مصر .
كتاب الحيوان للجاحظ، (نسخة فتوغرافية محفوظة بدار الكتب المصرية) .
كتاب الكشكول للعاملى، طبعة مصر .
سراج الملوك للطرطوشى، طبعة مصر .
كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، طبعة ليـــدن .
كتاب الخراج لأبى يوسف، طبعـة بولاق .
تاريخ الوزراء المنسوب للصولى، طبعة بيروت .
أشهر مشاهير الاسـلام، للمرحوم رفيق العظم بك، طبعة مصر .
كتاب نفح الطيب، طبعة مصر وأوربا .
مفاتيح العلوم للخوارزمى، طبعة مصر .
مفيد العلوم للخوارزمى، طبعة مصر .
كتاب المواهب الفتحيـة للمرحوم الشيخ حمزة فتح الله، طبعة مصر .
كتاب السيرة لابن هشام، طبعة مصر .
مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر .
خطط الشام للاسـتاذ محمد كرد على، طبعة دمشق .
مجموعة مجلة المشرق، طبعة بيروت .
مجموعة مجلة المجمع العلمى، طبعة دمشق .
مجموعة مجلة الهلال، طبعة مصر .
مجموعة مجلة المقتطف، طبعة مصر .
بعض فصول ومباحث من المجلة الأسيوية .
حديث الأربعاء للدكتور طه حسين، طبعة مصر .

منهل الرواد فى علم الانتقاد لقسطاكى الحمصى بك، طبعة مصر .
محاضرات الأستاذ الاسكندرى المدرس بدار العلوم، طبعة مصر .
الوسيط للاستاذ الاسكندرى المدرس بدار العلوم، طبعة مصر .
أدبيات اللغة العربية للاستاذ مصطفى صادق الرافعى، طبعة مصر .
أدبيات اللغة العربية لمرحوم عاطف بركات بك وزملائه، طبعة مصر .
مهذب الأغانى لمرحوم الخضرى بك، طبعة مصر .
بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف، طبعة مصر .
الشعر والشعراء لابن قتيبة، طبعة ليدن .
طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى، طبعة ليدن ومصر
كتاب الأذكياء لابن الجوزى، طبعة مصر .
العقد الفريد للملك السعيد، طبعة مصر .
العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة مصر .
لطائف المعارف للثعالبى، طبعة ليدن .
عيون الأخبار لابن قتيبة، طبعة دار الكتب وأوربا .
حلبة الكميت، طبعة بولاق .
خزانة الأدب لابن حجة الحموى، طبعة بولاق .
خزانة الأدب للبغدادى، طبعة بولاق .
محاضرات الفلسفة لسنتللانه بالجامعة المصرية .
محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية للسنيور كرلو نلينو، طبعة روما .
مفتاح السعادة ومصباح السيادة، لطاشكبرى زاده، طبعة حيدر آباد .
محاضرات الشيخ عبد الوهاب النجار بالجامعة المصرية .
محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدى بالجامعة المصرية .
محاضرات الأستاذ الخضرى بك فى تاريخ الأمم الاسلامية، طبعة مصر .
محاضرات الأستاذ الخضرى بك فى تاريخ الدولة الأموية، طبعة مصر .
التمدن الاسلامى لمرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر .
تاريخ آداب اللغة العربية لمرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر .
طبقات ابن سعد، طبعة أوربا .
طبقات الشافعية للسبكى، طبعة مصر .
المنثور والمنظوم لابن طيفور .
رسالة بنى أمية للجاحظ، خطية .

كتاب الوزراء والكتاب لأبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى طبعة فينا سنة ١٩٢٦
كتاب الاشتقاق لابن دريد الأزدى طبعه جوتنجن سنة ١٨٥٤
الأوراق للصولى، خطية .
مطبوعات تذكار جيب الانجليزية وخاصة مؤلفات الأستاذين مرجليوث وبرون .
زهر الآداب للحصرى، طبعة مصر .
المشتبه فى أسماء الرجال للذهبى، طبعة أوربا .
الوافى بالوفيات للصفدى (المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١٩) .
أخبار أبى نواس لابن منظور، طبعة مصر .
رسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد على، طبع مصر .
جمهرة أشعار العرب لأبى زيد، طبعة مصر .
المفضليات للضبى، طبعة مصر .
حماسة البحترى، طبعة بيروت .
الصناعتين لأبى هلال العسكرى، طبعة مصر .
الموشى لابى الطيب، طبعة أوربا .
ديوان الحماسة لأبى تمام، طبعة مصر .
مجانى الأدب وشرحه، طبعة بيروت .
مختارات البارودى، طبعة مصر .
حياة الحيوان للدميرى، طبعة مصر .
عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى (أجزاء منه محفوظة بدار الكتب المصرية) .
الفرج بعد الشدة للتنوخى، طبعة مصر .

المصادر الافرنجية :

Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris.

Life of Mohamet by Sir W. Muir. (London).

The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by Ameer Ali. (London).

D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London) in "Heroes of the Nations' Series".

H. Lammens: "Etudes sur les régnes des Califs Omaiyades Moawia 1er et Yasid 1er". (Beyrouth).

Library of Universal History (N. Y.).

History of Arabic Literature: Cl. Huart. (London).

A Literary History of Persia: Ed. G. Browne. (London).

A Literary History of the Arabs by R. A. Nicholson. (London).

Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London).

The Caliphate: its rise decline and fall by Sir W. Muir. (London).

Annals of the Early Caliphate by Sir W. Muir. (London).

Baghdad during the Abbasid Caliphate by G. le Strange. (Oxford).

Encyclopaedia of Islam. (Luzac).

Encyclopaedia Britannica. (London).

La Grande Encyclopédie. Paris.

The Historians' History of the World by H. S. Williams. (New York).

Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings. (London).

The History of the Decline and Fall of the Roman Empire by Gibbon. (London).

The History of Philosoply in Islam by J. de Bœr translated by Jones. (London).

Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle).

Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Andalusie par les Almoravides by R. Dozy. (London).

Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory by D. B. Macdonald. (London).

Margoliouth's Works Etc.

R. Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes. 1927.

Bibliothek Arabischer Historiker und Geographen: Hans V. Mzik, (Leipzig).

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٨/٢٠٠٠)

